مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الخامِسُ

سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَماء مَجمَعِ القُرآنِ الكَريمِ بِالشّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2023

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس، سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م

الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 5 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-57-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 5 : سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة). قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-57-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1170694 بتاريخ 2023/03/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ الثَّالِثُ

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩﴾ [آل عمران: 39]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

جاءتِ الآيةُ الكريمةُ مَعطوفةً بالفاءِ على ما قَبْلَها دَلالةً على سُرعةِ الإجابةِ، فقد نادَتْهُ الملائكةُ فوْرَ دُعائِهِ أنّ اللّه تعالى قدِ استجابَ له وبشَّرتْهُ الملائكةُ بيحيى، وذاك أنَّ زَكَرِيَّا دعا ربَّه في المكانِ والزّمانِ نفسَيْهما بعْدَ حِوارِ مريمَ، وهو مُستعجِبٌ مُستغرِبٌ ممّا آتاها اللّه منَ الكراماتِ والحَفاواتِ؛ فاستجابَ اللّه له من لحْظتِه ومكانِه فقال: ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾، أي في المسجد، أو في موقف الإمام منه، أو في غرفة مريم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَنَادَتْهُ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (نَدِيَ): والنَّدَى على وُجُوهٍ: نَدَى الماء، ونَدَى الخير، ونَدَى الشَّرِّ، ونَدَى الصَّوْت[2]. و(النّداءُ): رفعُ الصّوتِ، وهو المعنى السِّياقي هنا، وفلانٌ أنْدى صوتًا، أي أرفعُ، ودارُ النّدوةِ؛ لأنّهم كانوا ترتفعُ أصواتُهم بها، والمُنتدَى والنَّادي مُجتمَعُ القومِ منه[3]. ونَدَى الصَّوْت: بُعْدُ هِمَّته ومذهبِه وصِحَّةُ جرْمه، قال:

بعيدُ نَدَى التَّغريدِ أَرفَعُ صَوْته *** سَحيلٌ وأدناه شَحيجٌ مُحَشرَجُ

ونادَاهُ أي دَعاه بأرفَعِ الصَّوت، و(النَّدَا) أَيْضًا بُعْدُ ذَهَابِ الصَّوْتِ، يُقَالُ: فُلَانٌ (أَنْدَى) صَوْتًا مِنْ فُلَانٍ إِذَا كَانَ بَعِيدَ الصَّوْتِ[4]. (نَادَاهُ مُنَادَاةً) و(نِدَاءً) صَاحَ بِهِ. و(نَادَاهُ) أَيْضًا جَالَسَهُ فِي النَّادِي. و(تَنَادَوْا) نَادَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَتَنَادَوْا أَيْ تَجَالَسُوا فِي النَّادِي.. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ١٧﴾ [العلق: 17] أَيْ عَشِيرَتَهُ، وَإِنَّمَا هُمْ أَهْلُ النَّادِي، وَالنَّادِي مَكَانُهُ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/140.
(2) الخليل، العَينْ، والرّاغبُ، المفردات، والرازي، مختار الصّحاح: (ندي).
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/105.
(4) الخليل، العَينْ، والرازي، مختار الصّحاح: (ندي).

وَمَجْلِسُهُ فَسَمَّاهُ بِهِ. و(نَدَا) مِنَ الجُودِ، يُقَالُ: سَنَّ لِلنَّاسِ (النَّدَى فَنَدَوْا) وَبَابُهُ عَدَا. وَفُلَانٌ (نَدِيٌّ) الكَفِّ أَيْ سَخِيٌّ. وهو (يَتَنَدَّى) عَلَى أَصْحَابِهِ أَيْ يَتَسَخَّى، وَلَا تَقُلْ: يُنَدِّي عَلَى أَصْحَابِهِ، و(نَدَى) الأَرْضِ (نَدَاوَتُهَا) وَبَلَلُهَا، وَأَرْضٌ (نَدِيَةٌ) عَلَى فَعِلَةٍ بِكَسْرِ العَيْنِ وَلَا تَقُلْ: نَدِيَّةٌ. وَقِيلَ: (النَّدَى) نَدَى النَّهَارِ وَالسَّدَى نَدَى اللَّيْلِ[1].

2) ﴿وَحَصُورًا﴾: جذرُ الكلمةِ هو (حَصَرَ)، أي عَيَّ فلم يَقْدِر على الكلام[2]. وحصرَ صدرُ المرءِ: أي ضاق عن أمرٍ حَصَرًا. والحُصْرُ: اعتِقالُ البَطْن حُصِرَ، وبه حُصْرٌ، وهو مَحْصُور. والحِصار: مَوضعٌ يُحْصَر فيه المَرءُ، حَصَروه حَصْرًا، وحاصَرُوه، والإحصارُ: أن يَحصُرَ الحاجَّ عن بُلوغ المَناسِك؛ مَرَضٌ أو عَدُوٌّ[3]، والحَصُور كالهَيُوب المُحجِم عنِ الشّيءِ[4]. والحَصُورُ: مَن لا إربةَ له في النِّساءِ[5]، وهو قادرٌ على ذلك، وهذا هو المعنى السِّياقيّ للآية في قوله: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾، والممنوعُ منهنَّ أو مَن لا يشتهيهُنّ ولا يَقربُهُنّ. ثم استُعملَ لكلِّ مَن لا يُشاركُ في لعبٍ ولَهوٍ ومجانةٍ، قال الأخطلُ:

وشَارِبٍ مُرْبِحٍ بالكأْسِ نادَمَني *** لا بالحَصُورِ وَلا فِيها بِسَوَّارِ[6]

والحَصْرُ: المنعُ، والمرادُ: منوعًا نفسَه منَ ارتكاب ما يُعاب عليه[7].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

فنادتِ الملائكةُ زكريَّا عليه السلام وهو واقف بين يدي اللّه في مكان صلاته يَدْعوه: بأنَّ اللّه يخبرك بخبر يسرُّك، وهو أنك ستُرزَق بولد اسمه يحيى، واشتُقَّ اسمُه مِنَ اسم اللّه تعالى، واللّه تعالى حيٌّ، فسمَّاه اللّه تعالى يحيى، وبأنَّ اللّه يُحييه، فيكون حيًّا عند اللّه أبدًا؛ لأنّه شهيد، وحالُ يحيى أنَّه يُصَدِّق بكلمة من اللّه - وهو عيسى بن مريم عليهما السلام؛ لأنه خُلِق خلقًا خاصًّا بكلمة من اللّه -، ويكون يحيى سيِّدًا في قومه، له المكانة والمنزلة

(1) الرّاغبُ، المفردات، والرازي، مختار الصّحاح: (ندي).
(2) الخليل، العَينْ، والأزهري، تهذيب اللغة: (حصر).
(3) الخليل، العَينْ، والزمخشري، أساس البلاغة: (حصر).
(4) الخليل، العَينْ: (حصر).
(5) الخليل، العَينْ، والُمطرّزيّ، المغرب في ترتيب المعرب: (حصر).
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/502.
(7) الحجازي، التّفسير الواضح: 1/228.

العالية، وحصورًا لا يأتي الذنوب والشهوات الضارة، ويكون نبيًّا من الصالحين الذين بلغوا في الصَّلاح ذِرْوته[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ المَجازِ المُرسَلُ:

وجه المجاز في ذكر الجماعة وإرادة الفرد تعظيمًا للمنادي جبريل عليه السلام

قولُه: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ المُنادِي جبريل؛ وعبّر عنه باسم الجماعة تعظيمًا له؛ لأنّه رئيسُهم، ويجوزُ الإخبارُ عنه بالجَمْع؛ لاجتماعِ أصحابِه معه، فجبريلُ رئيسُ الملائكةِ وكلّما يُبعثُ يكونُ معه جمعٌ منهم[2]، وهو مجازٌ مُرسلٌ إذْ ذكرَ الكُلَّ وأراد أحدَهم وهو جبريلُ عليه السلام رئيسُ الملائكةِ، فالعلاقةُ الكُلّيّةُ، ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي من جِنسِهم كقولِهم: زيدٌ يركبُ الخَيلَ، فإنّ المُنادِي كان جبريلَ وحده، يؤكّده قراءة حمزة والكسائيّ وخلف: ﴿فَنَادِيهُ﴾ بالإمالةِ والتَّذكير[3]، فإفرادُ الفعلِ في قولِه: ﴿فَنَادِيهُ﴾ منسجمٌ مع اعتبارِ أنّ الملائكةَ هو جبريلُ - عليه السلام -، وإن المُنادِي كان جبريلَ وحدَه[4].

في إيثار جماعة الملائكة في النداء إيماءٌ بتأمينها في السّماء على الدّعاء

والملائكةُ هم أهلُ السّماءِ؛ وفي ذكْرِ جماعةِ الملائكةِ في النّداءِ إيماءٌ بتأمينِ أهلِ السّماءِ على دُعائِه، تَشبيهًا بجماعةٍ مُحبّةٍ له؛ قلوبُهم معه، يَرجُون تحقّقَ الدّعاءِ واستجابَتَه، فلمّا أجاب اللّه دعاءَه جاءتْه البُشرى منهم، فصوَّرتِ الآيةُ كأنّ أهلَ السّماءِ كلَّهم جاؤُوه بالبُشرى، وأفاد ذلك المعنى تَعريفُ الملائكةِ بـ (أل) الذي أفادَ التّعظيمَ. فظاهرُ اللّفظِ يدلُّ على أنّ النّداءَ كان منَ الملائكة جميعها، أو نادتْه ملائكةٌ كثيرةٌ ولا شكّ أنّ هذا في التّشريفِ أعظمُ، كما بعثَ تعالى ملائكةً إلى الرّسل تشريفًا.

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 1/348، ونخبة من العلماء، التفسير الميسَّر، ص: 55.

(2) الثّعلبي، الكشف والبيان: 3/51، والكرماني، مفاتيح الأغاني، ص: 128، والرازي، مفاتيح الغيب: 8/210.

(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/239.

(4) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/15.

النّداءُ: رفعُ الصوت، وفلان أَنْدَى صوتًا، أي أرفعُ. فسمع زَكَرِيَّا أصواتَ الملائكة أو سمعَ صوتَ جبريلَ وهو يبشّرُ بقَبول الدُّعاءِ وحُصولِ الإجابةِ. وقد أوردَ أبو حيَّانَ الأندلسيُّ في مَعرضِ المُناداةِ معنى النَّدَى: المَطرُ، يقالُ منه نَدى يَندَى ندًى[1]، ولعلّ في ذلك جَلْبًا لمعنى الغَيثِ والإغاثةِ لزَكَرِيَّا الذي جاءتْ به الملائكةُ، فقد أغاثَتْهُ بالبُشرى وقَبولِ الدُّعاءِ، وإجابةِ النّداءِ.

في التعبير بالجماعةَ عن رئاستَها عِبرةٌ للنّاس بأنْ يجتمعُوا على الخَيرِ ويُطيعُوا أسيادَهم في طاعةِ الله

بلاغةُ التّفريعِ في قولِه: ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ودلالة الفاء:

ومُقتضَى قولِه تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾ والتّفريعُ عليه بقولِه: ﴿فَنَادَتۡهُ﴾ أنّ المحرابَ محرابُ مريمَ، وقولُه: ﴿وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ﴾ بمعنى يدعُو في المحراب دعاءَه الّذي أرادَ منه هِبةَ الولدِ الوليِّ له.. فجاءته الاستجابةُ، وهو لا زالَ في حيّزِ دُعائِه؛ إذ نادتْهُ الملائكةُ على الفَورِ كما يُعلنُ عنه استخدامُ الفاءِ الطاويةِ الزَّمنَ بين الدُّعاءِ واستجابتِهِ[2]. فالفاءُ في قولِه: ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ للتَّعقيبِ، أي: استُجيبتْ دعوتُه للوقتِ[3].

وجه التفريع بالفاء الدَّلالةُ على سُرعَةِ الإجابةِ

سرُّ التّعبير بالجّملة الحاليّة:

قولُه: ﴿وَهُوَ قَآئِمٞ﴾ جملةٌ حَاليّةٌ والمقصودُ من ذكرِها بيانُ سُرعةِ إجابتِه؛ لأنّ دعاءَه كان في صَلَاتِهِ[4]، أَشعرَ بسريعِ الإجابةِ، ويُؤكِّد ذلك قولُه: ﴿فَنَادَتۡهُ﴾ والفَاءُ للتّرتيب والتّعقيب، دونَ التّراخي. قال الحَرَالّي: فيه إشعارٌ بسُرعةِ إجابتِه ولُزومه معتكَفَه وقُنوته في قيامِه، وأنَّ الغالبَ على صلاتِه القيامُ؛ لأنّ الصَّلاةَ قيامٌ، وسجودٌ يقابلُه، وركوعٌ متوسّطٌ، فذُكرتْ صلاتُه بالقيامِ

قُصِدَ إلى التّعبير بجملة الحال لترسيخ سرعةِ الإجابة المُعلَنِ عنها بالفاء

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/107.

(2) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/66.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/238.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/239.

إشعارًا بأنَّ حكمَ القيامِ غالِبٌ عليها[1]، فيكون ﴿قَآئِمٌ﴾ على هذا المعنى مَجازًا.

علّة التّعبيرِ باسْمِ الفاعلِ ﴿قَآئِمٌ﴾:

التعبير باسْمِ الفاعلِ دليل المُلازمةِ لأمرِ الصَّلاةِ لله والثُّبوتِ عليها، وإقبالِه على الدُّعاءِ من غيرِ تأخيرٍ

المرادُ بالصَّلاة هنا الدُّعاءُ؛ لأنّه أجابَها وهو في الصَّلاة، كقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ﴾ [الاسراء: 110][2]؛ أي بدُعائِك. وعبّر عن لفظِ القيامِ في قولِه سبحانه: ﴿وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ﴾ باسْمِ الفاعلِ الدّالِّ على المُلازمةِ والثُّبوتِ على أمرِ الصَّلاةِ للّه - ﷻ - والقيامِ بين يدَيْه. ومِنْ أمرِ إقبالِه على الدُّعاءِ من غيرِ تأخيرٍ، وخضوعِه عليه السلام وإلحاحِه في الطّلبِ، بدليل ما جاء في سورة مريمَ في قولِه: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ٣﴾ [مريم: 3]، وذكرنا أنّ النّداءَ يأتي تمهيدًا للدُّعاء، كما يَفعلُ المُحبُّ مع حبيبِه المُقبِلِ عليه في قصْدِ خطابِ السّرِّ، الجامعِ بين شرفِ المُناجاةِ ولذاذةِ الانفرادِ بالخلوةِ.. وكانت حصيلةُ تلك اللّحظاتِ الفريدةِ أن تمتدَّ فيه وفي نَسْلِه شجرةُ النّبوّةِ والعلمِ والعملِ.

توجيه القراءةِ بـ﴿إِنَّ﴾ و﴿أَنَّ﴾:

وجهُ الجمعِ بين القراءتين أنّ تأكيدَ الكلامِ بـ (إنّ) مفتوحةً ومكسورةً تحقيقٌ للخبرِ

قرأ ابنُ عامر وحمزةُ ﴿إِنَّ﴾ بكسر الهمزة، والباقون بفتحِها[3]؛ أمّا الكسرُ فعلى إرادةِ القولِ، أو لأنّ النِّداءَ نوعٌ مِنَ القولِ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾ كأنه قال: نَادَتْهُ المَلائِكَةُ فقالتْ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾ وما بعد القولِ حكايةٌ، وذكرَ الرّازي المعنَى: أَنَّ اللّه يقولُ: فنادَتْهُ الملائكةُ بذلك، وأمّا الفتحُ فتقديرُه: فنادتْهُ الملائكةُ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾، أي: بأنّ اللّه يُبشّرك[4]. وعلى كِلتا القراءتينِ فتأكيدُ الكلامِ بـ ﴿أَنَّ﴾

---

(1) الحراليّ، تراث أبي الحسن الحراليّ، ص: 587.

(2) الأنصاري، فتح الرّحمن، ص: 85 - 86.

(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/239.

(4) الأخفش، معاني القرآن: 1/217، والبَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/15، والرازي، مفاتيح الغيب: 8/210.

مفتوحةَ الهمزةِ ومكسورتَها لتحقيقِ الخبرِ؛ لأنّه لغرابتِهِ يُنَزَّلُ المُخبَرُ به منزلةَ المتردِّدِ الطّالبِ[1].

بَلاغَةُ المتشابه اللَّفظي:

إنّ اللهَ تعالى هو المُبشِّرُ في الآيتين؛ سواء أكان بواسطةٍ أمْ بدونها

وقد وقعتِ المخالَفةُ في ذكرِ ما في آل عمران، وما وردَ في سورة مريمَ في الألفاظِ من وجوهٍ؛ الأوّلُ منها: أنّ اللّه تعالى صرّح في آل عمرانَ بأنّ المُناديَ هو الملائكةُ بقوله تعالى: ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ﴾، وفي سورة مريم بقوله: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ ٧﴾؛ والأظهرُ أنّ المُناديَ في قوله: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ [مريم: 7] هو اللّه تعالى، وعلى العُموم فإنّ اللّه تعالى هو المُبشِّرُ سواء أكان بواسطةٍ أمْ لا[2]، ولا منافاةَ بينهما[3]، ثمّ تفيدُ دَلالةُ الطّباق بين الجمع والإفراد: فتأتي البِشارةُ مِنَ الجمعِ في قوله: ﴿إِنَّا﴾ [مريم: 7] إلى الإفراد وعلامتُه الكاف في ﴿نُبَشِّرُكَ﴾ [مريم: 7] العائد على زَكَرِيَّا في كلا النّظْمَين؛ لبيانِ عظيم ما احتوتْهُ هذه البِشارةُ مِنَ الكرامةِ والهَيبة، وعظيم شأنِ زَكَرِيَّا وعظيم شأنِ المَوهوبِ يحيى عليهما السلام.

بيانُ المبالغةِ في التّضرّعِ، والمُشاكلةُ في دُعاءِ الله وخطابِ الملائكة:

وجهُ المبالغة في الدّعاء الثّناءُ على الله بما هو أهلٌ له

ومن دلائلِ مبالغةِ زَكَرِيَّا في التّضرّعِ ما يُفيدُه عدمُ مخاطبةِ المَلَك المُبشِّر له بيحيى والمُنادِي له، بملابسةِ أنّه المباشرُ بما يُعدُّ مندوحةً له لو فعل، وإيثارُه على ذلك مناجاةَ ربّه بالقول: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ﴾، فإذا جاءَه الخطابُ مِنَ المَلَك ردَّ زَكَرِيَّا مخاطِبًا ربّه، مُتضرّعًا إليه مُسلِّمًا زمامَ أموره إلى مولاه وخالقه حين خاطبَه المَلَك بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾. وأمرُ امتثاله حين طلبَ من ربّه أن يجعلَ له آيةً ليتلقّى بها تلك النّعمةَ بالشُّكرِ حين

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/239.

(2) الشربيني، السّراج المُنير: 2/417.

(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 13/30.

حصولِها أو الوعدِ بها دونَ تأخيرٍ، حتى تظهرَ ظُهورًا معتادًا، وأمرُ ملازمته - أثناءَ كلِّ ذلك وقبْلَه وبعدَه - الثّناءَ على اللّه بما هو أهلٌ كما حكى القرآنُ عنه[1] قولَه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾، وقولَه: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩﴾ [الأنبياء: 89]. فخطابُه كان مُباشرًا مُناديًا ربَّه داعيًا إيّاه، دونَ وَساطةِ المَلَكِ المُتحدِّثِ.

ذِكرُ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ بعد لفظِ ﴿رَبِّ﴾:

عــقّــب بــذكــر اسـمه الأعظم بعد الربوبيّة؛ لأن أمر إجابتِه من وراءِ الحِكمةِ العاديةِ

قولُه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾؛ قال الحَرَالِّي: فذَكرَ الاسمَ الأعظمَ المحيطَ معناه بجميع معاني الأسماءِ، ولم يقل: (إِنَّ رَبَّكَ)؛ لمّا كان أمرُ إجابتِه من وراءِ الحِكمةِ العاديةِ[2]، وهذه حالةٌ مطّردةٌ في القرآن الكريم أنّه كلّما وردَ لفظُ (ربّ) جاء بعده الاسمُ الأعظمُ (اللّه).

وجهُ دَلالة التّسمية على صفةِ المُسمّى:

العنايةُ بتسمية المَـولُـودِ سُـنّـةٌ نـبـويّـةٌ؛ لأهـمـيّـة الاســـــم فـي مكنونِ شخصيّةِ الإنسانِ

ومعنى ﴿يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ﴾؛ يُبشرك بمولودٍ يُسمّى يحيى، فعُلِمَ أنّ يحيى اسمٌ لا فعلٌ، بقرينةِ دُخول الباءِ عليه، وذَكرَ في سورة مريمَ: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ ۝٧﴾ [مريم: 7][3]. وفي قولِه: ﴿بِيَحۡيَىٰ﴾ مُسمّى بصيغةِ الدّوام، مع أنّه كما قيل: قُتِل؛ إشعارًا بوفاءِ حقيقةِ الحياةِ الأُخرويّة فيه، فلا يَطرقُه طارقُ موتِ الظاهر؛ إذْ قُتل شَهيدًا[4].

وهو اسمٌ لا ينصرفُ؛ لأنّه إنْ كان أعجميًّا ففيه التَّعريفُ والعُجمةُ، وإن كان عربيًّا فالتّعريفُ ووزنُ الفعل، وسمّاه اللّه به قبْلَ أن يُولَدَ، وفيه دَلالةُ الاسم على صفةِ المُسمّى، وهذا هو المَرجُوُّ، وإلّا فما العبرةُ من تسمية اللّه له بهذا الاسم. قال قتادةُ: سمّاه اللّه يحيى؛ لأنّه أحياهُ بالإيمان[5].

(1) دسوقي، من بلاغة القرآن، ص: 112.
(2) الحراليّ، تراث أبي الحسن الحراليّ، ص: 587.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/239.
(4) الحراليّ، تراث أبي الحسن الحراليّ، ص: 587.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/437.

تنوّعُ المَجازِ في قولِه: ﴿بِكَلِمَةٖ﴾:

أوّلًا: الكلمةُ بمعنى الكتابِ: التّوراةِ أو الإنجيل:

المُرادُ بـ ﴿بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أنها كتابٌ منَ اللّه، على سبيلِ المَجازِ؛ إذْ أطلقَ الكلمةَ المفرَدةَ، وأرادَ الكتابَ كلَّه الذي هو جملةٌ منَ الكلماتِ والمُفرداتِ، فأطلقَ الجُزءَ وأرادَ الكُلَّ، وفائدةُ هذا المَجازِ بيانُ أنّ الكتابَ كلَّه من عند اللّه. فهو وحدةٌ متماسكةٌ أساسُها التّوحيدُ للّه - تعالى. فيكونُ معنى قولِه: ﴿بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي بكتابٍ منَ اللّه؛ وهو الإنجيلُ أو التّوراةُ؛ فأوقعَ المفردَ موقعَ الجمعِ، فـ (كلمة): اسمُ جنسٍ. وقيل: الكلمةُ هنا التّوراةُ، وأُطلق عليها الكلمةُ؛ لأنّ الكلمةَ تُطلقُ على الكلامِ[1].

فائدةُ المَجازِ بيانُ أنّ الكتابَ كلَّه من عند اللّه؛ فهو وحدةٌ متماسكةٌ أساسُها التّوحيدُ لله

ثانيًا: الكلمةُ بمعنى عيسى:

اختيارُ الجمهورِ: أنَّ المرادَ من قولِه ﴿بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هو عيسى عليه السلام وسُمّي عيسى كلمةً في هذه الآية، وفي قولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾ [النساء: 171]؛ لأنّه خُلقَ بكلمةِ اللّه، فلمّا كان تكوينُه بمحضِ قولِ اللّه: ﴿كُن﴾ [آل عمران: 47]، وبمحضِ تكوينِه وتخليقِه من غيرِ واسطةِ الأب، لا جرم سُمِّيَ كلمةً، كما يُسمّى المخلوُق خَلقًا، والمُقدورُ قُدرةً، وهذا بابٌ مشهورٌ في اللُّغة[2]، وهذا من قَبيلِ المَجازِ المُرسَلِ بعلاقةِ المُسبّبيّة، وفي هذا المَجازِ الدَّلالةُ على الخُصوصيّةِ والتّفرّدِ في ولادةِ عيسى عليه السلام وكينُونته. وحُمل هذا الوجه على الاستعارة.

سُمّي عيسى كلمةً ههنا؛ لأنّه خُلقَ بكلمةِ الله، وبمحضِ تكوينِه وتخليقِه من غيرِ واسطةِ الأب

ثالثًا: الكلمةُ بمعنى الكلامِ:

إنَّ عيسى عليه السلام تكلَّمَ في الطُّفوليةِ، وآتاه اللّه الكتابَ في زمانِ الطُّفوليةِ، فكان في كونِه مُتكلِّمًا بالغًا مبلغًا عظيمًا، فسُمّي كلمةً

تخصيصُ عيسى عليه السلام بالكلامِ مُشابهةً بآدم إذ علّمَهُ الأسماءَ كلَّها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/240.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/211.

بهذا التأويلِ.. وهذا أيضًا من قَبيل المَجازِ، إذْ أُطلق الاسمُ على الكلمة التي نطقَ بها؛ فهو مجازٌ مُرسلٌ بعلاقة المنطوقِ به، فأطلقَ المنطوقَ به، وأراد الناطقَ نفسَه.

رابعًا: المَجازُ في الكلمةِ لدَلالةِ إرشادِه إلى الحقائق:

كــلامُــه في المَـهـدِ يُـوحـي بـأنّـه مُـعَـلَّـمٌ، وبـمـعـرفـةِ الـحـقـائـقِ الـخـافـيـةِ عـنِ النّاسِ خبيرٌ

وسُمّي كلمةً؛ لأنّ الكلمةَ كما أنها تفيدُ المعانيَ والحقائقَ، كذلك عيسى كان يُرشِدُ إلى الحقائقِ والأسرارِ الإلهية[1]، وهذا مجازٌ مرسلٌ علاقتُه الحاليّةُ، فأطلقَ الكلمةَ على عيسى وأراد حالَه وشدّةَ همَّتِه في إرشادِ النّاسِ إلى الحقائقِ، كوحدانيّةِ اللّه تعالى وقدرتِه في الخَلْقِ والتّقدير، وفائدةُ المجازِ أنه صوَّرَ عيسى عليه السلام وكأنّ همَّهُ كُلَّهُ مُنصَبٌّ على إيصالِ الرّسالةِ إلى النّاسِ وما كُلِّفَ به.

خامسًا: المَجازُ في الكلمةِ بمعنى البِشارة بِه في كُتُبِ الأنبياءِ:

ضمَّتِ الكُتُبُ السّماويّةُ بشاراتٍ بالأنبياءِ لزيادةِ إيمانٍ ويقينٍ وحفاوةٍ في الدِّينِ

وردتِ البِشارةُ بعيسى عليه السلام في كُتبِ الأنبياءِ الذين كانوا قبْلَه، فلما جاءَ قِيل: هذا هو تلك الكلمةُ، فسُمّي كلمةً بهذا التأويل، قالوا: ووجهُ المجازِ فيه أنَّ مَن أخبرَ عن حدوثِ أمرٍ فإذا حدثَ ذلك الأمرُ قال: قد جاءَ قولي وجاءَ كلامي؛ أي ما كنتُ أقولُ وأتكلّمُ به، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾ [غافر: 6]، وقال: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧١﴾ [الزمر: 71][2].

توجيه إمكان أنْ يُطلقَ الاسمُ على الحَقِيقَة:

قد يُسمّى الإنسانُ بـ (فضل اللّه) و(لُطف اللّه)، فكذا عيسى عليه السلام كان اسمُه العلَمُ: (كلمة اللّه)، و(روح اللّه)، ولكنْ يضعُفُ هذا الرَأيُ أمَام تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: 171].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/210.
(2) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 5/197.

بلاغة الاستعارة في قولِه: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ﴾:

المراد بالكلمة عيسَى عليه السلام، وأجْرَى تعالى اسمَ (الكلمة) عليه لتقدُّمِ البِشارةِ به

وقولُه تعالى: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ استعارةٌ؛ لأنّ المُرادَ بهذا القولِ عيسَى عليه السلام والعُلماءُ مختلفونَ في هذه اللّفظةِ، فمِنْ بعضِ ما قِيل في ذلك، أنّ بِشارةَ اللّه تعالى سبقتْ بالمسيح عليه السلام في الكُتُب المُتَقدِّمةِ، والنّذاراتِ السّالفةِ، فأجْرَى تعالى اسمَ (الكلمة) عليه لتقدُّمِ البِشارةِ بِه. والبِشارة إنّما تكونُ بالكلام[1].

وجه تخصيص يحيى بتصديق الكلمة:

بيانُ التَّخصيص أنّ يحيى مصدّقٌ بـ (عيسى) الذي كـان وجـوده بكلمةٍ منَ الله، ولكون تصديقِهِ أصـدَقَ مـن تصديقِ كلِّ أحدٍ به

وقد ضُمَّتْ إلى بِشارته بالابن بِشارةٌ بذريةٍ طيّبةٍ كما رجا زَكَرِيَّا، فقيل له: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، فمصدّقًا حالٌ من يحيى، أي: كاملُ التَّوفيقِ لا يتردّدُ في كلمةٍ تأتي من عند اللّه. وقد أُجملَ هذا الخبرُ لزَكَرِيَّا ليَعلمَ أنَّ حادثًا عظيمًا سيقعُ يكونُ ابنُه فيه مُصدِّقًا برسولٍ يجيء وهو عيسَى عليه السلام[2]. فإن قلتَ: لمَ خصَّ (يحيى) عليه السلام بقولِه: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مع أنَّ كلَّ واحدٍ منَ المؤمنين مُصدِّقٌ بجميعِ كلماتِ اللّه تعالى؟ فالجواب: لأنّ معناه مُصدِّقًا بـ (عيسى) الذي كان وجودُه بكلمةٍ منَ اللّه تعالى وهو قولُه: كنْ من غيرِ أبٍ في الوجودِ أو المَرتبةِ، وكان تصديقُ يحيى لعيسى أصدَقَ من تصديقِ كلِّ أحدٍ به[3]، كحال الصّدّيق أبي بكر رضي الله عنه لرسولِ اللّه صلى الله عليه وسلم.

براعة التّرقّي في تَعدادِ صفاتِ يحيى عليه السلام:

ذَكَرَ اللّه تعالى من صفات يحيى ثلاثًا[4]:

---

(1) الرّضي، تلخيص البيان، ص: 123.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/239.

(3) الأنصاري، فتح الرّحمن، ص: 85 - 86.

(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/210.

الصِّفةُ الأُولى: وصفه بالتّصديق:

قولُه: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ وقد نُصبَ على الحال؛ لأنّه نكرةٌ، ويحيى معرفةٌ، والمعنى مصدّقًا بعيسى عليه السلام سُمّي بذلك لأنّه وُجد بأمرِه تعالى دونَ أبٍ، فشابَه البِدعياتِ التي هي عالَمُ الأمر، أو بكتابٍ مِن الله[1]. قال ابنُ عباس ومجاهدُ وقتادةُ والحسنُ والسّدي وغيرُهم: (الكلمةُ) هنا يراد بها عيسى ابن مريم[2]. فسمّى الله تعالى عيسى كلمةً؛ إذْ صدرَ عن كلمةٍ منه تعالى لا بسببِ إنسانٍ آخرَ كعُرْفِ البشرِ.

المعنى مصدّقًا بعيسى عليه السلام، وسُمّي بذلك لأنّه وُجد بأمرِه تعالى دونَ أبٍ، وصدرَ عن كلمةٍ منه تعالى لا بسببِ إنسانٍ آخر كعُرْفِ البشرِ

الصّفةُ الثّانيةُ: وصفُه بالسيّدِ:

﴿وَسَيِّدًا﴾ يسودُ قومَه ويفُوقُهم في الشّرف وفي محامدِ الخصالِ حتى قدّمُوه على أنفسِهم، واعترفُوا له بالفَضلِ، وكان فائقًا للنّاس كلِّهم في أنه مَا هَمَّ بمعصيةٍ قطّ[3].

صفةُ السّيّدِ تحتملُ صفاتٍ عديدةً أهمُّها الحلمُ مع النّاسِ

ووصفُه بالسيّد في قولِه: ﴿وَسَيِّدًا﴾ يشملُ جملةً منَ الخصال التي يُمكنُ أن تقع تحت مِظلّتِها، وقد أورد العلماءُ والمُفسّرون ذلك في تفاسيرِهم، فهو سيّد في الحِلم والعِلم والفقاهة والعبادةِ والورعِ، والتّقوى، والشّرف، وعدم غلبة الغضبُ[4]، ولِتحصيلِه الرئاسةَ الدّينيةَ فيه من صباه، فنشأ مُحترَمًا من جميع قومِه، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيًّا ١٢ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً﴾ [مريم: 12، 13][5].

الصّفةُ الثّالثةُ: (الحَصورُ) والمسائلُ البلاغيةُ فيه:

الحَصورُ الذي يكتم السرَّ ويحبِسُه، والمُبالِغُ في حبْسِ النَّفس عن

(1) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/15.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/429.
(3) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/15، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/107.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/429.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/241.

الشّهواتِ والملاهِي[1]. وإنما سُمّي السّجنُ حصيرًا؛ لأنه يمنعُ منَ الخروجِ[2]. فالحصورُ: فعولٌ منَ الحَصْرِ، وهو للمبالغة من حاصَر، وهو الذي لا يأتي النّساءَ لا للعجْزِ؛ بل للعِفّةِ والزُّهدِ.

سببُ إتْباعِ صفةِ الحَصور بالسّيّد:

تـنـدُرُ ثـنـائـيّـةُ (الـسّـيّـد الـحَـصـور) ولـذا فقد مدحَها الله ليحيى وذكرَها فــي الــقــرآن الكريم

مع كون يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ سيّدًا في قومه، وإمكانه أن يتخيّر أرقى النِّساءِ منزلةً وجمالًا إلّا أنّه أعرضَ عن ذلك، ومنعَ نفسَه تقرُّبًا إلى اللّه تعالى؛ فمدحَ اللّه تعالى هذا العملَ، ووصفَه سيّدًا حَصورًا، إذ لا يصلحُ ورودُ الحَصور مدحًا إلّا مع كونه سَيّدًا.. فحصَر يحيى حياتَه على عبادةِ اللّه تعالى.

بلاغة الاستعارةُ في معنى (الحَصور):

وجه الاستعارة عدمُ الدّخول في اللّعبِ واللّهوِ

وصفُ الحَصور إشارةٌ إلى الزُّهد التامِّ؛ فلمّا اجتمعا حصلتِ النّبوةُ بعد ذلك؛ لأنّه ليس بعدهما إلّا النّبوةُ[3]. والحَصورُ الذي لا يَقربُ النِّساءَ حصْرًا لنفسه، أي منعًا لها منَ الشّهوات، وقيل: هو الذي لا يدخلُ مع القوم في الميسرِ، فاستُعيرَ لمن لا يدخلُ في اللّعبِ واللّهوِ[4]. ووسِّطتْ هذه الصّفةُ بين صفاتِ الكمالِ تأنيسا لزَكريَّا، وتخفيفًا من وَحْشتِه لانقطاع نَسْلِه بعد يحيى[5].

تَعدادُ الخصالِ الكريمةِ لـ (يحيى):

تعداد الخصال بـالـواو إيـذانٌ باستقلال كلّ واحـدةٍ منها في شخصيّة يحيى

عطفُ ﴿وَسَيِّدٗا﴾ على ﴿مُصَدِّقَۢا﴾، وعطفُ ﴿وَحَصُورٗا﴾ وما بعدَه عليه، يُؤذنُ بتَعدادِ تلك الخصالِ العظيمةِ في يحيى، ومُغايرتها لبعضِها؛ فلا توكيدَ معنويًّا في ذكرِها، وإنّما الاستقلاليّةُ واضحةٌ لكلّ واحدةٍ منها في شخصيّة يحيى - عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فكلُّ صفةٍ قائمةٌ بذاتِها.

---

(1) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/15، الطيبي، فتوح الغيب: 4/98.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 4/98.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 8/213.
(4) الزمخشري، الكشّاف: 1/388.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/241.

سرّ الجمع بين النبوّة والصلاح في الفاصلة:

وجه الجمع أنّ للأنبياءَ قدرًا منَ الصّلاحِ لو انتقصَ لانْتفتِ النُّبوّةُ

مع أنّ منصبَ النّبوةِ أعلَى من صفة الصّلاحِ؛ فإنّه وُصِف بالصّلاحِ بعده بقوله: ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1]، على غرار قولِ سليمان ﷺ بعد حصولِ النّبوةِ: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩﴾ [النمل: 19]. وتحقيقُ القولِ فيه: أنّ للأنبياءَ قدرًا منَ الصّلاحِ لو انتقصَ لانْتفتِ النُّبوّةُ، فذلك القدرُ بالنِّسبةِ إليهم يَجري مجرَى حفظِ الواجباتِ بالنّسبة إلينا، ثم بعدَ اشتراكِهم في ذلك القَدْرِ تتفاوتُ درجاتُهم في الزيادة على ذلك القَدْر، وكلُّ من كان أكثرَ نصيبًا منه كان أعلَى قدْرًا. فقولُ الزَّمَخْشري: "ناشئًا منَ الصالحين"، وعلى هذا ﴿مِّنَ﴾: للابتداءِ، وعلى قولِه: "أو كائنًا من جُملة الصالحين": للتَّبعيض[2]. وقولُ البَيضاويّ: ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ناشئًا منهم أو كائنًا من عِدادِ من لم يأتِ كبيرةً ولا صغيرةً[3] والمعنيانِ لايتعارضانِ فأحدُهما من جهة النّشأةِ، وثانيهما من جهة الاتِّصاف بالصَّلاح.

(1) الرّازي، مفاتح الغيب: 8/213.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 4/100.
(3) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/15.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۝٤٠﴾ [آل عمران: 40]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

وقعتِ الآيةُ الكريمةُ من سابقتِها موقعَ الجوابِ عن سؤالٍ، والمناسبةُ أنّ زَكَرِيَّا قد بشّرَتْهُ الملائكةُ بقَبول دُعائه، فهالَتْهُ قدرةُ اللّه في سرعةِ إجابةِ الدّعاءِ أوّلًا، ثمّ قدرتُه في الخَلْقِ والتّقدير، فتساءلَ: كيف يتمُّ هذا مع العوائقِ القائمةِ بشيخوختِه وعجْزِ امرأتِه العاقرِ؟ وهو تساؤلُ المُستشرفِ لإزاحةِ هذه العوائقِ لا اليائسِ منها، ولَيْسَ مِنَ الشَّكِّ في صِدْقِ الوَعْدِ، وهو كَقَوْلِ إبْراهيمَ ﴿لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾ [البقرة: 260]، فَأُجيبَ بِأَنَّ المُمْكِناتِ داخِلَةٌ تَحْتَ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعالى وإِنْ عَزَّ وُقُوعُها في العادَةِ: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[1].

۞ شرحُ المُفرداتِ:

1) ﴿غُلَٰمٌ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (غلِمَ)؛ غَلِمَ يَغْلَمُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى حَدَاثَةٍ وَهَيْجِ شَهْوَةٍ، والمِغْليمُ يَستوي فيه الذّكرُ والأنثى، يقال: جاريةٌ مِغليمٌ. واغتَلَمَ الشّرابُ: صلُبَ واشتدَّ. والغُلامُ هو الطارُّ الشّاربِ. والغلامةُ: الجاريةُ، وَالْجَمْعُ غِلْمَةٌ وَغِلْمَانٌ، وَالْغَيْلَمُ: الْجَارِيَةُ الْحَدَثَةُ. وَالْغَيْلَمُ: الشَّابُّ، والولد غلامٌ من ولادته إلى أن يَحْتَلم. وهذا من باب التفاؤلِ، فأساسُ تسميته غلامًا هو اغتلامُه، أي بلوغه حالةَ الرغبة في الأنثى، ويقال: اغْتَلَمَ الْفَحْلُ غُلْمَةً: هَاجَ مِنْ شَهْوَةِ الضِّرَابِ[2].

2) ﴿بَلَغَنِيَ﴾: جِذرُ الكلمةِ هو (بَلَغَ)، بلَغَ الشّيءُ يبلغُ بلوغًا: وصَلَ وانتهَى. وأبلغه هو، وبلَّغه.

وتبلّغَ بالشَّيء: وصلَ به إلى مُرادِه. وبلغَ مبلغَ فلان، ومبلغتَه. والبلاغُ: ما أبلغَك[3]. وفي التّنزيل: ﴿إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ﴾ [الجن: 23]، أي: لا أجدُ مَنجَى إلّا أن أبلّغَ ما أُرسلتُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/242.

(2) الخليل، العَيْن، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المُفردَات: (غلم)، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/141.

(3) ابن سيده، المحكم، والزّمخشري، أساس البلاغة: (بلغ).

به، ويقال: وَلي في هَذَا بَلَاغٌ أَيْ كِفَايَةٌ. وبلغَ الغلامُ: احتلَمَ، كأنه بلغَ وقتَ الكتابِ عليه والتّكليفِ. وكذلك: بلغتِ الجاريةُ، ويقال: هُوَ أَحْمَقُ بِلْغٌ وَبَلْغٌ، أَيْ إِنَّهُ مَعَ حَمَاقَتِهِ يَبْلُغُ مَا يُرِيدُهُ. وَالْبُلْغَةُ مَا يُتَبَلَّغُ بِهِ مِنْ عَيْش، كَأَنَّهُ يُرَادُ أَنَّهُ يَبْلُغُ رُتْبَةَ الْمُكْثِرِ إِذَا رَضِيَ وَقَنَعَ، وَكَذَلِكَ الْبَلَاغَةُ الَّتِي يُمْدَحُ بِهَا الْفَصِيحُ اللِّسَانِ؛ لِأَنَّهُ يَبْلُغُ بِهَا مَا يُرِيدُهُ، وتبالغَ الدّباغُ في الجلد: انتهى فيه. وبلغتِ النّخلةُ، وغيرُها من الشجر: حان إدراكُ ثمرِها[1].

3) ﴿عَاقِرٌ﴾: جذر الكلمة (عقَرَ)، والعُقْر مصدرُ العاقر، وهي التي لا تَحْمِلُ، يقال: امرأةٌ عَاقِرٌ وبها عُقْرٌ، ونسْوَةٌ عَواقِرُ وعُقَّرٌ. وقد عَقَرَتْ تَعْقِر، (وعُقِرتْ) تُعْقَرُ أحسنُ؛ لأنَّ ذلك شَيْءٌ يَنْزِل بها وليس من فعلِها بنفسِها[2]. و(العاقر) من لا يُولدُ له، رجلاً كان أو امرأةً، مشتقٌّ من العُقر وهو القطعُ؛ لقطعهِ النّسلَ[3]، والعُقار الخمرُ؛ لكونه كالعاقرِ للعقْلِ، والمُعاقرةُ إدمانُ شُربه[4].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

قال زكريا عليه السلام فرحًا متعجِّبًا - لَمَّا بشّرته الملائكةُ بإجابةِ الدُّعاءِ وبالولدِ -: ربِّ أنَّى يكون لي غلامٌ مع أنَّ الشَّيْخوخةَ قد بلغت مني مَبْلَغَها؛ إذ كان في التِّسعين أو أكثرَ، وامرأتي عقيمٌ لا تَلِدُ، وكلُّ واحدٍ من الأمرين مانعٌ من وجود الوَلَد، فكيف وقد اجتمعا؟ قال: كذلكَ يفعل اللّه ما يشاء من الأفعال العجيبةِ المخالفةِ للعادة، فكما أنَّه تعالى قَدَّر وجودَ الأولاد بالأسباب التي منها التَّناسلُ، فإذا أرادَ أنْ يوجدهم من غير ما سَببٍ فَعَلَ، فهو على كل شيء قدير، يفعل ما يشاء بحِكْمته وعِلْمه[5].

الإِيضاحُ اللُّغَوِيُّ والبَلاغِيُّ:

فنّ السُّؤال والجواب[6]:

تكرّرَ فنُّ السُّؤالِ والجوابِ في القِطعةِ القرآنيّةِ في قولِه في السُّؤال: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ وقوله في الجوابِ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾. ومن فوائدِ هذا الفنِّ اختصارُ المشهدِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، والفيومي، المصباح المنير: (بلغ).
(2) الخليل، العَينْ، والراغب، المُفرَدَات: (عقر).
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/502.
(4) الراغب، المُفرَدَات: (عقر).
(5) السّمرقندي، بحر العلوم: 1/211، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 55، ونخبة من العلماء، التفسير الميسَّر، ص: 55.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/142.

ومُحتواه في جُملتَيْن مُتتاليتَيْن مُباشرتين، ففي هذا الفنِّ منَ الإيجاز والبيانِ ما فيه؛ إذ يُقدّمُ مشهدًا حِواريًّا حيًّا، وينقلُ المُتلقّي إلى لحظاتٍ زمنيّةٍ غابرةٍ لكنّها في القرآن تُعبّرُ عن لحظاتٍ مفصليّةٍ تَروي قصصَ الإيمان، وتُقدّمُ قيمَ الحياة والدّين.

أسلوبُ السُّؤالِ والجوابِ منهجٌ علميٌّ قيِّمٌ في توثيقِ الوقائعِ والعلومِ والأحداثِ

مناسبةُ ذكْرِ الغُلامِ بعد الحَصُورِ:

وجهُ ذكر الغلامِ الكنايةُ عن القوّةِ وتمامِ الصّحةِ الدّاعيةِ إلى النكاحِ، وهو مع ذلك يَمنعُ نفسَه منه مَنعًا مبالغًا فيه

الغلامُ يُذكرُ في مَعرضِ الكِنايةِ عنِ القُوّةِ، فقال: ﴿غُلَٰمٌ﴾ في تعبيرِه به في سياقِ الحَصورِ دليلٌ على أنّه في غايةِ ما يكونُ من صحّةِ الجسمِ وقُوّتِه اللّازمِ من شدّةِ الدّاعيةِ إلى النِّكاحِ، وهو مع ذلك يَمنعُ نفسَه منه مَنعًا زائدًا على الحدِّ، فهو مُقبلٌ على العبادةِ بكلّيتِه ومُعرِضٌ عن كلِّ ما يَشْغَلُ عنها جملةً لا سيّمَا النّكاحُ، بحيث يُظنُّ أنه لا إرْبَ له فيه، وهذا المُوافقُ للتَّعبيرِ الأوّلِ للحَصورِ في القاموس، وهو الذي يَنبغي ألّا يُعرَّجَ على غيرِه؛ لأنّه بناءُ مبالغةٍ من مُتعدٍّ، ولأنّه أمدحُ له عَلَيْهِ السَّلَامُ ومهما دارَ الشَّيءُ على صفةِ الكمالِ في الأنبياءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - وجبَ أن لا يُعدَلَ عنه، لذلك فهو إخبارٌ عن آخرِ أمْرِه الذي أدّتْ إليه عزيمتُه، وإن كان الجمعُ لكمالِ الوجودِ الإنسانيِّ بالنّكاحِ أكملَ كما وقع لنبيّنا ﷺ[1].

يكتنزُ ذكرُ الغلامِ تضمينَ معنى تغلّبِ الشّهوةِ، وهو أنسبُ لمعنى المبالغةِ في الحَصورِ

وذكرُ الغُلامِ في الآيةِ جاء على لسانِ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ إذ يَكتنزُ قولُه: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ تضمينَ معنًى آخرَ؛ فالغلامُ من غَلِمَ يَغْلَمُ؛ أي غُلِبَ شهوةً، وهذا المعنى مهمٌّ، وهو مدارُ سياقِ الآيةِ الكريمةِ؛ فقد اختارَ زَكَرِيَّا مرحلةً عُمريّةً مقصودةً فقال: ﴿غُلَٰمٌ﴾ ولم يقل: (وَلَدٌ)، لبيانِ قصدِ تغلّبِ شهوتِه، إذ ذُكرَ من صفاتِه أنّه حَصور، أي: غالبٌ على شهوتِه على عكسِ ما يكونُ عليه الغلمانُ عادةً؛ وفي ذلك كرامةٌ ليحيى.

(1) البقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/77.

بيانُ تناسُبِ المعنَى بين: ﴿بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾ و﴿وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ﴾:

قُـدراتُ البشر محـدودةٌ تحكمُها الأحوالُ، وظواهرُ الحياةِ، وقدرةُ اللهِ مُطلقةٌ تفوقُ كلَّ توقُّعٍ

الآية تصفُ الحالَ الميئوسَ منه؛ وهو قولُه: ﴿بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾ إلى حدٍّ لا يُنجب فيه عادةً، ﴿وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ﴾؛ منَ العُقرِ وهو البلوغُ إلى حدِّ انقطاعِ النَّسلِ هرمًا؛ كذا قال، وآيةُ سورةِ مريمَ تدلُّ على أنَّ المعنى أنها لم تزلْ عَقيمًا، وعليه يدلُّ كلامُ أهلِ اللُّغة، العُقرةُ وتضمّ: العُقم، والعُقْرُ بضم العين وسكونِ القاف مصدرُ العاقر منَ النّساءِ وهي التي لا تحملُ من غيرِ داءٍ ولا كِبَرٍ[1]. فيكونُ كنايةً عن عدمِ الإنجاب أيضًا. وبين التّعبيرَيْن تناسُبٌ في المعنى والكنايةِ.

مـن وجـوهِ التّقابل تناسبُ صيغتي الجملتين بين الفعليّة والاسميّة

في التعبير بـ﴿بَلَغَنِيَ﴾ وهو جملة فعليّة دلالة على أنّ الكِبَر طرأ على زكريا بعد قوّة وفتوّة، بما يوحيه لفظ الفعل (بلغ)، وصيغته. وفي التّعبير عن امرأته بأنّها عاقرٌ بالجملة الاسمية ﴿وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ﴾ دلالة ثبوت الصفة فيها، وأنّها عاقرٌ منذ بلوغِها مبلغَ النّساءِ، ولم يطرأ عليها عند الكِبَر[2].

وجهُ الجمعِ بين النّقيضَين في التّقابُل:

اجتماع النقيضين بيانٌ لمدَى التّعجيبِ الذي أصاب زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ

التّقابُلُ بين قوله: ﴿يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾ وهي كنايةٌ عنِ الإنجابِ، وقولِه: ﴿بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ﴾ وهي كنايةٌ عن عدمِ الإنجابِ؛ يُظهرُ مدَى التّعجيبِ الذي أصاب زَكريَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ لكنّه تعجيبٌ تحت مظلّةِ اليقينِ التّامِّ، فجعلَه مُتضمّنًا لدعاءٍ خَفيٍّ؛ إذْ يكتنزُ قولُه: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾ تضمينَ دعاءٍ آخرَ؛ فقد سأل اللّٰه في هذا الاستفهام أن يمدَّ اللّٰه في عمرِه حتى يَرى ابنَه غُلامًا قويًّا، فلم يقلْ: أنّى يكونُ لي ولدٌ أو مولودٌ وذلك طلبًا في طُول العُمر، وأَتبعَها قولَه: ﴿بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾ خشيةَ أنْ يموتَ قبْل أن يَرى ابنَه يحيى متّصِفًا بتلك الصِّفاتِ العظيمةِ العاليةِ التي بُشّرَ بها، كونُه: مُصدّقًا وسَيّدًا وَحصورًا ونَبيًّا مِنَ الصّالحين.

(1) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/78.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/163.

براعة دَفْع ما يُوقِعُ في الوَهْمِ:

اليقينُ بقُدرة اللّه تعالى عبادةٌ خاصّةٌ تميّزَ بها الأنبياءُ والعلماءُ والصّالحونَ

في قَوْله تَعَالَى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ﴾ [آل عمران: 38]. دليلٌ عَلَى أنَّ زَكَريَّا عليه السلام لَيسَ عِنْدَهُ شَكٌّ في قُدْرَةِ اللّهِ عَلَى أَنْ يرْزُقَهُ الوَلَدَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ مِنْ كِبَرِ السِّنِّ، وَقَدْ جَاءَ هنا بِمَا يُوهِمُ خِلَافَ ذَلِكَ وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ﴾. والجَوَابُ عَنْ هَذَا بأمرين: الأول: أَنَّ اسْتِفْهَامَهُ اسْتِفْهَامُ اسْتِعْلَام وَاسْتِخْبَار؛ لِأَنَّهُ لَا يَدْرِي هَل اللّه يَأْتِيهِ بِالوَلَدِ مِنْ زَوْجِهِ العَجُوزِ؟ أَمْ يَأْمُرُهُ بِأَنْ يَتَزَوَّجَ شَابَّةً؟ أَوْ يَرُدُّهُمَا شَابَّيْنِ؟ الثاني: أَنَّهُ اسْتِفْهَامُ اسْتِعْظَامٍ وَتَعَجُّبٍ مِنْ كَمَالِ قُدْرَةِ اللّهِ تَعَالَى[1].

علّة التّقديمُ والتّأخيرُ فيما بين المتشابه اللفظي:

وجه التقديم والتأخير مناسبةُ سياق الآية وسياقها

قَوْلُه: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ﴾؛ قدَّمَ في هذه السُّورَة ذكرَ حالِه وما به من الكِبَر، وَأخّر ذكرَ المَرْأة، فقدّمَ نقصَ نفسِه، لكنّه قَالَ في سُورَة مَرْيَمَ: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨﴾، فَقدَّم ذكرَ المَرْأة وذكَرَ أنّها عاقرٌ؛ لأنّ في سورة مَرْيَمَ قد تقدَّم ما كنَّى عنِ الكِبَرِ في آيةٍ سابقةٍ فقال: ﴿وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾، وَتَأَخّر ذكرُ المَرْأة في قَوْلِه ﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾ [مريم: 5]، ثمَّ أعادَ ذكرَهَا فَأخَّر ذكرَ الكِبَر ليُوَافق ﴿عِتِيّٗا ٨﴾ [مريم: 8] مَا بعده منَ الآيَات وَهي ﴿سَوِيّٗا ١٠﴾ [مريم: 10] و﴿وَعَشِيّٗا ١١﴾ [مريم: 11] و﴿صَبِيّٗا ١٢﴾ [مريم: 12][2].

بلاغة الاستفهامُ في الآية:

بيانُ الاستفهام التعجّبَ مِنْ كَمَالِ قُدْرَةِ اللّهِ تَعَالَى، واسْتِعْظَامه

ذهبَ الطّبريّ وغيرُه إلى أن زَكريَّا لمّا رأى حالَ نفسِه وحالَ امرأته وأنها ليستْ بحالِ نَسْلٍ سأل بقولِه: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾

(1) الشنقيطي، دفع إيهام الاضطراب، ص: 39.

(2) الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 89، والأنصاري، فتح الرّحمن، ص: 85 - 86.

عنِ الوجهِ الذي به يكونُ الغلامُ، و﴿أَنَّىٰ﴾ معناها كيفَ ومن أينَ[1].
والمرادُ بالاستفهام التّعجّبُ، قصَدَ منه تعرُّفَ إمكانِ الولدِ؛ لأنّه لمّا سأل الولدَ فقد تهيّأ لحصولِ ذلك، فلا يكونُ قولُه: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ إلّا تطلُّبًا لمعرفةِ كيفيةِ ذلك على وجهٍ يُحقّقُ له البِشارةَ، وليس منَ الشّكِّ في صِدقِ الوَعْدِ، فأُجيبَ بأنَّ المُمكناتِ داخلةٌ تحت قُدرةِ اللّه تعالى وإنْ عزَّ وُقوعُها في العادةِ[2]. فقال ذلك تعجُّبًا من قُدرةِ اللّه تعالى لا استبعادًا[3].

بيان الغرض من التّعجيب في الاستفهام:

فائدة التّعجّب الكناية عن الشُّكر، والتّعريضُ بأنْ يكونَ الوَلدُ من زوجِهِ العاقِر

و﴿أَنَّىٰ﴾ فيه؛ بمعنى كيفَ، أو بمعنى المَكان، لتعذُّرِ عملِ المكانَيْنِ اللذَينِ هما سببُ التّناسُلِ؛ وهما الكِبَرُ والعُقرةُ، وهذا التّعجّبُ في مضمونِه الشُّكرُ على هذه المِنّةِ فهو كنايةٌ عنِ الشُّكر. وفيه تَعريضٌ بأنْ يكونَ الوَلدُ من زوجِهِ العاقِر، دون أن يؤمَرَ بتزوّجِ امرأةٍ أُخرى، وهذه كرامةٌ لامرأة زَكَرِيَّا[4]. فلا يتغيّر شيءٌ من حالِ زكريا، ويُوهبُ الولدُ الّذي طلبَ، فكان التّعجيبُ كنايةً عن شُكرِه البالغِ، الذي لم يتمكّنْ مِنَ التّعبيرِ عنه إلّا بأسلوبِ الاستفهامِ المُفعَمِ بالحيويّةِ، والفرحِ بما بُشِّر به.

براعة الإطناب في السُّؤالِ:

التّلذُّذُ بسماع كلامِ اللهِ عندَ الأنبياءِ يُقابلُهُ عند عُمومِ المُؤمنين الموحّدين التّلذُّذُ باستشعار قَبُولِ الدّعاء وإجابته

السّؤالُ في قولِه: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ ليس على طريقِ استبعادِ التحقّق، بل استعظامًا للقُدرة واعتذارًا منه - ﷺ؛ لأنّه يعلمُ أنّ ربَّه قادرٌ على كلِّ شيءٍ، ولكنّ الذي ساقهُ إلى ذلك عِظَمُ سرورِه وشدّةُ فرحه بإجابةِ دعوتِه، والْتِذاذُهُ بسماعِ كلامِ ربّه[5]، فيكونُ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/431.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/242.
(3) الأنصاري، فتح الرّحمن، ص: 85 - 86.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/242.
(5) العاني، بيان المعاني: 5/339.

في الكلامِ إطنابٌ لسؤاله مع علْمِه بالجوابِ. وهذا معنى الالْتذاذِ بسماعِ كلامِ ربِّه.

براعةُ تكرارِ الاستفهام بمعنًى واحدٍ:

تضمّن الاستفهامان التّعجيبَ عن خَرْقِ السُّنّنِ الكونيّةِ في الإيجادِ والخَلْقِ والتّكوين

تكرّرَ استفهامُ زَكَرِيًّا في هذه القِطعة القرآنية؛ ففي آيةٍ سابقةٍ قال لمريم في سؤالِه عن الرّزق: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾ [آل عمران: 37]، وهنا قال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾؟، والاستفهامان معناهُما واحدٌ؛ إذ تضمّنا التّعجيبَ عن خَرْقِ السُّنّنِ الكونيّةِ في الإيجادِ والخَلْقِ والتّكوين، فمعنى الاستفهام الأوّلِ هو السّؤالُ عن مصدرِ الرّزقِ الذي يجهلُه، والقُدرةِ التي أوجدتْه. ومعنى الاستفهام الثّاني كان سؤالًا عن كَينونةِ الغلامِ له مع انتفاءِ أسبابِ الإنجابِ مع اليقينِ التّامِّ بصدقِ البِشارة بالغلام. فهو استفهامٌ حقيقيٌّ مشوبٌ بالتّعجُّبِ والدّهشةِ من طلاقةِ قُدرة اللّه تعالى في الخَلْقِ والتّقدير.

بَلاغةُ القَلْبِ في جملة: ﴿وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾:

فائدةُ القلبِ إظهارُ تمكُّنِ الكِبَرِ منه، كأنّه يطلبُه حتى بلغَه

قولُه: ﴿وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾ جاء على طريق القَلْبِ، وأصلُه: وقد بَلَغْتُ الكِبَرَ[1]، وفائدتُه إظهارُ تمكُّنِ الكِبَرِ منه، كأنّه يطلبُه حتى بلغَه كقولِه تعالى: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ [النساء: 78][2]. كما تقول: (وَقَدْ بَلَغَنِي الجَهْدُ)؛ أي: أَنَا في الجَهْدِ والكِبَرِ[3]. والعَرَبُ تصنعُ مثلَ هذا، فقولُه: ﴿بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾؛ أي بلغتُه[4]، وعكسَ في سورة مريمَ فقال: ﴿وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨﴾ [مريم: 8]، فما بلغَك فقد بلغتَه[5]، وهذا الأسلوبُ في التّشخيصِ يتضمّنُ المبالغةَ في الوصفِ؛ إذ يُمثّل تمكّنَ الكِبَرِ من زكريّا ﷺ بأعلى درجاتِ الهيمنةِ، فلا يجدُ مَفَكًّا منه، ولا جدوَى من إخفائِه أو معالجتِه.

(1) الزّركشي، البرهان: 2/290.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/242.
(3) الأخفش، معاني القرآن: 1/169.
(4) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 123، وأبو عبيدة، مجاز القرآن، ص: 92.
(5) الشربيني، السّراج الُمنير: 2/417.

بديعُ الاستعارةِ والتَّشخيصِ في قولِه: ﴿بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾:

بيانُ الاستعارة تشخيص الكِبرَ كـأنّـه رجـلٌ يـقـصـدُه حتّى بلغَه

وقولُه: ﴿وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾؛ استعارةٌ شخّص فيها الكِبرَ كأنّه رجلٌ يقصدُه، ويَسعى إلى اللِّحاقِ به، حتّى بلغَه، وأدركَهُ وهو على حالتِه تلك. وكأنّ الزّمانَ طريقٌ، والحوادثُ تتساوقُ فيه، فإذا التقَى حادثان فكأنّ كُلَّ واحدٍ منهما قد بلغَ صاحبَه، وحقيقةُ البُلوغِ في الأَجرَام أن ينتقلَ البالغُ إلى المبلوغِ إليه، وحَسُنَ في الآية: ﴿بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾ من حيث هي عبارةٌ واهِنٍ مُنفعل، وبلغتُ: عبارةُ فاعلٍ مُستعلٍ[1]. قال أهلُ اللّغة: كلُّ شيءٍ صادفتَهُ وبلغتَهُ فقد صادفَكَ وبلغَك، وذلك إذا أمكنَ تصوّرُ الطّلبِ منَ الجانبين، فيجوز: بلغتُ الكبرَ، وبلغني الكبرُ؛ لأنّ الكِبرَ كالشّيءِ الطّالبِ للإنسانِ فهو يأتيه بحدوثِه فيه، والإنسانُ أيضًا يأتيه بمرورِ العُمر عليه[2].

دلالة صيغة المُفاعلة في لفظ ﴿بَلَغَنِيَ﴾:

تُـفـيـدُ المفاعلة في الفعل (بلغ) معنى المُخالطةَ بـين الـطّـرفـين، والتَّشخيص لـ (كِبَر)

من معاني صيغة (المفاعلة) في لفظ (بلغ) من قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾ التبادُلُ والمُشاركةُ منَ الطّرفين، وفي التَّعبير بـ ﴿بَلَغَنِيَ﴾ وهو جملةٌ فعليةٌ للدّلالةِ على أنّ الكِبَرَ طرأ عليه بعد قُوّةٍ وفتُوّةٍ. في حين يحاولُ هو فَوْتَه[3].

وقال تعالى هنا: ﴿وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ﴾ فذكرَ أوّلًا كِبرَ سنّه، ثمّ حالةَ امرأتِه العاقرِ، وفي سورة مريمَ قال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨﴾ [مريم: 8]، فعكسَ إيرادَ الحالَيْن في الجُملة، ولا تعارُض، إذْ إنّ الواو لا تقتضي التّرتيبَ[4]. والمُغايرةُ في التّرتيبِ في المَوضعَيْن تدلُّ على التّعجّب من قُدرةِ الله، وكأنَّ النَّظمَ الكريمَ يَحكِي اندهاشَه عليه السلام وكأنّه يقولُ:

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/427.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/155.
(3) أديب، عصمة القرآن، ص: 23.
(4) الشربيني، السّراج المُنير: 2/417.

ما أقدَرَك ياربّ؛ فاتَ السّببُ مني ومنَ امرأتي، وفاتَ منَ امرأتي ومني، ففُقدانُ الأسبابِ أحاطَ بنا منَ الجِهَتين.

أثرُ التَّعريفُ والتَّنكيرُ في توجيه المعنى:

أفاد التَّعبيرُ نفسُه في هذه الاية أنَّ الكِبَرَ هو السببُ الأظهرُ عند زَكَريًّا عليه السلام في عدم الإنجاب. فقد أسندَ إليه البلوغَ فقال: ﴿وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾، والمُلاحظُ أنّ ﴿ٱلۡكِبَرُ﴾ جاءَ مُعرّفًا بـ (أل) و﴿عَاقِرٞ﴾ جاء نكرةً، فسلّطَ التّعجيبَ في سؤالِه على حالِ الكِبَرِ الذي قد بلغَه؛ وكمّلَ ذلك التّعجيبَ بتعجيبٍ آخرَ، فقال: ﴿وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞ﴾؛ إذ لو كان الأمرُ متعلّقًا بعقْرِ امرأتِه فلا عجبَ في الأمر، إذ يمكنُه حينَها، أن يتزوّجَ غيرَها، فلا يكونُ في ذلك خرقٌ لنواميسِ الكونِ في الإنجابِ، أمَا إنّه يعلمُ ما قد بلغَه منَ الكِبَرِ ممّا تُحيلُ العادةُ أن يُنجِبَ، وهو على حالِه الّتي بلغَها، فجاء ﴿ٱلۡكِبَرُ﴾ معرفةً لبيان هذا الجانبِ منَ التَّعجيب، ونكّرَ ﴿عَاقِرٞ﴾ للتّقليل من شأنِه، وباعتباره أمرًا إضافيًّا إلى تعجيبِه من تلك البِشارة.

أفـاد تـعـريـفُ (الـكِـبر) وتنكيرُ (عـاقِـر) تسليطَ الـتّـعـجـيـب في سؤالِه على حالِ الـكِـبَـرِ الـذي قد بلغَه

إيثارُ لفظ (المرَأة) دون (الزّوجة):

ورد في دُعاءِ زَكَريًّا ربَّه قولُه: ﴿وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞ﴾. وقولُه: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾ [مريم: 5]. ولَمّا استجابَ له ربُّه وحقّقتِ الزّوجيةُ حكمتَها، كانتِ الآيةُ: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: 90].

في مـواضـع فقدان مقوّمات الـزّوجـيّـة يـذكـر الـمـرأة، وفـي مـواضـع استقامتها يذكر الزوج

وبملْحَظٍ دقيقٍ من تقريرِ التّكامُلِ بين الزَّوجين، لم يستعملِ القرآنُ الكريمُ كلمةَ (زوجة) - وإن صحّتْ عربيةً - في الإفراد ولا في التّثنيةِ والجمعِ، بل هي زوجُه وهو زوجُها، وهما زوجان، وهنّ أزواجُهم وهم أزواجُهنّ... يطّرد ذلك حيثما وردتِ الكلمةُ في البيانِ القرآنيِّ[1]. وسببُ ذلك أنّ القرآنَ يذكرُ المرأةَ في المواضعِ

(1) بنت الشاطئ، الإعجاز البياني، ص: 231.

التي تفقدُ فيها الحياةُ الزّوجيةُ بعضَ مقوِّماتها. سواء أكان ذلك من جانبِ الرّجل أم من جانبِ المرأة، ويُؤْثَرُ كلمةَ " الزّوج " متى استقامتْ تلك الحياةُ.

اختصاصُ عاقرٍ بعدمِ التّأنيثِ في صِيغةِ (فاعل):

تركُ تأنيثِ لفظ (عاقر) لأنّه وصفٌ خاصٌّ بالأنثى لم يُؤنّث

العاقرُ المرأةُ التي لا تلدُ؛ لأنها عقرتْ رحمَها؛ أي: قطَعَتْهُ. ولأنّه وصفٌ خاصٌّ بالأنثى لم يُؤنّثْ؛ كقولِهم: حائضٌ ونافسٌ ومُرضعٌ، ولكنّه يُؤنَّثُ في غيرِ صيغةِ الفاعلِ، فمنه قولُهم: عَقرى دُعاءٌ على المرأة، وفي الحديثِ: «عَقْرَى حَلْقَى وكذلك نُفساء»[1]، وقال ابنُ عطيّة: و﴿عَاقِرٞۖ﴾ بناءُ فاعلٍ وهو على النَّسبِ، وليس بجارٍ على الفعلِ[2].

وجه افتتاح الفاصلة باسم الإشارة:

الاشارةُ بـ (ذلك) إلى القدرةِ المُعجزة المُستَعْظَمة، أو إلى حالِ زَكَرِيَّا وحالِ امرأتِه

معنى الإشارة بـ (ذلك) في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ﴾، أي: كهذه القدرةِ المُستغربةِ هي قدرةُ اللّه، وفي التّعبير باسمِ الاشارةِ الإشعارُ بفخامةِ المُشارِ إليه من كونِه إحدَى المُعجزاتِ. ففي الكلامِ حذفُ مضافٍ، والكلامُ تامٌّ في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، وقولُهُ: ﴿ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ شرحُ الإبهامِ الذي في (ذلك)، ويحتمل أن تكونَ الإشارةُ بـ (ذلك) إلى حالِ زَكَرِيَّا وحالِ امرأتِه، فقال: كما أنتما يكونُ لكما الغلامُ، والكلامُ تامٌّ على هذا التأويلِ في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾.

الافتتاح باسم الإشارة دليلٌ على بُعدِ تحقّق الفعل على غير الله تعالى

استأنف القول في جملة: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ باسم الإشارة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الدّال على البعد، أي: مثلُ هذا الفعلِ الجليلِ البعيدِ الرُّتبةِ[3]. الذي تعجّبت منه ليس على اللّه ببعيد؛ لأنّه يفعل ما يشاء، فهو القادر.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/242، والحديث أخرجه البخاري، الحديث رقم: (1561).

(2) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/427.

(3) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/78.

التّشبيهُ والتَّوكيدُ والتّحقيقُ في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

السّرُّ في المَجيءِ بكاف التَّشبيه هنا هو بيانُ تمامِ المُطابقةِ بين الحقيقةِ الخارجيةِ، والحقيقةِ الكلامية

قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾، صورةٌ تشبيهيّةٌ؛ المُشبَّهُ به اسمُ إشارةٍ (ذلك)، والمُشبّهُ هو فعلُ اللّه؛ كلُّ ما يشاءُ منَ الأفعال، والتّقديرُ: مثلُ ذلك الفعلِ، والتّقديرُ في خَلْقِ الولد من عجوزَيْن تَنفي العادةُ إمكانَ إنجابِهما؛ مثل ذلك الفعلِ يفعلُ اللّه ما يشاء، وما يريدُ في طلاقةِ القُدْرة عليه يفعل اللّه كلَّ ما يُريدُ، وقولُه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾: يكونُ أمرُ التَّشبيه فيها غيرَ ظاهرٍ، فيُحملُ معناها على التَّوكيد وإن صحَّ معها تقديرُ التَّشبيه. ويقدِّرُ بعضُ العلماء في مثلِ هذا التّركيبِ أنّ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ تقديرُه: الأمرُ كذلك، والمرادُ هو ما أُخبرتَ به، لا ريْبَ فيه، ومن ﴿كَذَٰلِكَ﴾ هذه التي للتَّحقيقِ والتَّوكيد. ولعلّ السّرَّ في المَجيءِ بكاف التَّشبيه هنا هو بيانُ تمامِ المُطابقةِ بين الحقيقةِ الخارجيةِ، والحقيقةِ الكلاميةِ، أي: إنَّ ما يكونُ في الواقع يُطابِقُ ما دلَّ عليه الكلامُ، وتفيدُ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ التَّحقيقَ إذا كَوّنتْ هي ومبتدؤُها جملةً مستقلّةً، كما في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾، و﴿كَذَٰلِكَ﴾: هنا تُؤدِّي معنى قد، وربما جاءتْ إفادتُها للتَّحقيق، من كثرةِ مجيئِها لبيانِ التّطابُقِ؛ واستعمالُ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ للتَّحقيقِ والتَّوكيدِ لا يقلُّ عنِ استخدامِها في التَّشبيه[1].

نكتة التعليل بـ (الفعل) في الفاصلة:

وجه التعليل بـ(الفعل) استنباؤُه عنِ القوّةِ والكمالِ لا عنِ الخَلْق

ولمّا كان استنباؤُه عنِ القوّةِ والكمالِ لا عنِ الخَلْق عبَّر - سبحانه - في تعليلِ ذلك بـ (الفعل) فقال: ﴿ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾؛ لأنّه المحيطُ بكلِّ شيءٍ قُدرةً وعِلمًا، فكأنه قيل: قد قرّتْ عينُه[2]، بخلافِ ما يأتي في قصّةِ مريمَ عليها السلام.

(1) البدويّ، من بلاغة القرآن، ص: 165.
(2) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/78.

سرُّ التعبير بالجُملةِ الاسميّةِ في الفاصلة:

اسمـيّـةُ جملة الفاصلة دليلُ الثُّبوتِ، فالأمرُ راســخٌ في قـدَرِ الـلـه سبحانه، ولا تـغـيـيرَ لكلماتِ الله في قضائِه وقَـدَرِه سبحانه

أورد الفاصلة: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ جملةً اسميةً، ولم يقل: (يفعل اللّه ما يشاء)، لكونها جملةً مبيّنةً مقرّرةً في النّفسِ وقوعَ هذا الأمرِ المُستغربِ[1]. وهي دالّةٌ على الثُّبوتِ، فالأمرُ راسخٌ في قدَرِ اللّه سبحانه، ولا تغييرَ لكلماتِ اللّه في قضائِه وقَدَرِه سبحانه، ولو كانتِ الجملةُ فعليةً لدلّتْ على التّجدُّدِ والاستمرارِ، فتكونُ تلك الحالةُ سنّةً كونيّةً ممكنةً للنّاس جميعًا، فلا يَمتنعُ الإنجابُ بسببِ بلوغِ الكِبَرِ، وحالةِ المرأةِ العاقرِ.

نكتة تقديم لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾:

دَلالـةُ التقديمِ الـقَـصْـرُ؛ فالله مخصوصٌ بفعل مايشاءُ وحدَه

وقُدِّم لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ على خبره الذي وقع جملةً فعليةً، ﴿يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ وفي ذلك دَلالةٌ على القَصْرِ؛ فاللّه مخصوصٌ بفعل مايشاءُ وحدَه.

(1) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 1/427.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٤١﴾ [آل عمران: 41]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

جاءتِ الآيةُ تتضمَّنُ جوابًا عن سؤالٍ أثارتْهُ الجملةُ السّابقةُ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ٤٠﴾، فجاءتْ هذه الآيةُ استكمالًا للحوارِ الذي بدأَ بين الملائكةِ وزَكَرِيَّا مُتضمّنًا السُّؤالَ والجوابَ، فزَكَرِيَّا عليه السلام يسألُ اللّه - تعالى، وجبريلُ عليه السلام يُجيبُ بما أوحاه اللّه وقدَّرَهُ، فلمَّا جاءتْه البُشرى بالولدِ على غيرِ الأمرِ المُمكن، وأَخْبر بأنّ هذا من شأنِ اللّه فهو يفعلُ ما يشاء، وما تلك السُّننُ الكونيّةُ في الخَلْقِ إلّا من مشيئةِ اللّه تعالى، وتغييرُها يكونُ بمشيئتِه - سبحانه - ففَهِمَ زَكَرِيَّا فهمًا إجماليًّا أنّ هناك سُننًا أُخرى لا يعلمُها تقومُ بصدِّ الموانعِ، فطلب زَكَرِيَّا من ربِّه أن يُعطيَه آيةً على هذه المعجزةِ تكونُ شكرًا للّه - سبحانه - على ما أعطَى.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَمۡزٗاۗ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (رَمَز)؛ والرّمزُ باللّسان: الصّوتُ الخفيُّ. ويكونُ الرّمز: الإيماءَ بالحاجب بلا كلام، ويعبَّر عن كلِّ كلامٍ كإشارة بالرّمز، وهذا هو المعنى السِّياقيّ، ومثلُه الهَمْسُ. ويقال للرّجل الوقيدِ: ارتمز. وقد يُقالُ للجاريةِ الغمّازةِ الهمّازةِ بعينها، واللّمّازةِ بفمها: رمّازة، ترمزُ بفمِها، وتغمِزُ بعينها. ويُقال: الرَّمْزُ: تحريكُ الشَّفتين[1].

2) ﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (عَشَو)، و(عشيَ): العَشْو: إتيانُك نارًا ترجُو عندها خيرًا وهدًى. عَشَوْتُها أَعْشُوها عَشْوًا وعُشُوًّا. قال الحُطيئةُ:

متى تأتِه تعشو إلى ضَوْءِ نارِه*** تَجِدْ خَيْرَ نارٍ عندها خيرُ مُوقِدِ

والعاشيةُ: كلُّ شيءٍ يعشو إلى ضوء نارٍ باللّيل كالفَراشِ وغيرِه، وكذلك الإبلُ العَوَاشي، قال:

وعاشيةٍ حوشٍ بطانٍ ذَعَرْتُها*** بضربِ قتيلٍ وَسْطَها يَتَسَيَّفُ

(1) الخليل، العَين، وابن سيده، المُحكم، والراغب، المُفردَات، والزمخشري، أساس البلاغة، وابن منظور، لسان العرب: (رمز).

تقول: لقيتُه في عَشْوةِ العَتَمَة، وعَشْوةِ السَّحَر. وأصلُه من عشواء اللّيل، والعشواءُ بمنزلة الظّلماء، وعَشْواء الليل ظُلمتُه[1]، من حين تزولُ الشّمسُ إلى أن تغيبَ[2]. قَالَ ابْنُ الأَنْبَارِيِّ: العَشِيَّةُ مُؤَنَّثَةٌ وَرُبَّمَا ذَكَّرَتْهَا العَرَبُ عَلَى مَعْنَى العَشِيِّ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: العَشِيَّةُ وَاحِدَةٌ جَمْعُهَا عَشِيٌّ[3]. وقَوْلُه ﷺ: «إِحْدَى صَلاتَي العَشيّ» يُرِيد الظّهْر وَالعصر وَكَانُوا يصلّونَ الظّهْر بعَشيّ، والعَشيُّ مَا بعد زَوَال الشَّمْس إِلَى غُرُوبهَا، قَالَ البَاجيّ: إذا فَاء الفيءُ ذِرَاعا فَهُوَ أوّلُ العشيّ وَذكر صَلَاةَ العشَاءِ وَالعشَاءِ الآخِرَة وَهِي العَتَمَةُ، وَقَالَ الخَليل: العشَاءُ عِنْد العَامَّة من غرُوب الشَّمْس إِلَى أَن يولّي صدرُ اللَّيْل، وَبَعْضُهمْ يَجعلُه إِلَى الفجْر، وقَالَ يَعْقُوب: العشَاءُ من صَلَاة المغرب إِلَى صَلَاة العِشَاء، وَالعشَاء آخرُ النَّهَار، وَالعشَاء أوّلُ الظلام يُقَال: أَتَيْتُك عشَاءً، وَقيل: إِنَّمَا قيل صَلَاةُ العِشَاء والعَشيّ لأجل إقبالِ الظلامِ؛ لِأَنَّهُ يُعشي البَصَرَ عَن الرُّؤْيَة[4].

﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾: مَا بعد زَوَال الشَّمْس إِلَى غُرُوبها.

3) ﴿وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (بَكَر) بكسر الهمزة مصدرٌ لأبكر بمعنى بكّر، ثم استُعملَ اسمًا، وهو طلوعُ الشَّمسِ إلى وقتِ الضُّحى[5]. وأصلُه المبادرةُ لأوّلِ الشّيءِ، ومنه التَّبكيرُ وهو السّرعةُ، والباكورةُ وهو أوّلُ ما يبدُو منَ الثّمرِ، فالإبكارُ اقتطافُ زهرةِ النَّهار وهو أوّلُه[6].

بكّرَ المُسافرُ وأبْكَر وبَكّر وابتَكَر وتبَكّر: خرج في البُكرَةِ. قال ذُو الرُّمّة[7]:

خُوصٌ يَرى أَشْرَافَها التَّبَكُّرُ *** قَبْلَ انْصِداعِ العَيْنِ والتَّهَجُّرُ

وباكره: بكّر إليه. وتقول: المباكرةُ مباركةٌ. وأتيتُه باكرًا وبُكرةً وبُكرًا. ومنَ المجاز: بكّرَ بالصَّلاة: إذا صلاها في أوّلِ وقتِها[8].

(1) الخليل، العَيْن، والراغب، المُفردَات، والزمخشري، أساس البلاغة، وابن منظور، لسان العرب: (عشو).
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/502.
(3) الفيومي، المصباح المنير: (عشي).
(4) الراغب، المُفردَات، وعياض، مشارق الأنوار، والفيومي، المصباح المنير: (عشي).
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/502.
(6) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/79.
(7) ديوان ذي الرّمة، ص: 202.
(8) الزّمخشري، أساس البلاغة: (بكر).

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

لَمَّا سمعَ زَكَرِيَّا عليه السلام هذه البِشارةَ طغتْ عليه - بمُقتضَى الطّبيعةِ البَشريّةِ - موجَةٌ من شدّةِ الحِرصِ على تحقُّقِ مأْرَبه في أمرٍ محبوبٍ، فسألَ ربَّه أنْ يَجْعل له علامةً يستدلُّ بها على وجود الولد منْه؛ ليحصلَ له السرور والاستبشار، فأجابه اللّهُ تعالى: علامتك التي طلبتها: ألّا تستطيعَ التحدُّثَ إلى الناس ثلاثةَ أيامٍ إلّا بإشارة إليهم بالشّفتين أو الحاجبَين، أو الإيماءِ باليدِ والرّأسِ، مع أنك سويٌّ صحيحٌ، فامتَنَعَ من الكلام ثلاثةَ أيام، وفي هذه المدَّة أكثِرْ من ذكر ربِّك وشكره، وصلِّ له أواخر النهار وأوائله[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الفصل في الآية:

وجه الفصل مجيء الآية على طريق المحاورة

قال ابن عاشور: "وإنما حذفوا العاطف في أمثاله كراهيةَ تكريرِ العاطف بتكرير أفعال القول؛ فإنّ المحاورة تقتضي الإعادة في الغالب فطَرَدُوا الباب فحذفُوا العاطف في الجميع، وهو كثير في التنزيل"[2].

سرُّ تحديد العددِ في قوله: ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾:

من سُنّةِ المُصطفى صلى الله عليه وسلم التّثليثُ في كلِّ شيءٍ، وفيه إشارةٌ إلى الانسجامِ بين التَّشريعاتِ السّماويةِ

المرادُ ثلاثةُ أيام بلياليها، يدلُّ على ذلك قولُه في سورة مريمَ: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ١٠﴾ [مريم: 10]، وهذا يضعِّفُ تأويلَ مَن قال: أُمِرَ بالصّوم ثلاثةَ أيام، وكانوا لا يتكلّمون في صومِهم، والليالي تُبعد مشروعيةَ صومِها. وأهمّيةُ العددِ هنا تنسجم مع ما ورد في الإسلام؛ لأنّ منَ السُّنّةِ التّثليثَ في كلِّ شيء كما ذكر الفقهاءُ، وهذه إشارةٌ إلى الانسجامِ بين التَّشريعاتِ السّماويةِ.

(1) المَوصِلّي، أولى ما قيل: 2/468 - 469، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 55.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/401.

الإطلاقُ في تحديدِ أيّامِ الصّوم:

وجـــه إطـــلاق الأيـــام الثلاثة التخيير في منع التكليم في أيّ وقـت، أو حين الخطاب

ولم يُعيّنْ ابتداءَ الأيّامِ الثّلاثةِ، بلْ أطلقَ فقال: ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾، فإن كان ذلك بتكليفٍ فيُمكنُ أن يكون ذلك موكولًا إلى اختيارِه، يَمتنعُ من تكليمِ النّاس ثلاثةَ أيّام متى شاءَ، ويُمكنُ أن يكونَ ذلك من حينِ الخطابِ، وإنْ كان بمنْعٍ قهْريٍّ فيظهرُ أنّه من حينِ الخطاب[1]، والأوْلَى أنّه من حينِ الخطابِ لما فيه من تعجيلِ الشُّكْر للّه، ومباشرةِ ما اختار اللّه له من آية الإنجاب.

بلاغة المَجازُ في قولِه: ﴿ءَايَتُكَ﴾:

وجه المجاز الأمر بالتزام الذِّكْرِ على رأيِ أنّ حبْسةَ لسانِه كان أمرًا وجبَ فعلُه

الـ (آيةُ) الأُولى علامةٌ؛ و﴿ءَايَتُكَ﴾ الثّانيةُ، وفي قولِه: ﴿ءَايَةًۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ مجازٌ عنِ الأمر بالتزام الذِّكْرِ على رأيِ مَن قال: إنّ حبْسةَ لسانِه كان أمرًا وجبَ على زَكَرِيًّا فعلُه، وهو الأوْلَى والأليقُ بنبيّ، فكان يستطيعُ الكلامَ لكنّه أُمِرَ بالتزام عدمِ الكلامِ مع النّاسِ إلا رمزًا، فأمرَه بالامتناعِ منَ الكلامِ مع النّاسِ، أي: متى تمّتْ ثلاثةُ الأيامِ كان ذلك أمارةَ ابتداءِ الحَمْل. وتناسبتْ هذه الآيةُ، وهي حبسُ النَّفْسِ عنِ الكلامِ إلّا ذِكرًا، وتسبيحًا صفةَ ﴿وَحَصُورًا﴾ عند ابنِه يحيى، إذ حصَر نفسَه عن إتيانِ النّساءِ، وعدمِ انشغالِ النّفس بعروض الدّنيا؛ فتناسبتِ الآيتانِ وانسجمتا مَضْمونًا وغايةً.

بيانُ الاستثناء بين الاتّصالِ والانقطاعِ:

الإشـارةُ بالرّمز تُـــؤدّي معنى الـكـلامِ، ممّا يَـسـتـدعـي اعـتـبـارَها من صِنفِ الكلامِ

وقولُه: ﴿إِلَّا رَمْزًاۗ﴾ استثناءٌ متّصلٌ؛ إذ لما أدّى مُؤدَّى الكلامِ، وفُهِمَ منه ما يُفهم منه، سُمّي كلامًا. فقولُه: ﴿إِلَّا رَمْزًاۗ﴾ دَلالةٌ على أنّ الإشارةَ تتنزّلُ منزلةَ الكلامِ، وذلك موجودٌ في كثيرٍ منَ السُّنّةِ. وفي الحديث: «أين اللّه»، فأشارتْ برأسها إلى السّماء، فقال:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/139.

«أعتقها فإنها مؤمنة»[1]. فأجاز الإسلامَ بالإشارةِ[2]. فمَن أطلق الكلامَ في اللّغة على الإشارةِ الدالّةِ على ما في نفس المُشير، فلا يبعدُ أن يكون هذا استثناءً متّصلًا على مذهبه. ويمكنُ أن يكونَ استثناءُ الرّمز منقطعًا؛ إذِ الرّمزُ لا يدخلُ تحت التّكليم، واختار ابنُ عطيةَ قولَه: والكلامُ المرادُ به في الآية إنّما هو النّطقُ باللّسان، لا الإعلامُ بما في النّفسِ، فحقيقةُ هذا الاستثناء أنّه منقطعٌ، وبدأَ به أوّلاً، فقال: استثناءُ الرّمزِ وهو استثناءٌ منقطعٌ. ثم قال: وذهبَ الفقهاءُ في الإشارةِ ونحوِها إلى أنّها في حُكمِ الكلامِ في الإيمانِ ونحوِها، فعلى هذا يجيءُ الاستثناءُ متّصلًا[3].

بلاغة المجاز في إطلاق الكلامِ على الفِعل في قوله: ﴿إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾:

الرّمزُ تلطُّفٌ في الإفهام بإشارة تحرّكِ طرفٍ كاليد، واللّحظِ والشّفتين ونحوِها

في قولِه: ﴿قَالَ﴾؛ إرادةَ تعجيلِ البُشرى وتحقيقِ السّرّاء: ﴿رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ﴾؛ أي علامةً أعلمُ بها ذلك ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾؛ أي لا تقدرُ على أن تكلّمَهم بكلامٍ دُنيويٍّ ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾، ولما كان الكلامُ يُطلقُ على الفعل مجازًا استثنَى منه قولَه: ﴿إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾ لتَخلُص هذه المُدّةُ للذّكر شُكرًا على النّعمةِ فاحمدْ ربَّك على ذلك. قال الحَرَالّي: والرّمزُ تلطُّفٌ في الإفهام بإشارةِ تحرّكِ طرفٍ كاليد، واللّحظِ والشّفتين ونحوِها، والغمزُ أشدُّ منه باليد ونحوِها[4].

فنُّ الإشارةِ في قولِه: ﴿رَمۡزٗاۗ﴾:

فنُّ الإشارة يَمتلكُ طاقةً كامنةً تُعطي القُدرةَ على التّفاهُم بأنواع الحركاتِ، وقد أصبحتْ عِلمًا تتداولُه مدارسُ البُكْم

في قولِه تعالى: ﴿رَمۡزٗاۗ﴾ فنُّ الإشارة، وفيه بيانُ جوازِ الإفهام بالإشارةِ، فهو دالٌّ على ما في نفسِ البشرِ من خَلجاتٍ ومعانٍ[5]. والرّمزُ: الإشارةُ بالشّفةِ، والغمزُ بالعينِ والحاجبِ[6]، وهو دليلٌ

---

(1) مسلم، حديث مسلم، الحديث رقم: (1227).
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/361.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/140.
(4) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/78.
(5) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 3/172.
(6) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/548.

أيضًا على أنّ الإشارةَ والرّمزَ من فُنون الكلامِ، وما يَحويه هذا الفنُّ من طاقةٍ كامنةٍ في إفهامِ النّاسِ.

التّناسُبُ المَعنويّ بين لفظي: ﴿ءَايَةٗۖ﴾ و﴿رَمۡزٗاۗ﴾:

جعل الله تعالى آيـة زكـريا عليه السلام أن يتكلّمَ بالرّمزِ

قيلَ في قوله: ﴿ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ﴾ أنّه: طلبَ علامةً لوقتِ الحمْل، فمنعه تعالى من الكلام مع النّاس ﴿إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾، أي: إيماءً[1] وإشارةً؛ مع تمكّنِه من ذكرِ اللّه، فجعل آيتَه أن يتكلّمَ بالرّمزِ، فاقتربَ معنى ﴿ءَايَةٗۖ﴾ وهي المعجزةُ، من معناها الحقيقيّ؛ فكانتْ معجزةُ ولادةِ يحيى وكانت آيةَ البدايةِ لهذا الأمر، أي: إشارتُه أن يكلّمَ النّاسَ بالإشارةِ والرّمزِ، والتّناسُبُ كبيرٌ بين الآية على هذا المعنى، والرّمزِ؛ الذي هو فنُّ الإشارةِ.

توجيه مَعنَى الدّعَاءِ في النِدَاء والأمر:

انسجامُ النّفسِ في الــدُّعــاءِ والـتّـضـرُّعِ إلى الـلـه لــهُ آثــارٌ مُهمّةٌ في حياةِ المُؤمنِ

قولُه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ﴾ أمرٌ خرجَ إلى معنى التّضرُّعِ والدُّعاءِ فأرادَ زَكَرِيَّا آيةً على وقتِ حصولِ ما بُشّرَ به، وهل هو قريبٌ أو بعيدٌ، فالآيةُ: هي العلامةُ الدّالّةُ على ابتداءِ حمْلِ زَوجه، آيةٌ تُحقّقُ كونَ الخطابِ الواردِ عليه، والأنبياءُ لا يَلتبسُ عليهم الخطابُ الواردُ عليهم منَ اللّه، ويعلَمُونَهُ بعلمٍ ضروريٍّ[2]، فقولُه: ﴿رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ﴾ أي: علامةٌ أعرِفُ بها الكرمَ الإلهيَّ لأستقْبِلَه بالبَشاشةِ والشُّكرِ[3].

بَلاغةُ الأُسلوبِ الحكيمِ:

طلبَ زَكَرِيَّا آيةً على بِشارته بالولدِ، فأُعطيَ ذكرًا وتسبيحًا وشُكرًا؛ فيكونُ الجوابُ على هذا الوجهِ من قَبيل أسلوبِ الحكيمِ[4]؛

---

(1) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/548.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/242.

(3) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/16.

(4) أسلوب الحكيم: صرفُ كلامِ المتكلّم أو سؤالِ السائل عن المراد منه، وحملُه على ما هو أولى بالقصد، أو إجابته على ما هو أولَى بالقصد.

لأنه سأل آيةً فأُعطيَ غيرَها[1]. وهو الذّكر. وفي هذا التّوجيهِ دروسٌ عظيمةٌ؛ فذِكرُ اللّه تعالى كثيرًا، وتسبيحُه - سبحانه - بالعَشيِّ والإبكارِ، يأتي للإنسانِ بالخيرِ العظيم، والآيةُ الأُولى هي العلامةُ، والثانيةُ الأمرُ بالتزامِ الذّكرِ؛ وهي مجازٌ هنا، كما بيّنّا آنفًا.

قـد يسعى الإنسانُ إلى تحقيقِ ما يراه خَيرًا له، ولو عَلِمَ ما في الذِّكْر مِنَ الخير، لجَعلَه هدفًا وغايةً كُبرى في حياتِه

توجيه الاختلاف في تأويل منْعِ الكلامَ:

واختلفُوا في منْعِه الكلامَ على فريقين: الأوّلُ: أنّ امتناعَه عنِ الكلامِ كان لآفةٍ نزلتْ به، فأخذَ اللّه عليه لسانَه فجعلَ لا يقدرُ على الكلامِ، آيةً بعد مُشافهةِ الملائكةِ له بالبِشارةِ. وكانت الآيةُ حبْسَ اللّسانِ لتَخلُصَ المدّةُ لذكرِ اللّه لا يَشغلُ لسانَه بغيرِه توفُّرًا منه على قضاءِ حقِّ تلك النِّعمةِ الجسيمةِ وشُكرِها، وإنّما خصّ تكليمَ النّاسِ ليُعلمَه أنه يَحبسُ لِسانَه عنِ القُدرةِ على تكليمِهم خاصّةً، مع إبقاءِ قُدرتِه على التّكلُّمِ بذكرِ اللّه، ولذلك قال: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ يعني في أيّامِ عجْزِك عن تكليمِ النّاس[2].

حبْسُ اللّسانِ إلّا عن ذكرِ الله، أو قولِ الخيرِ تمرينٌ عظيمٌ لمن أرادَ تزكيةَ النّفسِ

الثاني: كان امتناعُه من ذاتِه أي لغيرِ آفةٍ، والمعنى: آيتُك أنْ تصيرَ مأمورًا بأن لا تكلّمَ الخَلْقَ، وأن تَشتغلَ بالذّكر شُكرًا على إعطاءِ هذه الموهبةِ، وإذا أُمرتَ بذلك فقد حصلَ المطلوبُ[3]. كأنّه لمّا طلبَ الآيةَ من أجلِ الشُّكرِ قيل له: آيتُك أن تحبسَ لسانَك، إلّا عن الشُّكر. وأحسنُ الجوابِ وأوقعُه ما كان مُشتقًّا منَ السّؤالِ ومُنتزَعًا منه، ﴿إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾ إلّا إشارةً بيدٍ أو رأسٍ أو غيرِهما، وأصلُه التّحرّكُ، يقال ارتمز: إذا تحرّكَ، ومنه قيل للبحر: الراموز. وقرأ يحيى بن وثّاب: ﴿إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾ بضمتين، جمع رموز كرسول ورسل. وقرئَ (رَمَزًا) بفتحتين جمع رامز كخادم وخدَم، وهو حالٌ منه ومن النّاسِ دفعةً[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/243.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/359، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/138.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/138.

(4) الزمخشري، الكشاف: 1/361.

خروجُ أمرِ الذّكر إلى معنى التَّوجيهِ والإرشادِ:

معنى الذكر إثبات الإحاطة له تعالى بكلّ كمالٍ

في قولِه: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾؛ أيّ بالحَمدِ وهو أنْ تُثبتَ له الإحاطةَ بكلّ كمالٍ ﴿كَثِيرٗا﴾ في الأيّامِ التي مُنعتَ فيها من كلامِ النّاسِ خصوصًا، وفي سائر أوقاتك عُمومًا ﴿وَسَبِّحۡ﴾؛ أي: أوقعِ التّسبيحَ المطلَقَ لربّك بأن تنفيَ عنه كلَّ نقصٍ ﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾؛ أي وقتَ العِشاءِ، و﴿وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ أوّلُ النّهار[1]. فالأمرُ على حقيقتِه في قولِه: ﴿وَٱذۡكُر﴾ و﴿وَسَبِّحۡ﴾ في حق زَكَرِيَّا عليه السلام لكنّه يخرجُ إلى التّوجيهِ والإرشادِ لعُمومِ النّاس، بيانًا لأهمّيّة الذّكرِ في حياةِ المسلم، وما فيه منَ الصِّلةِ مع اللّه تعالى، ومعيّته، وسكينة النّفس، وسعادة الدّار. وتوحيده سبحانه.

معنى أنَّ الذِّكْر لـزَكَـرِيَّـا جاء إرشـادًا للنَّاس جميعًا ليكون في حياتِهم سجيّةً

يُمكنُ أن يكون الذّكرُ في قوله ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا﴾، هنا بالقلبِ؛ لأنّه مُنع منَ الكلامِ. ويُمكنُ أن يكونَ باللّسان؛ لأنّه مُنع منَ الكلامِ مع النّاسِ ولم يُمنعْ منَ الذّكر. فالأمرُ بالشُّكرِ والذّكرِ المرادِ به: الذّكرُ بالقلب والصّلاة إن كان قد سُلِبَ قوّةَ النُّطقِ، أو الذِّكرُ اللّساني إن كان قد نُهيَ عنها فقط[2].. وقال محمّدُ بنُ كعبٍ القُرَظي: لو رُخِّص لأحدٍ في تركِ الذِّكرِ لرُخِّصَ لزَكَرِيَّا، وللرّجلِ في الحربِ. وقد قال تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأنفال: 45] وأمَرَ بكثرةِ الذِّكر ليَكثُرَ ذكرُ اللّه له بنِعمِه وألطافِه، كما قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: 152][3].

أذكـارُ الصّباح والمساءِ مُهمّةٌ في حياة المُسلم، ومَنْ داوم عليها استرشدَ بأمرِ الله

بَلاغةُ وضعِ المُظهرِ موضعَ المُضمرِ:

في قولِه: ﴿رَّبَّكَ﴾ وضعٌ للمُظهَر موضعَ المُضمَر، فالسِّياقُ كان: واذكرْني كثيرًا، وفي ذلك استحضارُ عَظَمةِ اللّه في حياةِ النّاسِ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/79.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/243.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/141.

وتجديدُ استحضارِ عَظَمةِ الخالِقِ سبحانه، والإنابةِ إليه وتكرارِ ذكره وجعل العَشيّ والإبكار كمُرشدَين، يُذكّران بتسبيحِ اللّٰه وذكْرِه.

علّة التّأكيد في قولِه: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا﴾:

الإكثارُ منَ الذّكر نعمةٌ عُظمى يُوفّقُ الله تعالى إليها من يحبُّ من عباده، وهي حفاوةٌ إلهيّةٌ لمن داومَ عليها

قولُه: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا﴾ في أيامِ الحبْسةِ، وهو مؤكِّدٌ لما قبله مبيِّنٌ للغرضِ منه، وتقييدُ الأمرِ بالكثرةِ يدلُّ على أنه يفيدُ التّوكيدَ لا التّكرارَ[1]. أو قولُه: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا﴾، يعني في أيّامِ عَجْزكَ عن تكليمِ النّاس، وهي مِنَ الآياتِ الباهرةِ. وأنّ الأمرَ بالذّكر والتّسبيحِ ليس مُقيَّدًا بالزّمانِ الذي لا يُكلّمُ فيه النّاسَ[2]، وإنّما أُريدَ بالكثرة هنا الدّوامُ على الذّكرِ ما دام الإنسانُ حيًّا؛ فيكونُ الكثيرُ مجازًا عنِ الدّوام، والاستمرارِ فيه. ليعمَّ الأزمنةَ كلَّها.

توجيه المَجاز في قوله: ﴿وَسَبِّحۡ﴾:

فائدة المجازِ أن تكونَ ساعاتُ وقتِك كلُّها على نهْجِ صلاتِك منقطعًا عن حديثِ النّاسِ ومحادثَتِهم

وقيل: معنى وسبّحْ؛ أي: وصلِّ، ومنه: كان يصلّي سُبحة الضّحى أربعًا، ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣﴾ [الصافات: 143] على أحد الوجهين[3]. قال الزّجّاج: يقال: فرغتُ من سُبحتي، أي: من صلاتي. وسُمّيتِ الصّلاةُ تسبيحًا، لأنّ التّسبيحَ تعظيمُ اللّٰه، وتبرئتُه منَ السُّوءِ، فالصّلاةُ يوصفُ فيها بكلِّ ما يُبرّئُه منَ السُّوءِ[4]. وفائدةُ هذا المجازِ أنّ فترةَ الصّلاةِ يكون فيها الإنسانُ المُتعبّدُ منقطعًا عن كلامِ النّاسِ ومخالطتِهم، وأرادَ منَ المجازِ أن تكونَ ساعاتُ وقتِك كلُّها على نهْجِ صلاتِك منقطعًا عن حديثِ النّاسِ ومحادثتِهم، وهذا المجازُ يُرشّحُ المعنى الذي ذهب إليه جمعٌ منَ المفسّرين: أنّ حبْسَ كلامِه كان بمحْضِ إرادته، فتكونُ ساعاتُ يومه كلُّها صلاةً.

ويدلُّ على أنّ المرادَ بالتّسبيحِ الصّلاةُ، ذكرُه العشيّ والإبكار،

(1) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/16.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/139.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/141.
(4) ابنُ الجوزيّ، زاد المسير: 1/281.

فكأنه قال: اذكر ربَّك في جميع هذه الأيامِ والليالِي، وصلِّ طَرفَيِ النّهارِ[1].

علّة حذفُ معمولِ ﴿وَسَبِّحۡ﴾:

ومفعول: ﴿وَسَبِّحۡ﴾، محذوفٌ للعلم به؛ لأنّ قبْلَه: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا﴾، أي: وسبِّح ربَّك. والباء في: بالعشيّ، ظرفيةٌ أي: في العشيّ. وفائدةُ حذفِه لجواز أن يكونَ التّسبيحُ على الحقيقةِ أو المجازِ، فيكونَ على الحقيقة مُفصّلًا لما أُجمل قبْلَه، أو أن يكونَ مجازًا بمعنى الصَّلاةِ، كما ذكرنا آنفًا، فقد جمعَ بهذا الحذفِ والاكتفاءِ المَعنيين.

وجه الاستغناء بالمذكور للعلم بالمحذوف على الحقيقةِ أو المجازِ

الانتقالُ منَ العامِّ إلى الخاصِّ في الذّكرِ والتّسبيحِ:

في قولِه: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ فقولُه: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا﴾ عامٌّ في الذّكر وكثرته في أوقات اليوم واللّيلةِ، ثم أتبعَها بالتّوجيه إلى أوقاتٍ يختصُّ فيها تسبيحُ اللّه تعالى، فقال: ﴿وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ فانتقل منَ العامِّ إلى الخاصِّ على اعتبار أنّ الذِّكرَ والتّسبيحَ يشتركان بمعنى الذِّكر للّه تعالى، فقولُه: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا﴾ يعني عمومَ الذّكر في أحوالِ الإنسانِ كلِّها، سواءٌ ذكرُ اللّه في صلاةٍ، أو في غيرِ صلاةٍ، أمّا قولُه: ﴿وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾، فهو الذّكرُ في الصَّلاة حصرًا؛ فانتقلَ الخطابُ من ذكر العامِّ إلى الخاصِّ.

التّنوّعُ في أحوالِ الذّكر لله تنسجمُ مع أحوالِ النّاسِ وظروفِهم وأبرزُ ما يحقّقُه الإنسانُ أن يكونَ لسانُه رطبًا بذكرِ الله

بلاغةُ الطِّباقِ في قولِه: ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾:

بين كلمتَيْ ﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾ و﴿وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ طباقٌ؛ وهو منَ المُحسّناتِ البديعيةِ. وقولُه: ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ ولم يعنِ التّسبيحَ في طَرفَيِ النّهارِ فقط، بل أرادَ إدامةَ العبادةِ في هذه الأيامِ الثلاثةِ[2]. وهذا هو مفهومُ الشّمولِ الذي دلّ عليه الطّباقُ، وفي قولِه: ﴿بِٱلۡعَشِيِّ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/142.

(2) الراغب، تفسير الراغب: 2/550.

لم يعنِ التّسبيحَ في طَرفَي النّهار فقط، بل أرادَ شُمولَ الأوقاتِ كلِّها، وإدامةَ العبادةِ

﴿وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ تعبيرٌ عن زمانين متقابِلَين، يكونان في أوّل النهار، وأوّلِ اللّيل على التّرتيب، وَسَبِّحْ بِالعَشِيِّ منَ الزّوال إلى الغروب. وقيل: منَ العصر أو الغروب إلى ذهاب صدر اللّيل. وَالإِبْكارُ من طلوع الفجرِ إلى الضُّحى. وقرئَ بفتح الهمزة جمع بَكَر كسَحَر وأسحار[1]. وفيها دلالةُ شمولِ أوقاتِ اليومِ واللّيلةِ كلِّها، ثمّ فيها تنبيهٌ إلى أهمّيّةِ الذّكرِ في هذين الوَقْتين، وتسبيحِ اللّه فيهما.

بلاغة المَجاز في قولِه: ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾:

وجه المجاز احتمال التعبير بجزء كلِّ واحد منهما عن جُملتِه

﴿وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾: أي: نزِّهِ اللّه عن سماتِ النّقصِ بالنّطقِ باللّسان بقولك: سبحان اللّه، والظاهرُ أنّه أمرٌ بتسبيح اللّه في هذين الوَقْتين: أوّلِ الفجر، ووقتِ مَيْلِ الشّمس للغروب، قاله مُجاهدٌ. وقال غيرُه: يحتملُ أن يكونَ أرادَ بالعشيّ اللّيلَ، وبالإبكار النّهارَ، فعبّر بجُزء كلِّ واحد منهما عن جُملته، وهو مجازٌ حسنٌ[2]. وهذا يُرشّحُ دَلالةَ الشُّمول في الطّباق بين ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾.

التّناسُبُ والتّقابُلُ في قراءة (والأبكار):

وقرىء شاذًّا: (والأبكار)، بفتح الهمزة، وهو جمع (بَكَر) بفتح الباء والكاف، تقول: أتيتكَ بَكَرًا، وهو مما يُلتزم فيه الظرفيةُ إذا كان من يوم معيّن؛ ونظيره: سَحَر وأسحار، وجبل وأجبال. وهذه القراءة مناسبةٌ للعشيّ، على قول من جعله جمعَ عَشيةٍ؛ إذ يكون فيها تقابلٌ من حيث الجمعيةُ، وكذلك هي مناسبةٌ إذا كان العشيُّ مفردًا، وكانتِ الألفُ واللّامُ فيه للعموم، كقولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢﴾ [العصر: 2][3].

وأمّا على القراءة المتواترة: ﴿وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾، بكسر الهمزة، فهو

(1) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/16.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/141 - 142.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/142.

مصدر، فيكون قد قابل العشيّ الذي هو وقتٌ، بالمصدر، فيحتاج إلى حذف؛ أي: بالعشي ووقت الإبكار. والظاهر في: بالعشي والإبكار، أنّ الألفَ واللامَ فيهما للعُموم، ولا يراد به عشيُّ تلك الثّلاثةِ الأيام ولا وقتُ الإبكار فيها. وهذا مناسبٌ لما يحقّقُ الطّباقَ أيضًا من فائدةِ الشُّمولِ.

بَلاغةُ اللّفِّ والنَّشرِ:

الـزّمـانُ وعـاءُ الذِّكرِ، ودقائقُ السّاعةِ تذكّرُكَ بـمـلءِ هـذا الوعاءِ بذكْرِ الله

في الآيةِ الكريمةِ نلمحُ فنَّ اللّفِّ والنّشرِ، كونُه أحدَ فنونِ البديعِ في قولِه تعالى: ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾، ثمّ قال: ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾، فكان اللّفُّ في ذكر كلمة ﴿أَيَّامٍ﴾ طيًّا لساعاتِها وتناوُبِ اللّيل والنّهار عليها، والنَّشرُ في ذكر وقتين هما اللّيلُ والنّهار بحذافيرِهما، فقال: ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾. وبَلاغةُ هذا الفنّ أنّه جعل منَ الزّمن وعاءً للدُّعاءِ والاستغفارِ والذّكرِ والعبادةِ، وجعلتِ الآيةُ من زَكريَّا عليه السلام الأنموذجَ الأسمَى في التّلقّي والتَّطبيقِ؛ فكان قد ملأ وعاءَ الزّمان كلَّه بالذِّكرِ والتّسبيح، وخرجَ على قومه كما بيّنت آيةُ سورة مريمَ فقال لهم: ﴿أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾ [مريم: 11] إرشادًا لهم وتوجيهًا، فكان منهم المُسبّحون والذّاكرون.

التّناظُرُ والتّعاكُسُ بين النّصّيْن في سُورتَيْ آلِ عمرانَ ومريمَ:

أولًا التّناظرُ بين الآيتين والاختلافُ في ذكْرِ اليومِ واللّيلةِ

قال هنا: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾، وقال في سورة مريمَ: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ١٠﴾ [مريم: 10] والاختلافُ يدلُّ على أنّ الآيتين دلّتا على أنّ المرادَ ثلاثةُ أيام بلياليهنّ[1]. فقال ﴿لَيَالٖ﴾ [مريم: 10] دون ذكرِ يوم أو نهارٍ لبيان أهميّةِ الذّكرِ ليلًا، وذكرُ النّداءِ الخَفيّ الذي هو التوسّلُ قبل الدُّعاءِ، والخفاءُ ينسجمُ مع ذكرِ اللّيل وندائِه فيه. وقال: ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾؛ فذكرَ الأيّامَ هنا؛ لأنه وقتُ الكلام مع النّاسِ فنبّه إلى أنَّ كلامَه معهم يكون رمزًا، يريدُ: أَنْ لا تُكَلِّمَ

(1) الشربيني، السّراج المُنير: 2/417.

النّاس إلاَّ رَمْزًا، والرّمزُ: الإيماءُ والإشارةُ[1] وفي هذا دليلٌ على أنّ في ذكرِ اليومِ أو اللّيلةِ غِنًى عن ذكرِ الآخَر عندَ الإطلاق[2].

ثانيًا اختلافُ معنى الأمرِ (وسبح) في السُّورتين بين الحقيقةِ والمجَاز

طلبَ اللّه تعالى من زَكَرِيَّا ﷺ ذكْرَ ربّه والتسبيحَ في سورة آل عمرانَ ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾، أما في سورة مريمَ فزَكَرِيَّا ﷺ هو الذي طلبَ من قومه أن يُسبّحُوا اللّه بكرةً وعشيًّا ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾ [مريم: 11] وتسبيحُ زَكَرِيَّا أدلُّ على شكرِه للّه تعالى من تسبيح قوم زَكَرِيَّا. وقد روتْ كلُّ آيةٍ منَ السّورتين جانبًا منَ الحقيقة؛ إذ وقع التّسبيحُ على زَكَرِيَّا أمرًا مفروضًا عليه مضمونُه، أمّا أمرُ التّسبيح لقومه فمِن قَبيل التّوجيهِ والإرشادِ والنّافلة، وفي هذا توجيهٌ إلى أهمّيّةِ الذّكرِ والتّسبيحِ في حياة المؤمنِ عمومًا؛ فقد وجّه زَكَرِيَّا قومَه، وأرشدَهم إلى كثرة التّسبيحِ لَما وجد من خيرِ ذلك العملِ ورضاءِ اللّه تعالى المُعطِي لكِّل خيرٍ.

ثالثًا العكسُ في التّقديمِ والتّأخيرِ لمانعِ الذّريّةِ في السُّورتين ومناسبةِ السّياقِ

قدّمَ زَكَرِيَّا ﷺ مانعَ الذّريةِ في سورة آل عمرانَ من جهتِه على جهةِ امرأته ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ وهذا ناسبَ أمرَه هو بالذّكرِ والتّسبيح، أما في سورة مريمَ فقدّمَ مانعَ الذّرية من امرأتِه على الموانعِ فيه ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨﴾ [مريم: 11] وهذا ناسبَ الأمرَ لغيره بالتّسبيح.

نكّر لفظي ﴿بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾ [مريم: 11] في سورة مريمَ، وعرّفَهما في سورة آل عمرانَ بقولِه: ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾، وتفسيرُ ذلك أنّ (أل) التّعريف تُفيدُ هنا العُمومَ لا الخُصوصَ، ودَلالةُ ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ على دوام الشُّكر أقوى من تنكيرِها، لذا ناسبَ مجيئُها في

(1) الأخفش، معاني القرآن: 1/217.
(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/549.

رابعًا العكسُ في التّعريفِ والتّنكيرِ للعَشيِّ والإبكارِ بين السُّورتين

آيةِ آل عمرانَ لعظيمِ البِشارةِ وما تستوجبُه من عظيمِ الشُّكرِ، ولأنّ الأمرَ واقعٌ على حقيقتِه، فيكونُ واجبُ التّسبيح على زَكَريًّا واقعًا، في حين نجدُ في سورة مريمَ أنّ الأمرَ قد خرجَ إلى معنًى مجازيٍّ هو التّوجيهُ والإرشادُ، فناسبَ التّنكيرُ في قولِه: ﴿بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾ [مريم : 11] ؛ لأنه لا يتكلّم عن فرضٍ أو واجبٍ عليهم، وهذا على نقيضِ آيةِ آل عمرانَ.

خامسًا العكسُ في ذكْرِ العَشي والإبكارِ بين السُّورتين

قدّم ﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾ على ﴿وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ في آيةِ آل عمرانِ فقال: ﴿وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾، وعكس في آيةِ مريمَ بقولِه: ﴿بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾ [مريم: 11]؛ لكونه ذكرَ اللّيل في سورة مريمَ فقال: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٖ﴾؛ فقدّمَ ﴿بُكۡرَةٗ﴾ على ﴿وَعَشِيّٗا ١١﴾ [مريم: 11]، بقوله: ﴿أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾ [مريم: 11]؛ لأن البكرةَ وقتُها من طلوعِ الفجرِ، فيتحقّقُ شمولُ اللّيل والنّهار في هذا التّوجيهِ، والعشيُّ وقتُها من صلاة الظّهر، فعندما ذكرَ اللّيلَ ناسبَ ذكرُ البُكرة؛ لأنها تأتي مباشرةً بعد اللّيل، ثم يأتي العَشيّ. أمّا في آل عمرانَ فقال: ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ فأتبعها بتقديمِ العَشيّ على الإبكار، فقدّم ما هو أدلُّ وأنسبُ على الشُّكرِ في الآيتين. وناسبَ ترشيحُ دَلالةِ الشُّمولِ في سياق الآيتين.

﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٢﴾ [آل عمران: 42]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا فرغَ اللّه ذِكْرِ من قصّةِ زَكَرِيَّا - وكان قدِ استطردَ في قصّة مريمَ - رجعَ إلى قصّة مريمَ، على عادةِ العربِ في أساليبِها، إذ متى ذكروا شيئًا واستطردوا منه إلى غيرِه، عادُوا إلى الأوَّل إن كان لهم غرضٌ صحيحٌ في العَوْدِ إليه، فلما فرغَ ممّا للكافلِ من كرامةٍ بعد ما نوَّهَ بأمرِ المكفولةِ بيانًا لاستجابةِ الدُّعاء من أمّها لها أعاد الإشارةَ بذكرها، والإعلامَ بعَليّ قدْرِها فقال عاطفًا: واذكُرْ: ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱصۡطَفَىٰكِ﴾: جذرُ الكلمةِ هو: (صَفَو)؛ والاصطفاءُ لغةً: تناولُ صَفْوِ الشّيءِ؛ كما أَنَّ الاختيارَ: تناولُ خَيرِه، والاجتباءَ تناولُ جِبايته، أَي: جُمْلَته. وأصلُ الصّفاءِ خُلوصُ الشّيءِ منَ الشّوبِ، ومنه الصّفا للحجارةِ الصّافيةِ، قال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: 158]، وصَفْوُ الشَّيْءِ بالفَتْح خَالِصُهُ، صَفَاءً إذَا خَلَصَ مِنْ الكَدَرِ فَهُوَ صَافٍ، وَصَفَّيْتُهُ مِنْ القَذَى تَصْفِيَةً أَزَلْتُهُ عَنْهُ، وَأَصْفَيْتُهُ بالأَلِفِ آثَرْتُهُ، وَأَصْفَيْتُهُ الوُدَّ أَخْلَصْتُهُ، وَالصَّفِيُّ وَالصَّفِيَّةُ مَا يَصْطَفِيهِ الرَّئِيسُ لِنَفْسِهِ مِنَ المَغْنَم قَبْلَ القِسْمَةِ أَيْ يَخْتَارُهُ، واصطفاءُ اللّهِ بعضَ عبادِه قد يكونُ بإيجادِه صافيًا عنِ الشَّوْبِ الموجودِ في غيره، وقد يكون باعتبارِه وحُكْمِه، وإن لم يتعرَّ ذلك منَ الأوّلِ[2].

2) ﴿وَطَهَّرَكِ﴾: من طَهَر، أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى نَقَاءٍ وَزَوَالِ دَنَسٍ. وَمِنْ ذَلِكَ الطُّهْرُ، خِلَافُ الدَّنَسِ. وَالتَّطَهُّرُ: التَّنَزُّهُ عَنِ الذَّمِّ وَكُلِّ قَبِيحٍ. وَفُلَانٌ طَاهِرُ الثِّيَابِ، إِذَا لَمْ يُدَنَّسْ، وطَهَرَتِ المرأةُ وطَهُرَت - لغتان، فهي طاهرٌ، والطُّهْرُ: نَقيضُ الحَيْض.[3] والاطّهارُ:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/146، والبِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/79.

(2) الخليل، العَينْ، والراغب، المُفردَات: (صفو)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 2/177.

(3) الخليل، العَينْ، والزّمخشري، أساس البلاغة: (طهر).

الاغتِسالُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾ [المائدة: 6]، وقولِه تعالى: ﴿رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ﴾ [التوبة: 108] يعني: الاستِنْجاءَ بالماء.[1].

والطّهارةُ ضربان؛ طهارةُ جسمٍ وطهارةُ نفْسٍ، وحُملَ عليهما عامّةُ آياتِ القرآنِ الكريمِ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ﴾ [البقرة: 222]، فدلَّ باللَّفظين على أنّه لا يجوزُ وطؤهُنّ إلّا بعد الطّهارة والتّطهير[2] وهذا هو الأرقى.

والطُّهور بالضّمّ الطهارةُ، وبالفتح هو اسمُ ما يُتطهَّر به منَ الماء والصَّعيد، قال الله تعالى ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ٤٨﴾ [الفرقان: 48][3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُنوِّهُ تعالى بفضيلةِ مريمَ وعلُوِّ قدرِها، وأنَّ الملائكة قالت لها إنَّ اللّه اختارَك لطاعته، وجمَّلك بالصّفاتِ الحميدةِ، والأفعالِ السّديدةِ التي امتازتْ بها مريمُ عن كثيرٍ منَ النّاس، إذ جُمع فيها ما لا يُجمعُ في غيرِها منَ الخير، ونزَّهكِ منَ الآفاتِ المُنقصةِ وعن كلِّ ما يُستكرَهُ، واختاركِ على سائر نساء العالمين في زمانك، أو هو تفضيلٌ مطلقٌ على نساءِ العالمين جميعًا، بأنْ جعلَها تلدُ نبيًّا من غير أن يمسَّها رجلٌ[4].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ المجازِ المُرسَلِ في قولِه: ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾:

فائدةُ المجازِ أنّه أتى تكرارًا لنداءِ الملائكة لزَكَريّا عليه السلام تعظيمًا

أطلقَ الملائكةَ في قوله: ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ والمرادُ جبريلُ؛ فهو من باب تسميةِ الخاصِّ باسم العامِّ تعظيمًا له؛ وهو منَ المجازِ المُرسل. وفائدةُ هذا الأسلوبِ أنّه أتى تكرارًا لنداءِ الملائكة لزَكَريّا عليه السلام فجاء على نَسَقِه ونهْجِه وهو التّعظيم؛ إذ إنّ الذي ناداه جبريلُ عليه السلام ولكنّه عبّر عنه بجماعةِ الملائكة، وذُكر نداءُ مريمَ في القرآن أيضًا بصِيغة المفردِ التي تدلُّ على أنّ جبريلَ هو الذي يناديها من

(1) الخليل، العَينُ: (طهر).

(2) الراغب، المُفردَات: (طهر).

(3) النَّسَفيّ، طِلبَة الطَّلَبة: (طهر).

(4) المَوصِلّي، أولى ما قيل: 2/470، والسّعديّ، تيسير الكريم الرحمن: 1/130.

ذلك قولُه تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤﴾ [مريم: 24].

بيان فضائلُ مريمَ التي اصطفاها الله بها:

جماع الفضائل يُوجزها عنوانُ الاصطفاءِ، والتَّطهير

فضائلُها تندرجُ تحت عنوانِ الاصطفاءِ، ومنها: إتيانُ الملَكِ بفاكهةِ الجنَّة لأَجْلها، ونَيْلُها في الشّتاء فاكهةَ الصّيف، وولادتُها لِعيسى رُوحِ اللّه وكَلِمته من غير مَسِّ الرّجالِ؛ وبيانُ براءتها على لسان الطِّفل الرَّضيع، وتساقُطُ الرُّطَبِ الجنِيِّ عليها منَ النَّخل اليابسِ، وإجراءُ النَّهرِ السَّرِيّ من تحت قدمِها، وتفضيلُها على نساءِ العالَمين، وتطهيرُها من الحيْض والعيْبِ والعصيانِ، وتَكْفيلُها لزَكَرِيَّا شيخِ الأَنبياءِ، وقَبولُ الحقّ تعالى إيّاها بالإنعام والإحسانِ، وتربيتُها بفُنون الإكرام والامْتنانِ، وتكرارُ ذكرِها بالمدح في نصّ القرآن[1]، وتكليمُ الملائكة لمريمَ: فقد كلّموها شفاهًا كرامةً لها، ومن أنكرَ الكرامةَ زعمَ أنّ ذلك كانت مُعجزةً لزَكَرِيَّا أو إرهاصًا لنبوّةِ عيسى عليه السلام، فإنّ الإجماعَ على أنّه - سبحانه وتعالى - لم يَستنبِئِ امرأةً لقولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ [يوسف: 109]. وقيل ألهموها[2].

تـعـدّدُ أسـماءِ مريمَ وأوصافِها في القرآن وجهٌ من أوجُهِ الدّلالةِ على اصطفائِها

ذُكر في القرآن الكريم من أسماءِ مريمَ وأوصافِها وفضلها اثنا عشر تُبِينُ عنها أَتمَّ البيان، فقد وَصفَ حملَها بالمُحرَّرِ ﴿مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا﴾ [آل عمران: 35]، ووصفَها بأنّها مُصطَفاةٌ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ﴾، ومُطَهَّرَةٌ ﴿وَطَهَّرَكِ﴾، وقانتَةٌ ﴿وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ١٢﴾ [التحريم: 12]، وساجدةٌ وراكعةٌ ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي﴾، ومُحصَنَةٌ ﴿ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ [الأنبياء: 91]، وآيةٌ ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩١﴾ [الأنبياء: 91]، وأمٌّ وصدّيقة ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ﴾ [المائدة: 75]، ووالِدَةٌ ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ [مريم:

(1) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: 6/109.
(2) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/16.

32]، ومَرْيَمُ وبِنْتُ عِمْران ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ﴾ [التحريم: 12][1]، وذكرها باسمها (مريم) في مواضعَ منَ القرآن ﴿وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ﴾ [آل عمران: 36]، ﴿يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾ [آل عمران: 37]، ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ﴾، ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾، ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾، ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ [المائدة: 110]، ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾ [مريم: 34]، ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾ [مريم: 16]، ﴿يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧﴾ [مريم: 27]، ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ﴾ [المؤمنون: 50][2].

دلالةُ الإطناب في تكرار لفظ الاصطفاء:

وجهُ الإطنابِ الانتقالُ مِن ذِكْرِ أمّ مريمَ إلى بيانِ اصطفاءِ مريمَ وتطهيرها

تكرّرَ لفظُ اصطفاك في قوله: ﴿ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ﴾ كما تكرّرَ لفظُ ﴿يَٰمَرۡيَمُ﴾ وهذا من بابِ الإطناب، عطفًا على جملةِ إذ قالت امرأت عمران. وانتقالا من ذكر أمّ مريمَ إلى ذكر مريمَ نفسِها؛ إذ إنّ ما ذُكر فيما سبق من فضائلِ أمِّ مريمَ كان تمهيدًا لذكر مريمَ أمِّ النّبِيّ عيسى عليه السلام وبيانٌ لاصطفائِها وتطهيرِها[3].

سرُّ تكرارِ لفظ الاصطفاء:

إعادة لفظ الاصطفاءِ لا يفيدُ توكيدًا، بل هو تكرارُ اصْطِفَاءَيْنِ وَذِكْرَيْنِ؛ لِأَنَّهُ مَحَلٌّ طُلِبَ فِيهِ تَكْرَارُ الذِّكْرِ

تكرارُ لفظ ﴿ٱصۡطَفَىٰكِ﴾ وليس تأكيدا؛ فقد يكون التّكريرُ غيرَ تأكيدٍ صناعةً، وإن كان مُفيدًا للتأكيدِ معنى[4]، وَمِنْهُ مَا وَقَعَ فِيهِ الفَصْلُ بَيْنَ المُكَرَّرَيْنِ، فَإِنَّ التَّأْكِيدَ لَا يَفْصِلُ بَيْنَهُ، وَبَيْنَ مُؤَكَّدِهِ نَحْوَ قوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ [الحشر: 18]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ [البقرة: 198]، وفيها كذلك قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فَالآيَات مِنْ بَابِ التَّكْرِير، لَا التَّأْكِيدِ اللَّفظِيِّ

(1) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: 6/109.
(2) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: 6/110.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/243.
(4) السيوطي، معترك الأقران: 1/259.

الصِّنَاعِيِّ[1]، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ اصْطِفَاءَيْنِ وَذِكْرَيْنِ، وهو الأَقْرَبُ فِي الذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُ مَحَلُّ طُلِبَ فِيهِ تَكْرَارُ الذِّكْرِ[2].

بلاغة التَّوشيحُ في قولِه: ﴿ٱصۡطَفَىٰكِ﴾:

الاصطفاءُ الأوّلَ ذاتِــــيّ، وهـو جعلُها منزّهةً زكيـةً، والثّـاني بمعنى التّفضيل على الغَيرِ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وتكرّرَ فعلُ ﴿ٱصۡطَفَىٰكِ﴾؛ لأنّ الاصطفاءَ الأوّلَ اصطفاءٌ ذاتِي، وهو جعلُها منزّهةً زكيةً، والثّاني بمعنى التّفضيل على الغَيرِ، فلذلك لم يُعدَّ الأوّلُ إلى مُتعلّقٍ. وعُدّي الثاني[3]. وفي الآية ما يُعرفُ بفنِّ التّوشيحِ، وهو على غرارِ ما كان في قولِه: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣﴾ [آل عمران: 33]، وبيّنّا ذلك في محلِّه، وهنا كذلك، فلمّا ذكرَ اصطفاءَ مريمَ، عُلم أنّه سيذكر جهةَ المُقارنةِ والاصطفاءِ فختم الآيةَ بقولِه: ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

وجهُ خروج نداءِ الاصطفاءِ إلى التّوطئةِ والتّأنيس:

نـداءُ الاصطفاءِ مُكتَنزٌ التّلميحَ إلى أمـرٍ عظيمٍ سـيصـيـبُـهـا، ومكانةٍ ستنالُها

وفي نداءِ الملائكة لها باسْمِها تأنيسٌ لها وتوطئةٌ لما تُلقيه إليها، ومعمولُ القول الجملةُ المؤكَّدةُ: بـ ﴿إِنَّ﴾، والظاهرُ مشافهةُ الملائكة لها بالقولِ؛ إذ رُوي أنهم كلّموها شفاهًا معجزةً لزَكَرِيَّا، أو إرهاصًا لنبوّةِ عيسى[4]. فهذا النّداءُ هو الأوّلُ وسيأتي نداءٌ آخر، وليكونَ الأوّلُ توطئةً للثاني؛ الذي سيكونُ بشرَى واصطفاءً لمريمَ بمولودِها الذي سيُخلقُ كخلْقِ آدمَ، فقولُه تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ مُكتَنزٌ في التّلميحِ إلى أمرٍ عظيمٍ سيصيبُها، وسيجعلُ اللّه لها مكانةً لا تكونُ لواحدةٍ من نساءِ العالَمين.

(1) السيوطي، الإتقان: 3/225.

(2) السيوطي، الإتقان: 3/13.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/244.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/146.

بلاغةُ الكناية في معنى الاصطفاءِ الثاني:

معنى الاصطفاءِ الثـاني ولادةُ عيسى؛ لأنها بولادته حصلَ لها زيادةُ اصطفاءٍ وعلُوُّ منزلةٍ على الأكفاءِ

وُجِّهَ تكرارُ لفظ الاصطفاء على سبيل التّوكيدِ والمبالغةِ. وقيل: لا توكيدَ إذِ المرادُ بالاصطفاء الأوّلِ اصطفاءُ الولايةِ، وبالثاني اصطفاءُ ولادةِ عيسى؛ لأنها بولادته حصلَ لها زيادةُ اصطفاءٍ وعلُوُّ منزلةٍ على الأكفاءِ. ولم تُصرّحِ الملائكةُ بمضمون الاصطفاءِ الثّاني، فعُلم أنّ مكنونَه أمرٌ عظيمٌ، فوقعَ على سبيل الكنايةِ، فالاصطفاءُ الأوّل: اختيارٌ وعُمومٌ يدخل فيه صوالحُ منَ النّساء، والثاني: اصطفاءٌ على نساءِ العالَمين. وقيل: لمّا أطلقَ الاصطفاءَ الأوّلَ بَيَّن بالثاني أنها مُصطفاةٌ على النِّساء دونَ الرّجال. وهذا ما يُفرّقُ اصطفاءَها عن الأنبياء؛ قال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣﴾ [آل عمران: 33] وقال الزمخشري: اصطفاكِ أوّلًا حين تقبّلكِ من أمّكِ وربّاك، واختصّكِ بالكرامةِ السّنيةِ، وطهّركِ ممّا يُستقذرُ منَ الأفعالِ، وممّا قذفَكِ به اليهودُ، واصطفاكِ آخرًا على نساءِ العالمين بأن وهبَ لكِ عيسَى من غيرِ أبٍ، ولم يكنْ ذلك لأحدٍ منَ النساءِ[1]. ويكونُ: نساءُ العالمين، على قولِه عامًّا، ويكونُ الأمرُ الذي اصطُفِيتْ به من أجلِه هو اختصاصها بولادةِ عيسى[2].

معنى الاصطفاءَيْن بين الخصوص والعموم:

المعنى الذي اصطُفيتْ لأجله مريمُ على نساء العالمين هو شيءٌ يخصُّها، فهو اصطفاءٌ خاصٌّ وسببُه خاصٌّ. ومعنى: ﴿نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أنّه خاصٌّ بنساءِ عالَم زمانِها، ولكنّ الاصطفاءَ إذ ذاك عامٌّ في شؤونها كلِّها، وظروفِ حياتِها، وما أكرمَها اللّه به من الحفاوةِ وآيةِ الولد وغيرِها ممّا ذُكر آنفًا، قاله ابنُ جريج.

وفي هذا الاصطفاءِ الثاني أربعةُ أقوال: أحدُها: أنه تأكيدٌ للأول. والثاني: أنّ الأولَ للعبادة، والثاني لولادةِ عيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ. والثالث: أنّ الاصطفاءَ الأوّلَ اختيارٌ مبهمٌ، وعمومٌ يدخل

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 1/389.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/146.

فيه صوالحُ منَ النّساء، فأعاد الاصطفاءَ لتفضيلها على نساء العالَمين.

والرابع: أنه لمّا أطلقَ الاصطفاءَ الأوّلَ، أبان بالثاني أنها مصطفاةٌ على النّساءِ دونَ الرّجالِ. قال ابنُ عباس، والحسنُ، وابنُ جريج: اصطفاها على عالَمي زمانِها. قال ابنُ الأنباري: وهذا قولُ الأكثرين[1].

بَلاغةُ فنِّ التّرقّي في قوله تعالى: ﴿ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

الاصطــفـــاءُ مـتــاحٌ لـعـبـاد الـلـه جـمـيـعًـا تَنقيةً وترقيةً، وتخليةً وتحليةً، وتطهيرًا وتزكيةً

الاصطفاء الأوّلُ اختيارٌ، ثم أعقبَه بتطهيرها منَ الذّنوبِ والآثامِ وما يقعُ فيه البشرُ. فأضاف ارتقاءً إلى اصطفائِها الأوّلِ؛ وهذه درجاتٌ لا يعلمُ منتهاها إلّا اللّه سبحانه وتعالى، وهي من تجلّياتِ الغيبِ على الخاصّةِ من عبادِه. وأمّا الاصطفاءُ الثاني وهو الدّرجةُ العليا إذ جعلَ اللّه تعالى مريمَ أمًّا لعيسَى عليه السلام. فكان ما سبَقَه منَ الدّرجاتِ إعدادًا صعودًا بها إلى أرقَى درجاتِ السُّلّمِ الاصطفائيّ، لتنالَ منزلةَ سيّدةِ بني إسرائيلَ، وأمِّ النّبيّ الذي شاء اللّه أن تكونَ ولادتُه آيةً عظيمةً للبشريّة كلِّها، فارتقت مريمُ بذلك إلى قمّةِ الاصطفاءِ، ووصلتْ إلى أعلى ما يُمكنُ أن تصلَ إليه امرأةٌ من نساءِ العالَمين لما امتازتْ بهذا الحدثِ الوحيدِ من نوعِه، الفريدِ في الزّمانِ كلِّه. وقد أدّى فنُّ التّرقّي مُقتضاهُ ومبتغاهُ وبلاغتَه في بيان ذلك التّدرّجِ اصطفاءً وتطهيرًا.

توجيه العموم والخصوص في التفضيل:

المــرادُ بـنـسـاء الـعـالمين نـسـاءُ زمانها، أو نساءُ سائرِ الأزمنة

وقولُه: ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، قيل: هو على العُموم، وقيل: عنى اللّاتِي في زمانِها[2]. ونساءُ العالمين نساءُ زمانها، أو نساءُ سائرِ الأزمنة[3].

(1) ابنُ الجوزيّ، زاد المسير: 1/282.

(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/555.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/244.

﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣﴾ [آل عمران: 43]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ولمّا أخبرها - سبحانه وتعالى - بما اختصَّها به كرّرَ النّداءَ للإيذان بأنَّ المقصودَ بالخطاب ما يُراد بعدَه، وأنّ ما قبْلَه من تذكيرِ النِّعَم كان تمهيدًا لذكرِه، وترغيبًا في العملِ بمُوجبِه، كان في هذا منَ النّعمةِ العظيمةِ والمنحةِ الجسيمةِ ما يُوجبُ لها القيامَ بشُكرها، إذْ أمرها بالشُّكرِ فقال: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي﴾ أي: أَخلصِي أفعالَكِ للعبادةِ ﴿لِرَبِّكِ﴾ الذي عوّدكِ الإحسانَ بأن ربّاكِ هذه التّربيةَ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱقۡنُتِي﴾: جذرُ الكلمةِ هو (قَنَتَ): وقَنَتُوا للّه أي: أطاعُوه، ومنه القُنوتُ، أي: الطّاعةُ، وقانِتونَ، أي: مُطيعون. والقُنُوتُ: الدُّعاء في آخر الوترِ قائمًا، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ [البقرة 238]، وقولُه: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ [الزمر: 9]، وهو الدُّعاءُ قيامًا هاهنا. وقَنَتَتِ المرأةُ لزوجها، أي: أطاعتْهُ[2]. والقُنُوتُ مَصْدَرٌ مِنْ بَابِ قَعَدَ: الدُّعَاءُ، وَيُطْلَقُ عَلَى القِيَامِ فِي الصَّلاة، وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ: «أَفْضَلُ الصَّلاة طُولُ القُنُوتِ»[3]، وَدُعَاءُ القُنُوتِ أَيْ: دُعَاءُ القِيَامِ، وَيُسَمَّى السُّكُوتُ فِي الصَّلاة قُنُوتًا، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ [البقرة: 238][4].

والمعنى هنا: أَخلِصي الطاعةَ وداومي عليها.

2) ﴿وَٱرۡكَعِي﴾: الجذر اللُّغوي للكلمة (رَكَعَ)، وركَعَ يركَعُ ركوعًا، وكلُّ شيءٍ ينكبُّ لوجهه فتمسُّ ركبتُه الأرضَ أو لا تمسُّها بعد أن يطأطئَ رأسَه فهو راكع. و(الرُّكُوع) الِانْحِنَاءُ، قَالَ لَبِيدٌ:

(1) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/79، والمَوصِلّي، أولى ما قيل: 2/470.
(2) الخليل، العَينْ: (قنت).
(3) رواه مسلم في صحيحه، الحديث رقم: (756).
(4) الفيومي، المصباح المنير: (قنت).

أُخَبِّرُ أَخْبارَ القرونِ التي مَضَتْ*** أَدِبُّ كأنّي كُلَّما قُمْتُ راكِعُ[1].

أَيْ مُنْحَنٍ، وَمِنْهُ رُكُوعُ الصَّلاة، فكلُّ قومة من الصَّلاة ركعةٌ، وَيُقَالُ: رَكَعَ إِذَا صَلَّى، وَمِنْهُ: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣﴾ [البقرة: 43]، وَأَمَّا قَوْلُه تَعَالَى: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ ۩ ٢٤﴾ [ص: 24] فَمَعْنَاهُ سَاجِدًا شُكْرًا، وَرَكْعَةُ الصَّلاةِ مَعْرُوفَةٌ[2].

المَعْنَى الإِجْمَاليّ:

يا مريم أخلصي العبادةَ وداومي على الطاعة لربِّك، وقومي في خشوع وتَواضع، واسجدي واركعي مع الراكعين، وكُوني مع العابدين والمُصلِّين؛ شكرًا للّه على ما أولاكِ من نِعَمِه، فإنَّ ملازمة الطاعاتِ والصلوات من شأنها أن تحفظَ النِّعم وأن تزيدَ الإنسان قربًا وحبًّا من خالقه ﷻ، وخَصَّ السُّجودَ والرُّكُوعَ لفضلِهما ودَلالتِهما على غايةِ الخضوعِ للّه[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

النّداءُ ﴿يَٰمَرۡيَمُ﴾ خرج إلى معنًى مَجازيٍّ وهو التّعجّبُ:

وإعادةُ النّداءِ في قول الملائكة: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾؛ لقصدِ الإعجابِ بحالِها؛ لأنّ النّداءَ الأوّلَ كفى في تحصيلِ المقصودِ من إقبالِها لسماعِ كلامِ الملائكة، فكان النّداءُ الثاني مستعمَلًا في مجرّد التّنبيهِ الذي ينتقلُ منه إلى لازمِه، وهو التّنويهُ بهذه الحالةِ والإعجابُ بها[4]. ولا خلافَ أنّ المناديَ لها الملائكةُ الذين تقدّم ذكرُهم.

إنّ ما يُعطيه اللهُ مِنَ الكراماتِ للصّالحين يَستدعي تعجيبَ الملائكة؛ لأنّها الكائناتُ المراقِبةُ العارفةُ بمنازلِ هؤلاء الصّالحين

بلاغة التعبير بالقُنوت:

ذكر الحَسَنُ، وقَتادَةُ أنّ المراد بالقنوت العبادةُ؛ وهذا من قبيل العامِّ، وأنّ ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي﴾ من قبيل الخاصّ في العبادة. فإنّ قولَه: ﴿ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي﴾؛ هو من قبيل ذكر الخاصِّ بعد العامّ.

في معنى العبادة ذكرٌ للخاصِّ بعد العامّ

(1) الخليل، العَينْ: (ركع).
(2) المُطرِّزيّ، المغرب في ترتيب المُعرب: (ركع).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/244، والسّعديّ، تيسير الكريم الرحمن: 1/130، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 55.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/244.

في معنى طولِ القيامِ في الصّلاة طـباقٌ، أو تناسبٌ

ذهب مجاهدُ، وابنُ جريج، والربيعُ إلى أنّ القنوتَ: هو طولُ القيامِ في الصّلاة، فيكونُ فيها طباقٌ، أو تناسبٌ مع قوله: ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي﴾. فالطّباقُ لدواعي ذكرِ المُتضادَّيْن، وإن لم يكن طباقًا فهو من قَبيل التّناسُبِ، فقد ذُكرَ من أركان الصّلاة القيامُ والرُّكُوعُ والسُّجُودُ.

في معنى الإخلاص والطّاعة علاقة التّدلّي مع ما يأتي بعدَها

قال ابنُ جبير: معنى القنوت: الإخلاصُ والطّاعةُ، فإذا كان القنوتُ بمعنى الإخلاص، وهي أعلى رتبةٍ في الإيمان والعبادةِ، فتكونُ علاقتُها التّدلّي مع ما يأتي بعدَها من قولِه: ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي﴾. وهذه المعاني الأربعة ذكرها ابنُ الجَوزي في تفسيره[1].

بيان الكناية في ﴿ٱقۡنُتِي﴾:

وجه الكناية الدلالة على إخلاص الطاعة وإدامتها

المرادُ بالقُنوت: إدامةُ الطاعة، وإخلاصُها لله تعالى كقولِه: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾.. وفي قولِه: لربك، إشارةٌ إلى تفرّدِه بالعبادة وتخصُّصِه بها، وهذا يفيدُ الانتقالَ إلى معنى طولِ القيامِ في الصّلاة، والجمهورُ على ما قاله مجاهدُ، وهو المناسبُ في المعنى لقوله: ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي﴾.

سرّ تقديم لفظ السجود:

السُّجُودُ هو الهيئةُ التي أقربُ ما يكونُ فيها العبدُ إلى الله

أمَرتِ الملائكةُ مريمَ في قوله: ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾؛ فِعلَ ثلاثةِ أشياءَ من هيئاتِ الصّلاة، فإن أريد ظاهرُ الهيئات، فهي معطوفةٌ بالواو، والواوُ لا ترتّب[2]. وقيل قُدِّمَ السُّجُودُ؛ لأنّ السُّجُودَ لمّا كان الهيئةَ التي هي أقربُ ما يكونُ فيها العبدُ إلى الله قُدِّم، وإن كان متأخّرًا في الفعل على الرُّكُوع، فيكونُ إذ ذاك التّقديمُ بالشّرف.

قولُه: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أُمرتْ بالصّلاةِ في الجماعة بذكر أركانِها مبالغةً في المُحافظةِ عليها،

(1) ابنُ الجوزيّ، زاد المسير: 1/282.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/147.

قُــدّمَ الــسُّــجُــودُ على الرُّكُوعِ؛ إمّا لكونِه كذلك في شريعتِهم، أو للتّنبيه على أنّ الــواو لا تُوجِبُ التّرتيبَ

وقُدّمَ السُّجُودُ على الرُّكُوعِ؛ إمّا لكونِه كذلك في شريعتِهم، أو للتّنبيه على أنّ الواو لا تُوجِبُ التّرتيبَ، أو ليقترنَ اركعي بالراكعين للإيذان بأنّ من ليس في صلاتهم ركوعٌ ليسوا مُصلّين[1]. والقُنوتُ: إدامةُ الطّاعة صلاةً كانت أو غيرَها منَ العبادات، ولهذا قال: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾، فجُعِلَ من جُملةِ القُنوتِ، وهاهنا قدّمَ السُّجُودَ أيضًا على القِيامِ[2].

يحتمل أن يكون الأمــر بــأن تركعَ مع الراكعين في زمانها

ذكرَ الزَّمَخشريُّ توجيهًا آخرَ في تأخير الرُّكُوعِ عنِ السُّجُودِ، فقال: ويحتملُ أن يكونَ في زمانِها من كان يقومُ، ويسجدُ في صلاته ولا يركعُ، وفيه من يركعُ، فأُمرتْ بأن تركعَ مع الراكعين، ولا تكونَ مع من لا يركعُ[3]. فكأنّه قيل: لا تقتصِري على القيامِ والسُّجُودِ، بل أضيفي إلى ذلك الرُّكُوعَ.

براعة الطّباق بين القنوتِ والسُّجُودِ:

وجــه الـطّـبـاق الــجــمــعُ بين طــولِ الـقـيـامِ والــسُّــجُــودِ، وهما نقيضَان مــن هـيـئـاتِ الصَّلاةِ

قال ابنُ عطية: أُمرتْ مريمُ بفعلين ومَعْلَمَيْن من معالمِ الصَّلاة، وهما: طولُ القيامِ والسُّجُود، وبينهما طباقٌ؛ لجمع النّقيضَيْن من هيئاتِ الصَّلاةِ: طولُ القيامِ، ووضعُ الجبين على الأرض تعظيمًا للخالق. وخُصّا بالذّكر لشرفِهما في أركان الصَّلاةِ. وهذان يختصّان بصلاتِها منفردةً، وإلّا فمن يُصلّي وراء إمامٍ لا يُقال له: أطِلْ قيامك.

ثم أُمِرَتْ بعدُ بالصَّلاة في الجماعة، فقيل لها: واركعي مع الرّاكِعين، وقُصدَ هنا معْلَمٌ آخر من معالمِ الصَّلاة لئلّا يتكرّرَ لفظٌ. ونوّع في ذكر أركان الصَّلاةِ.

(1) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/16.
(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/556.
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 1/389.

دَلالةُ ﴿مَعَ﴾ في قوله: ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾:

الـرُّكُـوعُ مَعَ الرّاكعين اجتمع فيـه خـاصّـة النّاس لخاصّة العمل

في قولِه: ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، تقتضي ﴿مَعَ﴾: الصُّحبةَ والاجتماعَ في إيقاعِ الرُّكُوعِ مع مَن يركعُ، فتكونُ مأمورةً بالصَّلاة في جماعةٍ، ويحتملُ أن يتجوّزَ في: ﴿مَعَ﴾، فتكونَ للموافقةِ للفعل فقط دون اجتماعٍ، أي: افعلي كفعلِهم، وإن لم تُوقعي الصَّلاةَ معهم، فإنها كانت تُصلّي في محرابِها[1].

دَلالةُ أفعالِ الأمرِ ﴿ٱقْنُتِي﴾، و﴿وَٱسْجُدِي﴾، و﴿وَٱرْكَعِي﴾:

التّعبير بالأمر؛ لبلوغِ شُكر الله تعالى على ما أولاها منَ الخير

هذه الأفعالُ دَلالتُها على حقيقتِها، فهي أوامرُ واجبةٌ على مريمَ، لبلوغِ شُكر الله تعالى على ما أولاها منَ الخير والفضلِ والحفاوةِ والاصطفاءِ، ثمّ إنّها يمكنُ أن تخرجَ إلى معنًى مَجازيٍّ لعُموم المؤمنين تَوجيهًا وإرشادًا، وإفصاحًا عن جانبٍ من سُبل الاصطفاءِ.

سرّ الجمع بصيغة ﴿ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ دون (الرّاكعاتِ):

في صيغة جمع المـذكَّـر عـمـومٌ يشمل الرّجالَ والـنّـسـاءَ على سبيل التّغليبِ

وجاء التعبير بـ﴿ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، دونَ الراكعاتِ، مع أنّ الآيةَ السّابقة ذكرتِ الاصطفاءَ على نساء العالَمين؛ لأنّ هذا الجَمعَ أعمُّ؛ إذْ يشملُ الرّجالَ والنّساءَ على سبيل التّغليبِ، ولمناسبةِ أواخرِ الآياتِ قبلُ وبعدُ، ولأنّ الاقتداءَ بالرّجال أفضلُ، إنْ قلنا إنّها مأمورةٌ بصلاة الجماعة[2]. فقد شملَ التّعبيرُ المجتمعَ المؤمنَ كلَّه. وبقوله: ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ إذنٌ لهَا بالصَّلاة مع الجَماعَة، وهذه خُصوصيّةٌ لها من بين نساءِ بني إسرائيلَ إظهارًا لمعنى ارتفاعِها عن بقية النّساءِ، واصطفائِها عليهم، ولذلك جيءَ في ﴿ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ بعلامةِ جمعِ التّذكيرِ[3]، ويُؤيّده أنها وُهبتْ لخدمة بيتِ العبادةِ، وكان ذلك ممنوعًا على النّساء في زمانِهم، لذا حزنتْ أمُّها لمّا وضعتْها أنثى.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/149.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/149.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/244.

بيانُ المَجاز في معاني القُنوتِ والسُّجُودِ والرُّكُوعِ:

إطلاقُ الجُزءِ وإرادةُ الكُلِّ إيهامٌ لكماله فيه

قولُه: ﴿وَٱسۡجُدِي﴾ أراد بها الصَّلاةَ كلَّها، كقولِه تعالى: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ٤٠﴾ [ق: 40]، وأراد بالرُّكُوعِ الخشوعَ والإخباتَ[1]، فذَكَرَ السُّجُودَ وأراد الصَّلاةَ على سبيل المَجاز المُرسَلِ، وعلاقتُه الجُزئيّةُ، إذ ذكر الجُزءَ وأراد الكُلَّ، ثم قيل لها: ﴿وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾؛ أي ذكرَ القُنوتَ والسُّجُودَ أولًا، والقنوتُ: أن يذكرَ اللّه قائمًا، أو يركدَ في الصَّلاة، وأريد بهما الصَّلاةُ، فإنهم يُطلقون معظمَ الشّيء على الكلّ إيهامًا لكماله فيه، ثم أتى ببعضٍ آخرَ وهو الرُّكُوعُ، وأريد به تلك الحقيقةُ أيضًا على تلك الطريقة، وقيّدَه بفائدةٍ زائدةٍ ليُؤذنَ أنّ كماله إذا كان مُقيّدًا بها فهو منَ التّكرارِ المعنويّ لإناطةِ معنى زائدٍ، ولمّا كان الأمرُ للصّلاة أمرًا للمصلّي بصفتها، وهي أن يكون مع الجماعة لا نفسِها، قال: ولتكن صلاتك مع المُصلّين[2].

جناسُ الاشتقاقِ في قوله: ﴿وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾:

فائدة الجناس الاندماجُ مع المصلّين الرّاكعين منَ المؤمنين

يُفيدُ جناسُ الاشتقاقِ هنا الاندماجَ مع المصلّين الرّاكعين منَ المؤمنين، وهذا ما نوّه إليه الزَّمَخشريّ في قولِه: "أو انظمي نفسَك في جملة المصلّين" وشرحَه الطّيبي بقولِه: "معناه: اتّصفي بصفةِ المُصلّين وكوني من زُمرتِهم وعِدادِهم، كقولِه تعالى: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩﴾ [الفجر: 29]؛ أي: في جملة عبادي الصّالحين، وانْتظمِي في سِلكِهم، وأمّا معنى الاختصاصِ في قولِه[3]: "ولا تكوني في عِداد غيرِهم"، فإنّ ما يُفيدُه معنى الكناية، لأنّ الأسلوبَ من قَبيل قوله: فلانٌ في عِداد العلماءِ، أي: له مساهمةٌ معهم في العلم، وأنَّ الوَصفَ كاللّقَب المشهودِ لَهُ، وللإيذان بأنَّ من ليس في صلاتِه ركوعٌ ليس منَ المُصلّين"[4].

(1) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/16.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 4/105.
(3) أي: في قول الزمخشري.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 4/105.

بَلاغةُ اللَّفِ والنَّشر:

في قولِه: ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ فقولُه: اسجدي، واركعي لفٌّ، وقولِه: ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ نَشْرٌ بتقدير: مع الرّاكعين والسّاجدين، فحُذفتْ لعدم التّكرارِ ولتضمينِها بالرُّكُوع، والظّاهرُ أنّ المرادَ بالسُّجُود في هذا المقام ظاهرُه، وبالرُّكُوع الصَّلاةُ نفسُها، فكأنه قيل: واسجُدي مُصليّةً، ولتكن صلاتُك مع المصلّين، أي: في جماعة، ولعلَّ من فوائدِ اللّفّ والنّشر هنا؛ المرادُ بإتباع قصّتِها لما مضى: التّنبيهُ على انخراطها في سلك ما مضى من أمرِ آدم ويحيى إفصاحًا، وإبراهيم في ابنيه إلاحةً في خرق العادة فيهم، على اعتبارِ أن تكونَ مع من سبقَها منَ الذين اصطفاهم اللّه، وتكون المعيّةُ مجازيّةً. وأنّ الصَّلاةَ عندهم تُطلَقُ على الدُّعاء وعلى فعل هو مجرّدُ السُّجُود، فإنْ ذُكر معه ما يدلُّ على وضع الوجهِ على الأرض فذاك حينئذٍ يُسمّى صلاةً، وإلّا كان المرادُ به مطلقَ الانحناءِ للتّعظيم، وذلك موافقٌ للّغة، فالرُّكُوع في اللُّغة يُطلقُ على معانٍ منها الصَّلاةُ[1].

فائدة اللّف والنّشر التّنبيهُ على انخراطها في سلك ما مضى من أمرِ آدم ويحيى إفصاحًا، وإبراهيم في ابنيه إلاحةً في خرق العادة فيهم

التّدلّي في الأوامرِ (القُنوت والسُّجُود والرُّكُوع):

بعد أن رُسِمَ في الآيةِ السّابقةِ مُنحنى التّرقّي بقولِه تعالى: ﴿ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ﴾ في وصفِ شخصيّةِ مريمَ ترقيةً لها وإكرامًا وتعظيمًا لشأنها. نجدُ فنَّ التّدلّي في أمر العبادة تيسيرًا، فذكرَ الأوامرَ (اقنُتي، اسجُدي، اركعي) لمريمَ بالعبادةِ من أعلاها إلى أدناها؛ فقال: ﴿ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ ولمّا قدّمَ الإخلاصَ الذي هو روحُ العبادة أتْبَعه أشرفَها فقال: ﴿وَٱسۡجُدِي﴾ فإنّ أقربَ ما يكونُ العبدُ من ربّه وهو ساجدٌ[2]. ودليلُ التّدلّي أنّه ختمَ الدّرجاتِ بقوله: ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ فانتقل منَ

في فنّ التدلّي تيسيرٌ للعبادة بذكرها من أعلاها إلى أدناها

---

(1) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/82.
(2) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/79.

الأعلى الذي هو القُنوت للّه أي الإخلاصُ له - سبحانه - الذي لا يصحُّ طبعًا إلّا للخاصّة، إلى الأدنى منه؛ وهو مداومةُ السُّجُود، فانتقل من أخصِّ الأعمالِ إلى السُّجُودِ، الذي يُطيقُه جمعٌ منَ المؤمنين، ثم تدلّى إلى ما يفعلُه العامّةُ منَ المؤمنين، فقال: ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.

قال الحَرَالِّي: وكان منَ اختصاص هذا الاصطفاءِ العليّ - أي الثاني - ما اختصّها منَ الخطاب بالرُّكُوع الذي لحقتْ به بهذه الأمّةِ الراكعة - يعني أمّة محمد ﷺ - التي أطْلَعَها اللّه سبحانه وتعالى من سرّ عظمتِه على ما لم يُطلعْ عليه أحدًا ممَّن سواها في قولِه: ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾؛ كما قال لبني إسرائيل عندَ الأمرِ بالملّةِ المحمديّة: ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣﴾ [البقرة: 43] إلى ما يقعُ من كمالِ ما بُشِّرتْ به حيث يكلّمُ النّاسَ كهلًا في خاتمة اليومِ المُحمّدِي، ويكملُ له الوجودُ الإنساني[1]، وقُدّم السُّجُودُ؛ لأنه أَدْخَلُ في الشُّكرِ، والمقامُ هنا مقامُ شُكر[2].

وفي هذا التّعبيرِ إشارةٌ إلى أنّ للخواصّ من النّاس وظائفَ تعبُّديّةً تبدأ بأنفسِهم وتزكيتِها وتنقيتِها وتنتهي بالتّواصل الاجتماعي والاندماجِ التّعبّديّ بالمجتمع، وهو على خلافِ الرّهبانيّةِ التي تدلّ على اعتزالِ المُجتمع. فخرجتِ الأوامرُ هنا ﴿ٱقْنُتِى﴾، ﴿وَٱسْجُدِى﴾، ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ إلى رسم حياةٍ تعبّديّةٍ متكاملةٍ، تبدأ بالنّفس وخواصِّها وتنتهي بالامتزاجِ التّعبُّديّ مع المؤمنين.

مناسبةُ الخطابِ لما بعدَه:

قصدُ التأنيسِ مهَّد له بما يجلبُ إليها مسرَّةً، ويُوقنُها بأنها بمحلّ عناية الله

وهذا الخطابُ مقدّمةٌ للخطاب الذي بعده وهو قولُه: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾لقصدِ تأنيسِها بالخبر المُوالي لأنّه لما كان حاصلُه يجلبُ لها حزنًا وسوءَ قَالَةٍ بين النّاس، مهَّد له بما يجلبُ إليها مسرَّةً، ويُوقنُها بأنها بمحلّ عنايةِ اللّه، فلا جرمَ أن تعلمَ بأنّ اللّه جاعلٌ لها مخرجًا وأنه لا يُخزيها أبدًا[3].

(1) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/79.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/244.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/244.

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ٤٤﴾

[آل عمران: 44]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدَ أن ذكرتِ الآياتِ السّابقةِ قصصَ مِن اصطفاهُم اللّه على العالَمين منَ الأنبياءِ وأهلِ الكراماتِ، وجَّه الأنظارَ هنا في هذه الآيةِ إلى عظيم شأنِ تلك الأخبار كونُها من غيْبِ اللّه الذي لا يعلمُهُ إلّا هو، فزاد تلك القصصَ العظيمةَ العجيبةَ عَظمةً وهيبةً وشأنًا؛ أنها غيبٌ يُوحيه اللّه تعالى لنبيّه محمد ﷺ فيصفُ المَشاهدَ الدقيقةَ فيها بكلِّ عنايةٍ وعِبْرة[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُوحِيهِ﴾: من وحَي، ويَدُلُّ عَلَى إِلْقَاءِ عِلْمٍ فِي إِخْفَاءٍ أَوْ غَيْرِهِ إِلَى غَيْرِكَ، والوحي: أصلُه الإشارةُ السريعة، ويقال للكتابة: وحي، إذ هي إشارةٌ ما، وقد يكونُ الوحيُ بالإلهام، كما يكونُ بضربٍ منَ الكلام، وعلى ذلك قولُه: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾ [المائدة: 111]، وقد يقال ذلك للوساوس نحوَ قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ [الأنعام: 121]، والإيحاء: إيقاع المعنى في القلب بطريقة خفية، وكلُّ ما في القرآن من التركيب هو من الوحي بأي من الطرق السابقة، والسياق يوضِّح الطريقةَ المرادة[2].

2) ﴿يَكۡفُلُ﴾: جذرُ الكلمة هو (كَفَلَ): الكَفَلُ: ردف العجز، والجمع: أكفالٌ، والكِفلُ: النّصيبُ، والكِفلُ منَ الأجر، ومنَ الإثم: الضّعفُ، قال اللّه - ﷻ: ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ [الحديد: 28]، و﴿يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ﴾ [النساء: 85]، ولا يقال: هذا كِفْلُ فلان حتى تكونَ قد هيّأتَ مثلَه لغيره كالنّصيب، فإذا أفردتَ فلا تقل: كِفْل ولا نصيبٌ. والكفيلُ: الضّامنُ للشّيء. كَفَلَ به يكفُلُ به كَفالةً. والكافِلُ: الذي يَكْفُلُ إنسانًا يعولُه ويُنفق عليه. وقولُه عزّ

(1) البقاعيُّ، نظم الدرر: 4/393.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة (وحى)، والراغب، تفسير الرّاغب: 2/88، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل (وحي).

اسمَه: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: 37]، أي هو كَفَل مريمَ ليُنفقَ عليها، حيث اقترعوا على نفقتِها حين مات أبواها[1]، فبقيتْ بلا كافل، وكِفْلُ الشّيطان: مركبُه، وأكفلتُه إيّاه وكفّلتُه، ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ [ص: 23]، ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: 37]، وهو كفيلٌ بنفسِه وبمالِه، وكفلَ عنه لغريمه بالمال وتكفّل به، وهو كفل بيّنُ الكفولة: لا يثبتُ على ظهر الدابّة، وهو منَ الأكفال لا منَ الأحلاس[2]. كَفَلْتُ بِالمَالِ وَبِالنَّفْسِ كَفْلًا وَكُفُولًا أَيْضًا وَالِاسْمُ الكَفَالَةُ وكَفَلْتُهُ وَكَفَلْتُ بِهِ، وَعَنْهُ إذَا تَحَمَّلْتُ بِهِ، قَالَ ابْنُ الأَنْبَارِيِّ: تَكَفَّلْتُ بِالمَالِ التَزَمْتُ بِهِ وَأَلْزَمْتُهُ نَفْسِي[3].

3) ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾: جذرُ الكلمة هو (خَصَمَ)، الخَصْم: واحدٌ وجميعٌ، قال الله ﷻ: ﴿۞وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ٢١﴾ [ص: 21] فجعلَه جمعًا؛ لأنّه سُمّي بالمصدر. وَفُلَان خصمي الذّكرُ وَالأُنْثَى وَالوَاحدُ، والجميعُ فِيهِ سَوَاء[4]. والخصمُ: المُخاصِمُ والمُخاصَمُ، وهما خصمان، أَي: كلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا خصمَ صَاحبَه؛ لِأَنَّهُ يخاصمُه، وخَصيمُك: الّذي يُخاصِمك، وجمعُه: خُصَماء. والخُصومةُ: الاسمُ منَ التَّخاصُم والاختصام. يقال: اختصم القومُ وتخاصمُوا، وخاصم فلانٌ فلانًا، مُخاصَمَةً وخِصامًا[5]. والخُصُومَةُ بالضَّمِّ: الجَدَل، وقَالَ الحَرَالّي: الخِصامُ: القَولُ الَّذِي يُسمِعُ المُصِيخ وَيُولِجُ فِي صِماخِهِ مَا يَكُفُّه عَن زَعْمِه ودَعْواه[6].

۞ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

لمَّا أتى نبيُّنا ﷺ بهذه الأخبارِ الغريبةِ المحرَّرةِ العجيبةِ التي لا يَعرفُ بعضَها على وجهها إلّا الحُذَّاقُ من علماءِ بني إسرائيلَ، فبيَّن اللّه بأنَّ الذي قصصناه عليك - أيها الرسول ﷺ - هو من أخبار الغيب التي أوحاها اللّه إليك؛ إذ لم تكن معهم حين اختلفوا في كفالة مريم أيُّهم أحقُّ بها وأَوْلى، ووقع بينهم الخِصَامُ، فأجْرَوْا القُرْعةَ بإلقاء أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراةَ - واختاروها تبرُّكًا بها - في نهر الأردنِّ، فأيُّهم لم يَجْرِ قلمُه مع

(1) الخليل، العَينْ: (كفل).
(2) الخليل، العَينْ، الراغب، المُفردَات، والزمخشري، أساس البلاغة: (كفل).
(3) الفيومي، المصباح المُنير: (كفل).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (خصم).
(5) الخليل، العَينْ: (خصم).
(6) الزَّبيدي، تاج العروس: (خصم).

الماء فله كفالتُها، "أو هي السِّهامُ من النُّشّاب وهي القِداحُ، أو كانت القِداحُ من نُحاسٍ" فأصابت القُرْعَةُ زكريًّا عليه السلام نبيَّهم وأفضلَهم، ففاز بكفالتِها يحضنُها ويُربِّيها تنافسًا في أمرها لِمَا شرَّفها الله تعالى به[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ الإشارةُ بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

قولُه: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾؛ الإشارةُ إلى ما تقدّم من قصصِ امرأةِ عمرانَ، وبنتِها مريمَ، وزَكَرِيًّا، ويحيى، والمعنى: أنّ هذه القصصَ وصولُها إليك من جهة الوحي، إذْ لستَ ممّن دارسَ الكُتبَ، ولا صحبَ من يعرفُ ذلك، وهو من قوم أمّيين، لا صلةَ لهم بالوحي، فمدركُ ذلك إنما هو الوحيُ من عند اللّه كما قال في الآيةِ الأخرى، وقد ذكرَ قصّةِ أبْعدِ النّاسِ زمانًا من زمانه ﷺ وهو نوحٌ عليه السلام، واستوْفاها له في سورة هود أكثرَ ممّا استوْفاها في غيرها، فقال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ﴾ [هود: 49]، وفي هذا دليلٌ على نبوّةِ رسولِ اللّه ﷺ إذْ أخبَرَ بغيوبٍ لم يطّلعْ عليها إلّا مَن شاهدها، أو: مَن قرأها في الكُتبِ السّابقةِ، أو: منْ أوحى اللّه إليه بها. وقد انتفى العيانُ والقراءةُ، فتعيّن الثالث، وهو الوحيُ منَ اللّه تعالى[2].

الإشـــارة بذلك مـــن قَـبـيـل الإعجازِ الغيبيّ في الــقـــرآنِ الكريمِ

ومنَ الإعجازِ النّبويّ أنّ تلك القصصَ صحّحتْ كثيرًا من مواضعِ الخطأ ممّا وردَ من أحداثِها، وممّا رواه أهلُ الكتاب، فكانت دليلًا قاطعًا على صدقِ الرّسالة.

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/42، والبِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/79، والآلوسي، روح المعاني: 2/152، ونخبة من العلماء، التفسير الميسَّر، ص: 55.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/149.

دَلالةُ المضارع على التّجدُّد:

والكاف في ﴿ذَٰلِكَ﴾، و﴿إِلَيۡكَۚ﴾، خطابٌ للنّبي ﷺ والمعنى: شأنُنا أنّنا نوحي إليك الغيبَ، ونعلمُك به، ولذلك أتى بالمضارع، ويكونُ أكثرَ فائدةً من عَودِه على ﴿ذَٰلِكَ﴾ إذْ يشتملُ ما تقدّم منَ القصص، وغيرِها التي يُوحيها إليه في المستقبل، فتكونُ دَلالتُه واضحةً على التّجدُّدِ والاستمرارِ، ويكونُ إخبارًا بالحالةِ الدائمةِ؛ والمستعمل في هذا المعنى إنّما هو المضارع، وإذ يلزمُ من عَوده على ﴿ذَٰلِكَ﴾ أن يكونَ: نُوحيه، بمعنى: أوحيناه إليك؛ لأنّ الوحيَ به قد وقعَ وانفصلَ، فيكون أبعدَ في المجازِ منه إذا كان شاملًا لهذه القصص وغيرِها ممّا سيأتي.

فائدةُ المضارع اشتمالُه ما تقدّم منَ القصص، والتي يُوحيها إليه في المستقبل

دَلالةُ ﴿إِذۡ﴾ على ذكرِ اللّحظةِ الزّمنيةِ في الغيبِ في القصّةِ القرآنية:

قولُه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ﴾ هذا تقريرٌ وتثبيتُ أنّ ما عَلِمَهُ من ذلك إنّما هو بِوَحيٍ منَ اللّه تعالى والمُعَلَّمُ به قصّتان: قصّةُ مريمَ، وقصّةُ زَكَرِيًّا؛ فنبّه على قصّة مريمَ، إذ هي المقصودةُ بالإخبار أوّلًا، وإنّما جاءت قصّةُ زَكَرِيًّا على سبيل الاستطرادِ، ولاندراجِ بعضِ قصّةِ زَكَرِيًّا في ذكرِ مَن يكفلُ، فما خَلَتْ من تنبيهٍ على قصّة.

(الزّمَنُ) عَامِلٌ نِسبيٌّ، وقَد تُكتَنَزُ الحَياةُ وتُختَصَرُ قِيمَتُها في لحظَةٍ زَمنيَّةٍ تَستوعِبُ حَدَثًا مِفصَلِيًّا يغيّرُ مجرى الحَيَاةِ تَمَامًا

والمضارع بعدَ: ﴿إِذۡ﴾، في معنى الماضي، أي: إذْ ألقَوْا أقلامَهم للاسْتِهام على مريمَ، والظّاهرُ أنها الأقلامُ التي للكتابة. وقيل: كانوا يكتبون بها التّوراةَ، فاختاروها للقُرعة تبرُّكًا بها. وقيل: الأقلامُ هنا الأزلامُ، وهي: القِداحُ، ومعنى الإلقاءِ هنا الرّميُ والطّرحُ، ولم يُذكرْ في الآية ما الذي ألقَوها فيه، ولا كيفيةَ حالِ الإلقاء، كيف خرج قلمُ زَكَرِيًّا. وقد ذكرْنَا فيما سبقَ شيئًا من ذلك عنِ المفسّرين، واللّه أعلَم بالصّحيح منها. وقال أبو مسلمٍ: كانتِ الأممُ يكتبون أسماءَهم

على سهام عند المنازعةِ، فمن خرج له السّهمُ سُلِّم له الأمرُ، وهو شبيهٌ بأمرِ القِداح التي يتقاسمُ بها الجَزور[1].

تقديراتُ الحذْفِ في الآيةِ ﴿أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ﴾:

بين طيّاتِ القصّةِ أحداثٌ كثيرةٌ طُوِيَت، لا يعلمُها إلّا الله سبحانه

وارتفعَ ﴿أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ﴾ على الابتداءِ والخبرِ، وهو في موضع نصبٍ، إمّا على الحكاية بقولٍ محذوفٍ، أي: يقولون أيّهم يكفل مريم، وإمّا بعلّة محذوفة أي: ليعلمُوا أيُّهم يكفلُ، وإمّا بحالٍ محذوفةٍ أي: ينظرون أيّهم يكفلُ، ودلّ على المحذوف: يُلقون أقلامَهم، وقد استُدلَّ بهذه الآية على إثباتِ القُرعة.

بلاغة المجَاز والإطناب في الاختِصَامُ:

حالُ اختصامِهم مشهدٌ عظيمٌ، وموقفٌ مدحَهُ القرآنُ الكريمُ

قولُه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾؛ أي: بسببِ مريمَ، ويحتملُ أن يكونَ هذا الاختصامُ هو الاقتراعُ نفسُه، وأن يكونَ اختصامًا آخر بعدَه، فيكونَ ﴿إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾ إطنابًا في وصف حالِهم، كيف يكونُ في تلك اللّحظاتِ التي تكشفُ عن شدّةِ رغبتِهم، وصدقِ دواخلِهم في كفالة مريمَ.

بيانُ الكناية في الاختصامُ:

وجه الكناية شدّةُ رغبتِهم في كفالة مريم

والمقصودُ من قوله: ﴿إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾ شدّةُ رغبتِهم في التكفُّل بشأنها. والعاملُ في: ﴿إِذۡ﴾، العاملُ في: ﴿لَدَيۡهِمۡ﴾، أو ﴿كُنتَ﴾ على قول أبي علي في: ﴿إِذۡ يُلۡقُونَ﴾، وكرّر جملةَ النّفي ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾ تعجيبًا من حالِهم وشدّةِ رغبتهم في كفالة مريمَ. فيكونُ الاختصامُ كنايةً عن ذلك، فهم يختصمون طلبًا في كفالتها، فكنّى بالاختصام عن شدّةِ الرّغبةِ.

براعة الكناية في ﴿أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾:

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ﴾ أي ما ذكرنا منَ القصص منَ الغيوب التي لم تعرفْها إلّا بالوحي[2]. والآيةُ بمنزلةِ التّذييلِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/151.
(2) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/17.

سِـيَرُ الأنبياء مصابيحُ تُضيء دروبَ المؤمنين والعاملين إلى قيامِ السّاعةِ

لما ذُكِر من مطلعِ قولِه: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا﴾ [آل عمران: 33] إلى هذه الآية، فكانت أنباءُ الغيبِ هنا كنايةً عن قصصِ الآنبياء وحالاتِ الاصطفاء التي ذكرتها الآياتُ الكريمةُ، و﴿مِنۡ﴾ للتّبعيضِ، فيكونُ ذلك الذي ورد في سورة آل عمرانَ هو جزءًا من أنباء الغيبِ التي سنُوحِيها إليك.

نكتة ذكر الوحي تهكُّمًا بمُنكريه:

قصصُ مَن كان قبلنا وردث في القرآن دليلًا على الوحيِ وصدقِ الرّسالةِ المحمديّةِ

والمرادُ تقريرُ كونِه وحيًا على سبيل التّهكُّم بمُنكِريه، فإنَّ طريقَ معرفةِ الوقائعِ المُشاهَدَةُ والسّماعُ، وعدمُ السّماع معلومٌ لا شُبهةَ فيه عندهم، فبقي أن يكونَ الاتهامُ باحتمالِ العيانِ ولا يظنُّ به عاقلٌ[1].

قولُه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾ نفيٌ للمشاهدةِ أو مُقتضى الظّاهر أن يقال: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ وما سمعتَ هذا النّبأ من أحدٍ، ولا قرأتَه في كتاب؛ لأنّ هذا متوهّم منه، فاحتيج إلى رفع التّوهّم، لا المشاهدةِ، فإنها منتفيةٌ لاشكّ في انتفائها، فلا يحتاجُ إليه، فنُفيت المشاهدةُ، وتُرِكَ رفعُ التّوهّم؛ لأنّ المرادَ من نفي المُشاهدةِ: إثباتُ الحُجّة والاحتجاجِ على أهل الكتابِ بطريقِ التّقسيم الحاصرِ، ولاشكّ أنّ عدمَ السماعِ والقراءةِ محقّقٌ عند اليهودِ، وقد علموا ذلك علمًا يقينيًّا لاشكّ فيه، وإنّما كانوا يُنكرون الوحيَ، فأُريدَ إثباتُ المطلوب بطريقٍ بُرهانيٍّ، فقيل: طريقُ العلم فيما أنبأكم به، إمّا السّماعُ والقراءةُ، وإمّا الوحيُ والإلهامُ، وإمّا الحضورُ والمشاهدةُ، فالأوّلان مَنفيان عندكم، بقيَ الثالثُ، فنُفي تهكّمًا بهم، وإنما خصَّ هذه دون الأولى للتّهكم؛ لأنه لو نفى الأولى لم يكنْ منَ التّهكُّم في شيءٍ، لمجالِ الوَهْمِ فيه دونَه[2].

(1) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/17.

(2) الطيبي، حاشية الطيبي: 4/106.

سرّ الفصل والوصل في ذكرِ الأنباء:

أنباءُ الغيبِ في القرآن الكريم واحدةٌ من ركائز الإعجازِ الغيبيّ فيه

وقد ورد ذكرُ الأنباءِ منَ الغيبِ التي تأتي بالوَحي في موضعَيْن مُنفصلَيْن من كتاب الله تعالى، فقال: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾، و﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾ [هود: 49]، و﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ١٠٢﴾ [يوسف: 102].

وصلَ في حالة تذكير الأنباء، وفصَلَ في حالة تأنيث الأنباء؛ لأنّ التّذكيرَ دلّ على النبأ الواحدِ، وهو قصّةُ مريمَ، وكفالتِها، نُوصلُ فيها، وفي حالة التأنيث قصدَ بها مجموعةَ الأنباء، ممّا ذُكر في قصص الأنبياء ففصل فيها.

علّةُ تكرار قولِه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾:

الجملة الأولى توحي بالتّعجيبِ من حالهم، والثانية نفيٌّ تضمّن مدحًا

تصويرٌ لحالِ من كان ينظرُ إليهم في ذلك الموقفِ العظيم الذي يُباهي به الله عبادَه كونَهم يتسابقون في فعل الخيراتِ. ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾ الأُولى تُوحي بالتّعجيبِ من حالهم، والثانية نفيٌ تضمّن مدحًا لأولئك الذين يختصمُون في فعل الخيرِ، ويتنازَعون عليه، فهي تكرارٌ وإطنابٌ لزيادةِ فائدة.

والجملةُ بمجموعِها تنبيهٌ على ما مضى وتمهيدٌ لما سيأتي، وجُعل هذا التّنبيهُ في نحوِ وسطِ هذا القصصِ ليكونَ السّامعُ على ذكرٍ ممّا مضى، ويُلقي السَّمعَ، وهو شهيدٌ لما بقيَ، وجعلَه بعد الافتتاح بقصّةِ مريمَ عليها السلام تنبيهًا على عِظم شأنها، وأنّها المقصودةُ بالذّات للردّ على وفدِ نصارى نَجرانَ، وكأنه أتْبَعَ التّنبيهَ ما كان في أوّل القصّةِ من اقتراعِهم بالأقلامِ واختصامِهم في كفالتِها لخفائهِ على خواصِّ أهلِ الكتابِ(1).

(1) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/87.

بَلاغةُ الكنايةِ في قولِه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾:

فائدةُ هذه الكنايةِ بيانُ عِلمِ اللهِ وحفظِه للأحداثِ، ولحظاتِ حدوثِها

قولُه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾ إيماءٌ وكنايةٌ عن خُلُوِّ كُتُبِهم عن بعضِ ذلك، وإلّا لقال: وما كنت تتلُو كتبَهم مثلَ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ﴾ [العنكبوت: 48] أي: إنك تُخبرُهم عن أحوالِهم كأنّك كنتَ لديهم[1]. ومثلُ ذلك قولُه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٤٤﴾ [القصص: 44].. وفائدةُ هذه الكنايةِ بيانُ عِلمِ اللّه وحفظِه للأحداثِ، واللّحظاتِ الزّمنيّةِ التي حدث فيها هذا الفعلُ منهم أو هذا الإجراءُ، فاللّه تعالى يعلَمُه - سبحانه - كلَّه بدقائقِه، فهو رقيبُهم، وهو معهم إذ يُلقون أقلامَهم، فهو الشّاهدُ - سبحانه - وهو الخبيرُ بما حدث. والسّياقُ يحتمل حذفَ جُملةٍ؛ فمعنى قولِه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾؛ أي ما كنتَ لديهم إذْ كنّا نحن شهودًا عليهم؛ ففائدةُ الجملةِ إثباتُ شهادةِ اللّه عليهم.

براعة الاستعارة في قولِه: ﴿أَقۡلَٰمَهُمۡ﴾:

وجه الاستعارة تشبيه القِداحِ بالأقلامِ؛ لفائدةِ العلمِ والكتابةِ بها

قولُه: ﴿أَقۡلَٰمَهُمۡ﴾، قال الزّجّاج: الأقلامُ ها هنا: القِداحُ، تُسمّى أقلامًا لشبَهِها بها، على سبيل الاستعارةِ، إذ سُمّي السّهمُ قلمًا لأنه يُقلمُ، أي: يُبْرَى، وكلُّ ما قطعتَ منه شيئًا فقد قلمْتَه، ومنه القلمُ الذي يُكتب به، جعلوا عليها علاماتٍ يعرفون بها من يكفلُ مريمَ على جهة القُرعةِ[2]. وسمّاها بالأقلام لفائدةِ العلمِ والكتابةِ بها؛ إذ هي كأقلامِهم التي يكتبون بها التّوراةَ؛ التي يجدون فيها وصفَك أيّها النّبيُّ ﷺ، ويجدون فيها بعضَ ما أُوحي إليك من أنباء الغيبِ، فناسبَ ذكرُها هاهنا.

معنى الأقلامِ بين الحقيقةِ والمجازِ:

وفي الأقلام ثلاثةُ أقوالٍ: أحدُها: أنّها التي يُكتبُ بها، فتكونُ هنا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/245.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 4/107.

وجه الحقيقة معنى الكتابة بها، ووجه المجاز كونها العِصِيّ والقِداح

على الحقيقةِ، قاله ابنُ عباس، وابنُ جبير، والسّدّي. والثاني: أنها العِصِيّ، فهي كالأقلام شبيهةٌ بها، فتكون استعارةً تصريحيّةً، كما بيّنّا آنفًا، قاله الرّبيع بنُ أنس. والثالث: أنها القِداحُ، فتكونُ الاقلامُ كنايةً عن القِداح لقرينة السّياق، وهو اختيارُ ابنِ قُتيبة، وكذلك قال الزّجّاج: هي قداحٌ جعلوا عليها علاماتٍ يعرفونَها على جهة القُرعة، ومنه القلمُ الذي يُكتب به؛ لأنه قُلِمَ مرّةً بعد مرّةٍ[1]. فقولُه: ﴿إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَـٰمَهُمۡ﴾ ذُكر أنّها الأقلامُ التي يكتبون بها التّوراةَ كانوا يقترعون بها في المُشكلاتِ، تبرُّكًا بأن يكتبوا عليها أسماءَ المُقترعين أو أسماءَ الأشياء المُقترعِ عليها، وهذا المعنى على الحقيقة، والنّاسُ يَصيرون إلى القُرعة عند انعدام ما يرجّحُ الحقَّ، فكان أهلُ الجاهلية يستقسمون بالأزلام وجعلَ اليهودُ الاقتراعَ بالأقلام التي يَكتبون بها التّوراةَ في المدراس رجاءَ أن تكونَ بركتُها مُرشدةً إلى ما هو الخيرُ. هذا مع ما في مناسبةِ الأقلام للبِشارة بمن يعلّمُه الكتابَ، وليس هذا من شعارِ الإسلام، وليس لإعمال القُرعةِ في الإسلام إلا مواضعُ تمييزِ الحُقوق المتساويةِ من كلّ الجهاتِ، وتفصيلُه في الفقه[2].

وجه الكناية بالتّنازُع عنِ الحُبِّ والرّغبةِ في كَفَالَةِ مَرِيَمَ:

تنازعُهم على كفالةِ مريمَ، يُوحي بعلاماتٍ ظهرت على مريمَ كانت موجودةً عندهم في التّوراة تُبشّرُ بنبيّ يظهرُ في زمانهم

قولُه: ﴿إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَـٰمَهُمۡ﴾؛ أي يرمُونَها ويطرحُونها للاقتراعِ على سبيل الكنايةِ أي: كنايةٌ عنِ القرعة[3]. وقولُه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾ وهذه كنايةٌ عنِ الحبّ والرّغبةِ، والتّدافعِ في كفالة مريمَ عليها السلام.

وأشارت الآية إلى أنهم تنازعوا في كفالةِ مريمَ حين ولدتْها أمُّها، إذ كانت يتيمةً كما تقدّمَ، فحصلَ من هذا الامتنانِ إعلامٌ بأنّ كفالة

(1) ابنُ الجوزيّ، زاد المسير: 1/282.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/245.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 3/179.

زَكَرِيَّا مريمَ كانت بعد الاستقْسَام، وفيه تنبيهٌ على تنافسِهم في كفالتِها[1]. فكان في هذه الآيةِ المُعترضةِ بين آيتَيْ نداءِ مريمَ أنّها استدْعتِ الماضي الذي يُوحي بخصوصيّةِ مريمَ عند اللّه، وعند الصّالحين منَ المؤمنين، الذين يكتبون التّوراةَ ويتعلّمُونها.. فناسبَ إثباتَ جهلِ اليهود، ورهبانِهم، بما يُوحيه اللّه تعالى إلى محمد ﷺ مع أنّهم أمّةٌ كان فيهم العلماءُ.. ومراجعُ العلمِ، فكانوا يُلقون أقلامَهم، التي هي علامةٌ على التّمسّك بكتابِ اللّه التّوراة، لكنّهم لا يعلمون كثيرًا ممّا نُوحيه إليك.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/245.

﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٤٥﴾ [آل عمران: 45]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكرَ تعالى قصّةَ ولادةِ يحيى عليه السلام من عجوزٍ عاقرٍ، وشيخٍ قد بلغ منَ الكِبَرِ عتيًا، كونُه شيئًا خارقًا للعادة، أعقبَها بما هو أبلغُ في خرقِ العاداتِ، فذكرَ قصّةَ ولادةِ المسيحِ عيسى ابنِ مريمَ من غير أبٍ، والغرضُ من ذكْرِ هذه القصّةِ الردُّ على النّصارى الذين ادّعوْا ألوهيةَ عيسى، فذكرَ ولادَتَه من مريمَ البتولِ ليدلَّ على بشريّتِه، وأعقبه بذكرِ ما أيّده به منَ المُعجزاتِ ليشيرَ إلى رسالتِه، وأنه أحدُ الرُّسلِ الكرامِ الذين أظهر اللّه على أيديهم خوارقَ العاداتِ، وليس له شيءٌ من أوصافِ الرّبوبيةِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَجِيهًا﴾: جذرُ الكلمة هو (وَجَهَ)؛ الواو والجيم والهاء: أصلٌ واحدٌ يدلُّ على مقابلةٍ لشيءٍ. والوجهُ مستقبِلٌ لكلِّ شيء. يقال وجَهَ الرجلُ، وغيرُه. وربما عبَّر عنِ الذات بالوجه. وتقول: وجهي إليك. وواجهتُ فلانًا: جعلت وجهي تلقاءَ وجهه، ومنَ الباب قولُهم: هو وجيهٌ بيّنُ الجاه. والوجهةُ: كلُّ موضع استقبلتَه. قال اللّه تعالى: ﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ﴾ [البقرة: 148]. ووجهّتُ الشّيء: جعلتُه على جهة. وأصلُ جهتِه وِجْهتُه. وتَوجّه الشّيخُ: ولَّى وأدبر، كأنَّه أقبلَ بوجهه على الآخر. ويقال للمُهر إذا خرجت يداه من الرّحم: وجيه. وفلانٌ وجه القوم، كقولهم: عينُهم ورأسُهم ونحو ذلك.(1)

قال ابنُ قتيبة: الوجيهُ ذو الجاه، يقال: وَجُهَ الرجلُ يُوْجَهُ وجاهةً، صار ذا قدْرٍ ورُتبةٍ. وقال ابنُ دريد: الوجيهُ المحبُّ المقبولُ. وقال الأخفشُ: الشّريفُ ذو القدْر والجاه. وقيل: الكريمُ على من يسأله، لأنه لا يردُّه لكرم وجهِه(2).

(1) ابن فارس، مقاييسُ اللّغة، والراغب، المُفردَات: (وجه).
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/154.

2) ﴿ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾: جِذرُ الكلمة هو (قَرُبَ)؛ القاف والراء والباء أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على خلاف البُعد. يقال قرُب يقرُب قربًا. وفلانٌ ذو قرابتي، وهو من يقرُب منك رحمًا. والقُربة والقُربى: القَرابةُ. والقرابُ: مقاربةُ الأمر. وتقول: ما قربْتُ هذا الأمرَ ولا أقرَبُه، إذا لم تُشامَّه ولم تلتبسْ به. ومنَ الباب القَرَبُ، وهي ليلةُ ورود الإبلِ الماءَ؛ لتعجيلهم سوق الإبل عليه[1].

والقُرْبُ ضدّ البُعد، والاقترابُ الدُّنوّ، والتَقَرُّبُ: التّدنّي والتواصلُ بحقٍّ أو قَرابةٍ. والقُرْبانُ: ما تَقَرَّبْتَ به إلى الله تبتغي به قُرْبًا ووسيلةً. والقُرْبَى: حقُّ ذوي القرابة[2]. يقال: قَرُبْتُ منه أَقْرُبُ، وقَرَّبْتُهُ أُقَرِّبُهُ قُرْبًا وقُرْبَانًا، ويُستعمل ذلك في المكانِ، وفي الزمانِ، وفي النّسبةِ، وفي الحَظْوةِ، والرّعايةِ، والقُدرةِ[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

يخبر الله تعالى رسولَه الكريم: وما كنت - يا نبيَّ الله - هناك حين بشَّرتِ الملائكةُ مريمَ عليها السلام بأعظم بِشارة فقالت: يا مريمُ إنَّ الله يُبشِّرك بولدٍ يكون وجودُه بكلمة من الله، أي يقول له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 47]، فأرسلَ اللهُ جبريلَ عليه السلام إلى مريمَ، فنفخَ في جَيْب قميصِها فولَجَت فيها تلكَ النفخةُ الذَّكية، فأنشأ الله منها تلكَ الروحَ الزَّكية، اسمُه المسيحُ عيسى بن مريم، والمسيحُ لقبه عليه السلام وهو له من الألقاب المشرِّفةِ؛ لأنه مُسِحَ بالبَرَكة واليُمن، له الجاهُ العظيمُ في الدنيا والآخرة، جعله اللهُ أحدَ أولي العَزْم من المرسلين أصحابِ الشرائع الكبارِ والأتباع، ونشر الله له من الذِّكر ما ملأ ما بين المشرق والمغرب، ومن سادات المقرَّبين عند الله يوم القيامة وأقربهم إليه[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة التّكرير في قوله: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾:

﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الثّانية بدلٌ من ﴿إِذۡ قَالَتِ﴾ الأولى وما بينهما اعتراضٌ، أو من ﴿إِذۡ

(1) ابن فارس، مقاييّسُ اللّغة: (قرب).
(2) الخليل، العَيْنُ: (قرب).
(3) الراغب، المُفردَات: (قرب).
(4) ابنُ الجوزيّ، زاد المسير: 1/282، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 55، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 55.

قُصِدَ الى التَّكرير؛ لتكميل المَقول بعد الجُمل المُعترضة

﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ على أنّ وقوعَ الاختصام والبِشارةِ في زمانٍ متّسعٍ، كقولك: لقيتُه سنةَ كذا[1]، أو أنّ الآيةَ بدلُ اشتمالٍ من جُملة: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ قُصدَ منه التَّكريرُ لتكميل المَقولِ بعد الجُملِ المُعترضةِ. ولكونه بدلاً لم يُعطف على ﴿إِذْ قَالَتِ﴾ الأوّلِ[2].

التّصريحُ بذكر اسمِ الله تعالى وتكرارُه:

علّة التصريح باسمه الأعظم؛ لكون الآية تتمحور حول عظمة الله تعالى، وعلّة تكراره الزيادة في إيضاح هذا المرام

ولما كانت هذه القطعةُ تتمحورُ حول عظمة اللّه تعالى في خلقه وتقديرِه وتفرُّدِه - سبحانه - فقد ذكرَ اسمَ الذات الجامعَ لجميع الصّفاتِ فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾ وكرّر هذا الاسمَ الشّريفَ في هذا المقام زيادةً في إيضاح هذا المرام. وبِشارةُ اللّه أمرٌ لا ينبغي إلّا لأهل الاصطفاء، ولذلك جاء الاصطفاءُ والأمرُ بالقنوت، والشُّكرِ له سبحانه، ثم جاء التّبشيرُ منَ اللّه سبحانه.

توجيه القراءة لقوله: ﴿يُبَشِّرُكِ﴾ وتغيّرُ المعنى:

وقد قَرَأَ أصحابُ عبدِ اللّهِ خمسةَ أحرفٍ بالتّخفيفِ، وسائرُ القرآنِ بالتثقيلِ: ثنتان في آلِ عِمْرَانَ: ﴿يَبْشُرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾، و﴿يَبْشُرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾، وفي بني إِسْرَائِيلَ، وفي الكَهْفِ، وفي عسق، ويُفَسِّرونه على أنّ اللّه يَبْشُرُك أي يَسُرُّك بكذا وكذا، لا على التَّبْشيرِ[3].

حياةُ المسيح كانت محفوفةً بالمُعجزات بدأت إرهاصاتُ نبوّته في آل عمران وانتهت بعديدٍ من معجزات الحياة

كلّمه بقوله: ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ [يونس: 33] وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ [هود: 119] وقوله: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ [فصلت: 25]، وقيل: سُمّي كلمةً؛ لكونه متكلّمًا في المهدِ، وخُصّ بذلك لفظُ الكلمة للمبالغة: كوصف الفاعل بالمصدر. وقال النظّام: جعل ذلك لقبًا له لا لمعنًى أشار إليه. وسُمّي مسيحًا، لأنه مُسِحَ بالبركة[4].

(1) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/17.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/245.
(3) الفرّاء، كتاب في لغات القرآن، ص: 48.
(4) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/562.

وقال الأصمّ: سُمّي عيسى كلمةً؛ لأنه تعالى خلق كلمةً، فجعل منها عيسى، كما خلق آدمَ من تراب، وسائرَ النّاس من نطفة، وهذا كما ترى، وقال الجاحظُ: وصفَه بذلك من حيث إنه تقدّم الإخبارُ به وبشارتُه في الكتبِ المُتقدّمة، وهذا كما سَمَّى وعده[1]. أو أنّه سُمّي كلمًة لصدوره بكلمة: كُنْ، بلا أب، أو هو كلمةٌ منَ اللّه أي: منَ كلام اللّه. أو لأنّ اللّه يهدي بكلمته، أو لأنه جاء على وَفق كلمةِ جبريل، وهو: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ١٩﴾ [مريم: 19].

المجازُ في معنى ﴿ٱلۡمَسِيحُ﴾ والمبالغةُ في (فعيل):

قولُه: ﴿ٱلۡمَسِيحُ﴾: على وزن فعيل مجازٌ من ممسوح على وزن مفعول: مجازٌ مرسَلٌ علاقتُه الفاعليةُ، وسُمّي: المسيح، لأنه مُسح بالبركة، قاله الحسنُ، وسعيدُ، وشَمرُ، أو بالدُّهن الذي يُمسح به الأنبياءُ، خرج من بطن أمّه ممسوحًا به، أو بالتَّطهير منَ الذّنوب، أو: بمسح جبريلَ له بجناحِه[2]. ويكونُ: فعيل، فيها بمعنى مفعول، والألف واللام في: المسيح؛ للغلبةِ. وقال ابنُ عباس: سُمّي بذلك لأنه كان لا يمسحُ بيده ذا عاهة إلّا بريءَ، فعلى هذا يكونُ: فعيل، مبنيًّا للمبالغة: كعليم، ويكونُ منَ الأمثلة التي حُولّت من فاعل إلى فعيل للمبالغة. وقيل: منَ المِساحة، وكان يجولُ في الأرض فكأنه كان يمسحُها.

الكلمة مدلولاتُها عظيمةٌ تشكّلت منها معاني الحياة وبدأ آدم مسيرتَه في تعلّم شيءٍ من جنسها

توجيه الإطناب بتَعداد ذكْرِ اللّقب والاسم والوصف:

التَّعدادُ لمفردَاتِ الاسم في قولِه: ﴿ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾، وهذِه ثلاثَةُ أشياءَ الاسمُ منها: عيسى، وأمّا المسيحُ والابن، فلقبٌ وصِفةٌ. ويتميّزُ عن سواه مجموعُ هذه الثّلاثةِ، ويظهر من كلامه أنّ اسمَه مجموعُ هذه الثّلاثةِ، فتكونُ الثّلاثةُ أخبارًا عن قولِه:

الاسمُ الوحيدُ في القرآن الذي نَتَجَ عن ثلاثَةِ أجزاءَ قدّمَ منهجيّةً في التّعريفِ بأسماء الشّخصِيّاتِ

(1) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/561.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/152.

اسمُهُ، فلا يكونُ أحدُها على هذا مستقلًا بالخبريّة. ونظيرُهُ في كون الشّيئين أو الأشياء في حكم شيءٍ واحدٍ.. قولُ الشاعر:

كيف أَصْبَحْتَ كيف أَمْسَيْتَ مِمَّا *** يَزْرَعُ الوُدَّ في فؤادِ الكريم[1]

أي: مجموعُ هذا ممّا يزرع الودَّ، فلمّا جازَ في المبتدأ أن يتعدّد دونَ حرفِ عطفٍ إذا كان المعنى على المجموعِ، كذلك يجوزُ في الخبر[2].

وأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى﴾؛ فَإِنَّ الضَّمِيرَ فِيهِ عَائِدٌ إِلَى مَدْلُولِ الكَلِمَةِ، وَالْمُرَادُ بِالِاسْمِ الْمُسَمَّى فَالْمَعْنَى الْمُسَمَّى الْمُبَشَّرُ بِهِ المسيحُ بنُ مريم[3]. عبّر عنِ العلم واللّقبِ والوصفِ بالاسم؛ لأنّ لثلاثتها أثرًا في تمييز المُسمّى[4].

بيانُ إمكان التّقديم والتّأخير في الاسم:

وجه التقديم أنَّ لَقبَ المسيح أشهرُ من عيسى

ومن قال إنّ المسيح صفةٌ لعيسى، فيكونُ في الكلام تقديمٌ وتأخير تقديرُه: اسمُه عيسى المسيحُ؛ لأنّ الصّفةَ تابعةٌ لموصوفها، ولا يصحّ أن يكون المسيحُ في هذا التركيب صفةً؛ لأنّ المخبَرَ به على هذا اللّفظ، والمسيحُ من صفةِ المدلولِ، لا من صفة الدّالّ، إذ إنّ لفظَ عيسى ليس المسيحَ. قال ابنُ الأنباري: وإنما بدأ بلقبه؛ لأنّ المسيح أشهرُ من عيسى، لأنّه قلَّ أن يقع على سَميّ يشتبهُ، وهذا يدلّ على أنّ المسيحَ لقبٌ لا اسمٌ.

براعة الكناية في قوله: ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾:

في قوله ابن مريمَ تكريمٌ له بولادته من أمٍّ اصطفاها الله مرّتين واصطفاها على نساء العالمين

ولمّا وصفه بهذا الوصف الشّريفِ ذكرَ اسمَه فقال: ﴿عِيسَى﴾، وبيّنَ أنه يكون منها وحدها من غير ذكرٍ بقوله: ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، وذلك أنفى لما ضلّ به مَن ضلّ في أمرِه، وأوضحُ في تقرير مقصود السّورة. فمقتضى (الكلمة) ترشيحٌ لمعنى الكناية عن ولادته من أمّ

---

(1) ابن جني، الخصائص 1/290.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/153 - 154.
(3) الزّركشّي، البرهان: 2/297.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/246.

دون أب، وقولُه: ﴿بِكَلِمَةٍ﴾ أي مبتدئةٌ ﴿مِّنْهُ﴾ من غير واسطة أبٍ هو من تسميةِ المُسبّبِ باسم السّببِ، والتعبيرُ بها أوفقُ لمقصودِ السّورة وأنفى لما يدّعيه المجادلون في أمره[1].

سرُّ التّفخيمِ في التّفسير بعد الإبهامِ:

في التفخيم تعظيمٌ لقدره وبيانٌ لفضله على يحيى عليهما السلام

وفي تفخيم هذا الذِّكر بجعلِه نفسَ الكلمة، وبإبهامه أوّلًا، ثم تفسيرِه، وقوله: ﴿ٱسۡمُهُ﴾؛ في هذا تعظيمٌ لقدره وبيانٌ لفضله على يحيى عليهما السلام إذ لم يجعلْ له في البِشارة به مثل هذا الذِّكْر، فَنَاسَبَ ذِكْرُهُ بعد ذِكرِ يَحيَى.

وجهُ إطلاقِ اسمِ الكلمة على المتكلّم:

وصف عيسى بكلمةٍ مرادٌ به كلمةٌ خاصّةٌ مخالفةٌ للمُعتاد في تكوين الجنين

وَإِطْلَاقُ اسْمِ الكَلِمَةِ عَلَى المُتَكَلِّمِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: 64] أَيْ: لِمُقْتَضَى عَذَابِ اللَّهِ و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ تَجَوَّزَ بِالكَلِمَةِ عَنِ المَسِيحِ لِكَوْنِهِ تَكَوَّنَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَبٍ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ وَلَا تَتَّصِفُ الكَلِمَةُ بِذَلِكَ[2].

ووصفُ عيسى بكلمةٍ مرادٌ به كلمةٌ خاصّةٌ مخالفةٌ للمُعتاد في تكوين الجنين، أي: بدون الأسباب المُعتادة. وقولُه: ﴿مِّنۡهُ﴾ من للابتداء المجازيّ، أي: بدون واسطةِ أسبابِ النّسل المُعتادة، وقد دلّ على ذلك قولُه: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾ [البقرة: 117][3].

ثم أتمَّ لها البِشارةَ، بأوصافٍ جعلها أحوالًا دالّةً على أنه يظهرُ اتّصافُه بها حالَ الولادة تحقيقًا لظهور أثرِ الكلمة عليه فقال: ﴿وَجِيهٗا﴾ قال الحَرَالّي: صيغةُ مبالغةٍ ممّا منه الوجاهةُ، وأصل معناه: الوجه، وهو الملاحَظ المحترَم بعلوٍّ ظاهرٍ فيه ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ ولما

---

(1) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/88.

(2) الزّركشّي، البرُهان: 2/297.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/245 - 246.

كان ذلك قد لا يلازم الوجاهةَ بعدَ الموت قال: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾، ولما كانت الوجاهةُ ثمَّ مختلفةً ذَكَرَ أعلاها، عاطفًا بالواو إشارةً إلى تمكّنِه في الصفات، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ أي: عند اللّه.

التّسميةُ منَ الله كنايةٌ عن العناية الإلهية للمُسَمَّى:

التّسميةُ منَ الله دليلُ الصّلاحِ، والرّعايةِ، والاستقامةِ للمُسَمّى

أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِم عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ قَالَ: خَمْسَةٌ سُمُّوا قَبْلَ أَنْ يَكُونُوا: مُحَمَّدٌ ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ [الصف: 6] وَيَحْيَى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ [مريم: 7]، وَعِيسَى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾، وَإِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾ [هود: 71] قَالَ الرَّاغِبُ: وَخَصَّ لَفْظَ ﴿أَحۡمَدُۖ﴾ [الصف: 6] فِيمَا بَشَّرَ بِهِ عِيسَى، تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّهُ أَحْمَدُ مِنْهُ وَمِنَ الذين قبْلَه(1).

أسماءُ عيسى عليه السلام وكناياتُه وصفاتُه في القرآن الكريم:

مــن وجاهتــه عليه السلام تخليــدُ ذكْرِه في مواضعَ عــديــدةٍ مــنَ القرآن الكريم

وعيسى اسمٌ أعجميٌّ غيرُ منصرف؛ للعُجمة والعَلَميّة، وقيل: اشتقاقُه من العَيَس وهو البَياضُ، والأَعْيَسُ: الجَمَلُ الأَبيض، وجمعُه عِيسٌ. قيل له عِيسَى لِبَياضِ لَونه، وقيل من العَوْس، وهو السّياسة، وأَصلُه عِوْسًا قُلبتِ الواوُ ياءً لكسرة ما قبلها، وقالوا عِيسا لأَنَّه ساسَ نفسَه بالطَّاعة، وقَلْبَه بالمحبّة، وأُمَّته بالدّعوة إلى ربّ العزَّة(2).

الكنايةُ في معنى الوجاهةِ في قولِه: ﴿وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

مــن وجاهتــه عليه السلام رفعُه إلى السّماء فمازج في حياته بينَ الدّنيا والآخرة

وتعدّدتْ معاني الوجاهةِ لعيسى في الدَّنيا والآخرة لدى المُفسّرين، وأقربُها أنّ وجاهةَ عيسى في الدنيا كنايةٌ عنِ النبوّة، ووجاهتُه في الآخرة كنايةٌ عن علوّ درجته. وقيل: في الدّنيا بإحياء الموتى وإبراءِ الأكمهِ والأبرص؛ وهي معجزةٌ من مُعجزات نبوّته، وفي الآخرة بالشّفاعة؛ وهي أيضًا منزلةُ نبوّته في الآخرة. وقيل: في الدّنيا كريمًا

(1) السيوطيّ، الإتقان: 4/78.

(2) الفيروزآباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 6/111.

لا يُردُّ وجهُه، وفي الآخرة في عِليَة المُرسَلين. وقال الزَّمَخشريّ: الوجاهةُ في الدّنيا النّبوّةُ والتّقدّمُ على النّاس، وفي الآخرة الشّفاعةُ وعُلوُّ الدّرجةِ في الجنّةِ. وقال ابنُ عطية: وجاهةُ عيسى في الدّنيا نبوّتُه وذكرُه ورفعُه، وفي الآخرة مكانتُه ونعيمُه وشفاعتُه[1].

الاستعارةُ والطّباقُ في قوله: ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾:

وجه الاستعارة إطلاقُ الوجه على أوّلِ الشّيء

والوجيهُ ذو الوجاهةِ وهي: التّقدُّم على الأمثالِ، والكرامةُ بين القومِ، وهي وصفٌ مشتقٌّ منَ الوجه للإنسان، وهو أفضلُ أعضائه الظاهرةِ منه، وأجمعُها لوسائل الإدراكِ وتصريفِ الأعمال، فأُطلقَ الوجهُ على أوّلِ الشّيء على طريقة الاستعارةِ[2] الشائعةِ فيقال: وجه النّهار لأوّل النّهار، قال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾ [آل عمران: 72]

وقال الرَّبيعُ بنُ زيادٍ العبسيُّ:

مَن كان مَسْرورًا بمقتلِ مَالكٍ *** فليأْتِ نِسْوتَنا بوجهِ نهارٍ[3]

﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ حالٌ مقدّرةٌ من كلمةٍ، وهي وإن كانت نكرةً لكنّها موصوفةٌ، وتذكيرُه للمعنى، والوجاهةُ في الدنيا النّبوةُ، وفي الآخرة الشّفاعةُ[4].

وقال الأعْشَى:

.... *** ولاح لهم وجهُ العَشيَّاتِ سَمْلَق

ويقولون: هو وجهُ القومِ أي: سيّدُهم والمقدَّمُ بينهم. واشتقّ من هذا الاسم فعلُ وجُه بضم الجيم ككرُم، فجاء منه وجيهٌ: صفةٌ مشبّهةٌ، فوجيه النّاس المكرَّمُ بينهم، ومقبولُ الكلمةِ فيهم، قال تعالى في وصف موسى - عليه السلام: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ۝٦٩﴾ [الأحزاب: 69][5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/154.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/246.
(3) السجستانّي، غريب القرآن، ص: 479، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/247.
(4) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/17.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/247.

وجه الكناية قربه من الله تعالى في السماء، وصحبتُه الملائكة

الكنايةُ في قولِه: ﴿وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾:

معناه مُقرَّبٌ مِنَ اللّه تعالى وقال الزَّمَخشريُّ: وكونُه ﴿وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾، رُفِعَ إلى السماء، وصَحِبَتُهُ الملائكة[1]. فالعبارةُ كنايةٌ عن ذلك، قال تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ [النساء: 158]، وقال قتادة: ﴿وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ عند اللّه يومَ القيامة. وقيل: منَ النّاس بالقَبول والإجابة، قاله الماوَرْديُّ. وليس فعلَ هنا من صيغ المبالغةِ؛ لأنّ التَّضعيفَ هنا للتّعدية[2].

﴿وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ معطوفٌ على قوله: وجيهًا، وتقديرُه: ومقرَّبًا من جملة المُقرّبين. قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ١١﴾ [الواقعة: 10- 11]. أَعْلَمَ تعالى أَنَّ ثَمَّ مُقَرَّبين، وأنّ عيسى منهم. وجاءت هذه الحالُ هكذا؛ لأنّها مَن الفواصلِ، فلوْ جاء: ومقرَّبًا، لم تكن فاصلةً، وأيضًا فأعلمَ تعالى أنّ عيسى مقرّبٌ من جملة المُقرَّبين، والتّقريبُ صفةٌ جليلةٌ عظيمةٌ.

﴿وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ منَ اللّه، وقيل: إشارة إلى علُوِّ درجتِه في الجنّةِ، أو رفْعِه إلى السّماءِ وصُحبةِ الملائكةِ[3].

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/277.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/236..
(3) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/17.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٤٦﴾ [آل عمران: 46]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الآيةُ تَتِمَّةٌ لبشارة الملائكة لمريم في أوصاف عيسى عليه السلام فبعد أن بشَّرتها الملائكة بوجاهته في الدُّنيا والآخرة، وأنَّه من المُقرَّبين؛ زادوها بشارة، فبيَّنوا لها هنا أحدَ أهمِّ الخوارق والمُعجزات التي سيجريها اللّه للموهوب، فقال: ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَهۡدِ﴾: جذر الكلمة هو: (مهد)، والمَهْدُ: الموضِع يُهَيَّأُ؛ لينامَ فيه الصَّبيُّ في رضاعه[1]، وأصلُه: مصدرٌ سمِّيَ به، يُقَالُ: مهَّدتُ لنفسي - بتخفيف الهَاءِ وتشديدهَا - أي: وطأت، ويقال: أمهد الشيء: ارتفع[2]، والمِهادُ: اسمٌ أجمعُ من المَهْدِ، كالأرضِ جَعَلها اللّه مِهادًا للعِباد، وجَمْعُ المِهاد: مُهُدٌ، ومَهَّدْتُ لنفسي خيرًا، أي: هيَّأتُه، ووطَأْتُه[3]، ومن المجاز: مَهَّدَ الأمرَ: وَطَّأَه، وسوَّاه، ومهَّد العذر تمهيدًا، ومهَّد له منزلة سنيَّة، وما امتهد فلانٌ عندي مهد ذاك، أي: ما قدَّم وسيلةً فيما يطلبه، وماءٌ مُمَهَّدٌ: فاترٌ ليس ببارد ولا سخنٍ[4].

2) ﴿وَكَهۡلٗا﴾: جذرُ الكلمةِ هو: (كهل)، الكَهْلُ: مَن حَلَّ به الشَّيبُ[5]. والكَهْلُ: الذي وَخَطَهُ الشَّيْب، ورأيتَ له بَجَالةً (مَهابة ورفعة في المقام)[6]، ورجلٌ كَهْلٌ، وامرأة كهْلةٌ، وقلَّ: ما يُقال للمرأةِ كَهْلَة، إلَّا أن يقولوا: شَهْلَةٌ كَهْلَةٌ، وهو من أربعة وثلاثين إلى إحدى وخمسين[7]، واكْتهلَتِ الرّوضةُ؛ إذا عمَّها نَوْرُها[8]. ومن المجاز: هو كافل أهله، وكاهلهم،

(1) الخليل، العَين: (مهد).
(2) أبو حيَّان، البحر المُحِيط: 3/156.
(3) الخليل، العَين: (مهد).
(4) الزَّمخشريُّ، أساس البَلَاغة: مادّة (مهد).
(5) القيعي، الأصلان في علوم القُرآن، ص: 223.
(6) الخليل، العَين: والرَّاغبُ، المفردات: وابن سيده، المحكم (كهل).
(7) ابن سيده، المحكم (كهل).
(8) الخليل، العَين: (كهل).

وهو الذي يعتمدونه، شبّه بالكاهل واحد: الكواهل، واكتهل النَّباتُ: تمَّ طوله وتكهَّل، ونبات كهل[1]، واكْتَهَلَ النَّباتُ أيضًا؛ إذا شارف اليبوسة مشارفة الْكَهْلِ الشَّيبَ، [2]، والخلاصة أنَّ الكهل بين الشَّاب والشَّيخ.

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

ومن آيات البِشارة بالمسيح عليه السلام ومن المعجزاتِ التي بشَّرتْ بها الملائكةُ مريمَ عليها السلام أنَّه يُكلِّمُ النَّاس وهو رضيعٌ - في المهد بكلام الأنبياء - قبل أوان الكلام؛ لإظهار طهارة أمِّه، مِمَّا رماها به أهلُ الفِرْية من القذف، وهو قوله: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠﴾ [مريم: 30]، ويدعو النَّاسَ إلى اللّه وهو كبير قد اجتمعت قوَّته وكمُل شبابه بما أوحاه اللّه إليه، وهذا تكليم النبوَّة والدعوة والإرشاد، وهو معدودٌ من أهل الصَّلاحِ والفضلِ في قوله وعمله، وهي صفةٌ عامَّةٌ في الأنبياء، فلولا مقامهم العالي في الصَّلاح؛ لما استحقُّوا درجةَ النُّبوَّة[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة التّعبير عن التكليم بالمضارع:

استـحـضـار المعجزة للتأثير في المخاطبين في كلِّ زمنٍ للإقرار بقدرة الله

التّعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾ يدلُّ على استحضار الحالة الماضية، وكأنَّ المعجزة حدثت الآن، وفي استحضار الحدث الماضي أثر بالغ في قدرة اللّه - عزَّ وعلا - على تحقيق ما يريد بغير الأسباب المعهودة، فكما قدر على خلق عيسى بلا أب، فهو على إنطاقه رضيعًا بكلام الأنبياء أقدر.

بلاغة المجاز المرسل في قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾:

قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾، أي: بعضَهم ممّن شهدوا الحدَث، وفيه مجازٌ مرسلٌ حيث ذكر الكلَّ، وأراد الجزء؛ فالعلاقة الكليَّة، وفي المجاز المرسل هنا: دلالة على قوَّة المعجزة وتأثيرها في الناس

(1) الزَّمخشريُّ، أساس البَلاَغة: (كهل).

(2) الراغب، المفردات، 727 - 728.

(3) الخازن، لباب التأويل: 1/348، ونخبة من العلماء، التفسير الميسَّر، ص: 56.

جميعًا، فكلُّ مَن آمن بالله أيقنَ بهذه المعجزة، وكلُّ المسلمين يؤمنون بهذه المعجزة؛ لأنَّهم خوطبوا بها في القرآن، كما خوطب بها أهل زمانها، فالتَّعبير بالمجاز دلَّ على قوَّة المعجزة وعظمة تأثيرها بأسلوب وجيز.

لا يُقْصَدُ بالمعجزة الحاضرون وقت التكليم، بل يُقْصَدُ كلّ النّاس في كلِّ الأزمنة

بيانُ التَّعبير الكنائيِّ في قوله: ﴿فِي ٱلۡمَهۡدِ﴾:

قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ﴾، أي: حال كونه في المهد، فالمهد مقرُّ الصَّبيِّ في رضاعه، وأصله: مصدر سمِّي به، وكما قال الحَرَالِّي: "هو موطن الهدوء والسُّكون المتحسَّس اللَّطيف الذي يكونُ بذلك السُّكون والهدوء قوامُهُ"[1].

العناية بالرضيع من صورها إمهاد مكانه، والعناية بمرقده، وتوفير الراحة له

سرُّ الطِّباق في لفظي: ﴿ٱلۡمَهۡدِ﴾، و﴿وَكَهۡلٗا﴾:

بين لفظي ﴿ٱلۡمَهۡدِ﴾ و﴿وَكَهۡلٗا﴾ في قوله: ﴿فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا﴾ طباقٌ خفيٌّ، فالمهد كناية عن مرحلة الرّضاع، فهو يكلِّم النَّاس رضيعًا؛ إعجازًا، ويكلّمهم كهلًا؛ وحيًا، فهو المتكلّم عن الله في الحالين، والطِّباق هنا يتضمَّن أسرارًا غزيرة، وبدائع لطيفة، فذِكْر الطَّرفين يدلُّ على شمول الرِّعاية الإلهيَّة للمسيح عليه السلام في كلِّ أحواله، وفائدة الطِّباق ذِكر المرحلتين المبتدأ والمنتهى؛ تأكيدًا على ما بينهما من المراحل، وخصَّ تكليم عيسى عليه السلام بحالين: حال كونه في المهد، وحال كونه كَهلًا، مع أنَّه يتَكَلَّم فيما بين ذلك؛ لأنَّ لذينك الحالين مزيد اختصاص بتشريف الله إيَّاه، فأمَّا تكليمه النَّاس في المهد؛ فلأنَّه خارق عادة إرهاصًا لنبوءته، وأمَّا تكليمهم كَهلًا؛ فمراد به دعوته النَّاس إلى الشَّريعة[2].

وجه الطباق شمول الرِّعاية الإلهيَّة للمسيح عليه السلام كلَّ أحوالِه في البدء، والمنتهى

وفي هذا الطِّباق دلالة على تغيُّر أحواله مع الزَّمن[3]، وهو إشارة إلى تقلُّبِ الأحوال عليه، وردٌّ على النَّصارى في دعواهم ألوهيَّته، وفي

في الطِّباق إخبار عن تغيُّر أحواله، وتقلّب أطوار عمره، وفيه نفيٌ لألوهيته

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/398.

(2) ابنُ عَاشُور، التَّحرير والتَّنوير: 3/247.

(3) ابنُ عَاشُور، التَّحرير والتَّنوير: 1/282.

ذكر أحواله المختلفة المتنافية إرشادٌ إلى أنَّه بمعزل عن الألوهيَّة[1]، فذكر ذلك قبل أن يخلقه إعلامًا به أنَّه سيكتهل، فإذا أخبرتْ به مريم؛ عُلِمَ أنَّه من علم الغيب[2].

بلاغة التَّسوية بين المتعاطفين:

وجه التَّسوية بين المتعاطفين دفع التوهّم، وإزالة الاستغراب

في قوله تعالى: ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ تسويةٌ بين المتعاطفين لدفع التوهّم، وإزالة الاستغراب. قال البيضاوي: " والمعنى تكلّمهم في الطفولة، والكهولة على سواء، والمعنى إلحاقُ حاله في الطفولية بحال الكهولية في كمال العقل والتَّكَلُّم، وبه استدلّ على أنه سينزل فإنه رُفع قبل أن يكتهل "[3].

وفي قوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾، بشارة من اللَّه تعالى لمريم أنَّ عيسى يبقى إلى حال الكهولة، وقيل: إنَّ كَهلًا ، أي: ينزل من السماءِ لقتل الدَّجَّال، وهو كهل[4]، وبشّرها بطول حياتها بقوله: ﴿وَكَهْلًا﴾، أي: بعد نزوله من السَّماء في آخر الزَّمان، ويكون كلامه في الحالتين - حال كونه طفلًا وكَهلًا - كلام الأنبياء من غير تفاوت[5].

وقال الزَّمخشريُّ: معناه: وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ في هاتين الحالتين كلام الأنبياء، من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة التي يستحكم فيها العقل، ويُنَبَّأ فيها الأنبياء[6].

فنُّ الاحتراس في ذِكر لفظ (الكهولة):

وجه الاحتراس دفع توهّم ما أملته العادة من أنّ المتكلّم في المهد لا يعيش

قال الزركشي: " وإنّما ذكر الكهولة مع أنّه لا إعجاز فيه لأنّه كان

(1) البَيضاويُّ، أنوَارُ التَّنزِيل: 2/17. أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّلِيم: 2/37.
(2) أبو حيَّان، البحر المُحِيط: 3/156.
(3) البيضاويُّ، أنوَارُ التَّنزِيل: 2/149.
(4) الزَّجَّاج، معاني القُرآن: 1/412.
(5) البيضاويُّ، أنوَارُ التَّنزِيل: 2/17، والبِقَاعيُّ، نظم الدُّرر: 2/89.
(6) الزَّمخشريُّ، الكَشَّاف: 1/391.

في العادة أنّ من يتكلم في المهد أنّه لا يعيش ولا يتمادى به العمر فجُعل الاحتراس بقوله: ﴿وَكَهۡلٗا﴾"[1].

وجه إيثار لفظ (الكهل):

إيثار الكهولة؛ لأنـهـا عُـمْـرُ استحكام العقل وجـودة الـرأي، وبـشـارة بـأنّـه سيعيشها

والكهل الحليم، لقوّة عقله وإدراكه وتجربته. ولذلك خُصَّ هذا السِّنّ في الآية دون سائر العمر؛ لأنّه سنُّ استحكام العقل وجودة الرأي، وفي قوله: وكهلاً، تبشير بأنّه يعيش إلى سن الكهولة[2].

سرُّ القيد بالحال في الفاصلة:

دلّـتِ الـحـال على صلاحه في كـلِّ أحـوالـه، وأكّـدت أهميّة صفة الصلاح في الأنبياء

صفة النُّبوَّة تتضمَّن كلَّ محاسن الأخلاق وأعلاها، غير أنَّ النظم الكريم نصَّ عليها هنا، إعلاءً لشأنها كما أنَّها مرتبطة برسالتهم اتِّصالًا وثيقًا؛ فرسالتهم الإصلاح، ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [هود: 88].

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ حالٌ ثالثةٌ من ﴿وَيُكَلِّمُ﴾، وهذه الحال دالَّة على صلاحه في كلِّ أحواله، وفي ذلك تأكيد للبشارة، فهي محيطة بأمره شاملة لآخر عمره، كما كان مقارنًا لأوَّله.

(1) الزركشي، البرهان: 3/67.
(2) أبو حيَّان، البحر المُحِيط: 2/483.

﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٧﴾ [آل عمران: 47]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

وقعت الآية من سابقتها موقع شبه كمال الاتصال، حيث جاءت الآية الكريمة بمنزلة الجواب عن سؤال أثارته الآيةُ السابقة، وكأنَّها عليها السلام لمَّا سمعت ذلك؛ امتلأت تعجُّبًا من بشارتها بالولد من غير انعقاد الأسباب المعتادة، فكأنَّها تعجب من الكيفيَّة، فاستخفَّها ذلك التعجُّب إلى الاستعجال بالسُّؤال من قبل إكمال المقال بأن قالت: ﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ﴾[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَمۡسَسۡنِي﴾: جذر الكلمة هو: (مسس)، و(مسَّ): قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾ [البقرة: 275]. قال الفرَّاء: المسُّ: الجنون، والعرب تقول: رجل ممسوس، والمسُّ: اللَّمس، ويقال: لا مِساس، ولا مَساس، ومن المجاز: مسَّه الكبر والمرض، ومسَّه العذاب، ومسَّه بالسَّوط، ومسَّ المرأة: جامَعَها، وماسَّها: أتاها، قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: 237]، أي: من قبل أن تُجامعوهُنَّ[2].

2) ﴿بَشَرٞۖ﴾: جِذر الكلمة هو (بَشَرَ)، والبَشَر: الإنسانُ الواحد رجلًا كان أو امرأة، قال تعالى: ﴿أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا﴾ [المؤمنون: 47]، لا يُثَنَّى، ولا يُجمع، والبَشْرُ بجَزْم الشِّين: قَشْرُك البَشَرَة عن الجِلْد[3]، والجَمْع أبشار، والبَشَرة ظاهر أعلى جلدة الوَجه والرَّأس والجسد من الإنسان، وهي التي عليها الشعر، وقيل: هي الَّتي تلي اللَّحم[4]، ومن المجاز: فلانٌ

(1) البِقَاعيُّ، نظم الدُّرر: 4/400 والآلوسي، روح المعاني: 2/157.
(2) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (مسس).
(3) الخليل، العَين: (بشر).
(4) ابن سيده، المحكم (بشر).

مؤدم مُبشر، وما أحسن بشرة الأرض؛ وهي ما يخرج من نباتها، فيلبسها، وطلعت تباشير الصُّبح؛ وهي أوائله التي تبشِّر به، كأنَّها جمع تبشير، وهو مصدر: بشَّر، وفيه مخايل الرُّشد وتباشيره، ورأى النَّاس في النَّخل التَّباشير؛ وهي البواكير، وهبَّتِ المُبشِّرات؛ وهي الرِّياحُ التي تبشِّر بالغيث(1).

3) ﴿قَضَىٰٓ﴾: جِذْر الكلمة هو (قضي): قَضَى يَقضي قَضاءً وقَضيَّةً، أي: حكم، وقَضَى إليه عهدًا، معناه الوصيَّة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: 4]، وقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾، أي: حَكَمْنا عليه به، وانقَضَى الشيءُ، وتَقَضَّى، أي: فَنِي، وذهب(2). وقَضيتُ بينَ الخَصمين، وَعَلَيهمَا: حَكَمتُ، وَقضيتُ وَطَرِي: بَلغتُهُ، وَنلتُهُ، وَقضيتُ الحاجةَ كَذلكَ، وَقضيتُ الحجَّ وَالدَّينَ: أَدَّيتُهُ، (3)، وقضى هنا، بمعنى: أراد.

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لَمَّا أخبرت الملائكةُ مريمَ عليها السلام أنَّ الله يبشِّرها بالمسيح؛ نادتْ ربَّها، مستفهمةً - ليس شكًّا منها في قدرة الله تعالى - على طريق التَّعجُّب من هذا الأمر الخارقِ للعادةِ، وأنا لستُ بذاتِ زوجٍ ولا بَغِيٍّ؟ قال لها المَلَك: هذا الذي يحدث لكِ - من حدوث الولد من غير أب - ليس بمستبعَدٍ على الإلهِ القادر، الذي يوجِد ما يشاء من العَدَم، فإذا أراد إيجادَ شيءٍ فإنما يقول له: ﴿كُن﴾ [آل عمران: 47] فيكون، فهذا شأنه - سبحانه - في الخلقِ والتَّقدير، لَا يعسر عَلَيْهِ شَيْءٌ؛ ليبيِّنَ لعباده أنه الفعَّالُ لما يريدُ، وأنَّ ما شاء كان وما لم يَشَأْ لم يكن(4).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة التصدير بالنداء:

في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ صدّرت مريمُ عليها السلام إجابتها بالنداء للربّ، وفيه معنى الاعتراف بالخلق والتكوين، وكمال الربوبية لله سبحانه وتعالى، فهو

(1) الزَّمخشريُّ، أساس البَلاَغة: (بشر).
(2) الخليل، العَين: (قضي).
(3) الراغب: تفسير الرَّاغب: 2/567.
(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 56، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 56.

صـدَّرت كلامها بـنـداء الــربّ اعترافًا بالخلق والـتـكـويـن، وكمال الربوبية لله تعالى

تسليم بالقدرة الإلهية، وبأن خالق كل شيء لا يكبر عليه شيء، سبحانه وتعالى[1].

التصديرُ بالنداء مـجـازٌ وجـهـهُ التحسّر

ذهب ابن عاشور إلى أنّ النِّداء للتحسُّر، وليس للخطاب: لأنَّ الَّذي كلَّمها هو الملكُ، وهي قد توجَّهَت إلى الله سبحانه[2]. فخرج النداء بهذا عن حقيقته إلى معنى مجازيٍّ، وهو التحسُّر؛ لما سيصيب سمعتها من ولد بلا أب، وهو شأن البشر.

بلاغة الاستفهام في الآية:

مـعـنـى الاسـتـفـهـام عـلـى طـريـق المجاز التعجُّبُ مـن حـمـلـهـا، واستبعادُ ذلك

جاء الاستفهام هنا خارجًا عن حقيقته إلى المجاز، ومعناه هنا: التعجُّب والإنكار، والاستبعاد للحمل على حال بكارتها؛ لذا أُجيبَ عن تعجُّبها بجوابين قوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ و﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[3]؛ إزالة للتعجُّب، وكان أحد الجوابين كافيًا إلَّا أنَّ ذلك مَليحٌ بلطف الله بعباده ورحمته بخلقه؛ لما خلقوا عليه من النَّقص والاعتبار بالظاهر دون السُّلوك إلى بواطن الأقدار وخوافيها، ويحتمل أن يكون على حقيقته، بمعنى: أنَّه يكون بتزوُّج أو غيره.

(أنّـى) بمعنى كـيـف؛ فـالاسـتـغـراب في الكيفية، لَا في أصل القدرة الإلهية

يدلُّ قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ﴾ على بالغ عجبها، ويُومئ إلى ارتياعها الذي عبّرت عنه في سورة مريم: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣﴾ [مريم: 23]، و﴿أَنَّىٰ﴾ هنا بمعنى: (كيف)، أي: كيف يكون مِنّي ولدٌ ولم يمسسني بشر؟ أي: لم يكن مني ما يكون بين الرجل والمرأة مما يكون منه ولدا! فالاستغرابُ في الكيفية، لَا في أصل القدرة الإلهية[4]. فهي عليها السلام قد قالت هذا؛ تعجُّبًا واستفهامًا، لا شكًّا وإنكارًا، على ما أشرنا إليه في قصَّة زكريا، وعلى هذا رأي

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1224.
(2) ابنُ عَاشُور، التَّحرير والتَّنوِير: 3/248.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/248.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1224.

الجمهور: أنَّ الذي خاطبها كان جبريل، وكانت تظنُّه آدميًّا يريد بها سوءًا؛ ولهذا قالت: ﴿أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ﴾ [مريم: 18][1]، وعلى هذا المعنى يمكن أن يكون الإنكار باعتباره - في ظنِّها - آدميًّا لا مَلَكًا.

بلاغة القيد بالجملة الحاليَّة المتضمِّنة الكناية:

بيانُ وجهِ الاستغرابِ، وسببُهُ فقدُ السَّببِ المعتادِ، والكنايةُ أكَّدته

قوله: ﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٌ﴾ جملة حاليَّة محقِّقة لما مرَّ من الاستفهام ومقوِّية له، وكأنَّها بمنزلة العلَّة في السُّؤال وإبداء التحسُّر، وجاءت الكناية في ﴿يَمۡسَسۡنِي بَشَرٌ﴾ كناية عن الطَّهارة والعفَّة بدليل عدم مسِّ أيِّ بشر لها، ويعظِّمه أنَّ الفاعل جاء منكَّرًا، للتَّعميم، كما أنَّ الكناية نفت كلَّ وجوه المسِّ حلالًا وحرامًا، والتَّعبير بالكناية في هذا المقام أبلغ من الحقيقة؛ إذ حقيقته: لم يجامعني بشر، وهو تعبير خادش للحياء، وفي الوقت ذاته ليس مانعًا من مقاربة الجماع، وكان يحتاج لقيد بالحلال أو لطول العبارة بقولنا: لم يجامعني بشرٌ، لا حلالًا، ولا حرامًا، فكانت الكناية أبلغ في البيان عن الطُّهر والعفَّة بأبلغِ طريقٍ وأوجزه.

مجازيةُ المسّ اختلاطُ الرَّجلِ بالمرأة، وحقيقتُهُ عَدمُ لَمْسِ الجسم

وتعبير القرآن عن اتصال الرجل بالمسيس في جملة ﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي﴾ مجازٌ مشهور معروف، حتى يكاد يكون حقيقة عرفيّة في لغة القرآن الكريم؛ أو نقول: المسّ المراد به حقيقته، وهو أنها لم يلمسها رجل؛ لأنها متبتِّلة دائمًا منصرفة للعبادة لم يلمس جسمها رَجل من غير محارمها قَطُّ؛ وبذلك ينتفي بالأولى ما هو أبلغ من مجرَّد اللَّمس، فموضع العجب والسؤال هو أن يكون ولد من غير اتّصال رَجل بامرأة[2].

نكتة التَّناسب بين ﴿يَمۡسَسۡنِي﴾ و﴿بَشَرٌ﴾:

البَشَرَةُ: أعلى جِلْد الوَجْه والجَسَد من الإنسان، وهو البَشَر؛ إذا

(1) ابن الجوزي، زاد المَسِير: 3/243.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1224.

اصطفاء الألفاظ له أثر بالغ في التأكيد على الطُّهر والعفَّة

جَمْعَتَه، وإذا عَنَيْتَ به اللّون والرِّقَّةَ، ومنه اشْتُقَّتْ مباشرةُ الرجل المرأة؛ لتضامِّ أبشارهما، ومباشرة الأَمْر: أن تحْضُرَهُ بنفسك[1]، ومن ذلك يظهر التَّناسب في اختيار اللفظتين في قوله: ﴿يَمْسَسْنِي بَشَرٌۖ﴾، لأنَّ المسَّ: هو مسكُ الشَّيءِ باليد[2]، أي: مباشرة الشيء، أو جَعْلُ بشرة اليد تلامسه، وقوله: ﴿بَشَرٌۖ﴾ من البشرة التي تباشر الشيء، فكان جامع الكلمتين: هو المباشرة، فيكون معنى: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌۖ﴾، أي: لم يحصل بيني وبين رجل مباشرة، كالذي يكون بين المرء وزوجه، وهذا ما يؤوِّلُ سبب اختيار بشر دون رجل، فالبشر: الإنسان والواحد والجميع والمذكر والمؤنث في ذلك سواء، وقد يثنَّى[3]، فالتناسب أعان على التَّأكيد على العفَّة والطُّهر.

نكتة الفصل في جواب الاستفهام:

وجه الفصل وقوع الجواب على طريق المحاورة المعبّر عنه بألفاظ القول

جملة ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ جواب الاستفهام وعُدل عن عطفها؛ لأنها جاءت على طريقة المحاورات كما تقدم في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة: 30] وما بعدها في سورة البقرة والقائل لها هو الله تعالى بطريق الوحي[4].

بيانُ التعبير باسم الإشارة:

عود (كذلك) إلى القدرة التي تتضمَّنها البشارة بالكلمة، أو إلى حال مريم

الإشارة بقوله: ﴿كَذَٰلِكِ﴾، يحتمل أن تكون إلى هذه القدرة التي تتضمَّنها البشارة بالكلمة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ﴾، إلى قوله: ﴿وَكَهۡلٗا﴾، أي: مثل ذلك الخلق المذكور يخلق الله ما يشاء، ويحتمل أن تكون إلى حال مريم وبكارتها[5]، وكلُّ ذلك هيَّأَ للجملة الثَّانية؛ إذ جاءت كعطف البيان لها.

(1) الخليل، العَين: (بشر).
(2) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: 12/226.
(3) ابن سيده، المحكم: (بشر).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/248.
(5) ابن عطيَّة، المحرّر الوَجِيز: 1/436، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/248.

بلاغة تقديم المبتدأ على خبره الفعليِّ:

في تقديم لفظ الجلالة تقوية للمعنى، وتوكيد بيان إزالة حالة العجب والاستغراب

جاء قوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ في قوة الجواب للاستفهام السَّابق؛ لأنَّها عنه نشأت، وعليه ترتَّبت، وجاءت الجملة على نسق عجيب من البناء، فأصل التركيب: (اللّه يخلق ما يشاء كذلك)، فقد قدّم الخبر على المبتدأ، وقدّم المبتدأ على خبره الفعليِّ ﴿ٱللَّهُ﴾ والجملة الفعلية ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾، وقد جاء الفعل مضارعًا؛ دلالة على التَّجدُّد والحدوث، وفاعله ضمير يعود على لفظ الجلالة، فكأنَّ الفعل أسند مرَّتين، وفي كلِّ ذلك تقوية للمعنى وتوكيده في بيان أنَّه لا عجب مع قدرة القادر، فهو لا يفتقر لأسباب. قال ابن عاشور: "وتقديم اسم الجلالة على الفعل في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَخۡلُقُ﴾؛ لإفادة تقوّي الحكم وتحقيق الخبر"[(1)].

نكتة التعبير عن الجمع بالمفرد:

تقديمُ مثال واحد سبيلٌ لسهولة الفهم لدى المتلقِّي

عبَّر بالمفرد في قوله تعالى: ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ عن الجمع، فذكر ﴿أَمۡرٗا﴾، والمُراد جميع أمور الوجود، فإن أرادها؛ قال لها: كُن فيكون، وفائدة هذا الفنِّ تقديم مثال واحد بغية سهولة الفهم لدى المتلقِّي؛ وهو منهجيَّة قرآنيَّة مُطَّردة.

وجه مناسبة جملتي جواب الاستفهام:

وقعت الجملة من سابقتها موقع كمال الاتصال بوصفها بيانًا للمشيئة، وفيه تأكيد لإزالة العَجَب والاستغراب

وقعت جملة ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾ من سابقتها موقع كمال الاتصال حيث جاءت بيانًا للمشيئة، وفي ذلك تأكيد لإزالة العجب والاستغراب، ويقوِّيه التعبير بـ﴿قَضَىٰٓ﴾ وهو هنا، بمعنى: أراد، والإرادة بيانٌ للمشيئة في الجملة السابقة.

بلاغة التعبير بجملة الشرط:

جاءت جملة الشرط ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/248.

في الشرط هنا تأكيدٌ لسرعة حصول الجواب بمجرَّد الإرادة

مصوغةً بأسلوب التعليق، واقترن جواب الشرط بالفاء، وبني على أسلوب القصر؛ تأكيدًا لسرعة حصول الجواب بمجرَّد الإرادة.

قصديّة اختيار الفعل ﴿قَضَىٰٓ﴾:

إيجاد الباري للأشياء هو من قبيل الحكم عليها بالوجود

عبَّر سبحانه عن الإيجاد بالفعل: ﴿قَضَىٰٓ﴾؛ إشارةً إلى أنّ إيجادَه للأشياء ليس إلَّا من قبيل الحُكم عليها بالوجود، فإذا حكمَ بالوجود في أمر نُفِّذَ حُكْمهُ، وحكمُهُ هو أن يقول: كن، فيترتّب على ذلك أن يكون[1].

بديعُ صوغ الإجابة على طريق المطاوعة:

دلالة المطاوعة مع الاقتران بالفاء سرعة الاستجابة، والوقوع من غير مهلة

وبني على طريق المطاوعة ﴿كُن﴾، وهي كلمة دالّةٌ على التكوين بمحض قدرة اللّه تعالى عند إرادته خَلْقَ الشيء وإيجاده، وقد خلق المسيح بهذه الكلمة[2]. واقترن فعل المطاوعة بالفاء الدَّالَّة على سرعة الوقوع من غير مهلة، ويؤيِّد ذلك أن مدَّة حمل البتول الطاهرة قصيرة جدًّا، وكلُّ هذا يفيد تحقيق الأمر الذي ذُكر قبله، من غير تأخُّر ولا حاجة إلى سبب؛ وأنّ لا رادَّ له، وهو كقوله: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠﴾ [القمر: 50]، أي: إنَّما نأمر مرَّة واحدة لا تثنية فيها، فيكون ذلك الشيء سريعًا كلمح البصر[3].

جملة المطاوعة تمثيلٌ لكمال قدرته تعالى وسهولةِ تأتّي المقدورات حسبما تقتضيه مشيئتُه

قال العمادي: " ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن﴾ لا غيرُ. ﴿فَيَكُونُ﴾ من غير ريث وهو كما ترى تمثيلٌ لكمال قدرته تعالى وسهولةِ تَأَتِّي المقدورات حسبما تقتضيه مشيئتُه، وتصويرٌ لسرعة حدوثِها بما هو علم فيها؛ من طاعة المأمورِ المطيعِ للآمر القويّ وبيانٌ لأنه تعالى كما يقدِر على خلق الأشياءِ مُدرجاً بأسباب وموادَّ معتادةٍ يقدِر على خلقها دفعةً منْ غيرِ حاجةٍ إلى شيء من الأسباب والمواد"[4].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1225.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 2/319.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 2/319.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/38.

بلاغة الاستعارة التمثيليّة في الفاصلة:

جاء في تلخيص البيان في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ "استعارةٌ؛ لأنه ليس هناك شيء على الحقيقة يؤمر ولا قول يسمع. وإنما هذا القول عبارة عن تحقيق الإرادة وسرعة وجود المراد، من غير معاناة ولا مشقَّة، فهو إخبار عن نفاذ قدرته تعالى. فإذا أراد أمرًا كان لوقته، من غير أن يبطئ إيجاده، أو يتقاعس إنفاذه. وذلك بمنزلة قول أحدنا: (كُنْ) في خفّة اللفظ به، وسرعة التعبير عنه، من غير كلفة تلحقه، ولا مشقة تعترضه"[1].

في الاستعارة إخبار عن نفاذ قدرته تعالى، لتعلّقها به تعلُّقًا تنجيزيًّا

وتقرير هذه الاستعارة التمثيلية أنْ يُقال: شبَّه سرعة تأثير قدرته ونفاذها فيما يريده، بأمر المطاع للمطيع، في حصول المأمور به، من غير امتناع ولا توقُّف، وحينئذ فمعنى أن يقول له: كن، أن تتعلق به قدرته تعلُّقًا تنجيزيًّا؛ فإذا أراد شيئًا وُجِدَ من غير إبطاءٍ ولا تأخير[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

ولد وغلام:

ذكر الولد هنا في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾، وقال تعالى في سورة مريم: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ١٩﴾ [مريم: 19].

وصفُ الحدث الواحد من مشاهد مختلفة يكمِّل بعضُها بعضًا

ما في سورة آل عمران حكايةُ معنى قول مريم عليها السلام وما في سورة مريم بِشارة المَلَك، فجاء اللفظُ المناسبُ مع البشارة بالبقاء، فلمَّا بشَّر مريمَ بعيسى؛ قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ٤٥﴾ [آل عمران: 45]؛ فجاء ردُّها: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي

(1) الرضي، تلخيص البيان: 2/191.

(2) الصاوي، حاشية على تفسير الجلالين: ص 1580.

﴿وَلَدٌ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾ وقد سبق بقوله: ﴿بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ﴾، والكلمة أعمُّ من (الغلام)، وقد جاء الاستفهام منها بكلمة ﴿وَلَدٌ﴾؛ لأنَّ الولد يُطلق على الذكر والأنثى، وولادة الولد هنا من غير مسِّ بشر؛ أي من غير اجتماع الأسباب المعهودة للولادة من الأبوين، ولذلك كان الجواب لها من الله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ﴾، وأمَّا الذي في سورة مريم: ﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾ [مريم: 20]، فقولٌ ردَّت به من قبيل المشاكلة اللفظية على الرسول الذي ذكر لها الغلام في أثناء كلامه: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩﴾ [مريم: 19]، وليس سؤالاً منها لله تعالى، ولذلك أجاب الملك: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ [مريم: 21]، والوجه الجامع بين الموضعين وصف البشارة من كلِّ وجهٍ؛ ابتداءً واستمرارًا.

يخلق، ويفعل، ويُنشئ، ويصنع:

التَّعبير بالخلق دلالة تفرُّد الخالق بالإبداع

عبَّر القرآن الكريم في جانب زكريا عليه السلام بقوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ٤٠﴾ [آل عمران: 40]، وهنا عبَّر بقوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾؛ لأنَّهُ إيجادُ كائِنٍ مِن غَيْرِ الأَسْبابِ المُعْتادَةِ لِإيجادِ مِثْلِهِ، فَهو خَلْقٌ أُنُفٌ غَيْرُ ناشِئٍ عَنْ أسْبابِ إيجادِ النّاسِ، فَكانَ لِفِعْلِ "يَخْلُقُ" هُنا مَوْقِعٌ مُتَعَيِّنٌ، فَإنَّ الصّانِعَ إذا صَنَعَ شَيْئًا مِن مَوادَّ مُعْتادَةٍ وصَنْعَةٍ مُعْتادَةٍ، لا يَقُولُ خَلَقْتُ وإنَّما يَقُولُ صَنَعْتُ[1]. و"للإشارة إلى أنَّ إيجاد ولد من شيخين عجوزين، ليس كإيجاد ولدٍ من أمٍّ فقط بلا أب، فكان الخلق والإبداع أنسبَ بعيسى من يحيى؛ ولذلك عقَّبه ببيان كيفية الخلق، فقال: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٧﴾، والمراد بالأمر هنا الأمر التكوينيُّ، لا الأمر التكليفيُّ"[2]. قال الراغب: " فإن قيل: لم قال ها هنا: ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ وفي قصة زكريا: ﴿يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ٤٠﴾ [آل عمران: 40]؟ قيل: لمّا كان الخلق أخصّ من الفعل خصّه[3]، بما هو إبداع"[4]؛ لكونه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/249.
(2) حجازي: التفسير الواضح 1/88.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/248.
(4) الراغب، تفسير الراغب: 2/569.

إيجادًا لكائن من غير الأسباب المعتادة لإيجاد مثله، لذلك كان "الخلقُ المنبئُ عن الإحداثِ للمكوّن أنسبَ بهذا المقام لئلَّا يبقى لمبطلٍ شبهةٌ"[1].

الخلق إنشاءٌ على غير مثال سابق، والصُّنع يكون من موادّ معتادة

قال أبو زهرة: "وكلمة ﴿يَخْلُقُ﴾ غير (يُنشئ)؛ لأنّ الخلقَ إنشاءٌ على غير مثال سبق، فالتعبير بـ﴿يَخْلُقُ﴾ يفيد الإبداع، وأنه منهاج في التكوين يخالف منهاج غيره في التكوين"[2].

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 2/319.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1225.

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ٤٨﴾ [آل عمران: 48]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الآية معطوفة على قوله: ﴿يُبَشِّرُكِ﴾ [آل عمران: 45]، والآية السَّابقة اعتراض بينهما، وفيه مسارعة إلى إجابتها عمّا شَغَل قلبها، وفيه لطفٌ من الله بأوليائه ورحمةٌ بعباده، فلمَّا أجابها إلى ما شَغل قلبها من العَجَب؛ عاد إلى إكمال البِشارة(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: الجذر اللغوي للكلمة هو: (كتب)، وهو أَصْلٌ صَحِيحٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى جَمْعِ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ، ويُقَالُ: كَتَبْتُ الْكِتَابَ أَكْتُبُهُ كَتْبًا، وَيَقُولُونَ: كَتَبْتُ الْبَغْلَةَ، إِذَا جَمَعْتُ شُفْرَيْ رَحِمِهَا بِحَلْقَةٍ، وكتَب الكتاب يكتُبه، واكتتبه لنفسه: انتسخه(2)، والكتابة ضمُّ الحروف بعضها إلى بعض بالخطِّ، وقد يقال ذلك: للمضموم بعضها إلى بعض باللفظ، فالأصل في الكتابة النَّظمُ بالخطّ، لكن يُستعار كُلٌّ واحدٍ للآخر؛ ولهذا سُمِّيَ كلام الله؛ وإن لم يُكتب كتابًا(3)، وكلُّ ما هو من هذا التركيب في القرآن الكريم فهو من الكتابة بالمعنى المشهور، سوى ما أريد به كتب الله المنزلة، أو بمعنى الفرض، أو القضاء بأمر(4).

2) ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: الجذر اللغويُّ للكلمة هو: (حَكَم)، أَصْلٌ وَاحِدٌ، يدلُّ على المَنْع، وَالْحِكْمَةُ هَذَا قِيَاسُهَا؛ لِأَنَّهَا تَمْنَعُ مِنَ الْجَهْلِ، والحِكمةُ: مَرْجِعُها إلى العَدْل والعِلْم والحِلْم، ويقال: أَحْكَمَتْه التَّجارِبُ؛ إذا كانَ حكيمًا(5)، والكلمة من الْحِكْمَة الَّتي جَاءَت في الْخَبَر: «الْحِكْمَة ضَالَّة الْمُؤمن»(6)، هي كلُّ كلمةٍ وَعَظَتْكَ، وَزَجَرَتْكَ، وَدَعَتْكَ إِلَى مَكْرُمَة، أَو نَهَتْكَ عَن قَبِيح؛ فَهِيَ حِكْمَة(7).

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/401.
(2) الزمخشريُّ، أساس البَلاَغة: (كتب).
(3) الراغب، المفردات، (كتب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل، (كتب).
(5) الخليل، العَين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).
(6) رواه الترمذي، الحديث رقم: (2687)، وابن ماجه، الحديث رقم: (4169).
(7) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (حكم).

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

ومن عطايا اللّهِ ومواهبِه لعيسى عليه السلام ما يؤهِّله للنُّبوَّة، فهو يُعلِّمُه الكِتابةَ أو الكتبَ السَّماوية التي نزلت قبله، ويعلِّمه السَّداد في القول والفِعْل، ويُعلِّمه التَّوراة التي أنزلها على موسى عليه السلام، ويعلمه الإنجيل الذي سينزله رسالةً عليه، وذلك كلُّه مِمَّا أحاطه اللّه به من الحَفاوة، والمِنَّةِ العظيمة؛ ولزيادة إيناس أمِّه مريمَ بموهوبها الذي بشَّرتها الملائكةُ به[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بيانُ الخلاف في وصل الآية وفصلها:

الجملة عطفٌ، ويجوز فيها الاستئناف حَمْلًا على مواطن أخرى

الظاهر في جملة ﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾، أنّها معطوفة على جملة: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ﴾ بعد انتهاء الاعتراض[2]. وأجاز الزمخشري[3] أن يكون: ﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾ كلامًا مستأنفًا، واعترض أبو حيان بأنه عنى أنه استئناف إخبار، فثبوت الواو ينفيه؛ لأنها تقتضي العطف[4]. ووافق البسيلي الزمخشريَّ بقوله: " وقد ذكر غير واحد أنه يصح وقوع الواو في ابتداء الكلام من غير عطف، بل ذكر ابن التلمساني في باب القياس: أن الفاء يصح وقوعها في ابتداء الكلام. وقال القرافي في (شرح المحصول): نقل سيف الدين عن جماعة أن الواو ترِدُ للاستئناف. كقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: 7] "[5].

دلالة المضارع في ﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾:

التَّدرُّج في التَّعلُّم على مدى الحياة ضامنٌ لرسوخ العلم وتوافقه وانسجامه؛ إيمانًا وقناعةً وتطبيقًا

في دلالة المضارع على التجدُّد والحدوث؛ إشارةٌ إلى ضرورة السَّعي الدائب المستمرِّ في طلب العلم، وتحصيله والعمل به؛ وتتَّسق

(1) ابن جرير، جامع البيان: 5/416، والآلوسي، روح المعاني: 2/159، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 56.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/249.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/364.
(4) أبو حيَّان، البحر المُحيط: 3/159.
(5) البسيلي، التقييد الكبير: ص 543.

دلالة الفعل المضارع من خلال ذكر مراحل جريان الكلمة على لسان – عيسى عليه السلام – فقد كان يكلِّم النَّاس في المهد رضيعًا، وكهلًا نبيًّا مرسلًا، ثمَّ يكلِّم النَّاس كَهلًا منزَّلًا من السَّماء في آخر الزَّمان.

الاهتمام بالعلم والتَّعلُّم وتعظيم قدره

الالتفات من الغيبة إلى التكلُّم على قراءة: ﴿وَنُعَلِّمُهُ﴾:

قرأ نافع وعاصم وأبوجعفر ويعقوب: ﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾ بالتحتيَّة، أي: يعلِّمه اللّه، وقرأه الباقون بنون العظمة[1]، وأمَّا بالنُّون؛ ففيه التفاتٌ وإيذانٌ بأنَّ هذه الكرامة مِن المِنَحِ التي توجب أن يعظِّم موليها[2]، وخرج من ضمير الغيبة إلى ضمير التكلُّم؛ لما في ذلك من الفخامة[3].

الفعل من باب الإعلام، وهو خاصٌّ بالأنبياء

بلاغة إسناد فعل التعليم اليه تعالى:

قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾، أي: يصيرّه عالمًا بذلك. وأطلق على الأنبياء، وجعل خاصا بهم دون العلم، فلم يقل: (ويَعْلَمُ)؛ لسببين: أحدهما: أن ذلك تشريف لهم واعتناء بهم؛ لأنَّ الإقبال بالتعليم للشخص؛ اعتناءٌ به. والثاني: أن هذا من باب العلم التكميلي؛ لأنَّ العلوم الضرورية لَا يحتاج فيها الإنسان إلى تعليم، فلو قيل: (ويَعْلَمُ) لدخل فيه الضروريُّ فيكون تحصيل الحاصل[4].

تعدُّدُ الموهوب دليلُ المغايرة، فكلَّ عطاءٍ قائمٌ برأسه

بلاغة تعدُّد المفاعيل وسرُّ ترتيبها:

إذا تعدَّدت العطايا الإلهيَّة؛ أبانت عن قدر المعطي، ومكانة الموهوب، وقد جاءت في قوله: ﴿ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ متعددةً متعاطفةً؛ بيانًا للمغايرة؛ فمع كثرتها إلَّا أنَّ كل عطاءٍ قائمٌ برأسه. وهو عليه السلام حريٌّ أن يُعطاها كلَّها.

وفي ترتيبها على هذا النحو إظهارٌ للعناية الإلهيَّة، والرِّعاية الرَّبَّانيَّة بأنبياء اللّه ورسله، واللَّام في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ على الرَّاجح: لام

(1) ابن الجزري، النشر: 2/240.
(2) الطِّيبِي: فتوح الغيب: 4/110.
(3) أبو حيَّان، البحر المُحِيط: 3/159.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/356.

الجنس، والمراد كلُّ الكتب المنزلة من قبل عيسى عليه السلام، ثم الكتاب الخاصُّ ببني إسرائيل، ثم الكتاب الخاصُّ بأمَّته، ويمكن أن يكون ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ كناية عن كتاب الخلق؛ لأنَّه كان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله.

وجه الترتيب التدرّج من العام إلى الخاص

والحكمة: العلم الصحيح الذي يبعث الإرادة إلى العمل النافع، ويقف بالعامل على الصراط المستقيم لما فيه من البصيرة وفقه الأحكام وأسرار المسائل[1]، وهي الفقه وقضاء النَّبيين[2]، والعلم بسننهم، وبما شرعوه من الدِّين، وبالصَّواب في القول والعمل وبالعقل وبأنواع العلم، فالحكمة أخصُّ من العلم، ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ﴾: كتاب موسى، و﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾: ما أوحي إليه نفسه، وذِكر الإنجيل لمريم، وهو لم ينزل بعد؛ لأنَّه كان كتابًا مذكورًا عند الأنبياء والعلماء، وأنَّه سينزل[3].

قال البسيلي: " وقدّم ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ لأنّ أول ما يتعلّم الصغير الكتابة ثم الحكمة: وقدّم ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ على الرسالة؛ لأن كونه رسولًا لا ينافي بأن يكون قبل ذلك نبيًّا يُنَزَّلُ عليه ثم أرسل"[4].

وجه الترتيب الأوليّة، وسبق الحصول

وجهُ عطف التوراة والإنجيل على الكتاب:

وذكر الكتاب، ثم عطف عليه التوراة والإنجيل، وهما من جملة الكتاب؛ لأنّه عنى بالكتاب القراءة والكتابة، وعُلِّم تعليمًا إلهيًّا في حال الطفولة، وقيل: عنى بالكتاب كتب اللّه المنزلة، وخصَّص التوراة والإنجيل كتخصيص ذكر جبريل وميكائيل بعد الملائكة تفضيلًا لهم[5].

وجه تخصيص التوراة والإنجيل بالذكر تفضيلُ الكتابين

(1) رضا، تفسير المنار: 3/255.

(2) ابن الجوزي، زاد المَسِير: 1/284. والقاسميُّ، محاسن التأويل: 3/158.

(3) أبو حيَّان، البحر المُحِيط: 3/159.

(4) البسيلي: التقييد الكبير: ص 542 - 543.

(5) الراغب، تفسير الراغب: 2/572.

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٤٩﴾ [آل عمران: 49]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكر الكتابَ المنزَّل على عيسى عليه السلام في الآية السابقة؛ حَسُنَ ذِكْرُ الرِّسالة على القول بأن الرَّسول بمعنى: الرِّسالة، فقال بعد ما أفاد عظمتها بجعله ما مضى مقدِّمات لها: ﴿وَرَسُولًا﴾؛ فكأنَّ ما مضى من الآياتِ كانت تمهيدًا لهذه الرسالة، فلقد كانت الغاية الَّتي أُعِدَّ لأجلها[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَهَيۡـَٔةِ﴾: جذر الكلمة: (هَيَأ)، فهو مهيَّأ لكذا، ومتهيِّئ له، وهيَّأته، فتهيَّأ، وما أحسن هيئته، وهيئاتهم! ورجل هيِّئٌ: ذو هيئة[2]، الْهَيْئَةُ: هِيَ الْحَالَةُ الظَّاهِرَةُ لِلْمُتَهَيِّئِ لِلشَّيءِ، والحالة التي يكون عليها الشيء، محسوسةً كانت أو معقولة، لكن في المحسوس أكثر، وهاءَ للأمر كباعَ: أخذ له هيئتَه، ومن هذا أو من الشوق وهو أقرب: ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾ [يوسف: 23] على قراءتها بضم التاء وكسر الهاء - مع الهمز أو التخفيف - أمَّا على القراءة بفتح الهاء والتاء بينهما ياء ساكنة فهي اسم فعل أمر بمعنى أَسْرِع، وهاءُ: كلمةٌ تستعمل عند المناولة، نُقلت من طلب الاستعداد إلى طلب الأخذ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩﴾ [الحاقة: 19][3].

2) ﴿وَأُبۡرِئُ﴾: جذر الكلمة هو: (برأ)، وله أَصْلَانِ يرْجِعُ إِلَيْهِمَا فُرُوعُ الْبَابِ: أَحَدُهُمَا

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/402.

(2) الزَّمخشريُّ، أساس البَلَاغة: (هيأ).

(3) الراغب، المفردات (هيأ)، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/294، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (هيأ).

الْخَلْقُ، يُقَالُ: بَرَأَ الله الْخَلْقَ يَبْرَؤُهُمْ بَرْءًا، وَالْبَارِئُ من أسماء اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ. قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: 24] وَالْأَصْلُ الْآخَرُ: التَّبَاعُدُ مِنَ الشَّيْءِ وَمُزَايَلَتُهُ، ومِنْ ذَلِكَ الْبُرْءُ وَهُوَ السَّلَامَةُ مِنَ السُّقْمِ، وبرَّأته: صحَّحت براءته، قال تعالى: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟﴾ [الأحزاب: 69]. واستبرأتُ أرضَ بني فلان: ما وجدت فيها ضالَّتي، واستبرأ من بوله؛ إذا استنزه، وفلان بارئ من عِلَّته[1]. والمعنى هنا: وأَشْفي.

3) ﴿ٱلْأَكْمَهَ﴾: جذر الكلمة هو: (كَمَه)، الأعمى، أو الذي ولد أعمى[2]، وفي (الأكمه) أربعة أقوال: أحدها: أنَّه الذي يُولد أعمى، والثاني: أنَّه الأعمى، والثالث: أنَّه الأعمش، والرابع: أنَّه الذي يبصر بالنهار، ولا يبصر بالليل[3]، ومن المجاز: هو في عمهٍ وكمهٍ: في ضلال وعمًى، وخرج يتعمَّه، ويتكمَّه، أي: يذهب متحيِّرًا ضالًّا، لا يدري أين يتوجَّه[4].

4) ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾: جَذرُ الكلمة: هو (بَرَصَ)، أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ في الشَّيْءِ لُمْعَةٌ تُخَالِفُ سَائِرَ لَوْنِهِ، والبَرَصُ: داءٌ، والبَرَصُ: بَيَاض يَقع في الْجلد مَعْرُوف، وحيَّة برصاء: في جلدهَا لمع بَيَاض[5]، والأبرص المصاب بداء البرص، وهو داءٌ جلديٌّ له مظاهر متنوِّعة، ويقال: كانَ بيده بَرَص، قال تعالى: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: 22][6]، وأعرَاضُ البَرَصِ: بُقَعٌ بيضاء شديدة البَيَاض تظهر على الجلد، فإنْ كانت غائرة في الجلد؛ فهو البَرَصُ، وإن كانت مساوية لسطح الجلدِ؛ فهو البهاق، ثمَّ تنتشر على الجِلد، فربَّما عمَّت الجلد كلَّه حتى يصير أبيض[7].

❁ المَعْنَى الإجْمَاليِّ:

تبيِّن الآيةُ الكريمةُ المعجزاتِ النَّبويَّةَ الدالَّةَ على أنَّ - عيسى عليه السلام - رسولٌ إلى بني إسرائيل، وأنَّها آياتٌ حسِّيَّة - تدلُّ على أنَّه مرسل من اللَّه - لا علامة واحدة، وهي كما أخبر، المعجزة الأُولى: أني أصنعُ لكم من الطين مثلَ شَكْلِ الطير، فأنفخ فيه فيكون طيرًا

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، وابن سيده، المُحكم، والراغب، المفردات، والزَّمخشري، أساس البَلَاغة: (برأ).
(2) الخليل، العَين: (كمه).
(3) ابنُ الجوزيِّ، زاد المَسِير: 1/284.
(4) الزَّمخشري، أساس البَلَاغة: (كمه).
(5) ابن دريد، جمهرة اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (برص).
(6) الخليل، العَين: (برص).
(7) ابنُ عَاشُور، التَّحريرُ والتَّنوير: 3/251.

حقيقيًّا بإذن اللّه، والمعجزة الثانية: وأَشفي من الأمراض المُزْمنة كمَن وُلِد أعمى، ومَن به بَرَص، والمعجزة الثالثة: وأُحيي مَن كان ميتًا بإذن اللّه، والمعجزة الرابعة: وأخبركم بما تأكلون وتدَّخرون في بيوتكم من طعامكم. إنَّ في هذه الأمور العظيمة التي ليست في قدرة البشر لدليلًا على أنِّي نبيُّ اللّه ورسوله، إن كنتم مصدِّقين حُججَ اللّه وآياتِه، مقرِّين بتوحيده[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الحذف في قوله: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾:

الحـذف تغزير للمعنى، وتكثير للوجوه

فتح الحذف بابًا من الوجوه وعلى كلِّ وَجْهٍ يَرِدُ معنًى، والمعاني كلُّها متعانقة، فالرسم واحد، والمعنى متعدِّد، ففي هذه الآية وجوه:

الأول: تقدير الآية: ويعلِّمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، ويبعثه رَسُولًا إلى بني إسرائيل قائلًا: ﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، والحذف حسن؛ إذا لم يفضِ إلى الاشتباه. الثاني: قال الأخفش: إن شئت؛ جعلت (الواو) زائدة، والتقدير: ويعلِّمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل رَسُولًا إلى بني إسرائيل، قائلًا: ﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ﴾[2]، وقال الزجَّاج: تقديره: (وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ رَسُولًا)، وإنَّما أضمرنا ذلك لقوله: ﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم﴾، والمعنى: ويكلِّمهم رَسُولًا: بأنِّي قد جئتكم. الثالث: ويمكن أن يكون معطوفًا على قوله: ﴿وَكَهۡلٗا﴾، أي: وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ (طفلًا - وكَهلًا - ورَسُولًا) إلى بني إسرائيل؛ قاله ابن عطية[3]، والوجوه كلُّها تتكامل، وتتلاقى، وفي الحذف إيجازٌ واختصارٌ، وعنايةٌ بالمخاطب، والإحةٌ إلى تدبُّر المعاني.

لفظ ﴿وَرَسُولًا﴾ في هذا الموقع يحتمل: أن يكون وصفًا، بمعنى:

(1) نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 56.
(2) الرَّازي، مفاتيح الغَيب: 8/48.
(3) أبو حيَّان، البحر المُحِيط: 3/161.

اسم المفعول، أو أن يكون مصدرًا؛ وبيان ذلك أنَّه يمكن أن يكون وصفًا، بمعنى: المُرسل على ظاهر ما يُفهم منه، أي: مرسلٌ إلى بني إسرائيل. أو هو مصدر، بمعنى: رِسَالة؛ إذ قد ثبت أنَّ رَسُولًا يكون، بمعنى: رسالةً، ومِمَّن جوَّزَ ذلك فيه هنا: الحوفيُّ وأبو البقاء، وقالا: هو معطوف على الكتاب، أي: ويعلِّمه رسالةً إلى بني إسرائيل، فتكون رسالة داخلةً فيما يعلِّمه اللّه لعيسى. وأجاز أبو البقاء في هذا الوجه أن يكون مصدرًا في موضع الحال[1].

وجــه انـتـفـاء لفظ الرسول في الجملة

علّة اختصاص بني إسرائيل بالذكر:

وذكرَ بني إسرائيل خاصّة مع أنَّ دعوته كانت تعمّ كل الذين عَلِموها من اليهود والرومان وغيرهم؛ حتى يجيء من السماء ما ينسخها أو يكملها برسالة عامة خالدة هي رسالة محمد بن عبد اللّه ﷺ؛ والسبب في اختصاص بني إسرائيل بالذكر أنهم هم الذين خرج عيسى من بينهم، فهو منهم، وقد كانوا يدَّعون أنهم أولى الناس بعلم الرسائل الإلهية، وكانت دعوته بينهم، وانبعثت منهم إلى غيرهم، فكان تخصيصُهم بالذِّكر، فيه إشارة إلى حقيقة واقعة وتوبيخ لهم؛ لأنهم أوتوا العلم برسالات الأنبياء، مع ذلك كفروا برسولٍ مبعوث منهم، أوتي بمعجزات لَا تجعل للعقل مساغًا لإنكار[2].

اختـصَّ بني إسرائيل بالذِّكر لكون عيسى خرج من بينهم؛ وفيه توبيخ لهم

بلاغة التعبير بمقول القول على طريق التوكيد:

جاء قوله: ﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ مشحونًا بالتوكيد، فأكِّد بـ (أنَّ) واسميَّة الجملة، و(قد) الداخلة على الماضي؛ ليفيد تخصيص الخبر به عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتأكيد تحقّقه بالتعبير عن المستقبل بالفعل الماضي فالظاهر أنَّ الحدث والمجيء بالآيات يُقصد به المستقبل على قول من قال: إنَّ ذلك كان كلامه في المهد، فيكون التعبير بالماضي

معجزاتُ الرُّسُل هي امتدادٌ لأحوالِ أقوامِهِم ومَا هُم بَارِعُون فِيه؛ ليكون التَّحدِّي على أعلى درجاته

(1) أبو حيَّان، البحر المُحِيط: 3/160.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1228.

مكان المستقبل مع إحاطته بالمؤكِّدات تحقيقًا لحصوله، ويؤكِّد هذا المعنى ما جاء في التَّعبير التفصيلي عن الآيات بصيغة المستقبل: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ﴾.

فائدة حرف الباء في لفظ ﴿بِـَٔايَةٍ﴾:

معنى الباء اقتران المجيء بالآيات، وملابستها بها

قوله: ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ متعلقةٌ بمحذوفٍ وقعَ حالاً من فاعل الفعلِ على أنها للملابسة، أي: مصاحبًا للآيات الدَّالَّة على صدقي في هذه الرسالة المعبَّر عنها بفعل ﴿جِئْتُكُم﴾.

سرّ الإفراد، والتنوين في لفظ ﴿بِـَٔايَةٍ﴾:

إفراد (آية) تعبيرٌ عن وحدة الغرض، والتنوين للتفخيم والدلالة على تعدّدها وكثرتها

عبَّر بالمفرد ﴿بِـَٔايَةٍ﴾، وحقُّه أن يكون للجمع؛ لأنَّ المذكور آيات، لا آية واحدة؛ اعتبارًا بوحدة الغرض والمقصود من الآيات - وإن تعددت - إثبات وحدانية اللّه تعالى، وألوهيته. ورسّخ التنوينُ هذا الاعتبار؛ إذ أفادَ التفخيم، دون الوحدة لظهور تعدُّدها وكثرتها[1].

فائدة التعبير بـ﴿مِّن﴾:

أدّت (مِن) معنى كينونة الآية من الله تعالى، وملابسة المجيء بها

﴿مِّن﴾ في قولِه تعالَى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لابتداء الغايةِ مجازا متعلقةٌ بمحذوف وقعَ صفةً لآيةٍ أي قد جئتُكم ملتبساً بآية عظيمةٍ كائنةٍ مّن رَّبّكُمْ أو أتيتكم بآية عظيمة كائنة منه تعالى[2].

سرّ إيثار لفظ الربوبية مضافًا إلى المخاطب:

إيثار لفظ الربوبيّة ليناسب حال الآيات المذكورة بعده، وتأكيد الامتثال لما سيأتي من الأوامر

التعبير بالرُّبوبيَّة ملائم حال المخاطبين، وملائم حال الآيات المذكورة بعد،، وقيَّد مجيء الآية بقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ لما في التعرُّض لعنوان الربوبيَّة ﴿رَّبِّكُمْ﴾ مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين من تأكيد إيجاب الامتثال لما سيأتي من الأوامر، ومواجهة لقومه بضمير الحضور الواثق باللّه وحده[3].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/38.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/38.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/38، والآلوسيُّ، روح المَعَاني: 2/161.

بلاغة كمال الاتصال، ولطائف التراكيب في بسط المعجزة في قوله: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾:

قوة المعجزة في كونها من الله، وعظمتها في الإذن منه؛ وهي لازمة لتأييد الرسل

وقعت الجملة من سابقتها موقع كمال الاتصال، فهي بمنزلة بدل الجزء من الكلِّ، وهي في التناسب تفصيل بعد إجمال، وفيه من تأكيد المعجزة ما فيه؛ حيث سبق ذكرها ضمنًا في الإجمال، ثم أفردت بالتفصيل، ثم إنَّ النَّصَّ تفصيلًا على كيفيَّة المعجزة فيه بيانٌ لقدرة اللّه على خلق الشيء بدون أسباب معتادة، فلقد اعتاد الناس على أنَّ الطيور من البيض لا بالتَّوالد، ثم بيّن تفرُّد الجنس الذي خلق منه الطير ﴿مِّنَ ٱلطِّينِ﴾، احترس في قوله: ﴿مِّنَ ٱلطِّينِ﴾؛ تقييدًا بأنَّه لا يوجد من العدم الصرف، بل ذكر المادة التي يشكِّل منها صورة[1]، والتعبير بالتشبيه كشف عن أنَّه ليس من الطريق الأصلي، ثم عطف قوله: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ بالفاء التي تدلُّ على عدم المهلة، ودخلت الفاء على ضمير المذكر؛ لتعود على الطير، وفي موضع آخر ذكره بضمير المؤنث، ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ [المائدة: 110]؛ لتعود على الهيئة، فعاد النفخ مرَّة على المضاف وأخرى على المضاف إليه، استيفاء للمعجزة من طرفيها، ثم ذكر القيد ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾؛ لإظهار العبودية، ونفي توهُّم المشاركة في خلق الكائنات.

وفي قوله: ﴿طَيۡرَۢا﴾ بلاغة عالية، فـ﴿طَيۡرَۢا﴾ هنا، معناه: حيًّا طائرًا، لكنَّه عبَّر بالاسم؛ ليسقط الزمن في الطيران، ويتَّجه للحدث في حدِّ ذاته؛ وفيه بيان لقدرة اللّه وإظهارٌ للمعجزة مع إيجاز بالغ؛ لذا قال: كن طائرًا بإذن اللّه، فخرج يطير بين كفِّيه.

والعجب في التناسب اللَّطيف بين مَن أُجريت على يده المعجزة، وبين الإعجاز في خلقه هو نفسه: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم:

(1) أبو حيَّان، البحر المُحيط: 3/163.

12]، وقد فصَّل في هذه المعجزة تفصيلاً مبسوطًا؛ لكونها الأقهر، وكأنَّها المعجزة الكبرى، ورأس المعجزات في التأييد، والخلق: حقيقته تقدير شيء بقدر، ومنه خلق الأديم: تقديره بحسب ما يراد من قطعه قبل قطع القطعة منه، قال زهير[1]:

ولأَنْتَ تَفْري ما خَلَقْتَ وبعـ***ضُ القَوْمِ يَخْلُقُ ثمَّ لا يَفْري

يريد: تقدير الأديم قبل قطعه، والقطع: هو الفري، و(خلق) يستعمل مجازًا مشهورًا، أو مشتركًا في الإنشاء والإبداع على غير مثال ولا احتذاء، وفي الإنشاء على مثال يبدع، ويقدر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: 11]، فهو إبداع الشيء وإبرازه للوجود، والخَلْق هنا مستعمل في حقيقته، أي: أقدِّر لكم من الطين ﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾، وليس المراد به خلق الحيوان بدليل قوله: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾[2].

فمعنى: أخلق: أقدِّر، وأهيِّئ، والخلق: إبراز العين من العدم الصرف إلى الوجود، وهذا لا يكون إلا للّه تعالى، ويكون بمعنى: التقدير والتصوير؛ ولذلك يسمُّون صانع الأديم ونحوه: الخالق؛ لأنَّه يقدر، وأصله في الأجرام، وقد نقلوه إلى المعاني، قال تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: 17]، وممَّا جاء الخلق فيه - بمعنى: التقدير - قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: 14]، أي: المُقَدِّرين[3].

بلاغة الإيجاز في معجزتي الشفاء:

تخصيص هذين الأمرين - لبيان عجز الأطباء مع حذقهم - آيةٌ كبرى

في قوله تعالى: ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾ أوجز القرآن ذكر هاتين المعجزتين، ووضعهما خاليين من القيد المذكور في المعجزة الأولى والرابعة، فاكتفى بإيقاع معنى القيد بالعطف؛ استدلالاً بما ذكر مع ما قبلهما، وما بعدهما، وقدّم أعجزهما للطبِّ أولًا؛ لكونه أظهر في الكشف عَنْ عَجْزِ ما حذقَهُ أَهْلُ زمانه، وأتبعه بما هو أقلُّ منه ظهورًا في الإعجاز.

(1) ابن طَبَاطِبَا، عِيَارُ الشّعر: 177، والجرجاني، دلائل الإعجاز: 114.
(2) ابنُ عَاشُور، التَّحريرُ والتَّنوير: 3/250.
(3) أبو حيَّان، البحر المُحِيط: 3/163.

بلاغة تقييد معجزة الإحياء بالإذن:

جاءت المعجزة في قوله تعالى: ﴿وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ معطوفة على ما قبلها ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾، ولم تُبْنَ على البسط كالمعجزة الأولى، فلم تتضمَّن كيفيَّة الإحياء، كما تضمَّنت الأولى كيفيَّة الخلق؛ ولأنَّه إحياءٌ مِن موتٍ ذُكِرَ القَيْدُ ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾، كما فعل في الأول؛ لأنَّه فعلٌ إلهيٌّ خارق عظيم ليس من جنس أفعال البشر، وكان إحياؤه بالدُّعاء، ولم يذكر هذا القيد مع معجزتي إبراء الأكمه والأبرص؛ لكون التطبيب من جنس أعمال البشر. قال الراغب: " إن قيل: لِمَ ذكر في الخلق وفي إحياء الموتى ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾. ولم يُذكر في غيرهما؟ قيل: لكون هذين الفعلين إلهيّين، لم يجعل للمخلوقين إليهما سبيلًا. بخلاف النفخ والمداواة والإخبار ببعض الغيب، فقد جعل للإنسان كثيرًا من المداواة، وجعل لهم شيئًا من الإخبار بالغيب كالفِراسة"[(1)].

الإحـيـاءُ فعلٌ إلـهـيٌّ خـارق عظيم ليس من جـنـس أفـعـال البشر

بلاغة تكرار إذن الله تعالى:

كرَّر قوله: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ مبالغةً في دفع وَهْمِ مَنْ توهّم فيه اللَّاهوتية؛ فإحياءُ المَوْتى بِإِذْنِ اللَّهِ تعالى وحده لا باستقلالٍ منه[(2)].

فتكرارُ الإذن مبالغةٌ في نفي توهّم الألوهية فيه عليه السلام.

بلاغة المتشابه اللفظي:

كرر لفظه: ﴿بِإِذۡنِي﴾ [المائدة: 110] في المائدة أربع مرات، وهنا مرتين؛ لما كان في سورة المائدة في معرض تعداد النعم، والامتنان من اللّه تعالى على عيسى، فناسب تقييد الجمع فيها، بقوله: ﴿بِإِذۡنِي﴾ [المائدة: 110] إظْهَارًا لعجز الْبشر وَلِأَن فعل الْعَبْد مَخْلُوق للّه تَعَالَى، مع ما فيه من إشارة إلى توبيخ النصارى في زعمهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ

التكرار في الآيتين يـنـاسـب شـدّة سياقها، وحال المخاطبين

---

(1) الراغب، تفسير الراغب: 2/574، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/358 - 359.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/39، القاسمي، محاسن التأويل: 2/320.

ﮋﺛَﻠَٰﺜَﺔٖﮊ [المائدة: 73]، وأن عيسى ابن الله إلى غير ذلك، كما يقول: أحدنا لغيره ألم أفعل لك كذا؟ ألم أُعطِك كذا؟ ويعدِّد عليه نعمًا ثم يقول: أفعلَ لك ذلك غيري؟ فإذا اعترف به العبد انقطعت حُجَّةُ مَن ظَنَّ خِلَافه، فأعلمَ اللّه أن تلك الأمور بإذنه، وكرَّر ذلك تأكيدًا لِدَفْع توهّم حولٍ أو قوّةٍ لغير اللّه، قال: وآية آل عمران إنما هي بشارةٌ لمريم، وإعلامٌ بما منح ابنها عيسى فقط؛ لأَنَّ مَا فِي هَذِه السُّورَة كَلَام عِيسَى فَمَا يتَصَوَّر أَن يكون من فعل الْبشر أضافه إلى نَفْسِه[1].

بلاغة التّعبير عن الإنباء، والإدّخار بالمضارع:

التـــعـــبـــير بالمضارع؛ لبيان أنَّ ذلك لا يقع مـــرَّة واحـــدة، وإنَّـما هـو أمر متكرِّر متجدِّد

وجاءت الأفعال في قوله: ﮋوَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡﮊ بالفعل المضارع الدال على التجدُّد والحدوث؛ لبيان أنَّ ذلك لا يقع مرَّة واحدة، وإنَّما هو أمر متكرِّر متجدِّد، وحالةٌ دائمة[2]. تأمَّل: لو قيل: وأنبأتكم، لكن المضارع دالٌّ على التجدُّد والحدوث مع ما فيه من استحضار الحدث، وقل: مثل ذلك في ﮋتَأۡكُلُونَﮊ، وﮋتَدَّخِرُونَﮊ، وجاء بالاسم الموصول (ما) مع الفعلين؛ ليتوصَّل به إلى ذكر الصِّلة؛ لكونها عين المعجزة.

قصديّة التعبير بالبيوت دون الدُّور:

ثم قيَّد الفعلين بقوله: ﮋفِي بُيُوتِكُمۡﮊ، ولم يقل: في دُوركم، ولا مساكنكم؛ لأنَّ البيوت آكد في الاستتار والخفاء، وفي كلِّ ذلك تعظيم لمعجزة العلم بالغيب، ف البيوت آكد في الاستتار والخفاء، وهو يناسب معجزة العلم بالغيب.

معنى التذييل في الجملتين الـتـوبـيـخ، والتقريع

بلاغة جُملتَي التذييل:

ظاهر جملة: ﮋإِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَﮊ، "أنَّها من كلام عيسى؛ لاحتفافها بكلامه من قبلها، ومن بعدها؛ حكاه

(1) الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن: ص 90، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/358.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/166.

اللّه عنه، وقيل: هو من كلام اللّه تعالى، استئناف؛ صيغته صيغة الخبر، ومعناه: التوبيخ والتقريع، وأُشير بذلك إلى ما تقدَّم من جعل الطِّين طائرًا، والإبراء والإحياء والإنباء"[1].

التّوكيد دليلُ قوّة المعجزة، واختصاصها بهم، مع احتمال معنى سفه عقولهم

وقد جاء التذييل في جملتين: الأولى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ﴾، والثانية: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، والجملة الأولى جاءت مؤكَّدة بـ﴿إِنَّ﴾ واسميَّة الجملة، وتضمَّنت اسم إشارة للبعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ تعظيمًا لشأن المعجزات المذكورة، وختم بما بدأ به؛ إذ عبَّر في الأولى ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ﴾ مفردًا، وختم بما بدأ به ﴿لَآيَةً﴾؛ لكونها تحقِّق غرضًا واحدًا، فالغرض من المعجزات - مهما تعدَّدت - الوصول إلى الإيمان.

والجملة الثانية جاءت شرطيَّة، قُيِّد الفعلُ فيها بـــ ﴿إِن﴾ الدَّالَّة على احتمال وقوع مدخولها، وحذف جواب الشرط، وتقديره: فاعتبروا، أو فآمنوا، وفيه توبيخٌ لهم وتقريع؛ لكون الآيات قاهرةً للعقول، فجعل الإيمان معها محتملًا دلالةً على سفه العقول، كما أنَّ الأصل: إن كنتم تريدون الإيمان، لكنَّه عبَّر بالاسم؛ إلاحةً لقوَّة المعجزة التي إن تأمَّلها العقلُ المنصف؛ أنتجَتْ إيمانًا ثابتًا.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(أبرئ) و(أشفي):

من خصائص المعجزات أن تتجاوز حدود الإمكانات والخبرات البشريَّة

في قوله تعالى: ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾، والإبراء فيه معنى الاستنزاه من العلَّة وإذهاب هذه الأمراض الجلدية تمامًا، أمَّا الإشفاء فيكونُ باستعمال دواء بُغْية الإبراء، وشفاه ممَّا به: أبرأه، وشفاه، وأشفاه: طلب له الشِّفاء، واشفني عسلًا: اجعله لي شفاء، واستشفى: طلب الشفاء، واستشفى: نال الشفاء[2]، فكان عيسى عليه السلام

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/167.
(2) ابن سيده، المُحكم: 8/104.

يُبرئ الأكمه والأبرص بلا واسطة الدّواء، بل كان يمسح على العلَّة، فيُبرِئها، ولو استعمل مادَّةً؛ لسُمِّي ذلك إشفاءً من المرض أو العلَّة.

الإنباء والإخبار:

الإنباء إخبار عن أمر عظيم الشأن؛ موضوعًا أو شأنًا

عبَّر بالفعل ﴿وَأُنَبِّئُكُم﴾، ولم يقل: (أخبركم)؛ لأنَّ الأول يُستعمل في الأمور الخفية، فهو من عظائم الأمور، والثَّاني يُستعمل في معتاد الأخبار، قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ [النبأ: 1، 2]. فالإنباء: "الإخبار بالخبر العظيم، إما لموضوعه، وإما لعظم شأن الإخبار نفسه، والإخبار عن شيء من غير رؤيته، إخبار عظيم في ذات شأنه"[1].

(يأكل) و(يطْعَمُ):

من طبائع بني إسرائيل الحياتيَّة اهتمامهم بالجانب الاقتصادي، وما يستهلكون، وما يدَّخرون

قوله تعالى: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ﴾؛ دلالة الأكل هنا: الأرزاق، والأُكل: الرِّزق، وَالْجمع: آكالٌ، وَمِنْه قيل للمَيِّت: انقطَع أُكْله، وآكالُ الجُنْدِ، بمعنى: أرزاقهم، إنَّه لَحسَن الأكلة، وهَذَا الشيءُ مَأْكَلَة لَك، بِالْفَتْح، وَلَا يُقَال: مَأْكُلَة، والمَأْكُلة: مَا جُعل لَك من غَيْر أَن تُحاسَب بِهِ[2]، فيظهر من المعنى المعجمي للأكل أنَّه مِمَّا يدخل في قضايا الرِّزق وحسابه؛ ولهذا فقد أورد معها الادِّخار، فقال: ﴿بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ﴾، أي: بما تستهلكون من أرزاقكم، وما تحفظونه، فتدَّخرونه في بيوتكم، أمَّا الطعام؛ فالطَّعم: التَّذوُّق، طَعْم كُلِّ شيء: وهو ذوقه، وإنَّه ليَطْعم طعْمًا حَسَنًا، وهو حَسَنُ المَطعَم، كما تقول: حَسَنُ المَلْبَس، أي: طَعَامُهُ طيِّبٌ، ولباسُه جميل، وفلان حسن الطِّعْمَةِ كالجِلسة؛ لأنَّه ضَرْبٌ من الفعل، وليس بفَعْلَةٍ واحدة، وكلُّ ما يَسُدُّ جوعًا؛ فهو طَعام، قال

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1231.
(2) ابن سيده، المُخصّص: 1/447.

تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة: 96][1]، فيظهر الفرق بين تأكلون، وتطعمون: أنَّ الأكل ما يُحسب اقتصاديًّا، أي: يمكن أن يكون أكل يوم أو أكل شهر؛ وهو ما تستهلكه الأسرة في تلك الفترة، أمَّا الطعام؛ فهو ما يتذوَّقه الإنسان ساعة أكله، ويستمتع به، ويسدُّ جوعَه منه.

(1) الخليل، العَين: (طعم) 2/25.

﴿وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ٥٠﴾ [آل عمران: 50]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

كأنَّ المعنى: قد جئتكم بآية مصدِّقًا، فبعد أن عدّدَ سبحانه المعجزات التي جاء بها عيسى عليه السلام وفصَّل في ذِكرها، بيّن في هذه الآية أنَّ رسالته هي مصدِّقة للتوراة التي جاء بها موسى مبيِّنًا بعض ما جاء به من التشريعات، والتخفيف على بني إسرائيل بأن أحلَّ لهم بعض ما حرّم عليهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَمُصَدِّقٗا﴾: جذر الكلمة هو: (صَدَق)، والصِّدْق: نَقيض الكذب، سُمِّيَ بذلِكَ لِقُوَّتِهِ في نَفْسِه، وَلِأَنَّ الْكَذِبَ لَا قُوَّةَ لَهُ، هُوَ بَاطِلٌ. وَأَصْلُ هَذَا مِنْ قَوْلِهِمْ شَيْءٌ صَدْقٌ، أَيْ صُلْبٌ. ويقال للرجل الجواد، والفرس الجواد: إنَّه لذو مَصْدَقٍ، أي: صادِقُ الحملة، وصَدَقْتَه: قلت له: صِدْقًا، وكذلك من الوعيد، إذا أوقعتهم؛ قلت: صَدَقْتُهم، وهذا رجل صِدقٍ، مضاف، بمعنى: نعم الرجل هو، وامرأة صِدْقٍ، وقوم صِدْقٍ، فإذا نَعَتَّه؛ قلت: هو الرجل الصَّدْقُ، وهي الصَّدْقَةُ، وقوم صَدْقُونَ، ونساء صَدْقاتٌ[1]، والصَّدْقُ: الكامل من كُلِّ شيء، والصِّدِّيق: من يُصَدِّقُ بكلِّ أمر اللّه ونبيِّه، لا يتخالجُه شكٌّ في شيء[2].

والمعنى هنا: مؤمنًا بأنَّ جَميعَ ما في التوراة حِكْمَةٌ وصَوابٌ.

2) ﴿وَأَطِيعُونِ﴾: جذر الكلمة هو: (طَوَع)، الطَّوْعُ: الانقيادُ[3]، ويُضادُّه الكَرْهُ، قَالَ اللّه عز وجل: ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا﴾ [فصلت: 11][4]، وأطاع يطيع إطاعة، وأطاع اللّه: انقاد له، فعل ما

(1) الخليل، العَين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (صدق).

(2) الخليل، العَين: (صدق).

(3) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (طوع).

(4) الراغب، المفردات، الزَّبيدي، تَاجُ العَرُوس: (طوع).

أمره به، أذعن له، وخضع لإرادته وحكمه، وقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النّساء: 80]، وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ﴾ [النّساء: 81]، وقوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ١٨﴾ [غافر: 18].

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

صفات رسالة عيسى عليه السلام

تجلّي الآيةُ الكريمةُ صفةَ رسالة عيسى عليه السلام بكونه مصدِّقًا لما تقدَّمه من التوراة المُنَزَّلة على موسى، مؤمنًا بما جاءَ فيها ومقرِّرًا لها، وممَّا جئتكم به التخفيفُ إذ أُحِلُّ لكم - بوحي من الله - بعضَ ما حُرِّم عليكم في شريعة موسى عليه السلام كلُحوم الإبلِ والشُّحوم؛ تخفيفًا من الله ورحمة بكم، وجئتكم بآياتٍ من ربكم تعلمون بها صِدْق رسالتي، وأعاد ذكر المعجزاتِ ليكون كلامُه ناجعًا في قلوبهم ومؤثِّرًا في طباعهم، فاتقوا الله ولا تخالفوا أمره، وأطيعوني فيما أبلغكم به عن الله[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الوصل في الآية:

معجزات عيسى عليه السلام جاءت تصديقًا للتّوراة

قوله: ﴿وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ عطف؛ إمَّا على المضمر الذي تعلَّق به قوله: ﴿بِـَٔايَةٖ﴾، والمعنى: قد جئتكم محتجًّا أو متلبِّسًا بآية، ومصدِّقًا، وإمَّا أن يكون معطوفًا على ﴿وَرَسُولًا﴾ أي: وأرسلت رسولًا ومصدِّقًا، ويجوز أن يكون منصوبًا بفعل دلَّ عليه ﴿قَدۡ جِئۡتُكُم﴾، أي: وجئتكم مصدِّقًا، ومعنى تصديقه للتوراة: الإيمان بها؛ وإن كانت شريعته تخالف في أشياء، قال وهب بن منبه: كان يسبتُ، ويستقبلُ بيت المقدس[2]، وفي التَّصديق تثبيتٌ وتقرير، وكما قال الفخر الرازيُّ: وإنَّما حسن حذف هذه الألفاظ لدلالة الكلام عليها، وعلى كلِّ تقدير يَرِدُ معنًى، وكلُّها تتعانق، لا تتعاند.

---

(1) ابنُ الجوزيّ، زاد المَسِير: 1/285، والرازي، مفاتيح الغيب: 8/63، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 56.
(2) أبو حيَّان، البحر المُحِيط: 3/167.

علَّة دخول اللَّام على المفعول:

المصدِّق في قوله: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ﴾، المخبرُ بصِدق غيره، وأُدخلت اللّام على المفعول للتقوية؛ للدَّلالة على تصديقٍ مُثبت محقَّق، أي: مصدِّقًا تصديقًا، لا يشوبُه شكٌّ، ولا نِسبةٌ إلى خطأ.

دخـول الـلَّام عـلى المـفـعول لـلـتـقـويـة، والـدَّلالـة على تـصـديقٍ مُثبت محقَّق لا شكّ فيه

بلاغة الاستعارة التمثيلية:

معنى قوله: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ﴾ ما تقدَّم قبلي؛ لأنَّ المتقدِّم السَّابق يمشي بين يدي الجائي، فهو هنا تمثيل لحالة السَّبق؛ وإن كان بينه وبين نزول التوراة أزمنة طويلة؛ لأنَّها لمَّا اتَّصل العمل بها إلى مَجيئه، فكأنَّها لم تسبقه بزمن طويل، ويستعمل بين يديِّ كذا في معنى: المشاهَد الحاضر[1]، والتمثيل هنا على سبيل الاستعارة التمثيليَّة، فهي استعارة هيئة لهيئة؛ نقلاً لغير المحسوس إلى المحسوس، وفيه تجسيد للمعنى، ومنها قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ [البقرة: 255]، وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ١١٠﴾ [طه: 110].

وجه التّمثيل استعارة هيئة لهيئة؛ نقلاً لغير المحسوس إلى المحسوس

سرُّ اختصاص التوراة بالذِّكر:

سرَّ اختصاص التوراة بالذكر في قوله: ﴿مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ بيانُ إرسال المسيح عليه السلام تقريرَ التوراة، وإزالةَ شبهات المنكرين وتحريفات الجاهلين.

و﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ للتبعيض، لسبب ما أحدثوا عليه من التَّحريف؛ فإمَّا أن يكون المعنى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ﴾، أي: مُصحِّحًا لما حرَّفتموه من التَّوراة، أو أن يكون ﴿وَمُصَدِّقًا﴾، بمعنى: العمل برسالة موسى عليه السلام وهي التَّوراة الصحيحة التي علَّمني إيَّاها ربِّي؛ فيكون التَّصديق بإعادة إحياء ما اندثر من أحكامها بفعل ما حُرِّف، وبُدِّل، قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ [المائدة: 41].

مـن مـهـمـات إرسـال عيسى عليه السلام تـقـريـر الـتـوراة، وإزالة ما أثير عليها من شبهات

(1) ابنُ عَاشُور، التَّحريرُ والتَّنوير: 3/252.

في تحليل بعض ما حرَّمه الله عليهم؛ رعيٌ لحالهم في أزمنة مختلفة

بلاغة تأويل ما يبدو فيه التناقض:

الظاهر أنَّ هذه الجملة: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ مناقضة لما قبلها وهو قوله: ﴿وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾؛ لأنَّها صريحة في أنَّ عيسى عليه السلام جاء؛ ليحلَّ بعض الذي كان محرَّمًا عليهم في التوراة، وهذا يقتضي أن يكون حكمه بخلاف حكم التوراة، وهذا يناقض قوله: ﴿وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ﴾ والجوابُ: أنَّ في ذلك تنبيهًا على أنَّ النَّسخ لا ينافي التصديق؛ لأنَّ النَّسخ إعلام بتغيُّر الحكم، وانحصرت شريعة عيسى في إحياء أحكام التوراة وما تركوه فيها، وهو في هذا كغيره من أنبياء بني إسرائيل، وفي تحليل بعض ما حرَّمه اللّه عليهم؛ رعيًا لحالهم في أزمنة مختلفة، وبهذا كان رَسُولًا، والظاهر أنَّه لم يحرِّم عليهم ما حلَّل لهم[1]، والظاهر أنَّ المراد ما حرَّمه اللّه على اليهود عقوبة لهم، كما أبان عنه قوله تعالى: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ﴾ [النساء: 160]، وذلك مبنيٌّ على أنَّ النَّاسخ والمنسوخ، كلاهما حقٌّ وصدقٌ.

الجملةُ آية من الله على نبوَّة عيسى؛ إذ جاء بالتخفيف فيما كان فيه تشديد

بلاغة العطف في جملة التحليل والتحريم:

عطف قوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ على ﴿وَرَسُولًا﴾ وما بعده من الأحوال؛ لأنَّ الحال تشبه العلَّة؛ إذ هي قيد لعاملها، فإذا كان التقييد على معنى التعليل شابه المفعول لأجله، وشابه المجرور بلام التعليل؛ فصحَّ أن يعطف عليها مجرور بِلام التعليل، قاله ابن عاشور، ويمكن أن يكون التقدير: وجئتكم لأحلَّ، فيكون من باب عطف الجملة على الجملة، وهذا البناء - الذي يجعل التيسير علَّةً - آيةٌ من اللّه على نبوَّة عيسى؛ إذ جاء بالتيسير، والتّخفيف فيما كان فيه تشديد؛ وفي ذلك ترغيب للمدعوين.

---

(1) ابنُ عَاشُور، التَّحريرُ والتَّنوير: 3/252.

قصديّة تبعيض المحرَّم:

> إيـثـار لـفـظ (بعض) مناسبٌ لطبيعة النَّسخ، في أنَّه يكون في بعض الأحكام

اصطفاء كلمة ﴿بَعۡضَ﴾ مفعولاً به متّسقٌ مع طبيعة النَّسخ، وأنَّه يكون في بعض الأحكام، وأنَّ فيه مطابقة الواقع ومراعاة الأحوال؛ وفي البسط في وصف المفعول باسم الموصول وصلته إظهار للتيسير، وكان يمكن أن يقال: بعض المحرَّم عليكم، لكنَّه بيان لعظم التيسير مع كونه واقعًا على البعض.

توجيه بناء الفعل ﴿حُرِّمَ﴾ للمفعول:

> في الـبـنـاء للمعلوم إطلاقٌ للحُرمة ولحدود اشتمالها

بني الفعل ﴿حُرِّمَ﴾ في قوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ للمفعول؛ ليشمل ما حرَّموه على أنفسهم ونسبوه إلى اللّه، وما حرَّمه اللّه عليهم عقوبة.

بديع المقابلة بين جملتَيِ التحليل والتحريم:

> وجـه المقابلـة إظهار التخفيف عـلـيـهـم بـتـخـصـيـص الـنـفـع، وبيان ثقل الحرام

ومن بلاغة جملة ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ اشتمالها على المقابلة بين قوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم﴾ و﴿حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾، وهي تظهر التخفيف والتيسير جليًّا واضحًا فبضدِّها تتميَّز الأشياء، وترى التخفيف واضحًا في حرفي الجرّ، ﴿لَكُم﴾ تخصيصًا بالنفع، و﴿عَلَيۡكُمۡۚ﴾ بيانًا لثقل التحريم وعلوِّه على النفس.

بلاغة التَّكرار في قوله: ﴿وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾:

> اسـتـحـضـار الأدلَّـة الدَّامغة في المُحاجَجات بغية الإقناع هي منهجيَّة الأنبياء والـدُّعـاة من بعدهم

وقوله: ﴿وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ تأكيدٌ لقوله الأول: ﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾. وإنَّما عطف بالواو؛ لأنَّهُ أريد أنْ يكون من جملة الأخبار المتقدِّمة، ويحصل التأكيد بمجرَّد تقدُّم مضمونه، فيكون لهذه الجملة اعتباران يجعلانها بمنزلة جملتين، وليُبْنَى عليه التَّفريع في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[1]. ويجوز أن يكون ﴿وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ كرِّرَت على سبيل التَّوكيد، أي: جئتكم

---

(1) ابنُ عَاشُور، التّحرِيرُ والتَّنوِير: 3/253 - 254.

بآية بعد أخرى، مِمَّا ذكرت لكم؛ من خلق الطَّير والإبراء والإحياء والإنباء بالخفيَّات، وبغيره من ولادتي من غير أبٍ، ومن كلامي في المهد، وسائر الآيات، وقوله: ﴿وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ تأكيدٌ لقوله الأولِ: ﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، وإنَّما عطف بالواو؛ لأنَّه أريد أن يكون من جملة الأخبار المتقدِّمة[1].

دلالة الفاء وفعلي الأمر في جملة الفاصلة:

المقصود من المعجزات وإرسال الرسل تلبية أوامر الله وأوامر رسوله

جاءت الفاء في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ تفريعًا على ما مضى، أو أنَّها الفاء المفصحة عن شرط مقدَّر، إن آمنتم؛ فاتقوا، وفيه من الإيجاز ما فيه.

وغاير النظم الحكيم بين الأمر في جنب اللّه والأمر في جنب المسيح عليه السلام فالأمر في جنب اللّه ﴿فَٱتَّقُواْ﴾، أي: اتقوا غضبه وسخطه وعذابه، وفيه من التحذير ما فيه، وفي جنب المسيح قال: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ والأصل: وأطيعوني، حذفت ياء المتكلم بعد نون الوقاية؛ مراعاةً للفواصل بين الآيات، وتحقيقًا للجَرْسِ والإيقاع الذي هو إحدى سمات القرآن وإعجازه، وهو نُصحٌ وإرشادٌ أَعْقَبَ التحذير، أي: وأطيعوني فيما دعوتكم إليه من تصديقي فيما أرسلني به إليكم[2]، فذكر الأمر المناسب لكلٍّ، وجاء خَتْمُ الآية مناسبًا للمعنى؛ إذ هو كالغاية من إرسال الرُّسل، وتأييدهم بالمعجزات القاهرات.

في حذف الياء بيانٌ لأدب الخطاب القرآنيّ مع الذّات الإلهيّة المقدّسة

في حذف ياء المتكلم من قوله ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ نكتة بلاغيّة تظهر أدب الخطاب النبويّ مع الذّات الإلهيّة جلّ اللّه في عُلاه؛ إذ حذف ياء المتكلم من فعل طلب الطاعة المعبّر عنه بصيغة الأمر؛ تجنّبًا للتلميح بتوجّه طاعتهم إليه، وقصرها عليه؛ ذلك أنّهم قوم يؤوّلون الواضحات، ويحرّفون البينات، فكيف بالمظنونات!

(1) ابنُ عَاشُور، التّحريرُ والتَّنوِير: 3/253.

(2) النَّسفيُّ، مدارك التَّنزيل: 1/257.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٥١﴾ [آل عمران: 51]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

وقعت الآيةُ من سابقتها موقع التعليل للأمرين السابقين؛ فبعد أن ذَكَرَ لهم الآياتِ والمعجزات في الآيات السّابقة، ثمَّ أمرهم بتقوى اللّه وطاعته، بيّن لهم هنا أنَّ اللّه تعالى هو ربُّه وربُّهُم، وأنَّ عبادةَ اللّه هي الصِّراطُ المُستقيم الذي سار عليه المؤمنون المُتَّقون.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صِرَٰطٞ﴾: جِذر الكلمة هو: (صرط وسرط)، الصِّرَاطُ، بالكَسْرِ: الطَّريقُ، قالَ اللّه تَعَالَى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: 6][1]، والسَّرْط، منه الاسترِاط: وهو سُرعة الابتلاع من غير مَضغ[2]، والسِّراط: السبيل الواضح، وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ٤١﴾ [الحجر: 41][3]، والمراد هنا السَّبيل الواضح.

2) ﴿مُّسۡتَقِيمٞ﴾: جِذر الكلمة هو: (قوم)، القِيمَةُ واحدة القِيَم، وقَوَّمَ السِّلعة تقويمًا، وأهلُ مكة يقولون: استقامَ السِّلعة، وهما بمعنًى واحد، والاستِقامةُ: الاعتدال، يقال: استقامَ له الأمر، وقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ [فصلت: 6]، أي: في التوجُّه إليه دون الآلهة، وقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ [البيّنة: 5]، إنَّما أنَّثه؛ لأنَّه أراد الملَّة الحنيفيَّة، والقَوَامُ بالفتح: العدل، قال اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧﴾ [الفرقان: 67][4]، والمراد هنا: لا اعوجاج فيه.

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

بعد أن بيّن عيسى عليه السلام في الآيات السّابقةِ فضلَ اللّه عليه وعلى بني إسرائيل، بأنْ أرسلَ إليهم الرُّسلَ بآياتٍ مبيِّنات، وأنزل عليهم التوراةَ والإنجيل، أقرَّ هنا بعبوديَّته للّه،

(1) الزَّبيديُّ، تَاجُ العَرُوس: (صرط).
(2) الخليل، العَين: (سرط).
(3) ابن سيده، المُحكم: (سرط).
(4) الرَّازيُّ، الصِّحَاح: (قوم).

وأنَّه عبدٌ للّه كما هم عبادٌ له سبحانه، وما دام الأمر كذلك فأنا وأنتم سواءٌ في العبودية والخضوع له، فتقتضي الرُّبوبيَّةُ عبادتَه سبحانه وحده، والعبادةُ للّه هي الطريقُ الواضحُ الذي لا اعوجاجَ فيه، وهو الموصلُ إلى اللّه وإلى جنتِه، وما عدا ذلك فهي طرقٌ موصلةٌ إلى الجحيم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاحتراس في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾:

المعجزات مهما كانت قاهرة؛ لا تنفي مقام البشرية، بل تدلُّ على ربوبيَّة الله لرسله

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾ إقرارٌ بالعُبوديَّةِ ونَفيٌ للرُّبُوبيَّةِ عن نَفسِهِ[2]؛ كي لا يُتوهَّمَ بعد ما رأوا من خوارق العادات التي يتكرَّرُ ظهورُهَا على يديه، من أنَّه إله يدعوهم إلى الإيمان به لذاته، لِمَا وصف عيسى نفسه بأفعال إلهِيَّةٍ، وأتى على ما ذُكر، وكان قد قال: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾؛ خطر له ما فعلته جماعة من النَّصارى، وهو اتّخاذهم إيَّاه معبودهم، فاحترس بقوله: ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾، وقدَّم نفسه باعتباره أولى منهم بالعبادة والخضوع للّه؛ فإنَّه قدوة لهم في تلك العبادة وذلك الإيمان، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾، ولم يقل: رَبُّنَا؛ ليكون أبعدَ من التأويل فيما ادَّعوه، وأمر بأن يُعبَد اللّه وحده[3].

وقد بُنيت الآية على التَّوكيد؛ لتنتج معنى: أنا وأنتم في العبوديَّة سواء.

وتكرار كلمة الرَّبِّ في قوله: ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾، أبلغ في التزام العبودية من قوله: (ربنا).

فمقصوده بختم كلامه بقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾ إظهار الخضوع والاعتراف بالعبودية لكيلا يتقوَّلوا عليه الباطل فيقولون:

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 56، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 56.
(2) النَّسفيُّ، مدارك التَّنزيل: 1/257.
(3) الرّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/581.

إنّه إله، وابن إله؛ لأن إقراره لله بالعبودية يمنع ما تدّعيه جهّال النّصارى عليه[1].

وقوله: ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ تفريع على الرُّبوبيَّة؛ فقد جعل قولَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي﴾ تعليلًا، ثمَّ أصلًا للتفريع[2]، فتكون العبادة هي المقصد الرَّئيس، وهي الإجابة عن الكيفيَّة في تقوى الله وطاعة رسوله، وهذا إرشاد من الله للدُّعاة، فكلَّما كان الأمر معلَّلًا، والتَّكليفُ مسبَّبًا؛ كان ذلك أدعى لقبول الأمر والمسارعة إلى تنفيذه.

بلاغة المتشابه اللفظي:

توكيد الآية بضمير الفصل لتقدّم الآيات الدَّالَّة على توحيد الرّبّ تعالى وقدرته، وعبودية المسيح له

ومن النظائر للآية في سورة مريم: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾ [مريم: 36]، وفي الزُّخرف: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ [الزخرف: 64] بزيادة ﴿هُوَ﴾؛ لأنَّ آيتَي آل عمران ومريم تقدَّمتهما الآيات الدَّالَّة على توحيد الرَّبِّ تعالى وقدرته، وعبودية المسيح له، ما أغنى عن التّأكيد، وفي الزُّخرف: لم يتقدَّم مثل ذلك، فناسب توكيد انفراده بالرُّبوبيَّة وحده[3].

بلاغة التَّشبيه التَّمثيليّ في الفاصلة:

الحَقُّ الواضحُ صراطٌ مستقيمٌ، لا يضلُّ سالكه، ولا يتحيَّر

وقعت جملة ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ موقع التذييل لما مضى، وجاءت على طريق التشبيه التمثيليِّ، فالحَقُّ الواضحُ صراطٌ مستقيمٌ، لا يضلُّ سالكه، ولا يتحيَّر[4].

وفائدة هذا التّشبيه: أنَّه تصوير لحال المُتلقّي، وهو سائر على الصراط المستقيم، ينعم بالأمان والسّكينة، وتحقيق الغاية في الدنيا والآخرة، وقد بنيت الجملة على نحوٍ خالٍ من التَّوكيدات؛ لإيراد معناها، حقيقة مسلَّمة، وأوردها في ثوب التمثيل، كأنَّها لوضوحها مشاهدة قريبة يشار إليها باسم الإشارة الدالِّ على القرب.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/231.
(2) ابنُ عَاشُور، التَّحريرُ والتَّنوِير: 3/253.
(3) الإسكافيُّ، درّة التنزيل 1/361 وما بعدها. ابن جماعة، كشف المَعَاني: 129.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/253 - 254.

﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢﴾ [آل عمران: 52]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

جاءت الآية الكريمة معطوفة بالفاء على محذوف، كأنَّه قيل: فلم ينتصحوا، ولم يعلنوا الإيمان، فلما أحسَّ - أي: بعد أن قدَّم الأدلَّة والبَراهينَ في الآيات السّابقةِ على صدق رسالَتِه، فبيّنَ لهم المعجزات الَّتي جرت على يديه، ثمَّ أمرهم بتقوى الله وعبادته - ذَكَرَ في هذه الآية أنَّ عيسى عَلِمَ منهم الإنكارَ عليه، والكفرَ برسالته، فقال: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَحَسَّ﴾: جذر الكلمة هو: (حسس)، وهو أَصْلَانِ: فَالْأَوَّلُ غَلَبَةُ الشَّيْءِ بِقَتْلٍ أَوْ غَيْرِهِ، وَالثَّاني حِكَايَةُ صَوْتٍ عِنْدَ تَوَجُّعٍ وَشِبْهِهِ، فَالْأَوَّلُ الْحَسُّ: الْقَتْلُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ﴾ [آل عمران: 152]، والثاني: العِلمُ، ومنه قَوْلُهُمْ أَحْسَسْتُ، أَيْ عَلِمْتُ بِالشَّيْءِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ﴾ [مريم: 98]، وَهَذَا مَحْمُولٌ عَلَى قَوْلِهِمْ قَتَلْتُ الشَّيْءَ عِلْمًا؛ فَقَدْ عَادَ إِلَى الْأَصْلِ الأول وهو القَتْلُ. وَيُقَالُ لِلْمَشَاعِرِ الْخَمْسِ الْحَوَاسُّ، وَهِيَ: اللَّمْسُ، وَالذَّوْقُ، وَالشَّمُّ، وَالسَّمْعُ، وَالْبَصَرُ. والمصدر الْحسُّ والحَسيس، وَقد قَالُوا: حَسِيت بالشَّيْء في هَذَا الْمَعْنى، وأحسْتُ بِهِ، والآية من المعنى الثاني[2].

2) ﴿أَنصَارِيٓ﴾: جذر الكلمة هو: (نصر)، أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى إِتْيَانِ خَيْرٍ وَإِيتَائِهِ. وَنَصَرَ اللهُ الْمُسْلِمِينَ: آتَاهُمُ الظَّفَرَ عَلَى عَدُوِّهِمْ، يَنْصُرُهُمْ نَصْرًا. وَانْتَصَرَ: انْتَقَمَ، وَهُوَ مِنْهُ. وَأَمَّا الْإِتْيَانُ فَالْعَرَبُ تَقُولُ: نَصَرْتُ بَلَدَ كَذَا، إِذَا أَتَيْتَهُ، والنَّصرُ: عَوْنُ المظلوم، ورجل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/254.

(2) ابن دريد، جمهرة اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حسس).

ناصر من قوم نصار ونصر وأنصار[1]، والأنصارُ: جماعة النَّاصِر، وأنصار النَّبيِّ ﷺ أعوانُه، والنَّصيرُ والنَّاصِرُ واحدٌ، وقال اللّه تعالى: ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٤٠﴾ [الأنفال: 40]، والنُّصْرة: حُسْنُ المَعُونة، وقال اللّه تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [الحج: 15][2].

3) ﴿ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾: جذر الكلمة هو: (حور)، وله ثَلَاثَةُ أُصُولٍ: منها لَوْنٌ، وَالْآخَرُ الرُّجُوعُ، فَأَمَّا الْأَوَّلُ فَالْحَوَرُ: شِدَّةُ بَيَاضِ الْعَيْنِ في شِدَّةِ سَوَادِهَا، يُقال: حَوَّرتُه تحويرًا، أي: بَيَّضتُه، وامرأةٌ حَوارِيَّة، أي: بيضاء حضريَّة، وتَحْوِيرُ الثِّياب تبييضها، ومنه قيل لأصحاب عيسى، عليه السلام: الحَوَارِيُّون؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُحَوِّرُونَ الثِّيَابَ، أَيْ يُبَيِّضُونَهَا فكانوا قصَّارين[3]، يقال: فعل الحواريُّون كذا، ونصر الحواريُّون كذا، فلمَّا جرى على ألسنة النَّاس؛ سُمِّيَ كُلُّ ناصرٍ حواريًّا[4]. وقيل: الحَوَارِيُّ الناصر، قال النَّبيُّ، ﷺ: «لكلِّ نبيٍّ حَوَارِيٌّ وحَوارِيَّ الزُّبَيْر بنُ العوَّام»[5]، وَأَمَّا الرُّجُوعُ، فَيُقَالُ حَارَ، إِذَا رَجَعَ. قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓۚ﴾ [الانشقاق: 14-15] وَالْعَرَبُ تَقُولُ: "الْبَاطِلُ في حُورٍ" أَيْ رَجْعٍ وَنَقْصٍ[6].

والحواريُّونَ: لَقَبٌ لِأَصْحابِ عِيسى عليه السلام الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ ولازَمُوهُ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

انتقل اللّه تعالى - في هذه الآية من البشارة بعيسى - إلى ذِكْر خبره مع قومِه، وطوى خبرَ ولادته ونشأتِه؛ اكتفاءً بآيات البشارة الدَّالَّة عليها، فلمَّا استشعر عيسى منهم التصميمَ على الكفر، والاستمرارَ على الضَّلال، وظهر أنَّ تلك الآياتِ العظيمةَ لم تُجْدِ معهم نَفعًا، ولم تجدْ إلى هدايتهم سبيلًا، نادَى في أصحابه الخُلَّص: مَن يكون معي في نصرة دين اللّه؟ في موقفٍ فاصِلٍ بين الحَقِّ والباطل، والإيمانِ والكفر، فالمُخلصون أصفياءُ عيسى - المُنقادون للّهِ - أعلنوا نَصرهم للّه، وأنهم أنصارُ دينِ اللّه والدَّاعون إليه:

(1) ابن سيده، المُحكم: (نصر).
(2) الخليل، العَين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).
(3) الرَّازيُّ، مختار الصِّحَاح: (حور).
(4) الخليل، العَين: (حور).
(5) ابن حِبَّان، صحيح ابن حِبَّان: 15/444. الحديث إسناده صحيح على شرط مسلم.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حور).

صدَّقنا باللّه واتبعناكَ، واشهد - أنت يا عيسى - بأنَّا مستسلمون للّه بالتوحيد والطاعة، فليس النَّصر خاصًّا بالقتال، بل يشمل الدَّعوة إلى الدِّين والعمل به(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة التعبير بقوله ﴿۞فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾، وتكاتف الأساليب البلاغية في إثراء المعنى:

من طبائع الرُّسل ومزاياهم قدرتُهم على تحسُّس حال أقوامهم

قبل قوله: ﴿۞فَلَمَّآ أَحَسَّ﴾ محذوفٌ، يدلُّ عليه، وتقديره والمعنى: فجاء عيسى بني إسرائيل ورَسُولًا، فقال لهم ما تقدَّم ذكره، وأتى بالخوارق التي قالها، فكفروا به، وتمالؤوا على قتله وإذايته، فلمَّا أحسَّ عيسى منهم الكفر...(2)، فعبّر بأسلوبٍ يُفهم منه ذلك كلُّه دون النُّطق به أو تلفُّظه؛ إيجازًا في الكلمات وغزارة في المعاني.

كما أنَّ ﴿أَحَسَّ﴾ استعارة؛ إذ لا يُحَسُّ إلّا ما كان متجسِّدًا، والكفرُ ليس بمحسوس، وإنَّما يُعلم، ويُدرك كعلم ما يُدرك بالحواس(3)، وفي قوله: ﴿۞فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾، استعار الإحساس للعلم بالشيء؛ وهي استعارة تصريحيَّة تبعيّة، وأصلُ الإحساسِ الإدراكُ بإحدى الحواسِّ الخمس الظاهرة للعلم، أو هو مجاز مرسل عن ذلك، من باب ذِكْرِ الملزوم وإرادة اللّازم؛ والدَّاعي لذلك أنَّ الكفر مِمَّا لا يحسُّ(4).

وقدّم الجارَّ والمجرور ﴿مِنۡهُمُ﴾، ولم يقل: أحسَّ عيسى الكفر منهم، مع أنَّ تركيز الكلام على قضيَّة الكفر، والكفر: هنا جحود نبوَّته وإنكار معجزاته، لكنَّه قدَّم ﴿مِنۡهُمُ﴾ على الكفر لبيان اختصاصهم واهتمامه بشأنهم، وبيان شدَّة الموقف معهم - وهم

(1) ابنُ عَاشُور، التَّحريرُ والتَّنوير: 3/254، والموصليُّ، أولى ما قيل: 2/478، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 56.

(2) ابنُ عَاشُور، التَّحريرُ والتَّنوير: 3/162.

(3) صافي، الجدول في إعراب القُرآن: 1/512.

(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/512.

يواجهون معجزاته بالجحود والنُّكران - وإبراز عتوِّهم ومكابرتِهم فيه مع العزيمة على قتلِه - عليه السلام - كما ينبئُ عنه الإحساسُ، فإنَّه إنَّما يُستعمل في أمثالِ هذهِ المواقع عند كونِ مُتعلَّقه أمرًا محذورًا مكروهًا، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ١٢﴾ [الأنبياء: 12]، وكلمةُ (مِنْ) متعلِّقةٌ بـ﴿أَحَسَّ﴾، والضميرُ المجرورُ لبني إسرائيلَ، أي: ابتدأ الإحساسُ من جهتهم، وتقديمُ الجارِّ والمجرور على المفعول الصَّريح، لِمَا مَرَّ غيرَ مرّةٍ من الاعتناء بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر، وقيل: متعلقةٌ بمحذوفٍ وقعَ حالًا من الكفر[1].

بلاغة فنّ الحوار، في طلب الاستنصار:

فـائـدة الـحـوار الإحاطة بأبعاد الـقـضـيَّـة من جانبي السَّائل والمـُـجـيـب، فيتحقَّق منه الإيـجـاز، مع غـزارة المعنـى ووُضوحه

عندما استشعر عيسى عليه السلام كُفْرَهم وإعراضَهم بعد ما شاهدوه من المعجزات الكبرى التي يعجز عن أداءِ واحدةٍ منها أحدٌ من النَّاس، فاستدعى مناصريه؛ لِتَحْدُثَ المفاصلة، ويُعرف كُلٌّ بموقفه، فقال: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾؟ قال الحواريُّون: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾، وفائدة هذا الفنِّ الإحاطة بأبعاد القضيَّة من جانبين: السّائل والمُجيب؛ فيتحقَّق منه الإيجاز، مع غزارة المعنى ووُضوحه، فاختصر الموقف كلَّه بالسؤال والجواب، وبان أهل الحَقِّ من أهل الباطل.

والحواريُّ: صفوة الرجل وخاصته.[2].

بلاغة تَكرار لفظ النُّصرة:

تَـكـرار لـفـظ النُّصرة توكيدٌ للقناعة وإصرارٌ عـلـى الـنُّـصـرة، ورغبةٌ في الدِّفاع عن الدِّين الحق

لَمَّا نادى عيسى عليه السلام بقوله: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؟ جاء الجواب السَّريع من جانب الحواريِّين: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾، وكان بالإمكان أن يكون الجواب مقتصراً على: ﴿نَحۡنُ﴾، أو يكون: (نحن يا رسول الله)، ولكن تَكرار لفظ النُّصرة جاء توكيدًا للقناعة وإصرارًا على النُّصرة، ورغبة في الدِّفاع عن الدِّين الحق.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/41.

(2) أبو حيَّان، البحر المُحِيط: 3/172.

بيانُ الإطناب في قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِۖ﴾:

غايةُ الإطناب إثارةُ قضيَّة التَّوحيد، والإيمان بالله وحده

وفي قوله: ﴿ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ ﴾ لم يكتفِ بقوله: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ﴾، وإنّما أردفه بقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ وهنا إيغالٌ؛ لتذكيرهم بأنَّه مُرسل من عند الله، وأنَّ نصرته هي نصرة لله تعالى، فكان إطنابًا؛ غايتُه إثارة قضيَّة التَّوحيد والإيمان بالله وحده؛ ولهذا جاء جوابهم نحن أنصار الله، ولم يكن الجواب: نحن أنصارك، أو أنصارك إلى الله.

بلاغة التناوب في حروف الجرّ:

في تضمين (إلى) معاني حروف أُخر سعةٌ في الدلالة، وثراءٌ في المعنى

في قوله: ﴿ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ ﴾ حذفٌ، فهو متعلّقٌ بمحذوفٍ وقعَ حالًا من الياء، أي: مَنْ أنصاري متوجِّهًا إلى الله ملتجئًا إليه؟[1].

ومن عالي البلاغة هنا إيراد حرف جر، ويحتمل عدة معانٍ، وكلُّها معانٍ متعانقة، لها في السِّياق ما يؤازرها، فقد قيل: إنَّ ﴿إِلَى﴾ بمعنى: (في) أو (اللام) أو (مع)[2]، قال الزَّجَّاج: وإنَّما حَسُنت في موضع (مع)؛ لأنَّ (إلى) غاية، و(مع) تضُمُّ الشَّيء بالشَّيء[3] و(في)، أي: في سبيل الله.

وجاءت الجملة الثانية جوابًا لسؤال عيسى، ﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال ينساق إليه الذِّهنُ، كأنّهُ قيل: فماذا قالوا في جوابِه عليه السلام؟ فقيلَ: ﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾[4]، وإنَّما جاء كذلك دلالة على سرعة جوابهم دون فاصل زمني؛ لذا سُمُّوا حواريين، كما نلحظ أنَّ الجواب جاء مشاكلًا للسُّؤال ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾، فلم يكن كالجوابات المعتادة؛ إذ الجواب يُكتفى فيه بـ ﴿نَحۡنُ﴾؛ فهو المسؤول

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/41.
(2) البيضاويُّ، أنوَارُ التَّنزيل: 2/19.
(3) ابن الجوزي، زاد المَسِير: 1/285.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/41.

عنه، لكنَّ النظم أشعرَ بولوعهم بالوصف، وتلذُّذِهم به؛ لذا جاء الجواب كذلك.

بلاغة الجمل الاستئنافية في التَّأكيد على تحقيق النُّصرة:

التعليل للنُّصرة بيان لأسباب حصولها

جاءت جملة: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ بمنزلة الاستئناف الجاري مجرى العلَّة لما قبله، كما ذكر الرازيُّ والآلوسيُّ وأبو حيَّان وغيرهم، فالإيمانُ دافعٌ للنُّصرة، ويزيد هذا المعنى بيانًا وضْعُ المُظهَر موضع المضمَر؛ فالظاهر أن يقال: آمنَّا به، ولكنَّه عَدَلَ عن ذلك تأكيدًا لإيمانهم؛ لما في التصريح بالاسم الجليل من جلال المعنى.

بلاغة عطف الإنشاء على الخبر في الفاصلة:

التوجّه لمخاطبته سبحانه من تحقّق الإيمان بالله؛ وفيه تأكيدٌ لتحقيق النصرة

وقوله: ﴿وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ إنشاءٌ، عُطِفَ على الخبر، ومسالكه معروفة، فلفظه إنشائيٌّ، ومعناه خبريٌّ، وكأنَّ المعنى: آمنَّا بالله، وأقررنا بأنَّنا مسلمون، ويحتمل أن يكون المخاطَب عيسى عليه السلام ويحتمل أن يكون المخاطَب هو الله - عزَّ وعلا - كأنَّ المعنى: واشهَد يا ربَّنا بأنَّا مسلمون، وهذا من تحقيق إيمانهم بالله أن يتَّجهوا لمخاطبته سبحانه، وفي كلِّ هذا تأكيد لتحقيق النُّصرة، فالأمر العظيم إذا توفرت أسبابه؛ فإنَّ ذلك أدعى لتحقيقه وحصوله، كما نلحظ أنَّ الجملة الأولى جاءت فعليَّة إعلانًا عن تجديد الإيمان، والثانية جاءت اسميَّة مؤكِّدة للدلالة على استمرارهم في الثبات على الإسلام.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(أحسَّ) و(عَلِمَ) أو (وَجَدَ):

ما يُكِنُّه أعداء الإيمان للرِّسالات السَّماوية من شرورٍ قد لا تُدرك أبعادها

لم يأتِ في النَّصِّ (علمَ منهم الكفر)، أو (وجد منهم الكفر)؛ لأنَّ ذلك إشعار بظهور الكفر صراحة منهم، وأنَّهم قد أعلنوه جهارًا، أو أنَّهم قد ارتكبوا أفعالًا وإيذاءً للرسول أو لأتباعه، ويبدو أنَّ ذلك لم يَحدث منه شيء، وإنَّما كان الأمر محفوفًا بالمكر والسرِّ، فقوله:

﴿أَحَسَّ﴾، فيه بيان استشعار النَّبيِّ عيسى عليه السلام بما عرَّفه اللّٰه ألهمه من المعرفة بحالهم، وبما تضمره نُفوسهم، كيف لا؟ وهو يُنبِّئهم بما يأكلون وما يدَّخرون في بُيوتهم، فجدير هُنا أن يُحِسَّ بما تضمره قُلوبهم من العداء للدعوة التي أتى بها... فَعَلِمَ منهم ما تُخبِّئُهُ قُلوبهم من مكر التَّنكيل بالرَّسالة، وأحسَّ بمكرهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٥٤﴾ [آل عمران: 54]. كما سيأتي في استكمال المشهد ووصفه؛ إذ كان الأمر محفوفًا بالمكر والإعداد لإنهاء أمر الدّعوة إلى اللّٰه سبحانه.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٥٣﴾ [آل عمران: 53]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التَّضرّعُ إلى الله والإيمان به وبرسله وكتبه؛ صِفةُ أهل التَّوحيد:

تعظيم الله والأدب معه، بعد الأدب مع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ

في الآية عَرْضٌ لحَالِ الحوارييِّن على الله تعالى بعد عَرضِها على عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ استمطارًا لسحائب إجابة دعائهم، وقِيل: مُبالغة في إظهار أَمْرِهِم[1]. ولمّا أجاب الحواريّون رسولهم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قاصرين أنفسهم على نصرته، معلّلين ذلك بإيمانهم باللّه، وأشهدوا بانقيادهم أدبًا معه، ترقّوا إلى المرسِلِ سبحانه في خطابهم إعظامًا للأمر، وزيادة في التّأكيد، وتثبيتا لأنفسهم، واستعانة به سبحانه، مسقطين لأداة النّداء، استحضارًا لعظمته بالقرب لمزيد القدرة وترجّي منزلة أهل الحبّ، فقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ﴾[2]، وحيث إنّ العقائد والأخبار والقصص، لا تتغيّر؛ وأنّ الّذي يتغيّر هو الأحكام الّتي تضبط حركة الحياة، في كلّ عصر ومصر، ومع تجدّد الدّين، بإرسال رسل تترى بعضها من بعد بعض، كان إعلان الحواريين هو إعلانًا للإيمان بما أُنزل سلفًا على عيسى ابن مريم من عقائد، وبما جاء به المسيح من أحكام وتشريعات[3].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿رَبَّنَآ﴾: أَصلُ الرَّبِّ: إِصْلَاحُ الشَّيْءِ، أو: لُزُومُ الشيء وَالقِيَامُ عَلَيْهِ وضَمُّ بَعضِهِ إلى بعض في تَجَمُّع وتَمَاسُك من أَجلِ الإصلاحِ

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/170.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/418، والبقاعيّ أيضًا، دلالة البرهان القويم: 3/1042.

(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ (الخواطر): 3/1492.

أو الانتفاع[1]، ويطلق الرَّبُّ على المربّي، والمالك، والمدبِّر، والقيِّم، والمُنْعِم، والسَّيِّد، والمُصلِح[2]، "والرّبُّ في الأصل التّربيّةُ، وهُو إنشاءُ الشّيء حالًا فحالًا، إلى حدّ التّمام، يُقال: ربّه وربّاه وربّبه، وقيل: (لأَنْ يَرُبَّنِي رجلٌ من قريش، أحبُّ إليّ منْ أنْ يَرُبَّني رجلٌ من هوازن)، فالرّبُّ مصدرٌ مستعارٌ للفاعل"[3]، والرَّبُّ عند الإطلاق هُوَ اللّه تبَارك وتَعالى، إذ تجتمع فيه كلّ هذه المعاني وغيرها[4].

2) ﴿ءَامَنَّا﴾: الإيمانُ: التَّصديق، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ [يوسف: 17] أي: بمُصَدِّق[5]، ويعرّف بأنّه "إذعانُ النّفس للحقّ على سبيل التّصديق، وذلك باجتماع ثلاثة أشياء، تحقيق بالقلب، وإقرار باللّسان، وعملٌ بحسب ذلك بالجوارح ... ويقال لكلّ واحد من الاعتقاد والقول الصّدق، والعمل الصّالح، إيمانٌ"[6].

3) ﴿أَنزَلۡتَ﴾: النُّزُولُ في الأصل هو هبوطٌ وانحِطَاطٌ منْ عُلُوٍّ، يقال: نَزَلَ في مكان كذا: حَطَّ رَحْلَهُ فيه، وأَنْزَلَهُ غيرُهُ[7]، "ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٢٩﴾ [المؤمنون: 29]، ونزل بكذا وأنزله بمعنى، وإنزال اللّه نعمه ونقمه على الخلق: إعطاؤهم إيّاها، وذلك إمّا بإنزال الشّيء نفسه كإنزال القرآن، وإمّا بإنزال أسبابه والهداية إليه، كإنزال الحديد واللّباس، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الكهف: 1]، و﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ﴾ [الحديد: 25] "[8].

4) ﴿وَٱتَّبَعۡنَا﴾: الاتبّاع: التُّلُوُّ وَالْقَفْوُ، يُقَال: تَبِعَ فلَانٌ فلَانًا واتَّبَعَهُ: قفا أثره، " وذلك تارة بالارتسام والائتمار، وعلى ذلك: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨﴾ [البقرة: 38]، وقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ربّ)، جبل، المعجم الاشتقاقي: (ربب، ربرب).
(2) ابن منظور، لسان العرب، الزبيدي، تاج العروس: (ربب)، جبل، المعجم الاشتقاقي: (ربب - ربرب).
(3) الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (ربّ).
(4) الخليل، العين، الأزهري، تهذيب اللّغة: (ربّ)، ابن منظور، لسان العرب، الزّبيديّ، تاج العروس: (ربب)، جبل، المعجم الاشتقاقي: (ربب، ربرب).
(5) الخليل، العين، والجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمن).
(6) سميح عاطف الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (أمن).
(7) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نزل).
(8) الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (نزل).

﴿٢١﴾ [يس: 20- 21][1]. والاتِّباع: أَن يسيرَ الرَّجل وَأَنت تسير وَرَاءَه[2]، والمعنى واتّبعنا الرّسول عيسى ابن مريم، فاكتبنا مع الشّاهدين الّذين يشهدون لأنبيائك بالصّدق[3].

5) ﴿ٱلرَّسُولَ﴾: هو: المَبعوثُ الَّذِي يُتَابع أَخْبَار الَّذِي بَعثَه؛ مأْخوذٌ من قَوْلِهِم: جَاءَت الإبلُ رَسلًا، أَي: مُتتابِعَة في سَيرِها وانبعاثِها، والرَّسْلُ والإرسالُ: الِانْبعَاثِ وَالِامْتِدَادِ[4]، والرّسول يقال للواحد نحو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التّوبة: 128]، والجمع، نحو قوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الشّعراء: 16]، ويذكر أنّ رسول اللّه تارة يراد به الملائكة، كقوله: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ [هود: 81]، وتارة يراد به الأنبياء، كقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام: 48][5].

6) ﴿فَٱكْتُبْنَا﴾: أصل الكتب والكتابة جَمْعُ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ وإلصاقُه بدقّة وقُوّة، وسُمِّيت الكتابة كتابة لضمّ الحروف بعضها إلى بعضٍ، والأصلُ في الكتابة النَّظم بالخَطِّ، وفي المقال النَّظم باللَّفظ. ومعنى ﴿فَٱكْتُبْنَا﴾ أَثبتنا معهم وأدخلنا في زُمرتهم[6].

7) ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: شَهِدَ: كلمة تَدُلُّ عَلَى حُضُورٍ وَعِلْمٍ وَإِعْلَامٍ، والمشاهَدَةُ: المعاينةُ، وشَهِدَهُ شُهُودًا: أي حَضَرَه، فهو شَاهِدٌ، وقومٌ شُهودٌ، أي حُضورٌ[7].

الأنبياءُ وأتباعهم؛ صادقون في الإيمانِ، برآءُ من الشِّركِ

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

قال الحَواريُّونَ كذلك: رَبَّنا آمنَّا بما أَنزلتَ علَى أَلسِنَةِ رُسلِك كلّهم من الإنجيل وغيره، واتَّبعنا عيسى عليه السلام، فاجعلنا مع الشَّاهدين بالحقِّ الَّذين آمنوا بِك وبرُسُلِك[8].

(1) الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (نزل).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، الرَّاغب، مفردات ألفاظ القرآن: (تبع).
(3) الحجازيّ، التّفسير الواضح: 1/236.
(4) الأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، ابن منظور، لسان العرب: (رسل).
(5) الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (رسل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، السَّمين، عُمدة الحفَّاظ، جبل، المعجم الاشتقاقي: (كتب).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، الجوهري، الصحاح، ابن منظور، لسان العرب، جبل، المعجم الاشتقاقي: (شهد).
(8) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 8/235، جماعة من علماء التَّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 57.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

براعة الاستفتاح بلفظ ﴿رَبَّنَآ﴾ في المطلع:

إيثـار لفظ الربّ، وإضافته إلى ضميرهم اعترافٌ بالشكر، لا إخبارًا عما عليه الشيء في نفسه

صدّروا ضراعتهم إلى الله تعالى بالاعتراف الكامل بالرّبوبية، وفي الاعتراف بالربوبية إحساسٌ صادقٌ بجلال النِّعم، وتقديم شُكْر المنعِم[1]. ولذلك قالوا: ﴿رَبَّنَآ﴾ ولم يقولوا: (ربّ العِباد)؛ لأنّ الموضعَ موضعُ اعتراف وشكر، لا الإِخبار عما عليه الشيء في نفسه، فلذلك خص ﴿رَبَّنَآ﴾[2].

كمال الخضوع لله لَا يكون إلّا بالإيمان بالرّبوبية:

ثم الاعتراف بالرّبوبية الحقّ يطوي في أثنائه الاعتراف بالألوهيّة الحقّ؛ لأنّ كمال الخضوع للّه لَا يكون إلّا بالإيمان بالربوبيّة، ووراء هذا كلّه الإفراد بالعبوديّة[3].

بلاغةُ حَذف حرف النِّداء، وذِكره:

اختيار أسلوب الخطاب والنِّداءِ تربيةٌ وأدبٌ أتقنها الصّالحون

لَمَّا خاطبَ المؤمنون نبيَّ الله تعالى بأدبٍ جَمٍّ، وتَعظيم وتَبجيلٍ كاملين، ترقَّوا إلى خطاب مَن أَرسله، وهو الحقُّ سبحانه وتعالى؛ وإعظامًا للأمر، وزيادة في التَّأكيد فقالوا مُسقطين لأداة النِّداء؛ استحضارًا لعظمته بالقرب لمزيد القُدرة، وترجِّي منزلة الحُبِّ: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ﴾[4]. وهذا الأسلوب من النِّداء جاء ليُصوِّر معنى التَّضرُّع والمبالغة في عرض حالهم.

ذِكـر حرف النداء زيادة في الضَّراعة إلى الله واستجلاب رضاه

على كَثْرَة ما نُودي الرَّبُّ تعالى في القرآن لم يأتِ مسبوقًا بحرف النِّداء إلّا في مَوْضِعَيْن هما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾ [الفرقان: 30]، وفي قوله: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾ [الزُّخرف: 88]، والسِّر في إظهار حرف

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1238.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 2/586.
(3) ابو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1238.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 4/418.

النِّداء في هذين الموضعين التَّعبير عن حالة نفسيَّة أَلَمَّت بالرَّسول ﷺ، وقد أفرغ جهده في دعوة قومه وإنذارهم، فلم يزدهم ذلك إلَّا تماديًا في كُفرهم، فأطبق الهَمُّ على فؤاده، فذكر حرف النداء زيادة في الضَّراعة إلى اللّه واستجلاب رضاه[1].

المُوجبُ من تفرُّع الدُّعاء على دُعاءٍ آخر:

يَقْتَضِي التَّفريعُ زيادةَ فَضْلِ الشَّاهِدِينَ عَلَى فَضْلِ الحَوَارِيِّينَ؛ لِأَنَّهُم هُمُ الْمَخْصُوصُونَ بِأَدَاءِ الشَّهَادَةِ

قوله: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾ من كلام الْحواريِّينَ، ثمَّ فَرَّعُوا على ذلكَ الدُّعاء دُعاءً بأنْ يَجعلَهُمُ اللّه مع الشَّاهدِين، أي مع الَّذينَ شَهدوا لِرُسُلِ اللّه بِالتَّبليغِ وبالصِّدْقِ[2]؛ وَهَذَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ لِلشَّاهِدِينَ فَضْلٌ يَزِيدُ عَلَى فَضْلِ الْحَوَارِيِّينَ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الْمَخْصُوصُونَ بِأَدَاءِ الشَّهَادَةِ، قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾ [البَقَرَة: 143][3]. وإنَّما طلبوا شهادته بإسلامهم؛ تأكيدًا لإيمانهم؛ لأنّ الرُّسُل يشهدون يوم القيامة لقومهم وعليهم[4].

التَّصوير النَّفسي لحال الحواريِّن في الآية:

وصفُ الحالِ كمالُ الإيمان، وتمامُ الانقياد، وتشوّف إلى صحبة الشاهدين

صوَّرتِ الآيةُ حالَ الحواريين من خلال أُسلوب تأكيد الخبر باسميَّة الجملة ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾، وكذلك من خلال التَّشريك بالعَطف بين ﴿ءَامَنَّا﴾ ﴿وَٱتَّبَعْنَا﴾؛ لاتحاد الجملتين في الخبريَّة.

مواضع الإعماء في الآية:

جاء الإعماء في ثلاثة مواضع من الآية الكريمة:

الأوَّل: في قوله تعالى: ﴿بِمَآ أَنزَلْتَ﴾، نجد أنَّ (ما) الموصولة قد دَلَّت على العُموم، إذ بيَّنت عُمومَ إيمانهم بكلِّ ما أنزله اللّه ﷻ، من كُتبٍ سماويَّة وأحكامٍ شرعيَّة، وما فيها من حلالٍ وحرامٍ.

(1) بدوي، من بلاغة القرآن، ص: 131.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/256.
(3) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 8/235.
(4) الطِّيبي، فتوح الغيب: 4/118.

والثَّاني: في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ﴾ أي: عيسى، فحَذۡفُ المتعلِّق مُشعرٌ بالتَّعميم، أي: اتَّبعناه في كلِّ ما يأتي به[1].

والثَّالث: في قوله تعالى ﴿مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ للرَّسولِ بتبليغ الدَّعوة، وعلى قومه بما كان منهم من الكُفر والجُحود، فحذف معمول الشَّاهدين؛ ليعمَّ المشهود لهم والمشهود عليهم[2]. وفائدة الإعمام في الثلاثة إطلاقُ معاني أفعالها استغراقًا لتفصيلاتها.

الإعمامُ إطلاقٌ لحقيقة الإيمان والإتّباع والشّهادة، واستغراقٌ لتفاصيلها

سرّ تقديم الإيمان على الاتّباع:

أردف الإيمان بذكر الاتّباع في قوله: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ﴾؛ لأنّ العِلم الصحيح يستلزم العمل، والعِلم الذي لا أثر له في العمل يشبه أن يكون مجملًا وناقصًا لا يقينًا وإيمانًا، وكثيرًا ما يظنُّ الإنسان أنه عالم بشيء حتى إذا حاول العمل به لم يحسنه فيتبين له أنه كان مخطئًا في دعوى العلم. فالعلم بالشيء يظل مجملًا مبهمًا في النفس حتى يعمل به صاحبه فيكون بالعمل تفصيليا، فذكر الحواريين الأتباع بعد الإيمان يفيد أن إيمانهم كان في مرتبة اليقين التفصيلي الحاكم على النفس المصرّف لها في العمل[3].

ذكر الحواريون الاتّباع بعد الإيمان يفيد أنّ إيمانهم كان في مرتبة اليقين التفصيلي الحاكم على النفس المصرِّف لها في العمل

دلالةُ العَطف بالفاء في الفاصلة:

جاء طلب كتابتهم مع الشاهدين في قوله تعالى ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ معطوفًا بالفاء؛ وذلك لما تظهره الفاء من سرعة الكتابة دُونما تأخير؛ لأنَّهم آمنوا بما أنزل واتَّبعوا الرَّسول فجزاء ذلك السَّرعة في كتابتهم مع الشَّاهدين لسرعة استجابتهم، وهذا ترتيبٌ طَبعي، فالنَّفس تميلُ إلى استعجال الخير[4].

وجه العطف بالفاء طلبُهم سرعةَ كتابتِهم من الشاهدين

(1) القنوجي، فتحُ البيان: 2/245.
(2) رضا، تفسير المنار: 3/259.
(3) رضا، تفسير المنار: 3/259.
(4) اللحياني، الدُّعاء في القرآن الكريم، ص: 213.

وجه الكناية تثبيتهم على الإيمان في الخاتمة، وانضمامهم إلى الصَّالحين

في انتقاء لفظ الكتابة دليلٌ على شِدَّة حرصهم أن يكونوا في عِداد الصَّالحين

فائدة الاستعارة تشريفهم بالشهادة، وترسيخ يقينهم

بلاغة الكناية في لفظة الكتابة:

لفظ الكتابة في الآية كنايةٌ عن تثبيتهم على الإيمان في الخاتمة، والمُراد: اجعل ذلك وقَدِّرْهُ لنا في صحائف الأَزَل، أو أدخلنا في عداد أتباعهم، فهو كناية عن الانضمام إلى الصَّالحين[1].

وفي اختيار الفعل (اكْتُبْ) بما فيه من معاني الإلصاق والتثبيت[2]، دلالة على شِدَّة حِرصهم أن يكونوا في عِداد الصَّالحين ومن جملتهم، وذلك بتثبيت أسمائهم معهم عن طريق الكتابة؛ لأنَّها وسيلة التَّوثيق في العهود والمكاتبات[3].فـ" الكتابة تقيّد وتضبط ما يحتاج إلى تحقيقه وعلمه في ثاني حال"[4].

بلاغة الاستعارة في لفظ الشّهادة:

الشاهد: هو المخبر عن الشيء مشاهدة: إما حسًّا، أو عقلًا، مبينًا حكمه، وأنه استعير للشهادة في الأحكام، والشاهدون ها هنا هم الذين على طريقة من قال فيهم: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: 143][5]. وفي الاستعارة مزيدُ تشريفٍ لهم، وطمأنينة ويقين لهم وللمؤمنين.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الرَّبّ)، و(الإله)، ولفظ الجلالة (الله):

الرَّبُّ: هو الَّذي أنشَأ الشَّيْءَ حالًا فحالًا إلى حَدِّ التَّمام، أو قامَ على إصلاحِ شُؤونِه وتَوَلَّى أمرَه بانتظام، وهو لا يُطْلَقُ غيرَ مُضافٍ إلَّا على اللّهِ تعالى، وإذا أُطلق على غيرِه أُضِيفَ، كربِّ الإبل ورَبِّ الدَّارِ؛ أي: مالكها، فالرَّبُّ سبحانه هو المُتكفِّل بالخلائق أجمعين، إيجادًا وإمدادًا ورعايةً، وغير ذلك[6].أمّا الإلهُ: فمن أسماء الأجناس،

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 3/29.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (كتب).
(3) اللّحياني، الدُّعاء في القرآن الكريم، ص: 314.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/495.
(5) الراغب، تفسير الراغب: 2/586.
(6) الرَّاغبُ، المفردات، ص: 336، ابن الأثير، النّهاية: 2/179.

كالرَّجل والفَرَس، يقعُ على كلِّ معبودٍ بحقٍّ أو باطلٍ[1]، وهو الَّذي تألهُهُ القُلُوبُ محبَّةً، وإجلالًا، وإنابةً، وإكرامًا، وتعظيمًا، وذلًّا، وخضوعًا، وخوفًا، ورجاءً، وتَوكُّلًا[2]. وأمَّا لفظ الجلالة (اللّه) فمختصٌّ بالـمَعبود بحقٍّ، لا يُطلق على غيره[3]. واختيار القرآن على لسان الحواريين ﴿رَبَّنَآ﴾ بدل (إِلَهَنَا) أو (اللّه) لاستدرار عطاء اللّه المفهوم من معنى الرّبوبيّة عامّة، والّذي دَعَوْا به خاصّة.

الإيمان والإسلام:

الإيمان: التّصديق، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: 17] أي: بمُصَدِّق[4]، وهو العِبادات القلبيَّة، كالإيمان باللّه واليوم الآخر، والإخلاص للّه ومحبته سبحانه وتعالى، والتَّوبة من الذُّنوب، والخشوع في الصَّلاة. وأمَّا الإسلام فيُقَال: فلانٌ مُسْلِم، أي: مُنْقَادٌ لأمر اللّه، مُخلِص له العبادةَ، وهو مرتبط بالعبادات الظَّاهرة كقراءة القرآن، وأداء الصَّلاة، وحجِّ البيت، وغير ذلك[5]. واختيار القرآن على لسان الحواريين ﴿ءَامَنَّا﴾ بدل (أَسلَمنَا) لإخبارهم بما وقر في قلوبهم ممّا لا يطّلع عليه أحد، حتّى يجتمع لهم صلاح الباطن بإخبارهم مع صلاح الظّاهر بعملهم الظّاهر، "وَاخْتلف أهل الْعلم فِي الْإِيمَان وَالْإِسْلَام، قَالَ بَعضهم: هما وَاحِد، وَفرّق بَعضهم بَينهمَا. وَفِي بعض الْأَخْبَار عَن النَّبِي قَالَ: «الْإِسْلَام عَلَانيَة، وَالْإِيمَان فِي الْقلب»[6]، وَعَن الزّهريّ: الْإِسْلَام هُوَ الْكَلِمَة، وَالْإِيمَان الْعَمَل. وَفِي خبر جِبْرِيل – صلوَات اللّه عَلَيْهِ– حَيْثُ جَاءَ يسْأَل عَن الْإِسْلَام وَالْإِيمَان، وَفرق الرَّسُول بَينهمَا، فَجعل الْإِسْلَام هُوَ الْأَعْمَال الظَّاهِرَة، وَالْإِيمَان هُوَ التَّصْدِيق الْبَاطِن "[7].

(أنزلَ) و(نَزَّل):

الإنزال يأتي عامًّا في نقل الشَّيء من عُلوٍّ إلى سُفل[8]، أمَّا التَّنزيل فليس على إطلاقه؛

(1) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/6.
(2) ابن القيّم، مدارج السَّالكين: 1/417.
(3) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/6.
(4) الخليل، العين: (أمن).
(5) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (سلم).
(6) الإمام أحمد، المسند، الحديث رقم: (12716)، والألباني، ضعيف الجامع الصغير، الحديث رقم: (5088).
(7) ا السّمعانّي، تفسير القرآن: 5/230.
(8) المناوي، التَّوقيف، ص: 64.

إذ حقيقة التَّنزيل في اللُّغة هو ترتيب الشَّيء، ووضعه منزِلَه[1]. فالهمزة في الإنزال للتَّعدية، أمَّا التَّنزيل فالتَّضعيف فيه للتَّعدية؛ وزاد التَّضعيف معنى التَّكرير.

واختيار القرآن على لسان الحواريين ﴿أَنزَلْتَ﴾، بدل (نَزَّلْتَ)، ليشمل كُلَّ أنواع الإنزال، وصوره، وأزمانه، وأماكنه، بخلاف (نَزَّلْتَ)، فيكون إيمانهم بكلِّ وحي اللّه المنزل.

الإلحاق والاتِّباع:

الاتِّباع: لحُوق الشيء بمتقدِّم أو سابقٍ بلا فصلٍ، مع رِقَّةٍ ولين. ومنه: تَبِعَ الشَّيءَ: سارَ في أَثَره. واتَّبعه وأتْبعه وتَتَبَّعه: قَفَاه، كأنَّما لَحِقَ أو التصقَ به، وتَطَلَّبه متَّبعًا له[2]. والإلحاق: إدراك الشَّيء شيئًا كان يَسبقه مُتَّصلًا بأثنائه؛ كالبلح الأخضر في النَّخلة بعد أن تُتَمِّر، والثَّمر بعد الثَّمر، وَأَلحاقُ الكتاب مُتَّصلة بأثنائه[3]، واختيار القرآن على لسان الحواريين ﴿وَٱتَّبَعْنَا﴾ بدل (لَحقنا) أو (التقينا)، يدلّ على أنّ المتبوعَ أهلُ فضل وسبق، وأنّ التابع فيه لين ورِقَّةٌ وحسن خلق، وأنّ التّابع متّصل بالمتبوع، لا ينفصل عنه، وهذا لا يدلُّ عليه "لَحِقْنَا" أو "اَلْتَحَقْنَا".

الرَّسول والنَّبيّ:

أَن النَّبِيَّ لا يكون إِلَّا صَاحب مُعْجزَة، وَقد يكون الرَّسُول رَسُولًا لغير اللّه تعالى فلَا يكُون صَاحب مُعْجزَة. والنُّبوّة يغلب عليها الإضافة إلى النَّبي، فَيُقَال: نبوَّة النَّبي؛ لِأَنَّهُ يسْتَحقّ مِنها الصِّفة، والرِّسالة تُضَاف إِلَى اللّه؛ لِأَنَّهُ الـمُرْسِل بهَا؛ وَلِهَذَا قال: برسالاتي، وَلم يقل: بنبوّتي. والرِّسالة جملَة من البَيَان يحملهَا القائم بهَا ليؤدّيها إِلَى غيره. والنُّبوّة تَكْلِيف القيام بالرِّسالة[4].واختيار القرآن على لسان الحواريين ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ بدل (النّبيّ) في دعائهم اللّه تعالى يدلّ على تعظيمهم اللّه بنسبة الرّسول إلى المرسل في المعنى، إذ التّقدير: (واتّبعنا رسولك الّذي أرسلته)، ولهذا توجّهواْ بالخطاب إلى اللّه تعالى، بعد خطابهم عيسى عليه السلام.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نزل).

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (تبع).

(3) المصدر نفسه: (لحق).

(4) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 289.

﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٥٤﴾ [آل عمران: 54]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إثبات صفة المكر لله تعالى على ما يليق بجلاله وكماله

مناسبة هذه الآية مُرتبط بمكر كُفَّار بني إسرائيل الَّذين أحسَّ عيسى مِنهمُ الكُفر وهمُّوا بقتله، وجمعوا جموعَهُم للفَتْك به، فأبطل اللّه مَكرَهُم، فلم ينجحوا فيما دبّروا[1]. أو: لمّا ذكر اللّه تعالى أولياءَه أتبعهُمْ أعداءَهُ[2] على طريقة القرآن في ذكر المتقابلات، "وسمّي مكراً من باب المشاكلة، ولهذا قال ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾، أي أقواهم مكرًا، بحيث جعل تدميرهم في تدبيرهم".

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَمَكَرُواْ﴾ ﴿وَمَكَرَ﴾: من المكر وهو السَّتْرُ، يُقال: مَكَرَ اللَّيلُ: أي أَظْلَمَ، وسَتَر بظلمته ما فيه، واشتقاقُه من المَكْر، وهو شجر ملتفٌّ، ينتج عن التفافه ظلمة، تخيَّلوا فيه أنَّ المكرَ يلتفُّ بالممكورِ به، ويشتمل عليه، ثم أُطْلِقَ المَكْرُ على الخُبْث والخِداع، ومعناه: اختزانٌ رَقِيقٌ أو لَطِيفٌ، ومنه المكر المعروف، وعرّفه الخليل بأنّه احتيال في خُفْيَةٍ، وابن سيده بأنّه خديعة واحتيال، والرّاغب بأنّه صَرْفُ الغَير عمّا يقصِده بحيلة.

والأوفق نظرًا إلى الاستعمالات الحسيّة، أنّ المكر: تَدْبيرٌ يُخْفَى ويُخْتَزَن لأَحْداثٍ أو أُمور، لتقع في المستقبل على نحو ما، فاختزان هذه الخطوات المعَدَّة للمستقبل، هو المكر[3]، ومعنى خَيْرُ المَاكِرِينَ: أقواهم مَكْرًا، وأنفذُهم كيدًا، وأقدرُهُم على إيصال الأثر من حيثُ

---

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 1/442، الرَّازي، مفاتيح الغيب: 8/231، وحجازي، التَّفسير الواضح: 1/236.
(2) البقاعيُّ، دلالة البرهان القويم: 3/1043.
(3) الرَّاغبُ، المفردات، جبل، المعجم الاشتقاقي: (مكر).

لَا يحتسب[1]، ومَكْرُ بني إسرائيل: أنّهم وكّلواْ به من يقتله غيلة، وَمَكْرُ اللَّهِ: أن رفع عيسى إلى السّماء، وألقى شَبَهَهُ على من أراد اغتياله حتّى قتل بدلا عنه، وظنّ القوم أنّهم قتلوه[2]، ومن اللّطائف، ما ذكره صاحب البحر المحيط، قال: سأل رجل الجنيد، فقال: كيف رضي اللّه سبحانه لنفسه المكر، وقد عاب به غيره؟ فقال: لا أدري ما تقول، ولكن أنشدني فلان الظّهرانيّ:

وَيَقْبُحُ مِنْ سِوَاكَ الْفِعْلُ عِنْدِي *** فَتَفْعَلُهُ فَيَحْسُنُ مِنْكَ ذَاكَا

ثمّ قال: قد أجبتك إن كنت تعقل[3].

المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

مَكْرُ الله بكفرة بني إسرائيل، رَدٌّ لِكَيْدِهِمْ في نُحُورِهِمْ

لقد مَكَرَ الكافرُونَ من بني إسرائيل، إذ سَعَواْ في قَتْلِ عيسى عليه السلام، فمَكَرَ اللّه بهم فتركهم في ضَلالهم، وألقى شَبَهَ عيسى عليه السلام على رَجُلٍ آخر، فنجاه من مكرهم، وتركهم في ضَلالهم، واللّه خيرُ الماكرين؛ لأنَّه لا أشدّ ولا أعظم ولا أخفى من مكرِه تعالى بأعدائه[4]، "فقد طفقوا يكيدون له ويمكرون، في تلفيق شيء يحاربون به دعوته، لكنّ اللّه أبطل كيدهم، فلم ينجحواْ، واللّه أحكم المدبِّرين وأقواهم"[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالـةُ العَطْفِ والإضـمـار في قوله: (ومكروا)

تَنَوُّع الأساليب في كَشْفِ مَكْرِ بني إسرائيل:

هو عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾ [آل عمران: 52]، وهُم كفّارُ بني إسرائيل الّذين أحسَّ منهم الكُفْرَ والغَدْرَ والمَكرَ[6].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/43، والطِّيبي، فتوح الغيب: 4/118.
(2) الأبياري، الموسوعة القرآنية: 9/229.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط في التّفسير: 3/175.
(4) المجاشعي، النُّكت في القرآن الكريم، ص: 179، الرَّازي، مفاتيح الغيب: 8/238، جماعة من علماء التَّفسير، المختصر في تفسير القرآن، ص: 75.
(5) القطّان، تيسير التّفسير: 1/197.
(6) الطِّيبي، فتوح الغيب: 4/118، ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/256.

وأمَّا ضَمِير ﴿وَمَكَرُواْ﴾ فعَائِدٌ إِلَى مَا عَادَ إِلَيْهِ ضَمِيرُ ﴿مِنۡهُمُ﴾ [آل عمران: 52]، وَهُمُ اليَهُودُ. وَقَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ﴾ [الصَّف: 14][1].

دَورُ المشاكلة في تَوسيع المعنى

مَكْرُ اليَهودِ هُوَ تَدْبيرُهم لأَخْذِ المَسِيحِ، وَسَعْيُهُمْ لَدَى وُلَاةِ الأُمُورِ لِيُمَكِّنُوهُمْ مِنْ قَتْلِهِ. وَمَكْرُ اللَّهِ بِهِمْ هُوَ تَمْثِيلٌ لِإِبْطَالِ اللَّهِ تَعَالَى مَسَاعِيَهُمْ فِي حَالِ ظَنِّهِمْ أَنْ قَدْ نَجَحَتْ مَسَاعِيهِمْ، وَهُوَ هُنَا مُشَاكَلَةٌ[2]، كما جَازَ إِطْلَاقُ المَكْرِ عَلَى فِعْلِ اللَّهِ تَعَالَى دُونَ مُشَاكَلَةٍ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩٩﴾ [الأعراف: 99][3].

ترتيبُ المَكرِ على الشّرط:

علّة مكر الله تعالى مجازاتهم على مكرهم

ترتيبُ المكر على الشَّرط في الآيتين السّابقتين يُفهم منه أنَّهم لمَّا علموا إحساسه بمكرهم خافوا غائلته فأعملوا الحِيلةَ في قَتْلِه، ثمَّ إنَّ مَكرهمْ تلاشى واضْمَحَلَّ بقوله: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾، أي: المحيط بكلِّ شيءٍ قُدْرَةً وعِلمًا[4]. فقوله ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾: "مجازاتهم على مكرهم سمّى ذلك مكرًا؛ لأنَّ المجازاة لهم ناشئة عن المكر"[5].

بلاغة الجناس، وردُّ الفاصلة على الصدر:

الجناس والردّ أكسبا التعبير جمالًا وحسنًا، وأحدثا ميلًا للنفس نحو التشوّق والإصغاء

وقد وقعَ في هذا التَّرتيب جناس اشتقاقٍ، فقد جانس بين لفظي ﴿وَمَكَرُواْ﴾ و﴿ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾، فَهُم أرادوا قتلَهُ فنجَّاه اللّه من شَرِّهم، واللّه أقوى مَكْرًا بحيث جعل تدميرهم في تدبيرهم. كما وقع فيه بين الكلمتين ردُّ للعجز على الصدر؛ إذ وافقت كلمة ﴿ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ وهي آخر كلمة في الكلام أوّل كلمة في صدره وهي ﴿وَمَكَرُواْ﴾. وهذان

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/257.

(2) المشاكلة: ذكرُ الشيَّء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/257.

(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 4/418.

(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/495.

أكسبا التعبير جمالًا وحسنًا، وأحدثا ميلًا للنفس نحو التشوّق والإصغاء إلى المَكْرين، وطبيعتهما.

لفظ (المكر) بين الحقيقة، والمجاز المرسل:

المكر على الحقيقة التدبيرُ فيما يضرُّ الخصمَ، وعلى المجازِ العقوبةُ

قال القزويني: "تجوّز بلفظ المكر عن عقوبته؛ لأنه سببها.

قيل: ويحتمل أن يكون مكر اللّه حقيقة؛ لأن المكر هو التدبير فيما يضرّ الخصم وهذا محقّق من اللّه تعالى باستدراجه إيّاهم بنعمه مع ما أعدّ لهم من نقمة"[1]. ففي لفظ (المكر) مجازٌ مُرسل، ذَكر السَّببَ (المكر) وأراد ما يتسبَّب عنه من (العقوبة)، فالعلاقةُ سَببيَّة[2]. ويحتمل أن يكونَ مَكر اللّه حقيقة؛ لأنَّ المكر هو التَّدبير فيما يضرُّ الخَصْم، وهذا مُحَقَّقٌ مِنَ اللّه تعالى باستدراجه إيَّاهم بنعمه مع ما أعدَّ لهم من نقمه[3]. وذهب ابنُ عطيَّة الى أنَّ الفعل الثَّاني من اللّه مجازٌ، وأن الأوَّل حقيقةٌ[4].

الدَّلالةُ القرآنيَّة للفظة (المَكر):

المَكرُ على إطلاقه لا يُعدُّ سوءًا؛ فمكر الله خيرٌ محضٌ، وصِفَةُ عَدْلٍ وكَمالٍ

المكْر كما يظهر من عبارات القرآن: هو التَّدبير الَّذي يجتهد صاحبه في إخفائه عمَّن يمكر به؛ ولذا نُسب المكر إلى اللّه تعالى، ولا يمكن أن يكون عمل اللّه تعالى إلَّا خيرًا؛ ولذا ذَكَر المكرَ موصوفًا بالسُّوء في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ [فاطر: 43]، فدلَّ هذا على أن مُطلق المكر لا يُعدُّ سوءًا، فمَكْر الفجَّار لإيذاء الأبرار لَا يمكن أن يكون خيرًا، ومَكْر اللّه تعالى لإحباط تدبير الأشرار لَا يتصوَّر إلَّا أن يكون خيرًا[5]، فَإِنْ كَانَ فِي المَكْرِ قُبْحٌ فَمَكْرُ

(1) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: ص 257.
(2) د.قاسم، علوم البلاغة، ص: 218.
(3) الصَّعيدي، بغيةُ الإيضاح: 3/467.
(4) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 3/432، الزُّحيليّ، التَّفسير المنير: 14/274.
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1240.

اللَّه خَيْرٌ مَحْضٌ، وَلَكَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ أَنْ تَجْعَلَ ﴿خَيۡرُ﴾ في الآية بِمَعْنَى التَّفْضِيلِ وَبِدُونِه[1].

أو المرادُ بمَكْرِ اللّه: عقوبته؛ وأُضيف إلى اللّه لَمَّا كان عقوبة الذَّنْب، فإن العرب تُسمِّي العقوبة على أي جهة كانت باسم الذَّنب الذي وقعت عليه العُقوبة[2].

بلاغة اظهار اسم الله الأعظم:

وجـه الإظـهـار زيـادة العَظَمَة وتـربـيـة المهابة وتأكيد المعنى

أَظهر لفظ الجلالة، وكرّره في قوله: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ ولم يُضمر؛ لزيادة العَظَمَة وتربية المهابة وتأكيد المعنى، فلم يَقُل: ومَكَرَ اللّه وهو خَيرُ الماكرين؛ لئلَّا يُفهم الإضمار خُصوصًا من جهة ما، فقال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ الَّذي له هذا الاسم الشَّريف فلم يُشارِكْهُ فيه أحدٌ بوجهٍ[3].

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المَكْر والكَيْد:

المَكْرُ: إعمالُ الخَديعة والاحتيال، في هدم بناءٍ ظاهرٍ كالدُّنيا، والكيدُ إعمال الخُدعة والاحتيال في هدم بناءٍ باطِنٍ كالتَّديُّنِ والتَّخلُّقِ وغير ذلك، فالمكر خديعة حسّ، والكيد خديعة معنى[4]، والمكرُ مِثل الكيد فِي أَنّه لَا يكون إِلَّا مَعَ تَدَبُّرٍ وفِكْرٍ، إِلَّا أَنَّ الكيد أقوى من المَكْر، وَالشَّاهِد أَنَّه يتَعَدَّى بِنَفسِه، وَالمَكْر يتَعَدَّى بحرفٍ، فَيُقَالُ: كادَهُ يكيده، ومَكَرَ بِهِ، وَلَا يُقَال: مَكَرَهُ. وَالَّذِي يتَعَدَّى بِنَفسِه أَقوى[5]، وهذا يعبّر عنه قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ﴾ [الرعد: 42] أي: مكره ينقض مكرهم ويمنعه، وكيده يفسخ كيدهم[6].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/256.
(2) السَّمين، الدُّر المصون: 5/393.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 4/418.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 4/419.
(5) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 259.
(6) الماتريديّ، (تأويلات أهل السّنة): 6/62.

﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٥٥﴾ [آل عمران: 55]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

رفعُ عيسى عليه السلام عنايةٌ مِن الله تعالى، وردٌّ لكيد الكافرين:

بيان مكر الله بهم

الآيةُ تحكي أمر رَفْعِ المَسيحِ وَإِخْفَائِهِ عَنْ أَنْظَارِ أَعْدَائِهِ، بعد أن قَدَّمَ الله تعالى في خِطَابِهِ إِعْلَامَهُ بِذَلِكَ اسْتِئْنَاسًا لَهُ، إِذْ لَمْ يَتِمَّ مَا يَرْغَبُهُ مِنْ هِدَايَةِ قَوْمِهِ، مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ يُحِبُّ لِقَاءَ اللَّهِ وَتَبْشِيرًا لَهُ بِأَنَّ اللَّهَ مُظْهِرُ دِينَهُ؛ لِأَنَّ غَايَةَ هَمِّ الرَّسُولِ هُوَ الْهُدَى وَإِبْلَاغُ الشَّرِيعَةِ[1]، وقد أحسّ عيسى من بني إسرائيل الكفر، والتّبييت، والتّآمر لقتله، فطمأن اللّه عيسى إلى نهاية المعركة[2]، وأنّ تلك سنّته في نصرة عباده، وحماية أوليائه الصّالحين.

وفي الآية بيان مكر اللّه تعالى بهم في الدّنيا والآخرة، وتفصيل ذلك إثر ذكر مكر اللّه بهم في الآية السّابقة، على سبيل الإجمال، وما ذكرت تفاصيله تفريعًا، كان أمعن في التّهديد، وأبلغ في الوعيد.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾: وَفَى: كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى إِكْمَالٍ وَإِتْمَامٍ، أو تَدُلُّ عَلَى نُمُوٍّ وزيادةٍ، يبلغُ بها الشيء تَمَامَهُ، فالْوَفَاءُ: إِتْمَامُ الْعَهْدِ وَإِكْمَالُ الشَّرْطِ، وَتَوَفَّيْتُ الشَّيْءَ وَاسْتَوْفَيْتُهُ إِذَا أَخَذْتَهُ كُلَّهُ، حَتَّى لَمْ تَتْرُكْ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/257 - 258.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1500.

مِنْهُ شَيْئًا، وَمِنْهُ يُقَالُ لِلْمَيِّتِ: تَوَفَّاهُ اللّه، لأنّه استوفى ما كتبه اللّه له في حياته[1]، وفي ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ أقوال: أحدها: قابِضُكَ برفعك من الأرض إلى السّماء، غير وفاة موت. الثّاني: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ وفاة نَوْمٍ؛ لأرفعك إلى السّماء، أي: رفعه نائمًا. الثّالث: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ وفاة موت. قيل: أماته ثلاث ساعات[2]، وفي التّفسير الكبير، ذكر الرّازيّ، بأنّه يلمح أنّ " التّوفّي أخذ الشّيء وافياً، ولمّا علم اللّه أنّ من النّاس من يخطر بباله أنّ الّذي رفعه اللّه هو روحه لا جسده، ذكر هذا الكلام، ليدلّ على أنّه عليه السلام رفع بتمامه إلى السّماء بروحه وبجسده"[3]، وهو ما يشبه تعبير اللّه عن تأكيد وقوع الإسراء بالرّوح والجسد، لا بالرّوح وحدها، في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: 1]، إذ أنّ ذكر لفظ ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾، يفيد أنّ الإسراء قد كان بهما معا، لا بالرّوح وحدها كما يدّعي بعض المنكرين للحادثة.

2) ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾: الرّفع: نَقْلُ الشَّيْءِ مِن سُفلٍ إلى عُلُوٍّ بجذبه مِن أعلى أو دفعه من أسفل[4]، وقوله: إِلَيَّ، إضافةُ تشريفٍ[5]، "والرّفع يكون تارة في الأجسام الموضوعة إذا أعليتها عن مقرّها، نحو: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ﴾ [النّساء: 154]، وتارة في البناء إذا طوّلته ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ [البقرة: 127]، وتارة في الذّكر إذا نوّهته، نحو قوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشّرح: 04]، وتارة في المنزلة إذا شرّفتها، نحو قوله: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزّخرف: 32] "[6].

3) ﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾: الطُّهْرُ: نَقَاءٌ وَزَوَالُ دَنَسٍ، أو: نقاء الشيء مما يُدَنِّسُهُ أو ممَّا يُتَأَذَّى به[7]، فطهَّر اللّهُ العظيمُ نَبِيَّهُ عيسى من دعاوي الكَفَرَة ومعاشرتهم القبيحة له[8]، ومعنى ﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾: "أي مخرجك من جملتهم، ومنزّهك أن تفعل فعلهم، وعلى هذا: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، جبل، المعجم الاشتقاقي: (وفى).
(2) المجاشعي، النُّكت في القرآن، ص: 179 - 180.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/237.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (رفع).
(5) الرَّاغبُ، المفردات: 2/418.
(6) سميح عاطف الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم، مادّة: (رفع).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، جبل، المعجم الاشتقاقي: (طهر).
(8) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 1/444.

تَطۡهِيرٗا ٣٣﴾ [الأحزاب: 33] "[1]، وقوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾ [الواقعة: 79]، تعني: "أنّه لا يبلغ حقائق معرفته إلّا من طهّر نفسه، وتنقّى من درن الفساد"[2].

4) ﴿وَجَاعِلُ﴾: الجعل: تحويل الشّيء إلى وضع أو هيئة معيّنة، وهو في القرآن يكون للتّحويل والتّهيئة على وضع، أو للخلق، وهو تحويل للهيئة بإنشاء هيئة جديدة[3]، والْجَعْلُ هنا بِمَعْنَى الحُكم بالشَّيْء على الشَّيْء حَقًّا[4]، وجَعَل: أي صيّر، قال الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ﴾ [البقرة، 124][5].

5) ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾: الاتّباع: التُّلُوُّ وَالْقَفْوُ، يُقَال: تَبِعَ فلَانٌ فلَانًا واتَّبعه، وتَبِعَهُ واتَّبَعَهُ: قفاه[6]، وتارة يكون بالجِسم، نحو: تبعته في الطَّريق واتبعته فيها، وتارة بالامتثال، ومعناه في الآية الاتِّباع في الدِّين والشَّريعة، وهم المسلمون؛ لأنَّهم مُتبّعوه في أصل الإسلام، وإنِ اختلفتِ الشَّرائع[7].

6) ﴿فَوۡقَ﴾: الفَوْقُ والإِفَاقَةُ ونحوُهما: فراغٌ يعلو الشَّيْءَ أو عُلُوٌّ مع فَرَاغ[8]، وهم الّذين مكروا بعيسى عليه السلام ومن تَبِعَهُم من اليهود والنّصارى، فإنَّ أهلَ الإسلام فوقهم ظاهرين بالعِزَّة والمَنَعة والحُجَّة[9].

7) ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾: الرَّجْعُ والرُّجوعُ: تحوّلٌ عن اتِّجَاهٍ أو حَالٍ إلى عكسه بِعَوْدٍ أو رَدٍّ وتكرارٍ[10]، والمرجع: موضع الرُّجوع، أي إلى حكمي وعدلي[11]، والمعنى في الآية إليّ معادكم ومصيركم يوم يؤوب النّاس إليّ، ويجتمعون في عرصات القيامة، لاستيفاء حسابهم وجزائهم، بدقّة وعدل وإنصاف.

(1) سميح عاطف الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم، مادّة: (طهر).
(2) الزّين، المرجع السّابق، مادّة: (طهر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جعل).
(4) الكفوي، الكُلّيَّات، ص: 347.
(5) الحِمْيَرَيّ، شمس العلوم: 2/1115.
(6) الأزهري، تهذيب اللُّغة، ابن فارس، مقاييس اللّغة، الرَّاغبُ، المفردات: (تبع).
(7) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/177، السَّمين، عُمدة الحفَّاظ: 1/268.
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فوق).
(9) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/44.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (رجع).
(11) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 1/445، والسَّمين، عُمدة الحفَّاظ: 1/139.

8) ﴿فَأَحْكُمُ﴾: أصل الحكم المنع، أو: ضَبْطٌ يمنع من حدوث تسيّب أو خلل، ومن الضّبط ومنع التّسيّب الحُكْمُ: بمعنى القَضَاء، لأنّ القاضي يَضْبط أمر كلّ من الفريقين، مانعًا أن يدخل أيّ منهما على الآخر في حَقِّهِ، والحاكم: السّلطان هو من الضّبط العامّ[1]، والحكمُ مصدرُ حَكَمَ يَحكُمُ، ومعناهُ القَضاء بالشَّيء أن يكونَ كذا أو ليس كذا، فالْحُكْمُ فِيمَنْ كَفَرَ هُوَ أَنْ يُعَذِّبَه الله عَذَابًا شَدِيدًا في الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْحُكْمُ فِيمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ الصَّالِحَاتِ، فَهُوَ أَنْ يُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ[2].

9) ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾: الاختلافُ: أَن يأخذَ كُلٌّ واحدٍ طريقًا غَير طريقِ الآخر في حَالِهِ أو قَولِهِ، والِاخْتِلَافُ في الآية هُوَ أَنْ كَفَرَ قَوْمٌ وَآمَنَ آخَرُونَ[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

العنايةُ الإلهيّة بعيسى عليه السلام، بإكرامه وحفظه من مكر أعدائه:

مَكَرَ اللّه بالكافرين أيضًا حين قال مخاطبًا عيسى عليه السلام: يا عيسى، إنِّي قَابِضُك من غَير موتٍ، ورافعٌ بدَنَكَ وروحَكَ إليَّ، ومُنَزِّهُك من رِجْس الَّذين كفروا بِكَ ومُبعِدُك عنهم، وجاعل الّذين اتّبعوك على الدِّين الحقّ، ومنه الإيمان بمحمّد ﷺ، فوق الَّذين كفرواْ بك إلى يوم القيامة بالبُرهان والعِزَّةِ، ثمَّ إليَّ وحدي رجوعكم يوم القيامة، فأحكم بينكم بالحقِّ فيما كُنتم فيه تختلفون[4]، وهو تأكيدٌ منه تعالى على أنّه رافعٌ المسيح إلى محلّ كرامته، ومنجيه من أعدائه الّذين قصدواْ قتله، وجاعل المتّبعين له، الّذين لم ينحرفواْ عن دينه، ظاهرين بالقوّة والسّلطان على الّذين لم يهتدوا بهديه إلى يوم القيامة، ثمّ يكون مصيرهم إليه في الآخرة، وبذلك يقضي بينهم فيما تنازعواْ فيه[5]، من أمر الدّين، ممّا وقع فيه الاختلاف عبر التّاريخ، واللّه هو الّذي يملك الفصل في ذلك الخلاف، ويحدّد معالمه ومآلاته.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حكم).
(2) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 8/440، والسَّمين، عُمدة الحفَّاظ: (حكم).
(3) الرَّاغبُ، المفردات، ص: 295، الرَّازي، مفاتيح الغيب: 8/440.
(4) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 8/237، الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/185، جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن، ص: 57.
(5) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 79.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ نداء العَين في قوله تعالى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ﴾:

نـــداء الـعـين إشعارٌ بالتَّحبب والــتَّــقــرُّب، وترقيقٌ للكلام مع نبيِّه

نداء الله تعالى بعض أنبيائه ورسله بأسمائهم يُطلق عليه نداءُ العَين، وهو نداءٌ غرضه التَّعظيم والتَّشريف وعلوّ المنزلة والاسْتِئْنَاس، فإنَّ القرآنَ يُكَرِّم من يتوجَّه إليه بالنِّداء. وعندما ينادي عيسى باسمه المُجرَّد: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ﴾، فهذا يُشعر بالتَّحبب والتَّقرُّب؛ وبما أنَّ المناسبة هنا مناسبة وفاةٍ فلا بدَّ أن يُرَقِّقَ الكلام معه، ففي هذا الموضع لا يحتاج إلى أن يذكُر أمَّه، كما في قوله: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 110، و112، و116][1].

نكتةُ توكيد جملة التَّوفّي، والرّفع:

التأكيدُ في مَقام التَّشريف يزيدُ المخاطَبَ تشريفًا

قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ تأكيدٌ للخَبَر بـ (إنّ) واسميَّة الجُملة، وفائدته ترسيخ حصول فعل (التوفّي، والرّفع)، وإنه تعالى فاعله، فلا يشكّكنَّ أحدٌ، أو يكذّبَنَّ الخبرَ. وفيه مزيدُ تشريفٍ لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فـ"التأكيد في مقام التشريف يزيد المخاطب تشريفًا"[2].

قصديّة التعبير بلفظ التوفّي:

سعة معنى لفظ الـتـوفّي يناسب غموض طبيعة الاسـتـيـفـاء وطريقته

ظَاهِرُ مَعْنَى (التوفّي): الإماتَةُ، هَذَا هُوَ مَعْنَى هَذَا الْفِعْلِ في مَوَاقِعِ اسْتِعْمَالِهِ غالِبًا؛ لِأَنَّ أَصْلَ فِعْلِ تَوَفَّى الشَّيْءَ أَنَّهُ قَبَضَهُ تَامًّا وَاسْتَوْفَاهُ، وهو وجهٌ من وجوه تفسير اللفظة وغيرها من الوجوه كثيرٌ أوردها الرازي في تفسيره، وأشهرها الرّفع إلى السماء[3]. باختلاف ألفاظ التعبير عنه، فـ" يجوز أن يكون معنى ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾: آخذك إليّ من غير أن يصلوا منك إلى محجم دم"[4]، أو"مستوفي أجلِك ومؤخِّرُك إلى أجلك المسمَّى عاصِماً لك من قتلهم أو قابضُك من الأرض، من: توفيتُ

---

(1) الزَّركشي، البرهان: 2/228، ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/258.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/362.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/237 - 238.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 4/421.

مالي أومتوفيك نائماً"[1]. وذهب ابن عاشور إلى أنّ آيَةُ ٱلۡمَائِدَة: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [المائدة: 117]؛ تدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ تُوُفِّيَ الْوَفَاةَ الْمَعْرُوفَةَ الَّتِي تَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ عِلْمِ مَا يَقَعُ فِي الْأَرْضِ، ليرجِّحَ أَنَّهَا وَفَاةُ مَوْتٍ، ولا وجه لحمل الفعل على معنى النَّوْمِ، والرَّفْعِ[2].

وجه تفسير التوفّي على طريق التقديم والتأخير:

ترتيب الجملة أنّ التوفّي يكون بعد الرفع والإنزال في آخر الزمان

من وجوه تفسير لفظ (التوفّي) في قَوْلِهِ: ﴿مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾: التقديمُ والتأخيرُ، قالوا: إنّ قوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ يقتضي أنّه رفعه حيًّا، والواو لا تقتضي الترتيب، ففي الجملة تقديم وتأخير، والمعنى: أني رافعك إليَّ ومطهّرك من الذين كفروا، ومتوفّيك بعد إنزالي إيّاك في الدُّنيا[3].

دلالة الاستعارة التَّصريحية في لفظ التوفّي:

وجه الاستعارة تشبيه النَّومَ بالوفاة بجامع السُّكون وعدم الحركة والإدراك

إِطْلَاق التَّوَفِّي على النَّوم في قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ استعارةٌ، حيثُ شَبَّه النَّومَ بالوفاة بجامع السُّكون وعدم الحركة والإدراك في كلٍّ من النَّوم والوفاة، وحذَفَ المُشبَّه وهو النَّوم، وأبقى المُشبَّه به، وهو الوفاة على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة، وذلك على قول مَن فَسَّر التَّوَفِّي في الآية بالنوم، وفيه كناية إيمائية؛ وذلك لأنَّ عِصمة نبيّ اللّه مِن قتل الكفَّار من لوازم الموت حتف الأَنْف.

عِلّة العُدول عَنْ لَفظ (عَاصِمُكَ) إلى ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾:

كلامُ الله تعالى مظهرٌ من مظاهر عظيم قُدرَتِهِ في بيان رعايته لعبده عيسى وخِذلانه لأعدائه

عَبَّر بلفظ ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾؛ ليؤذن بعِصمة خارقة للعادة خارجة ممَّا عليه المتعارف، فإنَّ رُوحَ اللّه لـمَّا خاف مَعَرَّة الأعداء، وقَتْلَهُمْ إيَّاه قِيل له: لا تخف، فإنَّهم لن يقتلوك أبدًا ولن يصلوا إلى مُتمنّاهم[4]. فالعصمة منعٌ فَحَسْب، أمّا التوفّي فمنعٌ بفعلٍ مُعجِزٍ.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/43.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/258.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/238، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 8/238.

(4) الطِّيبي، فتوح الغيب: 4/120.

إخراجُ عيسى من بين قومه سالمًا هو تطهيرٌ من دَنَس الكافرين

بلاغة الكناية في لفظ التطهير:

لقد عَظَّمَ اللّه تعالى شَأْنَ عيسى بِلَفْظِ الرَّفْعِ إِلَيْهِ، كما أَخْبَرَ عَنْ مَعْنَى التَّخْلِيصِ بِلَفْظِ التَّطْهِيرفي قوله: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ مُبالغةً في إِعْلَاءِ شَأْنِه، وَتَعْظِيمِ مَنْصِبِه عِنْدَه تَعَالَى[1]. وجعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا دَنَسًا وَنَجَسًا فَطَهَّرَهُ مِنْهُمْ، لِأَنَّ صُحْبَةَ الْأَشْرَارِ، وخِلْطَةَ الْفُجَّارِ تَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ الدَّنَسِ في الثَّوْبِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ تَعَالَى يُخَلِّصُهُ مِنْهُمْ، فَكَنَّى عَنْ إِخْرَاجِه مِنْهُمْ وَتَخْلِيصِه بِالتَّطْهِيرِ[2]؛ فهو تطهيرٌ من كلّ رجسٍ معنويٍّ أو حسّيٍّ، ومن كل أذًى حسّيٍّ أو معنويٍّ[3].

في لفظ التّطهير رفعةٌ للمخاطَب، وتعظيمُ شأنٍ

إيثارُ لفظ التّطهير على التّخليص:

نقل أبو حيان عن أبي مسلم أنّه قال: " التَّخليص، والتَّطهير واحد، إلّا أنّ لفظ التّطهير فيه رفعة للمخاطب، كما أنَّ الشهود والحضور واحد، وفي الشهود رفعة. ولهذا ذكره اللّه في المؤمنين، وذكر الحضور والإحضار في الكافرين"[4].

في الإظهار إِشَارَةٌ إِلَى عِلَّةِ الدَّنَسِ وَالنَّجَسِ؛ وَهُوَ الْكُفْرُ

سرُّ العدول إلى الإظهار دون الإضمار:

وَأَتَى بِلَفْظِ الظَّاهِرِ لَا بِالضَّمِيرِ مُمَهِّدًا بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وَهُوَ: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ولم يقل: (منهم)؛ إِشَارَةً إِلَى عِلَّةِ الدَّنَسِ وَالنَّجَسِ؛ وَهُوَ الْكُفْرُ، وترسيخ بالموصول لكونه فيهم، كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: 28]، وَكَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لا يَنْجُسُ» ليجعلَ عِلَّةَ تَطْهِيرِهِ الْإِيمَانَ[5].

دلالةُ كاف الخطاب في لفظ: ﴿ٱتَّبَعُوكَ﴾:

الْكَافُ في قوله: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ ضَمِيرُ عِيسَى عليه السلام،

---

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 8/238.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/178.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1245.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/178.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/178، الحديث رواه البخاري، الصحيح، الحديث رقم: (285)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (371).

استحضارُ ضمير المخاطب من تلوين الخطاب

كَالْكَافِ السَّابِقَةِ في الآيةِ. وَقِيلَ: هُوَ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ مِنْ تَلْوِينِ الْخِطَابِ[1].

علّة التعبير بلفظ الفوقيّة:

الفوقيَّة روحيَّة معنويَّة بالإدراك، والإيمان، والإخلاص، والحجّة، والبرهان؛ وحسّية بالعزّة، والمنعة، والغلبة

تحتمل لفظة ﴿فَوۡقَ﴾ في قوله: ﴿فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ فوقيَّةَ الإدراك، والإيمان، والإخلاص؛ وذلك لأنَّ سبب الفوقيَّة هو الاتّباع، والمُسبّب من جنس السّبب، فالسّبب معنويٌّ روحيٌّ، فالفوقيَّة روحيَّة معنويَّة، وهو ما يُضعف فوقيَّة السيف والسِّنان، ويقويّ فوقيّة الحجة والبرهان[2]. وتحتمل فوقيّة الحجّة والسِّنان وهو ما رجّحه الزَّمخشري بقوله: "يَعلُونهم بالحُجَّة، وفي أكثر الأحوال بها، وبالسَّيف"[3]، فهي فوقيّة بالحجة، والبرهان، والعزة، والمنعة، والغلبة[4]. وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّها فَوْقِيَّة دُنْيَوِيَّة بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾[5]. فإذا انحرف المنسوبون لعيسى، وظهر الفَساد فيهم بمعاصيهم، ومخالفتهم له، لم يُستنكر تخلُّف هذا الوعد الرَّباني الكريم لتَخلُّف شَرْطِه، وعندئذٍ لم يكن هناك مانعٌ من تسليط عدوهم عليهم؛ عقوبةً لهم وتذكيرًا.

فائدةُ حَذف مُتَعَلِّق الفعل ﴿كَفَرُواْ﴾:

استغنى بالمذكور للإيجاز، ولظهور المعنى

أوجز في الخطاب بعدم ذكر مُتعلِّق الفعل ﴿كَفَرُواْ﴾؛ وذلك لِظُهُورِه، وتقديره: الَّذِينَ كَفَرُوا بِكَ وَهُمُ الْيَهُودُ؛ لِأَنَّ الْيَهُودَ مَا كَفَرُوا بِاللَّهِ بَلْ كَفَرُوا بِرِسَالَةِ عِيسَى؛ ولأنَّ عِيسَى لَمْ يُبْعَثْ لِغَيْرِهِمْ، فَتَطْهِيرُهُ لَا يُظَنُّ أَنَّهُ تَطْهِيرٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِقَرِينَةِ السِّيَاقِ[6].

---

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/178.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1245.
(3) الزَّمخشري، الكشاف: 1/367.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/179.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/260.
(6) المصدر نفسه: 3/259.

دلالة الغاية في جعل الفوقيّة:

إنّ الجَعْلَ هو المُقدَّرُ زمنُهُ إلى يوم القيامة، ولا يعني هذا تخلّص الكفرة من الذلّة

دلّت الغاية في قوله تعالى: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ﴾ على أنَّ الجَعْلَ هو المُقدَّرُ زمنُهُ في الظَّرف ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ﴾، لا على مَعْنى أنَّ الجَعْلَ أو الفوقيَّةَ تنتهي حينئذٍ ويتخلَّص الكفرةُ من الذِّلَّة؛ بل على مَعْنى أنَّ المسلمين يعلُونَهم إلى تلك الغاية، فأمَّا بعدها فيفعل اللّه تعالى بهم ما يريد(1).

بلاغةُ الالتفات في الآية:

الالتفات إلى الخطاب أبلغُ في الاعتناء، والتَّبشير، والإنذار

وقع الالتفاتُ في الآية الكريمة من ضمير الغائب في قوله تعالى: ﴿فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، إلى المخاطب في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾؛ ليدُلَّ على شِدَّة إرادة إيصال الثَّواب والعِقاب؛ لدلالة الخطاب على الاعتناء، فإنَّه أبلغ في التَّبشير والإنذار(2).

الالتفات مناسَبةٌ للخطاب في السّياق غيبةً، وحضورًا

الآية تُخاطب عيسى عليه السلام بوفاته ورفعه إلى السَّماء والتَّطهير من الكفَّار، لذلك كان الأَولَى أن يكون غَيْبًا، بَيْدَ أنَّ الموضوع يخصُّ الجميع ولا أحد يستطيع الفرار من المصير، فأتى الخطاب المباشر، لهذا تحوَّل الأسلوبُ من صيغة الغيبة إلى الخِطاب(3)، فعَدَل عن الغَيْبَة إلى الخطاب؛ لتَغليب الحاضر على الغائب، لَمَّا دخل معه في المعنى، وهو محمَّد ﷺ. ووجه اتصال هذا الكلام بما قبله من المعنى: كأنَّه قيل: أمَّا الدُّنيا: فالحال فيها ما ذكرنا، وأمَّا الآخرة: فيقع فيها الحكم في اختلافكم في الدِّين وأمر عيسى(4).

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/44.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/180، أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/44.
(3) مقري، النَّص القرآني وبلاغة الأداء، ص: 153.
(4) الواحدي، البسيط: 5/308.

الغرَض من تقديم الجار والمجرور:

دلالة التقديم حَصْرُ المرجع إليه، وتوكيد وعده ووعيده

تقدَّم الجار والمجرور ﴿إِلَيَّ﴾ من قوله تعالى: ﴿إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ للحصر المفيد تأكيد الوَعد والوَعيد[1].

دلالةُ الخِطاب في الفاصلة:

الخطاب بضمير المُتكلِّم دليلُ هيمنته سبحانه فهو الحَاكِمُ الذي لَا تَخۡفَى عَلَيۡهِ خَافِيَةٌ

ورد التَّعبير بلَفْظَة: ﴿إِلَيَّ﴾، ولَفْظَة: ﴿فَأَحۡكُمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾، بِضَمِيرِ المُتَكَلِّم؛ لِيُعْلَمَ أَنَّ الحَاكِمَ هُنَاكَ مَنْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ في الأرض ولا في السَّماء، وَأَتَى بِالحُكْمِ مُبْهَمًا، ثُمَّ فَصَّلَ المَحْكُومَ بَيْنَهُمْ - بحسب ما سياتي في الآية القادمة - إِلَى: كَافِرٍ وَمُؤْمِنٍ، وَذَكَرَ جَزَاءَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ[2].

وجه التّعبير بضمائر المُخاطبين:

توجيه الكلام لعيسى عليه السلام، وأتباعه، أو لِلنَّبِيِّ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ

الظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ الجُمْلَةَ مِمَّا خَاطَبَ الله بها عِيسَى، وَأَنَّ ضَمِيرَ ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾ وَمَا مَعَهُ مِنْ ضَمَائِرِ المُخَاطَبِينَ، عَائِدٌ إِلَى عِيسَى وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِهِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خِطَابًا لِلنَّبِيِّ ﷺ وَالمُسْلِمِينَ، فَتَكُونَ ﴿ثُمَّ﴾ لِلانْتِقَالِ مِنْ غَرَضٍ إِلَى غَرَضٍ، زِيَادَةً عَلَى التَّرَاخِي الرُّتَبِيِّ وَالتَّرَاخِي الزَّمَنِيِّ[3].

التَّعبير بدلالة العُموم في قوله: ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾:

جَاءَ اللَّفْظُ عَامًّا؛ لكون الْأَمْر فِي نَفْسِهِ لَا يَخُصُّ عِيسَى وَحْدَهُ

القَصدُ من قوله: ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾ الإِخْبَارُ بِالقِيَامَةِ وَالحَشْرِ؛ فَلِذَلِكَ جَاءَ اللَّفْظُ عَامًّا مِنْ حَيْثُ الأَمْرُ فِي نَفْسِهِ لَا يَخُصُّ عِيسَى وَحْدَهُ، فَخَاطَبَهُ كَمَا يُخَاطِبُ الجَمَاعَةَ، إِذْ هُوَ منها، وَإِذْ هِيَ مُرَادَةٌ فِي المَعْنَى[4].

فاعلية التَّناسب بين الصَّوت والدَّلالة:

في هذا الخطاب مَلْمَحٌ دقيقٌ في ثلاثة مواضع مُتتالية للإظهار

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/44.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/180.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/260.
(4) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 1/445.

الدَّلالة الصَّوتيَّة لـلإظـهـار الشَّفوي تكشف عـن رجـوع الخَلْقِ كُلِّهم إلى الله تعالى وحده

الشَّفويِّ الأشدُّ إظهارًا، جاءَ على صُورةٍ واحدةٍ، وهو إظهار الميم السَّاكنة عن الفاء، وهذا التَّعبير يحمل بيانًا واضحًا وتأكيدًا جازمًا على معنى الآية، وهو رجوع الخَلْقِ كُلّهم إلى اللّه تعالى وحده، فيحكم بينهم بالعدل فيما اختلفوا فيه، ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: 49].

بلاغة تقديم الجارّ والمجرور في الفاصلة:

في التّقديم اختصاصٌ، واهتمامٌ، وتشويقٌ، ورعايةٌ للفَاصِلَة

في قوله تعالى: ﴿فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ قدَّمَ الجار والمجرور ﴿فِيهِ﴾ عَلى مُتعلّقه ﴿تَخۡتَلِفُونَ﴾ للاهتمام بالمُقدَّم والتَّشويق للمُؤخَّر، ولاختصاص اللّه تعالى بذلك، وقصر الرّجوع إليه سبحانه وحده، أي: إليَّ وحدي، وليس إلى أحد غيري؛ إلى جانب رِعاية الفواصل[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الوَفَاة والموت:

الموتُ عبارةٌ عن زوال القوَّة الحيوانيَّة، وإبانة الرُّوح عن الجسَد[2]، أمَّا الوفاة فهي أعمُّ مِنَ الموتِ، فهناك الوفاة الصُّغرى، وهي النَّوم، فإنْ نام الإنسانُ خرجت روحُه من جَسَده إلى أجلٍ مُسمًّى، فإن كُتب لها العودةُ عادت، وإلَّا فارقت جسدَها، ورحلت عنه إلى الأَبَدِ؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: 42]، وكلُّ مُتَوَفًّى مَيِّتٌ، وليس كُلُّ مَيِّتٍ مُتَوفًّى. ولم يتحدث القرآن عن عيسى عليه السلام بالموتِ أبدًا، إنّما كان ذلك بالتَّوَفِّي ومشتقّاته، وفي ذلك دلالة على أنّه لم يمت، بل رُفِع إلى السّماء في نوم أو يقظة، وبقي حيًّا، حياة تتناسب مع طبيعة السّماء، ثمّ ينزل في آخر الزّمان.

---

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/176.

(2) السَّمين، عُمدة الحفَّاظ: 4/123.

التَّطْهير والتَّخْلِيص:

التَّخْلِيصُ وَالتَّطْهِيرُ وَاحِدٌ، إِلَّا أَنَّ لَفْظَ التَّطْهِيرِ فِيهِ رِفْعَةٌ لِلْمُخَاطَبِ[1]، إذ التّطهير تخليص أو إبعاد عن النّجاسة الحسّية والمعنويّة، وَالتَّطْهِيرُ نأيٌ عن السّوء، وبُعدٌ عن الفواحش، وصفاء للباطن، وجمالٌ في الظّاهر، ومفاده أنَّ النّبوّة والرّسالة، إنّما أوجدها الله لإعطاء القدوة، بإلزام النّفس بمجافاة القبائح، وترك المفاسد والرّذائل، والتّخليص انفكاك عنها، لكنّ التّطهير مبالغة في التّخليص، بحيث لا يبقى من أثرها شيء، فيكون التّطهير المستعمل في الآية، وفي مواقع كثيرة من القرآن، مرادًا به التّنقيّة والتّجلية؛ وهو معنى أعمّ دلالة، وأقوى تعبيرًا.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/178.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٥٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٧﴾ [آل عمران: 56- 57]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

تفصيل الجزاء والفصل بين المؤمنين والكافرين، فيما اختلفوا فيه:

لَمَّا قرّر اللّه تعالى رجعة البشر إليه في القيامة، والحكم بينهم فِيمَا كانواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ، بَيَّنَ مَا فِي ذَلِكَ الِاخۡتِلَافِ من تصادم بين الكفر والإيمان، بحيث كَفَرَ قَوۡمٌ وَآمَنَ آخَرُونَ، وبيّن أنّ الۡحُكۡمَ فِيمَنۡ كَفَرَ، أَنۡ يُعَذِّبَهُ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنۡيَا وَالۡآخِرَةِ، وَأنّ الۡحُكۡمُ فِيمَنۡ آمَنَ وَعَمِلَ الصَّالِحَاتِ، أَنۡ يُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ(1)، وذلك مقتضى حكمة اللّه الجليلة، في العدل في الجزاء الوفاق، مقابل الإحسان في العمل، أو الانزلاق في مهاوي المعصية والزّلل، فيكافئ كُلًّا بحسب ما قدّمت يداه، لأنّه عدۡلٌ كريمٌ، لا يظلم في حكمه أحدًا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَفَرُواْ﴾: من الكفر، وَهُوَ السَّتۡرُ وَالتَّغۡطِيَةُ التّامّة الّتي لا يظهر معها شيءٌ من المغطّى، وهو نقيضُ الإيمان(2)، ونقيضُ الشّكر، سُمِّيَ بذلك لِأَنَّهُ تَغۡطِيَةُ الۡحَقِّ والنّعمة(3)، ويستحقُّ من يكفر أن يعذّب عذابًا أليمًا، ومن يؤمن أن يُوفّى أجره كاملًا غير منقوص، وبذلك يتناسب معنى اللّفظ مع غاية السّياق، في تصوير ما أعدّ اللّه لهؤلاء وأولئك.

2) ﴿فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا﴾: العذاب هو العُقوبة، وقد عذَّبۡتُه تعذيبًا(4)، وقوله تعالى: ﴿فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾: أي يُعذِّبُهم في الدُّنيا بالقتل والسَّبي والجِزية والصَّغار، وفي

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 8/240.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، المقاييس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (كفر).
(3) الزُّحيليّ، التَّفسير المنير: 3/242.
(4) الجوهري، الصّحاح: (عذب).

الآخرة بعذاب النَّار[1]، والشّدة وصفٌ لحالتي العذاب الدّنيويّ والأخرويّ، وكلاهما مستحقّ وعادل، لأنّ اللّه ليس بظلّام للعبيد.

3) ﴿نَّـٰصِرِينَ﴾: نَصَرَ المَظلومَ يَنْصُرُهُ نَصرًا، وَالِاسْم النُّصْرَة: إذا أَعَانَهُ على عَدُوِّه وشَدَّ مِنْهُ[2]، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾، أي: ليس لهم من ينصرهم من عذاب اللّه أو يدفع عنهم عِقابهُ[3].

4) ﴿أُجُورَهُمۡۗ﴾: الأَجْرُ: الثَّوابُ، وَبَدَلُ المَنْفَعَة، وقَدْ أَجَره يَأْجُرُهُ إذا جَزاهُ وأَثابَهُ وأَعْطاهُ؛ وأَصْلُ الأَجْرِ الجَزاءُ على العَمَلِ، فَهُوَ ثَوَابُ الْأَعْمَالِ وجَزَاؤُهَا[4]، ولا يُستخدم الأَجرُ إلَّا في النَّفع.

5) ﴿ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾: أَصْلُ الظُّلْم: حَجْبُ ما يَنْبَغِي أو ما يُسْتَحَقُّ، بِمَنْعِهِ أو انْتِقَاصِه، والظُّلْمُ: وَضْعُ الشَّيْءِ في غَيْرِ مَوْضِعِه، بالتَّصَرُّفِ في مِلْكِ الغَيْرِ ومُجَاوَزَةُ الحَدِّ، إذ في ذلك مَنْعُ صاحبِ الحقِّ حَقَّه، أو إعطَاؤُه حقَّ غيرِه[5]، أو: أخذُكَ حقَّ غَيْرك[6]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، أي: لا يحب الّذين ظلمواْ وكفرواْ والَّذين أصبح الظُّلم صِفة ثابتة عندهم[7].

المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

الكفرُ عاقِبتُه الخَيبةُ والخُسْرانُ، والإيمانُ جزاؤُه الجنَّة والرِّضوان:

فسأحكُم بينكم فيما كنتم تختلفون فيه، من كتابٍ أنزلتُه، ورسولٍ بعثتُه ليخرجكم من الظُّلمات إلى النُّور، فاختلفتُم فيه، فمنكُم مَن آمنَ، ومنكم من كَفَر، فأمَّا الَّذين كفروا فأعذِّبهم عذابًا شديدًا في الدُّنيا والآخرة، وأمَّا الَّذين آمَنُوا بِعيسى وصَدَّقوا نبوَّته، وما جاء به من عند اللّه، وعملوا الصَّالحات، بفعل الأوامر وترك النَّواهي، فيعطيهم

(1) القنوجي، فتح البيان: 2/252.
(2) الزَّبيدي، تاج العروس: (نصر).
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/2.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجر)، أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/181، جبل، المعجم الاشتقاقي: (أجر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ظلم) بتصرف، والخليل، العين، ابن فارس، مقاييس اللغة، الزَّبيدي، تاج العروس: (ظلم).
(6) الخليل، العين: (ظلم).
(7) الزُّحيليّ، التَّفسير المنير: 3/242.

اللّه أجورهم كاملةً غير منقوصة، وقد جاء ذلك على طريقة الجَمْعِ والتَّقسيم[1]، ثمَّ أكَّد تعالى جزاء الكافرين فقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: يُعاقبهم ويجازيهم بما يستحقُّون، أوأنّه تعالى: لا يريدُ ظُلم الظَّالمين[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

وجه المقابلة بين الآيتين:

في التّقابل مزيدُ بيانٍ لأثر العقوبة، والثواب

بين قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مقابلة لطيفة برّزت شدّة عذاب الكفّار، ومديد أجور المؤمنين؛ فالضدُّ يُظهر حُسْنه الضدُّ.

سرّ تقديم جَزاء الكُفَّار على جَزاء المؤمنين:

ناسبَ البدءُ بالكفار ما قبله تهديدًا، ووعيدًا، وإخبارًا بجزائهم

بدأ الحقُّ تبارك وتعالى أوَّلًا بذِكر الكفَّار؛ وذلك لأنَّ ما قبله مِن ذِكرِ حُكمِهِ تعالى بَيْنَهُم هو على سبيل التَّهديد والوعيد للكفَّار، والإخبار بجزائهم، فناسبَ البدء بهم؛ ولأنَّهم أقرب في الذِّكر بقوله: ﴿فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، وبكون الكلام مع اليهود الذين كفروا بعيسى، وسَعَوا في قَتله، ثمَّ أتى ثانيًا بذِكر المؤمنين، وعلَّق هنا العذاب على مجرَّد الكُفر، وهناك على توفية الأجر على الإيمان وعمل الصَّالحات؛ تنبيهًا على درجة الكمال في الإيمان ودعاء إليها[3].

عِلَّة التَّعبير بالموصول:

فائدة الموصول بيان علّة العذاب

التَّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فيه إشارة إلى أنَّ سبب العذاب هو

(1) الطِّيبي، فتوح الغيب: 4/121، الزُّحيليّ، التَّفسير المنير: 3/242.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1247.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/181، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 4/422.

كُفْرُهم، إذ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ خَاصًا، أَيْ: كَفَرُوا بِكَ وَجَحَدُوا نُبُوَّتَكَ، وَالظَّاهِرُ الْعُمُومُ[1].

بيانُ معنى الوعيد في الآية:

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ الْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا الْوَعِيدِ هُوَ عَذَابُ الْآخِرَةِ؛ لِأَنَّهُ وَقَعَ فِي حَيِّزِ تَفْصِيلِ الضَّمَائِرِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ، فَذِكْرُ عَذَابِ الدُّنْيَا هُنَا إِدْمَاجٌ[2].وقال الطّيبي: إنَّه عبارة عن التَّأبيد ونفي الانقطاع، وأخذ الزّبدة من المجموع من غير اعتبار مفردات التَّركيب، كقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود: 107][3].

بلاغة الجناس والطباق:

المحسّنان أكسَبا التعبير جمالًا، وأحـدثـا في النّفس شوقًا وترقّبًا

وفي قوله تعالى: ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ جناسُ اشتقاقٍ، وفي قوله: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ طباقٌ بين الدُّنيا والآخرة، أكسبا التعبير بهاءً وجمالًا وحسنًا، وأحدثا ميلًا للنفس نحو التشوّق والترقّب إلى لحاظِ العذاب الشّديد في الدّنيا وفي الآخرة، وطبيعته.

صُور توكيد شِدَّة العذاب في الآية:

جماع التأكيدات في الإخبار عن شـدّة العـذاب يـنـاسـبُ سـوءَ صـنـيـعـهـم، وشنيعَ أفعالهم

أكَّد سبحانه وتعالى شِدَّة العذاب في قوله تعالى: ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بعِدَّة تأكيدات: أوَّلها: بنسبة التَّعذيب إليه، وهو القويُّ القَهَّار الغالب على كلِّ شيءٍ، وفيه إشعارٌ بعدالة العَذاب عَدالة مُطلقة، وثانيها: بالتَّأكيد بالمصدر ﴿عَذَابًا﴾، وثالثها: بالوصف بالشِّدة، ورابعها: بعدم رجائه إنهاءه أو إزالته؛ إذ لَا يوجد لهم من ناصر؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، وهو نفيٌ عامٌّ مُؤكَّد مُستغرق، أي: ليس لهم مِنْ ناصرٍ أيًّا كان هذا النَّاصر، وأيًّا

---

(1) أبو البحر المحيط: 3/180.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/260.

(3) الطِّيبي، فتوح الغيب: 4/122.

كانت نُصرته، ولو كانت ضئيلة[1]. ووُصِفَ الْعَذَابُ بِالشِّدَّةِ لِتَضَاعُفِهِ وَازْدِيَادِهِ. وَقِيلَ: لِاخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِ[2].

دلالة المقابلة والتوكيد في بناء الفاصلة:

بيانُ الفاصلة أنّهم ضعفاء مهما كَثُر مناصروهم

قابل ضمير الجمع ﴿لَهُم﴾ بجمع الاسم ﴿نَّـٰصِرِينَ﴾، فلم يقل: ومَا لَهُم مِن نَاصِر. ومعناه: ليسَ لواحدٍ منهم ناصرٌ واحد[3]. وجاءت الفاصلة ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ لتوضِّح معنًى جديدًا، وهو أنَّهم ضعفاء، فمهما كَثُر مناصروهم فلن يدرؤوا عنهم العذاب، و﴿مِّن﴾ مَزيدة لتأكيد الاستغراق[4].

بيانُ اختيار صفة الإيمان في حُكم الله على المؤمنين:

اختيارُ صِفة الإيمان لأمن اللَّبس، والإيضاح بصِدقِ النَّبي الخاتم

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ولم يقل: (وأمَّا الَّذين اتَّبعوكَ)؛ لئلَّا يلتبس الحال على أهل الكتاب، فيظنُّون أنَّ المُراد به نبيُّهم عيسى، وإن كان من اتَّبع النَّبيَّ محمَّدًا ﷺ منهم قد اتَّبعه في بشارته به، والأمر باتِّباعه، وفي هذا التَّعبير كذلك إيضاحٌ لأتباعه غاية الإيضاح بصِدقِ هذا النَّبي الخاتم، فليس لهم من سبيل إلَّا اتِّباعه[5].

بلاغةُ الالتفات في الآية:

الالتفاتُ في الخِطاب أبلغُ في البشارة، وأزجر في النّذارة، وتفنّن في الفصاحة

قَالَ تعالى: ﴿فَيُوَفِّيهِمۡ﴾، بِالْيَاءِ عَلَى قِرَاءَةِ حفص ورويس[6]، وَذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الِالْتِفَاتِ، وَالْخُرُوجِ مِنْ ضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ إِلَى ضَمِيرِ الْغَيْبَةِ لِلتَّنَوُّعِ فِي الْفَصَاحَةِ، ولِيكونَ ذلك أبلغَ في البشارة، وأزجرَ في النّذارة[7].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1246.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/180.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/122، والبروسوي، روح البيان: 2/42.
(4) الشربيني، السراج المنير: 1/231.
(5) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 4/422.
(6) ابن الجزري، النشر: 2/240، والدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 224.
(7) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/181.

توجيه قراءة الجمهور ﴿فَنُوَفِّيهِمۡ﴾، بنون العظمة:

قَرَأَ الْجُمْهُورُ: ﴿فَنُوَفِّيهِمۡ﴾[1]، بِالنُّونِ الدَّالَّةِ عَلَى الْمُتَكَلِّمِ الْمُعَظِّمِ شَأْنُهُ، وَلَمْ يَأْتِ بِالْهَمْزَةِ؛ لِيُخَالِفَ فِي الْإِخْبَارِ بَيْنَ النِّسْبَةِ الْإِسْنَادِيَّةِ فِيمَا يَفْعَلُهُ بِالْكَافِرِ وَبِالْمُؤْمِنِ، كَمَا خَالَفَ فِي الْفِعْلِ؛ وَلِأَنَّ الْمُؤْمِنَ الْعَامِلَ لِلصَّالِحَاتِ عَظِيمٌ عِنْدَ اللَّهِ، فَنَاسَبَهُ الْإِخْبَارُ عَنِ الْمَجَازِيِّ بِنُونِ الْعَظَمَةِ[2].

عِلَّة التَّعبير بلفظِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في الآية:

أشعر لفظُ (الظالمين) بأنَّ كفرهم قد تعدّى الحُدود، وتجاوزها

قُصِدَ بإيراد لفظ الظُّلم في الآية الإشعارُ بأنَّهم بكفرهم مُتعدُّون مُتجاوزون عَنِ الحُدود، واضعون للكُفر مكان الشُّكر والإيمان، وجملة: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تذييلٌ لما قبله مُقرّر لمضمونه[3].

صورة الاحتباك في الآية:

إثباتُ لازم المحبَّة للمؤمنين أبلغ في النعيم، وإثباتُ عدمها في الظَّالمين أَنْكَأُ في العذاب

هذه الآية الكريمة من الاحتباك، وأصلُ الآية: فنُوفِّيهم لأنَّا نُحبُّهم، والله يحبُّ المؤمنين، والَّذين ظلموا نحبط أعمالهم؛ لأنَّا لا نُحبُّهم، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فتَوفِيَة الأجر أوَّلًا ينفيها ثانيًا، وإثبات الكراهة ثانيًا يثبت ضدّها أوَّلًا، وحقيقة الحال أنَّه أثبت للمؤمنين لازم المحبَّة المراد منها في حقِّ الله سبحانه وتعالى؛ لأنَّه أبلغ في النعيم، ولازم المراد من عدمها في الظَّالمين لأنَّه أَنْكَأُ في العذاب[4].

مناسبة الفاصلة للسِّياق:

في الفاصلة إثباتٌ بأنَّ الكُفر والظُّلم قرينان، وأنَّ الإيمان والعَدْلَ مُتلازمان

ذيَّل سبحانه وتعالى الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لإعلان عدالته، ولإثبات أنَّ الكُفر والظُّلم قرينان، وأنَّ الإيمان والعَدْلَ مُتلازمان، ولبيان استحقاق الَّذين آمنوا وعملوا الصَّالحات لِمَا أُعطوا من ثوابٍ ونعيمٍ مُقيمٍ[5].

---

(1) ابن الجزري، النشر: 2/240، والدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 224.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/240.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/45.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 4/423.
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1247.

﴿ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ٥٨﴾ [آل عمران: 58]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المشارُ إليه في كُلّ ما سَبق، تأكيد بأنّ المتلوّ من الآيات والذّكر حقّ:

في الآية إشارةٌ إلى كُلّ ما تقدَّم الخبر عنهم، آل عمران ومريم وعيسى والحواريين[1]، وقد ربطه بهذه الآية قائلًا لرسوله، بأنّ ذلك: "إنّما هو وحي من اللّه، ألقاه إليك على لسان جبريل، وهو من القرآن والحكمة، يبيّن وجوه العبر على من حاجّك من وفد نجران، ويهود بني إسرائيل الّذين كذّبوك"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَتۡلُوهُ﴾: نَسْرُدُهُ وَنَذْكُرُهُ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ[3]، وتَلَا فلانٌ القرآن يتلُو تِلاوةً، وتَلَا الشَّيءَ: تَبِعَه تُلُوًّا، وكلُّ شيءٍ تَلَا شيئًا فهو تِلْوُه[4]، "والتّلاوة تختصّ بأتباع كتب اللّٰه المنزلة، تارة بالقراءة، وتارة بالاتّسام، لما فيها مِن أمرٍ ونهيٍ، وترغيب وترهيب، أو ما يتوهّم فيه ذلك، وهو أخصّ من القراءة، فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوةً، لا يقال تلوت رقعتك، وإنّما يقال في القرآن"[5].

2) ﴿وَٱلذِّكۡرِ﴾: قوّة الشّيء وصلابة مادّته، بحيث ينفذ في غيره ولا ينثني، والذَّكَرُ خلاف الأنثى، أصلب وأخشن منها، ومن ذلك: الذِّكر، بالكسر: الصّيت في الخَيْر، وهو به أنسب؛ لأنّ شهرةَ اسم شخصٍ أو عمله وجودٌ قويٌّ له، ونفاذ وانتشار أيضًا، ومن الذِّكْر باللّسان وأنّه قوّةُ وجودٍ وإعلانُ اسم يتأتّى، والذِّكْر: الشّرف، قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزّخرف: 44]، ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ [الشّرح: 4]، ومن ذلك "ذِكْر الحقّ - بالكسر: وهو الصّكُّ (لحفظ الحقّ فيه ثابتًا قويًّا، لا يُجْحَد ولا ينسى)، والذِّكْر: الكتابُ الّذي

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/242.
(2) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 352.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/182.
(4) الخليل، العين: (تلو).
(5) الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 8/85.

فيه تفصيل الدّين، ووضع الملل، وبه سمّيت كتب الله لخلقه، قال: ﴿وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ﴾[1].

3) ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾: الَّذي لا يدخلُ تدبيره خَللٌ ولا زَلَلٌ، هو الـمُحْكَمُ للأشياء، صُرف من (مُفْعل) إلى (فَعِيل)، فالذِّكر الْحَكِيم: الْقُرْآن؛ لِأَنَّهُ الْحَاكِم للنَّاس وَعَلَيْهِم، وَلِأَنَّهُ مُحكم لَا اخْتِلَاف فِيهِ ولا اضطراب[2]، معنى وصفه بالحكيم، أن آياته أحكمتْ، لأنّها أنزلت مِنْ لَدُنْ حَكِيم خَبِيرٍ، وَقد بُيِّنَ فِيهَا الأَمْرُ والنّهيُ والأمثال وأقاصيص الأمم السّالفة، وكانت مثقلة بالنّور والرّوعة والحكمة.

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

إشارةٌ إلى دلالة أنْبَاء عيسى وآل عمران، على صدق رسالة نبيّ الزّمان:

ذلك الَّذي تقدَّم من خبر عيسى نتلوه عليك، وهو من الآيات الواضحات الدَّالة على صِدق نبوَّتك، وهو مِن الذِّكر الحكيم[3]، "نقصّه عليك متتابعًا، بعضَه تِلْوَ بعض، من غير أن يكون لك اطّلاعٌ سابقٌ عليه، فأنت لم تكن معاصرًا لهؤلاء الّذين ذكرنا لك قصصهم وأحوالهم، وهذا من أكبر الأدلّة، على صدقك فيما تبلّغه عن ربّك"[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ البدء باسم الإشارة:

في الإشارة دليلٌ على عِظَمِ شَأْنِ المُشَارِ إليهِ وبُعْدِ منزلتِه وعُلُوِّها ورفيعِ قَدْرِه في الشَّرف

بدأ باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةً إلى ما سلف من نبأ عيسى عليه السلام وما فيه من معنى البُعد؛ للدَّلالة على عِظم شَأْنِ المُشَارِ إليه وبُعْدِ منزلتِه وعلوّها ورفيع قدره في الشَّرف، وعلى كونه في ظهور

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ذكر).
(2) الواحدي، التَّفسير البسيط: 2/353، ومجمع اللُّغة العربيَّة، المعجم الوسيط: 1/190.
(3) حجازي، التَّفسير الواضح: 1/235.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/126..

الأمرِ ونباهةِ الشَّأن بمنزلة المشاهَد المعايَن[1]، أو الإشارة إلى كلّ القصص السابقة. وَتَذْكِيرُ اسْمِ الْإِشَارَةِ لِتَأْوِيلِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ بِالْكَلَامِ أَو بالمذكور[2].

جـعـلُ تـلاوة الـمَلَكِ جاريةً مجرى تلاوته جـلّ وعـلا، تَشريفٌ عظيمٌ للمَلَكِ، وللنبيّ ﷺ

الحِكمةُ من إضافَة التِّلاوة إلى نفسه تعالى:

أَضَافَ تعالى التِّلاوة إلى نفسه في هذه الآية، وفي قوله: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ﴾ [القصص: 3]، كما أضافَ القَصَصَ إلى نفسه فقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: 3]، للدلالة على أنَّه تعالى جعلَ تلاوة المَلَكِ جارية مجرى تلاوته جلّ وعلا، وهذا تَشريفٌ عظيمٌ للمَلَكِ؛ وإنَّما حَسُن ذلك؛ لأنَّ تلاوة جبريل عليه السلام لمّا كان بأمره من غير تفاوت أصلًا أُضيف ذلك إليه سبحانه[3]. وفيه تشريفٌ للنبي ﷺ.

مـن عـادات القـرآن إحضارُ الصُّورة في أذهان المُستمعين، وكـأنَّـمـا يُشاهدونها الآن

علَّة التَّعبير بصيغة الحال والاستقبال:

عبَّر عن التلاوة بصيغة الاستقبال: ﴿نَتْلُوهُ﴾، ولم يَقُلْ (تَلَونَاهُ)، مع أنَّ الفِعل قد وقَعَ في الزَّمن الماضي؛ وذلك لأنَّ القرآنَ يريدُ إحضار الصُّورة في أذهان المُستمعين؛ حتَّى كأنَّما يُشاهدونها الآن وسيُشاهدونها في كلّ وقت؛ اعتناءً بها[4]، وكذلك للدَّلالة على تجدُّد التِّلاوة حينًا بعد حينٍ في أوقات سَلفت وفي الحال والاستقبال.

جـمـع الآيـات بالذِّكر الحكيم من وجوه إثبات رسالته ﷺ

وجه عطف الذِّكر الحكيم على الآيات:

يحتمل أن يكون المراد من ﴿ٱلْأٓيَٰتِ﴾: آيات القرآن ويحتمل أن يكون المراد منه أنه من العلامات الدّالة على ثبوت رسالته ﷺ، من المعجزات، والمستغربات، والغيوب. ويحتملُ ﴿وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ معنيين؛ الأول: القرآن، والآخر: اللّوح المحفوظ[5].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/45، الرَّازي، مفاتيح الغيب: 8/242.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/26، البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 4/424- 425.
(3) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 8/24، أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/182.
(4) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/178، أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/45.
(5) الزمخشري، الكشاف: 1/367، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/182، ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/262.

بيانُ الاستعارة، أو المجاز العَقلي في لفظ (الحكيم):

وصـف بصفة (الحكيم) مَنْ هـو مِـنْ سببه وهو الله تعالى

أتى بصيغة المبالغة ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ في الفاصلة، ووصف بصفة من هو من سببه وهو الله تعالى، أو: كأنَّه ينطق بالحِكمة لكثرة حِكَمِه، وحينئذٍ يكون استعماله لما صدر عنه ممَّا اشتمل على حكمته، إمَّا على وجه الاستعارة التَّبعية في لفظ الحكيم، أو المجاز العَقلي بأن أَسْنَدَ للذِّكر ما هو لسببه[1].

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الْقِرَاءَة والتِّلاوة:

أَن التِّلَاوَة لَا تكون إِلَّا لكلمتين فَصَاعِدًا، وَالْقِرَاءَة تكون للكلمة الْوَاحِدَة، وذلك أَنَّ أصلَ التِّلَاوَة اتِّبَاعُ الشَّيْءِ الشَّيْءَ، يُقَال: تلاه إِذا تبعه، فَتكون التِّلَاوَة فِي الْكَلِمَات يتبع بَعْضهَا بَعْضًا، وَلَا تكون فِي الْكَلِمَة الْوَاحِدَة إِذْ لَا يَصح فِيهَا التّلوّ[2]، فالتّلاوة تتابع القراءة لفظا وعملا.

الْعَالِم والحَكِيم:

أَنَّ الْحَكِيم على ثَلَاثَة أوجه، أَحدها: بِمَعْنى الْمُحكم، مثل البديع بِمَعْنى الْمُبْدع، وَالْآخر: بِمَعْنى مُحْكَم، وَفِي الْقُرْآن: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدّخان: 4]، أَي مُحكَم، وإذا وُصف اللّه تَعَالَى بالحِكمة من هَذَا الْوَجْه، كَانَ ذَلِك من صِفَات فعله. وَالثَّالِث: الْحَكِيم بِمَعْنى الْعَالم بِأَحْكَام الْأُمُور، فالصِّفة بِهِ أخصُّ من الصِّفة بعالم، وَإِذا وصف اللّه بِهِ على هَذَا الْوَجْه فَهُوَ من صِفَات ذَاته[3]، فالعلم عامّ في كلّ معلوم، والحكمة علمٌ بها وفعلٌ لها.

---

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/242، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/182.

(2) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 63، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (تلو، قرأ).

(3) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 96.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩﴾ [آل عمران: 59]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مثل عيسى كمثل آدم، كلاهما خُلِقَ بالنَّفخة الإلهيّة المعجزة:

الـــرّدّ عـلى من زعـــم ألـوهـيّـة عـيسى واشـتـطّ فيه

جاءت الآية الكريمة حُجَّةً دالَّةً على بشريَّة عيسى ﵇، فالعُقولُ أَلِفَتْ أنَّ مجيءَ إنسانٍ إلى الدُّنيا، يكون باجتماع أَب وأُمّ، فلمَّا رأى بعضُهم أنَّ عيسى ﵇، قد جاء بغير أَبٍ، اهتزَّت عُقولهم، فبيَّن سبحانه، أَنَّ قدرته تتجاوز ما ألفناه من سُنَن طبيعيَّة، بحيث يَخلُقُ إنسانًا مِن غير أَبٍ، ويسوقُ سبحانه مِثالًا على ذلك خلقه لآدم ﵇، من غير أَبٍ ولا أمٍّ[1]، ولمّا أكّد تعالى ظلمهم وبيّن فساد اعتقادهم فيما سبق من الآيات، بَيَّنَ في هذه الآية حكمته في أمر عيسى ﵇، الكاشف لما في ذلك، ممّا أُلْبِسَ عليهم، فقال: إنّ مثل عيسى كمثل آدم، في أن كُلًّا منهما خلق من غير أب، غير أنّ أمر آدم أعجب، فإنّه أوجده من غير أب ولا أم[2]، وأَجْمَعَ الْمُفَسِّرُونَ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نزلت عند حضور وفد نَجْرَانَ، على الرَّسُولِ ﷺ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ شُبَهِهِمْ، أَنْ يَكُونَ أَبُو المسيح هُوَ اللهَ تَعَالَى، فردّ عليهم، بأَنَّ آدَمَ مَا كَانَ لَهُ أَبٌ وَلَا أُمٌّ، وَلَمْ يَلْزَمْ أَنْ يَكُونَ ابْنًا لِلَّهِ تَعَالَى، فَكَذَا الْقَوْلُ فِي عِيسَى ﵇، والشّيءُ بالشّيء يُذكرُ[3].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿مَثَلَ﴾: عِبارةٌ عن قَولٍ في شَيءٍ، يُشبه قَولًا في شَيءٍ آخر

(1) د. آمال أبو حسين، بعض الأبعاد التّربوية لعدد من الأمثال في القرآن الكريم، ص: 9.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/425.
(3) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/242.

بينهما تَنَاظُرٌ وتَشابُه؛ لتبيين أحدهما للآخر وتصوّره؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: 43]، لأنَّه لابدَّ من تدبُّر المَثَل والمُمَثَّل له ومطابقة ما بينهما[1]، وضَرْبُ المَثَلِ مَلْمَحٌ بلاغيٌّ موجودٌ في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: 21]، والمَثَلُ يقال على وجهين: أحدهما بمعنى المثل، نحو: ﴿۞مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ﴾ [الرّعد: 35]، والثّاني عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني، أيّ معنى كان، وهو أعمّ الألفاظ الموضوعة للمشابهة، ندًّا أو شبهًا أو مساويًا أو شكلًا أو يكون مثلًا عامًّا في جميع ذلك، ولهذا لمّا أراد اللّه تعالى نفي الشّبيه من كلّ وجه، خصّه بالذّكر، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشّورى: 11][2].

2) ﴿خَلَقَهُۥ﴾: من الخَلْق، وأَصْلُهُ التَّقديرُ المُستقِيمُ، وتَهْيئَة شيءٍ سَوِيٍّ، ويُستعملُ في إبداع الشّيء من غير أَصلٍ ولا احْتِذَاءٍ، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 1]، أي: أَبْدَعَهُما، بدلالة قوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ [البقرة: 117]، ويُستعمل في إيجاد الشَّيء مِن الشَّيء نحو: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النّساء: 1][3].

3) ﴿كُن فَيَكُونُ﴾: أصل الكون تَحَوُّلٌ من هيئة إلى هيئة، أو حدوث شيء[4]، و﴿كُن فَيَكُونُ﴾ كلاهما من الكون التَّامِّ، أي: اُحْدُثْ فَيَحْدُثُ، وليس المرادُ به حقيقةَ الأمرِ والامتثال، وإنَّما هو تمثيلٌ لسهولة تَأَتِّي المقدورات بحسَب تعلُّقِ مشيئتِه تعالى، وتصويرٌ لسرعة حدوثِها بما هو عَلَمٌ في الباب من طاعة المأمورِ المطيع للآمر المطاع[5]، وقال بعضهم: إذا كان في علمه السّابق الأزليّ أمرٌ، فأراد إظهاره قال له كن فيكون، قال القائل:

قَضَى قَبْلَ خَلْقِ الْخَلْقِ مَا هُوَ خَالِقٌ *** خَلَائِقَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ أُمُورُهَا

هَوَاهَا وَنَجْوَاهَا وَمُضْمَرُ قَلْبِهَا *** وَقَبْلَ الْهَوَى مَاذَا يَكُونُ ضَمِيرُهَا[6]

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، السَّمين، عُمدة الحفَّاظ (مثل).
(2) الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم، مادّة: (مثل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرَّاغبُ، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خلق).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (كون).
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/151.
(6) التّستريّ، تفسير التّستريّ: 1/48.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الغرض من التَّشبيه إقامةُ الدَّليل والحُجَّة على المحاجّين:

إنَّ مَثَل خَلْقِ عيسى عليه السلام عند الله كمَثَل خَلْقِ آدم من تُراب، من غير أَبٍ ولا أُمٍّ، وإنَّما قال الله له: كُنْ بَشرًا فكان، كما أراد تعالى، فكيف يزعمون أنَّه إلهٌ بحُجَّة أنَّه خُلِق من غير أَبٍ، وهم يقرّون بأنَّ آدمَ بَشَرٌ، مع أنَّه خُلِق من غير أَبٍ ولا أُمٍّ؟![1]، "بل خلقتُه من تراب، ثمّ قلت له: ﴿كُن﴾، فكان من غير فحلٍ، ولا ذكر ولا أنثى، يقول: فليس خَلقي عيسى من أمّه من غير فحلٍ، بأعجبَ من خَلقي آدم من غير ذكر ولا أنثى، وأمري إذ أمرته أن يكون، فكان لحمًا، يقول: فكذلك خلقي عيسى: أمرتُه أن يكون، فكانَ"[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الإيجاز في الآية:

استغنى بالمذكور عن الخوض الطَّويل في كيفيَّة خَلْقِ آدم وعيسى عليهما السلام

يتجلَّى الإيجاز في الآية بقَصْرِ اللَّفظ على المعنى المراد، فقد تكون الحقيقة هائلة لا تحيط بها العقول كما في الآية الكريمة، فالإيجاز البليغ فيها أغنى عن الخوض الطَّويل في كيفيَّة خَلْقِ آدم وعيسى عليهما السلام وبيان الأدلَّة التَّفصيليَّة في ذلك.

قوَّةُ التَّوكيد وأثر الكناية في الحُجَّة والإقناع:

في التوكيد مبالغةٌ في إيراد الحُجَّة، وفي الكناية بيانٌ لكمال إرادته وقُدرته

ومن أساليب الإقناع البلاغية استعمال أسلوب التَّأكيد، فقد أُكّد هذا المثل بالحرف ﴿إِنَّ﴾ مبالغةً في إيراد الحُجَّة، وتقوية لها باللَّفظ كما قويت بالمعنى، كذلك استعمل أسلوب الكناية الَّذي يُعدُّ من الأساليب المُقنعة والمؤثِّرة، فهو يأتي بالمعنى مصحوبًا بدليله، فقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ كناية عن كمال إرادته وقُدرته، ونفاذ أمره في جميع خَلْقِه[3].

(1) المختصر في تفسير القرآن، ص: 57.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 6/468.
(3) السويكت، الأَمثالُ القرآنِيَّةُ، ص: 75.

سرّ تكرار كلمة ﴿مَثَلَ﴾:

فائدة تكرار لفظ (مثـل) التأكيد والتوضيح

وردت كلمة ﴿مَثَلَ﴾ في هذه الآية مَرَّتين، وفي كِلَا الموضعين جاءت نكرةً مُضافة إلى عَلَم، فاكتسبتِ التَّعريف من هذه الإضافة، وبين هاتين الكلمتين جاء التَّشبيه وهو واقعٌ على أنَّ عيسى عليه السلام خُلق من غير أَبٍ كآدم عليه السلام مع وجود فرق بينهما كون آدم عليه السلام خُلِق من غير أُمٍّ أيضًا[1]، وجَعَلَ بعضُهم المَثَلَ هنا من ضرب الأمثال. وقال: العرب تضرب الأمثال لبيان ما خَفي معناه ودقَّ إيضاحه؛ لـمَّا خَفِيَ سِرُّ ولادة عيسى من غير أَبٍ، لأنَّه خالفَ المعروف، ضربَ اللّه المثل بآدم الَّذي استقرَّ في الأذهان[2]. فكرَّر لفظ ﴿مَثَلَ﴾ على سبيل التأكيد والتوضيح؛ إذ قد يراد بمثل الشيء في موضع الشيء نفسه[3].

بلاغة التَّعريف بالعَلميَّة في الآية:

من شأن العَلميَّة إحضار كلّ واحدٍ بعينه في ذهن السَّامع

وَرَدَ التَّعريف بالعلميَّة في ثلاث كلمات هي: اسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾، و﴿عِيسَىٰ﴾، و﴿ءَادَمَ﴾. أمَّا اسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ فهوفي الأصل وصفٌ لذات الحقِّ بالأُلوهية الجامعة لجميع الأسماء الحسنى، والصِّفات العُلى، والمحيطة بجميع معاني اشتقاقاته العُظمى، فصار بغلبة استعماله فيه لعدم إمكان تحقُّق تلك المعاني في غيره علمًا له[4]، والتَّعريف بالعَلميَّة في ﴿عِيسَىٰ﴾ و﴿ءَادَمَ﴾ عليهما السلام؛ لأنَّ من شأن العَلميَّة إحضار كلّ واحدٍ بعينه في ذهن السَّامع؛ ولكلِّ واحدٍ منهما عليهما السلام خَلْقُه العجيب، فعيسى عليه السلام خُلق من غير أَبٍ، وخَلق آدم عليه السلام أَعجب منه إذ خُلق من غير أبٍ ولا أُمٍّ؛ فتبارك اللّه أحسن الخالقين[5].

(1) السويكت، الأَمثالُ القرآنيَّةُ، ص: 95.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/184.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/111.
(4) الكفويُّ، الكُلِّيَّات، ص: 173 بتصرف يسير.
(5) السويكت، الأَمثالُ القرآنيَّةُ، ص: 95.

بلاغة التشبيه في الآية:

وجه التَّشبيه الإقناع، وإثبات الحُجَّة، ودَفع الشُّبهة

من الأدوات البلاغيَّة الدَّاعمة لقُوَّة الإقناع في الآية الكريمة: استعمال أسلوب التَّشبيه، فقد شَبَّه الله خَلْقَ عيسى عليه السلام بخلق آدم عليه السلام الَّذي هو أعجب من خلقه، فإذا كان سبحانه قادرًا أن يخلُقه من تُرابٍ، والتُّرابُ ليس من جنس بدن الإنسان، أفلا يَقْدِر أن يخلقَه من امرأة هي من جنس بدن الإنسان؟[1]. وتشبيه عيسى بآدم عليهما السلام من قبيل تشبيه الغريب بالأغرب؛ ليكون ذلك أقطع لحُجَّة الخصم، وأقوى دفعًا لشبهته[2]؛ إذ فيه "احتجاج على النّصارى الذين ألَّهُوا المسيح عيسى ابن مريم؛ لأنه خلق من غير أب، واعتبروه ابن اللّه!!، والاحتجاج من وجهين: أوّلهما: أنّه إذا كان خَلْقُ عيسى من غير أب مسوِّغًا في زعمهم لأن يكون إلهًا أو ابن إله، فأَوْلَى بذلك ثمَّ أَوْلى آدم؛ لأنه خُلق من غير أب ولا أم"[3].

بلاغة جملة تفسير التشبيه:

وجـــهُ جملة التّفسير بيانُ ما أُبهم في المَثَل، وتـفـصيـلُ ما أُجمِلَ فيه

في قوله تعالى: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ تفسيرٌ لما أُبهم في المَثَل، وتفصيلٌ لما أُجمِلَ فيه، وتوضيحٌ للتَّمثيل ببيان وجهِ الشَّبهِ بينهما، وحَسْمٌ لمادة شُبَه الخصوم، فإنَّ إنكارَ خلقِ عيسى عليه الصلاة والسلام بلا أَب ممَّن اعْتَرَف بخلق آدم عليه الصلاة والسلام بغير أبٍ وأمٍّ ممَّا لا يكاد يصحّ، والمعنى خَلَقَ قالَبَه من تُرَابٍ[4].

نكتة العدول عن لَفْظِ الطِّينِ إلى ذِكْرِ التُّراب:

لَمْ يَقُلِ اللّه تعالى في الآية: مِنْ طِينٍ، كَمَا أَخْبَرَ بِهِ سبحانه في غير موضع: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ٧١﴾ [ص: 71]، إِنَّمَا عَدَلَ عَنِ الطِّينِ الَّذي هُوَ مَجْمُوعُ المَاءِ وَالتُّرَابِ إِلَى ذِكْرِ مُجَرَّدِ التُّرَابِ لِمَعْنًى لَطِيفٍ؛

(1) ابن تيميَّة، دقائق التَّفسير: 1/320.
(2) إسماعيل، الأمثال القرآنيَّة، ص: 99.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1249.
(4) الإيجي، جامع البيان: 1/254، أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/45، ابن عجيبة، البحر المديد: 1/361.

وَذَلِكَ أَنَّهُ أَدْنَى الْعُنْصُرَيْنِ وَأَكْثَفُهُمَا، لَمَّا كَانَ الْمَقْصُودُ مُقَابَلَةَ مَنِ ادَّعَى فِي الْمَسِيحِ الْأُلوهِيَّةَ، أَتَى بِمَا يُصَغِّرُ أَمْرَ خَلْقِهِ عِنْدَ مَنِ ادَّعَى ذَلِكَ؛ فَلِهَذَا كَانَ الْإِتْيَانُ بِلَفْظِ التُّرَابِ أَمَسَّ فِي الْمَعْنَى مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْعَنَاصِرِ، وَلَمَّا أَرَادَ سُبْحَانَهُ الِامْتِنَانَ عَلَى بَنِي إسرائيل أخبرهم أَنْ يَخْلُقَ لَهُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ تَعْظِيمًا لأمر ما يخلقه بإذنه؛ إذ كان الْمَطْلُوبُ الِاعْتِدَادَ عَلَيْهِمْ بِخَلْقِهِ لِيُعَظِّمُوا قَدْرَ النِّعْمَةِ بِهِ[1]. ورسّخ هذا المعنى مجيء كلمة ﴿تُرَابٍ﴾ نكرة[2].

أَتَى بِمَا يُصَغِّرُ أَمْرَ خَلْقِهِ عِنْدَ مَنِ ادَّعَى ذَلِكَ؛ لقصدِ مُقَابَلَةَ مَنِ ادَّعَى فِي الْمَسِيحِ الْأُلوهِيَّةَ

دلالةُ التَّعبير بالفعل المضارع ﴿فَيَكُونُ﴾:

من الأساليب البلاغيَّة الأخرى للإقناع في الآية التَّعبير بالفعل المضارع ﴿فَيَكُونُ﴾ مع أنَّ الحَدَثَ قد حصل وانتهى؛ وذلك لاستحضار صورة تكوينه كما وقعت، ولأنَّ اللّه تعالى أراد التَّمثيل لا الحصر، فجاء التَّعبير بالمضارع؛ ليفيد التَّجدّد والاستمرارية، فدلَّ بهذا التَّصريف على أنَّ اللّه تعالى فعَل ذلك في آدم من قَبْل، وفعَلَه بعد ذلك في المسيح، ويفعله سبحانه في أيّ خَلْق يشاء وَقْتَما شاء[3]

التعبير بالمضارع؛ لاستحضار صورة تكوينه كما وقعت، ولأنَّ الله تعالى أراد التَّمثيل لا الحصر

ومن جهة أخرى فصيغة المضارع في هذا المقام تنبئ عمّا كان، وتومئ إلى ما يكون بالنسبة لخلق اللّه تعالى المستمر في المستقبل كما كان في الماضي؛ وقد بيَّن سبحانه أن هذا هو الحقّ الثابت المستمر[4].

في المضارع إنباءٌ عمّا كان، وإيماءٌ إلى ما يكون

بلاغةُ الاستعارة التَّمثيليَّة:

﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾؛ لتراخي الإخبار لا لتراخي المُخبَرِ به[5]. وفي النصّ استعارةٌ تمثيليّة تخييلية؛ إذ شبَّه سُرعة تأثير قدرته تعالى ونفاذها في الأشياء بأمر المطاع من غير

(1) الزَّركشي، البرهان: 3/378، البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 4/425.

(2) ابن أبي أصبع، تحرير التحبير، ص: 194. 195، الزركشي، البرهان: 2/55، السويكت، الْأَمْثالُ القُرآنِيَّةُ، ص: 96.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/264، البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 2/101، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1250، وإسماعيل، الأمثال القرآنيَّة، ص: 76.

(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1250.

(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/45.

وجه الاستعارة تشبيه سُرعة تـأثير قـدرتـه تعالى ونفاذها في الأشياء بأمر المطاع من غير توقُّف ولا امتناع

توقُّف ولا امتناع، فإذا أراد شيئًا وُجد من غير إبطاء ولا تأخير، وفي الآية تعبيرٌ عن الماضي بلفظ المستقبل استحضارًا لصورة تكوُّنه[1]. وهذا تمثيلٌ لتأثير قدرته تعالى فيما أراده بأمر الآمر المطاع للمأمور المطيع، في سرعة حصول المأمور به، من غير توقّف على شيء ما[2].

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الْمَثَل والنَّظِير:

التَّمَاثُل يكون حَقِيقَةً فِي أخصِّ الْأَوْصَاف؛ وَهُوَ الذَّات

أَنَّ الـمَثَلَين مَا تكافأ في الذَّات، والنَّظير مَا قَابل نَظِيره في جنس أَفعاله، وَهُوَ مُتَمَكِّن منْهَا، كالنَّحوي نَظِير النَّحْوِيّ، وَإِن لم يكن لَهُ مثل كَلَامه في النَّحْو أَو كتبه فِيهِ، وَلَا يُقَال: النَّحْوِيّ مثل النَّحْوِيّ؛ لِأَنَّ التَّمَاثُل يكون حَقِيقَة فِي أخصِّ الْأَوْصَاف، وَهُوَ الذَّات، ولذا اختار القرآن المثل دون النّظير في الآية[3].

(1) الشربيني، السراج المنير: 3/367، والقاسمي، محاسن التأويل: 5/211، والهرري، حدائق الروح والريحان: 24/126.
(2) البروسوي، روح البيان: 7/441: الآلوسيُّ، روح المعاني: 12/55.
(3) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 55.

﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٦٠﴾ [آل عمران: 60]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ محمَّد ﷺ، والمراد أمّته:

في الآية تثبيتٌ للنَّبيِّ ﷺ في أَمْرِ المَسيح عليه السلام، وفي حقيقته؛ إذ لا التفات إلى أيَّة مَقُولة أُخرى تُقال فيه، بعد القَوْلِ الحقِّ الَّذي قاله اللّه تعالى[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡحَقُّ﴾: نقيضُ الباطِل، وحقَّ الشَّيْء يَحِقُّ حَقًّا، بمعنى: ثَبَتَ ووَجَبَ[2]، والحقُّ هو الثَّابت اليقينيُّ الذي لَا مجال للشَّك فيه[3]، لأنه مُحْكَمٌ صَحِيحٌ مُتَمَكِّنٌ[4]، و﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: مَا قَصَصْنا عليك في شَأن عيسى وأُمِّه مريم هو الخَبر الحقّ، والقَولُ الصّدق، والأمرُ الثَّابت الَّذي لا شكَّ فيه[5].

والامتراء: افْتِعَالٌ من المرية، وهي الشَّك. امترى في الشَّيء: شَكَّ فيه، ومنه المِراء. ماريته، أي: جادلته وشاككته فيما يدّعيه[6].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الحق من الله لا شكّ فيه، والامتراء لا طائل منه

والغرض من الآية وصفُ أهل الكتاب بأنَّهم قومٌ عادتهم المغالاة في الجَدَل، دون أن يكون غرضهم الحقّ، وقد أَمَرَ اللّه الرَّسولَ الأكرمَ بمجانبتهم ومجانفتهم، وألَّا يجاريهم في مجادلاتهم العقيمة، وقال

(1) الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 2/482.
(2) الخليل، العين: (حق).
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1251.
(4) مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حق).
(5) الهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 4/336.
(6) أبو حيَّان، البحر المحيط: 2/7، الأنباريُّ، الزَّاهر: 1/351.

له: "هذا الّذي أخبرناك عنه يا محمّد من شأن عيسى ومن شأن غيره، هو الحقّ الثّابت اليقينيّ الّذي لا مجال للشّكّ فيه، ومادام الأمر كذلك، فاثبت على ما أنت عليه من حقّ، ولا تكوننّ من الشّاكين في أيّ شيء ممّا أخبرناك به"[1]، واترك هؤلاء القوم، فلا فائدة تُرجى ممَّن عَمِيَتْ قُلُوبُهم، وانطمست بصائرهم.

وربّما كان الخطاب فيه لِكُلِّ مُكلَّفٍ؛ لأنَّ النَّبيّ ﷺ لا يُتصوَّر منه الشَّكّ ولا يليق به، وذلك لتحريك أريحيّته، فيزداد في الثّبات على اليقين، أو أنّ السّامع يتنبّه بهذا الخطاب على أنّه ﷺ مع جلالته الّتي لا تصل إليها الأماني، قد خوطب بمثله - أي الخِطاب - فما يظنّ بغيره؟! ففي ذلك ثبات له ﷺ ولطفٌ بغيره[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

تعدّد صور تأكيد ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ في الآية:

بيانُ الحقّ الذي لا مجال للرّيب فيه يستوجبُ التوكيد

لقد أكَّد سبحانه وتعالى كونه الحقّ الَّذي لَا مجالَ للرَّيب فيه بثلاثة مؤكِّدات:

أوَّلُها: بتعريف كلمة الحقِّ بأل، فإنَّ مُؤَدَّى ذلك أنّ خَلْقَ اللّٰهِ بإرادته المختارة على النَّحو الَّذي بيَّنه هو الحقّ وحده، ولا حقَّ سِواه. وأتى بوصف الرُّبوبيَّة وأضافه إلى الرَّسول ﷺ لتشريفه[3].

ثانيها: أنَّه بَيَّن أَنّ إثبات ذلك الحقّ هو مِن ربِّك الَّذي ذرأك وحفظك، وفي ذلك ما يدُلُّ على صِدق الإثبات صدقًا لَا ريبَ فيه.

ثالثها: أنَّه نهى عن الامتراء والشَّك في ذلك الحقّ، فقال سبحانه: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ أي: أنَّه لَا مجال فيه للشَّك، أو للجدال والمراء المُثير للشَّك[4].

(1) طنطاويّ، الوسيط: 2/127.
(2) طنطاويّ، الوسيط: 2/128.
(3) الزُّحيليّ، التَّفسير المنير: 3/264.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1251.

ونهيه عن الامتراء - وجلَّ رسولُ اللَّه ﷺ أن يكون مُمتريًا - من باب التَّهييج لزيادة الثَّبات والطُّمأنينة، وأن يكون لطفًا لغيره[1].

دلالةُ الخِطاب في الآية:

الغــرض من توجيه النَّهي إلى من لا يقع منه التَّنديد بمَن وقعَ من غيره

الْخِطَابُ في الآية الكريمة موجَّه لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَالْمَقْصُودُ التَّعْرِيضُ بِغَيْرِهِ، وَالْمُعَرَّضُ بِهِمْ هُنَا هُمُ النَّصَارَى الْمُمْتَرُونَ الَّذِينَ امتروا في الإلهية بِسَبَبِ أَنْ لَا أَب لعيسى[2]. ولو قيل: فلا تكن مُمتريًا لكانت هذه الدَّلالة أقلّ، ولو قيل: فلا تمترِ لكانت أقلّ، أو نهيُ النَّبي ﷺ عن الامتراء مع بُعدِه عنه على جهة الثَّبات والدَّوام على حاله[3].

الفـائدتـان: زيـادة الثبات عـلى اليقين، والانـزجـار عمَّا يورث الامتراء

وفي هذا الأسلوب فائدتان، إحداهما: أنَّه ﷺ إذا سمع مثل هذا الخطاب تحرّك منه الأريحية فيزيد في الثَّبات على اليقين. وثانيهما: أنَّ السَّامع يتنبَّه بهذا الخطاب الفَظيع على أمرٍ عظيم فينزجر عمَّا يورث الامتراء؛ لأنَّه ﷺ بجلالته إذا خُوطب بمثله فما يُظَنُّ بغيره؟[4].

سرُّ التعبير بلفظ الرّبوبيّة، وإضافته:

في إيثار لفظ الرّبوبيّة، وإضافته زيادةٌ في تشريفه، ورفع منزلته

التّعرّض لعنوان الربوبيّة في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾، مع إضافته إلى الرسول ﷺ زيادةٌ في تشريفه، ورفع مكانته، وإحاطته بعالي المنزلة، ورفيع المقام.

توجيهُ المتشابِه اللَّفظيّ:

بيانُ التَّشابه تناسبُ المطالع ايجابًا للتوكيد من عدمه

جاء في قوله تعالى هنا بالفعل: ﴿فَلَا تَكُن﴾، بلا نون التَّوكيد، وَجاء بنون توكيد في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ [البقرة: 147]؛ لِأَنَّ مَا فِي سورة آل عمران جَاءَ على الأَصْل، وَلم يكن فِيهَا

(1) الزّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/368.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/267.
(3) الرَّاغبُ، تفسير الرَّاغب: 2/603، ابن عطيَّة، الُمحرَّر الوجيز: 1/447.
(4) الطِّيبي، فتوح الغيب: 4/128.

مَا أوجب إِدْخَالَ نون التَّوكيد فِي الْكَلِمَة، بِخِلَاف سُورَة الْبَقَرَة، فَإِنَّ فِيهَا فِي أَوَّل الْقِصَّة ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ [البقرة: 144] بِنُون التَّوكيد، فَأوجب الازدواج إِدْخَال النُّون في الْكَلِمَة، فَيصير التَّقْدِير: فلنولينَّك قبْلَةً ترضاها فَلَا تكونَنَّ من الممترين، وَالْخِطابُ فِي الْآيَتَيْنِ للنَّبِي ﷺ؛ وَالْمُرَادُ بِهِ غَيره[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المرية والشَّكّ، والامتراء والرّيب:

المِرْيَة: التَّردُّد في الأمر، وهي أخَصُّ من الشَّك، والرّيب: شكّ فيه تهمة واضطراب، فهو أخصّ من الشّكّ أيضًا، والامتراء والمماراة المُحاجَّةُ فيما فيه مِرْية، وأصلُه من مَرَيْتُ النَّاقة إذا مَسَحْتُ ضَرْعَها للحَلْب[2]، وقد قال القائل:

فَإِيَّاكَ إِيَّاكَ الْمِرَاءَ فَإِنَّهُ *** إِلَى الشَّرِّ دَعَّاءٌ وَلِلشَّرِّ جَالِبُ

فَفَرَّقَ بَيْنَ المِرْيةِ والشَّكِّ، وهذا كما تقدَّم له، الفرقُ بين الرَّيْبَ والشّكّ[3].

---

(1) الكرمانيُّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 91 - 92.

(2) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 99، ابن عادل، اللُّباب: 3/54.

(3) وفي قول الرّاغب: أنّ المِرْيَة أخصُّ من الشّك، وتفريق بينهما، وأنشدَ الطّبريّ مستشهدًا على أنّ الممترينَ الشاكُّون قولَ الأعشى:

تَدُرُّ عَلَى أَسْؤُقِ الْمُمْتَرِيـ *** ـنَ، رَكْضاً إِذَا مَا السَّرَابُ ارْجَحَنْ

قال: "وَهِمَ في ذلك لأنّ أبا عبيدةَ وغيرَه، قالوا: الممترون في البيت هم الّذين يَمْرُون الخيلَ بأرجلِهم همزاً، لتجريَ كأنّهم يَتَحَلَّبون الجَرْيَ منها". ينظر: السّمين، الدّرّ المصون: 2/171.

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: 61]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إلزام الحُجَّة على من أعرض عن الحقِّ بعد قيامها عليه:

الآية تفريع على قوله: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾؛ لما فيه من إيماءٍ، إلى أنَّ وَفْدَ نجران ممترون في هذا الّذي بَيَّنَ اللّه لهم في هذه الآيات، أي: فإنِ استمرُّواْ على محاجَّتهم إيَّاك مُكابرة في هذا الحقّ، أو في شأن عيسى فادْعُهم إلى المباهلة والملاعنة، وروى المفسّرون وأهلُ السّيرة، أنَّ وفد نجران لمّا دعاهم رسول اللّه ﷺ إلى الملاعنة، قال لهم العَاقِب: نلاعنه، فواللّه لئن كان نبيًّا فلاعَنَنا لا نفلح أبدًا، ولا عقبنا من بعدنا، فلم يجيبوا إلى المباهلة، وعَدَلوا إلى المصالحة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَآجَّكَ﴾: خَاصَمَكَ وجَادَلَكَ، وقَارَعَكَ الحُجَّةَ، والمُحاجَّةُ هي مُفاعَلَةٌ، ولا تَقع إلّا ِمن اثنين فصاعدًا[2]، وهي أن يطلب كلّ واحدٍ أن يردَّ الآخَرُ عن حُجَّته ومحجَّته[3]، والحجّة: البرهان. تقول حاجَّهُ فحجَّه أي غلبه بالحُجَّةِ، وفي المثل: "لَجَّ فَحَجَّ". وهو رجلٌ مِحْجاجٌ، أي جَدِلٌ. والتّحاجُّ: التّخاصُم[4].

2) ﴿مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾: مِنْ: عَلِمَ يَعْلَمُ عِلْمًا، نقيض جهل. ورجل علّامة، وعلّام، وعليم، واللّه يحكي عن يوسف ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف: 55][5]، "والعلم اليقين؛ يقال: عَلِمَ يَعْلَمُ، إذا تيقّن، وجاء بمعنى المعرفة أيضًا، كما جاءت بمعناه ضمن كلّ واحد معنى الآخر،

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/180، ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/264 - 265.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/524.
(3) الرَّاغبُ، المفردات: (حج).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (حجج).
(5) الخليل، العين: (حجج).

لاشتراكهما في كون كلّ واحد مسبوقًا بالجهل، لأنّ العلم وإن حصل عن كسب فذلك الكسب مسبوق بالجهل، وفي التّنزيل ﴿مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾ [المائدة: 83]، أي: علموا، وقال تعالى ﴿لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ [الأنفال: 60] أي لا تعرفونهم اللّه يعرفهم، وقال زهير:

وَأَعْلَمُ عِلْمَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ *** وَلَكِنَّنِي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِي[1]

ومعنى ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾، أي: مِنَ البَيِّنات والأدلّة المُوجِبة للعِلْم، بأنَّ عيسى عبدُ اللّه ورسولُه[2].

3) ﴿تَعَالَوۡاْ﴾: هَلُمُّوا بالرَّأي والعزيمة. والمُراد: المجيء بالرَّأي والعزم، كما تقول: تعالَ نُفكِّر في هذه المسألة[3]. وأَصلُه طلبُ الإقبال إلى مكانٍ مُرتفع، ثمَّ توسّع فيه فاستُعمل في مجرَّد طلب المجيء[4]، وتَعالُوا: لغةٌ في تَعالَوْا، أُلقِيَتْ ضَمّةُ الواوِ على اللَّام[5].

4) ﴿نَبۡتَهِلۡ﴾: مُشْتَقٌّ مِنَ البَهْلِ، وَهُوَ الدُّعَاءُ بِاللَّعْنِ، وَيُطْلَقُ عَلَى الِاجْتِهَادِ والتَّضَرُّعِ في الدُّعَاءِ مُطْلَقًا؛ لِأَنَّ الدَّاعِيَ بِاللَّعْنِ يَجْتَهِدُ فِي دُعَائِهِ، وَالْمُرَادُ فِي الْآيَةِ: نتباهل بأن نقول: بهلةُ اللّه: لعنته على الكاذب مِنَّا ومنكم[6].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

المباهلةُ درسٌ للأمَّة لإثبات الحقِّ أمام المكابرين:

فمَن جادَلَكَ، أيُّها الرَّسولُ، من نصارى نجران في أمر عيسى، زاعمًا أنّه ليس عبدًا للّه من بعد ما جَاءك مِنَ العِلْم الصَّحيح في شأنه؛ فقل لهم: تعالوا نَدْعُ مَن عندنا من ذُرِّيَّةٍ ونساءٍ ورجالٍ، ومَن عندكم من ذُرِّيَّة ونساءٍ ورجالٍ؛ أي يتلاقى جمعُنا وجمعُكم، ثمَّ يُعلن كلُّ واحدٍ مِنَّا إيمانَه بما عنده، ونبتهل إلى اللّه ضارعين إليه، مُتَّجهين بقلوبنا نحوه، أن يجعلَ لعنته وطرده من رحمته على الكاذبين في دعواهم، المنحرفين في اعتقادهم،

---

(1) الفيّوميّ، المصباح المنير: (علم).

(2) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/368، البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 2/20.

(3) الطِّيبي، فتوح الغيب: 4/128، أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/46.

(4) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/180.

(5) الصّغانّي، الشّوارد، ص: 14.

(6) الطِّيبي، فتوح الغيب: 4/128، أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/46، ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/265، جبل، المعجم الاشتقاقي: (بهل).

وهذا المعنى هو ظاهر الآية؛ إذ فيه الدَّعوة الجماعيَّة من الفريقين؛ ليكون الجمع في مقابل الجمع، فيُعرَف المحقُّ من المبطِل[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفاء في المطلع:

معنى الفاء الإفصاحُ عن شَرْطٍ مُقدَّر مغزاه بطلان غير ألوهيّة الله تعالى

الفاء في قوله: ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ﴾ فاءُ الإفصاح؛ إذ إنَّها تُفصح عن شَرْطٍ مُقدَّر؛ والمعنى إذا كانت هذه حقيقة السَّيد المسيح عليه السلام، وهذه إرادة اللّه تعالى في الخَلْقِ والتَّكوين، فكلُّ ما يُدَّعَى له من الألوهِيَّة باطلٌ، ولا يُؤمن به أَحد[2].

بيان مُتعلّق الضَّمير في ﴿فِيهِ﴾:

تعدّد احتمال عود الضمير توسُّعٌ في الدلالة

الضَّمير في: ﴿فِيهِ﴾ يعود على عيسى عليه السلام؛ لأنَّ المنازعة كانت فيه؛ ولأنَّ تصدير الآية السَّابقة في قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ﴾ وما بعده جاء من تمام أمره، وقيل: يعودُ على الحقِّ، وظاهرٌ من العُموم في كلِّ مَنْ يحاجّ في أمر عيسى. وقيل: المراد وفد نجران[3].

عِلَّة التَّعبير بلفظة ﴿ٱلۡعِلۡمِ﴾:

التعبير بلفظة (العلم) تلخيصٌ للدليل والحجّة

معنى قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾: مِنَ البيِّنات المُوجبة للْعِلْم، وإطلاق العِلْم عليها إمَّا حقيقيّ، لأنَّه نوعٌ منه، وإمَّا مجازٌ مُرسل بإطلاق المصدر على المفعول، أي: من بعد ما جاءك من المعلوم[4]. فاللَّام في ﴿ٱلۡعِلۡمِ﴾ للعَهْدِ، وهو تلخيصُ الدَّليل الموجب؛ لأنَّ عيسى مخلوقٌ من مخلوقاته، وليس بابن له، ولا تفاوت بينه وبين آدم المخلُوق من التُّراب المكون بكلمة التَّسخير، ويدلُّ على

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1252، نخبة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن، ص: 57.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1252.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/187.
(4) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/180.

أنَّ البَيِّنة الموجبة للْعِلْم ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾، يعني: إذا عاندوا للحقِّ بعد ذلك لم يبقَ إلَّا الدَّعوة إلى المُلاعنة وتعجيزهم بالمباهلة الَّتي تستأصلهم، فقوله: ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ وقوله: ﴿ٱلۡعِلۡمِ﴾ مُعبِّران عن تلخيص الدَّليل(1).

دلالةُ التَّرتيب في الدّعوة:

تقديمُ الأعزّ على الأخصّ دليلُ إيمان ويقين بحفظ الله تعالى

وجهُ التّرتيب في قوله تعالى: ﴿نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ﴾ الآتي:

أوَّلًا: قدَّم ما يُدافع عنه ذوو الأحساب ويفدونه بنفوسهم، وقدَّم منه الأعزَّ الألصق بالأكباد وختم بالمدافع، وهذا التَّرتيب على سبيل التَّرقيّ إذا اعتبرتَ أنَّه قدَّم الفَرْعَ ثمَّ الأصلَ وبدأ بالأدنى وختم بالأعلى؛ وفائدة الجمع الإشارة إلى القطع بالوثوق أنهم على حَقٍّ(2).

ثانيًا: يقينه ﷺ في إحاطة حفظ اللّه تعالى بمن قدَّمهم على النَّفس في المباهلة، فقدَّمَ جانبه على جانب المخاطبين، مع رعاية الأصل في الصِّيغة فإنَّ غير المُتكلِّم تبعٌ له في الاسناد(3).

ثالثًا: اكتُفيَ بذِكر الأبناء دون البَنَاتِ؛ لظهور كونِهم أعزَّ منهنَّ؛ وأمَّا النِّساءُ فتعلُّقهن من جهة أخرى(4).

رابعًا: في قوله تعالى: ﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ﴾. فقد عنى بـ (الأَنفس): بَنِي العَمِّ، والعَرَبُ لا تستنكر أن تُخبر عن ابن العَم بأنَّه نفسُ ابن عمِّه، وقد قال اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [الحجرات: 11]؛ أراد: إخوانكم في الدِّين، فأجرى الأُخوَّةَ في الدِّين مجرى الأُخوَّة في القرابةِ، وإذا وقعت النَّفس على البعيد في النَّسب، كان أجدر أن تقع على القريب في النَّسب والدِّين؛ وإنَّما قُلنا هذا، لأنَّ المُتكلِّم لا يقولُ: ادعوا فلانًا وفلانًا ونفسي؛ لأنَّه يكون حاضرًا(5).

(1) الطِّيبي، فتوح الغيب: 4/128.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 4/443، الشربيني، السِّراج المنير: 1/222، أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/46.
(3) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/180، أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/46.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/46.
(5) الواحدي، التَّفسير البسيط: 5/332.

عِلَّةُ ضَمِّ الأبناءِ والنِّساءِ إلى النَّفسِ:

سبب الضمّ أنَّه أتمّ في الدَّلالة على ثقتِهِ بحاله، ويقينه بصدقهِ، وأشدّ نكايةً بالعَدوِّ

ضَمَّ رسول اللّه ﷺ إلى النَّفسِ الأبناءَ والنِّساءَ؛ لأنَّه أتمّ وأكمل في الدَّلالة على ثقتِهِ بحاله، ويقينه بصدقهِ، وأشدّ نكايةً بالعَدوِّ، وأوفر إضرارًا به لو تمَّت المباهلة، وفي هذه القِصَّة أوضحُ دليلٍ على نُبوَّته ﷺ، وإلَّا لما امتنعوا عن مُباهلته، ودلالتها على فضل رسوله ﷺ وآله الأطهار ممَّا لا يمتري فيها مُؤمنٌ[1].

بلاغة التَّعبير في الفاصلة:

وجه المجاز العقلي نسبةُ جعلِ اللَّعنة إليهم لتسبُّبهم اليه بالابتهال

في قوله: ﴿فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ مجازٌ عقليٌّ، إذ نسَب جَعْلَ اللَّعنة إليهم، لأنَّهم تسبَّبوا إليه بالابتهال والدُّعاء.

سرُّ كتابةِ اللَّعنة بالتاء المفتوحة:

في الرّسم القرآني الماحُ بلعنة خاصَّة لمواقف خاصَّة، ولَعنَة عامَّة مبسوطة

كلُّ ما في كتاب اللّه تعالى من ذِكر (اللَّعنة) فهو بالهاء، إلَّا حرفين في آل عمران: ﴿فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾، وفي النُّور: ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [النور: 7][2]، ويبدو من سياق الآيات الَّتي جاءت فيها الكلمتان أنَّ (لَعْنَت) بالتَّاء المبسوطة تدلُّ على أنها لعنة خاصَّة لمواقف خاصَّة، و(لَعْنَة) بالتَّاء المربوطة تدلُّ على أنَّها لَعْنَة عامَّة، أو أنها لعنة مُمْتَدَّةٌ مَبْسُوطَةٌ تبسط ظلالها وتمتدُّ فتعمُّ صاحبَها لشدّة ظلمه ومجادلته في الباطل، واللّه تعالى أعلم.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(أَتَى)، و(جَاء):

تشترك الصِّيغتان في دلالة القُدُوم والإقبال، غير أنَّ بينهما فُروقًا تتكشَّف عند تأمُّل السِّياق، إذ نجد (أَتَى) مُستعملة في الأمور الّتي يتوصَّل إليها بسهولة، أو تكون في سِياقٍ تنساب فيه المعاني

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/181، ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/265.
(2) الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء: 1/286.

بسهولةٍ، كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النّحل: 1]، وأمَّا المجيءُ فيأتي لِمَا فيه صُعوبة ومشَّقة، ولعلَّ ذلك يعود إلى لفظ كلٍّ من الفعلين، فـ (أَتَى) أخفُّ من (جَاء)، وممَّا يدلُّنا على ذلك أنَّ (أَتَى) يُؤخذ منهما الأزمنة الثَّلاثة: الماضي، والمضارع، والأمر، فنقول: أتى، ويأتي، وائتِ، وكلُّها وردت في القرآن، في حين وردت (جَاء) ملازمةً حالةً واحدةً، وهي أن تأتي بزمن الماضي فحسب، وكذلك هي في القرآن الكريم، ولم يأتِ منها مضارعٌ ولا أمرٌ؛ لثقلها فلا تجد في القرآن الكريم يجيء أو جِئْ، ولا يخفى ما فيها من الثِّقَل والصُّعوبة[1].

(تَعَالَ) و(هَلُمَّ):

تَعَالَ: بِفَتْح اللَّام: أَمر أَي: جِئْ، وَأَصله أَن يَقُوله من فِي الْمَكَان الْمُرْتَفع لمن فِي الْمَكَان المنخفض، ثمَّ كثر حَتَّى اسْتَوَى اسْتِعْمَاله فِي الْأَمْكِنَة، عاليةً كَانَت أَو سافلة، فَيكون من الْخَاصِّ الَّذِي جُعِلَ عَامًّا، وَاسْتُعْمِلَ فِي مَوضِعِ الْعَامِّ[2]، وأمّا هَلُمَّ: وَأَصْلُهَا هَلْ أَؤُمُّ، كَلَامُ مَنْ يُرِيدُ إِتْيَانَ الطَّعَام، ثُمَّ كَثُرَت حَتَّى تَكَلَّمَ بِهَا الدَّاعِي، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهَا هَلْ لَكَ فِي الطَّعَامِ أُمَّ، أَي اقْصِدْ[3]، قال هشام بن المغيرة:

هَلُمَّ إِلَى أُمَيَّةَ إِنَّ فِيهَا ***شِفَاءُ الْوَارِيَاتِ مِنَ السَّقَام[4]

وآثر القرآن تعالوا على هَلُمَّ في هذه الآية للدّلالة على طلب العلوّ في صحّة الاعتقاد، والارتفاع عن حضيض الجدل الّذي لا دليل له.

اللَّعْن والبَهْل:

أَنَّ اللَّعْن هُوَ الدُّعَاء على الرَّجُل بالبُعْد، والبَهْلُ الاجْتِهَاد فِي اللَّعْن. قَالَ الْمبرِّد: بَهَلَهُ اللّٰه، يُنْبِئُ عَن اجْتِهَاد الدَّاعِي عَلَيْهِ باللّعن؛ وَلِهَذَا قيل للمُجتهد فِي الدُّعَاء: المُبتهل[5]، وآثر القرآن الابتهال على اللّعن في هذه الآية، للدّلالة على قوّة يقين رسول اللّٰه ﷺ في أنّه على الحقّ.

---

(1) الرَّاغبُ، المفردات، ص: 60، الدُّوري، دقائق الفروق البيانيَّة، ص: 229.
(2) الكفويُّ، الكُلِّيَّات، ص: 316.
(3) ابن فارس، المقاييس: (هلم).
(4) الخليل، العين: 8/300.
(5) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 52.

الْجَعْل وَالْعَمَل:

أَنَّ الْعَمَل هُوَ إيجاد الأثر في الشَّيْء، والجَعْلُ تَغْيِيرٌ بإيجاد الْأَثر فِيه، وبِغَيْر ذَلك، أَلَا ترى أَنَّك تَقول: جَعَلَ الطِّين خَزَفًا، وَجَعَلَ السَّاكِنَ مُتحرِّكًا، وَتقول: عَمل الطِّين خَزَفًا، وَلَا تَقول: عَمل السَّاكِن مُتحرِّكًا؛ لِأَنَّ الْحَرَكَة لَيست بأثر يُؤثّر بِهِ فِي الشَّيْء.[1]

(1) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 136.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦٢﴾ [آل عمران: 62]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ما تكلّمت به النَّصارى في شأن عيسى هو أكاذيبُ وتُرّهات لا تُوافقُ الواقِعَ:

في الآية إشارةٌ إلى ما تقدَّمَ ذِكرُه من الدَّلائل، ومِنَ الدُّعاء إلى المُباهَلة.

وما عُطِفَ على ذلك بالواو، هو اعتراضٌ لبيان ما اقتضاهُ قولُه: ﴿ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: 61]؛ لأنَّهم نَفَوْا أن يكونَ عيسى عَبدًا لله، وزعمُواْ أنَّه غُلِبَ، فإثباتُ أنَّه عبدٌ هو الحقُّ[1]، "وإنّه تعالى هو ذو العزّة الّذي لا يغالبه فيها أحد، والحكمةِ الّتي لا يساويه فيها أحد، حتّى يكون شريكًا له في ألوهيّته، أو نِدًّا في ربوبيَّته"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡقَصَصُ﴾: القَصُّ والقَصَصُ: تَتَبُّعٌ وتَتَابُعٌ مع تَسويةٍ، وقولهم: قَصَّ أثرَه، أي تتبَّعه، وفي القرآن قال تعالى: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ٦٤﴾ [الكهف: 64]، ومن هذا الجذر: اقْتَصَصْتُ الحديثَ، بمعنى رويته على وجهه، والاسمُ القَصَصُ بالفتح؛ وُضِعَ موضع المصدر حتَّى صار أغلبَ عليه، والقِصَصُ - بالكسر -: جمعٌ للقصّة التّى تكتب[3]، والقَصَصُ: هو الخَبرُ المُشتَمِلُ على المعاني المُتتابعة، تقولُ: قَصَّ يَقُصُّ قَصًّا وقَصَصًا، إذا تتبَّعَ الأمرَ يُخبرُ به شيئًا بعدَ شَيءٍ، وأصلُه: اتِّباعُ الأثرِ، يُقالُ: خرجَ فلانٌ قَصًّا وقَصَصًا في أَثَرِ فُلانٍ، وذلك إذا اقتصَّ أثَرَه[4]، و﴿ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ﴾: خَبَرُ القرآنِ الصَّادق فيما أَخْبرَ به[5].

2) ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾: أصلُ العِزّة: تَماسُكُ الجِرْمِ الرَّخْو، حتّى يَبلغَ الشِّدَّةَ والصَّلابةَ التّامّة،

---

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/250، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/266.
(2) القطّان، تيسير التّفسير: 1/200.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: 3/1051.
(4) الخليل، العين: (قصص)، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قصّ)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ (قصص، قصقص).
(5) الواحديّ، الوسيط: 1/446.

والعِزَّةُ: الشِّدَّةُ والقُوَّةُ والغَلَبَةُ والقَهْرُ والامتناعُ، والعَزِيزُ: القَويُّ الشّديدُ الغالِبُ المُمتنعُ على مَنْ يريدُه بالقَهْرِ والغَلَبَةِ، وهو ذو العِزَّةِ الّذي لا يُغالبُه أحدٌ في مُلكِه[1]، والعزّة للّه تبارك وتعالى، واللّه العزيز لأنّه يُعِزّ من يشاء، ويُذِلّ من يشاء، وملك أعزّ: أي عزيز، قال الفرزدق:

إنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا *** بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ[2]

3) ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: الحُكْمُ: المَنْعُ للإصلاحِ، والحَكِيمُ: المُتَّصِفُ بالحِكْمَةِ في قَولِه وفِعلِه[3]، الْحَكِيمُ: من صفات اللّه تعالى، يجوز أن يكون من صفاته لذاته بمعنى العالم، ويجوز أن يكون من صفات الفعل[4]، وفي لسان العرب عن ابن الأثير أنّ: "في أسماء اللّه تعالى الحكم والحكيم، وهما بمعنى الحاكم، وهو القاضي، فهو فعيل بمعنى فاعل، أو هو الّذي يُحكم الأشياء ويتقنها؛ فهو فعيل بمعنى مُفْعِلٌ"[5].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تأكيدُ أنَّ ما أَخبرَ اللهُ بِهِ عن عيسى ابنِ مريمَ هو الحَقُّ لاريب فيه:

إنَّ هذا الّذي ذَكَرْنا لكَ مِنْ شأن عيسى عليه السلام هو الخَبرُ الحقُّ الّذي لا كَذِبَ فيه ولا شَكَّ، لأنّه القصص الثّابت الّذي لَا مجال فيه لإنكارِ مُنكِر، ولا لتشكيك متشكّك؛ فالمسيح عيسى عليه السلام ليس إلهًا ولا ابنَ إله، بل عَبْدُ اللّهِ ورسولُهُ[6]، ومَا مِن مَعبودٍ بحقٍّ إلَّا اللّهُ وحدَه، وإنَّ اللّه لهو العزيزُ الّذي قَهَرَ كلَّ شيءٍ، وخَضَعَ له كلُّ شيءٍ، الحكيمُ الّذي يَضَعُ الأشياءَ مواضعَها[7].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

تَعَدُّدُ صِيَغِ التَّوْكِيدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾:

إنَّ اللّه ﷻ أكَّدَ على صِدْقِ هذه القَصَصِ القرآنيَّةِ - بالنَّظَرِ إلى حال المُخاطَبِ - وتمامِ صِحَّتِها وتَحقُّقِ وقوعِها، فأَثْبَتَها بطريق المعرفةِ، وبإسنادِ الحقِّ إليها، فهي ليست

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغبُ، المفردات: (عزّ)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عزز).
(2) الخليل، كتاب العين: (عزّ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حكم).
(4) الحِمْيَرِيّ: شمس العلوم: (الحكيم).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (حكم).
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1254.
(7) السَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: ص 133، ونخبة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن، ص: 58.

تَحْرِيكُ نُفُوسِ أَهْلِ الْبَاطِلِ لِتَلَمُّسِ الْحَقِّ وَطَلَبِهِ

مجرَّدَ خَيالاتٍ أو أَوهامٍ لا نَصيبَ لها مِن الحقيقةِ، بلْ هي الحقيقةُ نفسُها، ولم يَكتفِ السِّياقُ بتعريفِ المسند إليه بالإشارة ﴿هَٰذَا﴾ الدَّالِّ على تمييزِهِ أكملَ تمييزٍ؛ تعظيمًا لشأنِه، بلْ جاء بـ ﴿إِنَّ﴾ واللَّامِ المؤكِّدين، وضميرِ الفَصْلِ ﴿لَهُوَ﴾، وهو هنا مؤكِّدٌ، وحُلِّيَ خَبرُ ﴿إِنَّ﴾ باللَّامِ لإفادةِ القصرِ؛ ليكونَ مجموعُ ذلك تأكيدًا قويًّا لمضمونَ الجملة، وهي بهذا صيغةُ خبرٍ إنكاريٍّ(1).

وما ذاكَ إلَّا لزَعْزعةِ ثِقة أصحابِ المِلَلِ بدِينِهم؛ بعثًا لهم على تلمُّسِ الحقِّ وطلَبِه، فكأنَّ اللّه تعالى يقولُ لهم: إنَّ هذا هو القَصَصُ الحقُّ وحدَه، لا ما تَقُصُّه كُتُبُ أصحابِ المِلَلِ الأُخرى وعقائدهم.

دِلَالَةُ الْقَصْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّۚ﴾:

خَبَرُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَنْ عِيسَى عليه السلام هُوَ الْحَقُّ، وَمَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى فِيهِ مَحْضُ الْبَاطِلِ

في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّۚ﴾ أسلوبُ قصرٍ؛ وذلك بتعريفِ المسند إليه ﴿هَٰذَا﴾ بالإشارة، وتعريف المسند ﴿ٱلْقَصَصُ﴾ باللَّام؛ وضمير الفصل ﴿لَهُوَ﴾ ليس دالًّا ههنا على القصر؛ لأنَّ شرط إفادتِه القصرَ أن يستقلَّ بكونِه طريقًا له، أمَّا إذا اقترنَ به ما يُفيد القصرَ؛ فإنَّه يكون مؤكِّدًا كما في هذه الآية.

والقَصرُ إضافيٌّ؛ وبيانُ ذلك: أنَّ المقصور في تعريفِ جزأيِ الجملةِ هو المعرَّف باللَّام - تقدَّمَ أو تأخَّر -؛ فيكون المعنى قصرَ القصصِ الحقِّ على نبأ عيسى عليه السلام المذكور قبلُ، مع وجودِ حقٍّ كثيرٍ في قصص القرآن الكريم عن غيره، إلَّا أنَّ القصرَ وقع إضافيًّا بالنِّسبة إلى ما زوَّره النَّصارى وافترَوه عن عيسى عليه السلام؛ من كونهِ إلهًا أو ابنَ اللّهِ، سبحانَه وتعالى عمَّا يقولُ الظَّالمون عُلوًّا كبيرًا(2)، بل ذلك محضُ الباطلِ.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/190، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/267، وأبو سمعان، التّراكيب النّحوية، ص: 37.
(2) الدّريهم، سورة آل عمران دراسة بلاغيّة، ص: 128.

دلَالَةُ الْقَصْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾:

اللهُ تَعالَى هُوَ وَحْدَهُ الْمَعْبُودُ الْحَقُّ

في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ قصرُ الأُلوهيَّةِ الحقَّةِ على اللّه تعالى، وهو قصرٌ حقيقيٌّ تَحقيقيٌّ، فالألوهيَّةُ الحقَّةُ للّه تعالى لا تتعدَّاه إلى غيره، فلا يُصرَفُ شيءٌ من أفرادِ العبادة إلى غيرِه، وَصَرْفُ شيءٍ من ذلك لغيرِ اللّه تعالى شِركٌ مُحبِطٌ للعَمَلِ، وتَعَدٍّ على الذّاتِ العَلِيَّةِ(1).

دِلَالَةُ ﴿مِنْ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾:

مِنْ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تَقْرِيرُ التَّوْحِيدِ وَإِنْكَارُ الشِّرْكِ

الحروفُ الزَّائدةُ في القرآنِ الكريمِ زائدةٌ من حيثُ الإعرابُ فحسبُ، وإلَّا فهي تُفيدُ معنًى زائدًا على ما لو لم تكنْ موجودةً، وجاءت ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾؛ لتفيدَ الاستغراقَ نصًّا؛ إذِ الاستغراقُ يُفهَمُ من إيرادِ ﴿إِلَٰهٍ﴾ نكرةً في سياق النَّفْيِ، إلّا أنَّ هذا الاستغراقَ ظاهرٌ وليس نَصًّا، ولذا جيءَ بـ ﴿مِنْ﴾ لتفيدَ الاستغراقَ نصًّا؛ للرَّدِّ على الثّنويّة والنَّصارى، وكلِّ مَنْ يدَّعي إلهًا غيرَ اللّهِ تعالى؛ فالجملةُ دالَّةٌ على التَّوحيد، ونفي الشَّريكِ بالتَّصريحِ ودَلالةِ المُطابقةِ(2).

نُكْتَةُ الْإِظْهَارِ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾:

الِاسْمُ الْأَحْسَنُ (اللهُ) جَامِعٌ لِمَعَانِي الْكَمَالِ وَالْجَلَالِ وَالْجَمَالِ

جاءَ تَكرارُ اسمِ اللّهِ تعالى في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ في سِياق التَّأكيدِ على تفرُّدِه تعالى بالألوهيَّةِ الحقَّةِ المُطلَقةِ، وقد وَرَدَ الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهَ﴾ الثّاني مُظهَرًا في مَوضِعِ الإضمارِ؛ إذ كان مقتضى الظّاهر أن يُقال: وإنّه لهو العزيز الحكيم، ونكتةُ الإظهارِ في موضع الإضمار: تأكيد معنى

(1) الدّريهم، سورة آل عمران دراسة بلاغيّة، ص: 253.

(2) الواحديّ، البسيط: 5/326، وأبو السُّعود، إرشادُ العقل السَّليم: 2/47، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/267، والعثيمين، تفسير القرآن الكريم، (سورة آل عمران)، ص: 361.

الألوهيَّةِ، وتَربيةُ المَهابة؛ لما في الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ من جمعِ معاني الكمال والجلال والجمال[1].

نُكْتَةُ تَأْكِيدِ قَوْلِهِ: ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْمُؤَكِّدَاتِ:

لَا يَكُونُ الْإِلَـهُ الْحَقُّ إِلَّا عَزِيزًا حَكِيمًا

هذه الجملة - ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ - جملةٌ خبريَّةٌ مؤكَّدَةٌ بأربعةِ مؤكدات:

أولها: (إنّ) في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾.

ثانيها: الْقَصْرُ؛ وذلك بتعريفِ جُزْأَي الجملةِ.

ثالثها: ضمير الفصل ﴿لَهُوَ﴾؛ فإنَّه يقوِّي القصرَ في الجملةِ إذا وُجِدَ طريقٌ لِلْقصرِ فيهَا - كما في هذهِ الآية -.

رابعها: اسمية الجملة؛ فإنّها آكدُ مِنَ الفعليَّةِ؛ لِما تُفيده مِنَ الثَّبات والدَّوام.

وفي تأكيدِهَا هذا التَّأكيدَ إثباتُ ألوهيَّةِ اللّه تعالى، ونفي استحقاق غيرِه شيئًا من العبادة، ومن ذلك نَفْيُ أن يكون عيسى عليه السلام إلَهًا؛ فإنَّ النَّصارى زعمُوا أنَّ اليهودَ قتلوهُ، "وذلك ذِلَّةٌ وعَجْزٌ، لا يلتئمان مع الإلهيَّة، فكيف يكون إلهًا وهو غيرُ عزيزٍ، وهو محكومٌ عليه؟! وهو أيضًا إبطالٌ لإلهيَّته على اعتقادنا؛ لأنَّه كان محتاجًا لإنقاذِهِ مِنْ أيدي الظَّالمين"[2].

دِلَالَةُ الْقَصْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾:

تَفْنِيدُ أُلُوهِيَّةِ الْمَسِيحِ عليه السلام

في قول اللّه تعالى: ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ قصرُ العزَّة والحكمةِ على اللّه تعالى.

وطريقُ القصر: تعريفُ جزأَي الجملةِ، وهو قصر إضافيٌّ؛ إذ العزَّة والحكمةِ ثابتةٌ لغير اللّه تعالى على ما يليقُ بضعفِ حالِ

(1) الدّبل، البلاغة القرآنيّة: 1/465.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/267.

المخلوقِ، وهما في حقِّ اللّه تعالى لا منتهَى لكمالِهِمَا، والمرادُ مِنَ القصرِ ههنا: إبطالُ ألوهيَّةِ المسيحِ عليه السلام[1].

دلَالَةُ اقْتِرَانِ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ بِـ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فِي الْفَاصِلَةِ:

اقْــتِرَانُ أَسْـمَـاءِ اللهِ تَـعَـالَى دَالٌّ عَلَى كَـمَالٍ زَائِدٍ عَلَى مَا يُفِيدُهُ كُلُّ اسْـمٍ مِنْهَا عَلَى سَبِيلِ الِانْفِرَادِ

اسما اللّهِ تعالى ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ يدلُّ كلُّ واحدٍ منهما على الكمال الخاصِّ الذي يقتضيهِ، وهو كمال العزَّة في اسم اللّه ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾، والحُكْمُ والحِكمَة في اسمه سبحانه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، والجمع بينهما دالٌّ على كمالٍ آخرَ وهو: أنَّ عزَّته سبحانه مقرونةٌ بالحكمة؛ فعزَّتُهُ لا تستلزمُ ظلمًا سوءَ فعلٍ، كما قد يكون من عزَّة المخلوق، وكذا حُكْمُه وحِكْمَتُهُ مقرونَان بالعزِّ الكامل، بخلاف الوصفَيْنِ في المخلوقِ؛ فيعتريهما ذلٌّ[2].

ويعْظُمُ معنى الصِّفاتِ المذكورة - العزَّة والحُكْمُ والحِكْمَة - في حقِّ اللّه تعالى؛ لدخولِ اللَّامِ المفيدَةِ استغراقَ الوصفِ، أي: هُوَ الجامِعُ لكُلِّ عِزَّةٍ وحِكمةٍ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/267.

(2) ابن عثيمين، القواعد المثلى، ص: 7 - 8.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٣﴾ [آل عمران: 63]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبلَها:

تَهديدُ من تَولَّى عَن دِيْنِ الله ﷻ:

الآيةُ عطفٌ على آية المُباهَلَة: ﴿فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ﴾ [آل عمران: 61]، وهذا تسجيلٌ عليهم إذ نكصُواْ عَنِ المُباهَلَةِ، وقد عُلِمَ بذلكَ أنَّهم قصَدُوا المُكابرةَ ولم يَتَطلَّبوا الحقَّ، لأنّهم يعلمون أنَّ مَنْ باهَلَ نبيًّا هَلَكَ؛ رُوِي أنَّهم لمّا أَبَوُا المُباهَلَةَ قال لهم النَّبيُّ ﷺ: «فَإِنْ أَبَيْتُم فأَسلِمُواْ» فأَبَواْ، فقال: «فإِنْ أَبَيْتُم فأَعطُواْ الجِزْيَةَ عَن يدٍ» فأَبَوْاْ، فقال لهم: «فَإِنِّي أَنبذُ إِليكم على سَواءٍ»[1]، وهذه الآية وعيدٌ للّذين أبواْ أن يستمعواْ إلى صوت الحقّ، وأن يستجيبواْ لما يدعوهم الرّسول إليه من الهدى واليقين.. ووصفُهُم بالمُفسدين حكمٌ بالإدانة عليهم، ومن كانت تلك صفتُه، فالنّارُ أولى به، وبئس المصير[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾: الوَلْيُ والتَّولِّي: قُرْبُ شَيءٍ مِن شَيْءٍ ولُزُومُه تَبَعًا له، إقبالًا أو إدبارًا؛ وأكثرُه في الإقبال، ولا يدلُّ على الإعراضِ والإدبارِ والبُعدِ إلَّا إذا عُدِّيَ بـ (عن)، أو دَلَّ السِّياقُ على ذلك، يُقالُ: تَوَلَّى عنه، أي: أَعْرَضَ، ووَلَّى هارِبًا، أي: أدبَرَ[3]، ومعنى ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ في الآية: فَإِنْ أَعرضُوا عن التَّوحيدِ وقَبُولِ الحقِّ الّذي قُصَّ عليكَ بعد ما عايَنوا تلكَ الحُجَجَ المُنيرةَ والبراهينَ السَّاطِعَةَ؛ هذا على كون الفِعلِ ماضيًا، أَوْ وإِنْ تُعْرِضوا، على كونه مضارعًا حُذفت منه إحدى التَّاءَين، وأصلُه: تَتَوَلَّوا[4].

2) ﴿بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾: من الفساد، وهو خروج الشّيء عن الاعتدال، قليلًا كان الخروج أو كثيرًا، ويستعمل ذلك في النّفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة، ومنه قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: 22]، وقوله: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 1/447، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/268.
(2) الخطيب، التفسير القرآنّي للقرآن: 2/485.
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: مادّة (ولي).
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/47، والآلوسّي، رُوح المعاني: 2/183.

[الرّوم: 41]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝٢٠٥﴾ [البقرة: 205][1]، والفَسادُ: نَقيضُ الصَّلاحِ، وهو: ذَهَابُ نَفْعِ الشَّيءِ المقصودِ منه بتَلَفِه وهَلَاكِه، ومعنى ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾، أيْ: فإنَّ اللّه عالمٌ بالمُفسدينَ الّذين يعبدون غيرَ اللّه، ويَدْعون النَّاسَ إلى عِبادة غيرِ اللّه فيجازيهم على ذلك[2].

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

كلُّ مَن تولَّى عَن دِين الله فهو مُفسِدٌ، ولو زَعَمَ الصَّلاح:

فإنْ أَعرضواْ عمّا جِئتَ به مِنْ وَحدانيَّةِ اللّهِ، ولم يَتَّبَعوكَ، فاعلمْ أنَّ تَوَلِّيَهم وإعراضَهم ليس إلَّا على سبيل العِنادِ، وذلكَ مِنْ فسادهم، فاقطعْ كلامَكَ عنهم، وفوِّضْ أمرَهم إلى اللّه، فإنَّ اللّه عليمٌ بفسادِ المُفسدينَ، مُطَّلِعٌ على ما في قلوبهم، قادرٌ على مُجازاتِهم، وسيُجازيهم على ذلك[3]، "فَإِنْ تَوَلَّوْا أي أعرضواْ عن قبول الحقّ الّذي قصّ عليك، بعد ما عاينواْ تلك الحجج النيّرة، فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ، أي بهم، فيجازيهم على إفسادهم، والتّعبير عنهم بذلك، إشارة إلى أنّهم بتولّيهم، مفسدُون اعتقادهم، واعتقاد غيرهم في اللّه تعالى"[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ وَضْعِ الْمُظْهَرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾:

التَّولِّي عَنِ الْحَقِّ إِلَــى الْـبَـاطِـلِ اِفْسَادٌ وَإِضْلَالٌ

في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ إظهارٌ في مقام الإضمار؛ فإنَّ مقتضى الظَّاهر: فإنَّ اللّه عَليمٌ بِهم، لقوله قبلُ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾، فأظهرَ في موضع الإضمار؛ لتَسجيلِ صِفةِ الفسادِ عليهم، فيكونُ في التَّوَلّي مُشاكلةُ اللَّفظِ والمعنى[5].

---

(1) الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (فسد).

(2) الخليل، العين، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فسد).

(3) جماعة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 58.

(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 2/331.

(5) السَّمين، الدُّرّ المصون: 3/230، و7/277، والدُّريهم، سورة آل عمران - دراسة بلاغيّة: ص 129.

والفعل ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾ فعلٌ ماضٍ، ويجوزُ أن يكونَ مضارعًا دالًّا مُستقبَلًا، وأصلُه: تتولَّوا[1]، فحُذِفت إحدَى التَّاءَين تخفيفًا، وهذا الحذفُ يُسمَّى: اقتطاعًا، وهو ضربٌ من ضروبِ إيجازِ الحذفِ.

نُكْتَةُ وَضْعِ الْمُظْهَرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾:

التَّولّي عَنْ دِينِ اللهِ تَعَالَى فَسَادٌ وَإِفْسَادٌ

أُكِّدَ الخبرُ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ بـ (إنَّ)، واسميَّةِ الجُملةِ؛ فإنَّها آكدُ من الجملةِ الفعليَّةِ لما تدلُّ عليه من الثَّباتِ واللُّزوم.

وفيه إسنادُ علم الله تعالى بالمفسدين إلى الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهَ﴾ دُون ضميرِه بقَصْدِ تَربيةِ المَهابةِ؛ ليَدُلَّ على أنَّ التَّولّيَ عن الحُججِ، والإعراضَ عن التَّوحيد إفسادٌ للدِّينِ والاعتقادِ المُؤدِّي إلى فَسَادِ النَّفْسِ، بل إلى فَسادِ العَالَمِ[2].

دِلَالَةُ حَذْفِ جَوَابِ الشَّرْطِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾:

الْمُعْرِضُونَ عَنْ دِينِ اللهِ تَعَالَى مُسْتَحِقُّونَ التَّهْدِيدَ وَالْوَعِيدَ

جُملةُ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ دالَّةٌ على جوابِ شَرْطٍ محذوفٍ، والمعنى: فإنَّ الله سيعاقبُهم؛ فالكلامُ مسوقٌ مساقَ الوعيد والتَّهديد، أو المعنى: فإنَّ اللّٰهَ عَليمٌ بهؤلاء المُجادلين بغير حقٍّ، وبأنَّهم لا يُقْدِمون على مُباهلَتِكَ؛ لمعرفتهم بنُبوَّتِك وثُبوتِ رسالتكَ؛ والكلامُ مَسوقٌ لتَسليتِه ﷺ[3].

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾:

شُمُولُ الْخَاصِّ بِاللَّفْظِ الْعَامِّ يُحقِّقُ الْمَقْصُودَ وَمَا تَعَلَّقَ بِهِ عَلَى الدَّوَامِ

مِنْ ملامح تَركيبِ الآيةِ الكريمةِ انطباقُ الوصفِ على كلِّ مَن اتّصَفَ به؛ فإنَّ التَّصريح باسم (المفسدين) أفاد العمومَ؛ فاللَّامُ فيه لاستغراقِ الأفرادِ، ويدخُلُ فيهم من جاءَ السِّياقُ فيهم دخولًا أوَّليًّا[4].

(1) النَّحَّاس، إعراب القرآن: 1/163، والسَّمين، الدُّرّ المصون: 3/230.
(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 2/21.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العقل السَّليم: 2/47، والآلوسّي، رُوح المعاني: 2/183.
(4) ابن عُثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة آل عمران: 1/367.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العُثُوّ وَالفَساد:

أَنَّ العُثُوَّ كَثْرَةُ الفَسَادِ، وَأَصلُهُ من قَوْلِكَ: ضَبُعٌ عَثواءُ، إذا كَثُرَ الشَّعْرُ على وَجهها، وكَذَلِكَ الرَّجُل، وعاثَ يَعيثُ - لُغَةٌ -، وعَثَا يَعْثُو: أَفْصَحُ اللُّغتَين، وَمِنْه قَوْلُه ﷻ: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ٦٠﴾ [البقرة: 60][1]، والفساد بأنواعه هلكة للأمّة، وسبيلٌ إلى دمار مقدّراتها، وانتكاس شبابها اليانع، في حمأة الانحراف والضّلال، وهو ما يفضي لا محالة إلى دمار الحضارة، وتمزّق الفكر والمجتمع، ولذلك شنّع عليه القرآن، واعتبره من أسباب الدّمار والتّلاشي، وإنّما عبَّرَ القرآنُ بالمفسدين بَدَلَ العاثين على هذا الفَرْقِ؛ للدَّلالةِ على شُمول علمِ الله تعالى كلَّ المفسدين؛ قَلَّ فسادُهم أو كَثُرَ.

---

(1) العَسْكريّ، الفُروق اللُّغويَّة، ص: 213.

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾ [آل عمران: 64][1]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـرّبـط بين النّـكـوص عـن المباهلة، والدّعـوة إلى كلمة سواء بين الطّرفين

لـمَّا نَكَصَ النَّصارى عَنِ المُباهلة، بَعْدَ أَنْ أوردَ عليهم أنواعَ الحُجَج فانقطعوا، فلم تَبْقَ لهم شُبْهَةٌ، وقَبِلُوا الصَّغارَ والجِزْيةَ، ولم يَبْقَ إلَّا إظهارُ النَّتيجة، فأَمَرَهُ أَنْ يُكرِّرَ عليهم الإرشادَ بطريقٍ أَخَفَّ ممَّا مضى؛ بأَنْ يُؤنسَهم فيما يدعوهم إليه بالمؤاساة، فيدعوَ دعاءً يَشمَلُ المُحاجِّين مِنَ النَّصارى وغيرِهم ممَّن له كتابٌ من اليهود وغيرِهم، إلى الكلمة الّتي قامت البراهينُ على حَقِّيَّتها، ونَهَضَتِ الدَّلائلُ على صدقِها؛ دعاءً لا أعدلَ منه، على وجهٍ يتضمَّنُ نفيَ ما قد يُتخيَّلُ من إرادة التَّفضُّل عليهم، والاختصاصِ بأمرٍ دونَهم؛ وذلك أنَّه بدأ بمُباشَرَةِ ما دعاهم إليه، ورضيَ لهم ما رضيَ لنفسه، وما اجتمعت عليه الكتبُ، واتَّفقَت عليه الرُّسُلُ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: حيثما ذَكَرَ اللّٰه تعالى أهلَ الكِتَاب؛ فالمرادُ بالكِتابِ: التَّوراةُ أو الإنجيلُ، أو هما جميعًا، ونداؤهم بأَهلِ الكِتاب فيه شَيءٌ مِنَ المَدح، وإقامةِ الحُجَّة عليهم[3]، وقد "ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ هُمْ: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بِفِرَقِهِمُ الْمُخْتَلِفَة،

(1) وسببُ نزولِ الآيةِ: أنَّه لمّا قَدِمَ وفدُ نَجْرانَ المدينةَ، والتَقَوْا معَ اليهودِ، اختَصموا في إبراهيمَ عليه السلام، فزعمتِ النَّصارى أنَّه كانَ نصرانيًّا، وهم على دِينه، وقالت اليهودُ: بل كانَ يهوديًّا، ونحن على دِينه، فقال لهم رسولُ الله ﷺ: «كِلَا الفَرِيقَيْنِ مِنْهُ بَرِيءٌ، بَلْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا، وَأَنَا عَلَى دِينِهِ»، ينظر: العُليميّ، فتح الرّحمن: 1/469.

(2) البقاعيُّ، نظمُ الدُّرر: 4/446 - 447.

(3) السَّمين، عُمدة الحفّاظ: 3/375.

وَتَوَسَّعَ الْحَنَفِيَّةُ فَقَالُوا: إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ هُمْ: كُلّ مَنْ يُؤْمِنُ بِنَبِيٍّ وَيُقِرُّ بِكِتَابٍ؛ وَيَشْمَل الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، وَمَنْ آمَنَ بِزَبُورِ دَاوُدَ، وَصُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَشِيثٍ؛ وَذَلِكَ لأَِنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ دِينًا سَمَاوِيًّا مُنَزَّلًا بِكِتَابٍ"[1].

2) ﴿تَعَالَوۡاْ﴾: أصلُه من العُلُوِّ، وهو السُّمُوُّ وَالارْتِفاعُ في المَنزِلِ والمَنزِلَةِ، فكأنّه دعاءٌ ونداءٌ إلى ما فيه رِفعةٌ، أو: مِن التَّعالي، وهو السُّمُوُّ والعُلُوُّ بالارتفاع، من مَوْضِعٍ هابطٍ إلى مكانٍ عالٍ، ثمَّ كثُرَ استعمالُه حتَّى صارَ دالًّا على طلَب التَّوجُّهِ إلى حيثُ يُدعى إليه، وإنْ لم يكن انتقالًا مِن مكانٍ إلى مكانٍ، والمرادُ: تَعْيينُ ما دَعَوا إليه، والتَّوجُّهُ إلى النَّظَرِ فيه[2].

3) ﴿كَلِمَةٖ﴾: جمعها كَلِمات وكَلِم: لفظة واحدة، أو مجموعة ألفاظٍ دالّةٍ على معنًى وفي الحديث: «الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ»، ومنه قوله تعالى: ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ﴾، والمراد: شهادة أنْ لا إله إلّا الله[3]، وأصلُ اشتقاقِ الكَلام من الكَلِم، وهو: التَّأثيرُ، ومنه قيلَ للجُرْحِ: كَلْمٌ؛ لتأثيره في الجِلْدِ[4]، فالمعنى: هَلُمُّوا إلى كَلِمةٍ فيها إنصافٌ مِنْ بعضنا لبعضٍ، لا مَيْلَ فيها لأحدٍ على صاحبه[5].

4) ﴿سَوَآءِۭ﴾: هو اسمٌ بمعنى الاستواء، نُعِتَ به كما يُنعَت بالمصادر مُبالغةً، ويُفسَّرُ بمعنى العَدْلِ والنَّصَفَةِ؛ لأنَّ ذلك مُستوٍ، ويُفسَّرُ بمعنى الوَسَطِ، قال تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ٥٥﴾ [الصّافّات: 55]، أيْ: في وَسطه، قال الزَّجّاجُ: ﴿سَوَآءِۭ﴾ نعتٌ للكلمة، يريدُ: ذاتِ سَوَاءٍ، فعلى هذا قولُه: ﴿كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ﴾ أي: كلمةٍ عادلةٍ مُستقيمةٍ مُستويةٍ، فإذا آمنّا بها نحنُ وأنتم كنَّا على السَّواءِ والاستقامةِ[6]، "وكلُّ مُسْتَوٍ من أرضٍ ومكانٍ أو غير ذلك من شيءٍ، فهو سواء؛ وَمِنْهُ قَوْلُ الله تعالى: ﴿قُلۡ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ﴾، أي عدل ذات استواء"[7] قَالَ الشّاعر:

(1) الموسوعة الفقهية الكويتية: 7/140.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (علو)، والرّاغب، المفردات: (علا)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (علو، علي)، والرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/252، والآلوسيّ، رُوح المعاني: 2/180.
(3) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 3/1954.
(4) السَّمين، عُمدة الحفّاظ: 3/422.
(5) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/252.
(6) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/252، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 1/557، وأبو السُّعود، إرشادُ العقل السَّليم: 1/36.
(7) الخطّابي: غريب الحديث: 2/187.

فاضْرِبْ وُجُوهَ الغُدُرِ الْأَعْدَاءِ *** حَتَّى يُجِيبُوكَ إِلَى الْسَّوَاءِ

5) ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾: مُستويةٍ بينَنا وبينَكم، لا يختلفُ فيها القرآنُ والتَّوراةُ والإنجيلُ[1]، ولا يختلفُ فيها الرُّسلُ، ويُفسِّرُها ما بعدَها: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[2].

6) ﴿أَرْبَابًا﴾: أَصلُ الرَّبِّ: إِصْلَاحُ الشَّيْءِ ولُزُومُهُ وَالقِيَامُ عَلَيْهِ، وضَمُّ بَعضِهِ إلى بعضٍ في تَجَمُّعٍ، وتَمَاسُكُهُ من أَجلِ الإصلاحِ أو الانتفاعِ[3]، والأربابُ: جمعُ رَبٍّ، وهو السَّيِّدُ المُرَبِّي المُطاعُ فيما يَأْمُرُ ويَنْهَى، أي: لا نتَّخذَهم أربابًا فنعتقدَ فيهم الأُلوهيَّةَ، ونعبدَهم على ذلك كعُزير وعيسى[4].

7) ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾: أعرضوا عمَّا دعوتموهم إليه من التَّوحيد وتركِ الإشراك[5]؛ والتّولّي: الإعراض مطلقًا، ولا يلزمه الإدبار، فإنّ تولّي الرّسول عن ابن أمّ مكتوم لم يكن بالإدبار، والتّولّي بالإدبار قد يكون على حقيقته، كما في قوله تعالى: ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾ [الأنبياء: 57]، وقد يكون كنايةً عن الانهزام كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥﴾ [التّوبة: 25][6].

8) ﴿ٱشْهَدُواْ﴾: شَهِدَ: كلمةٌ تَدُلُّ عَلَى حُضُورٍ وَعِلْمٍ وَإِعْلَام، والمشاهَدَةُ: الحُضورُ والمُعاينةُ، وشَهِدَهُ شُهُودًا: حَضَرَه، وقومٌ شُهودٌ، أي حُضورٌ[7]، "والشّهادة خبرٌ قاطعٌ تقول منه: شهد الرّجل على كذا، وربّما قالواْ شهد الرّجل، بسكون الهاء للتّخفيف؛ عن الأخفش. وقولهم: أشهَدُ بكذا؛ أي: أحلف "[8].

9) ﴿مُسْلِمُونَ﴾: أصلُ السِّلْمِ والإسْلامِ: الصِّحَّةُ وَالعافِيَةُ، أو: صِحَّةُ جِرْمِ الشّيءِ والْتِئامُ ظاهرِه في ذاته، ومنه الإسلامُ: الانقيادُ؛ لأنَّ فيه سَلامةَ الإنسانِ وعافيتَه بتَسليم نفسِه للّه[9]، ومعنى ﴿ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾: أي لزِمَتْكمُ الحُجَّةُ، فاشْهَدوا واعتَرِفوا بأنَّا مُسلمون دونَكم، وأنَّكم كافرون حيثُ تَوَلَّيتُم عن الحقِّ بعد ظُهورِه[10].

(1) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 1/371.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/251، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/21.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ربّ)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ربب - ربرب).
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/195.
(5) أبو السُّعود، إرشادُ العقل السَّليم: 2/47.
(6) الكفويّ، الكليات، ص: 28.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (شهد).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (شهد).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سلم).
(10) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/371، وأبو السُّعود، إرشادُ العقل السَّليم: 2/47.

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

الـدّعـوة إلى كـلـمة الـعدل والإنـصـاف في تـصـوّر رسالـة الإسـلام وعقيدته

قلْ أيَّها الرَّسولُ لهم: تعالَوا يا أهلَ الكِتَاب مِنَ اليَهودِ والنَّصارى، نَجتَمعُ على كلمةٍ عَدْلٍ نَستوي فيها جميعًا[1]، طالبًا منهم أن يرتفعوا من وهدة الباطل الّتي هم فيها واقعون، إلى كلمةٍ سواءٍ، كلمةِ عدلٍ ونَصَفٍ للفريقين، فريق النّبيّ وأصحابه، وفريق أهل الكتاب؛ من نصارى نجران ومن والاهم، ومفاد الكلمة السّواء أن يعبدوا اللّه وحده دون شريك، وأن لا يتّخذ بعضُهم بعْضًا أربابًا من دون اللّه، فيفرض المتبوع على التّابع طاعته، ويُلزمه بالسّجود له تعظيمًا وتقديسًا، فإن أبوا، فأَشْهِدْهُم بأنّك من المسلمين، ثابتًا لا تتحوّر، وملتزمًا لا تتغيّر[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلَالَةُ النِّدَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلۡ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾:

مِـنْ مَـحَـاسِـنِ الْـكَـلَامِ تَنْبِيهُ الْمُخَاطَبِ قَبْلَ تَوْجِيهِ مُهِمَّاتِ الْأَوَامِرِ إِلَيْهِ

ابتدأتِ الآيةُ الكريمةُ بفعل الأمرِ ﴿قُلۡ﴾، وهو تكليفٌ متضمِّنٌ معنَى التَّشريفِ، وفيه إيماءٌ إلى أهميَّة ما سيُتلى بعد ذلك.

وجِيءَ بأداةِ النِّداء (يا) الّتي يُنَادَى بها البعيدُ بعدَ فعل الأمر ﴿قُلۡ﴾؛ للإيماء إلى غَفْلَة المخاطبين.

وميَّزتِ المنادَى الإضافةُ في قوله: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾؛ لإعلام المخاطبين أنَّهم مخصُوصونَ من بين النَّاس ومقصودون بالأمر، فيزدادوا انتباهًا لِمَا نُودُوا من أجلِه[3].

دَلالَةُ التَّعْبِيرِ بِأَهْلِ الْكِتَابِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ تَعَالَوۡاْ﴾:

الإِنْـصَـافُ وَلِـينُ الْـكَـلَامِ أَدْعَـى إِلَى اسْتِجَابَةِ مَا يُدْعَى الْمَرْءُ إِلَيْهِ

قوله: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾ يَعمُّ كلَّ مَنْ أُوتيَ كتابًا كما هو ظاهرُ اللَّفْظِ؛ إلَّا أنَّ الأقربَ هنا حَمْلُهُ على النَّصارى؛ لأنّه أوردَ في الآيات

(1) نخبة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن، ص: 58.
(2) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 1/327.
(3) سعاد زدام، أحمد بن بلّة، دلالة الأساليب الإنشائيّة في القرآن الكريم، ص: 121.

مِنَ الدَّلائل عليهم أوَّلًا، ثمَّ باهلَهم ثانيًا، فعَدَلَ في هذا المَقام إلى الكلام المبنيِّ على رعاية الإنصافِ، وترك المُجادَلَة، وطَلَب الإفحام والإلزام، ممّا يَدُلُّ عليه أنّه خاطبَهم هنا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

وهذا الاسمُ - أهل الكتاب - مِنْ أحسنِ الأَسماءِ وأكملِ الألقاب، حيثُ جَعَلَهم أَهْلًا لكتابِ اللّهِ تعالى، فإنَّ هذا اللَّقَبَ يدلُّ على أنَّ قائلَه أرادَ المُبالغةَ في تعظيم المُخاطَبِ وفي تَطْييبِ قلبه، وذلك إنَّما يُقالُ عند عُدولِ الإنسانِ مع خَصْمِه عن طريقةِ اللَّجاجِ والنِّزاعِ إلى طريقةِ طَلَبِ الإنصافِ[1]، وهذا أَدْعَى إلى قبول ما يُدْعَى إليه.

دِلَالَةُ الْأَمْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَعَالَوۡاْ﴾:

اخْتِيَارُ اللَّفْظِ الْمُنَاسِبِ فِي الْحِوَارِ أُسْلُوبٌ دَعَوِيٌّ مُؤَثِّرٌ

الفعلُ ﴿تَعَالَوۡاْ﴾ مأخوذٌ مِنَ التَّعالي، وهو الارتفاعُ مِن مَوْضِعٍ هابطٍ مُستَفِلٍ إلى مكانٍ عالٍ، ثمَّ كثُر استعمالُه حتَّى صارَ دالًّا على طَلَب التَّوجُّهِ إلى حيثُ يُدعى إليه، والأمر ﴿تَعَالَوۡاْ﴾ دالٌّ على الالتماسِ، فقد جاءَ على سبيلِ التَّلطُّفِ، دونَ تَضرُّعٍ ولا استعلاءٍ، فكأنَّ كلمةَ ﴿تَعَالَوۡاْ﴾ في الآية الكريمةِ تَدعو أهلَ الكتابِ دَعوةً كريمةً وَدُودَةً إلى أنْ يَرتَفِعوا إلى مَنزلةٍ عَقَدِيَّةٍ ساميةٍ، تُمكِّنُهم مِن توحيدِ اللّه تعالى[2]، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ ما هم عليهِ من الدِّين ليس بشيءٍ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بِلَفْظِ ﴿كَلِمَةٖ﴾ مُفْرَدَةً دُونَ جَمْعِهَا:

أَدِلَّةُ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) وَشَوَاهِدُهَا مِمَّا يُسَهِّلُ قَبُولَهَا وَالْإِقْرَارَ بِمَضْمُونِهَا

عَبَّرَ في الآية الكريمة بالكلمة عَنِ الكلمات؛ لأنَّ الكلمةَ قد تُطلقُها العَربُ على الكلام، إمَّا لوضعِ المُفْرَدِ مَوضِعَ الجَمْعِ، وإمَّا لكون الكلمات مُرتبطةً بعضُها ببعضٍ، فصارت في قوَّة الكلمةِ الواحدة، إذا اختَلَّ جُزءٌ منها اختلَّت الكلمةُ؛ فكلمةُ التَّوحيد (لَا إِلَهَ إِلَّا اللّه)، كلماتٌ لا تَتمُّ النّسبةُ المقصودةُ فيها مِنْ حَصْرِ الألوهيَّةِ في اللّه إلَّا بمجموعها[3].

---

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/251 - 252، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/193.

(2) الغول، الإعجاز اللُّغوي في سورة آل عمران، ص: 61، و271.

(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/194.

ويُمكنُ أن يكونَ في الآيةِ مجازٌ مُرسَلٌ، مِن بابِ إطلاقِ الجُزء، وهو الكلمةُ، وإرادَةِ الكُلِّ، وهو قولُه: ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾.

والتَّحقيقُ أنَّ إطلاقَ (الكلمة) على اللَّفْظِ المفردِ هو اصطلاحٌ نحويٌّ، أمَّا (الكلمةُ) في لسان العرب فتُطلَقُ على الكلامِ المفيدِ، وهو الاستعمالُ المطَّرد لها في الكتاب والسنَّة[1]، فاستعمالُ الكلمةِ في الآيةِ مرادًا بها كلمة التَّوحيد: لا إله إلَّا اللّه؛ استعمالٌ حقيقيٌّ جارٍ على طريقة العربِ، ولا يمنعُ أن يكون إفي فرادِهَا إشعارٌ بأنَّ المطلوبَ من أهل الكتابِ ليس أمرًا شاقًّا عليهم بحيث يصعبُ عليهم أن يُجيبُوا إليه، بل أدلَّتها وشواهد صحَّتها تُسهِّلُ قَبولَهَا.

بَلَاغَةُ التَّمْثِيلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا﴾:

الْـعَـدْلُ مَـعَ الْخُصُومِ مَدْعَاةٌ لِرُجُوعِهِمْ إِلَى الْحَقِّ

قول اللّه تعالى: ﴿كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا﴾ خرجَ مخرجَ التَّمثيلِ؛ إذ جُعلتِ الكلمةُ المُجتَمَعُ عليها شبيهَةً بالمكانِ الذي يُرادُ الاجتماعُ عنده، تحقيقًا لمعنى الاستواءِ وإبرازًا له في قالبِ المحسوسِ.

وضميرُ: ﴿بَيۡنَنَا﴾ عائدٌ على معلوم من المَقام، وهو النَّبيُّ ﷺ والمسلمون، ولذا جاء بعدَه: ﴿فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾[2].

تَأْكِيدُ مَنْطُوقِ الْأَلْفَاظِ بِمَفْهُومِهَا وَلَازِمِهَا:

دِقَّـةُ اخْـتِـيَـارِ الْأَلْـفَـاظِ وَاتِّسَاقُهَا سِمَةٌ مُلازِمَةٌ لِلتَّرْكِيبِ الْقُرْآنِيِّ

الأفعالُ الّتي دخلت عليها أداةُ النَّفي ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، ﴿وَلَا نُشۡرِكَ﴾، ﴿وَلَا يَتَّخِذَ﴾ مُنسجمةٌ مِنْ حيثُ المعنى، يُؤكِّدُ بعضُها بعضًا؛ إذِ اختصاصُ اللّهِ بالعِبادة يَتضمَّنُ نفيَ الاشتراكِ، ونفيَ الأربابِ من دون اللّه، ولكنَّ المَوضِعَ مَوضِعُ تأكيدٍ[3]، رعايةً لحقِّ التَّوحيدِ.

(1) ابن تيمية، الجواب الصحيح: 3/286.
(2) المصدرُ نفسُه: 3/269.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/196.

وفي قوله تعالى: ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ التَّعريضُ بالّذين عبدوا عيسَى عليه السلام[1].

بَلَاغَةُ الْإِظْهَارِ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ:

تَأْكِيدُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِلْمَعَانِي الْجَلِيلَةِ

في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ إظهارٌ في مقام الإضمارِ؛ إذ صُرِّحَ بالاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِۚ﴾ قبلُ في قوله: ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، فكان مقتضى الظَّاهر أن يرد النَّظمُ: (ألَّا نعبدَ إلَّا اللّه ولا نشرك به شيئًا ولا يتَّخذ بعضُنا بعضًا أربابًا من دونِه)، ونكتة الإظهار: تَربيةُ المَهَابةِ بتَكرار الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِۚ﴾، وتأكيدُ معنى الألوهيَّة الذي تضمَّنَهُ، وترسيخُهُ في القلوبِ؛ لعظيمِ الحاجةِ إليه، لأنَّ المقامَ مقامٌ لِبيانه.

دَلَالَةُ عَطْفِ ﴿وَلَا نُشۡرِكَ﴾ عَلَى مَا قَبْلُ:

الْعُبُودِيَّةُ للهِ تَعَالَى هِيَ غَايَةُ الْحُبِّ مَعَ غَايَةِ الْخُضُوعِ

أَفادَ عطفُ ﴿وَلَا نُشۡرِكَ﴾ على ما قبله، وكذا ﴿وَلَا يَتَّخِذَ﴾ التَّشريكَ في الحُكْمِ والإعرابِ والمعنى؛ لاتِّحاد الجُمَل في الخَبَريَّة[2]، وحسَّنَ العطفَ اشتراكُها في الفِعْلِيَّةِ، وما بينها من تناسُبٍ في المعنَى؛ لاِسْتِلْزَامِ كُلِّ فعلٍ لما بعدَهُ.

دَلَالَةُ تَنْكِيرِ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾:

الْعِبَادَةُ مَحْضُ حَقٍّ للهِ تَعَالَى

الضَّميرُ في ﴿بِهِۦ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ راجعٌ إلَى اللّه تعالى، و﴿شَيۡـٔٗا﴾: أعمُّ كلمةٍ في العربيّة، وقد جاءتْ نكرةً؛ أي: لا نَتَّخذَ مَعَهُ مَن لا يَستحقُّ أن يكونَ رَبًّا، وليس عنده مُقوِّماتُ الأُلوهيَّةِ أو الرُّبوبيَّةِ؛ كعيسى عليه السلام، أو أحدٍ مِن خَلْقِهِ، أو أيِّ شيءٍ مهما كان.

و﴿شَيۡـٔٗا﴾: يَحْتَمِلُ أَنْ يكون مفعولًا به، ويحتملُ أن يكون مصدرًا، أي: شيئًا مِنَ الإشراك، وجاء النَّكرةُ في سياق النَّفْيِ لتفيدَ عمومَ ما

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/269.

(2) الدّبل، دليل البلاغة القرآنيَّة: 1/467.

يُتَّخذ من دون اللّه تعالى؛ إذِ العبادَةُ محضُ حقِّ اللّه تعالى، لا تُصرف لا لمَلَكٍ مقرَّبٍ ولا لنبيٍّ مرسَلٍ، بل إنَّ العموم في التَّنكيرِ يشمل عمومَ مُتعلِّقاتِ الفعل من مفعولٍ به ومصدرٍ وزمانٍ ومكانٍ وهيئةٍ[1].

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِصِيغَةِ الِافْتِعَالِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابًا﴾:

التَّـوجُّـهُ إِلَى غَيْرِ اللهِ تَعَالَى خِلَافُ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ الْفِطْرَةُ.

لَـمَّا كان التَّوجُّهُ إلى غير اللّه خِلافَ ما تَدْعُو إليه الفطرةُ الأُولَى، عبَّر بصيغةِ الافتعالِ؛ للإيماءِ إلى أنَّ الشِّركَ لا تطاوِعُه الفطرة فيحتاجُ المرءُ إلى أن يتكلَّفَه تكلُّفًا شديدًا.

دلَالَةُ الْبَعْضِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابًا﴾:

الْبَشَرِيَّةُ تُنَافِي الْأُلُوهِيَّةَ.

في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابًا﴾ إيماءٌ إلى إبطال ألوهيَّة عيسى عليه السلام؛ فإنَّ البشريَّةَ المستفادةَ من ﴿بَعۡضُنَا بَعۡضًا﴾ تُنافي الألوهيَّةَ؛ إذْ كانَ مِثْلُكَ استحالَ أن يكونَ إلهًا، واختصاصُ اللّه بالعِبادة يتضمَّن نفيَ الاشتراك، ونفيَ اتِّخاذِ الأربابِ من دون اللّه تعالى[2].

الْإِيجَازُ بِالْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾:

مِـنْ طَـرِيـقَـةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ طَـيُّ مَـا دَلَّ السِّيَاقُ عَلَيْهِ.

في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ إيجازٌ بالحذفِ؛ إذ حُذِفَ متعلَّق التَّولِّي، والتَّقديرُ: فإن تولَّوا مُعرضين عن الحقِّ وعمَّا دُعُوا إليه، أو: فإنْ تَتَولَّوا عن الحقِّ الّذي أُمِرْتم به ﴿فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾[3].

بَرَاعَةُ الْمُبالَغَةِ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ الْعِلْمِ بِالشَّهَادَةِ:

إِخْـرَاجُ الْمَعْقُولِ فِـي قَـالَـبِ الْمَحْسُوسِ أَظْهَرُ فِي الْبَيَانِ

خَرَجَ التَّعبيرُ عن العلم بالشَّهادة على سَبيل المبالغةِ في قوله تعالى: ﴿ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾؛ وذلك لإخراجِ المعقولِ إلى حيِّز المشهودِ، وهو المُحضَرُ في الحِسِّ.وفي هذا تصريحٌ بمخالفتِهم ومخاطبتِهم ومواجهتِهم بذلك، وإشهادِهم فيه على معنى التَّوبيخ والتَّهديدِ، أي: ستَرَوْنَ أنتم أيُّها المُتولُّون عاقبةَ تولِّيكم كيفَ تكونُ[4].

---

(1) المصدر نفسه: 3/195.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/196.
(3) الدّبل، دليل البلاغة القرآنيَّة، ص: 467.
(4) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 1/449، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/196، والطِّيبيّ، فُتوح الغيب: 4/13.

حُسْنُ التَّرَقِّي فِي الْحِجَاجِ:

الدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ تَعَالَى قَائِمَةٌ عَلَى الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَالْجِدَالِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

في القِصَّة إرشادٌ وحُسْنُ تَدرُّجٍ في الحِجَاجِ والمُناظرة، فقد بيَّنَ أوَّلًا أحوالَ عيسى عليه السلام، وما تَعاورَ عليه من الأطوار المُنافية للألوهيَّة، ثمَّ ذكرَ ما يَحُلُّ عُقْدَتَهم، ويزيحُ شُبْهتَهم، فلمَّا رأى عِنادَهم ولَجاجَهم دعاهم إلى المُباهلَة بنوعٍ من الإعجاز، ثمَّ لمّا أَعرضُوا عنها وانقادوا بعضَ الانقيادِ؛ عادَ عليهم بالإرشادِ، وسَلَكَ طريقًا أسهلَ وألْزَمَ، بأنْ دعاهم إلى ما وافقَ عليه عيسى والإنجيلُ وسائرُ الأنبياءِ والكتبِ، ثمَّ لمّا لم يُجْدِ ذلك فيهم أيضًا، وعَلِمَ أنَّ الآياتِ والنُّذُرَ لا تُغني عنهم؛ أَعْرَضَ عن ذلك، وقال: ﴿فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1].

الفُرُوقُ الْمُعْجَمِيَّةُ:

الأَخْذ والاتِّخاذ:

الاتِّخاذُ: افتعالٌ من الأَخْذِ، والأَخْذ والاتِّخاذ هو تحصيلُ الفعلِ للنَّفْس، أو: أخذُ الشَّيءِ لأمرٍ يَسْتَمِرُّ فيه، وتأتي للاجتهاد في أداءِ الفعل بالمبالغة فيه، ولتسمية الشَّيءِ والحُكم عليه بغير حقيقته، كاتّخاذِ الكفّارِ آلهةً من دون الله[2]. أمَّا الأَخْذُ فخِلافُ العطاءِ، وهو تَحصيلُ الشَّيءِ في الحَوْزَة بقوَّة، كقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ﴾ [الأعراف: 150][3]، والأخذ مصدر أخذتُ بيدي، ويستعار فيقال: أخذَهُ بلسانه؛ إذا تكلّم فيه بمكروه، وجاء بمعنى العذاب في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ﴾ [هود: 102].

(1) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 2/21، وأبو السُّعود، إرشادُ العقل السَّليم: 2/47.
(2) العسكريّ، الفُروق اللُّغويَّة، ص: 138، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نقم).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أخذ).

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥﴾ [آل عمران: 65]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تَوبيخُ أهلِ الكِتابِ في مُحاجَجتِهم في إبراهيمَ، بعد إبطال أُلوهيّة المسيحِ

أقامَ القرآنُ الحجَّةَ على النَّصارى في ادِّعائهم أُلوهيّةَ المسيحِ، ثمَّ دعا هنا اليهودَ والنَّصارى[1]، إلى أَصل الدِّين وروحه الّذي اتّفقت عليه دعوةُ الأنبياء جميعًا، وهو توحيدُ اللّه وعبادتُه، والاقتداءُ بأبي الأنبياء إبراهيمَ عليه السلام؛ فمِلَّته ملَّةُ الإسلام، ولم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا[2]، إنّ اليهود منكم ينسبون أنفسهم إلى موسى، والنّصارى منكم ينسبون أنفسهم إلى عيسى، وإبراهيم عليه السلام لا يمكن أن يكون يهوديًّا تابعًا لموسى كما يدّعي اليهود، فاليهوديّة ذاتها قد جاءت من بعد إبراهيم، والنّصارى لا يمكنهم الادّعاء بأنّ إبراهيم كان نصرانيًّا تابعًا لعيسى، لأنّ النّصرانيّة قد جاءت من بعد إبراهيم عليه السلام، فلم المحاجّة إذن، والحقّ واضح، وحجّة القوم داحضة، لا يقبلها العقلُ، ولا يؤيّدها الواقع؟[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُحَآجُّونَ﴾: الحِجُّ والحِجاجُ: شيءٌ صُلْبٌ أو مَتينٌ لحمايةِ ضعيفٍ، واحتجَّ الشّيءُ: صَلُبَ، وحِجَاجُ العَينِ: عَظْمُ العَينِ المحيطُ بالحَدقةِ يَحميها، حَجَّ البيتَ: قصدَه، زارَه ودخلَ حَرَمَه، فاحتمى به، والحُجّةُ، بالضَّمِّ: البرهانُ، أمرٌ أو دليلٌ قويٌّ صلبٌ للرّأي يَحفظُه ويَدعمُه[4]، والحُجَّةُ: وَجْهُ الظَّفَر عند الخُصومة، والجمعُ:

(1) في سبب نزولِ هذه الآية، قال ابنُ عبَّاسٍ (رضي الله عنهما): اجتمعتْ نَصارى نَجْرانَ وأَحبارُ يهودَ عند النَّبيِّ (صلى الله عليه وسلم)، فتَنازعوا عنده، وفقالتِ الأحبارُ: ما كان إبراهيمُ إلَّا يهوديًّا، وقالت النَّصارى، ما كان إبراهيم إلَّا نصرانيًّا، فأنزل اللهُ الآية. ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 1/450.

(2) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 2/261، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/270، والزُّحيلّي، التَّفسير المنير: 3/252.

(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1524.

(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حج)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حج، حجحج).

حُجَجٌ، والمُحاجَّةُ: أنْ يَردَّ كلُّ واحدٍ عن حُجَّة الآخر ومحجَّتِهِ[1]، وَقَالَ بعضهم الْحجَّة هِيَ الاسْتِقَامَة فِي النّظر والمضي فِيهِ، على سنَن مُسْتَقِيم، من رد الْفَرْع إِلَى الأَصْل[2]، وَهِي مَأْخُوذَة من المحجّة، وَهِي الطَّرِيق الْمُسْتَقِيم، وقوله تعالى﴿تُحَآجُّونَ﴾: تَأْتُونَ بحُجَجٍ بَاطِلَةٍ غير مؤسّسة.

2) ﴿تَعۡقِلُونَ﴾: العقل: نقيض الجهل، ويقال في استعمال العرب: عقل يعقل عقلًا فهو عاقل، وقولهم المعقول: ما تعقله في فؤادك، " ويقال: هو ما يفهم من العقل، وهو العقل واحد، كما تقول: عدمت معقولًا، أي ما يفهم منك من ذهنٍ أو عقل، قال دغفل:

فَقَدْ أَفَادَتْ لَهُمْ حِلْمًا وَمَوْعِظَةً *** لِمَنْ يَكُونُ لَهُ إِرْبٌ وَمَعْقُولُ[3]

والعَقْلُ: إِمْسَاكُ الشَّيْءِ وحَبْسُه في جوفٍ حَصين، بحيثُ لا يَذهبُ أو يَضيعُ، ومنه العقل؛ لأنّه يُدْرِكُ ويَلْتَقِطُ ويَختزنُ العلمَ بالشَّيءِ مباشرةً أو استنتاجًا[4]، و﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أي: هذا كلامٌ من لا يَعْقِلُ، إذِ العَقْلُ يَمنعُ من ذلك، ولا يُنَاسِبُ أن يكونَ مُوافقًا لهم، لا في العقائدِ ولا في الأحكام[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إبراهيم عليه السلام مرجع الدّيانات السّماويّة اللّاحقة، وليس تابعًا لها

يا أهلَ الكِتابِ لَا يُسَوَّغُ لكم المُحاجَّةُ في شأن دِينِ إبراهيم عليه السلام وشرعِه، مِن حيثُ إنَّه كانَ يهوديًّا أو كان نَصرانيًّا، ومِن حيثُ إنَّكم أَتْبَعُ النَّاس له، أو أبعدُ النَّاسِ عنه، ومن حيثُ ما جاء به وحقيقةُ دعوتِه؛ قائلًا لهم: "إنّ التّوراة والإنجيل ما جاءا إلّا من بعده، فكيف يكون يهوديًّا يدين بالتّوراة، قبل أن تجيء التّوراة، وكيف يكون نصرانيّا يدين بالإنجيل، قبل أن ينزل الإنجيل؟!؛ إنّ هذه محاجّةٌ واضحة البطلان"[6]، ولكنّ تحجّر العقول، وانطماس مدارك الأقوام من أهل الكتاب، جعلهم لا يعقلون.

---

(1) الخليل، العين (حجّ)، والرّاغب، المفردات: ص 219.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 70.
(3) الخليل، العين: 1/159.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عقل).
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/197.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1261.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلَالَةُ الِافْتِتَاحِ بِأَدَاةِ النِّدَاءِ (يَا) فِي قَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

نِدَاءُ أَهْلِ الْكِتَابِ نِدَاءٌ مَخْصُوصٌ؛ اسْتِرْعَاءً لِلْآذَانِ وَتَهْيِئَةً لِلسَّامِعِ

افتُتِحَت الآيةُ الكريمةُ بأداة النِّداء؛ استرعاءً للآذان وتهيئةً للسَّامع، ولا سيَّما أنَّه نداءٌ مخصوصٌ لطائفةٍ معيَّنة، فقد تلاه مُنادًى مُضافٌ؛ تَمييزًا وتَعْيينًا لِلفِئَةِ المُوجَّهِ إليها الخِطابُ، وهي فئةُ أَهلِ الكِتاب؛ لأنَّهم يعلمون ما في التَّوراة والإنجيل من أَمْرِ مُحمَّد ﷺ، وأَمْرِ الأحكام الَّتي يُنْكِرونها[1].

تَوْضِيحُ الْخِطَابِ وَتَخْصِيصُهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

سُلُوكُ طَرِيقِ الْمُحَاجَّةِ لِرَدِّ الْمَقَالَاتِ الْبَاطِلَةِ

يجوز أن تكون هذه الجُملةُ مِنْ مَقُولِ القَولِ المأمورِ به الرَّسولُ ﷺ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ﴾ [آل عمران: 64]، أي: قُلْ لَهُم: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ﴾، ويجوزُ أن تكونَ استئنافًا من كلام اللّٰه تعالى عَقِبَ أَمرِهِ الرَّسولَ بأنْ يقولَ: ﴿تَعَالَوۡاْ﴾، فيكون توجيهُ خطابٍ إلى أهل الكتاب مُباشرةً، وتكون الجُملةُ الأُولى من مَقولِ الرَّسول ﷺ دون هذه؛ لأنَّ الأُولى مِنْ شُؤون الدَّعوة، وهذه من طُرق المُحاجَّة، وفيها إبطالٌ لِقولِهم، وذلك في الدَّرجة الثَّانية مِنَ الدَّعوة، والجميعُ في النِّسبة إلى اللّٰه تعالى سواءٌ[2].

دلَالَةُ الِاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ﴾:

كَشْفُ زُورِ الْمُدَّعِينَ بِرَدِّ حُجَجِهِمُ الْبَاطِلَةِ

وردَ في الآية الكريمة استفهامان؛ أحدهما في قوله: ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ﴾، والآخَرُ في قوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾، فأمَّا الأوَّلُ فقد جاء لغَرَض الإنكارِ والتَّسفيهِ والتَّعجُّب؛ لظهور بطلان الدَّعوى، وأمَّا الثَّاني في قوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾، فهو للتَّوبيخ والتَّجهيل؛ لأنَّ كمالَ العَقْلِ يَنْأى بصاحبه عن هذا الخَطَل[3].

---

(1) لاشين، المعاني الثَّانية في ضوء أساليب القرآن، ص: 328، وسعاد زدام، دلالة الأساليب الإنشائيَّة، ص: 122.

(2) ابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/270.

(3) الآلوسيّ، رُوح المعاني: 2/187، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/272، والمطعنيّ، التَّفسير البلاغيُّ للاستفهام: 1/167.

تَعْلِيقُ الْأَحْكَامِ بِالذَّوَاتِ تَشْرِيفٌ لَهَا وتَكْرِيمٌ

دلَالَةُ الحَذْفِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾:

في قول الله تعالى: ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ حذفٌ؛ والتَّقديرُ: لمَ تحاجُّونَ في شيءٍ مِنْ أحواله، وظاهرٌ أنَّ المُرادَ بذلك هنا دينُه، فيكون ما في الآية مِن تَعليق الحُكم بالذَّات، والمُرادُ حالٌ مِن أحوالِ الذَّات، ويتعيَّن ذلك مِنَ سياق الكلام[1]، والنُّكْتَةُ في الحذفِ: هو تشريفُ الذَّاتِ التي عُلِّقَ بها الحُكمُ ظاهرًا وتكريمُهَا.

الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ يُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضًا

نُكْتَةُ بِنَاءِ الْفِعْلِ ﴿أُنزِلَتِ﴾ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ:

من المتقرِّر أنَّ التَّوراةَ والإنجيلَ مُنزَّلةٌ من عند الله، وإنَّما جيءَ بالفعل ﴿أُنزِلَتِ﴾ مَبنيًّا للمفعولِ للعِلْم بالـمُنَزِّل وهو اللهُ تعالَى، وهذا نظيرُ قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ٢٨﴾ [النِّساء: 28]، فالخَالقُ هو اللّه تعالى، حُذِفَ للعِلْم به، ولمّا كان الضَّعفُ صِفةَ نقصٍ؛ بُني الفعلُ هنا للمفعولِ[2]، وكذا في بناءِ فعل الإنزال للعِلْم به، كما يدلُّ عليه أوَّلُ السُّورة في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: 3]؛ فإنَّ القرآن يفسِّرُ بعضُه بعضًا.

بُطْلَانُ دَعْوَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي نِسْبَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى دِينِهِمْ

دَلالةُ اللَّفِّ وَالنَّشْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾:

في قول الله تعالى: ﴿ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ﴾ نشْرٌ بعد اللفِّ في قوله: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ إذ الكتابُ جنسٌ يشمل - في هذا السياق - التَّوراة والإنجيل، ثُمَّ وردَ تفصيلُه في قوله: ﴿ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ﴾، فذِكرُ التَّوراةِ لإبطال قولِ اليهودِ، وذِكرُ الإنجيلِ لإبطال قولِ النَّصارى، وذِكرُ التَّوراةِ والإنجيلِ هنا لِقَصْدِ جَمْعِ الفريقَين في التَّخطئة، وإنْ كان المقصودُ أوّلًا هم النَّصارى الّذين مَساقُ الكلامِ معهم[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/274.

(2) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم، سورة آل عمران: 1/380.

(3) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/253، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/272.

دِلَالَةُ ﴿مِنۢ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾:

ضَرُورَةُ الْعِلْمِ بِالتَّارِيخِ لِبَيَانِ الْحَقِّ وَرَدِّ الشُّبَهِ

لمّا كان إنزالُ كتابِ كُلٍّ مِنَ اليهود والنَّصارى غيرَ مستغرِقٍ للزَّمان الآتي بعدَه أدخلَ حرفَ الجرِّ ﴿مِنۢ﴾، فقالَ: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾[1]؛ لإفادة هذا المعنى.

التَّعْرِيضُ بِنَفْيِ الْعَقْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾:

بَيَانُ أَهَمِّيَّةِ الِاحْتِجَاجِ الْعَقْلِيِّ

في قول اللّه تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ إشعارٌ بأهميَّةِ النَّظرِ والتَّأمُّلِ وإعمال العقلِ في الفِكَرِ؛ فإنَّ البرهانَ الّذي استعمله القرآنُ الكريم في بطلان دعوى اليهود والنصارى برهانٌ عقليٌّ، ولِذَا كان واضحًا خَتْمُ الآيةِ بقوله مُنكِرًا عليهم: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾، أي: هَبْ أنَّكم لَبَّسْتُم وادَّعيتم أنَّ ذلك في كتابكم زورًا وبهتانًا، وظَنَنْتُم أنَّ ذلك يَخفَى على مَن لا إلمامَ له بكتابكم، فكيف غَفَلْتُم عَنِ البرهان العَقليّ[2]؟! ففي قوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ تعريضٌ بعدم نظرِهم العقليِّ حتَّى كأنَّ لا عقولَ لهم.

دِلَالَةُ الفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾:

مَنْ حَادَ عَنْ مُقْتَضَيَاتِ الْعَقْلِ؛ كَانَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ

قول اللّه تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ نتيجةٌ لهذا الحكم الّذي يتحاجُّون فيه، وهو كون إبراهيم يهوديًّا أو نصرانيًّا؛ إذ إنَّ ذلك هو حكمُ مَنْ لا يَعْقِلُ! ولذلك كانت الفاءُ مفيدةً السَّببيَّةَ، وهو كون ما قَبْلَها سببًا لما بعدَها، فَتِلك الحالُ الّتي هم عليها مِنَ الغرابة هي السَّبب في ذلك السُّؤالِ عن أَصل عَقلهم، وإدراكِهم لمعناها[3].

۞ الْفُرُوقُ الْمُعْجَمِيَّةُ:

الجِدال والحِجَاج والمِراء:

الفرقُ بينها أنَّ المطلوبَ بالحِجَاج هو ظُهُورُ الحُجَّة، والمطلوبَ

(1) البقاعيّ، نظمُ الدُّرر: 4/450.

(2) البقاعيّ، نظمُ الدُّرر: 4/450، والمطعنيّ، التَّفسير البلاغيُّ للاستفهام: 1/167.

(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1262.

بالجدال: الرُّجوعُ عَنِ الـرّأي، فإنَّ أصلَهُ مِنَ الجَدَلِ، وهو شِدَّة الفَتْلِ، أمَّا المِراءُ: فهو مُخاصَمَةٌ في الحقِّ بعد ظهوره[1]، وفي الفروق أنّ "المطلوب بالجدال: الرّجوع عن المذهب، فإنّ أصله من الجدل، وهو شدّة الفتل، ومنه الأجدل لشدّة قوّته من بين الجوارح، ويؤيّده قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: 32]، وقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النّحل: 125]، وذلك أنّ دأب الأنبياء عليهم السلام كان رَدْعَ القوم عن المذاهب الباطلة، وإدخالهم في دين الله، ببذل القوّة والاجتهاد في إيراد الأدلة والحجج"[2]، ومنه فإنّ الجدال مقبول شريطة أن يكون بالّتي هي أحسن، وكذلك الحجاجُ العقليُّ مرضيٌّ، لِطِلَابِ الحقّ، مالم يكن مقرونًا بشبهة، فإنّه ينهى عنه آنئذٍ، وأمّا المراء فمذموم بكليّته.

الإنزال والتنزيل:

الإنزالُ يأتي عامًّا في نقل الشَّيء من عُلْوٍ إلى سُفْلٍ[3]، أمَّا التَّنزيلُ فهو ترتيبُ الشَّيء ووضعُه منزِلَه[4]، فالهمزةُ في الإنزال للتَّعدية، أمَّا التَّنزيلُ فليس التَّضعيف فيه للتَّعدية فحَسْبُ؛ وإنَّما أفاد التَّضعيفُ معنى التَّكرير، وقال في المخصّص: "وَقد يسْتَعْمل (نزَّل) في معنى التّكثير، فَأَما (أَنْزَل) و(نزَّل) بِمَعْنى واحدٍ غير التّكثير، فقولُه ﷻ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ﴾ [محمد ﷺ: 20]، وَقَالَ ﷻ: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ﴾ [الأنعام: 37]، فَهَذَا لغير التّكثير لِأَن آيَة وَاحِدَة لَا يَقع فِيهَا تَكْثِير الْإِنْزَال"[5].

(يَعْقِلُ) و(يَعْلَمُ):

الّذي يَعْقِلُ هو الّذي يَستطيعُ بعقله أنْ يَستنبطَ الأشياءَ، فإذا لم يكن لديه العَقلُ الاستنباطيُّ عَرفَ المسألةَ ممَّنْ يستنبطُها، وعليه فالعِلْمُ أوسعُ دائرةً من العَقل؛ لأنَّ العَقلَ يَعلَمُ ما عَقِلَهُ، أَمَّا العِلْمُ فيَعلَمُ ما عَقلَهُ هو ومَا عَقلَهُ غيرُه، فـ(يعلمون) أعمُّ مِنَ (يعقلون)[6]، ولا شكّ أنّ العقل والعلم لا ينفكّ أحدهما عن الآخر، إذ إنّ تمام العلم لا

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 189، والجرجاني، التَّعريفات: ص 74.
(2) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة: ص 158.
(3) المناويّ، التّوقيف، ص: 64.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نزل).
(5) ابن سيده المرسّي، المخصّص: 4/306.
(6) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ، الخواطر: 19/11703.

يتأتّى ولا يتاح إلّا بتمام العقل، ولا يُتصوّر دور العقل وفعاليّته وإنتاجه وعبقريّته دون أن يتزوّد صاحبه بالعلم الّذي ينير له عقله، فما أروع العقل إذا تدرّع بسلطان العلم، وما أضلّه حين يتجرّد منه وتلُفّه غشاوة الجهل، ويغطّيه رانُ الضّلال، وقد أجرى أحد الشّعراء مناظرةً بديعةً بين العلم والعقل، قال فيها:

عِلْمُ العَلِيمِ وَعَقْلُ العَاقِلِ اخْتَلَفَا *** مَنْ ذَا الَّذِي مِنْهُمَا قَدْ أَحْرَزَ الشَّرَفَا
فَالعِلْمُ قَالَ أَنَا أَحْرَزْتُ غَايَتَهُ *** وَالْعَقْلُ قَالَ أَنَا الرَّحْمَنُ بِي عُرِفَا
فَأَوْمَأَ العِلْمُ إِيمَاءً وَقَالَ لَهُ *** بِأَيِّنَا اللهُ فِي تَنْزِيلِهِ اتَّصَفَا
فَبَانَ لِلْعَقْلِ أَنَّ العِلْمَ سَيِّدُهُ *** فَقَبَّلَ العَقْلُ رَأْسَ الْعِلْمِ وانْصَرَفَا[1]

(1) الأبيات من ملح العلم وطرائف الأدب، ولم نجدها منسوبة إلى قائل، في المصادر والمراجع الّتي بحوزتنا، ينظر: المهديّ: صيد الأفكار: 1/13.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦﴾ [آل عمران: 66]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إنكارُ المُحاجَّة وذَمُّها ممَّن ليس له عِلْمٌ

هناك مناسبة بين مضمون الآية السّابقة، حول محاجة أهل الكتاب في إبراهيم، الّذي عاش قبل نزول التّوراة والإنجيل، فجاءت هذه الآية الكريمة لتُنكرَ على من يُحاجُّ فيما لا علمَ له به، لأنَّ اليهود والنَّصارى تَحاجّواْ في الخليل إبراهيم، بلا أثارة من عِلم، ولا سند من تاريخ موثوق، ولو تحاجّوا فيما بأيديهم منه عِلمٌ؛ ممَّا يَتعلَّق بأديانهم الّتي شُرِعَت لهم إلى حينِ بعثة محمَّدٍ ﷺ، لكان أَولَى بهم، وإنَّما تَكَلَّمواْ فيما لا يعلمون، فأنكر اللّه عليهم ذلك، وأَمرَهم بردِّ ما لا عِلمَ لهم به، إلى عَالم الغَيبِ والشَّهادةِ، الّذي يُحيط علمُه بالأمور، ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَٰجَجۡتُمۡ﴾ أي: جادَلتُم، وخَاصَمْتُم؛ ويُسَمَّى الجدالُ بِحُجَّةٍ أو شبهةٍ: حِجاجًا؛ لأنَّ صاحبَ الشُّبهةِ يُوهِمُ أنَّ معه حُجَّةً[2]، "تقول حاجَّهُ فحجَّه، أي غلبه بالحُجَّة، وفي المثل: (لَجَّ فَحَجَّ)، وهو رجلٌ مِحْجاجٌ، أي جَدِلٌ، والتّحاجُّ: التّخاصُم"[3]، والحُجّةُ: مَا دوفعَ بِهِ الخَصمُ، والجمعُ حُجَجٌ وحِجاجٌ، وحاجَّهُ مُحَاجَّةً وحِجاجًا: نازَعه الحُجّةَ، وحَجَّهُ يحُجُّهُ حَجًّا: غَلَبَهُ على حُجّته. وفِي الحَدِيث «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى» "[4].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/49.
(2) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 5/337.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (حجج).
(4) ابن سيده، المحكم: (حجّ).

2) ﴿عِلْمٌ﴾: أصلُ العلم أَثَرٌ بالشَّيْءِ يَتَمَيَّزُ بِهِ عَنْ غَيْرِه، وَقِيَاسُ العِلْم والعَلَم وَالعَلامَةِ واحدٌ، وَالدَّلِيلُ عَلَى ذلك قِراءةُ: (وإنه لَعَلَمٌ للساعة) [الزُّخرف: 61][1]، وَتَعَلَّمْتُ الشَّيْءَ، إِذَا أَخَذْتَ عِلْمَهُ[2]، ومعنى قوله: ﴿فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾: ما وَجدوه في كُتبهم، وأَنزلَ عليهم بَيانَه وقِصَّتَهُ[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

اللهُ أعلم من كلّ محاججٍ مارق، ليس له علمٌ بالحقائق

ها أنتم، يا أهلَ الكِتَابِ، جادَلْتم النَّبيَّ ﷺ، فيما لكم به عِلْمٌ ما؛ وهو خبرُ عيسى -عليه السلام-، فقامَت عليكمُ الحُجَّةُ بأنَّ منكم مَنْ غَلا في الإفراط إذ قال: إنَّه إلهٌ، ومِنكُم من غَلا في التَّفريط، إذ قال: إنَّه دَعِيٌّ كَذَّابٌ، ولم يكن عِلمُكُم القليلُ به عاصِمًا لكم من الخَطأ في الحُكم عليه، فَلِمَ تُحاجُّون فيما ليس لكم به عِلْمٌ، وهو كونُ إبراهيمَ يهوديًّا أو نصرانيًّا! أليس الواجبُ عليكم أن تَتَّبِعوا فيه ما يُوحيه اللّه إلى عبده ونبيِّه ﷺ[4]، "إذْ كيف تجادلون في أمر إبراهيم، ولا ذِكْرَ لِدِينه وشريعته في كتبكم؟! من أين علمتم أنّه كان يهوديًّا أو نصرانيًّا؟! إنّ اللّه يعلم حقيقة ما تنازعتم فيه، أمّا أنتم فلا تعلمون من هذا شيئًا"[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالاتُ التَّرْكِيبِ ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

مَا عَلَيْهِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى مُبَايِنٌ لِمَا يَقْتَضِيهِ النَّظَرُ العَقْلِيُّ

إنَّ الهاءَ المُكرَّرة في قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ هي هاءُ التَّنبيهِ، وتَكرارُها في مَوضعٍ واحدٍ إيماءٌ إلى غَرابة ما هم عليه،

(1) قَرَأَ ابنُ عبَّاس وأبو هريرة وقَتَادة ومالك بن دينار والضَّحاك: (وإنه لَعَلَمٌ للساعة) بفتح العين واللَّام، أي: أمارةٌ وعلامةٌ. الثَّعلبيّ، الكشف والبيان: 23/472.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (علم).

(3) الواحديّ، البسيط: 5/337.

(4) رضا، تفسير المنار: 3/271.

(5) القطّان، تيسير التّفسير: 1/202.

ومجافاتِه لكلِّ تفكيرٍ ولكلِّ عَقلٍ، وإشارةٌ إلى طُول رُقادِهم أو شِدَّةِ عِنادِهم، وأصلُ الكلامِ في ﴿هَٰٓأَنتُمۡ﴾[1]: أنتم حاجَجْتُم، وإنَّما يَجيءُ مثلُ هذا التَّركيبِ في مَحَلِّ التَّعجُّبِ والتَّنبيهِ ونحوِ ذلكَ؛ ويُؤكَّدُ ذلك غالبًا باسم إشارةٍ بعدَه، فيقالُ: ها أنا ذا، وها أنتم أُولاءِ أو هؤلاءِ[2].

تَنْبِيهُ الْمُخَاطَبِ بِذِكْرِ مَا يَعْلَمُ عَلَى مَا لَا يَعْلَمُ

وَوَجْهُ التَّنبيهِ بـ ﴿هَٰٓأَنتُمۡ﴾ مع أنَّه لا يُنَبَّهُ الإنسانُ على نفسه، وإنَّما يُنَبَّه على ما أَغفلَه: أَنَّ التَّنبيهَ وإنْ كان على ما أغفلَه مِنْ حاله؛ فإنَّه يُنبَّه بِذِكر ما يَعْلَمُ على ما لا يعْلَمُ، فلذلك خرج التَّنبيهُ على النَّفْسِ؛ أي: على حالِهَا[3].

وقوله: ﴿حَٰجَجۡتُمۡ﴾: خبرُ (أنتم) في قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ﴾، ويحتمل أن تكون جملةُ ﴿حَٰجَجۡتُمۡ﴾ حالًا هي محلُّ التَّعجيب، باعتبار ما عُطفَ عليها من قوله: ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ﴾؛ لأنَّ الاستفهامَ فيه إنكاريٌّ، فمعناه: فلا تُحاجُّونَ.

ويحتَمِلُ أن يكون أصلُ (هَا) في ﴿هَٰٓأَنتُمۡ﴾ همزةَ استفهام، والأصلُ: (آنْتم) ممدودةً؛ إذِ العربُ تجعل مكانَ الهمزةِ هاءً، فعلى هذا التَّقديرِ؛ يكونُ استفهامًا قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ معناه: التَّعجيبُ منهم، والتَّوبيخُ لهم[4].

الشُّذُوذُ الْفِكْرِيُّ لِأَهْلِ الْكِتَابِ

وفي قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارةٌ إلى اليهودِ والنَّصارى الّذين قالوا في إبراهيمَ ما قالوا، وقد أُنزلتِ التَّوراةُ والإنجيلُ مِنْ بعده، فهي تَتَضَمَّنُ الأحوالَ الغَريبةَ الّتي كانت منهم، وأنَّها أدَّت إلى شُذُوذٍ عَقْلِيٍّ آخرَ[5].

(1) قرأ الجمهورُ: بإثبات ألف (ها) وبتحقيق همزة (أنتم)، وقرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر: بإثبات الألف وتسهيل همزة (أنتم)، وقرأ ورش بحذف ألف (ها)، وبتسهيل همزة (أنتم)، وبإبدالها ألفًا مع المدّ، وقرأ قنبل بتحقيق الهمزة بألف وبغير ألف. يُنظر النَّشر: 2/400 - 404، وإتّحاف فضلاء البشر: 224، 225، ويُنظرُ توجيه هذه القراءات في: ابن خالويه، الحجّة في القراءات السَّبع، ص: 110، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/273.

(2) البقاعيّ، نظمُ الدُّرر: 4/450، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/270، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1263.

(3) الواحديّ، البسيط: 5/338.

(4) ابن الجَزَريّ، النَّشر: 1/401، والبقاعيّ، نظمُ الدُّرر: 4/451 - 452.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/270، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1263.

قَفْوُ الْإِنْسَانِ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ مِنْ أَسْبَابِ التَّرَدِّي الْعَقْلِيِّ

وقد ذَكَرَ الزَّمخشريُّ أنَّ بعضَ العُلماءِ يرى أنَّ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بمعنى (الَّذينَ)، وأنَّ هذا يُفيدُ أنَّ الّذي أَدّى إلى تردِّيهم العَقْليِّ هو تكلُّمُهُمْ فيما يَعلمونَ وفيما لا يَعلمونَ[1].

دَلَالَةُ نِسْبَةِ الْعِلْمِ إِلَى أَهْلِ الْكِتَابِ فِي قَوْلِهِ: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ﴾:

مِنَ الْمَهَالِكِ عَدَمُ عَمَلِ الْمَرْءِ بِعِلْمِهِ أَوِ ادِّعَاؤُهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْهُ

ذهبَ الرَّازيُّ رحمه اللّه إلى احتمال أنَّ اللّه تعالى لم يَصِفْهُم بالعِلْم حقيقةً، وإنَّما أراد أنَّهم يَستَجيزُون محاجَّتَه فيما يدَّعون عِلْمَه، فكيف يُحاجُّونه فيما لا عِلمَ لهم به الْبتَّةَ؟! ثمَّ حَقَّقَ ذَلك بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ كيفَ كانت حالُ هذه الشَّرائع في المُخالفة والموافقة، ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ كيفيَّةَ تلك الأحوالِ[2]، فيكون قوله في مقطَعِ الآية ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ مبيِّنًا للمرادِ في قوله: ﴿فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ﴾.

دِلَالَةُ حَذْفِ مَفْعُولِ الْعِلْمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾:

الْحِقْدُ وَالْحَسَدُ يَحُولَانِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ الْعِلْمِ الصَّحِيحِ

خَتَمَ اللّه سبحانه وتعالى ببيانِ عِلْمِهِ تعالى المُؤكَّد، فقرَّرَ العِلَمَ المُطْلَقَ له، ونفَى عنهم العِلْمَ في هذا المقام، وقد قرَّر سبحانَه أنَّهم لَا يعلمون، فقال: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾، فهم لا يَعلمون حالَ إبراهيمَ عليه السلام، ولا مَنْ هو أهلٌ للرِّسالة؛ وليس من شأنهم أَنْ يعلموا؛ لأنَّ أحقادَهم تَحُولُ بينَهم وبين أنْ يُدركوا الّذي عليه مَنْ يُخالفُهم، فإنَّه لَا شيءَ كالحِقْدِ والحَسَدِ يَحولُ بين المرءِ والإدراكِ السَّليم والعِلْم الصَّحيح[3].

قال أبو حيَّانَ: "وهذا استدعاءٌ لهم أَنْ يَسمعُوا، كما تقولُ لِمَنْ تُخبرُه بشيءٍ لا يعلَمُه: اسمَعْ؛ فإنِّي أَعلَمُ ما لا تَعْلَمُ[4]".

(1) أبو السُّعود، إرشادُ العقل السَّليم: 2/48، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1263.

(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/254.

(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1263 - 1264.

(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/201.

وفي حذف مفعولِ العلم من الفعلينِ ﴿يَعْلَمُ﴾ و﴿تَعْلَمُونَ﴾ إيماءٌ إلى العموم؛ فهم لا يعلمونَ شيئًا على الحقيقةِ، وإن كان عندهم شيءٌ من العلم؛ فإنَّهما عندهم صورتُهُ الظَّاهرة لا حقيقتُهُ؛ لعدم جريانِهم وفق ما يقتضيه العلمُ من الانقيادِ إلى شرع اللّه تعالى وتصديق رسوله ﷺ واتِّباعه، وحذفُه من ﴿يَعْلَمُ﴾ إشارة إلى عموم علم اللّه تعالى؛ فلا تخفَى عليه خافيةٌ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العِلْم والمَعرفة:

أنَّ المعرفةَ أخصُّ من العِلم؛ لأنَّها عِلمٌ بعَين الشَّيء مُفصّلًا عمَّا سِواه، والعِلمُ يكونُ مُجمَلًا ومُفصّلًا[1]، أو أنَّ المعرفةَ أخصُّ بالمَحسوسات والمعاني الجزئيّةِ، وأنَّ العِلمَ أخصُّ بالمعقولات والمعاني الكليَّةِ[2]؛ لذا عبَّرَ في الآية بلفظِ العِلم، وعَدَلَ عن لفظ المعرفةِ.

وفي الصّحاح، وفي كثير من أمهات اللّغة " أنّ العلم والمعرفة والشّعور كلّها بمعنًى واحدٍ، وأنّه يتعدّى بنفسه في المعنى الأوّل، وبالباء إذا استعمل بمعنى (شعر)، وهو قريب من كلام أكثر أهل اللّغة، والأكثر من المحقّقين يفرّقون بين الكلّ، والعلم عندهم أعلى الأوصاف؛ لأنّه الّذي أجازواْ إطلاقه على اللّه تعالى، ولم يقولواْ: (عارفٌ) في الأصحّ[3].

---

(1) العسكريّ، الفُروق اللُّغويَّة، ص: 107.

(2) التَّوحيديّ، المقابسات، ص: 272، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عرف).

(3) الزَّبيديّ، تاج العروس (علم).

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٦٧﴾ [آل عمران: 67]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

علم الله الواسع المحيط، ينفي وصف اليَهوديَّة والنَّصرانيَّة عن الخليل

لَـمَّا وَبَّخَهُم اللّه على ما كان مِنْ جَهْلِهِم، ومحاجتهم في نسبة إبراهيم إلى اليهوديّة والنّصرانيّة، وأخبرهم أنّ السّابق لا ينسب - عقلًا - إلى اللّاحق، نَفَى سبحانه وتعالى عَن إبراهيمَ ﷺ ما ادَّعاه عَلَيْهِ كلٌّ منهم، طِبْقَ ما بَرهَنتْ عليه الآيةُ الأُولَى، وَنَفَى عنه كلَّ شِرْكٍ أيضًا، وأثبتَ أنَّه كانَ مَائلًا عن كلِّ باطِلٍ، مُنْقادًا مع الدَّليل إلى كلِّ حقٍّ[1]، "مقيمًا على محجّة الهدى الّتي أمر بلزومها، خاشعًا للّه، متذلّلَ القلب، مُذعنًا لما فرضَهُ اللّهُ عليه، وألزمه به، ولم يكن من المشركين"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَهُودِيًّا﴾: التَّهْوِيدُ: المَشْيُ الرُّوَيْدُ، هَوَّدَ: نَامَ، وَالهَوادَةُ: الحَالُ تُرْجَى مَعَهَا السَّلَامَةُ بَيْنَ القَوْمِ، وَالمُهَاوَدَةُ: المُوَادَعَةُ، فَأَمَّا اليَهُودُ: فَمِنْ هَادَ يَهُودُ، إِذَا تَابَ هَوْدًا، وَسُمُّوا بِهِ؛ لِأَنَّهُمْ تابُوا عَنْ عِبَادَةِ العِجْلِ[3]، وَفِي القُرْآنِ: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: 156]، أيْ: تُبْنا، بأنْ رَجَعْنا إلى طريقكَ في رِفقٍ ولِينٍ، قال أبو عبيدة: التَهَوُّدُ: التّوبة والعمل الصّالح. ويقال أيضًا: هادَ وتَهَوَّدَ، إذا صار يهوديًّا. والهودُ: اليهودُ، وأرادوا باليهود اليهودِيِّينَ، ولكنّهم حذفوا ياء الإضافة وعُرِّفَ الجَمْعُ بالأَلِف واللّام، ولولا ذلك لم يجُز دخول الألف واللّام

(1) البقاعيّ، نظمُ الدُّرر: 4/452.
(2) البقاعيّ، نظمُ الدُّرر: 4/452.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (هود).

عليه، لأنّه معرفة مؤنّث، فجرى في كلامهم مجرى القبيلة، ولم يُجعل كالحيّ، وأنشد عليّ بن سليمان النّحويّ للأسود بن يعفر:

فَرَّتْ يَهُودُ وَأَسْلَمَتْ جِيرَانَهَا *** صَمِّي لِمَا فَعَلَتْ يَهُودُ صَمَامِ[1]

2) ﴿نَصۡرَانِيّٗا﴾: جمعه نصارى: أصلُه من النُّصْرَة، وقيل: هُوَ نِسْبَةٌ إِلَى قَرْيَةٍ اسْمُهَا نَصْرَةُ، وَلهذا قِيلَ في الواحِد منهم نَصْرِيٌّ على القِياسِ، وَالنَّصَارى جَمْعُهُ، ثُمَّ أُطْلِقَ النَّصْرَانِيُّ على كُلِّ مَنْ تَعَبَّدَ بِهَذَا الدِّينِ[2]، ويجوزُ أن تكونَ نَصْرَان بمعنى مُناصِرٍ، كنَدْمان بمعنى مُنادِمٍ[3]، وكلمة نصرانيّ استعملها اليهود وصفًا لليهوديّ الّذي نصر التّوراة والتزم بها، حتّى قبل ميلاد المسيح عليه السلام.

3) ﴿حَنِيفٗا﴾: الحَنيفُ: مأخوذٌ مِنَ الحَنَف، وهو الاستقامةُ، وقيل: هو المَيلُ، ومنه قيل للمَائلِ الرِّجْلِ أَحْنَفُ، فالحَنيفُ من الاستقامة معناه: المُستقيمُ، ومن المَيل معناه: المائلُ عن معوجِّ الأديان إلى طريق الحقِّ[4]، قال الشّافعيّ: معنى حَنِيفًا: " مائلًا إلى الإسلام، ثابتًا عليه، والحنيف عند العرب: مَن كان على دِين إبراهيم عليه السلام، وأصل الحنَف: الميل والاعوجاج، ورجلٌ أحنفُ: ذو قَدَمٍ مُقبلةٍ بأصابعها على القَدَم الأُخرى، أو مائلًا عن الأديان الباطلة"[5].

4) ﴿مُّسۡلِمٗا﴾: أصلُ السِّلْم والإسلام: الصِّحَّةُ وَالعَافِيَة، أو: صِحَّةُ جِرْم الشَّيءِ والْتِئَامُ ظاهره في ذاته، ومنه الإسلامُ: الانقيادُ، لأنَّ فيه سلامةَ الإنسان وعافيتَه بتسليم نفسه لله، يُقالُ: أَسْلَمَ الرَّجُلُ: انْقَادَ، والإسلامُ: إظهارُ الخُضوعِ والقَبولِ لِمَا أَتَى بِهِ رَسُولُ اللّه[6] صلى الله عليه وسلم، ومعنى ﴿مُّسۡلِمٗا﴾ في الآية: مُنْقادًا لله تعالى[7].

5) ﴿ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾: المُشْرِكُ: يُقَالُ: شَرِكْتُهُ في الأَمْرِ أَشْرَكُهُ شِرْكَةً، والاسمُ الشِّرْكُ، وشَارَكْتُهُ إِذَا صِرْت شَرِيكَهُ، وَقَدْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ، فَهُوَ مُشْرِكٌ إذا جَعَلَ لَهُ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (هود)، ومعنى صمّي: اخرسي يا صمام.
(2) الفيّوميّ، المصباح المنير (نصر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نصر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حنف)، وابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 1/451.
(5) الشّافعي، مسند الإمام الشّافعيّ: 1/74.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزَّبيديُّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سلم).
(7) أبو السُّعود، إرشادُ العقل السَّليم: 2/48، والطِّيبيّ، فُتوح الغيب: 4/138.

شَرِيكًا، والشِّرْكُ: الكُفْرُ[1]، "وفي الحديث «مَنْ حَلَفَ بغير اللّه فقد أَشْرك»[2]، حيث جعل ما لا يحلف به محلوفا به، كاسم اللّه الّذي يكون به القسم، ومنه «الطّيرة شرك، ولكن اللّه يذهبه بالتّوكّل»[3]، جعل التّطيّر شركا باللّه في اعتقاد جلب النّفع ودفع الضّرر، وليس الكفر باللّه؛ لأنّه لو كان كفرا لما ذهب بالتّوكّل" كما قال ابن الأثير[4]، وبذلك توسّع المدلول المعنويّ للّفظ، وكان منه الرّياء الّذي هو الشّرك الأصغر.

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لم يكن إبراهيم علـى أيّـة ملّـة سوى الحنيفيّة السّمحة

ما كان إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ على المِلَّة اليهوديَّة، ولا على النَّصرانيّة، ولكنْ كان مائلًا عَنِ الأديان الباطلة، مُنْقادًا للّه، مُوحِّدًا له تعالى، وما كان مشركًا به، كما يَزعمُ مُشركو العَرب أنَّهم على مِلَّته[5]، وهو بذلك يُعَلِّمُهُم: "أنّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بريءٌ من دينكم، وما كان إلّا حنيفًا مسلمًا، وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ كما لم يكن منكم. أو أراد بالمشركين اليهود والنّصارى، لا شِرَاكَهُم به عُزَيْرًا والمسيح"[6].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَيَانُ مَعْنَى الرِّثَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾:

مَكَانَةُ إِبْرَاهِيمَ الْعَظِيمَةُ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ

في الآية الكريمة رِثاءٌ بيِّنٌ؛ إذ مَدحَ اللّه تعالى إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وأثنَى عليه بما كانَ فيهِ مِنَ المحاسن[7].

---

(1) ابن الأثير، النِّهاية: 2/446.

(2) رواه أحمد في مسنده، الحديث رقم: (6079)، وأبو داود في سننه، الحديث رقم: (3251)، والترمذي في جامعه، الحديث رقم: (1535)، وغيرهم.

(3) رواه البخاري في الأدب المفرد، الحديث رقم: (909)، وأحمد في مسنده، الحديث رقم: (3687) والترمذي في جامعه، الحديث رقم: (1614).

(4) ابن الأثير، النهاية: 2/467.

(5) نخبة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم: ص 58.

(6) الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 9/234.

(7) ليس بين الرِّثاءِ والمَدحِ فَرقٌ إلاّ بخلطه بشيءٍ يدلُّ على أنَّ المدوح ميت، مثل: «كان» وما يُشاكله. ابن رشيق، العمدة: 2/147.

بَلَاغَةُ طِبَاقِ السَّلْبِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾:

بُـطْـلَانُ مَـا عَـلَـيْـهِ الْـيَـهُـودُ وَالنَّـصَـارَى مِنَ الدِّيَانَةِ

بينَ قولِه: ﴿مَا كَانَ﴾ وقوله: ﴿وَلَٰكِن كَانَ﴾ طباقُ سَلْبٍ؛ فقد نَفَى اللهُ تعالى كَوْنَ إبراهيمَ يهوديًّا أو نصرانيًّا، ونفى كونَه مُشركًا، وأَثبتَ كونه حنيفًا مُسلمًا[1].

وفي نفي كونِه يهوديًّا أو نصرانيًّا تعريضٌ بأهل الكتاب؛ بأنَّ ما هم عليه من الدِّيانَةِ ليس بشيءٍ يُعتدُّ به، وفي إثباتِ كونه مسلمًا إشعارٌ بصحَّةِ ما عليه النَّبيُّ ﷺ وأصحابُه.

نُكْتَةُ الْبَدْءِ بِالنَّفْيِ قَبْلَ الْإِثْبَاتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ﴾:

التَّخْلِيَةُ قَبْلَ التَّحْلِيَةِ

بدأتِ الآيةُ الكريمةُ بالنَّفي قبل الإثبات؛ بالإشارة إلى التَّخلية قبلَ التَّحليةِ، وهو ترتيبٌ مُوافِقٌ للطَّبيعة؛ لأنَّك تُخلي الشَّيءَ ممَّا يَشينُه أوَّلًا، ثمَّ تُضيفُ ما يكونُ به الكَمالُ ثانيًا[2].

سِرُّ تَرْتِيبِ الْمَنْفِيَّاتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾:

تَنَوُّعُ الأَساليبِ وتَغَيُّرُ دَلالتُها تَـبَـعًـا لِـتَـغَـيُّرِ السِّياقِ وحاجَةِ المَقامِ

أَعْلَمَ اللهُ تعالى براءةَ إبراهيمَ مِنْ هذه العقائد الباطلةِ، وبَدأَ بنفي اليهوديَّة؛ لنكتَتَيْن:

إحداهما: أنَّ شريعةَ اليهودِ أَقدَمُ من شريعة النَّصارى.

وثانيهما: أنَّ اليهودَ أشدُّ كفرًا من النَّصارَى، فبُدِئَ بنفي الأغلَظِ على سبيلِ التَّدَلِّي.

وكرَّر (لَا) في قوله: ﴿وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾، لتأكيد نفيِ انتسابِهِ عن كلِّ واحدٍ مِنَ الطَّائفَتين[3].

وقد جاء ترتيبُ النَّفي على غاية الفصاحة؛ فقد نَفَى المِلَلَ نفسَهَا،

---

(1) الإندونيسي، الشَّامل في بلاغة القرآن، ص: 171 - 172.

(2) التَّفسير المُحرَّر للقرآن الكريم: 1/273، وابنُ عُثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة آل عمران: 1/386.

(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/201.

وقَرَّرَ الحالَ الحسَنةَ، ثمَّ نفى نفيًا آخرَ؛ عرَّضَ فيه بتلك المِلَلِ؛ وأنَّ فيها فسادًا وهو الشِّركُ[1].

دلَالَةُ الْقَصْرِ بـ ﴿وَلَٰكِن﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾:

تَبْرِئَةُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ وَإِثْبَاتُ حَنِيفيّةِ الْإِسْلَامِ دِينًا لَهُ

أفادَت ﴿وَلَٰكِن﴾ في الآية الكريمة الاستدراكَ، فبَعدَ أن نفَتْ عن إبراهيمَ عليه السلام اليهوديَّةَ والنَّصرانيَّةَ، جيءَ بـ ﴿وَلَٰكِن﴾ لإفادة حصرِ حالِهِ فيما يُوافِقُ أُصولَ الإسلام، فقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ مُعْلِمًا أنَّ الإسلام هو الحَنِيْفِيَّةُ، وهذا القَصْرُ قَصْرُ قَلْبٍ، وهو إضافيٌّ، أي: بالإضافة إلى ما ادُّعِيَ فيه من الانتساب إلى الملَّتين المذكورَتَيْن، فالآيةُ في دِلالتِها على القصرِ نظيرُ قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: 40]، فالمشركون كانوا يَعتقدون فيه الأُبُوَّةَ لِزَيْدٍ، ونفيَ الرِّسالةِ، فقَلَبَ عليهم اللّه تعالى اعتقادَهم[2].

دلَالَاتُ الْأَوْصَافِ الْمَوْصُوفِ بِهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام:

تَوَارُدُ الْأَوْصَافِ الْحَمِيدَةِ لِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ تَأْكِيدٌ لِلْقَطِيعَةِ الْكَامِلَةِ بَيْنَهُ وبَيْنَ الْمُدَّعِينَ

ذَكَرَ اللّه سبحانه في وَصْفِ إبراهيم عليه السلام ثلاثةَ أوصافٍ، تتَنَافَى كُلُّها غايةَ التَّنافي مع ما عند اليهود والنَّصارى، وهذه الأوصافُ هي كونُهُ: حَنِيفًا، ومُسْلمًا، ومَا كانَ مِنَ المُشركينَ.

فالوصف الأوَّلُ: وَصْفُه عليه السلام بأنَّه حَنِيْفٌ؛ فهو يَطلُبُ الحقَّ مُستقيمًا في طَلَبِه، وفيه بيانُ مُنافاةِ أخلاقِ اليَهود والنَّصارى لأخلاقه وهَدْيِه.

والوصفُ الثَّاني: أنَّه مُسلمٌ، والإسلامُ هو الإخلاصُ للّه تعالى، والمَحبَّةُ والانقيادُ والانصرافُ إليه سبحانه وتعالى، حتّى لا يُعمرَ القلبُ بغير نوره، وهذا أيضًا وَصْفٌ مُنافٍ لِما كان عليه اليهود والنَّصارى، فإلهُهُمْ هَواهم، ومَحبَّتُهم لأنفسهم لَا

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 1/451، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/201.
(2) الدُّسوقيّ، حاشية على مختصر المعاني، ص 618، والدّريهم، سورة آل عمران دراسة بلاغيَّة، ص: 271.

للّه تعالى، وإنَّما هي أعراضُ الدُّنيا أَرْكَسَت نُفُوسَهُم، وأَغلَقَت دون نورِ اللّه تعالى قُلوبَهم.

والوَصْفُ الثَّالثُ: وَصْفٌ منفيٌّ؛ وهو كونُهُ غيرَ مُشرِكٍ، وقد نفَى اللّه تعالى عن خَلِيلِهِ وَصْفَ الشِّركِ بهذه الصِّيغة الجامعةِ فقال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ولم يَقُلْ: (وَمَا كَانَ مُشرِكًا)؛ لأنَّها تتضمَّنُ نفيَ الإشراكِ كُلِّه وشوائبِه عن إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ[1].

دلالَةُ العَطْفِ بِالْوَاوِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾:

لَمْ يُبْقِ الْقُرْآنُ حُجَّةً لِمُدَّعٍ فِي أَمْرِ إِبْرَاهِيمَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ إِلَّا فَنَّدَهَا

أفاد العطفُ قطعَ أملِ مُشْرِكي العَربِ كلِّهم في صِحَّة الانتسَابِ إلى مِلَّة إبراهيمَ، وفيه دفعُ توهُّم أنَّ القَصْرَ المستفادَ من قوله: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ قَصْرٌ إضافيٌّ بالنِّسبة لليهوديَّة والنَّصرانيَّة فحسبُ دون غيرهم من طوائف الضَّلالِ؛ إذ كان العربُ يَزعمونَ أنَّهم على مِلَّةِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لكنَّهم مُشركون[2].

ومقتضى الظَّاهر أن يقال: وما كانَ مِنكُم، إلَّا أنَّه وَضَعَ المُظهَرَ مَوضعَ المُضمَرِ؛ للتَّعريض بأنَّهم مُشركون، فالجملةُ حينئذٍ تأكيدٌ لِما قبلَها[3]، وهي تذييلٌ غيرُ جارٍ مجرَى المَثَلِ؛ لاحتياجِهَا إلى ما قبلَهَا في كشف تمامِ المرادِ منها.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الكفْر والشّرك:

أَنَّ للكفْرِ خِصالًا كَثِيرَةً، وكلُّ خصْلَةٍ مِنْهَا تُضَادُّ خَصْلَةً من الإيمَان؛ لِأَنَّ العَبْدَ إذا فعلَ خَصْلَةً من الكفْر فقد ضَيَّعَ خَصْلَةً من الإيمَانِ، والشِّرْكُ خَصْلَةٌ وَاحِدَةٌ، وَهُوَ إيجادُ آلِهَةٍ مَعَ اللّه أو دونَ اللّه، واشتقاقُه يُنبئُ عن هذا المعنى، ثمَّ كثُر حتَّى قيل لكلِّ كُفرٍ شركٌ،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/275، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1266.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/276.

(3) أبو السُّعود، إرشادُ العقل السَّليم: 2/48، والآلوسّي، رُوح المعاني: 2/189.

على وَجه التَّعْظِيم لَهُ وَالمُبَالغَةِ في صِفتِه، وَأَصلُه كُفْرُ النِّعْمَةِ لتَضييعه حُقُوقَ اللّهِ، وَمَا يجبُ عليهِ من شكر نِعَمِه؛ فَهُوَ بِمَنْزِلَة الكافِر لها، ونقيضُ الشّرك في الحَقِيقَة الإِخْلاصُ، ثمَّ لمّا اسْتُعْمِلَ في كلِّ كُفْر، صَار نَقيضَ الإِيمَانِ.

ولا يجوز أَن يُطلقَ اسْم الكفْر إِلَّا لمن كَانَ بِمَنْزِلَة الجاحدِ لنِعَم اللّه، وَذَلِكَ لعِظَم مَا مَعَه من المعْصِيَة، وَهُوَ اسْمٌ شَرْعيٌّ، كَمَا أَنَّ الايمانَ اسْمٌ شَرْعيٌّ[1]، قال بعض المتأخّرين: "الكافر اسمٌ لمن لا إيمان له؛ فإِنْ أَظْهَرَ الإيمانَ خُصَّ باسم المنافق، وإِنْ أَظْهَرَ الكفرَ بعد الإسلام، خُصّ باسم المرتدّ، لرجوعه عن الإسلام، فإن قال بإلهين فصاعدًا خُصّ باسم المشرك"[2].

(1) العسكريّ، الفُروق اللُّغويَّة: ص 230.

(2) العسكريّ، الفُروق اللُّغويَّة: ص: 444.

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٦٨﴾ [آل عمران: 68]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

كون إبراهيم على ملّة الإسلام، يجعل أولى النّاس به الرّسول وأهل الإسلام

الآية استئنافٌ ناشئٌ عن نَفي اليهوديّة والنَّصرانيَّة عن إبراهيمَ، فليس اليهودُ ولا النَّصارى ولا المشركون بأَوْلَى النَّاس به، وهذا يَدُلُّ على أنَّهم كانوا يقولون: نحنُ أَوْلَى بدينكم[1]، قال ابنُ عبَّاسٍ: قالت رؤساءُ اليهود: واللّه يا محمَّد، لقد علمتَ أنَّا أَوْلَى النَّاس بدِين إبراهيم مِنك ومِن غيرك، وإنَّه كان يهوديًّا، وما بك إلَّا الحسَدُ، فنَزلَتْ هذه الآية[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوْلَى﴾: اسمُ تفضيلٍ، أي: أشدُّ وَليًّا، أي: قُربًا، مُشتقٌّ مِن وَلِيَ، إذا صار وَلِيًّا[3]، ومعنى: أَوْلَى النَّاس: أَخَصُّهم به وأقربُهم منه، والمُرادُ رسولُ اللّه ﷺ[4].

2) ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾: الاتِّباعُ: اقتفاءُ الأَثَرِ، "يُقالُ: تَبِعَهُ واتَّبَعَه؛ التّابع: التّالي، ومنه التّتبع والمتابعة، والاتّباع، يتْبَعُه: يتلوه. تَبِعَهُ يتبعه تبعًا، والتّتبع: فِعْلُكَ شيئًا بَعْد شيء. تقول: تتبعتُ عِلمه، أي: اتبعتُ آثاره"[5]، فتارةً يكون بالجسم، نحو: تَبِعتُه في الطَّريق واتَّبَعتُه فيها، وتارةً بالامتثال، ومثله: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ [طه: 123][6]، ومعنى: ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ أي: اقتَدَوْا به، وعملوا مثلَه في الإيمانِ والطَّاعةِ.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/276.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/202.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/276.
(4) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/37، والنَّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 1/264.
(5) الخليل، العين: 2/78.
(6) الرَّاغب، المفردات: ص 162.

3) ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾: هو من النَّبْوَة، أي: الرِّفْعة، وسُمِّي نَبيًّا لرِفْعة محلِّه عن سائر النَّاس المدلول عليه بقوله: ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ [مريم: 57]، فالنَّبِيُّ بغير الهمْز أبلغُ من النَّبِيء بالهمْز؛ لأنَّه ليس كلُّ مُنَبًّأٍ رفيعَ القَدْرِ والمَحلِّ، ولذلك قال ﷺ لمن قال: يا نَبِيءَ اللّٰه، فقال: «لَسْتُ بِنَبِيءِ اللّٰه ولكنْ نَبِيُّ اللّٰهِ»[1]، لمّا رأى أنَّ الرَّجل خاطبَه بالهمز ليَغُضَّ منه، والنَّبْوَةُ والنَّبَاوَةُ: الارتفاعُ، ومنه قيل: نَبَا بفلان مكانُهُ[2].

4) ﴿وَلِيُّ﴾: الوَليُّ: كَونُ الشَّيء بجنب الآخر، ويُعتبر ذلك تارةً بالمكان، فيُقال له: الولايةُ، وتارةً بالنَّصر، فيقالُ له: الوَلاء والمُوالاة، لكنَّ الوَلاء على ضربين: باعتبار نِسبة الأعلى إلى الأسفل، وضربٍ باعتبار نِسبة الأسفل إلى الأعلى، ولهذا يُقالُ للخادم والمَخدوم: مَولًى ووَلِيٌّ؛ لأنَّ كُلَّ واحدٍ منهما يُوالي الآخرَ؛ الخادم بالطَّاعة والنَّصيحة، والمَخْدوم بالإشفاقِ والكِناية[3].

5) ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: جمعُ مفرده المُؤمِن، وهُوَ المُصَدِّقُ بما يَجِبُ التَّصدِيقُ بِهِ، والإيمانُ: التَّصديقُ، وعند كثيرٍ من أهل العِلْم: اعتقادٌ بالجَنان، وإقرارٌ باللِّسان، وعملٌ بالأركان[4]، وفي المخصّص أنّ: " (آمَن) وَزنه (أَفْعَل)، وَلَا يكون فاعَل، قَالَ الْفَارِسِيّ: لَا تَخْلُو الْألف في (آمن) من أَن تكون زَائِدَة أَو منقلبة.. ثَبت أَنَّهَا منقلبة عَن الْهمزَة، وَإِنَّمَا انقلبت عَنْهَا أَلِفًا، لوقوعها سَاكِنَةً بعد حرفٍ مَفْتُوح، فَكَمَا أَنَّهَا إِذا خُفّفت في (راس وفاس وباس)، انقلبت أَلِفًا لسكونها وانفتاح مَا قبلهَا، كَذَلِك قلبت فِي نَحْو (آمَن)[5]، وقال الأزهريّ: أصل الإيمان الدّخول في صدق الأمانة الّتي ائتمنه اللّٰه تعالى عليها، فإن اعتقد التّصديق بقلبه كما صدّق بلسانه فقد أدّى "[6].

۞ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

إنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بالانْتساب إلى إبراهيمَ، همُ الّذين اتَّبعوا ما جاء به في زَمانه، وأَحقَّ

(1) الحاكم، المستدرك: 2/251.
(2) الرَّاغب، المفردات: ص 789.
(3) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: ص 532.
(4) السَّمين، عُمدة الحفّاظ: 1/125، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/27.
(5) ابن سيده، المخصّص، (الإيمان)
(6) الزَّبيدي، تاج العروس: (أمن).

أحــقّ الـنّـاس بإبراهيم وارثـوا حنيفيّته، من أمــة الإســلام المصطفاة

النَّاسِ أيضًا بذلك هذا النَّبيُّ ﷺ، والّذين آمنوا به مِن هذه الأُمَّةِ، واللّهُ ناصرُ المؤمنينَ به وحافظُهم[1]، "فإنّهم أهل التّوحيد الخالص، وهو دين إبراهيم، واللّه يحبّ المؤمنين وينصرهم، لأنّهم أولياؤه، ويجازيهم بالحسنى وزيادة"[2]، وهم أتباع إبراهيم حقًّا وصدقًا، لأنّهم متّفقون معه في اعتقادهم الوحدانيّة، وإقرارهم بتفرّد اللّه بالألوهيّة، واللّه وليّ المؤمنين الصّادقين، وناصرهم في كلّ عصر وحين[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دِلَالَةُ تَقْدِيمِ مَا حقُّه التَّأخيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾:

النَّبِيُّ ﷺ وَالْمُؤْمِنُونَ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَخَصُّهُمْ بِهِ

قُدِّمَ في الآية الكريمة ما كانَ ينبغي أن يكون خبرًا، وجَعَلَه هو المبتدأَ الّذي هو رُكن الجُملة الّذي يُسنَدُ إليه الخبرُ، فقال: ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾، ولم يَقُلْ: إنَّ الّذين اتَّبعوه أَوْلَى به؛ لأجلِ أنْ يَحكُمَ بأنَّ الأولويَّةَ لهؤلاء لا لِغَيْرِهم[4]، ولِمَا في تقديمِه من التَّشويقِ إلى الخبرِ، فيقع الخبرُ على نَفْسٍ مُسْتَشْرِفَةٍ فَيَتَمَكَّن مِنْهَا غايةَ التَّمكُّن.

دِلَالَةُ تَعدُّدِ صُوَرِ التَّأكيدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾:

تَصْحِيحُ نِسْبَةِ الاِتِّصَالِ بِخَلِيلِ اللهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

إنَّ أشدَّ النَّاسِ ولايةً لإبراهيمَ وأجدرَهم بالاتِّصال به، لَلَّذين اتَّبعوه، وهذا النَّبيُّ، والَّذينَ آمنوا بهذا النَّبيِّ، فَهُم أصنافٌ ثلاثةٌ؛ وقد أكَّدَ سبحانه اتِّصالَهم بإبراهيمَ بثلاثة مؤكِّداتٍ:

أوَّلُها: ﴿إِنَّ﴾، وهي مؤكِّدَةٌ للنِّسبةِ في الجُمَلِ الاسميَّة.

وثانيها: أفعل التَّفضيل ﴿أَوۡلَى﴾.

وثالثُها: اللَّامُ المُزَحْلَقَةُ في قوله تعالى: ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾.

(1) نخبة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم: ص 58.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم: ص 81.
(3) وهبة الزّحيلي، التّفسير الوسيط: 1/201.
(4) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة آل عمران: 1/390.

فَسياقُ الخبرِ على طريقة الخبر الإنكاريِّ مؤكَّدًا بهذه المؤكِّدَاتِ فيه تَصْحِيحُ نِسبةَ الاتِّصالِ بخليلِ اللهِ إبراهيمَ عليه السلام، وَرَدُّ كلِّ ادِّعاءٍ مخالفٍ لهُ[1].

بَرَاعَةُ التَّضْمِينِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ﴾:

الْأَوْلَوِيَّةُ دَرَجَاتٌ يَتَفَاضَلُ فِيهَا الخَلْقُ

قوله تعالى: ﴿أَوْلَى﴾ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ﴾ اسْمُ تَفْضِيلٍ؛ مِنَ الوَلْيِ وهو القُرْب، وَعُدِّيَ بالباءِ لِتَضَمُّنِهِ معنى الاتِّصَالِ، أَيْ: أَخصُّ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ وَأَقْرَبُهُمْ مِنْهُ.

وَمِنَ الْمُفَسِّرِينَ مَنْ جَعَلَ ﴿أَوْلَى﴾ هُنَا بِمَعْنَى (أَجْدَرَ)، فَيُحْتَاجُ معهُ إِلَى تَقْدِيرِ مُضَافٍ قَبْلَ قَوْلِهِ: ﴿بِإِبْرَٰهِيمَ﴾، أَيْ: بِدِينِ إِبْرَاهِيمَ[2].

فاستعمالُ ﴿أَوْلَى﴾ وتضمينُهُ معنَى الاتِّصالِ والاختصاصِ أدقُّ؛ لما فيه من تكثيرٍ للمعاني، ولِمَا فيه من الجمال الصَّوتِيِّ؛ إذ في قوله: ﴿أَوْلَى﴾، وقوله: ﴿وَلِيُّ﴾ جناسُ اشتقاقٍ[3].

دلَالَةُ تَكْرَارِ اسْمِ (إبراهيم) فِي ثَلَاثِ آيَاتٍ مُتَعَاقِبَةٍ:

تَشْرِيفُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام وَبَيَانُ عَالِي مَكَانَتِهِ

تكرَّر اسمُ خليلِ اللهِ إبراهيمَ عليه السلام في ثلاثةِ مواضعَ، وهي: ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، و﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾، و﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ﴾؛ وذلك تشريفًا وتنويهًا بشأنه، وإظهارًا لِعُلُوِّ مَقامِهِ[4].

دلَالَةُ اسْمِ الْإِشَارَةِ ﴿وَهَٰذَا﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾:

وِحْـدَةُ مَنْهَجِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم مَعَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام

إنَّ في مجيءِ اسم الإشارةِ ﴿وَهَٰذَا﴾ وعَطفِه على ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ مَزيدَ تَميُّزٍ وتَعيينٍ واختصاصٍ، ومِن ثَمَّ قال: ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ خصوصًا[5]، وجيءَ بوصفِ النُّبُوَّةِ مدحًا لنبيِّنا محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم.

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1266 - 1267.
(2) السَّمين، الدُّرّ المصون: 3/243، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/276.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/203.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/204.
(5) الطِّيبيّ، فُتوح الغيب: 4/138.

واسمُ الإشارةِ ﴿وَهَٰذَا﴾ موضوعٌ في الأصلِ للقريب، واستعمالُهُ ههنا إشعارٌ بالقُرْبِ والتَّعظيم، والهاءُ فيه للتَّنبيه، فهو أقربُ النَّاس لإبراهيمَ؛ إذْ هُوَ من ذُرِّيَّته، وعلى مِلَّتِه، وسَارٍ علَى منهجِه[1].

بَلَاغَةُ الْإِطْنَابِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ﴾:

التَّنْوِيهُ بِعُلُوِّ رُتْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَبَيَانُ شَرَفِ أَهْلِ الْإِيمَانِ

في قوله تعالى: ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ﴾ إطنابٌ بعطفِ الخاصِّ على العامِّ، فقد ذُكِرَ النَّبيُّ ﷺ بعد ذكْر من اتَّبعَ إبراهيم عليه السلام؛ وهو من جملةِ مُتَّبعِيه، وفي هذا تنبيهٌ بعلُوِّ الرُّتبةِ والفَضل.

وقُدِّمَ أتباعُ إبراهيمَ عليه السلام على النَّبيِّ ﷺ؛ لسَبْقِ الوجودِ زمانًا، وهو من جملةِ مسوِّغاتِ التَّقديم في الذِّكْرِ[2].

وكذا قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ﴾؛ فإنَّهُ معطوفٌ على ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ وهو إطنابٌ بذِكْرِ الخاصِّ بعد العامِّ؛ وخُصُّوا بالذِّكر تشريفًا وتكريمًا؛ فهو منْ باب: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: 98][3].

تَوْجِيهُ قِرَاءَةِ النَّصْبِ وَالْجَرِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾:

فِي تَعَدُّدِ أَوْجُهِ الْقِرَاءَاتِ إِثْرَاءٌ لِلْمَعَانِي الْقُرْآنِيَّةِ

حكى الزَّمخشريُّ أنَّه قُرِئَ: (وهذا النَّبيّ) بالنَّصبِ والجَرِّ، فالنَّصبُ نسَقٌ على مفعول ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾، فيكونُ النَّبيُّ ﷺ قد اتَّبَعَه غيرُه كما اتَّبَعَ إبراهيمَ، والتَّقديرُ: للَّذين اتَّبَعوا إبراهيمَ واتَّبعوا هذا النَّبيَّ، ويكون قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ﴾ نَسَقًا على قوله: ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾.

والقراءة بجرّ كلمة: ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ في قوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾: نَسَقٌ على ﴿بِإِبۡرَٰهِيمَ﴾، أيْ: إنَّ أَولَى النَّاس بإبراهيمَ وبهذا النَّبيِّ للَّذين اتَّبعوه، وفيه نظرٌ؛ من حيثُ إنَّه كان ينبغي أنْ يُثَنَّى الضَّميرُ في ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾، فيقالُ: اتَّبعوهما، إلَّا أن يُقالَ: هو من باب: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ [التَّوبة: 62][4].

(1) الهلال، تفسير القرآن الثرّي: 3/102.
(2) الزَّركشيّ، البرهان: 3/239، والإندونيسيّ، الشَّامل في بلاغة القرآن: 1/172.
(3) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/371، والسَّمين، الدُّرّ المصون: 3/243، والقِنَّوجيّ، فتح البيان: 2/263.
(4) ابن جبارة، الكامل في القراءات: ص 516، والزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/371، والسَّمين، الدُّرّ المصون: 3/243.

دلَالَةُ تَخْصِيصِ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

الْإِيمَانُ وَالتَّقْوَى سَبَبُ تَحْصِيلِ وِلَايَةِ اللهِ تَعَالَى

إنَّ تخصيصَ المؤمنين بالذِّكر جاء لِيُثْبِتَ الحكمَ في النَّبيِّ ﷺ بدِلالة النَّصِّ[1]، وليَعُمَّ الأنبياءَ كلَّهم وأتباعَهم من كلِّ شَريعةٍ، وفيه إعلامٌ بأنَّ الوصفَ الموجبَ للتَّقريب هو العراقةُ في الإيمان؛ ترغيبًا لِمَنْ لم يَبلُغْهُ في بلُوغِه[2].

وفي قولِه: ﴿وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إظهارٌ في موضع الإضمار؛ إذ مقتضى الظَّاهرِ: والذين آمنوا واللّه وَليُّهم، ونكتة الإظهارِ: التَّصريحُ علَّةِ ولايةِ اللّه تعالى لهم، وفيه: وعدٌ لهم بالنَّصر في الدُّنيا، وبالفوز في الآخرة[3].

مُنَاسَبَةُ مَقْطَعِ الْآيَةِ لِمَطْلَعِهَا:

إيـمَـانُ أَهْـلِ الْـكِـتَـابِ غَـيْرُ مُـعْـتَدٍّ بِـهِ بَعْدَ بِعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ

جاءت خاتمةُ الآية ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بعد قوله: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا﴾؛ للتَّعريض بأنَّ الَّذين لم يكنْ إبراهيمُ منهم؛ ليسوا بمؤمنين الإيمانَ النَّافعَ لهم[4].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(أَتْبَعَ)، و(تَبِعَ)، و(اتَّبَعَ):

أَتْبَعَ: بِالتَّخْفِيفِ يتَعَدَّى إِلَى مفعولَين، وبالتَّشديد إِلَى وَاحِد، قيل: تَبع وَاتَّبع بِمَعْنى وَاحِد، وَهُوَ اللُّحوقُ، ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ﴾ [يونس: 90]، أي: لَحِقهم أَو كَادَ، وأتبع القوم: سبقوه فلحقهم. يقال: تبعتهم فأتبعتهم أي: تلوتهم فلحقتهم. وقيل: أتبعه إذا تبعه يريد به شَرًّا؛ كما أتبع فرعون موسى. وهو تابعه وتبيعه، وهو له تَبَعٌ وهم له تَبَع، لأنه مصدر وهم أتباعه وتباعه[5].وَاتَّبعهُ: بِالتَّشْدِيدِ بِمَعْنى سَار خَلفه، وَقيلَ: أَتْبَع: بِقطع الألف، بِمَعْنى اللُّحوقِ والإدراكِ؛ وبوصلِها بِمَعْنى

(1) أبو السُّعود، إرشادُ العقل السَّليم: 2/48.
(2) البقاعيّ، نظمُ الدُّرر: 4/454.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/203.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/278.
(5) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: 1/89.

اتَّبَعَ أَثَرَه، أَدْرَكَهُ أَو لم يُدْرِكْهُ[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتَّبَعَ سَبَباً﴾ [الكهف: 89]..يقال: اتَّبَعه، بالوصل: إذا سار ولم يلحقه، وأَتْبَعَه، بالقطع، إِذا لحقه، قال أبو عبيد: ومنه قول اللّه تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠﴾ [الشّعراء: 60][2].

المُؤْمِن والمُسْلِم:

وَالْمُؤْمِنُ: هُوَ الْمُصَدِّقُ بِمَا يَجِبُ التَّصْدِيقُ بِهِ، وَالْمُسْلِمُ: الْمُنْقَادُ إِلَى مُقْتَضَى الإِيمَانِ، وَلَا نَجَاةَ إِلَّا بِمَجْمُوعِ الأَمْرَيْنِ[3]، "وإنّ العرب إنّما عرفت المؤمن من الأمان والإيمان، وهو التّصديق، ثم زادت الشّريعة شرائط وأوصافًا بها سمّي المؤمن بالإطلاق مؤمنًا؛ وكذلك الإسلام والمسلم: إنّما عرفت منه إسلام الشّيء، ثمّ جاء في الشّرع من أوصافه ما جاء"[4].

(1) الرَّاغب، المفردات: ص 163، والسَّمين، عُمدة الحفَّاظ: 1/255، والكَفَويّ، الكلّيَّات: ص 35.
(2) الحِمْيَرَيّ، شمس العلوم: 2: 722.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير 8/27.
(4) الرّافعيّ، تاريخ آداب العرب: 1/137.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ٦٩﴾ [آل عمران: 69]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين ضلال أهل الكتاب، وإضلالهم للمؤمنين بآخر كتاب

لَـمَّا بَيَّنَ أنَّ مِنْ طَريقةِ أَهلِ الكتابِ العُدولَ عَنِ الحقِّ، والإعراضَ عَن قَبُول الحُجَّة؛ بَيَّن أنَّهم لا يَقتصرون على هذا القَدْرِ، بل يَجتهدون في إضلالِ مَن آمنَ بالرَّسول ﷺ بإلقاء الشُّبهاتِ، كقولهم: إنَّ محمَّدًا مُقِرٌّ بمُوسى وعيسى ويدَّعي لنفسِهِ النُّبوَّةَ، وأيضًا: إنَّ مُوسى عليه السلام أَخبَرَ في التَّوراة، بأنَّ شرعَه لا يزولُ، وأيضًا: القولُ بالنَّسْخِ يُفضي إلى البَدَاءِ، والغَرَضُ منه تَنبيهُ المؤمنين على أن لا يَغتَرُّوا بكلامِ اليهودِ، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: 109]، وقولُه: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النِّساء: 89][1]، نَزلتْ في اليَهود لمّا دَعَوا حُذيفةَ وعمَّارًا ومُعاذًا إلى اليهوديَّة[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَدَّت﴾: الوُدُّ: محبَّةُ الشَّيء، وتمنّي كونِه، ويُستعمَلُ في كلِّ واحدٍ مِنَ المعنيَين، على أنَّ التَّمنِّيَ يَتضمَّنُ معنى الوُدّ؛ لأنَّ التَّمنِّيَ هو تَشهِّي حصولَ ما تَوَدُّهُ[3].ويقال: " (وَدِدْتُ) لو تفعل كذا بالكسر (ودًّا) بالضّم والفتح، ووِدادًا ووَدادة بالفتح فيهما، أي تمنّيت. وودِدتُ لو أنّك تفعل كذا مثله، و(وددت) الرّجل بالكسر (وُدًّا) بالضّمّ أحببته. والوُدُّ - بضمّ الواو وفتحها وكسرها -: المودّة،

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/255.
(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 2/22، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/204.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ود)، والرَّاغب، المفردات: (ودد).

وتقول بودّي أن يكون كذا"[1]، "وتودّد إليه تحبّب، وهو ودود أي محبّ؛ يستوي فيه الذّكر والأنثى"[2].

2) ﴿طَآئِفَةٌ﴾: الطَّائفةُ: في الأصلِ الجماعةُ مِنَ النَّاس، والقِطعةُ مِنَ الشَّيءِ[3]، وهي الفِرْقَة؛ سُمِّيَت بها لتصرُّفها في الإقبال والإدبار؛ كأنَّها تَطُوف[4]، وفي الصّحاح: " الطّائفة من الشّيء قطعةٌ منه، وقوله تعالى: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾ [النّور: 2]، قال ابن عبّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: الواحد فما فوقه[5].

والمُرَادُ بِالطَّائفَةِ بالآية الكريمة: جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ مِنْ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ وَقَيْنُقَاعَ، دَعَوْا عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ، وَمُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ، وَحُذَيْفَةَ بْنَ اليَمَانِ، إِلَى الرُّجُوعِ إِلَى الشِّرْك أو اليهوديَّة[6].

3) ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: المُرَادُ بِأَهْلِ الْكِتَابِ هُنَا: اليَهُودُ خَاصَّةً دُونَ غَيْرِهِمْ[7].

4) ﴿يُضِلُّونَ﴾: "ضلّ الشّئَ يضلّ ضلالًا، أي ضاع وهلك، والاسم الضُّلُّ بالضّم، ومنه قولهم: هو ضُلُّ بن ضُلٍّ، إذا كانَ لا يُعْرفُ ولا يُعْرَفُ أبوه، وكذلك: هو الضّلالُ بن التّلالُ، والضّالّةُ: ما ضَلَّ من البهيمة؛ للذّكر والأنثى"[8]، والإِضْلالُ في كَلامِ العَرَبِ: ضِدُّ الهدايةِ والإرشادِ، يُقالُ أَضْلَلْتُ فُلانًا: إذا وجَّهته للضّلال عن الطَّريق فلم تُرشِدْهُ[9].

5) ﴿يَشۡعُرُونَ﴾ الشُّعورُ: إدراكُ الشّيء من وجهٍ يَدِقُّ ويَخْفى، مُشتقٌّ من الشَّعْرِ لدقَّته، وقيل: هو الإدراكُ بالحاسَّة، مُشتقٌّ من الشِّعار، وهو ثوبٌ يَلي الجسدَ، ومنه: مشاعرُ الإنسانِ، أَيْ: حواسُّه الّتي يَشْعُرُ بها[10]، والتَّحقيقُ: أَنَّ الشُّعورَ إدراكُ ما دَقَّ مِنْ حِسِّيٍّ وعَقْلِيٍّ، وقولُه: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ أَيْ: ما يَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَضُرُّ الْمُؤْمِنِينَ[11].

---

(1) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (ودد).
(2) الفيّوميّ، المصباح المنير: (ودد).
(3) السَّمين، عُمدة الحفّاظ: 2/425.
(4) الواحديّ، البسيط: 5/341.
(5) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (طوف).
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/278.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/278.
(8) الجوهريّ، الصحاح(ضلل).
(9) الواحديّ، البسيط: 5/342.
(10) السَّمين، الدُّرّ المصون: 1/129.
(11) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/225.

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

دأبُ أهل الكتاب إضلال مخالفيهم بالزّيف والارتياب

تمنَّت طائفةٌ من الأحبار والرُّؤساء إيقاعَ الضَّلالِ بين المسلمين، وردَّهم عن دينهم إلى الكفر، بزَرْعِ الشُّبهاتِ ومُحاولةِ كَسْبِ بعض المسلمين بإدخالهم في دِينهم، ولكنَّهم فشلوا في ذلك، فهم لا يُضِلُّون إلَّا أنفسَهم، وما يَعودُ وَبالُ الإضلالِ إلّا عليهم، إذ شَغلوها بما لا يُجدي، وعرّضوها لما يَضُرُّ، لأنَّ العذابَ يُضاعفُ لهم بِضَلالِهم وإضْلَالِهم، ويوقِعُهم في الإثم والمعصية، أو: وما يَقدِرون على إضلال المسلمين، وإنَّما يُضِلُّون أمثالَهم مِن أَشياعِهم، وما يشعرون بذلك، وما يَفطَنون إلى سُوء حالِهم، وفي هذا نهايةُ الذَّمِّ والاحتقارِ لهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ التَّمَنِّي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

ثَبَاتُ المُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ عَلَى الإِيمَانِ حَتَّى المَمَاتِ

الفعلُ (وَدَّ) بمعنى تَمَنَّى، والتَّمنّي يكون للصَّعبِ الحُدوثِ، إمَّا لاستحالتِه، أو لشدَّة صُعوبته[2]، وفي الآية جاءت للمُستحيل، فإضلالُ المؤمنين المُتوكِّلين على ربِّهم أمرٌ مُستحيلٌ[3]، وإنَّما يضلُّ من يضِلُ بسببِ دسيسَةِ سوءٍ كانت في قلبِه[4]، أمَّا المؤمنون الصَّادقونَ فلن يُضيعَ اللّه تعالى إيمانَهم.

دِلَالَةُ ﴿مِّنۡ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

الإِنْصَافُ مَنْهَجٌ قُرْآنِيٌّ عَظِيمٌ

جاءت ﴿مِّنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ لِلتَّبْعِيض، وَإِنَّما ذُكِرَ بَعْضُهُمْ دونَ أن يُعَمُّوا بالحُكْم؛ لِأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَأَثْنَى اللّه عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ ٦٦﴾ [المائدة: 66]، و﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ

---

(1) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/372، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/205، 206، والطِّيبيّ، فُتوح الغيب: 4/139، والزُّحيليّ، التَّفسير المنير: 3/260.

(2) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: ص 449، وابن عقيلة، الزّيادة والإحسان: 6/73.

(3) الزُّحيلّي، التَّفسير المنير: 3/260.

(4) ابن رجب، جامع العلوم والحكم، ص: 180.

ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴿١١٣﴾ [آل عمران: 113][1]، ولذا جعل جماعةٌ من أهل العلم المرادَ من ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ اليهودَ خاصَّةً؛ ولذلكَ عبَّر عنهم بطَائفَة مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ؛ لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ أَنَّهُمْ أَهْلُ الكِتَابِ الّذينَ كانت المحاجّةُ معهم في الآياتِ السَّابِقَةِ[2].

ويَحْتَمِلُ أَنْ تكونَ ﴿مِّنۡ﴾ لِبَيَانِ الجِنْس، وتَكُونَ الطَّائِفَةُ جميعَ أَهلِ الكِتَاب[3].

وهذه الجملة ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ خبريَّةٌ، يُرادُ بها: تحذيرُ أهل الإيمانِ من مكايد أهل الكتاب، وحثُّهم على تمسُّكم بدينِهم.

دَلَالَةُ اسْتِعْمَالِ ﴿لَوۡ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ﴾:

تَعَذُّرُ إِضْلَالِ أَهْلِ الإِيمَانِ الصَّادِقِ

قَالَ تعالى: ﴿لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: أَنْ يُضِلُّوكُمْ؛ لِأَنَّ ﴿لَوۡ﴾ المستعملةَ في التَّمنِّي؛ تُشْعِرُ بعِزَّةِ المُتَمَنَّى وأنَّ الوصولَ إليه متعذِّرٌ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [البقرة: 96][4].

تَوْجِيهُ مَعْنَى الْإِضْلَالِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾:

مِنْ أَسْبَابِ ثَرَاءِ الْمَعَانِي الْقُرْآنِيَّةِ تَعَدُّدُ مَعَانِي كَلِمَاتِهِ

إِنْ كان معنى الإضلال الإهلاكَ، فالمعنى: أنَّهم يُهلكون أنفسَهم وأشياعَهم؛ لاستحقاقهم بإيثارهم إهلاكَ المؤمنين سَخَطَ اللّهِ تعالى وغضبَه.

وإِنْ كان معناه الإخراجَ عن الدِّين؛ فذلكَ حاصلٌ لهم، بجَحْدِ نُبوَّةِ رسول اللّه ﷺ، وتَغييرِ صفته، وخرجوا عن مِلَّة موسى وعيسى.

وإِنْ كان المعنى الإيقاعَ في الضَّلال؛ فذلكَ حاصلٌ لهم مع تمكُّنِهم من اتِّباع الهدى بإيضاح الحُجج، وإنزالِ الكتب وإرسال الرُّسلِ[5].

---

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/225.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/278.

(3) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/452، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 2/22، والسَّمين، الدُّرّ المصون: 3/244.

(4) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/225.

(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/205، الآلوسّي، رُوح المعاني: 2/191.

وكلُّ هذه المعاني حقٌّ، وَلا تعارُضَ بينَها فيُحمَلُ اللَّفظُ عليها جميعًا، فهم أهلكوا أنفسَهم، وأخرجوها عن الدِّين الحقِّ، وأوقعوهَا في الضَّلالِ.

دلَالَةُ الْجُمْلَةِ الْحَالِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾:

دَيْـــدَنُ أَهــلِ الضَّلالِ مُحَاوَلَةُ رِدِّ الْمُؤْمِنينَ إِلَى الكُفْرِ

جِيءَ بالجملة الحاليَّة ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ للدَّلالة على كمال رسوخِ المخاطبِين، وثباتِهم على ما هُم عليه من الدِّينِ القويم[1].

وهي إمَّا على سبيل المجازِ المُرسَلِ، أو الاستعارةِ، أي: ما يَتخطَّاهُمُ الإضلالُ ولا يعودُ وبالُه إلَّا إليهم، لما يُضاعَفُ به عذابُهم. أو المرادُ بأنفسهم: أمثالُهم المُجانِسون لهم، فهو استعارةٌ أو تشبيهٌ بتقديرِ: أمثالِ أنفسِهم؛ إذ لم يتهوَّدْ مُسْلِمٌ، ولله تعالى الْحَمْدُ[2].

وجِيءَ بالفعل المُضارع ﴿يُضِلُّونَ﴾ للدَّلالة على بشاعة ما يَوَدُّون، وتَدُلُّ على تَجَدُّدِ تمنِّي ردِّ أهل الإيمان إلى الكُفْر، وتَكرارِه واستمراره[3].

دلَالَةُ النَّفْيِ وَالِاسْتِثْنَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾:

مَنْ يَسْعَى إِلَى إِضْلَالِ الْمُؤْمِنِينَ سَيَعُودُ سَعْيُهُ وَبَالًا عَلَيْهِ

في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ أسلوبُ قصرٍ؛ حيثُ قُصِرَ الضَّلالُ عليهم وحدَهم، في سعيهم الّذي سَعوه لإضلال المؤمنين، وطريق القصر: النَّفي والاستثناء، وهي أقوى طرقِ القصرِ في الدِّلالة عليه، ولذا اختير هذا الطَّريقُ في كلمة التَّوحيد (لا إله إلَّا الله)، والقصر في الآية إضافيٌّ[4]، وفيه إشعارٌ بثباتِ المؤمنينَ على الهدايةِ.

دَلالةُ العَطفِ بين الجملتَين: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ﴾، و﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾:

الإِضْلَالُ جَرِيمَةٌ عِقَابُهَا عَلَى نَفْسِ مُرْتَكِبِهَا وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ

وُصِلَ بين الجملتَين بالواو؛ لاتِّحادهما في الخبر المنفيِّ على

(1) أبو السُّعود، إرشادُ العقل السَّليم: 2/49.
(2) الآلوسّي، رُوح المعاني: 2/191، والعليميّ، فتح البيان: 2/264.
(3) الهلال، تفسير القرآن الثرّيّ: 3/103.
(4) الخطيب، التَّفسير القرآنّي للقرآن: 2/491.

إثباتِ الضَّلالِ، وعدمِ الشُّعورِ به لهذه الطَّائفةِ مِن أهلِ الكتاب[1]، واشتراكِهما في الفعليَّةِ، ونوعِ الفعل؛ إذْ كلاهُما مضارعٌ.

وفي نفي الشُّعور عنهم مبالغةٌ في ذَمِّهم[2]، وجاءت الصِّيغتان بالفِعل المضارع الدالِّ على استمرارهم في الإضلال والضَّلال بلا شعورٍ منهم.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الجَمَاعَة والطَّائفة:

أَنَّ الطَّائِفَةَ فِي الأَصْل جَمَاعَةٌ من شَأْنها الطَّوافُ، وَيجوز أَن يكون أَصْلُهَا الجَمَاعَةَ الَّتِي تَستوي بهَا حَلقَةٌ يُطَافُ عَلَيْهَا، ثُمَّ كَثُر ذَلِك حَتَّى سُمِّيت كُلُّ جماعَةٍ طَائِفَةً، قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحُجرات: 9]، وَلَا خلافَ فِي أَنَّ اثْنَيْن إِذا اقتتلا كَانَ حُكمُهمَا هَذَا الحُكمَ، وَرُوِيَ فِي قَوْله ﷻ: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [النّور: 2]، أَنَّه أَرَادَ وَاحِدًا، وَقَالَ: يجوز قَبُولُ الوَاحِدِ بِدَلَالَة قَوْله تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾، إِلَى أَن قَالَ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ۝١٢٢﴾ [التّوبة: 122]، أَي: لِيَحذروا، فَأوجبَ العَمَلَ فِي خبر الطَّائِفَة، وَقد تكونُ الطَّائِفَةُ وَاحِدًا[3].

الغَيّ والضَّلال:

الضَّلالُ: فِي مُقَابلَةِ الهُدى، والغَيُّ فِي مُقَابلَة الرُّشْدِ، تقولُ: ضَلَّ بَعِيري ورَحْلِي، وَلَا تَقول: غوِيَ، وضَلَّ هُوَ عَنِّي، أَي: ذَهَب، وَكَذَا أَضَلَّنِي كَذَا، والضَّلالُ: أَن لَا يجدَ السَّالِكُ إِلَى مَقْصِدِه طَرِيقًا أصلًا، والغِوايةُ: أَن لَا يكونَ لَهُ إِلَى المَقْصِد طَرِيقٌ مُسْتَقِيمٌ[4].

﴿يَشْعُرُ﴾ و﴿يَعْلَمُ﴾:

فِعْلَا ﴿يَعْلَمُونَ﴾ و﴿يَشْعُرُونَ﴾ قد كَثُر دورانُهما في القُرآن، فنَجدُ أَنَّه في الأمور الّتي يُرجعُ إلى العَقل وحدَه في الفَصل فيها يَستعملُ كلمةَ ﴿يَعْلَمُونَ﴾؛ لأَنَّها صاحبةُ الحقِّ في

---

(1) الدّبل، دليل البلاغة القرآنيَّة: 1/472.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/206، والآلوسّي، رُوح المعاني: 2/191.

(3) العسكريّ، الفُروق اللُّغويَّة، ص: 278، والكَفويّ، الكلّيَّات، ص: 685.

(4) العسكريّ، الفُروق اللُّغويَّة: ص 214، والكفويّ، الكلّيّات: ص 576.

التَّعبير عنها، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾ [البقرة: 75]، وأمَّا الأُمورُ الّتي يكون للحَواسّ مدخلٌ في شَأنها فيَستعملُ كلمةَ ﴿يَشۡعُرُونَ﴾[1]، كقوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾ [البقرة: 9].

(1) أحمد ياسوف، جماليَّات المفردة القرآنيَّة: ص 321.

﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠﴾

[آل عمران: 70]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المنـاسـبـة بـين إضـلال أهـل الكـتاب لغيرهم، وبين وَعْظِهم بالكفّ عن ضلالهم

الْتِفَاتٌ إِلَى خِطَابِ اليَهُودِ[1]، لَمَّا بَيَّنَ حَالَ الطَّائِفَةِ الّتِي لَا تَشْعُرُ بِمَا فِي التَّوْرَاةِ مِنْ دَلَالَةِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بَيَّنَ أَيْضًا حَالَ الطَّائِفَةِ العَارِفَةِ بذلك من أحبارهم[2]، فقال لهم: ﴿لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّـهِ﴾من القرآن المنزل وَأَنۡتُمۡ تعلمون يقينًا أنّه حقٌّ منزلٌ من عند الله تعالى؛ لورود ذكر مجيء الرّسول ﷺ في كتابكم الّذي بلّغكم ذلك بصريح العبارة[3].

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾: الكتابُ: التَّوراةُ، وجعلَهم أهلَه بحسَبِ زَعْمِهِم ونَسبِهم، وإلَّا فأهلُه على الحقيقة هم المؤمنون[4]، أو سمَّاهم أهلَه؛ لنُزوله على النَّبيِّ الّذي هم مُتَّبعونه[5]، قوله: " ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾ يعني يا أهل التّوراة والإنجيل، وإنّما أضافهم إلى الكتاب.. على وجه التّعبير، يعني أنتم أهل الكتاب فلم لا تعملون بكتابكم؟؛ كقوله: يا عاقل لم لا تفعل كذا وكذا؟!، وإنّما تذكر العقل على معنى التّعيير أي إنّك لا تعمل عمل العقلاء"[6].

2) ﴿لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾: أي لقد كَفَرْتم بآيات الله وبيّناته

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 3/279.

(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/255.

(3) ابن الخطيب، أوضح التّفاسير، ص: 68.

(4) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 1/480.

(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/387.

(6) وهذا شبيه في اللّوم والتّنبيه، بقوله تعالى: " ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ﴾ [المائدة: 19]، ينظر: السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/380.

الّتي في التَّوْرَاةِ وَالإِنْجيلِ مِنْ وَصْفِ النَّبيِّ ﷺ، وَالإِيمَانِ بِهِ، كَمَا بَيَّنَ في قَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِى ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: 157]، وأنتم تَعلمون صِدقَها[1].

3) ﴿وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾: يقال: "شَهِد له بكذا شَهادةً، أي أدَّى ما عنده من الشّهادة، فهو شاهِدٌ، والجمع شهد، مثل صاحب وصحب، وسافر وسفر، وبعضهم ينكره. وجمع الشّهد شهودا وأشهاد، والشّهيد: الشّاهد، والجمع الشُهَداءُ. وأَشْهَدْتُهُ على كذا فَشَهِدَ عليه، أي صار شاهداً عليه"[2]، ومعنى العبارة في الآية، أي: والحالُ أنّكم تَشهدون أنَّها آياتُ اللّه، أو بالقرآن، وأنتم تَشهدُون نَعْتَه في الكتابَيْن، أو تَعلمون بالمعجزات أنَّه حَقٌّ[3].

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

استنكار كفر أهل الكتاب بالآيات وهم يشهدون عظمتها

يا أهلَ التَّوراةِ والإِنْجيلِ لِمَ تَجْحَدُونَ آياتِ اللّه الّتي أَنْزَلَها على رَسُلِهِ في كُتُبِهِمْ، وفيها أنَّ رسولَ اللّه ﷺ هو الرَّسُولُ المُنْتَظَرُ، وأنَّ مَا جاءَكُم به هو الحقُّ، وأنتم تَشهدُونَ بذَلكَ؟! ولكنَّكم تُنكرونَهُ[4]، وفي الآية إنكارٌ على كفر اليهود بآيات اللّه، وما فيها من براهين ودلالات قاطعة على نبوّة محمّد ﷺ؛ خاصّة وأنّ كتبهم تشهد بصحّتها، وقد جاءت فيها البشارة ببعثته وصدقه، وبّينت أوصافه، وهي أوصافٌ لا تنطبق على أحدٍ آخر غيره[5].

۞ الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلَالَةُ النِّدَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ﴾:

نداءُ الله تعالى لأهل الكتاب يتضمَّن توبيخًا لهم؛ لصدِّهم عن سبيل الله

وَجَّه اللّه سبحانه وتعالى بهذه الآية النِّداءَ إلى أَهْلِ الكتاب

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/206، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1270.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: 2/494.
(3) أبو السُّعود، إرشادُ العقل السَّليم: 2/49، والبروسويّ، رُوح البيان: 2/49.
(4) نخبة من أساتذة التَّفسير، الميسَّر في التَّفسير: ص 58.
(5) أسعد حومد، أيسر التّفاسير: ص 364.

يدعوهم إلى الإيمان، مُبيِّنًا لهم في صيغةِ استفهامٍ إنكاريٍّ تَوبيخِيٍّ أنَّ دَواعيَ الإيمانِ قائمةٌ، ودَواعيَ الكُفرِ غيرُ ثابتةٍ، ولذا يُستفهَمُ عنها، إنكارًا وتوبيخًا، وابتدأهم بهذا النِّداء الكريم؛ إذ قال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، وفي هذا النِّداء إشارةٌ إلى أنَّ ما أُعطَوْه كان يقتضي مسارعَتَهم إلى الإيمان، لَا أنْ يكفروا(1).

سَبَبُ تَخْصِيصِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِكَوْنِهِمْ أَهْلَ كِتَابٍ:

نِسْبَةُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى لِكُتُبِهِم احْتِجَاجٌ عَلَيْهِمْ بِهَا

جازَ أَنْ يُقالَ لليهود والنَّصارى: أهلُ الكتابِ، وهم لا يَعْمَلُون به، ولم يَجُزْ مثلُ ذلك في الوصف بـ (أَهلِ القُرآنِ)؛ والسَّببُ في ذلك أنَّ القُرآنَ اسمٌ خاصٌّ لِما أَنزل اللّٰه على رسول اللّٰه ﷺ، فأمَّا الكتابُ فيجوزُ أن يُذهَبَ به إلى معنى: يا أهلَ الكتابِ المُحرَّفِ عن جهته!، وفي نسبتهم إلى الكتابِ احتجاجٌ عليهم بالكتاب لإقرارهم به، كأنَّه قيلَ: يا من يُقِرُّ بأنَّه من أهل الكتاب؛ لِمَ تكفرونَ بآياتِ اللّٰه؟(2).

دلَالَةُ الِاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِمَ تَكۡفُرُونَ﴾:

شَنَاعَةُ كُفْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ مَعَ ظُهُورِ الْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ عَلَى بُطْلَانِهِ

في الاستفهامِ الواردِ في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ إثارةٌ لنفوس المخاطَبِينَ، وتوبيخٌ وإنكارٌ لهم؛ لأنَّه كَسُؤالِ التَّعجيزِ عن إقامة البرهان(3)، فالاستفهامُ جِيءَ به لإنكارِ الواقع الّذي وقَعَ منهم، وهو الكُفرُ مع قِيام أدلَّتِهِ، ولقد أكَّد اللّٰه سبحانه وتعالى الاستنكارَ بقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾ أي: وأنتم تَعلمُون صِدقَ الرَّسولِ عِلمًا يَقينيًّا كعِلمِ المُشاهدةِ والعِيان، بما أُخْبِرَ به في كتابكم(4).

بَلَاغَةُ الْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾:

حُذِفَ متعلَّقَ الشَّهادة في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾؛ وهو المشهودُ به؛ لأنَّ الكلامَ كانَ تَوبيخًا، والتَّقديرُ: وأنتم تَشهدُون بما

---

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1270.

(2) الواحديّ، البسيط: 5/454.

(3) الواحديّ، البسيط: 5/454.

(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1270.

تَـنَـاقُـضُ أَهْـلِ الْكِتَابِ فِي قَضَايَا الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ

عليكم فيه الحُجَّةُ، فحُذِفَ ذلك إيجازًا، مع الاستغناء عنه بالتَّوبيخ، والحجَّةُ عليهم هي: إقرارُهُم بالبشارة له ﷺ، ثُمَّ كفروا به، والإقرارُ بِمِثْلِ آياتِه للأنبياء، ثُمَّ كُفرُهم بما جاء به ﷺ وجحدُهم لَهُ؛ فكانَ ذلك مناقَضَةً منهم[1]؛ لأنَّه إذا قِيل أقرَّ فلانٌ؛ احتملَ أنَّه تكلَّم بما يَلزمُ منه الإقرارُ، فأزيلَ الاحتمالُ بكونه شاهدًا على نفسه، أي: أقرَّ إقرارًا يُشبه شهادةَ مَن يَشهدُ على غيره بإثبات البيِّنةِ[2].

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأَهْل والآل:

"الأَهْلُ: يكون من جِهَة النّسَبِ والاختصاص، فَمن جِهَةِ النَّسَبِ قَوْلُكَ: أهلُ الرَّجلِ؛ لِقَرَابَتِهِ الأَدْنَين، وَمن جِهَة الِاخْتِصَاص قَوْلُك: أهلُ البَصْرَة، وَأهلُ العِلم، وأهلُ الكتاب، والآلُ: خَاصَّةُ الرَّجُلِ من جهَة القَرابَة أو الصُّحْبَة، تَقولُ: آلُ الرَّجل لأهله وَأَصْحَابه، وَلَا تَقولُ: آلُ البَصْرَةِ وَآلُ العِلم وآلُ الكتاب، وَقَالُوا: آلُ فِرْعَوْن أَتبَاع، وَكَذَلِك آلُ لوط"[3]، "فالآل ينْطَلق على ذَات الشَّيْء وَقد قيل ذَلِك في قَوْله (اللهمَّ صلّ على آل مُحَمَّد، وعَلى آل إِبْرَاهِيم)، وَيكون الآل أهل بَيته الأدنين[4].

الكفْر والإلحاد:

أَنَّ الكفْرَ اسْمٌ يَقعُ على ضُروبٍ مِنَ الذُّنُوب؛ فَمِنْهَا الشِّركُ بِاللَّه، وَمِنْهَا جَحْدُ النُّبوَّةِ، وَمِنْهَا استحلالُ ما حَرَّمَ اللّه؛ وَهُوَ رَاجعٌ إِلَى جَحْدِ النُّبُوَّة وَغير ذَلِك مِمَّا يطولُ الكَلَام فِيه، وأصلُه التَّغطيةُ.

والإلحادُ: مَيْلٌ عن الحَقِّ في اعتقادٍ أو عملٍ؛ وأكثرُ إطلاقِه في الاعتقاد، وأصلُ الإلحاد: الميلُ، وَمِنْه سُمِّيَ اللَّحْدُ؛ لِأَنَّهُ يُحْفرُ فِي جَانب القَبْرِ[5].

(1) الواحديّ، البسيط: 5/346.

(2) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 2/278، والطِّيبيّ، فُتُوح الغيب: 2/560.

(3) العسكريّ، الفُروق اللُّغويَّة، ص: 281، والكفويّ، الكلّيَّات، ص: 210.

(4) العسكريّ، الفُروق اللُّغويَّة، ص: 281، والكفويّ، الكلّيَّات، ص: 210.

(5) العسكريّ، الفُروق اللُّغويَّة، ص: 228.

الآية والعَلَامَة والدَّلَالَة:

أَنَّ الآيَةَ هِيَ العَلامَةُ الثَّابِتَةُ، من قَوْلِكَ: تَأَيَّيْتُ بِالمَكانِ إِذا تَحبَّست بِهِ وَتثبّتّ، والدَّلَالَة على الشَّيْء: مَا يُمكنُ كلُّ نَاظر فيها أَن يسْتَدلَّ بها عليه، كالعالَم لمّا كَانَ دَلالَةً على الخَالِق كَانَ دَالًّا عليهِ لكلِّ مُستَدلٍّ به.وعلامةُ الشَّيْء: مَا يُعرفُ بِهِ المُعلَّمُ لَهُ، وَمنْ شَاركهُ في مَعْرفَته دون كلّ وَاحِدٍ، كالحَجَرِ تَجْعَلهُ عَلامَةً لدَفينٍ تدفِنُه، فَيكونُ دلَالَةً لَكَ دون غَيْرِكَ، وَلَا يُمكنُ غَيْرك أَنْ يسْتَدلّ بِهِ عليه، إِلَّا إذا وافقتَه على ذَلك؛ كالتَّصفيق تَجْعَلهُ عَلامَةً لَمجيءِ زيدٍ، فَلَا يكونُ ذلك دَلَالَةً إِلَّا لَمنْ يُوافقكَ عليه، ثمَّ يجوزُ أَن تُزيلَ عَلامَة الشَّيْءِ بينَك وَبَين صَاحبكَ، فَتَخرجُ مِنْ أَن تكونَ عَلامَةً لَهُ، وَلَا يَجوزُ أَن تَخرجَ الدّلَالَةُ على الشَّيْء مِنْ أَن تكونَ دَلَالَةً عليه. فالعَلامَةُ تكون بِالوَضْعِ، وَالدَّلَالَةُ بالاقْتضاء[1].

الشَّهادَة والعِلْم والإقرار:

أَنَّ الشَّهَادَة أخصُّ من العِلْم، وَالشَّاهِدُ نَقيضُ الغَائِبِ في المعنى، والشَّهادةُ عِلمٌ يَتناولُ المَوجُود، وَالعِلمُ يتَنَاوَل المَوجُودَ والمعدومَ[2]. والإِقْرارُ: هُوَ إِثْباتُ الشَّيْءِ بِاللِّسَانِ أَو بِالقَلْبِ أَو بهما، وإبقاءُ الأَمر على حاله، وَالإِقْرارُ بِالتَّوْحِيدِ وَمَا يجْري مجْراه لا يُغني بِاللِّسانِ مَا لم يُضامَّهُ الإِقْرَارُ بِالقَلْبِ، ويُضادَّه الإِنْكارُ[3].

(1) العسكريّ، الفُروق اللُّغويَّة، ص: 71.

(2) العسكريّ، الفُروق اللُّغويَّة، ص: 95 - 96.

(3) الكفوي، الكليَّات، ص: 160.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١﴾ [آل عمران: 71]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين شبهات أهل الكتاب، والتّنديد بالتّلبيس وكتمان الحقّ

بَعْدَ أَنْ كَشَفَت الآياتُ السَّابقة عَنْ بعض النَّوايا السَّيئة الَّتي يعيشُ فيها فَريقٌ من أهلِ الكتاب؛ وذَلكَ مِن محاولاتِهم أَن يُفسِدوا على الـمَسلمينَ دِينهم، بما يُلقون من شُبُهات يحيكُونَها مِنْ خيُوطِ البُهتَانِ والضَّلالِ، مِنْ أَجلِ إضلَالِ الـمُسلمينَ وإبعَادِهم عَنْ دِينِهِمْ، جَاءَتْ هذه الآية مُخاطبَةً أهلَ الكِتَابِ تَقُولُ لَهُم: يا مَنْ مَنَّ اللّه عَليكم بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِهِ، فيه هدًى ونُور، لماذا تُلبِسُونَ هذا النُّور ثَوْبَ الظَّلام، وتُلبِسُونَ الحقَّ ثَوْبَ الباطِل، وذلك عَمْدًا، وليس عَن جَهلٍ منكُم، بل وأنتم تعلَمُون !![1]، قائلًا "لم تخلطون الحقّ الّذى جاء به الأنبياء ونزلت به الكتب بما جئتم به من شبهات واهية، وتأويلات باطلة، ولا تذيعون الحقّ صريحاً واضحاً بعيداً عن التّخليط، وأنتم تعرفون أنّ عقاب اللّه على مثل هذا الفعل عظيم؟"[2].

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَٰٓأَهۡلَ﴾: (يا) لِنِدَاءِ البَعِيدِ حَقِيْقَةً أو حُكمًا، ومنه قول الدَّاعي: "يَا اللّه"، وقد يُنَادَى بها القَرِيبُ إذا كانَ سَاهِيًا أو غَافِلًا، تَنزيلًا لهما مَنزِلَةَ البَعِيدِ، وَقَدْ يُنَادَى بِهَا القَرِيبُ الَّذي ليسَ بِسَاهٍ ولا غَافِلٍ، إذا كانَ الخِطَابُ الْمُرَتَّبُ على النِّداء في مَحَلِّ الاعتِنَاءِ بشَأنِ الـمُنَادَى إلى غير ذلك مِنَ المعاني[3]، وقالَ ابنُ هِشَام: "وهي

(1) الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 1/492.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 82.
(3) الزركشي، البرهان: 4/445.

أَكثَر أَحرُف النِّداء استعمالًا؛ ولهذا لا يُقَدَّر عِندَ الحَذفِ سِواهَا، ولا يُنادى اسم اللّه إلَّا بها"[1]، وفي لفظ (أهل): يقولُ الرَّاغب: "أَهلُ الرَّجُلِ مَنْ يَجمعهُ وإيَّاهم نَسَبٌ أو دِيْنٌ، أو مَا يَجري مجراهُما منْ صِنَاعَةٍ وبَيتٍ وبَلَدٍ وأَهْلُ الرَّجُلِ مَنْ يَجْمَعُهُ وإِيَّاهُم مَسْكَنٌ واحدٌ، ثمَّ تَجوَّز به فقيل: أهلُ الرَّجلِ مَنْ يَجمعُهُ وإيَّاهُم نَسَبٌ"[2].

2) ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: في الأَصلِ مَصدَرٌ، ثمَّ سُمِّيَ المكتُوبُ فيه كِتابًا، وهو اسمٌ للصَّحيفَةِ مع المكتوب فيه، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النّساء: 153]، يعني صحيفةً فيها كتابة[3]، "ويطلق الكتاب على المُنزل، وعلى ما يكتبه الشّخص ويرسله، قال أبو عمرو: سمعتُ أعرابيًّا يمانيًّا يقول: فلان لغوب جاءته كتابي فاحتقرها، فقلت: أتقول جاءته كتابي؟!، فقال: أليس بصحيفة؟"[4].

3) ﴿تَلْبِسُونَ﴾: فَسَّر الكثيرون كلمة ﴿تَلْبِسُونَ﴾ بمعنى تَخلِطُونَ، وهي في المُؤَدَّى كذلك، ولكن لا بدَّ أن يُلاحظ معنى السَّتر واللِّباس في الكَلِمة؛ ذَلك بأنَّهم جاؤوا إلى الحقِّ المبين فألبسوه ثوبَ الباطل ليُستَبْهَم؛ ولقد قال الأصفهانيّ في هذا المعنى: "أَصْلُ اللَّبْسِ: سَترُ الشَّيء، ويُقال ذلك في المعاني، يُقال: لَبَسْتُ عليه أمره. قال تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعام: 9] "[5].

4) ﴿ٱلْحَقَّ﴾: أَصْلُ الحَقِّ المُطابَقة والموافقة، كمُطابقة رِجْلِ الباب في حقِّه، "والمُراد بحقّه عَقب البَاب"، وهذا دَليلٌ على دَورانِه على استقامَة، ويقول الجرجانيّ عن الحقِّ: "الثّابتُ الَّذي لا يَجُوزُ إنكَارُه، وفي اصطلاح أهل المعاني: "الحُكم المطابق للواقع في الأَقوال والعَقائد، والأَديان والمذاهب، باعتبار اشْتِمَالها على ذَلِكَ"[6].ويقولُ الرَّاغب: "ويُطلَق الحَقُّ على أوجه: الأوَّل: لِمُوجِد الشَّيء بحسب ما تَقْتَضِيه الحِكمَةُ؛ ولهذا أُطلِقَ على اللّه تعالى: هو الحقُّ".الثَّاني: يُقَال للمُوجد بحسب مُقتَضى الحِكمَة، ولهذا يُقال: فِعْلُ اللّه تعالى كُلُّه

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب: 2/373.
(2) الراغب: المفردات، مادّة: (أهل).
(3) المصدر نفسه: (كتب).
(4) الفيّوميّ، المصباح المنير: (كتب).
(5) الرّاغب: المفردات، ص: 735، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1270.
(6) الجرجاني، التعريفات، ص: 142.

حَقٌّ.الثَّالث: في الاعتقاد للشَّيء المُطَابق لِمَا عليه ذَلكَ الشَّيء في نفسِه، كقولنا: اعتقادُ فُلان في البَعث، والثَّواب، والعِقاب، والجنَّة، والنَّار حَقٌّ، قال تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: 213]. الرَّابع: للفعلِ والقَولِ الوَاقِع بحسب ما يَجبُ، وبقَدْرِ ما يجبُ، وفي الوَقْتِ الَّذي يَجبُ كقولنا: فِعْلُكَ حقٌّ، وقَولُكَ حَقٌّ[1].

5) ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾: نَقِيضُ الحقِّ، وهو مَا لَا ثَبَاتَ لَهُ عِندَ الفَحصِ عَنهُ، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: 62][2]، "والجمع أَباطيلُ على غير قياس، كأنهم جمعوا إبطيلًا، وقد بطل الشئ يَبْطُلُ بُطْلاً وَبُطولاً وبُطْلاناً، وأَبْطَلَهُ غيره. ويقال: ذهب دمُه بُطْلاً، أي هَدراً. والبَطَلُ: الشجاعُ، والمرأة بَطَلَةٌ. وقد بَطُلَ الرجل بالضم يَبْطُلُ بُطولَةً وبَطَالةً، أي صار شجاعًا"[3]، "وَسُمِّيَ الشَّيْطَانُ الْبَاطِلَ لِأَنَّهُ لَا حَقِيقَةَ لِأَفْعَالِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ فَلَا مَرْجُوعَ لَهُ وَلَا مُعَوَّلَ عَلَيْهِ"[4].

6) ﴿وَتَكْتُمُونَ﴾: الكِتمانُ: سَترُ الحَديث، يُقال: كَتَمْتُهُ كَتْمًا وكِتْمَانًا[5]، يَدُلُّ عَلَى إِخْفَاءٍ وَسَتْرٍ. مِنْ ذَلِكَ كَتَمْتُ الْحَدِيثَ كَتْمًا وَكِتْمَانًا، قَالَ اللّٰه تَعَالَى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ۝٤٢﴾ [النّساء: 42][6]، وقال اللّيث: "الكتمان: نقيض الإعلان، وناقةٌ كتوم، وهي الّتي لا ترغو إذا ركبت"[7]، وكتمانُ الحَقِّ يحتمل أن يُرادَ به كِتمانهم تصديقَ محمَّد ﷺ، ويُحتمل أن يُراد به كتمانهم ما في التَّوراة من الأَحكام الَّتي أماتوها وعوّضوها بأعمال أَحْبارهم وآثار تأويلاتهم، وهم يعلمونها ولا يعملون بها[8].

7) ﴿تَعْلَمُونَ﴾: العِلْمُ: "إدراكُ الشَّيء بحَقِيقَتِهِ، وهو يَشمل ذاتَ الشَّيء، والحُكمَ على الشَّيء بوجودِ شيءٍ هو له، أو نَفي شيءٍ هو مَنفيٌّ عنه"[9]؛ ولذلكَ قالَ الجُرجَانيُّ عنه: "الاعتقاد الجَازِم المُطابق للواقع"[10].

(1) الرَّاغب، المفردات: (حق).
(2) المصدر نفسه: (بطل).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (بطل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بطل).
(5) الراغب، المفردات، ص: 702.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).
(7) الأزهريّ، : تهذيب اللّغة: 10/90.
(8) السمين، عُمدةُ الحفاظ: 1/439، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/279.
(9) الراغب، المفردات: (علم).
(10) الجرجاني، التعريفات، ص: 155.

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

أهل الكتاب بين حالي الضّلال والإضلال

يا أهلَ الكِتَاب لم تخلِطون الحقَّ الَّذي أُنزل في كُتبكم بالباطل مِن عندكم، وتُخفونَ ما فيها مِنَ الحقِّ والهُدى، ومِنه صِحَّةُ نُبوَّة محمَّد ﷺ، وأنتم تَعلمُون الحقَّ مِن الباطل، والهُدى مِنَ الضَّلال[1]؟!. فهو سبحانه ينكر على اليهود كفرهم، وخلطهم الحقّ - الذي جاء به الأنبياء، ونزلت به الكتب - بالشّبهات الواهية، والتّأويلات الباطلة، وعدم إذاعتهم الحقّ صريحًا واضحًا، بعيدًا عن التّخليط، وهم يعلمون أنّ عقاب اللّه عظيم على مثل هذه الأعمال[2]، يؤكّدُ هذا ما ذكره الرّازيُّ بقوله: "كانت لعلماءِ اليهود والنّصارى حِرفتان: إحداهما: أنَّهم كانوا يكفُرون بمحمَّدٍ ﷺ، مع أنَّهم كانوا يَعلَمُون بقلوبهم أنَّه رسولُ حقٍّ من عند اللّه، واللّه تعالى نهاهم عن هذه الفعلة في الآية [آل عمران: 70]. وثانيتهما: أنَّهم كانواْ يجتهِدُون في إلقاء الشُّبهات، وفي إخفاء الدَّلائل والبيِّنات، واللّه تعالى نهاهم عن ذلك في الآية [آل عمران: 71]؛ فالمقامُ الأوَّل مقامُ الغِوايةِ والضَّلالة، والمقامُ الثَّاني مقامُ الإغواء والإضلال[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

من مقاصد النِّداءِ التَّنبيهُ؛ وإعادتُه توبيخٌ وإنكارٌ:

كَتْمُ الحَقِّ أَوْ لَبْسُهُ بِالْبَاطِلِ يَسْتَحِقُّ صَاحِبُهُ عَلَيْهِ التَّوْبِيخَ وَالْإِنْكَارَ

صدَّر النَّداءَ هنا بـ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ زيادةً في التَّوبيخ، وكلُّ تَوبيخٍ لهم يُعدُّ قليلًا مهما تكاثَر وترادفَتْ عِباراته، والاستفهام في قولهِ ﴿لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ إنكاريٌّ؛ لإنكار ما وقع منهم؛ ذلك بأنَّهم لبسوا وخلطوا الحقَّ بالباطلِ، وكَتمُوا الحقَّ الَّذي يشهدُ لمحمّدٍ ﷺ بالصِّدق وهم يعلمون به، فكان الاستفهامُ للتَّوبيخ على هذا الَّذي وقع منهم[4].

(1) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 59.
(2) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 365.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/256.
(4) ابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/279، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1270.

وفيه إيجازٌ بحذف ألف (ما) الاستفهامية؛ للفرق بين الاستفهامية والخبرية(1)؛ وهذا النَّوْعُ مِنَ الحذف يُسمَّى: اقتطاعًا.

علّة تَكرار النِّداء بـ ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾:

شَنَاعَةُ الْبَاطِلِ تَسْتَدْعِي شِدَّةَ التَّوبِيخِ

تكرَّرت جُملةُ النِّداء في الآية الكَريمَة لقَصدِ تَسْجِيلِ بَاطِلِهِم، وتَوبِيخِهِمْ على هذا المَوقِف مِن نُبوَّة نَبيِّنَا ﷺ.

دلالةُ اختِيَار جُملَة (أهل الكتاب) دُونَ غَيرها:

الْجُرْمُ يَتَعَاظَمُ بِحَسَبِ فَاعِلِه

واختِيرَ النِّداءُ ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾ دُون غيره، مثل: ﴿يَـٰبَنِيٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ﴾ [البقرة: 40]؛ لما فيه من تَأْنِيبٍ لضَمائِرِهم، وجَلدٍ لظُهورهم على هذا الموقف مِنَ الكُفرِ والتَّلبيس، فكأنَّه يقول: يَا أَهْلَ الكِتاب إذا وَقَعَ الكُفرُ وتَلبِيسُ الحقِّ بالباطل مِن غيركُم فلا يَجوزُ مِنكُم؛ لأنَّكم أهلُ كتابٍ، كما تقول: يا أهلَ القُرآن؛ مُنكرًا لِمَن وقَع في مَعصية.

وفي التَّعبير بـ ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾ دُونَ: يا أهلَ التَّوراة والإنجيل: إلزامٌ لهم بالإيمانِ بالقرآن الكريم؛ لأنَّ صِفَةَ الكتاب مُشتَرَكَةٌ بَينَهَا، فإذا آمَنُوا بالتَّوراة لأنَّها كتاب، والإنجيل لأنَّه كتابٌ؛ فالقرآن أيضًا كتابٌ، وَجِهة الإنزال والتَّسمية واحدةٌ، فلِمَ يَلبِسُونَ الحقَّ بالباطِلِ ويَكتُمونَهُ.

وفيه أيضًا أنَّ القُرآن لم يسلُبهم الانتسابَ للكتابِ مع وقوع التَّحريف والتَّبديلِ فيه؛ بناءً على دعواهُمْ ذلك، وأيضًا لصحَّةِ أصلِه.

سِرُّ التَّعبير بالنِّداء مِن غير ﴿قُلۡ﴾:

تَوَدُّدُ اللهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ مَعَ إِيغَالِهِمْ فِي الْعِصْيَانِ رَغْبَةً فِي تَوْبَتِهِم

جاءَ التَّعبيرُ ههنا بالنِّداء من غير ﴿قُلۡ﴾، بخلافِ ما تقدَّم من قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ [آل عمران: 64] الآية، وخلافًا لما سيأتي في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 99]؛ وذلك لأنَّ الَّذي يُنادي عليهم

(1) الإندونيسي، الشَّامل في بلاغة القرآن: 1/176.

هو اللّه سبحانه وتعالى مُباشرةً مِنْ غير واسطة؛ ليُقرِّبهم مِنه ليُؤمِنُوا بالرَّسول ﷺ؛ وفي هذا حَثٌّ لهم على تَركِ الجُحُود والإنكار.

وكَون النِّداء منه سبحانه وتعالى مُباشَرَةً فيه لَمسٌ لقُلوبهم القَاسِيَة، وإيقاظٌ لغفلَتِهم، ودلَالَةٌ على رَحمَةِ الرَّحمن الرَّحيم، فلَمْ يَطْردهُم لعلَّهم يؤوبُون إلى رُشدِهم ويتوقَّفون عن إلقاءِ الشُّبهات.

تَوْجِيهُ الْقِراءاتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَلْبِسُونَ﴾:

التَّكاملُ الدَّلالي لِلْقِراءاتِ القرآنيَّةِ

قَرأَ يحيى بن وثَّاب شاذًّا: (تَلْبَسُونَ) - بفتح الباء - مُضارعُ لَبِسَ الثَّوبَ، فجعلَ الحقَّ كأنَّه ثوبٌ لَبِسُوه، والباءُ في ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ على هذه القراءة للحال؛ أي: مَصحُوبًا بالباطل. وقرأ أبو مجلز شذوذًا: (تُلَبِّسون) - بضَمِّ التَّاء وكَسْرِ الباء المُشدَّدة -، والتَّشديدُ هنا للتَّكثير. وقرأ عُبيد بن عُمير شُذوذًا أيضًا: (لمَ تَلْبِسُوا) و(وتكتموا) بحذف النُّون فيهما للجَزم، قالوا: ولا وجهَ له إلَّا مَا ذَهب إليه مَنْ شَذَّ مِنَ النُّحاة في إلحاقِ (لمَ) بـ (لَمْ) في عمل الجزم، والثَّابت في لسان العرب: أنَّ (لمَ) لا يُجْزَمُ مَا بعدها، ولم يذهب أحدٌ مِنَ النَّحويين إلى أنَّ: (لمَ) تجري مجرى (لَمْ) في الجزم، إلَّا ما ذَكَرَهُ أهلُ التَّفسير هنا، وإنَّما هذا من باب حذف النُّون حالةَ الرفع في لغة بعض العرب، كما في قول الرَّاجز:

أبِيتُ أسرِي وَتَبِيتِي تدلُكي *** شَعرَكِ بالعَنبَرِ وَالمِسكِ الذَّكِي[1]

عِلَّةُ الفِعلِ في سُؤالِ اللهِ تعالى في قولِهِ: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾:

سُؤالُ اللهِ تَعَالَى غَيرُ المُقتَرِنِ بِالْجَوَابِ دَلِيلٌ عَلَى التَّحريم

وقع سُؤَالُهُ سبحانه عن عِلَّة الفعل في آياتٍ عِدَّة من القرآن الكريم، كقوله: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾ [آل عمران: 99]، وقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ [ص: 75]، وقوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/209، والآلوسي، روح المعاني: 2/192، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 4/361.

مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢﴾ [الصف: 2]، وسؤاله مَا لَمْ يَقْتَرِنْ بِهِ جَوَابٌ عَنِ السُّؤَالِ؛ فإذا قُرِنَ بِهِ جَوَابٌ كَانَ بِحَسبِ جَوَابِه، فَهَذَا وَنَحوُهُ يَدُلُّ عَلَى المَنعِ مِنَ الفِعلِ وَدلَالَتُهُ عَلَى التَّحرِيمِ أَطرَدُ مِنْ دَلَالَتِهِ عَلَى مُجَرَّدِ الكَرَاهَةِ[1].

دِلالةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ وَ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ﴾:

إِضْـــلَالُ أَهْـلِ الْكِتَابِ لِأَتْبَاعِهِمْ قَصْدًا

لَبْسُ الحقِّ بالباطل تَلبيسُ دِينِهم بما أَدخلوا فيه من الأكاذيب والخُرافات والتَّأويلاتِ الباطلة، حتَّى ارتفعت الثِّقة بجميعه، و(الباءُ) للحال، أي: مصحوبًا بالباطل[2].

واللَّام في ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ لِلْعَهْدِ العلميِّ؛ إِذْ إِنَّهُ حقٌّ معهودٌ مِمَّا عَرَفُوهُ مِن الكِتَابِ المُنْزَلِ عَلَيْهِم.

وكذا اللَّامُ في ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾؛ فإنَّه لِلْعَهْد العلميِّ أيضًا؛ لأنَّهم يعرفُونَ ما افترَوْهُ وأحدثُوهُ مِنَ الباطلِ.

وكتمانُ الحقِّ يَحْتَمِلُ أن يُراد به كِتمانهم تصديق محمَّد ﷺ، ويَحْتَمِل أن يُرادَ به كتمانهم ما في التَّوراة من الأحكام الَّتي أماتوها وعوَّضوها بأعمال أحبارهم وآثار تأويلاتهم، وهم يعلمونها ولا يعملون بها[3]، ولا تعارُضَ بين المعنيين؛ إذْ كلُّ ما سبقَ قد كَتَمُوهُ.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالْفِعْلِ الْمُضارِعِ دُونَ الْمَاضِي فِي قَوْلِهِ: ﴿تَلۡبِسُونَ﴾، ﴿وَتَكۡتُمُونَ﴾:

لَـبْـسُ الْـحَـقِّ بِـالْـبَـاطِـلِ دَأْبُ أَهْـلِ الْـكِـتَـابِ وَعَادَتُهُمْ

اختيارُ الفعلِ المضارعِ في مخالفاتِ أهل الكتاب: ﴿تَلۡبِسُونَ﴾، ﴿وَتَكۡتُمُونَ﴾ فيه إشعارٌ بأنَّ هذه الجرائم دأبُهم وعادتُهم، يغدون فيها ويروحُون، ويتقلَّبون فيها حالًا إِثرَ حالٍ، ولو عُبِّرَ عنها بالفعل الماضي لَاحْتَمَلَ اقترافهم لها ثُمَّ توبتُهم منها[4].

(1) الزَّركشي، البرهان: 2/11.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/270، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/279.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/256 - 257، وابن عاشور، التحرير والتَّنوير: 3/279.
(4) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/168.

الإِظْهَارُ فِي مَوْضِعِ الإِضْمَارِ فِي قَوْلِه: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾:

شَنَاعَةُ كِتْمَانِ الْحَقِّ

﴿ٱلْحَقَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ يحتمل أن يكون غير ﴿ٱلْحَقَّ﴾ الأوَّل المذكور في قوله: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ﴾، فالأوَّل: القرآنُ وصِفةُ النَّبيِّ ﷺ، والثَّاني: الرِّسالة.

ويَحتملُ أن يكونَ الثَّاني هو الأوَّلَ، فيكون من وضع الظَّاهر مَوضع المُضمر[1]، ونكتتُه: زيادةُ تقبيحِ كِتمان الحقِّ.

وفي الآية طِباقُ إيجابٍ بين الحقِّ والبَاطِل، وهو مُشعِرٌ بزيادةِ تشنيعٍ للباطلِ.

و(الباءُ) في قوله: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ للإلصاقِ، كقولِك: خَلَطتُ الماءَ باللبن، أي: لمَ تَخْلِطون الحقَّ بالباطِلِ[2].

دِلَالَةُ ذِكْرِ كِتْمَانِ الْحَقِّ بَعْدَ ذِكْرِ لَبْسِهِ بِالْبَاطِلِ فِي قَولِهِ تَعالَى: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾:

كَشْفُ خَوَافِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي إِضْلَالِ النَّاسِ

جُمِعَ بين قوله تعالى: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾، وقوله: ﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾، مع أنَّه قَدْ يُظَنُّ أنَّ أحدَهما مُغْنٍ عن الآخر، أو أنَّهما بمعنًى واحدٍ، والحقُّ أنَّ الأمر ليس كذلك، وبيانُ ذلك: أنَّ المتأمِّلَ في أخلاقِ بني إسرائيل يجدُ أنَّ الآيةَ مُجتمعة تكشف خَوَافِيَهم في إضلال النَّاس؛ فعلماءُ بني إسرائيل كان لهم مَسلكان في إضلالِ النَّاس: فمَن بَلَغَتْهُ دلائلُ الحقّ، فإضلالُه يكونُ بتشويش تلك الدَّلائل وإلباسها عليه، ومن هنا يأتي النَّهي عن إلباس الحقّ بالبَاطل، ومَن لم تبلغه دلائلُ الحقِّ؛ فإضلالُه يكون بكَتْمِ هذه الدَّلائل وإخفائها عنه كلِّيَّةً؛ ولهذا جاء النَّهي عن كتمان الحقِّ ثانيًا، ولمّا كانَ كِلا الأمرين وَاقعٌ من علماء بني إسرائيل؛ جمع القرآنُ بينَهما.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/257، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/371.

(2) السمين، الدر المصون: 1/320.

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفظيّ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: 42]:

الْـــوَاقِـــعُ فِي الْمُـخَـــالَـفَــةِ مُسْتَحِقُّ التَّوْبِيخَ

قال اللّٰه تعالى: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ٧١﴾، وجاء في سورة البقرة: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ٤٢﴾ [البقرة: 42]، ووجه المغايرة بينهما: أنَّ النَّهيَ في سُورة البَقرة كان مِن اللّٰه تعالى لبني إسرائيل بألّا يقعُوا في تلبيس الحقّ بالباطل ولا يكتمُوا الحقَّ؛ لذا يمكنُ أن يكون النَّهيُ في الغالب قبلَ الوقوع في الشَّيء أو مع وقوعه، أمَّا هنا فالأمرُ واقعٌ لكونِهم خالفُوا المنهيَّ، ووقعوا فيما حذّرهُم اللّٰهُ تعالى منه، ولذا جاء أسلوبُ الاستفهامِ على جهةِ التَّوبيخ لهم.

ومِنَ اللَّطائف أنَّ سورة البقرة سابقةٌ في ترتيب المصحف على سورة آل عمران لتَتَناسَب مع النَّهي، وأمَّا سورة آل عمران فجاءت في ترتيبها بعد البقرة؛ لتُثبت وقوعَهم في النَّهي. فسبحان مَنْ هذا كلامُهُ.

دِلَالَةُ الْفَاصِلَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جُملةٌ حاليَّةٌ مِن (الواو) في ﴿وَتَكْتُمُونَ﴾؛ وليس المرادُ منها تقييدَ الذمِّ بحال علمِهم، بل لبيانِ الواقعِ أنَّهم يعلمونَ ذلك فيقبُحُ بهم كتمانُهُ، فإيرادُ هذه الجملةِ الحاليَّةِ لزيادة تقبيحِ حالِهِمْ؛ إِذِ الجاهلُ قَدْ يُعذَرُ.

ومُتعلَّقُ العِلم محذوف: إمَّا اقتصارًا وإمَّا اختصارًا؛ أي: وأنتم تعلمونَ الحقَّ من الباطل، أو نُبوَّة محمَّدٍ ونحوُ ذلك[1]، ويحتمل أن يكون قد نُزِّلَ الفعلُ المتعدِّي ﴿تَعْلَمُونَ﴾ منزلةَ اللّازمِ، والمرادُ: نسبتُهم إلى العِلم؛ وفيه إنصافُ القرآنِ لعلمائهم بوصفِهم به، وإزراءٌ بحالهم؛ حيث كانَ عليهم أن يَعْمَلُوا بمقتضى هذا العلمِ.

---

(1) الراغب، تفسير الرّاغب: 1/172، والسَّمين، الدُّر المصون: 1/324، و3/248.

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفظيّ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 66] و﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [آل عمران: 70]:

جَـحْـدُ أَهْـلِ الْـكِـتَـابِ لِمَا عَـلِـمُـوهُ، وَدَعْـوَاهُـمْ مَا جَهِلُوهُ

قال الله تعالى ههنا: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وقال فيما قبلُ: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [آل عمران: 66]، ووجه المغايرةِ بينهما: أنَّ الَّذي نُفِيَ عنهم هُوَ ما ادَّعَوْه مِن كَونِ إبراهيم يهوديًّا أو نصرانيًّا، وليس ذلك في كتابهم.

وما أُثْبِتَ لهم ههنا؛ قَدْ وقفُوا عليه من كتابهم مِن أمر النَّبيِّ ﷺ، إلَّا أنَّهم جحَدُوه، وهذا غايةُ الذَّم؛ إذ جَحَدُوا مَا عَلِمُوا، وادَّعوا مَا جَهِلُوا[1].

وجاء في الآية قبلُ: ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [آل عمران: 70] بذكر لفظ الشَّهادة دون العلم؛ لأنَّ الكلامَ في موضع الشَّهادة على بعض آيات الله، بخلاف هذا الموضع؛ فالكلامُ عنِ الحقِّ وهو أَعَمُّ؛ ولذا اختيرَ لفظُ الشَّهادة هناك؛ لأنَّها أخصُّ من العِلم.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

اللَّبس والخَلْط:

الَّذي يقرأ في أغلب كُتب أهل التَّفسير يَجد عدم التَّفريق بينهما، ويرى أنَّهما مُترادفان، مثل الطَّبري والآلوسي وغيرهما، بينما نَجد بعض المعاجم اللُّغوية تفرِّق بينهما، ومن ذلك ما قاله الرَّاغب في مادّة (لَبِسَ). يقول: "لَبِسَ الثَّوب - استَتَرَ به ... وجعل اللِّباس لكلِّ ما يُغطي الإنسانَ من قبيح... فجُعِلَ كُلٌّ من الزَّوجين لباسًا للآخر، قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: 187]، وعليه فالمادّةُ تدورُ حولَ المداخلة والتَّغطية، وأصلُ مادّة (خَلَطَ) في اللُّغة، يدورُ حول الامتزاجِ والتَّداخلِ والضَّم والاشتراك؛ يُقال: خلط الشَّيء بغيره خلطًا فاختلطَ: امتزجَ.

وعلى هذا فالخَلْطُ يستعمل في الحِسّيِّ والمعنويِّ، تقول: خَلَطتُ الأمرين ولبستهما

(1) الراغب، تفسير الرَّاغب: 2/171.

وخلطتُ النَّوعين من المتاع، ولا يُقال لبستهما. واللّبس يُستعمل في المعنويات مثل الحقِّ والباطل، وما يجري مجراهُما. إذن كلمتا اللَّبس والخَلط يشتركان في معنًى عامٍّ وهو التَّداخل، إلَّا أنَّ كلًّا منهما تميّز عن الآخر، وذلك فيما يأتي:

أوّلًا: أنّ الخَلطَ يكون في الحسِّيَّات والمعنويات، واللّبس يكونُ في المعنويّات، وثانيًا: أنّ الخَلط يكون بين مُختلطين، ولا بدّ أن يكونا باقيين حالَ اختلاطهما، واللّبس بين مُتشابهات في الصِّفات يتعذَّر معه التَّمييز، وانطلاقًا من ذلك يردُ سؤالٌ: لماذا آثر القرآنُ التَّعبيرَ باللّبسِ هنا دون الخَلطِ؟؛ لأنَّ اللّبس كما سبق هو خلطٌ بين مُتشابهات في الصِّفات، يتعذَّر معه التَّمييز، ولما كان الحقُّ والباطل من الوضوح بمكان، احتاجَ أهلُ الباطلِ في ترويج باطلهم إلى إلباسِهِ في صورة الحقِّ؛ بحيث يتعذَّر تمييزُه؛ بغرض الإيهام والتَّضليل، وأيضًا في الإشارة إلى مادّة (كَتَمَ) أنّ" كُلُّ ما في القرآن من هذا التَّركيب، فهو حَبْسُ الكلام عمَّا في القلب مِن شهادة أو عِلم أو فِكر"[1]، وهذا ما ينطبقُ تمامًا على اليهودِ في تعاملهم مع القُرآن، ونُبوَّة نبيِّنا ﷺ؛ لذا أغلبُ آياتِ الكتم في القرآن في شأن اليهودِ.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (كتم).

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٧٢﴾ [آل عمران: 72]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين التّلبيس والتّدليس في تعامل أهل الكتاب مع الإسلام

لما ذَكَرَ اللّه تعالى عنهم أنَّهم يُلبسون الحقَّ بالبَاطلِ، أَردفَ ذَلك بتبيان نوعٍ من أنواع تلبيساتهم - وهو المذكورُ في هذه الآية - أنَّ طائفةً مِنَ أحبارِ اليَهودِ ذهبت إلى خَديعة المسلمين بهذا المَنزع، فقالواْ: آمنواْ بالَّذي أُنزل على محمَّد ﷺ وأصحابه صَدْرَ النَّهار، ثُمَّ اكفرواْ به آخرَ النَّهار، وعند ذلك يقولُ بعض المسلمين: مَا بالُ هؤلاء كانواْ مَعنا ثمَّ انصرفُواْ عنَّا؟ مَا ذلك إلَّا لأَنَّهم انكَشفت لهُم حقيقةٌ في الأمر فيَشكُّون، ولعلَّهُم يرجعون عن الإيمانِ بمحمَّد ﷺ[1]، وتلك خدعة ماكرة، تؤكّد ضلوع اليهود في التّآمر والختل والخداع، كما كان ديدنهم منذ القديم، ولا يزالون عليه إلى يومنا هذا.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿طَّآئِفَةٌ﴾: جمعُ طَائِفٍ، وهو الَّذي يَطوفُ، وذَلك اعتبارًا بطَوافِهم بالبيتِ وغيرِهِ مِنْ مُتَعَبّداتِهم، ولِطَوافِهم في أَسفَارِهم، ثُمَّ سُمِّي كلُّ جَمعٍ طائفة[2].

"(الطّائفة) من الشّيء قطعة منه. وقوله تعالى: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾ [النّور: 2]، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: الواحد فما فوقه"[3]، وفي الحديث: «لا تزال طائفة من أمتّي على الحقّ»، قال إسحاق ابن راهويه: الطّائفة دون الألف، وسيبلغ هذا الأمر إلى

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 1/453، والرّازي، مفاتيح الغيب: 8/257. (بتصرُّف)
(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/625، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (طوف)، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/50.
(3) الرّازيّ، : مختار الصّحاح، ص: 193.

أن يكون عدد المتمسّكين بما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ألفا، يعني بذلك أن لا يعجبهم كثرة أهل الباطل[1].

2) ﴿وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ﴾: أَصلُ الوَجهِ الجَارِحَةُ، قال تعالى: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ [المائدة: 6]، ولمّا كان الوجهُ أَوَّلَ ما يَستقبلُك، وأشرفَ ما في ظاهر البدنِ، استُعمل في مستقبل كلّ شيءٍ وأشرفِه ومبدئِه[2]، وَيُقَالُ: أَتيتُه بوَجهِ نهارٍ، وشَبابِ نهارٍ، وصَدرِ نهارٍ، أَي: في أَوَّله؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ:

مَنْ كَانَ مَسرورًا بمَقْتَلِ مالِكٍ***فليأْتِ نِسوَتَنَا بوَجهِ نهارِ[3]

3) ﴿وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾: أي اكفرُوا آخرَ النَّهار، وأظهرُوه مكايدةً[4]، فالمعنى: "أنّهم جاؤوا إلى محمّد ﷺ أوّل النّهار، ورجعوا من عنده، وقالوا للسّفلة: هو حقّ فاتّبعوه، ثمّ قالوا: حتّى ننظر في التّوراة، ثمّ رجعوا في آخر النّهار. فقالوا: قد نظرنا في التّوراة، فليس هو إيّاه؛ يعنون أنّه ليس بحقّ"[5].

4) ﴿يَرۡجِعُونَ﴾: رَجَعَ يَرْجِعُ رُجُوعًا، إِذَا عَادَ، أي: يَعُودون إلى دينكم وما أنتم عليه[6].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

محاولة زعزعة عقيدة المسلمين، بالإيمان في الصّباح، والكفر بالعشيّ

"اقترحت طائفة من اليهود: هم عبد الله بن الصّيف، عدس بن زيد، والحارث بن عوف، على إخوانهم اليهود، أن يكيدواْ للمسلمين، ويلبسواْ عليهم أمرهم، وذلك بأن يؤمن فريق من اليهود بالإسلام أوّل النّهار ﴿وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ﴾، ثمّ يعودون فيرتدّون عنه في آخر النّهار، ليظنّ الجهلة من المسلمين، أنّهم إنّما ردّهم إلى دينهم اطّلاعهم على نقيصة وعيب في دين الإسلام، فيرتدّون هم أيضًا"[7]، وذلك

(1) الرّازيّ، مختار الصّحاح، ص: 193.
(2) الراغب، المفردات: (وجه)
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 5/349، وابن منظور، لسان العرب: (وجه).
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 2/49، ورضا، تفسير المنار: 3/277.
(5) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/223.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رجع)، والسّمين، الدّر المصون: 3/250.
(7) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 366.

طمعًا في زلزلة عقيدة المسلمين، وزرع البلبلة في صفوفهم، لَعلَّهم يشكُّون في دينهم ويقولون: ما رَجَعُواْ - وهم أَهلُ كتابٍ وعِلمٍ - إلَّا لأَمْرٍ قد تَبيَّن لهم؛ فيرجعون برجُوعِهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ اخْتِيَارِ لَفْظِ ﴿طَّآئِفَةٌ﴾ وَسِرُّ تَكْرَارِه:

الإنْصَافُ مَنْهَجٌ قُرْآنِيٌّ

هذه الآية مِن سورة آل عمران، صدرُها نزلَ في شأن نصارى نجران، فغالبُ الحديث في السُّورة عنهم، يُؤكِّد ذلك ما ذكره الآلوسيّ عن سفيان: "كُلُّ شيءٍ في آل عمران مِنْ ذِكر أهل الكتابِ فهو في النَّصارى"[2].

وهذا القَولُ يُحملُ على الغالبِ، وإلَّا فهناك آياتٌ عديدةٌ تَخُصُّ اليهود، ومنها هذه الآية ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ﴾.

وعَلَيْه؛ فاختيارُ وصفِ طائفةٍ فيه فائدتان:

- الأُولى: عدمُ تعميم الحُكم على أهل الكتاب جميعًا.
- الأخرى: قَصْرُ هذا السُّلوك على اليهود دون النَّصارى.

ويُؤكِّد ذلك مَا وردَ أنَّ الَّذي فَعَلَ ذَلك هُم بعضُ رُؤساء اليهود، مثل كعب بن الأشرف، ومالك بن الصَّيف.

اجْتِمَاعُ أَهْلِ الْبَاطِلِ عَلَى الْكَيْدِ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ

أمَّا عَنْ سِرِّ تكرار مجيءِ لفظ ﴿طَّآئِفَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: 69] وفي هذه الآية ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ﴾؛ ففيه إشارةٌ إلى وجود أكثر من طائفة في المكايدة للإسلام والمسلمين، وكُلّ طائفة تقوم بعملٍ خاصٍّ بهَا، وهذا ظاهرٌ من سياق الآيتين؛ يُؤكد ذلك عطف هذه الجملة ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ﴾ [آل عمران: 69]، والعَطف يقتضي

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/373.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/198.

المغايرة، وعلى ذَلك فالطَّائفة السَّابقة غَير هذه الطَّائفة، فالطَّائفة الأُولى سعَتْ إلى الإِضلالِ بالمُجاهرةِ، وهذه الطَّائفة سعَتْ إلَيهِ بالمُخادعة[1].

أمَّا المقول لهم فمحذُوف، فيحتمل أَن يكون بعض هذه الطَّائفة لبعض، ويحتمل أن يكون المقول لهم ليسوا من هذه الطَّائفة[2]:

نُكْتَةُ وَضْعِ الْمُظْهَرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾:

شِـدَّةُ عَـدَاوَةِ الْـيَـهُـودِ لِلْمُسْلِمِينَ

قال اللّه تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾، وكان مقتضى الظَّاهر أن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (وقالت طائفة منهم)؛ وذلك لتقدُّم ذكرهم صريحًا في قوله تعالى قبلُ: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾، وهذا من وضع الظَّاهرِ موضع الضَّمير، ونكتةُ ذلك: أنَّ المقامَ هنا مقامُ تسجيلِ عَداوة اليهود للمسلمين، وتربُّصهم بهم، والقرآنُ هنا يريد أن يُعلِّمنا عند وقوع الجريمة أنَّهُ لا بدَّ من تعيين فاعلها، وإلَّا فإنَّ الشّيوعُ يُضعف الدَّليل؛ ولذلك كان التَّعبير بالظَّاهر لِتَعيين الفاعلِ، وهم علماؤهم ورؤساؤهم.

وفيه أيضًا: زيادةُ تَوبيخِهم على ما صدَر منهم، إذْ ذلك غَيرُ لائقٍ بمن ينتَسِبُ إلى كتابٍ مُنَزَّلٍ يحملُ الهدايةَ والنُّور، ولا سيّما العلماء؛ كلُّ ذلك يتأتَّى من الاسم الظَّاهر دُونَ الضَّمير.

مِـنْ طُـرُقِ أَهْـلِ الْـبَـاطِـلِ إِثَـارَةُ الشُّبَهِ وَالشُّكُوكِ فِي قُـلُـوبِ الضُّعَفَاءِ

وممَّا يُفيده التَّعبيرُ بالاسم الظَّاهر ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ في نِظام الجرائم: أنَّ فيه إشارةً إلى علمائهم؛ لأنَّ أمرَ التَّشكيك، وتأويل الآيات على غير وجهها الصَّحيح لا يتأتَّى إلَّا من عُلمائهم، ثُمَّ إنَّ المسلك الآخر - وهو المذكور في هذه الآية - هو في خطورته أشدُّ من الأوَّل وأصعبُ في كشفِهِ؛ لأنَّهم يقولون: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/280.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/211.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ فإذا امتثال المقولُ لهم هذا بأن يُظهروا إسلامَهم أوَّلَ النَّهارِ؛ فلا يَشكُّ أحدٌ أنَّهم مُؤمنون، والواقع غير ذلك؛ لأنَّهم يُعلنون الإسلام حينًا وبعد ذلك يكفرون، وفي هذا من إحداثِ الاضطرابِ بين المسلمين، وإثارة الشُّكوكِ في قلوب الضُّعفاء الَّذين لم تَرسَخ أقدامُهم بعد في طريق الإيمان.

وفيه تحذيرُ القرآن الكريم لأهل الإيمان ممَّا يُشبه هذه الحالَ، كما يُفعل الآن من تجنيد أناسٍ يندسُّون بين أهل الإسلام؛ حتَّى يُظنَّ أنَّهم منهم، وهم في الأصل مُرسلُونَ للكيدِ منهم.

دِلَالَةُ الأَمْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

وظيفَةُ القِيادَة السَّيئة

قَوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ﴾ فِعل أَمر، وهو جارٍ على الأصلِ مِن صُدُوره مِن الأعلى إلى الأَدنى، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ مُؤامرات اليهود ضِدَّ المسلمين مُنَظَّمةٌ ومُتعمَّدةٌ، فتَصدر مِنْ رُؤسائهم إلى العوامِّ منهم.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالاِسْمِ المُوْصُولِ وَصِلَتِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ﴾:

التَّمْويه سُلُوكٌ نَفسيٌّ لِليَهُودِ

جاءَ التَّعبيرُ بالاسم الموصول في قوله: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ﴾ لقصد الإبهام؛ إذْ لو أرادوا الوضوحَ لقالوا: آمنوا بالقُرآن؛ لأَنَّ التَّعبير بالقُرآن صريحٌ في أمر الإيمان، وهم لم يقصدوا ذلك، ولم يعترفوا به، فاختاروا العِبارة الَّتي تحتمل أكثر من وَجه في الدّلالة؛ لِيُلَبِّسوا على المسلمين ما يُبَيِّتون، ويُؤَيِّدُ سلوكهم سبيلَ التَّمويه اختيارُ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ فلم يُصَرِّحوا بالمؤمنين أو بأصحاب رَسول اللّه ﷺ، بل قالوا: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ إذ هذه الجُملةُ لها أكثر من دلالة في المراد؛ فكان الإبهامُ مَقصدًا لهم؛ لتشكيكِ قلوب الَّذين دخلوا في الإسلام حديثًا، ومازال إيمانُهم لم يرسخ في قُلوبهم رُسوخَ إيمان السَّابقين؛ فيتأثَّرون بحِيلَهم.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾:

التَّنَبُّهُ والحَذَرُ مِـنَ الـيـهـود لأنَّهم أهلُ كَيْدٍ وَخَدِيعَةٍ

الَّذي اتَّفق عليه أهلُ الكتاب في هذه الآية هو أن يبدؤوا ضُحًى فيُسلِمُوا، ثُمَّ يكفروا في المساء، هذا ظاهرُ اللَّفظ، ولكن يبدو للمُتأمِّل أنَّهم يريدون أن يُسلِموا حينًا مِن الزَّمان حتَّى يُوثَق بهم ويُطْمَأَنَّ إليهم، ثمَّ يكفرون من بعد ذلك، على ألّا يستغرق إظهارُهم الإسلام إلَّا أمدًا يستطيعون فيه جَلْبَ الثِّقة إليهم؛ ويكونُ حينئذٍ التَّعبير كُلّه من قبيل الاستعارة التَّمثيلية، سِيقت لتُصوِّر حالهم الَّتي اتَّفقوا عليها، وهي أنَّهم يُظهرون الإيمانَ ثمَّ يكفرون بعد أمدٍ قَصيرٍ، فالاستعارةُ لتصوير سُرعة الرُّجوع وإظهار الكُفر، وتؤكّدُ التَّعاقب بين إظهار الكفر وإظهار الإسلام، كما يتَعاقب ظهورُ آخر النَّهارِ بعد أوَّله[1].

دِلَالَةُ التَّعبير بـ ﴿أُنزِلَ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ﴾:

اعْـتِرَافُ اليهودِ بِالْحَقَائِقِ أحيانًا لَا يَـسْـتَـلْـزِمُ إِيـمَـانَـهُـم بِـهَـا، بَلْ ذَلِكَ جُزْءٌ مِنْ مُؤَامَرَاتِهِم

جِيء بالفعلِ ﴿أُنزِلَ﴾ بناءً على ما يقوله المؤمنون، وإلَّا فإنَّ اليهودَ يُكَذِّبون، ولا يُصَدِّقون أنَّ اللّه تعالى أَنزلَ شيئًا على المؤمنين، وظاهرُ الآية دالٌّ على وقوع أمرِ بعضِهم بعضًا أَن يقولوا ذلك، وأمَّا امتثال الأَمر من المأمور؛ فمسكوتٌ عن بيان وقوعهِ وعدمه[2].

دِلَالَةُ الصِّلَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

الإِيـمَـانُ بِالله مَنْزِلَةٌ عَظِيمَةٌ، مَـنِ اتَّـصـفَ بِـهِ أعزَّه اللهُ وهابَهُ عَدوُّه

قول اللّه تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يحتمل أنَّ هذا القول مِن لَفظِ الحكاية بأن يكونَ اليهود قالوا: آمنوا بالَّذي أُنزل على أَتباع محمَّدٍ، فَحَوَّلَهُ اللّه تعالى، فقال: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ تنويهًا بِصِدْقِ إيمانهم.

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1273.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/192.

ويحتمل أنَّه مِنَ الـمَحكيِّ بأن يكونَ اليهودُ أَطلقوا هذه الصِّفة على أتباع محمَّدٍ؛ إذ صارت عَلَمًا بالغلبة عليهم[1].

نُكْتَةُ الِاسْتِعَارَةِ والْإِضَافَةِ فِي قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾:

التَّعْبِيرُ بِالْوَجْهِ فِي مُستقبلِ كُلِّ شَيْءٍ وَأَشْرَفِه وَمَبْدَئِه؛ لأنَّه فِي الْإِنْسَانِ أَشْرَفُ مَا فِيهِ

مِنَ المعلوم أنَّ وَجْهَ الإنسان هو أَفضلُ أعضائه الظَّاهرة منه، وأَجمعُها لوسائل الإدراك وتصريف الأَعمال، والمراد بـ ﴿وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ﴾: أوَّلُه، ولم يقل: رَأس النَّهار؛ لأنَّ الوَجْهَ والرَّأس وإن اشتركا في كونهما أوَّلَ الشَّيء، فإنَّ في الوَجهِ زِيادة فائدةٍ، وهي أنَّ به صحَّةَ المواجهة، ومنه تُعرف حقيقة الشَّيءِ، فَأُطْلِقَ الوَجْهُ على أوَّل الشَّيء؛ على طريقة الاستعارة التَّصريحيَّة.

والإضافة في قوله: ﴿وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ﴾ وقوله: ﴿ءَاخِرَهُۥ﴾ يُرادُ بها التَّخصيص، واختيرَ أوَّلُ النَّهار لإظهار الإيمان؛ لكونِه وقتَ اجتماعِهم بالمؤمنين يراؤُونهم، واختيرَ آخرُه للكفر؛ لكونِه وقتَ خلوتهم بأمثالهم مِن الكفَّار[2].

نُكتَةٌ دَقِيقَةٌ فِي اخْتِيَارِ ﴿وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ﴾:

شُيُوعُ النِّفَاقِ فِي أَوْقَاتِ قُوَّةِ أَهْلِ الْإِيمَانِ

وَجْهُ النَّهار تعبيرٌ دقيقٌ يُؤمئُ إلى معنًى خطيرٍ في سُلُوك اليهود؛ فلا يُتَصوَّر أن يُحمل الأَمرُ على ظاهره؛ بمعنى أنْ يُؤمنوا صباحًا ويكفروا مساءً، ولو كان ذلك مُرادًا لجاء التَّعبيرُ بأوَّل النَّهار، ويكون ذلك مُقابلًا لآخره؛ لكنَّ اختيارَ ﴿وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ﴾ وهو علامةٌ على شِدَّة الضَّوء، وطُلُوعِ الشَّمس؛ فالأمورُ ظاهرةٌ وواضحةٌ، وفي ذلك إيماءٌ إلى قُوَّة المسلمين؛ فكأنَّ المعنى: آمنوا بالَّذي أُنزل على الذين آمنوا في وقت قوَّتهم وانتصارهم كما في غزوة بدرٍ، واكفرُوا آخرَه عند ضَعفِ المسلمين؛ لأنَّ الرُّؤية في آخر النَّهار لا تكون بالقوَّةِ نفسِهَا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/280.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/218، والإندونيسي، الشَّامل في بلاغة القرآن: 1/173.

الَّتي تكون في وَجْهِهِ، وهذا يُومِئُ إلى ما حدث في غزوة أُحُد من جَرحٍ وقتلٍ وانكسارٍ للمسلمين؛ إذ التَّعبيرُ بوجه النَّهار وآخره يُشير إلى مرحلةِ القُوَّة والضَّعف؛ يُقوِّي هذا أنَّهم عبَّروا مع وجه النَّهار بالإيمان، ومع آخره بالكُفر دُون النِّفاق.

وبين ﴿ءَامِنُواْ﴾ و﴿وَٱكۡفُرُوٓاْ﴾: طباق الإيجاب، وبين ﴿وَجۡهَ﴾ و﴿ءَاخِرَهُۥ﴾ إيهامُ التَّضادِّ؛ لأنَّ ضدَّ الآخرِ: الأوَّلُ، ومجموع ذلك يُعطِي أنَّ الآيةَ من باب المقابلَة.

سِرُّ اختيارِ (لَعَلَّ) فِي قَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾:

مِـن عَـلامـاتِ الْحَقِّ أَلَّا يَرْجِعَ عَنْهُ مَنْ عَرَفَهُ

هذا الاختِيَارُ لَه دلالةٌ لغويَّةٌ وسُلُوكيَّةٌ؛ فاللُّغويَّة: الرَّجاء، أمَّا السُّلوكية؛ فتَتَمثَّل في أنَّهم يَطمعُون في تشكيك الـمُسلمين في دِينهم، وأن يَعودوا إلى وثنيتهم، وغاب عنهم أنَّ ذلك يُخالف طبيعةً بشريَّةً مفادُها أن مَنْ عرفَ الحقَّ لا يَرجع عنه، والمسلمون على حقٍّ؛ فدينُهم حقٌّ، وكتابُهم حقٌّ، ورسُولُهم حقٌّ؛ فكيف يرجعون عن ذلك؟!

ولذلك فَطِنَ إلى هذه الحقيقة (هرقلُ) مَلِكُ الرُّوم؛ (لمَّا ذهب أبو سفيان إليه ليَسْتَعْدِيَه على النَّبي ﷺ وأَصْحابِهِ؛ سأله: هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فقال أبو سفيان: لا؛ فقال (هرقلُ): وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ القُلُوب)[1].

هكذا فَطن (هرقلُ) إلى هذه الحقيقة، وهم لم يفطِنُوا إليها؛ لأنَّ الحِقد أعمَى قلوبهم، وأفقدَهم عُقولهم؛ إذ لا يُعقل أن يَترُك الإنسان السَّوي الحقَّ بعد معرفته عُمُومًا؛ فكيف بالقرآن وهو الكتاب الحقّ؟!

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالفِعْلِ ﴿يَرۡجِعُونَ﴾ دون (يُرَدُّون):

مُبَالَغَةُ الْيَهُودِ فِـي تَـعْـمِـيَـةِ كَيْدِهِمْ

اختِيرَ التَّعبير بـ ﴿يَرۡجِعُونَ﴾؛ لأنَّ الرُّجوعَ فيه معنى العَودة دُون إكراه؛ بخلاف الرَّد فقد يكونُ فيه إكراهٌ؛ لذا كان التَّعبيرُ بالرُّجوع

(1) رواه البخاري في صحيحه، الحديث رقم: (7)، ومسلم في صحيحه، الحديث رقم: (1773).

هنا هو المناسبَ لخداعهم، وفيه أيضًا المبالغةُ في تَعْمِيَةِ كيدهِم؛ فالتَّعبير بـ ﴿يَرۡجِعُونَ﴾ يُخفي أمرَهم؛ بخلاف ما لو وقع التَّعبير بلفظٍ فيه إكراهٌ؛ فإنَّ أمرَهم ينكشفُ، وسرَّهم يفتضِحُ.

بَلَاغَةُ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾:

رِدَّةُ المُسْلِمِينَ عَنْ دِينِ اللهِ القَوِيمِ هَدَفٌ يَهودِيٌّ خَبيثٌ لا يَنقِطَعُ

في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ بيانٌ لمقصدهم؛ وهو رجاءُ أن يرجعَ بعضُ المؤمنين إلى الكفر بعد الإيمان، ولكنَّهم عبَّروا عن بعضهم وأرادُوا بذلك الجميعَ على جهة المجاز المرسل بعلاقة العموميَّةِ؛ إذ لا يمكن أن يَرْجِعُوا جميعًا، بَلِ الَّذي يُرجى رُجوعه مِن المسلمين هو الضَّعيف غيرُ القويِّ في دينه، غير المُطمئن في يقينه، إلَّا أنَّ كفر هذا الفريق بعد إيمان يُحدث اضطرابًا في جماعة المسلمين، وحيث جرى الشَّكُّ في الجماعة؛ كان وراءه التَّفرّق ثُمَّ الفشل الذَّريع(1).

والتَّعبيرُ بـ ﴿يَرۡجِعُونَ﴾ بصيغة الفعلِ المضارعِ إشعارٌ بأنَّهم لا يطمعُون رجوعَهم عن دينهم دفعةً واحدةً؛ لعدم إمكان ذلك، وإنَّما يكون ذلك شيئًا فشيئًا، كلَّما رجعت طائفةٌ تلَتْهَا أخرَى، فيكون في مجموعِ ذلك معنَى التَّجدُّدِ.

ومُتعلِّق الرُّجوع محذوف، والتَّقدير: يرجعون عن دينهم(2).

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الجَمَاعَة والطَّائفة والفرقة:

الطَّائفة: الجماعة، وسُمِّيت بذلك لأنَّه تُسوَّى بها حلقةٌ يُطاف حَولها، والطَّائفة تُطلَق على الواحد فما فوق، يُؤكِّد هذا قول مجاهد: الطَّائفةُ واحدٌ إلى الألْفِ(3).

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1273.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/211.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 3/199.

أمَّا الجماعةُ فهي تُشير إلى الكَثْرَةِ، والفِرْقَة أكثر من الطَّائفة، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ [التوبة: 122]، فالطَّائفة مأخوذة من الفِرقة، وعليه فالقُرآن مُنصف في حُكمه، فلَمْ يسند هذه الفِعلة النَّكراء إلى كلِّ اليهود، بأن يقول: وقالت جماعةٌ، أو يسندها لأغلبهم بأن يقول: وقالت فرقةٌ، بل قال: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ﴾؛ لأنَّ الَّذين قالواْ ذلك عددٌ قليلٌ من رُؤساء اليهود وأحبارهم.

الإنزَال والتَّنزِيل:

الإنزَال: هُوَ نقل الشَّيْء من أَعلَى إِلَى أَسفَل، وَهُوَ إِنَّمَا يلحق المَعَاني بتوسّط لُحُوقه الذّوات الحاملة لَهَا، وَيُستَعمل في الدَّفعيّ (أي دفعة واحدة)؛ لِأَنَّ (أَفْعَلْتُهُ) يكونُ لإيقاع الفِعْل دفْعَة وَاحِدَة. والتَّنزيل: يستَعملُ في التَّدريجي؛ لِأَنَّ (فَعَّلْتُهُ) يكون لإيقاع الفِعل شَيئًا فَشَيئًا. وَقَوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: 32]، بِمَعْنى أنزل كـ (خبَّر) بِمَعْنى (أَخْبَرَ) فَلَا تَدَافُع. وَقيل: الإنزَال بِوَاسِطَة جبريل، والتَّنزيل بِلَا وَاسِطَة[1]. وخلاصةُ القَول في التَّفريق بينَ الإنزال والتَّنزيل أن الفِعلَ (أنزل) يُشير إلى الإنزال جُملةً واحدةً، بخلاف (نزّل) فيُشير إلى التَّنجيم والتَّكثير غالبًا، وهذا يكون بحسب القَرينة والمقام، وعلى هذا فقولُ طائفة من اليهود: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ﴾ دون (بالَّذي نُزِّل) يخدم هدفهم في المكر بالمسلمين؛ لأنَّ الفِعْل (أنزل) يُشيرُ إلى الإنزال جُملة كما سبق، وهم لا يُريدون التَّفصيل في أمر المُنزَّل؛ لأنَّ الَّذي يبحث عن التَّفصيل، يبحثُ عن الحقيقة، وهم عنها مُبعدون.

الرُّجُوع والإياب:

الإياب هُوَ الرُّجُوع إِلَى مُنتَهى المَقْصد، وَالرُّجُوعُ يكون لذَلِك وَلغيره، أَلا ترى أَنَّه يُقَال: رَجَعَ إِلَى بعض الطَّرِيق، وَلَا يُقَال: آبَ إِلَى بعض الطَّرِيق، وَلَكِن يُقَال إِن حصل في المنزل؛ وَلِهَذَا قَالَ أهل اللُّغَة: التَّأويب أَن يمضِي الرّجل في حَاجته، ثمَّ يعودُ فَيثبت في منزِلِه، وَقَالَ أَبُو حَاتم رَحمَه اللَّه: التَّأويبُ أَن يسيرَ النَّهَارَ أجمعَ؛ ليَكُونَ عِند اللَّيْل في منزِلِه؛ وَلِهَذَا قَالَ تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥﴾ [الغاشية: 25]، كَأَنَّ القِيَامَة مُنْتَهى قصدهم؛ لأَنَّهم لَا منزلَة

---

(1) الكفوي، الكليات، ص: 196.

بعْدهَا، وهو وعد اللّه لهم في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ٢٩﴾ [الرّعد: 29]، هو الرّجوع والإياب الى اللّه نفسه، لا إلى ما سواه، يدلّ عليه قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ٣٩﴾ [النّبأ: 39][1].

الإنابَة والرُّجوع:

الرُّجوعُ عامٌ في الطَّاعةِ والمَعصيةِ، بخلاف الإنابة، فهي الرُّجُوع إلَى الطَّاعَة، فَلَا يُقَال لمن رَجَعَ إِلَى مَعصِية: إِنَّه أناب، والمُنيبُ اسْمُ مَدحٍ كالمؤمن والمُتَّقي[2]، وفيه تأويلات: أقربها إلى لفظ الرّجوع، أنّه المُقبل بتوبته، كما قال قتادة، ويستشهد عليه بقول الشّاعر:

أَنَابَ إِلَى قَوْلِي فَأَصْبَحْتُ مُرْصِدًا *** له بِالْمُكَافَاةِ المُنِيبَةِ وَالشُّكْرِ[3]

(1) اسماعيل حقّي، روح البيان: 4/375.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 302 - 303.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 4/435.

﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٧٣﴾ [آل عمران: 73]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين إيمانهم الزّائف، ودعوتهم لتكذيب من خالف التّوراة

للآية مناسبة بما قبلها، ذلك أنّ المفسّرين اتّفقواْ على أنَّ هذا بقيةَ كلام اليهود، وفيه وجهان: الأوَّل: ولا تصدِّقوا إلَّا نبيًّا يُقرِّر شرائعَ التَّوراة، فأمَّا من جاء بتغيير شيءٍ من أحكام التَّوراة فلا تصدِّقوه، وهذا هو مذهبُ اليهود إلى اليوم، والثَّاني: أنَّه ذُكِر قبل هذه الآية قوله: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾ [آل عمران: 72]. ثُمَّ قال في هذه الآية: ﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ﴾؛ أي: لا تأتوا بذلك الإيمان إلَّا لأجل من تَبِعَ دِينَكُم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُؤۡمِنُوٓاْ﴾: الإِيمانُ: هُوَ مَصدَرُ آمَنَ يُؤْمِنُ إِيمَانًا، فَهُوَ مُؤْمِنٌ. واتَّفق أَهلُ العِلم مِنَ اللُّغَويّين وَغيرِهِمْ، أَن الإِيمانَ مَعنَاهُ التَّصدِيقُ[2]، وقوله ﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ﴾: أي لا تُقِرُّوا بتصديقٍ قلبيّ، وتثقوا بأحدٍ إذا لم يكن يهوديًّا أو نصرانيًّا[3]، "وهذا مبنيّ على أنّهم كانواْ ينكرون جواز بعثة نبيّ من العرب بألسنتهم، مكابرة وعنادًا للنّبيّ ﷺ لا اعتقادًا، وأنّهم كانواْ لا يُصرّحون باعتقادهم المستكنّ في أنفسهم إلّا لمن آمنواْ له من قومهم، لما هم عليه من المكر والمخادعة"[4].

2) ﴿تَبِعَ﴾: الاتِّباع: هُوَ التُّلُوُّ وَالقَفْوُ. يُقَالُ تَبِعتُ فُلَانًا إِذَا تَلَوْتَهُ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/259.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (أمن).
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 2/49، واسماعيل حقّي، روح البيان: 2/50.
(4) رضا، تفسير المنار: 3/276.

وَاتَّبَعْتَهُ. وَأَتْبَعْتُهُ إِذَا لَحِقْتَهُ[1]. و﴿إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾: أي اقْتَفى مِلَّتكم وأَهل دِينكُم، أَوْ لا تُظهِروا إيمانَكم وجهَ النَّهار إلّا لمن كان على دِينكم من قَبْلُ، فإنَّ رُجوعَهم أرجى وأَهمُّ[2].

3) ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾: خِلَافُ الضَّلَالَةِ. وهو الرّشادُ والدَّلالةُ، يؤنَّث ويذكَّر. يقال: هَداهُ اللّه للدِّين هدًى. وهَدَيْتُه الطّريق والبيت هِدايَةً، أي عرَّفْتُهُ[3]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾، أَيْ: إِنَّ الْبَيَانَ الْحَقَّ بَيَانُ اللَّهِ[4].

4) ﴿يُؤْتَىٰٓ﴾: الإيتَاءُ: الإعْطاءُ. آتَى يُؤَاتِي إِيتَاءً وآتاهُ إيتاءً، أَي: أَعطاه. وَيُقَالُ: لِفُلَانٍ أَتْوٌ، أَي: عَطاءٌ. وآتَاه الشَّيءَ، أَي: أَعطاه إيَّاه[5]، وفي هذه الآية، بَيَّنَ أَنْ لَا يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ، عَلَى تَقْدِيرِ: (لَا)، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النّساء: 176]، أي: لئلّا تضلُّوا"[6].

5) ﴿يُحَآجُّوكُمْ﴾: من الحجّة، وأصله من حجّ إذا قصد، لأن المتحاجّين كلّ واحد منهما يقصد غلبة الآخر[7]، والمحاجة وَجهُ الظَّفَر عند الخُصومة. والفعل حاجَجْتُه فَحَجَجْتُه. واحتَجَجْتُ عليه بكذا. وجمع الحُجَّة: حُجَجٌ. والحِجاج المصدر[8].

6) ﴿ٱلْفَضْلَ﴾: الفَضْلُ: الزِّيَادَةُ وَالخَيْرُ. وَالإِفضالُ: الإِحسَانُ. وَرَجُلٌ مُفْضِلٌ. وَيُقَالُ: فَضَلَ الشَّيْءُ يَفْضُلُ، وَرُبَّمَا قَالُوا فَضِلَ يَفْضُلُ، وَهِيَ نَادِرَةٌ. وَأَمَّا الْمُتَفَضِّلُ فَالْمُدَّعِي لِلفَضْلِ عَلَى أَضْرَابِهِ وَأَقْرَانِهِ. قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: 24][9]. ومعنى الفضل في الآية: الهداية والتَّوفيق.

7) ﴿وَٰسِعٌ﴾ الوُسْعُ: الغِنَى، وَاللهُ الوَاسِعُ أَي الغَنِيُّ. وَالوُسْعُ: الجِدَةُ وَالطَّاقَةُ. وَهُوَ يُنْفِقُ عَلَى قَدرِ وُسْعِهِ. وَقَالَ تَعَالَى فِي السَّعَةِ: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطّلاق: 7][10]. و﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، أي: ذو سَعَةٍ يَتَفَضَّلُ على من يشاء، عَليمٌ بمن هو أهله[11].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات: (تبع).
(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/23، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/49.
(3) الجوهري، الصّحاح: (هدى)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدي).
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 1/403.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أتى).
(6) الشّوكانيّ، فتح القدير: 1/403.
(7) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/169.
(8) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حج).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وسع).
(11) القنوجي، فتح البيان: 2/267.

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

دعــوة اليـهـود لمقاطعة الإسلام ونبذه

هذه الآية تتمَّةٌ لقولهم السَّابق في المكر والخَديعة؛ فقالوا أيضًا: ولا تُؤمنوا وتتَّبعوا إلَّا لمن كان تابعًا لِدينكُم، ثمَّ أمرَ اللّه رسولَه بالرَّد على أولئك الضَّالين؛ قُلْ أيُّها الرَّسولُ: إنَّ الهدى إلى الحقِّ هو هدى اللّه تعالى، لا ما أَنتم عليه مِنْ تَكذيبٍ وعِنادٍ، مَخَافَةَ أن يُؤتَى أَحدٌ مِنَ الفَضل مِثل ما أُوتيتُم، أو مَخافة أن يُحاجُّوكم عِند ربِّكم إنْ أَقْرَرْتُم بما أُنزلَ عَليهم، وقُل لهم إنَّ الفضل بيدِ اللّه يُؤتيه مَن يشاء مِن عِباده، لا يَقتصر فضله على أُمَّةٍ دُونَ أُمَّةٍ، واللّه واسعُ الفَضلِ عَليمٌ بِمَن يَستَحِقُّه[1]، يَسَعُ بعلمه وعطائه جميع مخلوقاته، ممّن يستحق فضله ونعمه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ إِيرَادِ النَّهْيِ بَعدَ الأَمرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ﴾:

شـــدَّةُ حِـقْـدِ الـيَـهـودِ عَـلَـى الإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ

في الآية السَّابقة أَمران مِنْ قَادَتهم في قوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾ الآية، وهما دالَّانِ على المرادِ بمجموعِهِمَا، فأمَرُوهُم بالإيمان نِفاقًا، ثمَّ التَّصريحِ بالكفر، وأمَّا بقاؤهم على دينِهم وتمسُّكهم به فلا يدلُّ عليه مجموع الأَمرين، ولذا انتقلوا من الأمر إلى النَّهي عن طريق الحصرِ والقصر، فقالوا: ﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ﴾، وفي هذا تصويرٌ واضحٌ للحِقد الدَّفين في قُلُوب اليهود وقادَتهم للقَضاء على الإسلام ورسولِ الإسلام.

تعليلُ النَّهي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ﴾:

أَسَــاسُ عَـلَاقَةِ الْيَهُودِ بِالرِّسالَةِ الإِلهيّةِ الْـعَدَاءُ وَتَزْيِيفُ الْحَقَائِقِ

الكلامُ لطائفة من اليهود، قَصَدُوا به الاحتراس؛ لئلَّا يُفْهَمَ من قولهم: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ﴾ أنَّه إيمان

(1) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن، ص: 59.

(2) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 59.

حقّ، فالمعنى: ولا تؤمنوا إيمانًا حقًّا إلَّا لمن تَبِعَ دينكم، فأمَّا محمَّدٌ فلا تُؤمنوا به؛ لأنَّه لم يتَّبع دينَكم، فهذا تعليلٌ للنَّهي(1).

سِرُّ اخْتِيَارِ الْفِعْلِ: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ دُونَ (ولا تُصَدِّقُوا):

حَيَاةُ الْيَهُودِ حَيَاةُ خَوْفٍ وَقَلَقٍ

اليهودُ يَشعرون دائمًا بالخوفِ والقلَقِ؛ فلا يَأمَنُون غيرهم، لذلك هم أوَّل من سَنَّ خُلُقَ النِّفاق، وذَكَرَ القُرآن الكريم صُوَرًا لذلك، مِنها ما هو مَذكُور في الآية السَّابقة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾ الآية، وغيرها مِن الآيات، وهنا أَكمَلوا هذه الصُّورة النِّفاقيَّة بوصيتهم لأتباعهم بألَّا يُؤْمِنُوا ولَا يَأْمَنُوا إلَّا لمن كان على دينهم، وهذا ظاهرٌ في اختيار الفِعل ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ دون (وَلَا تُصَدِّقُوا)؛ إيماءً إلى أصلِ اشتقاق الفِعل ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ مِن مَادة (أَمِنَ) وهو ضِدّ الخَوف؛ فأفادَ ذلك أنَّهم في خَوفٍ ورُعب إلَّا لمن كان على شاكلتهم.

دِلَالَةُ تَضْمِينِ فِعْلِ الْإِيمَانِ مَعْنَى الْإِقْرَارِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾:

سَعَةُ دِلَالَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَى الْمَعَانِي

(الإيمانُ) لا يتعدَّى إلى مفعولين فلا يجوز أيضًا أن يَتعَلَّقَ بجارَّيْنِ، وقد تعلَّق بالجارِّ المحذوف من قوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ﴾ فلا يتعلَّق باللَّام من قوله: ﴿لِمَن﴾، إلَّا أن يُحمَل (الإيمان) على معنى الإقرار على جهةِ التَّضمين، فيتعلَّق بجارَّين، ويكون المعنى: ولا تقرُّوا بأنْ يؤتَى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم، إلَّا لِمَن تبع دينكم؛ كما تقول: (أَقْرَرْتُ لزيدٍ بألْف)، فتَكون اللَّامُ مُتعلِّقَةً بالمعنى، ولا تكون صِلَةً على حَدِّ ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: 72]، و﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ٤٣﴾ [يوسف: 43](2).

فيكون فعل الإيمانِ دالًّا على التَّصديقِ بالمطابقة، وعلى الأمن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/280.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 5/351.

بدلالة الإيماء إلى أصلِ الاشتقاقِ، وعلى الإقرارِ بقرينَةِ تعلُّقِهِ بحرْفَي جَرٍّ، وهذا من دقائقِ القرآن الكريم وسعةِ دلالاتِه على المعاني.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿لِمَن﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾:

حِقْدُ الْيَهُودِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَعَصَبِيَّتُهُمُ الْبَاطِلَةُ لِدِينِهِمْ

اتَّفق المُفسِّرون على أنَّ هذا الكلام بقيّة كلام اليهود، وفيه ووجهان:

أحدهما: أنَّ المعنى: ولا تُصدِّقوا إلَّا نَبيًّا يُقَرِّرُ شَرائع التَّوراة، فأمَّا مَن جاء بتغيير شيء من أحكام التَّوراة فلا تُصدِّقوه، وهذا هو مذهب اليهود إلى اليوم، وعلى هذا التَّفسير تكون (اللَّام) في قوله: ﴿لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ صِلةً مؤكِّدةً، فإنَّه يُقال: صَدَّقتُ فلانًا، ولا يُقال: صَدَّقْتُ لِفُلانٍ، وكون هذه اللَّام صِلةً زائدةً جائزٌ، كقوله تعالى: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النَّمل: 72]؛ والمعنى: رَدِفَكم، وأنشد ابن الأنباري على هذا:

ما كنتُ أَخدَعُ للخليلِ بِخُلَّةٍ***حتى يكونَ لِيَ الخليلُ خَدوعا

قال: أراد: ما كنت أَخدَعُ الخليلَ؛ فزاد اللَّام.

والآخرُ: أنَّه ذُكر قبل هذه الآية قوله: ﴿ءَامِنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾، ثُمَّ قال في هذه الآية: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، أي: لا تأتُوا بذلك الإيمان إلَّا لأجل من تَبِعَ دينَكم[1].

وكلا المعنيينِ حقٌّ في ذاتِهِ لا تعارُضَ بينَهُمَا في المعنَى وإن اختلفَا في التَّخريج.

سِرُّ اخْتِيَارِ الْفِعْلِ ﴿تَبِعَ﴾ دُونَ (اتَّبَعَ):

سَطوَةُ القِيادة دَليلٌ على ضَعفِ الأَتْبَاعِ

في اختيار لفظ (تَبِعَ) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ إشعارٌ بضعف الأَتْبَاعِ؛ لأنَّ الفعل (تَبِعَ) يحمل معنًى دقيقًا يُفضي إلى الانقياد والاستسلام للقيادة من غير إعمالِ عَقْلٍ وفِكْرٍ،

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 5/351، والرازي، مفاتيح الغيب: 8/259.

وهذا منهجٌ يتَّبعه رُؤساء اليهود لفرض سيطرتهم على أتباعهم، وفي اللُّغة يُقال: "تَبِعَهُ واتّبعه: قَفَا أثره، وذلك تارةً بالجسم، وتارةً بالارتِسَام والائتِمارِ، ومنه التَّبيع؛ خُصَّ بِوَلَد البَقَر إذا تَبِع أمَّهُ"[1].

وعلى ذلك فهم يُريدون مِن أتباعهم التَّسليم والانقياد في كُلِّ خطواتهم، ولم يَقل: اتَّبَعَ؛ لأنّه على وَزن (افْتَعَلَ)، وهذه الصِّيغة تدلُّ على التَّكلُّفِ والمَشقّة، وهذا غير مُرادٍ لهم.

سِرُّ اخْتِيَارِ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿دِينَكُمْ﴾ دُونَ (شَرِيعَتَكُم):

زَعْمُ الْيَهُودِ أَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ هُوَ الدِّينُ لَا دِينَ غَيْرُهُ

لَمَّا كانت الشَّرائع مختلفةً والدِّينُ واحدٌ، كما قال النَّبِيُّ ﷺ: «الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عَلَّاتٍ، وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»[2]؛ كان في تعبيرِ اليهود بالدِّين دون الشَّريعةِ تعريضٌ منهم بأنَّ المسلمينَ ليسوا على دينٍ ذي بالٍ؛ إذ الدِّين واحدٌ، وهو الذي هم عليه في زعمهم، وهذا منهم في غاية المكابرةِ والعِنادِ؛ لادِّعائهم أنَّ دينَهم أفضلُ دِينٍ؛ بل لا دِينَ غيرُه.

نُكْتَةُ إِضَافَةِ (دِين) إِلَى كَافِ الْخِطَابِ فِي: ﴿دِينَكُمْ﴾:

مِنْ طُرُقِ الرُّؤَسَاءِ فِي إِضْلَالِ الْخَلْقِ إِثَارَةُ عَوَاطِفِ الْأَتْبَاعِ

في إضافة الدِّين إلى ضمير الخطابِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ استثارةٌ لِحَمِيَّتِهِم تجاه دينهم؛ وهو سُلوكٌ ظاهرٌ في مواقف اليهود في إثارة عَواطف أتباعهم تجاه أيّ قضية، يُؤَيِّدُ ذلك ما ذكره الرَّازيُّ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ الآية، فقد قال: "ولا تأتوا بذلك الإيمان إلَّا لأجل من تَبِعَ دِينَكُم؛ فإنَّ مَقصُود كُلّ واحدٍ حفظُ أتباعه وأشياعه على مُتابعته"[3].

---

(1) الراغب الأصفهاني، المفردات: (تبع).

(2) البخاري، الحديث رقم: (3443).

(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/307.

دِلَالَةُ الْقَصْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾:

الـهُـدَى هُـوَ الطَّـرِيقُ الـذي شَـرَعَـهُ الـلـهُ تَعَالَى، ومَا عَدَاهُ فَـضَـلالٌ وَرَدًى وهَلاكٌ

قول اللّه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ اعتراضٌ بين الفعل ومتعلَّقِه، وهو من كلامِ اللّه تعالى، أُمِرَ النَّبيُّ ﷺ أَن يقوله لهم؛ وهو كناية عن استبعاد حصول اهتدائهم، وأنَّ اللّه لم يوفِّقهم للاهتداء؛ فمحاولتُه هداية النَّاس لا يحصلُ منه المطلوبُ، إِذَا لم يُقدِّره اللّه، فالقصر - بتعريف جزأي الجملةِ - حقيقي؛ لأَنَّ ما لم يُقدِّره اللّه فهو صورة الهدى وليس بهُدًى، وهو مقابل قولهم: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ﴾، و﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ﴾، إذ أرادوا صورة الإيمان، وما هو بإيمان، وفي هذا الجواب إظهار الاستغناء عن مُتابعتهم[1].

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾:

الْهِدَايَةُ تَشْمَلُ لُـــزُومَ دِيـــنِ الْإِسْــــلَامِ، وَجَمِيعَ تَفَاصِيلِهِ الدِّينِيَّةِ عِلْمًا وَعَمَلًا

في معنى الهُدَى، هنا قولان:

أَحدهما: ما أوتِيَه المؤمنون من التَّصديق برسول اللّه ﷺ.

والآخَر: التَّوفيق والدِّلالة إلى الخير حتَّى يُسلِمَ أو يثبتَ على الإسلام[2].

وكلاهما داخل في مسمَّى الهُدَى؛ فتُحمل اللَّامُ في ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾ على معنَى العهدِ العلميِّ، وهو الهُدَى إلى الدِّين الحقِّ، ويدخل فيه الهدايةُ إلى أصل الدِّين، والهدايةُ إلى تفاصيلِه.

سِرُّ مَجِيءِ﴿قُلۡ﴾ فِي الْجُمْلَةِ الِاعْتِرَاضِيَّةِ: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾:

عِنَايَةُ اللهِ تَعَالَى بِنَبِيِّهِ ﷺ

أثناءَ ذكر هذه المؤامرات اليهوديَّة مِن زُعماء اليهود أَمْرًا ونَهيًا لأتباعهم، مع استثارة عواطفهم، كُلّ ذلك من أجل القضاءِ على الإسلام ونبيِّه ﷺ؛ يخرج صوت النُّور لتبديد الظَّلام؛ حيثُ يقول اللّه تعالى لرسوله ﷺ: (قُلْ لَهم إنَّ الهُدى هدى اللّه)، فاللّه تعالى يُسمِعُهُم صوتَ رَسولِه ﷺ الَّذي يُحاولون كَتْمَهُ وإخفاءَهُ، وفيه إيماءٌ

(1) الراغب، تفسير الراغب: 2/641، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/281.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/217.

إلى كمال عِناية اللّه سبحانه بنبيِّه ﷺ، وتأكيدُ صدقِ نُبوَّته، وأنَّها باصطفاءٍ منَ اللّه تعالى له، وأنَّ كيدَهم لا ينفعُ.

نُكْتَةُ إِيرَادِ الْجُمْلَةِ الِاعْتِرَاضِيَّة ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾:

وَظِيفَةُ الشَّرَائِعِ الْإِلَهِيَّةِ الْهِدَايَةُ

المكرُ والخِداعُ والكَيْدُ ليس من خصائص الشَّرائع الإلهيَّة، بل خصائصُها هدايةُ البَشَر، والعملُ على بيان أسبابه، أمَّا ما يفعلُه اليهودُ مِن المَكر والخَديعة والتَّلبيس؛ فليس من شأن الدِّين الصَّحيح الَّذي أنزلَه اللّه على مُوسى عليه السلام؛ لذا جاءَ القرآنُ بهذه الجُملة: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ اعتراضيَّةً بين قولهم: لا تُظهروا إيمانكم بأن يُؤتَى أحدٌ مثلما أُوتيتم إلَّا لأهل دينكم دون غيركم، والغَرضُ من ذَلك هو منعُ النَّاس من الهداية إلى العلم؛ فجاءت هذه الجُملة لتبيِّن لهم أنَّ الكَيْدَ والخديعةَ لا يمنعان هدايةَ اللّه تعالى لمن أراد هدايته؛ فهو صاحبُ الهداية وحده.

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفظيّ فِي التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ:

دِقَّةُ النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ فِي مَوَاقِعِ الْكَلِمِ تَقْدِيمًا وَتَأْخِيرًا

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٢٠﴾ [البقرة: 120].

وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧١﴾ [الأنعام: 71].

وقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٧٢ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٧٣﴾.

فأنتَ تَرى أنَّه في الآيتين الأُولَيَيْنِ قدَّم ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾، وجاء بضميرِ الفَصْلِ، وفي الثَّالثة قدَّم ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾، ولم يأتِ بضمير الفَصْل.

ولعلَّ السَّبب أنَّ الآيتين الأُولَيَيْنِ في أصل ما يَتَدَيَّنُ به النَّاسُ؛ فالآية الأُولَى في اليهوديَّة والنَّصرانيَّة، والثَّانية في الشِّرك، فناسب الرَّد بتقديم ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ وهو الإسلام، فكأنَّه قال لهم: إنَّ هدى الله – أي: الإسلام – هو الهُدَى الكاملُ الصَّحيحُ التَّامّ لهدايتكم وما أنتم عليه، فناسبَ تقديمُه، وحصْرُ الهداية عليه، قال الزَّمخشريّ: "يعني أنَّ هدى اللّه الَّذي هو الإسلام، هو الهدى بالحقِّ، والَّذي يصحُّ أن يُسمَّى هُدًى، وهو الهدى كُلُّه ليس وراءه هدًى، وما تدعون إلى اتِّباعه ما هو بهدًى، إنَّما هو هَوًى، ألَا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ [البقرة: 120]؛ أي: أقوالهم الَّتي هي أهواءٌ وبدعٌ"[(1)].

والإتيانُ بضمير الفَصل كان توكيدًا لهذا المعنى، وناسب هذا التَّوكيد والقَصر زيادة ﴿مِنَ﴾ [البقرة: 120] في الآية الأُولى، وزيادة اللَّام في ﴿لِنُسْلِمَ﴾ [الأنعام: 71] في الثَّانية؛ تقويةً لهذا المعنى.

أمَّا الآية الثَّالثة؛ فليست في الموازنة بين ما يَتَدَيَّنُ به النَّاس، وإنَّما هي ردٌّ على تصرُّفٍ ومكْرٍ سيِّئَيْنِ؛ إذ قالت طائفةٌ مِن أهلِ الكتاب آمنوا بما أُنزل على محمَّد وجهَ النَّهار واكفرُوا آخرَه، وقُولوا نحنُ آمنَّا به ظَنًّا بأنَّه حقٌّ، ولكن استبان لنا أنَّه باطلٌ، فرجعنا عنه إلى ديننا الَّذي هو الحقُّ، لعلَّهم يرجعون عن دينهم، فنزلت الآية رَدًّا على مكرهم وكيدهم وادِّعائهم الهدى، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: أنَّ الهدى أن يهديكم اللّه إلى الدِّين الصَّحيح وإلى الحقِّ، وليس الهدى أن تعلموا مثل هذا المكرِ والتَّبييت، فالهدى أن يشرحَ اللّه صدورَكم لقَبُول الحقِّ، ويفتح قلوبكم للخير، وليس الهدى ما تُبيِّتُون وما تنوُون، فناسب هذا أن يقول: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾، وهو ردٌّ على تصرّفهم وزعمهم، وتبيانٌ للهدى الصَّحيح، قال الزَّمخشريُّ في هذه الآية: "معناه أنَّ الهدى هدى اللّه، مَن شاء أن يلطف به حتَّى يُسلم، أو يزيد ثباته على الإسلام، كان ذلك، ولم ينفع كيدُكم وحيلُكم وزِيُّكم تصديقكم عن المسلمين والمشركين"[(2)].

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/183.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/374، والطيبي، فتوح الغيب: 4/143، والسامرائي، معاني النحو: 1/52.

تَوْجِيهُ القِرَاءَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ﴾:

تنوُّع القِرَاءاتِ القرآنيَّة يُكسِبُ التَّفسيرَ خُصُوبةً وثراءً في المعَاني

قرأ ابنُ كثير ﴿ءَأن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ﴾ بهمزتينِ على وجه الاستفهام[1]، والمراد بالاستفهام: الإنكار، أي: لا يُعطى أحدٌ مثل ما أعطيتم، وهو مُتَّصل بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٌ﴾، ويكون قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ خبرًا اعتُرِضَ في وسط الكلام ولم يُغيِّر من المعنى شيئًا، وإذا حمل الكلام على هذا؛ كان قوله: ﴿أَن يُؤۡتَىٰٓ﴾ منَ الحكاية عَنِ اليهود، والمعنَى: لا تصدقوا أن يُعطى أحدٌ مِثلَ ما أُعطيتم.

وقرأ غيرُ ابنِ كثيرٍ بهمزةٍ واحدة على الخبر، والمعنَى: ولا تُؤمنوا إلَّا لمن تبع دينكم، ولا تؤمنوا أن يُعطى أحد مِثلَ ما أُعطيتم[2].

سِرُّ اخْتِيَارِ ﴿أَحَدٌ﴾ دُونَ (واحِد) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ﴾:

حِـرْصُ الْيَـهُـودِ عَلَى إِخْفَاءِ الْحَقِّ عَنِ الْخَلْقِ

يَحرصُ اليهود دائمًا على ادِّعاءِ التَّفوُّق على بقيَّة النَّاس، وأنَّهم أفضَل من غيرهم؛ لذلك زرعوا في أتباعهم أنَّه لا يُؤتى أحدٌ مِن البَشَر ولا أُمَّة من الأُمم مثل ما أُوتوا مِن النُّبوة والاصطفاء؛ ويظهر ذلك في اختيار لفظ ﴿أَحَدٌ﴾ دون (وَاحِد)؛ لأنَّ لفظ (واحد) اسم لِمُفتتح العدد، ويأتي بعده اثنان وثلاثةٌ... وهكذا؛ أمَّا ﴿أَحَدٌ﴾ فينقطع معه العدد، فلا يأتي بعده عدد آخر، وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّهم يرون أنَّ الاصطفاءَ والتَّكريم لهم لا لغيرهم، حتّى يسهُلَ عليهم سَلْبُ اعتقادِ وجود النُّبوَّة في غير بني إسرائيل.

دِلَالَةُ قَوْلِهِ: ﴿أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ﴾:

مِنَ السُّلوكيَّات المعروفة لدى اليهود أنَّهم لا يُقرُّون بالحقِّ، ولا يعترفون به؛ بل يجحدُونه بالكتمان، كما وردَ ذلك في آياتٍ كثيرة،

---

(1) ابن الجزري، النشر: 1/366.

(2) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 165 - 166.

فرؤساؤُهم يعملونَ على تعليم أتباعهم هذا المسلَك - في أمرٍ نبَّه عليه نبيُّنا ﷺ - بألَّا يقرّوا أو يعترفوا بالبشارات الدَّالة في كتبهم على نُبوَّته ﷺ خوفًا من إقامة الحُجَّة عليهم بما هو موجود في كُتبهم، وعبَّر القُرآن عن ذلك بقوله: ﴿أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ﴾، ومعلومٌ أنَّ أقوى الأدِلَّة في إثبات أي قضية: الإقرار من الخَصم أو مِن كُتبه.

خَوْفُ الْيَهُودِ مِن إِقَامَةِ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ

دِلَالَةُ الْإِضَافَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿عِندَ رَبِّكُمۡۗ﴾:

شَرَفُ الانْتِسَابِ إِلَى الرَّبِّ ﷻ

﴿عِندَ رَبِّكُمۡۗ﴾ من قول الله تعالى: ﴿أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ﴾ يَحتَمِلُ في معناهُ وجهين:

أحدهما: أنَّ ذلك في الآخرة.

والآخرُ: عند كُتبِ ربِّكم الشَّاهدة عليكم ولكم.

إضافةُ ذَلك إلى الرَّب يُرادُ به التَّشريفُ والتَّفخيمُ، والمعنى: أو يحاجّوكم عند الحقِّ.

وعلى هذين المعنيين تدورُ تفاسير الآية، فيحمل كلّ منها على ما يناسب من هذين المعنيين(1).

فائِدَةُ تَخْصِيصِ الْفَضْلِ بِاللهِ تَعَالَى، وَدِلَالَةُ اللَّامِ في﴿ٱلۡفَضۡلَ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ﴾:

الْفَضَائِلُ وَالْعَطَايَا بِيَدِ اللهِ تَعَالَى يُؤْتِيهَا مَنْ يَشَاءُ

جيءَ بقول الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ﴾ توكيدًا لمعنى قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾، وفي ذلك تكذيبٌ لِلْيَهُودِ حيث قالوا: شَريعةُ موسى مُؤَبَّدة، ولن يُؤتيَ اللّه أحدًا مثل ما أُوتي بنو إسرائيل مِنَ النُّبوة، فالفَضل هو بيد اللّه تعالى يعطيه من أراد، فاختصاصُه بالفضل من شاء، إنَّما سببه الإرادة حسبما تقتضيه حكمتُه سبحانه.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/217.

وقد فُسِّر الفَضلُ هنا بالنُّبوة، وهو تفسيرٌ بأشرف أفراده[1]، وإلَّا فإنَّ الأظهرَ أن تكون اللَّامُ في ﴿ٱلۡفَضۡلَ﴾ لاستغراق الجِنْسِ، فتشمَلُ كلَّ فضلٍ.

عِلَّةُ التَّوكِيدِ بِـ ﴿إِنَّ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ﴾

لَا تُـغْـطَـى الْـفَـضَـائِـلُ بِحَسَبِ أَهْـوَاءِ النَّاسِ وَرَغَبَاتِهِمْ

تأكيدُ الكلامِ بـ ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ جيء بها لتنزيلهم مَنزِلةَ مَن يُنكر أنَّ الفَضل بيد اللّه، ومن يتوهَّمُ أنَّ الفَضلَ تَبَعٌ لشهواتهم.

وجملة: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ معطوفةٌ على جُملة ﴿إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾، أي: أنَّ الفضل بيد اللّه وهو لا يخفى عليه من هو أهلٌ لِنَوَال فَضلهِ[2].

دِلَالَةُ التَّأكِيدِ بِجُمْلَةِ: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾:

لَا حَـجْـرَ عَـلَى فَضْلِ اللهِ تَعَالَى

ما يَفعَلُه اليهود مِن الكِتمان والخِداع هدفُه ألَّا يُعطى أحدٌ مثل ما أُوتوا، ويكون الفَضل مقصورًا عليهم، ولا يكون في غيرهم، وهم بذلك يُسيئون الأدَبَ مع اللّه تعالى؛ لذا جاءَ الرَّد مِن اللّه على لسان رسوله - ﷺ -: قُلْ لهم قولًا يحمل كلَّ تأكيدٍ دفعًا لجحودهم، وإنكارهم: إنَّ الفَضل بيده سبحانه لا ينازعه أحدٌ؛ فيُؤتي النُّبوَّة مَن شاء.

سِرُّ اخْتِيَارِ لَفْظِ ﴿ٱلۡفَضۡلَ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾:

تَـفْـضِـيـلُ أُمَّـةِ الإِسْـــلَامِ عَـلَى سَائِرِ الأُمَمِ

الفَضْلُ يحمل معنى الزِّيادة في العَطاء، وفي ذلك إشارةٌ إلى زيادة الفَضْلِ لهذه الأُمَّة على سائر الأُمم، وذلك من وجوه:

أحدها: أنَّ هذا الدِّين هو الدِّين الخاتم، ورسولُه الرَّسول الخاتم ﷺ.

(1) المصدر نفسه: 3/218.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/283.

ثانيها: هيمنةُ هذا الدِّين على كُلِّ ما سبقه.

ثالثها: عالَميَّتُه لِكُلِّ البَشَر، بخلاف ما سبقه فهو مخصُوصٌ بالقوم الَّذين أُرسل إليهم الرَّسول؛ أمَّا رسولنا ﷺ فهو رسولٌ للعالمين.

لذلك كان التَّعبير بـ﴿ٱلْفَضْلَ﴾ الَّذي يحمل الزِّيادة في كُلِّ شيء ردًّا على مكر اليهود، ودعواهم أنَّهم أصحاب الرِّسالات فقط دُون غيرهم، وكأنَّهم أوقفوا عطاء السَّماء عندهم؛ لكنَّ ردَّ القرآن عليهم بأنَّ عطاءَ اللّه تعالى مُتجدِّدٌ ولا يوقفه أحدٌ؛ دلَّ على ذلك الفعل المضارع ﴿يُؤْتِيهِ﴾ الَّذي يُفيد تجدّدَ حدوث العَطاء، وهذا ظاهرٌ في اصطفاء اللّه تعالى لهذه الأُمَّة ولرَسُولِها ولكتابِه.

مُناسبةُ الْفَاصِلَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ لِلسِّياق:

إِثْبَاتُ الأَسْمَاءِ للّهِ تَعَالَى دَالٌّ عَلَى ثُبُوتِ الاِسْمِ، وَالصِّفَةِ التِي تَضَمَّنَهَا الاِسْمُ، وَثُبُوتِ حُكْمِهَا وَمُقْتَضَاهَا.

خُتِمَت الآيةُ بقول اللّه تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾، وجِيءَ بهذه الصِّفاتِ تَنبيهًا على أنَّه إذا كان واسعًا وعالمًا؛ فإنَّ ذلك يقتضي أن يُوسِّع على عباده، وعِلمُه يقتضي ألَّا يحرمَ رحمتَه مستحقّها، وفضلُه يقتضي أن يتجاوز العدلَ إلى الفضل، وهو أن يفضلَ على غير مُستحقِّيه، وإلَّا لم يكن فضلٌ عظيمٌ[1]، قال ابنُ عاشور: "وأحسبُ أنَّ وصفَ اللّه بصِفة ﴿وَٰسِعٌ﴾ في العربيَّة مِنْ مُبتكراتِ القُرآن"[2].

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإيمان والتَّصديق:

النَّاظر في أغلب كتبِ اللُّغة والتَّفسير يجد أنّ أصحابَها لا يفرّقون بينهما، ولكنّ بلاغة القرآن تقتضي التَّفريقَ بينهما، وذلك من عدّة وجوه؛ أوّلها: أنّ المادَّة اللُّغويّة لمادّة (أَمِنَ) تدورُ حول طمأنينة النَّفس، وزوال الخوفِ، ومنه الأمان الَّذي يُطلق على الحالة الَّتي يكونُ عليها الإنسانُ في الأَمْن، ويُطلق على ما يُؤتمن عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾

(1) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/649.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/284، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1277.

[الأنفال: 27] الآية[1]، وأمَّا المادَّة اللُّغويَّة للصِّدق فتدورُ حول مُطابقةِ القول الضَّميرَ، والمُخبَرَ عنه معًا[2].

ثانيًا: التَّصديقُ أعمُّ من الإيمان؛ لأنَّ التَّصديق يدخلُ في الأمور الدُّنيويَّة والغَيبيَّة، بخلاف الإيمان فإنَّه يُطلَق على الشَّريعة الَّتي جاء بها نبيِّنا ﷺ، وعلى كلِّ مَن دخل شريعتَه مُقرًّا باللّه ورسوله؛ فيقال له: مُؤمن، كما يُقال لكلِّ واحدٍ من الاعتقاد والقول الصِّدق والعمل الصَّالح: إيمان، وهذا من الشَّريعة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ الآية، أي: صلاتَكم.

ثالثًا: الإيمانُ يُقابِلُه الكُفْرُ، والتَّصديق يُقابله التَّكذيب.

رابعًا: الإيمانُ لا يُستعمل إلَّا في الإخبار عَن الغَيبيَّات، وهذا واضحٌ في كثير من الآيات، ومنها: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: 3] الآية؛ بخلاف الصِّدق فيقال في المُشَاهَد، لذلك يقول للشُّهود: صدّقناهم، ولا يُقال: أَمَّنَّا لهم.

وخلاصةُ القَول: إنَّ الاستعمال القُرآنيّ لكلمتي الإيمان والتَّصديق يجعلهما مُتقاربين لا مُترادفين؛ حيثُ يشتركان في معنًى عامّ هو التَّصديق؛ بينما الإيمان يختصُّ بالغيب دون المُشَاهَدة، وأيضًا يختصُّ بزوال الخَوف، وفيه زيادة على الصِّدق بالمُوالاة والانقياد.

الدِّين والملَّة:

يقول الرَّاغب: المِلَّة كالدِّين، وهو اسمٌ لما شَرَّعَ اللّه تعالى لعباده على لسان الأنبياء ليتوصَّلواْ به إلى جوار اللّه، والفَرقُ بينها وبين الدِّين أنَّ المِلَّة لا تُضافُ إلَّا إلى النَّبي الَّذي تُسند إليه، ومِن ذلك قوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ [الحجّ: 78]، وقوله: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ يوسف: 38] الآية، ولا تُضاف إلى اللّه تعالى، ولا إلى آحاد أمَّة النَّبيِّ، ولا تُستعمل إلَّا في جُملة الشَّرائع دون آحادها؛ فلا يُقال مِلَّة اللّه، ولا يقال مِلَّتي، ومِلَّة زيد أمَّا الدِّين إذا أُطلق فهو الطَّاعة العامَّة الَّتي يُجازى عليها بالثَّواب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: 19]؛ أمَّا إذا قُيِّد فتختلف دلالتُه حسب السِّياق الَّذي ورد فيه مثل: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ [الفاتحة: 4]، فهو بمعنى الجزاءِ والحِساب.

---

(1) الرَّاغب، المفردات: (أمن).

(2) المصدر نفسه: (صدق).

الإيتاء والإعطاء:

والإيتاء: أقوى من الإعطَاء؛ إذْ لا مُطَاوع لَهُ، يُقَال: آتَاني فَأَخَذته، وَفي الإعطَاء يُقَال: أَعْطَاني فعطوت؛ وَمَا لَهُ مُطَاوع أَضعَف في إِثْبَات مَفعُوله مِمَّا لَا مُطَاوع لَهُ، وَلِأَنَّ الإيتاء في أَكثر مَوَاضِع القُرْآن فِيمَا لَهُ ثباتٌ وقَرارٌ، كالحكمة والسَّبع المثاني، وَالملك الَّذي لا يُؤْتى إِلَّا لذِي قُوَّة[1]، والإعطاءُ: قد يكونُ للشَّيء القليلِ، قال تعالى: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ٣٤﴾ [النجم: 34]، وأيضًا لم يَرِدِ العَطاءُ دالًّا على الشَّيء الكثير إلَّا مُقيَّدًا بما يدلُّ على الكَثرة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ٢٠﴾ [الإسراء: 20]، الآية؛ فإضافة العَطاءِ إلى الله، ونفي الحَظر عنه، يفيدُ كَثرةَ هذا العَطاء، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ١﴾ [الكوثر: 1]، وقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ٥﴾ [الضحى: 5]، ومن الفُروق أيضًا أنَّ الإعطاء يتوقَّف على القبول، بينما الإيتاء لا يتوقَّف على القبول؛ لذلك أُمِرَ المسلمون بإيتاء الزَّكاة في كثيرٍ من آياتِ القُرآن، وأيضًا أنّ الإيتاءَ يكونُ عَن طيب قَلْبٍ، بخلاف الإعطاء فقد يكونُ عن كُرهٍ؛ ولذلك آثر القرآنُ في إخراج الزَّكاة التَّعبيرَ بالإيتاء؛ لأنَّ المؤمن يُخرج الزَّكاة عن طِيبِ نَفسٍ، بينما إعطاءُ الجزية لا يحمل هذا المعنى؛ لأنَّ الذِّمّي لا يعطي الجزيةَ راضيًا.

وَاحِد، وأَحَد:

(وَاحِد): اسم لِمُفتَتح العَدَد، ويأتي بعده اثنان وثلاثة؛ أمَّا (أَحد) فينقطع معه العَدَد فلا يأتي بعده عددٌ؛ إذًا هو نفي لما يُذكر معه مِن العَدد؛ ولذلك لا يُوصف بالأحدية إلَّا اللّه، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ [الإخلاص: 1]، " وَفي (أحد) فَائِدَة لَيست فِي وَاحِد، لِأَنَّك إذا قلت: (لَا يقوم لزيد وَاحِد)، جَازَ أَن يقوم لَهُ اثْنَان وأكثر، وإذا قلت: (لَا يقوم لَهُ أحد) نفيتَ الْكلّ، وَهَذَا إنّما يكون في النَّفْي خَاصَّة، وَأمّا في الإيجاب فَلَا يكون فِيهِ ذَلِك الْمَعْنى، و(أحد) إذا كَانَ بِمَعْنى وَاحِد وَقع في الإيجاب تَقول: (مَرَّ بنَا أَحَدٌ)[2].

المُحاجَّة والمُجادَلَة والحِوار:

وهذا يقتضي ذِكر معنى كُلّ منهم حتَّى يتبيَّن لنا الفَرق: (فَالمحاجَّة): أن يطلبَ كلُّ

(1) الكفويّ، الكليّات، ص: 212.

(2) الكفويّ، الكليّات، ص: 212.

واحدٍ منهما أن يردَّ الآخر عن حُجَّته ومَحجَّته[1]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ﴾ [الأنعام: 80]، ويقول الجرجانيّ: "الحُجَّة ما دلَّ به على صِحَّة الدَّعوى"[2]؛ أمَّا الجِدال فهو دَفعُ المرءِ خصمَه عن إفساد قَوله بحُجَّة أو شُبهَة، أو يقصدُ به تصحيح كلامه، وهو بذلك يُشير إلى الخُصومة، وقال الرَّاغب: "والجِدال: المفاوضةُ على سبيل المُنازعة والمُغالبة، وأصلُه من جَدلتُ الحبل: أحكمتُ فَتلَهُ، وسُمِّي بذلك لأنَّ كلَّ واحدٍ من المتجادلين يفتلُ الآخرَ عن رأيه"[3]، ومن خلال النَّظر في الاستخدام القرآنيّ لهذين اللَّفظين، تجدُ فوارقَ دقيقةً بينهما، مع اشتراكهما في معنًى عامّ، هو مُراجعة الكلام، ولكن لكلِّ لفظٍ ما يُميّزه، فالجدال يَقومُ على المُغالبة؛ فكلٌّ من المتجادلين يَبذلُ جُهدَه ليغلب الآخر، ولذلك يقول الحكيم التّرمذي: "المُجَادلة: المُكاسرة، والجدل: الكسرُ؛ وذلك لأنَّ كلَّ واحدٍ من المتجادلين يريد كَسْرَ حُجَّة صاحبه، ليقهره لما يريد".

والمجادلةُ في القُرآن على نوعين: جدلٌ مذمُوم، وهو ما يجُرُّ إلى المُغَاضبة، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: 32]، وجدل محمودٌ: وهو مُراجعة الكلام بهَدفِ الإقناع والوصُول إلى الحقِّ، قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النّحل: 125]، إذن المُجادلة تتميَّز بالشِّدة والقَصد إلى غَلَبَةِ الخَصم وقَهره؛ أمَّا المُحاجَّة فتقومُ على محاولة كلّ واحدٍ التَّغلب على خصمه، بما يقدِّمه من الحُجج والبراهين لنُصرة رأيه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾ [الأنعام: 80]، ومنه قوله: ﴿أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ﴾ [آل عمران: 73]؛ وبذلك تتميَّز المُحاجَّة بتقديم الحُجج والبراهين بعيدًا عن التَّصلُّب والتَّعصُّب؛ وممَّا يتناسبُ ذِكره في هذا المقام (المحاوَرة)؛ لأنَّها تَقوم على مُراجعة الكلام أيضًا، لكنَّها بعيدة عن الشِّدَّة والخُصومة[4] وبذلك يتَّضح للقارئ الكريم دِقَّة النّظم القرآنيّ في أداء المعنى المُراد[5].

(1) الرّاغب، المفردات: (حج).
(2) الجرجانّي، التّعريفات، ص: 82.
(3) الرّاغب، المفردات: (جدل).
(4) الرّاغب، المفردات: (جدل).
(5) وممَّا يُؤكّد ذلك ما ورد في سورة الكهف، في قِصَّة أصحاب الجنَّتين من حِوار بينهما صوّره القُرآن بقوله: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ [الكهف: 34]، وكان الرَّدُّ مِن صاحبه محاورًا بقوله: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ﴾ [الكهف: 37] الآية، وفهذا من باب النَّصيحةِ له، وهي لا تحملُ شِدَّةً ولا خُصُومة.

الجِدَال والحِجَاج:

الفَرْقُ بينهما أنَّ المطلوب بالحِجَاج هو ظهور الحُجَّة، والمطلوب بالجدال: الرُّجوع عن المذهب، فإنَّ أَصلَهُ من الجَدَلِ، وهو شِدَّة الفَتلِ، ومنه الأجدل لشِدَّة قُوَّتِهِ من بين الجوارح، ويُؤيِّده قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: 32]، وقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125]؛ وذلك أن دأبَ الأنبياءِ - عليهم السلام - كان رَدعَ القَوم عن المذاهب الباطلة، وإدخالهم في دين الله ببذل القُوَّة والاجتهاد في إيراد الأدلّة والحُجج. هذا وقد يرادُ بالجدال مُطلقُ المخاصمة، ومنه قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [النساء: 109][1].

الفضل والإحسان:

إنَّ الإِحسَانَ قد يكون وَاجِبًا وَغير وَاجِب، وَالفضلُ لا يكونُ وَاجِبًا على أحدٍ، وَإِنَّمَا هُو مَا يتفضَّل بِهِ من غير سَبَبٍ يُوجِبهُ[2]، والله تعالى يمنح العفو والمغفرة لعباده المؤمنين في الآخرة، فإن فاتتهم الشّفاعات والكفّارات، وفاتهم محض الفضل والإحسان، عُذّبوا على قدر خطيئاتهم، ثمّ أُخرجوا من النّار، وأُدخلوا الجنّة"[3].

الجَواد والوَاسِع:

إنَّ الوَاسِعَ مُبالغَةٌ في الوَصف بالجُود، وَالشَّاهد أَنَّه نقيض قَوْلهم للبخيل: ضَيِّقٌ مُبالغَةً في الوَصْف بالبخل، وَهَذَا في أَوصَاف الحقِّ مجَازٌ؛ لِأَنَّ المُرَاد أَنَّ عطاءه كثيرٌ، وَقَالَ بَعضهم: هُوَ في صِفَات الله تَعَالَى بِمَعْنى أَنّه المُحِيط بالأشياء عِلمًا من قَوله تَعَالَى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: 98]، فهو "الجواد الواسع الفضل، الجزيل العطاء الّذي ما من شيء إلّا عنده خزائنه، وما من نعمة بخلقه فمنه وحده، لا شريك له"[4]، وله وَجهٌ آخرُ في اللُّغة، وهُو أن يكون مأخوذًا من الوُسع، وهو قدر مَا تسع لَهُ القُوَّة، وَهُوَ بِمَنزِلَة الطَّاقَة، وَهُو نِهَايَة مَقدُورِ القَادِر، فَلَا يَصحُّ ذَلِك فِي الله تَعَالَى[5].

---

(1) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 158.

(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 194.

(3) رضا، تفسير المنار: 3/220 (بتصرّف).

(4) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 6/251.

(5) المصدر نفسه، ص: 174.

﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٤﴾ [آل عمران: 74]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـرّد عـلى مكر اليهود، بتأكيد أنّما أوتيه النّبيّ ﷺ، هو فيضُ رحمةٍ وفضل

بعد ردّه على كيد اليهود الماكر، وتأكيده أنّ الهدى هدى اللّه، وأنّه يؤتي فضله من يشاء، جيءَ بالآيةِ الكريمة تعريضًا مِن اللّه - تَعالى ذِكْرُهُ - بأَهلِ الكتاب؛ أنَّ الَّذي آتى نَبيَّه محمَّدًا ﷺ والمؤمنين به من الهداية، تَفضُّلٌ مِنه، وأنَّ نِعَمَه لا تُدرك بالأماني، ولكنَّها مواهبُ مِنه يختصُّ بها من يشاءُ من خَلْقِهِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَخۡتَصُّ﴾: يقال: خصّه بالشّيء، ويقال: اختصّ فلان بالأمر وتخصّص له، إذا انفرد، وخصّ غيره واختصّه ببرّه، ويقال: فلانٌ مُخِصٌّ بفلان، أي خاصّ به وله به خصيّة؛ فأمّا قول أبي زبيد:

إِنَّ امْرأً خَصَّنِي عَمْدًا مَوَدّتَهُ ***عَلَى التَّنَائِي، لَعِنْدِي غَيْرُ مَكفُورِ

فهو إمّا يريد: (خصّني بمودّته)، فحذف الحرف وأوصل الفعل، وقد يجوز أن يريد (خصّني لمودّته إيّاي)، قال ابن سيده: وإنّما وجهناه على هذين الوجهين، لأنّا لم نسمع في الكلام (خصصته) متعديّة إلى مفعولين"[2]. التَّخصيصُ، والاختصاصُ، والخُصوصيَّة، والتَّخصُّص: تَفرُّد بعض الشَّيء بما لا يشاركه فيه الجملة، وقد خَصَّهُ بكذا يَخُصّه، واختصّه يختصّه، قال: ﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ﴾، يُريدُ: اختصَّك وتَفضَّل عليك وعلى أُمَّتِك، بدينه ورحمته[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/471، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/653.
(2) ابن منظور، لسان العرب: 7/25.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 5/360، والرّاغب، المفردات: (خصَّ).

2) ﴿بِرَحۡمَتِهِۦ﴾: الرَّحمَةُ مِنَ اللّه إنعامٌ وإفضالٌ، ومِن الآدميِّين رِقَّة وتَعطُّف، والرَّحَمَةُ منطويةٌ على معنيين: الرِّقّة والإحسان، فركَّز تعالى في طبائع النَّاس الرِّقَّةَ، وتفرَّد بالإحسان، فصَار كما أنَّ لفظ الرَّحِم من الرَّحمة، فمعناه الموجود في النَّاس من المعنى الموجود للّه تعالى، فتناسَب معناهما تناسبَ لفظيهما[1]، والرَّحمةُ هنا عامَّة بجميع أنواعها، أو النُّبوةُ والحكمةُ والنُّصرةُ، اخْتُصَّ بها محمَّدٌ ﷺ[2].

3) ﴿مَن يَشَآءُۗ﴾: المشيئة: أصلُها مِن شيءٍ، والشَّيءُ اسمٌ للموجود، والمَشيئةُ قصدٌ إلى اتِّخاذ الشَّيء، ثُمَّ يُقال: شاءَ اللّه كَذا، أي: أَوجدَهُ بعد أن لم يكن موجودًا؛ فالمشيئةُ مِن اللّه تعالى إيجادُهُ، ومِن النَّاس الإصابةُ. وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسان: 30]: تنبيهٌ أنَّ مشيئَتَهم مُرتَّبة على مشيئة اللّه، فلا فِعل يَستقلُّ به العبد[3]، والإنسان لا يعمل خيرًا إلّا بتوفيق اللّه، إذا أراد اللّه أن يهيّئَ له الأسباب، ويفتح له الأبواب، لتحقيق ذلك ونواله، ولا يفعل شرًّا إلّا بخذلان اللّه له، فيوكل إلى نفسه، ويحجب عنه التّوفيق، لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾ [التّكوير: 29][4].

4) ﴿ٱلۡفَضۡلِ﴾: الزِّيَادَةُ وَالخَيرُ. وَالإِفْضَالُ: الإِحْسَانُ. وَرَجُلٌ مُفْضِلٌ. وَيُقَالُ: فَضَلَ الشَّيءُ يَفْضُلُ، وَرُبَّمَا قَالُوا فَضِلَ يَفْضُلُ، وَهِيَ نَادِرَةٌ[5]. والفَضْلُ في الإعطاء: الزِّيادة على المستحقِّ الَّذي هو العدل، وهو المعبّر عنه بالإحسان في قوله: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النّحل: 90]، وهو من الأسماء المتضايفة، كالكثير والقليل، والكبير والصّغير[6].

5) ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾: نقيضُ الحَقِير، وَمُعظَمُ الشَّيْءِ: أَكْثَرُهُ، في أَسمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى (العَظِيمُ) هُوَ الَّذِي جاوَزَ قدْرُه وجلَّ عَنْ حُدُود العقول حَتَّى لَا تُتَصَوَّر الإحاطةُ بكُنْهه وحَقِيقته. والعِظَمُ في صِفاتِ الأَجْسام: كِبَرُ الطُّول والعرض والعُمْق. وَاللّه تعالى جلَّ قَدْرُه عَنْ ذَلِكَ[7]. ووصف فضله في الآية بالعِظَم، فقال: ﴿ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾؛ لأنَّه غير مُشبهه في

(1) الرّاغب، المفردات: (رحم).

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/546.

(3) الراغب، تفسير الرّاغب: 1/518، والسّمين، عمدة الحفاظ: 2/306.

(4) الواحديّ، الوسيط: 4/432.

(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فضل).

(6) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/648، و2/649، و1/179.

(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية: (عظم).

عِظَم موقعه ممّن أفضله عليه فضلٌ من إفضال خلقه، ولا يقاربه في جلالةِ خطره ولا يُدانيه[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

عطاء الله ورحمته، فضلٌ يختصُّ به من يشاء من عباده

اللهُ تعالى يَختصُّ برحمته من يشاءُ من خلقه، فيتفضَّل عليه بالهداية والنُّبوة وأنواع العَطاء، واللّه ذو الفَضل العظيم الَّذي لا حدَّ له[2]، "والاختصاص النّوعي لبعض الرّحمات، لَا يعارضه عمومُ الفضل على خَلقه، ولا عظمة هذا الفضل"[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ قَوْلِهِ: ﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ﴾ **بَعْدَ قَوْلِهِ:** ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ﴾:

لَا مُنْتَهَى لِإِكْرَامِ اللهِ تَعَالَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ

قد يظهر باديَ الرَّأيِ أنَّ المعنى في قوله تعالى: ﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ هو المذكورُ في الآية المتقدِّمة عليها: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٧٣﴾، ولكنَّ دِقَّةَ النَّظم القُرآني وتكاملَه الدِّلالي تردُّ على ذلك، فقد جيءَ بقوله تعالى: ﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ تأكيدًا لما تقدَّم.

والفرق بين هذه الآية وبين ما قبلها: أنَّ ﴿ٱلۡفَضۡلَ﴾ عبارةٌ عن الزِّيادة، ثمَّ إنَّ الزِّيادة من جِنس المزيد عليه، فبَيَّن بقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ أنَّه قادرٌ على أن يُؤتي بعض عباده مِثل ما آتاهم من المناصب العالية ويزيد عليها من جِنسها، ثُمَّ قال: ﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ﴾، والرَّحمةُ المضافةُ إلى اللّه سبحانه أمرٌ أعلى من ذلك الفَضل، فإنَّ هذه الرَّحمة ربَّما بلغت في الشَّرف وعُلوِّ الرُّتبة

(1) ابن جرير، جامع البيان: 6/518.
(2) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 59.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1278.

إلى أن لا تكونَ من جنس ما آتاهم، بل تكون أعلى وأَجَلّ مِن أَنْ تُقاس إلى ذلك، ويحصل من مجموع الآيتين أنَّه لا نهاية لمراتبِ إعزاز اللّه وإكرامه لعباده، وأنَّ قصرَ إنعامه وإكرامه على مراتب مُعيَّنة، وعلى أشخاص مُعيَّنين: جهلٌ بكمال اللّه في القُدرة والحكمة(1).

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ ﴿يَخۡتَصُّ﴾ مَادَّةً وَصِيغَةً فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ﴾:

رَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ اخْتِيَارٌ وَاخْتِصَاصٌ

التَّعبيرُ بالفعل المضارع ﴿يَخۡتَصُّ﴾ جيءَ به للدَّلالة على التَّجدّد والاستمرار، والرّحمة هنا مثل الخير المنزَّل على رسول اللّه ﷺ والمؤمنين؛ وذلك إدماج للامتنان عليهم بأنَّ ما نزلَ عليهم هو رحمةٌ بهم، ومعنى الاختصاص جعلُها لأحد دون غيره؛ لأنَّ أصلَ الاختصاص والتَّخصيص راجعٌ إلى هذا المعنى؛ وهو جعلُ الحكم خاصًّا غير عامّ، سواء خصَّ واحدًا أو أكثر(2).

ويحتمل أن يكون ﴿يَخۡتَصُّ﴾ هنا لازمًا بمعنى: ينفردُ، أو مُتعدِّيًا بمعنى: يُفْرِدُ؛ إذ الفعل يأتي كذلك، يقال: اختصَّ زيدٌ بكذا، واخْتَصَصْتُه به، ولا يتعيَّن هنا تعدّيه؛ إذ يصحُّ: واللّه يفردُ برحمته من يشاءُ، فيكونُ ﴿مَن﴾ فاعلًا، وهو (افْتَعَلَ) مِن: خصصت زيدًا بكذا، فإذا كان لازمًا، كان لفعل الفاعل بنفسه نحو: اضطرَرتُ، وإذا كان مُتعدِّيًا، كان مُوافقًا لفعل المجرَّد نحو: كسبَ زيدٌ مالًا، واكتسبَ زيدٌ مالًا(3).

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْمَشِيئَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ﴾:

النُّبُوَّةُ اصْطِفَاءٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى

بيَّن اللّه تعالى أنَّه سبحانه يختصُّ برحمته مَنْ عَلِمَ أنَّه حقيقٌ بها، ولا سيّما الرَّحمة المراد منها النُّبوة، فإنَّ اللّه يختصُّ بها مَن خَلَقَه قابلًا لها، فهو يخلقُه على صفاءِ سريرةٍ وسلامة فطرة

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/262، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 4/144.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 1/653.

(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/546.

صالحة لتلقِّي الوحي شيئًا فشيئًا؛ لذلك لم تكن النُّبوةُ حاصلةً بالاكتساب، ولمّا كانت الاستعداداتُ لمراتب الرّحمة من النُّبوة فما دونها غير بادية للنَّاس؛ طوى بساطَ تفصيلها لتعذّره، وَوَكَلَهَا إلى مشيئتِهِ الّتي لا تتعلَّق إلَّا بما علمَهُ واقتضَتهُ حكمتُه سبحانه؛ رفقًا بأفهام المخاطَبين[1].

بَلَاغَةُ تَصْدِيرِ الْجُمْلَةِ بِالِاسْمِ الْأَحْسَنِ ﴿وَٱللَّهُ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾:

سَعَةُ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى وَغَزَارَةُ عَطَائِهِ

تصديرُ الجملةِ بالاسم الأحسن ﴿وَٱللَّهُ﴾ فيه إيذانٌ بفخامة الأمر[2]، ودفعٌ لتوهُّم مَن يظنُّ أنَّ اختصاص بعضهم لضيق الرَّحمة عن العموم، فقال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ الَّذي كلُّ شيء دونه، فلا ينقصُ ما عنده ﴿ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾، وفيه تعيظمٌ لِما ذُكِرَ مِنَ النِّعم، مُشيرًا بذلك كُلِّه إلى التَّمكُّن من الإعطاءِ باختيارِهِ وغزارة فضلِه، وإلى القُدرة على الإنجاءِ من حبائل المكر بسَعَةِ علمه[3].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿ذُو﴾ دون (صَاحِب) في قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾:

اللهُ تَعَالَى ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ يَتَفضَّلُ بِهِ عَلَى مَنْ شَاءَ مِنْ خَلقِهِ

الوصفُ بـ(ذُو) أَشرفُ عند أهل المعاني من الوصف بـ(صاحب)؛ لأنَّهم ذكروا أنَّ (ذُو) لا تكونُ إلَّا مضافةً لاسم، فمدلولها أشرفُ؛ ولذلك جاء ذو رعين، وذو يَزَن، وذو الكلاع، ولم يَسْمَعُوا بصاحب رعين، ولا صاحب يزن ونحوها. وامتنع أن يُقال في الصحابي أبي سعيد أو جابر: ذو رسول الله ﷺ، وجاز أن يُقال: صاحب رسول الله ﷺ[4]، فناسب مجيءُ الوصف في الآية بـ ﴿ذُو﴾؛ لإضافته إلى صِفَةٍ عظيمة، والمعنى: ذو فضلٍ يتفضَّل به على من أحبَّ وشاءَ من خلقه[5].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/654.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 4/459 - 460.
(3) الزحيلي، التفسير المنير: 1/254.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/546.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 6/518.

وممَّا يُؤكِّد الفَرْقَ بين (ذُو) و(صَاحِب) ما ورد في القُرآن في حقِّ سيِّدنا يُونس عليه السلام، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ [الأنبياء: 87] الآية، وفي قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ٤٨﴾ [القلم: 48] الآية؛ فعُدِلَ في موضع عن التَّعبير بـ (صاحب)، فقال: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾، ولم يَقُل (صَاحِب الحُوت).

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿ٱلۡفَضۡلِ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾:

التَّخَلِّي عَنِ الرَّذَائِلِ وَالتَّحَلِّي بِالْفَضَائِلِ طَرِيقٌ لِاسْتِنْزَالِ الْفَضْلِ الْجَزِيلِ مِنَ اللهِ تَعَالَى

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ تذييلٌ؛ لأنَّ الفَضلَ يشملُ إعطاءَ الخير والمعاملةَ بالرَّحمة، وهو تَنبيهٌ على أنَّ واجبَ مُريد الخير التَّعرّضُ لفضل الله تعالى والرّغبةُ إليه في أن يتجلَّى عليه بصفة الفضل والرَّحمة، فيتخلَّى العبدُ عن المعاصي والخبائث، ويتحلَّى بالفضائل والطَّاعات عسى أن يحبّه ربُّه[1]، وفي الحديث الصَّحيح «تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ في الرَّخَاءِ؛ يَعرِفْكَ في الشِّدَّةِ»[2].

نُكْتَةُ وَضْعِ الْمُظْهَرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾:

اصْطِفَاءُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ مُقْتَضَيَاتِ الِاسْمِ الْأَحْسَنِ (الله)

جاء التَّعبيرُ بالاسم الظَّاهر (الله) في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، وكان مقتضى الظَّاهرِ الإتيانُ بالضَّمير؛ لتقدُّم ذكر مرجِعه، فيكون: (يختصُّ برحمته من يشاء وهو ذو الفضل العظيم)، إلَّا أنَّه وُضِع المُظهَر موضعَ المُضمَرِ؛ إظهارًا للمهابة بالتَّصريح بالاسم الأحسن ﴿وَٱللَّهُ﴾، وتَنبيهًا على أنَّ تخصيصَ بعض النَّاس بالرَّحمة الخاصّة - وهي النُّبُوَّةُ - دون بعضٍ ملائمٌ لمقام الأُلوهيَّة؛ بخلاف الرَّحمة العامَّة؛ فهي للعُمُوم، فيُنَاسبُهَا اسم الله تعالى (الرَّبِّ).

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/654.

(2) رواه أحمد في المسند، الحديث رقم: (2803)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع الصغير: (برقم: 2961).

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ فِي تَعْرِيفِ الْفَضْلِ وَتَنْكِيرِهِ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾ [آل عمران: 174]:

فَضْلُ الله تَعَالَى خَاصٌّ وَعَامٌّ

جاء في آواخر سورة آل عمران قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾ [آل عمران: 174]، بتنكير كلمةِ ﴿فَضْلٍ﴾، وتبِعَهَا في التَّنكير كلمةُ ﴿عَظِيمٍ﴾؛ لوقوعِهَا نعتًا لنكرةٍ، بخلاف قوله تعالى هنا: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فقد وردَا معرَّفين.

ووجه ذلك: أنَّه لما كان المقصودُ بالرَّحمة هنا النُّبُوَّة والرِّسالة التي اختصَّ اللّه بها نَبيَّه ﷺ؛ ناسبه تعريفُ الفَضلِ والوصفِ التَّابعِ له؛ وذلك للخُصُوص، بخلاف الموضعِ الأخير؛ فهو في موضع العُمُوم؛ لمجيئِهِ في سياق تَوابِعِ أحداث غَزوَة أُحُد، والفَضل فيها عامٌ للرَّسولِ ﷺ وللمُؤمنين.

سِرُّ وَصفِ الْفَضْلِ بِالْعَظَمَةِ دُونَ الْكِبَرِ:

فَضْلُ اللهِ تَعَالَى عَظِيمٌ وَكَبِيرٌ

الوصفُ إذا كان بلفظ العظيم؛ فإنَّه يكون مُتَّصلَ الإسناد بالاسم الأحسن (اللّه)، وعندما تكون الإشارة إلى فضلٍ من اللّه تعالى بغير إسناد مُباشر؛ فإنَّ الوصف يكون بالكِبَر، ومنه قولُ اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢﴾ [فاطر: 32].

وإذا كان الشَّيء واسعًا لا حدَّ له كما في الرَّحمة الَّتي قال عنها ربُّنا: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأعراف: 156]، فإنَّ وصف الفَضل يكون بالعظمَةِ، وإذا كان الفَضْلُ محدودًا يُوصف؛ فإنَّه يوصَفُ بالكِبَرِ؛ ولذا كان المناسب هنا الوصف بالعَظَمَةِ؛ للتَّصريح بالرَّحمة في الآيةِ.ومجموع الوصفين دالٌّ على أنَّ فضل اللّه تعالى عظيمٌ وكبيرٌ.

مِنْ عَادَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي ذِكْرِ اخْتِصَاصِ الْفَضْلِ بِهِ:

الـــرَّدُّ عَـلَى حَـسَـدِ الْيَـهُـودِ لِأَهْـلِ الإِسْـلَامِ وَعِدَائِهِمْ لَهُمْ

النَّاظر في هذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ يجد أنَّ معناها يَرِدُ في الرَّد على حَسَدِ

اليهود للمُسلمين؛ ففي سُورة البقرة يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ١٠٥﴾ [البقرة: 105].

وجاءت هنا في سورة آل عمران بعد مواقف اليهودِ المعاندة والمعاديةِ للإسلام والمسلمين، وجاءت أيضًا في سورة الحديد، في قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ٢٩﴾ [الحديد: 29]؛ وفيه تنبيهٌ لأهل الإسلام أن يَستَشعِروا هذه النِّعمة وأن يُحافظوا عليها؛ إذِ اليهودُ لا يريدون لهم الفلاحَ ولا النَّجاحَ.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّة:

الانفِرَاد والاختِصَاص:

الاختِصَاص انفِرَادُ بعض الأَشيَاء بِمَعنًى دون غَيره، كالانفراد بِالعلم وَالمُلك، والانفرادُ تَصحِيحُ النَّفس وَغير النَّفس، وَلَيسَ كَذَلِك الاختِصَاص؛ لِأَنَّهُ نقيض الِاشتِرَاك، والانفرادُ نقيضُ الازدواج، والخاصّةُ تحتَمل الإِضَافَة وغير الإضافة؛ لِأَنَّهَا نقيضُ العَامَّة، فَلَا يكون الِاختِصَاص إِلَّا على الإضافة؛ لِأَنَّهُ اختِصَاص بِكَذَا دون كَذَا[1].

النِّعْمَة والرَّحْمَة والرِّقة والرَّأفة:

إِنَّ الرَّحمَةَ الإنعامُ على الْمُحتَاج إِلَيه، وَلَيسَ كَذَلِك النِّعمَة؛ لِأَنَّك إِذا أَنْعَمت بِمَال تعطيه إِيَّاه فقد أَنْعَمت، وَلَا تَقول إِنَّك رَحمتَه، والرِّقّة والغلظَةُ يكونَان فِي القلب وَغَيره خِلقةً، وَالرَّحْمَةُ فِعل الرَّاحم، وَالنَّاس يَقُولُونَ: رَقَّ لَهُ فرحمه، يجعَلُونَ الرّقة سَبَبَ الرَّحمَة. والرَّأفةُ: أبلغُ من الرَّحمَة؛ وَلِهَذَا قَالَ أَبُو عُبَيدَة: "إِنَّ قَوْله ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١١٧﴾ [التَّوبة: 117]: تَقدِيمًا وتأخيرًا، أَرَادَ أَنَّ التَّوكيد يكون فِي الأبلغ فِي الْمَعنى، فَإِذا تقدَّم الأبلغ فِي اللَّفْظ كَانَ الْمَعنَى مُؤَخرًا[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 140، والكفويّ، الكلّيات، ص: 59.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 195، و196.

المَشِيئَة، والإِرَادَة، والعَزْم:

"المشيئة والإرادة هي صفة فعل كلّ فاعل يفعله على الاختيار، نحو أن يقال: شاء فعل كذا، أو أراد أمر كذا، ولا يجوز أن يقال: أمر نفسه بكذا، أو نهى نفسه عن كذا"ا[1]، ثمّ إنَّ الإِرَادَةَ تكونُ لما يتراخى وقتُه وَلما لم يتراخَ، والمشيئة لما لم يتراخَ، وَالشَّاهِد أَنَّك تَقول: فعلتُ كَذَا شَاءَ أَو أَبى، فيقابلُ بهَا إباه؛ وَذَلِكَ يكون عِنْد محاولة الفِعْلِ، وَكَذَلِكَ مَشِيئَته إِنَّمَا تكون بَدَلًا من ذَلِك في حَاله. والعَزْمُ: إِرَادَةٌ يقطعُ بهَا المريدُ رويّته في الإِقْدَام على الفِعْل أَو الإحجام عَنهُ، وَيخْتَصُّ بِإِرَادَة المريد لفعل نَفسه؛ لِأَنَّهُ لَا يجوزُ أَن يعزم على فعل غَيره[2].

العَظِيم والكَبِير:

إنَّ العظيمَ قد يكونُ من جِهة الكَثرة ومن غير جهة الكَثرة؛ ولذلك جاز أن يُوصف اللّه تعالى بأنَّه عظيمٌ، وإن لم يُوصف بأنَّه كثيرٌ، وقد يعظُم الشّيءُ من جهة الجنس ومن جهة التَّضاعف[3]. والعظيمُ إذا استعمل في الأعيان فأصله: أن يُقال في الأجزاءِ المتَّصلة، والكثيرُ يُقال في المنفصلة، ثمَّ قد يُقال في المنفصل عظيمٌ، نحو: جيشٌ عظيمٌ، ومالٌ عظيمٌ، وذلك في معنَى الكَثيرِ[4].

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 4/400.

(2) المصدر نفسه، ص: 124، والراغب تفسير الرّاغب: 1/518 - 519.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 183.

(4) الرّاغب، المفردات: (عظم)، والكفويّ، الكليّات، ص: 631.

﴿۞ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾ [آل عمران: 75]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين قبح أحوال اليهود في الاعتقاد، وفي معاملة العباد

تتعلَّقُ هذه الآية بما قَبْلَهَا من وجهين: الأوَّل: أنَّه تعالى حكى عن أهل الكتابِ في الآية المتقدِّمة أنَّهم ادَّعوا أنَّهم أُوتواْ من المناصب الدِّينية ما لم يُؤْتَ أحدٌ غيرهم مثله، ثُمَّ إنَّه تعالى بيَّن أنَّ الخيانةَ مُستقبحةٌ عند جميع أَرباب الأديان، وهم مُصِرُّون عليها، فدلَّ هذا على كذبهم، والثَّاني: أنَّه تعالى لما حكى عنهم في الآية المتقدِّمة قبائحَ أحوالهم فيما يتعلَّق بالأديان، وهو أنَّهم قالواْ: ﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ﴾، حكى في هذه الآية بعضَ قبائح أحوالهم، فيما يتعلَّق بمعاملة النَّاس، وهو إصرارهم على الخيانة والظُّلم، وأخذ أموال النَّاس في القليل[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿تَأۡمَنۡهُ﴾: قال ابن فارس: الهمزة والميم والنون أصلان متقاربان؛ أحدهما الأَمَانَةُ: الَّتِي هِيَ ضِدُّ الخِيَانَةِ، وَمَعنَاهَا سُكُونُ القَلْبِ، وَالآخَرُ التَّصْدِيقُ. وَالمَعْنَيَانِ مُتَدَانِيَانِ. قَالَ الخَلِيلُ: الأَمَنَةُ مِنَ الأَمْنِ. وَالأَمَانُ إِعْطَاءُ الأَمَنَةِ[2]. يُقَالُ: أَمِنْتُ الرَّجُلَ أَمْنًا وَأَمَنَةً وَأَمَانًا، وَآمَنَنِي يُؤْمِنُنِي إِيمَانًا. وَالعَرَبُ تَقُولُ: رَجُلٌ أُمَّانٌ: إِذَا كَانَ

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/262.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمن).

أَمينًا[1]، وقَرَنَ القرآنُ الوفاءَ بالأمانة بالوفاء بالعهد، في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٨﴾ [المؤمنون: 8]، ووردت بالجمع، "لأنّها تكون متنوّعة، من حيث هي في الأموال، وفي الأسرار فيما بين العبد وربّه، فيما أَمَرَهُ ونهاه عنه، قال الحسن: الدّين كلّه أمانة"[2]، والأمانةُ في هذه الآية هي الوديعةُ من (المال)، أو الأمانةُ بالمعاملة، وأنتَ غير مُتمكّن من الَّذي تَأْمَنُهُ، هل يردُّ الأمانةَ أم لا، بقوله تعالى على لسان يعقوب: ﴿هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ [يوسف: 64]، و(على) تدلُّ على التَّمكُّن[3].

2) ﴿بِقِنطَارٍ﴾: القِنْطارُ: مِعْيارٌ. قَالَ أَبُو عُبَيدَةَ: "القَنَاطير: وَاحِدُهَا قِنْطار، وَلَا تَجِد العَرَبَ تَعرف وَزْنه، وَلَا وَاحِدَ للقِنطار مِنْ لَفظه. وَقَالَ ثَعْلَبٌ: المَعمولُ عَلَيهِ عِندَ العَرَب الأَكْثر أَنَّهُ أَرْبَعَةُ آلَافِ دِينَار، فَإِذَا قَالُوا: (قَنَاطِيرُ مُقَنْطَرة)، فَهِيَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ"[4]. وهُوَ من المَال مِقْدَار مَا فِيهِ عبور الحَيَاة تَشبِيها بالقنطرة، وَذَلِكَ غير مَحدُود القدر في نَفسه، وَإِنَّمَا هُوَ بِحَسب الإِضَافَة كالغنى، فَرُبَّ إِنسَانٍ يَستَغنِي بِالقَلِيلِ، وَآخرَ لَا يَستَغنِي بالكثير، وَمن هُنَا وَقع الِاختِلَاف فِي حَدّه كَمَا فِي حدّ الغِنَى[5].

3) ﴿يُؤَدِّهِۦٓ﴾: أدَّى، الهَمْزَةُ وَالدَّالُ وَاليَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ إِيصَالُ الشَّيْءِ إِلَى الشَّيْءِ أَوْ وُصُولُهُ إِلَيهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفسِهِ، قَالَ الخَلِيلُ: "أَدَّى فُلَانٌ يُؤَدِّي مَا عَلَيْهِ أَدَاءً وَتَأْدِيَةً. وَتَقُولُ فُلَانٌ آدَى لِلأَمَانَةِ مِنْكَ. وَأَنْشَدَ غَيْرُهُ:

أَدَّى إِلَى هِنْدٍ تَحِيَّاتِهَا***وَقَالَ هَذَا مِنْ وَدَاعِي بِكرْ"[6]

4) ﴿بِدِينَارٍ﴾: أَصلُه دِنَّارٌ، بِالتَّشْدِيد، بِدَلِيل قَولِهم: دَنانِير ودُنَيْنِير، فَقُلِبَتْ إِحدى النُّونَيْن يَاءً؛ لئلَّا يَلْتَبِسَ بِالمَصَادِرِ الَّتِي تَجِيءُ عَلَى فِعَّالٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا ٢٨﴾ [النبأ: 28]؛ إِلَّا أَن يكون بالهاء فيخرج عَلَى أَصله، مِثْل الصِّنَّارَة والدِّنَّامَة؛ لأَنَّه أَمن الآنَ مِنَ الالتِبَاسِ؛ وَلِذَلِكَ جُمِعَ عَلَى دَنَانِيرَ، وَمِثْلُهُ قِيراط ودِيباج، وأَصله دِبَّاجٌ. قَالَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: 8/262.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/369.
(3) هلال، تفسير القرآن الثريّ، تفسير الآية: 75.
(4) ابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب، (قنطر).
(5) الكفوي، الكليّات، ص: 733.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أديَ).

أَبو مَنصُورٍ: "دِينَارٌ وَقِيرَاطٌ وَدِيبَاجٌ أَصلها أَعجمية، غيرَ أَن العَرَبَ تَكَلَّمَتْ بِهَا قَدِيمًا فَصَارَتْ عَرَبِيَّةً"[1].

5) ﴿مَا دُمۡتَ﴾: أصلُ الدَّوام السُّكون، يُقال: دامَ الماء، أي: سَكَن، ومنه: دَامَ الشّيءُ: إذا امتدَّ عليه الزَّمانُ، قال تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ﴾ [المائدة: 117]، ﴿إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ﴾ [آل عمران: 75][2]، يُقَالُ دَامَ الشَّيْءُ يَدُومُ، إِذَا سَكَنَ. وَالْمَاءُ الدَّائِمُ: السَّاكِنُ، «وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُبَالَ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ، ثُمَّ يُتَوَضَّأَ مِنْهُ».. وَيُقَالُ أَدَمْتُ الْقِدْرَ إِدَامَةً، إِذَا سَكَّنْتَ غَلَيَانَهَا بِالْمَاءِ. قَالَ الْجَعْدِيُّ:

تَفُورُ عَلَيْنَا قِدْرُهُمْ فَنُدِيمُهَا***وَنَفْثَؤُهَا عَنَّا إِذَا حَمْيُهَا غَلَا[3]

6) ﴿عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ﴾: أي: ثابتًا على طلبه، مُواظبًا مُلازِمًا، فالقيامُ عليه يعني المطالبة به، والقاعدُ عنه يعني: غير المطالب به[4]. و﴿إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ﴾؛ أي: دائمًا ثابتًا في اقتضائك له، ومطالبتك إيَّاه[5].

7) ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾: الأُمِّيُّ: الَّذِي لَا يَكتُبُ، قَالَ الزَّجَّاجُ: الأُمِّيُّ الَّذِي عَلَى خِلْقَة الأُمَّةِ لَمْ يَتَعَلَّم الكِتاب، فَهُوَ عَلَى جِبِلَّته، وَفِي التَّنْزِيل العَزِيز: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: 78]؛ لأَنَّ الكِتابة هِيَ مُكْتَسَبَةٌ، فكأَنَّه نُسب إِلَى مَا يُولد عَلَيهِ؛ أَي: عَلَى مَا وَلَدَته أُمُّهُ عَلَيهِ، وقِيلَ لِلعَرَبِ الأُمِّيُّون؛ لأَنّ الكِتابة كَانَتْ فِيهم عَزِيزَةً أَو عَديمة[6].

8) ﴿سَبِيلٞ﴾: السَّبيلُ: الطّريقُ الَّذي فيه سُهولة، وجمعُهُ سُبُلٌ، ويستعمل السَّبيلُ لكلّ ما يتوصّل به إلى شيءٍ خيرًا كان أو شرًّا[7]، وهُوَ أغلب وقوعًا في الخَيْر، وَلَا يكَاد اسْمُ الطَّرِيق يُرَاد إِلَّا مقترنًا بِوَصْفٍ أَو إِضَافَة تخلّصه، لذَلِك قال الله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ [يوسف: 108] فأنّث، وقال: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا﴾ [الأعراف: 146] فذكّر، وسَبَّلَ ضيعتَه، أي جعلَها في سَبيلِ الله، وقوله تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧﴾ [الفرقان: 27] أي

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (دنر).
(2) الراغب، المفردات: (دوم).
(3) الجوهري، الصحاح (فثأ)، والأزهري، تهذيب اللغة (فثا).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دوم).
(5) الواحديّ، التفسير البسيط: 5/367.
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (أمّ)، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس (أمم).
(7) الراغب، المفردات: (سبل).

سبباً ووُصْلَةً[1]، والسّبيل أَيضًا: الحُجَّة: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١﴾ [النّساء: 141][2]، والسَّبيلُ في الآية بمعنى: العِتاب والمؤاخذة؛ أي: لَا يتطرّق علينا عتابٌ وذمٌّ، في شأن الأمّيين، يعنون الّذين ليسوا من أهل الكتاب[3].

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

أغـلـب أهـل الـكـتـاب خائن للأمانة، ومتأوّل في حلّها بالباطل

يخبر تعالى عن حال أهل الكتاب في معاملاتهم، من حيث الوفاء والخيانة في الأموال، فأخبر أنّ منهم الخائن والأمين[4]، إذْ مِنْ أَهلِ الكتاب مَنْ إنْ تأمنه على مالٍ كَثير، يُؤدِّ إليك ما ائتمنته عليه، ومنهم منْ إن تَسْتأمِنه على مالٍ قليل، لا يؤدّي إليك ما ائتمنته عليه، إلَّا إنْ ظَللتَ تُلحُّ عليه بالمطالبة والتَّقاضي؛ ذلك مِن أَجلِ قولهم الفَاسد: ليس علينا في العَرَب (الأميّين)، وأكل أموالهم إِثْمٌ؛ لأنَّ اللّه أباحها لنا، يقولون هذا الكذب وهم يعلمون افتراءهم على اللّه[5]، فجمعوا بين أكل الحرام واعتقاد حِلّه، وكان هذا الإدّعاءُ كذبًا على المنّان، ما أنزل اللّه به من سلطان[6].

الإِيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

تَخْصِيصُ أَهْلِ الْكِتَابِ دُونَ غَيْرِهِمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

اسْتِحْلَالُ الْيَهُودِ خِيَانَةَ الْمُسْلِمِينَ

تخصيصُ أهل الكتاب بذلك، مع أَنَّ غيرهم فيهم الأمينُ والخائنُ أيضًا؛ وذلك باعتبار واقعة الحال؛ إذْ سببُ نزول الآية أنَّ عبد اللّه بن سَلّام أُودع أَلْفًا ومائتيْ أُوقيّةً مِنَ الذَّهب، فأدَّى الأمانة فيها، وفنحاص بن عازوراء أُودِعَ دينارًا فخانه.

(1) الجوهريّ، الصّحاح: 5/1724.
(2) الكفوي، الكليات، ص: 512.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/50، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1281.
(4) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن: 1/135.
(5) جماعة من العلماء، المختصر في التفسير، ص: 59.
(6) السعدي، تيسير الكريم الرّحمن: 1/135.

وخُصِّصَ أهلُ الكتاب بالذِّكْرِ ههنا أيضًا؛ لكون خيانَتِهم للمسلمين تكون عنِ استحلالٍ، بدليلِ آخر الآية، بخلاف خيانة المُسلمِ المسلمَ[1].

دِلَالَةُ ﴿وَمِنۡ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

إِنْصَافُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِلْمُخَالِفِينَ وَالْخُصُومِ

﴿وَمِنۡ﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ لِلتَّبعيضِ، وفي استعمال هذا الدِّلالةِ ههنا إشعارٌ بإنصافِ القرآن وعدله مع المخالفينَ والخصوم؛ فلم يحكُم عليهم حكمًا واحدًا، بل ذكر أنَّ منهم فَريقًا أمينًا فيما يُؤتمن عليه ولو كان قنطارًا، وآخر غير مؤتمن ولو كان دينارًا، وهذا مِن محاسنِ هذا الدِّين أنَّه يُنصِف صاحبَ الحقِّ ولو كان خصمًا.

فاليهودُ الَّذين كانوا يواجهون الأُمَّة المسلمة بكلّ أنواع المكرِ والخِداع والفَساد يُنصِفُ القرآنُ بعضًا منهم ويصفُه بالأمانة، ويَذْكر خيانةَ بعضٍ منهم؛ تحذيرًا منهم ومن مَسْلَكِهم، كلُّ هذا أفادتْهُ ﴿وَمِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

القِيمَةُ الدِّلَالِيّةُ لِلَفْظِ: ﴿تَأۡمَنۡهُ﴾، وَ﴿يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾:

جَوَازُ التَّعامُلِ مَعَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَا لَمْ يَقْتَرِنْ ذَلِكَ بِمُحَرَّمٍ

في اختيار لفظ ﴿تَأۡمَنۡهُ﴾، و﴿يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ وما فيها مِنْ ضمائر؛ يُفهم منه حريَّة التَّعامل والكسب واتِّخاذ الصَّنائع الَّتي يتميَّزون ما دام أنَّ ذلكَ في حَيِّزِ الحلال، وليس محرَّمًا على المسلمين.

عِلَّةُ تَقْدِيمِ الْمُسْنَدِ عَلَى الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ﴾:

هذه الآية تَعَرَّضَتْ لقسمين من اليهود؛ لتُبَيِّن شِدَّة العَجب مِن صنيعهم عن طريق تقديم المُسند على المُسند إليه، فالقسم الأوَّل: تكمن شِدَّة العَجَب فيه مِن قُوَّة أمانته مع إمكان الخيانة، ووجود العُذر له في عادة أهل دينه، والقسم الآخر: للتَّعجيب مِن

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 4/147، والأنصاري، فتح الرحمن، ص: 92، والجمل، الفتوحات الإلهية: 1/440.

انـقِـسَـامُ أَهْـلِ الْـكِـتَـابِ إِلَى أَمِـيـنٍ وخَـائِـنٍ يَسْتَوجِبُ الْحَذَرَ فِي الـتَّـعَـامُـلِ مَعَهُمْ

أن تكونَ الخيانة خُلُقًا لمن يتَّبع كتابًا مِنْ كُتُبِ اللّه، ثُمَّ زَادَ القِسْمَ الثَّاني عَجَبًا إلى عَجَبِهِ: الإيجازُ بالحذف في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾، على تقدير: ليس علينا في أكل أموال الأُمِّيينَ سَبيل[1].

وفيه طباقُ السّلب بين ﴿يُؤَدِّهِۦٓ﴾ و﴿لَّا يُؤَدِّهِۦٓ﴾، والضّدُّ أكثرُ إظهارًا لحسنِ ضدِّهِ، ففيه إيضاحٌ لمكانةِ أداءِ الأمانةِ بذكْرِ ضدِّهَا.

كما استنبطَ الإمامُ القُرطبي رحمه اللّه دِلالةً أُخرى من هذا الحذف، وهو نفي تَعديل أهل الكتاب، خلافًا لمن ذهب إلى ذلك، وعلى تقدير الحذف يقول: "فكيف يُعَدَّلُ من يعتقد استباحةَ أموالنا وحريمنا بغير حرج عليه؟! ولو كان ذلك كافيًا في تعديلهم؛ لسُمِعَتْ شهاداتهم على المسلمين"[2].

اخْتِلَافُ دِلَالَاتِ الْأَفْـعَـالِ بِاخْتِلَافِ الْحَرْفِ الْمُعَدَّى بِهَا

عِلَّة تَعْدِيَة ﴿تَأۡمَنۡهُ﴾ بِالْبَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ﴾:

ذهب بعضُ العلماءِ إلى أنّ (الباء) في قوله تعالى: ﴿بِقِنطَارٖ﴾ بمعنى (على)، بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ﴾ [يوسف: 64].

والحقُّ أنَّ المعنى مختلفٌ، فقولك: (أَمنتُه به) يختلف عن قولك: (أَمنتُه عليه)، فقولك: (لا آمنُه عليك)، معناه: لا آمنه أن يحيفَ عليك أو يهجمَ عليك أو يتعدَّى عليك، وما إلى ذلك، ففيه معنى الاستعلاءِ والتَّسلط والعُدوان، وأمَّا قولك: (لا آمنُه بدرهم)، فمعناه: لا آمنُه مِنْ أن يتصرَّف به، أو يَعبث به؛ لأنَّ (على) تفيدُ الاستعلاء، و(الباء) تفيدُ الإلصاق، والمعنى: أنَّه لا يَلتصقُ أَمْنُه بدِرهم، بل ستفارقه أمانتُه ويتصرَّف به.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/285.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 4/118، وأبو سمعان، التراكيب النحوية، ص: 117.

فأمنُه عليه تستعملُ للاعتداء، وأمنُه به تستعمل للتَّصرّف؛ تقول: لا آمنُ عليك الذِّئاب، ولا آمنُ عليكَ غوائلَ الطَّريق، ولا تقول: لا آمن بك الذِّئاب.

ولذلك استعمل القرآن هذا الأسلوب (أمنُه عليه) مع الأفرادِ، واستعمل (أمنُه به) مع الأموال، فقال: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: 11]، وقال: ﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ﴾ [يوسف: 64]، وقال في الأموال: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَـٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: 75]؛ لأنَّ في الأُولى معنى العُدوان، وفي الثَّانية معنى التَّصرف، وإن كان يجوز أن يُقال: (لَا آمنُه على هذا المال)، بمعنى التَّسلط عليه والاستحواذ.

ويحتمل أن يكون معنى قولك: أمنتُك بدينار، أي: وثقتُ بك فيه، وقولك: (أمنتُكَ عليه)، أي: جعلتك أمينًا عليه، وحافظًا له[1].

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِـ﴿بِقِنطَارٖ﴾ وبِـ﴿بِدِينَارٖ﴾:

ذِكـرُ القِـنْـطَـار والـدِّيـنـارِ مِـثَـالٌ يُقَاسُ عَلَيْهِ مَا شَابَهَهُمَا كَثْرَةً أَوْ قِلَّةً

عَبَّرَ عَنِ الكثرة بالقنطار مِنَ الذَّهب، ولم يذكر كونه مِنَ الذَّهب؛ لأنَّه مفهوم مِنَ السِّياق؛ لأَّن الدِّينار لَا يكون إلَّا مِنَ الذَّهب، فلا بدَّ أن يكون القنطارُ الَّذي يكون في يَدِ الأمين مِنَ الذَّهب[2].

والمرادُ مِن ذِكر القنطار والدِّينار - ههنا - العدد الكثير والعدد القليل، يَعني: أنَّ فيهم من هو في غاية الأمانة، حتَّى إنَّه لو اؤتمن على الأموال الكثيرة؛ لأدَّى الأمانة فيها، ومنهم من هو في غاية الخيانة، حتَّى إنَّه لو اؤتمن على الشَّيء القليل؛ فإنَّه يُجَوِّز فيه الخيانة، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ﴾ [النساء: 20][3].

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 5/361، والرازي، مفاتيح الغيب: 8/263، والبروسوي، روح البيان: 2/51، والسَّامرائي، معاني النَّحو: 3/24 - 25.
(2) تفسير ابن عرفة: 1/373، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1279.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/263، والزَّركشي، البرهان: 2/20.

دِلَالَةُ الِاسْتِثْنَاءِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمٗاۗ﴾:

فِي تَنَوُّعِ الدِّلَالَاتِ النَّحْوِيَّةِ إِثْرَاءٌ لِلْمَعَانِي الْقُرْآنِيَّةِ

يجوزُ أن يكونَ استثناءً مُفرَّغًا من أوقات يدلُّ عليها مَوقع ﴿مَا﴾، والتَّقدير: لا يُؤدِّهِ إليك في جميع الأزمان إلَّا زمانًا تدوم عليه فيه قائمًا، فيكون ما بعد ﴿إِلَّا﴾ نَصْبًا على الظَّرف، ويجوزُ أن يكون مُفرَّغًا من مصادرَ يدلُّ عليها معنى ﴿مَا﴾ المصدريَّة، فيكون ما بعده منصوبًا على الحال؛ لأنَّ المصدرَ يقعُ حالًا[1].

عِلَّةُ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ عَلَى مُتَعَلِّقِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَلَيْهِ قَآئِمٗاۗ﴾:

المماطلةُ وأكلُ حقوق العباد بالباطل مِن أشدِّ أنواع الظُّلم

قُدِّم الْجَارُّ وَالْمَجْرُورُ عَلَى مُتعلِّقه في قولِه: ﴿عَلَيْهِ قَآئِمٗاۗ﴾؛ بقصد الاهتمام، ففي تقديمه معنى الإلحاح؛ أي: إذا لم يكن قِيامُك عليه على جهةِ الإلحاحِ؛ لا يُؤدِّي إليكَ أمانتَك[2].

دِلَالَةُ الِاسْتِعْلَاءِ فِي ﴿عَلَيْهِ﴾، وَ﴿عَلَيْنَا﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾:

صَاحِبُ الحقِّ المَالِكُ مَا يُثْبِتُ حَقَّهِ وصِحَّةَ دَعْوَاهُ مُسْتَعْلٍ عَلَى خَصْمِهِ بِالْحُجَّةِ

الاستعلاءُ في الموضع الأوَّل ﴿مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمٗاۗ﴾ واضحُ الدِّلالة؛ إذ قيام صاحبِ الحقِّ بحجَّته تجعلُه مُستعليًا، وكأنَّه واقفٌ على رأس خَصْمِهِ، يشيرُ له بما يُثْبِتُ صِحَّةَ دعواه، فليس له إلَّا الإذعانُ وَالتَّسليمُ.

أمَّا الموضعُ الثَّاني؛ فيَحتَاج إلى تأمُّل وتدبُّر، وذلك أنَّ قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾ فيه نفيٌ للاستعلاء الَّذي جاء معناه في الموضع الأوَّل؛ فلما كان صاحبُ الحقِّ يملك الحُجَّة على إثبات حقِّه وصِحَّة دعواه، كان مُستعليًا بذلك على خَصمِه، فإن لم يكن مالكًا لتلك الحُجَّة وذلك البرهان؛ فإنَّه حينئذٍ لن يكون مُستعليًا على ذلك الكتابيّ، ولن يعترفَ له بحقٍّ في ذمَّته؛ لأنَّه يزعمُ ويقول: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾، فالمسلمُ فهم هذا الخطابَ الرَّبانيّ الَّذي يتضمَّن هذه المعاني السَّامية، حَرَصَ كلَّ الحِرْص في التَّعامل

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/50، والآلوسي، روح المعاني: 2/195، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/287.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/287.

مع أهل الكتاب، فلا يزال قائمًا بحجَّته عليهم مُتمكِّنًا مِن حقوقه تجاهَهم[1].

بَلَاغَةُ الْمَجَازِ فِي التَّعْبِيرِ بِالْقِيَامِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾:

تَقْرِيبُ الْمَعَانِي بِإِبْرَازِهَا فِي قَالَبِ الْمَحْسُوسَاتِ

أُطْلِقَ القِيامُ هنا على الحِرْصِ والمواظبة؛ كقوله تعالى: ﴿قَآئِمًا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: 18]؛ أي: لا يفعلُ إلَّا العَدلَ، وعُدِّي ﴿قَآئِمًا﴾ بحرف (عَلى)؛ لأنَّ القيام مجازٌ يُرادُ به الإلحاح والتَّرداد؛ فتعديتُه بحرفِ الاستعلاء قرينةٌ وتجريدٌ للاستعارة[2]، وفي التَّعبير عن الإلحاح والتَّرداد بالقيامِ إبرازٌ للمعاني في قالبِ المحسوسِ، وهو أقربُ إلى تصوُّر الذِّهْنِ وتعقُّلِه.

عِلَّةُ تَعْرِيفِ المُسندِ إِلَيْهِ بِالْإِشَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ﴾:

سُلُوكُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَسَالِكَ مُتَنَوِّعَةً فِي التَّنْبِيهِ على خَطَرِ الْيَهُودِ

مجيءُ المسندِ إليهِ معرَّفًا باسم الإشارة؛ فيه دلالَةٌ على بُلوغِ أَهل الكِتاب مُنتهى الشَّرِ والفَسَاد، وذلك أنَّ منهم مَنْ إن تأمنه بدينار لا يُؤدِّه إليك؛ وإنَّما أُشير إليه بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ لِكَمَالِ العناية بتمييزِه أتمَّ تمييزٍ؛ لاختصاصه بهذا الشَّأن العجيب[3].

دِلَالَةُ الجَمْعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُواْ﴾:

الْمُسْلِمُ وَمَا يَمْلِكُهُ مَطْمَعٌ لِلْيَهُودِ

ضميرُ الجَمعِ في قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُواْ﴾ عائدٌ على ﴿مَّنْ﴾ في ﴿مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ﴾، وإنَّما جُمِعَ حَمْلًا عَلَى المعنَى، والباء في ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ للسَّببية، أي: بسببِ قولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾؛ أي: ليس علينا فيما أصبناه من أموالِ العربِ عتابٌ وذمٌّ[4].

ومِن أَسرارِ اختيار الضَّمير (هُمْ) في قوله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ مع أنَّ السِّياق للمُفرد؛ لأنَّ القَضيَّة هنا عامَّة، فتشمل كلَّ طوائف أهل الكتابِ، سَواء أكانوا من العُلماء أم من الرُّؤساء أم من غيرهم، فكُلُّهم على هذا المسلك.

(1) الجهني، أثر دلالات حروف المعاني الجارة في التفسير، ص: 232.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/287.

(3) المصدر نفسه، والدبل، دليل البلاغة القرآنية: 1/478.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 2/195.

شِـدَّةُ تَمَسُّكِ الْخَائِنِينَ بِبَاطِلِهِمْ وَجَحْدِهِمْ مَا عَلَيْهِمْ مِنَ الْحُقُوقِ

سِرُّ اخْتِيَارِ النَّفْيِ بـ ﴿لَيۡسَ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾:

اختِيرَ النَّفيُ بـ ﴿لَيۡسَ﴾؛ لأنَّها أبلغ في النَّفي مِن (مَا) النَّافية مثلًا؛ إذْ ﴿لَيۡسَ﴾ مُتَمَحِّضَة في الدِّلالةِ على النَّفي، فلا يوجدُ معنًى آخرُ لهَا غيره، بخلاف (مَا)؛ فإنَّها ليست مُتَمَحِّضَة في النَّفي؛ لذلك لما أرادَ اللّه نَفْيَ مُماثلة غيرِه له؛ قال: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: 11].

فاستعمالُ الْخَائِنين النَّفيَ بـ ﴿لَيۡسَ﴾ إِشْعَارٌ بِشِدَّةِ تمسُّكِهم بِبَاطِلِهم، ومبالغتِهم في جَحْدِ كُلِّ حقٍّ عليهم.

الْقَوْلُ عَلَى اللهِ تَعَالَى بِغَيْرِ عِلْمٍ مِنْ أَشْنَعِ الْبَاطِلِ

سَبَبُ وَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بِمَا قَبْلُ:

وُصِلَ قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بما قبلُ وهو قوله سبحانه: ﴿قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا﴾؛ لما بينهما من التَّوسُّطِ بين الكمالين؛ فالجملتان متَّفقتانِ في الخبريَّةِ، وبينهما تناسبٌ ظاهرٌ من وجهين:

أحدهما: أنَّ كلًّا منهما جملةٌ فعليَّةٌ.

والآخر: اشتراكُهما في المسندِ، وهو القولُ، والجملةُ الثَّانيةُ تصريحٌ من اللّه تعالى بذمِّهم وشناعةِ جُرْمِهم؛ حيث إنَّهم لم يخونُوا الأماناتِ مُسْتَشْعِرينَ مخالفتَهم، بل نسبوا صحَّة ما هم عليه من الخيانَةِ إلى أحكام اللّه تعالى، وهذا في غاية الجراءَةِ على الباطلِ.

دِلَالَةُ حَرْفِ الْجَرِّ ﴿فِي﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾:

حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ من قوله: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾ يُرادُ بها التَّعليل؛ وإذ قد كان التَّعليلُ لا يتعلَّق بالذَّوات، تَعيَّن تقديرُ مضافٍ مجرورٍ بحرف ﴿فِي﴾، والتَّقدير: ليس علينَا في معاملة الأُمِّيِّين[1]، وإمعانًا منهم في باطِلِهم لم يقولوا: (ليس علينا في المسلمين سبيل)، بل وَصَفُوهُم بوصفٍ مُشْعِرٍ بالنَّقصِ والتَّحقيرِ؛ فسلَبُوهم

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/288.

حقَّهم، واحتقرُوهم في قدرِهم، فأرادوا التَّطاوُلَ بما أُوتوه من معرفة القراءة والكتابة من قبلهم، أو أرادوا: الأُمِّيين بمعرفة التَّوراة؛ أي الجاهلين؛ كنايةً عن كونهم ليسوا من أتباع دين موسى عليه السلام[1]؛ فهم لا يرون للعَربِ دينًا ولا رَسُولًا؛ فالدِّين لهم والرَّسُول عندهم فقط. وفيه إيجازٌ بالحذفِ؛ أي: ليس علينا في أَكل أَموالِ الأُمِّيِّين سَبيلٌ.

مِـنْ جَـرَائِـمِ أَهْـلِ الْـكِـتَـابِ سَـلْـبُ حُـقُـوقِ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ احْتِقَارُهُمْ لَهُمْ

ووصفُ هؤلاءِ المسلمين بالأمّيِّين مخالفٌ لوصف اللّه تعالى العربَ بالأمّيِّينَ؛ فإنَّه واردٌ في مقام الامتنانِ عليهم؛ حيث نَقَلَهم من هذا الوصفِ إلى وصفٍ آخرَ بإرسالِ الرَّسول ﷺ إليهم.

الْقِيمَةُ الدِّلَالِيَّةُ لِكَلِمَةِ ﴿سَبِيلٌ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾:

السَّبيلُ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾ طريقُ المؤاخذة، ثمَّ أُطلق السَّبيل في كلام العرب مجازًا مشهورًا على المؤاخذة، كما في قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ﴾ [التوبة: 91] وقوله سبحانه: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ﴾ [التوبة: 93]، وربّما عَبَّر عنه العربُ بالطَّريق، قال حميد بن ثور:

إِعْـجَـابُ أَهْـلِ الْـكِـتَـابِ بِـأَنْـفُـسِـهِـمْ وَازْدِرَاؤُهُـمْ لِغَيْرِهِمْ

وَهَلْ أَنَا إِنْ عَلَّلْتُ نَفْسِي بِسَرْحَةٍ***مِنَ السَّرْحِ مَوْجُودٌ عَلَيَّ طَرِيقُ

فائدةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾:

في هذه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ ردٌّ على أهل الكتاب بأنَّ ما قالوه مِن أنَّه ليس عليهم في الأمِّيين سبيل كلامٌ لَا أصلَ له في شرعِهم، فهو ليس دينًا، وإذا كانوا قد قالوه على اللّه تعالى فقد كذَبوا عليه سبحانه.

الافْتِرَاءُ عَلَى اللهِ تَعَالَى مِنْ دَأْبِ الْيَهُودِ

وقد ذَكر اللّه سبحانه وتعالى ذلك في قضية عامَّة تدلُّ على أنَّ

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1281، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/288.

مِن شأنهم أن يقولوا الكذب على اللّه ﷻ، وهم يعلمون أنَّه كذبٌ؛ فقد كذَبوا فادَّعوا أنَّهم أبناءُ اللّه وأحبّاؤه، وكذَبوا فادَّعوا أنَّ إبراهيم كان يهوديًّا، وكذَبوا فادَّعوا أنَّه لا نبيَّ إلَّا من بني إسرائيل، فكان الكذب على اللّه تعالى شأنًا من شؤونِهم؛ ولذلك عُبِّر بالفعل المضارِع، أي: أنَّ شأنهم أن يقولوا الكذبَ على اللّه، قالوه في الماضي، ويقولونه في الحاضر، وسيقولونه في المستقبل(1).

وفي الآية تضمينٌ، فقد ضُمِّن الفعل ﴿وَيَقُولُونَ﴾ معنى: يفتَرُون، وتعلّقَ به الجارُّ والمجرور ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾(2).

بلاغةُ التّقديم في قوله ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾:

الِافْتِرَاءُ وَالْكَذِبُ مِنَ الْعَالِمِ أَشَدُّ إِثْمًا وَجُرْمًا مِن افْتِرَاءِ الْجَاهِلِ

قُدِّم المسندُ إليه ﴿وَهُمۡ﴾ على الفعل؛ بقصد التَّوكيدِ، لأنَّ في تأخير المسندِ الفعليِّ تكرارًا للإسناد؛ وذلك بإسناد الفعل ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ إلى الضَّمير ﴿وَهُمۡ﴾ الرَّاجع إليهم، وإسنادُ فعل العلم إلى واو الجماعة، وتكرَارُ النِّسبة من طرائق توكيد الكلام عند العرب.

وجيءَ بالمسندِ بصيغة الفعل المضارع؛ لإفادةِ التَّجدُّدِ الاستمراريِّ.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأداء، والإيتاء، والإعطاء:

الأداءُ: دَفْعُ الحقّ دفعةً وتوفيتُه، كأداء الخَرَاج والجِزية وأَداءِ الأَمَانة، قال اللّه تعالى: ﴿فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ [البقرة: 283]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النّساء: 58]، وأصلُ ذلك من الأَدَاةِ(3)، وأَدَّى دَيْنَه تأْدِيَةً، أي قضاه. والاسم الأَداءُ. وهو آدى للأمانة منك، بمدّ الألف. وتأَدَّى إليه الخبر، أي انتهى. ويقال: اسْتأداهُ مالاً، إذا صادره واستخرجه منه. والإداوة: المَطْهَرَةُ، والجمع الأَداوَى،

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1282.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/195.

(3) الراغب، المفردات: (أدى).

مثل المطايا[1]، وأمّا الإيتاءُ: فهو أقوى من الإعْطَاء؛ إذْ لَا مُطَاوع لَهُ، يُقَال: آتاني فَأَخَذته، وَفي الإعْطَاء يُقَال: أَعْطَاني فعَطَوتُ؛ وَمَا لَهُ مُطَاوع أَضْعَف في إِثْبَات مَفْعُوله مِمَّا لَا مُطَاوع لَهُ؛ وَلأَنَّ الإيتاءَ في أَكثر مَوَاضع القُرْآن فِيمَا لَهُ ثباتٌ وقَرَارٌ؛ كالحكمةِ والسَّبع المثاني، وَالمُلْك الَّذي لَا يُؤْتى إِلَّا لذي قُوَّة.

والإعطاءُ: فِيمَا ينتَقل مِنهُ بعد قَضَاء الحَاجة مِنهُ، كإعطاء كلّ شَيْءٍ خلقه، لتكرّر حُدُوث ذَلك بِاعْتِبَار الموجودات، وَإِعْطَاء الكَوْثَر للانتقال مِنهُ إِلَى مَا هُوَ أعظم مِنهُ، وَكَذَا ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ۝٥﴾ [الضّحى: 5]، للتكرّر إِلَى أَن يرضى كلَّ الرِّضَا[2].

الصِّراط، والطَّرِيق، والسَّبيل:

السَّبِيلُ: هُوَ أغلبُ وقوعًا في الخَير، وَلَا يكَادُ اسمُ الطَّريق يَرِدُ إِلَّا مقترنًا بِوَصفٍ أَو إِضَافَة تخلّصه لذَلك، والسَّبيل وَالطَّريق يُذكَّران ويُؤنَّثان، والصِّراطُ كَذَلك، إِلَّا أَنَّ الطَّرِيقَ هُو كلُّ مَا يطرقُهُ طَارقٌ، مُعْتَادًا كَانَ أَو غير مُعْتَادٍ، والسَّبيل من الطُّرق مَا هُوَ مُعْتَاد السّلوك، والصِّراطُ من السَّبيل مَا لَا التواءَ فِيهِ وَلَا اعوجاجَ، بل يكونُ على سَبيل القَصْد، فَهُوَ أخصُّ مِنْهَا. والسَّبيل أيضًا: الحُجَّة؛ قال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا۝١٤١﴾ [النّساء: 141][3]

(1) الجوهريّ، الصّحاح: 6/2266.

(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.

(3) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 298، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 512 - 513.

﴿بَلَىٰ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧٦﴾ [آل عمران: 76]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين التّأكيد على الوفاء، وإخلال بعض بني إسرائيل بالأمانة

تجسيدًا لمضمون الآية السّابقة، الّتي صنّفت النّاس إلى قسمين: مُؤدٍّ للأمانة ومماطلٍ فيها، وتفنيدًا لادّعاء اليهود أنْ لا سبيل لهم في الأميّين، جاءت هذه الآيةُ دالَّةً على تعظيمِ أَمرِ الوفاء بالعَهد، والدّعوة للحفاظ عليه والالتزام بأدائه، وذلك لأنَّ الطَّاعاتِ محصورةً في أمرين: التَّعظيم لأمر اللّه، والشَّفقة على خلق اللّه، فالوفاءُ بالعَهد مُشتملٌ عليهما معًا؛ لأنَّ ذلك سَببٌ لمنفعة الخلق، فهو شفقةٌ على خَلْق اللّه، ولمّا أمرَ اللّه به، كان الوفاءُ به تعظيمًا لأمر اللّه، فثبتَ أنَّ العِبارةَ مُشتملةٌ على جميع أنواع الطَّاعات، والوفاء بالعَهد كما يمكن في حقِّ الغير، يُمكن أيضًا في حقِّ النَّفس؛ لأنَّ الوافي بعهد النَّفس، هو الآتي بالطَّاعات والتَّاركُ للمُحرَّمات؛ لأنَّه عند ذلك تفوزُ النَّفسُ بالثَّواب، وتبعدُ عن العِقاب[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوۡفَىٰ﴾: وَفَى الرّجل يَفِي وفاءً، وأوفى يُوفي إيفاءً، لغتان فصيحتان. قال الشّاعر:

وَفَاءً مَا مَعيَّة مِنْ أَبيهِ***لِمَنْ أَوْفَى بِعَهْدٍ أَوْ بِعَقْدِ[2]

ووَفَى: كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى إِكمَالٍ وَإِتمَام. مِنهُ الوَفَاءُ: إِتمَامُ العَهْدِ وَإِكمَالُ الشَّرطِ. وَوَفَى: أَوْفَى، فَهُوَ وَفيٌّ. وَيَقُولُونَ: أَوفَيْتُكَ الشَّيءَ، إِذَا قَضيتَهُ إِيَّاهُ وَافِيًا. وَتَوَفَّيْتُ الشَّيءَ وَاسْتَوفيتُهُ: إِذَا أَخذتَهُ كُلَّهُ حَتَّى لَم تَترُكْ مِنهُ شَيئًا. وَمِنهُ يُقَالُ لِلمَيِّت: تَوَفَّاهُ اللّه[3]. و﴿أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ﴾ أي: التزمَ بالوفاءِ بعهدِهِ، ويكون ذلك فِيمَا بَينه وَبَين اللّه استقامةً وحُسْنَ طويّةٍ، وما بَينه

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/265.
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: 1/244.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وفى).

وَبَين النَّاس معاملةً وسيرةً سويّةٍ، كما يلتزم التّقوى المنصوص عليها مع الوفاء المذكور؛ بالنّأي عَن نقض الْعَهْد بالخيانة، وَالصّدق في أدائه للْأَمَانَة.

2) ﴿بِعَهۡدِهِۦ﴾: العَهدُ: الوَصِيَّةُ والتَّقَدُّمُ إلى صاحبكَ بشيءٍ، ومنه اشْتُقَّ العَهدُ الّذي يُكتب لِلوُلاةِ، ويُجمَعُ على عُهودٍ. وقد عَهِدَ إليه يَعهَدُ عَهدًا والعَهدُ: المَوثِق وجمعُه عُهُود. و﴿أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ﴾، أي: لم يَخُنْ[1]، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠﴾ [الرّعد: 20]، وفي العربيّة؛ الوأيُ: هو الوعد الّذي يوثقه الرّجل على نفسه، والعهد الّذي يقطعه، ويعزم على الوفاء به، وأنشد أبو عبيد:

وَمَا خُنْتُ ذا عَهْدٍ وَأَيْتُ بِعَهْدِهِ***وَلَمْ أَحْرِمِ الْمُضْطَرَّ، إِذْ جَاءَ قَانِعَا[2]

3) ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾: اتَّقى كانَ في الأصلِ اوْتقى، والتَّاءُ فِيها تاءُ الافتعالِ، فأُدْغِمت الواوُ في التَّاءِ وشُدِّدَتْ فقيلَ: اتّقى، ثمَّ حَذَفُواْ أَلِفَ الوَصل وَالوَاو الَّتِي انْقَلَبَتْ تَاء، فقيلَ: تَقى يَتْقي بمعنَى اسْتَقْبل الشّيءَ وتَوَقّاهُ، وَإِذا قَالُواْ: اتَّقَى يَتَّقي، فالمَعنَى أنَّه صارَ تَقِيًّا، ويقالُ في الأَوَّل تَقى يَتْقي ويَتْقَى، وقولهُ ﷻ: ﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ٥٦﴾ [المدّثر: 56]؛ أَي: هُوَ أهلُ أَن يُتَّقى عِقابُه، وأهلٌ أَن يُعمَلَ بِمَا يُؤَدِّي إِلَى مَغفِرَتِه[3].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لا يـنـال رضا الله ومحبّته إلّا المُوفون بالعهد من المتّقين

إنَّ الَّذي يَنالُ مَحبَّةَ اللّه ورضَاه سبحانه وتعالى، لا بدَّ أن يتحقَّقَ فيه وصفَان: أوّلهما: الوفاءُ بالعَهدِ، فكلُّ ما يلتزمُه مِنْ عُهود، سواء أَكانَ موضُوعها أمرًا ماديًّا كأداء الأمانات، أم كان الموضوعُ أمرًا معنويًّا كالقيام بحقٍّ من الحقوق الوفاءُ به يستوجبُ رضا اللّه سبحانه، وكلُّ غَدرٍ يكون فيه إبعادٌ عن رِضوان اللّه سبحانه ومحبَّته، ويدخلُ في العهودِ ما أودعه اللّه سبحانه، قَلبَ كُلِّ إنسانٍ مِنْ إدراكٍ للحقِّ، وفهم له وإدراكٍ لمعنى الدَّليل، فإذا لم يُذعن له ويعلنه لَا يكون مُوفيًا للعَهد، الوصفُ الثَّاني المستوجبُ لرضا اللّه ومحبَّته:

---

(1) عبد الله بن عبّاس، تنوير المقباس، ص: 50.

(2) ابن منظور، لسان العرب: 15/377.

(3) الجوهري، الصّحاح: (وقى)، والزَّبيدي، تاج العروس: (وقي).

هو التَّقوى، بأن يَشعُرَ بحقّ الغيرِ عليه، ويؤمنَ به، ويجعلَ بينه وبين الاعتداء أيًّا كان نوعُه وقايةً(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ ﴿بَلَىٰٓ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلَىٰ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ﴾:

تَعْمِيمُ الْجَوَابِ تَوْفِيرٌ لِلْمَعْنَى وَقَصْدٌ فِي اللَّفْظِ

﴿بَلَىٰٓ﴾ حَرفُ جَوابٍ، وهو مختصٌّ بإبطال النَّفي، فهو هنا لإبطال قولهم: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾، وهو غير مختصٍّ بجواب الاستفهام المنفي، بل يُجاب بِهِ عند قصد الإبطال، وأكثر مواقِعِه في جواب الاستفهام المنفي، وَجِيء في الجواب بحكم عامٍّ ليشمل المقصودَ وغيره؛ توفيرًا للمعنى، وقصدًا في اللَّفظ(2).

أَثَرُ الْوَقْفِ وَالِاسْتِئْنَافِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلَىٰ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾:

الْوَفَاءُ بِالْعُهُودِ مِنْ أَسْبَابِ مَحَبَّةِ اللهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ

جاءت ﴿بَلَىٰٓ﴾ في الآية على وجهين:

أحدهما: أنَّه لمُجرَّد نفي ما قبله، وهو قوله: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾، فقال اللّه تعالى رادًّا عليهم: بلى عليهم سبيلٌ في ذلك، وهذا اختيار الزَّجاج، قال: وعندي وقفُ التَّمام على ﴿بَلَىٰٓ﴾، وبعده استئنافٌ.

والآخَر: أنَّ ﴿بَلَىٰٓ﴾ كلمةٌ تُذْكَرُ ابتداءً لكلامٍ آخر يُذْكَرُ بعده؛ وذلك لأنَّ قولهم: ليس علينا فيما نفعلُ جناحٌ، قائمٌ مقامَ قولهم: نَحنُ أحبَّاء اللّه تعالى، فَذَكَرَ اللّه تعالى أنَّ أهلَ الوفاء بالعَهد والتُّقى همُ الَّذين يُحبُّهم اللّه تعالى لا غيرهم، وعلى هذا الوجه؛ فإنَّه لا يَحْسُنُ الوقف على ﴿بَلَىٰٓ﴾(3).

دِلَالَةُ اللَّفِّ والنَّشْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلَىٰ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾:

قول اللّه تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾ يحتملُ أن يكون من

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1284.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/289.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 5/369، والرازي، مفاتيح الغيب: 8/264 - 265.

اللَّفِّ والنَّشر غير المرتَّبِ، فقوله: ﴿بَلَىٰٓ﴾ راجعٌ لـ ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾، و﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ﴾ راجعٌ لقولهم ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾[1]، وفي مخالفة النَّشر لترتيب اللَّفِّ من شدِّ الذِّهْنِ ولَفْتِ انتباههِ ما يستلزِمُ معه إعمال الفِكْرِ والتَّأمُّلِ.

مِنْ طَرَائِقِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي شَدِّ انْتِبَاهِ الْمُتَلَقِّي إِخْرَاجُ الْكَلَامِ عَلَى خِلَافِ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ

دِلَالَةُ (الْبَاءِ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِعَهْدِهِۦ﴾:

الْبَاءُ في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِعَهْدِهِۦ﴾ للملاصقةِ، وأفادت هذه الدِّلالةُ التَّذكيرَ بالعهدِ المقطوعِ عليه في التَّوراة الَّذي لاصقَهُ فلا انفكاكَ منه، فأصبحَ لازمًا له، تَتَرتَّب عليه آثارُه ويُحاسَبُ عليه، فإذا عَلِمَ المُخاطَب ذلك؛ عادَ إلى رُشده وعَهدِه ودخلَ الإسلامَ[2].

التَّذْكِيرُ بِالْعَهْدِ مَظِنَّةُ الرُّجُوعِ إِلَيْهِ

سِرُّ اخْتِيَارِ لَفْظِ (الْعَهْدِ) دُونَ غَيْرِهِ:

إنَّ العَهدَ أخفُّ في الالتزام مِن العَقْدِ والميثاق، فكان ذلك من باب التَّخفيف عليهم، والتَّحبيب لهم، لعلَّهم يَستجيبُونَ لِلْوَفاء بعهد اللّٰه تعالى، فاللّٰه تعالى يُريدُ أن يُيسِّرَ عليهم الوفاءَ بالالتزام، لكنَّهم أَبَوا.

تَيْسِيرُ اللهِ تَعَالَى سُبُلَ التَّوْبَةِ لِعِبَادِهِ

وفيه أيضًا إشارةٌ إلى مُخاطبة نفوسهم بما يُحبُّون، فالتَّوراةُ عند اليهود تُسَمَّى: عَهْدًا، ولمَّا أُضيف الإنجيلُ إلى التَّوراة سُمِّي عهدًا قديمًا وجديدًا، وفي هذا إعجاز للقُرآن الكريم؛ لإخبارِه بغَيبٍ لم يَطَّلع عليه إلَّا عُلماؤُهم.

تَعْيِينُ مَرْجِعِ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِعَهْدِهِۦ﴾:

قوله تعالى: ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ مُقرِّرةٌ للجُملة الَّتي سدّت ﴿بَلَىٰٓ﴾ مَسدَّها، والضَّميرُ في ﴿بِعَهْدِهِۦ﴾ عائدٌ على ﴿مَنْ﴾، ويحتمِلُ عودُهُ على اللّٰه تعالى.

أَعْظَمُ عَهْدٍ أُخِذَ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ هُوَ الْإِيمَانُ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ

ويدخلُ في الوفاء بالعَهد العَهدُ الأعظم؛ ممَّا أُخِذَ عليهم في

(1) تفسير ابن عرفة: 1/374.
(2) الجهني، أثر دلالات حروف المعاني الجارة في التفسير، ص: 152.

كتابهم مِن الإيمان برسول اللّه ﷺ، سواء أُضيف العَهدُ إلى ﴿مَنۡ﴾، أو إلى ﴿ٱللَّهِ﴾ في الآية السابقة، والشَّرائط للجُملة الخبريَّة أو الجزائيَّة بـ﴿مَنۡ﴾ هو العموم الَّذي في ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ ، أو ما قبله؛ أي: فَرْدٌ مِنْ أَفْرَادِهِ.

ويحتملُ أن يكون الخبر محذوفًا؛ لدِلالة المعنى عليه، والتَّقدير: يُحِبُّهُ اللّه[1].

الْحَثُّ عَلَى تَقْوَى اللهِ تَعَالَى وَالِالْتِزَامِ بِحُدُودِهِ

فَائِدَةُ قَوْلِهِ: ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ﴾:

في إيراد قوله سبحانه: ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ﴾ ثلاثة أوجهٍ[2]:

أوَّلُها: أنْ تُجعَلَ التَّقوى لفظًا عامًّا.

ثانيهما: أن تُجعل التَّقوى لفظًا خاصًّا، فيكون من عطفِ الخاصِّ على العامِّ.

ثالثها: أن يكون من عطفِ السَّبب على المسبَّب؛ لأنَّ المرادَ اتِّقاءُ اللّه تعالى بالوفاء بعهدِه.

وعلى الوجه الثَّاني؛ فإنَّ فيه رفعًا لشأن التَّقوى حيث ذُكرت مرَّتين؛ مرَّةً على جهةِ الانفرادِ، وأخرى على سبيل الاندراج في العهدِ، فإنَّ من جملة العهدِ تركَ المناهي وفعلَ الأوامرِ.

مِنْ فَوَائِدِ الْإِظْهَارِ مَوْضِعَ الْإِضْمَارِ التَّنبيهُ، والتَّعليلُ، والتَّعميمُ

دِلَالَةُ وَضْعِ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾:

في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ وجهان:

أحدهما: إمَّا أن يكون من وضعِ الظَّاهر موضع المُضمر، والمعنى: فإنّ اللّه يحبُّهم.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/225، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/24، والطِّيبي، فتوح الغيب: 4/149.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/374. الرَّاغب، تفسير الراغب: 2/658.

والآخر: أن يكون المرادُ جنسَ المتَّقين، فيتناول التَّقيَّ الَّذي لم تُوضع تحتَ يدِه أمانة[1].

وفي الإظهارِ موضعَ الإضمارِ على الوجهِ الأوَّلِ فوائد:

أوَّلها: تَنْبِيهُ المُخاطب؛ ووجهُ ذلك أنَّ الكلام إذا كان على نسقٍ واحدٍ لم يكن فيه ما يستدعي الانتباه؛ فإذا تَغيَّر الأسلوبُ وجاء الاسمُ مُظهرًا موضع الإضمارِ؛ فإنَّ المتلقِّي يكمُلُ انتبَاهُهُ.

ثانيهَا: أنَّ في الإظهار موضعَ الإضمارِ تعليلًا لِلْحُكْم الذي جاء فيه الإظهارُ؛ فلو جاء النَّظمُ القرآنيُّ: (فإنَّ اللهَ يحبُّهم)؛ لم يكن فيه إظهار العِلّة كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ لأنَّه إذا قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أفاد أنَّ علَّةِ محبَّةِ اللهِ لهم هو تقواهم إيَّاه، فإنَّك إذا قُلتَ: جاءني يزيدُ الظَّريف فأكرمتُه، لم يقتضِ صريحُ اللَّفظ أنَّ إكرامك إيَّاه لظرفه.

وفيهِ إيماءٌ إلى أنَّ الله تعالى لا يحبُّ اليهود بوجهٍ، وبيانه: أنَّ الله يُحبُّ المُتَّقين، والذي لا يوفي بعهده فليس بِمُتَّقٍ، واليهود غيرُ مُوفين؛ فدلَّ على أنَّ الله تعالى لا يُحبُّهم[2].

ثالثها: أنَّهُ يُفيد التَّعميم؛ أي: كلّ من يَعمّه هذا المُظهَر، كقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ٩٨﴾ [البقرة: 98]، ولم يقل: (فإنَّ اللهَ عدُوٌّ لَهُ)؛ لأجل أن يشملَ كلَّ كافرٍ، سواءٌ أكان كُفرُهُ بهذه العداوة أم بغيرها، فيكونُ في هذا تعميمٌ لِلْحُكْمِ[3].

عِلّةُ التَّعْبِيرِ بِالتَّقوى دُونَ غَيْرِهَا:

أَسَـــاسُ التَّقْوَى الْعَمَلُ بِـالْمَـأْمُـورَاتِ وَاجْـتِـنَـابُ الْمَنْهِيَّاتِ

جاء التَّعبير بالتَّقوى في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ لأنَّ التَّقوى أساسُها العَمَلُ بالمأمورات واجتناب المنهيَّات، وما سَبق مِن الآيات يُشيرُ إلى وقُوع اليهود في قبائح دينيَّة، وخيانة ماليَّة من بعضِهم، وهذا يعني الوقوعَ في المنهيَّات؛ ولذا أثنَى على المتَّقين؛ إذِ التَّقوى مانعةٌ من الوقوع في المحظوراتِ بأنواعها كلِّهَا.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/374، والقنوجي، فتح البيان: 2/269.

(2) الراغب، تفسير الراغب: 2/658.

(3) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة آل عمران: 1/429 - 430.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾:

الْحَضُّ عَلَى التَّقْوَى وَشَرَفُ أَهْلِهَا

جِيءَ بلفظ: ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ معرَّفًا باللَّام الجنسيَّة؛ حضًّا على التَّقوى، وتشريفًا لأهلهَا(1)؛ وبين لفظي: ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ و﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ جناسُ الاشتقاقِ(2)؛ ليُضْفِي على السِّياقِ وَقْعًا ورونقًا لطيفًا.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

أَوْفَى ووَفَّى:

تَدُور المادّةُ اللُّغويّة (وَفَى) حولَ الإكمال والتَّمام، وهو إتمامُ العَهدِ وإكمالِ الشَّرْطِ، يقال: أَوفَيْتُكَ الشَّيءَ واستَوفَيتُه إذا أخذته كاملًا حتَّى لم تترك منه شيئًا، ويُقال في التَّأدية والعَطاء: أوفيته حقَّه ووفَّيتُه أجرَه: أعطيتُه إيَّاه وافيًا(3)، إذن لفظ (أوفى) للعهدِ والكَيْلِ والوَزْنِ، و(وَفَّى) للتّأدية والعطاء. فمن استعمالات (أَوْفَى) في العَهدِ قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [البقرة: 40]، وقوله: ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ﴾ [آل عمران: 76]. وفي الكَيل والميزان قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [الأنعام: 152]، ومن استعمالات (وَفَّى) في التَّأدية والعَطاء قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ﴾ [هود: 111]، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ﴾ [آل عمران: 57].

ومن الفُروق أيضًا أنَّ (وَفَّى) بالتَّضعيف أبلغُ من (أَوْفَى)؛ لأنَّ (فَعَّل) يدلُّ على التَّقصِّي والتَّدرّج شيئًا فشيئًا، والَّذي يُفعل مُدرَّجًا يكون أَتقَنَ وأكملَ؛ لذلك نَجدُ القرآنَ في حديثه عن جزاء الصَّابرين، يقول: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝١٠﴾ [الزّمر: 10]، فعبَّر بالتَّضعيف للمُبالغة في الإكرام، وإعطاء الأجر بغير

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/225.
(2) الزُّحيلي، التَّفسير المنير: 3/264.
(3) ينظر في هذه المعاني: ابن فارس، مَقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، والأزهري، تهذيب اللّغة: (وفى).

حِسَاب، وأيضًا مدح سيّدنا إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ٣٧﴾ [النّجم: 37] بكلِّ ما كُلِّف به على وجه الكمال والتَّمام، ومعلومٌ أنَّ التَّكاليفَ لم تكن في آنٍ واحدٍ.

العَقْد والعَهْد والميثاق:

أَصلُ العَقْدِ في اللُّغة، نَقِيضُ الحَلِّ، واستُعير لمعنى توكيد اليَمِين والعَهدِ، فالعَقْدُ أشدُّ العُهُود توكيدًا، أمَّا العَهدُ في اللُّغة: الإقرارُ بالمحافظة على الشّيء، وقالوا تَعَهَّدَ الشَّيءَ وتَعَاهَدَهُ: حافَظ عليه، والميثاقُ في اللُّغة: حَبْلٌ أو قَيْدٌ يُشَدُّ به الأَسِير، ثُمَّ أُطلقَ على العَهد المحكم، من باب شِدَّة الالتزام، وبذلك يكونُ الميثاق أعلاها، ويليه العَقْد، ثمَّ العَهد المُعبَّر عنه بالمُحافظة والالتزام، والقرآن الكريم في استعمالاته لهذه الألفاظ يُؤكِّد هذه الدَّلالات، فقال في العُقُود: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: 1]، والمُراد بها التَّكاليفُ الشَّرعيَّة وغيرها من الالتزامات الماليَّة، ووصَفَ اليمينَ المؤكّدَ بالعَقد، قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ [البقرة: 225]، وأمَّا الميثاقُ فقد ورد ذِكره في عهد اللّه إلى أنبيائِهِ، ولشِدَّة أمر هذا العَهد وقوَّته سمَّاه ميثاقًا، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: 81] الآية، وَوَردَ في المعاهداتِ والمصالحاتِ بين النَّاس، قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ [النِّساء: 90]، وفي المعاشرةِ الزَّوجيّةِ قال تعالى: ﴿وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ﴾ [النّساء: 21] الآية، أمَّا العَهدُ فوردَ في آياتٍ عديدةٍ منها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠﴾ [الرّعد: 20]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤﴾ [الإسراء: 34]، والغرضُ في كلِّ ذلك المحافظةُ والالتزام.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٧﴾ [آل عمران: 77]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـــرّبـــط بـين الوعيد بالعذاب والـغـضـب، وبين ممارسات اليهود المنحرفة

إنَّ في تَعلُّق هذه الآية بما قَبلها وجوهًا، الأوَّل: أنَّه تعالى لما وصَفَ اليهودَ بالخيانة في أموال النَّاس، ومِن المعلوم أنَّ الخيانةَ في أموال النَّاس لا تتماشى إلَّا بالأيمانِ الكاذبة، لا جَرَمَ ذَكَر عقيبَ تلك الآية هذه الآيةَ المشتملةَ على وعيدِ مَنْ يُقْدِم على الأيمان الكاذبة. والثَّاني: أنَّه تعالى لَمَّا حَكَى عنهم أنَّهم: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾، ولا شكَّ أنَّ عهد الله على كُلِّ مُكلَّف ألَّا يكذبَ على الله ولا يخونَ في دينه، لا جرمَ ذَكَرَ هذا الوعيد عقيبَ ذلك. والثَّالث: أنَّه تعالى ذَكَرَ في الآية السَّابقة خيانتَهم في أموال النَّاس، ثُمَّ ذَكَر في هذه الآية خيانتَهُم في عهدِ الله وخيانتَهم في تعظيم أسمائه، حين يحلِفُون بها كَذِبًا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَشۡتَرُونَ﴾: قَوْلُهُم: شَرَيْتُ الشَّيءَ وَاشْتَرَيْتُهُ، إِذَا أَخَذتَهُ مِنْ صَاحِبِهِ بِثَمَنِهِ. وَرُبَّمَا قَالُوا: شَرَيْتُ: إِذَا بِعتَ. قَالَ اللّٰه تَعَالَى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۢ بَخۡسٖ﴾ [يوسف: 20]. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى المُمَاثَلَةِ قَوْلُهُم: (هَذَا شَرْوَى هَذَا)، أَيْ مِثْلُهُ. و(فُلَانٌ شَرْوَى فُلَانٍ)، ومعنى ﴿يَشۡتَرُونَ﴾ في الآية: أي: يستبدِلُون ويأخُذون[2].

(1) ومِنَ العلماءِ مَنْ قال: هذه الآيةُ ابتداءُ كلامٍ مُستقلٍّ بنفسه، في المنع عن الأيمان الكاذبة، وذلك لأنَّ اللَّفظ عامٌّ، والرِّوايات الكثيرة دلَّت على أنَّها إنَّما نزلت في أقوام أقدموا على الأيمان الكاذبة، وإذا كان كذلك وجبَ اعتقادُ كون هذا الوعيد عامًّا، في حقِّ كلِّ مَن يفعل هذا الفِعلَ، وأنَّه غير مخصوصٍ باليهود، ينظر: الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/265.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شرى)، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/51.

2) ﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾: العَهدُ كُلُّ مَا عُوهِدَ اللّه عَلَيه، وكلُّ مَا بَينَ العبادِ مِنَ المواثيقِ، فَهُوَ عَهدٌ. وَكَذَلِكَ كلُّ مَا أَمَرَ اللّه بِهِ فِي هَذِهِ الآيَاتِ ونَهى عَنْهُ[1].

3) ﴿ثَمَنًا﴾: الثَّمَنُ: مَا تَستَحِقُّ بِهِ الشَّيءَ، والثَّمَنُ: ثَمَنُ البيعِ، وثَمَنُ كُلِّ شَيءٍ قِيمَتُه، وَشَيْءٌ ثَمِينٌ، أَي: مرتفعُ الثَّمَن، و﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، أي: شيئًا يسيرًا مِن حُطَامِ الدُّنيا[2].

4) ﴿لَا خَلَٰقَ﴾: الخَلاقُ: النَّصيبُ مِنَ الحَظِّ الصَّالح. وهذا رَجُلٌ ليس له خَلاقٌ، أي: ليسَ له رَغبةٌ في الخير، فَالمَعْنَى لَا نَصِيبَ لَهُم فِي خَيرِ الآخِرَةِ وَنَعِيمِهَا[3].

5) ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾: المَقْصُودُ بَيَانُ شِدَّةِ سُخْطِ اللّهِ عَلَيهِم؛ لأَنَّ مَنْ مَنَعَ غَيْرَهُ كَلَامَهُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّمَا ذَلِكَ بِسُخطِ اللّهِ عَلَيْهِ[4].

6) ﴿يُزَكِّيهِمۡ﴾: يُقَالُ الطَّهَارَةُ زَكَاةُ المَالِ، وسُمِّيَتْ زَكَاةً لِأَنَّهَا طَهَارَةٌ. قَالُوا: وَحُجَّةُ ذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: 103]. وَالأَصْلُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ رَاجِعٌ إِلَى هَذَينِ المَعْنَيَيْنِ، وهُمَا النَّمَاءُ والطَّهارة. ومعنى ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾: لَا يُثْنِي عَلَيهِم أَو لَا يُنَمِّي أَعمَالَهُم، أَوْ لَا يُطَهِّرُهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ[5].

7) ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: أي: شديدُ الألمِ والإيجاعِ، يخلصُ أَلَمُهُ إلى قلوبهم على ما فعلُوه من المعاصي[6].

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

تشديد الوعيد بالعذاب الشّديد، لناكثي العهود

إنَّ اللّه تَوَعّدَ النَّاكثين للعهد، المُخلفين للوعدِ، بالحرمان مِنَ النَّعيم، وبالعذاب الأليم، وبأنَّهم يكونُون في غضبِ اللّه؛ بحيثُ لا تُرجى لهم رحمةٌ، ولا يسمعُون منه - تعالى - كلمةَ عفوٍ ولا مغفرةٍ، ولم يتوعّدِ اللّه تعالى مُرتكبي الكبائر مِن الزُّناة وشاربي الخَمر، ولاعبي المَيسِر، وعاقّي الوالدين، بما توعّدَ به ناكثي العهودِ، وخائني

(1) ابن منظور، لسان العرب: (عهد).
(2) المصدر نفسه: (ثمن).
(3) الخليل، العين: (خلق)، والرازي، مفاتيح الغيب: 8/266.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/267.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زكى)، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/226.
(6) الهرري، حدائق الروح والريحان: 3/106.

الأماناتِ؛ لأنَّ مفاسدَهُما أعظمُ من جميع المفاسدِ الَّتي لأجلها حُرِّمت تلك الجَرائم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِـ: ﴿يَشْتَرُونَ﴾ دُونَ (يَسْتَبْدِلُونَ):

زُهْدُ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي الدِّينِ وَشِدَّةُ تَعَلُّقِهِمْ بِالدُّنْيَا

حقيقةُ الاشتِرَاء: الاستبدالُ، وكُلُّ اشتراءٍ استبدالٌ، وليس كُلُّ استبدالٍ اشتراءً، ووضعُ الاشتراءِ موضعَ الاستبدال ههنا؛ لكونِه أدلَّ على الرَّغبة، وذلك أنَّ المشتريَ الشَّيءَ مُحتاجٌ إليه راغبٌ فيه، فهو أبلغُ مِن لفظ الأَصل مع ما فيه من حُسن التَّصرف في الكلام[2].

ويُضافُ إلى ذلك الإيماءُ إلى حِرصِهم الشَّديدِ على هذا السُّلوك النَّفعي؛ لأنَّ المُشتري عادةً تكون رغبتُه شديدة فيما يَشتري، ويزهدُ فيما يدفعُه، فاستعمال الاشتراءِ دالٌّ على زُهدهم في الدِّين، وحِرصِهم على الحياة الدُّنيا وزخارفِها، وهو يُشيرُ - أيضًا - إلى أنَّهم يجعلونَ القِيم والدِّين سلعةً تُباع وتُشترى.

والتَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَشْتَرُونَ﴾ دالٌّ على تَكرار هذا السُّلوك منهم، إلى حدِّ أنَّه صارَ طَبْعًا لهم.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾:

تَهْدِيدُ مَنْ بَاعَ دِينَهُ بِمَتَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا قَلِيلٍ

ابتدأت الآيةُ بتأكيد الخبر بـ ﴿إِنَّ﴾، واسميَّة الجملة للتَّأكيد على ثبوت ما سيُذكر في الآية؛ وقد عُبِّرَ عن نَقْضِ العَهْدِ مع اللّٰه تعالى (بالشِّراء) على طريق الاستعارة التَّصريحيَّة، واستُعير لفظُ الشِّراء للاستبدال؛ أي: أنَّهم يستبدلون بما عاهدُوا عليه وبما حلَفُوا به من الأيمان متاعَ الدُّنيا، وأُرِيدَ بذلك تحريفُهم للتَّوراة وتبديلُ ما ورد فيها[3].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1284، والهرري، حدائق الروح والريحان: 4/383.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 2/176.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/543.

وَالثَّمَنُ القَلِيلُ: مَتَاعُ الدُّنيَا مِنَ الرّشوة وحبِّ الرِّئاسَةِ وَنَحوِ ذَلك، وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا فِي أَهلِ الكِتَابِ؛ لِمَا احْتَفَّ بِهَا مِنَ الآيَاتِ الَّتِي قَبلَهَا وَالآيَاتِ الَّتِي بعدَها[1].

دِلَالَةُ (الْبَاءِ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾:

حُـرُوفُ الْمَعَانِي لَـهَـا دِلَالَاتٌ خَـاصَّةٌ تُضْفِي مَعَانِيَ مَقْصُودَةً عَلَى الْأَلْفَاظِ

أَلمحَ ابنُ كثير رحمه الله إلى أنَّ هذه (الباء) جاءت بمعنى المقابلة والعِوض، وهي الدَّاخلة على المتروك[2]، وعبَّر عن ذلك بلفظة (الأَثْمَان)[3]، قَالَ الفَرَّاءُ في قَولِهِ ﷻ: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: 41]: "كُلُّ مَا كَانَ في القُرْآنِ مِنْ هَذَا الَّذِي قَدْ نُصِب فِيهِ الثَّمَنُ، وأُدخلت البَاءُ في المَبِيع أو المُشتَرَى؛ فإنَّ ذَلِكَ أكثر مَا يأتي في الشَّيئين لَا يَكُونَانِ ثَمَنًا مَعلُومًا، مِثْلَ الدَّنَانِيرِ وَالدَّرَاهِم، فَمِنْ ذَلِكَ: اشْتَرَيتُ ثَوْبًا بِكِسَاءٍ، أَيُّهما شِئتَ تَجعَلُهُ ثَمَنًا لِصَاحِبِهِ؛ لِأَنَّه لَيسَ مِنَ الأَثمان، وَمَا كَانَ لَيسَ مِنَ الأَثمان مِثْل الرَّقِيق والدُّور وجميعِ العُرُوضِ؛ فَهُوَ عَلَى هَذَا، فَإِذَا جِئتَ إِلَى الدَّرَاهِم وَالدَّنَانِير، وَضَعتَ (البَاءَ) فِي الثَّمَن، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ يُوسُفَ: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنِۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ﴾؛ لأَنَّ الدَّرَاهِمَ ثَمَنٌ أَبدًا، و(البَاءُ) إِنَّمَا تَدخُلُ فِي الأَثمانِ، وكذلك قوله: ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۗ﴾ [آل عمران: 199]، واشْتَرَوُا الحياةَ الدُّنْيا بالآخرَةِ والعَذابَ بالمَغفرَةِ؛ فأَدْخِلِ (الباءَ) فِي أَيِّ هَذَيْن شِئْتَ حَتَّى تَصِيرَ إِلَى الدَّرَاهِم وَالدَّنَانِير؛ فَإِنَّكَ تُدْخِل (البَاءَ) فِيهِنَّ مَعَ العُرُوض، فَإِذَا اشْتَرَيتَ أَحدَ هَذَين - يَعنِي الدَّنانيرَ وَالدَّرَاهِمَ بِصَاحِبِهِ - أَدخلت (البَاءَ) فِي أَيِّهما شِئتَ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنهُمَا فِي هَذَا المَوضِعِ مَبِيعٌ وثَمَنٌ"[4].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/226.
(2) الجمل، الفتوحات الإلهية: 1/442.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/53.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ثمن).

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالْعَهْدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾:

دَعْوَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَى الْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ ﷺ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى العَهدِ المأخوذِ على أنبيائهم وأتباعهم بالإيمانِ بالنَّبيِّ ﷺ، وهو الواردُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: 81] الآية.

وفي التَّعبير بالعَهْدِ دعوةٌ إلى الإيمان بالنَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّ العهدَ يُعبَّرُ به عنِ التَّوراة والإنْجيل، وفيهما البشارةُ بالنَّبيِّ ﷺ.

دِلَالَةُ الْإِضَافَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾:

تَكْثِيرُ الْمَعَانِي الْقُرْآنِيَّةِ فِي الْأَلْفَاظِ الْمُحْتَمَلَةِ

جيءَ بالإِضَافَةُ في قوله: ﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ إمَّا لِلفاعِلِ وَإمَّا لِلمَفعُولِ؛ أَي: بِعَهدِ اللهِ إِيَّاهُ من الإيمان بالرَّسُولِ الَّذي بُعِث مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُم، وَبِأَيمَانِهِمُ الَّتِي حَلَفُوهَا لَنُؤمِنَنَّ بِهِ وَلَنَنصُرَنَّهُ، أَو بما عُوهِدَ عليه الله[1]، وهما معنيانِ متكامِلَانِ لا تعارُضَ بينَهُمَا، وفي حمل اللَّفظ عليهمَا معًا إثراءٌ للنَّصِّ القرآنيِّ.

سِرُّ وَصْفِ الثَّمَنِ بِالْقِلَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾:

ذمُّ اللهِ تَعَالَى مَنْ تَوَصَّلَ إِلَى نَفْعِ عَاجِلٍ بِإِضَاعَةِ عَهْدِهِ

الأَيمَانُ هِيَ الحلِفُ الَّتِي يُؤَكِّدُ بهَا الإِنسَانُ خَبَرَهُ مِنْ وَعدٍ أَو وَعِيدٍ، أَو إِنكَارٍ أَو إِثبَاتٍ[2]، ولا يُرادُ بـ ﴿ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ القِلَّةُ المُعتبرةُ بإضافة بعض الأثمانِ إلى بعض، بل ذلك باعتبارِ منافع الدُّنيا بمنافعِ الآخرة؛ فذمَّ الله تعالى مَن توصَّل إلى نَفْعِ عاجلٍ بإضاعةِ عهدِ الله.

ولكون الوفاءِ سببًا لعامَّة الصَّلاح[3]، ولِأَنَّ كُلَّ ثَمَنٍ لَهَا لَا يَكُونُ إِلَّا قَلِيلًا؛ فَصَارَ نَفيُ الثَّمَنِ القَلِيلِ نَفيًا لِكُلِّ ثَمَنٍ[4].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/226.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/266.
(3) الراغب، تفسير الراغب: 2/659.
(4) الزركشي، البرهان: 3/397.

فَائِدَةُ تَعْرِيفِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ﴾:

انْحِطَاطُ مَنْزِلَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي الشَّرِّ وَالْفَسَادِ

تعريفُ المسنَدِ إليهِ باسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ فيه إشعارٌ ببُعدِ أَهلِ الكتاب وانحطاطِ مَنزلتهم في الشَّر والفَسَاد والخُسران[1]، وهمُ الَّذين اشترَوا بعهدِ اللّه تعالى وأيمانهم ثمنًا قليلًا[2].

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِنَفْيِ الْخَلَاقِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ﴾:

النَّاسُ فِي الْآخِرَةِ فَرِيقَانِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ

قول اللّه تعالى: ﴿لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ معناه: لَا نَصِيبَ لَهُم مِنَ الخَيرِ، فقد نَفى نَصِيب الخَيرِ عَنهُم[3].

وجاء التَّعبيرُ القُرآنيُّ بنفي الخَلاقِ عنهم للدّلالةِ على أنّ تعاطيَ هذا الفِعل جُرمٌ كبيرٌ ليس لفاعله حظٌّ من الخير في الآخرة، وإذا انتَفَى حظُّه من الخَير ثبتَ له الشَّرُّ والعِقابُ؛ لأنَّ النَّاسَ في الآخرةِ فريقانِ: فريقٌ في الجنَّة وفريقٌ في السَّعير، فإذا انتفى الخيرُ والجزاءُ الحسنُ لهم؛ ثبتَ لهم بالضَّرورةِ الشرُّ وعذاب النَّار.

تَعَدُّدُ الْكِنَايَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾:

عِظَمُ جَزَاءِ مَنِ اشْتَرَى بِعَهْدِ اللهِ تَعَالَى ثَمَنًا قَلِيلًا

في هذه الآية ذكرُ أربعةِ أنواعٍ من الجزاءِ تنالُ الذين اشتَرَوا بعهدِ اللّه وأيمانِهم ثمنًا قليلًا:

أوَّلها: أنَّ اللّه لَا يُكلّمُهُم، وهو كنايةٌ عن سخطِ اللّه تعالى عليهم وعدم محبَّته لهم؛ لأنَّ المُحبَّ مُقبِلٌ على حَبيبه مُتحدِّثًا إليه، ومَن فَقَدَ مَحبَّةَ اللّه فَقَد فَقَدَ مَعنى الوجودِ - كما يفيده حذفُ المتعلّق من التَّعميم -، أو أنَّ المعنَى: لا يُكلّمهم اللّه بما يسرُّهم[4]، وجاز أن يكونَ

(1) الدبل، دليل البلاغة القرآنية: 1/481.

(2) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة آل عمران: 1/440.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 3/226.

(4) القنوجي، فتح البيان: 2/270.

إسماعُ اللّه ﷻ أولياءَهُ كلامَهُ بغير سفير، خصوصيَّةً يَخُصُّ بها أولياءَه، فهو لا يُكلِّم هؤلاء أَصْلًا، وتكونُ محاسبتُهُم بكلامِ الملائكة(1).

وثانيها: أنَّه لَا يَنظرُ إليهم يوم القِيامةِ ولا يرعاهم؛ لأنَّهم إذا فَقَدُوا النَّظرَ إليهم منه سبحانه؛ فَقَدُوا كلاءَتَه وحِمايتَه، فعدمُ النَّظرِ إليهم كنايةٌ عن عدم حمايته لهم من العِقابِ، وأنَّه لا يُنْزِلُ بهم نعيمًا(2).

وثالثُها: أنَّه لَا يُزكِّيهم، وذلك كنايةٌ عن عدم رضَاه سبحانه؛ لأنَّ مَن يرضَى عن شَخصٍ يُزكِّيه ويُطريه ويُثني عليه.

ورابِعُهَا: وهو نتيجةُ ما سبقَ من بُغْضِ اللّه تعالى لهم وسَخَطِهِ عليهم، ومَنعِ حمايته؛ هو أنَّ لهم عذابًا مُؤلمًا(3).

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾:

كُلَّمَا زَادَ الْجُرْمُ؛ قَـوِيَـتْ مَـعَـهُ الْمُؤَاخَذَةُ

قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ [البقرة: 174]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾.

فقد زادَ في آل عمران: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ بخلاف البقرة، وفي ذلك ثلاثُ نكاتٍ:

أولاها: أنَّ آيةَ البقرة في الَّذين يكتِمُون ما أنزلَ اللّهُ ويشترُون بكتمانِهم هذا ثمنًا قليلًا، وأمَّا آيةُ آل عمران؛ فليست في هذا الصِّنْفِ، بل في الَّذين يشتَرُون بعهدِ اللّه وأَيْمَانِهم ثَمنًا قليلًا، وهو

---

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 5/373.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 4/152.

(3) الزمخشري، الكشاف: 1/376، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1285، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/290.

ذنبٌ أكبرُ وأعظمُ من مُجرَّد الكتمان؛ إذ هُم لم يكتُمُوا الحقَّ فحسب؛ بل غيَّروه وأقسَمُوا على ذلك، واشتَرَوا به ثمنًا قَليلًا؛ فتجاوَزُوا الكتمان إلى تقويةِ الباطلِ، فلمَّا زادوا في الذَّنبِ؛ زادَهم اللّه عُقوبةً، فقال: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ﴾.

وثانيهَا: أنَّ السِّياق في آل عمران في الوفاءِ بعهد اللّه، فقد قال قبل هذه الآية: ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، وليس الأمرُ كذلك في البقرة، فَقَدۡ سَبق هذه الآيةَ الكلامُ على المَيتةِ والدّمَ ونحوها، قال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: 173].

فلمَّا كان المقامُ في آل عمران هو الكلامَ على عهدِ اللّه تعالى؛ ناسبَ ذلك تشديدَ العُقوبةِ على مُضَيّعيهِ أكثر ممَّا في البقرة؛ لأنَّ السِّياق يقتضيه، فما أَجَلَّ هذا الكلامَ وأعظمَه![1].

وثالثُهَا: أنَّ في سورةِ البقرةِ نَفْيَ الكلام يومَ القيامة؛ لأنَّ الكلام فيها عنِ الكِتمان، وهو عدم إظهار كلام اللّه تعالى المُنَزَّل في التَّوراة، فناسبَه حرمانُ اللّهِ تعالى لهم مِن الكلام يومَ القيامة؛ أمَّا آية سورة آل عمران؛ فهي في الوفاءِ بالعهد، وأبرزُ ما في المتعاهِدين أن ينظرَ كلٌّ منهما إلى الآخر نظرةَ احترام وتقدير، فلمَّا خالفُوا ذلك ولم يحترِمُوا العَهدَ؛ طلبًا للحصولِ على مكانةٍ دنيويَّةٍ بالاستعلاءِ على الآخرين؛ ناسبَهُ الاستهانةُ بهم، والسّخطُ عليهم بعدم نَظَر اللّه لَهم يوم القِيامة جزاءً وفاقًا.

دِلَالَةُ مَجِيءِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ اسْمًا مَوْصُولًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾:

مَــن شـابَـهَ المُـخَـالِـفـينَ فِي صِفَاتِهِمْ؛ فَهُوَ لَاحِـقٌ بِـهِـمْ فِي جَزَائِهِمْ

ورد الوعيدُ السَّابقُ المتضمِّنُ أنواعًا من الوعيدِ عَقِبَ مجيءِ المسند إليه اسمًا موصولًا: إيذانًا بأنَّ مَن شابَهَهُم في هذه الصِّفات فهو لاحِقٌ بهم، حتَّى ظنَّ بعضُ السَّلف أنَّ هذه الآية نزلت فيمن حَلَفَ يمينًا باطلةً[2]، ففي تعريف المسند إليه بالموصوليَّةِ إيماءٌ إلى علَّةِ بناءِ الخبرِ.

(1) الإسكافي، درة التنزيل، ص: 325، والسامرائي، فاضل، التعبير القرآني، ص: 123 - 124.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/290.

فَائِدَةُ إِيرَادِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾:

لَا ثَنَاءَ وَلَا طَهَارَةَ لِمَنْ يَشْتَرِي بِعَهْدِ اللهِ تَعَالَى ثَمَنًا قَلِيلًا

وَرَدَ قولُه: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ بعد قوله ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ للإشعار بأنَّ هؤلاء المشترين بعهدِ اللّه وأيمانهم ثمنًا قليلًا لا يزكّيهم اللّه في الدُّنيا، بل يُظهرُ عُوارَهم ويفضَحُهم فيها حتّى يعرفَهُم العبادُ، ويعرفوا سقوطَ عدالتهم وزوالَ زَكَائِهم، وكذا لا يزكّيهم اللّه يومَ القيامة، فلا يقبلُ منهم صرفًا ولا عدلًا[1].

ويُضافُ إلى ذلك أنَّ مادةَ (التَّزكية) تَدُورُ حول الطَّهارةِ والثَّناءِ، فلا ذِكرَ لهم على جهةِ الثَّناءِ، ولا تزكيةَ لهم بتطهيرِهم مِن الذُّنوب، بسبب ما قدَّمتْ أيديهم، ولبئس ما قدَّمت من خِيانةٍ في الدِّين، وخِيانةٍ في المالِ عندَ بعضِهم.

دِلَالَةُ خَتْمِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

تَأْكِيدُ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

الجملة في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ، ووردت اسميَّةً تأكيدًا لمضمونِ الخبرِ، وفيها تقديمٌ لمتعلّق الخبر؛ لإرادة القصرِ، أي: أنَّ المذكورينَ مخصوصونَ بالعذابِ الأليم، وهو قصرٌ غيرُ حقيقيٍّ؛ وإنَّما خرج مخرج التَّهويل والتَّعظيم لعذاب هؤلاءِ، حيث إنَّ عذاب غيرهم بالنِّسبة لهم كَلَا عذابٍ، وفيه دِلالةٌ على أنَّ عذابَهم مُستحَقٌّ لهم بِسبب ما ارتكبُوه من جرائمَ وقبائحَ.

وجاء وصف العذاب بصيغة (فَعِيل) بمعنى: مُفْعِل، أي: مُؤلم؛ للدَّلالة على المبالغة في الصِّفة[2]، وورَدَ نكرةً؛ لتَذْهَبَ النَّفسُ فيه كلَّ مَذهبٍ؛ فلا يَعلَمُ قَدرَ شدَّته وفظاعَتِه إلَّا اللّه تعالى.

(1) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة آل عمران: 1/446.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/460، والدبل، دليل البلاغة القرآنية: 1/481.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

شَرَى واشْتَرَى:

النَّاظر في كتب اللُّغة لمادّة (شَرَى)، يجد أنَّها تدُّل على المُماثلة أخذًا وعطاءً، ويصدقُ ذلك على البَيع والشِّراءِ، فقد استُعمِل كلٌّ منهما مكانَ الآخر، لكنَّ أسلوبَ القرآن الكريم ميَّزَ بين دلالةِ الفعلين، فجعل الفِعلَ (شَرَى) في معنى باع الشَّيءَ وأخذَ الثَّمن ماديًّا ومعنويًّا؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف: 20] الآية، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: 207] الآية، أمَّا الفِعل (اشْتَرَى) فجاء بمعنى الشِّراء، ومنه قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: 16]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ [يوسف: 21].

إذن كلُّ فِعل مِن الفِعلين له دلالةٌ تُميِّزه عن الآخر.

الشِّراء والبَيع:

البَيْعُ: ضدّ الشِّرَاء، والبَيْع: الشِّرَاء أَيْضا، وَقد بَاعه الشَّيْء وَبَاعه مِنْهُ بيعا فيهمَا، قَالَ الشّاعر:

إِذَا الثُّرَيَّا طَلَعَتْ عِشاء *** فَبِعْ لِرَاعِي غَنَم كِسَاءَ[1]

قيل: إنَّ كلَّ شِراءٍ بيعٌ، وليس كُلّ بيعٍ شِراءً؛ وذلك يختلفُ بالاعتقاد في الثَّمن والـمُثَمِّن، ولهذا قيل: بعتُ واشتريتُ من الأضداد، فعلى هذا كأنَّه جَعَلَ الثَّمن مُصوَّرًا بصورة البيع؛ فلهذا قيل ذلك، وقد دلَّ على ذلك في موضع آخر: ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۗ﴾ [آل عمران: 199][2].

العِوَض والثَّمن:

إنَّ الثَّمنَ يُستعَملُ فِي مَا كَانَ عينًا أَو ورقًا، والعِوضُ يكون من ذَلِك وَمن غَيره، الْعِوَض مَا تُعُقِّبَ بِهِ الشَّيْء على جِهَة المثامنة؛ وَتقول: هَذَا الدِّرْهَم عوض من خاتمك، وَهَذَا الدِّينَار عوض من ثَوْبك، وَلِهَذَا يُسمى مَا يُعْطي اللهُ الأَطْفَال على إيلامه إيَّاهُم إعواضا[3]، تَقول: أَعْطَيت ثمن السّلْعَة عينًا أَو ورقًا، وَأَعْطيت عوضهَا من ذَلِك أَو من العِوَض، وَإِذا قيل الثَّمنُ من غير العَين وَالورق، فَهُوَ التَّشْبِيه[4].

---

(1) ابن سيده، المحكم: 2/262.

(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 5/482.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 237.

(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 238.

القَسَم والحَلِف واليَمِين:

النَّاظرُ في كتبِ اللُّغةِ لا يجدُ فرقًا بينها؛ بل يعُدُّون ذلك من قَبيل المترادفِ، مع أنَّه لا ترادفَ بينهما؛ فالمادَّة اللُّغويَّة للقَسَم تدلُّ على إفراز النَّصيبِ، وهذا يتأتَّى من دلالة القَسَم، حيثُ ينقسمُ النَّاس إلى مُصَدِّق ومُكَذِّب، بخلاف الحَلَف فهو من الحِلف والتَّحالف.والنَّاظر في آياتِ القرآن الكريم، يجدُ استعمالاتِ القَسَم تأتي للأَيْمَانِ الصَّادقةِ، بخلافِ الحَلِف فيأتي مع الأَيْمَان الكاذبةِ؛ يُؤكِّد ذلك ورودُ لفظ القَسَم في جانب المولى - سبحانه وتعالى - مثل قوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١﴾ [القيامة: 1]، وقوله: ﴿۞فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾ [الواقعة: 75]، إلى غير ذلك من الآياتِ، بخلافِ الحَلف فإنَّه يَرِدُ في جانبِ المنافقين، قال تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ [التّوبة: 74]، وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٨﴾ [المجادلة: 18] إلى غير ذلك من الآياتِ.وممَّا يُؤكِّد أنَّ القَسَم هو اليمينُ الصَّادقُ، ما وردَ في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ [المائدة: 89]، فوصفَ اليمينَ إذا كان غيرَ صادقٍ ولم يتحقَّق بالحَلفِ، وجعل له هذه الكفَّارات.

الكَلَام والتَّكليم:

إنَّ التَّكليمَ تَعلِيقُ الكَلَام بالمخاطَب، فَهُوَ أخصُّ من الكَلَام؛ وَذَلِك أَنَّه لَيسَ كُلُّ كَلَام خَطَابًا للغير، فَإِذا جعلت الكَلَام في مَوضِع المصدر، فَلَا فرق بَينه وَبَين التَّكليم؛ وَذَلِك أَنَّ قَولك: كَلّمتُهُ كلَامًا، وكلَّمتُه تكليمًا سَوَاء، وَأمَّا قَوْلنَا: فلَانٌ يُخَاطب نَفسَه ويُكلِّم نَفسَه، فمجازٌ وتشبيهٌ بِمن يكلّمها سَوَاء، وَأمَّا قَولنَا: فلَانٌ يُخَاطبُ نَفسَه ويُكلِّم نَفسَه، فمجازٌ وتشبيهٌ بِمن يُكلِّم غَيره؛ وَلِهَذَا قُلنَا: إِنَّ القَدِيم لَو كَانَ مُتَكلِّما فِي مَا لم يزل، لَكَانَ ذَلِك صفة نقصٍ؛ لِأَنَّهُ كَانَ تَكَلَّمَ وَلَا مُكلَّم، وَكَانَ كَلَامه أَيْضا يكونُ إخبارًا عَمَّا لم يُوجد فَيكون كذبًا(1).

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 35.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ٧٨﴾ [آل عمران: 78]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين تبشيع المتاجرة بالكتاب المنزل، وليّ الألسنة بتحريفه

تناولت الآيةُ السَّابقة مُتاجَرة جماعةٍ من علماء اليهود، بما عندهم مِنَ العلم، وبيعه بثمنٍ قليل، وتَحذير اللّه لهم مِن عواقب ذلك الفِعل؛ لإبراز صورة العقاب الشَّديد على هذا السُّلوك، وجاءت هذه الآية لتُبيِّن سلوك فريقٍ آخر من علماء اليهود في تلاوتهم لكتابهم (التَّوراة)، وَوَصْفهم في القُرآن، بأنَّهم يلوون ألسنتهم بهذا الكتاب، فيتْلُونه تلاوةً تلوكه أَلسنَتهم، وتلتوي بها شِفاههم، فلا تخرج الكلمات إلَّا مُتآكلة مُتكسِّرة، يختلِطُ بعضها ببعضٍ، فلا يُدرى مَدلولها، ولا يُهتدى إلى وجه الحقِّ فيها، وينسبون ذلك زُورًا وكذبًا إلى اللّه تعالى، وهم يعلمون أنَّهم يكذبون[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَفَرِيقًا﴾: الفِرْقُ والفِرْقَةُ والفَرِيقُ: الطَّائِفَةُ مِنَ الشَّيءِ المُتَفَرِّق. والفِرقةُ: طائِفَةٌ مِنَ النَّاس، والفَريقُ أكثر منه[2]. وقال الرَّاغب: الفَريقُ: الجَماعة المُتفرّقة عَن آخرين[3]، وفي تاج العروس عن حواشي عبد الحكيم: " أنّ الفريق يجيءُ بمعنى الطّائفة، وبمعنى الرّجل الواحد، وفي اللّسان: الفرقة، والفرق، والفريق: الطّائفة من الشّيء المتفرّق. وقال ابن برّي: الفريق من النّاس وغيرهم: فرقة منه، والفريق: المُفارق، قال جرير:

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 2/504.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (فرق).
(3) الرّاغب، المفردات: (فرق).

أَتَجْمَعُ قَوْلًا بِالْعِرَاقِ فَرِيقُهُ *** وَمِنْهُ بِأَطْلَالِ الْأَرَاكِ فَرِيقُ[1]

والمُراد بالفريق في الآية بعض علماء اليهود الَّذين كانواْ حول المدينة.

2) ﴿يَلْوُنَ﴾: يُقال: لَوَى رَأسَهُ وعُنُقَهُ ولَواهُما - مُخَفَّفًا ومُشَدَّدًا - وقد قُرِئ بهما. وأصلُ اللَّيّ الفتل، والمعنى: يُقلِّبونَ ألسنتهم بالتّحريف والزِّيادة[2]، و"اللّيُّ هُنَا: المَيل عَن صَحِيح وجوهه، إِلَى سوء تَأْويله، مَأْخُوذ من اللّيّ فِي الشَّهَادَة وَهُوَ المَيل؛ قَالَه ابْن قُتَيْبَة"[3]، وفي كليّات الكفويّ: "﴿يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾: يفتلونها أي: يصرفونها عند القراءة، عن المنزل إلى المحرّف"[4].

3) ﴿أَلْسِنَتَهُم﴾: اللِّسانُ مَعروفٌ، وهو مُذَكَّرٌ والجَمعُ ألسُنٌ، فإذا كَثُرَ فهي الألسِنَةُ. ويُقالُ لَسَنتُهُ، إذا أخَذتَهُ بلسانِكَ، والمَلسُونُ: الكَذَّابُ. وهذا مُشتَقٌّ مِنَ اللِّسان؛ لأنَّهُ إذا عُرِفَ بذلك لُسِنَ، أي: تَكَلَّمَت فيه الألسِنَةُ[5]، واللِّسانُ: اللُّغةُ، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ [مريم: 97]، وقال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ١٩٥﴾ [الشّعراء: 195]، وقال تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الرّوم: 22]، والمُراد اختلاف اللُّغات واختلاف النَّغمات، فكلُّ إنسانٍ له نَغمةٌ مخصُوصة يُميِّزها السَّمع[6].

4) ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: الحِسبانُ: مِنَ الظَّنِّ، حَسِبَ يَحْسِبُ ويَحْسَبُ حِسبانًا[7]، وقال الفرّاء: حسبت الشّيء: ظننتُهُ أَحسَبُهُ وأَحسِبُه، والكسر أجودُ اللّغتين[8]، ومعنى ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: لتظنُّوا أنّه مِنَ التَّوراة، فالكتاب هنا غير الأوَّل، وأراد أنَّهم يغيِّرون التَّوراة إذا أظهرواْ لكم الاحتجاجَ بالتَّوراة، وإذا احتججتُم عليهم بالشَّيء مِن نعتِ محمَّدٍ مُضافًا إلى التَّوراة، وهذا تزويرٌ منهم، فلا تَقبَلوا ذلك منهم[9].

5) ﴿ٱلْكَذِبَ﴾: الكَذِبُ مَعروفٌ، وهو الكِذَابُ، خِلافِ الصِّدقِ. وتَلخِيصُهُ أنّهُ لا يَبلُغُ

(1) الزَّبيديّ: تاج العروس: (فرق).
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 107، وهذه قراءة شاذَّة.
(3) عيّاض، مشارق الأنوار: 1/366.
(4) الكفويّ، الكليّات، ص: 988.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لسن).
(6) الرّاغب، المفردات: (لسن).
(7) ابن عبّاد، المحيط: (حسب).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حسب).
(9) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 4/121.

نِهايةَ الكلام في الصِّدق. وكَذَّبتُ فُلانًا: نَسَبتُهُ إلى الكَذِب، وأكذَبتُه: وَجَدتُهُ كاذبًا[1]، "ويقول الرّجل للرّجل: (لَا مَكْذَبَة)، أي لا أكذبك، وقرئ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾[2] [الأنعام: 33]، أي لا يقولون إنّك كذّاب، و﴿يُكْذِبُونَكَ﴾[3] [الأنعام: 33] أي لا يصادفُونك كاذبًا[4]، ومن أمثالهم: (المَعَاذِرُ مَكَاذِبُ)، أي لا بدّ أن تختلط بالكذب، ولا تنفكُّ عنه[5].

6) ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: العِلمُ: إدراكُ الشَّيءِ بحَقيقَتِه، أي: هُم يُدرِكونَ أنَّهم يقولون الكذب على اللّه تعالى[6]، قال صاحب جامع البيان: "يعني بذلك: أنّهم يتعمّدون قِيلَ الكذبِ على اللّه، والشّهادةَ عليه بالباطل، والإلحاقَ بكتاب اللّه ما ليس منه، طلبًا للرّياسة، والخسيسِ من حُطام الدّنيا"[7].

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

لَيُّ الألسنة بالكتاب المحرّف، لا يبرّر كذبَ أهل الكتاب على الله

إنَّ مِنَ اليهود لَطائفةٌ يَحْرفونَ ألسِنَتَهُم بذِكر ما ليس من التَّوراة المُنَزَّلة من عند اللّه، لتَظنُّوا أنَّهم يقرؤون التَّوراة، وما هو مِنَ التَّوراة، بل هو من كذِبهم وافترائهم على اللّه، ويقولون: ما نَقرَؤُه مُنَزَّلٌ من عند اللّه، وليس هو من عند اللّه، ويقولون على اللّه الكَذِبَ وهم يعلمون كَذِبهم على اللّه ورسله[8].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ عَطْفِ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى مَا قَبْلَهَا:

مَوْقِفُ اليهودِ مِنَ الإسلام واحدٌ وَإِنِ اخْتَلَفَتْ طُرُقُهُمْ

عُطِفَ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾ على ما قبلَه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾؛ لما بينهما من التَّوسُّط بين الكمالَيْن؛ إذِ الجملتان خبريَّتانِ، وبينهما تناسبٌ لفظيٌّ وآخرُ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كذب).

(2) وهي قراءة العشرة عدا نافعا والكسائيّ، ابن الجزري، النشر: 2/258.

(3) وهي قراءة نافع والكسائيّ، ابن الجزري، النشر: 2/257.

(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: 1/305.

(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 2/187.

(6) الرّاغب، المفردات: (علم).

(7) ابن جرير، جامع البيان: 6/536.

(8) جماعة من علماء التّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 60.

معنويٌّ، فالتَّناسبُ اللَّفْظِيُّ اشتراكهما في الاسميَّةِ، والمعنويُّ اتِّفاقُهما في المُتَحَدَّثِ عنه؛ إذِ الآية السَّابقة في شأن اليهود، وهذه أيضًا في شأنهم، فالمُتَحَدَّثُ عنه واحدٌ؛ وهم جماعةُ اليهود وإن تعدَّدت طُرقهم.

دِلَالَةُ التَّوْكِيدِ وَالتَّخْصِيصِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقًا﴾:

شَنَاعَةُ تَحْرِيفِ كُتُبِ اللهِ تَعَالَى

أُكِّدَ قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقًا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ بِعَدَدٍ مِنَ التَّأكيدات؛ وهي: ﴿وَإِنَّ﴾، واسميَّةُ الجُملة، واللَّامُ المزحلقة، وتقديم ما حقّه التَّأخير، وأُكِّد بهذه الألوان من المؤكِّدَاتِ؛ لِشناعةَ صنيعِهم وبشاعَتِهِ، حتَّى إنَّ النُّفوسَ تستبعدُ وقوعَهُ.

والضَّمير في ﴿مِنۡهُمۡ﴾ يَعودُ على أهل الكِتاب؛ لأنَّ سياقَ الآيات واحدٌ، فأفاد الضَّمير هنا التَّأكيد على وحدة القصَّة والسِّياق[1].

ولـمَّا نَسب اللّهُ تعالى هؤلاء القَوم إلى الكذب عُمومًا؛ نَبَّه على نوعٍ خاصّ منه هو أكذب الكَذب، فقال: ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقًا﴾، أي: جُبِلُوا على الفُرقَةِ، فهم لا يزالون يَسعَونَ في التَّفريق[2]، وهذا مِن عَدلِ اللّه في كتابه الكريم في حُكمِه على الطَّوائف، فلا يُعمِّم الحكم عليها، ولكن يَخُصُّ بالذِّكر الَّذين ارتكبوا ابتداءً كِبرَ الشَّرّ، ولهذا نَسَب التَّحريفَ ابتداءً إلى طائفةٍ منهم، وإنْ كان الضَّلالُ شاملًا[3].

دِلَالَةُ (مِنْ) فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنۡهُمۡ لَفَرِيقًا﴾:

إِنْصَافُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِأَهْلِ الْكِتَابِ

(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقًا﴾ تُفيد التَّبعيضَ، ففيه إشعارٌ بأنَّ هذا الصَّنيعَ المَذموم مخصوصٌ ببعض اليهود لا كلِّهم، وهذا من إنصافِ القرآن الكريم مع خصومِهِ.

---

(1) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم: 1/447.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 4/464.

(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1286.

دلَالَةُ لَفْظ (الفريق) بَعْدَ ذِكْرِ (مِن) التَّبْعِيضِيَّةِ دونَ (الطَّائفة):

لَمَّا كانت (من) دالَّةً على التَّبعيضِ، وكانَ ذلك مُحتَمِلًا لأن يكون ليُّ الألسنةِ في تحريف الكتاب واقعًا من أكثرهم أو من أقلِّهم؛ لِصدْقِ التَّبعيضِ على الوَجْهَيْن؛ جاءَ التَّعبير بذكر الفريق دون الطَّائفةِ؛ للإشعارِ بأنَّ اللَّيّ واقعٌ من أكثرهم، لا مِنْ قلَّةٍ مِنهم، وذلك لأنَّ كلمة (الفريق) دالَّةٌ على عددٍ أكثر مما تدلُّ عليه (الطَّائفة)، يُؤكِّد ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ﴾ [التّوبة: 122]؛ فالطَّائفةُ جزءٌ مِنَ الفريق.

الـلَّيّ بالألسنة سِـمَـةُ أكـثر اليهود

وفي اختيار لفظ (الفريق) إيماءٌ إلى المعنَى الذي دلَّ عليه أصلُ الاشتقاقِ من التَّفريق، وهذا مَسلك من مسالكهم المذمُومة في تفريق كلمة المسلمين، واللَّامُ الدَّاخلةُ على لفظ ﴿لَفَرِيقٗا﴾ من قوله: ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا﴾ تُؤكِّد قَصدَ فِعْلِهم.

سِرُّ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ ﴿مِنۡهُمۡ﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا﴾ تَشْنيعًا عليهم، وإبرازًا لسُلوكهم في التَّعامل مع التَّوراة بعدم تقديسها، بل يَلْوُون ألسنتهم بها، وهذا لا يتأتَّى إلَّا من عُلمائهم، فَهُم الَّذين يقدرون على هذا اللَّون مِنَ التَّحريف الأدائيّ.

شِـدَّةُ انْـحِـرَافِ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْمُضْمَرِ ﴿مِنۡهُمۡ﴾ دُونَ (مِنَ الْيَهُودِ):

عُبِّر بالـمُضمَر في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا﴾ دُون الاسم الظَّاهرِ؛ إذلالًا لهم، وتهوينًا من شأنهم، وإظهارًا لعدم الاكتراث بهم، فهم ليسوا أهلًا للذِّكْرِ، وهذا شأنُ المفترينَ، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ١٥٢﴾ [الأعراف: 152].

ذِلَّـةُ الْمُحَـرِّفِينَ كُـتُـبَ الـلـهِ الْمُفْتَرِينَ الْكَذِبَ عَلَيهِ

دِلَالَاتُ صُورَةِ الْفِعْلِ ﴿يَلۡوُۥنَ﴾ فِي الرَّسْمِ:

كُتِبَ هذا الفعل بواوٍ واحدة في رسم المصحف، وأُلحقت الواو

سُلُوكُ الْيَهُودِ طُرُقًا مُتَنَوِّعَةً لِلْوُصُولِ إِلَى تَحْرِيفِ كِتَابِهِمْ

الثَّانية في ضبطِهِ واوًا صغيرة، والأَصل أن تُكتب بواوين (يَلْوُون)، وقد وجَّه عُلماء الرَّسم حَذْفَ الواو بأوجهٍ؛ مِنْهَا: أنَّ ذلك للاكتفاء بإحداهما عن الأخرى، أو لقصد التَّخفيفِ، أو لكراهة اجتماع صورتين مُتَّفقتين في الشَّكل.

ويمكن أن يُضاف إلى ذلك أنَّ الحذفَ يُشير إلى معنًى في سُلوكهم هذا؛ هو محاولة إسقاط بعض المُبشِّرات بنبُوَّته ﷺ؛ لأنَّ الحذف معناه في اللُّغة: الإسقاط، وهذا هدفهم، وفي الحذفِ أيضًا إشارةٌ إلى السُّرعة؛ فهم يسرعون في نُطق الكلام لئلَّا يُفهمَ المُرادُ منه، وبذلك يَتِمُّ لهم ما يرُومُونَهُ من التَّلبيسِ على مَن يسمعهم.

فَائِدَةُ التَّعْبِيرِ بِالفِعْلِ المُضَارِعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَلْوُۥنَ﴾ و﴿يَقُولُونَ﴾:

جَرَاءَةُ الْيَهُودِ فِي تَحَرِّيهِمُ الْكَذِبَ وَافْتِرَائِهِمْ عَلَى اللهِ تَعَالَى

التَّعبير بالفعل المضارع في هذين الفعلين ﴿يَلْوُۥنَ﴾ و﴿يَقُولُونَ﴾ مُشعرٌ بتجدُّدِ لَيِّهم وتحريفِهم كلَّما سنحت لهم الفُرصة، وتجدُّدِ افترائهم الكذبَ على الله تعالى، وأنَّ ذلك دَأْبُهم وعادتُهُم(1).

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿يَلْوُۥنَ﴾ دُونَ مُرَادِفَاتِهَا:

التَّحْرِيفُ وَالتَّبْدِيلُ أَمَارَةُ ضَعْفِ حُجَّةِ أَعْدَاءِ الإِسْلَامِ

اللَّيّ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ يحتمل أن يكون حقيقةً؛ بمعنى: تَحريف اللِّسان عن طريق حَرفٍ من حروف الهجاء إلى طريق حَرفٍ آخرَ يُقاربه؛ لتعطي الكلمة في أُذُن السَّامع صوتَ كلمةٍ أخرى، وذلك مَذمومٌ، فعبَّر الله تعالى عَن قِراءَتِهم ذلكَ الكتابَ الباطلَ بلَيِّ اللِّسان ذَمًّا لهم وعَيبًا، وهو كناية عَنِ الخلط والتَّبديل الَّذي هو لازمُ اللَّبس والاشتباه(2)، ولم يُعَبِّر عنها بالتَّحريف؛ لأنَّه يكون بتبديل المعاني من جهة اشتباه الألفاظ واشتراكهما، وتشعّب التَّأويلات فيها، بخلاف التَّبديل المَحض؛ فليس بلَيٍّ، يُؤكِّد ذلك ما نقله الرَّازيّ عن القَفَّال في معنى اللَّيّ أنَّهم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/465، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/292.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 4/153.

يَعْمِدُونَ إلى اللَّفظة فيحرِّفونها في حركات الإعراب تحريفًا يتغيَّر به المعنى، وهذا ما فعله اليهود في الآيات الدَّالّة على نُبوَّة سيِّدنا محمَّد ﷺ في التَّوراة[1].

وممَّا يُؤكِّد ذلك أنَّ المادَّة اللُّغويّة للفِعل ﴿يَلۡوُۥنَ﴾ في كلِّ إطلاقاتها تدُلُّ على سُلوكٍ سيّئٍ، فهي بمعنى عَطفِ الشَّيء وردِّه عن الاستقامة إلى الاعوجاج، ومنه قولهم: ٱلۡتَوَى فلانٌ عليَّ؛ إذا غيّر أخلاقه عن الاستواء إلى ضِدِّه، ولوى لسانَه عن كذا: إذا غيَّره، وهذه المعاني تصدُقُ على فعل اليهود؛ لأنَّهم يقصدون معنًى رئيسًا؛ هو عدم الإقرار بنُبوَّة نبيِّنا ﷺ، فاستعملوا كلَّ الأساليب المادِّيّة والمعنويَّة من أجل ذلك، وهذا ما يحمله البناء اللُّغويّ للفِعل ﴿يَلۡوُۥنَ﴾.

ويحتمل أن يكون اللَّيّ هنا مَجازًا عن صَرف المعنى إلى معنى آخر، كقولهم: لَوَى الحُجَّةَ، أي: ألْقى بها على غير وجهها، وهو تحريفُ الكَلِم عن مواضعه، بالتَّأويلات الباطلة، والأقيسة الفَاسدة، والموضُوعات الكاذبة، وينسبون ذلك إلى اللّه تعالى.

نُكْتَةُ نِسْبَةِ اللَّيِّ إِلَى الْأَلْسِنَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم﴾:

حِرْصُ الْيَهُودِ عَلَى إِخْفَاءِ مُرَادِهِمْ مِنَ الْكَلَامِ جُبْنًا مِنْهُمْ وَخَوَرًا

أفادَتْ نسبةُ اللَّيِّ إلى الألْسِنةِ معنًى مُهمًّا؛ هو تخصيص نوع اللَّيّ بأنَّه كلاميٌّ في اللَّفظ أو المعنى؛ لأنَّ اللَّيّ يُستعمل أيضًا في ليِّ العُنق، ومعناه: الاستكبار، وهو سُلوك آخر لليهود، لكنَّ السِّياق هنا في أمر الكلام لفظًا ومعنًى، بدليل قوله: ﴿بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهو التَّوراة، وجاء ذلك بيِّنًا في سورة النِّساء في حديث القرآن عَنِ اليهود في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ﴾ [النّساء: 46]، وهذا واضحٌ في تكسير الكلام عند أدائه حتَّى يَحْمِلَ أكثر من معنًى، وهذا ظاهرٌ في: ﴿وَرَٰعِنَا﴾؛ إذ يَحْتَمِلُ أن يكونَ مِن الرُّعونة، أو مِن رَعي الغَنم يقصدون: راعينا، وأيضًا قولهم في السَّلام على رسول اللّه ﷺ: (السَّامُ عليك) بإسقاط اللَّام بدلًا من (السَّلام عليك)، والمعنى الَّذي يريدونه: الموت؛ قبَّحهم اللّه في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

---

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/268.

عِلَّةُ التَّعْبِيرِ عَنِ التَّوْرَاةِ بِالْكِتَابِ:

انْكِشَافُ أَمْرِ الْيَهُودِ فِي تَحْرِيفِهِمْ كِتَابَهُمْ

عُبِّر عَنِ التَّوراة بالكتاب في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾ إشارةً إلى أنَّ هذا العملَ منهم مفضوحٌ؛ لأنَّ التَّوراة مكتوبةٌ، ولها أصلٌ سماويّ لا يجوز التَّحريف فيها بأيِّ صورة مِن صور التَّحريف، ويمكن أن يكون الـمُراد المكتوب، واللّيُّ فيه أصعب؛ لتعدُّد نُسَخه.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾:

لَا يَلْتَبِسُ كَلَامُ اللهِ تَعَالَى بِكَلَامِ غَيْرِهِ إِلَّا عَلَى ضَعِيفِ الْعَقْلِ نَاقِصِ الْفِطْرَةِ

اللَّام في قوله: ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾ للتَّعليل، أي: أنَّهم يَفعلون هذا ليُوهِموا النَّاس أنَّه من عند اللّه تعالى[1]، ولَمَّا كان كلامُ اللّه سبحانه وتعالى له مِنَ الحلاوة والجلالة بحيث لا يلتبس بغيره إلَّا على ضعيفِ العقل ناقصِ الفِطرة؛ عَبَّر بالحسْبَان؛ تَنفيرًا عن السَّماع منهم، وتَنبيهًا على بُعد ما يَسمَعه الإنسان من غيره، فقال: ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾، أي: الَّذي لَوى به اللِّسان فحَرَّف مِنَ الكتاب المُنَزَّل من عند اللّه تعالى[2].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالحسْبَانِ دُونَ الظَّنِّ:

حِرْصُ الْيَهُودِ عَلَى تَعْمِيَةِ أَمْرِهِمْ وَإِخْفَاءِ جَرَائِمِهِمْ

عادةً ما يُفسَّر الحسبان بالظَّنِّ، إلَّا أنَّنا إذا نظرنا إلى الأصل اللُّغويّ؛ نجد أنّ مادّة (حَسِبَ) لها معنًى يختلف عن مادّة (ظَنَّ)، فأصلُ الحساب استعمال العَدَد، قال تعالى: ﴿لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: 5]، والحسبانُ: أن يُحكَمَ لأحد النَّقيضين من غير أن يخطُر الآخر بباله فيحسبُه ويَعقِدُ عليه الأُصبُع، ويكون بغرض أن يعتريه فيه شكٌّ، وأمَّا الظَّنّ فهو اسم لما يحصُل عن أمَارة، متى قويَت أدَّت إلى العِلم، ومتى ضَعُفَت جدًّا لم تتجاوز حدَّ الوهم[3]،

(1) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم: 1/449.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/465.

(3) الراغب، المفردات: (حسب)، (ظن).

وقال الزَّركشيُّ: أصلُ الظَّنِّ للاعتقاد الرَّاجح، وقد يأتي بمعنى اليقين؛ لأنَّ الظَّنَّ فيه طَرَفٌ مِنَ اليقين[1].

فالدّلالة اللُّغوية لكُلٍّ منهما تفترق عن الأُخرى، وإن كان بينهما قُربٌ في المعنى؛ ولذلك نجد أنَّ استعمال ﴿لِتَحۡسَبُوهُ﴾ هنا دون (لتظنُّوه) له دلالة في توظيف ما يريده اليهود من لَيِّ ألسنتهم في التَّوراة أمام المسلمين؛ فلا يَردُ بخاطرهم أنَّه كَذِبٌ وتَضليلٌ، ويصدّقونهم في قولهم، بخلاف الظَّنّ فيُعطي قدرًا من الشَّكِّ في أقوالهم، وهم لا يريدون ذلك.

وممَّا يُؤكِّد محاولتَهُمُ التَّعمية على المسلمين: أنَّ اللّه تعالى هو الَّذي تولَّى نفيَ ادِّعاءاتهم بقوله: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

دِلَالَةُ تَكْرَارِ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فِي الْآيَةِ:

تَعَدُّدُ مَقَاصِدِ التَّكْرَارِ بِحَسَبِ مَقَامَاتِ الْكَلَامِ

تكرَّرَت كلمةُ الكِتاب في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ ثلاثَ مرَّات بدلالاتٍ مُختلفة؛ إذ ليس التّكرار بمقصور على التَّعظيم، بل مقامه كُلّ مقام يُراد منه تسجيل انتساب الفعل إلى صاحب الاسم المُكَرَّر[2]. فالكتابُ الأوَّلُ: ما كتبوه بأيديهم، وهو المذكور في قوله: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ [البقرة: 79]، والكتابُ الثَّاني: التَّوراةُ، والثّالثُ: جنس كُتُب اللّهِ تعالى، أي: ما هو من شيءٍ من كُتب اللّه تعالى وكلامه[3].

وفي تكرار لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أسلوبُ التَّرديدِ؛ وهو تَكرار اللَّفظِ متعلِّقًا بِغَيْرِ ما تعلَّق به أوَّلًا.

عِلَّةُ تَكْرَارِ الِاسْمِ الْأَحْسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾:

تَكْرَارُ الْأَلْفَاظِ مُشْعِرٌ بِأَهَمِّيَّتِهَا وَعَظَمَتِهَا

تَكرارُ الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾ يُرادُ به الاهتمام والتَّعظيمُ، وذلك يَجُرُّ إلى الاهتمامِ بالخبرِ المُتعلِّق به[4].

(1) الزّركشّي، البرهان: 4/156.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/120.
(3) الراغب، المفردات: (كتب)، والسُّيوطيّ، الإتقان: 3/228.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/292.

سِرُّ تَكْرَارِ النَّفْيِ فِي قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

تَنَوُّعُ طُرُقِ الرَّدِّ عَلَى المُبْطِلِينَ

في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ردٌّ عليهم في إخبارهم بالكَذب، وتأكيدٌ للنَّفْيِ الوارِدِ في قوله: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ حيث نَفَى أوَّلًا نفيًا أخصّ؛ وذلك أنَّ التَّعليلَ كان للأخصّ، ونَفَى هنا نَفيًا أعمَّ؛ إذِ الدَّعوى منهم كانت أعَمَّ؛ لأنَّ كَونَه مِن عند الله تعالى أعمُّ مِن أن تكونَ في التَّوراة أو غيرها[1].

نُكْتَةُ الإِظْهَارِ فِي مَوْضِعِ الإِضْمَارِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ ﴿وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾:

عِـظَـمُ جُـرْمِ اليَهُودِ فِي الكَذِبِ عَلَى اللهِ تَعَالَى

في قول الله تعالى: ﴿لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ إظهارٌ في مقام الإضمار؛ فقد أُظْهِرَ لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾، وكذا الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾ في محلِّ إضمارهما؛ إذ قال: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، وكان مقتضى الظَّاهرِ: (وما هو منه)، وقال سبحانه: ﴿وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وكان مقتضى الظَّاهر: (وما هو من عِندِه)، وقال ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾، ومقتضى الظَّاهر: (ويقولون عليه)؛ وذلك لقصد تهويل ما أَقدَموا عليه وبيانِ جراءتِهِمْ بالافتراءِ على الله تعالى والقول عليه بلا علم[2].

فَائِدَةُ التَّعْبِيرِ بِـ: ﴿مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

مَسَالِكُ اليَهُودِ فِي الافْـتِرَاءِ وَالكَذِبِ مُتَعَدِّدَةٌ

تظهر فائدة التَّعبير بـ ﴿مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ بعد قوله: ﴿مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في بيان مَسالكهم وطرقهم في صناعة الافتراء والكذب، فقد جاء القول الأوَّل تعريضًا، والآخر تَصريحًا منهم بالكذب، أي: يَكذِبونَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/52، والقسم العلمي بمؤسّسة الدّرر السَّنيَّة، التّفسير المُحرَّر: 2/318.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/288.

تَعريضًا وتصريحًا، أو تلاوةً وتأويلًا؛ وفي هذا دِلالة على أنَّ إيهام الكَذب قبيحٌ كالتَّصريح[1].

الْفَرْقُ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾:

كَذِبُ الْيَهُودِ عَلَى اللهِ تَعَالَى كَذِبًا خَاصًّا وعَامًّا

ذكر الرَّازيُّ أنَّ مِنَ النَّاس مَن ذهب إلى أنَّه لا فَرقَ بين الجملتين، وإنَّما كُرِّرَ هذا الكلام بلفظَين مُختلفَين لقصدِ التَّأكيد، أمَّا المُحقِّقون فقد قالوا: إنَّ المُغايرةَ حاصلةٌ؛ وذلك لأنَّه ليس كُلّ ما لم يكن في الكتاب؛ لم يكن مِن عند اللّه تعالى، فإنَّ الحُكم الشَّرعيّ قد ثَبَتَ تارَةً بالكتاب، وتارَةً بالسُّنَّة، وتارَةً بالإجماع، وتارَةً بالقياس والكُلُّ من عند اللّه[2]، وكذا في شريعة أهل الكتابِ قد يثبتُ عندهم من الشَّرْعِ ما لم يُذكَر في كتابهم وإنَّما بلَّغهم به أنبياؤُهُمْ عن اللّه تعالى، فيكون اليهود المذكورونَ في الآيةِ قد افترَوُا الكذبَ على اللّه تعالى افتراءً خاصًّا بتحريفِ كتابهم، وكذبًا عامًّا في تحريف عموم الشَّرْعِ، فيكون ضربًا من ذكر العامِّ بعد الخاصِّ.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾:

مُبَالَغَةُ الْيَهُودِ فِي التَّحْرِيفِ

دلَّ قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ على أنَّ اليهود لم يكتفوا في مَسْلَكِهِم هذا بالتَّورية والتَّعريض في أنّ المُحَرَّف نازلٌ من عند اللّه تعالى، بل تجرأوا على اللّه فعَبَّروا بطريقة التَّصريح مَع ما ذُكِرَ مِنَ اللَّيِّ والتَّحريف.

والجملة تأكيدٌ للنَّفي الَّذي قبلها، وليس الغَرض التَّأكيد فقط، وإلَّا لما توجَّه العطف، بلْ فيه زيادةُ التَّشنيع أيضًا بأنَّهم لم يكتفوا بذلك التَّعريض حتَّى ارتكبوا هذا التَّصريح؛ لشدَّةِ جراءَتِهم على اللّه تعالى، وبهذا حصلت المغايرة المُقتضية للعَطف[3].

---

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 4/153 - 154.

(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/268.

(3) الآلوسّي، روح المعاني: 2/19، والقنوجيّ، فتح البيان: 2/271.

سِرُّ ذِكْرِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ وَتَعْرِيفِهِ بِالضَّمِيرِ ﴿هُوَ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾:

كَـذِبُ الْـيَـهُـودِ وَإِصْـرَارُهُـمْ عَلَى ذَلِكَ

ذُكِرَ المسندُ إليه في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وعُرِّفَ بالضَّمير ﴿هُوَ﴾ لإفادةِ إصرارهُم على ما يَدَّعُون مع عِلمِهِم بأنّهم يَكذِبونَ ويَفتَرونَ، وذِكرُه في نفي ادِّعائهم تأكيدٌ لِهذا النَّفي، وبيان أنَّه مُنصبٌّ على كلامِهم، لا على أصل الكتاب، قال الزَّمخشريّ في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ تأكيدٌ لقوله: ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وزيادةُ تَشنيعٍ عليهم، وتَسجيل بالكذب، ودليل على أنَّهم لا يعرِّضون، ولا يُوَرُّون، وإنَّما يُصرِّحونَ بأنَّه في التَّوراة هكذا، وقد أنزلَه الله تعالى على موسى عليه السلام كذلك؛ لفرط جراءتهم على الله تعالى، وقَساوة قُلوبِهم، ويَأسهم مِنَ الآخرة"[1].

دِلَالَةُ تَقْدِيمِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ عَلَى الْخَبَرِ الْفِعْلِيِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾:

كَـذِبُ عُـلَـمَـاءِ الْـيَـهُـودِ عَـلَى اللهِ تَـعَـالَى مَعَ عِلْمِهِمْ بِكَذِبِهِمْ

يرى عبد القاهر الجرجانيُّ أنَّ تقديمَ المُحَدَّثِ عنه يفيد تنبيهَهُ، ويقتضي تأكيد الخبر وتحقيقه[2]، وأنّنا إذا تَأمَّلنا وجدنا هذا الضَّرب مِنَ الكلام يَجيء في كُلِّ مَقام يحتاجُ إلى تأكيد الخَبر وتَقويَته، ففي قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ صِيغَ الخبر في الآية كما ترى؛ لأنَّ الَّذي يَكذب لا يَعترف بأنَّه يَكذِب، فَضلًا عن أنْ يَعترِفَ بأنَّه يَعلَم أنَّه كاذب، ومن هنا كان سياقُ العبارة سياقَ إنكارٍ، فاحتيجَ إلى هذا القَدر مِنَ التَّوكيد، والبلاغيُّون يقولونَ: إنَّ هذا الأسلوب يأتي فيما سَبَقَ فيه إنكارٌ مُنكِر، ويَذكرونَ هذه الآية شاهدًا على ذلك[3].

ووجه التَّأكيد في تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي أنَّ فيه تكرارَ النّسبة مرَّتين؛ ففي قوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ إسنادُ العلم إلى

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/377، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1287.

(2) الجرجانّي، دلائل الإعجاز، ص: 123.

(3) السُّبكّي، عروس الأفراح: 1/237، والصَّعيديّ، بغية الإيضاح: 1/114، وأبو موسى، خصائص التّراكيب، ص: 332.

الضَّمير ﴿وَهُمۡ﴾، وإسنادُ العلم إلى واو الجماعة الرَّاجعةِ إلى ما رجع إليه الضَّميرُ، فكان فيه تكرارٌ للنِّسبة، وهذا منشأ التَّوكيدِ، ونُكْتَتُهُ ههنا: أنَّهم لمَّا كانوا يَحْرِفون ألسنتهم بذكرِ ما ليس مِنَ التَّوراة المُنَزَّلة من عند الله، ليظنُّوا أنَّهم يقرؤون التَّوراة، وما هو مِنَ التَّوراة، بل هو من كَذِبِهم وافترائهم على الله؛ اقتضى واقع حالهم سَوقَ الكلام لهم بطريقةٍ فيها تقويةٌ وتأكيد، فجاء في الجملة تقديم المسند إليه على المسند الفعليّ، مع ما في تأخير المُسند من داعٍ جماليٍّ في اللَّفظ، وهو مراعاة التَّناظر في رؤوس الآي.

والفعلُ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ مُتَعَدٍّ، وحُذِفَ مفعولُه اختصارًا؛ لأنَّ ما قَبلَهُ يدُلُّ عليه، أي: وهُم يَعلَمون أنَّهم يَكذِبون.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفريق والطَّائفة:

بين الفريق والطَّائفة فرقٌ من وجهين: أحدهما: أنَّ لفظ (الفريق) دالٌّ على عددٍ أكثر ممّا تدلُّ عليه (الطَّائفة)، كما دلَّ على ذلك قول الله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ﴾ [التّوبة: 122]؛ فالطَّائفةُ جزءٌ مِنَ الفريق. والآخر: أنَّ الطَّائفةَ في الأصل الجَماعة الَّتي من شأنها الطَّوْفُ في البلاد للسَّفر، ويجوز أن يكون أصلها الجَماعة الَّتي تستوي بها حَلقة يُطاف عليها، ثمَّ كثُر ذلك حتَّى سُمِّيت كلُّ جماعةٍ طائفة، والفريق ما يُفارق جمهورها في الحلَبة فيخرج منها، وهم الجماعة المُتفرِّقة عن آخرين، والجماعة تقع على ذلك جميعِه[1].

الزُّور، والكَذب، والبُهتان:

قد تتعدَّد الألفاظ الّتي يُظنُّ فيها التَّرادف للمعنى الواحد، ويظنُّ البعض أنَّها تصلح في أداء المعنى المطلوب؛ فإن جاز ذلك في اللُّغة، فلا يجوز في لُغة القرآن؛ لما فيها من دِقَّة الأداء وإحكام المعنى، ومن هذا النَّوع: الكذب الَّذي هو مُخالفة الخبر للواقع أو الاعتقاد، فقد جاءت له بعض الألفاظ المُترادفة، بحسب رأي مَن يقولون بوقوع التَّرادف، فمنها الزُّور، والبُهتان، والافتراء، والاختلاق، والإفك، وكلّها تشترك في الحقل الدّلاليّ للفظ الكذب؛ إلَّا أنَّه بالبحث والتَّدقيق، تبيَّن أنَّ كلَّ لفظ له ما يميِّزه، فالزُّور أصلُه في

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 278 - 279، والراغب، المفردات: (فرق).

اللُّغة التَّحسين، من قولهم: زَوَّرتُ الشَّيء، أي: حسَّنتُه وسوَّيتُه، ومن معانيه أيضًا: الميلُ والانحراف، قال تعالى: ﴿تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ﴾ [الكهف: 17]، أي: تنحرفُ وتميل، وهذه المعاني تتحقَّق في الكذب المُزَوَّر؛ لأنَّ الكاذب يحرِص فيه على تزيين قوله، وتوفير الأسباب الّتي تُقوِّيه وتُؤكِّده حتَّى يظهر في صورة مُؤثِّرة ينتج عنها الانحراف بالحقِّ عن جهته، والميل به عن الصَّواب، وهذا واضحٌ في استعمالات القرآن الكريم في أمر الظّهار، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ﴾ [المجادلة: 2]، فسمَّى القرآنُ قولهم زورًا؛ لأنَّهم جعلوا حُرمة أزواجهم عليهم كحُرمة أُمَّهاتهم، فهم بذلك مالواْ عن الصَّواب، وانحرفواْ عن الحقِّ، وألبسواْ القَبيح ثوبًا حسنًا زورًا، ومن ذلك أيضًا قوله: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠﴾ [الحجّ: 30]

أمَّا البُهتان فهو كذبٌ فاضحٌ يعمَد صاحبه إلى بهتِ إنسانٍ وفضحِه، وقد جاء لفظُه في القرآن مُرادًا به الكذب الَّذي يمَسُّ الأعراض، ويستهدف فضيحة الأبرياء، فمن ذلك ما فعله المنافقون في حقِّ أمِّ المؤمنين عائشة ﵂، المُبَرَّأة من فوق سبع سماوات، قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ١٦﴾ [النّور: 16]، وممَّا جاء في هذا أيضًا ما قاله اليهود في حقِّ السَّيدة مريم، حيث رموها بالفَاحشة حين خرجت عليهم تحمل وليدها، فذمَّهم القرآن بقوله: ﴿وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ١٥٦﴾ [النّساء: 156]. إذًا كلُّ لفظٍ ممّا سبق، له ما يميِّزه، وإن اشتركواْ جميعًا في معنى الكذب، لكن هناك كذبٌ مُزخرف القول، ينخدع به البعض، وهناك كذب مفضوحٌ يهدف إلى فضح صاحبه، والكذب عنوان للكلِّ، وهذا ما فعله اليهود في دعواهم في ليِّ ألسنتهم في الكتاب، فلم يكتفوا باللَّيّ الَّذي قد ينطوي على البعض بل تجرَّؤواْ وأعلنوا الكذب الصُّراح، ففضحهم الله فيما فعلوه.

ويُؤكد ذلك ما ذكره أبو هلال العسكريّ بقوله: " إنَّ الزُّورَ هو الكَذِب الَّذي قد سُوِّيَ وحُسِّنَ في الظَّاهِر، ليحسب أنَّه صِدقٌ، وهو من قولك: زَوَّرتُ الشَّيءَ إذا سَوَّيته وحَسَّنته، وأمَّا البُهتَان، فهو مُواجهة الإنسان بما لم يُحِبّهُ، وقد بَهته"(1).

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 47.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩﴾ [آل عمران: 79]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربط بين انحراف أباطيل أهل الكتاب، وفساد مزاعمهم في عيسى وألوهيّته

لـمَّا بيَّن في الآية السَّابقة بعض طبائع علماء أهل الكتاب، من التَّحريف وليِّ اللِّسان بالكلام، جاءت هذه الآية بمثال تطبيقيٍّ يُبيّن ما يَفعلُونه من التَّحريف والتَّبديل واللَّيّ، وذلك بزعمهم أنَّ عيسى عليه السلام، كان يَدّعي الأُلوهيَّة، وأنَّه كان يأمر قومه بعبادته، فنفى اللّٰه ذلك عنه[1]، "ما ينبغي لأحدٍ من البشر أن يُنزِّل اللّٰه عليه كتابه ويجعله حكمًا بين خلقه، ويختاره نبيًّا، ثمّ يقول للنّاس: اعبدوني من دون اللّٰه، ولكن يقول: كونواْ حكماء فقهاء علماء؛ بما كنتم تُعَلِّمونه غيركم من وحي اللّٰه تعالى، وبما تدرسونه منه حفظًا وعلمًا وفقهًا"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِبَشَرٍ﴾: البَشَر: الإنسانُ الواحِدُ رَجلًا كان أم امرأةً، هو بَشَرٌ، وهي بَشَرٌ، وهما بَشَرٌ، وهُم بَشَرٌ، لا يُثَنَّى ولا يُجمع، قال الشَّاعر:

(1) يُؤكِّد ما ذُكر في سبب نزول هذه الآية، ما ذكره ابنُ كَثير في تفسيره عن ابن عبَّاس: أنَّ أبا رَافع اليهوديّ والسَّيّد مِن نصارى نجران قالا: يا محمَّد (أتريد أن نَعبدَك)؟ فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «مَعاذَ اللَّهِ أَن يُعبَدَ غَيرُ اللَّهِ أو نَأْمُرَ بِعِبادَةِ غَيرِ اللَّهِ، ما بِذَلِكَ بَعَثَنِي، ولا بِذَلِكَ أَمَرَنِي» فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ، الواحديّ، أسباب نزول القرآن، ص: 223، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/293، وقد وَرَدَ ذلك في أسباب النُّزول للواحديّ، وذكرها ابنُ عاشور في تفسيره، وهذا ما يتناسب مع السِّياق، وقيل: أنَّ الآية نَزَلَت لأنَّ رجلًا قال: يا رسولَ الله نُسَلِّمُ عليكَ كما يُسَلِّمُ بَعضُنا على بَعضٍ أفلا نَسجُد لك؟ قال: «لَا ينبغي أَن يَسجُد لأحدٍ مِن دُون الله، ولكن أَكرِمُوا نَبِيَّكُم واعرفُوا الحقَّ لأَهلِهِ» الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/377 - 378.

(2) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 60.

مُعاوِيَ، إِنَّنا بَشَرٌ فأَسْجِحْ *** فَلَسْنَا بالْجِبَالِ وَلَا الْحَدِيدَا[1]

والبَشَرَةُ ظاهرُ جِلدِ الإنسان، ومِنه باشَرَ الرَّجلُ المرأةَ، وذلك إفضاؤُهُ ببَشَرَته إلى بشرتها. وسُمِّيَ البَشَرُ بَشَرًا لظهورهم[2].

2) ﴿يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ﴾: الإيتاءُ بالمدِّ يُستعملُ في الإعطاء وفي الإتيان بالشَّيء، تقولُ: آتَى يُؤتِي إِيتاءً[3]. وفي الكشَّاف: اشتَهَرَ الإيتاءُ في معنى الإعطاء، وأصلُه الإحضارُ[4].

وذكر الرَّاغبُ أنَّ الإيتاءَ في القرآن مَخصوصٌ بدَفع الصَّدقَة[5]؛ وليس كذلك، فقد ورد في غيره: كقوله تعالى: ﴿يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: يُعطيَه اللّه كتابَه وحيًا إليه، و﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: 12]، و﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الصَّافات: 117]، إلَّا أن يكونَ قَصَد المَصدَر فقط[6].

3) ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: الكِتابُ في الأصل مَصدَرٌ، ثُمَّ سُمِّي المكتوب فيه كتابًا، وهو اسمٌ للصَّحيفة مع المكتوب فيه، وفي قوله: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النِّساء: 153] فإنَّه يعني صحيفة فيها كتابةٌ، وهو اسمُ جنس؛ (القرآنُ، التَّوراة، الإنجيل، أو الزَّبور)[7].

4) ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾: وهو المَنعُ مِنَ الظُّلم، وسُمِّيَت حَكَمَةُ الدَّابَّةِ لأنّها تَمنَعُها، يُقالُ: حَكَمتُ الدَّابَّةَ وأحكَمتُها[8]، قال اللَّيث: الحَكَمُ: اللّه تبارك وتعالى، وهو أحكم الحاكمين، وهو الحكيم له الحكم، قال: والحُكْمُ: العلمُ والفقهُ، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ [مريم: 12]، أي

(1) البيت للشّاعر عقيبة بن هبيرة الأسديّ، قاله لمعاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنه) في أبيات، وجه الاستشهاد بالبيت أنّ (الحَدِيدَا) منصوبٌ عطفاً على محلّ الجبال المجرورة لفظاً، وهذا البيت ممّا أخطأ فيه سيبويه، وكان عقيبة وفد على معاوية، ودفع إليه رقعة فيها أبيات مطلعها:

مُعاوِيَ، إِنَّنا بَشَرٌ فأَسْجِحْ *** فَلَسْنَا بالْجِبَالِ وَلَا الْحَدِيدَا

فدعاه معاوية فقال له: ما أجرأك عليّ ؟ قال: نصحتك إذ غشُّوك، وصدقتك إذ كذبُوك. فقال معاوية: ما أظنّك إلّا صادقًا. انظر: سيبويه، الكتاب: 1/34، 375، 448، والإنصاف في مسائل الخلاف: 1/33، ولسان العرب: (غمز).

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (بشر).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أتي).

(4) الزّمخشريّ، الكشَّاف: 4/198.

(5) الرّاغب، المفردات: (أتى)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (أتي).

(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (أتى).

(7) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (كتب).

(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).

عِلمًا وفقهًا، هذا ليحيى بن زكريا.[1]. والحكمةُ هذا قياسُها، لأنّها تَمنَعُ مِنَ الجهل[2]، ومَرجِعُها إلى العَدل والعِلم والحِلم. ويُقال: أحكَمَتهُ التّجارِبُ إذا كان حكيمًا[3].

5) ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾: النَّبيُّ: العَلَم مِن أعلام الأرض الَّتي يُهتدَى بها، ومنه اشتقاقُ النّبيِّ لأنّه أرفع خَلقِ اللّهِ، وذلك لأنّه يُهتدَى به، وهو الَّذي أنبأ عَنِ الله، فتُرِك هَمزُهُ، والنَّبيّ بغير الهمز أبلغ من النّبيء؛ لأنَّه ليس كلّ مُنبّأٍ رفيع القدر والمحلّ، وممَّا يُؤكِّد ذلك أنَّ لفظ النَّبيّ، مأخوذٌ من النَّبوة والنَّبَاوَةِ، وهي الارتفاعُ مِنَ الأرض، لارتفاع قَدْره، ولأنَّه شُرِّف على سائر الخَلق، فأصله غَيرُ الهَمزِ، وهو فَعِيل بمعنى مَفعول، والجَمعُ أنبياء[4]، والنُّبُوَّةُ: سِفارَةٌ بين اللّه وبين ذوي العُقول من عِباده، لإزاحة عِلَلِهم في أمر مَعادِهم ومَعاشِهم[5].

6) ﴿عِبَادًا﴾: والعِبادُ جمعٌ، مُفردُهُ عَبدٌ، وهو مأخوذٌ مِن مادّة (عَبَدَ)، أي: تَذَلَّلَ، يُقال: عَبَّد الطَّريق، أي: ذلَّله، والعُبوديَّة: إظهارُ التَّذلُّل، والعِبادة أبلغُ مِنها؛ لأنَّها غايةُ التَّذلُّل، ولا يستحقُّها إلَّا مَن له غاية الإفضال، وهو اللّه تعالى، والعَبد يُقال باعتبار الإيجاد، وذلك ليس إلَّا للّه، وإيَّاه قصد بقوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣﴾ [مريم: 93]، وهو عبدٌ بالعِبادة والخِدمة، والنَّاس في هذا ضربان: عبدٌ للّه مُخلِصٌ، وهذا ما ورد ذِكره في كثيرٍ من آيات القرآن، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [ص: 41]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ [الفرقان: 01]، إلى غير ذلك من الآيات، وعبدٌ للدُّنيا وأغراضها[6]، وهو المقصود بقوله ﷺ: «تَعِسَ عَبدُ الدِّرهَم، وتَعِسَ عَبدُ الدِّينار»[7].

7) ﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾: الرَّبُّ، هو اللّه تبارك وتعالى، هو رَبُّ كلِّ شَيءٍ، أي: مَالِكه، وله الرُّبوبيَّة على جميع الخَلق لا شريك له. ويُقال: فلانٌ رَبُّ هذا الشَّيء، أي: مِلْكه له. ولا يُقال: الرَّبّ بالألف واللَّام لغير اللّه[8]، والرَّبّانيُّ منسوبٌ إلى الرَّبِّ، وهو الكاملُ في العِلم والعمل،

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حكم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حكم).
(3) الخليل، العين: (حكم).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (نبأ).
(5) الرّاغب، المفردات: (نبأ).
(6) الرّاغب، المفردات: (عبد).
(7) صحيح البخاري، الحديث رقم: (2730)، ورقم: (6071).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (رب).

الشَّديدُ التَّمسكِ بطاعة اللّه ﷻ ودينه[1]، و"المراد به عالمٌ زاهدٌ، والضّم والكسر على هذا مخالف للقياس، والفتح موافق له، وبها قُرئ، وقيل الضمّ والكسر منسوب إلى الرِّبّة بالضّم والكسر؛ لغتان فيه، بمعنى الجماعة؛ وياء النّسبة للمبالغة كاحمريّ، ومن قال: معناه الكثير العلم، من ربا يربو، فقد أخطأ؛ لاختلاف المادّتين"[2].

8) ﴿تَدْرُسُونَ﴾: دَرَسَ الشّيء، والرَّسمُ يَدرُسُ دُروسًا، بالضَّمِّ: عَفا. ودَرَسَتهُ الرِّيحُ دَرسًا: مَحَته، إذا تَكَرَّرَت عليه فعَفَّته[3]. ودَرَستُ العِلمَ: تَنَاوَلتُ أثرَه بالحفظ، ولمَّا كان تناول ذلك بمداومَة القراءة عُبِّر عَن إدامةِ القِراءة بالدَّرس، قال تعالى: ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾ [الأعراف: 169]، وقال: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾[4].

❁ المَعنَى الإجمَاليُّ:

لا يمكن أن يصطفي الله المسيح للرّسالة، فيدّعي الألوهيّة من دون الله

لا يَنبَغي لِبشرٍ آتاهُ اللّهُ ما آتاه مِنَ النِّعم أن يَقولَ للنَّاس اعبدوني مِن دُون اللّه، ولكن يدعوهم إلى أن يكونوا ربَّانيِّن، أي: مُقبِلينَ على طاعة اللّه تعالى وعبادَته وحده بجدٍّ ونشاطٍ وإخلاصٍ، بسببِ كونكم تُعَلِّمونَ غيرَكُمُ الكتابَ الّذي أنزلَه اللّه لهداية النَّاس وبسبب كَونِكُم دارسينَ له، أي: قارئين له بتمهُّلٍ وتدبُّرٍ[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

إبطالُ فِرْيَةِ بَعضِ أهْلِ الْكِتَابِ

دِلَالَةُ أُسلُوبِ النَّفْيِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ﴾:

المَقصودُ مِن مَوضِع الشَّاهد مِنَ الآيةِ الكريمة أنَّه يَنفي عنه الكَونَ، والمُرادُ نَفي الخبر، وذلك على قِسمَين:

(1) أبو السُّعود، إرشاد العَقل السَّليم: 2/52.
(2) الخفاجيّ، عِنَايةُ القَاضِي: 3/69.
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (درس).
(4) الأصفهانّي، المفردات: (درس).
(5) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 2/160.

أحدُهُما: أن يكونَ الانتفاءُ مِن حيث العَقل، ويُعَبَّر عنه بالنَّفي التَّامّ، ومثاله قوله: ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾ [النّمل: 60]، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ﴾ [آل عمران: 145].

والآخر: أن يكونَ الانتفاء فيه على سبيل الانتفاء، ويُعبَّر عَنه بالنَّفي غير التَّامِّ، ومثاله قول أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه: «مَا كَانَ لِابْنِ أَبِي قُحَافَةَ أَنْ يُصَلِّيَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم»[1].

ومُدرَكُ القِسمين إنَّما يُعرَفُ بسياق الكلام الَّذي النَّفيُ فيه، وهذه الآيةُ مِنَ القِسمِ الأوَّلِ؛ لأنَّا نَعلَمُ أنَّ الله لا يُعطي الكَذَبَةَ والـمُدَّعِينَ النُّبُوَّة، وفي هذه الآية دلالةٌ على عِصمَة الأنبياء عليهم السلام[2].

تَعْيِينُ الْمَنْفِيِّ بِقَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

تَنْزِيهُ اللهِ تَعَالَى أَنْبِيَاءَهُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَنِ الْمَزَاعِمِ الَّتِي نَسَبَهَا إِلَيْهِمْ أَهْلُ الْكِتَابِ

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ استعمال قرآنيّ يُفيدُ نفيَ الشَّأن وعدمَ اتِّفاق هذا المعنى الَّذي ادَّعاه اليهود والنَّصارى مع الحقيقة المفروضة في الرُّسُل، وقد قالوا: إنَّ كلمة ﴿مَا كَانَ﴾ في هذا المقام وما يُشبهه هُوَ في معنى (مَا يَنْبَغِي)، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ﴾ [مريم: 35]، والنَّفي في هذا النَّص القرآنيّ مُنصَبٌّ على اجتماع الرِّسالة مع القَول الَّذي يكذبون به على أنبياء اللّه، والمعنى: لا ينبغي لبَشر أن يُخاطبه اللّه تعالى، ويعطيه الحُكم والنُّبوّة أن يقول للنَّاس: كونوا عبادًا لي من دون اللّه، فليس النَّفي بالبداهة مُنصبًّا على إيتاء اللّه الكتاب والحُكم والنُّبوّة، بل هو مُنصَبٌّ على المعطوف، وهو أن يكون منه - مع ما آتاه اللّه - ذلك الادِّعاء، فيدعو النَّاس إلى عبادته[3].

(1) رواه البخاري في صحيحه، الحديث رقم: (684)، ومسلم في صحيحه، الحديث رقم: (421).
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/229 - 230، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 5/345، ورضا، تفسير المنار: 3/285، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1289.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1289.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾:

المُبَالَغَةُ فِي النَّفْيِ مُلَائِمَةٌ لِقُبْحِ ادِّعَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ

في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ إيجازٌ بالحذف، ومبالغةٌ في نفي استحقاق أيِّ أحدٍ لذلك القَول، فاللَّام فيه للاستحقاق، وأصلُ هذا التَّركيب في الكلام: ما كان فُلانٌ فاعِلًا كذا، فلمَّا أُريدَتِ المُبالغةُ في النَّفي عُدِلَ عَن نَفي الفعلِ إلى نَفي المصدر الدَّالّ على الجنسِ، وجُعِلَ نَفيُ الجِنسِ عَنِ الشَّخص بوساطة نَفي الاستحقاق؛ إذ لا طريقةَ لحَملِ اسم ذاتٍ على اسم ذاتٍ إلَّا بوساطة بعض الحروف، فصار التَّركيب: ما كان له أن يَفعَلَ، ويُقالُ أيضًا: ليس له أن يَفعَلَ، وهذه اللَّام أصل لام الجُحود الَّتي في نحو: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ [الأنفال: 33]، فتراكيبُ لامِ الجُحودِ كُلّها مِن قبيل قَلب مثل هذا التَّركيب لِقَصد المُبالغة في النَّفي، بحيثُ يُنفَى أن يكونَ وجودُ المُسنَدِ إليه مَجعولًا لأجل فِعل كذا، أي: فهو بريءٌ منه بأصل الخِلقة؛ ولذلك سُمِّيَت جُحودًا[1].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالْبَشَرِ بَدَلًا مِنَ النَّبِيِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾:

صِدْقُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَبَدِيعُ حِكْمَةِ اللهِ تَعَالَى فِي اصْطِفَائِهِمْ

جاء التَّعبيرُ بلفظ ﴿لِبَشَرٍ﴾ بَدَلًا مِن (نَبِيٍّ) في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ النَّبيَّ بشرٌ مِنَ البشر، وأنَّه إذا جازَ على البشرِ الكَذِبُ والافتراءُ على اللّهِ وعَلَى النَّاسِ، فإنَّ النَّبيَّ - وهو بشرٌ - لا يكونُ منه أبدًا الكَذِب والافتراء على اللّه أو على النَّاس، وإلَّا كان ذلك اتِّهامًا للّه ﷻ حيثُ اصطفى واختار مَن يحمل رسالَته، ويؤدّي أمانتَه، ثمَّ لم يكن من هذا المُصطفى المختار إلَّا أن زَيَّف الرِّسالة وخانَ الأمانة! وبَدَلًا من أن يكون داعيًا للّه، هاديًا إليه؛ تحوَّل إلى داعيةٍ لِنفسِه، قائدًا النَّاسَ إلى الهلاك والضَّلال! وتعالى اللّه عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا، وإنَّه لن يَرضى أسوأُ الحُكّام وأَجهلُ الأمراء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/293 - 3/294.

أن يُنسب إليه مِثلُ هذا العَجز وسُوء التَّقدير في اختيار أعوانه وسُفرائه، فكيف بأحكم الحاكمين اللّه ربّ العالمين؟!"[1]، وفي هذا بيانٌ لِعلَّة الحُكم؛ فإنَّ البشريّة مُنافيةٌ للأمرِ الَّذي أسنده الكَفرةُ إلى أولئكَ الكِرام عليهم الصَّلاة والسَّلام[2].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ ﴿يُؤْتِيَهُ﴾ دُونَ (يُعْطِيَهُ):

النُّبُوَّةُ فَضْلٌ خَالِصٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِمَن اصْطَفَاهُ

عُبِّر بالإتياء في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ الإيتاء لا يكون إلَّا في الشَّيء العظيم، مثل القرآن والمُلك والحُكم والنبوَّةِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ٨٧﴾ [الحجر: 87]، وقال سبحانه: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ﴾ [آل عمران: 26]، وقال ﷻ في حقِّ داود ﵇: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: 251]، كلُّ هذه المعاني تكون مع الإيتاء الَّذي ليس للعَبد فيه دخلٌ ولا اجتهاد، إنَّما هو فضلٌ خالص للّه تعالى على من يختاره لرسالته، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [الحج: 75]، وقال لموسى ﵇: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: 144].

أمَّا الإعطاء؛ فهو فِعلٌ له مقابل، أعطاني فأعطيته، ويكون في الشّيء القليل، قال تعالى: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ٣٤﴾ [النجم: 34]، وقد يَردُ العطاء مُفيدًا للكثرة كما في قوله: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ٢٠﴾ [الإسراء: 20]، وقد يَرد العطاء كُرهًا كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التّوبة: 29].

ولذلك كلِّه آثر القرآن الكريمُ التَّعبيرَ بفعل الإيتاء؛ لأنَّ السِّياق هنا في المعاني العظيمة.

---

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 2/506.

(2) أبو السّعود، إرشاد العَقل السّليم: 2/52، والبروسوي، روح البيان: 2/54، والآلوسّي، روح المعاني: 2/199.

وفي التَّعبير بصيغة المضارع في قوله: ﴿أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ استحضارٌ لصورة الإيتاء، وكأنَّك تراه ينزل من السَّماء على الأنبياء، والاستحضار لهذه الصُّورة أدعى إلى الأدب مع اللّه تعالى، فلا يُتَصوَّر نزول الوحي على نبيٍّ من أنبياء اللّه، ثمَّ يطلب من أتباعه أن يعبدوه من دون اللّه.

سِرُّ إِسْنَادِ الْفِعْلِ ﴿يُؤْتِيَهُ﴾ إِلَى الِاسْمِ الْأَحْسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

إيتَاءُ اللهِ تَعَالَى الْخَلْقَ نَوْعَانِ إِيتَاءٌ بِمُقْتَضَى رُبُوبِيَّتِهِ، وَإِيتَاءٌ بِمُقْتَضَى أُلُوهِيَّتِهِ

إسنادُ الفعل ﴿يُؤْتِيَهُ﴾ إِلَى الِاسْمِ الْأَحْسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ يُشير إلى أنّ هذا الإيتاء تكليفٌ في البلاغ عنِ اللّه تعالى؛ لأنَّ الإيتاء على نوعين: إيتاءُ ربوبيَّة بما فيه من أسباب النِّعم والتَّربية لجميع الخَلْق، وإيتاءُ أُلوهيَّةٍ؛ وهو التَّكليف بأنواعه كلِّهَا، ومنه تكليف اللّه تعالى لأنبيائه عليهم السلام.

عِلَّةُ التَّعْبِيرِ بِالْحُكْمِ دُونَ الْحِكْمَةِ:

افْتِقَارُ الْحُكْمِ إِلَى الْحِكْمَةِ

عُبِّر بالحُكم دون الحكمةِ؛ لأنَّ الحكمَ أعمُّ، فهما وإن اشتركا في أصل المادَّةِ اللُّغويَّة وهي: (حَكَمَ) بمعنى المنع، إلَّا أنَّ الحِكمة أخصُّ من الحُكم؛ فالأصل في الحُكم وجود الحكمة، بخلاف الحكمةِ فلا يلزم فيها الحُكمُ.

سِرُّ تَقْدِيمِ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ عَلَى ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ وَ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾:

الْإِعْدَادُ وَالتَّهْيِئَةُ لِتَحَمُّلِ الْمَهَامِّ مَنْهَجٌ قُرْآنِيٌّ

قُدِّم ذِكر الكِتاب، والمرادُ به الكتاب السَّماويّ؛ للإشارة إلى مقام الرِّسالة؛ إذْ لو قدّم الحُكم - وهو بمعنى العِلم -؛ لكان ذلك عامًّا للأنبياء والأولياء والحكماء، يُؤكد هذا أنَّ اللّه أعطى العِلم خلقًا كثيرًا، كملوك بني إسرائيل، فقال تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: 247]، وأعطى الحِكمة لـ (لُقمان) وهو ليس نبيًّا، ولمَّا كان المقامُ في آية آل عمرانَ خاصًا بالرِّسالة، كان التَّقديم للكتاب، وذكرُ الحُكمِ هو من باب الإعداد والتَّهيئة النَّفسيّة والعقليَّة، ثمَّ بعد ذلك تأتي مرحلة إعلان النُّبوّة للبلاغ عن اللّه إلى الخلق.

ومن الإشارة أيضًا في هذا التّرتيب: أنَّ الكتابة في مبناها اللُّغويّ تدُلُّ على الضَّمّ، وفي هذا إشارة إلى ضمِّ العَبد المُختار للرِّسالة إلى مَوكِب الأنبياء، وأمَّا الحُكمُ فَأصلُه المنع، ويشير هنا إلى عِصمة الرَّسول من الوقوع في الخطأ.

ولمَّا كانت مادَّة النُّبوَّة دالَّةً على الارتفاع؛ جاء ذكرها للإعلان عن عُلُو قَدرِ النَّبيِّ، وعظيم مكانته وَإمامته لأتباعه.

وفي هذا التَّترتيبِ ملحظٌ آخرُ؛ وهو أنّ الكتاب السَّماويّ يَنزلُ أوَّلًا، ثمّ يَحُصُل في عَقلِ النَّبيّ فَهمُ ذلك الكتاب، وإليه الإشارةُ بالحُكم؛ فإنَّ أهلَ اللُّغةِ والتَّفسيرِ اتَّفقوا على أنَّ هذا الحُكمَ هو العِلمُ، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ [مريم: 12]، يعني: العِلمَ والفَهمَ، ثمَّ إذا حصلَ فَهمُ الكتاب؛ بلَّغَ ذلك إلى الخَلق، وهو النُّبُوَّة، فما أحسنَ هذا التَّرتيبَ![1].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ دُونَ (الرِّسَالَةِ):

النُّبُوَّةُ أَعَمُّ مِنَ الرِّسَالَةِ

عُبِّر بالنُّبوَّة دون الرِّسالة في قوله تعالى: ﴿أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾؛ لأنَّ مقام النُّبوَّة أعمُّ، والرِّسالة أخصُّ، والمناسب في تبرئة ساحة الأنبياء والرُّسل: التَّعبيرُ بالعموم ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾، بخلاف التَّعبير بالرِّسالة؛ فقد يُتَوهَّم وجودُ مَا ينافي العِصمةَ للأنبياءِ.

دِلَالَةُ الْعَطْفِ بِـ ﴿ثُمَّ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾:

الْكَلَامُ إِذَا طَابَقَ نَظْمُهُ نِظامَهُ حَازَ الْجَزَالَةَ بِحَذَافِيرِهَا

جِيءَ بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ وهو للمهلة في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ لقصدِ تَعظيم هذا القولِ، وإذا انتَفى هذا القولُ بعد المُهلَة؛ كان انتِفاؤُهُ من دونها أَوْلى وأحرى، أي: إنَّ هذا

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/271، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/230، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/375، والبروسوي، روح البيان: 2/54، والقنّوجيّ، فتح البيان: 2/272.

الإيتاءَ العظيمَ لا يُجامِعُ هذا القول، وإن كان بعد مُهلَةٍ مِن هذا الإنعام العظيم[1].

فهو إشعارٌ بالتَّفاوت العظيم بين ما أعطاهُ اللّٰه تعالى لأنبيائهِ مِن نِعَم، وهذا القولِ المُنكَر الَّذي نَفاه سبحانه عنهم، وهو أن يقولوا للنَّاسِ: اجعلوا عِبادَتَكم لنا ولا تَجعَلوها للّٰه تعالى، ثمَّ بَيَّنَ سبحانه ما يَصِحُّ للأنبياءِ أن يَقولوه للنَّاس[2].

تَوْجِيهُ الْقِرَاءَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾:

الْجَمْعُ بَيْنَ رِفْعَةِ النّبُوَّةِ وَنَقِيضِهَا مُحَالٌ

القراءةُ المتواترةُ: ﴿ثُمَّ يَقُولَ﴾ بفتحِ اللَّام، ويُروَى عن أبي عمرو - في غير ما تواترَ عنه - ضمُّهَا، وهي قراءة شاذَّة، أمَّا النَّصبُ؛ فهو على تقدير: لا تجتمع النُّبوَّة وهذا القول، والعامل فيه ﴿أَن﴾ وهو معطوف عليه، بمعنى: ثمَّ أن يَقولَ، وأمَّا الرَّفع؛ فهو على الاستئناف[3].

سَبَبُ إِيثَارِ التَّعْبِيرِ بِلَفْظِ ﴿لِلنَّاسِ﴾ دُونَ (الْبَشَر) فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾:

لَفْظُ (للناس) شَامِلٌ لِلْإِنْسِ وَالْجِنِّ

آثر التَّعبير بلفظ النَّاسِ دونَ البَشَر؛ لكون البشَرِ استُعْمِلَ في خصوص بني آدمَ، بخلاف النَّاس؛ فإنَّ التَّحقيقَ صلاحيتُها للإنس والجنِّ معًا، فنُفيتَ هذه الفرية عن الأنبياءِ نفيًا عامًّا، فلم يقولوهَا لَا لإنسيٍّ ولا لجنِّيٍّ.

تقديمُ ما حَقُّهُ التَّأخير في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾:

النَّفيُ في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ واقعٌ غير مَوقِعه؛ لأنَّ التَّأويل: ما كان لبشرٍ يُؤتِيه اللّٰه الكتابَ والحُكمَ والنُّبوَّة، وقوله

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/230، والآلوسيّ، روح المعاني: 2/199، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 5/345.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/461، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 2/159.
(3) الأزهريّ، معاني القراءات: 1/265، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/231، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/271.

إِتْقَانُ كَلَامِ اللهِ تَعَالَى فِي وَضْعِ كُلِّ حَرْفٍ وَكَلِمَةٍ مَوْضِعَهُمَا اللَّائِقِ بِهِمَا

تعالى: ﴿يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ﴾ صفةٌ للنَّكرة على تأويل: ما كان لبشرٍ يكون بهذه الحال أن يقولَ للنَّاس: كُونوا عبادًا لي من دون اللّه، فالمَنفِيُّ: (أَنْ يقولَ لِلنَّاس)، فلمَّا وَقَعَتْ ﴿أَن﴾ في غيرِ مَوقِعها؛ نُسِقَ عليها بـ ﴿ثُمَّ﴾، ففي الآية تقديمُ حرفٍ حقُّهُ أن يُؤَخَّرَ، ومثله مِن تقديم ما وجَبَ أن يُؤخَّر في النَّظم قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ﴾ [الفتح: 25]، ومعناهُ: ولولا أن تطؤُوا رجالًا مُؤمنين ونساءً مُؤمناتٍ لم تَعلَموهم؛ أي: لم تعرفوهم[1].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِقَوْلِهِ: ﴿عِبَادٗا﴾ دُونَ (عَبِيدًا):

دِقَّـةُ الـنَّـظْـمِ الْقُرْآنِ الْقُرْآنِيِّ فِي انْتِقَاءِ جُمُوعِ الْأَلْفَاظِ

لفظةُ العِبادِ جمعُ عبدٍ، وجيء بهذه اللَّفظة في سياقِ التَّرفيع والدّلالة على الطَّاعة دُونَ أن يَقترِنَ بها معنى التَّحقيرِ وتَصغيرِ الشَّأنِ، كقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الزّمر: 53]، وقول عيسى عليه السلام في معنى الشَّفاعة والتَّعريض: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ﴾ [المائدة: 118]، وأمّا العَبيدُ فيُستَعمَلُ في التَّحقير، ومنه قولُ حمزة بن عبد المطَّلب: (وهل أنتُم إلَّا عبيدٌ لأبي)، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾ [فُصّلت: 46]؛ لأنَّه مقامُ إعلامٍ بقلَّةِ انتصارِهم ومَقدِرتِهم، وأنَّه تعالى ليس بظلَّام لهم[2].

فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لأنَّ المقامَ مقامُ طاعةٍ.

دِلَالَةُ الْإِضْمَارِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾:

حَذْفُ اللَّفْظِ إِذَا كَانَ فِي الْكَلَامِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ

في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ إضمارٌ، والتَّقدير: ولكنْ يقولُ لهم كونوا ربَّانيِّين؛ فأضمَرَ القولَ على مذهب العرب في جواز الإضمار إذا كان في الكلام ما يدُلُّ عليه، ونظيره قوله تعالى:

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 5/379.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/461، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/230.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ [آل عمران: 106]، أي: فيُقالُ لهم ذلك[1].

بَلَاغَةُ الْقَصْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾:

تَبْرِئَةُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ دَعْوَى ادِّعَائِهِمُ الْأُلُوهِيَّةِ

في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ قصرٌ بالعطف بـ ﴿وَلَٰكِن﴾، فقد قَصَرَ مقالة الأنبياء على أمرهم النّاسَ بأن يكونوا ربّانيين، وهو قصرٌ إضافيٌّ؛ لأنَّ الأنبياءَ يقولون للنَّاسِ غيرَ هذا؛ من أمرهم بالخير ونهيهم عن الشَّرِّ، إلّا أنَّه أوثرَ أسلوبُ القصر ههنا لتأكيد تبرئة الأنبياء من دَعْوَى ادِّعائهم الألوهيَّة.

سِرُّ اخْتِيَارِ لَفْظِ ﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ دُونَ (الْعُلَمَاءِ):

الـرَّبَّـانِـيُّـونَ هُـمُ الْـعُـلَـمَـاءُ الْـحُـكَـمَـاءُ الْـحُـلَـمَـاءُ، الْـمُـعَـلِّـمُـونَ لِلنَّاسِ، وَالْمُرَبُّونَ بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَـبْـلَ كِـبَـارِهِ، الْعَامِلُونَ بِذَلِكَ

فسَّر جماعةٌ من أهل التَّفسير لفظَ ﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ بالعُلماء والفقهاء، ولكنّ القُرآن آثر لفظ ﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ دونهما؛ لأنَّ العُلماء على قِسمين: منهم العالم المحصِّلُ عِلْمًا - أيًّا كان ذلك العلمُ -، ومنهم العَالم الرَّبّانيّ، والمُراد به: الّذي تخصَّصَ بالعِلم الرَّبّانيّ المنسوب إلى الرَّبّ؛ لذلك عرَّفه بعض أهل العلم بأنَّه: المعلِّمُ الخيرَ، ومن يَسُوسُ النّاس ويُعَرِّفهم أُمور دينهم كما أراد اللّه تعالى، وفي هذا: إشارة إلى ذَمِّ علماء أهل الكتاب؛ لأنَّ عِلمهم لم يصل بهم إلى الرَّبَّانيّة الّتي هي سبب السَّعادة في الدُّنيا والآخرة.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِقَوْلِهِ ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ دُونَ (تُعَرِّفُونَ):

الْـعِـلْـمُ بَـابُ الْـوُصُـولِ إِلَى الرَّبَّانِيَّةِ

مَن لم يتعلَّم لم يحقِّق الرَّبّانيّة كاملةً؛ لأنَّه لم يُدرِك حقيقة الشَّيء، ووقف عند ظواهر الأشياء وآثارها، وهذه معرفة ناقصة؛ لذلك فرَّق العُلماء بين العِلم والمعرفة، فقالوا: العِلم: إدراك الشَّيء

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 5/379، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/271، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/231، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 5/347، والآلوسيّ، روح المعاني: 2/200.

على حقيقته، أو هو ملَكَة يقتدر بها على إدراك الكُلِّيَّات والجزئيّات، ولذلك خصَّ اللّه بها الإنسان دُون سائر الأجناس من حيوانٍ ونباتٍ وجمادٍ، والعِلم نقيضُ الجَهل.

أمَّا المعرفة؛ فهي إدراكٌ لآثار الشَّيء، وضِدّها: الإنكار، فالمعرفة تُستَعمل - غالبًا - في العِلم القاصر المُتوصَّل إليه بتدبّر آثاره دون إدراك ذاته؛ لذلك استعُملَتِ المعرفة فيما يظهر أثره، كما قال تعالى عن الفُقراء الَّذين يتعفَّفُون: ﴿تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾ [البقرة: 273]، وقال في حقِّ المجرمين: ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ﴾ [الرّحمن: 41]، فالسِّيماء: علامةٌ يتوصَّل بها إليهم بخلاف العلم، فهو في ذات الشَّيء وحقيقته، والآيات في هذا المقام كثيرة(1).

وبناءً على ما تقدَّمَ؛ آثَر القُرآن الكريم هنا العِلم الَّذي هو إدراكُ الشَّيء على حقيقته؛ لأنَّ الرَّبّانيّة تحتاج إلى بذل الجُهد في الوصول، وهذا مقام العِلم تعلُّمًا وتعليمًا، أمَّا المعرفة فلا تفي بالمُراد في ذلك.

دِلَالَةُ الْبَاءِ فِي ﴿بِمَا﴾، وَنُكْتَةُ تَكْرَارِ ﴿بِمَا كُنتُمۡ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾:

لَا نَجَاحَ لِلْعَمَلِ إِلَّا بِالْعِلْمِ، وَلَا ثَمَرَةَ لِلْعِلْمِ إِلَّا بِالْعَمَلِ

الباءُ في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمۡ﴾ سَببيَّةٌ مُتَعلِّقَةٌ بـ﴿كُونُواْ﴾، أي: كونوا كذلك بسبب مُثابرَتِكُم على تَعليمكم الكتابَ ودِراستكم له، والمطلوبُ أن لا ينفكَّ العِلم عنِ العمل؛ إذ لا يعتدُّ بأحدهما دُونَ الآخر.

وكذلك تَتعلَّق بـ ﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾؛ لأنَّ فيه معنى الفعل.

ويحتَمِلُ أن تكون متعلِّقةً بمحذوفٍ على أنَّها صفة لـ﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾، و(مَا) مصدريَّة، فتكونُ معَ الفعل بتأويل المصدر، أي: بسبب كَوْنِكم عالِمينَ(2).

وتَكرار ﴿بِمَا كُنتُمۡ﴾ في الآية جِيءَ بِهِ للإيذان باستقلال كلٍّ مِن استمرار التَّعليم واستمرار القراءة بالفَضل وتحصيل الرَّبّانيَّة(3).

(1) الدوري، دقائق الفروق اللُّغويّة، ص: 190.
(2) التّفسير البسيط: 5/383 - 384، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 5/349، والآلوسّي، روح المعاني: 2/200.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/52.

تَوْجِيهُ الْقِرَاءَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾:

لِلْعِلْمِ مَرَاحِلُ: هِيَ التَّعَلُّمُ وَالتَّعْلِيمُ وَالْمُدَارَسَةُ

قرأ نافع وابن كثير وأبو عَمرو ﴿تَعْلَمُونَ﴾[1] على أنَّه فعلٌ مُضارِعٌ مِنْ (عَلِمَ)، ويَنْصِبُ مَفعولًا واحدًا؛ وهو الكتاب، ووَجه تخفيف اللَّام: حَمْلُهُ على ما بعده من قوله: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾؛ فإنَّه غيرُ مشدَّدٍ؛ إذ لم يقل: (تُدَرِّسُونَ)، حيثُ حَملَ الفعلين على مَعنًى واحِدٍ.

وقرأ الكوفيُّون وابن عامر ﴿تُعَلِّمُونَ﴾[2]مِنَ التَّعليم على أنَّه مُضارع (عَلَّم)، قال مَكِّيّ بن أبي طالب: "فالتَّشديد أبلغ؛ لأنَّه يدُلُّ على العِلم والتَّعليم، والتَّخفيف إنَّما يدُلُّ على العِلم فقط، فالتَّعليم أبلَغ وأمدَح"[3]، ووجهُ كونِه أبلغَ وأمدحَ: أنَّهم لا يُعَلِّمون إلَّا وقد عَلِموا هُم، ولا يكونُ العَالِمُ عالِمًا حتَّى يَعمَلَ بعِلمِهِ، فأحَدُ عَمَلِهِ تَعليمُهُ غيرَهُ[4].

إذَنْ؛ قراءة ﴿تَعْلَمُونَ﴾ بالتَّخفيف تشير إلى التّعلُّم، وقراءة التَّشديد ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ تشير إلى التَّعليم، وقوله ﴿تَدْرُسُونَ﴾ يشير إلى المُدارسة، وهذه مراحل التَّعليم، فالقراءات متكاملةُ المعاني والدِّلالات.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾:

تَحْصِيلُ الْعِلْمِ لَا نِهَايَةَ لَهُ وَلَا حَدَّ

جِيءَ بخَبرِ (كانَ) مُضارعًا ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ ﴿تَدْرُسُونَ﴾؛ لإفادة استمرارِ القراءة والعلم والدّراسة من دون انقطاع؛ لأنّ الإنسان يعيش عمره بين هذه المراحل.

(1) ابن الجزري، النشر: 2/240.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/240.
(3) الفارسّي، الحجّة للقرّاء السّبعة: 3/61، ومكّيّ بن أبي طالب، الكشف: 1/350، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/271.
(4) ابن خالويه، إعراب القراءات السَّبع، ص: 72.

وممَّا يُؤكِّد ذلك أنَّهم يقولون: دَرَسْتُ الكتابَ، ودرست العِلم، أي: تناولتُ أثرَه بالحفظ، ولمَّا كان ذلك لا يتأتَّى إلَّا بمداومة القراءة؛ عُبِّر عن إدامة القراءة بالدَّرس، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ [سبأ: 44]، وقال تعالى: ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾ [الأعراف: 169].

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ التّعْلِيمِ عَلَى الدِّرَاسَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾:

وُجُـوبُ قِـرَاءَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَتَدَبُّرِهِ

جيءَ بالتَّعليم مُقدَّمًا على الدِّراسة في قول اللّه تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾؛ لأنَّ التَّعليمَ مُوصِّلٌ إليها، فهو الباب الّذي يلج منه العالِم إلى المُدارسة، وعَطفُ التَّدارس على القراءة دليلٌ على أنَّ الدِّراسةَ أخصُّ مِنْ مطلقِ القراءة؛ إذِ الدِّراسة: قراءة بإعادة وتَكْرِيرٍ؛ فإِنَّ مادة (درس) في لسانِ العرب تدور حول معنى التَّأثُّر من تكرُّرِ عملٍ يعمل في أمثاله، ومنه قولهم: دَرَسَتِ الرِّيحُ رَسْمَ الدَّار؛ إذا عَفَتْهُ وأَبْلَتْهُ، ويقال: مَنْزِلٌ دارِس، وطَرِيقٌ دارسٌ؛ أي: الذي لا يَتَبَيَّنُ، ومن هذا الباب قولهم: دَرَسَ الكتابَ؛ إذا قَرَأَهُ بِتَمَهُّلٍ لِحِفْظِهِ أو تَدَبُّره، ومادَّةُ (دَرَسَ) تَستلزمُ التَّمكُّنَ مِنَ المفعول؛ فلذلك صارَ دَرْسُ الكتاب مجازًا في فَهمه وإتقانه، ولذلك عَطَفَ في هذه الآية ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ على ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وسَمُّوا بيتَ قراءة اليهود مِدرَاسًا، ويَجِيءُ على وَزنِ الفِعَالَةِ دِرَاسَةٌ، وهي زِنَةٌ تَدُلُّ على مُعالجة الفعل، مثل: الكتابة والقراءة، إلحاقًا لذلك بمصادر الصِّناعات كالتِّجارة والخياطة[1].

وفي كُلِّ هذا إيماءٌ إلى أنَّ الواجبَ في الكتُبِ التي يُنْزِلُهَا اللّه تعالى على الأنبياءِ أن تُقرأَ وتُتَدَبَّرَ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/295 - 296.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البشر والنَّاس:

"إنّ قولَنا (البَشَر) يَقتضي حُسْنَ الهيئَة، وذلك أنَّه مُشتقٌّ مِنَ البشارَة، وهي حُسْنُ الهيئة، يُقالُ: رَجُلٌ بَشيرٌ وامرأةٌ بَشيرةٌ، إذا كان حسَنَ الهيئة، فسُمِّي النَّاس بشرًا؛ لأنَّهم أحسَنُ الحيوان هيئةً، ويَجوزُ أن يُقال: إنَّ قولَنا بَشَر، يقتَضِي الظُّهور، وسُمُّوا بشرًا؛ لظُهور شأنِهم، ومنه قِيلَ لظاهر الجلدِ: بَشَرَة"[1]، وَمِنْهُ بَاشَرَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ، وَذَلِكَ إِفْضَاؤُهُ بِبَشَرَتِهِ إِلَى بَشَرَتِهَا. وَسُمِّيَ الْبَشَرُ بَشَرًا لِظُهُورِهِمْ. وَالْبَشِيرُ الْحَسَنُ الْوَجْهِ. وَالْبَشَارَةُ، الْجَمَالُ. قَالَ الْأَعْشَى:

وَرَأَتْ بِأَنَّ الشَّيْبَ جَا *** نَبَهُ الْبَشَاشَةُ وَالْبَشَارَهْ[2]

وقولنا: النَّاس، يَقتضي النّوس وهو الحَرَكة[3]، "وأصل النّاس: أناس، إلّا أنّ الألف حذفت من الأناس، فصارت: ناسًا، وسُمّي ذو نواس، لذؤابتين كانتا عليه تتحرّكان[4]، والنَّاس جمعٌ، والبَشَر واحدٌ[5].

الإيتاء والإعطاء:

الإيتاءُ أقوى مِنَ الإعطاءِ في إثبات مفعوله؛ لأنَّ الإعطاءَ له مُطاوِعٌ بخلاف الإيتاء، تقولُ: أعطاني فعطوت، ولا يُقالُ: آتاني فَأتيت، وإنَّما يقالُ: آتاني فأَخَذتُ. والفعلُ الَّذي له مُطاوِعٌ أضعَفُ في إثبات مفعوله، ممَّا لا مُطاوِعَ له؛ لأنَّك تقولُ: قَطَعتُه فانقطعَ، فيدُلُّ على أنَّ فعلَ الفاعلِ كان مَوقوفًا على قبول المَحلِّ، لولاه ما ثَبَتَ المفعول، ولهذا لا يصحُّ قَطَعتُه فما انقَطَعَ، ولا يصحُّ فيما لا مُطاوِعَ له ذلك؛ ودليل ذلك في مَواضِعَ مِنَ القرآن، قال تعالى: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]؛ لأنَّ المُلكَ شيءٌ عظيمٌ، لا يُعطاهُ إلَّا مَن له قُوَّةٌ؛ وقال: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ [الكوثر: 1]؛ لأنَّه مورودٌ في المَوقف مُرتَحَلٌ عنه إلى الجنَّة. وذهب الزَّبيديّ إلى أنَّ الإعطاءَ أقوى مِنَ الإيتاءِ؛ ولذا خصَّ في دفع الصَّدَقات الإيتاءَ،

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 276، والرّاغب، المفردات: (بشر).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 1/251.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 176، والرّاغب، المفردات: (بشر).

(4) الخليل: كتاب العين: 7/303.

(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 176، والرّاغب، المفردات: (بشر).

ليكونَ ذلك بسهولة من غير تَطَلُّع إلى ما يَدفَعه، وتأمَّل سائِرَ ما ورد في القرآنِ، تَجِد معنى ذلك فيه، والكوثر لَمَّا كان عظيمًا شأنُه غير داخلٍ في حِيطَةِ قُدرَةٍ بشريَّةٍ، استُعمِل الإعطاءُ فيه، وكلامُ الأئمَّة وسياقُهم في الإيتاء لا يُخالِفُ ما ذكرنا[1].

الحِكمَة والحُكم:

الحِكمَة: هِيَ العدل والعلم، والحكم والنّبوّة، والقُرآن والإنجيل: وَوضع الشَّيء في مَوضِعه، وصواب الأمر وسداده، وأفعال اللّه كذلك؛ لأنَّهُ يتَصَرَّف بمُقتضى الملك فيفعل ما يشاء، وَافق غَرَض العباد أم لا[2].

والحُكمُ أعمُّ مِنَ الحكمة، فكلُّ حكمةٍ حُكمٌ، وليس كلُّ حُكم حكمةً، فإنَّ الحُكمَ أن يُقضى بشيءٍ على شيءٍ، فيقول: هو كذا أو ليس بكذا. ومعنى الحُكم في الآية القضاءُ والفصلُ بين النَّاس[3].

الرّسول والنّبيّ:

في الفرق بين الرّسول والنّبيّ أمورٌ: أحدُها: أنَّ الرَّسولَ مِنَ الأنبياءِ مَن جَمَعَ إلى المُعجزةِ الكتابَ المُنزَّلَ عليه، والنّبيُّ غيرُ الرَّسولِ؛ مَن لم يَنزِلْ عليه كتابٌ، وإنَّما أُمِرَ أن يَدعُوَ إلى كتابِ مَن قَبلَهُ. والآخر: أنَّ مَن كان صاحبَ المُعجزةِ وصاحبَ الكتابِ ونَسَخَ شَرعَ مَن قَبلَهُ فهو الرَّسولُ، ومَن لم يَكن مُستجمعًا لهذه الخصالِ فهو النَّبيُّ غيرُ الرَّسول[4].

العباد والعَبيد:

العبادُ جمعُ عَبدٍ كالعَبيدِ، وجَمعُ عَبدٍ لا يُقصَدُ معه التَّحقيرُ، والعَبيدُ يُقصَدُ منه، ولذلك قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ [العنكبوت: 56] بخلاف جَمعه على عبيدٍ، كقولهم: هُم عَبيدُ العصا، وقال حمزةُ بنُ المُطلِّب: هل أنتُم إلّا عَبيدٌ لأبي. ومنه قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ ۝٤٦﴾ [فُصِّلت: 46]؛ لأنَّه مكانُ تشفيقٍ وإعلام بقلّة مقدرتهم، وأنّه تعالى ليس بظلّامٍ لهم مع ذلك، ولَمّا كانت لفظةُ العباد تقتضي الطّاعةَ لم تقع هنا[5].

(1) الزَّبيديّ، تاج العروس، مادّة: (أتى).
(2) الكفويّ، الكليّات، ص: 382.
(3) الرّاغب، المفردات: (حكم).
(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1310، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 23/236.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/461، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/231، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/294.

وممَّا يقتضي ذكره في هذا المقام بيان الفَرق بين عباد وعَبِيد، وذلك من خلال استعمال القرآن الكريم لهاتين اللَّفظتين، حيث يُعبّر بالعباد عمَّن هم عباد للّه تعالى، ومن اختاروا أن يدخلوا تحت مظلَّة العُبوديّة طوعًا من غير إكراه، فهم راضون بكلّ ما يجرى عليهم من ربّهم، لا يخالفونه في أيّ أمر يجريه عليهم، أمَّا العَبيد فقد وَرَدَ ذِكرهم فيمن شَردوا عن طريق الهداية، واختاروا طريقًا غير طريق اللّه ربّ العالمين.

إذًا بين العباد والعَبيد عُمومٌ وخُصوص مِن وجه، إذ إنّ العَبيد قد تُطلق على عبيد اللّه وعبيد النَّاس، بينما يختصُّ إطلاق لفظ العباد بمن كانوا عبيدًا للّه تعالى فحسب.

ولذلك كلُّ الخَلْق عبيدٌ للّه، المؤمن والكافر؛ فالكافر مثلًا لا يستطيع أن يتمرَّد على الموت، فهو مَقهورٌ تحت المظلَّة الإلهيَّة، أمَّا المؤمن فهو مؤمنٌ بتقدير اللّه له فيرضى بقدر اللّه فيه، فهو بذلك انتقل من مرحلة العبيد إلى مرحلة العباد.

وممَّا يُؤكد الفَرق بينهما ما ذَكَره محمّد أمين الخضريّ في هذا المقام: أنَّ الانتقال في (عِباد) من الكسرة إلى الفتحة، ثمَّ إلى الاستطالة بالألف الرَّامزة إلى الرِّفعة وانتصاب القامة يُشير إلى أنَّ الانتساب إلى اللّه تعالى بعبادته ينقل الإنسان من وهدة الرَّذيلة، والخنوع للنِّد من البشر إلى سُمُوِّ النَّفس، والوجه في حضرة المعبود.

والانتقال في (عَبيد) من الفتحة إلى الكسرة، والاستطالة بالياء، يُوحي بانكسار النَّفس واستغراقها في الذّلّ ومهانتها باستعباد النَّاس[1].

الرّبّانيّون والأحبار:

ذكرَ ابنُ الجوزيِّ الفرقَ بينهما، وقال: فيه قولان: أحدُهما: لا فَرق، والكُلُّ عُلماء. وقد رُوي عن مُجاهد أنَّه قال: الرَّبّانيُّون: الفُقهاءُ العُلماءُ، وهم فوق الأحبار. وقال السُّدِّي: الرَّبّانيُّون: العُلماءُ، والأحبارُ: القُرَّاءُ. وقال ابنُ زَيد: الرَّبّانيُّون: الولاةُ، والأحبار: العُلماء، وقِيلَ: الرَّبّانيُّون: عُلماءُ النَّصارى، والأحبارُ: عُلماءُ اليهود[2].

---

(1) الخضري، الإعجاز البيانّي في صيغ الألفاظ، ص: 173.

(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/552.

التّلقين والتّعليم:

إنّ التَّلقين يكونُ في الكلام فقط، والتَّعليم يكونُ في الكلام وغيره، تقولُ: لقَّنَهُ الشِّعرَ وغيرَهُ، ولا يُقالُ: لقَّنَهُ التِّجارةَ والنِّجارةَ والخياطةَ، كما يُقالُ: علَّمَهُ في جميع ذلكَ، ومن جهة أخرى؛ فإنَّ التَّعليم يكونُ في المرَّة الواحدة، والتَّلقين لا يكون إلَّا في المرَّات. كما أنَّ التَّلقين هو مُشافهتك غيرك بالتَّعليم، وإلقاء القَول إليه ليأخُذَه عنكَ، ووضع الحروف مَواضِعها، والتَّعليم لا يقتضي ذلك؛ ولهذا لا يُقال: إنَّ اللّه يُلقِّنُ العَبدَ، كما يُقالُ: إنَّ اللّه يُعلّمه[1]، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ٤﴾ [الرّحمن: 3 - 4]، ولم يقل لقّنه البيان.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 82.

﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ٨٠﴾ [آل عمران: 80]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين ضلال تأليه عيسى خاصّة، وتأليه الملائكة والنّبيّين عامّة

مازال الحديث موصولًا في التَّحذير مِن عبادةِ غير اللّه، سواء كان السَّببُ في نزولها سُلوكَ اليهود، وهو الأظهر، أم جهلًا مِن بعض المسلمين، لذلك بالغ في تعظيم النَّبيّ ﷺ، أو استئذانه في تلك المبالغة[1]، "وما كان لأحد منهم أن يأمركم باتّخاذ الملائكة والنّبيين أربابًا، تعبدونهم من دون اللّه، أَيُعْقَلُ - أيّها النّاس - أن يأمركم بالكفر باللّه بعد انقيادكم لأمره؟"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَأۡمُرَكُمۡ﴾ الأمرُ: نقيضُ النَّهي، والأمرُ واحدٌ مِن أمور النَّاس[3]، "ويقال في الأمر منه (أؤمر) بالهمزة و(مُرْ) بلا همز، قال اللّه تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ [طه: 132]، ويقال: أَمَر اللّه تعالى القومَ: أي كثَّرهم، وعلى ذلك فسّر الحسن قوله تعالى: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ [الإسراء: 16]، أي كثّرناهم، وقيل: هو من الأمر، أي أمرناهم بالطّاعة ففسقوا، كما يقال: أمرتك فعصيتني، ليس المعنى: أمرتك بمعصيتي، لكن معناه: أمرتك بطاعتي فعصيتني"[4].

2) ﴿تَتَّخِذُواْ﴾: الاتِّخاذُ: الاعتمادُ هاهنا، مِنْ تَخِذَ يَتخَذُ تَخَذًا، وتَخِذتُ مالًا، أي: كَسَبتُه، أُلزِمَتِ التّاءُ كأنَّها أصليَّة، وأصلُه افتِعال

(1) ابن جرير، جامع البيان: 6/547، والنّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 4/125.
(2) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 60.
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمر).
(4) الحِمْيَرَيّ، شمس العلوم: 1/326.

مِنَ الأخذِ، والأخذُ: حَوزُ الشَّيءِ[1]، "واتَّخَذه: عمله، وقولُه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ﴾ [الأعراف: 152]، أَرَادَ: اتَّخذوه إِلَهًا، فَحذف الثَّاني، لِأَنّ الاتِّخاذ دليلُ عَلَيْه، وَحكى سِيبَوَيْه: اسْتَخذ فلانٌ أَرْضًا، حذفت إِحْدَى التَّاءَيْنِ، وقَالَ ابْن جني: يجوز أَن يكون أصله: اتَّخَذ، أبدلوا من التَّاء الأولى سينًا (اسْتخذوا)، فَلَمَّا كَانَت السِّين وَالتَّاء مهموسين جَازَ إِبْدَال كلِّ وَاحِدَة مِنْهُمَا من أُختها[2].

3) ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾: المَلَكُ، مُحَرَّكَةً: واحِدُ الملائكة، والملائك يكونُ واحدًا وجَمعًا، وإنَّ أصلَه مأْلَك بتقديمِ الهمزَةِ من الأُلُوك، ثمَّ قُلِبَت، وقُدِّمَت اللَّامُ، فقيل: ملأَك، ثمَّ تُرِكَت هَمزَتُه لكثرة الاستِعمالِ، فقيلَ: مَلَكٌ، فلمَّا جَمَعوه رَدُّوها إليه، فقالُوا: ملائكةٌ وملائِكُ أيضًا. والملائكة عبادُ اللّه العاملون بأمر اللّه[3].

4) ﴿بِٱلْكُفْرِ﴾: الكُفرُ: ضِدُّ الإيمان، سُمِّيَ لأنّه تَغطيَةُ الحَقِّ. وكذلك كُفرَانُ النِّعمةِ: جُحودُها وسَترُها، وسُمِّيَ الكافِرُ الشَّرعيُّ كافرًا؛ لأنَّه سَتَر الحقّ وغطَّى عليه، وسُمِّي اللَّيل كافرًا؛ لستره الأشياءَ بظلامِهِ[4]،

5) ﴿مُّسْلِمُونَ﴾: الإِسلامُ والاستِسلامُ: الانقيادُ. والإسلامُ مِنَ الشّريعة: إِظهار الخُضوع وإظهار الشَّريعة والتزامُ ما أتى به النَّبيُّ ﷺ، يُقالُ: فُلانٌ مُسلِمٌ، وفيه قولانِ: أحدهما هو المُستَسلِمُ لأمر اللَّه، والآخر هو المُخلِصُ للَّه العبادةَ، مِن قَولِهِم: سَلَّمَ الشَّيءَ لفُلانٍ، أي: خَلَّصَهُ، وسَلِمَ له الشّيءُ، أي: خَلَصَ له[5].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ما كان لبشرٍ ولا يَنبغي له - كذلك - أَنْ يأمرَكُم أَنْ تتَّخذواْ الملائكِةَ والنَّبيِّين أربابًا تَعبُدونَهُم مِن دُون اللّه، أيجوزُ منه أن يأمرَكُم بالكفر باللّه، بعد انقيادكم إليه، واستِسلامكم له؟![6]، لأنّه إن أمرهم بعبادة غير اللّه، يكون قد أمرهم بالكفر، وهو إنّما

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/375، والفيروز آبادي، القاموس المحيط، (باب الذّال، فصل الجيم).
(2) ابن سيده، المحكم: (تخذ).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ملك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسَّمين، عُمدة الحفّاظ: (كفر).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سلم).
(6) جماعة من علماء التَّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 60.

ليس لبشرٍ أن يأمر النّاس باتّخاذ الملائكة والنّبيين أربابًا

بعثه اللّه لدعوتهم إلى الإسلام الخالص من الشّوائب، وكلّ ما يمكن أن يقوله للنّاس أن يكونوا ربّانيين مخلصين للّه، في عبادته وتقواه، هُداةً إليه بما يعلمون من كتبه المنزلة على رسله، ومنهم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ ﴿وَلَا﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ﴾:

تَبرئةُ اللهِ تَعَالَى لِأَنْبِيَائِهِ مِنَ المَزَاعِمِ البَاطِلَةِ دِفَاعٌ عَنِ الرِّسَالَةِ السَّامِيَةِ الَّتِي يَحْمِلُونَهَا

تأتي (لا) لتَأكيدِ مَعْنَى النَّفي الشَّائع في الاستعمالِ، ولا سيّما عِندَ طُول العَهد وتَخلُّل الفَصل، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ﴾: ما كان لبشرٍ أن يُؤتيهُ اللّه تعالى ذلكَ ويُرسله للدَّعوة إلى اختِصاصه بالعبادة وتَرك الأنداد، ثمَّ يأمر النَّاس بأن يكونوا عبادًا له، ويأمُرَكم أن تتَّخذوا الملائكةَ والنَّبيِّينَ أربابًا، فهو كقولك: ما كان لِزيدٍ أن أكرمَهُ ثمَّ يُهينَني ولا يَستَخفَّ بي.

وتأتي (لا) أيضًا للنّفي، على أنَّ السّياق واردٌ في نَهْيِه ﷺ عَن عبادة الملائكةِ والمسيحِ وعُزَيْر عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فلمَّا قيل له: أنتَّخذكَ ربًّا؟ قيل لهم: (ما كان لبشرٍ أنْ يتَّخذَهُ اللّه تعالى نبيًّا ثمَّ يأمر النَّاس بعبادته وينهاهم عَن عبادة الملائكة والأنبياء)، مع أنَّ مَن يُريد أن يَستَعْبِدَ شخصًا يقول له: ينبغي أن تَعبُدَ أمثالي وأَكْفَائِي، وعلى هذا يكون المقصودُ مِن نفي الأمر: النَّهيَ، وإنْ كان أعمَّ منه؛ لكونه أمسَّ بالمقصود وأَوفقَ للواقع[2].

والفعلُ المُستَكِنُّ في ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ﴾ راجعٌ لِلْبَشَرِ على الوجه الأوَّل، وعلى الثَّاني راجعٌ لرَسُولِ اللّه ﷺ أو للبشر[3].

---

(1) دروزة، التّفسير الحديث: 7/177.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/378، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/25، والآلوسّي، روح المعاني: 2/200.

(3) الهمذانّي، المنتخب الفريد، : 2/80.

دِلَالَةُ الِالْتِفَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ﴾:

الْـقَـصْـدُ مِـنْ خِـطَـابِ الـلـهِ تَعَالَى لِلْمُذنِبينَ إقَـامَـةُ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ

في قولِه: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ﴾ التفاتٌ مِن طريقةِ الغَيبةِ إلى الخطابِ الواردِ قوله: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 79]؛ إذ مقتضى الظّاهر أن يُقال: (ولا يأمرهُم أن يتّخذوا)، إلّا أنّهُ عُدِلَ عن الغَيْبَة إلى الخطاب؛ فالمُواجَهُ بالخطاب هُمُ الّذين زعموا أنَّ عيسى عليه السلام قال لهم: ﴿كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1]، ونكتة الالتفاتِ إلى الخطابِ: "هو الإمساكُ بِمَخانِق علماء أهل الكتاب، وهم مُتَلبِّسون بهذا الضَّلال الذي هُم فيه، يَطْعَمُون منْهُ ويُطْعِمُون أتباعَهم مِن هذا الزَّاد الفاسدِ الذي يُهْلِكُ مَن يتناولُه ويتزوّد منه"[2].

بَلَاغَةُ الْمُشَاكَلَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ﴾:

تَبرِئَةُ اللهِ تَعَالَى لِأَنْبِيَائِهِ دَلِيلٌ عَلَى غَيْرَتِهِ جل جلاله عَلَيْهِمْ

التَّعبيرُ بـ ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ﴾ مُشاكلةٌ لقوله: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾؛ لأنّهم زَعَموا أنَّ المسيح قال: إنّهُ ابن اللّه، فلمَّا نُفِيَ أنّه يقول ذلك نُفِيَ ما هو مِثلُهُ؛ وهو أن يأمرَهم باتِّخاذِ الملائكةِ أربابًا، أو لأنَّهم لمَّا كانوا يدَّعونَ التَّمسُّكَ بالدِّين كان سائرُ أحوالِهم مَحمولةً على أنَّهم تَلقَّوها منه، أو لأنَّ المسيحَ لم يَنْهَهُم عَن ذلك في نفس الأمر؛ إذ هذا ممَّا لا يَخطُرُ بالبال أن تَتلبَّسَ به أمَّةٌ مُتَدَيِّنَةٌ، فاقتَصَرَ - في الرَّدِّ على الأمَّةِ - على أنَّ أنبياءَهم لم يأمُرُوهم به؛ ولذلك عقَّبَ بالاستفهام الإنكاريِّ، وبالظَّرف المُفيد مزيدَ الإنكارِ على ارتكابهم هذه الحالة، وهي قوله: ﴿أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[3].

أَثَرُ الْقِرَاءَاتِ فِي تَوْسِيعِ الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ﴾:

قُرِئَ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ﴾ بالرَّفع والنَّصب[4]؛ فوجه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/297.

(2) الخطيب، التفسير القرآنّي للقرآن: 2/507.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/296.

(4) ابن الجزري، النشر: 2/240.

أَهَمِّيَّةُ الْقِرَاءَاتِ فِي تَفْسِيرِ كِتَابِ اللهِ الْعَزِيزِ

النَّصب: أنَّه معطوفٌ على ﴿يُؤْتِيَهُ﴾ من قوله: ﴿أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾. ووجهُ الرَّفعِ: أنَّه استأنفَ الكلامَ مُبتَدِئًا، ويُؤيِّدُهُ ما ورد في قراءة عبد اللّه بن مسعود: (وَلَنْ يَأْمُرَكُمْ)[1]، فلمّا فَقَدَ النَّاصِبَ في ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾ عاد إلى إعراب ما وجب لَهُ بالأصالةِ وهو الرَّفْعُ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِنَفْيِ الْأَمْرِ دُونَ التَّصْرِيحِ بِالنَّهْيِ:

دِقَّـةُ التَّـعْـبِـيرِ الْـقُــرْآنِيِّ فِي رَدِّ الـدَّعَـاوَى وَإِبْطَالِهَا

عُبِّر بنفي الأمر في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾ دون النَّهي بأن يَرِدَ النَّظمُ (وَيَنْهَاكُمْ أن تتَّخذوا)؛ وذلك باعتبار دَعْوَاهُم وتقوُّلِهم على الرُّسل، كما قال ابن عاشور: "ولعلَّ التَّعبير بقوله: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾ مشاكلة لقوله: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾؛ لأنَّهم زعموا أنَّ المسيحَ قال: إنّه ابن اللّه؛ فلمَّا نفى أن يقول ذلك نفى ما هو مثله، وهو أن يأمرهم باتِّخاذ الملائكة أربابًا"[2].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالِاتِّخَاذِ فِي قوله: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًاۗ﴾:

عِبَادَةُ غَيْرِ اللهِ تَـعَـالَى خِـلَافُ الْـفِـطْـرَةِ الَّتِي فَطَرَ اللهُ الْخَلْقَ عَلَيْهَا

المُلاحظ في تعبير القرآن عن مواقف المشركين في اتِّخاذ الآلهة من الأصنام والأوثان، وعبادة الملائكة والعجل أنْ يَرِدَ التَّعبيرُ عنها بالفعل من مادَّة الاتِّخاذِ، وصيغة الافتعالِ تدُلُّ على التَّكلُّف في الفعل، وبذل الجهد؛ وذلك أنّ ما يفعله المشركون خلافُ الفطرة، والعمل على خلاف الفطرة الّتي فطر النَّاس عليها يَحتاج إلى مزيد جهدٍ لِلْإِقْنَاعِ والتّأثير.

فَائِدَةُ التَّخْصِيصِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًاۗ ﴾:

سببُ تخصيص الملائكة والنّبيّين بالذّكر في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًاۗ ﴾ أنَّ الَّذين وُصِفوا من

(1) ابن خالويه، الحجة، ص: 111.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/296.

أهلِ الكِتابِ بعبادة غير الله تعالى لم يُحكَ عنهم إلَّا عبادةُ الملائكة وعبادةُ المسيح وعُزَيرٍ، فلهذا المعنى خصَّهما بالذِّكر[1]، أو أنَّ فيه تنبيهًا بالأعلى عن الأدنى؛ فإذا لم يجُز عبادةُ هؤلاءِ مع رفيع مكانتهم وعظيم شأنهم، فعبادةُ غيرهم أَوْلَى بالتَّحريمِ والنَّهي.

المَلَائِكَةُ وَالأَنْبِيَاءُ هُمْ أَشْرَافُ العِبَادِ الخُلَّصِ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ المَلَائِكَةِ عَلَى النَّبِيِّينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ﴾:

قُدِّم ذكر الملائكةُ على النَّبيِّين في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ﴾ للتّحذيرِ مِن اتِّخاذِ أندادٍ من دون الله؛ لأنَّ احتمال اتِّخاذ الملائكة أربابًا أَدخَل إلى النُّفوس؛ لاختلاف طبيعتهم عَن طبيعة البشر.

اخْتِلَافُ خِلْقَةِ المَلَائِكَةِ عَنْ خِلْقَةِ البَشَرِ مَظِنَّةٌ لِعِبَادَتِهِمْ

سِرُّ اخْتِيَارِ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ دُونَ (المُرْسَلِين):

عبَّر بـ ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ دُون المرسلينَ؛ لأنَّ كلَّ رسول نبيٌّ، وليس كُلُّ نبيٍّ رسولًا، فلو قِيلَ في هذا السِّياقِ: (والمُرسَلِينَ)؛ لوَقَعَ في الوَهم أنَّ المحظورَ هو اتِّخاذ الرُّسل أربابًا، أمَّا النَّبيُّون فلا؛ لأنَّ التَّحذيرَ لم يَشملهم فَدُفِعَ هذا التَّوهم بذكرِ ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾؛ لأنَّه يَشملُ الرُّسلَ والنَّبيِّينَ جميعًا[2].

سَدُّ الشَّرْعِ جَمِيعَ طُرُقِ الشِّرْكِ

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِقَوْلِهِ ﴿أَرۡبَابًاۗ﴾ دُونَ (آلِهَة):

عُبِّر بالأرباب دون الآلهة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ﴾؛ بناءً على زعمهم لِاعْتِقَادِهِم فِيهَا، وتنفيرًا من اتِّخاذهم آلهةً؛ إذ الإقرار بانفراد الله تعالى بالرُّبوبيَّةِ عامٌّ لجميع الخلق إلَّا من كابَرَ، فكان ذكرُ الرُّبوبيَّةِ أكثرَ تنفيرًا من عبادةِ المذكورينَ في الآية.

المُبَالَغَةُ فِي التَّنْفِيرِ مِنَ الشِّرْكِ وَأَسْبَابِهِ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/273، والخازن، لباب التّأويل: 1/263.

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/169.

دِلَالَةُ الِاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾:

الأمرُ بِالْكُفْرِ مُنْكَرٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ يُرادُ به الإنكار؛ أي: لا يفعل ذلك، فهو مَجازٌ مرسلٌ مركَّبٌ، ولم يجرِ الاستفهامُ على حقيقتِهِ؛ لصُدُوره عَنِ اللّٰه ﷻ، وإنَّما جازَ أن يُنقَلَ إلى الإنكار؛ لأنَّه ممَّا أقَرَّ به الـمُخاطَبُ، وظهر افتضاحُهُ، وبانَ سُقوطه؛ فهو ممَّا لا يُخفَى فسادُه؛ فلذلك جاءَ الكلامُ على السُّؤال، وإنْ لم يكن معناه تَعَرُّف الجواب[1].

وهذا الاستفهام بعد كونهم مسلمينَ أفحشُ وأقبحُ، إذِ الأمرُ بالكفر على كلّ حالٍ مُنكَرٌ، ومعناهُ: أنَّه لا يأْمُرُ بكُفرٍ؛ لا بعدَ الإسلام ولا قَبلَهُ، سواءٌ كان الآمرُ اللّٰه تعالَى أم الَّذي استَنبَأَهُ اللّٰه سبحانه[2].

تَعْيِينُ الْمُخَاطَبِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾:

الإِسْلَامُ هُوَ الِاسْتِسْلَامُ للهِ تَعَالَى بِالتَّوْحِيدِ

في الآية دلالةٌ على أنَّ الـمُخاطَبِينَ كانوا مُسلِمِينَ، وذلك لقوله تعالى: ﴿أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ فهو يقتضي أنَّهم كانوا مُسلِمِينَ، والخطابُ للنَّصارى وليسَ دِينُهُم مما يُطلَقُ عليه أنَّه إسلامٌ، وإنَّما أُرِيدَ بالإسلام هنا الإيمانُ، أي: غيرِ مُشرِكِينَ، بقرينة قوله: ﴿بِٱلۡكُفۡرِ﴾. ويحتمِلُ أن يكونَ الخطابُ للمُسلِمِينَ بناءً على ظاهر قوله: ﴿إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾؛ لأنَّ اليهودَ والنَّصارى لم يُوصَفوا بأنَّهم مُسلِمون في القرآن[3].

دِلَالَةُ الظَّرْفِ ﴿بَعۡدَ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾:

﴿بَعۡدَ﴾ من قول اللّٰه تعالى: ﴿بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ ظرفُ زَمان، أفادَ مَزيدًا من الإنكارِ على ارتكابِهِم هذهِ الحالةِ، ويَنْتَصِب

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 5/388، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/273، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/376.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/234.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/235، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/297.

الْعَوْدُ إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ أَمْرٌ مَذْمُومٌ وَمُحَرَّمٌ شَرْعًا

﴿بِٱلۡكُفۡرِ﴾ أو: بـ ﴿يَأۡمُرَكُمۡ﴾، و: ﴿إِذۡ﴾ مضافةٌ إلى الجملة الاسميّة، وأُضيف إليها: ﴿بَعۡدَ﴾، ولا يُضافُ إليها إلَّا ظرفُ زمان.

وجملة ﴿أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ تضمَّنت زيادةً في تَقبيح الأمر بالكُفر بَعد تحقيق الإسلام وثُبوته في قلوب المُخاطَبين، وهذا الثّبوت دُلَّ عليه بالجملة الاسميّة[1].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/235، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/296، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/169.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: 81]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين عهد الله للنّبيّين، وما كان من اليهود من قُبح القول والفعل

لَمَّا حكى اللّه تعالى عن أهل الكتابِ قبائحَ أقوالهم وأفعالهم، وكان ممَّا ذَكَرَ من قبائحهم اشتِرَاءَهم بآيات اللّه ثمنًا قليلًا، وذكر ما يترتّب على ما يؤولُ أمرُهم إليه في الآخرة، وبيَّن أنّ منهم مَن بدَّلَ في كتابه وغيَّرَ وَصفَ رسول اللّه ﷺ، فجاءت هذه الآية لتُقيمَ الحجَّةَ على أهل الكتاب وغيرهم ممّن أنكر نُبُوَّتَهُ ودينَهُ، فذكر أخذَ الميثاق على أنبيائهم بالإيمان برسول اللّه ﷺ، والتَّصديق له، والقيام بنُصرَته، وإقرارهم بذلك، وشهادَتهم على أنفسهم، وشهادته تعالى عليهم بذلك، وهذا العهدُ مذكورٌ في كُتُبهم، وشاهدٌ بذلك أنبياؤُهم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَخَذَ﴾: الأصلُ فيه حَوزُ الشَّيءِ وجَبيُهُ وجَمعُهُ، تَقولُ: أخَذتُ الشَّيءَ آخُذُهُ أخذًا، وهو خلاف العطاء، وهو التَّناول[2].

2) ﴿مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: الميثاقُ: العَهدُ، والجمعُ المواثيقُ على الأصل، والمَوثِقُ: الميثاقُ. والمواثَقَةُ: المُعاهدةُ. ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ [المائدة: 7]. وأوثَقَهُ في الوَثاق، أي: شدَّهُ[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/235.
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).
(3) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط، والجوهريّ، الصّحاح: (وثق).

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾، أي: أخذ العهد عليهم بأن يؤمنوا بمحمّد ﷺ، وأخذ العهد بمعنى الاستحلاف. وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 66]، أي: ميثاقا، جمعه مواثيق على الأصل، ومياثيق على اللّفظ، ومياثق في ضرورة الشّعر. وأنشد الفرّاء لعيّاض بن درّة الطّائي:

حِمًى لَا يَحِلُّ الدَّهْرَ إِلَّا بِإِذْنِنَا وَلَا نَسْأَلُ الْأَقْوَامَ عَقْدَ الْمَيَاثِقِ[1].

وأمّا لفظ ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، فجمع (نبي) والنبي مأخوذ من العُلُوّ؛ لشرفه، فالنَّبيّ أرفعُ خَلقِ الله. والنَّبيُّ بغير الهمز أبلغُ من النَّبِيء بالهمز؛ لأنَّه ليس كلّ مُنَبَّإٍ رفيعَ القَدر والمحلِّ[2].

3) ﴿ءَاتَيْتُكُم﴾: الإيتاءُ: الإعطاء. آتَى يؤتي إيتَاءً وآتاهُ إيتاءً، أي: أعطاه. ويُقالُ: لفلانٍ أَتْوٌ، أي: عَطاء. وآتَاه الشَّيء، أي: أعطاه إيَّاه. وفي التَّنزيل العزيز: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النّمل: 23]؛ أراد وأُوتيَت مِن كلِّ شَيءٍ شَيئًا[3]، "وفي الكشّاف: اشتهر الإيتاء في معنى الإعطاء، وأصله الإحضار، وقال شيخنا: وذكر الرّاغب أنّ الإيتاء مخصوص بدفع الصّدقة؛ قال: وليس كذلك، فقد ورد في غيره: كـ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ﴾ [مريم: 12]، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الصافات: 117]، إلّا أن يكون قصد المصدر فقط"[4].

4) ﴿كِتَٰبٍ﴾: الكَتبُ: ضمُّ أديم إلى أديم بالخياطة، يُقال: كَتبتُ السِّقاء، وفي التَّعارفِ ضمُّ الحروف بعضها إلى بعض بالخطِّ، وقد يُقالُ ذلك للمَضمُوم بعضها إلى بعضٍ باللَّفظ، فالأصلُ في الكتابة النَّظم بالخطّ، لكنْ يُستعارُ كلُّ واحد للآخر، والكتاب في الأصل مصدرٌ، ثمّ سُمِّي المكتوب فيه كتابًا، ويكون اسمًا للصّحيفة مع المكتوب فيه، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النّساء: 153]، فإنَّه يعني صحيفةً فيها كتابةٌ[5].

5) ﴿وَحِكْمَةٍ﴾: الحُكمُ المَنعُ مِنَ الظُّلم. وسُمِّيَت حَكَمَةُ الدَّابَّة؛ لأنّها تَمنعُها، يُقالُ: حَكَمتُ الدَّابَّة وأحكمتُها. ويُقالُ: حَكَمتُ السَّفِيهَ وأحكَمتُه، إذا أَخَذتَ على يديهِ. والحكمةُ

(1) الزَّبيديّ، : تاج العروس: (وثق).
(2) الرّاغب، المفردات: (نبي)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نبو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أتي).
(4) الزَّبيدي، تاج العروس: (أتى).
(5) الرّاغب، المفردات: (كتب).

هذا قياسُها، لأنّها تَمنَعُ مِنَ الجهل. وتقولُ: حَكَّمتُ فلانًا تَحكيمًا منعتُه عمَّا يُريد[1].،
والحِكمة: إصابة الحقّ بالعلم والعقل

6) ﴿جَآءَكُمۡ رَسُولٞ﴾: جاءَ يَجيءُ ومَجيئًا، والمجيءُ كالإتيان، لكنِ المجيءُ أعمُّ؛ لأنَّ الإتيانَ مجيءٌ بسهولة، والمَجيءُ يُقال اعتبارًا بالحُصُول، ويُقال: جاءَ في الأعيان والمعاني، ولِمَا يكون مجيئُه بذاته وبأمره، ولِمَن قصد مكانًا أو عملًا أو زمانًا، قال اللّه ﷻ: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾ [يس: 20][2]، وقوله ﴿رَسُولٞ﴾: أصل الرِّسْلِ: الانبعاث على التُّؤدة، ويُقال ناقة رِسْلَةٌ: سهلة السَّير، وإبلٌ مراسيل: مُنبعثةً انبعاثًا سهلًا، ومنه الرَّسُولُ المُنبعِث، وتُصُوِّرَ منه تارةً الرِّفق، فقيل: على رِسلك، إذا أمرته بالرّفق، وتارةً الانبعاثُ فاشتُقّ منه الرّسول. وجمع الرّسول رُسُلٌ. ورُسُلُ اللّه تارةً يُراد بها الملائكة، وتارةً يُراد بها الأنبياء[3]، والرّسول: بمعنى الرّسالة، يؤنّث ويذكّر، وتذكيره معلوم على نحو اللّفظ المشروح، وهو الرّسالة والمرسل، على نحو قول كثيّر عزّة:

لَقَدْ كَذَبَ الوَاشُونَ مَا بُحْتُ عِنْدَهُمْ بِسِرٍّ، وَلَا أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولِ[4]

7) ﴿مُّصَدِّقٞ﴾: الصِّدق: نَقيضُ الكذبِ، صَدَقَ يَصدُقُ صَدقًا وصِدقًا وتَصداقًا. صَدَّقَهُ: قَبِلَ قَولَه. وصدَقَه الحَدِيثَ: أنبأه بالصِّدق؛ قال الأعشى:

................................*** فصدَقتُها وكَذَبتُها والمَرءُ يَنفَعُه كِذابُهُ[5]

ورجلٌ صَدُوقٌ: أبلغُ مِنَ الصّادق، والصِّدِّيقُ: المُصَدِّقُ. وفي التَّنزيل: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞ﴾ [المائدة: 75]، أي: مُبالغةٌ في الصِّدق والتَّصديق على النَّسَب، أي: ذاتُ تَصديق[6].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حكم).
(2) الرّاغب، المفردات: (جاء).
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (رسل).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (رسل).
(5) البيت منسوب إلى الأعشى، وقد وردت في الدّيوان قصيدة بنفس الوزن والرويّ، ولكن لا يوجد فيها البيت، وهي في مدح رجل من كندة، اسمه ربعة بن حيوة، ومطلعها:
أَصْرَمْتَ حَبْلَكَ مِنْ لَمِيـ *** سَ الْيَوْمَ أَمْ طَالَ اجْتِنَابُهْ
والبيت مذكور في شرح ديوان المتنبي للعكبريّ: 1/3، وفي تحسين القبيح وتقبيح الحسن لأبي منصور الثّعالبيّ، ص: 23، وفي تاج العروس للزبيدي: 6/26، وفي المحكم، لابن سيده: 6/189، وفي المخصّص له أيضا: 1/291.
(6) لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (صدق).

8) ﴿لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ﴾: الإيمان: التَّصديقُ نفسُه، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ [يوسف: 17]، أي: بمُصَدِّق. ويُقال: لكلِّ واحد من الاعتقاد والقَول الصِّدق، والعمل الصَّالح: إيمان. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ [البقرة: 143][1]

9) ﴿وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ﴾: النَّصر: إعانة المَظلوم؛ نصَره على عَدُوِّهِ ينصُره، ونصَره ينصُره نصرًا[2]، قال ابن عبّاس: "ما بعث الله نبيّاً من الأنبياء إلّا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمّداً وهو حيّ ليؤمننَّ به ولينصُرَنّه، وأمرَهُ أن يأخذ الميثاق على أمّته".

10) ﴿ءَأَقۡرَرۡتُمۡ﴾: الإقرارُ: إثباتُ الشَّيء، قال تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [الحَجّ: 5]، وقد يكون ذلك إثباتًا، إمَّا بالقلب، وإمَّا باللِّسان، وإمَّا بهما، ويُضادُّ الإقرارَ الإنكارُ، وأمَّا الجُحودُ فإنَّما يُقال فيما يُنكَرُ باللِّسان دُون القَلبِ، قال: ﴿ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾ [البقرة: 84][3].

11) ﴿إِصۡرِيۖ﴾: الإصرُ والأَصرُ: الثِّقلُ. والعَهدُ المُؤَكَّدُ الَّذي يُثبِّط ناقِضَه عَنِ الثَّواب والخَيراتِ. والجَميعُ آصارٌ[4]، "وانّما سمّي الْكتاب إصرًا، لأَنّ الإصر: الْعَهْد، قَالَ الله جلّ وَعزّ: ﴿وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ﴾ أَي: عهدي، وَفِي الْكتاب مَا يَأْخُذهُ الْمُتَبَايعَانِ من الْعَهْد ويشترطانه، وَيجوز أَن يكون سُمّي إصْرا، لِأَنَّهُ يأصر إلى الْحقّ، أي: يعْطف إليه، مثل يأظر، وَمِنْه يُقَال: مَا بيني وَبَينه آصرة، أَي: عاطفة رحم ولا مودّة"[5].

12) ﴿فَٱشۡهَدُواْ﴾: الشُّهودُ والشَّهادةُ: الحضور مَعَ المُشاهدة، إمَّا بالبصر، وإمّا بالبصيرة، وقد يُقالُ للحضُور: مُفردًا، قال الله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [السّجدة: 6]، لكن الشُّهود بالحضور المُجرَّد أَولَى، والشَّهادة مع المُشاهدة أَولَى. والشَّاهدُ العَالِمُ الَّذي يُبَيِّنُ ما عَلِمَه[6]، والشَّهادة: قول صادر عن عِلم حصل بمشاهدة بصيرةٍ أو بصر.

(1) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (أمن).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نصر).
(3) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (قر).
(4) ابن عباد، المحيط، والجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (أصر).
(5) ابن قتيبة، غريب الحديث: 2/509.
(6) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (شهد).

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

عهد الله في أزله للنّبيّين، أن يقرّوا بالإيمان بآخر المرسلين

أخذَ اللّه العَهد على النَّبيين واحدًا واحدًا، فيما ندبهم له، وفيما دعاهم إليه، وهو أن تتوحَّد في مجال الجهاد رايتهم، وألّا ينسخ بعضهم بعضًا أو ينعزل بعضهم عن بعض، فإذا جاءهم رسولٌ مصدّقٌ لما معهم، كان على كلِّ نبيٍّ أن يصدِّقه، ويؤمن به، وينصره فيما يدعو إليه؛ لأنّ نصرة هذا الرّسول نصرةٌ لهم جميعًا[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

تضييعُ أهلِ الكِتابِ لِميثاقِ اللهِ تعَالَى

تَعْيِينُ المَعْطُوفِ عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾:

عُطِفَ قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾ على ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ [آل عمران: 80]، أي: ما أمركم الأنبياءُ بشيءٍ ممَّا تقوَّلتُم عليهم، وقد أمرُوكم بغير ذلك فأضعتُمُوهُ حين أخذَ اللّهُ ميثاقَهم ليُبَلِّغُوهُ إليكم، فالمعطوفُ هو ظرفُ (إذ) وما تعلَّقَ به.

ويجوزُ أن يتعلَّقَ ﴿وَإِذۡ﴾ بقوله: ﴿ءَأَقۡرَرۡتُمۡ﴾ مُقدَّمًا عليه، ويَصِحُّ أن تُجعَلَ ﴿وَإِذۡ﴾ بمعنى زمان غير ظرفٍ، والتّقدير: واذكُر إذ أخذ اللّه ميثاق النَّبيّين، فالمقصود: الحكاية عن ذلك الزَّمان وما معه، فيكونُ ﴿قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ﴾ معطوفًا بحذف العاطف[2].

دِلَالَةُ إِسْنَادِ أَخْذِ المِيثَاقِ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾:

شَرَفُ المِيثَاقِ الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى النَّبِيِّينَ

عُبِّر عَن حُصول الميثاق بالأخذ في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ إظهارًا له وتَمكِينًا منه تَمكُّن الآخذ من المأخوذ، وزِيدَ هذا التَّمكُّن قوّة وشرفًا بإسناد الأخذ إلى الاسم الأحسن وما يدلُّ من صفات الجلال والجمال والكمال، ثمَّ زِيدَ

(1) الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 1/509.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 5/338، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/463، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/235، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/289.

شرفًا بأنَّ المُعْطَى لهذا العَهدِ هُمُ النَّبيُّون، وهم أكرمُ البَشَرِ عند اللّه تعالى.

واختيرتْ صيغة جمع ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ - وهو جمع سلامةٍ - للدِّلالةِ على الشَّرف، وعُلُوِّ المكانة، ولمَّا كانتِ المواثيق والعُهود والعُقود يُطلَبُ فيها سلامة كُلّ أطرافها مِنَ العُيوب القادِحَة في الأهليّة؛ كان اختيار جمع السَّلامة مُشيرًا إلى هذه المعاني في الأنبياء جميعًا.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ ﴿أَخَذَ﴾ مَعَ الْمِيثَاقِ:

عَظَمَةُ الْمِيثَاقِ وَوُجُوبُ التَّمَسُّك بِهِ

النَّاظر في استخدام مادَّة (أخذ) في القرآن يجد أنَّها تُستعمل في الأمور العِظام، مثل: الهلاك والانتقام والعِقاب ونحو ذلك، وتُستعمل أيضًا في باب الالتزام بالعهد والتَّمسك به، وهذا ظاهرٌ في آيات القرآن الكريم؛ ففي القَهر والعَذاب قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ [هود: 102]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٣٠﴾ [الأعراف: 130]، وقوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ﴾ [العنكبوت: 40]، وفي الالتزام بالعَهد والتَّمسك به قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الأعراف: 172]، ومع بني إسرائيل قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [البقرة: 83]، وهذا ذُكِرَ في مَواضِع كثيرة، وهنا جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

الرَّدُّ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ فِي إِنْكَارِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ

فهذه المادّة تُستعمل في دلالة الالتزام والتَّمسك بالعَهد، وهذا هو المُراد في هذه الآية؛ لأنَّ الأخذ في اللُّغة حوزُ الشَّيء وتحصيلُه، وفي هذا تبرئة لساحة الأنبياء، فكأنَّهم هم الّذين حَرَصوا على هذا الميثاق والالتزام به، وما وقع من مُعارضات إنَّما كانت من أقوامهم.

سِرُّ اخْتِيَارِ الْفِعْلِ ﴿أَخَذَ﴾ بِصِيغَةِ الْمَاضِي:

عُبِّر بالفعل الماضي ﴿أَخَذَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ

﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ للدّلالة على تحقُّق الوقوع، بمعنى أنَّ هذا الميثاق، وما يتضمَّنُه من الإيمان بالنَّبيِّ ﷺ، ونصرته، والإقرار بذلك؛ أمرٌ قدَّره الله أزلًا، وفي ذلك ردٌّ على أهل الكتاب الَّذين يُنكرون نبُوَّته ﷺ.

تَوْجيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ﴾:

الإِعْـلَامُ بِعُلُوِّ قَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ

أُسنِدَ الأخذ إلى الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾؛ لأنَّ هذا الميثاق تكليفيٌّ، على الأنبياءِ جميعًا الالتزامُ والوفاء به؛ لذا أُضْفيَ عليه المهابة والجلال بإسناده إلى الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾، وفي هذا إعلاءٌ لقَدره ﷺ، بخلاف آية الأعراف؛ وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الأعراف: 172] فهو في أمر الرُّبوبيّة، وهو مقام الإنعام؛ لذا جاء الإسناد لاسم الله (الرَّبّ)؛ إذ هو دالٌّ على التَّفضُّل والإنعام على خلقه، مع ملاحظة أنَّه لم يُصرَّحْ بلفظ الميثاق في الآية.

عِلَّةُ اخْتِيَارِ لَفْظِ (الْمِيثَاقِ) دُونَ (الْعَهْدِ):

قُـــوَّةُ دِلَالَـــةِ الْمِيثَاقِ عَلَى لُزُومِ التَّمَسُّكِ بِهِ

اختِير لفظُ الميثاق في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ دون العهد؛ لأنَّ الميثاق في دلالة الالتزام أقوى من العَهد والعَقد؛ لذلك استعمله القرآن الكريم في الزَّواج وسمَّاه ميثاقًا غليظًا، وفي تشريعات بني إسرائيل قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا﴾ [البقرة: 83]، وفي الحفاظ على حرمة الدّماء والأوطان قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ﴾ [البقرة: 85]؛ ولذا اختيرَ لفظُ الميثاق لِلْإيمَان بالنَّبيّ ﷺ ولِنصرته من جميع الأنبياء وأقوامهم.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿رَسُولٞ﴾ من قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ﴾:

عُلُوُّ مَنْزِلَةِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ

نُكِّر ﴿رَسُولٞ﴾ من قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ

﴿لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ﴾ مع أنَّ المرادَ به معيَّنٌ وهو نبيُّنَا محمَّد ﷺ؛ وذلك إيماءٌ إلى تعظيم قدره وتفخيم مكانتِهِ ورِفعة شأنه ﷺ.

بَلَاغَةُ الْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾:

الْمِيـثَـاقُ الَّـذي أخذَهُ اللهُ تَعَالَى مُـلْـزِمٌ لِأَتْـبَـاعِ الْأَنْبِيَاءِ

في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ إيجازُ حذفٍ، وذلك على رأي من يقول: إنَّ الميثاق أُخذَ على أُمم الأنبياء ﷺ، فيكون قد حُذِفَ المضاف وأُقِيمَ المضاف إليه مقامه، فيكون التَّقدير: وإذ أخذ اللّٰه مِيثاقَ أُمم النَّبيِّين أو أتباعهم.

وكذلك يتعيَّنُ تقدير محذوفٍ آخر في هذا النَّظم الكريم في قوله: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾، والتَّقدير: وإذ أخذَ اللّٰه ميثاقَ النَّبيِّين لتُبَلِّغُنَّ النَّاس ما آتيتُكُم مِنَ كتاب وحكمة؛ وذلك لدلالة الكلام عليه؛ لأنَّ لامَ القسم إنَّما تقعُ على الفعل، فلمَّا دَلَّت هذه اللَّام على هذا الفعل؛ حُذِفَ اختصارًا، وهذا من بديع الإيجاز(1).

نُكْتَةُ تَخْصِيصِ ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بِالذِّكْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ مَعَ أَنّ الْمُرَادَ أُمَمُهُم:

تَـعَـدُّدُ الْمَـعَـانِي إِثْـــرَاءٌ لِـلـنَّـصِّ الْقُرْآنِيِّ

اختُلِفَ في علَّةِ تخصيص النَّبيِّين بالذِّكرِ في قول اللّٰه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ مع أنَّ المرادَ أُمَمُهُمَ، وذلك على أقوال:

أحدها: أنَّ المعنى على ظاهره، فإذا كان هذا حُكم الأنبياء ﷺ؛ كانَتِ الأممُ بذلك أَوْلَى وأحرَى، فيكون هذا من التَّنبيه بالأعلى عن الأدنى.

ثانيها: أنَّ معناه أخذُ الميثاق مِنَ النَّبيين وأمَمِهم، واستُغنيَ بذِكر النَّبيِّين عَن ذِكر أُمَمِهم، فيكون هذا من باب الاكتفاء؛ وهو أن يستدعيَ المقامُ ذكرَ شيئَينِ فيُكتفى بأحدهما عن الآخر.

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/277، والدّريهم، سورة آل عمران دراسة بلاغيّة: 1/192.

ثالثها: أنَّ إضافةَ الميثاق إلى النَّبيّين إضافةٌ إلى الفاعل، والمعنى: وإذ أخَذَ اللّه الميثاقَ الَّذي وثَّقه الأنبياءُ على أممهم.

رَابِعُها: أنَّ المرادَ أولادُ النَّبيّين على حَذف المضاف، وهم بنو إسرائيل: وسَمَّاهم نَبيّين تهكُّمًا بهم؛ لأنَّهم كانوا يقولون: نحن أَوْلَى بالنُّبوَّة من محمَّد ﷺ؛ لأنَّا أهلُ الكتاب، والنَّبيُّون كانوا منَّا(1).

تَوْجِيهُ الْقِرَاءَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾:

التَّكَامُلُ الدّلَالِيُّ لِلْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ

قوله تعالى: ﴿لَمَآ﴾ يُقرَأ بكسرِ اللَّام - وهي قراءة حمزةَ -، وفَتحِها - وهي قراءة الباقين -(2)؛ فوجه كسرِهَا: كونُهَا حرفًا جارًّا، وتكون (مَا) موصولةً بمعنى الَّذي، والمعنى: لِلَّذي آتيتُكم، ووجْهُ الفَتْحِ: كونُهَا لامَ تأكيد، وتكونُ (مَا) صِلَةً، كقوله: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 159]، أو تكون اللَّامُ لام القسمِ و(ما) بعدها شرطيَّة، وجوابها: ﴿لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡتُكُم﴾؛ يُقرَأ بالنُّون والألف ﴿ءَاتَيۡنَٰكُم﴾، وبالتَّاء من غير ألف ﴿ءَاتَيۡتُكُم﴾(3)، فوجهُ الأوَّلِ وهو من قرأ ﴿ءَاتَيۡنَٰكُم﴾: أنَّ اللّه تعالى أخبر عَن نفسه بنون العظمَةِ، ووجهُ الآخر وهو من قرأ ﴿ءَاتَيۡتُكُم﴾: أنَّه أُتِيَ بالكلام على ما يُوجبه الإخبار عَنِ المتكلِّم إذا أُخبر بفعله عَن نَفسه، فهذا نظيرُ قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ [الحجّ: 45]، فقد قرأها بالنُّون الجمهورُ، وقرأ أبو عمرو ويعقوب ﴿أَهۡلَكۡتُهَا﴾ بالتَّاء، والخَبران باللَّفظين عن اللّه ﷻ(4).

بَلَاغَةُ الِالْتِفَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَاتَيۡتُكُم﴾، و﴿ءَاتَيۡنَٰكُم﴾:

أَثَرُ الْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي ثَرَاءِ الْمَعْنَى

تعدّدتِ القراءات في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡتُكُم﴾، أو ﴿ءَاتَيۡنَٰكُم﴾ على النَّحو المتقدِّم بيانُهُ، وعلى كلتا القراءتين الْتِفاتَانِ.

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 2/682، وابن عرفة: تفسير ابن عرفة: 1/377، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/53.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/241.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/241.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/327.

أحدهما: الالتفاتُ مِنَ الغَيبة إلى التَّكلُّم في قوله: (آتينا) أو (آتَيْتُ)؛ وذلك للتَّصريحِ بالاسم الأحسن (اللّه) في قوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾، والاسمُ الظَّاهرُ يجري مجرى الغائبِ.

والآخر: الالتفاتُ من الغَيبَة إلى الخطاب في استعمال ضمير الخطابِ (كُمْ) من قوله: ﴿ءَاتَيۡنَٰكُم﴾ أو ﴿ءَاتَيۡتُكُم﴾؛ وذلك للتَّصريح بالاسمِ الظَّاهرِ؛ وهو ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

لو جرى على مُقتَضى تقدُّم الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ و﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾؛ لكان النَّظْمُ القرآنِيُّ: وإِذ أخَذَ اللّه ميثاقَ النَّبيِّين لما آتاهُم مِن كتاب.

وذهب بعض أهل العلم إلى أنَّ مثلَ هذا لا يدخُلُ تحت مسمًّى الالتفات، وإنَّما هو حكايةُ الحالِ، كقولِكَ: حلَف زيدٌ ليَفعَلَنَّ ولأَفعَلَنَّ؛ فالغَيبة مراعاة لتَقَدُّم الاسم الظَّاهر، والتَّكلُّم حكاية لكلام الحَالف، والآيةُ الكريمة من هذا[1].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْإِيتَاءِ دُونَ الْإِعْطَاءِ فِي قوله: ﴿لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم﴾:

عِظَمُ شَأْنِ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ

جاء التَّعبير بالإيتاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ﴾؛ لأنَّ الإتياء لا يكون إلَّا في الشَّيء العظيم، مثل القرآن والمُلك والحُكم والنبوَّة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧﴾ [الحِجر: 87]، وقال سبحانه: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ [آل عمران: 26]، وقال ﷻ في حقِّ داود عليه السلام: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: 251]، كلُّ هذه المعاني تكون مع الإيتاء الَّذي ليس للعَبد فيه دخلٌ ولا اجتهاد، إنَّما هو فضلٌ خالص للّه تعالى على من يختاره لرسالته، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا﴾ [الحجّ: 75]، وقال لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: 144].

أمَّا الإعطاء؛ فهو فِعلٌ له مقابل، أعطاني فأعطيته، ويكون في الشّيء القليل، قال تعالى: ﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ٣٤﴾ [النجم: 34]،

(1) السّمين، الدُّرّ المصون: 3/293، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/378.

وقد يَردُ العطاء مُفيدًا للكثرة كما في قوله: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ٢٠﴾ [الإسراء: 20]، وقد يَرد العطاء كُرهًا كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التّوبة: 29].

ولذا آثرَ القرآن الكريمُ التَّعبيرَ بفعل الإيتاء؛ لأنَّ المقام هنا يتعلَّق بالكتاب والحكمة، وهما من الأمور العِظَام.

سِرُّ تَقْدِيمِ الْكِتَابِ عَلَى الْحِكْمَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكْمَةٖ﴾:

تَعَلُّقُ الْحِكْمَةِ بِالْكِتَابِ مِنْ جِهَةِ الْفَهْمِ وَمَعْرِفَةِ الْأَحْكَامِ

النَّاظرُ في آيات القرآن الكريم يجدُ أنَّ الحكمةَ تُذكَرُ بعد الكتاب، كما في قول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولٗا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: 129]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولٗا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: 164]، إلى غير ذلك من الآيات، فقد جاءتِ الحكمة بعد الكتاب؛ وذلك لتعلُّقِهَا به من جهةِ فهمه، ومعرفةِ أحكامه، وما فيه من عِظات وعِبَر.

عِلَّةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ ﴿جَآءَكُمْ﴾ دُونَ (أَتَاكُمْ):

مَشَقَّةُ الْعُدُولِ عَنِ الْإِلْفِ

ذهبَ بعضُ العلماء إلى التَّفريق بين (جاء) و(أتى)، فقد قال الزَّركشيّ: إنَّ (جاء) تُقال في الجواهر والأعيان، و(أتى) في المعاني والأزمان[1]، وأيضًا إنّ (أتى) أخفُّ من (جاء)[2]؛ لذلك يمكن القول: إنّ التَّعبير بالمجيء في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ مُناسب لحال أمم الأنبياء في اتّباع النَّبيّ ﷺ، إذ إنّهم أَلفوا اتّباع أنبيائهم وكتبهم، فكانت دعوتهم للإيمان بالنَّبيّ ﷺ وتَرْكِ ما أَلِفوه أمرًا شاقًّا عليهم، وهذا ما يشير إليه لفظُ المجيء.

(1) هذا الفرقُ يردُّه مواضعُ من القرآن الكريم.
(2) الزركشي، البرهان: 4/80.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِلَفْظِ ﴿رَسُولٌ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾:

هَيمَنَةُ القُرْآنِ الكَرِيمِ عَلَى الكُتُبِ السَّابِقَةِ

عُبِّر بلفظ ﴿رَسُولٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ مع أنَّ السِّياقَ في ذكر النَّبيِّين؛ وذلك للإشارة إلى عُلُوِّ مكانة الرَّسول ﷺ؛ لأنَّ مقام الرِّسالة أعلى من مقام النُّبوَّة، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الكتاب المُنْزَلَ عليه كتابٌ مستقلٌّ مُهَيمِنٌ على الكُتب السَّابقة، وليس تابعًا لها.

فَائِدَةُ وَصْفِ الرَّسُولِ بِكَوْنِهِ مُصَدِّقًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾:

اتِّفاقُ الكُتُبِ الإِلَهِيَّةِ فِي التَّوْحِيدِ وَالنُّبُوَّاتِ وَأُصُولِ الشَّرَائِعِ

وصف النَّبيِّ ﷺ بقوله تعالى: ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ يُشْعِرُ أنَّ ما جاءَ به الرَّسول ﷺ موافقٌ لأصلِ التَّوراة والإنجيل قبل تحريفهمَا، ولا يَرِدُ على هذا أنَّ هذه الكتُبَ تخالفُ تشريعاتُهَا تشريعاتِ القرآن الكريم؛ لأنَّ المُرادَ بِالموافقة: الموافقةُ في التَّوحيد، والنُّبُوَّات، وأصول الشَّرائع، بخلاف تفاصيل الأحكام.

وأيضًا؛ فإنَّ المُرادَ بقوله: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ هو محمَّدٌ ﷺ، والمُرادُ بكونه مُصدِّقًا لما معهم: كونُ وَصْفِهِ وكيفيَّة أحوالِهِ مذكورَيْنِ في التَّوراة والإنجيل، فلمَّا ظهر على أحوالٍ مُطابقةٍ لِما كان مَذكورًا في تلك الكتب؛ كانَ نفسُ مجيئِهِ تصديقًا لِما كان معهم، فهذا هو المُرادُ بكونِهِ مُصدِّقًا لما معهم[1].

دِلَالَةُ المَعِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِّمَا مَعَكُمْ﴾:

العَوَامُّ تَابِعُونَ لِعُلَمَائِهِمْ

دَلَّت المعيَّة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ على أنَّ سياق الكلام عن علماء أهل الكتاب؛ لأنَّهم هم مَنْ يصطحبُ العِلم بحيث تصحُّ معيَّتُهم له، بخلاف العَوامِّ منهم، فهم تَبَعٌ لعلمائهم.

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/277.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ﴾:

عَالَمِيَّةُ دِينِ الْإِسْلَامِ؛ لِكَوْنِهِ خَاتِمَ الرِّسَالَاتِ

التَّعبير بالفعل المضارع ﴿لَتُؤۡمِنُنَّ﴾ و﴿وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ﴾ يشير إلى دوام الإقرارِ والتَّصديق بنبوَّته ﷺ وبشرعه، فليس الأمر مقصورًا على زمانٍ دون زمانٍ أو مكانٍ دون مكانٍ، فكلُّ أتباع الأنبياء عليهم أن يؤمنوا به ﷺ، وفي هذا إشارة إلى عالميَّة دين الإسلامِ وأنَّه خاتم الرِّسالات.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ﴾:

طَرِيقُ الدَّعْوَةِ شَاقٌّ لِوُجُودِ الْمُعَارِضِ الْمُعَانِدِ

التَّعبير بالنَّصرِ في قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ﴾ إشارةٌ إلى وجود من يُخالف النَّبيّ ﷺ في قبول دعوته، بل ويُعانده ويحاربه، فيُطلَبُ عندئذٍ نُصرَتُهُ ﷺ.

عِلَّةُ الْوَصْلِ وَالْفَصْلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾:

دِقَّةُ اسْتِعْمَالِ الْحُرُوفِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَضْلًا عَمَّا فَوْقَ ذَلِكَ

وَقَعَ الوَصل بين ﴿ءَأَقۡرَرۡتُمۡ﴾ و﴿أَخَذۡتُمۡ﴾؛ لما بينهما من التَّوسُّطِ بين الكمالين؛ لاتِّحادهما في الإنشائيَّة؛ لأنَّ قولَه: ﴿أَخَذۡتُمۡ﴾ واقعٌ في حيِّزِ الاستفهام، وبين الجملتين تناسبٌ في اللَّفظِ والمعنى، فأمَّا اللَّفْظُ فكلتاهما جملةٌ فعليَّةٌ، وأمَّا المعنى فكلتا الجملتين استفهامٌ عن التزام ما وَجبَ عليهم شرعًا.

ووصلُ قوله: ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ بالواو؛ لكون الجملةِ حاليَّةً، فالواوُ واوُ الحالِ.

وأمَّا الفَصلُ؛ فوقعَ بين قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ﴾ وما قبلها؛ لِوقوعها جوابًا عن سُؤالٍ نشأ عمَّا سَبَقَ، كأنَّه قيل: فماذا قالوا؟ فجاء الجوابُ، قالوا: أقررنا[1]، فبين الجملتين: شبه كمالِ الاتِّصالِ.

---

(1) الدّبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/484.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالْإِقْرَارِ فِي قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ﴾:

المُبَالَغَةُ فِي أَخْذِ المِيثَاقِ لِلْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ ﷺ

في قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ﴾ بلغ معنى الإقرار مَبلغًا رَفيعًا؛ إذ صُرِّحَ بفعل الإقرار، ثُمَّ أُخذ الميثاق على هذا الإقرار، ثمَّ بشهادتهم عليه، وخِتامًا بشهادة اللّه رَبِّ العالـمين على ما شَهِدوا به على أنفسهم، وبذلك يَنعَقِد لهذا الإقرار ما لم يَنعَقِد لغيره مِنَ التَّأكيد والتَّقرير.

ولم تكتفِ الآية بجملة المُؤكِّدات والمُقرّرات الّتي تَلَتِ الاستفهام، بل سَبقَته بمزيدٍ منها، كالميثاق الأوَّل، وهو في حُكم القَسَم، واللَّام في: ﴿لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم﴾ وهي مُوطِّئةٌ للقسم، واللَّام في ﴿لَتُؤۡمِنُنَّ﴾ في جواب القَسَم(1).

فَائِدَةُ التَّوْكِيدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ﴾:

تَـلَازُمُ الْإِيمَـانِ بِـالـنَّـبِـيِّ ﷺ وَنُصْرَتِهِ

أُكِّد الفعلان في قوله تعالى: ﴿لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ﴾ بلام التَّوكيد ونُون التوكيد الثَّقيلة؛ تعظيمًا لشأن الإيمان بالنبي ﷺ ونصرته، وأنَّه لا يُستغنَى بأحدهما عن الآخر، فلا بدّ مع الإيمان به نصرتُهُ، ومع النُّصرَةِ الإيمانُ به؛ إذ النُّصرة إذا كانت حميَّةً لقبيلةٍ عاريةً عن الإيمان به غيرُ نافعةٍ لصاحبها.

تَعيِينُ الْمَقْصُودِ بِالْإِقْرَارِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ﴾:

عُلُوُّ قَـدْرِ النَّبِيِّ ﷺ

اختُلِفَ فِيمَن وُجِّهَ إليه الاستفهام بقوله: ﴿قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ﴾ بناءً على من أُخذ منهم الميثاق؛ فإذا كان من النّبيّين فهم المُقرُّون بذلك الميثاق، وفي هذا دِلالةٌ على عُلُوِّ قَدرِهِ ﷺ، وإن كان الإقرار من الأُمم؛ فإنَّ المعنى: أنّ الأنبياء طلبوا مِن أقوامهم الإقرارَ بهذا الميثاق، وفي هذا أيضًا دِلالةٌ على شرف النَّبيّ ﷺ.

---

(1) أبو سمعان، التّراكيب النّحويّة، ص: 68.

فَائِدَةُ ذِكْرِ الْأَخْذِ بَعْدَ الْإِقْرَارِ:

الْإِقْرَارُ النَّافِعُ مَا اقْتَرَنَ بِهِ الِانْقِيَادُ بِالطَّاعَةِ

جاءَ ذِكرُ الأخذِ بعد ذكرِ الإقرار في قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ﴾؛ للدّلالة على القبُول؛ لأنَّ الإقرار دالٌّ على القبول القَلبيّ، وقد لا يكون فيه التزامٌ بما يقتضيه هذا الإقرار، فأراد القرآن أن يَجمع الإقرارَ القلبيّ والعملَ بما يُوجبُهُ الإقرارُ؛ فجاء بقوله ﴿وَأَخَذْتُمْ﴾؛ فإنَّه بمعنى القَبولِ والإذعانِ والانقياد بالطَّاعةِ، قال تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: 48]، أي: يُقبل، وقوله تعالى: ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: 104]، أي: يقبلها.

دِلَالَةُ الْجَمْعِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِيۖ﴾:

أَصْلُ دَعْوَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَاحِدَةٌ

المتأمِّلُ في هذه الآية يجد فيها صورةَ استحضارِ الأنبياء جميعًا في مَشهدٍ واحدٍ، وهم يُقرُّون بالميثاق المأخوذ عليهم بالإيمان بالرَّسول ﷺ ونصرته، حتَّى كأنَّ الجوابَ كان منهم جماعيًّا ﴿قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ﴾.

فَمَوكِب الرِّسالات واحدٌ، لا تخالُفَ بينها ولا تعانُدَ ولا تعارُض، وكلُّهم يدعو إلى الاستسلام لله بالتَّوحيدِ، والانقياد له بالطَّاعة، والبراءة من الشِّرْكِ وأهله.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ عَنِ الْعَهْدِ بِالْإِصْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِيۖ﴾:

الْجَنَّةُ مَحْفُوفَةٌ بِالْمَكَارِهِ

أصلُ الإصرِ: هو ما يلحق الإنسانَ من أجلِ الِالْتِزام بِهِ، فعُبِّرَ عن العهد بالإصر في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِيۖ﴾ لما فيه من المشقَّة.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾:

تَعْظِيمُ عَهْدِ اللهِ تَعَالَى وَتَفْخِيمُهُ

اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِيۖ﴾ موضوعٌ في الأصلِ للإشارة إلى البعيد، وفي استعماله مع الإصر - وهو العهدُ - إشعارٌ بعظمَتِه ومبالغةٌ في تفخيمه.

الِانْقِيَادُ وَالْتِزَامُ الْعَهْدِ مِنْ لَوَازِمِ الْإِقْرَارِ

بَلَاغَةُ الِاكْتِفَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ﴾ إيجازٌ بالحذف، والمحذوفُ هنا جملةٌ، حُذِفت لدلالة ما تَقَدَّمَ عليها؛ إذ التَّقدير: أَقرَرنَا وأَخَذنَا إِصرَكَ على ذلك كلِّه[1]، وهذا الحذفُ على سبيل الاكتفاءِ، واسْتُغْنِيَ بالإقرار عن التَّصريح بأخذ الإصر وهو العهد؛ لأنَّ الأوَّلَ ملزومٌ للآخر، فالأصل فيمن يُقرُّ أن ينقادَ ويلتزمَ العهدَ.

تَأْكِيدُ الشَّهَادَةِ وَتَعْظِيمُهَا أَمَارَةٌ عَلَى أَهَمِّيَّةِ الْمَشْهُودِ عَلَيْهِ

دِلَالَةُ الْأَمْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾:

قال الرَّاغب: معنى: ﴿فَٱشۡهَدُواْ﴾: اعلَموا؛ فإنَّ الشَّهادةَ وَقت التَّحمُّل هو العِلمُ، ووَقت الإقامة هو الإخبار[2].

وذكر ابنُ عطيَّة أنَّ ﴿فَٱشۡهَدُواْ﴾ يَحتمل مَعنيين:

أحدهما: فاشهَدوا على أمَمِكُم المؤمِنِين بكم، وعلى أنفُسِكُم بالتزام هذا العهد.

والآخر: بُثُّوا الأمرَ عند أُمَمِكم واشهدُوا به.

فالقولُ الأوَّل: إيداعُ الشَّهادةِ واستِحفاظُها، والقولُ الآخر: هو الأمرُ بأدائِها، وهذا توكيدٌ عليهم، وتَحذيرٌ مِنَ الرُّجوع إذا عَلِموا بشهادة اللّه وشهادة بعضهم على بعض[3].

وفي قوله: ﴿فَٱشۡهَدُواْ﴾ ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، جناسُ اشتقاقٍ أفاد التَّوكيدَ وتقويةَ الإلزام، ويحتَمِلُ تخريجُهُ على ردِّ العجُزِ على الصَّدرِ أيضًا، ولا تنافيَ بينَ الأسلوبَيْنِ؛ لما عُلِمَ من أنَّ النِّكاتِ البلاغيَّةَ تتوارَدُ ولا تتزاحَمُ.

التَّحْذِيرُ مِنْ كَتْمِ الشَّهَادَةِ أَوْ تَحْرِيفِهَا

دِلَالَةُ الْمَعِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم﴾ تَشريفٌ للقائم بالشَّهادة[4]، والمعنى: وأنا أيضًا على إقراركم ذلك وشهادتكم شاهدٌ.

---

(1) الدّريهم، سورة آل عمران دراسة بلاغيّة: 1/192.

(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 2/684.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/380، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/466، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 4/166.

(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/378.

وإدخالُ (مع) على المُخاطَبين؛ لكونِهم المُباشِرين للشَّهادة حقيقةً، وفي ذلكَ تأكيدٌ وتحذيرٌ[1].

مُنَاسَبَةُ خَتْمِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾:

تَعْلِيمُ اللهِ تَعَالَى النَّاسَ الشَّهَادَةَ فِي مُعَامَلَاتِهِمْ

اختُتِمَتِ الآيةُ بخاتمةٍ بديعةٍ اشتَمَلَت على التَّوكيد وتَقويَة الإلزام، ممَّا يدُلُّ على مكانةِ النَّبيّ ﷺ عند ربِّه حتَّى أخذَ على تلك الأمم هذه المواثيق المُغلَّظة، وأشهَدَ نفسَه وغيرَه عليها سبحانه وتعالى.

وإشْهَاد اللّه تعالى الخَلْقَ يُرادُ بِهِ تعليمُ النَّاس هذا الأدبَ في مُعاملاتِهم، فهو مع غِنَاهُ عَن هذا الأمرِ - لكونه لا تخفى عليه خافية - إلَّا أنَّه يُشْهِدُ، وفيه إشعارٌ بأهمية الشَّهادَةِ في حفظِ الحقوق؛ إذ إنَّ مِن جملة أسباب ضياعِهَا تَرْكَ هذا الأدب مِنَ المعاملات.

وفي كَوْنِ الشُّهودِ في الآيةِ يُرادُ بهم أممُ النَّبيِّين يُدلُّ على إقامةِ الحُجَّة على أنفُسهم[2].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالْجَمْعِ ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾:

تَعَدُّدُ الشُّهُودِ دَلِيلٌ عَلَى عُلُوِّ الْمَشْهُودِ لَهُ

جاء التَّعبير في إثباتِ الشَّهادة لنُبُوَّة النَّبيّ ﷺ بأسلوب الجمع في قوله: ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ لأنَّ الملائكة شهدت لرسول اللّه ﷺ بالنُّبوَّة، والأرضُ شَهِدَت له كذلك، الجنُّ أيضًا شَهِدَت بذلك؛ فكلُّ الأجناس شَهِدَت، وفوق ذلك شَهِدَ اللّه سبحانه وتعالى على رسالة خليلِه ﷺ.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأخذ والتّناول:

التناولُ "يَقتضي أَخْذَ شَيءٍ يُستَعمل في أمرٍ مِنَ الأمور، ولهذا لا يُستَعمَل (تناول) في فعل اللّه تعالى، فيُقالُ: تناول زيدًا، كما

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/54، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 4/166.
(2) الدّريهم، سورة آل عمران دراسة بلاغيّة: 1/192.

تقول: أخذ زيدًا، وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، ولم يُقَل: تناولها. وقيل: التَّناول أَخذُ القليل المَقصود إليه، ولهذا لا يُقال: تناولت كذا من غير قَصدٍ إليه، ويُقال: أَخذتُه من غير قَصدٍ"[1].

العهد والميثاق:

الميثاقُ توكيدُ العَهد، مِن قولك: أوثَقتُ الشَّيء إذا أحكَمتُ شَدّهُ، وقال بَعضُهم: العَهدُ يكون حالًا مِنَ المُتعاهدين، والميثاقُ يكونُ مِن أَحَدهما[2]، وفي كتاب الأفعال لابن القطّاع، أنّ الفطرة "هي الإقرار بالله، وهو العهد والميثاق الّذي أخذه تعالى عليهم، حين أخرجهم من صلب آدم، أمثال الذّرّ، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى"[3].

الإقرار والاعتراف:

الإقرارُ إخبارٌ عَن شيءٍ ماضٍ، أمَّا الاعتراف فمثل الإقرار، إلَّا أنَّه يقتضي تَعريفَ صاحِبه الغَير، أنَّه قد التزمَ ما اعترفَ به، وأصلُهُ مِنَ المَعرفة، وأصلُ الإقرار مِنَ التَّقرير وهو تحصِيل ما لم يُصرّح به القَول؛ ولهذا اختار أصحابُ الشُّروط: أَقَرَّ به، ولم يختاروا: اعترف به[4]، قال الكفويّ في معنى قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172]: "ومن معاني الاستفهام التّقرير: أي حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف، بأمر قد استقرّ عنده، وحقيقة استفهام التّقرير إنكار، والإنكار نفيٌ، وقد دخل على النّفي، ونفي النّفي إثباتٌ"[5]، ويسمّى استفهاما تقريريّا.

الإقرار والشّهادة:

الشَّهادةُ إقرارٌ معَ العِلم وثبات اليقين، والإقرارُ قد يَنفَكُّ مِن ذلك؛ ولهذا كذَّب الله تعالى الكفَّار في قولهم: ﴿قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ [المنافقون: 1]، ولو قالوا: نُقِرُّ إنَّك لَرسولُ الله لم يكذبوا[6].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 139.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 57.
(3) ابن القَطَّاع، كتاب الأفعال: 2/457.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 48.
(5) الكفويّ، الكليات، ص: 98.
(6) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/249.

العلم والشّهادة:

الشّهادةُ "خبَرٌ قاطع. تقول منه: شَهِد الرّجل على كذا، وربّما قالوا شَهْدَ الرَجُلُ، بسكون الهاء للتّخفيف، عن الأخفش، وقولهم: اشهد بكذا، أي احلف"[1]، والشّهادة أخصُّ مِنَ العِلمِ، وذلك أنَّها بوجود الأشياء لا مِن قِبل غَيرها، والشَّاهدُ نقيضُ الغائِب في المعنى؛ ولذا سُمِّي ما يُدرَك بالحَواسّ ويُعلَم ضَرورَةً شاهدًا، وسُمِّي ما يُعلَم بشَيء غيره وهو الدّلالة، غائبًا كالحياة والقُدرَة، وسُمِّيَ القديم شاهدًا لكلِّ نجوى؛ لأَنَّهُ يَعلم الموجودات جميعها بذاتِهِ، فالشَّهادة عِلمٌ يتناول الموجود، والعِلم يتناوَل الموجود والمعدوم[2].

(1) الجوهريّ، الصّحاح: 2/494.

(2) العسكريّ، الفروقُ اللّغويّة، ص: 95 - 96.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٨٢﴾ [آل عمران: 82]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـعـلاقـة بين إقـرار السّابقين بنبوّة الختام، والتّنـديـد بمن أنكر العهد من الأنام

لَمَّا أقرّ الأنبياء في الآية السَّابقة الإقرار، وأمر أتباعهم أن يُؤمنوا، وينصروا النَّبيّ الخَاتم ﷺ، جاءت هذه الآية لتُبيِّن أنَّ بعض أتباع الأنبياء لم يُوفوا بهذا الميثاق الَّذي أُخذ عليهم، ووصفتهم بالفسق لخُروجهم عن منهج ربّهم، ومنهج أنبيائهم، بعدم الإيمان بالدّين الجديد، فاستحقّواْ هذا الوعيد الشّديد.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَوَلَّىٰ﴾: التَّوَلِّي يكون بمعنى: الإعراض، ويكون بمعنى: الاتِّباع؛ قال اللّه تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ [محمد ﷺ: 38]، أي: تُعرضوا عَنِ الإسلام. وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [المائدة: 51]، معناه: مَن يَتَّبِعهُم ويَنصُرهُم[1].

2) ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾: الفِسقُ هو الخُروج عَنِ الطَّاعة، وهو "التّرك لأمر اللّه، وفسق يفسق فسقًا وفسوقًا، وكذلك الميل إلى المعصية، كما فسق إبليس عن أمر ربه"[2]، تقول العرب: فَسَقَتِ الرُّطَبَةُ عن قِشرها: إذا خَرَجَت. وهو أعمُّ مِنَ الكفر. والفِسقُ يقعُ بالقليل مِنَ الذُّنوب وبالكثير، لكن تُعورِفَ فيما كان كثيرًا[3].

۞ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

لا يـتـخـلّى عن العهد وينقض الـمـيـثـاق، إلّا الـجـاحـدون الفسّاق

يؤكّد السّياق الموجز البليغ لهذه الآية أنّ مَن تخلّى بعد وُرود الكتب، وتجلّي الآيات، ورسوّ الأحكام، عن العهد والميثاق، واتّخذ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ولي).
(2) الخليل، كتاب العين: (فسق).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (فسق).

الدِّين وسيلةً للتّفريق والشّقاق، ولم يؤمن بالنّبي الخاتم المصدّق لمن سبقه، ولم ينصره؛ فأولئك هُمُ الخارجون عَنِ الإيمان، والمنسلخون من طاعة الرّحمن(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾:

إِقْرَارُ الْأُمَمِ مُلْزِمٌ لِأَبْنَائِهَا عَلَى تَعَاقُبِ الزَّمَنِ

(مَنْ) في قوله تعالى: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ شرطيَّةٌ؛ والفعلُ الماضي يَنقَلِبُ معناه إلى المُستقبلِ في الشَّرط والجَزاء، وإنَّما جازَ وقُوع الماضي مَوقِع المُستَقبل في الجَزاء؛ لأَنَّ حَرفَ الجَزاء لَمَّا كان يعمل في الفعل؛ قَوِيَ على نَقلِه مِن مَعنى المُضِيِّ إلى الاستقبال، وذلك إشارة إلى أَخذِ الميثاق، فالوعيدُ شاملٌ لمن تقدَّم في الأمم قبل بعثة النَّبيِّ ﷺ، ولمن سيأتي بعدَه إلى أن يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها.

ودخلَتِ الفاءُ في (أُولئك)؛ لأنَّه جوابُ شَرط؛ وإنَّما تَدخُل الفاءُ في جواب الشَّرط؛ لأَنَّ الثَّاني يجبُ بوجود الأوَّل بلا فَصلٍ؛ كقولك: إنْ تَأْتِنِي فَلَكَ دِرهمٌ، فوجوب الدِّرهم بالإتيان عقيبَه بلا فصل؛ فلذلك جاء بالفاء(2).

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالتَّوَلِّي دُونَ الْإِعْرَاضِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾:

التَّوَلِّي أَعَمُّ مِنَ الْإِعْرَاضِ

عُبِّر بالتَّولّي في قول الله تعالى: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ دون الإعراض؛ لأَنَّ التَّولِّي قد يكون بالجسم، وقد يكون بترك الإصغاء والائتمار، وهذا هو المناسب للسِّياق، حيث سبق أَمْرُهُم بالإيمان والنُّصرة، إلَّا أنَّ بعضًا منهم لم يُصغِ لهذا الأمر ولم يأتمر به، بخلاف الإعراض؛ فإنَّ معناه: أظهر عُرضَه، أي: ناحيته، وإذا قيل: أعرض عنّي، فمعناه: ولّى مُبديًا عُرضَه.

---

(1) الخازن، لُباب التّأويل: 1/265، وكذلك أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 376.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 5/402 - 403، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 2/685، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/447.

نُكْتَةِ عَدَمِ اقْتِرَانِ الظَّرْفِ بِجَارٍّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَوَلَّىٰ بَعْدَ﴾:

تَـحْـريـضُ المُخَالِفِينَ عَلَى الرُّجُوعِ إِلَى الْحَقِّ

من الملاحظ أنَّ الظَّرف ﴿بَعْدَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ لم يقترن بحرفِ جرٍّ؛ وذلك لبيان أنَّ المستحقَّ لغاية الذَّمّ إنَّما هو من اتَّصل تولّيه بالموتِ، وهذا المعنى لا يُستفاد إلا بإسقاط حرف الجرّ[1]، ففيه: تحريضٌ لهم على التَّوبة والرُّجوع إلى الحقِّ قبل أن يَفْجَأهمُ الموتُ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِاسْمَيِ الْإِشَارَةِ: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾:

المُتَوَلِّي عَنْ مِيثَاقِ اللهِ تَعَالَى النَّاقِضُ لَهُ حَقِيقٌ بِوَصْفِ الْفِسْقِ

الإشارةُ في ﴿ذَٰلِكَ﴾ - من قول الله تعالى ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ - للميثاق، واختيرَ اسمُ الإشارةِ الدالُّ على البُعْدِ؛ لتَفخيم المِيثَاقِ وتعظيمه.

والإشارةُ في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ لـ ﴿فَمَن﴾، وجُمِعَ باعتبار المعنى، كما أنَّ الإفرادَ في ﴿تَوَلَّىٰ﴾ باعتبار اللَّفظ، واسمُ الإشارةِ (أولئك) الدَّالُّ على البُعدِ إشعارٌ بِتَرامي أمرهم في السُّوء وتَماديهم فيه، وبُعدِ مَنزلَتِهم في الشَّرِ والفسادِ، أي: فأولئك الـمُتولُّونَ الـمُتَّصِفونَ بالصِّفات القبيحة.

فتعريف المسند إليه بالإشارة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ تنبيهٌ إلى أنَّ الـمُسندَ إليه جَديرٌ بالوَصفِ الـمَذكور وهو الفِسقُ؛ وذلك لِتَولِّيه وإعراضه ونَقضه للميثاق الَّذي عاهدَ اللّه عليه.

وقدِ استُفيدَ من هذا الأسلوب، وهو تعريف المسندِ إليه باسم الإشارة وتعريف المسند باللَّام: القصرُ والحصرُ؛ لتعريفِ جزأي الجملة.

وضميرُ الفصل ﴿هُمُ﴾ يُرادُ به توكيدُ القصرِ لا إنشاؤُهُ؛ لأنَّ ضمير الفصلِ مؤكِّدٌ للجملة إذا وُجِدَ طريقٌ آخرُ للقصرِ، وذلك

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/471.

لقصدِ المبالغةِ؛ إذْ إنَّ فسقَهُم في هذه الحال أشدُّ فسقًا؛ فجعل غيره من الفِسق كالعَدَم[1].

عِلَّةُ تَوَالِي الْمُؤَكِّدَاتِ فِي الْآيَةِ:

الْمُبَالَغَةُ فِي التَّأْكِيدِ تَنْوِيهٌ بِالْمُؤَكَّدِ وَتَعْظِيمٌ لِشَأْنِهِ

تَوالَتِ المُؤكِّدات في بناء الآية الكريمة، فقد أُكِّدَ فِسقُهُم باسم الإشارة الدالِّ على البُعْد، وبتعريف الطَّرفَين الَّذي يُفِيدُ انحِصارَ الفِسق فيهم، وأُكِّد أيضًا بضمير الفَصل الَّذي يُفيدُ تقوية التَّخصيص[2].

سِرُّ اخْتِيَارِ لَفْظَةِ ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ فَاصِلَةً لِلْآيَةِ:

خُطُورَةُ الْفِسْقِ، وَهُوَ عَلَى دَرَجَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ

لـمَّا كان الفِسقُ هو الخُروجَ عَن أمر اللّه تعالى وطاعته، وكان بين أدنى مَنزلةٍ وأقصاها بَونٌ بعيد؛ صار له مَنازِل كثيرة، فيُطلق تارةً على الذَّنب الصَّغير، نحو قوله: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ﴾ [البقرة: 282]، وتارَةً على الكُفر والشِّرك، نحو: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ﴾ [السّجدة: 18]، وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ [السّجدة: 20]، وعلى هذا جاءَ استعمالُ الفاسِقينَ هاهنا[3].

۞ الْفُرُوقُ الْمُعْجَمِيَّةُ:

التَّولِّي والإعراض:

التَّولِّي: الإعرَاضُ مُطلقًا ولا يلزَمُه الإدبار، فإنَّ تولِّي الرَّسول ﷺ عن ابن أمِّ مَكتوم لم يكن بالإدبار، والتَّولِّي بالإدبار قد يكون على حقيقته كما في قوله تعالى: ﴿بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ﴾ [الأنبياء: 57]، وقد يكون كناية عَن الانهزام كما في قوله تعالى: ﴿وَضَاقَتۡ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/54، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/300، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1297، والدّريهم، سورة آل عمران دراسة بلاغيّة: 1/275.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1297.

(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 2/685.

عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ﴾ [التّوبة: 25]. والتَّولّي: قد يكونُ لحاجةٍ تدعو إلى الانصراف مع ثُبوت العقد، والإعراض: الانصراف عَن الشَّيء بالقَلب، قال بَعضهم: المُعرِضُ والمُتولِّيّ يشتركان في ترك السُّلوك، إلَّا أنَّ المُعرِض أسوأ حالًا؛ لأنّ المُتَوَلي متى نَدِمَ سهل عليه الرُّجوع، والمُعرِض يحتاج إلى طلب جديد، وغايةُ الذَّمّ الجَمع بينهما[1].

الفِسق والخُروج:

الفِسقُ: الخروجُ عن طَاعَةِ اللّه، كما قالَ تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف: 50] أي: خَرجَ عن طَاعة رّبه، والخروجُ عن طاعة اللّه قد يكون خروجًا أعظم، وهو الخُروج المُخرج عن دين الإسلام، وقد يكون خُروجًا دون خروجٍ، وهو الفِسق بارتكاب كبيرة؛ ولأجل هذا المعنى، كان الفِسق يُطلق في القرآن على الخروج عن طاعة اللّه، بمعناه الأعظم، وهو الكفر باللّه كقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: 26][2].

الفِسق والفُجور:

الفِسقُ هو الخُروج مِن طاعة اللّه بكبيرة، والفُجور الانبعاث في المعاصي، والتَّوسع فيها[3]، وأهل اللّغة والتّفسير يرون أنّ الفسق انسلاخ يخرج به صاحبه من ستر اللّه، وينأى عن مرضاته، لينغمس في معامع الضّلال، ويسقط في مهاوي الابتذال، بينما الفجور إيغالٌ في المُتَع المحرّمة السّاقطة، بلا رقيب من ضمير، ولا خشية من مصير، وكلا الصّفتين مسلكٌ إلى النّار، وبئْسَ القرار.

---

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 2/484، والكفويّ، الكليّات، ص: 28.

(2) الشّنقيطيّ، العَذبُ النَّمِير: 4/284.

(3) الشّنقيطيّ، العَذبُ النَّمِير: 231.

﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ٨٣﴾ [آل عمران: 83]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين أخذ الميثاق من النّبيّين، وكون الدّين لله ربّ العالمين

لمَّا ذكرَ في الآية السَّابقة أخذ الميثاق على الأنبياء، وما أَمروا به أُممَهم، وطلبوا منهم الإيمان والنُّصرة للنَّبيّ ﷺ، بيَّن هنا أنّ مَن خرج عن ذلك، ولم يلتزم بهذا الميثاق، حكم القرآن عليه بالفِسق؛ لأنَّهم تولَّوا وأعرضوا عن هذا الدِّين، وصاروا يبغون دينًا غير دين الله.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَبۡغُونَ﴾: البُغيةُ: مصدر الابتغاء، وبَغَيتُ الشّيء أبغيه بُغاء. والأصل الأوّل: ابتغيتُه: طَلَبتُه، وبَغَيتُ الشَّيءَ أبغِيه: إذا طَلَبتَهُ أكثر ما يجب، والبُغيَةُ والبِغيَةُ الحاجَةُ، ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ﴾[1]. وَالْأَصْلُ الثَّانِي: قَوْلُهُمْ بَغَى الْجُرْحُ: إِذَا تَرَامَى إِلَى فَسَادٍ، ثُمَّ يُشْتَقُّ مِنْ هَذَا مَا بَعْدَهُ. فَالْبَغِيُّ الْفَاجِرَةُ، تَقُولُ بَغَتْ تَبْغِي بِغَاءً، وَهِيَ بَغِيٌّ. وَمِنْهُ أَنْ يَبْغِيَ الْإِنْسَانُ عَلَى آخَرَ. وَمِنْهُ بَغْيُ الْمَطَرِ، وَهُوَ شِدَّتُهُ وَمُعْظَمُهُ. وَإِذَا كَانَ ذَا بَغْيٍ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ مِنْهُ فَسَادٌ[2].

2) ﴿أَسۡلَمَ﴾: أسلَمَ الشَّيءِ إليه: دَفَعَهُ إليه (كُلَّه أو سالمًا)، وقريبٌ منه معنى الانقياد؛ لأنَّه تَسليم نَفْس، ومعنى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: استسلم طوعًا عند أخذ الميثاق، أو عند الدَّعوة أو بالإقرار بالخَالِقيَّة. وبهذا المعنى كُل صيغة ﴿أَسۡلَمَ﴾ ماضيها ومضارعها وأمرها ومصدرها واسم الفاعل منها[3].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (بغي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (بغي).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سلم)، (طوع).

3) ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: السَّماءُ يُقالُ لكُلّ ما ارتفع وعلا قد سَما يَسمو. وكلُّ سقفٍ فهو سماءٌ، وكلُّ ما علاكَ فأظَلَّكَ، والسَّماءُ الَّتي تُظِلُّ الأرضَ أُنثى عند العرب؛ لأنّها جمعُ سَماءةٍ، وإذا ذُكِّرَت عَنَوْا به السّقفَ. ومنه قول اللَّه تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ﴾ [المزّمّل: 18]؛ ولم يقُلْ مُنفطرة[1].

4) ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: كلُّ شيءٍ يَسفُلُ ويُقابلُ السَّماءَ، يُقالُ لأعلى الفرس: سماءٌ، ولقوائِمِهِ أرضٌ. قال:

وَأَحْمَرَ كَالدِّيبَاجِ أَمَّا سَمَاؤُهُ *** فَرَيًّا وأَمَّا أَرْضُهُ فَمَحُولُ[2]

والأرضُ: الَّتي نحن عليها، وتُجمَعُ أرَضِينَ، ولم تَجِئ في كتاب اللَّه مَجموعَةً. فهذا هو الأصلُ، ثُمَّ يَتَفرَّعُ منه قولُهُم أرضٌ أَرِيضَةٌ، وذلك إذا كانت لَيِّنَةً طَيِّبَةً[3].

5) ﴿طَوْعًا﴾: "طاعَ يَطوعُ طَوْعًا فهو طائِعٌ. والطَّوْعُ: نقيضُ الكَرْه، تَقولُ: لَتَفعَلَنَّهُ طَوعًا أو كَرهًا. طائعًا أو كارِهًا، وطاعَ له إذا انقادَ لَهُ. إذا مضى في أمرِكَ فقد أطاعَكَ، وإذا وافَقَكَ فقد طاوعَكَ"[4]، يقولون طاع له وأطاعه، ولا يقولون طاعه كما يقولون أطاعه. وأنشد:

وَقُلْتُ لِلْقَلْبِ دَعِ اتِّبَاعَهَا *** فَطَاعَ لِي وَطَالَمَا أَطَاعَهَا[5]

6) ﴿وَكَرْهًا﴾: الكاف والرَّاء والهاء أصلٌ صحيحٌ واحدٌ، يدُلُّ على خلاف الرِّضا والمحبَّة. يُقالُ: كَرِهتُ الشَّيءَ أَكرَهُهُ كَرهًا. والكُرهُ الاسمُ. ويُقالُ: بَلِ الكُرهُ: المشقَّةُ، والكَرهُ: أنْ تُكَلَّفَ الشَّيءَ فَتَعمَلَهُ كارِهًا[6]، وقال الرّاغب: " المشقّة التي تنال الإنسان من خارج فيما يحمل عليه بِإِكْرَاهٍ، والكُرْهُ: ما يناله من ذاته وهو يعافه، وذلك على ضربين: أحدهما: ما يُعاف من حيث الطّبع. والثّاني: ما يُعاف من حيث العقل أو الشّرع، ولهذا يصحّ أن يقول

(1) الخليل، العين: (سمو)، وابن منظور، لسان العرب: (سما).
(2) قوله: (فَمَحُولُ) وردت بالضّم أيضًا (فَمُحُولُ)، والبيت لطفيل الغنويّ، يصف فرسًا، وقد ورد في الدّلائل في غريب الحديث للسّرقسطيّ: 1/166، والصّحاح للجوهريّ: 6/2382، ومقاييس اللّغة، لأحمد بن فارس: 1/80، وأساس البلاغة، للزّمخشريّ: 1/476، ولسان العرب: 14/399، وتاج العروس للزبيدي: 38/303.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (طعو).
(4) الخليل، العين: (طوع).
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة: (طوع).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (كره).

الإنسان في الشّيء الواحد: إنّي أريده وأَكْرَهُهُ، بمعنى أنّي أريده من حيث الطّبع، وأكرهه من حيث العقل أو الشّرع"[1].

7) ﴿يُرْجَعُونَ﴾: الرُّجوعُ: العَودُ إلى ما كان منه البدء أو تقدير البدء مكانًا كان أم فِعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رُجوعه، أو بجُزء مِن أجزائه، أو بفعل مِن أفعاله. فالرُّجوعُ: العَودُ، والرَّجعُ: الإعادَة[2]، "وفي التنزيل ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾ [العلق: 8]، وفيه ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 48]، أي رجوعكم، حكاه سيبويه، فيما جاء من المصادر التي من (فَعَلَ يَفْعِلُ) بالكسر، ولا يجوز أن يكون اسم المكان، لأنَّه قد تعدَّى بإلى، وانتصب عنه الحال، واسم المكان لا يتعدَّى، ولا ينصب حالاً"[3].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أيبتغى غير دين الله، وله خضعت الأملاك، وسجدت الأفلاك

توجّه الآية استفهامًا إنكاريًّا لأولئك البُعداء فتقول: أَيَتَوَلَّون بعد هذا البيان، فَيبغونَ غير دينِ الله الَّذي هو الإسلام؟! ولله خضع مَن في السَّموات والأرض، وقد خَضَعواْ له بالكليّة، وانقادواْ لتَصرُّفه بالتَّكوين والإيجاد هنا، إذ هو الـمُتصرِّف فيهم، وهُمُ الخاضِعون له، فكُلُّ ما يَحِلُّ بالنَّاس، إن كان عَن رضًا فهم طائِعونَ، وإن كان عن غير رضًا فَهم كارِهون، وإلى الله الـمَرجِعُ والمآبُ[4].

۞ الإِيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

لَا يُمْكِنُ لِمَنِ اسْتَبَانَتْ لَهُ الْحُجَجُ وَالْبَرَاهِينُ أَنْ يَقْبَلَ دِينًا غَيْرَ دِينِ اللهِ تَعَالَى

دِلَالَةُ الِاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾:

الهمزةُ في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ للاستفهام، والمرادُ: التَّوبيخ والتَّحذير، واستِنكارُ أن يَفعلوا ذلك، أو هُوَ تقريرُ أنَّهم يَفعلونه، ومَوضِعُ الهمزة هو لفظةُ ﴿يَبْغُونَ﴾ تقديرُهُ: أيَبغُونَ

(1) الرّاغب، المفردات: (كره).
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (رجع).
(3) القيسّي، إيضاح شواهد الإيضاح: 1/433.
(4) الحجازيّ، التّفسير الواضح: 2/249.

غير دين اللّه؟ لأنَّ الاستفهامَ إنَّما يكونُ عَنِ الأفعال والحوادث، إلَّا أنَّه تعالى قَدَّمَ المفعولَ الَّذي هو (غير) من قوله تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ﴾ على فعله؛ لأنّه أهمُّ مِن حيثُ إنَّ الإنكارَ الَّذي هو معنى الهمزة مُتَوَجِّهٌ إلى المعبود الباطل، وأمَّا الفاءُ فلِعطفِ جملةٍ على جملةٍ، والتَّقديرُ: فأُولئك هُمُ الفاسِقونَ، فغيرَ دينِ اللّه يبغون[1].

دِلَالَةُ (الْفَاءِ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَغَيۡرَ﴾:

الْكُفْرُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ جَرِيمَةٌ عَظِيمَةٌ

لِلْفَاءِ في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ﴾ وجهان:

أحدُهما: أن تكونَ عاطفةً جملةً على جملةٍ، والمعنى: فأُولئك هُمُ الفاسقون فَغيرَ دينِ اللّهِ يَبغونَ، ثمّ تَوَسَّطتِ الهمزَةُ بينهما.

والآخر: أن يُعطَفَ على محذوفٍ تقديرُهُ: أيتولَّون فَغيرَ دينِ اللّه يبغونَ[2].

فالفاءُ هنا للتَّرتيب والتَّعقيب، وهي مُؤَخَّرةٌ عن تقديم؛ لأنَّ الاستفهام له الصَّدارةُ، والمعنى: أنَّه تَرتَّبَ على كُفرهم بمُحمَّد ﷺ أَنْ وُجِّهَ إليهم ذلك الاستفهامُ الإنكاريّ؛ توبيخًا لهم على ما فَعَلوا وما أنكَروا، وما ضلُّوا وأضلُّوا[3].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿أَفَغَيۡرَ﴾ دُونَ مُرَادِفَاتِهِ:

جَمَالُ الدِّقَّةِ فِي اخْتِيَارِ اللَّفْظِ الْقُرْآنِيِّ

جاء التَّعبير في قول اللّه تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ﴾ بلفظ (غير)، دون (الخلاف)، فلم يقل: أَخِلافَ دينِ اللّه، لأنَّ الخِلافَين أخصُّ من الغَيْرَيْن؛ إذِ الغَيرَان يَصدُقانِ على المِثلَين والخِلافَين؛ والاستفهام هَهُنا على سَبيل الإنكار، وهو معنى النَّفي، ونَفي الأعَمّ يَستَلزِمُ نَفيَ الأخصّ، كما قالوا: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ [البقرة: 17][4].

---

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/279، والخازن، لُباب التّأويل: 1/265، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 5/366، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/300.

(2) السّمين، الدُّرّ المصون: 3/296.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1297.

(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/378.

غَرَضُ تَقْدِيمِ الْمَفْعُولِ بِهِ عَلَى عَامِلِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾:

مِـنْ مَـقَـاصِـدِ الـتَّـقْـدِيـمِ وَالتَّأْخِيرِ فِي بِنَاءِ الْجُمْلَةِ لَفْتُ النَّظَرِ إِلَى جُزْءٍ مُهِمّ مِنْهَا

نُصِب (غَيْرَ) من قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ﴾ على أنّه مفعولُ ﴿يَبْغُونَ﴾، وقُدِّم المفعول به على فعله؛ لأنّه أهمُّ من حيثُ الإنكار - الّذي دلَّتْ عليه همزة الاستفهام -؛ لتوجُّهِهِ إلى المعبود بالباطل[1].

ويرى أبو حيَّان أنَّ الإنكار الَّذي هو معنى الهمزة لا يتوجَّهُ إلى الذَّوات، إنّما يتوجَّهُ إلى الأفعال الَّتي تَتعلَّقُ بها، فالَّذي أُنكِرَ إنّما هو الابتِغاءُ الَّذي مُتَعَلِّقُهُ (غيرَ دينِ الله)، وجاءَ تقديمُ المفعول هنا من باب الاتِّساع، ولشبهَ ﴿يَبْغُونَ﴾ بالفاصلة بآخر الفعل[2].

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَبْغُونَ﴾:

غَـالِـبُ اسْـتِـعْـمَـالَاتِ (الْـبَـغْـيِ) فِي مَـعْـنَـى الـذَّمِّ وَالْإِنْكَارِ

البَغي: طلب تجاوز الاقتصاد فيما يُتحرَّى، تجاوزَه أم لم يتجاوزْه، وهو على ضربين:

أحدهما: محمودٌ؛ وهو تجاوزُ العدل إلى الإحسان، والفرض إلى التَّطوع.

والآخر مذموم: وهو تجاوزُ الحقّ إلى الباطل[3].

والنَّاظر في آيات القرآن الكريم يجد أكثر استعمالات الفعل ﴿يَبْغُونَ﴾ في مَوضِع الذَّمّ، ومن ذلك هذه الآية وهي قوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾، حيث ورد فيها الفعل ﴿يَبْغُونَ﴾ الَّذي يحمل التَّجاوز من أتباع الأنبياء؛ إذْ تجاوزوا الحقَّ إلى الباطل، وهذا الفعل منهم مُتجدِّدٌ مستمرٌّ، يبحثون عنه في كلِّ وقتٍ ويتحرَّوْنَهُ، كما دلَّ عليه التَّعبيرُ بصيغة المضارع ﴿يَبْغُونَ﴾.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/380، والسّبكي، عروس الأفراح: 1/384، والسّيوطيّ، نواهد الأبكار: 1/224.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/246، والسَّمين، الدّرّ المصون: 3/296. عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 9/171.

(3) الرّاغب، المفردات: (بغي).

تَوْجِيهُ الْقِرَاءَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَبۡغُونَ﴾:

مُخَالَفَةُ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ لِلْعَهْدِ فِيهِ عِظَةٌ وَعِبْرَةٌ لِمَنْ بَعْدَهُمْ

قرأَ الجمهورُ ﴿يَبۡغُونَ﴾ بتاء الخطاب[1]، فهو كلامٌ موجَّهٌ لأهل الكتاب جارٍ على طريقة الخطاب في قوله آنفًا: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾، وقرأ أبو عمرو وحَفصٌ ويعقُوبُ بياء الغيبة ﴿يَبۡغُونَ﴾[2]؛ على أنَّهُ التفاتٌ مِنَ الخطاب إلى الغيبة، إعراضًا عَن مُخاطَبَتِهِم إلى مُخاطبة المُسلمينَ بالتَّعجيب مِن أهل الكتاب.

وهذا تفريعٌ لِذكر أحوال خَلَفِ أُولئكَ الأممِ كيف اتَّبَعوا غيرَ ما أخِذَ عليهمُ العهدُ به، والاستفهامُ حينئذٍ للتَّعجيب[3].

نُكْتَةُ الْإِضَافَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ﴾:

دِينُ اللهِ وَاحِدٌ وَهُوَ الْإِسْلَامُ

في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ دينَ اللّه واحدٌ لا يتجزَّأ، فمَن كفر ببعضه فقد كفر به كُلِّه، وأنَّ حقيقةَ هذا الدِّين تَتَجَلَّى في كلِّ ما جاء به الرُّسل، فَدينُ اللّه هو الإسلامُ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: 19]، وإضافتُهُ إلى اللّه في قوله: ﴿دِينِ ٱللَّهِ﴾، يُرادُ به تشريفُهُ على غيره ممَّا يتَّخذه النَّاسُ دينًا؛ لأنّه تعالى هو الَّذي شَرَعَهُ وتَعَبَّدَ به الخَلق، أو لأنَّ غيره يومئذٍ قد نُسِخَ بما هو دينُ اللّهِ تعالَى[4].

سِرُّ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ عَلَى الْفِعْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ﴾:

عَظَمَةُ اللهِ تَعَالَى بِخُضُوعِ جَمِيعِ الْخَلْقِ لَهُ

تقديم الجارّ والمَجرور ﴿وَلَهُۥٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ﴾ لإفادَةِ الاختصاص، أي: أسلَمَ له وحدَهُ لا لأحد سواهُ، فقد خَضَعَ وأخلَصَ كُلُّ مَن في السَّماوات والأرض مِن عُقلاء، وهو قصرٌ حقيقيٌّ[5].

---

(1) ابن الجزري، النشر: 2/241.

(2) ابن الجزري، النشر: 2/241.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/246، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/301.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/245، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/301، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1297.

(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1298.

سرُّ التَّعْبِيرِ بِلَفْظِ ﴿أَسْلَمَ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ﴾:

الإِسْـــلَامُ هُـوَ الانْـقِـيَـادُ لِأَمْـرِ اللهِ تَعَالَى وَنَهْيِهِ انْقِيَادًا تَامًّا

﴿أَسْلَمَ﴾ في هذا السِّياق القُرآنيّ الكريم، تعني أنَّه خَضَعَ وسُخِّرَ، وقُهِرَ على أن يُنفِّذَ، ولكنَّ الحقَّ سُبحانه قال عَنِ السَّماء والأرض: ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١﴾ [فُصّلت: 11]، إذِ المألوفُ أن تخضعَ السَّماءُ والأرضُ لأمر اللّه تعالى، ولمَّا ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١﴾ [فُصّلت: 11]؛ كانتَا السَّماء مُسْلِمَتَيْنِ للّه تعالى، فإلى اللّه كُلّ مَرجِع، فالإنسان - مُؤمنًا كان أو كافرًا - سيعودُ إلى اللّه حَتمًا[1].

كما جاء ذِكرُ (الإسلام) في النَّظم القرآنيّ كثيرًا؛ إذ أتى بلفظ﴿أَسْلَمَ﴾ كما في هذه الآية، و﴿مُسۡلِمُونَ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣﴾ [البقرة: 133]، و(الإسلام) كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران: 85]. ومجيئُه في قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ﴾ لكونِهِ في حَيِّز الـميثاق الـمأخوذ بمتابعة الرَّسول ﷺ الـمُصَدَّق؛ حثًّا على تمام الانقياد له[2]، كما قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَسلَمَ كُلُّهُم في أخذ الـميثاق[3].

دِلَالَةُ ﴿مَن﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

جَمِيعُ الْخَلْقِ مُــقِــرُّونَ بِعُبُودِيَّتِهِمْ للهِ، وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ أَشْــرَكَ فِي عِبَادَتِهِ

جيءَ بـ ﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وهي دالَّةٌ على العاقل؛ تغليبًا لجانب العُقلاء؛ لأنَّنا لو قِسنَا مَن في السَّماوات والأرض؛ لكان أكثرُهم العُقلاءَ، أو هو على الخصوص؛ بمعنى أنَّه في ذكر المؤمنين مِنْهُم دُون غيرهم.

قال أبو العالية ومجاهد: كلّهم أقرَّ بالعبوديَّة للّه تعالى، وإن كان فيهم مَن أشركَ في العبادة؛ قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزّخرف: 87]، وقال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَسلَمَ كُلُّهُم في أخذ الميثاق[4].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 8/1588.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/475، والدّريهم، سورة آل عمران دراسة بلاغيّة: 1/240.

(3) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 4/133.

(4) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 4/133، وابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم: 1/467، والدّرّة، تفسير القرآن الكريم: 2/157.

سِرُّ جَمْعِ السَّمَاوَاتِ وَإِفْرَادِ الْأَرْضِ:

السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ مُعْجِزَتَانِ عَظِيمَتَانِ تَشْهَدَانِ عَلَى قُدْرَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ:

في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ جمعٌ للسَّماوات وإفرادٌ للأرض، فأمَّا جَمْعُ السَّماوات؛ ففيه إيماءٌ إلى مِلكِيَّةِ كلِّ دقائقها، وكلِّ سُنَنِهَا وقوانينِهَا، فهو سبحانه الذي يغيِّرُ فيها ويُبدِّلُ، وأمَّا إفرادُ الأرض مع جمع السَّماوات؛ ففيه إشارةٌ إلى وحدتِهَا في الجملة بالنِّسبة لعالم السَّماوات وإن كانت الأرضُ طبقاتٍ، وفيه إشعارٌ بأنَّ الأرضَ شيءٌ صغيرٌ بجانبِ السَّماوات وما فيها(1).

عِلَّةُ تَقْدِيمِ السَّمَاوَاتِ عَلَى الْأَرْضِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

السَّماءُ أعظمُ مِنَ الأرض، وفي كـلِّ شيءٍ له سبحانه آية

قُدِّمت السماوات على الأرض في هذه الآية وفي مواضعَ كثيرةٍ من آي القرآن الكريم لنكاتٍ:

أحدها: أنَّ الآيةَ فيها أعظمُ من الأرض؛ حيثُ إنَّهما كثيرًا ما تُذكران في سياق آيات اللّه تعالى الدَّالَّة على عظمتِهِ وربوبيَّتِهِ وألوهيَّته، ومعلومٌ أنَّ الآياتِ في السَّماوات أعظمُ منها في الأرض؛ لسعتها وعظمها، وما فيها من الكواكب السَّيَّارة، واستغنائها عن عُمُدٍ تُقِلُّها أو عِلاقة ترفعُها(2).

ثانيها: أنَّ تقديم السَّماوات على الأرض هُوَ تقديمُ تشريفٍ؛ إذ السَّماءُ مُتَعَبَّدُ الملائكة، والأرض وإنْ كان فيها الأنبياء؛ إلَّا أنَّ فيها الأشرارَ والمفسدينَ.

ثالثها: أنَّها قُدِّمت في الذِّكرِ لتقدُّمِ وجودِها على وجود الأرض. وأنَّ السَّماوات على هذه الهيئة مُقدَّمة على الأرض الكائنة على هذه الهيئة الموجودة؛ لأنَّه تعالى قال: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ٢٨ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ٢٩ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠﴾ [النّازعات: 27 - 30]، فإنَّه صريحٌ في أنَّ بسْطَ الأرضِ مُؤَخَّرٌ عن تَسوية السَّماء(3).

---

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 2/935.

(2) لاشين، صفاء الكلمة، ص: 214 - 215.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/192.

دِلَالَةُ الْجَمْعِ بَيْنَ ﴿طَوْعًا﴾ وَ﴿وَكَرْهًا﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾:

الطَّاعَةُ للهِ تَعَالَى شَرَفٌ وَارْتِقَاءٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

في الجمع بين ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ طباقُ إيجاب، وتقديمُ ﴿طَوْعًا﴾ على ﴿وَكَرْهًا﴾ لِمَا فيه مِنْ فَضلِ الانقياد الإراديّ على الّذي لا إرادةَ للمُنقَاد فيه؛ إذْ في قوله: ﴿طَوْعًا﴾ دلالةٌ على الأعمال الصَّالحة الَّتي فيها للإنسان إرادَة، أمَّا ﴿وَكَرْهًا﴾ فهو خُضوعُ الخَلقِ لسُنن اللّه تعالى فيهم، كالمَرَض، والصِّحَّة، والفَقر، والغِنَى، والإحياء، والإماتَة، أي: أنَّ الخَلقَ كلَّهُم مَقهورونَ للّه تعالى بهذا الاعتبارِ، ولذا عُطِفَ بـ (الواو) دُون (أو)[1].

دِلَالَةُ حَرْفِ الْجَرِّ (إِلَى) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾:

الرُّجُوعُ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَمْرٌ حَتْمِيٌّ

جاء التَّعبير بحرف الجَرِّ (إلى) في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾؛ لِمَا فيه مِنَ الدّلالة على انتهاء الغاية إلى اللّه ﷻ لكُلِّ المخلوقات في السَّموات والأرض، وفي التَّعبير بذلك مِن إثارة حِسّ المُخاطَب ما يَجعله يتفكَّر في تلك الغاية والمصير؛ ممَّا يُحرِّك في نفسه الرَّغبة في الرُّجوع إلى اللّه تعالى والإنابة إليه والرَّغبة فيما عنده[2].

مُنَاسَبَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾:

لَا مَفَرَّ مِنْ حُكْمِ اللهِ تَعَالَى

أُسندَ الفِعلُ (رَجَعَ) المُتعدِّي لِما لم يُسمَّ فاعله في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾؛ لظهور فاعله، أي: يُرجِعُكم اللّه تعالى بعد الموت وعند القيامة.

ومناسبةُ ذِكرِ هذا عَقِبَ التَّوبيخ والتَّحذير: أنَّ الرَّبَّ الَّذي لا مَفَرَّ مِن حُكمِهِ لا يَجوزُ للعاقل أن يَعدِلَ عن دينٍ أمرَهُ به، وحَقُّه أن يُسلِمَ إليه نَفسَهُ مُختارًا قبل أن يُسلِمَهَا اضطرارًا؛ وقد دلَّ قولُه: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ على المُراد مِن قوله: ﴿وَكَرْهًا﴾[3].

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/175.

(2) الجهنيّ، أثر دلالات حروف المعاني الجارّة في التّفسير، ص: 124.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/301.

تَوْجِيهُ الْقِرَاءَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾:

مِنْ رَكَائِزِ الْبَيَانِ الْـقُـرْآنِيِّ تَـعَـدُّدُ الْقِرَاءَاتِ فِيهِ

قرأ حَفصٌ ويعقوبُ بالياء الدَّالَّة على الغيبَة، فقرأ حفصٌ ﴿يُرۡجَعُونَ﴾، وقرأ يعقوب: ﴿يَرۡجِعُونَ﴾[1]، فيحتمل أن يكونَ عائدًا على مَن أَسلَمَ، ويحتمل أن يكونَ عائدًا على غير ضمير ﴿يَبۡغُونَ﴾، فيكونُ ذلك التفاتًا على قراءة مَن قرأ: ﴿تَبۡغُونَ﴾ بالتَّاء؛ إذ يكونُ قد انتقلَ مِن خِطابٍ إلى غَيبةٍ.

وقرأ باقي العشرة: بالتَّاء﴿تُرۡجَعُونَ﴾، فإنْ عاد الضَّميرُ على ﴿مَن﴾؛ كان التفاتًا، أو على ضمير ﴿تَبۡغُونَ﴾؛ كان التِفاتًا على قراءة مَنْ قرأ: ﴿يَبۡغُونَ﴾ بالياء، أو يكونُ قدِ انتقلَ مِن غَيبةٍ إلى خطابٍ[2].

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الدِّين والمِلَّة:

المِلَّةُ: اسمٌ لما شَرَّعَهُ اللّه تعالى لعباده على لسان أنبيائه، لِيتوصَّلوا به إلى آجِلِ ثوابِهِ. والدِّينُ مِلَّةٌ، لكنَّ المِلَّةَ تُقال باعتبار دعاء اللّه وإنزال كتبه، والدِّين باعتبار طاعة العباد له بإجابة دُعائه، والانقياد لأمره، والشَّيء الواحد قد يُسمَّى باسمين على اعتبارين، ثمَّ تُقال المِلَّةُ والدَّين، لِمَا لم يكن مِن قِبَلِ اللّه على التَّقييد، كقولك: مِلَّةُ مَزدكَ وغيرِه[3]، وفي الفروق اللّغويّة: "أَنه يُقَال فلَان حسن الدّين، وَلَا يُقَال حسن الْملَّة، وَإِنَّمَا يُقَال هُوَ من أهل الْملَّة، وَيُقَال لخلاف الذِّمِّيّ الملّيّ، نسب إِلَى جملَة الشَّرِيعَة، فَلَا يُقَال لَهُ دينيّ، وَتقول ديني دين الْمَلَائِكَة، وَلَا تَقول ملّتي مِلَّة الْمَلَائِكَة، لِأَنّ الْملَّة اسْم للشّرائع مَعَ الْإِقْرَار بِاللَّه، وَالدّين مَا يذهب إليه الإنسان ويعتقد أَنّه يقرّبهُ إِلَى اللّه، وَإِن لم يكن فِيهِ شرائع، مثل دين أهل الشّرك، وكلّ مِلَّة دين، وَلَيْسَ كلّ دين مِلَّة"[4]، وذكر الشّريف الجرجانيّ في التّعريفات أنّ الدِّين والمِلّة: متّحدات بالذّات، ومختلفان بالاعتبار؛ فإنّ الشّريعة من حيث

(1) ابن الجزري، النشر: 2/241.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/248.
(3) الراغب، تفسير الرّاغب: 1/306، وكذلك المفردات: (ملل)، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/149.
(4) العسكريّ: الفروق اللّغويّة، ص: 220.

إنّها تطاع، تسمّى: دينًا، ومن حيث إنّها تُجمع تسمّى: ملّة... وقيل: الفرق بين الدّين، والملّة: أنّ الدّين منسوب إلى الله تعالى، والملّة منسوبة إلى الرّسول ﷺ [1].

الإسلام والإيمان:

الْإِيمَان هُوَ الْإِقْرَار والتّصديق بالقلب، والإسلام هو العمل بالجوارح، قال أبو حنيفة في الفقه الأكبر: "والاسلام هُوَ التَّسْلِيم والانقياد لأوامر الله تَعَالَى، فَمن طَرِيق اللُّغَة فرّق بَين الْإِسْلَام وَالْإِيمَان وَلَكِن لَا يكون إِيمَان بِلَا اسلام، وَلَا يُوجد إِسْلَام بِلَا إِيمَان، وهما كالظّهر مَعَ الْبَطن، وَالدِّين اسْم وَاقع على الْإِيمَان وَالْإِسْلَام والشّرائع كلّهَا"[2]، وقد تعدّدَت آراءُ العلماءِ في بيان معنَيَيْهما، وذلك على اختلاف تخصّصاتهم العلميَّة، فحاصلُ معنى الإيمان هو: حُصولُ الاعتقاد بما يجبُ اعتقادُهُ، وحاصل معنى الإسلام: إظهارُ المرء أنَّه أَسلَمَ لاتِّباع الدِّين ودعوة الرَّسول[3].

الطّوع والاستطاعة:

الاستطَاعةُ: استفعَال، مِنَ الطَّوع، وهو خلافُ الكُره، وذلك أنَّ الفعلَ يقعُ بها طوعًا، ولا يجوزُ أن يُسمَّى الله مُستَطيعًا؛ لأنَّه من قولك: انطاعَ له الفعل بعد أن لم يكن كذلك، وهذا لا يجوزُ على الله. والطَّوعُ بمعنى: الانقياد؛ والانقيادُ بمعنى: الذُّلّ، يُقالُ: طاعَ له طَوْعًا وأطاعَهُ إطاعَةً: إذا انقادَ لهُ. والطَّاعةُ الانقيادُ لِمَن يعتقدُ تَعظيمَه[4]، ويقولون: "اشتُقّت الاستطاعة من الطّوع، ويقال: تَطاوَعْ لهذا الأمر حتّى تستطيعه، وتطوّع: تكلّف استطاعته، وقد تطوّع لك طوعًا، إذا انقاد، والعرب تحذف التّاء من استطاع، فتقول: اسْطاع يَسْطِيعُ بفتح الياء، ومنهم من يضمّ الياء، فيقول: يُسطِيعُ، مثل يُهريقُ، والتّطوع: ما تبرّعتَ به، ممّا لا يلزمك فريضته"[5].

---

(1) الجرجانّي، : كتاب التّعريفات، ص: 105.

(2) أبو حنيفة، الفقه الأكبر، ص: 57.

(3) عبّاس، التّفسير والمفسّرون: 3/346 - 348.

(4) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 65.

(5) الخليل، العين: 2/210.

﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٨٤﴾ [آل عمران: 84]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا نَزَّه اللّٰه تعالى الأنبياءَ - عليهمُ الصَّلاة والسَّلام - عَنِ الدَّعوة إلى شيءٍ غيرِ اللّٰه تعالى في قولِه سُبحانه: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩﴾ [آل عمران: 79]، ثُمَّ هدَّد مَن تولَّى عن دعوتهم الحقَّةِ في قوله ﷻ: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: 82]؛ فكان السَّامع حريًّا بأنْ يقول: أنا مقبلٌ على ما دعا إلَيْهِ الأنبياءُ مِنَ الحقِّ، غيرُ متولٍّ عنه، فمَا أقولُ ومَا أفعَلُ؟ فقال سُبحانه مخاطبًا رأسَ السَّامعين والمقدَّمَ فيهم؛ لِيَكُونَ ذلكَ أَجْدَرَ لِامتثالِهم: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾: السِّين والباء والطَّاء: تدلُّ اشْتِقَاقَاتُها على امتدادِ الشَّيءِ، ومِنْهُ قولُهم: شعرٌ سَبْطٌ وسَبِطٌ؛ إذا اسْتَرْسَلَ، ولم يَكُن جَعْدًا[2]، والسِّبْطُ: الرَّهْطُ وَالْقَبِيلَةُ، وجمعُهُ: أَسْبَاطٌ[3]، والسِّبط مِن بَنِي إسرائيلَ بمنزلةِ القَبيلةِ من قبائِل العَرَب[4].

والأسباطُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ أَوْلَادُ يعقوبَ، وهُمُ اثْنَا عشر سِبْطًا، كلُّ سِبْطٍ قَبيلَةٌ[5].

2) ﴿أُوتِيَ﴾: الْهَمْزَةُ والتَّاء والحرف المعتلّ: تدورُ تصاريفُها على وصولٍ أو تقدُّمٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/473.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سبط).
(3) الحِميَريّ، شمس العلوم: (سبط).
(4) الخليل، العين، وأبو حيَّان، تحفة الأريب: (سبط).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (سبط).

وحضورٍ إلَى محلٍّ بِتَهْيِئَةٍ أو قُوَّةٍ تُزِيل ما يعوقُ، ومِنْهُ قولُهم: آتى إِلَيه الشَّيءَ، أي: ساقَه ودَفعَهُ، فجعله يأتِي إِلَيْه، وآتى فلانًا شيئًا: أعطاه إيَّاه[1]، فالإيتاءُ: الإعطاءُ[2]، وهو المرادُ بقولِه تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾.

3) ﴿نُفَرِّقُ﴾: الفاء والرَّاء والقافُ: تدلُّ اشتقاقاتُها على تَمْيِيزٍ بين شيئين[3]، ومِنْهُ سُمِّيَ القرآنُ الكريم: فُرْقَانًا؛ لأنَّه يُمَيِّزُ بين الحقِّ والباطلِ[4]، وسُمِّيَ عُمَرُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - الفاروقَ لذلكَ[5].

والفِعْلُ: فَرَقَ، وإذا أُريدتِ المبالغَةُ ضُعِّفت عَيْنُهُ، فقيل: فَرَّقَ، ومصدرُهُ: التَّفريقُ، ومِنْهُ قولُ اللّه تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾، أي: لا نُميِّزُ بين أحدٍ مِنَ الرُّسلِ: بأن نُؤْمِنَ بهذا، ونَكْفُرَ بذاك.

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

قل - يا أيُّها الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لأهلِ الكتاب الَّذين جادلُوك بالباطل: صدَّقنا باللّهِ تعالَى، وأَقْرَرْنا به إقرارًا يَستلزم القبولَ والإذعانَ، فلا ربَّ لنا غيرُه، ولا معبودَ لنَا سِواهُ، وآمنَّا بالوحيِ الَّذي أَنْزَلَه اللّهُ علينَا، والوحيِ الَّذي أنزلهُ على الأنبياءِ قبلَنَا: إبراهيمَ وإسماعيلَ وإِسحاقَ ويعقوبَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والوحيِ الَّذي أنزلَه على الأسبَاطِ: وهمُ الأنبياءُ الَّذين كانُوا في قبائلِ بَنِي إسرائيلَ الاِثْنَتَيْ عَشْرَةَ مِن ولد يعقُوبَ، وما أوتِيَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ التَّوراة، وما أُوتِيَهُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الإنجيل، وما أنزله اللّهُ تعالى على أنبيائه، نُؤمِنُ بذلك كلِّه، ولا نُفَرِّق بين أحدٍ مِنْهُم: بِأَنْ نُؤمنَ ببعضٍ، ونكفرَ ببعضٍ، ونحنُ للّه تعالى وحدَه مُسْتَسْلِمُون بالتَّوحيد، مُنقادُون بالطَّاعة[6].

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أتو/أتى).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (أتى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرق).
(4) ابن دُريد، جمهرة اللّغة: (فرق).
(5) ابن سِيده، المخصَّص: 3/409.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 6/569 - 570. والنَّسفِي، مدارك التَّنزيل: 1/271. والطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 2/168. ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 61.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

المُوَحِّدُ للهِ تَعَالَى المُنْقَادُ لِشَرْعِهِ يُعْلِنُ إِيمَانَهُ، وَيَجْهَرُ بِهِ

فُصِلَ قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ عمَّا قبلُ؛ لِما بينَهما من شِبه كمَال الاتِّصالِ، فالجملةُ واردةٌ على طريقةِ الاسْتِئْنَافِ البيانيِّ؛ إذْ هي جوابٌ عن سؤالٍ يُفْهَمُ مِنَ الأُولَى، وذلك أنَّ اللّه تعالى لَمَّا نزَّه أنبياءَهُ عَنِ الدَّعوة إلى غيرِهِ، وهدَّد مَن تولَّى عن دعوتِهم؛ أورثَ ذلك سؤالًا في نفوسِ المُتَلَقِّين المُذْعِنِينَ للشَّرعِ المنقادِين لهُ: نحن مُقْبِلُونَ على دَعوة الأنبياءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - غيرُ معرضِين عنها، فما نَقُول وما نَفْعَل؟ فجاء الجوابُ بـ ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ خطابًا لمقدَّم المُنَقادِينَ للشَّرعِ؛ لِيَكُونَ أَحْرَى لامتِثَالِهم[1].

تَعْيِينُ المَأْمُورِ بِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا﴾:

الأُمَّةُ مَأْمُورَةٌ بِالاِئْتِسَاءِ بِالنَّبِيِّ ﷺ

المأمورُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا﴾ يحتملُ وَجْهَيْنِ[2]:

أحدُهما: أن يكون النَّبيَّ محمَّدًا ﷺ وهذا فيه مسلكَانِ:

أوَّلُهما: أنْ يكُونَ هو وأمَّتُهُ مأمورينَ، وقولهُ تَعَالَى: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا﴾ على تَقْدير: قُل يا محمَّدُ أنتَ وأُمَّتُك: آمَنَّا، وإنَّما حُذِفَ المعطوفُ؛ لفَهْم المعنَى، وبقرينَةِ جمع الضَّمير في قوله بعدُ: ﴿ءَامَنَّا﴾.

والآخرُ: أنَّ المأمورَ هُو النَّبيُّ محمّدٌ ﷺ وحدَهُ، وإنَّما جيءَ بضمير الجمع في ﴿ءَامَنَّا﴾؛ تعظيمًا لَهُ وتبجيلًا.

والوَجْهُ الآخرُ: أن يكونَ المأمورُ مَن تقدَّمَ مِن أهلِ الكتابِ، والتَّقدير: قُل لَهُمْ قُولُوا: آمنَّا،

وكونُ المخاطَبِ هو النَّبيَّ ﷺ وحدَهُ أَوْلَى؛ لِافْتِقَارِ القولِ بغيرِهِ إلى التَّقدير، وهو خلافُ الأصلِ، وخُوطِبَ ﷺ بهذا؛ ليقولَ ذلكَ بِمَسْمَعٍ مِنَ النَّاسِ كلِّهم: مُسلِمِهم وكافِرِهم[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/473.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 1/467. وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 5/369.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/302.

وخُصَّ النَّبيُّ ﷺ بتوجيهِ الخطابِ إليه؛ لكونِهِ رأسَ السَّامعينَ والمقدَّمَ فيهِمْ، فيكونُ ذلك أجدرَ لامتثالِهِمْ[1].

فالأُمَّةُ وإن لم تدخلِ ابتداءً في الخطاب بـ ﴿قُلْ﴾، إلَّا أنَّها داخلةٌ بدليلٍ آخرَ: وهو كونُها مأمورةً بِالِائْتِسَاءِ به ﷺ.

نُكْتَةُ الْجَمْعِ فِي ﴿ءَامَنَّا﴾ بَعْدَ الْإِفْرَادِ فِي ﴿قُلْ﴾:

جلَالَةُ قَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ وَرَفِيعُ مَنْزِلَتِهِ

جُمِعَ الضَّميرُ في قوله: ﴿ءَامَنَّا﴾ بعدَ إِفْرَادِهِ في قوله: ﴿قُلْ﴾؛ لإظهارِ جَلالةِ قَدْرِ النَّبيِّ ﷺ ورفعةِ منزلَتِهِ؛ إذْ أُمِرَ أن يتكلَّمَ عن نفسِه على دَيْدَنِ الملوكِ وطريقتِهم بأسلوب الجمعِ تعظيمًا[2]، ويؤيِّدُهُ: إفرادُ الضَّمير قبلُ في ﴿قُلْ﴾، فإنَّه تشريفٌ له ﷺ وإيذانٌ بأنَّه أصلٌ في ذلكَ، كما في قول اللّه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[3] [الطَّلاق: 1].

سِرُّ تَقْدِيمِ الْإِيمَانِ بِاللهِ تَعَالَى عَلَى غَيْرِهِ:

الْإِيـمَـانُ بِاللهِ تَعَالَى أَصْلُ كُلِّ خَيْرٍ

قُدِّم ذِكرُ الإيمانِ باللّهِ تعالَى على الإيمانِ بالأنبياءِ؛ لأنَّ الإيمانَ باللّهِ سُبحانه أصلُ الإيمان بالنُّبُوَّةِ، وثنَّى بذِكْرِ الإيمانِ بما أُنْزِلَ عَلَيْهِ ﷺ؛ لكونِ كُتُبِ الأنبياءِ السَّابقين دخلَهَا التَّحريفُ والتَّبديلُ، فلَم يَكُن ثَمَّ سبيلٌ إلى معرفةِ حالِهَا إلَّا بِما أَنْزَلَهُ اللّهُ تعالى على نبيِّه محمَّد ﷺ فكان ما أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَالأصلِ لِما أُنْزِلَ عَلى غَيْرِهِ مِنَ الأنبياءِ قبلَهُ؛ ولِذَا قدَّمَهُ وإنْ كَانَ إنزالُهُ مُتأخِّرًا عَنْهُم زَمَنًا، وثَلَّثَ بذِكْرِ جُملةٍ مِنَ الأنبياءِ، وخَصَّ المذكورينَ؛ لأنَّهم الَّذين يُقِرُّ أهلُ الكِتَابِ بِوُجُودِهم، ولَا يَخْتَلِفُونَ في نُبُوَّتِهم[4].

وفي تقديمِ الإيمانِ بِاللّهِ تعالى عَلَى الإيمَانِ بِمَا جاءت به رُسلُهُ:

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/473.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 2/58. والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 2/345.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/54.
(4) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 8/281. والقِنَّوجِيّ، فتح البيان: 2/277.

تقديمٌ لِلسَّبَب على المسبَّب، والمقدِّمَةِ على النَّتيجةِ؛ لإظهَارِ شرفِ النَّتيجَةِ في نفسِهَا، وأنَّها مَقْصُودةٌ لذاتِهَا لا تابعةٌ لغيرِهَا؛ إِذْ ما أَنْزَلَهُ اللّه تعالى على رُسُلِهِ يتضمَّنُ لُبَّ الشَّريعةِ وأُسَّهَا[1].

نُكْتَةُ التَّعْرِيفِ بِالْمَوْصُولِيَّةِ:

تَفْخِيمُ شَأْنِ الْوَحْيِ الْمُنْزَلِ

جيءَ بالاِسْمِ الموصولِ ﴿وَمَآ﴾ من قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾؛ لإفادةِ التَّفخيمِ والتَّعظيمِ، وذلك لِمَا في الاِسْمِ المَوْصُولِ مِنَ الإبهامِ الصَّالِحِ لهذه الدِّلالَةِ، فالآيةُ دالَّةٌ على تعظيمِ الوحيِ المُنْزَلِ على النَّبيِّ ﷺ والوحيِ المُنْزَلِ على غيرِه مِنَ الأنبياءِ، وزِيدَ الْوَحْيُ الْمُنْزَلُ عَلَى نبيِّنا ﷺ إشادَةً به؛ تعظيمًا لَهُ بذِكْرِهِ مقدَّمًا، إِذِ لِلْمقدَّمِ مزيدُ عنايةٍ.

سِرُّ بِنَاءِ الْفِعْلِ ﴿أُنزِلَ﴾ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ:

عَظَمَةُ مُنْزِلِ الْوَحْيِ ﷻ

والمُنْزِلُ في قولِه: ﴿أُنزِلَ﴾ هو اللّه تعالى، وبُنِيَ الفعلُ ﴿أُنزِلَ﴾ من قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فاعلُهُ؛ لِلْعِلْمِ بهِ ولكونِه متعيِّنًا، تَعْظِيمًا لِلْمُنْزِلِ ﷻ.

وفي تعظيمِ المُنْزِلِ تعظيمٌ للمُنْزَلِ - وهو الوحيُ - وتعظيمٌ للمُنْزَلِ عَلَيْهِم، وهُمُ الأنبيَاءُ عليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ.

دِلَالَةُ حَرْفِ (عَلَى) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾:

عُلُوُّ قَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ

حرفُ الجرِّ (عَلَى) مِن قولِ اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ دالٌّ على الاستعلاءِ، ووجهُهُ هَهُنا: أنَّ الكلامَ في الوحْيِ المُنْزَلِ، والإنزالُ يكُونُ مِن فوقُ[2].

وفيه أيضًا: تشريفٌ للنَّبيِّ ﷺ وإظهارٌ لعظيمِ مَنْزِلَتِه، وذلك أنَّ الخطابَ كان واصلًا إِلَيْهِ مِنَ اللّه تعالى بِلَا واسطةٍ بشريَّةٍ، فكانَ التَّعبيرُ بِحَرْفِ الجرِّ (عَلَى) المختصِّ بالعُلُوِّ مناسبًا لهذا المقامِ[3].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1299.

(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/381. وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 5/369.

(3) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/689.

نُكْتَةُ تَكْرَارِ المَوْصُولِ ﴿وَمَآ﴾ وَالْفِعْلِ ﴿أُنزِلَ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾:

بَعْضُ أَوْجُهِ الْمُغَايَرَةِ بَيْنَ الْمُنْزَلِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُنْزَلِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام

كُرِّرَ الموصولُ ﴿وَمَآ﴾ والفعلُ ﴿أُنزِلَ﴾، وكان يتأتَّى أن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (آمنَّا باللهِ وما أُنْزِلَ علينَا وعلَى إبْرَاهِيم)، وذلك لِلْإيمَاءِ إلى المُغَايَرةِ بينَ المُنْزَلَيْنِ(1)، وذلكَ مِن أَوْجُهٍ، مِنْهَا:

أوَّلًا: أنَّ المُنْزَلَ على النَّبيِّ ﷺ مَحْفُوظٌ لا يتطرَّق إليه تبديلٌ ولا تحريفٌ، بخلاف المُنْزَلِ على غيرِهِ مِنَ الأنبياءِ، فقد دخلَهُ التَّبديلُ والتَّغييرُ.

ثَانيًا: أنَّ المُنْزَلَ على النَّبيِّ ﷺ حاكمٌ ومُهَيْمِنٌ على المُنْزَلِ قبلُ، كمَا قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ [المائدة: 48].

ثالثًا: أنَّ ما نزلَ على الأنبياءِ - عليهم السلام - نزلَ على كلِّ واحدٍ منهم جملةً واحدةً، والمُنْزَل على النَّبيِّ ﷺ له إنْزَالانِ: إنزالٌ جُمَلِيٌّ إلى السَّماءِ الدُّنيا، ثُمَّ تلاهُ إنزالٌ بحسبِ الوقائعِ والأحْدَاثِ.

سِرُّ تَخْصِيصِ جُمْلَةٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ بِالذِّكْرِ دُونَ غَيْرِهِمْ:

إِقْرَارُ أَهْلِ الْكِتَابِ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَسْتَلْزِمُ إِيمَانَهُمْ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ

خُصَّ هؤلاءِ الأنبياءُ بالذِّكْرِ؛ لأنَّ الآيةَ في سياقِ الكلامِ عَن أهلِ الكتابِ، وَأهلُ الكتاب يقرُّونَ بوجُودِ هؤلاء الأنبياءِ، ولَم يختلفوا في نُبُوَّتِهِمْ(2).

ولم يُذْكَر غيرُهم؛ لأنَّ الكلامَ في لَوْمِ أهلِ الكتاب وتوبيخِهم، وهُمْ لا يدَّعُونَ إيمانًا وعملًا بِكُتُبِ غيرِ المَذْكُورين.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْإِيتَاءِ دُونَ الْإِنْزَالِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾:

جاءَ التَّعبير بالإيتاءِ مع نَبِيَّيِ اللهِ تعالى مُوسَى وعِيسَى عليهما السلام في

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 2/320.
(2) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 2/277.

دِقَّـةُ الْـبَـيَـانِ الْـقُـرْآنِيّ فِي اخْـتِـيَـارِ اللَّـفْـظِ المُنَاسِبِ لِسِيَاقِهِ

قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾، ووقع التَّعبيرُ بالْإِنْزَال مع الأنبياءِ المذكورينَ قَبْلُ في قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾، ونكتةُ ذلكَ: أنَّ لفظَ الْإِنْزَالِ صريحٌ في الدِّلالَةِ على انتقالٍ مِن فوقُ إلى تحت، بخلاف لفظ الإيتاءِ؛ فإنَّه محتمِلٌ لكونِه مِنَ اليَمِين أو الفَوْقِ وعكسهِمَا، وأُوثِرَ لفظُ الإيتاءِ مع مُوسَى وعِيسَى ﵉؛ لأنَّ النَّصارى: مؤمنون بما أُنْزِلَ على عيسَى ﵇، واليهودَ: مؤمنونَ بما أُنْزِلَ على مُوسى ﵇، فلمَّا كان كذلك لم يُحْتَجّ معهم إلى لفظٍ ينصُّ على ربَّانيَّةِ مصدر كُتُبِهِمْ، بل عُدِلَ عَن لفظٍ آخرَ، وهو الإيتاءُ، بخلاف حالِهم مع ما أُنْزِلَ على النَّبيِّ محمَّد ﷺ وعلى إبراهيمَ ومَن ذُكرَ بعدُ؛ فإنَّهم غيرُ مُتَّبعين لَه، بل إنَّ طائفةً مِنْهُم يزعمونَ أنَّهم تلقَّوْهُ مِنَ الكُهَّانِ، فلمَّا كان الأمرُ كذلك؛ جيءَ باللَّفْظِ الصَّريحِ الدَّالِّ على نُزولِهِ مِن فوقُ إلى تحت؛ قطعًا لهذا الشَّكِّ والاحتمال[1].

نُكْتَةُ الْإِطْنَابِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾:

تَفَاضُلُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

عُطِفَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ﴾ على ﴿مُوسَىٰ﴾ مِن قَوْلِه: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾، وهُو مِنَ الإطنابِ بذِكْرِ العامِّ بعدَ الخاصِّ[2]؛ لأنَّ مُوسَى وعِيسَى ﵉ مِن جملةِ الأنبياء، وفيه إيماءٌ إلى مَزِيد عنايةٍ بالأنبيَاءِ المذكورة أسماؤُهُم؛ لأنَّهم ذُكروا بطريقَيْن: إحداهما: بالتَّصريح بِخُصُوصِ أسمَائِهم، والأخرى: ذِكرُهم باسمٍ عامٍّ يَنْدَرِجُونَ تحتَهُ.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ اللهِ تَعَالَى (الرَّبّ) فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾:

سَعَةُ إِحْسَانِ اللهِ تَعَالَى بِالْعِبَادِ

عُبِّرَ باسْمِ اللّه تعالى (الرَّبِّ) في قولِهِ سُبْحَانه: ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾؛ لِما في هذَا الاسْمِ الكَرِيمِ مِنَ الدِّلالَةِ على إحسانِهِ سُبحانه

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/174.
(2) الزّحيلّي، التَّفسير المنير: 3/283.

وتعالى إلى أنبيائِهِ خاصَّةً بإنزالِهِ وحيَهُ إليهم واصطفائِهم لهذه المنزلةِ الرَّفيعة، وإحسانِه تعالى إلى عُمُوم العبادِ بإرسالِ الرُّسُلِ إِلَيْهم؛ لِهِدَايتِهم لِمَا فيه صَلاحُ دُنياهم وأُخْرَاهُم[1].

وفي إضافَةِ اسْمِ الرَّبِّ إلى الضَّمير الرَّاجِعِ إلى الأنبياءِ مِنَ اللُّطْفِ ما لا يخفَى، وفيهِ تعظيمٌ وتَشْرِيفٌ لِلْمُضَافِ إليهِ[2].

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ عَمَّا قَبْلُ:

وُجُوبُ الإِيمَانِ بِالأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَمِيعًا

فُصِلَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ عَمَّا قَبْلُ؛ لِما بينَهما من شبه كمال الاتِّصالِ، وهو المسمَّى: الاستئنافَ البيانيَّ، وذلك أنَّ هذه الجملةَ ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ واردةٌ جوابًا عَن سؤالٍ يُفْهَمُ ممَّا سبقَ، ووجهُ ذلكَ: أنَّ اللّه تعالى لَمَّا أمرَ نبيَّهُ ﷺ - والمؤمنون يتأسَّوْنَ به - بإِعْلَانِ إيمانه بالْمُنْزَلِ عَلَيْه، والْمُنْزَلِ على الأنبياءِ من قَبْلِهِ، ومِن جُمْلَتِهم: مُوسَى وعِيسَى عليهما السلام وكانَ السِّياقُ في الكلامِ عَن أهل الكتابِ وهُم مُؤْمِنُونَ بِهَذَيْنِ النَّبِيَّيْنِ: اليَهُودُ بِمُوسَى عليه السلام، والنَّصارَى بِعِيسَى عليه السلام؛ قَدْ يُظَنُّ أنَّه لا فرقَ بينَ أهلِ الإسلام وبينَ اليَهُودِ والنَّصارَى؛ إذِ الجميعُ يُؤمِنُ بالأنبياءِ في الجملة، فأثار ذلكَ سُؤالًا في نفوسِ المتلقِّين: ما الفرقُ بينَنَا وبينَهُم؟ فجاء الجوابُ في قوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾؛ تنبيهًا على المحلِّ الَّذي كَفَر به اليهودُ والنَّصارى[3]، فهو تعريضٌ بِهِمْ؛ لكونِهم يُؤمنونَ ببعضٍ، ويكفرونَ ببعضٍ، ويحمِلُهم حبُّ نبيِّهم على مُعاداةِ غيرِه[4].

وفي قوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ محذوفٌ، دلَّ عَلَيْهِ لَفْظُ ﴿بَيْنَ﴾؛ لاقتضائه شَيْئَيْنِ فأكثرَ، والتَّقديرُ: لَا نُفَرِّق بينَ أحدٍ وآخَرَ.[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/474.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 2/207.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/474.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/302.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/740، 3/302.

دِلَالَةُ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ ﴿لَهُۥ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لَهُۥ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾، وأصلُ الكلامِ: ونَحنُ مُسلِمُونَ له، وفي ذلك نُكتَتَان:

وُجُوبُ إِخْلَاصِ الْإِسْلَامِ للهِ تَعَالَى

إحداهما: إفادةُ القصرِ، فإنَّ تقديمَ ما حقُّه التَّأخيرُ مفيدٌ لذلك، والمعنَى: أَسلَمْنَا أنفسَنا للّهِ تعالى لا نَجعَلُ له شريكًا، وإسلامُنا خالصٌ لهُ سُبحَانَهُ، لا غرضَ آخرَ لنَا من رِياءٍ أو سُمعة أو طلبِ مالٍ أو رئاسةٍ[1].

وهذا تعريضٌ بإيمانِ أهلِ الكتاب؛ فإنَّهم بِمَعْزِلٍ عَنْ هذَا الإخلاصِ[2].

والأخرى: أنَّ في هذا التَّقديمِ مراعاةً للتَّناسُبِ الصَّوتِيِّ بين فواصلِ الآيِ قبلَهَا وبعدها، فإنَّ قبلَهَا قول اللّه تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ۝٨٣﴾ [آل عمران: 83]، وبعدها قوله سُبحانه: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٨٥﴾.

وقولهُ ﷻ: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ جملةٌ مؤكَّدَةٌ، وذَلِكَ بإيرادِهَا اسميَّةً؛ إِذِ الجملةُ الاسميَّةُ آكدُ مِنَ الفعلِيَّة، وفي هذا إشعارٌ بأهميَّةِ الإخلاصِ ووجوبِه.

بَرَاعَةُ الْخَتْمِ فِي الْآيَةِ:

إِذَا افْتَرَقَ لَفْظُ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ؛ شَمَلَ كُلٌّ مِنْهُمَا الْآخَرَ

اخْتُتِمَتِ الآيةُ بالإسلام في قوله: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾، وكانت قَدِ افتُتِحَت بالإيمانِ في قوله: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، وفي ذلكَ ما يُسمِّيه البلاغيُّون: تشابُهَ الأطرافِ، وهو أن يُختمَ الكلامُ بِمَا يتناسَبُ مع أوَّلِهِ في المعنَى[3]، ووجهُ التَّناسُبِ ظاهرٌ، مِن جهةِ الاقترانِ بينَ

---

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/282.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/55.

(3) الصَّعيديّ، بغية الإيضاح: 4/584.

الْإِسْلَامِ والإيمانِ شرعًا، وتلازُمِهِمَا، وشمولِ أحدهما الآخرَ عندَ انْفِرَادِهِ بالذِّكْرِ.

وخُتِمَ بالإسلامِ؛ لِكَونِهِ الثَّمَرَةَ والغايةَ مِن كلِّ دينٍ أُرسِلَ به نَبِيٌّ مِنَ الأنبياء[1].

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾:

إِيرَادُ الدَّلِيلِ عَلَى كَوْنِ النَّبِيِّ ﷺ مُصَدِّقًا لِلْكُتُبِ قَبْلَهُ

قالَ اللهُ تعالى: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٨٤﴾، وقال في سُورة البقَرة: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة: 136]، والفرقُ بينَهما من ثلاثةِ أَوْجُهٍ:

أَوَّلُها: في سُورة آل عمران: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، وفي سُورة البقرة: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: 136]، ووجهُ التَّغايُرِ بينهما: أنَّ سياقَ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ في أَخْذِ المِيثَاق، فَقَدْ قَالَ تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: 81]، فعيَّنَهُ في هذا الخطاب؛ لِيَظْهَرَ تصديقُهُ لِما جاءَ به الأنبياءُ قبلَهُ، بخلاف آية البقرةِ، فإنَّه وردَ قبلهَا قولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْ﴾ [البقرة: 135]، بذِكْرِ كيدِ اليهودِ ومَكْرِهِم بالْمُسْلِمينَ، فناسبَ قولَهم: ﴿كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْ﴾ [البقرة: 135] أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ فيها: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾؛ تثبيتًا لأهل الإسلامِ عَلَى لُزُومِ الْإِسْلَامِ والتَّمسُّك به[2].

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 4/584.

(2) ابن الزُّبير، مِلاك التَّأويل: 1/52. ومنى النَّصر، بلاغة التَّشابُه اللَّفظي في سورة آل عمران، ص: 1387.

إِنْـزَالُ الْـقُـرْآنِ الْـكَـرِيـمِ لَـهُ اعْـتِـبَـارَانِ إِنْـزَالٌ بِاعْـتِبَارِ الْمَبْـدَأِ، وَإِنْـزَالٌ بِاعْـتِبَارِ الِانْتِهَاءِ

ثانيهَا: في سُورة آل عمرانَ: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، وفي سورةِ الْبَقَرَة: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ [البقرة: 136]، فخُصَّتِ سورةُ البقرةِ بِحَرْفِ الجرِّ (إِلَى)، وخُصَّت آلُ عمران بحَرْفِ الجرِّ (على)؛ لأَنَّ (إِلَى) لِلانْتِهاءِ إلى الشَّيءِ من أيِّ جهةٍ كانت، بخلاف (علَى) فهي خاصَّةٌ بالفوقيَّةِ، ولذا استُعملَت ﴿إِلَىٰٓ﴾ [البقرة: 136] في آية البقرَةِ لِتَصْدِيرِها بخطَابِ الْمُسْلِمين ﴿قُولُوٓاْ﴾ [البقرة: 136]؛ لأَنَّ الوحيَ يأتيهم مِنَ النَّبيِّ ﷺ على وجهِ الانتهاءِ، بخِلَافِ مَا في سُورَةِ البقَرَة، فقد أُوثِرَ فيها حرفُ الجرِّ (عَلَى)؛ لأَنَّ الخطابَ فيها بـ ﴿قُلْ﴾ كان للنَّبيِّ ﷺ والوحي ينزِلُ عَلَيْهِ مِنَ السَّماءِ(1).

وردَّ هذا الزَّمخشريُّ والرَّازيُّ وذكرا أنَّه تعسُّفٌ(2)، واعترضَا عَلَيْهِ بنَحْوِ قولِ اللّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: 4]، وقولِه سُبحانه: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [آل عمران: 72].

والأَوْلَى أن يُحمَلَ ذلك على التَّفَنُّنِ في التَّعبير؛ إِذِ الفرقُ بينَ الْمُعَدَّى بـ (عَلَى) والمعدَّى بـ (إِلَى) إنَّما هُوَ بالاعْتِبَار، فإنِ اعتُبِرَ مبدؤُهُ؛ عُدِّيَ بـ (عَلَى)؛ لأنَّه فوقانيٌّ، وإنِ اعتُبِرَ انتهاؤُهُ إِلَى مَن هُو لهُ؛ عُدِّيَ بِـ (إِلَى)، ويُلاحَظُ أحدُ الِاعْتِبَارَين تارةً والآخرُ تارةً أخرى؛ تفنُّنًا في الْعِبَارَة(3).

صِيَانَةُ مَقَامِ النَّبِيِّ ﷺ

ثَالِثُهَا: في سُورة آلِ عِمْرَان: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾، وفي سُورَةِ الْبَقَرَة: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: 136]، ووجهُ الخُلْفِ بينَهما: أنَّ سُورة البقرة لَمَّا كانَتْ في سياقِ ذِكْرِ الرُّسلِ والمؤمنينَ؛ ناسبَهُ تأكيدُ ذِكْرِ الْإِنْزَالِ

(1) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/689.
(2) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/381. والرَّازيُّ، مفاتيح الغيب: 8/282.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 2/207.

علَى النَّبيِّين؛ لأنَّ المؤمنينَ لا يُفرِّقون بينَ أحدٍ مِنْهُمْ، وفرَّقَ غيرُهُم، فسجَّل إيمانَهم بجميع الرُّسُلِ؛ تثبيتًا لاعتقادِهم، فقال: ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾، وأمَّا سورةُ آل عمرانَ؛ فالخطابُ أصالةً للنَّبيِّ ﷺ بقرينَةِ تصديرِ الآية بـ ﴿قُلْ﴾، فناسبَه تركُ التَّوكيدِ؛ لتنزُّهِه ﷺ حالًا ومقامًا عَنِ التَّفريقِ بينَ أحدٍ مِنَ المُرسَلِينَ[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(أَنْزَلَ) و(نَزَّلَ):

مَصْدَرُ الفعل (أَنْزَلَ): الإنزالُ، ومصدرُ الفعلِ (نَزَّلَ): التَّنْزِيلُ، وبينَهما فرقٌ مِنْ جهةِ أنَّ التَّنزيلَ يكونُ لِمَا يقعُ مُفرَّقًا أو تَدْرِيجيًّا، والإنزالَ يُطْلَقُ على ما ينزلُ دفعةً واحدَةً[2]، وهذا معنَى قولِ جماعةٍ مِن أهلِ العِلْمِ: التَّنزيلُ تَدْرِيجيٌّ، والإِنْزَال دَفْعِيٌّ.

ولَا يُعترَضُ على هَذَا الفرقِ بأنَّه جاءَ التَّعبيرُ عَنِ القُرآنِ الكريمِ بالفِعْلَيْنِ معًا، لأنَّنا نَدْفَعُ هَذَا الاعْتِرَاضَ بأنَّ لِلْقُرْآنِ الكريمِ نُزولَيْنِ[3]:

أَحَدُهُما: نزولٌ دَفْعِيٌّ إلى السَّماءِ الدُّنْيَا.

والآخَر: نُزولٌ تدريجِيٌّ بحَسَبِ الوقَائِعِ والحَوَادِثِ.

الإِيتَاءُ وَالإِعْطَاءُ:

الإِيتَاءُ والإعطاءُ بمعنًى واحدٍ في ظاهرِ صَنِيعِ كثيرٍ مِنْ أَصْحَابِ المُعْجَماتِ[4]، وفرَّقَ آخرونَ بينَهُما: بأنَّ في الإعطاءِ دليلًا عَلَى التَّملُّكِ بخِلَافِ الإيتَاءِ[5]، وأمَّا في الاسْتِعْمَال القرآنيِّ للَّفظتَيْنِ؛ فإنَّ بينَهُمَا فرقًا مِن وَجْهَيْنِ[6]:

أحدهما: لَم يُستعمل الإيتاءُ إلَّا للشَّيْءِ الكَثِيرِ والعَظِيمِ الشَّأْنِ: كالقرآنِ الكريم، والمُلْك، والحِكْمَةِ، والرَّحمة، ومثلُ ذَلِكَ: الزَّكاةُ؛ لِعَظِيمِ نَفْعِهَا.

بينَما يَكُونُ الإعطاءُ لِلشَّيْءِ القَلِيل، ولم يَرِد دالًّا على الشَّيءِ الكثيرِ إلَّا مقيَّدًا بِما يدلُّ

(1) ابن الزُّبير، مِلاك التَّأويل: 1/53. وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/379.
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: 4/164، والعسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 79. والشّهاب، عناية القاضي: 1/3، 3/2.
(3) أبو شامة، المرشد الوجيز، ص: 17. والسّيوطيّ، الإتقان: 1/146.
(4) الخليل، العين، والجوهريّ، الصحاح: (أتى). وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أتي).
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 87.
(6) داود، معجم الفروق الدّلاليَّة، ص: 27 - 29.

على الكَثْرَةِ، كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ [الكوثر: 1]، وقوله: ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠﴾ [الإسراء: 20].

ثَانِيهِمَا: أنَّ الإيتاءَ إذا صدَرَ مِنَ العَبْدِ؛ يكُون عَنْ طِيبِ نَفْسٍ، بخلاف الإعطَاءِ فَهُوَ أعَمُّ، فيكون عَنْ طِيب نَفْسٍ، كما في قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥﴾ [الليل: 5]، ويكُونُ عُنْ كُرْهٍ، كَما في قَوْلِه: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التوبة: 29].

﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾ [آل عمران: 85]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمرَ اللَّه تعالَى بِإِظْهَارِ الْإِيمَانِ في قولِه: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾، وكانَ ذَلِكَ هُو الإذعان الَّذي هُو الإسلامُ؛ قال بعدَها مُحذِّرًا مِنَ الرِّدَّة عَنْهُ: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾[1].

شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

1) ﴿يَبۡتَغِ﴾: الباءُ والغينُ والياءُ: تدلُّ علَى مَعْنَيَيْنِ كُلِّيَّيْنِ: أحدهما: طَلَبُ الشَّيْءِ، والآخرُ: ضَرْبٌ مِنَ الْفَسَادِ، ومِنَ الأوَّلِ: بَغَيْتُ الشَّيْءَ، أَيْ: طَلَبْتُه، وَالْبُغْيَةُ: الْحَاجَةُ[2]، وهي الطِّلْبَةُ.

والابْتِغاءُ: الاجْتِهادُ في الطَّلَبِ، ويُحْمَدُ، أو يُذمُّ بِحَسَبِ مَا يُطْلَبُ[3].

2) ﴿دِينٗا﴾: الدَّال والياءُ والنُّون: تدلُّ اشتقاقاتُها على معنَى اللُّزوم، ثُمَّ يأتي في العربيَّةِ على أَوْجُهٍ تَرْجِعُ كلُّهَا إلى شيءٍ يَلْزَمُ الإنسانَ، أو يَلْزَمُهُ الإنسانُ[4]، وأَرْجَعَ ابنُ فارسٍ هذهِ المادَّةَ إلى جِنْسٍ مِنَ الانقيادِ والذُّلِّ[5]، وهذا والَّذي قبلَهُ مُتَلَازِمَان.

وَوَرَدَ الدِّين في القرآنِ الكَريم على أَوْجُهٍ، بَلَغَ بها ابنُ الْجَوْزِيِّ إلى أحَدَ عَشَرَ وجْهًا[6].

والدِّينُ في قولِ اللَّه تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا﴾ هُوَ ما عَلَيْهِ المرءُ مِنْ عقائدَ وأعمالٍ ناشِئَةٍ عَنِ الْعَقِيدَةِ.

3) ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: الهَمْزَةُ والخاءُ والرَّاءُ: تَدُورُ تصاريفُها على ما يُضادُّ التَّقدُّمَ، ومِنْهُ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/473.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بغي).
(3) الرَّاغب، المفردات: (بغي).
(4) العسكريُّ، الوجوه والنظائر، ص: 217.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (دين).
(6) ابنُ الجوزي، نُزهة الأعين النَّواظر، ص: 297 - 299.

قولُه: هذا الآخِرُ وهذهِ الآخِرَةُ، وهما عكسُ المتقدِّمِ والمتقدِّمَةِ، ويُطْلَق الآخِرُ على الأبعَدِ والغائبِ[1].

والآخرةُ: نَقِيضُ الدُّنيا، وسُمِّيَت الدُّنيا بهذا؛ لأنَّها دَنَت، أي: قَرُبَت، وتأَخَّرَت الآخِرةُ[2]، وسُمِّيتِ الآخرةُ بذلكَ؛ لِكَوْنِها آخرَ المنازِلِ، فَلا انْتِقالَ عَنْهَا إلى دارٍ أُخْرَى[3]، وأمَّا انْتِقالُ الخَلْقِ إلى الجنَّةِ أو إِلَى النَّارِ؛ فإنَّ ذلكَ مِن أحوَالِ الآخرَة.

4) ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾: الخاء والسِّين والرَّاء: أصلٌ يدلُّ على النَّقص[4]، وجعلَه ابنُ دُرَيْدٍ وغيرُهُ دالًّا على الضَّلالِ، ثُمَّ استُعْمِلَ في غيرِهِ، كَخُسْرَانِ التَّاجرِ[5]، والأوَّلُ أَدَقُّ؛ لئلَّا يُدَّعى في معنًى لفظِ المجازُ معَ إمكانِ الحَمْلِ على الحقيقةِ.

ويُطْلَقُ الخُسرانُ على الهَلَاكِ[6]؛ لأنَّ في الهلاكِ نَقْصًا مَا.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ومَنْ يَطْلُب دينًا غيرَ دِينِ الإسلام - الَّذي هُو الاسْتِسْلَامُ للهِ بالتَّوحيد والانقيادُ لَهُ بالطَّاعة، والإيمانُ بالنَّبيِّ الخاتمِ محمَّدٍ ﷺ - فعمَلُهُ مردودٌ غيرُ مقبُولٍ، وهُو في الآخرةِ مِنَ الْبَاخِسِينَ أنفسَهم حظوظَها مِن رَحْمَةِ اللهِ ﷻ[7].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ الِافْتِعَالِ فِي ﴿يَبۡتَغِ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا﴾:

كُلُّ مَا خَالَفَ دِينَ الإِسْلَامِ؛ فَهُوَ خِلَافُ الفِطْرَةِ

مَصْدَرُ الفعلِ ﴿يَبۡتَغِ﴾: الابتغاءُ على زِنَةِ الافْتِعَالِ، وهذه الصِّيغةُ تدلُّ على معانٍ، مِنْهَا: الاجتهادُ في الطَّلَبِ والتَّكلُّفُ فِيه، وفي اختيارِ هَذا البناءِ في قوله: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا﴾ إيماءٌ إلى أنَّ ما

(1) الخليل، العين: (أخر).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (دنا).
(3) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/370.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خسر).
(5) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (خسر). وابن سِيدَه، المحكم: (خسر).
(6) الجوهريّ، الصحاح: (خسر).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 6/570. والسّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 137. ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 61.

عدَا دينَ الإسلام دِينٌ مخالفٌ لِلْفِطْرَةِ غيرُ ملائمٍ لَها، بحيثُ مَن أرادَهُ؛ تكلَّفَه علَى نفسِهِ[1].

بَلَاغَةُ الْإِظْهَارِ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾:

إِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ

في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾ إظهارٌ في مَوْضِعِ الْإِضْمَار[2]؛ لأنَّ مَا تقدَّم مِن قولِ اللّه تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ هو أصلُ دينِ الإسلامِ الَّذي جاءَ به نبيُّنَا محمَّدٌ ﷺ بدليلِ خَتْمِ الآيةِ بذِكْرِ الإسلامِ في قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾؛ فكان مُقْتَضَى الظَّاهرِ أن يَرِدَ النَّظمُ القُرآنيُّ: ومَن يبتغ غيرَه، أي: غيرَ ما ذُكِرَ مِن أصول الإسلام، وعُدِلَ عَن ذلك إلى التَّصريح بالإسلام، فَقال سُبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾؛ إقامةً للحجَّةِ على أهلِ الكتابِ وغيرِهم؛ إذِ الآيةُ الَّتي قبلُ فيها إعلانٌ عن التزامِ دينِ الإسلام، مِن غيرِ التَّصريحِ بمآلِ مَن خالفَهُ، وحادَ عَنْهُ، فجاءت هذه الآيةُ قاطعةً لطَمَعِ انتفاعِ أحدٍ بِسُلُوكِهِ غيرَ دِينِ الْإِسْلَامِ.

سِرُّ تَكْرَارِ مَادَّةِ الْإِسْلَامِ فِي سِيَاقِ هَذِهِ الْآيَاتِ:

تَحْرِيضُ جَمِيعِ الْأُمَمِ عَلَى اتِّبَاعِ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ

تكرَّر إيرادُ مادَّة الإسلام في سياق هذه الآيات الكريمةِ، فقالَ تَعَالى: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 80]، وقال سُبحانه: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: 83]، وقال ﷻ: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾، وقال ﷻ في هذه الآيَة: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾، وكُرِّرت هذه المادَّةُ؛ لكونِهَا في حيِّزِ الميثاقِ المأخوذ على الأنبياءِ السَّابقين بِمُتَابعة النَّبيِّ ﷺ؛ حثًّا لَهُم ولأممهم مِنْ بعدِهم على تمام الانقيادِ لهُ واتِّباعِ شريعتِهِ والدُّخولِ في مِلَّتِه[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/475.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/475.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/475.

الــــرِّدَّةُ مِـنَ الْـعَـوَارِضِ الَّتِي يُـرْجَـى زَوَالُـهَـا بِرُجُوعِ أَصْحَابِهَا إِلَى الْإِسْلَامِ

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾:

الفاءُ في قَوْلِه سُبحانه: ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ رابطةٌ للشَّرْطِ، وفي ذلك: إشعارٌ بأنَّ ما بعدهَا نتيجةٌ لِمَا قبلَهَا، وفي هذا الرَّبطِ إيذانٌ بأنَّ سَبَبَ هذا الجزاءِ - وهو ابتغاءُ غيرِ دينِ الإسلامِ - ممَّا يُرجَى زَوالُهُ؛ لأنَّه مِنَ العوارضِ الَّتي تعرِضُ لِلعَبدِ، كما وقع مِنَ الرِّدَّة في خلافة أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ، فَقَدْ رجعَ إلى الإسلامِ أكثرُ مَنِ ارتدَّ، وحَسُنَ إسْلَامُهم[1].

حَقَارَةُ شَأْنِ مَنِ ابْتَغَى دِينًا غَيْرَ دِينِ الْإِسْلَامِ

نُكْتَةُ بِنَاءِ الْفِعْلِ ﴿يُقۡبَلَ﴾ لِلْمَفْعُولِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾:

بُنِيَ الفعلُ ﴿يُقۡبَلَ﴾ من قَوْلِه سُبْحَانَه: ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ لِما لم يُسمَّ فاعلُه؛ لِلْعِلْمِ بالفَاعِلِ، وهو اللّٰه سُبْحَانَه وتعَالَى، وفي حذفِهِ إشعارٌ بإهانَةِ مَن ابتغى دينًا غيرَ دينِ الإسلام، فإنَّ الفعلَ (يقبل) وردَ في القرآن الكريم مَبْنِيًّا لِلْفَاعلِ في مقام المدحِ والثَّناءِ، ومبنيًّا للمفعول في مقام العُقُوبةِ والإهانة، فالأوَّلُ: جاءَ في مَوْضِعَيْنِ في قوله سُبحانه: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [التَّوبة: 104]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [الشُّورى: 25]، وورَدَ الآخرُ في أربعة مواضعَ: في قَوْلِه تعالى: ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ﴾ [البقرة: 48]، وقوله جلَّ وعلا: ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ﴾ [البقرة: 123]، وقَوْله سُبحانه: ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ﴾، ورَابعها هذه الآية الكريمة من سُورةِ آلِ عِمْرَان: ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾، وكلُّها دالَّةٌ علَى هذَا المعنَى؛ لإيرادها في مَقام الإهانةِ والتَّحقيرِ.

دِلَالَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾:

جاءَ قولُ اللّٰهِ تعالى: ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ بعدَ بيانِ أنَّه لا يُقْبَلُ مِنْهُمْ في الآخرةِ؛ زيادةً في التَّصريحِ بحِرْمَان الثَّوابِ[2]

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/475.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/475.

حِرْمَانُ المُتَدَيِّنِ بِغَيْرِ دِينِ الإِسْلَامِ الثَّوَابَ، وَثُبُوتُ العِقَابِ لَهُ

وثبوتِ العقابِ لهم، فإنَّ قولَه سُبحانه: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ قد يُتوهَّمُ مِنْهُ أنَّ مبتغِيَ ذلك لا يُقْبَلُ مِنْهُ تديُّنُه المخصوصُ، وقد ينجُو بأعمالٍ أخرى، فدُفِعَ هذا التَّوهُّمُ ببيانِ أنَّ مآلَهُ في الآخرةِ الخُسرَانُ، فقولُه: ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ جارٍ مجرَى الاِحْتِرَاسِ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ بَدَلًا مِنْ (خَاسِر):

المُتَدَيِّنُ بِغَيْرِ دِينِ الإِسْلَامِ مُتَوَغِّلٌ فِي الفَسَادِ الاعْتِقَادِيِّ، وَاقِعٌ فِي أَشْنَعِ خَسَارَةٍ

جاءَ التَّعبيرُ بقوْلِه تعالى: ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، وهو أبلغُ مِنَ التَّعبير بـ (خاسرٍ) بأَنْ يَرِدَ النَّظمُ: (فهو في الآخِرَةِ خاسرٌ)، ووجهُ ذلك أنَّ قولَه: ﴿مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ يُفيدُ جعلَ مَن ابتغى دينًا غيرَ دِينِ الإِسْلَام غريقًا في الخسَارةِ، وهذا كقَوْلِهم: فلانٌ مِنَ العَالِمِين، فإنَّه أبلغُ مِن قَوْلِهم: فلانٌ عالمٌ؛ لأنَّه بالأوَّلِ جعلهُ غريقًا في العلمِ متأصِّلًا فيه أبًا عَن جدٍّ[1]، فقولُه سبحانه: ﴿مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ دالٌّ على أنَّ المتديِّنَ بغير دِين الإسلام متوغِّلٌ في الفسادِ الاعتقاديِّ، مستحقٌّ أعظمَ العقوبةِ، واقعٌ في أشنَعِ خسارةٍ وأقبحِهَا.

نُكْتَةُ حَذْفِ مُتَعَلِّقِ الخُسْرَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾:

المُـعْـرِضُ عَـنِ الإِسْـلَامِ فَاقِدٌ النَّفْعَ

في حَذْفِ متعلَّقِ الخُسرَانِ مِن قَوْلِ اللّه تعَالَى: ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ ثلاثةُ مَسَالِكَ:

أحدُهَا: أن يُقدَّرَ بخاصٍّ، والمعنى: من الخَاسِرين أَنْفُسَهُم، فصاروا في النَّار، وخسرُوا أهْلِيهم مِنَ الْحُورِ العِينِ[2].

ثانِيهَا: أَلَّا يُقدَّر شيءٌ بعينِه، فيَكُون في حَذْفِ المتعلَّق إِشْعَارٌ بالعموم، فمعنى: ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أي: مِنَ الَّذين وَقَعُوا فِي الْخُسْرَانِ مُطْلَقًا من غَيْرِ تَقْيِيدٍ لهُ؛ لِقَصْدِ الشُّيُوعِ[3].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/236، 2/207.

(2) ابن أبي زمَنِين، تفسير القرآن العزيز: 1/301.

(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/381.

ثالثُها: أَنْ يَكُونَ ﴿مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ منزَّلًا مَنْزِلَةَ اللَّازِم، والمعنى: هُو مِن جُمْلَةِ الْوَاقِعِين في الْخُسْرَان[1]، واستظهرَ هذا الطِّيبيُّ، وقال: "لأنَّ المرادَ أنَّ المُعْرِضَ عن الإسلام فاقدُ النَّفْعَ؛ لإبطاله الْفِطْرَةَ السَّليمةَ، والنَّفْعَ الحقيقيَّ الَّذي هو دِينُ التَّوحيد"[2].

سِرُّ تَعْلِيقِ الرَّدِّ والْخُسْرَانِ بِالابْتِغَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾:

شَنَاعَةُ الرُّكُونِ إِلَى دِينٍ غَيْرِ دِينِ الْإِسْلَامِ

رُتِّب عَدمُ القبولِ والخسرانُ على مجرَّد الطَّلَبِ والابْتِغاءِ في قَوْلِه تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؛ للدِّلالةِ على أنَّ هذا الجزاءَ الْمُخْزِيَ هُوَ في حقِّ مَن ابتغَى دينًا غيرَ دِينِ الْإِسْلَام، فكَيْفَ بِحَالِ مَن تدَيَّنَ بغَيْرِ الْإِسْلَام، وَاطْمَأَنَّ بذلك؟ فإنَّ جزاءَهُ وعقوبَتَهُ أشدُّ وأفظَعُ وأقبحُ[3].

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾:

عِظَمُ خَسَارَةِ مَنِ اتَّبَعَ غَيْرَ دِينِ الْإِسْلَامِ

أَصْلُ الْخُسْرَانِ: النَّقْصُ، وغالبُ استعمالِه في التِّجارَة، حتَّى قال بعضُ أهلِ العلم: إنَّه لا يُسْتَعْمَلُ حقيقةً إلَّا فيها[4]، وبناءً عَلَيْه فاستعمالُ الْخُسْرَان في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ٨٥﴾ مِنَ الاستعارةِ التَّصريحيَّة؛ حيثُ شُبِّهَ تَضْيِيعُ الزَّمَانِ في الدُّنيا باتِّباعِ غيرِ دِينِ الإسلامِ بالَّذي خَسِرَ في تجارَتِه، وما يَسْتَلْزِمُ ذلك مِنَ الْعِقَابِ على الصَّفقاتِ الخاسِرَة، وهذَا أدلُّ على بيانِ عظيمِ غَبْنِهم، وأوقَعُ في تَوْبِيخِهِم وتَأْنِيبِهِم[5].

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾:

أَعْظَمُ الْخَسَارَةِ الْخَسَارَةُ فِي الْآخِرَةِ

قُدِّم ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ مِن قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 2/207.
(2) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 4/171.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/55.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/107.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/250.

ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾؛ لإرادةِ الاهتمامِ لا القصرِ، فإنَّ مَنِ ابْتَغَى غيرَ الإسلامِ دينًا خاسرٌ في الدُّنيَا؛ وَلَوْ أُوتِيَ مِنْهَا ما أُوتِيَ، ولكنَّ الخسارةَ الكبرَى هي الْخَسَارةُ في الآخرَةِ، كَمَا قالَ اللّه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزُّمر: 15]، وقال سُبْحَانَه: ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [الشُّورَى: 45].

﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ
ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٦
أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ
٨٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٨٨ إِلَّا
ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٨٩﴾

[آل عمران: 86 - 89]

مُناسَبةُ الآياتِ لِما قَبلَها:

في مناسبَةِ هذه الآياتِ لِمَا قبلهَا وَجْهَانِ:

أحدُهُما: أنَّ اللّه تعالى لَمَّا عظَّمَ شأنَ الإسلامِ والإيمَانِ في قَوْلِه: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾؛ أكَّدَ ذلك التَّعظيم ببَيَانِ وعيدِ مَن عدَلَ عَنِ الإسلامِ تاركًا إيَّاهُ، فقال: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ﴾[1].

والآخَرُ: أنَّ اللّه سُبْحَانَه لَمَّا أخبرَ بخسرانِ مَنِ ارْتَدَّ عَنِ الإسلامِ؛ شرعَ يُوردُ الأدلَّةَ عَلَى اسْتِحْقَاقِهِ ذَلِكَ، فقالَ تَعَالَى: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَهۡدِي﴾: الْهاء والدَّالُ والحرفُ المعتلُّ: تدلُّ كثيرٌ من تصريفاتِهَا على معنَى التَّقدُّمِ للإرشادِ، ومِنْهُ قولُهم: هَدَيْتُه الطَّريقَ، أي: تقدَّمْتُهُ لأُرْشِدَهُ، ومِنْهُ الهُدَى: ضدُّ الضَّلالَةِ[3].

والهدايةُ في الشَّرعِ نوعَانِ: هدايةُ إرشَادٍ ودِلالَةٍ، وهدايةُ توفيقٍ وإلهامٍ[4]، والمنفيُّ في قَوْلِ اللّه تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هُو هدايةُ التَّوفيقِ، وإلَّا فإنَّ هدايةَ الإرشَادِ والدِّلالَةِ حَاصِلَةٌ لَهُم، وبِهَا تَقُومُ الحُجَّةُ عَلَيْهِم.

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 84/283.
(2) البِقاعيّ، نظم الدّرر: 4/476.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدي).
(4) البرَّاك، شرح العقيدة الطَّحاويَّة، ص: 79.

2) ﴿قَوۡمًا﴾: القاف والواو والميمُ: تدلُّ اشتقاقاتُهَا على معنَيَيْنِ كُلِّيَّيْنِ؛ أحدهما: جَماعةُ نَاسٍ، والآخرُ: انتصابٌ أو عَزْمٌ[1].

وَالْقَوْمُ عند جمعٍ مِن علماء العربيَّة: اسْمٌ يشمَلُ الرِّجَالَ وَالنِّسَاء[2].

وخصَّهُ آخرونَ بالرِّجَالِ؛ إذ لفظُ (القَوْم) في الأصل: مَصْدَرٌ وُصِفَ به، ثُمَّ غلب على الرِّجالِ دون النِّساء؛ لكَوْنِهم قوَّامينَ عليهنَّ بالأمور الَّتي لَيْسَ لهنَّ أن يقُمْنَ بها[3]، ويُؤيِّدُ هذا: أنَّ لفظَ (القوم) يُقابَلُ بلفظ (النِّساءِ)، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ [الحجرات: 11].

وإذا ذُكِرَ القومُ على جهَةِ الانفرادِ دَخَلَ فيهِ النِّساءُ، ليسَ بِمُقْتَضَى الوضْعِ، وإنَّما على سَبيل التَّبَع، كما في قَوْلِ اللهِ تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

3) ﴿كَفَرُواْ﴾: الكافُ والفاءُ والرَّاءُ: تدلُّ تصاريفُها على السَّتْرِ والتَّغطيةِ والجَحْدِ[4]، ومِنهُ سُمِّي الكَافرُ كافرًا؛ لِأَنَّهُ يسترُ نعمةَ اللهِ عَلَيْهِ وجاحدٌ لَهَا بِكُفْرِهِ، ويُقال: كفَرَ البذرَ، إذا زرَعَهُ؛ لأنَّه بزراعتِهِ يُغطِّيه[5].

وكلُّ الألفاظِ المشتقَّة مِنَ الكُفْرِ راجعةٌ إلى معنى السَّتْرِ، ومِنْهُ: اللَّيلُ، والبَحْر، والسَّحابُ المُظْلِم، والزَّارِعُ، والزَّرْعُ، فَإِنَّ الجميعَ يُسمَّى: كافرًا[6].

ويُطْلَقُ الكُفرُ في الشَّرعِ على ما يُقابلُ: الإيمانَ، وما يُقابلُ: الشُّكْرَ، فَمِنَ الأوَّلِ: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾، ومِنَ الثَّاني: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾ [البقرة: 152][7].

والأصل في الكُفْرِ شَرْعًا أنَّهُ: عدمُ الإيمانِ باللهِ تعالَى ورسلِهِ، ويَسْتَوِي في ذَلِكَ: فِيمَا إِذَا كَانَ الحامل على ذَلِكَ التَّكْذيب، أو الشَّكّ والرَّيب، أو الإعراض حسدًا أو كِبْرًا أو اتِّباعًا لبعضِ الأهواءِ الصَّارفَةِ عَنِ اتِّباعِ الرِّسالة مَعَ اسْتِيقَانِ صِدْقِ الرُّسُل[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).
(2) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (قوم).
(3) ابن الأثير، النِّهاية: (قوم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كفر).
(5) عِياض، مشارق الأنوار: (كفر). وابن مالك، إكمال الإعلام: 2/546.
(6) الكَفوِي، الكلِّيَّات: (كفر).
(7) ابن الجوزي، نزهة الأعين النَّواظر، ص: 516 - 517.
(8) ابن تيميَّة، مجموع الفتاوى: 12/335.

4) ﴿وَشَهِدُوٓاْ﴾: الشِّين والهاء والدَّال: لا يَخْرُجُ شيءٌ مِن تصاريفها عن مَعْنَى: الحُضُور والعِلْم والإِعْلَام، ومِن ذلك الشَّهادةُ، فهي جامعة لِلْمَعَانِي الثَّلاثَةِ المَذْكُورة[1]، ومِنْهُ: الشَّاهِدُ، وهو المُخْبِرُ عَنْ عِيَانٍ بحقٍّ لغيرِه على آخَرَ[2].

وقولُ اللّٰه تعالى: ﴿وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾ أي: عَلِمُوا، وأقرُّوا أنَّ محمَّدًا ﷺ رسولُ اللّٰهِ إلى خَلْقِهِ حقًّا[3].

5) ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾: الباء والياءُ والنُّون: تدلُّ تصاريفُها على بُعْدِ شَيْءٍ وانكشافِهِ[4]، ومِنَ الانكشافِ قولُهم: بانَ الشَّيءُ؛ إذا اتَّضَحَ[5]، وتبيَّنَ؛ إذا ظَهَرَ[6].

والبيِّنَةُ: الدِّلالة الواضحةُ، عَقْلِيَّةً كانَت أو حسِّيَّةً[7]، والبيِّناتُ في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ معناها: الحُجَجُ الواضحَةُ مِن عندِ اللّٰهِ تعالى[8].

6) ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: الظَّاء واللَّام والميم: تدور اشتقاقاتُه على حَجْبِ ما يَنْبَغِي أو مَا يُسْتَحقُّ، أي: منعُه أوِ انْتِقَاصُه[9].

وَمِنْهُ الظَّلَامُ؛ لحجبِهِ الرُّؤْيَة، والأرضُ المظلومةُ: الَّتي لَم يَنَلْهَا المطرُ[10].

والظُّلم: وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعه المُخْتَصِّ به، إمَّا بنُقْصَانٍ أو بزِيَادَةٍ، وإمَّا بِعُدُولٍ عَنْ وَقْتِه أو مكَانِه[11].

والظُّلمُ في قولِهِ تَعَالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هو الشِّرْكُ والكفرُ، وسُمِّي الشِّرْكُ ظُلْمًا؛ لأنَّه وَضْعُ العبادةِ في غيرِ مَنْ خلَقَ[12]، وسُمِّيَ الكفرُ ظلمًا؛ لأنَّهُ وَضْعُ الْكُفْرِ مَوْضِعَ الإيمانِ[13].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شهد).
(2) الجرجانّي، التَّعريفات، ص: 129.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 6/576.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بين).
(5) الجوهريّ، الصحاح: (بين).
(6) الزَّبيديّ، تاج العروس: (بين).
(7) الرَّاغب، المفردات: (بين).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 6/576.
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (ظلم).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة والزَّبيديّ، تاج العروس: (ظلم).
(11) ابن سِيده، المحكم، والرَّاغب، المفرداتُ: (ظلم).
(12) الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 1/82.
(13) العُلَيميُّ، فتح الرَّحمن: 1/478.

7) ﴿جَزَآؤُهُمۡ﴾: الجيم والزَّاي والياءُ: تدلُّ اشتقاقاتُها على قيامِ شيءٍ مَقَامَ غيرِه ومُكَافَأَتِهِ إيَّاهُ[1]، ومِنْهُ قولُهم: جَزَى عنِّي هذا الْأَمْرَ، أَيْ: قَضَاهُ[2].

والجزاءُ: مَا فيهِ الْكِفَايَةُ مِنَ الْمُقَابلة، إن خَيْرًا فخيرٌ، وإِنْ شرًّا فشَرٌّ[3]، ومنه قولُ اللّه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾؛ فهو بِمَعْنَى: المقابلةِ عَلَى الشَّرِّ بالْعِقَابِ[4].

8) ﴿لَعۡنَةَ﴾: اللَّامُ والعينُ والنُّونُ: تدلُّ على نَفْيٍ أَوْ طَردٍ وإبعادٍ مِنَ الحيِّزِ بتَخْوِيفٍ وذعْرٍ؛ لعدم قَبُول القُربِ[5].

وقولُ القائلِ: لَعَنَهُ اللّه، يُرِيدُ: طَردَه اللّه عَنْهُ، وبَاعَدَهُ مِنْهُ، ونحوَ ذلك[6].

واللَّعْنَةُ في العُرْفِ الشَّرعيِّ: الطَّردُ والإبعادُ عَن رحمةِ اللّهِ تعالى[7]، وهي المرادُ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ﴾.

9) ﴿خَٰلِدِينَ﴾: الخَاءُ واللَّامُ والدَّالُ: تدلُّ تَصرِيفَاتُها على الثَّبات والْمُلَازَمَة[8]، وَمِنْهُ الخُلْدُ والخلودُ، بمعنَى: البَقَاء والدَّوام، وهو في الأَصْلِ: الْمُكْثُ الطَّويل، ولا يلزَمُ مِنْهُ الدَّوامُ؛ ولذا يُقَيَّدُ في مواضِعَ بِـ ﴿أَبَدًاۖ﴾ [نحو: النساء: 57] لإرادَةِ التَّمْيِيزِ لا التَّأْكِيد[9].

وخُلُودُ الكُفَّارِ في النَّارِ مقطوعٌ به، وذَلِكَ مُسْتَفَادٌ من أدلَّةٍ أُخْرَى كثيرةٍ، مِنْهَا ما وَرَدَ في القُرآنِ الكَريم مقيَّدًا خُلُودُهم في النَّارِ بالتَّأْبِيدِ، كقَوْلِه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: 39]، وكهذه الآية: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾.

10) ﴿يُنظَرُونَ﴾:النُّون والظَّاءُ والرَّاءُ: تدورُ تصريفاتُهَا على تأمُّلِ الشَّيءِ ومعايَنَتِه،

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جزي).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (جزي).
(3) الرَّاغب، المفردات: (جزا).
(4) ابن الهائِم، التِّبيان: (جزا).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (لعن).
(6) ابن قُتيبة، غريب القرآن، ص: 27.
(7) الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 5/626.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خلد).
(9) ابن القيِّم، شفاء العليل، ص: 257. وابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيَّة: 1/265.

وَمِنْهُ قولُهم: نظرتُ إلى الشَّيءِ، أي: عايَنْتُهُ، ونظرتُهُ، أي: انْتَظَرْتُهُ، كَأَنَّكَ تَنْظُرُ إلَى الوَقْتِ الَّذي يَأْتي فِيهِ[1].

وأَنْظَرْتُهُ: أَخَّرْتُهُ[2]، والإنظارُ: الإمهالُ، ومِنْهُ قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾[3].

11) ﴿تَابُواْ﴾: التَّاء والواوُ والبَاءُ: تدلُّ تصاريفُها على معنَى الرُّجوعِ، تَقُولُ: تابَ مِنْ ذَنْبِه، أي: رجع عَنْهُ[4]، وتاب إلى اللهِ تعالَى: عادَ إِلَيْهِ بالطَّاعَةِ بعدَ المَعْصِيَةِ، وتابَ اللهُ سُبحانه على العبد: رجع إِلَيْهِ بالمغفرة[5]، وهو المعنى المرادُ من قَوْلِ اللهِ تعالَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

كَيْفَ يُوَفِّق اللهُ تعالى لِلْإِيمانِ بهِ وبِرَسُولِهِ قَوْمًا جَحَدُوا نُبُوَّةَ محمَّد ﷺ بعدَ تَصْدِيقِهم إيَّاه، وإِقرَارِهم بِمَا جاءَهم بِهِ مِن عندِ رَبِّه، وقد جاءَتهمُ الحُجَجُ والأدلَّةُ بصحَّة ذلك؟ واللهُ سبحانه لا يُوَفِّقُ لِلْحَقِّ الجماعةَ الظَّالمِينَ الَّذين اخْتَارُوا الكفرَ عَلَى الإيمانِ.

أُولئك الظالمُونَ الَّذينَ عدَلُوا عَنِ الإيمانِ، واختارُوا الكُفْرَ؛ جزاؤُهم أَنْ يَحِلَّ بهم مِنَ اللهِ تعالى الإقصاءُ والإبْعَادُ، ومِنَ الملائكةِ والنَّاسِ الدُّعاءُ بما يسوؤُهم مِنَ العقابِ، فَهُمْ مَطْرُودُون من رحمة اللهِ تعالَى، وَيَخْلُدُون في نار جهنَّمَ، لا يُرفَعُ عنهم شيءٌ مِنَ العذابِ، فيستريحُوا، ولا يُؤَخَّرُ عنهم لاعتذارٍ يعتذرونَ به، إلَّا مَن رجعَ إلى اللهِ تعالى تائبًا من كفرِهِ وظُلْمِهِ، وأصلحَ ما أفسدَهُ، فإنَّ اللهَ تعالى يَسْتُرُ ذنبَه الَّذي كان مِنْهُ مِنَ الرِّدَّةِ، ويتركُ عقوبتَهُ عَلَيْهِ، ويَرْحَمُه بواسِعِ رَحْمَتِهِ[6].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ الاِسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾:

الاِسْتِفْهَامُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ يَحتملُ أحدَ معنَيَيْنِ:

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نظر).

(2) الرَّاغب، المفردات: (نظر).

(3) الحِمْيَرِيّ، شمس العلوم: (نظر).

(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (توب).

(5) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (توب).

(6) ابن جرير، جامع البيان: 6/576 - 578. ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 61.

اسْتِيلَاءُ الْهَوَى عَلَى الْقُلُوبِ مَظِنَّةُ دَوَامِ الِانْحِرَافِ

أوَّلهما: أن يكونَ مرادًا به النَّفْيُ والإنكارُ، والمعنى: لا يَهْدِي اللّٰه تعالَى قومًا كفَرُوا بعدَ إيمانِهِمْ، فهو نظيرُ قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة: 7]، أي: لا يكونُ لَهُمْ عهدٌ[1].

والآخرُ: أن يَكُونَ مرادًا به الاسْتِبْعَاد، أي: يُسْتَبْعَدُ أن يهديَ اللّٰه تعالى الحائدَ عَنِ الحقِّ بَعْدَ مَا وَضُحَ لَهُ، وهو مُنْهَمِكٌ في الضَّلالِ، بَعِيدٌ عَنِ الرَّشادِ[2].

واحتمَلَ الوَجْهَيْنِ جماعةٌ، منهمُ ابنُ عاشور، فقد قال: "استفهامٌ إنكاريٌّ، والمقصُودُ: إنكَارُ أن تَحْصُلَ لَهُمْ هدايةٌ خاصَّةٌ... ويجوزُ أَن يكُونَ الِاسْتِفْهَامُ مستعملًا في الِاسْتِبْعَادِ"[3].

ويُمْكِنُ حَمْلُ الاستفهامِ في الآيةِ على المعنَيَيْنِ معًا، ويختلفُ ذلك باخْتِلَافِ أفرادِ الكافرينَ بَعْدَ الإيمانِ مِنْ جِهَةِ درجةِ استيلاءِ الهَوى على قُلُوبِهِم قوَّةً وضعفًا.

وَوُرودُ النَّفْيِ أوِ الاستبعادِ بـ ﴿كَيْفَ﴾ - وهي لسُؤَالِ الحالِ - أعمُّ وأبلغُ من وُرُودِ ذلك بالهمزةِ بِأَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (أَيَهْدِي اللّٰه قومًا كفروا بعدَ إيمانِهم)، ووجهُ كونِ الأوَّلِ أَعَمَّ: أنَّ الاستفهامَ بالهمزةِ مُطلقٌ في الشَّيءِ، بخلافِ الاستفهامِ بـ ﴿كَيْفَ﴾؛ فإنَّه عامٌّ في جميعِ أحوالِ الشَّيءِ، ودِلَالةُ العامِّ أقوى مِنْ دِلَالةِ المطلقِ؛ لأنَّ العامَّ يتناولُ جميعَ أفرادِهِ دفعةً واحدة، فالهمزةُ - لَو وقعَ الاستفهامُ بها - تدلُّ على نفيِ هدايةِ اللّٰه تعالى لَهُمْ أوِ استبعادِ ذلك في حالةٍ ما، بخلافِ ﴿كَيْفَ﴾؛ فإنَّها تدلُّ على نَفْيِ ذلكَ أو استبعادِهِ في جميعِ الْأَحْوَالِ.

وأمَّا كونُ الاستفهامِ بـ ﴿كَيْفَ﴾ أبلغَ؛ فلأنَّهُ نُفِيَ أن يكونَ لَهُمْ حالٌ يَهْدِيهم اللّٰه تعالى فِيهَا، وقد تقرَّرَ أنَّ كلَّ مَوْجُودٍ لا ينفكُّ عَن حالٍ وصِفَةٍ عندَ وجودِه، ويَسْتَحِيلُ وجودُهُ بغيرِ صِفَةٍ مِنَ الصِّفات، فكان ذلك إنكارًا لِوُجُودِ الهدايةِ بالطَّريقِ البُرْهَانيِّ[4].

(1) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/698. والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/129.
(2) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 2/26.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/303.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/87، 380. والمطعنيّ، التَّفسير البلاغي للاستفهام: 1/174.

دِلَالَةُ تَنْكِيرِ ﴿قَوۡمٗا﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾:

حَقَارَةُ الْمُرْتَدِّ حَيْثُ تَرَكَ النَّفِيسَ وَأَخَذَ الْخَسِيسَ

نُكِّر ﴿قَوۡمٗا﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ سُبحانه: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ لإرادةِ تحقيرِ مَن ارتدَّ بعد إسلامِه، حيثُ عرفَ النَّفيسَ وخَبَرَهُ، ثُمَّ عدلَ عَنْهُ إلى الخَسيسِ.

وفي التَّنكِير أيضًا: معنَى العُمُومِ؛ إذِ النَّكِرَةُ في سياقِ الاِسْتِفْهَامِ تَقْتَضِيه.

فَائِدَةُ إِسْقَاطِ حَرْفِ الْجَرِّ (مِنْ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾:

اسْتِحْقَاقُ كَمَالِ الذَّمِّ وَالتَّوْبِيخِ عَلَى الاِسْتِمْرَارِ فِي الْكُفْرِ

قال اللّه تعالى: ﴿بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ دون: (مِنْ بعد إيمانِهم)؛ لبيانِ أنَّ المرادَ بكمال الذَّمِّ والتَّوبيخِ هو مَن كفَرَ، ثُمَّ استمرَّ كفرُهُ إلى المَوْتِ[1].

بَلَاغَةُ الطِّبَاقِ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾:

شَنَاعَةُ كُفْرِ الْمُرْتَدِّينَ

بَيْنَ ﴿كَفَرُواْ﴾ و﴿إِيمَٰنِهِمۡ﴾ مِن قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ طباقُ إيجابٍ، وفيه إبرازٌ لشناعةِ كُفْرِهم، وزيادةٌ في الحطِّ مِنْ قدرهم؛ إذ كما أنَّ الضِّدَّ يُظهرُ حسنَهُ الضِّدُّ، فإنَّ الضِّدَّ -أيضًا- يُظْهِرُ قُبْحَهُ الضِّدُّ؛ إذ هُما طرفانِ مُتَقابِلانِ مُتَلَازِمَانِ.

نُكْتَةُ التَّوْكِيدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ﴾:

خُطُورَةُ رَدِّ الْحَقِّ بَعْدَ تَبَيُّنِهِ

أُكِّدَ الخبرُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ﴾؛ لبيانِ عَدْلِ اللّه تعالى في حِرمانِهم فضْلَهُ؛ لأنَّهم كفَرُوا بحقٍّ تجلَّت لهم أدلَّتُهُ وبراهينُهُ، ولَم يَرْتَابُوا فيه، ثُمَّ عَدَلُوا عَنْهُ إلى الكُفْرِ، فهُمُ الظَّالمونَ لأنفسِهم، الْحَقِيقُونَ بالضَّلالِ[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/476.
(2) المطعنيّ، التَّفسير البلاغي للاستفهام: 1/174.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾:

مَنْ أَخْرَجَ النَّصَّ عَنْ سِيَاقِهِ؛ فَقَدْ غَلِطَ فِي نَظَرِهِ، وَغَالَطَ فِي مُنَاظَرَتِهِ

اللَّامُ في ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾ لِلْعَهْدِ الْعِلْمِيِّ، والمرادُ به: محمَّدٌ ﷺ، وهو قولُ الْجُمْهُورِ، وسياقُ الآياتِ دالٌّ على ذَلِكَ دِلالةً بيِّنَةً.

ويحتَمِلُ أن تكُونَ اللَّامُ لبيانِ الحقيقةِ، مرادًا به: الرِّسالَةُ، وهو وإن كان أعمَّ مِن سابقِهِ؛ لشمولِه النَّبيَّ محمَّدًا ﷺ وغيرَهُ مِنَ المُرسلِينَ، إلَّا أنَّ السِّياقَ لا يُؤيِّدُهُ، ولِذَا استبعَدَهُ أَبُو حيَّانَ[1].

وَصْفُ ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ بِالْمَصْدَرِ ﴿حَقٌّ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾:

الْوَصْفُ بِالْمَصْدَرِ يُرَادُ بِهِ الْمُبَالَغَةُ فِي اسْتِحْقَاقِ الْوَصْفِ لِلْمَوْصُوفِ

جاءَ الإخبار عن ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ بـ﴿حَقٌّ﴾ في قوله سبحانه: ﴿وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾، والخبرُ وصفٌ في المعنَى، ووقعَ الوصفُ بالمصدر ﴿حَقٌّ﴾؛ لقصد المبالغَةِ في شدَّةِ معرفتِهم بثبوت الرِّسالة لنبيِّنَا محمَّد ﷺ وذلك مُقْتَضٍ شناعَةَ ارتدَادِهم عن هذا الحقِّ الَّذي عرفُوهُ يقينًا.

بَرَاعَةُ الْمَجَازِ الْعَقْلِيِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ﴾:

قُوَّةُ الْحُجَجِ الَّتِي نَصَبَهَا اللهُ تَعَالَى لِلْعِبَادِ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ﴾ مجازٌ عقليٌّ، عَلاقتُهُ المفعوليَّةُ؛ لأنَّ اللّه سُبحانه هو الَّذي آتَاهُم البيِّنَاتِ، ونُكْتَةُ المجازِ ههنا: إبرازُ قُوَّةِ البيِّناتِ وشدَّةِ وضوحِهَا وعظيم نفْعِهَا حتَّى كأنَّها جاءتْهُم بنفسِهَا، وهي سَاعِيَةٌ مِطْواعَةٌ، إلَّا أنَّهم عَمُوا عَنْهَا، وصَمُّوا[2].

وفي جَمْعِ ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُۚ﴾ إشعارٌ بكثرَتِهَا، فهي واضحةٌ في دِلالَتِها، كثيرةٌ في عَدَدِهَا.

---

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/252.

(2) المطعنيّ، التَّفسير البلاغي للاستفهام: 1/174.

بَلَاغَةُ التَّذْيِيلِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

مَنْعُ أَفْضَالِ اللهِ تَعَالَى عَنِ الظَّلَمَةِ

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تذييلٌ جارٍ مجرَى المثَلِ؛ لاستقلالِهِ بالمعنَى وعدمِ افتقارِهِ لِما قبلَهُ في فَهْمِ أصلِ المُرادِ مِنْهُ، وهو مقرِّرٌ لقولِهِ سُبحانه قبلُ: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِى ٱللَّهُ قَوۡمًا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾، والمرادُ: بيانُ مَنْعِ أفضالِ اللّهِ تعالى عَنِ الظَّلَمَةِ جميعِهِم، لا المَذْكُورِينَ وحدَهُم، فعَمَّ بَعْدَ أن خَصَّ، وفي الآيةِ "إشارةٌ إلى أنَّ الظُّلْمَ يُحْدِثُ في نَفْسِ الظَّالم ظُلمةً شديدةً لَا يَنْفَعُ معَهَا ضَوْءٌ، فَتُغْلِقُ كلَّ الأبوابِ التي يَنْفُذُ مِنْهَا النُّورُ إلى مَوْضِعِ الْإِدْرَاك"[1].

وقولُه ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مجازٌ مرسَلٌ مركَّبٌ؛ إذِ الجملةُ خبريَّةٌ يُرادُ بها الوعيدُ والتَّهديدُ[2].

دِلَالَةُ التَّأْكِيدِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

التَّحْذِيرُ مِنْ سُلُوكِ سَبِيلِ الظَّالِمِينَ

أُكِّدَت جملةُ التَّذييل بمؤكِّدَين:

أحدهما: ورودها اسميَّةً، فإنَّ الجملةَ الاسميَّةَ آكدُ مِنَ الفعليَّةِ، لِدِلالَتِهَا على الثُّبوتِ وَالاستمرارِ بقرينَةِ الوعيدِ.

والآخر: تَقَدُّم المُسْنَدِ إليهِ عَلَى المُسْنَدِ الفِعْلِيِّ؛ إِذْ فيهِ تكرارُ النِّسْبَةِ مرَّتين: إحداهما في نِسْبَةِ الهدايةِ إلى الِاسْمِ الأحسَنِ (اللّه)، والأُخْرَى في نِسْبَتِهَا في الضَّميرِ المُسْتَتِرِ في ﴿يَهۡدِى﴾ العائدِ إلى اللّهِ تعالى أيضًا، وتَكرارُ النِّسبةِ مِنْ مُقوِّياتِ الأخبارِ.

وفي هَذَا مَزِيدُ تحذيرٍ وتهديدٍ مِن سُلُوكِ سبيلِ الظَّلَمَةِ؛ لِئَلَّا تنالَهُم عقوبةُ اللّهِ تعالى بِمَنْعِهِم هدايَتَهُ.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1306.

(2) المطعنيّ، التَّفسير البلاغي للاستفهام: 1/174.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

التَّحْذِيرُ مِنْ مُطْلَقِ الظُّلْمِ

اللَّامُ في ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مِن قَوْلِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دالَّةٌ على الْكَمَالِ، أي: أنَّ اللّه تعالى لا يَهدي القومَ الغَارِقِين في الظُّلْم الكامِلِينَ فيه[1].

ويَحْتَمِلُ أن تَكُون اللَّامُ لاستغراقِ أفرادِ الجنسِ، فيكون مجازًا مرسلًا بعلاقةِ العموميَّةِ؛ إذْ أُطْلِقَ العُمومُ وأُريد به الخُصُوصُ، والمرادُ: الظَّالُمونَ الَّذين قدَّر اللّه تعالى موتَهم عليهِ[2]، وعُبِّرَ بالعامِّ قصدًا إلى التَّحذيرِ من مطلَقِ الظُّلْم.

ولا منافاةَ بين الدِّلالَتين، والمعنى: أنَّ اللّه تعالى لا يهدِي الظَّالمين الغارقينَ في الظُّلْم، ممَّن قدَّر اللّه تعالى موتَهم على ذلكَ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ﴾:

فِي تَعْلِيقِ الْعُقُوبَةِ عَلَى الْأَوْصَافِ دُونَ الْأَشْخَاصِ تَنْفِيرُ الْعِبَادِ مِنَ الِاتِّصَافِ بِهَا

أُوثِرَ اسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مِن قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ﴾ وهو دالٌّ على البَعيدِ لِلْإِيمَاءِ إِلَى أنَّهم بُغَضَاءُ بُعَدَاءُ في الشَّرِّ، والإشارةُ راجعةٌ إلى المَذْكُورِينَ بِاعْتِبَارِ اتِّصافِهم بما ذُكِرَ مِنَ الصِّفاتِ الشَّنيعةِ والخِلالِ القبيحَةِ الْمُمَيِّزة لَهُمْ عمَّن عداهُمْ أكملَ تَمْيِيزٍ وأوضَحَهُ، بِحَيْثُ صَارُوا كأنَّهم حاضِرُونَ مُشَاهَدُون عَلَى مَا هُم عَلَيْه، وَمَا في ذلِكَ مِن مَعْنَى الْبُعْدِ الْمُؤْذِنِ بِبُعْدِ مكانتِهم في الشَّرِّ وسُوءِ الْحَالِ، وفي ذلكَ تنفيرٌ لِلْعِبَادِ مِن سلوكِ هذا الْمَسْلَكِ الرَّدِيءِ[3].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/477.

(2) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 1/468.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/380. والبقاعي، نظم الدُّرر: 4/477. وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/56. وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1307.

دِلَالَةُ التَّأْكِيدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ﴾:

زِيَادَةُ الْوَعِيدِ وَالتَّهْدِيدِ رَاجِعٌ إلى شَنَاعَةِ الْجُرْمِ

في قَوْلِه سبحانه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ﴾ مؤكِّدَانِ:

أحدُهَا: ﴿أَنَّ﴾، فإنَّها مؤكِّدَةٌ لِلْجُمَلِ الاسميَّة، كـ (إنَّ) على المُخْتَارِ.

والآخَرُ: اسميَّةُ الجملة، فإنَّها آكدُ مِنَ الجملةِ الفعليَّةِ لِدِلَالتِهَا على الثُّبُوتِ واللُّزوم.

وفي هذا تَأْكِيدُ جزَائِهم وعُقُوبَتِهم زيادةً في الوَعِيدِ والتَّهديدِ، وإمعانًا في التَّنْفِير مِن مَسْلَكِ هؤلاءِ.

نُكْتَةُ التَّقْدِيمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ﴾:

عِظَمُ اللَّعْنَةِ الْحَالَّةِ عَلَى الْمُرْتَدِّينَ

في قولِه تعالى: ﴿أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ﴾ تقديمُ متعلَّق خبرِ ﴿أَنَّ﴾ على اسمِهَا، وذلكَ مفيدٌ القَصْرَ والحصرَ، أي: قصر اللَّعنةِ عَلَيْهِم، وهو مِن قَصْرِ الصِّفة على الموصوف قصرًا حقيقيًّا ادِّعائيًّا؛ إذِ اللَّعْنَةُ نُسِبَتْ إلى غير المَذْكُورينَ ههنا في مواضعَ متعدِّدَةٍ من القرآنِ الكريم، ونُكْتَةُ هذَا القصرِ الادِّعائيِّ: الإشعارُ بِعِظَمِ اللَّعْنَةِ المتوجِّهة إلى هؤلاءِ، حتَّى كأنَّ اللَّعنةَ الحالَّةَ بغيرِهم غير موجودةٍ مقارنةً بِلَعْنتِهِمْ.

ويُقَوِّي دِلالةَ تعظيمِ اللَّعنةِ إضافتُهَا إلى الاسْمِ الأحسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله: ﴿لَعۡنَةَ ٱللَّهِ﴾، فإنَّ الإضافةَ دالَّةٌ ههنا على تعظيم المضافِ.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ وَ﴿وَٱلنَّاسِ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾:

لَعْنُ الْكَافِرِ الْمُبْطِلِ يَشْمَلُهُ - وَإِنْ لَمْ يَعْلَمِ - لِكَوْنِهِ أَحَدَ الْمُبْطِلِينَ

اللَّامُ في ﴿وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ و﴿وَٱلنَّاسِ﴾ من قَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ لِلاسْتِغْرَاقِ الحقيقيِّ المُقْتَضِي شُمُولَ أفرادِهِ المندرجَةِ تحتَهُ؛ ولذا أُكِّدَ بـ ﴿أَجۡمَعِينَ﴾.

والشُّمولُ في الملائكةِ ظاهرٌ، وأمَّا في النَّاسِ؛ فجميعُهم يلعَنُونَ المُبْطِلَ والكافِرَ، حتَّى إنَّ الواحدَ مِنَ الكُفَّارِ يلعَنُ نفسَهُ؛ لأنَّه إذا لعنَ

الكافرَ - وكان هُو في علم اللّهِ تعالى كافرًا - يكونُ قَد لَعَنَ نفسَهُ، وهُوَ لا يعلَمُ(1).

تَعْيِينُ مَرْجِعِ الضَّمِيرِ فِي ﴿فِيهَا﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾:

قَـدْ يَـرْجِـعُ الضَّمِيرُ عَلَى غَيْرِ مَـذْكُـورٍ اكْتِفَاءً بِـدِلَالَـةِ السِّيَاقِ عَلَيْهِ

الضَّميرُ في ﴿فِيهَا﴾ مِن قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ يَحْتَمِلُ رجوعُه إلى اللَّعْنَةِ أو العقوبةِ أو النَّارِ، ورجوعُهُ إلى الأخيرِ أظهَرُ؛ للتَّصريح بالمرجعِ في آيٍ مِنَ القُرآنِ الكريم، كقَوْلِهِ تعالى: ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ﴾ [النساء: 169]، وقوله: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [الأنعام: 128]، وقَوْله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [هود: 106 - 107]، فكذلكَ في هذهِ الآيَةِ يرجعُ الضَّميرُ إلى النَّارِ، وإِنْ لم يَجْرِ لها ذِكْرٌ؛ اكتفاءً بدلالَةِ المعنى، كما يُفهم مَرْجِعُ الضَّمير في قوله تَعالَى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ٢٦﴾ [الرَّحمن: 26] بأنَّها الأرضُ، وإِنْ لَمْ يَجْرِ لها ذِكْرٌ(2).

دِلَالَةُ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾:

أَبَـدِيَّـةُ الْـعَـذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ

لَمَّا قالَ اللّهُ تعالى: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾، وكان المُعذَّبُ على شيءٍ رُبَّمَا اسْتَمْهَلَ زمنًا مَا ليرجعَ عَن ذلك الشَّيءِ أو يَعْتذِرَ؛ نفَى اللّه تعالى ذلك بقولِه: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾، فكانت هذه الجُمْلَةُ بِمَنْزِلَةِ الاحْتِرَاسِ؛ لِدَفْعِ هَذَا التَّوهُّم.

نُكْتَةُ ذِكْرِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ ﴿هُمْ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾:

لَا يُرْفَعُ الْعَذَابُ عَنِ الْكَافِرِينَ وَلَا يُخَفَّفُ

ذُكِرَ المسندُ إليه ﴿هُمْ﴾ مِن قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾، ولو حُذِفَ بأَنْ يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (لا يُخفَّفُ عَنْهُم العَذَابُ ولا يُنْظَرُونَ)؛ لأدَّى أصلَ المعنَى، إلَّا أنَّهُ ذُكِرَ المسنَدُ إليه ﴿هُمْ﴾ قصدًا إلى زيادةِ التَّقريرِ والإيضاحِ، وذلك كَمَن

(1) الرَّازيُّ، مفاتيح الغيب: 8/285. والبقاعي، نظم الدُّرر: 4/477.
(2) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 1/469. والآلوسي، روح المعاني: 2/209.

يُمْسِكُ بِمُجْرِمٍ عاثَ في الأرضِ فَسَادًا، فيُقال على رُؤُوسِ الأشهادِ: هذا الَّذي قَتَلَ، هذا الَّذي سَرَقَ، هذا الَّذي أَفْسَدَ.

وفي تقديم الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ علَى الْمُسْنَدِ الفعليِّ تأكيدٌ للنِّسبة؛ إِذْ تكَرَّرت مرَّتين: إحداهُمَا في نِسْبَةِ فِعْلِ الْإِنْظَارِ إلى ضمير ﴿هُمْ﴾، والأخرى في نسبتِهِ إلى واوِ الجماعة، فكان ذلكَ مُفيدًا تأكيدًا بعدَ تقريرٍ؛ مُبَالغةً في نَفْيِ إِمْهَالِ الكَفَرَةِ المُقْتَضِي عدمَ تخفيفِ العذابِ عَنْهُم فَضْلًا عَن رَفْعِه.

دِلَالَةُ ﴿مِنۢ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾:

وُجُوبُ الْمُسَارَعَةِ إِلَى التَّوْبَةِ

مِن معاني (مِنْ) الابتداءُ، وهي كذلكَ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾، فإنَّها تدلُّ على المُبَادرةِ إلى التَّوبةِ في أوَّلِ أزمنَةِ البَعديَّةِ[1]، كما في قَوْلِه سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ [النِّساء: 17].

حَذْفُ مُتَعَلَّقِ الْفِعْلِ ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ﴾:

وُجُوبُ إِصْلَاحِ الْعَبْدِ لِمَا أَفْسَدَ

الفعلُ (أصلح) مِنْ قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ﴾ مُتَعَدٍّ لم يُذْكر مفعولُهُ؛ لدلالَةِ السِّياقِ عليهِ، ولإرادةِ العموم، والتَّقدير: أصلحُوا جميعَ مَا أَفْسَدُوه.

ويَحْتَمِلُ أن يكونَ الفِعْلُ المتعدِّي نُزِّلَ منزلةَ اللَّازم، فيكون معنى ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾: دخلُوا في الصَّلاحِ[2]، وهذا أبلغُ؛ لأنَّه يكونُ كالْوَارِدِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ﴾[3] [الأحقاف: 15].

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾:

الفاءُ في قولهِ سُبحانه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ فصيحةٌ[4]، وهي

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/381.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/209.
(3) الطِّيبي، فتوح الغيب: 4/174.
(4) الدّعّاس، إعراب القرآن: 1/148.

الدَّاخلةُ على جَوَابِ شَرْطٍ مقدَّر، والتَّقديرُ: إنْ تابوا وأَصْلَحُوا؛ يُغْفَرْ لَهمْ، فإنَّ اللّٰه غفورٌ رحيمٌ[1].

مِنْ آثَارِ مَغْفِرَةِ اللهِ تَعَالَى وَرَحْمَتِهِ قَبُولُ تَوْبَةِ العِبَادِ

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إقامةُ السَّبَبِ مُقَام مُسَبَّبِه، والمعنى: فإنَّ اللّٰه يتوبُ عَلَيْهِم؛ لأنَّه غفورٌ رحيمٌ، فمغفرتُهُ ورحمتُهُ سببان في قبولِ التَّوبةِ مِن عبادِه[2].

سِرُّ تَعْرِيفِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالْعَلَمِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

عِظَمُ أَثَرِ الصِّفَاتِ الْمُتَعَدِّيَةِ عَلَى العِبَادِ

جاءَ المسندُ إليهِ ﴿ٱللَّهَ﴾ معرَّفًا بالعلميَّةِ في قولِهِ سُبحانه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ لِلْإيماءِ إلى عظَمَةِ المغفرةِ والرَّحمةِ الصَّادرَتَيْنِ مِنْهُ ﷻ؛ إذِ الاسمُ الأحسن ﴿ٱللَّهَ﴾ جامعٌ لصِفَات الجلال والجمَال والكمال، وذلك مُشْعِرٌ بعظمَةِ أوصافِهِ وأفعالِه، وعظَمَةِ أثرِهَا على العبادِ.

بَلَاغَةُ التَّذْيِيلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

مِنْ عَادَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الْجَمْعُ بَيْنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ

وردَ قولُ اللّٰهِ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تذييلًا للآيةِ، وهو تذييلٌ جارٍ مجرى المثلِ؛ لاستقلالِهِ بالإفادةِ دونَ احتياجٍ إلى ما قبلَهُ في معرفةِ أصلِ المرادِ مِنْهُ.

ونُكْتَةُ التَّذييل: تأكيدُ مضمونِ ما قبلَهُ، وفيه: الدِّلالَةُ عَلَى عظيمِ رحمةِ اللّٰه تعالى ومغفرتِهِ، حيث فتحَ بابَ التَّوبةِ لُمريدِهَا، فقال بعدَ أَنْ أَعْظَمَ الوعيدَ والتَّهديدَ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ لئلَّا يَقْنَطَ العبادُ مِن رحمتِهِ، وليجمَعَ بينَ التَّرهيبِ والتَّرغيب كما هي عادَةُ القرآنِ الكريمِ[3].

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ فِي الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ:

وردَ في هذه الآياتِ جملةٌ مِنَ المتشابهِ اللَّفْظِيِّ:

---

(1) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/705.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/381.
(3) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 2/174.

إِطْـلَاقُ وَصْـفِ الْإِسْـلَامِ عَلَى أَحَدٍ؛ لَا يَسْتَلْزِمُ إِطْـلَاقَ وَصْـفِ الْإِيمَانِ عَلَيْهِ

أَوَّلُهَا: بينَ قولِ اللّه تعالى: ﴿كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾، وقولهِ سُبحانه: ﴿وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾ [التوبة: 74].

قال اللّه تعالى: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾، وقال في موضعٍ آخر: ﴿وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾ [التّوبة: 74]، فعُبِّر في الأوَّلِ بالإيمَان، وفي الآخَرِ بالإسلام، ووجهُ التَّغايُرِ بينَهُمَا: اختلافُ الحالِ؛ وذلك أنَّ آيةَ آلِ عِمرَانَ نَزَلَتْ في رجلٍ مِنَ الأنصار أَسْلَمَ، ثُمَّ ارتدَّ، ولَحِقَ بالشِّرْك، ثُمَّ نَدِمَ، فأرسَلَ إلى قومِه: أَرْسِلُوا إلى رسُول اللّهِ ﷺ: هل مِن توبةٍ؟ فَأنزل اللّه تعالى: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾، فأَرْسَلَ إِلَيْهِ قومُه، فَأَسْلَمَ[1]، وَلَمْ يَكُنْ حال إسلامه أَوَّلًا ممَّنْ عُرِفَ بِنِفَاقٍ، ولَا أنَّه أَبْطَنَ شيئًا خلافَ مَا يَظْهَرُ مِنْهُ مِنَ الإسلام، فكانَتْ هذه الحالُ مِنْهُ حالَ إيمانٍ، فنَاسبَ حالُه وصفَه بالْإيمَانِ في قوله: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾.

بخلاف آيةِ التَّوبةِ؛ فإنَّها نزلَتْ فيمَنْ أظْهَرَ إسلامَهُ نفاقًا، وقد اختُلفَ في تعيينِه: أَهُوَ الجُلَاسُ ابنُ سُويدِ بن الصّامتِ أَمْ عَبْدُ اللّه بنُ أُبَيٍّ بن سَلُول؟[2] وكلاهُمَا ممَّن عُرِفَ بالنِّفاقِ، إلَّا أنَّ جماعةً ذكروا حُسْنَ إسلام الجُلَاسِ بعدُ[3]، فجاء التَّعبير بـ ﴿وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾ [التوبة: 74] مُنَاسبًا لِلْحَالِ؛ إِذِ الإسلامُ يُطْلَقُ على الانْقِيَاد في الظَّاهر، وقَد لَا يَكُونُ الموصوفُ به ممَّا وافقَ ظاهرُهُ باطنَهُ، كمَا قال اللّه تعالى: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات: 14][4].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 6/572 - 753. والوادِعيّ، الصَّحيح المسند من أسباب النُّزول، ص: 45.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/365.

(3) ابن حجر، الإصابة في تمييز الصّحابة: 1/599.

(4) ابن الزّبير، مِلاك التَّأويل: 1/88، ومُنَى النَّصر، بلاغة التّشابه اللَّفظيّ في سورة آل عمران، ص: 1390.

أَعْظَمُ الظُّلْمِ أَنْ يَظْلِمَ الْعَبْدُ نَفْسَهُ بِالشِّرْكِ

ثَانِيهَا: بينَ قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وقولِه سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٠٨﴾ [المائدة: 108]، وقولِه ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾ [البقرة: 264].

قال اللّه تعالى: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِى ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٦﴾، وقال في موضع آخر: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤﴾ [التَّوبة: 24]، وقال أيضًا: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧﴾ [التوبة: 37]، ووجهُ اختلافِ هذه الآيِ في تذييلاتِهَا[1]: أنَّ آيةَ آل عمران صُدِّرت بقول اللّه تعالى: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِى ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾، وكان مقتضى الظَّاهِرِ: (واللّه لا يهدي القومَ الكافرينَ)؛ لتقدُّمِ ذكرِ الكُفْرِ صريحًا، إلَّا أنَّه عُدِلَ عن ذلك إلى ذِكْرِ الظُّلْم؛ لكون الكفرِ ظلمًا للنَّفس لِمَا يترتَّبُ عليه من إيرادِهَا المَهَالِكَ، فكانَ منَ الأنسبِ التَّعبيرُ بالظُّلْمِ، لإيقاعِ المسَبَّبِ موقعَ السَّبَبِ مُبالغةً في التَّعجُّبِ مِنْهُ، فقَالَ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وأمَّا آيةُ التَّوبة الأولى؛ فصُدِّرت بقولِه تَعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ﴾، فلمَّا كان هؤلاءِ القومُ فَسَقُوا، وخرجُوا عمَّا يجِبُ أن يُتقيَّدَ بِهِ وهُوَ طاعةُ اللّهِ تعالَى والحبُّ فيه؛ نَاسبه التَّعبيرُ بالفسقِ، فقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٠٨﴾ [المائدة: 108].

وأمَّا آيةُ التَّوبةِ الثَّانيةُ، فبُدِئَتْ بِقَوْلِه ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ

(1) سعد عبد العظيم، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 317.

﴿فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾، فلمَّا كان هؤلاءِ قد أَوْغَلُوا في الكُفْرِ بِمَا ارتكبُوه مِنَ النَّسيءِ؛ ناسبَ ذِكْرُ الكفْرِ في فاصلةِ الآية، فقال جلَّ وعلا: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾ [البقرة: 264].

ثَالِثُهَا: بينَ قولِه ﷻ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾، وقولِه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠﴾ [البقرة: 160].

والاختلافُ بَيْنَ الآيَتَيْنِ فِي ثلاثةِ مواضعَ:

التَّوْبَةُ وَالْعَمَلُ الـصَّـالِـحُ مِـنْ مُكَفِّرَاتِ الذُّنُوبِ

أحدها: أنَّ آية البقرة ذُكرَ فيها التَّوبةُ والإصلاحُ والتَّبيينُ، وآيةَ آل عمران لم يُذْكَر فيها التَّبيينُ، ووجهُ ذلكَ: أنَّ التَّوبةَ والعملَ الصَّالحَ مِن جملةِ ما يُكفِّرُ الذُّنوبَ، كما قالَ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: 114]، فاقتُصِرَ عليهما في آيةِ آلِ عِمْرَان، وأمَّا آيةُ البقرةِ؛ فقد كان مِن ذَنْبِ الْأَحْبَارِ ما ذكَرَهُ اللّه عَنْهُم في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [البقرة: 159]، فَكَتَمُوا النَّاسَ ما يدلُّ على نبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ فصار مِن تمامِ تَوْبَتِهِم أن يُبيِّنُوا للنَّاسِ ما كَتَمُوهُم إيَّاه، ولم يَكُن مثلُ هذا الكتمانِ في آية آل عمرانِ، فاقتُصِرِ على ذِكْرِ التَّوبة والإصلاح[1].

ثَانِيهَا: قولُه تعالى في آلِ عِمْرَان: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ﴾، وقولُه سُبحانه في البقرَة: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ﴾ [البقرة: 160]؛ وذلك أنَّ اللّه تَعَالى وَصَفَ في آل عمرانَ قَوْمًا كان مِنْهُمْ إيمانٌ سابقٌ، ثُمَّ ارتدُّوا، واسْتَبْدَلُوا الكفرَ بالإيمانِ، فقال تعالَى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾، ولمَّا لَمْ يَكُنْ في القوم المتحدَّث عَنْهُم في آية البقرة كُفْرٌ بعدَ إيمانٍ متقدِّمٍ؛ اسْتُغْنِيَ عَنْ ذِكْرِ ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾[2].

(1) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/700 - 701.

(2) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/703 - 704.

الْمَغْفِرَةُ تَتَضَمَّنُ التَّوْبَةَ، وَالتَّوْبَةُ تَسْتَلْزِمُ الْمَغْفِرَةَ

ثالِثُهَا: قوله في آل عمران: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقولهُ في البقرة: ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 160]، ووجهُ ذلك: أنَّ المغفرة تتضمَّنُ التَّوبةَ، والتَّوبةَ تستلزِمُ المغفرةَ، فكان اسمهُ سبحانه التَّوَّابُ أخصَّ، واسمُهُ الغفورُ أعمَّ، وكذا ما يُقابِلُهُ من الذَّنبِ المذكورِ في كلِّ موضعٍ، فقد ذُكِر في آل عمران الكفرُ، وهو ضلالٌ وانحرافٌ، وفي البقرة ذُكِر الضَّلالُ والإضلالُ، وهو أخصُّ، فناسبَهُ الاسم الأخصُّ، وهو التَّوَّاب، وناسبَ الأوَّلَ الاسمُ الأعمُّ[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الْجَزَاءُ وَالثَّوَابُ:

تدلُّ مادَّةُ الثَّواب - الثَّاءُ والواوُ والباءُ - على العَود والرُّجوعِ، وَالمرادُ به: مَا يعود على الْإِنْسَان من جَزَاء عملِه[2].

وأمَّا الجزاءُ؛ فأصله: الغَناءُ والكفايةُ، ويُرادُ به: الكفاية مِنَ المُقَابلة: إن خيرًا فخير، وإن شرًّا؛ فشرٌّ[3].

والفَرْقُ بينَهُمَا[4]: أنَّ الثَّوابَ يُستعمل في الجزاء بالخَيْرِ غالِبًا، واستعمالُهُ في الشَّرِّ أقلُّ، وأمَّا الجزاءُ؛ فهو المقابلة على الخَيْرِ بالثَّواب وعلى الشَّرِّ بالعقاب.

فيشتركَانِ في استعمالِهما لِلْخَيْرِ والشَّرِّ، ويَفْتَرِقانِ من وَجْهَيْنِ:

أحدهما: في غَلَبَةِ هذَا الاستعمالِ؛ إِذِ الغالبُ في الثَّواب مجيئُهُ في الخير، وأمَّا الجزاءُ؛ فهُو مستوِي الطَّرفينِ في الخير والشَّرِّ.

والآخَرُ: أنَّ الثَّواب أخصُّ مِنَ الجزاء مِن جهة: أنَّهُ لا يُسْتَعْمَل

(1) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/702 - 703.

(2) عياض، مشارق الأنوار: (ثوب).

(3) الرَّاغب، المفردات: (جزا).

(4) محمَّد داود، معجم الفروق الدّلالية، ص: 46 - 48. والدُّوري، دقائق الفروق اللُّغويَّة، ص: 164 - 166.

في المَنَافع المادِّيَّة أو الدُّنيويَّة، بخلاف الجزاء؛ فإنَّه يَقَعُ على المنافع الدُّنيَوِيَّة والمنافع الأُخْرَوِيَّة.

النَّاسُ وَالْإِنْسُ:

بَيْنَ النَّاس والإنسِ: عُمومٌ وخُصُوصٌ مطلقٌ؛ إذِ النَّاسُ أعمُّ مِنَ الإنس، وذلك أنَّ النَّاسَ في أصحِّ قولَيْ أهل العلم تشمَلُ الجنَّ والإنسَ، ويدُلُّ على ذلك الاشتقاقُ اللُّغَويُّ؛ فَإِنَّ اشتقاقَ (النَّاس) مِنَ النَّوْسِ بمعنًى: الحركةِ، والحركةُ كما هي موجودةٌ في الإنسِ موجودةٌ في الجنِّ أيضًا، ويؤيِّدُهُ ما صحَّ عَنْ عبد اللّهِ بنِ مسعودٍ رضي الله عنه أنَّه قال في تفسيرِ قولِ اللّهِ تَعَالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧﴾ [الإسراء: 57]: «كَانَ نَاسٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعْبُدُونَ نَاسًا مِنَ الْجِنِّ، فَأَسْلَمَ الجِنُّ، وَتَمَسَّكَ هَؤُلَاءِ بِدِينِهِمْ»[1]، فسمَّى الجنَّ: ناسًا.

أمَّا الإنسُ؛ فهُم خُصُوصُ بَنِي آدمَ، وسُمُّوا بذلك؛ لأنَّهم يُؤْنَسُون، أي: يُبْصَرُونَ، من آنسَ الشَّيءَ؛ إذا أبْصره، ومِنْهُ قولُ اللّه تعالى حكايةً عَنْ مُوسى عليه السلام أنَّه قال: ﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ [طه: 10]، أي: أَبْصَرْتُها[2]، بخلاف الجنِّ فسُمُّوا جنًّا لاجْتِنَانِهِمْ، أي: اسْتِتَارِهِمْ عَنِ الأعيُنِ[3].

الْمَغْفِرَةُ وَالرَّحْمَةُ:

الفرقُ بينَهما مِن أربعةِ أوجهٍ:

أوَّلُها: أنَّ أصلَ الغَفْرِ في اللُّغة: السَّتْرُ[4]، وأصلَ الرَّحْمَةِ: الرِّقَّة والعَطْفُ[5].

ثَانِيهَا: أنَّ أحدهما سبَبٌ في الآخرِ، ومال ابنُ عرفةَ إلى أنَّ الرَّحمة سببٌ في المغفرة؛ لأنَّ الرِّقَّةَ والعطفَ توجِبُ عادةً سَتْرَ الزَّلَلِ[6]، إلَّا أنَّ ظاهر القرآنِ الكريم عكسُه، وهو كونُ المغفرة سببًا في الرَّحمة، كما قال اللّه تعالى: ﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٤٦﴾ [النمل: 46].

(1) البخاري، الصحيح، الحديث رقم: (4714).
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 235.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رحم).
(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/435، 2/258.

ثَالِثُهَا: أنَّ المغفرة والرَّحمةَ إذا جُمِعَا في محلٍّ واحدٍ؛ انصرفَتِ المغفرةُ لسَتْرِ ما مضى مِنَ الذُّنوبِ، والرَّحمةُ لِلْعِصْمة مِنْهَا فيما يُستقبَلُ[1]، إذا كان ذلكَ جزاءً في الدُّنيا؛ لأَنَّ الآخرةَ لا يُتصوَّرُ فيها ذنوبٌ حتَّى يُحتاج إلى الْعِصْمَةِ مِنْهَا.

رَابِعُهَا: أنَّ المغفرةَ فِيهَا زَوَالُ المَكْرُوه مِن آثار الذُّنوب، والرَّحمةَ فيها تحصيلُ الْمَطْلُوبِ[2].

(1) ابن عثيمين، شرح ثلاثة الأصول وأدلَّتها، ص: 19.

(2) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 3/66.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ٩٠﴾ [آل عمران: 90]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا رَغَّبَ اللهُ تعالى في التَّوْبَةِ بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾؛ رَهَّبَ مِنَ التَّواني عَنْهَا، فقَالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱزۡدَادُواْ﴾: الزَّايُ والياءُ والدَّالُ: يدلُّ عَلَى الفضْلِ[2]، ومنهُ الزِّيادَةُ، وهي: أَن يَنْضَمَّ إلى ما عَلَيْهِ الشَّيْءُ في نَفْسِه شيءٌ آخر، وتُطلق الزِّيادَةُ تنبيهًا على أنَّ الشَّيءَ قد بلغ الغايةَ، ومِنْهُ قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾[3].

2) ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾: الضَّادُ واللَّامُ: تدلُّ تصريفاتُهما على ضياعِ الشَّيء وذهابِهِ في غير حقِّه[4]، وَمِنْهُ الضَّلال: ضِدُّ الهدَى، يُقَال: ضَلَّ في الأمرِ؛ إذا لم يَهْتَدِ لَهُ[5]، ورَجُلٌ مُضَلَّلٌ: لَا يُوفَّقُ لِخَيْرٍ[6]، ويوصَفُ الإنسانُ بالضَّلالِ، فيُقَالُ: هُوَ ضالٌّ، أمَّا الضَّالَّةُ؛ فَلِلْبَهِيمةِ، وهو الحيوانُ الضَّائعُ[7].

والضَّالُّ ضَرْبَانِ[8]:

أَحَدُهما: مَن سلَك طريقَ الضَّلالةِ عَنْ عَمْدٍ، كمَا قالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ٩٢ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ٩٣﴾ [الواقعة: 92 - 93].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/478.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (زيد).
(3) الرَّاغب، المفردات: (زاد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ضل).
(5) ابن دُرَيْد، جمهرة اللُّغَة: (ضلل).
(6) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (ضل).
(7) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (ضلل).
(8) أبو عُبيد الهرويّ، الغَرِيبَيْنِ: (ضل).

والآخَر: مَن سَلَك طريقَ الضَّلالةِ عَنْ غيرِ عَمْدٍ، ومنهُ قولُ اللَّهِ تعالى حكايَةً عَن مُوسَى ﵇ أنَّهُ قالَ: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: 20].

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

إنَّ الذينَ كَفرُوا بعدَ إيمَانِهم، واسْتَمرُّوا علَى كُفْرِهِمْ مُتَمَادِينَ في الغَيِّ والضَّلالِ إلَى المَمَاتِ؛ لَن تُقبل لَهُم توبةٌ عِنْدَ حُضُورِ المَوْتِ، وأُولئكَ هُمُ الَّذين ضلُّوا سبيلَ الحقِّ، فأخطَؤُوا منهجَه(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سَبَبُ فَصلِ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ عَمَّا قَبْلُ:

أَثَـرُ الاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ فِي إِبْرَازِ مُتَابَعَةِ الْمُتَلَقِّي وَشَوْقِهِ

فُصِلَ قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لأنَّ بينَهُما شبهَ كمالِ الاتِّصالِ، وهو المُسَمَّى: الاستئنافَ البيانيَّ؛ وذلك لوقوعِ الآيةِ جوابًا عَن سُؤَالٍ يُفْهَمُ مِن قَوْلِه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾، وما حالُ الذين اسْتَمَرُّوا علَى الكُفْرِ، وأوغَلُوا فيهِ؟ فجاء الجوابُ في قَوْلِ اللَّهِ سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرٗا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾.

سِرُّ تَعْرِيفِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالْمَوْصُولِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

التَّـحْـذِيـرُ مِـنَ الْكُفْرِ وَأَسْبَابِهِ، وَتَـهْـدِيـدُ أَهْـلِـهِ وَأَصْحَابِهِ

عُرِّفَ المسنَدُ إليْهِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بالموصوليَّة في قولِه تَعَالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرٗا﴾؛ لِلْإيماءِ إلى نَوْعِ الخَبَرِ المَحْكُومِ بِهِ على المُسْنَدِ إِلَيْهِ، وأنَّهُ مِن جِنْسِ العُقوبَةِ، وفيهِ الإشْعَارُ بوَجْهِ بِنَاءِ الخبرِ، وأنَّ الجزاءَ المذكورَ في قولِه: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ مُسَبَّبٌ عَنِ الكُفْرِ والإيغَالِ فِيهِ، وفِي هذَا تحذيرٌ مِنَ الكُفْرِ وأسبَابِه، وتهديدٌ لأهلِه وأصحابِه.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 6/578 - 583. والسّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 137. ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 61.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

الْإِصْــرَارُ عَـلَى الْكُفْرِ وَمُدَافَعَةُ الْـحَـقِّ أَقْـبَـحُ دَرَكَاتِ الْكُفْرِ

اللَّامُ في الِاسْمِ المَوْصُولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فيهَا وجهانِ:

أحدُهما: أن تَكُونَ اللَّامُ لِلْعَهدِ، والمقصودُ: اليهودُ الَّذين كَفَرُوا بِعِيسَى عليه السلام والإنجيلِ بعدَ أَنْ آمَنُوا بِمُوسَى عليه السلام والتَّوارةِ، ثُمَّ ازْدَادُوا كفرًا؛ إذْ كفَرُوا بمحمَّدٍ ﷺ والقرآنِ، ويحتَمِلُ أَنْ يكونَ المرادُ: أهلَ الْكِتَابِ جَمِيعًا، "آمَنُوا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ قبلَ مَبْعَثِه، ثُمَّ كفَرُوا به بعدَ مَبْعَثِه، ثُمَّ ازدادوا كُفْرًا بإصْرَارِهم على ذلك، وطعنِهم في نُبُوَّته في كُلِّ وقت، وعداوَتِهم له، ونَقْضِهم لعُهُودِهم وصَدِّهم النَّاسَ عَن طريق الحقِّ، وسُخريَّتِهم بآياتِ اللهِ"(1).

والوجهُ الآخَرُ: أَنْ تكون اللَّامُ لِلْجِنْسِ الدالِّ على العُمومِ، فهي تشمَلُ كلَّ مَن آمَنَ، ثُمَّ ارتدَّ، وازدَاد كفرًا بِمُدافعَتِهِ الحقَّ وإصرارِهِ على الكفرِ والعنادِ(2).

والوجهُ الثَّاني أشمَلُ مِن سابقِهِ؛ لاندراجِ الأوَّلِ فيه.

نُكْتَةُ الْإِضَافَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾:

شَنَاعَةُ حَالِ مَنِ اسْتَبْدَلَ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ

الإضافة في قوله: ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ يُرادُ بها تحقيقُ وقُوعِ الإيمانِ منهم، فإثباتُ كفرِهم بَعْدَهُ زيادةٌ في تشنيعِ حالهم وتفظيعِ أَمْرِهم(3).

دِلَالَةُ حَرْفِ الْعَطْفِ ﴿ثُمَّ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾:

فَـظَـاعَـةُ الْـكُـفْـرِ وَشَنَاعَتُهُ بَلَغَتِ الْـغَـايَةَ، فَكَيْفَ بِـالْإِيـغَـالِ فِيهِ وَالِازْدِيَادِ مِنْهُ؟

﴿ثُمَّ﴾ مِن قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾ دالَّةٌ على التَّراخِي - كما هو الأصلُ فيها- وذلك أنَّ الكُفْرَ لَمَّا كان لفظاعَتِهِ وشناعتِهِ جديرًا بالنَّفرة عَنْهُ؛ نبَّه اللهُ تعالى على ذلك باستبعادِ إيقاعِهِ،

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 2/176.
(2) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 2/176.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/381.

فكيف بالإيغالِ فيه والازديادِ مِنْهُ، فعُبِّرَ عَنْ ذلك بأداةِ العطف المفيدةِ التَّراخِيَ، فقالَ سُبحانه: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾[1].

دِلَالَةُ صِيغَةِ الِافْتِعَالِ ﴿ٱزۡدَادُواْ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾:

الإيغَالُ فِي الْكُفْرِ أَمَارَةُ انْتِكَاسِ الْفِطْرَةِ

الفعلُ ﴿ٱزۡدَادُواْ﴾ من قَوْلِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾ على زِنَة (افْتَعَلُوا) مِنَ الزِّيادَةِ، والدَّالُ الأولَى بدلٌ من تاءِ الافتعالِ[2]، وهذه الزِّنَةُ تدلُّ على ضَرْبٍ مِنَ التَّكلُّفِ، فهؤلاء المذكورُونَ لم يَكتَفُوا بالكُفْرِ، بل تكلَّفوا، واجتهَدُوا في الازديادِ منْهُ والإيغالِ فيه؛ لانتكاسِ فِطَرِهِمْ وارْتِكَاسِ عقولِهِم.

نُكْتَةُ الْعُدُولِ عَنِ الْفَاعِلِ إِلَى التَّمْيِيزِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾:

لُزُومُ اللَّفْظِ حَالًا خَاصَّةً بِاعْتِبَارِ النَّحْوِ لَا يُنَافِي قَصْدَ نِكَاتٍ بَلَاغِيَّةٍ مِنْهُ

﴿كُفۡرٗا﴾ من قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾ تَمْيِيزٌ محوَّلٌ عنِ الفاعل، والأصلُ: ازدادَ كُفْرُهم[3]، والقصدُ من تحويلِ الفاعلِ إلى التَّمييز: المبالغةُ وإفادةُ الشُّمول لجميع مَا فيها، حيثُ جعلَ ذَوَاتِهم أنفسَها كفرًا، ثمَّ هُوَ يزيدُ، والزَّائدُ حقيقةً: إنَّما هو ما اشْتَمَلَتْ عليهِ ذَوَاتُهم من معنَى الكفرِ.

وتَنْكِيرُ ﴿كُفۡرٗا﴾ يُرادُ به التَّعظيمُ وزيادةُ المبالغةِ، وكونُ التَّمييزِ ملازِمًا التَّنْكِيرَ بحسب الصِّناعةِ النَّحويَّةِ لا ينافي إفادتَهُ المبالغةَ أو التَّعظيمَ؛ إذْ تقرَّر في القواعِدِ: أنَّ كونَ أمرٍ مَا لازمًا بحسب القاعدة النَّحويَّةِ لا ينافي قصدَ إفادةِ ما يَقْتَضِيهِ المقامُ[4].

سِرُّ بِنَاءِ الْفِعْلِ ﴿تُقۡبَلَ﴾ لِلْمَفْعُولِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾:

حَقَارَةُ الْمُرْتَدِّ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى

بُنِيَ الفعلُ ﴿تُقۡبَلَ﴾ لِمَا لم يُسَمَّ فاعلُهُ لِلْعِلْمِ به، وهو اللّٰه ﷻ؛ إذْ هو سُبحانه الَّذي لَهُ الأَمْرُ في قَبُولِ التَّوبةِ أو عَدَمِ قبولِهَا، كما قالَ سُبحانه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ [غافر: 3]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/478.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/253.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/253. والآلوسي، روح المعاني: 2/209.
(4) الخفاجي، عناية القاضي: 6/229.

﴿يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [الشّورى: 25]، وفي حذفِ الفاعلِ مِنْ قَوْلِه تعالى: ﴿لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾ إيماءٌ إلى تحقيرِ مَن كَفَرَ بَعْدَ إيمانه، ثُمَّ ازداد كفرًا؛ إذْ إنَّ الفعلَ (يقبل) يأتِي في القرآن الكريم مَبْنِيًّا للفاعلِ في مَقامِ المدحِ والثَّناءِ، ومبنيًّا لِلْمَفْعُولِ في مقامِ الذمِّ والتَّحقير.

نُكْتَةُ تَرْكِ الْفَاءِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾:

خَتْمُ اللهِ تَعَالَى عَلَى قُلُوبِ الْمُتَوَغِّلِينَ فِي الْكُفْرِ

جاءَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾ دونَ واوٍ، فلم يَرِدْ: (فلن تُقبَل توبتُهم)؛ إشعارًا بأنَّ ما فَعَلُوه إنَّما هو لكونِهم مهيَّئِين لِلْكُفْرِ مِنْ أصلِ الطَّبْعِ والجِبِلَّة، فلا يَتُوبُونَ توبةً صحيحةً نافعةً[1].

بَرَاعَةُ الْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾:

مَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ؛ فَهُوَ آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾ كِنَايةٌ عن موتِهم على الكفرِ؛ لأنَّ الَّذي لا تُقبَلُ توبتُهُ هو الَّذي يموتُ على الْكُفْرِ، ونُكْتَةُ الكِنايَةِ: تغليظُ شأنِ هذا الصِّنْفِ مِنَ الكَفَرةِ، وإبرازُ حالِهِمْ في صورةِ الآيِسِينَ مِنْ رَحْمَةِ اللّه تعالى، وَهِيَ أشدُّ الأحوالِ وأشنَعُها[2].

دِلَالَةُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾:

تُقْبَلُ تَوْبَةُ الْعَبْدِ مَا لَمْ تَصِلْ رُوحُهُ الْحُلْقُومَ

قولُ اللّهِ تَعَالَى: ﴿لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾ يحتَمِلُ أن يكون على ظاهرِه، بمعنَى: أنَّه تَصْدُرُ مِنْهُمْ توبَةٌ، إلَّا أنَّها غيرُ مُسْتَكْمِلَةِ الشُّروط، فلم تُقْبَلْ؛ إمَّا لكونِهَا قولًا مجرَّدًا، أو لكونِهَا فَلَتَاتٍ نَفْسِيَّةً تصدُرُ منهم حالَ الكَرْبِ أوِ الشِّدَّة، ثُمَّ يعُودُون لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ قبلُ، أو لكونِهَا توبةً عندَ حضورِ الموتِ؛ فإنَّ هذه التَّوبة لا تُقبَلُ[3]، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «إنَّ اللّه يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ»[4].

ويَحْتَمِلُ أنَّ قولَ اللّهِ تَعَالَى: ﴿لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾ يُرادُ به عدمُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/479.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/382 - 383. والرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/286.

(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1311.

(4) رواه أحمد في مسنده، حديث رقم: (6160)، والتِّرمذيُّ في جامعه، حديث رقم: (3537)، وابن ماجه في سننه، حديث رقم: (4253)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم: (1903).

وقوعِ التَّوبةِ مِنْهُمْ أصلًا، فضلًا عَن عدَمِ قَبولِهَا، والمعنى: لن تُقبلَ توبتُهم؛ لعدَمِ صُدُورِ التَّوبةِ مِنْهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ﴾ [البقرة: 48]، أي: لا شَفاعَةَ لها أصلًا، فتُقبل[1].

والوَجْهَانِ مُتَآيِلَانِ، لا تَعارُضَ بَيْنَهُمَا مِنْ حَيْثُ المؤدَّى[2].

دِلَالَةُ اسْمِ الْإِشَارَةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾:

الْكُفْرُ وَالِازْدِيَادُ مِنْهُ غَايَةُ الضَّلَالِ وَالِانْحِرَافِ

الإشارَةُ بـ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ إلى المذكورينَ قبلُ باعتبارِ أوصافِهم: مِنَ الكُفْرِ بعدَ الإيمان، والازديادِ في الكُفْرِ والتوغُّلِ فيه؛ للإشعارِ بأنَّ تلكَ الصِّفاتِ هي سببُ بلوغِهم في الضَّلالِ غايتَهُ[3].

وفي التَّعبيرِ باسْمِ الإشارَةِ إيماءٌ إلى أنَّهم متميِّزُونَ بضَلَالِهم أكملَ تمييزٍ وأَبْيَنَهُ، وهذا أبلغُ في ذمِّهمْ، وزادَهُ ذمًّا مَا في اسمِ الإشارة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ من مَعْنَى البُعْدِ المفيدِ بُعْدَ منزلتِهم في الضَّلالِ، وأنَّهم متوغِّلُونَ فيه لِلْغَايةِ.

بَلَاغَةُ الْقَصْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾:

الضَّلَالُ مَرَاتِبُ وَدَرَكَاتٌ

في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ أسلوبُ قصرٍ، وهو من قصرِ الصِّفَةِ علَى الموصوف، وطريقُه: تعريفُ جُزْأَيِ الإسنادِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ و﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾، ففيهِ قصرُ الضَّلالِ على أولئك المَذْكُورينَ؛ لأنَّ المقصُورَ بتعريفِ طرفَيِ الإسنادِ هُوَ الْمُعرَّفُ باللَّامِ، سواءٌ أكان مقدَّمًا أَمْ مؤخَّرًا.

وهذا القصرُ ادِّعائيٌّ؛ إِذْ إِنَّ ظاهرَ قولِه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ يَقْتَضِي نفيَ كونِ غيرِهم ضالًّا، وليس الأمرُ كذلكَ: فإنَّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/304.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1311.

(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1312.

كلَّ كافرٍ ضالٌّ، سواءٌ أكَفَرَ بَعْدَ إيمانٍ أم كانَ كافرًا أصليًّا[1]، فدلَّ هذا على أنَّ القصرَ ادِّعائيٌّ وليس حقيقيًّا تحقيقيًّا، والمعنى: أنَّهم هُمُ الضَّالُّونَ البالغونَ في الضَّلالِ غايتَه، حتَّى كأنَّ ضلالَ غيرِهم بالنِّسبةِ إلى ضلالِهِمْ لَيْسَ بشيءٍ.

ويُؤَيِّدُهُ أنَّ اللَّامَ في ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾ تدلُّ على الكمَالِ، أي: هُمُ الكاملونَ في الضَّلالِ، الغَارِقُون فيهِ[2].

دِلَالَةُ ضَمِيرِ الْفَصْلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾:

لَا تَوْبَةَ لِمَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ

ضميرُ الفصلِ ﴿هُمُ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ لا يُرادُ به دِلالتُه على القصرِ، وإنَّما المرادُ به تأكيدُه وتقويَتُه؛ لأنَّ القصرَ مستفادٌ من تعريفِ طَرَفَي الإسنادِ.

وأُكِّدَت الجملةُ بإيرَادِهَا اسميَّةً[3]؛ لأنَّ الجملةَ الاسميَّةَ آكدُ مِنَ الفعليَّةِ، وأدلُّ على الثُّبوت واللُّزوم، ففيه إيماءٌ إلى استمرارِ المذكورين في ضَلَالِهم حتَّى يُدْرِكَهم الموتُ وهُم عَلَى ذَلِكَ، فيتحقَّقُ فيهم قولُ اللّهِ تَعَالَى قَبْلُ: ﴿لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾.

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾:

تَنَاسُبُ مَقَاطِعِ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ مَعَ مَطَالِعِهَا

قالَ اللّه تَعَالَى هَهُنَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾، وقال سبحانَه: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٩﴾ [التَّوبة: 69]، وقوله جلَّ وعلا:

---

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/286.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/479. والآلوسي، روح المعاني: 2/210. وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 2/177.

(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1311 - 1312.

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [النَّحل: 105]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ [النُّور: 4]، ووجهُ التَّغايُرِ بين خواتيم الآياتِ الكريمَاتِ[1]: أنَّ آيةَ آلِ عمران كان الحديثُ فيها عمَّنِ ارتدُّوا عن إيمانِهم، وأنَّ التَّوبة لا تصدرُ منْهُم، وإن صَدَرَتْ؛ فَلَنْ يقبلَهَا اللّه تعالى منهم، إذْ هي توبةٌ غيرُ معتبرةٍ شرعًا لِعَدَمِ استيفاءِ شُرُوطِهَا، ومَن لَمْ يقبلِ اللّه تعالى توبتَهُ؛ فَلَن يكُونَ له مِنَ الهدايةِ شيءٌ، وذلك يقتضي الضَّلالَ والرُّسوخَ فيه؛ وَلِذَا خُتمتِ الآيةُ بقَوْلِهِ سبحانه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾.

وأمَّا آيةُ التَّوبةِ الأولى؛ فقد صُدِّرت بقوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ﴾ [التوبة: 10]، وتقدَّم ذلك قولُهُ ﷻ: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ﴾ [التَّوبة: 9]، فكان سياقُ الآياتِ في الصَّدِّ عن سَبِيلِ اللّهِ تعالى، وهذا الصَّدُّ تجاوزٌ لِلْحدِّ في الظُّلْمِ وانتهاك الحُرُماتِ، فناسبَهُ أن تُخْتَمَ الآية بقولِه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ [التوبة: 10].

وأمَّا آيةُ التَّوبةِ الثَّانيةُ، فإنَّه لمَّا تقدَّمها قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ﴾ [التوبة: 69]، وكان ذلك خسرانًا عظيمًا ما بعدَهُ خُسْرَانٌ؛ ناسبَهُ خَتْمُ الآيةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [التوبة: 69].

وأمَّا آية النَّحل؛ فقد بُدِئَتْ بِقَولِه: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [النحل: 105]، ولمَّا كان مَنِ افترى علَى اللّه تعالى الكذبَ قد بلغَ الغايةَ فيه، فصَار كأنَّ الكذبَ مختصٌّ به؛ ناسبَهُ خَتْمُ الآيةِ بقولِه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [النحل: 105].

وأمَّا آية النُّور؛ فهي مصدَّرةٌ بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ﴾ [النور: 4]، ولمَّا كان سببُ ذلك أنَّهم خَرَجُوا عَن حدِّ الشَّرعِ في أنَّ ثبوتَ الزِّنَا لا يكونُ إلَّا بأربعةِ شهودٍ؛ ناسب ذلك أَن تُختمَ بذِكْرِ الفِسْقِ، فَقَالَ سُبْحَانه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ [النور: 4].

(1) سعد عبد العظيم، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 318 - 319.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٩١﴾ [آل عمران: 91]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

في مُنَاسَبَةِ الآيةِ لِمَا قبلَهَا وجهانِ:

أحدهما: أنَّ اللّه تعالى لَمَّا ذكَرَ عدمَ قبولِ التَّوبة ممَّن كَفَر بعدَ إيمانِه، ثُمَّ ازداد كفرًا؛ تشوَّف السَّامعُ إلى مآلهم في الآخرةِ، فقالَ سبحانَهُ مبيِّنًا لَهُمْ أنَّ سببَ عدم قبولِ تَوْبَتِهم هو تفويتُ محلِّهَا بإيغالِهم في الْكُفْرِ وتمَادِيهم عَلَيْه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ﴾[1].

والآخَرُ: أنَّ الكفَّارَ ثلاثةُ أقسامٍ:

أوَّلُهَا: مَن يَتُوبُ عَنِ الكُفْرِ توبةً صحيحةً مقبولةً، وقد ذَكَرَهُ اللّه تعَالَى فِي قَوْلِه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

ثَانيهَا: مَن يتُوبُ عَنِ الْكُفْرِ تَوْبَةً فاسدةً غيرَ مُسْتَوْفِيَةِ الشُّروط، وهو الَّذي ذكَرَهُ اللّه سُبْحَانَه في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾. ثالثُهَا: مَن يَمُوتُ على الكُفْرِ من غيْرِ توبةٍ أصلًا، وهو المذكُورُ في هذهِ الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ﴾.

فلمَّا ذكَرَ اللّه تعالى في الآيَتَيْنِ المتقدِّمتَيْنِ الصِّنفَيْنِ الأوَّلَيْنِ؛ تَمَّمَ القسمةَ في هذه الآية بذِكْرِ الصِّنْفِ الثَّالث[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مِّلۡءُ﴾: المِيمُ واللَّامُ والهمزةُ: تدلُّ على تجمُّعِ شيءٍ في ظَرْفٍ حتَّى لا يَبْقَى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/479 - 480.

(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/287.

في الظَّرف فراغٌ[1]، وَمِنْهُ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبًا﴾ أي: مِقْدَارُ مَا يَمْلَؤُهَا مِنَ الذَّهَبِ[2].

2) ﴿ٱفۡتَدَىٰ﴾: الفاءُ والدَّالُ والياءُ: تدلُّ كثيرٌ مِن اشتقاقاتِهَا على جَعْلِ شَيْءٍ مكانَ شيءٍ آخرَ حمايةً لَهُ، ومِنْهُ قولُهم: فَدَيْتُه، أي: حَمَيْتُهُ بنفسي أو بشيءٍ يُعَوِّضُ عَنْهُ[3]، وَافْتَدَى بمعنى: بَذَلَ ذَلِكَ عَن نَفْسِهِ، ومِنْهُ الفديةُ في الشَّرعِ: وهي مَا يَقِي بِهِ الإِنْسَانُ نفسَه مِن مالٍ يَبْذُلُهُ في عبادةٍ قصَّر فيها[4]، وأصلُ الفِديةِ: بَذْلُ شَيْءٍ احتِرَاسًا مِن أذًى، ومِنْهُ: فِدَاءُ الأسير[5].

وقولُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾، أي: جعلَ مِلْءَ الأرضِ ذَهَبًا فِدْيةً له للنَّجاة مِنَ النَّار.

3) ﴿نَّٰصِرِينَ﴾: النُّون والصَّاد والرَّاء: تدُورُ تَصَاريفُها على إِتْيَانِ خَيْرٍ وإيتائِه، ومِنْهُ: نَصْرُ اللّهِ تعالى لِلْمُسْلِمِينَ: وهو إيتاؤُهم الظَّفَرَ على عدوِّهم[6]، والنُّصْرَةُ: حُسْنُ المعونةِ[7]، وتأتِي بِمَعْنَى: التَّنْجِيَةِ والتَّخليصِ[8]، والنَّاصرُ: المُعِينُ.

ومعنَى قَوْلِ اللّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾: ما لَهُمْ من مُخَلِّصينَ مُنْقِذِينَ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

إنَّ الَّذين كَفَرُوا، وجَحَدُوا نبوَّةَ محمّدٍ ﷺ وماتُوا على الكُفْرِ باللّهِ تَعَالَى ورَسُولِهِ ﷺ فلن يُقبَل في الآخرة - مِمَّن كانَتْ هذه صِفتَه - جَزَاءٌ ولا رِشْوَةٌ على تَرْكِ عقُوبَتِهِ على كُفْرِه، ولا جُعْلٌ على العفوِ عَنْهُ، ولَو كان لَهُ مِنَ الذَّهب قَدْرُ ما يَمْلَأُ الأرضَ من مَشْرِقِهَا إلى مَغْرِبِهَا، أولئكَ لَهُم عذابٌ مُوجِعٌ، وما لَهُم مِن أحدٍ يُنْجِيهِمْ من عَذَابِ اللّهِ تَعَالَى[9].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ملأ).
(2) الهرويّ، الغريبين: (ملأ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فدي).
(4) الرَّاغب، المفردات: (فدى).
(5) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/708.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نصر).
(7) الخليل، العيْن: (نصر).
(8) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نصر).
(9) ابن جرير، جامع البيان: 6/584 - 585. والسّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 137. ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 61.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سَبَبُ فَصلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

أَثَرُ الاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ فِي إِظْهَارِ مُتَابَعَةِ الْمُتَلَقِّي وَشَوْقِهِ

في فَصْلِ قولِ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾ عمَّا قبلَهُ وجهانِ[1]:

أحدهما: أنْ يكونَ بينَهُما شِبْهُ كَمال الاتِّصالِ، وهو المعروفُ بالاسْتِئْنَافِ البيانيِّ، وذلك أنَّه لمَّا ذُكرَ حُكمُ فريقٍ مِنَ الكفَّار الَّذين يَتُوبُونَ توبةً صحيحةً، ثُمَّ أُعْقِبَ بذِكْرِ طائفةٍ تابُوا توبةً فاسدةً؛ بعثَ ذلكَ في نفسِ المتَلَقّي سؤالًا، وهو: مَا حُكْمُ مَن لم يَتُبْ مِنْهُم حتَّى ماتَ؟ فجاء الجوابُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾.

والآخَرُ: أنْ يكون بينَهما كمالُ الاتِّصالِ، وذلك إذا حُمِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾ على أنَّ المرادَ به: الكُفَّارُ الَّذين ماتُوا على الكُفْرِ، فيكون قولهُ سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾ بمنزلةِ التَّأكيدِ اللَّفْظِيِّ للآيةِ قبلَهَا، وإنَّما أُعيدَت ليُبْنَى عَلَيْهَا قولُهُ بعدُ: ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ﴾.

نُكْتَةُ تَعْرِيفِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالْمَوْصُولِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

التَّحْذِيرُ مِنَ التَّلَبُّسِ بِالْكُفْرِ مُطْلَقًا

عُرِّفَ المسنَدُ إِلَيْهِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بالموصوليَّة في قولِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾؛ إيماءً إلى نَوْعِ الخبرِ المحكوم به على المسنَدِ إِلَيْهِ، وأنَّه من جِنْسِ الإهانَةِ والعقوبة، وفيه إعلامٌ بعِلَّة استحقاقِهم الجزاءَ المذكورَ في قوله: ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٩١﴾، وأنَّ هذه العقوبةَ مُسَبَّبةٌ عَنْ كُفْرِهم وموتِهم على ذلك.

---

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/287. وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/305.

وفي هذا تَحْذِيرٌ مِنَ التَّلبُّسِ بالْكُفْرِ مطلقًا؛ خشيةَ أن يُخْتَمَ لِلْعبْدِ بهِ، إذْ لَا يَدْرِي مَتَى يُفَاجئُهُ أجلُه.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾:

مَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ؛ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَيًّا كَانَتْ مِلَّتُهُ

اللَّامُ في الِاسْمِ المَوْصُول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مِن قَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾ يُرادُ بها الْجِنْسُ المفيدُ العُمومَ[1]، فهي شَامِلَةٌ لكلِّ مَن كفرَ، وماتَ علَى الْكُفْرِ مِنْ أهلِ كُلِّ مِلَّةٍ: يَهُودِهَا ونَصَارَاها ومَجُوسِها وغيرِهم[2].

بَلَاغَةُ التَّقْسِيمِ فِي الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ:

الْكُفَّارُ بِالنَّظَرِ إِلَى التَّوْبَةِ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ لَا رَابِعَ لَهَا

ذَكَرَ اللهُ تعالى في قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ إلى قولِه سُبْحَانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾ أقسامَ الكُفَّارِ مُسْتَوْفَاةً[3]، وذلكَ أنَّ القسمةَ العقليَّةَ تقتضِي أنَّ الكفَّار باعتبارِ التَّوبةِ قِسْمَانِ:

أحدهما: مَن لا تَصْدُرُ مِنْهُ توبةٌ أصلًا، وهذا هُوَ المَذْكُورُ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾.

والآخَرُ: مَنْ تَصْدُرُ مِنْهُمْ توبةٌ، وهذا الْقِسْمُ صِنْفَانِ:

الأوَّلُ: مَنْ تكُونُ توبتُهُ صحيحةً مقبولةً، وهو المذكُورُ في قولِه ﷻ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

والآخرُ: مَن تَكُونُ توبتُهُ فاسدةً غيرَ مقبُولةٍ، وهو المذكورُ في قولِه تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرًا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾.

فاستوعَبتِ الآياتُ أقسامَ الكُفَّارِ كُلَّهَا، وهذا الأسلوبُ هو المعرُوفُ بالتَّقسيمِ؛ إذْ حقيقَتُهُ: استِيفَاءُ أقسَامِ الشَّيءِ بالذِّكْرِ[4]، ونُكتته

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/305.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 6/584.
(3) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/287.
(4) الصَّعيديّ، بُغية الإيضاح: 4/608.

ههنا: التَّرغيبُ في التَّوبةِ النَّصوحِ، والتَّرهيب مِنَ التَّوبةِ الكاذبةِ الفاسدةِ أو الِاسْتِمْرَارِ في الْكُفْرِ من غَيْرِ توبةٍ أصلًا.

نُكْتَةُ إِيرَادِ الْحَالِ ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ جُمْلَةً فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾:

دِقَّـةُ التَّـعْـبِيرِ الْقُرْآنِيِّ فِي انْتِقَاءِ الْأَسَالِيبِ

وردَتِ الحالُ ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ جملةً، ولم تَرِدْ مفردةً بأن يُقال: (وماتوا كُفَّارًا)؛ للإيماءِ إلى أنَّ الكفرَ حالُهم المستقِرَّةُ قبلَ الموتِ[1]، بخلاف ما لَوْ قِيل: (وماتوا كُفَّارًا)؛ فإنَّه يحتَمِلُ أنَّه حصل مِنْهُمْ إيمانٌ مَا، إلَّا أنَّهُ عِنْدَمَا جاءَهُم الموتُ رآهم كُفَّارًا، فكان العُدُولُ عَنِ الحالِ المفردةِ - مع أنَّها أخصَرُ - إلى الحالِ الواقعةِ جملةً؛ لِلْإِشْعَارِ بِهَذَا المعنى المتقدِّم، وهو أنَّهم غَارِقُونَ في الكفرِ، مستمرُّون فيه، حتَّى صارَ طَبْعًا لَهُمْ.

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم﴾:

عَـــدَمَ قَـبُـولِ الْـفِـدْيَـةِ مِـمَّـنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ مَقْطُوعٌ بِهِ

الفاءُ في قولِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم﴾ مشعرةٌ بأنَّ الكلامَ مبنِيٌّ على الشَّرط والجزاءِ، وأنَّ عَدَمَ قَبُولِ الْفِدْيةِ مُعَلَّلٌ بالموتِ علَى الْكُفْرِ[2].

ودخَلَتِ الفاءُ ههنا دُونَ قولِه قبلُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾؛ للإيماءِ بقوَّة السَّببيَّة، وظهورِهَا في الآيةِ الثَّانيةِ دونَ الأولى[3]، ووجهُ ذلك: "أنَّ المرتدَّ قَدْ يُرْجَى مِنْهُ الرُّجوعُ إِلَى الإيمانِ، فَلَا يتَرَتَّب عليهِ عَدَمُ قبولِ التَّوبة، بخلافِ المَائِتِ على الكُفْرِ؛ فإنَّ عدمَ قَبُول الفِدْيةِ مُتَرَتِّبٌ على المَوْتِ حالة الكفرِ لا مَحَالَة"[4].

---

(1) فاضل السَّامرّائي، معاني النحو: 2/303، 306.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/287.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/382.
(4) الطِّيبي، فتوح الغيب: 4/175.

دِلَالَةُ بِنَاءِ الْفِعْلِ لِلْمَفْعُولِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم﴾:

شَنَاعَةُ الِاجْتِرَاءِ عَلَى الْكُفْرِ

بُنِيَ الفعلُ ﴿يُقۡبَلَ﴾ لِمَا لم يُسَمَّ فَاعلهُ لِلْعِلْم به، وهو اللّه ﷻ، وللإيماء إلى ذمِّهم وتحقيرهم بسبب شناعةِ فِعْلِهم الَّذي هو الجراءَةُ على الكُفْرِ، ثُمَّ الاستمرارُ عليه حتَّى الموتِ(1).

بَرَاعَةُ أُسْلُوبِ الْبَحْثِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾:

قُوَّةُ الِاسْتِدْلَالِ الْعَقْلِيِّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ۝٩٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٩١﴾ أسلوبُ البَحْثِ - وهو الذي يُسمِّيه طائفةٌ مِنَ البلاغيِّين بالمذهب الكلاميِّ - وذلك أنَّ قولَهُ سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾ ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ﴾ في قوَّة المقدِّمتَيْن والنَّتيجةِ لَهُما، فكأنَّه قال: الَّذين كفروا بعد إيمانهم، ثُمَّ ازدادوا كفرًا يموتُونَ كفَّارًا، وكلُّ مَن كفرَ، ومَاتَ كافرًا؛ لَنْ تُقْبَلَ منه الفِدْيَةُ مطلقًا ولو بِملْءِ الأرض ذهبًا(2).

بَلَاغَةُ الْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا﴾:

الْكُفَّارُ آيِسُونَ مِنْ تَخْلِيصِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ تَعَالَى

نفيُ قَبُول الافتداءِ في قَوْلِه تعالى: ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا﴾ لا يقتضِي أنَّ الكافِرَ يَمْلِك يومَ القيامةِ ما يفتدِي به؛ إِذْ هُوَ لا يَمْلِكُ فِيهِ شيئًا، وإنَّما الآيةُ خَرَجَتْ مَخْرَجَ الفَرْضِ والتَّقدير، فذِكْرُ الذَّهبِ كنايةٌ عَنْ أعزِّ الأشياءِ وأثمَنِهَا وأنْفَسِهَا(3)، وكونُهُ مِلْءَ الأرضِ كِنَايةٌ عَنِ الْكَثْرَةِ الْكَاثِرَة، فمعنى الآيةِ: لو أنَّ الكافِرَ قَدرَ على أنفسِ الأشياءِ بالغًا بِهَا في الْكَثْرَةِ غايَتَها، وقدرَ على بذلِهِ؛ فإنَّه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/480.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/382.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/178.

لا يُمَكِنُهُ بذلك أن يُخَلِّص نفسَهُ مِنْ عَذَابِ اللّهِ تعالى، فهو كِنَايَةٌ عَن كَوْنِهم آيِسِينَ مِن تَخْلِيصِ أَنْفُسِهِم مِن عِقَابِ اللّه تعالى وعَذَابِه(1).

دِلَالَةُ ﴿وَلَوِ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾:

نَفْيُ قَبُولِ الْفِدَاءِ نَفْيًا عَامًّا فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ

﴿وَلَوِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ تُومئُ إلى أنَّ ما قبلَهَا واردٌ على وجهِ الاستِقْصَاءِ، وأنَّ ما بعدها جيءَ به تنصيصًا على حالٍ قد يُظَنُّ عَدَمُ اندراجِهَا فيما قبلَهَا، وهذا كَقَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ﴾ [الحشر: 9]، فإنَّ وجودَ الخصاصة مظنَّةٌ لتَرْكِ الإيثارِ، فنُصَّ عليها لِلْإِعْلَامِ بأنَّ إيثارَهُم عامٌّ في جميع الأحوَالِ، وكذَا قَوْلُهُ: ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾، فإنَّه لَمَّا كان قَبُول الفدية واجبًا عندَ أهلِ الكتاب؛ قد يُظَنُّ أنَّ بذلَ واحدٍ مِنْهُمْ ملءَ الأرض ذهبًا على جهةِ الافتداءِ مخالفٌ لبذْلِه ذلكَ على غير سبيل الافتداء، فنَصَّ عليه بِقَوْلِه: ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾، والمعنى: لا يُقْبَلُ مِن أَحَدِهِم مَا يَمْلَأُ الأرضَ ذهبًا على أيِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ، ولَوْ عَلَى حالِ الافْتِدَاءِ(2).

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِهِ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

عَـــدَمُ قَـبُـولِ الْفِدَاءِ مِنَ الْكُفَّارِ يَسْتَلْزِمُ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عمَّا قبلُ؛ لوقوعِه استئنافًا بيانيًّا، فإنَّ قولَه سُبْحَانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ أَوْرَثَ سُؤالًا في نَفْسِ السَّامعِ، وهو أنَّه إذَا كانَ لا يُقبَلُ مِنْهُم فِدَاءٌ مُطلَقًا، فمَا الَّذي يحِلُّ بِهِمْ؟ فجاءَ الجَوَابُ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(3).

نُكْتَةُ اسْمِ الْإِشَارَةِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

الْـكُـفْـرُ بِـاللـهِ تَـعَـالَى أَعْـظَـمُ أَسْبَابِ الْعَذَابِ

الإشارَةُ بـ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ في قَوْلِ اللّهِ سُبحانه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إلى المذكورينَ قَبْلُ باعتبارِ اتِّصافهم بالأوصافِ الشَّنيعة

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 2/61.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/481.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/481.

المذكورةِ، وفيهِ إيذانٌ بأنَّ تلكَ الصِّفاتِ هِيَ سببُ حُلُول العذابِ الأليمِ بهم(1).

وفي التَّعْبير باسم الإشارة الدَّالِّ على البُعْدِ: إعلامٌ بانْحِطَاطِ منزلَتِهم وبُعْدِهم مِن رَحْمَةِ اللّه تعالى(2).

شِـدَّةُ الْـعَـذَابِ الْوَاقِعِ عَلَى أَهْلِ الْكُفْرِ

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ في قوله سُبحانه: ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ لإرادةِ القصرِ، وفيه: قصرُ العذابِ الأليم على المَذْكُورِينَ، وَهُوَ قصرُ صفةٍ على موصوفٍ قصرًا ادِّعائيًّا، ونكتَتُهُ: الإيماءُ إلى شدَّةِ هذا العذابِ الَّذي يُلاقُونَهُ، حتَّى كأنَّ العذابَ الذي ينالُ غيرَهُم ليس بِشَيْءٍ بالنِّسبةِ إلى مَا يلاقُونَه هُمْ.

تَـيْـئِـيـسُ أَهْـلِ الْـكُـفْـرِ مِـنْ كُـلِّ خَيْرٍ

بَلَاغَةُ الِاحْتِرَاسِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

لَمَّا ذَكَرَ اللّه تعالى أنَّه لا يُقبل ممَّن ماتَ على الكفر فديةٌ مطلقًا، قد يُتوَهَّمُ أنَّه رُبَّمَا عُفِيَ عنه تكرُّمًا وتفضُّلًا، فدُفِعَ هذا الوَهمُ بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وفي هذه الجملة أيضًا: مبالغةٌ في التَّحذيرِ من سلوكِ مسلَكِ الكُفْرِ(3).

وفي العدُولِ مِن صيغةِ (مُفْعِلٍ) إلى (فعِيل) في قولهِ تعالى: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ إشعارٌ بشدَّةِ هذا العذاب، وذلك لِمَا في صيغة (فَعيل) مِنَ المبالغة(4).

وتنكيرُ ﴿عَذَابٌ﴾ دالٌّ على عَظَمَتِهِ وفخامَتِهِ.

نَفْيُ كُلِّ وُجُوهِ الِاسْتِنْقَاذِ لِأَهْلِ الْكُفْرِ

دِلَالَةُ ﴿مِّن﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾:

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يُرادُ بهَا التَّنصيصُ على العمومِ، وذلك أنَّ ﴿نَّٰصِرِينَ﴾ نكرةٌ في سياقِ النَّفْيِ، وهي دالَّةٌ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/57.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/481.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 2/211.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/259.

على العموم دِلالةً ظاهرةً، وذِكْرُ ﴿مِنۡ﴾ قبلَها يَنقلُ الدِّلالةَ من كونِهَا ظاهرةً في العمومِ إلى كونِهَا نصًّا فيه، والنُّكتةُ في ذلك: الإغراقُ في نفيِ النَّاصرينَ، فيكون قدِ انتفَى عنهم كلُّ وجهٍ مِنْ وُجُوهِ الاسْتِنْقَاذِ[1].

دِلَالَةُ جَمْعِ ﴿نَّٰصِرِينَ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾:

لَا نَجَاةَ لِلْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

لِجَمْعِ ﴿نَّٰصِرِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ نكاتٌ:

إحداها: المبالغةُ في نفيِ نجاتِهِمْ، ولو اجتمَعَ في مُزاولةِ ذلك جماعاتٌ كثيرَةٌ.

وثانيها: أنَّ فيه إيماءً إلى أنَّ كلَّ واحدٍ مِنْهُمْ لا ناصرَ له؛ لأنَّ (هُمْ) ضميرُ جمعٍ، وقابلَهُ ﴿نَّٰصِرِينَ﴾ وهو جمعٌ، والقاعدة: أنَّ مقابلةَ الجَمْعِ بالجمعِ تقتضي القسمة آحادًا، والمعنى: كلُّ واحدٍ لا ناصرَ له[2].

وثالثها: مراعاةُ التَّناسُبِ الصَّوتِيِّ لفواصلِ الآيِ[3]؛ فإنَّ الإفرادَ ههنا لو كانَ (وَمَا لَهُم مِن ناصرٍ) يُذهِبُ بِرَونَقِ التِّلاوَةِ.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

نَاصِرُونَ وأَنْصَارٌ:

وردَ هذانِ الجمعانِ في مواضعَ مِنَ القرآن الكريم، والفرقُ بينَهما:

أنَّ صيغةَ (أنصار) جمعٌ لـ (نصير)، كشريفٍ وأشرافٍ، فـ (أنصار) جمعٌ لصيغةِ المبالغةِ المُفيدةِ ثبوتَ الصِّفةِ لِلْمَوْصُوف معَ المبالغةِ فيها؛ ولذا أُطْلِقَ على أهلِ المدينة النَّبويَّةِ الَّذين نصَروا رسولَ اللّٰه ﷺ.

وأمَّا صيغةُ ﴿نَّٰصِرِينَ﴾؛ فجمعُ (نَاصِر)، وهو اسمُ فاعلٍ دالٌّ على إثباتِ الصِّفة لِلْمَوْصُوفِ من غيرِ دلالَةٍ على المُبَالغةِ فيها؛ ولذا جاءَ في أكثرِ مواضعِهِ لنفيِ النُّصرةِ عنِ الظَّلَمَةِ، فنُفِيَ عنهم النَّصْرُ المجرَّدُ[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/481. وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/57.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/57.
(3) ابن عادل، اللُّباب: 5/385. والقِنَّوجيّ، فتح البيان: 2/282.
(4) محَمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليَّةِ، ص: 497.

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٩٢﴾ [آل عمران: 92]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

صدّ الكافرين عن القبول، وحثّ المؤمنين على سبل الإنفاق المقبول

لَمَّا أخبر اللّه تعالى في الآية السَّابقة، أنَّه لا يقبل ممَّن مات على الكفر شيئًا أنفقه في الدُّنيا، ولو كان ملْءَ الأرض ذهبًا، حضَّ المؤمنين في هذه الآية على الصَّدَقة، مبيِّنًا أنَّهم لن يُدركوا البرَّ حتّى ينفقوا ممَّا يحبُّونه، وأنَّه تعالى يقبل منهم القليلَ والكثير، وكما ذكر الآلوسيُّ: أنَّه "كلام مستأنف؛ لبيان ما ينفع المؤمنين، ويقبل منهم إثر بيان ما لا ينفع الكفَّار، ولا يقبل منهم"[1]، وفي الآية دليل "على عدم إيمانهم بشحّ نفوسهم، وبخلهم بالإنفاق في الخير، والإنفاق لعمري أكبر دليل على صدق الإيمان، وإنّهم لن يصلوا إلى البرّ، ولن يكونوا بارّين باللّه، إلّا إذا أنفقوا ما يحبّون من كريم ما يملكون"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡبِرَّ﴾: البرّ: خلاف العقوق، والمبرّة مثله. تقول: بررت والدي بالكسر، أبرّه برّا، فأنا برّ به وبارّ. وجمع البَرّ أبرار، وجمع البارّ البررة. وفلان يبرّ خالقه ويتبرّره، أي يطيعه، والأمّ برة بولدها. وبرّ فلان في يمينه، أي صدق[3]، وهو أيضا التّوسُّع في فعل الخير، وأصله من البَرِّ الّذي هو خلاف البحر؛ لِمَا فيه من معنى السَّعة، وهو يُنسب للّه تعالى تارة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾ [الطّور: 28]، أي: الواسعُ الثّوابِ، وإلى العبد تارة، فيقال: بَرَّ العبدُ ربَّه،

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 2/213.
(2) الحجازي، التّفسير الواضح: 1/252.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (برر).

أي: أطاعه، وبِرُّ الوالدين هو: التّوسُّع في الإحسان إليهما، ويقال: بَرَّ فلان في قوله؛ إذا صدق؛ لكون الصِّدق بعضَ الخير المتوسَّع فيه[1]. واختُلِف في المراد به هنا، فقيل: الجنَّة، فيكون التَّقدير: ثواب البرِّ، وقيل: الخيرُ كلُّه، وقيل: الصِّدق، وقيل: المراد لن تنالوا برَّ اللّه بكم، أي: لُطفَه ورحمته[2].

2) ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُواْ﴾: قال الزّجاج: "كلّ ما تقرب به إلى اللّه ﷻ، من عمل خير، فهو إنفاق"[3]، وفي حَديث النَّبِي ﷺ، أَنّه دَعَا بِلَالًا بِتَمْر، فَجعل يَجِيء بِهِ قبصًا قبصًا، فَقَالَ رَسُول اللّه ﷺ: "أَنْفق بِلَال وَلَا تخش من ذِي الْعَرْش إقلالا""[4]، ويقال: أنفق الرّجل، إذا افتقر، ومنه قوله جلّ وعزّ: ﴿إِذَا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ﴾ [الإسراء: 100][5]، وَالنَّفقَة: مَا أنفق، وَالْجمع: نفاق، حكى اللّحياني: نفدت نفاق الْقَوْم، ونفقاتهم.. وَأنْفق المَال: صرفه. وَفِي التَّنْزِيل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [يس: 47]، أَي: أَنْفقُوا فِي سَبِيل اللّه وأطعموا وتصدّقوا[6].

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

لا ينال البرّ المرضيّ، إلّا كلّ منفق مؤثر سخيّ

لن تدركوا - أيُّها المؤمنون - ثواب البرِّ، حتّى تنفقوا ممَّا تحبُّونه من أموالكم وغيرها ممّا رُزِقْتُموه، وأيُّ شيءٍ تنفقونه قليلًا أو كثيرًا؛ فإنَّ اللّه يعلمه، وهو تعالى يجازيكم به، وهذه الآية خطاب عامّ لجميع المؤمنين، فلا قيمة لإنفاق في وجوه الخير، ما لم يستند إلى قاعدة الإيمان الصّحيح، وأرضيّة الدّين القويم، وسبب نزول هذه الآية وقائع طيبة من إنفاق صحابة رسول اللّه، تصدق أبو طلحة الأنصاري بأكرم أمواله[7].

(1) الرَّاغب، المفردات: (بر)، والهرَويُّ، الغريبين: (برر).
(2) المهدويُّ، التّحصيل: 2/94، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/260.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (برر).
(4) الطبرانّي، المعجم الكبير: 1/342، وذكره ابن قتيبة: غريب الحديث: 1/412، وذكره أبو نعيم، حلية الأولياء: 6/274.
(5) ابن فارس، مجمل اللّغة: (نفق).
(6) ابن سيده، المحكم: (نفق).
(7) الزّحيلّي، التّفسير الوسيط: 1/213.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الالتفاتِ في قولِه تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ﴾:

استـــجـــلاب عنايةِ المؤمنين لإعلامهم بما ينفعهم، ويُقبَل منهم

قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ﴾ إلى آخر الآية، خاطب اللّه تعالى المؤمنين بعد ما أخبر في الآية السَّابقة بصيغة الغَيبة أنَّه لا يقبل سبحانه ما ينفقه الكافرون؛ ولو كان ملء الأرض ذهبًا، وفي هذا الانتقال من خطاب الغيبة للكافرين إلى خطاب الحضور للمؤمنين التفاتٌ يفيد استجلاب عناية المخاطَبين لمعرفة ما ينفعهم، ويُقبَل منهم من الإنفاق في سبيل اللّه[1].

نكتةُ الاستئنافِ بالجملةِ المعترضةِ في قولِه تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ﴾:

أمَّـةُ الإسـلامِ تـتـمـيَّـزُ عـن غيرها من الأمم بـالإنـفـاقِ ممَّا تُحبُّ

قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٩٢﴾: استئنافٌ وقع معترضًا بين الآية السَّابقة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ﴾ [آل عمران: 91] والآية التَّالية: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، ونكتةُ الاعتراض؛ هي: أنَّ بيان وسائل البرِّ جاء مجيءَ ما لا يُترقَّب، فإنَّ سِباقَه ولِحاقَه يتعلَّق بأهل الكتاب وإقامة الحُجَّة عليهم، وهو ما يجعله غايةً في الإفادة[2]، ففيه تنبيهٌ على أنَّ ما يُميِّزُ هذه الأمَّةَ هو الإنفاقُ ممَّا يحبون، وقد جاء النَّفي بـ﴿لَن﴾ المفيدة تأكيد النَّفي في المستقبل لزيادة التَّحريض على الإنفاق من المحبوب.

شرائع الإسلام تدور على مِحْوَر البِرِّ

افْتِتَاحُ الْكَلَامِ بِبَيَانِ بَعْضِ وَسَائِلِ الْبِرِّ إِيذَانٌ بِأَنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ تَدُورُ عَلَى مِحْوَرِ الْبِرِّ، وَأَنَّ الْبِرَّ مَعْنًى نَفْسَانِيٌّ عَظِيمٌ لَا يَخْرِمُ حَقِيقَتَهُ إِلَّا مَا يُفْضِي إِلَى نَقْضِ أَصْلٍ مِنْ أُصُولِ الِاسْتِقَامَةِ النَّفْسَانِيَّةِ. فَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَمْرَانِ: أَوَّلُهُمَا التَّحْرِيضُ عَلَى الْإِنْفَاقِ وَالتَّنْوِيهُ بِأَنَّهُ مِنَ الْبِرِّ، وَثَانِيهِمَا التَّنْوِيهُ بِالْبِرِّ الَّذِي الْإِنْفَاقُ خَصْلَةٌ مِنْ خِصَالِهِ[3].

(1) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/722.

(2) السُّيوطيُّ، شرح عقود الجمان، ص: 76، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/5.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/5.

سرُّ عدمِ تعيينِ المخاطَب في قولِه: ﴿تَنَالُواْ﴾ و﴿تُنفِقُواْ﴾:

مخاطبةُ المؤمنين بـدونِ تصريحٍ باسمِهم إلهابٌ وتهييجٌ لنيلِ البرِّ

لم يعيَّن المخاطَب في قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ﴾ فلم يُقل مثلًا: لن تنالوا البِرَّ أيُّها المؤمنون، أو: يا أيُّها الذين آمنوا لن تنالوا البِرَّ؛ وذلك لأنَّ المقصود به هم المؤمنون؛ إذ الأصلُ في الخطاب القرآنيِّ أن يكون لهم؛ إذا لم يتقدَّم قبله ما يعيِّنُ المقصود به[1]، وعدمُ تعيين المقصودِ بالخطابِ تصريحٌ بأنَّه لا يستحقُّ مضمونَه إلَّا أولئك المؤمنون حقًّا، ففيه مزيد ثناءٍ بالغٍ، ومدحٍ فائقِ الحُسن، لما تضمَّنه من الإلهاب والتَّهييجِ.

معنى التَّعريف في لفظ: ﴿ٱلۡبِرَّ﴾:

الـبِرُّ جنسٌ من أفعال كثيرة

أكثرُ المفسِّرين على أنَّ التعريف في: ﴿ٱلۡبِرَّ﴾ للجنس، وهي تفيد أنَّ البِرَّ جنسٌ شاملٌ لأفعالٍ كثيرةٍ، منها أن ينفق المؤمن القادر على الإنفاق من كريم ما لديه من المال وغيره، ودون هذا الإنفاق لا يتحقَّق له حقيقة البِرِّ[2].

بلاغة التّعبير بـ: ﴿حَتَّىٰ﴾ دون غيرِها من الألفاظِ:

الطَّريق إلى البِرِّ مـليءٌ بخصال الـخير، وغايته هي الإنفاق من المحبوب

وأتى بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ - وهي غائيَّة - في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُواْ﴾ دون غيرِها من الألفاظِ، لإفادتِها أنَّه ثَمَّ طريق إلى البِرِّ نهايتُه هي إنفاق المؤمن ممَّا يحبُّ، وقبل هذه النِّهاية توجد مسافات معنويَّة تتضمَّنُ سائر خصال البِرِّ الَّتي لا تتحصَّل حقيقة البِرِّ إلَّا ببلوغها واكتسابها، ولو قيل مثلًا: (إلَّا أن تنفقوا)؛ لأوهم أن تحصيل البِرِّ متوقِّف على الإنفاق، فحسب، وهو ما يُظهِر بلاغةَ ﴿حَتَّىٰ﴾ في هذا الموضع[3].

وفي جعل الإنفاق ممَّا يحبُّ المؤمن غايةً لِنَيْلِ البِرِّ دليلٌ على أنَّه لا

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/5.

(2) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/213، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/5.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/6.

الإنـــفـــاق من المحبوب عنوانٌ لسائر الطَّاعات

يبلغُه إلَّا من تحقَّق بسائر الخصال الكريمة، حتى يصل إلى غايتها في طريق بلوغه الإنفاق ممَّا يحبُّ؛ لأنَّ المرءَ إذا أنفق ممَّا يحبُّه؛ فقد آثرَ عليه الوصولَ إلى محبوب أشرف منه، ويلزم من ذلك إيمانه بالآخرة وطلبُه لسعادتها، وهو ما يقتضي إيمانه بالله تعالى والانقياد لأوامره ونواهيه، ممَّا يدلُّ على أنَّ الإنفاق من المحبوب هو عنوان لغيره من سائر الطَّاعات(1).

الكلام في الآية خَـرَجَ مخرج الـحـثِّ على الإنـفـاق، فلا مفهوم له

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُواْ﴾ لا يلزم منه بمفهوم المخالفة أنَّ الفقير الذي لم ينفق مما يحبُّه قطُّ لن ينال البرَّ؛ إذِ الخطاب في الآية خارج مخرج الحثِّ على الإنفاق، فلا مفهومَ مخالَفةٍ له، وهو مقيَّد بالإمكان؛ وإن لم يُنَصَّ على تقييده به، وإطلاقه إنَّما هو للمبالَغة في التَّرغيب في الإنفاق(2).

معنى: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ بينَ الحقيقةِ والمجازِ:

الإنفاق حقيقةٌ في المـال، مجازٌ فيما سواه ممَّا يحبُّه الإنسان

اختلف المفسِّرون في المراد بقوله تعالى: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾، فقيل: هو المال، وقيل: نفائس الأموال، والإنفاق على هذين القولين إنفاق حقيقيٌّ.

وقيل: إنَّ ﴿مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ عامٌّ في كل ما يحبُّه الإنسان من ماله وجاهه وجميع ما يحبُّه حتى نفسِه الَّتي بين جنبيه، والإنفاق على هذا المعنى إنفاق مجازيٌّ؛ لأنَّ المقصود به هو مُطلَق البَذْل(3).

بلاغة الكنايةِ عن الجزاءِ بجواب الشَّرط ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾:

وقع قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ جوابًا للشَّرط لقولِه: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ﴾ مع أنَّ علم الله تعالى بما ينفقه العباد غيرُ متعلِّق بالشَّرط؛ لوقوعه في كلِّ حال، ولذلك فوائد:

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/288.

(2) الزركشيُّ، تشنيف المسامع: 1/358، والآلوسيُّ، روح المعاني: 2/213.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/57، والآلوسيُّ، روح المعاني: 2/213.

علمُ الله بإنفاق المؤمنين كنايةٌ عن جزائه

لَمَّا قام الإخبارُ بعلمه تعالى بما يُنفقُه العبادُ مقامَ الجزاءِ عليه والإثابة به؛ حسُن وقوعه جوابًا للشَّرط، وكان الإخبار عن الجزاء به عن طريق الكناية أبلغَ من التَّصريح[1]، فإذا كان الإخبارُ بعلم اللّه تعالى ينالُ به المؤمنون الجزاءَ العظيمَ، فكيف بالتَّصريحِ به؟!

الحثُّ على إنفاقِ الجيِّدِ ونبذِ الرَّديءِ

في وقوع قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ جوابًا للشَّرط فائدة لا توجد في النَّصِّ على المجازاة، كأن يقال: فإنِّي مجازيكم أو نحو ما ذُكر؛ ذلك أنَّ إخباره تعالى بأنَّه عليم بما يُنفقه المرء يتضمَّن الترغيب في إنفاق نفائس النَّفقات وجيِّدِها، والترهيب من إنفاق خسيسها ورديئها، كما يتضمَّن أيضًا التَّرغيب في الإخلاص في الإنفاق، والتَّرهيب من الرِّياء به[2].

عِلمُ الله بالإنفاقِ غايةُ المؤمنِ الصَّادقِ وفيها الكفايةُ البالغة

الحثُّ على إخفاء الصَّدقات؛ ذلك أنَّ علم اللّه تعالى بها يكفي المؤمن المنفق عن علم من سواه ممَّن لا يعطي عطاءه، ولا يجزي جزاءه، وفي حديث السَّبعة الذين يظلُّهم اللّه في ظلِّه: "ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه"[3].

بلاغة التذييل في: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾:

علم الله محيط بأنواع الإنفاق ومقاصد المنفقين

قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ تذييل[4] يفيد تعميم أنواع الإنفاق، وأنَّه تعالى يعلم ما ينفقه المرء؛ وإن كان من كرائم أمواله أم أخسِّها، وكذا يعلم مقاصد المنفقِين ومنطلَقات إنفاقهم[5]، ولم يقل مثلًا: وما تنفقوا من خير؛ يُثِبْكُم عليه؛ لتخليص الإنفاق من الرِّياء والتَّستُّر به؛ ليكون الإخلاص ومراقبة اللّه عنوان الإنفاق، كما ذكر الجواب كذلك على هذا الوجه، وبعنوان الألوهيَّة

(1) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/715، والرّازي، مفاتيح الغيب: 8/290.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/290، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/58.
(3) صحيح البخاري، الحديث رقم: (1357)، ويُنظر: الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/215.
(4) وهو تعقيب جملة بجملة تحتوي على معناها للتَّأكيد، يُنظر: السِّيوطيُّ، شرح عقود الجمان، ص: 74.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/7.

تربية للمهابة، وإعلاء لقدر الجزاء، فإنَّ العليم بالعمل لا يعلم ثوابه سواه.

بلاغة تقديم الجارّ والمجرورِ في قولِه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾:

الاهتمامُ بالمنفَقِ والتَّشويقُ إلى معرفةِ الخبرِ

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ جاء فيه متعلِّق الخبر - وهو ﴿بِهِۦ﴾ - مقدَّمًا على الخبر، والأصل أن يقال في غير القرآن: فإنَّ اللّه عليم به، وتقديم المتعلِّق هنا يدُلُّ على الاهتمام به إظهارًا؛ لأنَّ اللّه تعالى عليم بما ينفقه العبد من جميع وجوهه(1)، وفيه تشويقٌ إلى معرفة الخبرِ؛ فإنَّ المتلقِّي ينتظرُ سماعَ خبرٍ يخصُّ النَّفقةَ ويتشوّقُ إليه؛ فيأتي ﴿عَلِيمٌ﴾؛ للإخبارِ بحال هذه النَّفقاتِ.

التَّقديم هو الأليق بفواصل السُّورة

كما أنَّ تقديم المتعلِّق في: ﴿بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ جاء مراعيًا لفواصل السُّورة، فإنّها جميعًا قد جاءت بحرف قبله واو أو ياء مدِّيَّتان، كما في نحو: ﴿هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ [آل عمران: 90]، و﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: 91]، و﴿كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، و﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، فجاء تقديم العامل مناسبًا لما قبله وما بعده من رؤوس الآي(2)، ومراعاةُ الفواصلِ تابعةٌ للمعنى لا مستقلَّةٌ بنفسِها، فجمالُ الصَّوت في القرآنِ رديفُ جمالِ المعنى.

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/2.
(2) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/215.

الجُزْءُ الرَّابِعُ

﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٣﴾ [آل عمران: 93]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

عـــودة لـــذمّ اليــهـــود، وتبيان بعض مخالفاتهم ومناقشتهم عليها

لَمَّا أخبر اللّه تعالى في الآية السَّابقة أنَّ المرء لا ينال البِرَّ إلَّا بالإنفاق ممَّا يحبُّ؛ ذكر في هذه الآية نوعًا من التقرُّب إلى اللّه تعالى بترك ما يحبُّه الإنسان، وذلك أنَّ يعقوب عليه السلام مرض، فنذر - إن شفاه اللّه تعالى - أن يحرِّم على نفسِه أحبَّ الطَّعام إليه تقرُّبًا إلى اللّه تعالى، فشفاه اللّه تعالى، ففعل ذلك[1]، وفي هذه الآية وما يليها عَودٌ إلى ذمِّ اليهود، وتعديد ما ارتكبوه ممَّا تضمَّنته الآيات السَّابقة[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَانَ حِلّٗا﴾: أي: حلالًا، وهو مصدَر نُعِت به؛ ولذا يلزم التّذكير والإفراد دائمًا، نحو: ﴿وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ﴾ [المائدة: 5]، و﴿لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ﴾ [الممتحنة: 10]. وأصل الحَلِّ هو: حلُّ العُقدة، ثم استُعير؛ لكون الشّيء حلالًا، لما فيه من معنى الإباحة والسَّعة، ويقال: حلَّ الشيءُ حِلًّا وحلالًا، كما يقال: حَرُم حِرْمًا وحَرامًا[3]، "والحلّ: الحلال. ومنه قولهم: هذا لك حلّ وبلّ. وقال بعض أهل اللّغة: بل إتباع، وقال آخرون: البلّ: المباح لغة حميريّة"[4].

2) ﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: "هو يعقوب بن إسحاق، سمّي بهذا الاسم لأنّه

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/262.
(2) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/721.
(3) الرَّاغب، المفردات: (حل)، والبيضاويُّ، أنوار التنزيل: 2/28.
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (حلل).

ولد مع عيصو في بطن واحد، ولد عيصو قبله، ويعقوب متعلّق بعقبه، خرجا معا، فعيصو أبو الرّوم، ويعقوب جدّ اليهود"[1]، "وسمّي يعقوب إسرإل بذلك، ولما عرّب قيل إسرائيل؛ قال ابن الكلبيّ: كل اسم في العرب آخره (إل) أو (إيل) فهو مضاف إلى اللّه ﷻ كشرحبيل وشراحيل وشهميل، وهو كقولك عبد اللّه وعبيد اللّه، وهذا ليس بقويّ، إذ لو كان كذلك لصرف جبريل وما أشبهه، والإلّ: الرّبوبيّة. والأُلّ، بالضّمّ: الأوّل في بعض اللّغات وليس من لفظ الأوّل"[2]، و"قيل: معناه عبد اللّه، لأنّ (إيل) اسم من أسماء اللّه بالسّريانيّة؛ وقيل صفوة اللّه، وقيل سرّ اللّه؛ أو لأنّه انطلق إلى حاله، خشية أن يقتله أخوه عيصو، فكان يسري بالليل ويكمن بالنّهار، وقصته مسطورة في بعض كتب الأحاديث"[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

محاجة اليهود بنصوص التّوراة الّتي لم تحرّم ما حرّمه يعقوب على نفسه

كلُّ المطعومات الطيِّبة كانت حلالًا لبني إسرائيل قبل نزول التَّوراة، ولم يُحرَّم عليهم منها شيءٌ، لا كما زعم اليهود من أنَّ الطَّعام المحرَّم عليهم كان محرَّمًا على نوح وإبراهيم وسائر الأنبياء، مدَّعين أنَّ ذلك في التّوراة، ومفاد ذلك أنّ اليهود اعترضوا على استباحة المسلمين بعض الأطعمة، كلحوم الإبل وألبانها، بدعوى أنّ ذلك حرّمته شريعة إبراهيم، فردّ سياق الآية دعواهم، ببيان أن ما حرّمه يعقوب على نفسه، إنّما كان لسبب يختصّ به، فاتّبعه بنو إسرائيل في ذلك التّحريم، ولتأكيد ذلك طلب منهم أن يأتوا من التّوراة، بدليل يثبت أنّ شريعة إبراهيم تحرّم ذلك إن كانوا صادقين، فعجزوا وأفحموا، وانقلبوا صاغرين[4].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عقب).
(2) ابن منظور، لسان العرب، (أل).
(3) الكفويّ، الكليات، (اس).
(4) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 85.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة تقديم المسند إليه في: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا﴾:

تقويةُ حكم حِلِّ جميع المطعومات، والتَّشويقُ إلى معرفتِه

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ قُدِّم فيه المسنَد إليه: وهو ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾، على المُسند: وهو ﴿كَانَ﴾، وكان يمكن أن يقال في غير القرآن: كان كلُّ الطَّعام حِلًّا لبني إسرائيل، وفائدة هذا التقديم تقويةُ حكم حِلِّ جميع المطعومات في أوَّل الأمر لبني إسرائيل، والاهتمام بالتنصيص على ذلك؛ لأنَّ التقديم يقتضي تكرُّرَ المسنَد إليه مرَّتين: مرَّة لفظًا، ومرَّة تقديرًا؛ لأنَّ التقدير: كلُّ الطَّعام كان هو حلًّا لبني إسرائيل[1]، والتَّشويقُ، إذ قولُه تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾ يُثيرُ في الذِّهن معرفة ما يتعلَّق بهذا العموم في الطَّعامِ؛ فجاءَ المسندُ مجيبًا عمَّا ثارَ في ذهن المتلقِّي.

دلالة اسميَّة الجملة في: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا﴾:

تأكيد الخطاب والـردُّ على المنكرين من اليهود

إيثار الجملة الاسميَّة على الفعليَّة في قولِه تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ هو المناسِب لحال المقصودين بالخطاب - وهم اليهود -، فجاء الرَّدُّ عليهم بصيغة الخبر الإنكاريِّ، وبيَّن تعالى أنَّ المحرَّمَ عليهم هو ما حرَّمه يعقوب على نفسِه، وذلك قبل نزولِ التَّوارةِ، بدليلِ أنَّ الأنبياءَ قبلَه لم يكن محرَّمًا عندهم ما حرَّم يعقوبُ على نفسِه، وكذلك الأمر في التَّوراة، ولذلك طالبَهم بالإتيان بالتَّوراةِ وتلاوتِها: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٣﴾؛ لإثباتِ بطلانِ زَعْمِهم.

دلالة تخصيص التَّحريم بإسرائيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

استجلاب بني إسرائيل إلى ما ينفعهم

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾ خُصَّ فيه إسرائيل - أي: يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - بالذِّكر لَمَّا كانت الآية في سياق إقامةِ الحُجَّة

(1) الإسفراييني، الأطول: 1/382.

على بني إسرائيل، واستجلابِهم إلى ما ينفعهم من اتِّباع النَّبيِّ ﷺ بعد أن ضلُّوا، وسعَوْا في إضلال غيرِهم من المؤمنين[1].

فائدةُ التقييد بـ ﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ﴾:

دفعُ وهْمِ أنَّ التَّحريمَ كان غيرَ مختصٍّ ببعضِ الزَّمن

قُيِّدَ التَّحريمُ في قوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ﴾، بحرفِ ﴿مِن﴾ إذ هي متعلِّقة بـ: ﴿حَرَّمَ﴾[2]؛ فهو تقييدٌ لتحريمِ يعقوب لحومَ الإبلِ وألبانَها على نفسِه ببعضِ الزَّمن، وهو ما كان بين شفائه ووفائه بما نذره من تحريمهما عليه - تقرُّبًا إلى الله تعالى - كما دلَّت عليه الآثار[3]، ولو قيل: قبلَ أن تنزَّل التوراة؛ لربَّما فُهِم منه أنَّ التَّحريم كان مستغرقًا لجميع الزَّمن السَّابق لنزول التَّوراة[4].

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ في قولِه: ﴿تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ﴾:

إفادة تجدُّد نزول التوراة بالنِّسبة إلى زمن يعقوب عليه السلام وبنيه

جاء لفظُ ﴿تُنَزَّلَ﴾ بصيغة المضارع في قولِه تعالى: ﴿مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ﴾؛ وذلك ليدلَّ على تجدُّدِ نزول التوراة وحدوثه، وذلك بالنِّسبة إلى الزَّمن الَّذي كانت فيه كلُّ الأطعمة حلالًا لبني إسرائيل، إلا ما حرَّمه يعقوب عليه السلام على نفسه وتَبِعَه بنوه، فإنَّ نزول التَّوراة كان بعد ذلك بمدَّة طويلة[5]؛ فأفادت هذه الصِّيغةُ حدوثَ نزولِ التَّوراةِ لا نزولَها، ولو قال: من قبل نزول التَّوراة؛ لفُهِمَ أنَّهم على علمٍ بنزولِها.

بلاغةُ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾:

إقامةُ الحجَّةِ على اليهودِ بطلبِ الإتيانِ بما يُثبِتُ كذبَهم

قوله تعالى: ﴿فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ الأمر فيه ليس على حقيقته، بل هو لتعجيز اليهود وإقامة الحجَّة عليهم، فإنَّه تعالى لَمَّا عَلِم أنَّهم لا يأتون إذا استدلُّوا بها على الحقِّ؛ أمر نبيَّه ﷺ أن يأمرهم بالإتيان

---

(1) البقاعيُّ، نظم الدرر: 5/2.

(2) وهو قول العُكبَرِيِّ وغيره، وردَّه أبو حيَّان، وجعل ﴿مِن﴾ متعلِّقة بـ: ﴿كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، يُنظر: أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/265.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/74.

(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/3.

(5) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/3.

بالتَّوراة على سبيل التعجيز لهم، وقد روي أنَّهم بُهتوا، ولم يجسُروا على الإتيان بالتَّوراة كما أُمروا، وهذا من دلائل نبوَّة النَّبيِّ ﷺ[1].

توجيهُ وضعِ الظَّاهر موضع المضمرِ في قولِه: ﴿فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾:

مقتضى البلاغةِ الإظهارُ؛ لانقطاع الكلام عمَّا قبله

أظهرَ النَّظمُ لفظَ التَّوراةِ في قولِه تعالى: ﴿فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ ولم يُضمرْ ذكرَها مع أنَّه تقدَّم ذكرُها، فلم يَقُل تعالى: فأتوا بها؛ وإنَّما كان الإظهار أبلغَ من الإضمار؛ لأنَّ الكلامَ في هذا الموضعِ منقطعٌ عمَّا قبله؛ إذ هو خطابُ أُمِر النَّبيُّ ﷺ بتوجيهه لليهود، وما قبله كان حكايةً عن حالهم قبل نزول التَّوراة[2].

دلالة الشَّرْط في: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾:

في اشتراط الصِّدق على الكذوب استهزاء به

حُذِفَ جوابُ الشَّرطِ في قولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ الذي يدلُّ عليه ما قبله من قوله تعالى: ﴿فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ﴾، والتَّقدير: إنْ كنتُم صادقين؛ فأتوا بالتوراة، فاتلوها؛ وذلك لانتفاءِ قدرتهم تمامًا، فحذفها من النَّصِّ مشاكلة؛ لانتفاء حصوله في الواقع، ولَمَّا كان كذبهم فيما ادَّعوه في هذه الآيات وفي غيره معلومًا؛ كان في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ استهزاءٌ وتهكُّم بهم؛ إذ جُعل الصِّدق ممَّا يمكن أن يتَّصفوا به، وهو كقولك لأحد الجُبناء: إن كنت شجاعًا؛ فالقَني[3]، ومعلومٌ أنَّ اللِّقاءَ ممتنعٌ من جهتِه.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/473، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/265، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/9.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/59.

(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/265.

﴿فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩٤﴾ [آل عمران: 94]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

من عاد إلى الضّلال بعد ثبوت الحجّة بالتّوراة، فأولئك هم الظّالمون

لَمَّا أمر اللّه نبيَّه ﷺ في الآية السَّابقة، أن يتحدَّى اليهود بأن يحكِّموا بينه وبينهم التّوراة؛ لينتصروا لما ادَّعوه من وجود تحريم ما حرَّمه يعقوب على نفسه في التَّوراة، وأنَّه حرُم عليهم بنصِّها، فلمَّا تحدَّاهم النَّبيُّ ﷺ بذلك عجِزوا عنه، وانقطعت حُجَّتهم، فذكر اللّه في هذه الآية أنَّ من يفتري هذه الفرية منهم، بعد هذا البيان الظَّاهر هم الظّالمون؛ لتعمُّدهم الكذب عليه تعالى[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾: فعل ماض من الافتراء، وهو مرادف للاختلاق، أي: افتعال الكذب الَّذي لا أصل له، وجميع ما جاء منه في القرآن؛ فهو بهذا المعنى، وهو مأخوذ من الفَرْي، أي: التصنيع والتَّخْليق، ومنه قولهم: فَرَى المزادةَ - أي: القِرْبةَ - إذا خلَقَها، وصَنَعها[2].

2) ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: مفرده ظالم، معناه في كلامهم: الّذي يضع الأشياء في غير مواضعها، واحتجّوا بقول ابن مقبل:

عَادَ الأَذِلَّةُ في دَارٍ وَكَانَ بِها *** هُرْتُ الشَّقَاشِقِ ظَلَّامُونَ لِلْجُزُرِ[3]

"ويقال: (من أشبه أباه فما ظلم)، وفي المثل: (من استرعى الذّئب فقد ظلم)، والظّلامة والظّليمة والمظلمة: ما تطلبه عند الظّالم، وهو اسم ما أخذ منك. وتظلمني فلان، أي ظلمني مالي،

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 2/721، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/262.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 2/423، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (فرى).
(3) الأنباريّ، الزّاهر: 1/116.

وتظلّم منه، أي اشتكى ظلمه، وتظالم القوم. وظلمت فلانا تظليما، إذا نسبته إلى الظّلم"[1].

المَعْنَى الإِجْمَاليِّ:

الـظّـالـمـون من يفترون على الله الـكـذب، بعد بطلان الادّعاء

فمن كذب على اللّه تعالى، بنسبة حكم شرعيٍّ إليه بعد وضوح الحجَّة، فأولئك لا محالة هم الظَّالمون لأنفسهم بالكفر، ولغيرهم بالإغواء والإضلال، ذلك أنّ عجزهم عن التّحدّي ثابت متيقّن، وعليه فإنّ من سوّلت له نفسه أن يختلق الكذب على اللّه، بعد ذلك، فهم المستمرّون على الظّلم المتّصفون به حقّا[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الجَمْعِ بين الكذبِ والافتراءِ في قولِه: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾:

كَـذِبُ اليـهـود المُفْتَرى على الله أعـظـمُ أنـواعِ الكذبِ

جاءَ الكذبُ في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ مؤكِّدًا الافتراءَ الَّذي هو افتعالُ الكذبِ الَّذي لا أصلَ له، وفي الجمع بينهما أيضًا بيانٌ لنوع الكذب الَّذي كذَبوه على اللّه تعالى، وأنَّه أعظم أنواع الكذب؛ إذ هو اختراع قصَّة لا أصل لها مُطلقًا، وهو غايةٌ في الظُّلم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: 21][3]، ففي الجمع بينهما تبشيع لصنيع اليهود وزيادة تقبيح له، وبخاصَّة أنَّ الكذب جاء معرَّفًا، كأنَّ افتراءهم هو الكذب كلُّه، بخلافِ ما لو قيل: فمن افترى على اللّه كذبًا.

فائدةُ تقييدِ الافتراءِ بـ كونِه: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾:

ذكـرُ الاسـمِ العظيم بيانٌ لـعـظَـمِ جُـرم المفتري، وقُبح صنيعه

في تقييدِ افتراءِ الكذبِ - بكونه على اللّه تعالى، واستعمال لفظ الجلالة خاصَّةً - بيانٌ لفداحةِ الخطأ، وعِظم الجُرم ممَّن ارتكبَ ذلك في حقِّ اللّه تعالى؛ إذ إنَّه قد اختلق كذبًا لا أصلَ له على الملك

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (ظلم).
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 86.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/10.

الأعظم، الَّذي يعلمُ السرَّ وأخفى، ويقدر على المجازاة على هذا الافتراء، فأفاد هذا التقييدُ بهذه الكيفيَّة كمالَ قبح مرتكِب هذا الإثم العظيم(1).

دلالة إثبات الجارِّ في ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾:

الإشـــارة إلى تحريم الكذب في كلِّ زمان

أُثبِتَ الجارُّ في ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾؛ للدّلالة على أنَّ الكلامَ خارجٌ مخرج التَّحذير من افتراء الكذب على اللّه تعالى بعد ظهور الحقِّ ووضوحه، فلا مفهوم مخالفة للكلام هنا؛ فإنَّ الكذب منهيٌّ عنه في أيِّ زمنٍ كان، سواءٌ أكان بعد نزول هذه الآيات أم قبله(2).

فائدةُ ذكرِ البعديَّة في قولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾:

افـتراء الـكذب بـعـد ظـهـور الـحـقِّ هـو في القبح غاية، وفي الوقاحة نهاية

قُيِّد افتراءُ الكذبِ بكونِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد بيانِ القرآنِ الشَّافي، وبعد دحضِ شُبَه اليهود، مع أنَّ الكذب على اللّه تعالى مذمومٌ في كلِّ وقت وكلِّ حال، وفائدةُ هذا التقييد: الدّلالةُ على كمالِ قبح من كذب بعد هذا البيان، وأنّه في أسفلِ دركاتِ الوقاحة(3)، وبيانُ أنَّ من وقعَ منه الافتراءُ بعد الوضوحِ الشَّديد قد بلغَ الغايةَ في الإصرارِ على الكفرِ والعنادِ على الضَّلالِ البعيد.

بلاغةُ استعمالِ اسمِ الإشارةِ للبعيدِ في: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

تمكُّنُ المُفتري في الضَّلالِ البعيدِ

جيءَ باسمِ الإشارةِ الخاصِّ بالبعيدِ في قولِه تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ إعلامًا ببُعد منزلة المجترِئ المفتري على اللّه - بعد ظهور الحقِّ - في الضَّلال والطُّغيان(4).

دلالة القصر الإضافيِّ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ جيءَ بضمير الفصل ﴿هُمُ﴾ المفيدِ لقصر المسنَد على المسند إليه؛ للدَّلالة على أنَّ الإصرار

(1) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/723، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/3.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/3.
(3) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/220.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/59.

بيانُ علَّةِ العذابِ أبلغُ من ذكرِه، وأشدُّ في تهويلِه

على الافتراء على اللّه تعالى هو غاية الظُّلم، حتَّى كأنَّه لا ظالمَ إلا مقترفُ هذا الفعل الشنيع؛ لتعمُّده الكذب على من لا تخفى عليه خافية في الأرض، ولا في السَّماء[1]، وهو نوع من القصر الإضافيِّ[2] ولم يذكر الجواب المرتقب، فلم يقل: فأولئك لهم أشدُّ العذاب مثلًا، وإنَّما جاء بسبب استحقاق أشدِّ العذاب، وهو الظُّلم المبالغ فيه، كما يدلُّ عليه أسلوب القصر بتعريف الطَّرفين، فجاء بعلِّيَّة استحقاق أشدِّ العذاب، وهو أَبْلَغُ من التَّعبير بنوع العذاب.

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/3.

(2) وهو ما يكون التَّخصيص فيه بالإضافة إلى شيء آخر، نحو قولك: زيد هو العالم، لمن قال: زيد وعمرو عالمان، يُنظر: الدمنهوريُّ، حلية اللُّبِّ المصون، ص: 89.

﴿قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٥﴾ [آل عمران: 95]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الإخبار عن ملّة إبراهيم، وعلاقته ببطلان دعاوى اليهود الضّالّين

لَمَّا ذكر اللّه تعالى في الآية السَّابقة، كذب اليهود فيما ادَّعوه، بعد أن تحدَّاهم أن يثبتوا ذلك من التَّوراة؛ أَمَرَ اللّه نبيَّه ﷺ، أن يقول لهم: صدق اللّه، أي: فيما أخبر به عن ملَّة إبراهيم وبنيه عليهم السلام، ومنهم يعقوب، وأنَّهم كانوا جميعًا على ملَّة الإسلام الَّتي عليها النَّبي ﷺ والمؤمنون معه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾: قال الرّاغب: "الملّة هي: الدّين، وهو اسم لما شرع اللّه تعالى لعباده على لسان الأنبياء ليتوصّلوا به إلى جوار اللّه، غير أنّ الملّة لا تستعمل إلّا في جملة الشّرائع دون آحادها، ولا تضاف إلّا إلى النّبيّ، تسند إليه نحو: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ﴾، ولا تكاد توجد مضافة إلى اللّه ولا إلى آحاد أمّة النّبيّ، فلا يقال: ملّة اللّه، ولا ملّتي، ولا ملّة زيد كما يقال: دين اللّه، وديني، دين زيد"[1].

2) ﴿حَنِيفٗاۖ﴾: اسم فاعل من الحَنَف، وهو الاستقامة، أو الميل عن الضَّلال إليها، ومن الثَّاني قيل للمائل الرِّجْلِ: أحنف، وقيل: بل قيل له ذلك؛ تفاؤلًا باستقامة رِجْلِه، أي: على المعنى الأوّل، "ويقال: سمّي الأحنف بن قيس به، لحنف كان في رجله، وقالت حاضنة الأحنف:

وَاللّهِ لَوْلَا حَنَفٌ بِرِجْلِهِ ***مَا كَانَ فِي فِتْيَانِكُمْ كَمِثْلِهِ

والسّيوف الحنفيّة تنسب إليه، لأنّه أوّل من عملها، أي: أمر

(1) الرّاغب، المفردات: (ملل).

باتّخاذها، وهو في القياس: سيف أحنفيّ"[1]. والمراد بها في الآية: مستقيمًا على ما شرعه الله تعالى، أو مائلًا عن الأديان الباطلة إلى الدِّين الحقِّ[2]. "والحنيف في قولٍ: المسلم الّذي يستقبل قبلة البيت الحرام على ملّة إبراهيم حنيفا مسلما. والقول الآخر: الحنيف كلّ من أسلم في أمر الله، فلم يلتو في شيء منهُ[3]، "وقال الأخفش: الحنيف المسلم، وكان في الجاهليّة يقال لمن اختتن وحجّ البيت حنيف؛ لأنّ العرب لم تتمسّك في الجاهليّة بشيء من دين إبراهيم، غير الختان وحجّ البيت، فكلّ من اختتن وحجّ قيل له حنيف، فلما جاء الإسلام عادت الحنيفيّة، فالحنيف المسلم"[4].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الدّعوة إلى اتّباع ملّة إبراهيم الدّاعيةِ إلى الحنيفيّة، والنّائيةِ عن الشّرك

قلْ - أيُّها النّبيُّ ﷺ- لليهود: ظهر صدق الله تعالى فيما أخبر به من أن كلَّ الطَّعام كان حلالًا لبني إسرائيل إلَّا ما حرَّم إسرائيل على نفسه، وفي جميع ما أخبر على لسان نبيِّه ﷺ، فاتَّبعوا دين إبراهيم، فقد كان مائلًا عن الأديان كلِّها إلى دين الإسلام، ولم يكن من المشركين، " أي اتّبعوا منهاجه وشرعته وطريقته، وقد كان طريقه هو طريق الفطرة السّليمة، ولذلك وصفه بقوله ﴿حَنِيفًا﴾، أي متّجها إلى الحقّ لَا ينحرف عنه إلى غيره، ولا يسلك غير سبيل المؤمنين، يجيب داعي الحقّ إذا دعي إليه"[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ التَّعبيرِ بصدق الله تعالى لا بكذبِ اليهودِ:

آثرتِ الآيةُ التَّعبير عن كذبِ اليهودِ بقوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ

(1) الخليل، العين: (حنف).
(2) الرَّاغب، المفردات: (حنف)، والزَّبيديُّ، تاج العروس: (حنف).
(3) الخليل، العين: (حنف).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حنف).
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1319.

﴿ٱللَّهُۗ﴾ دون الإخبار المباشرِ؛ فلم يُقل: قل كذب اليهود، وذلك لبيانِ أنَّ قوله هو الصِّدق، وفي إخباره بذلك بعد ما تقدَّم من تحدِّي اليهود وذمٍّ من يفتري على الله الكذب تعريضٌ بكذب اليهود في دعواهم: بأن ما حُرِّم عليهم إنَّما كان محرَّمًا على الأنبياء من قبل؛ إذ الحكمُ بصدق أحد الخبرين المتنافيَين؛ يلزم منه كذبُ الخبر الآخر، والمعنى: صدق الله فيما أخبر به، وأنزله في كتبه، وكذبتم أيُّها المدَّعون(1).

بيانُ الغايةِ في إظهارِ الحقِّ، والتَّعريضِ بالكاذبين

فائدةُ التَّعبير بالاسم العظيم:

في إسناد الصِّدق إلى الله تعالى بلفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ﴾ إسباغ الجلال على الخطاب، وتربية المهابة في قلوب المخاطبين؛ لما يقتضيه الاسم العظيم من معاني الكمال والعزَّة، فهو أولى من غيره من الأسماء - كالرَّبِّ والخالق - في هذا المحلِّ، فالمعنى: صدق الله الملك الذي له الكمال كلُّه في ما أخبر(2)، ولبيانِ أنَّ الله هو الذي أنزل التَّوراةَ، وأرسل الرسلَ، فهو صاحبُ القولِ الحقِّ، والكلامِ الصِّدقِ.

التَّصريحُ بأنَّه الحقُّ، والتَّعريضُ بمن خالفَه

دلالة الفاء في: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾: للتَّفريع والسَّببية، فجُعل ظهور صدق الله تعالى أصلًا وسببًا لِمَا بعده من الأمر باتِّباع ملَّة إبراهيم عليه السلام وهي نفسها ملَّة سيِّدنا محمَّد ﷺ فكأنَّه قيل: ما دام قد ظهر لكم صدق الله؛ فعليكم - أيُّها المخاطبون من أهل الكتاب - أن تتَّبعوا ما أنزله على أنبيائه؛ فإنَّ اتِّباع الصِّدق منجاةٌ من الخطر(3).

مقتضى تصديقِ الله هو اتِّباع رسله

(1) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/386، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 2/28.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/4.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/59، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/11.

الـتَّـعـريـضُ بمن تـركَ اتِّباعَ الأنبياءِ وأطـاعَ الأحبارَ من دونِ الله

بلاغةُ الإطنابِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ إطنابٌ؛ فهو تذييلٌ متضمِّن لما تقدَّم ذكره من حنيفيَّة إبراهيم عليه السلام، وهي استقامته على دين اللّه تعالى، أو ميله عن جميع الأديان إلى دين اللّه، فهو توكيد لهذه الحنيفيَّة بذكر رأس الأمر فيها، وهو توحيد اللّه تعالى، ونبذُ الشِّرك به[1]، وفيه تعريضٌ باليهودِ الذين خرجوا عن ملَّته عليه السلام، ووقعوا في الشِّركِ التَّشريعيِّ، باتِّباعِ أحبارِهم وتركِ أنبيائهم، فاتَّخذَ بعضهم بعضًا أربابًا من دون اللّه، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 31]، فكأنَّه قيل لهم: إنَّ دينكم ليس هو دين إبراهيم كما تزعمون؛ إذ إنَّ إبراهيم لم يكن مشركًا، بينما أنتم مشركون بتقليدكم أحبارَكم الَّذين يدعونكم إلى ضدِّ ما يدعوكم إليه اللّه تعالى[2].

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/221، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/11.
(2) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/742، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/266.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ٩٦﴾ [آل عمران: 96]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين اتّباع ملّة إبراهيم، وتعظيم البيت الجدير بالتّعظيم

لَمَّا أمر اللّه تعالى اليهود في الآية السَّابقة أن يتَّبعوا ملّة إبراهيم -عَلَيْهِ السَّلَامُ- وهي ما عليه النَّبيُّ ﷺ والمؤمنون معه، وكان من ملَّتِه تعظيمُ بيت اللّه الحرام؛ ناسبَ ذلك ذكرُ البيت الحرام وفضله وحرمته، وخاصَّةً بعد أن عاب اليهود على المسلمين التّوجُّه إليه في صلاتهم[1]، "والدّعوة إلى الإيمان بملّة إبراهيم، هي لإيضاح أنّ جوهر الإيمان، لا يحتمل الخلاف، فركْبُ الإيمان والرّسل والأنبياء، هو ركبٌ واحد"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ﴾: "لفظ (أوّل) في اللّغة، على الحقيقة: ابتداء الشّيء، قيل: وجائز أن يكون المبتدأ له آخر، وجائز ألا يكون له آخر، فالواحد أوّل العدد، والعدد غير متناهٍ؛ ونعيم الجنّة له أوّل، وهو غير منقطع، فجائز أن يكون قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، هو البيت الّذي لم يكن الحجّ إلى غيره"[3]، وذكر أهل اللّغة في اشتقاق (الأوّل) وهو منسوب إلى سيبويه: إنّه (أفعل)، من: آل يؤول؛ و(أولى) فعلى منه، فكأنّه (أوّل) في الأصل: أأول، فقلبت الهمزة الثّانية واوا، وأدغمت في الواو الأخرى، فقيل: أوّل[4].

2) ﴿وُضِعَ﴾: فعل ماضٍ مبنيٌّ للمفعول، من الوَضعِ، أي: بُنِي،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 2/221.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1622.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (أوّل).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (أوّل).

وأُسِّس، وأصل الوضع يدلُّ على خفض الشَّيء وحطِّه، ومنه سمِّي المكان موضعًا، وقيل: هو أعمُّ من الحطِّ؛ لإطلاقه على الخلق والإيجاد، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠﴾ [الرحمن: 10]، وعلى إبراز الشَّيءِ، نحو: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [الكهف: 49][1].

3) ﴿بِبَكَّةَ﴾: اختلف العلماء في بكَّة على عدَّة أقوال، أشهرها ما يلي[2]: الأوَّل: أنَّها مكَّة نفسُها، أبدلت ميمُها باءً، وإبدال الباء من الميم وعكسه، كثير عند العرب، نحو: لازم ولازب، وراتب وراتم، وغيرهما، وقيل: هي مكَّة، لكن ليست باؤها بدلًا من ميم، بل هي من البَكِّ؛ لأنَّها تبُكُّ أعناق الجبابرة، أي: تدُقُّها. والثَّاني: أنَّه اسم للمسجد الحرام. والثَّالث: أنَّه اسم لمكان البيت الحرام، فيقال له خصوصًا: بكَّة، ويقال لما خرج عن موضع الطَّواف: مكَّة، ويدلُّ عليه أنَّ التَّباكَّ هو الازدحام، وهو يكون في الطَّواف، أو هو من التَّباكي؛ لأنَّ النَّاس يتباكَون فيه. والرَّابع: أنَّ معناها: البلدة باللُّغة الكِلْدانيَّة، لغةِ إبراهيم عليه السلام نحو: بعلبكَّ، أي: بلدة بعل، ويكون واضعه هو إبراهيم، بنيَّة أن يكون بلدًا لولده إسماعيل عليهما السلام.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أوّل بيت للعبادة في الأساس، هو الّذي بمكّة موضوعًا للنّاس

إنَّ أوَّل بيت أُقيم لعبادة اللّه هو البيت الحرام الَّذي بمكَّة، وهو بيت مبارك، كثيرُ المنافع الدّينيَّة والدّنيويَّة، فيه هداية للنَّاس جميعًا، و"هو قبلة المسلمين في الصّلاة والدّعاء، وإليه تتّجه أنظارهم، وتهفو قلوبهم، أوّل بيت وضع معبدا للنّاس، وأسس لذكر اللّه فيه، وهذه الأوليّة في الزّمان، يلزمها الأوليّة في الشّرف والمكانة"[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ توكيدِ الكلامِ في قولِه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ أُكِّدت فيه النِّسبة بتوكيدَين، هما: إنَّ، واللَّام، ولهذا التَّوكيدِ توجيهان:

الأوّل: أنَّه لَمَّا عاب اليهود على المسلمين استقبال البيت الحرام

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرَّاغب، المفردات: (وضع).

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/474، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/259، والتَّحرير والتَّنوير: 4/12.

(3) الحجازيّ، التّفسير الواضح، ص: 256.

الأولـيَّـةُ أصـلٌ متبوعٌ لا تابعٌ؛ ومَنْ عَكسَ فقد انتكَسَ

في الصَّلاة - بعد أن كانوا يستقبلون المسجد الأقصى - ردَّ اللّٰه تعالى عليهم عيبَهم؛ بتأكيد أنَّ البيت الحرام هو أوَّل بيت وُضِع للنَّاس، وأنَّه من شعائر إبراهيم ﷺ الَّتي كفر اليهود بتركها[1]، فهو ردٌّ عليهم وإلقامُهم الحجرَ، إذ إنَّ الأوليَّة أصلٌ متبوعٌ لا تابعٌ، وحسُنَ التَّوكيدُ لبيانِ ما يجولُ في نفوسِ المُنكرين والمُتشكِّكين.

الاهتمامُ بأوليَّةِ البيتِ وجعله تعليلًا لاتِّباعِ إبراهيم

الثَّاني: إنَّ التَّأكيد في الآية إنَّما هو لمجرَّد الاهتمام، وأنَّ ﴿إِنَّ﴾ وما بعدها واقعة موقعَ التَّعليل للأمر الإلهيِّ المتقدِّم في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، فـ ﴿إِنَّ﴾هنا: كفاء التَّفريع من حيث إفادتُها للرَّبط بين الجملتين[2]، "وَبَيَانُ وَجْه التَّعْلِيلِ أَنَّ هَذَا الْبَيْتَ لَمَّا كَانَ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلْهُدَى وَإِعْلَانِ تَوْحِيدِ اللَّهِ لِيَكُونَ عَلَمًا مَشْهُودًا بِالْحِسِّ عَلَى مَعْنَى الْوَحْدَانِيَّةِ وَنَفْيِ الْإِشْرَاكِ، فَقَدْ كَانَ جَامِعًا لِدَلَائِلِ الْحَنِيفِيَّة، فَإِذَا ثَبَتَ لَهُ شَرَفُ الْأَوَّلِيَّةِ وَدَوَامُ الْحُرْمَةِ عَلَى مَمَرِّ الْعُصُورِ، دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْهَيَاكِلِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي نَشَأَتْ بعده، وَهُوَ مائل، كَانَ ذَلِكَ دَلَالَةً إِلَهِيَّةً عَلَى أَنَّهُ بِمَحَلِّ الْعِنَايَةِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الدِّينَ الَّذِي قَارَنَ إِقَامَتَهُ هُوَ الدِّينُ الْمُرَادُ لله، وَهَذَا يؤول إِلَى مَعْنَى قَوْلِه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: 19]"[3].

توجيهُ المخصوصِ بذكرِ الأوَّليَّة في قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾:

الأولـيَّـةُ تـدلُّ علـى الرُّسوخِ والأصالـةِ والفضْلِ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ فُضِّل البيت الحرام بكونه أوَّل بيتٍ أُسِّس لعبادة اللّٰه؛ لأنَّ مواضع العبادة؛ وإن كانت سواءً من جهة العبادة نفسِها إلا أنَّها تتفاضل بطول الزَّمن المتعبَّد للّٰه فيها، وكذلك بنسبتها لواضعها وبانيها، وحُسْن قصده فيها، وقد جمع البيت الحرامُ كلَّ هذه المزايا[4].

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/5.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/11.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/11 - 12.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/15.

دلالةُ البناءِ للمفعولِ في: ﴿وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾:

الإشارةُ إلى أنَّ وضعَ البيتِ كان قبل إبراهيم عليه السلام

جاء فعلُ ﴿وُضِعَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ مبنيًّا للمفعول، ولم يُسمَّ الفاعلُ الذي وضعَ البيتَ، إشارةً إلى أنَّ البيت الحرام قد وُضع قبل إبراهيم عليه السلام وأنَّ الَّذي قام إبراهيم به هو رفعُ القواعد(1).

كما أنَّ في حذف الفاعل وبناء ﴿وُضِعَ﴾ للمفعول أيضًا إشعارًا بإجلال واضع البيت وتعظيمه؛ إذ الفاعل قد يُحذف من الكلام تعظيمًا له وتبجيلًا(2).

فائدةُ التعريفِ بالموصوليّةِ في قولِه: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾:

تعظيمُ البيتِ وتفخيمُه وتضمينُ الموصولِ معنى الإشارةِ

قوله تعالى: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ عُرِّف فيه البيت الحرام بالموصوليَّة، وتُرِك غيره من الأسماء كالكعبة الذي صار علَمًا بالغلَبة عليه، ووجه ذلك أنَّ التعريف بالموصوليَّة أقرب في تعيين البيت الحرام للسَّامعين؛ إذ لم يكن في مكَّة عند نزول الآية بيت للعبادة غيرَ البيت الحرام، أمَّا الكعبة؛ فقد أُطلقت في الجاهليَّة على غير البيت الحرام، كالكعبة اليمانيَّة والكعبة الشاميَّة اللتين بناهما بعض العرب الجاهليِّين قبل الإسلام(3).

كما أنَّ التعريف بالموصوليَّة أفاد تفخيم المعرَّف بالصِّلة، وهو البيت؛ إذ قد اكتُفي في تعيينه بأنَّه هو الَّذي بمكَّة، وهي أشرف البقاع يومئذ(4)، وكذلك أفاد الاسمُ الموصولُ معنى الإشارةِ، فكأنَّه قيل: ذلك الذي تعرفونه ببكة، فهو المعروفُ في أذهانِكم وعلمِكم ورأتْه عيونُكم.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/268، والبقاعيُّ، نظم الدرر: 5/6.
(2) الطيبيُّ، فتوح الغيب: 4/186.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/13.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/60.

دلالة اختيار لفظ بكَّة دون غيرها من الألفاظِ:

مناسبة الاسم الأول لمكَّة عند ذكر أوّليَّة بناء البيت

في اختيارِ هذا الاسمِ في خصوصِ هذا السِّياقِ وهو التَّصريحُ بالأوليَّةِ، إشارةٌ إلى أن (بكة) هو الاسم الأوَّلُ لهذا البيت، ويظهر أنَّ لاتحادِّ الباء والميم في المخرجِ، وسهولَةِ جريانِ الميم على الألسنِ؛ أصبحت مكة، وفيه إعجاز غيبيٌّ في الإشارةِ إلى الاسم القديمِ لهذا البيتِ، ومن بابِ الاستئناس فإنَّ (بكَّة) في اللُّغة الكِلْدانيَّة - لغة إبراهيم عليه السلام - تعني: البلدة، كما في حكاية القرآن عن النَّبيِّ ﷺ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾ [النمل: 91]، وعن إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا﴾ [إبراهيم: 35][1].

نكتةُ المجازِ بالحذف في قولِه: ﴿وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾:

مـن حـادَ عن البيتِ حادَ عن الهدايةِ وسقطَ في الغوايةِ

في وصف البيت الحرام بأنَّه ﴿وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ مجاز؛ إذ جُعِل البيت لما يتضمَّنه من آيات بيِّنات وهدًى للناس، كأنَّه هو الهدى نفسه، فـ: ﴿وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، أي: ذا هدًى، فهو مجاز بالحذف، نحو: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف: 82]، أي: أهلَها[2]، ونكتتُه أنَّ من حادَ عنه في القبلةِ واتِّباعِ مِلَّةِ من رفعَ قواعدَه فهو الضَّالُّ المُفصِحُ عن ضلالتِه، والمُبيِّنُ لآفةِ خسارتِه.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/13.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/475.

﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾ [آل عمران: 97]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين أوّليّة المسجد الحرام، واتّخاذه موضعًا لأداء الحجّ لله

بعد أن أخبر اللّه تعالى في الآية السَّابقة، أنَّ البيت الحرام هو أوَّل بيت وُضِع للنَّاس، وأنَّه مبارك وهدًى للعالمين، ذكر في هذه الآية بعض العلامات الواضحات في هذا البيت، من وجود مقام إبراهيم به، وأَمْنِ من دخلَه، وغيرهما من الآيات، ثمّ ذكر وجوب حجِّه على من استطاع إليه سبيلًا، وذكر مجاهد أنّ المسلمين واليهود تفاخروا، فقالت اليهود: بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة، لأنّه مهاجر الأنبياء، وفي الأرض المقدّسة، وقال المسلمون: بل الكعبة أفضل، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية والآية الّتي قبلها، إبرازًا للحقيقة، ووضعًا للأمور في نصابها، وتأكيدًا أنّ المسجد الحرام سابق في الأوّليّة والأفضليّة[1].

شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

1) ﴿مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ﴾: مقام اسم مكان من قامَ، واختلف في المراد بـ قوله: ﴿مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ﴾: فقيل: هو الحجر المعروف، وهو الأظهر، وقيل: هو البيت الحرام كلُّه؛ لأنَّ إبراهيم بناه، وقام في جميع أنحائه، وقيل: مكّة كلُّها مقام إبراهيم[2]، (وَالْمَقَامُ) بِالْفَتْحِ مَوْضِعُ الْقِيَامِ (وَمِنْهُ) مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَهُوَ الْحَجَرُ الَّذِي فِيهِ أَثَرُ قَدَمَيْهِ وَهُوَ مَوْضِعُهُ أَيْضًا (وَأَمَّا الْمُقَامُ) بِالضَّمِّ فَمَوْضِعُ الْإِقَامَةِ وَقَامَتْ عَلَيْهِ الدَّابَّةُ، كَلَّتْ حَتَّى وَقَفَتْ فَلَمْ تَبْرَحْ مَكَانَهَا[3].

(1) الزّحيلّي، التّفسير الوسيط: 1/217.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/476.
(3) المُطَرِّزِيّ، المغرب: (قوم).

2) ﴿حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ﴾: الحِجُّ والحَجُّ مصدر: حجَّ فلانٌ؛ إذا قصَدَ مكانًا للزِّيارة، ثم صار حقيقة شرعيَّة، بمعنى: قصدِ زيارة البيت الحرام على وجه مخصوص، وكسرُ الحاء وفتحها فيه لغتان، وقيل: الحَجُّ - بالفتح - هو المصدر، والحِجُّ - بالكسر - هو الاسم، وبكسر الحاء قرأ حفصٌ وحمزة والكسائيُّ وخلف وأبو جعفر، وبفتحها قرأ باقي العشرة[1].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

علامات تشريف البيت الحرام، بالحجّ به لله، وإبراز قدسيّة المقام

في بيت اللّه الحرام علامات واضحات على شرفه وفضله، منها مقام إبراهيم - وهو الحجَر الذي كان يقوم عليه عند بناء البيت - ومنها أمن مَن دخله استجابةً لدعوة إبراهيم: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: 126]، "وحجّ هذا البيت واجب على المستطيع من النّاس، ومن أبى وتمرّد على أمر اللّه، وجحد دينه، فالخسران عائد عليه، وإنّ اللّه غنيٌّ عن هذا العاصي، وعن النّاس كلّهم[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الفَصْل في قوله: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ﴾:

الاستئنافُ للتّنبيه على ما في البيتِ من المناقبِ والمزايا

قوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ﴾ اسْتِئْنَافُ ثَنَاءٍ عَلَى هَذَا الْبَيْتِ بِمَا حَفَّ بِهِ مِنَ الْمَنَاقِبِ وَالْمَزَايَا فَغُيِّرَ الْأُسْلُوبُ لِلِاهْتِمَامِ، فأتتِ الجملةُ مستأنفةً غيرَ موصولةٍ بما قبلَها مع مَا بَيْنَهُما من الاتِّصال، وإنَّما فُصِلت عمَّا قبلها، ولم تُعطَف عليه بالواو؛ لئَلَّا يُتوهَّم أنَّ الواو فيها هي واو الحال، فيلتبس المعنى على السَّامع، فكان الفصل هو الأفصحَ؛ دفعًا للَّبس[3].

(1) الرَّاغب، المفردات: (حج)، والبيضاويُّ، أنوار التّنزيل: 2/29، وابن الجزريّ، النّشر: 2/241.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 86.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/13.

دلالة استعمالِ الظرفِ في قولِه: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ﴾:

الآيـاتُ راسخةٌ ومتمكِّنةٌ من البيتِ

الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ﴾ مجازيَّة؛ لأنَّ الآيات المذكورة كمقام إبراهيم وأمان من دخل البيت الحرام ليست موجودةً داخل البيت، أي: بين جُدرانه، لكن لَمَّا كان البيت وُضع للناس بحرَمه وفضائله؛ ساغ إطلاق أنَّ الآياتِ فيه؛ تجوُّزًا[1]، وأفاد معنى المبالغة والتَّصويرِ، فكأنَّ الآيات قائمةٌ فيه، تمكُّنًا ورسوخًا.

علَّةُ وَصْفِ الآياتِ بالبيِّنات:

ظـهورُ الآيـاتِ للنَّاسِ يجعلُه بيِّنةً

وَصفَ اللّه تعالى الآيات بأنّها بيِّناتٌ في قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ﴾؛ لأنّها ظاهرة في عِلْم المخاطَبين، وأظهر ذلك ما يسَّرَه اللّه تعالى لأهل الحرم وزائريه من الأمن والمنافع الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، ممَّا كان متَّفَقًا عليه بين العرب من قبل ظهور الإسلام[2].

نكتةُ بيانِ الجمعِ بالمفردِ في قولِه: ﴿ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ﴾:

قيل في قوله تعالى: ﴿مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ﴾ بأنَّه خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، وقيل: عطف بيان[3]، أمّا على إعرابه خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ ففيه مجازٌ بحذف المسنَدِ إليه، تقديره: هو مقام إبراهيم، وهو كحذفِ المبتدأ مع نعم وبئس وما جرى مجراهما، ومنه قول العرب: رمية من غير رامٍ، أي: هي رمية[4].

تـضـمـينُ آيـةِ المقامِ آياتٍ عدَّةً

وعلى إعرابه عطفَ بيانٍ؛ فيُسأل عن سرِّ بيان الجمع في قوله: ﴿ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ بالمفرد في قولِه: ﴿مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ﴾؟ والجواب: أنَّه لكون مقام إبراهيم بمنزلة آيات متعدِّدة؛ لقوَّة دلالته على قدرة اللّه تعالى ونبوَّة إبراهيم عليه السلام، أو لاشتماله على عدَّة آيات كأثرِ القَدَم

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/475.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/17.
(3) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 3/317 - 320.
(4) الدَّمنهوريُّ، حلية اللُّبِّ المصون، ص: 49، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/17.

في الصَّخرة الصَّمَّاء، وإلانةِ بعض الصَّخر دون بعضه، وإبقائه دون غيره من معجزات الأنبياء، وحفظِه مع كثرة أعدائه من المشركين وأهل الكتاب[1].

الإنشاء بلفظ الخبر في: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾:

الوعيد الضِّمنيُّ يقتضي الأمانَ لِدَاخِلِ البيت

ذهب كثير من العلماء إلى أنَّ قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾ أمرٌ جاءَ في صيغة الخبر، ومعناه: ومن دخله؛ فأمِّنوه بأمان اللّه، وجاء الأمر هنا بصيغة الطَّلب حملًا للمخاطَبين على فعل المطلوب منهم، كقوله تعالى: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ﴾ [البقرة: 233][2]، وهذا الإخبارُ يقتضي الوعيدَ لمن خوَّف من هو داخلَ الحرمِ بنوعِ أذى، ومنه أُخِذَت دلالةُ الأمرِ.

دلالة الإشارةِ في قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾:

أهلُ مكَّة آمنون أمانًا أصيلًا لا يكونُ لغيرِهم

وقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾ فيه امتنان بأمان من دخل البيت الحرام وأهل مكَّة من النَّهب والغارات الَّتي كانت شائعة في جزيرة العرب قبل الإسلام، ويُفهَم من هذا الامتنان بقياس الأَولى الامتنانُ على أهل مكَّة بأمانهم دون سائر العرب يومئذٍ، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ﴾ [العنكبوت: 67][3].

سببُ عطفِ قولِه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ على السَّابقِ:

حجُّ البيتِ حالٌ لازمةٌ له إلى يوم القيامةِ

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وُصِلت هذه الجملة بما قبلها بعطفها عليه بالواو، وَالتَّقْدِيرُ: مُبَارَكًا وَهُدًى، وَوَاجِبًا حَجُّهُ، فَهُوَ عَطْفٌ عَلَى الْأَحْوَالِ. ووجه ذلك أنَّ الحكم بإيجاب الحجِّ فيه تنويه بشأن البيت الحرام، وكون حجِّه حقًّا للّه على النَّاس، فناسب ذلك

(1) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/387.
(2) الثعلبيُّ، الكشف والبيان: 9/18.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/8.

ما قبله من الامتنان بأمن داخله واشتماله على الآيات البيِّنات، فحسُن وصلُه به[1].

الحجُّ عبادة عظيمة حريٌّ التَّنويه بها في سياقِ الرَّدِّ على أهل الكتابِ:

وفي حديث القرآن عن الحجِّ - بعد الرَّدِّ على أهل الكتاب، وبيان مخالفتهم لملَّة إبراهيم، قبل أن يعود الكلام إلى الرَّدِّ عليهم وإقامة الحجَّة عليهم - دلالةٌ على الشَّأن العظيم والخطب الجليل لهذه العبادة الَّتي اقتضَتْ مناسبةُ ذكرِ بعض متعلِّقاتها التَّنويهَ بشأنها، والتنبيهَ على فرضيَّتِها على جميع النَّاس[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ العظيم في: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾:

مقتضى الحجِّ تحقيقُ الألوهيَّة وتعظيمُ الرُّبوبيّة

عُبِّر بلفظ الجلالة خاصَّة دون سائر أسماء اللّه تعالى وصفاته في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾؛ لِمَا تفيده هذه الجملة من وجوب زيارة البيت الحرام على النَّاس زيارة مخصوصة، خاضعين مستسلمين للّه تعالى، فكان لفظ الجلالة أنسب من غيره لما يدلُّ عليه من عِزَّة الألوهيَّة وكبرياء الربوبيَّة، فكأنَّه قيل: وللملك - الَّذي له الأمرُ كلُّه - على النَّاس أن يحُجُّوا البيت[3].

دلالة تقديم الخبر: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾:

الحجُّ عبادة تختصُّ بالله تعالى

قُدِّم الخبر على المبتدأ في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾؛ للدَّلالة على تخصيص الخبر به وقصره عليه، فأفاد ذلك أنَّ الحجَّ عبادة لا تختصُّ إلَّا بمعبود جامع للكمالات كلِّها، وهو اللّه تعالى[4]، وفي ذلك تنبيهٌ على ما كان في الجاهليّة من الحجِّ لغيرِ اللّه تعالى.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/21.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 2/230.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/306، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/8.
(4) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 4/192.

معنى اللّام في قوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾:

الحج عبادة مستحَقَّة لله في ذمَّة جميع الناس

لام الجرِّ في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ للاستحقاق، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: 2]، وفيها دلالةٌ على أنَّ الحجَّ عبادة مستحقَّة للّه تعالى في ذمَّة جميع الناس ممَّن يستطيع الحجَّ[1].

سرُّ التَّعبير بحرف الجرِّ ﴿عَلَى﴾ في: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾:

الحجُّ فرض من الله العليِّ القاهر

يؤكِّد حرفُ الجرِّ ﴿عَلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ الدَّلالة على وجوب الحقِّ، وذلك لِمَا يدلُّ عليه ﴿عَلَى﴾ في هذا السِّياق من معنى الاستعلاء والقهْر[2]؛ ليكون النَّاس أكثرَ طواعيةً للأمر القاهر من اللّه تعالى، الذي استحقَّ من النَّاسِ جميعًا هذه العبادة.

دلالة وضع الاسم الظَّاهِر موضعَ الضَّمير في ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾:

الإشعار بعِلِّيَّة وجوب الحجِّ

أُقيم الاسم الظَّاهر في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ مُقام الضَّمير، فلم يقل تعالى: وللّه عليكم أو نحو ذلك؛ وذلك لأمرين:

الأوّل: الاسم الظَّاهر هنا مشعِر بعلِّيَّة وجوب الحجِّ، لأنَّ المخاطَبين بفرَضيَّتِهِ ناسٌ، أي: عبيد لربِّهم، مفتقرون إلى طاعته ورضاه، سواء عرفوا الحكمة من هذه العبادة أم لا[3].

الحجُّ فريضة على جميع النَّاس لا العربِ وحدَهم

الثَّاني: الدّلالةُ على شمول فرضِ الحجِّ جميعَ النَّاس، فهو غير خاصٍّ بالمخاطبين بالقرآن أصالة من الصَّحابة أو العرب وحدهم، وإنَّما هو فرض عامٌّ على النَّاس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم[4].

سرُّ ذكر البيتِ في قولِه: ﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ وُضع الاسمُ الظَّاهر

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/22.

(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/306.

(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/306، والآلوسيُّ، روح المعاني: 2/230.

(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/8.

التَّنويه بذكر البيت الحرام

وهو ﴿ٱلۡبَيۡتِ﴾ ولم يقل: ولله على الناس الحجُّ، للتَّنويه بذكر البيت الحرام وتفخيمه، وإشارة إلى أنَّ هذا البيت حريٌّ بالحكم المتعلِّق به من قصدِه بالحجِّ وتحمُّلِ المشاقِّ لأجل زيارته[1].

دلالة التَّعبير بالجملة الاسميَّة في: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ﴾:

الحجُّ حقٌّ ثابتٌ للّه في رقاب النَّاس

في الجملة الاسميَّة بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ﴾ دلالة على ثبوت فرض الحَجِّ ودوام هذا الحقِّ للّه في رقاب النَّاس، بحيث لا يخرجون من عُهدته إلَّا بأدائه، وذلك لِمَا تدلُّ عليه الجملة الاسميَّة من الثُّبوت والدَّوام[2]، ولما في القصر بطريق التَّقديم من تمكين المعنى وتقويته.

فائدةُ البدلِ في قوله: ﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾:

تعيينُ صفة مَن يجب عليه الحجُّ، وتبيينُهُ بعد إجماله

أُبدل الاسم الموصول ﴿مَنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾ من ﴿ٱلنَّاسِ﴾، وفي هذا الإبدال أدلَّة عدَّة على تشديد أمر الحجِّ وتأكيد العناية به: فمنها تثنية ذكر المراد بتكرير من يجب عليه الحجُّ مرَّتين: مرَّة بلفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ ومرَّة بلفظ ﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾، ومنها ما يقتضيه هذا البيان بعد الإجمال الَّذي في ﴿ٱلنَّاسِ﴾ من ذكر المراد بصورتين مختلفتين[3].

تخصيص الحجِّ بالمستطيع مما يقتضي الشُّكر

وفي هذا الإبدال حملٌ للمخاطَبين بعبادة الحجِّ على شكر اللّه تعالى لما يدلُّ عليه التَّخصيص بـ﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾ بعد التَّعميم الَّذي في ﴿ٱلنَّاسِ﴾ من تخفيف الحكم وتيسيره[4].

دلالة تقديم المتعلِّق في قوله: ﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾:

قدِّم المتعلِّق - وهو ﴿إِلَيۡهِ﴾ - على المتعلَّق به، وهو ﴿سَبِيلٗاۚ﴾ في

---

(1) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 4/193، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/9.
(2) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 2/30، والآلوسيُّ، روح المعاني: 2/230.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/306، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/274.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/9.

تقديم المتعلِّق دلـيـلٌ عـلى الاهتمامِ بشأنه

قوله تعالى: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، ومقتضى الظَّاهر أن يقال: من استطاع سبيلاً إليه، وفي هذا التَّقديم دلالة على الاهتمام بشأن المتعلِّق لما يتضمَّنه من معنى الإيصال والإفضاء، وهو كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ۝١١﴾ [غافر: 11](1).

بلاغةُ استعارةِ السَّبيل عن كُلفةِ الحجِّ:

القدرةُ التَّامّةُ هي شرطُ الحجِّ

وفي التَّعبير بالسَّبيل في قوله تعالى: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ استعارة، إذ السَّبيل في اللُّغة هو الطَّريق، وعُبِّرَ به هنا عمَّا يَتمكَّن به المكلَّف بالحجِّ منه من الزَّاد والرَّاحلة، وسائر شروط صحَّة الحجِّ، فشُبِّهت هذه الشُّروط بالطَّريق الذي لا يوصَل إلى الحجِّ إلَّا بعبوره، والسُّلوك مِن مَجَازِهِ إليه(2).

سرُّ العدولِ عن ذكر عدمِ الحجِّ إلى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾:

تَرْك الحجِّ جملةً هو كُفرانٌ يَصدُرُ عن الكَفَرة

غلَّظ اللّه تعالى في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أمر ترْكِ الحجِّ، وشدَّد على تاركه تشديدًا عظيمًا، فقال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ بدل: ومن لم يحجَّ؛ لأنَّ ترْك الحجِّ بالكُلّيَّة إنَّما هو من فعل الكفَرة، فذُكر الكفر هنا تشبيهًا بصنيع تارك الحجِّ بأنَّه كصنيع من لا يؤمن باللّه ورسله وفضيلةِ حَرَمِه، وفي هذا توكيد لفرضيَّة الحجِّ يضاف إلى التَّوكيدات السَّابقة واللَّاحقة، ومثله في التَّغليظ ما روي عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: "من لم يحبسْه مرضٌ، أو حاجةٌ ظاهرةٌ، أو سُلطانٌ جائرٌ - ولم يحُجَّ - فليَمُتْ: إن شاء يهوديًّا أو نَصرانيًّا"(3)(4).

وقيل: إنَّ اللّه تعالى سمَّى ترْك الحجِّ كفرًا، لكنَّه كُفْر دون كفر، فهو كُفر بالنِّعمة، لا كفرٌ مُخرِج من الدِّين.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/61.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/22.

(3) رواه البيهقيُّ في السُّنن الكبرى: 9/227، الحديث رقم: (8733)، عن أبي أمامة مرفوعًا، وإسناده ضعيف.

(4) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 2/30، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/62.

وقيل: إنَّ الكفر في الآية على ظاهره، والمراد به هو الكفر بالإسلام، وفائدة ذكره هي التَّعريض بالمشركين بأنَّ حجَّهم الذي كانوا يحجُّونه في الجاهليَّة غير مقبول عند الله، وأنَّ المقبول عنده تعالى: هو حجُّ المؤمنين والموحِّدين(1).

دلالةُ التَّذييل في قولِه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

اللـه غـنـيٌّ عن عبادةِ العالمين، ونـفـعُ الـحـجِّ يعود على العبادِ

في ذكر استغناء الله تعالى عن جميع العالمين في قولِه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بعد التَّنصيص على فريضة الحجِّ توكيد لكونِ الحجِّ من مقتضيات الإيمان، وأنَّ مباشِرَه مستأهلٌ رضا الله تعالى وثوابه، أمَّا تاركه؛ فإنَّه تعالى غير مكترثٍ به، وكفى بذلك إيذانًا بالسُّخط والغضب(2)، لاسيَّما أنَّ تفريعَ الاستغناءِ كان عن ترك الحجِّ جملةً مع عدمِ الإيمانِ.

وفي ذكر الله تعالى غناه عن جميع العالمين في هذا الموضع إشارة إلى أنَّ أمرَ الله عبادَه بالحجِّ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ ليس لحاجة به - جلَّ وعلا - بل لأنَّ منفعة الحجِّ الدُّنيويَّة والأخرويَّة، للحاجِّ نفسه، واستغناء الله تعالى عن الخلق كامل شامل لجميع الوجوه، وليس هو مفتقرًا لحجِّ أحد ولا عبادته(3).

دلالة وضع الظَّاهر موضع الضَّمير في: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

التَّنبيهُ بالأعمِّ على الأخصِّ في سياقِ الذَّمِّ أشدُّ في الذَّمِّ

في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جاءَ الاسمُ الظَّاهر موضعَ الضَّميرِ، فلم يقل تعالى: (غنيٌّ عنه)؛ للدّلالةِ على العموم؛ فذكرُ استغنائه تعالى عن جميعِ العالمين أدلُّ في السُّخط على تارك الحجِّ من ذكر استغنائه عنه وحدَه، حتَّى إنَّه أسقط ذكر تارك الحجِّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/24.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 2/230، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/24.

(3) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/745.

تمامًا، إسقاطًا له من درجة الاعتبار، واستهجانًا لذكره، وفي هذا دليل على شدَّة غضبه تعالى على تارك الحجِّ[1].

تقديرُ جوابِ الشَّرطِ لقولِه تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾:

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لما كان يُفهم منه بطريق الكناية سخط الله تعالى على من كفر؛ صحَّ أن يقع جوابًا للشَّرط، وقيل: الجملة دليل جواب الشَّرط، لا الجواب نفسه[2].

من المحسِّنات البديعيَّة في الآية:

الاحتـباك في إثبـات فـرض الحجِّ وذكر كُفر من جحده

في الآية احتباك[3]؛ فلمَّا أثبَتَ فرض الحجِّ في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ دلَّ على كُفر مَن أنكره، وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ دلَّ على إيمان من حجَّ، فحُذِف من الجملة الأولى ما أُثبت نظيره في الثَّانية، ومن الثَّانية ما أُثبت نظيره في الأُولى[4].

---

(1) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/390، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/480، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/62.

(2) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/229.

(3) وهو أن تُذكر جملتان متقابلتان، ويُحذف في الأولى منهما ما ثبت نظيره في الثَّانية، وفي الثَّانية ما ثبت نظيره في الأولى، يُنظر: السِّيوطي، شرح عقود الجمان، ص: 133

(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/10.

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ٩٨﴾ [آل عمران: 98]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد إقامة الحجّة على اليهود، جاء السّؤال عن دواعي الكفر بعد ذلك

بعد أن أقام اللّه تعالى الحُجَّة على اليهود في الآيات السَّابقة في أمر نبوَّة النَّبيِّ ﷺ، وأبطل شُبَهَهم واحدةً تلو الأخرى، عقلًا وسمعًا؛ أمَرَ نبيَّه ﷺ أن يسألهم سؤالًا إنكاريًّا توبيخيًّا، عن إصرارهم على الكفر بآيات اللّه، مع أنَّه شهيد عليهم، عليم بهم، فقال لهم: "يا أهل الكتاب لا وجه لكفركم، فلأيّ سبب تكفرون بدلائل اللّه الدّالّة على نبوّة محمّد وصدقه، واللّه مطّلع على أعمالكم ومجازيكم عليها."[(1)].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿شَهِيدٌ﴾: الشّهيد من أسماء اللّه ﷻ، فهو الأمين في شهادته، وقيل هو الّذي لا يغيب عنه شيء[(2)]، وفي القرآن: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ [الأنعام: 19]، ومعناه: " واللّهُ شهيدٌ بيني وبينكم في كلّ اختلاف بيننا وبينكم، في التّوحيد، وإثبات الرّسالة، والبعث، وكلّ شيء"[(3)]، "وأمّا الشّهيد، فقال ابن قتيبة: هو بمعنى الشّاهد، وقال الخطابيّ: هو الّذي لا يغيب عنه شيء، كأنّه الحاضر الشّاهد"[(4)]، وفى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّـهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾: "تهديد لهم، ووعيد بسوء المصير، جزاء أعمالهم المنكرة، وكفرهم العناديّ.. وذلك كلّه واقع فى علم اللّه، الّذي لا تخفى عليه خافية"[(5)].

---

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم: 5/10.
(2) الأزهري، الزّاهر في غريب ألفاظ الشافعيّ، ص: 92.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 4/40.
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/309.
(5) الخطيب، التّفسير القرآنّي: 2/537.

2) ﴿مَا تَعۡمَلُونَ﴾: قال ابن عبّاس: يريد أنّه حاضر لأعمالكم، ومعنى الآية: أن اللّه تعالى وبّخهم على كفرهم، وأخبر أنّه لا ينفعهم الاستمرار به، لأنّه شهيد على أعمالهم[1]، والمعنى: لم تكفرون بآيات اللّهِ الّتي دلّتكم على صدق محمّد ﷺ والحال أنّ اللّه شهيد على أعمالكم فمجازيكم عليها، وهذه الحال توجب أن لا تجسروا على الكفر بآياته"[2]، وعبارة: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾، جملة حاليّة فيها تهديد ووعيد[3].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

توبيخ اليهود على كفرهم بالبيّنات الواضحة، وإحاطة علم اللّه بالأسرار المخبّأة

قل لهم أيُّها النَّبيُّ: يا أهل الكتاب لِمَ تجحدون - بما في كتابكم وغيره - من البراهين الواضحة على صدق النَّبيِّ ﷺ، مع أنَّ اللّه تعالى مطَّلِع على أعمالكم، ومحيطٌ بها علمًا؟ "فلم تعاندون الحقّ وتكفرون بآيات اللّه السّمعيّة والعقليّة الدّالة على صدقي فيما أبلّغه عن ربّي، والحال أنّ اللّه مطّلع عليكم، وعالم علم المعاين المشاهد لأعمالكم الظّاهرة والخفيّة، وسيجازيكم عليها بما تستحقّونه من عقاب أليم"[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الفرق بين: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾ و﴿قُلۡ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾:

الخطابُ الإلهيُّ المباشرُ يدلُّ على ترجيح كفَّةِ اللِّين

أمر اللّه تعالى نبيَّه ﷺ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾ بخطاب أهل الكتاب، وقد خاطبهم اللّه تعالى في مواضع أخرى مباشرة دون أمرِ النبيِّ ﷺ بقولِه: ﴿قُلۡ﴾، كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠﴾ [آل عمران: 70]، وفي

(1) الواحديّ، الوسيط: 1/471.
(2) الزمّخشريّ، الكشّاف: 1/392.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/279.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/194.

مجيء الخطاب بـ ﴿قُلۡ﴾ - كما في هذه الآية، والَّتي تليها - دلالة على إعراضه ﷻ عن المخاطَبين، وإشارة إلى كونهم غير مستأهلين خطابَهُ تعالى، وهو المناسب في هذا الموضع؛ لأنَّه تعالى بعد أن أتمَّ البراهين على نبوَّة النَّبيِّ ﷺ وأحكم الدَّلائل على صدق دعوته، لم يبادر المخاطَبون بهذه الدَّلائل والبيِّنات من أهل الكتاب إلى الإذعان لدين الإسلام، بل زادوا في طغيانهم، وحاولوا إيقاع الفتنة بين المسلمين، فاستحقُّوا ألَّا يُقبِل اللّه تعالى عليهم بلذيذ خطابه دون واسطة[1]، لاسيَّما بعد خطابِهم المباشر، فهذا التَّدرُّجُ في الخطابِ يدلُّ على أنَّ للين وقتًا، وللإعراضِ وقتًا آخر.

دلالة (يا) التَّنبيه مع الخطاب بالواسطة:

إضافةُ معنى البُعدِ فوق بُعدِ الخطاب بالواسطة

في إثبات (يا) التَّنبيه في قولِه: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ مع تقدُّم ﴿قُلۡ﴾ إشارة إلى بُعدِ المخاطبين من أهل الكتاب عن الحضرة الإلهيَّة، وذلك لكون (يا) النِّداء تُستعمل في نداء البعيد، فكان في إثباتها بعدٌ فوق البعد المستفاد من الخطاب بالواسطة في ﴿قُلۡ﴾[2].

دلالة تخصيص أهلِ الكتاب بالخطابِ:

كُفر العالم بصحَّة الإسلام أقوى من كُفر غيره

في تخصيص اللّه تعالى أهل الكتاب - في هذه الآية والَّتي تليها - بالخطاب دليل على أنَّ كفرهم أقبح من كفر غيرهم ممَّن لم يبلُغه وصفُ النَّبيِّ ﷺ ولم يطَّلع على صدق نبوَّته ﷺ ففي خطاب اللّه تعالى لهم بأهليَّة الكتاب المقتضية للإيمان به، وبما يصدِّقه تقبيح لحالهم من التكذيب به وبنبيِّه ﷺ[3]، فوصفُهم بأهلِ الكتابِ حجَّةٌ عليهم، فلمّا أعرضوا عن مقتضاها زادهم تقبيحًا وتشنيعًا.

وفي خطاب اليهود والنَّصارى المعاندين للنَّبيِّ ﷺ بـ (أهل

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/280.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/10.
(3) البيضاويُّ، أنوار التنزيل: 2/30، والآلوسيُّ، روح المعاني: 2/231.

الكتاب) تنزُّل معهم، ومشيٌ على مصطلَحهم في التَّسمية، فكأنَّه قيل لهم: أيُّها المدَّعون للعلم واتِّباع الوحي؛ لأنَّ أهل الكتاب حقًّا هم المؤمنون بالله تعالى وبجميع أنبيائه وكُتبه[1].

خطابُ أهلِ الكتابِ بهذا الاسمِ بِعَدِّهِ الغالِبَ عليهم

وقد يكون إثبات أهليَّة الكتاب لليهود والنَّصارى المعانِدين لدين الإسلام من باب التهكُّم عليهم وذمِّهم على كفرهم بالنَّبيِّ ﷺ وهذا كما لو قيل لمنتسبٍ إلى الدِّين مُفسدٍ في الأرض: يا صاحب الدِّين، لِمَ تفعلُ هذا[2]؟

إضافةُ الكتابِ لِمَنْ لا يعملُ به يدلُّ على التَّهكُّم

دلالة تعميم خطاب أهل الكتاب في الآية:

وفي تعميم الخطاب في الآية ومناداة جميع أهل الكتاب واستنكار كفرهم بآيات الله - وإن كان بعضهم قد دخل في دين الإسلام ككعب الأحبار وغيره - مبالَغة في زجرهم وتوبيخهم على عدم إيمانهم بالنَّبيِّ ﷺ فكأنَّه لمَّا كان دخول بعضهم إلى الإسلام - وقت نزول الآية - نادرًا لم يُعتدَّ بهذا النَّادر، وأُجرِي الخطاب على الجميع[3].

تعميم الخطاب مبالَغةٌ في الزَّجْر وزيادة في التَّوبيخ

غرضُ الاستفهامِ في قوله: ﴿لِمَ تَكۡفُرُونَ﴾ للإنكار التَّوبيخيِّ:

الاستفهام في قولِه تعالى في خطابه لأهل الكتاب: ﴿لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ليس على بابه، إنَّما هو للإنكار على كُفر المخاطَبين بآيات الله ومعجزاته الظَّاهرة، ومعناه: لا ينبغي أن تكفروا بآيات الله تعالى[4].

وفي الاستفهام معنًى آخر وهو التَّعجيز؛ إذ لا يمكن تقديم سبب كفر المرء بالله تعالى وآياته، وخاصَّة إذا كان يعرف الحقَّ كحال المخاطَبين بهذه الآيات، فكأنَّ المعنى: هاتوا العذر عن كفركم؛ إن كنتم تقدرون على ذلك[5].

معنى التَّعجيز وإقامةِ الحجة حاضرٌ في الاستفهام

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/480.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/280.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/64.
(4) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/747.
(5) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/231.

دلالة ختم الآية بذكر شهادة الله على الأعمال:

مـــجــاهــرةُ أهــل الـكـتـاب بــكــفــرهــم؛ يناسبُها شهادةُ الله عليهم

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾ لَمَّا كان كفر أهل الكتاب ظاهرًا؛ كان ذكره تعالى للشَّهادة على ما يعملونه هو الأنسب في هذا الموضع، وفي هذا وعيد وتهديد لهم؛ إذ شهوده تعالى على أعمال العباد يوجب عليهم ألَّا يجسُروا على الكفر به، فإنَّهم إن فعلوا؛ تعرَّضوا لغضب اللّه وعذابه[1].

دلالة استعمالِ لفظِ الجلالةِ بدلًا من ضمير التَّكلُّم في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾:

إيقاعُ المهابة في نفوس المخاطَبين وتهويلُ الخطب

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾ استعمل فيه الاسم العظيم ظاهرًا وغيبةً، فلم يُعدل عنه إلى ضمير التَّكلُّم، فلم يقل تعالى: (وأنا شهيد)، ذلك أنَّ استعمالَ الاسمِ العظيمِ فيه إفادةٌ لتهويلِ خطب الكفر به، وإيقاع المهابة في قلوب الكافرين من التعرُّض لغضب اللّه تعالى الكامل في ألوهيَّته ووحدانيَّته[2]، مع ما فيه من العدول عن التَّكلُّمِ إلى الغيبةِ التي تُرشِّح معنى إيقاعِ المهابةِ.

دلالة صيغة المبالغة في ﴿شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾:

الإخبارُ بشهادةِ الله على أعمالِ الـكـفـرة وعـيـدٌ وتهديدٌ

وفي مجيء صفة الشهادة على صيغة المبالغة في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾ إشارة إلى علمه تعالى الشَّامل الكامل لجميع أفعال أهل الكتاب ومعاندتهم لنبيِّه ﷺ والمبالَغة هنا بحسب ما تتعلَّق به الشَّهادة، لا الشَّهادة نفسها؛ لأنَّ صفات اللّه تعالى لا تتفاوت من حيث هي زيادة أو نقص[3]، وفي الإخبارِ بشهادته تعالى على أعمالِهم دليلٌ على التَّهديدِ والوعيدِ.

---

(1) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/392، والرّازي، مفاتيح الغيب: 8/308.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/63.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/63.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

[آل عمران: 99]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

أمرٌ بتوبيخهم على الإضلال، إثرَ توبيخهم على الضّلال

لَمَّا أنكر اللّه تعالى على اليهود في الآية السَّابقة كفرَهم وضلالهم في أنفسهم، وقد سعوا في إضلال المؤمنين؛ أنكر اللّه تعالى عليهم ذلك في هذه الآية؛ لجمعهم بذلك بين الضَّلال والإضلال، والكُفر والتَّكفير(1)، وقال لهم: كيف سوّلت لكم أنفسكم محاولة صرف مَن آمن باللّه ورسوله، عن سبيل اللّه القويمة، وتصويرها معوجّة، افتراء على اللّه العظيم، ودينه المستقيم، وأنتم تعلمون أنّها حقّ صراح لا ريب فيه، ولا ريب أنّ ضلالكم وتضليلكم، لا يخفى على اللّه، وما هو بغافل عنه،، وسوف يجازيكم بعدله ما تستحقّونه من جزاء(2).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَصُدُّونَ﴾: مضارع صدَّ فلانٌ غيره؛ إذا صرَفَه، ومنعه، وصدَّ يجيء متعدِّيًا: كما في الآية، ويكون معناه: صرف الآخر ومنعُه، ويجيء لازمًا: كما في قوله تعالى: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النّساء: 61] ويكون معناه: الانصراف والامتناع عن الشَّيء(3)، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الزّخرف: 57]، "أي يضجّون ويعلون أصواتهم، سرورًا بأنّهم ظفروا على زعمهم بتناقض، فيعرضون به عن إجابة دعائك، يقال: صدّ عنه صدوداً:

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/279، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/11.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم: 5/11.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/279.

أعرض، وصدّ يصُدّ ويصِدّ: ضجّ، قاله في القاموس، فلذلك قال ابن الجوزيّ: معناهما جميعا، أي قراءة ضمّ الصّاد وقراءة كسرها، يضجّون، ويجوز أن يكون معنى المضمومة: يعرضون، قال ابن برجان: والكسر أعلى القراءتين"[1].

2) ﴿تَبۡغُونَهَا﴾: مضارع بغيتُ الشّيءَ؛ إذا طلبتُه، ويقال: ابغِني كذا، أي: اطلبْه لي، فالمعنى: تطلبون لها العِوَج، وقيل: إنَّ (بغيت) هو طلب التَّجاوز في الشّيء، وهو على ضَربين: محمود: وهو تجاوز العدل إلى الإحسان، والفرض إلى النَّافلة، ومذموم: وهو تجاوز الحقِّ إلى الباطل، وهو المقصود في الآية؛ ولذا قُيِّد في قوله تعالى: ﴿وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [الشّورى: 42][2] قوله: ﴿تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾، يعني: تبغون لها عوجًا، والهاء والألف اللّتان في قوله: ﴿تَبۡغُونَهَا﴾، عائدتان على(السّبيل)، وأنّثها لتأنيث (السّبيل)، ومعنى قوله: (تبغون لها عوجًا)، من قول الشّاعر، وهو سحيم عبد بني الحسحاس:

بَغَاكَ، وَمَا تَبْغِيهِ حَتَّى وَجَدْتَهُ ***كَأَنَّكَ قَدْ وَاعَدْتَهُ أَمْسِ مَوْعِدَا

يعني: طلبك وما تطلبه، يقال: (اِبْغِنِي كَذَا)، يراد: ابتغه لي، فإذا أرادوا أعِنّي على طلبه وابتغه معي، قالوا: (أَبْغِنِي) بفتح الألف[3].

3) ﴿عِوَجٗا﴾: العِوج والعَوج: هو ميل الشّيء، وهو يكون بكسر العين؛ إذا كان معنويًّا، كالميل في الآراء والأدلَّةِ ونحوها، ومنه قوله تعالى: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ﴾ [الزّمر: 28]، وبفتحها؛ إذا كان حسّيًّا، كميل الجدار والعصا، إلّا الأرض، فإنّه يقال: فيها عِوج: بكسر العين، ومنه قوله تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ١٠٧﴾ [طه: 107]، وقيل: العِوج - بالكسر- يكون في الدّين وما يكثُر فيه العِوج كالأرض، وبالفتح في غيرهما[4]، والمعنى في قوله: ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ [الأعراف: 45]: "أي الّذين كانوا في الدّنيا يمنعون النّاس عن اتّباع دين اللّه، ويبغون أن تكون السّبيل معوجّة غير مستقيمة، حتّى لا يتبعها أحد".

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر، 17/455.
(2) الرَّاغب، المفردات: (بغى).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 6/53.
(4) الأزهريُّ، تهذيب اللّغة: (عوج)، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/481.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

سؤال استنكاريٌّ عن الصّدود والاعوجاج، مع شهود الصّدق، ورقابة الحقّ

قل لهم أيُّها النَّبيُّ: يا أهل الكتاب لمَ تصرِفون النّاس عن سبيل اللّه تعالى، وهو سبيل النّور والحقّ، وهو الصّراط المستقيم الّذي يوصل إلى رضاه سبحانه، ويحقّق ما جاء به نبيُّه ﷺ، تريدون بذلك أن تكون سبيل اللّه معوجَّة، ملتوية غير واضحة ولا بيّنة، في أعين المهتدين، وأنتم شهداء على أنَّ هذا الدِّين هو الحقُّ، وقد قابلتم ذلك بالجحود عن علم، والإيغال في الكفرعن إصرار، والصّدّ عن سبيل اللّه عن مكر وخداع، وليس اللّه بغافل عن عملكم هذا، من الكفر بالإسلام، والسّعي إلى تكفير النَّاس به، وسيجازيكم عليه جزاء وفاقًا..

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سبب الفصل بين الخطابَين:

الفصل يدلُّ على استقلال المفصول بالقصد

لم يُعطف قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ﴾ على الخطاب السَّابق - مع ما بينهما من الاتِّصال -؛ للدّلالة على استقلال كلِّ خطاب بالقصد، وأنَّ كِلا الأمرين الواقعَين في حيِّزهما مستحقٌّ - على انفراده واستقلاله - لاستتباع اللَّوم والتَّقْريع[1].

دلالة تكرير الخطاب في سياقٍ واحدٍ:

تقريعُ المخاطَبين مرَّةً على الكُفر ومرَّةً على الصَّدِّ عن سبيلِ الله

كرَّر اللّه تعالى خطاب أهل الكتاب بواسطة نبيِّه ﷺ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ﴾، فوائد عدَّة:

أوَّلًا: الاستنكارُ عليهم في صدِّهم عن سبيله تعالى، وفي تكرار الخطاب والاستفهام مبالغةٌ في تقريعهم، ونفي العذر عنهم[2].

ثانيًا: الدّلالة على استقلال كلٍّ من الكفر بآيات اللّه تعالى والصَّدِّ عن سبيله باللَّوم والتَّوبيخ عليه، وحريٌّ باستجلاب عذاب

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/25.
(2) البيضاويُّ، أنوار التنزيل: 2/30.

اللّه وعقابه؛ إذ لو قيل: لمَ تكفرون بآيات اللّه، وتصدُّون عن سبيل اللّه لربَّما تُوهِّمَ أنَّ التَّوبيخ على مجموع الأمرين، لا على كلٍّ واحد منهما[1].

ثالثًا: الخطاب بأهلِ الكتاب إشارةٌ إلى أنَّ عمل المخاطَبين هو غاية في القبح؛ إذ إنَّ هذا العنوان كما يقتضي الإيمان بما هو مصدِّق له يستدعي التَّرغيب في اتِّباعه والدَّعوة إليه، فصدُّهم عنه وعن سبيله هو غايةٌ في القبح والظُّلم[2].

تكرار الخطاب أدعى إلى صدِّ المخاطَبين عن ضلالهم

وقيل: إنَّ تكرار الخطاب بعنوان أهليَّة الكتاب فيه تلطُّفٌ في صرف المخاطَبين من أهل الكتاب عمَّا هم عليه من الضَّلال والإضلال؛ لما فيه من التذكير بما ينبغي أن يكونوا عليه من الإيمان باللّه تعالى وجميع رسله وكتبه[3].

استعارةُ السَّبيلِ للأدلَّةِ الموصلة إلى دين الإسلام:

أهلُ الكتاب هم قُطَّاعُ الطَّريق الموصلةِ إلى الإسلامِ

في قوله تعالى: استفهام إنكاريٌّ توبيخيٌّ ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، واستعارة مكنيَّة: حيث شُبِّهت الأدلَّة الموصلة إلى دين الإسلام بالمجاز المستعمَل حقيقة في الطَّريق، وحُذف المشبَّه وأقيم المشبَّه به مكانَه، وفي هذه الاستعارة تنبيه على أنَّ بعض النَّاس قد يقف عقبة في طريق طلب الهداية، فيقوم مقام قاطع الطَّريق بما يورده عليه في طريق هدايته من قواطعِ الشَّهوات والشُّبُهات[4].

دلالة تقديم المتعلّق في قوله: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ﴾:

غرضُ التَّقديم تسليطُ استنكارِ الصَّدِّ عن سبيل الله

في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ﴾ قُدِّمَ المتعلِّقُ - وهو ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ - على المفعول به، وهو ﴿مَنۡ ءَامَنَ﴾، ومقتضى الظَّاهر: لمَ تصدُّون من آمن عن سبيل اللّه، وتقديم المتعلِّق

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/232.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/63.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/308.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/26.

هنا يدلُّ على الاهتمام به، والإشارة إلى أهميَّته في الخطاب[1]، إذ المُستنكَرُ هو صَدُّهُم عن سبيلِ اللّه تعالى، فغرضُ التَّقديم تسليطُ الإنكار على صدِّهم عن سبيلِ اللّه تعالى.

توبيخ المخاطَبين لصدِّهم عن سبيلٍ هي لله

دلالة إقامة الظَّاهر مُقام المضمَر في قولِه: ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

وفي قوله تعالى: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إقامة للاسم الظَّاهر - وهو ﴿ٱللَّهِ﴾ - مقام الضَّمير، ولو قيل في غير القرآن: عن سبيلي؛ لصحَّ ذلك، وفي إيراد الاسم العظيم في هذا الموضع إنكار على المخاطَبين من أهل الكتاب وتقريع شديد لهم؛ إذ الأحرى بهم بدلًا من الصَّدِّ عن سبيل اللّه تعالى - المختصِّ بجميع صفات الكمال والجلال - أن يتَّبعوا هذه السَّبيل، ويرغِّبوا النَّاس فيها[2].

بلاغة الاستخدام في ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ و﴿تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾:

سبيل الله مستقيمة، وسُبل الكافرين مُعْوَجَّةٌ

وفي قوله تعالى: ﴿تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ نوع من المحسِّنات البديعيَّة المعنويَّة، وهو الاستخدام[3]: حيثُ سبق ذكر السَّبيل في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مرادًا بها السَّبيل المستقيمة، ثمَّ أُعيد الضَّمير في: ﴿تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ على السَّبيل التي يريدها الصَّادُّون عن سبيل اللّه من أهل الكتاب، وهي ما هم عليه من الدِّين بعد نسخه وتحريفه[4].

دلالة الجملة الحاليَّة: ﴿وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ﴾:

المقابلة بين الشهادتين في الآيتين شهادةِ الله، وشهادةِ أهل الكتاب

جاءَ قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ﴾ جملةً حاليَّةً مقابلةً للجملة الحاليَّة في الآية المتقدِّمة من قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾، وفي هذا نوع من المحسِّن البديعيِّ المعنويِّ، حيث قُوبل بين

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/11.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/11.
(3) ويُقصد به: إطلاق لفظ مشترك بين معنيين مرادًا به أحدهما، ثم إعادة الضمير عليه مرادًا به المعنى الآخر، يُنظر: السِّيوطيُّ، شرح عقود الجمان، ص: 116.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/27.

الحالين، وشهادة اللّه ﷻ ليست كشهادتهم إلا من حيث الاسم، وإلا فهو تعالى الشهيد المحيط بكلِّ شيء علمًا، ومثلهما في المقابَلة قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ [البقرة: 14 - 15][1].

بلاغة ختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾:

في ختام الآية تذييلٌ متضمِّنٌ التَّهديدَ والوعيد

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ ختم اللّه تعالى به هذه الآية مع أنَّه قد تقدَّم في الآية السَّابقة قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾؛ توكيدًا لإحاطته بجميع ما يعمله الصادُّون عن سبيله تعالى، ولما كان صدُّهم عن سبيل اللّه بطريق الخُفية والمكر هدَّدهم سبحانه بإحاطة علمه بكلِّ شيء، وعدم غفلته عمَّا يعملون سرًّا أو جهرًا، وهو في التَّهديد والوعيد كقول السيِّد لعبدِه، وقد أنكر عليه: لا يخفى عليَّ ما أنت عليه، ولست غافلاً عن أمرك[2].

نـفـيُ الـغـفـلـةِ احـــتـراسٌ لأنَّ الـشَّـاهـد على الشَّيء قد يغفل عنه

وفي نفي الغفلة عن اللّه تعالى تنزيه له جلَّ وعلا عن الغفلة عن عظيم الأمور ودقيقها؛ لأنَّ سواه تعالى من الشُّهداء قد تقع منه الغفلة، فنزَّه تعالى نفسه عنها - لَمَّا كانت حال هؤلاء الصَّادِّين عن سبيله حال من يعتقد ذلك - ونبَّه على اطِّلاعه على خفيِّ مكرهم في الصَّدِّ عن سبيله تعالى[3].

❁ الفُرُوقُ المُعجَمِيَّةُ:

العِوَج والعَوج:

العِـوج بالكسر ميل مـعـنـويٌّ، وبـالـفـتـح ميل حسِّيٌّ

العِوَج في قوله تعالى: ﴿تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ هو بكسر العين، ولا يصحُّ فتحها لغة؛ إذ العِوَج بالكسر خاصٌّ بالأمور المعنويَّة كالدِّين والكلام والعمل، فهو كناية عن عدم الاستقامة فيها، والحيدِ بها عن الطَّريق القويم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/27.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/308، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/64.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/13، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/27.

أمَّا العَوج بفتح العين؛ فهو خاصٌّ بالأمور الحسِّيَّة كالحائط والجذع ونحوهما ممَّا يُدرك ميله بالحسِّ، ولا يُحتاج فيه إلى التأمُّل، وقوله تعالى في وصف الأرض يوم القيامة: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾ [طه: 107] هو استثناء من هذه القاعدة، فلا يُقاس عليه[1].

(1) الزَّجَّاج، معاني القرآن: 2/354، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/260.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [آل عمران: 100]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربط التّوبيخ على الضّلال، بالتّحذيرمن طاعة أهل الزّيغ والإضلال

بعد أن خاطب اللّه تعالى أهل الكتاب في الآيتين السَّابقتين، موبِّخًا إيَّاهم على ضلالهم بعد إقامة الحجَّة عليهم، وسعيهم في إضلال غيرهم؛ وجَّه اللّه تعالى في هذه الآية الخطاب إلى المؤمنين، محذِّرًا إيَّاهم من طاعة أهل الكتاب والافتتان بهم، وأنَّ مآل ذلك هو عودتهم في الكفر بعد إذ نجَّاهم اللّه منه[1]، "والكفر يوجب الهلاك في الدّنيا، بوقوع العداوة والبغضاء، وهيجان الفتنة والحرب وسفك الدّماء، وفي الآخرة النّار، وبئس القرار"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَرِيقًا﴾: يعني طائفة مِنْكُمْ، وقيل: "يعني بالفريق الصّنف، الّذين كفروا، أي إن قلّدتموهم ردّوكم كافرين"[3]، والفرقة الجماعة المتفرّدة من النّاس، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: 122]، والفريق الجماعة المتفرّدة عن آخرين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [آل عمران: 78]، وفرّقت بين الشّيئين فصلت بينهما، سواء كان ذلك بفصل يدركه البصر، أو بفصل تدركه البصيرة، قال تعالى: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [المائدة: 25]، وقال: ﴿فَٱلْفَـٰرِقَـٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾﴾ [المرسلات: 04][4].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/64.
(2) القِنَّوجي، فتحُ البيان: 2/299.
(3) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/448.
(4) الزّين، تفسير ألفاظ القرآن الكريم: (فرق).

2) ﴿يَرُدُّوكُم﴾: من الرّدّ، وهو صرف الشّيء بذاته، أو بحالة من أحواله، يقال رددته فارتدّ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ﴾ [يوسف: 96]، ومن الرّدّ بالذّات، قوله: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام: 28]، وقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الإسراء: 6]، ومن الرّدّة إلى حالة كان عليها، قوله: ﴿إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ١٤٩﴾ [آل عمران: 149]، وقوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: 109]، أي يرجعونكم إلى حال الكفر، بعد أن فارقتموه، وعلى ذلك قوله تعالى من هذه الآية: ﴿يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ﴾[1].

المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

اتّباع أقاويل أهل الكتاب البَيِّنَةِ البُطْلان، تفضي إلى الرّدّة والزّيغ والهوان

يحذِّر اللّه تعالى المؤمنين في هذه الآية، مصدِّرًا ذلك بالنِّداء، أنْ: يا أيُّها المؤمنون؛ إن تطيعوا طائفة من أهل الكتاب - ممَّن يحسدونكم على ما أنتم فيه من الهدى - فيما يأمرونكم به، ويقولونه لكم؛ يؤُلْ بكم ذلك إلى الكفر بعد أن نجَّاكم اللّه منه، وهداكم للإيمان." فلا تأتمنوهم على دينكم، ولا تنتصحوهم على أنفسكم، فإنّهم الأعداءُ الحسَدَة الضُّلّال، كيف تأتمنون قومًا كفروا بكتابهم، وقتلوا رُسلهم، وتحيَّروا في دينهم، وعجزوا عَنْ أنفسهم؟ أولئك واللّه هم أهل التُّهَمة والعداوة!"[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ خطابِ المؤمنين بغير واسطة في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

لم يصدَّر النِّداء بـ: (قل) في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ

(1) الزّين، تفسير ألفاظ القرآن الكريم: (ردّ).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 6/60.

يتحقَّقُ التَّمايُزُ بين المُخاطَبين في اختلافِ صيغِ خطابِهم

﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا﴾ كما في الآيتين السَّابقتين في مخاطبة أهل الكتاب، وفي هذا إظهار لجلالة قدر المؤمنين عند الله تعالى وإشعار بأنَّهم الأحقَّاء بمخاطبة الله، وتكليمه لهم دون واسطة (قل)؛ وإن كان البلاغ في الحالين هو على لسان النَّبيِّ ﷺ[1].

بلاغة استعمال ﴿إِن﴾ دون (إذا) في قولِه: ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا﴾:

المؤمنُ يُستبعدُ عنه طاعةُ أهلِ الكتابِ

جاء النَّهي عن طاعة فريق من الذين أوتوا الكتاب في قولِه تعالى: ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا﴾ بصيغة الشَّرط بأداة ﴿إِن﴾ دون (إذا)، وفي استعمال هذه الصِّيغة بهذه الأداةِ دلالةٌ على أنَّ هذه الطَّاعة لم تقع بعدُ، وأنَّها ممَّا يُستبعَد وقوع مثله من الَّذين آمنوا[2].

فائدةُ تخصيص التَّحذيرِ من طاعةِ فريقٍ من أهل الكتابِ:

التَّنبيه على خطورةِ طاعةِ الكثيرِ بالقليلِ

في قوله تعالى: ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ خصَّ الله تعالى التَّحذير من طاعة أهل الكتاب بفريق منهم، وفي اقتصار التَّحذيرِ من طاعةِ فريقٍ مبالغةٌ في التَّحذير من طاعة أهل الكتاب، وأمرٌ باجتنابِ مصاحبتهم بالكليَّة؛ كأنَّه قيل: لا تُطيعوا الذين أوتوا الكتاب، ولو فريقًا منهم[3]، أو يكون التَّحذيرُ من طاعةِ القليل للتَّنبيه على خطورةِ طاعة الكثيرِ.

الإشـــارةُ إلى خطورةِ الافتراقِ في الدِّين

وفي استعمال لفظ فريق إشارةٌ إلى التَّحذير من التفرُّق في الدِّين إلى شيع وأحزاب متناحرة، وهو الحال الَّذي ينتهي إليه من اتَّبع فِرَق أهل الكتاب فيما يَدْعُونَ إليه، كما قال تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: 103][4].

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/31.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/281.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/64.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/13.

بلاغة حذف متعلّق الفعل: ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا﴾:

النَّهيُ عن طاعةِ أهلِ الكتابِ يعُمُّ أمورَ الدِّين كلَّها

في قوله تعالى: ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ لم يُذكر متعلّق الفعل ﴿تُطِيعُواْ﴾ فلم يخصِّص النَّهي عن طاعة هذا الفريق في أمر دون أمر من أمور الدِّين، بل أُطلق النَّهي عن طاعتهم، ولم يقيَّد بقيد، وفي هذا تعميم للنَّهي، ومبالغة في التَّحذير في هذه الطَّاعة في أيِّ أمر كان يتعلَّق بالدِّين والعقيدة[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ﴾:

تصويرُ قُبحِ حالِ المردودِ عن دينِه كافرًا

اُستُعيرَ لفظُ (الرَّدِّ) في قوله تعالى: ﴿يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ﴾ الَّذي هو بمعنى: الصَّرف والإرجاع؛ للتَّعبير عن تغيُّر الحال من الإيمان إلى الكفر، وفي هذه الاستعارة تشبيه بليغ لحال الرَّاجع مِن الإيمان إلى الكفر بحال المصروف والمردود عن الطَّريق المستقيم[2].

دلالة الظَّرفِ في قوله تعالى: ﴿بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾:

بيانُ حِرصِ أهلِ الكتابِ على غِوايةِ المؤمنين

قوله تعالى: ﴿يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ﴾ ﴿بَعۡدَ﴾ للظرفيَّة ولتوسيطِها بين المفعولَيْن في: ﴿بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ فائدةٌ معنويَّةٌ، وهي إظهارُ كمالِ شناعةِ الكُفْر، والإشارةُ إلى بُعد وقوعِه في قلوبِ المؤمنين الرَّاسخ إيمانُهم، ولو قيل: يردُّوكم كافرين؛ لكان الكلام تامًّا من جهة اللَّفظ؛ لاستحالة الرَّدِّ إلى الكفر دون إيمان سابق[3]، لكنَّ النَّظمَ القرآنيَّ جاءَ على أدقِّ بيانٍ، وفيه فائدةٌ أخرى وهي بيانُ حرصِ أهل الكتابِ على ردِّ المؤمنين بعد إيمانِهم كافرين.

الـرِّدَّةُ تفويتٌ للنِّعمة واستحقاقٌ للنِّقمة

وفي الظَّرفيَّة: ﴿بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ فائدة أخرى، وهي توضيح النِّعمة العظيمة الَّتي تفوت المخاطَبين؛ لو أطاعوا أهلَ الكتاب، حتى ردُّوهم إلى الكفر، وهي نعمة الإيمان باللّٰه تعالى وتصديق نبيِّه ﷺ[4].

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/233.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/28.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/64.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/28.

استغراقُ الزَّمن التَّالي للإيمان تقبيحٌ للكفر بعده

فائدةُ إسقاط الجارِّ في ﴿بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾:

وفي قوله تعالى: ﴿بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ أُسقط الجارُّ، فلم يَقُلۡ: من بعدِ إيمانكم، وفي هذا زيادة في تقبيح الحال المنهيِّ عنها من الارتداد إلى الكفر بعد الإيمان، وذلك باستغراق الزَّمن الَّذي بعد الإيمان كُلِّه، حتى كأنَّ العائد إلى الكفر بعد الإيمان غريقٌ في صفة الكفر، نسأل اللّه العافية[1].

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/13.

﴿وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٠١﴾

[آل عمران: 101]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا حذَّرَ اللّهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ عبادَه المؤمنينَ من أنْ يُطيعوا طائفةً من أهلِ الكتابِ، حتَّى لا يَرُدُّوهم إلى الكُفرِ بعدَ الإيمان؛ جاءَ بيانُ اللّهِ تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ ليبيِّن أنَّه لا يُمكنُ للمؤمنين أنْ يعُودوا للكُفْرِ، وَوَحْيُ اللّهِ بالقرآنِ يَنزِلُ على رسولِه ﷺ الَّذي هو فيهم يعلِّمُهم ويُربِّيهم، وأنَّ السَّبيل إلى الحفاظِ على الإيمانِ هو الاعتصامُ باللّهِ، فهو الهدايةُ الحقُّ إلى الصِّراطِ الحقِّ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَكۡفُرُونَ﴾: "الكُفْرُ: سَتْرُ الشَّيء، وَوُصِفَ اللَّيلُ بالكافرِ؛ لِسَتْرِه الأَشْخاص، والزُّرَّاعُ؛ لِسَتْرِهمُ البذْرَ في الأرض، وليس ذلكَ باسْمٍ لهما، وأَعْظمُ الكُفْرِ: جُحودُ الوحدانيَّةِ أوِ الشَّريعةِ أوِ النُّبوَّة"(1).

وهو المرادُ هنا في الآيةِ، فهو سَتْرُ الإيمانِ الَّذي هو فِطْرةُ اللّهِ الَّتي فَطَرَ النَّاسَ عليها، وتغطيتُه بالكُفْر.

2) ﴿يَعۡتَصِم﴾: "عَصَمَ: العَيْنُ والصَّادُ والميمُ: أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يَدُلُّ على إمْساكٍ ومَنْعٍ ومُلازَمة، والمعنَى في ذلكَ كُلِّه معنًى واحدٌ.

ومن ذلكَ العِصْمةُ: أنْ يَعْصِمَ اللّهُ تعالى عَبْدَه من سُوْءٍ يَقعُ فيه، واعْتصمَ العَبدُ باللّهِ تعالى: إذا امْتَنَع.

واسْتعصَمَ: الْتجأ، وتقولُ العربُ: أَعْصمتُ فُلانًا، أي: هَيَّأتُ له شيئًا يَعْتصِمُ بما نالَتْهُ يَدُه، أي: يَلتَجىءُ، ويتمسَّكُ به"(2).

(1) الرَّاغب، المفردات: (كفر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عصم).

وإيرادُ هذا الفعلِ في الآيةِ في موقعِ فعل الشَّرط يعني: أنَّ من يتمسَّكْ، ويلازِمْ دينَ اللّه، ويمتنعْ به عن غيرِه من الأديانِ والأباطيل البشريَّة؛ فقد هُدِيَ حقًّا إلى صراطِ اللّهِ المستقيم.

3) ﴿هُدِىَ﴾: هَدَيَ: الهاءُ والدَّالُ والحَرْف المُعتلّ، أصْلان: أحدُهما: التَّقدُّمُ للإرْشاد، والآخَرُ: بَعْثَةُ لطفٍ، والمرادُ به: الهَدِيَّةُ.

والَّذي يَعْنينا في هذا المقامِ الأصلُ الأوَّلُ، وهو قولُهم: هَدَيْتُه الطَّريق هِدايَةً، أي: تقدَّمتُه لأُرشِدَه، وكلُّ مُتقدِّمٍ لذلكَ هادٍ.

ويَتفرَّعُ من هذا المعنى: الهُدَى: وهو خِلافُ الضَّلالَة، تقولُ: هديتُه هدًى، وهو المعنَى المرادُ في سياقِ الآية الكريمة[1].

4) ﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: "صَرَطَ: الصَّادُ والرَّاءُ والطَّاءُ، وهو من بابِ الإبدالِ (سَرَطَ): وهو الطَّريق"[2].

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

يَستبعدُ بيانُ اللّه تعالى عن المؤمنينَ الكُفْر، وآياتُ اللّهِ تَنْزِلُ على رسولِه ﷺ ليلًا ونهارًا، وهو ﷺ لا يَأْلو جهدًا في تلاوتِها عليهم وإِبْلاغِهم إيَّاها وبَيانِها لهم، ومع هذا فالاعْتِصامُ باللّهِ والتَّوكُّلُ عليه، هو العُمدةُ في الهدايةِ إلى الطَّريقِ السَّديد الَّذي لا تيهَ فيه ولا اعْوِجاج[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

استحالةُ عَوْدِ الصَّحابةِ إلى الكفرِ بعدَ أن أنقذهم الله تعالى منه

الاسْتفهامُ، والجملةُ الحاليَّةُ، وأثرُهما في تَجليةِ المعنَى:

قولُه تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾: الواو هنا يمكن أن تكون عاطفة من عطف القصَّة على القصَّة؛ لأنَّ الآيات تتحدَّث عن أهل الكتاب وما يتعلَّق بهم من أحكام، وتحذِّر المؤمنين من مسايرتهم والتَّعامل

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هدي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صرط).
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/340.

معهم، ويمكن أن تكون استئنافيَّة؛ لأنَّها شرعت بأحكام جديدة، فضلًا عن احتمالها أن تكون واوًا حاليَّة على معنى: إن تطيعوهم؛ يردُّوكم كافرين، والحال أنَّه: كيف تفعلون ذلك، وأنتم تتلى عليكم آياته؟ والاستفهام إنكاريٌّ تعجُّبيٌّ مُستعمَلٌ في إنكارِ الوقوع أي: الاسْتبعادُ لِكيفيَّة كُفرِهم نَفْيًا له.

ويحملُ توجيهُ الإنكارِ والاسْتبعادِ مع الفعلِ ﴿تَكۡفُرُونَ﴾ إلى كيفيَّة الكُفْرِ من المبالغَةِ ما ليسَ في توجيهِه إلى نَفْسِه، بأنْ يُقال: أَتكفُرونَ؟ لأنَّ كلَّ موجودٍ لا بُدَّ أنْ يكونَ وجودُه على حالٍ من الأحْوال، فإذا أَنكرَ، ونَفَى جميعَ أحوالِ وجودِه؛ فقدِ انْتفَى وجودُه بالكُليَّةِ على الطَّريق البُرهانيِّ[1].

التّعبير بالمضارع لإحـضـار صـورة الكفر الشّنيعة

والتَّعبير بالفعليَّة في ﴿تَكۡفُرُونَ﴾ دلَّ على استحضار هذه الصُّورة البشعة من جهة، ودلَّ على التَّجدُّد الاستمراريِّ لحالة الكفر فيهم من جهة أُخرى.

تـلاوة الـقـرآن مانعةٌ من الكفر مُثبّتةٌ للإيمان

وقولُه تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ الواوُ هنا: حاليَّة، والجملةُ بعدَها وقعتْ حالًا من ضميرِ المُخاطَبين في ﴿تَكۡفُرُونَ﴾، مُؤكِّدةً للإنكارِ والاسْتبعاد؛ لأنَّ كُلًّا من تلاوةِ آياتِ الله وإقامةِ الرَّسولِ ﷺ فيهم وازِعٌ لهم عن الكُفْر، وأيُّ وازِعٍ، فالآيات الَّتي تُتْلَى هي القرآنُ وهداياتُه، وهذه التِّلاوةُ صيغتْ بالفعلِ المبنيِّ للمجهولِ ﴿تُتۡلَىٰ﴾؛ لأنَّ المرادَ فعلُ التِّلاوةِ وأثرُها على أصحابها، وليس مَنْ قامَ بها.

وجـــودُ رســول الله ﷺ في الأمّة أمانٌ لها

وجملةُ ﴿وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ﴾ الَّتي أعطتْ في الحرف (في) معنَى الظَّرفيَّة المكانيَّة الحقيقيَّة لإقامةِ رسولِ الله ﷺ بين أظْهُرِهم، وهي مَنْقبَةٌ عظيمةٌ، ومِنَّةٌ جَليلةٌ، ومع تلكَ الآياتِ وهذه الإقامةِ لشخصِ الرَّسولِ ﷺ بينَهم كيف يُتَصوَّرُ أن يَتسَلَّلَ الكفرُ إلى تلكَ القُلوبِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/524.

المؤمنة الطَّاهرةِ الزَّكيَّة الَّتي زكَّاها اللّه تعالى بقولِه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ [الفتح: 29].

ولذلكَ أتى بيانُ اللّهِ بالضَّمير المنْفصل ﴿وَأَنتُمۡ﴾ مخاطبًا الصَّحابة رضي الله عنهم لأنَّهم هُمُ المَعنِيُّون، وأكَّدهُ بقولِه: ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾، وفي الإعادةِ إفادَة، وخاصَّةً في هذا المقام، وهذه كُلُّها من الشُّؤونِ الدَّاعيةِ إلى الإيمان، الرَّادعةِ عن الكُفْر.

موقع جملة ﴿وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ﴾ وبلاغة القصر في التَّقديم:

الإيمانُ برسول الله والعيش في كنفه ومع سنّته أمانٌ وحصنٌ من التّردّي في هاوية الكفر

قولُه تعالى: ﴿وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ﴾ الواو: عاطفة، والجملة معطوفةٌ عليها داخلةٌ في حُكْمِها، وعَدَمُ إسْنادِ التِّلاوةِ إلى رسولِ اللّهِ ﷺ للإيْذانِ باسْتقلالِ كُلٍّ منهُما في الباب[1].

وتقديمُ ما حقُّه التَّأخيرُ في قولِه: ﴿وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ﴾ إفادةُ بلاغةِ القصْرِ الظَّرفيَّة، أي: فيكم وليس في غيركم.

وفي الآيةِ دَلالةٌ قويَّةٌ على مكانةِ الصَّحابةِ رضي الله عنهم وعِظَم قَدْرِهم، ذلك أنَّ بيانَ اللّهِ ذَكَرَ وازِعَيْن لهم يَمْنعانِهمْ عن مُواقعةِ الضَّلال، وهما: تلاوةُ القرآنِ وسماعُه، وصُحبتُهم لرسولِ اللّهِ ﷺ في المَنْشَطِ والمَكْرَه والسَّفَرِ والحَضَر وفي جميع الأحوال، ولَئنْ قضَى رسولُ اللّهِ ﷺ إلى جِوارِ ربِّهِ سُبحانه وتعالى، فإنَّ القرآنَ الَّذي أَنْزلَه اللّه عليه لم يَمْضِ، بل هو باقٍ بكلماتِه وآياتِه وهداياتِه وأحكامِه إلى قيامِ السَّاعة، وهذه دلائل قويَّةٌ لإسنادِ الآياتِ إلى لفظِ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ دون الضَّمير، وفيه كذلكَ من المهابة بمقامِ الألوهيَّة ما فيه.

أفادَ السِّياقُ ضرورةَ الاعْتصامِ بدينِ اللهِ تعالى، لتحقيقِ الاسْتقامةِ على طريقِ الهداية

الشَّرطُ، والتَّحقيقُ، والتَّنوينُ والاستعارة، وأثرُ ذلكَ في توضيحِ المعنَى:

جُملةُ: ﴿وَمَن يَعۡتَصِم﴾ الواو: إمَّا أن تكون عاطفة حكمًا جديدًا على ما تقدَّمها، وإمَّا أن تكون حاليَّة، أي: وكيف تكفرون باللّه،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/524.

والحال أنَّ من يعتصم به؛ فقد هُدي إلى صراط مستقيم؟ والجملة شرطيَّة: فعلها الاعتصام، وجوابها الهداية.

والاعْتصامُ: التَّمسُّك، أي: مَنْ يتمسَّكْ ويَلتزِمْ بدينِ اللهِ؛ فلا يَخْشَى الضَّلال، فالاعْتصامُ هنا اسْتعارةٌ للتَّمسُّك، حيث شبَّه التَّمسُّك بالاعتصام بجامع الملازمة وعدم المفارقة، وحذف المُشبَّه على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة، وفي هذا تحفيزٌ لجماعةِ المؤمنين إلى يومِ الدِّين أنْ يَلتزموا دينَ اللهِ الحقِّ.

وقولُه تعالى: ﴿فَقَدۡ هُدِيَ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط بمحذوف، أي: جزاؤه أو حكمه أنَّه قد هُدي إلى صراط مستقيم، و(فقد) تفيدُ التَّحقيق، فكأنَّ الهُدَى قد حَصَلَ، واسْتقرَّ في قلبِ صاحبِه بما أفادَه الفعلُ المبنيُّ للمجهول ﴿هُدِيَ﴾، وبناء الفعل للمجهول؛ لأنَّ الفاعل معروف، والدَّعوة هنا للانشغال بالفعل عن الفاعل.

وقولُه تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ مُوِّح بالطَّريقِ الصَّحيحِ الَّذي لا يَنحرِفُ بمَنْ سلَكَهُ، وجاءَ تنكيرُ ﴿صِرَٰطٖ﴾ وتنوينُه؛ لِتفخيمِ شأنِه واسْتغراقِه لكلِّ صراطٍ وُصِفَ بهذا الوصف، وَوَصْفُه بالاسْتقامةِ للتَّصريح بالرَّدِّ على الَّذين يَبْغونَ له عِوَجًا[1].

وفي هذا الوصفِ ترغيبٌ وشَحْذٌ لِلْهِمَم على ضرورةِ الاسْتقامةِ والسَّيْرِ قُدُمًا في طريقِ الحقِّ، وعَدَمِ التَّعْويلِ على المثبِّطاتِ والمُحبِطات، وسواءٌ أكانتْ من داخلِ النَّفْسِ البشريَّة أَمْ من خارجِها من شياطينِ الإنسِ والجِنِّ.

بلاغة الاستعارة في ذكر الصِّراط المستقيم:

في التَّعبير عن الهداية للإيمان أو الإسلام بالصِّراط المستقيم استعارة تصريحيَّة، حيث حذف المُشبَّه: وهو الإسلام أو الإيمان، وذكر المشبَّه به: بجامع الإيصال إلى الحقِّ، وفي وصف هذا الحقِّ بالاستقامة استعارة أخرى بجامع انتفاء العوج في كليهما.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاعْتصام والتَّمسُّك:

قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ﴾.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/525.

جاء في المعاجم عن التَّمسُّك: "إمساكُ الشَّيءِ: التَّعلُّقُ به وحفظُه، قالَ تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: 65]، أي: يحفظُها.

واسْتَمْسَكتُ بالشَّيء؛ إذا تحرَّيتُ الإمساك، قالَ تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ [الزُّخرف: 43]، ويُقالُ: تَمَسّكْتُ به، ومَسَكْتُ به، قالَ تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: 10]، ويُقالُ: أَمْسَكْتُ عنه كذا، أي: منعتُه، قالَ تعالى: ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الزُّمر: 38]"(1).

وبالنَّظرِ إلى ما تقدَّمَ في معنَى (الاعْتصام) يظهرُ أنَّه أوْلى بالسِّياق من معنَى (التَّمسُّك)؛ لأنَّ في (الاعْتصام) معنَى الالْتجاء، وتَهْييءِ شيءٍ يكونُ سببًا للاعْتصام، والامْتناعِ عن غيرِه.

وهذا هو الَّذي يُفيدُه سياق الآيةِ الكريمة، فالاعتصامُ باللهِ: يكونُ بالتزامِ دينِه وشريعتِه، والامْتناعِ عمَّا سِواهُما.

(1) الرَّاغب، المفردات: (مسك).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران: 102]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا استَبعدَ بيانُ اللهِ على المؤمنين عَوْدتَهم إلى الكُفْر، وحثَّهم على الاعْتصام بدينِ اللهِ والثَّباتِ عليه، انْتقلَ السِّياقُ في هذه الآيةِ الكريمةِ لتحريضِهمْ على تمامِ التَّقْوى والحرصِ عليها حتَّى المَوت.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، وَقَيَ: وقَيْتُ الشَّيءَ أَقيه وقايةً ووقاءً، قالَ تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: 11]، والتُّقاةُ: اسمُ مصدرِ (اتَّقى)، وأصلُهُ: وُقَيَةٌ، ثُمَّ وُقاةٌ، ثُمَّ أُبدلتِ الواوُ تاءً تَبَعًا لإبدالِها في الافْتعالِ إبْدالًا قَصَدُوا منه الإدْغام، كما قالَ تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ﴾ [آل عمران: 28].

والوِقايةُ: حِفْظُ الشَّيءِ ممَّا يُؤذيه ويَضُرُّه.

والتَّقْوَى: جَعْلُ النَّفْسِ في وِقايةٍ ممَّا يُخاف، ثمَّ يُسمَّى الخوفُ تارةً: تَقْوَى، والتَّقْوى: خوفًا حسبَ تسميةِ الشَّيءِ بمُقتضِيه، والمُقْتضِي بمُقْتضاه.

وصارَت التَّقْوى في تَعارُفِ الشَّرْع: حفظُ النَّفْس عمَّا يُؤثِم، وذلكَ بتركِ المَحظورِ واسْتفراغِ الوُسْعِ في القيامِ بالواجبِ وتركِ بعض المُباحات، قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ [النَّحل: 128][(1)].

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

يأمرُ اللّه تعالى عبادَه المؤمنينَ بتمامِ التَّقوى، والحِرْصِ على أن يَزدادوا صَلاحًا ورُسوخًا في إيمانِهم وتَقواهم، حتَّى إذا جاءهُمُ الموت؛ كانوا على تمامِ دينِ الإسلامِ غيرَ مفارقِينَ له.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 881.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

النِّداءُ، والأمرُ، وأثرُهما في توضيحِ المعنَى:

أفـــادَ نَـظْـمُ السِّياقِ مكانةَ المنادَى وأهمِّيَّةَ المنَادَى به، وهو ضـرورةُ الـتزامِ تمامِ التَّقْوى

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾: تقدَّم القول في دلالات قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ مرَّات عديدة، وما تحويه من دلالات التَّوكيد والعناية، فـ(يا) عند المحقِّقين: لنداء البعيد، وإذا نودي فيها القريب؛ فإمَّا لعلوِّ منزلة المنادي أو المنادى، أو لغفلة المنادى وإرادة تنبيهه، و(أي) وصلة لنداء المُعرَّف بـ (أل) وما يأتي بعدها من الأسماء يُعرب بدلًا منها، و(ها) للتَّنبيه، وهذه الجملة لا تأتي إلَّا في القضايا المهمَّة الَّتي تسترعي الاهتمام والعناية، وقولُهُ تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أمرٌ بتَقْوَى الله، والأمرُ يَقْتضي الوُجوب بحسب ظاهره، وقد يُراد به الدَّوام والاستزادة، وهو مُتعلِّقٌ بقوله الآتي: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾؛ فليس أيُّ تَقْوى باتِّباعِ المأموراتِ واجْتنابِ المنهيَّات، بل المرادُ اسْتفراغُ كاملِ الوُسْعِ في القيامِ بالواجبِ والاجْتنابِ عن المَحارِمِ، وهو ما رُوِيَ عن عبدِ اللَّهِ بنِ مسعود رضي الله عنه في تفسيرِه لقولِه تعالى: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، قال: "أنْ يُطاعَ فلا يُعصَى، وأنْ يُذْكرَ فلا يُنسَى، وأنْ يُشكرَ فلا يُكْفَرَ"[1].

وقدْ وردَ أنَّ هاتِه الآيةَ منسوخةٌ بقولِه تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التَّغابن: 16]؛ لأنَّ هاتِه الآيةَ دلَّتْ على تَقْوى كاملة، كما فسَّرَها ابنُ مسعود رضي الله عنه والآيةُ الثَّانيةُ ذكرتِ الاسْتطاعةَ، وهي تختلفُ من مسلمٍ لآخَر.

ولكنَّ الاسْتطاعةَ هي القُدرة، والتَّقْوى مقدورةٌ للنَّاس، ثمَّ إنَّ الأمرَ بتقوى اللّهِ لا يُنسَخ، فالحقُّ أنَّ هذا بيانٌ لا نَسْخ، ولكنْ شاعَ عندَ المتقدِّمينَ إطلاقُ النَّسخِ على ما يَشمَلُ البَيان، فالآية محكمةٌ لا نَسْخَ فيها[2].

---

(1) وهو حديثٌ صحيح الإسناد موقوفٌ على ابن مسعود رضي الله عنه وهو الأظْهر، ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/340 - 341، ورواه الحاكم بلفظه مرفوعًا، ثمَّ قال: صحيح على شرط الشَّيخين، ووافقه الذَّهبي، ينظر: الحاكم، المستدرك: 2/323.

(2) وهو قول جمهور العلماء، ينظر: الزَّجَّاج، معاني القرآن: 1/449، والواحدي، الوسيط: 1/472.

المستثْنَى، والمجازُ، والجملةُ الحاليَّة، وأثرُ ذلك في تجليةِ المعنَى وإثْرائه:

أفـــادَ نـظـمُ السِّياقِ بأركانِه ضرورةَ التَّمسُّكِ بـالإسـلامِ حتَّى الوفاة عليه

قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ عطف إنشاء على إنشاء، فهو نَهْيٌ عن أنْ يموتوا على حالةٍ في الدِّينِ إلَّا على حالِ الإسلام، فمَحَطُّ النَّهْيِ هو القَيْدُ، وهو المسْتثنَى منه المحذوف، والمسْتثنَى، وهو جملةُ الحال؛ لأنَّها اسْتثناءٌ من أحوال، وهذا المركَّبُ هنا مُستعمَلٌ في غيرِ معناه، وهو مجازٌ تَمْثيليٌّ[1]، علاقتُه اللُّزوم، فالنَّهيُ عن الموتِ على غيرِ الإسلامِ يَسْتلزِمُ النَّهيَ عن مفارقةِ الإسلامِ في سائرِ أحيانِ الحياة، ولو كانَ المرادُ به معناهُ الأصْليَّ؛ لكانَ تَرْخيصًا في مفارقةِ الإسلامِ إلَّا عندَ حضورِ الموت، وهو معنًى جِدُّ فاسِد[2].

وهو كذلكَ اسْتثناءٌ مُفرَّغٌ[3]من جميعِ الأحوال، وقد أفادَ القَصْر، أي: لا تموتُنَّ على حالٍ من الأحوالِ إلَّا حالَ تحقُّقِ إسلامِكم وثَباتِكم عليه، كما تُنبِئُ عنه الجملةُ الاسْميَّةُ ﴿وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾، ولو قيلَ: إلَّا مُسلمينَ؛ لم يُفِدْ بفائدتِها، والعاملُ في الحالِ ما قبلَ ﴿إِلَّا﴾ بعد النَّقْض، وجاءَ توجيهُ النَّهْيِ إلى الموتِ؛ للمُبالغةِ في النَّهْيِ عن قَيْدِه المذكور، فإنَّ النَّهيَ عن المقيَّدِ نهيٌ عن القَيْدِ ورفعٌ له من أصلِه بالكُلِّيّة، مُفيدٌ لما لا يُفيدُه النَّهيُ عن نَفْسِ القَيْد، ومثالُ ذلك: لو أنَّ أحدًا قالَ لصاحبِه: لا تُصَلِّ إلَّا وأنتَ خاشعٌ؛ يُفيدُ من المبالغةِ في إيجابِ الخُشوعِ في الصَّلاةِ مالا يُفيدُه قولُه له: لا تَتْرك الخُشوعَ في الصَّلاة؛ لما أنَّ هذا نَهْيٌ عن تَرْكِ الخُشوعِ فقط، وذاكَ نَهْيٌ عنه

(1) هو تركيبٌ اسْتُعمِلَ في غير ما وُضع له لعلاقة المشابهة مع قرينةٍ مانعةٍ من إرادة معناه الأصلّي، كما في بيان ما جاءت الآية الكريمة بصدده، حيث أُريدَ به التَّمثيل، وليس معناه الحقيقي الأصلي، ينظر: محمد أحمد قاسم، علوم البلاغة، ص: 212.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/30 - 31.

(3) وهو ما لم يُذكرْ فيه المسْتثْنَى منه، كقوله تعالى: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٥﴾ [الأنعام: 25]، ولا يكونُ هذا الاستثناءُ عند أكثرِ النُّحاة إلاَّ في الموجب، وهو المسبوقُ بنَفْيٍ، أو نهيٍ، أو اسْتفهام، نحو: (ما حضَر إلَّا سالمٌ)، وكقولِه تعالى: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٥﴾ [الأنعام: 25]، وقولِه سبحانه: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ﴾ [الأنبياء: 3]، والنَّهي كما في الآية الَّتي معنا في المتن، ويجوزُ التَّفريغ في موجب مؤوَّل بالنَّفي، كما قال تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ٥٠﴾ [الفرقان: 50]، والاستثناء المفرَّغ يُفيد القَصْر، كما في آية المتن، وكما يُقال: (ما حَضَر إلَّا خالدٌ)، فقد نَفَى القائلُ الحضورَ كلَّه إلَّا حضورَ خالد، فاضل السَّامرائي، معاني النَّحْو: 2/248 - 249.

وعمَّا يُقارِنُه، ومُفيدٌ لكونِ الخُشوع هو العُمْدةُ في الصَّلاة، وأنَّ الصَّلاةَ بدونِه حقُّها ألَّا تُفعَل.

وفي ذاكَ النَّهْي: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ نَوْعُ تحذيرٍ عمَّا وراءَ الموتِ[1].

وفي توجيهِ الخطابِ بالنَّهْي معَ نونِ التَّوكيدِ الثَّقيلةِ ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ﴾ مزيدُ تأكيدٍ وعنايةٍ بهذا النَّهي، وما تضمَّنه من الأمرِ بالتزامِ الإسلامِ في جميعِ الأحوال.

وزادَ هذا التَّأكيدَ تأكيدٌ آخرُ، وهو إبْرازُ الضَّميرِ المنفصلِ لجماعةِ المخَاطبينَ بقولِه: ﴿وَأَنتُم﴾ ولأنَّهم هُمُ المُعَوَّلُ عليهم في سياقِ ما وردتِ الآيةُ بشَأْنه.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/526.

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣﴾ [آل عمران: 103]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمرَ اللّهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ عبادَه المؤمنينَ بتمامِ التَّقْوى؛ جاءَ بيانُ اللّهِ تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ ليدُلَّ المؤمنينَ على بعضِ سُبُلِ تحقيقِ التَّقْوى: بالاعتصامِ بدينِ اللّه، وعَدَمِ التَّفرُّق، وتَذكُّرِ نعمةِ اللّهِ عليهم بتأليفِ قلوبِهم على الأُخُوَّةِ الإيمانيَّة، وإنقاذِهم من الكفرِ المُسَبِّب لدخول النَّار، وهذه كلُّها آياتٌ مُوجبةٌ للهداية بأمرِ اللّهِ ورحمتِه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِحَبۡلِ ٱللَّهِ﴾: الحَبْلُ معروفٌ، قالَ ﷻ: ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ٥﴾ [المسد: 5]، وشُبِّه به من حيثُ الهَيْئَةُ حَبْلُ الوريدِ وحَبْلُ العاتق، والحَبْلُ: المستطيلُ من الرَّمل، واسْتعيرَ للوَصْلِ، ولكلِّ ما يُتوصَّلُ به إلى شيء، ومنه قولُه ﷻ في الآيةِ الَّتي معنا: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا﴾، فَحَبْلُه سُبحانه وتعالى هو الَّذي معه التَّوصُّلُ به إليه من القرآنِ والعقل، وغيرِ ذلكَ ممَّا إذا اعْتَصمَ به العبدُ؛ أدَّاه إلى مرضاةِ اللّه.

ويُقالُ للعَهْد: حَبْلٌ، ويمكنُ أنْ يَصدُقَ هذا المعنَى على قولِه تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ﴾[1]، فعهدُ اللّهِ يجب أنْ يُوفَّى بعبادةِ اللّه وحدَه دونَ سواه، والتزامِ دينِه وقرآنِه وسُنَّةِ نبيِّه ﷺ، قالَ ﷻ: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ [يس: 60]، وقالَ ﷻ: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٠﴾ [الفتح: 10].

2) ﴿فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ﴾: الإلْفُ: اجْتماعٌ مَعَ الْتِئام، وهو المرادُ هنا في الآية، يُقالُ: أَلَّفتُ بينَهم، ومنه: الأُلْفَة، ويُقالُ للمَأْلوف: إلْفٌ وأَلِيفٌ، وبمعنَى الإلفِ يكونُ المؤلَّفُ: وهو

(1) الرَّاغب، المفردات: (حبل).

ما جُمِعَ من أجزاء مُختلفة، ورُتِّبَ ترتيبًا قُدِّم فيه ما حقُّه أنْ يُقدَّم، وأُخِّرَ فيه ما حقُّه أنْ يُؤخَّر، ومنه: الكتابُ المؤلَّف، أي: الَّذي جُمعتْ كلماتُه في السُّطور، وضُمَّ بعضُها إلى بعض، وجُمعتْ كذلكَ المعلوماتُ فيه، فقُدِّمَ منها ما حقُّه التَّقديم، وأُخِّرَ منها ما حقُّه التَّأخير(1).

3) ﴿شَفَا حُفۡرَةٖ﴾: شَفَا البِئْرِ وغَيْرِها: حرفُه، ويُضرَبُ به المثلُ في القُربِ من الهَلاك، كما في الآيةِ الَّتي معنا في قولِه تعالى: ﴿وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، وأَشْفَى فلانٌ على الهَلاك، أي: حصَلَ على شَفاه، ومنه اسْتُعيرَ قولُهم: ما بقيَ من كذا إلَّا شَفًا، أي: قليلٌ كَشَفَا البِئْر.

وتَثنيةُ شَفَا: شَفَوَان، وجمعُه أشْفاء، ومنه سُمِّيَ الشِّفاءُ من المرَض، أي: موافاةُ شَفَا السَّلامة، أي: قُربُها، وصارَ اسْمًا للبُرْء(2).

4) ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ﴾: الإنْقاذُ: التَّخليصُ من وَرْطَة، وأيُّ وَرْطةٍ أشَدُّ وَطْئًا وعذابًا من النَّار؟ كما في الآيةِ الَّتي معنا في قولِه تعالى: ﴿وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ﴾.

والنَّقْذُ: ما أَنْقَذْتَه، وفَرَسٌ نَقيذٌ: مأخوذٌ من قومٍ آخرينَ، كأنَّه أُنقِذَ منهم، وجمعُه: نَقَائِذ(3).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لَمَّا أمرَ اللهُ عبادَه المؤمنينَ في الآيةِ السَّابقةِ بتمامِ التَّقوى والثَّباتِ حتَّى المماتِ، جاءَ البيانُ الإلهيُّ في هذه الآية، يأمرُ اللهُ فيه عبادَه المؤمنين بوجوبِ التَّمسُّكِ بدينِه واجْتماعِ الكلمةِ عليه، ويذكِّرُهم بنِعَمٍ ربَّانيَّةٍ جليلةٍ تَواردتْ عليهم، وهي تأليفُ قلوبِهم على الأُخُوَّةِ الإيمانيَّة بعدَ أنْ كانتْ مُتعاديةً مُتنافِرة، ولولا هذه النِّعمةُ الإيمانيَّةُ الرَّبَّانيَّةُ؛ لكانوا على وَشْكِ الوُقوعِ في النَّارِ يومَ القيامة، وهذه النِّعمُ آياتٌ بيِّناتٌ ساقَها اللهُ إليهم هدايةً لهم، وإنْقاذًا لهم من مصيرٍ مَشْؤومٍ كانَ ينتظرُهم.

---

(1) الرَّاغب، المفردات: (ألف).

(2) الرَّاغب، المفردات: (شفا).

(3) الرَّاغب، المفردات: (نقذ).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الاسْتعارةُ، وأثرُها في إثراءِ المعنَى:

أفـــــــادتِ الاسْتعارةُ تقويةَ معنَى الاعْتصامِ بـديـنِ الـلـهِ واجْتماعِ الأُمَّةِ عليه

قولُه تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾.

هذا القولُ منه سُبحانَه وتعالى في وجوبِ الاعْتصامِ بحبلِهِ تعالى تمثيلٌ لاسْتظهارِه به ووُثوقِه بحمايتِه بامْتساكِ المُتدلِّي من مكانٍ مُرتفعٍ بحبلٍ وثيقٍ، يأمَنُ انْقطاعه من غيرِ اعْتبارِ مجازٍ في المُفرَدات.

والحبلُ: اسْتعارةٌ لعهدِه والاعْتصام لوُثوقِه بالعَهْد، أوْ أنْ يكونَ تَرْشيحًا لاسْتعارةِ الحبلِ[1] بما يناسبُه، فهي استعارة تصريحيَّة حُذف فيها المُشبَّه: وهو العهد، وذُكر فيها المُشبَّه به: وهو الحبل، والمعنَى: واجْتَمِعوا على اسْتعانتِكم باللّهِ وَوُثوقِكم به، ولا تفرَّقوا عنه، أوْ: واجْتمِعُوا على التَّمسُّكِ بعهدِه إلى عبادِه، وهو الإيمانُ والطَّاعة، أوْ بكتابِه[2] لقولِ النَّبيِّ ﷺ: "إنِّي تاركٌ فيكم كتابَ اللّه، هو حَبْلُ اللّه: مَنْ اتَّبعَهُ؛ كان على الهُدَى، ومَنْ تَركَهُ؛ كان على الضَّلالة"[3].

وقولُه: ﴿جَمِيعٗا﴾ حالٌ من فاعلِ ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ﴾، أي: مُجتمعينَ في الاعْتصام، وهنا يَتجلَّى تمامُ البلاغة، حيثُ لم يرِدِ الأمر بالاعْتصامِ لكلِّ مُسلم في حالِ انْفرادِه اعْتصامًا بهذا الدِّين؛ بل أرادَ الأمرَ باعْتصامِ الأُمَّةِ جميعِها، ويَحْصُلُ في ضِمْنِ ذلكَ أمرُ كلِّ واحدٍ بالتَّمسُّكِ بهذا الدِّين، فالكلامُ أمرٌ لهم بأن يكونُوا على هاتِه الهيئَة.

(1) الاسْتعارةُ المرشَّحة، أو الاسْتعارةُ التَّرْشيحيَّة: وهي أقوى أنواع الاستعارة وأكثُرها مبالغة، ولأنَّ الاستعارةَ فيها تقوم على تناسي التَّشبيه، وذكر ما يُلائم المشبَّه به، وهو (اللَّفظُ المستعار) الَّذي يساعد على تناسي التَّشبيه، وأصلُ التَّرشيح في الاصطلاح: هو أن يُذكرَ في الكلام ما يُناسبُ المشبَّه به، وهو المستعارُ في أسلوب الاستعارة، والتَّرشيحُ وصفٌ عارضٌ للاستعارة، ولا يدخل في عناصرها الأوَّليَّة المكوِّنة لها، وهو ليس بلازم فيها، وإنَّما رُشِّحَ، وليقوِّيَ الصُّورة البلاغيَّة، ينظر: ابن حِجَّة، خزانة الأدب، ص: 49، والزَّركشي، البرهان: 3/428.

(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/450.

(3) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2408).

وسواء أكانتِ الاسْتعارةُ اسْتعارةَ الاعْتصام للتَّوثيق بالدِّين وعُهودِه، وعدم الانْفصالِ عنه، أم اسْتعارةَ الحَبْلِ للدِّين والعُهودِ المَبنيَّةِ عليه؛ فإنَّ كلًّا من الاسْتعارتَيْن ترشيحٌ للأُخْرَى؛ لأنَّ مبنَى التَّرشيح على اعْتبارِ تقويةِ التَّشبيهِ في نَفْسِ السَّامع، وذلكَ يحصُلُ له بمجرَّد سماعِ لَفْظِ ما هو من مُلائماتِ المُستعار، بقَطْعِ النَّظَرِ عن كَوْنِ ذلكَ الملائمِ مُعتبرَة فيه استعارة أُخْرى؛ إذْ لا يَزيدُهُ ذلكَ الاعْتبارُ إلَّا قُوَّة.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾، الأصلُ: (تتفرَّقوا) وهو تأكيدٌ لمضمون: اعْتصِموا جميعًا، ويمكنُ أنْ يكونَ ذا دَلالةٍ على طلبِ الاتِّحادِ في الدِّين، وهو الإسلام، كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: 19]، وفي الآيةِ دليلٌ على أنَّ الأمرَ بالشَّيء يَستلزِمُ النَّهيَ عن ضدِّه[1].

وجوهُ الإعراب، وأثْرُها في جلاءِ المعنَى وإثْرائِه:

أفــادتْ وجــوهُ الإعــراب عِـظَـمَ مِـنَّـةِ الـلـهِ على الـمـؤمـنـيـنَ في إخـراجِـهـم من دَرَكِ الـشَّـقـاءِ وظَـلامِـه إلى نـعـيـمِ الإيـمـان ونوره

قولُه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ تصويرٌ لحالِهمُ الَّتي كانوا عليها؛ لِيحصُلَ من اسْتفظاعِها انْكشافُ فائدةِ الحالةِ الَّتي أُمِروا بأنْ يكونوا عليها، وهي الاعْتصامُ جميعًا بجامعةِ الإسلام الَّذي كان سببَ نجاتِهم من تلكَ الحالةِ المُزريةِ من التَّفرُّقِ والعَداوة، وفي ضِمْنِ ذلكَ تذكيرٌ بأعظم نعمةٍ مَنَّ اللّٰهُ عليهم بها، الَّتي كانت الأساسَ الَّذي بُنِيَتْ عليه جميعُ النِّعمِ المُتواليةِ عليهم، ألَا وهو دينُ الإسلام، وفي ذلكَ تحريضٌ لهم على إجابةِ داعي اللّٰهِ لهم، بالاتِّفاقِ والالْتفافِ حولَه والسَّيْرِ على مَنْهجِه وسُنَّته، كما قالَ تعالى: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ [الأحقاف: 31]، وهذه المِنَّةُ والتَّذكيرُ بها، ليس خاصًّا بالصَّحابةِ ﵃ بل هو مُستمِرٌّ لسائرِ المسلمينَ إلى يوم الدِّين، فلو لم يكن ذلكَ كذلكَ؛ لبقيتِ العداوةُ في الأجيالِ المُتعاقبة، ولَبقيَ المصيرُ على شَفَا حُفْرةٍ من النَّار[2].

وقولُه تعالى: ﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾: في إسْنادِ النِّعمةِ إلى اللّٰهِ تشريفٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/31 - 32.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/32.

لها وللمُنْعَم عليهم، وزادَ هذا المعنَى قُوّةً ذكرُ الاسْمِ الظَّاهرِ للفظِ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ ودونَ إعادتِه بالضَّمير، وهو مصدرٌ مُضافٌ إلى الفاعل، وقولُه: ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ مُتعلِّقٌ به أو بمحذوفٍ وقع حالًا منه.

وقولُه: ﴿إِذۡ كُنتُمۡ﴾ ظرفٌ للنِّعمة، أو للاسْتقرارِ في ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾؛ إذا جُعِلَ حالًا، أي: اذْكروا إنعامَه عليكم، أوِ اذْكروا إنعامَهُ مُسْتقِرًّا عليكم حالَ كونِكم ﴿أَعۡدَآءٗ﴾ في الجاهليَّة، والظَّرفيَّةُ مُعتبَرٌ فيها التَّعقيبُ من قولِه: ﴿فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ﴾؛ إذِ النِّعمةُ لم تكنْ عندَ العَداوة، ولكنْ عندَ حصولِ التَّأليفِ عَقِبَ تلكَ العَداوة.

قولُه تعالى: ﴿فَأَصۡبَحۡتُم﴾، فيها وجهان:

الأوَّلُ: أنْ تكونَ ناقصة، وعلى هذا يجوزُ أنْ يكونَ خبرُها ﴿بِنِعۡمَتِهِۦٓ﴾، فيكونَ المعنى: فأصبحتُم في نعمتِه، أوْ مُتلبِّسينَ بنعمتِه، أو مَشْمولينَ بنعمتِه.

و﴿إِخۡوَٰنٗا﴾ على هذا حالٌ يعملُ فيها (أصبحَ) أو ما يتعلَّق به الجارُّ، ويجوزُ أن يكونَ ﴿إِخۡوَٰنٗا﴾ خبرَ (أَصْبحَ)، ويكونَ الجارُّ هنا حالًا يعملُ فيه (أَصْبحَ)، أو حالًا من ﴿إِخۡوَٰنٗا﴾؛ لأنَّه صفةٌ له قُدِّمتْ عليه، وأنْ يكونَ مُتعلِّقًا بـ (أصبحَ)؛ لأنَّ (أصبحَ) النَّاقصةَ تعملُ في الجارِّ، ويجوزُ أن يتعلَّق بـ ﴿إِخۡوَٰنٗا﴾؛ لأنَّ التَّقدير: تـآخَيْـتُم بنعمته.

الوجهُ الثَّاني: أنْ تكونَ تامَّة، ويكونُ الكلامُ في ﴿بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ قريبًا من الكلامِ في النَّاقصة[1].

وقولُه: ﴿بِنِعۡمَتِهِۦٓ﴾ الباءُ فيه للملابَسة، بمعنى: (معَ)، أي: أصبحتُم إخوانًا مُصاحبينَ نعمةً من اللّه، وهي نعمةُ الأُخُوَّةِ الإيمانيَّة.

الاستعارةُ، والإشارةُ، وأثرُهما في تجليةِ المعنَى وإثْرائه:

أفادَ نظمُ السِّياق رحمةَ اللهِ الواسعةَ على المؤمنينَ وجليلَ نعمِهِ عليهم

هذا القولُ عطفٌ على قولِه: ﴿كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾، فهو نعمةٌ أُخْرَى، وهي نعمةُ الإنْقاذِ من النَّار، وقولُه: ﴿شَفَا حُفۡرَةٖ﴾ هنا تمثيلٌ لحالهم في الجاهليَّة حيثُ كانوا على وَشْكِ الهلاك، واخْتيارُ الحالةِ المُشبَّه بها هنا؛ لأنَّ النَّارَ أشدُّ المهلِكاتِ إهلاكًا، وأسرعُها إنْهاءً، ومناسبةُ

(1) العكبري، التبيان: 1/145.

حَمْلِ الآيةِ على هذا التَّمثيلِ لمقابلةِ النِّعمتَيْنِ المحسُوستَيْنِ اللَّتَيْنِ امْتنَّ اللهُ بهما عليهم، وهما: نعمةُ الأُخُوَّةِ بعدَ العداوة، ونعمةُ السَّلامةِ بعدَ الخَطَر.

ويمكنُ أنْ يُرادَ بالنَّارِ هنا: نارُ جهنَّم، فعندئذٍ يكونُ قولُهُ: ﴿شَفَا حُفْرَةٍ﴾ مُستعارًا للاقْترابِ اسْتعارةَ المحسوسِ للمعقول[1]، والنَّارُ حقيقة.

ويمكنُ أنْ يكونَ المعنَى الأوَّلُ أظهرَ؛ لأنَّ قوله: ﴿حُفْرَةٍ﴾ لا يُعطي دَلالة قويَّة لمصداقيَّةِ ذاكَ العالَم العظيم - وهو جهنَّم - الَّذي أُعِدَّ للعذاب[2].

ولكنْ يمكنُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿حُفْرَةٍ﴾ تقريبًا لأَذْهانِهم بما يَطولُهُ تَصوُّرُهم، ويقعُ تحتَ أبصارِهم، فيكونُ حملُ المعنى المرادِ على الوجهَيْنِ السَّابقَيْنِ أوْلى؛ إذْ لا تَعارُضَ بينَهما حِينَئِذٍ.

"وقولُه: ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ صفةٌ لـ ﴿حُفْرَةٍ﴾، و﴿مِّنَ﴾ للتَّبعيض، والضَّميرُ في ﴿مِّنْهَا﴾ للنَّارِ أو للحُفرةِ أو للشَّفا"[3].

"والتَّأنيثُ للمضاف إليه، أو لأنَّه بمعنَى: الشَّفَة؛ لأنَّ شَفا البئرِ وشِفَّتَها جانبها، كالجانبِ والجانِبَة، وأصلُه: شَفَوَ، قُلبَتِ الواوُ ألفًا في المذكَّر، وحُذِفتْ في المؤنَّث.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ إشارةٌ إلى مصدرِ الفعلِ الَّذي بعدَه، وما فيه من معنَى البُعدِ للإيذانِ بعُلُوِّ درجةِ المُشارِ إليهم وبُعْدِ مَنْزِلتِه في الفَضْل، وكمالِ تَميُّزِه به عمَّا عداه، وانْتظامِه بسببِه في سِلْكِ الأمورِ المُشَاهَدَة.

والكافُ في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مُقْحَمَةٌ لتأكيدِ ما أفادَه اسمُ الإشارةِ من الفَخامَة، ومَحَلُّها النَّصبُ على أنَّها صفةٌ لمصدرٍ محذوف، أي: مثلُ ذلكَ التَّبيينُ الواضِح"[4]، ويمكن أن تكون الكاف للتَّشبيه على تقدير، أي: يفعل ذلك كما يبيِّن آياته.

---

(1) الاستعارة: تعليقُ العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللُّغة على جهة النقل للإنابة، ويمكن كذلك بيانها بأنَّها جعلُ الشيَّءِ الشيَّءَ لأجل المبالغة في التَّشبيه، ولمَّا كان مبنَى الاستعارة على التَّشبيه، فهي تتنوَّعُ إلى خمسةِ أنواع، تنوَّع التَّشبيه إليها: ومن هذه الأنواع ما ورد مُبيَّنًا في المتن، وهو استعارةُ محسوسٍ لمعقول على الوجهِ الَّذي ذكر فيه، ومن أمثلة ما يقوِّي جلاء هذا النَّوع قولُه تعالى: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ﴾ [الأنبياء: 18]، فأصلُ اسْتعمالِ القَذْفِ والدَّمغِ في الأجسام، ثمَّ اسْتعيرَ القذفُ لإيراد الحقِّ على الباطل، والدَّمغُ لإذهاب الباطل، فالمستعارُ منه حِسِّيٌّ، والمستعارُ له عقليٌّ، ينظر: السَّكاكي، مفتاح العلوم: 1/493، 500.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/34 - 35.

(3) العكبري، الإملاء: 1/145.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/527.

وقولُه تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ البيانُ هنا بمعنَى: الإظهارِ والإيْضاح، والآياتُ يجوزُ أن يُرادَ بها النِّعمُ الواردةُ في الآيةِ على وجهِ الخُصوص، أوِ النِّعمُ على وجه العُموم.

ويجوزُ أن يُرادَ بها دلائلُ عنايتِه تعالى بهم وإنارةِ عقولِهم وقلوبِهم بأنوارِ المعارفِ الإلهيَّة، وأن يرادَ بها آياتُ القرآنِ، فإنَّه غايةٌ في الإفصاحِ عن المَقاصِد، وإبلاغِ المعاني إلى الأذْهان، وإضافة الهداية إلى اللّه إضافة تشريف.

وقولُه تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ طلبًا لثباتِكم على الهدَى الَّذي وفقكم اللّه إليه، وازديادِكم فيه[1]، والجملة استئناف بيانيٌّ؛ لأنَّها جملة تعليليَّة، جواب عن سؤال مقدَّر: لم يفعل هذا؟ لعلَّكم تهتدون.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحَبْل والعَهْد:

دَلالــةُ الحَبْـلِ أوســعُ وأشْـملُ من دَلالةِ العَهْد

عند قوله تعالى: ﴿بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾: "العَهْدُ: حفظُ الشَّيءِ ومراعاتُه حالًا بعدَ حال، قالَ تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولٗا ٣٤﴾ [الإسراء: 34]، أي: أَوْفُوا بحفظِ الأَيْمان.

ويُقالُ: عَهِدَ فُلانٌ إلى فُلانٍ يَعْهَدُ، أي: أَلْقى إليه العَهْدَ، وأَوْصاهُ بحفظِه، كما قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ [طه: 115]»[2].

وبالنَّظَرِ فيما تقدَّمَ من بيانِ معنَى (الحَبْل) في شَرْحُ المُفْرَدات: يظهرُ أنَّ (الحَبْلَ) أَوْفَى بالسِّياق من (العَهْد) ذلك أنَّ الحبلَ هو ما يُتوصَّل به إلى اللّهِ تعالى من القرآنِ والعقلِ وكلِّ عملٍ يُفْضي إلى مرضاةِ اللّه، والوفاءُ بالعَهْدِ: هو أحدُ الأسبابِ والسُّبُلِ المُوصِلَةِ إلى مَرْضاةِ اللّه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/36.

(2) الرَّاغب، المفردات: (عهد).

كلمةُ (شَفَا) تُستَخدَمُ لكلِّ ما يُوافي الشَّيءَ، ويُقارِبُ الوُلوج فيه، وليس كذلكَ كلمةُ (حَرْف)

شفا وحَرْف:

عند قوله تعالى: ﴿شَفَا حُفۡرَةٖ﴾: "حَرْفُ الشَّيءِ: طَرَفُه، وجمعُه: أَحْرُفٌ وحُروفٌ، يُقالُ: حَرْفُ السَّيْفِ، وحَرْفُ السَّفينة، وحَرْفُ الجَبَل، وحُروفُ الهجاء: أَطْرافُ الكَلِمة"(1).

أمَّا كلمة ﴿شَفَا﴾؛ فهي - مع ما تَعنيه من إفادةِ معنَى حَرْفِ الشَّيءِ وطَرَفِه - تُفيد الإشرافَ على دخولِ الشَّيءِ أوِ الوقوعِ فيه، فَشَفَا المَرَضِ: موافاةُ شَفَا السَّلامةِ منه، أي: قُربُها، ومنه سُمِّي الشِّفاءُ من المرض، وصار اسْمًا للبُرْء.

(أَلَّفَ) و(جَمَعَ):

"الجَمْعُ: ضَمُّ الشَّيءِ بتقريبِ بَعْضِه من بَعْض، يُقالُ: جَمَعْتُه، فاجْتَمع، قالَ تعالى: ﴿جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ ٢﴾ [الهُمَزة: 2]»(2)، وأمَّا أَلَّفَ؛ فهي من الإِلْف: وهو اجْتماعٌ مع الْتِئام، أي: مع وُجودِ الأُلْفَةِ"(3).

وهذا المعنَى يُناسبُ سياقَ الآيةِ، فإنَّ ما خلقَه اللّٰه تعالى في قُلوبِ المؤمنين من الأُلفةِ والمحبّة، لا يُعبَّرُ عنه بمجَرَّدِ الجَمْعِ أو الاجْتماع. فليس كُلُّ جَمْعٍ أوِ اجْتماعٍ قائمًا على معنَى الأُلفة والمحبَّة.

(أَنْقَذَكم) و(خَلَّصَكم) و(نَجَّاكم):

"يُقالُ: خلَّصْتُه فَخَلَصَ، وهو إزالُ الشَّوْبِ من الشَّيءِ بعدَ أنْ كانَ فيه، فيُقالُ عنه: الخالِصُ، وأمَّا لو لم يكنْ فيه شَوْبٌ؛ فيُسمَّى الصَّافي"(4).

وأمَّا النَّجاءُ؛ فالانْفصالُ من الشَّيء، ومنه: نَجا فُلانٌ من فُلانٍ، وأَنْجيتُه ونَجَّيتُه، قالَ تعالى: ﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [النَّمل: 53]."(5).

(1) الرَّاغب، المفردات: (حرف).
(2) الرَّاغب، المفردات: (جمع).
(3) الرَّاغب، المفردات: (ألف).
(4) الرَّاغب، المفردات: (خلص).
(5) الرَّاغب، المفردات: (نجو).

وتقدَّمَ معنَى (الإنقاذ) في شرحِ المفردات، وتبيَّن أنَّه: التَّخليصُ من وَرْطَة.

وسياقُ النَّصِّ القرآنيِّ يُخبرُنا عن إنقاذِ اللّهِ تعالى للمؤمنينَ من النَّارِ بعدَ أنْ هَداهمْ للإيمان، وأيُّ وَرْطةٍ أشدُّ وَبالًا وإهلاكًا من النَّار؟ والعياذُ باللّهِ منها.

وهذا المعنَى لا يَتوافرُ في كَلِمتي (خلَّصكم) و(نجَّاكم)، على وَجْه اللُّزوم، كما في معنَى (أَنْقذَكم)، فقد يكونُ، وقد لا يكون.

﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤﴾ [آل عمران: 104]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا توجَّهَ بيانُ اللّهِ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ بالتَّربيةِ الرَّبَّانيَّةِ القُرآنيَّةِ لجماعةِ المؤمنينَ بوجوبِ الاعْتصامِ بدينِ اللّه، ونَبْذِ التَّفرقة، وشُكرِ اللّهِ على نعمه عليهم؛ خَلُصَ ذاكَ الأمرُ ببناءِ مجتمعٍ إيمانيٍّ، ومن ضِمنه فئةٌ مؤمنةٌ بارَّةٌ عاملةٌ، توجَّه الأمرُ إليها في هذه الآيةِ بحملِ مهمَّةٍ عظيمةٍ هي القيامُ بالأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكر، وأخبرَنا اللّهُ ﷻ بأَنَّ هؤلاءِ همُ المفلحون.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَّةٞ﴾: أَمَّ: الهمزةُ والميمُ المشدَّدَة أصلٌ واحد، والأُمَّةُ: الدِّين، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ [الزُّخرف: 22].

وكذلكَ كلُّ مَنْ كانَ على دينِ حقٍّ مُخالِفٍ لسائرِ الأديان؛ فهو أُمَّة، وكلُّ قومٍ نُسِبوا إلى شيءٍ، وأُضيفُوا إليه؛ فهم أُمَّة، وكُلُّ جيلٍ من النَّاس أُمَّةٌ على حِدَة.

وتأتي الأُمَّةُ بمعنى: الإمام الَّذي يُهتدَى به، وهو سببُ الاجْتماع، كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ﴾، وقد تكونُ الأُمَّةُ جماعة من العلماء، وهو المعنَى المرادُ في الآية الَّتي معنا: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾[1].

2) ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾: المعروفُ: اسْمٌ لكلِّ فِعْلٍ يُعرَفُ بالعقلِ أو بالشَّرْعِ حُسْنُه.

3) ﴿ٱلۡمُنكَرِۚ﴾: ما يُنكَرُ بهما، وهو المعنَى المرادُ في الآيةِ الَّتي معنا.

ولهذا قيلَ للاقْتصادِ في الجُود: مَعْروفٌ؛ لَمَّا كانَ ذلكَ مُسْتحْسَنًا في العقولِ وبالشَّرع، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ [النِّساء: 6]»[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أم).
(2) الرَّاغب، المفردات: (عرف).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يأمرُ اللّه تعالى نبيَّه محمَّدًا ﷺ وأُمَّته أنْ تتولَّى جماعةٌ من العلماءِ منهم من أهلِ الفِقْه والفَهْم دَعْوةَ النَّاسِ إلى الخَيْر، ومن أَخَصِّه الأمرُ بكلِّ فعلٍ يُعرَفُ بالشَّرْعِ والعقلِ حُسْنُه، والنَّهيُ عن كلِّ فعلٍ يُنكَرُ بهما، مُخبِرًا سُبحانَه وتعالى أنَّ أولئكَ الآمرينَ بالمعروفِ والنَّاهينَ عن المنكرِ هُمُ المفلحونَ عندَ اللّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

العَطْفُ، والوجوبُ، وأثرُهما في توضيحِ المعنَى:

أفادَ العطفُ والوجوبُ ضرورةَ قيامِ جماعةٍ من علماءِ الأُمَّةِ بدعوةِ النَّاسِ إلى الخَيْرِ

قوله تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾: مُفرَّعٌ عنِ الكلامِ السَّابق، ولذلكَ كان حَريًّا بأن يُعطفَ بالفاءِ، ولو عُطِفَ بها؛ لكانَ أسلوبًا عربيًّا سائغًا، إلَّا أنَّه عُدِلَ عن العطفِ بالفاءِ؛ تنبيهًا على أنَّ مضمونَ هذا الكلامِ مقصودٌ لذاتِه، بحيثُ لو لم يَسبِقْه الكلامُ السَّابقُ؛ لكانَ حَريًّا بأن يُؤمَرَ به، فلا يكونُ مَذْكورًا لأَجْلِ التَّفرُّعِ عن غيرِه والتَّبَع.

وصيغةُ ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ﴾ صيغةُ وُجوب؛ لأنَّها أَصْرَحُ في الأمرِ من صيغةِ (افْعلُوا)، ولأنَّها أصلُها، فإذا كانَ الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عنِ المنكَرِ غيرَ معلومٍ بينَهم من قبلِ نزولِ هذه الآية، فالأمرُ لتشريعِ الوُجوب.

وإذا كانَ ذلكَ حاصلًا بينَهم من قبلُ، كما يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 110]، فالأمرُ لتأكيدِ ما كانوا يفعلونَه، بل فيه زيادةُ الأمرِ بالدَّعوةِ إلى الخَيْر، وهي أعمُّ من الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكر، وهو فردٌ من أفرادِها، أُفرِدَ لمزيدِ مَزِيَّتِه، وعظيمِ أَثَرِه، وقد كانَ الوجوبُ مُقرَّرًا من قبلُ بآياتٍ أُخْرى، مثلِ قولِه تعالى: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾ [العصر: 3]، فالأمرُ

لتأكيدِ الوُجوبِ أيضًا للدَّلالةِ على الدَّوامِ والثَّباتِ عليه، كما في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾ [النِّساء: 136][1].

قولُه تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ﴾، ﴿وَلۡتَكُن﴾ فيها وَجْهان:

الأوَّلُ: أنْ تكونَ تامَّةً، و(مِن) تبعيضيَّةٌ متعلِّقةٌ بالأمرِ أو بمحذوفٍ، على أن تكونَ صفةً لأمَّةٍ قُدِّمَ عليها، فصارَ حالًا من الفاعلِ، وهو ﴿أُمَّةٞ﴾، و﴿يَدۡعُونَ﴾ صفتُها، أي: لتوجَدْ منكم أُمَّةٌ داعيةٌ إلى الخَيْر.

والثَّاني: أنْ تكونَ النَّاقصة، و﴿أُمَّةٞ﴾ اسْمُها، و﴿يَدۡعُونَ﴾ خبرُها، أي: لتكُنْ منكم أُمَّةٌ داعينَ إلى الخَيْر[2].

وأيًّا ما كانَ من الوَجهَيْن؛ فتوجيهُ الخطابِ إلى الكُلِّ مع إسْنادِ الدَّعوةِ إلى البعضِ لتحقيقِ معنَى فَرْضيَّتِها على الكفايةِ، وأنَّها واجبةٌ على الكُلِّ لكنْ بحيث إنْ أقامَها البعضُ؛ سقطتْ عنِ الباقِين، ولو أخَلَّ بها الكُلُّ؛ أثِموا جميعًا لا بحيث يتحتَّم على الكُلِّ إقامتُها على ما يُنبِئُ عنه قولُه ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ١٢٢﴾ [التَّوبة: 122]، ولأنَّها من عَظَائِم الأمور وعَزائِمها الَّتي لا يتولَّاها إلَّا العلماءُ بأحكامِه تعالى ومراتبِ الإحسانِ وكيفيَّةِ إقامتِها، فإنَّ مَنْ لا يعلمُها يُوشِكُ أنْ يَأمُرَ بِمُنكَرٍ، ويَنْهَى عن مَعْروف، ويَغلُظَ في مَقامِ اللِّين، ويَلِينَ في مَقَامِ الغِلظَة، ويُنكِرَ على مَنْ لا يَزيدُه الإنكارُ إلَّا التَّمادِيَ والإصْرار.

ويمكنُ أنْ تكونَ (مِن) بيانيَّة، وقد قُدِّم البيانُ على المبيَّن، فيكونُ ما صَدَقُ الأمَّةِ نفسُ الصَّحابة، وهم أهلُ العصرِ الأوَّل، كما في قولِه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾ [الفتح: 29]، والأمرُ من (كانَ) النَّاقصة، والمعنَى عندئذٍ: كُونُوا أُمَّةً تَدْعونَ إلى الخير.

ولا يَقْتضي ذلكَ أنْ تكونَ الدَّعوةُ فرضَ عَيْن، فإنَّ الجهادَ من فُروضِ الكِفايةِ معَ ثُبوتِه بالخطابِ العامِّ، والدُّعاءُ إلى الخير عبارةٌ عن الدُّعاءِ إلى ما فيه صلاحٌ دينيٌّ أوْ دُنيويٌّ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/36 - 37.
(2) العكبري، التبيان: 1/145.

عَطْفُ الخاصِّ على العامِّ، وحذفُ المفعول، والإشارةُ، والقَصْرُ، وَأَثَرُ ذلكَ كلِّه في تَجْليةِ المعنَى وإثْرائه:

أفـــادَ نـظـمُ السِّياقِ بأركانِه إظهارَ فضيلةِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكر، وأنَّ الفلاحَ كلَّه لمن قامَ بهما

قولُه تعالى: ﴿وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾: عَطَفَ بيانُ اللّهِ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عن المنكرِ على ما سبَقه مع انْدراجِهما فيه من بابِ عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ لإظهارِ فَضْلِهما وعُلُوِّهما على سائرِ الخَيْرات، وحَذْفُ المفعولِ الصَّريحِ من الأفعالِ الثَّلاثةِ: إمَّا للإيْذانِ بظهورِه، أي: يَدْعونَ النَّاسَ، ويأمُرونَهم، ويَنْهَوْنَهم، وإمَّا القَصْدُ إلى إيجادِ نَفْسِ الفعل، أي: يفعلونَ الدُّعاءَ إلى الخَيرِ والأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عنِ المنكر[1].

والمعروفُ: هو ما يُعْرَفُ عند أهلِ الشَّرائع، فهو ما حسَّنه الشَّرعُ، ودعا إليه، وهو مجازٌ في المقبولِ المرضيِّ به؛ لأنَّ الشَّيءَ إذا كانَ معروفًا؛ كانَ مألوفًا للنُّفوسِ مَقْبولًا عندَها مَرْضيًّا به.

والْمُنكَرُ مجازٌ في المكروه، والكُرْهُ لازمٌ للإنكار، وهو ما أنكرَهُ الشَّرعُ، وكَرِهَه، ويُسمَّى غيرُ المألوفِ: نَكِرةً من هذا الباب.

والتَّعريفُ في (الخيرِ، والمعروفِ، والمنكَر) تعريفُ الاسْتغراق، فيُفيدُ العمومَ في كلِّ ما أنْهاهُ إلينا الشَّرْعُ وعلَّمنا إيَّاه.

والمعروفُ والمنكرُ - إنْ كانا ضروريَّيْن - كانَ لكلِّ مُسلم أنْ يأمرَ ويَنْهى فيهما، وإنْ كانَا نظريَّيْن؛ فإنَّما يقومُ بالأمرِ والنَّهي فيهما أهلُ العلمِ وذَوُو الاختصاص[2].

قولُه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ معطوفةٌ على صفاتِ ﴿أُمَّةٞ﴾، وهي الَّتي تضمَّنَتْها جُمَلُ ﴿يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾، و﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾، والتَّقدير: وهم مُفلِحون؛ لأنَّ الفلاحَ لَمَّا كان مُسَبَّبًا على تلكَ الصِّفاتِ الثَّلاثِ؛ جُعِلَ بمنزلةِ صِفةٍ لهم.

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/528 - 529.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/40.

ويجوزُ جَعْلُ جُملةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ حالًا من ﴿أُمَّةٌ﴾؛ إذِ الواوُ للحال.

وهذه الجُملةُ القرآنيَّةُ زَفَّتِ البشارةَ بالفلاحِ الكاملِ لمن تمثَّل تلكَ الصِّفاتِ الثَّلاث.

وكانَ مُقتَضى الظَّاهرِ فصل جُملةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ عمَّا قبلَها بدونِ عَطْفٍ، مثل: فَصْلِ جُملةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: 5] لكنَّ هذه عُطِفتْ هنا، أو جاءتْ حالًا؛ لأنَّ مَضمونَها جزاء عن الجُمَلِ الَّتي قبلَها، فهي أَجْدَرُ بأنْ تُلحَقَ بها.

ومُفادُ هذه الجملةِ قصْرُ صفةِ الفلاحِ عليهم[1].

"وضميرُ الفَصْلِ ﴿هُمُ﴾ يَفصِلُ بينَ الخبرِ وصفته، ويُؤكِّدُ النِّسبةَ، ويُفيدُ اخْتصاصَ المُسنَدِ بالمُسنَدِ إليه، أو هو مبتدأٌ خبرُه ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، والجملةُ خبرٌ لـ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾، وتعريفُ ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾: إمَّا للعَهْد، أو للإشارةِ إلى ما يَعرِفُه كلُّ أحدٍ من حقيقةِ المفلحين"[2]، والإشارة بـ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ للبعد المعنويِّ، وليس الحسِّي لرفعة درجتهم وعلوِّ منزلتهم، وذكرها هنا لمزيد تقرير العناية بهم.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأُمَّة والجَماعة:

قولُه تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ﴾: الجماعةُ: مجموعةٌ من النَّاسِ انْضمَّ بعضُهم إلى بعضٍ من (الجَمْع)، وهو ضمُّ الشَّيءِ بتَقْريب بعضِه من بعض، يُقالُ: جمعتُه، فاجْتَمَعَ، قالَ تعالى: ﴿يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [سبأ: 26]، وهي كذلكَ من (الاجْتماع)، قالَ تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ﴾ [الإسراء: 88].

وقولُهم: يومُ الجُمُعَة؛ لاجْتماعِ النَّاسِ فيه للصَّلاة، قالَ تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الجُمعة: 9][3].

والأُمَّةُ: قومٌ أو جماعةٌ نُسِبُوا إلى شيءٍ وأُضيفُوا إليه، وهي كذلك: كلُّ مَنْ كانَ على دينِ حقٍّ مخالفٍ لسائرِ الأدْيَان، فاجْتماعُ الجماعةِ يكونُ على أمرٍ ذي بالٍ، وخاصَّةً ما كان على دينٍ إلهيٍّ حقٍّ، كدينِ الإسلام، وأَوْلى النَّاس بهذا الأمرِ هُمُ العُلَماء.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/40، 42.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/529.

(3) الرَّاغب، المفردات: (جمع).

ولذلكَ استخدمَ البيانُ الإلهيُّ كلمةَ ﴿أُمَّةٌ﴾، ويُمثِّلُها العلماء؛ لأنَّهم همُ الَّذين يَتولَّوْنَ أمرَ الدَّعوةِ إلى الخَيْر، والأمرَ بالمعروفِ، والنَّهيَ عن المُنكر.

وليس أيُّ جماعةٍ تجتمعُ على وَجْهِ العمومِ، لا تملكُ العلمَ والفَهْمَ للقيامِ بهذه المهمَّة الكبيرة.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: 105]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمرَ اللّه سُبحانَه وتعالى طائفةً منَ المؤمنينَ بالدَّعوةِ إلى الخيرِ والأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكر؛ جاءَ سياقُ هذه الآيةِ الكريمةِ مُحذِّرًا المؤمنينَ من التَّفرُّقِ والاخْتلافِ، كما حَصَلَ معَ الَّذينَ من قبلِهم بعدَ إنزالِ الكُتُبِ عليهم وإرسالِ الرُّسُل.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱخْتَلَفُوا۟﴾: "خَلَفَ: الخاءُ واللَّامُ والفاءُ أُصولٌ ثلاثةٌ، الأوَّلُ: أنْ يَجيءَ شيءٌ يقومُ مُقامَه، والثَّاني: خِلافُ قُدَّام، والثَّالثُ: التَّغيُّر، والاخْتلافُ من الأصلِ الأوَّل، يُقالُ: اختلفَ النَّاسُ في كذا، والنَّاسُ خِلْفَةٌ، أي: مُختلِفون، فكلُّ واحدٍ منهم يُنَحِّي قولَ صاحبِه، ويُقيمُ نَفْسَه مُقامَ الَّذي نَحَّاه"[1]، وهذا هو المرادُ في الآيةِ الكريمة.

2) ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾: "(بَيَنَ) الباءُ والياءُ والنُّونُ أصلٌ واحد، وهو بُعْدُ الشَّيءِ وانْكشافُه. وبانَ الشَّيءُ وأبانَ؛ إذا اتَّضحَ وانْكشفَ، وفلانٌ أَبْيَنُ من فُلان، أي: أوضحُ كلامًا منه"[2].

فالبيِّناتُ هي الدَّلائلُ الواضحات، والبيِّناتُ تضمُّ دعوةَ الأنبياءِ والرُّسُل، وشرائعَ اللّهِ ومعجزاتِه، فكلُّها واضحةٌ جَليَّةٌ.

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

حَريٌّ بالمؤمنينَ - وفي طليعتِهم صحابة رسولِ اللّهِ ﷺ - ألَّا يَتَّبعوا سَنَنَ أهلِ الكتاب من التَّفرُّقِ والاخْتلافِ من بعد ما جاءتْهُمُ الدَّلائلُ القاطعةُ على صدقِ أنبيائهم ورُسُلهم في دعوتِهم إلى اللّه، والَّذين ينتظرُهم عذابٌ عظيمٌ يومَ القيامة؛ لذا فقد جاءَ النَّهيُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).

الإلهيُّ لعامَّة المؤمنين ألَّا يَقعُوا في مَغبَّةِ ما وقعَ فيه مَنْ كان قبلَهم، فيصيبَهم ما أصابَهم، فالعاقلُ الحَصيفُ من أخذَ الدُّروسَ من غيرِه، فاتَّعظَ واسْتفاد.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

النَّهيُ، والصِّلةُ، والتَّأكيدُ، والقصْرُ، وأثرُها جميعُها في تجليةِ المعنَى وإثْرائه:

أفـادَ السِّياقُ القُرآنيُّ بأركانِه ضرورةَ اجتماعِ الكلمةِ على الدِّينِ الحقِّ، ونبذِ الاختلافِ المؤدِّي للتِّفرقةِ وشَتاتِ الأمر

قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ﴾ العطف هنا من عطف القصَّة على القصَّة، أو عطف الإنشاء على الإنشاء، وهو نهيٌ للمؤمنينَ - وفي مُقدَّمَتِهم صحابةُ رسولِ اللّهِ ﷺ - أنْ يتفرَّقوا ويَختلِفُوا؛ كما اليهودُ والنَّصارى كلُّ منهما تفرَّقَ فِرَقًا، واخْتلَفُوا باسْتخراجِ التَّأويلاتِ الزَّائفة[1]، وكَتْمِ الآياتِ النَّاطقةِ وتحريفِها بما أَخْلَدوا إليه من حُطامِ الدُّنيا الفانية.

ويمكنُ أنْ يتوجّه النَّهيُ إلى المتصدِّينَ للدَّعوةِ أصالةً وإلى أعقابِهم تَبَعًا، ويَجوزُ تعميمُ الموصولِ ﴿كَٱلَّذِينَ﴾ للمختلفينَ من الأمَمِ السَّالفةِ المُشارِ إليهم بقولِه ﷻ: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِمَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [البقرة: 213].

وذلكَ من بعدِ ما جاءَهم من الدَّلائلِ المانعةِ من الافْتراقِ والاخْتلاف.

وقدَّمَ بيانُ اللّهِ الافْتراقَ على الاخْتلافِ للإيْذانِ بأنَّ الاخْتلافَ عِلَّةُ التَّفرُّقِ، وهذا من المُفاداتِ الحاصلةِ من ترتيبِ الكلامِ وذكرِ الأشياءِ مع مُقارناتِها.

وفي هذا البيانِ الرَّبَّانيِّ إشارةٌ إلى أنَّ الاخْتلافَ المذمومَ الَّذي يؤدِّي إلى الافْتراق: هو الاخْتلافُ في أُصولِ الدِّينِ الَّذي يُفْضي إلى تكفيرِ أو تَفْسيقِ بعضِ الأمَّةِ بعضًا، دونَ الاخْتلافِ في الفُروعِ المبنيَّةِ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/257.

على اخْتلافِ مصالحِ الأُمَّةِ في الأَقْطارِ والأَعْصار، وهو المعبَّرُ عنه بالاجْتهاد[1]، "وإنَّما حذَفَ التَّاء؛ لأنَّ تأنيثَ البيِّنةِ غيرُ حقيقيٍّ، ولأنَّها بمعنَى الدَّليل"[2].

وذِكْرُ ﴿ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ﴾ إيذانٌ بأنَّ الله تعالى لم يَدَعْ أُمَّةً من الأُمَمِ إلَّا وأرسلَ إليها المعجزاتِ مع الأنبياءِ والرُّسُل، وأنزلَ عليها البيِّناتِ في الكُتُب؛ ولذلكَ كانتِ البيِّناتُ دلائلَ واضحات، فيها عِصْمةٌ من الوقوعِ في الاخْتلافِ؛ لو قُيِّضتْ لها الأفهامُ، وجُنِّدتْ لها المقاصِدُ الحَسَنَةُ للوصولِ إلى الحقِّ والتَّمسُّكِ به.

ولَمَّا لم يُراعِ أهلُ الكتابِ هذه وتلكَ، فاخْتلفوا، وتفرّقوا، فضلُّوا، وأضَلُّوا، وهم: إمَّا أنَّهم غَلُوا في دينِهم، أو اتَّبعوا أهواءَ قوم قبلَهم ضلُّوا وأضلُّوا عن سواءِ السَّبيل، كما قالَ تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝٧٧﴾ [المائدة: 77].

وفي هذا تحذيرٌ، وأيُّ تحذيرٍ؟! للصَّحابةِ الكرامِ رضي الله عنهم وللأجيالِ المؤمنةِ بعدَهم؛ حتّى لا يَقعُوا فيما وقعَ فيه أهلُ الكتابِ، فيختَلِفوا، ويتفرَّقوا، فيفشَلُوا، وتذهبَ قُوَّتُهم، ويَخْسَروا دينَهم، فيتسلَّطَ عليهم أعداؤهم، ويُصبحوا عبيدًا لهم بعد أن كانوا عليهم قادةً وسادةً، كما قالَ تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: 46].

قولُه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ مُقابِلَ قولِه في الفريقِ الآخَر: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝١٠٤﴾ [آل عمران: 104].

"وقولُه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المذكورينَ باعْتبارِ اتِّصافهم بما في حَيِّزِ الصِّلة، وقولُه: ﴿لَهُمۡ﴾ خبرُه، أو خبر العذاب، وذكر اسم الإشارة هنا لمزيد النَّعي عليهم، والإشارة لهم بالبُعد لإنزال البُعد المعنويِّ منزلة البُعد الحسِّيِّ لتماديهم وبعدهم في الضَّلال.

وقولُه: ﴿عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ مُرتفعٌ بالظَّرفِ على الفاعليَّةِ لاعْتمادِه على المبتدأ، أوْ مبتدأٌ والظَّرفُ خبرُه، والجملةُ ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ خبرٌ للمبتدأ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾"[3].

وفي هذه التَّعريفاتِ من الإشارةِ والضَّمير، ثمَّ تقديم شِبْهِ الجُملة ﴿لَهُمۡ﴾ تأكيدٌ ومبالغةٌ وقَصْرٌ، وفي كلِّ ذلكَ تهديدٌ ووعيدٌ للمتَفرِّقين وتشديدٌ في تهديد المُشَبِّهينَ بهم.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/530.
(2) العكبري، التبيان: 1/145.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/530.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاخْتلاف والتَّنازع:

"التَّنازُعُ والمُنازَعَةُ: المُجاذَبَة، ويُعبَّرُ بهما عن المخاصَمة والمجادَلَة، قالَ تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾"[1].

حـالُ المختلفينَ على ما هو معناه هو الَّذي يُفْضي إلى التَّفرُّق، وليس مجرَّد التَّنازع

والاخْتلافُ - كما تقدَّمَ في شرحِ المفرداتِ - ليس مجرَّدَ مُخاصمةٍ ومُجاذَبةٍ، كما هو معنَى التَّنازع، بل هو تَنحيةُ كلِّ خَصْمٍ لقولِ صاحبِه، وإقامةُ نفسِه مُقامَه الَّذي نحَّاه، وهذا هو دَيْدَنُ المختَلفِين، ولذلكَ كانَ اسْتخدامُ السِّياقِ القُرآنيِّ لفعلِ (اخْتلفُوا) أنسبَ من الفعلِ (تنازَعوا).

البيِّنات والدَّلائل:

"الدَّلالةُ: ما يُتوَصَّلُ به إلى معرفةِ الشَّيء، كدَلالةِ الألفاظِ على المعنَى، ودَلالةِ الإشارات والرُّموز والكتابة، والعُقودِ في الحساب، وسواءٌ أكانَ ذاكَ بقَصْدٍ ممَّن يجعلُه دَلالة، أم لم يكنْ بقَصْد، قالَ تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سَبَأ: 14]"[2].

وهذه الدَّلائلُ قد تكونُ واضحةً، وقد لا تكون.

أمَّا البيِّناتُ؛ فهي الدَّلائلُ الواضحات، تُوصِلُ إلى مَدْلُولِها بقُوَّة؛ ولذلكَ جاءَ سياقُ النَّصِّ القُرآنيِّ بذكرِها دون غيرِها من المفردات.

وهذه هي دعوةُ الأنبياءِ والرُّسُل، وشرائعُ اللّهِ تعالى فيها كلُّ الوُضوحِ والبَيان، وهذا ما حَدَا ببيانِ اللّهِ تعالى إلى اسْتخدامِها في سِياقِه.

---

(1) الرَّاغب، المفردات: (نزع).

(2) الرَّاغب، المفردات: (دل).

﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ١٠٦﴾ [آل عمران: 106]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا حذَّرَ اللهُ المؤمنينَ من الوقوعِ في مَغبَّةِ التَّفرُّقِ والاخْتلافِ، كما وقعَ من أهلِ الكتابِ وغيرِهم؛ جاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ لتُبيِّنَ حالَ وُجوهِ الفريقيْنِ من أهلِ الإيمانِ وأهلِ الكُفرِ يومَ القيامة وصِفتهم، بادئًا بالفريقِ الثَّاني.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾: "ذَوَقَ: الذَّالُ والواوُ والقافُ: أَصْلٌ واحدٌ، وهو اخْتبارُ الشَّيءِ من جهةِ تَطَعُّم، ثمَّ يُشتَقُّ منه مجازًا، فيُقالُ: ذُقْتُ المأكولَ أذوقُهُ ذَوْقًا، وذُقْتُ ما عندَ فلانٍ: اخْتبرتُه، ويُقالُ: كلُّ ما نزَلَ بإنسانٍ من مكروهٍ؛ فقدْ ذاقَه، ويُقالُ: ذاقَ القَوْسَ؛ إذا نَظرَ ما مِقْدارُ إعطائِها؟ وكيفَ قُوَّتُها؟"[1].

وهكذا هنا ذوقُ العذاب، هو من بابِ المجاز، وأيُّ مكروهٍ أَشَدُّ وَطْئًا من العذابِ الَّذي سيذوقُه الكفَّارُ يومَ القيامة؟!

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

هذه الآيةُ الكريمةُ إخبارٌ من اللهِ سُبحانَه وتعالى عن حالِ فريقي الإيمانِ والكُفْرِ يومَ القيامةِ بذِكْرِ بياضِ وُجوهِ المؤمنينَ، وسَوادِ وُجوهِ الكافرين الَّذين سيذوقونَ عذابَ النَّار.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

وجوهُ الإعراب، والأخذُ بظاهرِ النَّص، وأثرُ ذلكَ في تجليةِ المعنَى:

في قولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ﴾ وَجْهان جائزان:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذوق).

أفـادَ السِّـياقُ القرآنيُّ حقيقةَ بياضِ الوجوه وسوادِها يومَ القيامة، وضرورةَ الاستعدادِ لذلكَ اليوم

الأوَّلُ: أنْ يكونَ منصوبًا على أنَّه ظرفٌ للاسْتقرارِ في قولِه تعالى: ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ﴾، أي: لثبوتِ العذابِ العظيمِ لهم، أي: لهم عذابٌ كائنٌ أوْ مُستقِرٌّ.

الثَّاني: أنْ يكونَ مفعولًا لِمُضْمَرٍ، خُوطِبَ به المؤمنونَ تحذيرًا لهم عن عاقبةِ التَّفرُّقِ بعدَ مجيءِ البيِّنات، وترغيبًا في الاتِّفاق على التّمسُّكِ بالدِّين، أي: اذكُروا يومَ تبيَضُّ وُجوه.

وجُملةُ: ﴿تَبۡيَضُّ وُجُوهٌ﴾ صفةٌ لـ ﴿يَوۡمَ﴾ على تقدير: تبيَضُّ فيه وُجوهٌ، وتسودُّ فيه وُجوه.

وبياضُ الوجوهِ وسوادُها: كنايتانِ عن ظهورِ بهجة السُّرور، وكآبةِ الخوف فيه[1].

ويمكنُ أن يكون البياض والسَّوادُ حقيقيَّين، يُوسَمُ بهما المؤمنُ والكافرُ يومَ القيامة، وهما بياضٌ وسوادٌ خاصَّان؛ يعني أنَّهما يُناسبانِ أحوالَ الآخرة، ولا داعيَ لصرفه عن حقيقته، وهو الأصلُ في حَمْلِ النُّصوصِ على ظاهرِها إلَّا إذا دَلَّ دليلٌ على خلافِه، ولا دَليل.

بلاغة تنكير ﴿وُجُوهٌ﴾:

وتنكير ﴿وُجُوهٌ﴾ في الموضعين: إمَّا للتكثير أو التَّعميم في الموضعين، وإمَّا للتَّعظيم مع ﴿ٱبۡيَضَّتۡ﴾، والتحقير مع ﴿ٱسۡوَدَّتۡ﴾.

النَّشرُ، والاسْتفهامُ، والمجازُ، وأثرُ ذلكَ في تجليةِ المعنَى:

أفـادَ نظمُ السِّياقِ القرآنيِّ التَّحذيرَ من التَّشبُّه بالكافرينَ والتَّعجيبَ من حالِهم

في قولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾: هذا البيانُ الكريمُ تفصيلٌ لأحوالِ الفريقَيْن بعدَ الإشارةِ إليهما إجمالًا، وهو جارٍ فيه بطريقِ النَّشْرِ المعكوس، حيث بدأ بذكرِ الفريقِ الثَّاني، ثمَّ الأوَّلِ على عكسِ ما تقدَّم، وهو من أساليبِ البلاغةِ الضَّافية، والمقامُ هنا مُقامُ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/530 - 531.

التَّحذيرِ عن التَّشبُّه بهم معَ ما فيه من الجمعِ بين الإجمالِ والتَّفصيلِ والإفْضاءِ إلى خَتْم الكلامِ بحُسْنِ حالِ المؤمنين، كما بُدِىء بذلكَ عندَ الإجمال[1].

والفاء عاطفة تعقيبيَّة، و﴿فَأَمَّا﴾ للتَّوكيد والتَّفصيل، وفي هذا الأسلوب تَشْرِيفٌ لذلكَ اليوم بذكرِ بياضِ وُجوهِ المؤمنينَ الَّذي هو شِعارُ أهلِ النَّعيم، فهو يومُ ظُهورِ رحمةِ اللّهِ ونعمتِه وفرحِ المؤمنينَ به، كما قالَ تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: 58]، ورحمةُ اللّهِ سبقتْ غضبَه ﷻ.

وفي ذكرِ سِمَة أهلِ النَّعيم عَقِبَ وعيدِ العذابِ حَسْرةٌ على أهلِ العذاب، إذْ يعلمُ السَّامعُ أنَّ لهم عذابًا عظيمًا في يومٍ فيه نعيمٌ عظيم، فيزدادُ ثُبورًا على ثُبور، ثم قُدِّمَ في التَّفصيلِ ذِكْرُ سِمَةِ أهلِ العذابِ تعجيلًا بمُسَاءَتِهم.

وقولُه تعالى: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ هو على إرادةِ القول، وهو ما يُسمَّى بِمَقُولِ القَوْل؛ أي: فيُقالُ لهم ذلك.

والاسْتفهامُ لا يَصْدُرُ إلَّا من مُسْتَفْهِمٍ، وذلكَ القولُ هو جوابُ ﴿فَأَمَّا﴾؛ ولذلكَ لم تَدْخُلِ الفاءُ على ﴿أَكَفَرْتُم﴾ ليَظهر أنْ ليس هو الجوابُ، وأنَّ الجوابَ حُذِف برُمَّته[2].

وقائلُ هذا القولِ مجهول؛ إذْ لم يتقدَّمْ ما يَدُلُّ عليه، فيُحتملُ أنَّ القائلَ هم أهلُ المَحْشَر لهم، وهُمُ الَّذين عَرفوهم في الدُّنيا مؤمنين، ثمَّ رَأَوْهم، وعليهم سِمَةُ الكُفر، وهُمُ المنافقون أوِ المرتدُّون أَوْ مَنْ أَحْدَثُوا في الدِّين ما ليس منه، أَوْ هم أهلُ الكتابِ كفروا برسولِ اللّهِ ﷺ بعدَ إيمانِ أسلافهم، أو إيمانِ أنفسِهم به قبلَ مَبعَثِه ﷺ، والأَوْلى حَملُه على جميعِ من تقدَّم.

والمُستفهِمُ سلَفُهم من قومِهم أو رسولِهم، فالاسْتفهامُ على حقيقتِه، وهو اسْتفهامٌ تَوْبيخيٌّ لهم وتعجُّبيٌّ من حالِهم[3]، ويمكن أن يكون الاستفهام إنكاريًّا توبيخيًّا والقائل لهم ملائكة العذاب.

وقولُه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾، أي: العذابَ المعهودَ الموصوفَ بالعِظَمِ للدَّلالةِ على

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/531.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/45.
(3) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/453 - 454.

أنَّ الأمرَ بذَوْقِ العذابِ على طريقةِ الإهانةِ مُترتِّبٌ على كُفرِهمُ المذكور، وذَوْقُ العذابِ مجازٌ للإحْساس[1]، حيث إنَّه استعارة تصريحيَّة شبَّه فيها إصابة العذاب لهم ودخولهم فيه بالذَّوق بجامع التَّمكُّن في الإحساس، أو شبَّه العذاب بالطَّعام الَّذي من شأنه أن يُذاق، فحذف المُشبَّه به، وترك شيئًا من لوازمه، وأسنده إلى العذاب على سبيل الاستعارة المكنيَّة التَّخييليَّة.

وقولُه تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ صريحٌ في أنَّ نَفْسَ الذَّوْقِ مُعلَّل بذلك.

وورَدَ الجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبل، للدَّلالة على اسْتمرارِ كُفرِهم، أو على مُضِيِّه في الدُّنيا[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الذَّوق والإحْساس:

قولُه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾: " الإحْساسُ: هو الشُّعورُ بالشَّيء، والإحْساسُ به، وكلُّ ما شَعَرتَ به فقدْ أَحْسَسته، ومعناه: أَدْرَكْتَه بحسِّك، كما في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾ [الأنبياء: 12]، وقولِه سُبحانه: ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: 87]، أي: تعرَّفوا بإحْساسِكُم"[3].

والذَّوْقُ: هو إدراكُ الطُّعوم، واخْتبارُ الشَّيءِ من جهةِ التَّطعُّم.

حتَّى أنَّه اسْتُعمِلَ في بابِ المأكولاتِ وذوْقِها من بابِ المجاز، وكذلكَ اسْتُعمِلَ - كما هنا - مَجازًا في الإحْساسِ بالعذاب، مع الإطلاقِ الَّذي يُفيدُ فيما يَقِلُّ تناوُلُه، وفيما يَكثُر، فَخُصَّ بالذِّكرِ هنا لِيَعُمَّ الأَمْرَيْن، ولذلك كثُر اسْتعمالُه في العذابِ في آياتٍ عديدة، ومنها الآيةُ الَّتي معنا.

ثمَّ إنَّ الإحْساسَ أَثَرٌ للذَّوْق، وليسَ هو الذَّوْق، واسْتعمالُ الأصْلِ أَصْلٌ دونَ اسْتعمالِ فَرْعِه أَوْ أَثَرِه.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: 2/364.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/531.

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 23.

والمُقامُ هنا مُقامُ تَهكُّمٍ وتَبْكيتٍ للكافرينَ الَّذين كذَّبوا دعوةَ الرُّسُل، وصَدُّوا عن سبيل اللّه، وسَدَروا في غَيِّهم، والَّذين اسودَّتْ وجوهُهم - كما سَوَّدوا صحائفَ أعمالِهم - فَلْيذُوقوا العذابَ، كما كانوا يَذوقونَ الطَّعام، وشَتَّانَ بين هذا وذاك.

ولذلكَ كُلِّه كانَ استخدامُ البيانِ الإلهيِّ للفعلِ ﴿فَذُوقُواْ﴾ أَوْقَعَ أَثَرًا، وأَقْوى دَلالةً من أيِّ فعلٍ يتعلَّقُ بمُجرَّدِ الإحْساس أو غَيرِه.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧﴾ [آل عمران: 107]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللّه سُبحانه وتعالى في الآيةِ السَّابقةِ صفةَ وُجوهِ المؤمنينَ والكافرينَ، وابتدأ الحديثَ عنِ الكافرينَ ومآلِهم؛ جاءَ بيانُ اللّهِ في هذه الآيةِ الكريمةِ بذكرِ فريقِ المؤمنين أصحابِ الوُجوهِ البيضاءِ الَّذينَ يتنعَّمونَ برحمةِ اللّهِ وخُلودِهم فيها.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ﴾: الرَّحمةُ: رِقَّةٌ تَقْتَضي الإحسانَ إلى المَرحوم، وقدْ تُستعمَلُ تارةً في الرِّقَّةِ المجرَّدة، وتارةً في الإحسانِ المجرَّدِ عن الرِّقَّة، نحو: رَحِمَ اللّهُ فُلانًا، وإذا وُصِفَ به الباري سُبحانَه وتعالى؛ فليسَ يُرادُ به إلَّا الإحسانُ المجرَّدُ دونَ الرِّقَّة، وعلى هذا فالرَّحمةُ من اللّهِ إنْعامٌ وإفْضال، ومن الآدميِّين رِقَّة وتَعَطُّف.

وبهذا المعنَى وردَ قولُ الرَّسول ﷺ ذاكرًا عن ربِّه سُبحانه وتعالى: "أنَّه لَمَّا خلقَ اللّهُ الرَّحِمَ؛ قالَ اللّه: أنا اللّه، وأنا الرَّحمن، خلقتُ الرَّحِم، وشَقَقْتُ لها مِن اسْمي، فمَنْ وَصَلها؛ وصلتُه، ومَنْ قطعَها؛ قَطَعتُه"[1].

فالرّحمةُ مُنطويةٌ على معنَيَيْن: الرِّقةِ والإحْسان، فركزَ اللّهُ في طبائعِ النَّاسِ الرِّقَّة، وتفرَّدَ بالإحْسان، فصارَ لما أنَّ لفظَ الرَّحِمِ من الرَّحمة، فمعناهُ: الموجودُ في النَّاسِ من المعنَى الموجودِ للّه تعالى، فتناسبَ معناهُما تَناسُبَ لفظَيْهِما.

والرَّحمنُ والرَّحيم: لا يُطلقُ الرَّحمنُ إلَّا على اللّهِ تعالى، من حيثُ إنَّ معناه لا يصحُّ إلَّا له؛ إذْ هو الَّذي وسعَ كلَّ شيءٍ رَحْمة، والرَّحيمُ يُستعمَلُ في غيرِه، وهو الَّذي كثُرتْ رحمتُه. واللّهُ هو رحمنُ الدُّنيا، ورحيم الآخرة، وذلكَ أنَّ إحسانَه يعُمُّ المؤمنينَ والكافرين، وفي الآخرةِ يختصُّ بالمؤمنين، وعلى هذا قال ﷻ: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ

(1) أبو داود، السُّنن: الحديث رقم: (1694)، والحاكم، المستدرك: 4/157، وصحَّحه.

يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 156]؛ تنبيهًا أنَّها في الدُّنيا عامَّةٌ للمؤمنين والكافرين، وفي الآخرة مختصَّةٌ بالمؤمنين.

ولذلك لا توجَدُ كلمةٌ يمكنُ أنْ تَحُلَّ مَحَلَّها، أوْ تكونَ مرادفةً لها بتمامِ معناها، وخاصَّة في سياقِ الآية الكريمة(1).

۞ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

يُخبِرُ اللّه تعالى في جليلِ الآيةِ الكريمةِ أنَّ المؤمنينَ الَّذين بيَّضَ اللّه وُجوهَهم هم في رحمةِ اللّه خَالدون، وهذا الخُلود في رحمته، هو خلودٌ في أجْلَى تجلِّياتِ رحمتِه، وهي الجنَّة.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

تفصيلُ ما أُجمِلَ، والصِّلةُ، وتقديمُ ما حقُّه التَّأخيرُ، وأثَرُ ذلكَ كلِّه في تجليةِ المعنَى وإثْرائه:

أفــادَ نَـظْـمُ السِّياقِ القُرآنيِّ بيانَ صفةِ وُجوهِ المـؤمـنـينَ يـومَ القيامة، والمصيرِ السَّعيدِ الَّـذي ينتظرُهم

عبَّر بيانُ اللّهِ تعالى عنِ الجنَّةِ والنَّعيمِ المخلَّدِ بالرَّحمةِ؛ تَنْبيهًا على أنَّ المؤمنَ وإنِ اسْتغرقَ عُمُرَهُ في طاعةِ اللّهِ تعالى، ولم يرتكبْ معصيَةً قطُّ؛ فإنَّه لا يدخُلُ الجنَّةَ إلَّا برحمتِه سُبحانه وتعالى(2).

وجاءَ قولُه: ﴿وَأَمَّا﴾ تتمَّة تفصيلِ ما أُجْملَ في صَدْرِ الآيةِ السَّابقة، وانْتَهى بذكرِ أصحابِ الوُجوهِ البيضاءِ بعدَ حديثِه عن أصحابِ الوُجوهِ السَّوداء؛ تَشْويقًا للسُّؤالِ عنهم، وكأنَّ قائلًا يقولُ: عَلِمْنا حالَ الَّذين اسْودَّتْ وُجوهُهم، فما بالُ الَّذين ابيضَّتْ وجوهُهم؟ فجاءَتْ صلةُ الموصولِ بالجوابِ الشَّافي الكَافي.

وفي هذا ما فيه كذلكَ من شَحْذِ الهِمَمِ للتَّسابقِ في مَيْدانِ الأعمالِ المُفضيةِ لِنَيْلِ أعظمِ جائزةٍ من اللّهِ تعالى، وهي الجنَّة.

(1) الرَّاغب، المفردات: (رحم).
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/531.

الموقع البياني لقوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾:

جاءَ قولُه تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ اسْتئنافًا وقعَ جوابًا عن سؤالٍ نشأَ من السِّياقِ، وهو تتمَّةٌ للسُّؤالِ السَّابق، كأنَّه قيل: كيفَ يكونونَ في الجنَّة؟ فجاء الجوابُ مُصَدَّرًا بالضَّمير المنفَصِلِ ﴿هُمْ﴾ معَ تقديمِ شِبْهِ الجملةِ قَصْرًا وتأكيدًا لخلُودِهم في الجنَّة لا يَظعنُونَ عنها، ولا يموتون.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٨﴾ [آل عمران: 108]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أخبرَنا بيانُ اللهِ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ بحالِ أهلِ الإيمان ومصيرِهم؛ جاءَ سياقُ هذه الآيةِ الكريمةِ مُنْبِئًا فيها اللهُ تعالى رسولَه ﷺ بأنَّ هذه الآياتِ القرآنيَّةَ المباركةَ الَّتي حَملتْ في جَعبَتِها وَصْفَ وجوهِ المؤمنينَ والكافرين، هي حقٌّ لا مِريةَ فيه، واللهُ تعالى لا يَظلِمُ أحدًا من عبادِه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾: "أيي: الهمزةُ والياءُ والياءُ: أَصْلٌ واحدٌ، وهو النَّظَر، والآيةُ: العلامةُ، وهذه آيةٌ مَأْيَاةٌ، كقولك: عَلامةٌ مَعْلَمَةٌ، وأَصْلُ آيةٍ: أَأْيَةٌ، بوزنِ أَعْيَةٍ، مَهموزٌ هَمزَتَيْن، فَخُفِّفتِ الأخيرةُ فامْتدّت، وآيةُ الرَّجُلِ: شخصُه، يُقالُ: خرجَ القومُ بآيتِهم، أي: بجماعتِهم.

ومنهُ: آيةُ القرآن؛ لأنَّها جَماعةُ حُروف، والجمعُ: آيٌ، وإياةُ الشَّمْسِ ضَوْؤها، وهو من ذاكَ؛ لأنَّه كالعلامةِ لها"[(1)].

2) ﴿نَتْلُوهَا﴾: "تلو: التَّاءُ واللَّامُ والواوُ: أصلٌ واحدٌ، وهو الإتْباع، يُقالُ: تَلَوْتُهُ؛ إذا تَبِعْتُه، ومنه تلاوةُ القرآن؛ لأنَّه يُتْبِعُ آيةً بعدَ آية"[(2)].

3) ﴿ظُلْمًا﴾: ظَلَمَ: الظَّاءُ واللَّامُ والميمُ: أَصْلانِ صَحيحان، أحدُهما: خلافُ الضِّياءِ والنُّور، والآخَرُ: وَضْعُ الشَّيءِ في غير مَوْضعِه تَعدِّيًا.

والأَصْلُ الثَّاني: هو الَّذي يَعنينا في هذا المقام، وإنْ كان ثمَّةَ رابطٌ بينَهما، فالظُّلمُ ظلامٌ ليس فيه نورٌ؛ ولو تبصَّرَ الإنسانُ بنورِ العدلِ ما وقعَ في الظُّلم.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أيي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تلو).

فالأصلُ الثَّاني: ظَلَمَهُ يَظلِمُهُ ظُلْمًا، والأصلُ فيه: وَضْعُ الشَّيءِ في غيرِ مَوْضعِه، والظُّلامةُ: ما تَطْلبُه من مَظْلِمَتِكَ عندَ الظَّالم.

ويُقالُ: ظَلمْتُ فلانًا: نسبتُه إلى الظُّلم، وظَلمتُ فُلانًا: فاظَّلمَ وانْظَلمَ؛ إذا احْتملَ الظُّلم[1].

❁ المَعْنَى الإجْمَاليِّ:

يُخبرُنا بيانُ اللّهِ تعالى أنَّ تلكَ الآياتِ القرآنيَّةَ السَّابقةَ الَّتي تحدَّثتْ عن صفةِ وُجوهِ المؤمنينَ والكافرينَ ومصيرِ كلِّ فريقٍ منهما، الَّتي نزلَ بها جبريلُ عليه السلام على قلبِ رسولِ اللّهِ ﷺ هي حَقٌّ وصِدْق؛ لأنَّها إخبارٌ من اللّه تعالى، ولا أحدَ أَصْدَقُ من اللّهِ قيلًا ولا حديثًا، وهي عَدْلٌ لا تَشوبُها شائبةُ أيِّ ظُلْم، ذلكَ أنَّ اللّه جل جلاله عادلٌ في أحكامه وأفعالِه وتدبيرِه وجزائِه وحسابِه لعبادِه، حاشا أن يَظلمَ أحدًا، وهو الَّذي يأمرُ بالعَدْلِ، ويَنْهى عن الظُّلمِ عز وجل.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الإشارةُ، ووجوهُ الإعراب، والتَّعريضُ، وأثرُ ذلكَ كُلِّه في تجليةِ المعنَى وإثْرائه:

أفـادَ نـظـمُ السِّياقِ عُلُوَّ مكانةِ آياتِ الله المُنَزَّلةِ عليه، وتنزيهِ اللهِ عن الظُّلم

قولُه تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا﴾ الإشارةُ في قولِه: ﴿تِلۡكَ﴾ إلى الآياتِ المشتَمِلةِ على تنعيمِ الأبْرارِ وتعذيبِ الكُفَّار، والإشارةُ للبعدِ في ﴿تِلۡكَ﴾ للإيذانِ بعُلُوِّ شأنِها وسُموِّ مكانتِها في الشَّرف، وكيف لا تكونُ، وقد أضيفتْ مع آياتِها إلى لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾، وهي آياتُه، وهو الَّذي أَنْزَلها جل جلاله؟

و﴿تِلۡكَ﴾ مبتدأ، وقولُه تعالى: ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ خبرُه، وقولُه تعالى: ﴿نَتۡلُوهَا﴾ جُملةٌ حاليَّةٌ من الآياتِ، والعاملُ فيها معنَى الإشارة، أو هي الخبرُ، و﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ بَدَلٌ من اسْمِ الإشارة.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلم).

والالْتفاتُ إلى التَّكلُّم بنونِ العَظَمةِ في ﴿نَتۡلُوهَا﴾ مع كونِ التِّلاوة على لسانِ جبريل عليه السلام لإبرازِ كمالِ العنايةِ بالتِّلاوة.

وقولُه تعالى: ﴿عَلَيۡكَ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿نَتۡلُوهَا﴾[1]، وتقديمُه على (الحقِّ) لإبرازِ مكانةِ المَتْلُوِّ عليه، ومزيدِ شرفِه، وهو رسولُ اللّهِ ﷺ.

معنى الباء في قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّۗ﴾وموقع شبه الجملة من الإعراب:

"وقولُه تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّۗ﴾ الباءُ للمُلابَسَة، وهي مُلابسةُ الإخبارِ للمُخْبَرِ عنه، أي: لما في نَفْسِ الأمرِ والواقع"[2].

وقولُه تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّۗ﴾: حالٌ مؤكَّدةٌ من فاعلِ ﴿نَتۡلُوهَا﴾ أوْ من مفعولِه، أي: مُلْتبسين، أو التِّلاوةُ مُلْتَبسةٌ بالحقِّ والعَدْل، ليس في حُكمِها شائبةُ جَوْرٍ بنقصِ ثوابِ المُحْسنِ، أو بزيادَةِ عقابِ المُسيء، أوْ بالعقابِ من غيرِ جُرم، بل كلُّ ذلكَ مُوفًّى لهم حَسْبَ اسْتحقاقِهم بأعمالِهم بِمُوجِبِ الوَعْدِ والوعيد.

الدَّلالات البلاغيَّة في قوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٨﴾ تَذْييلٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قبلَه على أَبْلَغِ وَجْهٍ وآكَدِه، فإنَّ تنكيرَ الظُّلم، وتوجيهَ النَّفْيِ إلى إرادتِه بصيغةِ المضارعِ ﴿يُرِيدُ﴾ دونَ نَفْسِه، وتعليقَ الحكم بآحادِ الجمعِ المعروف، فالواو قد تكون عاطفة، وقد تكون حاليَّة، أي: نتلوها عليك بالحقِّ، والحال أنَّ اللّه لا يريد ظلمًا للعباد، والتَّعبير بالمضارع في فعل الإرادة للتَّجدُّد الاستمراريِّ، ودلَّ هذا التركيب على التَّخصيص، حيث تقدَّم النَّفي على المسند إليه والمسند الفعليِّ ممَّا يدلُّ على تقوية الحكم وتوكيده، لكنَّ القرينة المعنويَّة هنا تنفي أن يكون غير اللّه لا يريد ظلمًا للعباد، فدلَّ هذا التَّركيب بوجود هذه القرينة على أنَّ اللّه عزَّ شأنه وحده فقط من لا يريد ظلمًا للعباد، كما هو مقرَّر في علم المعاني.

والالْتفات إلى الاسْمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾ إشعار بعلَّةِ الحكم وبيان لكمالِ تَنَزُّهِه عز وجل عن الظُّلم بما لا مَزيدَ عليه، أي: ما يُريدُ فردًا من أفرادِ الظُّلمِ لِفَرْدٍ من أَفْراد العالمينَ في وقْتٍ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/533.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/47.

من الأوقات فضلًا عن أنْ يظلمَهم، إذ كيفَ يظلمُهم، وهو لا يحبُّ الظَّالمين ولا يَهديهم، كما قالَ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٧﴾ [آل عمران: 57]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٦﴾ [آل عمران: 86]؟ بل يدعو عليهم: ﴿فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤١﴾ [المؤمنون: 41].

والفعلُ المضارعُ ﴿يُرِيدُ﴾ يُفيدُ الاسْتمرارَ في الإثبات، ويُفيدُه كذلكَ في النَّفْي بحسبِ المقام.

والجملةُ الاسْميَّةُ تدُلُّ على دوامِ الثُّبوت، وعندَ دُخولِ حرفِ النَّفْيِ عليها تدُلُّ على دوامِ الانْتفاءِ لا على انْتفاءِ الدَّوام.

وسياقُ الجملةِ القرآنيَّةِ وسَبْكُهُ على النَّحْوِ المذكور، فيه نوعُ إيْماءٍ إلى التَّعريضِ بأنَّ الكَفَرَةَ هُمُ الظَّالمون، ظلموا أَنْفُسَهم بتعريضِها للعذابِ الخالد، كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٤٤﴾ [يونس: 44][1].

وكذلك تنكيرُ ﴿ظُلۡمٗا﴾ في سياقِ النَّفيِ يَدُلُّ على انْتفاء جِنْسِ الظُّلم عن أن تتعلَّق به إرادةُ اللّه تعالى، فكلُّ ما يُعدُّ ظُلمًا في مجالِ العقولِ السَّليمةِ مُنتفٍ أنْ يكونَ مرادَ اللّه سُبحانه وتعالى[2].

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الآيات والدَّلائل والبيِّنات:

كلمةُ (البينات) "تَعْني: الكشفَ عن الشَّيء، وشرحَ ما هو مُجْمَل أوْ مُبْهم من الكلام"[3].

وكلمةُ (الدَّلائل) "تعني: التَّدليلَ على الشَّيءِ والتَّسْديدَ إليه ليُعلَم، وهي متعلِّقةٌ بالأقوال، وتُفيد الظَّنَّ"[4].

وأمَّا كلمةُ (الآيات)؛ "فهي العلامةُ الظَّاهرة، وتكون سببًا لإدراكِ أمرٍ آخَر، لا يَتمُّ إدراكُهُ إلَّا بوجودِها"[5].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/532.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/47.
(3) الرَّاغب، المفردات: (بين).
(4) العسكري، الفروق اللغوية: 97.
(5) الرَّاغب، المفردات: (أي).

وممَّا سبقَ بيانُه يتَّضح: أنَّ اسْتخدامَ البيانِ الإلهيِّ لكلمةِ (الآيات) أقومُ قيلًا فيما سيقتْ من أجلِه في حديثِ القرآنِ هنا في هذه الآيةِ الكريمةِ الَّتي تُخبرُنا عن علامةٍ ظاهرةٍ بيِّنةٍ في وُجوهِ المؤمنينَ ووُجوهِ الكافرينَ يومَ القيامة، فوجوهُ المؤمنينَ بيضاءُ نقيَّة، انعكستْ عليها إشراقاتُ الإيمانِ ونورُه المبين، فتمَّ الإدراكُ بأنَّه هو السَّبب، بينما وجوهُ الكافرينَ سَوداءُ مُظلمةٌ، كسوادِ الكُفرِ وظلامِه الَّذي رانَ على قلوبِ أصحابِه، فأدركْنا أنَّه السَّبب، وهو أمرٌ ليس فيه شرحٌ لمجمَلٍ أو مُبْهمٍ، كما هو معنَى (البيِّنات)، ولا هو أمرٌ يُفيدُ الظَّنَّ، كما هو معنَى (الدَّلائل).

فكانَ لا بُدَّ من إيراد الآياتِ في السِّياق، فهي البَلْسَمُ الشَّافي الكافي لإدراكِ حقيقةِ الإيمانِ وحقيقةِ الكفر، وعلامةِ كلٍّ منهما على أصحابه.

التِّلاوة والقِراءة:

"الفرقُ بينَهما: هو أنَّ التِّلاوةَ لا تكونُ إلَّا لكلمتَينِ فصاعدًا، والقراءةُ تكونُ للكلمةِ الواحدة، يُقالُ: قرأَ فلانٌ اسْمَه، ولا يُقالُ: تَلَا اسْمَه، وذلكَ أنَّ أصلَ التِّلاوةِ إتْباعُ الشَّيءِ الشَّيءَ، يُقالُ: تَلاهُ؛ إذا تبعَه، فتكونُ التِّلاوةُ في الكلماتِ يتبَعُ بعضُها بعضًا، ولا تكونُ في الكلمةِ الواحدة؛ إذْ لا يَصِحُّ فيها التُّلُوُّ"[1].

" وكذلكَ التِّلاوةُ تختصُّ باتِّباعِ كُتُبِ اللّهِ المُنَزَّلة، تارةً بالقراءةِ وتارةً بالارْتسام؛ لما فيها من أمرٍ ونَهْيٍ وترغيبٍ وترهيب، أو ما يُتوهَّمُ فيه ذلك، وهي أخصُّ من القراءة، فكلُّ تلاوةٍ قراءة، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوةً"[2].

ونَخْلُصُ من بيانِ هذه الفروقِ إلى أمرٍ واضح، جلَّى لنا فيه سياقُ النَّصِّ القرآنيِّ أحقيَّةَ استخدامِه للفعلِ (نَتْلو) بَدَلَ الفعل (نَقْرأ).

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 140.
(2) الرَّاغب، المفردات: (تلو).

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ١٠٩﴾ [آل عمران: 109]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا نفَى اللهُ تعالى الظُّلمَ عنه في الآيةِ السَّابقةِ؛ وصلَه بذكرِ اتِّساعِ قدرتِه وملكِه، وأنَّ أفعالَهُ محضُ حكمةٍ وعدلٍ، ولتكونَ هذهِ الآيةُ كالحجَّةِ والدَّليلِ على قولِه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: 108]؛ لِأَنَّهُ إِذَا كانَ لهُ ما في السَّموات وَما في الْأَرْضِ؛ فهوَ يرِيدُ صلاحَ حالِهِمْ، وَلَا حاجَةَ لهُ بِإِضْرارِهِمْ إِلَّا لِلْجزاءِ عَلَى أَفْعالِهِمْ[1].

وأيضًا لمَّا أمرَاللهُ المؤمنينَ بالإقبالِ عليهِ، ونهاهُمْ عنِ الإعراضِ عنهُ، ربَّما أوقعَ في وهمِ أنَّهُ غيرُ قادرٍ على ضبطِهم، أو مُحتاجٌ إلى ربطِهم؛ أزالَ ذلكَ بهذه الآية، دالًّا على أنَّه غنيٌّ عن الظُّلم، وأنَّ كلَّ ما في السَّماوات وما في الأرضِ ملكٌ له، فهوَ سُبحانَهُ غنيٌّ عنْ كلِّ شيءٍ، وقادرٌ على كلِّ شَيءٍ[2]، والمناسباتُ لا تتزاحَمُ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلِلَّهِ﴾: اللهُ عَلَمٌ على الذَّاتِ العليَّة، الْهَمْزَةُ وَاللَّامُ وَالْهَاءُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ التَّعَبُّدُ؛ فَالْإِلَهُ اللهُ تَعَالَى، وَسُمِّيَ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ مَعْبُودٌ، وَيُقَالُ: تَأَلَّهَ الرَّجُلُ؛ إِذَا تَعَبَّدَ، قيل: أصله إله: فحذفت همزته، وأدخل عليها الألف واللَّام، فخصَّ بالباري تعالى، ولتخصُّصِه به قال تعالى: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ [مريم: 65]، وإله: جعلوه اسمًا لكلِّ معبود لهم، وكذا اللَّات، وسمُّوا الشمس إِلَاهَة؛ لاتِّخاذهم إيَّاها معبودًا، وأَلَهَ فلان يَأْلُهُ: عبد، وقيل: تَأَلَّهَ، فالإله على هذا هو المعبود.

هذا، وقد قال فريق من العلماء: إنَّ اسم الجلالة (الله) ليس من الأسماء الَّتي يجوز اشتقاقُ فعل منها، كما يجوز في الرَّحمن الرَّحيم، أي: أنَّه غير مشتقٍّ، وقال فريق آخر: إنَّ أصله الإلاه، وحُذفت الهمزة، كما حُذفت من (النَّاس)، وأصله: الأناس.

---

(1) المهدوي، التحصيل: 2/105، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/47.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/23 - 24.

والله ﷻ لا يَحاط بكُنْه حقيقته أحدٌ، بيده كلُّ شيء: العالم كلُّه ممَّا هو أدقُّ من الذَّرَّة إلى ما هو أعظمُ من كلِّ مجرَّة؛ عِلمًا وملكًا وإيجادًا وتصريفًا وإفناءً، وأستغفر اللّه من قصور العبارة.[1].

2) ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مفردها: السَّماء، من سما يسمو سُمُوًّا؛ إذا علا وارتفع، السِّينُ وَالْمِيمُ وَالْوَاوُ: أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى الْعُلُوِّ، يُقَالُ: سَمَوْتَ؛ إِذَا عَلَوْتَ، وَسَمَا بَصَرُهُ: عَلَا، وَسَمَا لِي شَخْصٌ: ارْتَفَعَ حَتَّى اسْتَثْبَتُّهُ، وَسَمَا الْفَحْلُ: سَطَا عَلَى شَوْلِهِ سَمَاوَةً، وَسَمَاوَةُ الْهِلَالِ وَكُلِّ شَيْءٍ: شَخْصُهُ، وَالْجَمْعُ سَمَاوٌ، وَالْعَرَبُ تُسَمِّي السَّحَابَ: سَمَاءً، وَالْمَطَرَ: سَمَاءً، فَإِذَا أُرِيدَ بِهِ الْمَطَرُ؛ جُمِعَ عَلَى سُمِيٍّ، وَالسَّمَاءَةُ: الشَّخْصُ، وَالسَّمَاءُ: سَقْفُ الْبَيْتِ، وَكُلُّ عَالٍ مُطِلٍّ: سَمَاءٌ، حَتَّى يُقَالَ لِظَهْرِ الْفَرَسِ: سَمَاءٌ.

المعنى المحوريُّ: ارتفاع الشَّيء أو شخوصه ملتئمًا ظاهره وأعلاه على ما تحته، كالسَّماء الملتئمة، وكالسَّقف فوقنا، وكسقف البيت عليه، وأعلى الفرس دونه بدنه وقوائمه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ [الذَّاريات: 47]، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥﴾ [الطور: 5]، ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ﴾ [الأنبياء: 32][2].

3) ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾: كُلُّ شَيْءٍ يَسْفُلُ، وَيُقَابِلُ السَّمَاءَ، يُقَالُ لِأَعْلَى الْفَرَسِ: سَمَاءٌ، وَلِقَوَائِمِهِ أَرْضٌ، قَالَ في وصف فرس:

وَأَحْمَرَ كَالدِّيبَاجِ أَمَّا سَمَاؤُهُ *** فَرَيًّا وَأَمَّا أَرْضُهُ فَمُحُولُ[3]

سَمَاؤُهُ: أَعَالِيهِ، وَأَرْضُهُ: قَوَائِمُهُ، وَالْأَرْضُ: الَّتِي نَحْنُ عَلَيْهَا، وَتُجْمَعُ: أَرَضِينَ، وَلَمْ تَجِئْ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَجْمُوعَةً، وهو الجِرْم المقابل للسَّماء.

والمعنى المحوريُّ: كثافة الجرم مع غِنَى باطنه بلطيف تقوم به وعليه الأشياء: كهذه الأرض الَّتي نحن عليها، فهي كثيفة الجرم، وتحمل كلَّ ما عليها، وغنيَّة الباطن بما ينبت النَّبات، وهذا ملحوظ في الاستعمالات المعبِّرة عن هذا التَّركيب، والَّذي ورد في القرآن

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أَلَه)، والراغب، المفردات: (أله)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (أله).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سمو)، والراغب، المفردات: (سمو)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (سمو).
(3) هذا البيت من الطويل، ينسب إلى طفيل الغنوي، وهو في ملحقات شعره، ص: 62، يصف فرسًا أحمر وشبَّهه بالديباج في حسن لونه وملاسة جلده.

الكريم من هذا التركيب لفظ: ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ هذه الَّتي نعيش عليها، أو بقعة خاصَّة منها، يُعيِّنها السِّياق، عدا ﴿وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ﴾ [الزُّمر: 74] فالسِّياق يجزم بأنَّها أرض الجنَّة[1].

4) ﴿تُرۡجَعُ﴾: الرَّاءُ وَالْجِيمُ وَالْعَيْنُ: أَصْلٌ كَبِيرٌ مُطَّرِدٌ مُنْقَاسٌ، يَدُلُّ عَلَى رَدٍّ وَتَكْرَارٍ، تَقُولُ: رَجَعَ يَرْجِعُ رُجُوعًا؛ إِذَا عَادَ، والرُّجوع: العود إلى ما كان منه البَدء، أو تقدير البَدء مكانًا كان أو فعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رجوعه، أو بجزء من أجزائه، أو بفعل من أفعاله، فالرُّجوع: العود، والرَّجع: الإعادة، والرَّجعة في الطَّلاق، وفي العود إلى الدُّنيا بعد الممات[2].

والمعنى المحوريُّ: تحوُّلٌ عن الاتِّجاه أو الحال إلى عكسه - كما يتردَّد الماء في الغدير؛ لأنَّه محتبس فيه لا يسترسل بعيدًا، وكما يتحوَّل الماء الصَّافي العذب المُرْوي إلى عَرَقٍ كريه الرِّيح، والطعامُ إلى نَجْو، فهاتان صورتان للمعنى.

وكلُّ ما في القرآن من التَّركيب؛ فهو بمعنى: الرُّجوع والعود، مع اختلاف الصُّور أحيانًا[3].

5) ﴿ٱلۡأُمُورُ﴾: جَمعُ أمرٍ، بمعنى: (الحادثة) و(الشَّأن) و(الحال)، والمعنى المحوريُّ: نفاذ مع علُوٍّ وراءه جمع بشدَّة، وهذا المعنى: هو صورة من الجرَيان المأخوذ من النَّفاذ في المعنى المحوريِّ[4]، ويُرادُ بالأمر هنا: الشَّأنُ، وهو لفظٌ عامٌّ للأفعالِ والأقوالِ والذَّواتِ والصِّفاتِ كلِّها، وقد يأتي (الأمر) بمعنى: المصدر من (أمر)، كما في: ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ۝٦٩﴾ [الكهف: 69]، وجمعه: أوامر، وإذا أُسْنِد (الأمر) إلى المولى ﷻ؛ فإنه يفسَّر بالقضاء، وبالتَّصريف والتَّدبير.

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

للّٰهِ تعالى وحدَهُ ملكُ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ، خَلْقًا وأَمرًا، وَإليهِ تعالى وحدَهُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أرض)، والراغب، المفردات: (أرض)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (أرض).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجع)، والراغب، المفردات: (رجع)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (رجع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (رجع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمر)، والراغب، المفردات (أمر)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (أمر).

مصيرُ جميعِ المخلوقاتِ، ومِنْ ذلكَ رجوعُ النَّاسِ إليهِ يومَ القيامةِ، فَيُجازي كُلًّا مِنهمْ على قَدْرِ استحقاقِهِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبة التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

ثبوت ملكِ الله لما في السَّموات وما في الأرض مطلقًا

جاءتِ الجملةُ الاسميَّةُ لإفادةِ ثبوتِ ملكِ اللّهِ لِمَا في السَّمواتِ وما في الأَرضِ مِنْ غيرِ قيدٍ للزَّمنِ؛ لِيشمَلَ زمنَ الخَلقِ وما بعدَهُ مُطلقًا.

سرُّ العدول عن اسم الموصول (مَن) إلى ﴿مَا﴾:

للدَّلالةِ على العموم، ولإظهارِ ضَعفِ العقلاءِ في مقامِ بيانِ عظمَة الله

جاءَ الاسمُ الموصولُ للدَّلالةِ على العموم، وعَدلَ عَنْ (مَنْ) إلى ﴿مَا﴾ الدَّالَّةِ على مخلوقاتِه؛ لِأَنَّ نفيَ المِلكِ يستلزمُ الحاجةَ، فنُزِّلَ العاقلُ منزلةَ غيرِهِ على التَّغليبِ؛ لاقتضاءِ السِّياقِ ولِكثرةِ غيرِ العاقِلِ، ويحتمل أنْ يكونَ العُدولُ إلى إيرادِ (ما) لِإظهارِ ضَعفِ العقلاءِ في مقامِ بيانِ عظمَتِهِ سُبحانَهُ وتعالى[1]، كما أنَّ في التّعبيرِ بـ (ما) إشارةً إلى الذَّواتِ والأَوصافِ والأحوالِ.

بلاغةُ تقديمِ المسنَدِ على المسنَدِ إليهِ:

مقامُ تعظيمِ اللهِ يقتضي التَّخصيصَ والاهتمامَ

لّما كانتِ اللَّامُ في قولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ﴾ دالَّةً على الملكِ أَفادَ تقديمُ المسندِ ﴿وَلِلَّهِ﴾ تخصيصَ ملكِ ما في السَّمواتِ وما في الأَرضِ باللّهِ تعالى، وحصرَهُ بِهِ سُبحانَهُ وتعالَى، كمَا دلَّ تقديمُ ﴿وَلِلَّهِ﴾ على العِنايةِ بالاسمِ الجليلِ والاهتمامِ به؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تعظيمٍ.

نكتة تكرير ﴿مَا﴾:

اختصاص الملك بالله وعلى الاجتماع وعلى التَّفرُّق

أَعادَ الاسمَ الموصولَ ﴿مَا﴾ لِتأكيدِ مُلكِ اللّهِ تعالى لِجميعِ ما في الأَرضِ؛ لِمَا قدْ يَتوهَّمُ النَّاسُ بسببِ تدبيرِهم في الأرضِ ومعاشِهم فيها أنَّهم قدْ يملكونَ شيئًا، ولِيكونَ مُلكُ ما في السَّمواتِ وما في

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/70.

الأَرضِ مُختصًّا باللّهِ تعالى على الاجتماعِ بينهما وعلى التَّفرُّق، تقريرًا لِمقامِ الألوهيَّةِ وتأكيدًا له.

بديعُ الطِّباقِ:

جاءَ الطِّباق في الآيةِ بذكرِ السَّمواتِ والأرضِ؛ لِلإشارةِ إلى الإحاطةِ، وقدَّمَ لفظَ السَّمواتِ على لفظِ الأرضِ، كَما هي عادةُ القرآنِ؛ لِبيانِ شرفِها وعلُوِّ منزلتِها، وإيرادُ لفظِ السَّموات بصيغةِ الجمعِ، وإفرادُ لفظِ الأرضِ؛ لِعظمةِ أمرِ السَّماءِ وخفاءِ ما فيها.

لِـلإشـارةِ إلى الإحاطةِ

سببُ عطفِ قولِه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ على ما قبلَهُ:

لَمّا أثبتَ اللّهُ تعالى ملكَهُ لِجميعِ المخلوقاتِ الَّتي في السَّمواتِ وفي الأَرضِ نَسَقَ عليه الإعلام برجوعِ الأُمورِ كلِّها إليه تعالى في الدُّنيا والآخرةِ؛ لِتقريرِ الجملةِ الأولى، بمعنى إثباتِ الملكِ للّهِ تعالى، وَللتَّعريضِ بما تستلزمُهُ الجملةُ من المجازاةِ يومَ القيامةِ، أي: فيجازي كلَّ واحدٍ مِنَ المحسنينَ والمسيئينَ بما وعدَ لهُ، وأَوعدَ، ففي الجملة بشارةٌ للمؤمنينَ وتهديدٌ وإنذارٌ للكافرينَ، وأيضًا في الجملة الأولى إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ سبحانَهُ هوَ الأَوَّلُ، وفي الثَّانية إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ هُوَ الآخر، وذلك يدلُّ على إحاطَةِ حكمِه وَتَصرُّفِه وَتَدْبِيرِه بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ، وَأَنَّ الْأَسبابَ مُنْتَسِبَةٌ إِلَيْهِ، وَأَنَّ الْحاجاتِ مُنقَطِعَةٌ عِندَهُ[1].

مجازاةُ كلِّ واحدٍ مِـنَ المحسنينَ والمسيئينَ بما وعـدَ الـلّـهُ لـهُ وأَوعدَ

دلالةُ حرفِ الجرِّ ﴿وَإِلَى﴾:

لَمّا كانتْ ﴿وَإِلَى﴾ لانتهاءِ الغايةِ، و(الـ) في ﴿ٱلۡأُمُورُ﴾ لاستغراقِ كلِّ شأنٍ أو حالٍ مِمَّا لاينفكُّ عنه مخلوقٌ؛ دلَّتْ على عودِ كلِّ المخلوقاتِ وشؤونِها ذاتًا وأَحوالًا إلى اللّهِ تعالى.

كـلُّ المخلوقاتِ تـعودُ إلى الله تعالى

بلاغةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾:

قدَّمَ الجارَّ والمجرورَ الَّذي هو مُتعلِّقُ الفعلِ ﴿تُرۡجَعُ﴾؛ لِلتَّخصيصِ،

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/323.

للتَّخصيص، وإفادة الاعتناء بالاسم الجليل

أَي: إليه لا إلى غيرِه ترجَعُ الأمورُ، كما يفيدُ التَّقديم الاعتناءَ بالاسم الجليلِ والاهتمامَ بهِ أَيضًا؛ لِتقريرِ المعنى، فإنَّهُ إذا دخلَ القلبَ أوَّلًا؛ استقرَّ وثبت، ولاسيَّما أنَّهُ جاءَ لِدفعِ وَهمِ مَا يكونُ عَلَيْهِ مُلُوكُ الدُّنْيَا مِنْ رجوعِ أُمُورِ النَّاسِ إِلَيْهِمْ[1].

نُكتةُ العدولِ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ:

تكرارُ اسم الجلالةِ للتَّأثيرِ في السَّامعِ ولِتقريرِ المعنى وتعميمِه

كرَّرَ اسمَ الجلالةِ (اللَّه) بِدونِ إِضْمَارٍ معَ قربِ ذكرِالاسم الجليلِ؛ لِأَنَّ المقامَ مقامُ إحضارٍ لاسم الجلالة بعينِه في ذهنِ السَّامعِ للتَّأثيرِ فيه؛ لِأَنَّ اسمَ العلَم (اللَّه) مختصٌّ بالمعبودِ الحقِّ، لايُطلَقُ على غيرِه[2]، كما أَنَّ المقامَ مقامُ تعظيم اسم الجلالة، وهو أَفْخمُ وأَعظَمُ وَأَوضحُ، فذكرَ الاسمَ الجليلَ لِزيادةِ التَّقريرِ والتَّأكيد، وأيضًا لِلْقَصْدِ إِلَى أَنْ تكونَ كُلُّ جملَةٍ مُستقلَّة الدَّلالة بِنفسِهَا، غَيرَ مُتوقِّفَةٍ عَلَى غيرِهَا، حَتَّى تَصلُحَ لِأَنْ يُتَمَثَّلَ بِهَا، وَتَسْتَحْضِرَهَا النُّفُوسُ، وَتَحْفَظَهَا الْأَسْمَاعُ، فكلُّ اسم في جملةٍ في مقام استقلالِها بنفسِها؛ لِتكونَ الآيةُ مُضَمَّنَةً جملتَي تذييلٍ، فهذِهِ الجملةُ يَنْدَرِجُ في ضِمْنِهَا جَمِيعُ أَحْوَالِ الْعِبَادِ مُنْذُ خُلِقُوا إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ، وَمِنْ هَذَا الْيَوْمِ إِلَى الْفَصْلِ بَيْنَ الْعِبَادِ[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بكلمةِ ﴿تُرْجَعُ﴾:

رجوعُ الأمورِ بمعنى ظهورِ رجوعِها

لَمَّا كانَ الرُّجوعُ إلى الشَّيءِ يكونُ بعدَ الذَّهابِ عنه، والحالُ أَنَّ الأمورَ باقيةٌ بيدِ اللَّهِ وفي قبضتِه، فَيُقالُ فَلِمَ قال ذلك؟ والجوابُ: أَنَّهُ لَمَّا كانَ بعضُ الخلقِ في الدُّنيا قدْ يملكُ في الظَّاهر، ويقومُ بالتَّدبيرِ؛ ذكرَ الرُّجوعَ على معنى: ظهورِ رجوعِ الأمورِ كلِّها إلى اللَّهِ يومَ القيامة[4].

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/346.
(2) التفتازاني، المطول، ص: 215 - 216.
(3) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 181، ومكي بن أبي طالب، الهداية: 2/1093، وأبو حيان، البحر المحيط: 2/346، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/48.
(4) البروسوي، روح البيان: 2/78.

سببُ إيثارِ ذكرِ الفعلِ المبنيِّ لِلمفعول:

فقال: ﴿تُرۡجَعُ﴾ للإيجازِ في الكلامِ؛ لأنَّ السِّياقَ دالٌّ على الفاعل، وهو اللّه تعالى، ولمَّا كان رجوع أمور العباد جميعًا لا اختيار فيه لأحدٍ سواه؛ بُني الفعل للمفعول، فلا رادَّ لقضائه، ولا معقِّب لحكمه، وقد قرأ ابنُ عامرٍ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ ويعقوبُ: ﴿تَرۡجِعُ﴾ بفتح التَّاء وكسر الجيم، وقرأ الباقون: بضمِّ التَّاءِ وفتحِ الجيم[1]، وقد جمعت الكلمة القراءتين؛ للدَّلالة على رجوع جميع الأمور إليه، سواء أكان للناس فيها اختيار في الظاهر، أم لم يكن.

دلالةُ (الـ) في ﴿ٱلۡأُمُورُ﴾:

دلالةُ الاستغراق علـى عـمـومِ الأمور

أفادتْ (الـ) الاستغراقَ؛ لِيُقصَدَ بالأمورِ العمومَ، ففيهِ بيانُ عظمةِ اللّهِ تعالى، وهو الواسعُ، حيث كانتْ جميعُ الأمورِ صغيرِها وكبيرِها تُرجَعُ إليهِ، وجاءَ بصيغةِ جمعِ الكَثرةِ لِتنوُّعِ الأمورِ؛ لِتشمَلَ جميعَ الأقوالِ والأفعالِ والذَّواتِ والصِّفاتِ الَّتي في السَّمواتِ والَّتي في الأرضِ.

دلالةُ حذفِ المعمولِ في قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾:

لِإفادةِ العمومِ

لم يُقَيَّد زمنُ إرجاعِ الأمور، فحَذفَ المتعلَّقَ؛ لإفادةِ العموم، والمعنى إلى اللّهِ تُرجَعُ الأُمورُ في الدُّنيا والآخرةِ[2]، ففي الدُّنيا بِما يستشعرُهُ المؤمنونَ، وفي الآخرةِ بما هو ظاهِرٌ للمؤمنينَ والكافرينَ.

(1) الداني، جامع البيان: 3/988، وابن الجزري، النشر: 2/209 - 241.
(2) ابن الخطيب، أوضح التفاسير: 1/74.

﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١١٠﴾ [آل عمران: 110]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللَّه تَعَالَى كَمَالَ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ﴾ [آل عمران: 106]، وَكَمَالَ حَالِ السُّعَدَاءِ في قولِهِ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ﴾ [آل عمران: 107]؛ نَبَّهَ عَلَى مَا هُوَ السَّبَبُ لِوَعِيدِ الْأَشْقِيَاءِ بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٨﴾ [آل عمران: 108]، يَعْنِي: أَنَّهُمْ إِنَّمَا اسْتَحَقُّوا ذَلِكَ بِأَفْعَالِهِمُ الْقَبِيحَةِ، ثُمَّ نَبَّهَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى مَا هُوَ السَّبَبُ لِوَعْدِ السُّعَدَاءِ بِقَوْلِهِ: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾، أَيْ: تِلْكَ السَّعَادَاتُ وَالْكَمَالَاتُ وَالْكَرَامَاتُ إِنَّمَا فَازُوا بِهَا فِي الْآخِرَةِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَيۡرَ﴾: اسمُ تفضيلٍ من: خَيرَ، وأَصلُه: أَخيرُ، ومثلُهُ (شَرٌّ) على معنى: الضِّدِّ؛ إذا جاءَ اسمَ تفضيلٍ، وحُذِفَتِ الهمزةُ لِكثرةِ الاستعمالِ ولِلتَّخفيفِ، والخيرُ كلُّ نفعٍ مستحسَنٍ أو ما يَرغَبُ فيه كلُّ النَّاسِ، كالعقلِ مثلًا، والعدلِ، والفضلِ، والشَّيءِ النَّافعِ، وقولُه تعالى: ﴿خَيۡرَ أُمَّةٍ﴾ بمعنى: أَكثرِ الأُممِ خيرًا ونفعًا للنَّاسِ[2].

2) ﴿أُمَّةٍ﴾: كُلُّ شَيْءٍ يُضَمُّ إِلَيْهِ مَا سِوَاهُ مِمَّا يَلِيهِ؛ فَإِنَّ الْعَرَبَ تُسَمِّي ذَلِكَ الشَّيْءَ أُمًّا، فيأتي بمعنى: الْأَصلِ وَالْمَرْجِعِ وَالْجَمَاعَةِ وَالدِّينِ، وتطلقُ الأمَّةُ على كلِّ جماعةٍ يجمعها قصدٌ واحدٌ مِنْ نَسَبٍ أَوْ مَوْطِنٍ أَوْ دِينٍ، أو مكانٍ أو زمانٍ أَوْ مَجْمُوعِ ذَلِكَ، وَيَتَعَيَّنُ مَا يَجْمَعُهَا بِالْإِضَافَةِ أَوِ الْوَصْفِ، كَقَوْلِهِمْ: أُمَّةُ الْعَرَبِ وأمَّةُ الإسلامِ وأمَّةٌ مؤمنةٌ[3]، والمرادُ بالأمَّةِ في الآيةِ أمَّةُ رسولِ اللهِ محمَّدٍ ﷺ أو الصَّحابةُ في الْعَصْرِ النَّبَوِيِّ[4].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/323.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (خيَر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (أمم)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/37.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/48.

3) ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾: يدلُّ معنى (عَرَفَ) على تميُّزِ أَعلى الشَّيءِ أَو ظاهرِه، بملمَحٍ يدلُّ عليهِ أَو على أَمرٍ فيه، كَعُرْفِ الدِّيك، ومنهُ المعروفُ؛ لِأَنَّهُ شَيءٌ جارٍ مألوفٌ متميِّزٌ مقبولٌ يَعْرِفُه كلُّ أحدٍ، وصارَ اسمًا لِكُلِّ خَصلةٍ حسنةٍ ترتضيها العقولُ وتطمئِنُّ إليها النُّفوسُ[1].

4) ﴿ٱلۡمُنكَرِ﴾: المعنى المحوريُّ: تغطيةٌ لمادَّة حادَّة أو غريبة، كالَّذي في الخُرَاج والحُوَلاء من القيح والصَّديد، والأصل هو الدَّم وحده، وكما يُحْتَمَى في داخل الحصن مع قوَّة الحصن، وهو مُنكَر - بفتح الكاف - وذو نكراء: داهٍ (والفطنة والدَّهاء حدَّة في الذِّهن)، ونَكُر الأمر، ككَرُم: صَعُب واشتدَّ، والإِنْكَارُ: ضِدُّ العِرْفَان، والنَّكِرة ضدُّ المعرفة غيرُ المعروف، كالمغطَّى المستتر مجهول، وَنَكِرَ الشَّيْءَ وَأَنْكَرَهُ: لَمْ يَقْبَلْهُ قَلْبُهُ، وَلَمْ يَعْتَرِفْ بِهِ لِسَانُهُ، والمُنْكَرُ: كُلُّ ما قبَّحه الشَّرع وحرَّمه وكَرِهَهُ، فهو مُنكَر: ﴿وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ [العنكبوت: 29][2].

5) ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾: المعنى المحوريُّ للفِسْق: خروج الشَّيء عن غلافه (حَدِّه) أو حَيِّزه لحِدَّةٍ أو فساد، فَكلُّ شيءٍ خرجَ عنْ حدِّه؛ فقدْ فَسَقَ، ويأتي في القرآنِ بمعنى: الخُروج عن حُدودِ الشَّرعِ، فالفاسق: الخارج عن الحقِّ، والخارج من طاعة اللَّه تعالى، فتارةً يكون ذلك بكفر، وتارةً يكون بعصيان غير الكفر، وأنَّ من كان مؤمنًا وفسق بمعصية دون الكفر؛ فإنَّه فاسقٌ بفسقه مؤمنٌ بإيمانه، أي: لم يخرج بفسقه عن الإيمان، ولا بلغ حدَّ الكفر، ومن أمثلة الفسق: ما ذكره اللَّه تعالى في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [البقرة: 27] على اعْتِدَادِ اسمِ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في مَطلع الآيةِ صفةً للفاسقين[3].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أَنتمْ - يا أُمَّةَ محمَّدٍ ﷺ - خَيرٌ مِنْ كُلِّ الأُممِ الَّتي أُظهِرَتْ للنَّاسِ لِأَجلِهم ومصلحتِهمْ؛ لأنَّكم تأْمرونَ بالمعروفِ، وهوَ ما عُرِفَ حُسنُهُ شَرعًا وَعقلًا، وتنهَونَ عنِ المُنكَرِ، وَهوَ ما عُرِفَ قبحُهُ شَرعًا وَعقْلًا، وَتُصدِّقونَ باللّهِ تصديقًا جازمًا يُؤَيِّدُهُ العملُ، وَلَوْ آمنَ أَهلُ

(1) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عرف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (نكر).
(3) الراغب، المفردات، الفيومي، المصباح المنير: (فسق)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (فسق).

الكتابِ مِنَ اليهودِ والنَّصارى برسولِ اللّهِ محمَّدٍ ﷺ وما جاءَهمْ بهِ مِنْ عندِ اللّهِ كَما آمنتمْ؛ لَكانَ خيرًا لَهمْ في الدُّنيا وَالآخرةِ، مِنهمُ المؤمنونَ المُصدِّقونَ برسالةِ رسولِ اللّهِ محمَّدٍ ﷺ العاملونَ بِها، وهمْ قليلٌ، وَأكثرُهمُ الخارجونَ عنْ دينِ اللّهِ وطاعتِهِ.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ (كان) بينَ النُّقصانِ والتَّمام:

دوامُ الاتِّصافِ بالخيريَّةِ لِأمَّةِ النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ

تحتملُ (كانَ) أنْ تكونَ فِعلًا ماضيًا ناقِصًا، وهو الظَّاهرُ، فتكونَ على قصدِ التَّمدُّحِ والثَّناءِ؛ لِإظهارِ نعمةِ اللّهِ على المؤمنينَ؛ لِيُفيدَ اختيارَ اللّهِ لهم فيما ذكرهُ مِنْ أوصافِهمْ بينَ الأُممِ السَّابقةِ، فكأنَّ المعنى: قَضيتُ، وقدَّرتُ أَنْ تكونوا خيرَ أمَّةٍ أُخرِجَتْ للنَّاسِ، وأفادتْ (كانَ) خيريَّتَهم فيما مضَى، ولا تدلُّ على انقطاعٍ سابقٍ أو لاحقٍ، كما أَنَّ مجيئَها بقصدِ التَّمدُّحِ والثَّناء دلَّ على إفادتِها الدَّوامَ، والسِّياقُ يقوِّيه، وَهوَ ما ذهبَ إليهِ كثيرٌ مِنَ المفسِّرين[1]، فعدلَ عنْ قوله: (أَنتمْ) إلى ﴿كُنتُمۡ﴾؛ لِتأكيدِ خيريَّتِهم؛ لِأَنَّ المُتقدِّمَ مستصحَبٌ، وليسَ الآنِفُ متقدِّمًا[2].

وتحتملُ أن تكون تامَّةً، بمعنى: وجدتم وخلقتم حالَ كونكم خيرَ أمَّةٍ أخرجت للنَّاس، وأفاد مجيء الكلام على طريقة الإخبار التَّحْرِيضَ عَلَى الِانْقِيَادِ والاتِّصاف بالصِّفاتِ المذكورة[3].

﴿كُنتُمۡ﴾ بين تخصيص الخطاب وتعميمه:

خيريَّةُ الأمَّةِ المسلمة في أوَّلِها وآخرِها

لمّا قال: ﴿كُنتُمۡ﴾ بتاء الخطاب؛ احتملَ الكلامُ أن يكون لكلِّ أمَّة سيدنا محمَّدٍ ﷺ أي: الْجَمَاعَةُ الْمَوْصُوفُونَ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَالْإِقْرَارِ بِنُبُوَّتِهِ، فالأصل في الخطابِ أن يكونَ لمعيَّن، وهم الصَّحابة

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/489، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/33، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/70.

(2) الماوردي، النكت والعيون: 1/416.

(3) الزمخشري، الكشاف: 1/400، والرّازي، مفاتيح الغيب: 8/324، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/299.

رضوان الله عليهم ولكنَّه قصدَ به عمومَ الأمَّة بالشَّرطِ المذكور[1]، وجاء بصيغة الخطابِ تكريمًا للصَّحابة وتشريفًا لهم، لدخولِهم في الخطابِ دخولًا أوَّليًّا، واحتمل الخطابُ أن يكونَ خاصًّا بمن آمن بالنَّبيِّ ﷺ في ابتداء الإسلام، ويدخلُ مَنِ اتَّبَعَهُمْ في حُكْمِهِمْ لَا مَحَالَةَ[2].

نكتةُ إضافة اسمِ التَّفضيل إلى النَّكرة:

الصَّحَابَةُ أَفْضَلُ أُمَّـةٍ مِـنَ الْأُمَـمِ مَعَ رَسُولِهَا

أصابتْ هذهِ الإضافةُ مَحَزَّ البلاغةِ في الإيجاز، وبيانِ المُراد، فأفادتْ تخصيصَ الخيريَّةِ بأُمَّةِ سيِّدِنا محمَّد ﷺ ولكي يفيدَ أنَّ المخاطبينَ بعضٌ مِنَ الأمَّةِ أضافَ ﴿خَيْرَ﴾ إلى ﴿أُمَّةٍ﴾، ولمَّا كانَ لفظُ ﴿أُمَّةٍ﴾ نكرةً؛ دلَّ على أنَّ المرادَ منه الجِنسُ، ويقتضي الاستغراقَ[3]، والمعنى: كنتُمْ خيرًا مِنْ كُلِّ الأُمَمِ المخرَجةِ للنَّاسِ؛ إذا أُفردوا أمَّةً أمَّةً، وإذا اجتمعوا، ففيه ثناءٌ ما بعدَهُ ثناءٌ، وهذا الثَّناءُ مقترنٌ بكونِ الرَّسول محمَّدٍ ﷺ أفضلَ الرُّسُلِ، ولايدلُّ على هذا المعنى إلَّا هذا التَّركيبُ مَعَ وجازتِه وحُسنِ تأليفِه، وأَشارَ النُّحاةُ إلى هذا المعنى، كما في قولهم: (أَنتَ أَفرَهُ رجُلٍ في النَّاسِ) فمعناه: أنتَ أَفرَهُ مِنْ كُلِّ رجلٍ؛ إذا أُفردوا رَجُلًا رَجُلًا[4].

سببُ إيثار التَّعبير بصيغةِ المبني للمفعولِ:

مناسبةُ الكلامِ لسياقِ الخطابِ

جاء الفعل ﴿أُخْرِجَتْ﴾ على صيغة المبني للمفعول؛ للعلم بأنَّ الله هو مخرجُها، فَحُذِفَ لِلْعِلْمِ بِهِ إيجازًا في الكلام، وراعى ضمير الغيبة، فقال: ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾؛ ليعودَ الضَّميرُ إلى ﴿أُمَّةٍ﴾، ولم يُراعِ ضميرَ الخطابِ؛ ليقولَ: (أُخْرِجْتُم للنَّاسِ)، مع أنَّ كليهما عربيٌّ فصيحٌ؛ لِتَنَاسِبَ الجملةُ الْخِطَابَ في ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ مَعَ

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/456، والرّازي، مفاتيح الغيب: 8/325، أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/71.

(2) الراغب، تفسير الراغب: 2/791، ورضا، تفسير المنار: 4/50.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/489، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/50.

(4) ابن السراج، الأصول في النحو: 1/222.

الْخِطَابِ في ﴿تَأۡمُرُونَ﴾ وَمَا بَعْدَهُ[1]، ولتكونَ وصفًا لـ ﴿أُمَّةٍ﴾؛ لِتتناسَقَ مَعَ الفوائدِ المذكورةِ في نُكتَةِ إضافةِ اسم التَّفضيلِ إلى النَّكرةِ، ولو قال: (أُخْرِجْتُمْ للنَّاسِ)؛ لَكانتِ الجملةُ وصفًا لـ ﴿خَيۡرَ﴾، وينتفي معنى العمومِ المراد في الآيةِ وغيره.

دلالةُ كلمةِ ﴿أُخۡرِجَتۡ﴾:

أُمَّــةُ الإســلامِ ظهرتْ للنَّاسِ لِـنـفْـعِـهِـمْ ولِمَصلَحَتِهِمْ

الإخراجُ هنا بمعنَى: الظُّهورِ والبُروزِ، أو هو مَجَازٌ في الْإِظْهَارِ؛ لأنَّه لازمٌ للخروجِ[2]، وعُبِّرَ بـ ﴿أُخۡرِجَتۡ﴾ دون (أُظهرت)؛ للإشارة إلى أنَّ النَّاس كانوا في موضعٍ تائهينَ فيه ضائعين، فأُخرِجَتْ هذهِ الأُمَّةُ لهم، وفيه إيذانٌ بأنَّ الغلبةَ لهم[3]، كما أفادَ التَّعبيرُ أنَّ الخيريَّةَ في هذهِ الأمَّةِ، وظهرتْ هذهِ الخيريَّةُ، وبرزتْ، فانتفعَ النَّاسُ منها، فخروجُها للنَّاس "لأجلهم ومصلحتِهم"[4]، ففي التَّعبيرِ ثناءٌ آخر غيرُ ثناءِ الوصفِ بالخيريَّةِ، وفيهِ معنى البِشارةِ بالخُروجِ.

بلاغةُ الكلامِ بينَ الاستئنافِ البيانيِّ والحاليَّةِ:

خـيريَّـةُ الأمَّــةِ في الاتِّــصــافِ بـــالأوصـــافِ المذكورةِ

تحتملُ جملةُ ﴿تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ ومانُسِقَ عليها في قولِهِ: ﴿وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ أَنْ تكونَ استئنافًا بيانيًّا[5]؛ لِتشويقِ المتلقِّي، ولِتكثيرِ المعنى بتقليلِ اللَّفظِ، فَبعدَ أَنْ ذكرَ خيريَّتهم، استدعى الكلامُ سؤالًا، فكأنَّ سائلًا سأَلَ عن سَبَبِ استحقاقِهِمْ أَنْ يكونوا ﴿خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾؟ فأغنى السَّائلَ عن السُّؤالِ، وأَجابَ بذكرِ أوصافِهِم[6]، فأفادَ الاستئنافُ البيانيُّ بيانَ سببِ تلكَ الخيريَّةِ.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/301.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/301، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/271، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/50.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 5/24.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/70.
(5) الزمخشري، الكشاف: 1/400، والرّازي، مفاتيح الغيب: 8/325.
(6) السكاكي، مفتاح العلوم، التفتازاني، المطول، ص: 448.

وتحتملُ أنْ تكونَ حالًا[1]؛ لبيانِ اقترانِ هذهِ الأوصافِ بالحُكم بالخيريَّة؛ ليُفيدَ أنَّ هذهِ الأوصافَ هي السَّببُ المناسِبُ للحُكم بالخيريَّةِ، فدلَّتِ الحَالُ على اقترانِ هذهِ الأوصافِ بهمْ وعدم مفارقتها لهمْ، معَ قيامِها مقامَ سببِ الحُكمِ بالخيريَّةِ، فالحالُ على معنَى التَّعليلِ[2].

فعلى كلا الاحتمالين تكونُ هذهِ الأوصافُ بيانًا لِسببِ الحكم بالخيريَّةِ على أمَّةِ سيِّدنا محمَّدٍ ﷺ وأجازَ بعضُ المُفسِّرينَ أَنْ تكونَ جملةُ ﴿تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، وَما نُسِقَ عليها: خبرًا ثانيًا لـ ﴿كُنتُمۡ﴾[3]؛ لِيُفيدَ الخبرُ اقترانَ الأوصافِ بهمْ مثلَ اقترانِ الخَيريَّةِ.

سبب اجتماع الأوصاف:

مجموعُ هذهِ الأوصافِ لم تحصل لغيرِ أمَّةِ سيِّدنا مُحمَّدٍ ﷺ

جاء بهذه الأوصاف ﴿تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾؛ ليدلَّ على أنَّهم استحقُّوا الخيريَّة بهذه الأوصاف، ولأنَّها بمجموعِها لم تحصل لأمَّةٍ غيرِهم[4]، ولمّا كانت هذه الأوصاف في مقامِ التعليل بالخيرية؛ أفادت أنَّ كمالَ الخيريَّة في كمالِ الاتِّصاف بهذه الأوصاف؛ لأنَّ الوصفَ - إذا أطلق - يُقصد به كماله، فالأمَّة تقوى بقوَّة هذه الأوصاف فيها، وتضعف بضعفها فيها.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارع:

وردتِ الأفعالُ ﴿تَأۡمُرُونَ﴾، ﴿وَتَنۡهَوۡنَ﴾، ﴿وَتُؤۡمِنُونَ﴾ بصيغةِ المضارعِ للدَّلالةِ على تجدُّدِ معاني هذهِ الأفعالِ على قصدِ الاستمرارِ حالًا فحالًا[5].

(1) الراغب، تفسير الراغب: 2/793، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/489.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/325، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/50.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/33.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 5/24.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/71.

الأمـرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المنكَرِ وصفـانِ لازمـانِ لِلمؤمنينَ

بلاغةُ حذفِ المفعولِ معَ الفعلينِ ﴿تَأۡمُرُونَ﴾ ﴿وَتَنۡهَوۡنَ﴾:

أصلُ الكلامِ: تأمرونَ النَّاسَ بالمعروفِ، وتنهونَهم عنِ المُنْكَرِ[1]، فحُذِفَ المفعول لإفادةِ إثباتِ الفعلِ لِلفاعلِ، بتنزيلِ الفعلِ المتعدِّي منزلةَ اللَّازمِ؛ لإثباتِ اتِّصافِ أَهلِ الخيريَّةِ بهذينِ الوَصفَينِ، وَكأنَّهما صارا وصفَينِ لازمَينِ للمؤمنينَ، أَو حُذِفَ لإفادةِ التَّعميمِ معَ دلالةِ سياقِ الكلامِ على المفعولِ معَ الاختصارِ، فلو قالَ: (تأمرونَ النَّاسَ بالمعروفِ، وتنهونَ النَّاسَ عن المُنكَرِ)؛ أَمكنَ أنْ يُستفادَ العمومُ مِنْ صيغةِ (النَّاسِ)، لكنَّهُ يُفوِّتُ الاختصارَ، ويُضعِفُ النَّظمَ[2].

بلاغة التَّلوين في الخطاب في الآية الكريمة:

في قوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ التفات من الخطاب في ﴿كُنتُمۡ﴾ إلى الغيبة في ﴿أُخۡرِجَتۡ﴾، أي: هي، ولو سار على نسق واحد؛ لقال: (أُخْرِجتُم)، وفائدته: الإشارة إلى اصطفائهم من بين الأمم جميعها؛ فإنَّ الالتفات من الخطاب إلى الغيبة يُذكِّرهم بحالهم قبل الاصطفاء من الغياب وعدم الظُّهور.

ثمّ انتقل من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾، وفائدته: الإيذان بتعليل كونهم خير أمَّة، ولبيان تكليفهم بذلك علانيةً، فما كان مؤدِّيًا إلى بلوغ خيريَّتهم لابدَّ من فرضيَّته عليهم، وعليهم أن يحقِّقوه واقعًا.

دلالةُ (ال) في المعروفِ والمنكرِ:

تفيدُ (الـ) استغراقَ جميعِ أَنواعِ المعروفِ وجميعِ أَنواعِ المنكَرِ، وفيه إشارة إلى ذيوع كلٍّ منهما، وشيوع حقيقتهما في جميع الأمم، وعند النَّاس جميعًا، وثِقَلُ رسالة التَّبليغ في هذه الأمَّة على قدر منزلتها العظيمة عند اللّه تعالى.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/301.

(2) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 156، والتّفتازاني، المطول، ص: 369.

نُكتةُ تقديمِ الأمرِ بالمعروفِ على النَّهي عنِ المُنكَرِ:

الأمـرُ بالمعروفِ يقتضي النَّهيَ عن المنكرِ

قُدِّمَ الأمرُ بالمعروفِ؛ لأنَّهُ الأصلُ، ولِعمومِ معناه، فإنَّهُ يقتضي النَّهيَ عن المنكرِ، فإنَّ النَّهيَ عن المنكَرِ جزءٌ من الأمرِ بالمعروفِ، فيكونُ مِنْ عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ لِبيانِ الاهتمامِ به، والتَّأكيدِ عليه.

وللتَّأكيد على رسالة الأمَّة الإيجابيَّة في إيصال هذه الخيريَّة، وتلك المزايا الدينيَّة إلى النَّاس جميعًا إلى يوم القيامة، وللإشارة إلى الجانب العمليِّ المنتظر منها أفرادًا وجماعات؛ فإنَّ العمل بالمعروف أعظم أنواع الأمر بالمعروف؛ ولذا قالوا: "فِعْلُ رجلٍ في ألف رجل خيرٌ من قول ألف رجل لرجل"، أي: إنَّ الفعل أقوى في الدَّعوة والأمر بالمعروف من الكلام.

ومِن ثَمَّ فإنَّ تقديم الأمر بالمعروف على النَّهي عن المنكر؛ لأنَّه في مقام مدح الأمَّة الإسلاميَّة، وذكر ضوابط الخيريَّة، ولا يقال: إنَّ فيه مخالفة لقاعدة: (درء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح)؛ لأنَّ هذه الأخيرة إذا تعارضت مفسدة ومصلحة، وكانت المفسدة غالبة أو مساوية للمصلحة، فيقدَّم دفع المفسدة على جلب المصلحة.

سببُ تقديمِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَى الْإِيمَانِ بِاللهِ:

وذلك لِنِكاتٍ هي:

خصوصيَّة الاتِّصاف بالأمرِ بالمعروف والنَّهي عن المنكر بعدَ الإيمان بالله

لمّا كانَ الْإِيمَانُ بِاللهِ أَمْرًا مُشْتَرَكًا فِيهِ بَيْنَ جَمِيعِ الْأُمَمِ الْمُحِقَّةِ، كانَ للأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكَرِ خَصوصيَّةٌ زائدةٌ مؤثِّرةٌ في الخَيريَّة بعدَ الإيمانِ بالله، فقُدِّمَ ما خُصُّوا به على ما يقعُ الاشتراكُ فيه[1].

لمّا كانَ (الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ) مَحْمُودَيْنِ فِي عُرْفِ جَمِيعِ النَّاسِ، وَلَمَّا

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/326.

الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المنكرِ وصفٌ متَّفقٌ على حُسنِهِ

كَانَ الْكَلَامُ فِي خَيْرِيَّةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى جَمِيعِ الْأُمَمِ؛ قَدَّمَ الْوَصْفَ الْمُتَّفَقَ عَلَى حُسْنِهِ.

لِلتَّعْرِيضِ بِأَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ كَانُوا يَدَّعُونَ الْإِيمَانَ، وكانوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ، فَقَدَّمَ ذِكْرَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ؛ لِأَنَّهُمْ لَا مَجَالَ لَهُمْ فِي دَعْوَى مُشَارَكَةِ الْمُؤْمِنِينَ فيه، وَأَخَّرَ ذِكْرَ الْإِيمَانِ الَّذِي يَدَّعُونَهُ لِيُرَتِّبَ عَلَيْهِ بَيَانَ أَنَّهُ إِيمَانٌ غَيْرُ صَحِيحٍ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِثَمَرِ الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ[1].

الإيمانُ الصحيح يؤتي ثماره

تــقــديـــمُ ما اقتضاهُ السِّياقُ على ما يستحقُّ التَّقديمَ في الأمرِ نفسِه

لمّا كانَ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكرِ الأهمَّ في هذا المقام المسوق، للتَّنويه بفضيلتهما، وكانَ إيمانُهم أمرًا ثابتًا محقَّقًا، ومقامُ الكلامِ في الحثِّ على الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر - قدَّمَ ما اقتضاه السِّياقُ على ما في الأمر نفسه[2]، وإنَّه لَمَحَزُّ البلاغةِ في اعتباراتِ المقام.

بديعُ الطِّباقِ:

إذْ وردَ الطِّباقُ في الفعلِ والاسم في قوله: ﴿تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، وقوله: ﴿وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ لِاستغراقِ الأمرين، أي: فعلِ المعروفِ وتركِ المنكَرِ.

نُكتةُ الاقتصارِ على الإيمانِ باللهِ:

شــرفُ صحبةِ رسولِ اللهِ ﷺ في اســتـحـقـاقِ الخَيريَّةِ

فلم يقلْ: (وتؤمنون باللّهِ وبرسولِه)؛ لِلإشارةِ إلى أنَّ الإيمانَ بنبوَّةِ سيدِنا محمَّدٍ ﷺ مِنْ ضَرُورَةِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ[3]، وأيضًا للإشعارِ بأنَّهمُ استحَقُّوا هذهِ الخيريَّة بمعيَّتِهم لِرسولِ اللّهِ واتِّباعِهمْ لهُ، فالخِطابُ يشملُ رسولَ اللّهِ بعدِّه أنَّهُ إمامُ الأمَّةِ ونبيُّها، فلو قالَ: (وبرسولِه)؛ لَأفادَ أنَّهُمُ استَحَقُّوا هذهِ الخيريَّة بذواتِهم وأوصافِهم مِنْ غيرِ صُحبةٍ لِرسولِ اللّهِ ولا اتِّباعٍ لَهُ.

(1) رضا، تفسير المنار: 4/52.
(2) ابن عاشور: التحرير والتنوير: 4/50.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/326.

فوائدُ التَّعبيرِ بالشَّرطِ ﴿وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

حـصـولُ الـخيرِ بحصولِ الإيمانِ

لمّا كانتْ ﴿وَلَوۡ﴾ تفيدُ انتفاءَ حصولِ الجزاءِ لِلقطعِ بانتفاءِ حصولِ الشَّرطِ؛ دلَّتْ على أنَّ انتفاءَ حصولِ الخيرِ لَهمْ بِسببِ انتفاءِ الإيمانِ عنهمْ، فمَا حصلوا عليه في هذهِ الدُّنيا من المالِ والجاهِ والمتاعِ، ليسَ بخيرٍ لِقُربِ زوالِه، ولأنَّهم لنْ ينتفعُوا بهِ يومَ القيامةِ، ودلَّت أيضًا بِاقترانِها بالشَّرطِ في قولِه: ﴿ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ على ارتباطِ وجودِ الخيرِ بوجودِ الإيمانِ[1].

انـتـفـاءُ فـائـدةِ الإيـمـانِ دونَ الإيمانِ برسولِ اللهِ ﷺ

أفادَ الشَّرطُ توبيخ أهل الكتاب على عدم إيمانهم بنبوَّة سيِّدنا محمَّد ﷺ فأفادَ أنَّ إيمانهم باللّه لايصحُّ دون الإيمانِ برسول اللّه محمَّد ﷺ وجاء التَّوبيخُ مَقْرُونًا بِنُصْحِهِ تَعَالَى لَهُمْ: أَنْ لَوْ آمَنُوا؛ لَنَجَّوا أَنْفُسَهُمْ من عذاب اللّه[2].

فيه تعريض بأهلِ الكتابِ من اليهودِ وغيرهم بِأَنَّهُمْ مُتَرَدِّدُونَ في اتِّباعِ الإسلام، مع إمكانِ تحصيلِهم على هذا الفضلِ لقربه منهم[3].

سببُ إيثارِ الإطلاقِ على التَّقييدِ في قولِه: ﴿وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

الإيـمـانُ الـنّـافعُ هو الإيمانُ التامُّ

لَمْ يَقُلْ: (لَوْ آمَنُوا باللّه)، بَلْ أَطْلَقَ؛ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ إيمانَهُمْ بِكُلِّ مَا يُؤْمِنُونَ بِهِ غَيْرُ صَحِيحٍ، وليفيدَ أنَّهم مطالبون بالإيمانِ بكلِّ ما آمنَ به المؤمنون في عهدِ نزولِ القرآن، على معنى: ولو آمنوا الْإِيمَانَ التَّامَّ النَّافِعَ[4].

إيثارُ التَّعبيرِ بـ ﴿أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

لِتعميم الكلامِ في اليهودِ والنَّصارى ممَّنْ لم يؤمنوا كما يأتي، وإنْ كانَ السِّياقُ في ذكرِ اليهودِ، ولِتوبيخِهم على كفرِهمْ وفسقِهم، فإنَّ مقتضَى كونِهم أهلَ الكتابِ أنْ يكونوا مؤمنينَ لا فاسقينَ.

(1) التّفتازاني، المطوّل، ص: 336.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/302.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/52.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 3/302، ورضا، تفسير المنار: 4/53.

دلالةُ الضَّميرِ المستتِرِ في قولِه: ﴿لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ﴾:

تقديرُ الكلامِ: (لكان الإيمانُ خيرًا لَهُمْ)، فعادَ الضَّميرُ في (كانَ) على المصدرِ المفهومِ من الفعلِ (آمن)، فأتَى بالضَّميرِ؛ للإيجازِ في الكلامِ، ولإفادةِ أنَّ الإيمانَ الَّذي يكونُ خيرًا لَهم هو الَّذي يكونُ في الفعلِ (آمنوا)؛ حثًّا على الاهتمامِ بالأفعالِ، وليسَ في ما كانوا يدَّعونَهُ من الإيمانِ بالقولِ، ومثلُهُ قولُه تعالى: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: 8]، أي: العدلُ الَّذي يكونُ في الفعلِ ﴿ٱعۡدِلُواْ﴾ هو الأقربُ لِلتَّقوى.

دلالةُ مجيءِ ﴿خَيۡرٗا﴾ نكرةً:

الإيمانُ سببٌ لكلِّ خيرٍ

لمّا أفادتْ ﴿وَلَوۡ﴾ معنَى النَّفي، وجاءتْ كلمةُ ﴿خَيۡرٗا﴾ في سياقِها؛ دلَّتِ النَّكرةُ على العمومِ، بمعنى: لو آمَنَ أهلُ الكتابِ؛ لَحصلوا على كلِّ أنواعِ الخيرِ، وأكَّدَ هذا باقترانِ الجزاءِ باللَّامِ المؤكِّدةِ لِمضمونِ الجزاءِ، وجاء الإجمالُ في وَجْه كَوْنِ ٱلْإِيمَانِ خَيْرًا لَهُمْ؛ لِتَذْهَبَ نُفُوسُهُمْ كُلَّ مَذْهَبٍ فِي الرَّجَاءِ وَٱلْإِشْفَاقِ؛ توبيخًا لهم على عدمِ الإيمانِ وتحضيضًا - لغيرِ المؤمنين منهم الحاضرين وقت التَّنزيلِ وما بعدَه - على المبادرةِ إلى الإيمانِ والإسراعِ إليهِ[1].

سَبَبُ اقترانِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَّهُمۚ﴾ بالكلامِ:

لِتخصيصِ الخيرِ لهم؛ إمعانًا في توبيخِهم على عدمِ إيمانِهم، ولِلإشارةِ إلى أنَّهم كانوا يحرصُونَ على أَنْ يكونَ الخيرُ لَهم خاصّةً مِنْ دونِ النَّاسِ.

دلالة تقديم الجار والمجرور ﴿مِّنۡهُمُ﴾:

ليسَ في تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِّنۡهُمُ﴾ تخصيصٌ، فليسَ المعنى: منهم فقط المؤمنونَ، ولا يوجدُ من غيرِهم، بل جاءَ التَّقديمُ اهتمامًا بشأنِ المؤمنينِ منهمْ وتشريفًا لَهُمْ؛ كما أفادَ تأكيدَ المعنى وتقريرًا له.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/53.

قولُه تعالى: ﴿مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ بينَ الاحتراسِ والاستئنافِ البيانيِّ:

دفعُ توهُّم نفيِ الإيمانِ عن جميعِ أهلِ الكتابِ

يحتملُ أَنْ يكونَ الكلامُ لِلاحتراس[1]، فإِنَّهُ لَمَّا نفَى اللّٰه تعالى إِيمانَ أَهلِ الكتابِ في قولِه: ﴿وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ﴾، ممَّا قدْ يُتَوَهَّمُ بِه نفيُ الإيمانِ عن جميعِ أَهلِ الكتابِ، ولكي يدفَعَ هذا الوَهمَ أَعقبَهُ بقولِه: ﴿مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾؛ لِإفادةِ الاحتراسِ عن توهُّمِ خلافِ المقصود، كما أَنَّ في الاحتراس إطنابًا وتكثيرًا لِلمعنى؛ لإفادته معنًى جديدًا[2]، وهو قلَّةُ المؤمنينَ وكثرةُ الفاسقينَ مِنْ أهلِ الكتابِ.

كَما يحتملُ أَنْ يكونَ استئنافًا بيانيًّا عن السَّببِ الخاصِّ؛ فجاءَ الاستئنافُ لإغناءِ السَّامعِ عن السُّؤالِ، ولتكثيرِ المعنى بتقليلِ اللَّفظِ؛ فإنَّهُ لَمَّا نفَى الإيمانَ عنهم بجملةِ الشَّرطِ؛ اقتضى الكلامُ سؤالًا، لِتردُّدِ المخاطَبِ في الأمرِ، كأنَّهُ قيلَ: هلْ منهم مَنْ آمنَ، أَو كلُّهم على الكُفرِ؟ فقيلَ لدفعِ التَّردُّدِ بصيغةِ التَّأكيد بتقديمِ الجارِّ والمجرورِ: بعضُهمُ المؤمنونَ وهُمْ القِلَّةُ، وأَكثرُهمُ الفاسقونَ[3].

دلالةُ حرفِ الجرِّ في قولِه: ﴿مِّنۡهُمُ﴾:

أفادَ التبعيضُ قلّةَ المؤمنين من أهلِ الكتابِ

دلَّ حرفُ الجرِّ (مِن) على التَّبعيضِ، والمعنى: بعضُهُمُ المؤمنونَ، ولمّا كانتِ البَعضيَّةُ تحتملُ أَنْ تكونَ نِصفًا أو أقلَّ أو أكثرَ؛ دفعَ توهُّمَ أَنْ يكونَ المؤمنونَ هُمُ الأَكثرَ، فقالَ: ﴿وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾، فأفادَ التَّبعيضُ القلَّةَ.

بديعُ الطِّباقِ في الآيةِ:

لَمَّا كانَ لفظُ (مِنْ) دالًّا على القلَّةِ بدلالةِ السِّياقِ - كما تقدَّمَ -

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/53.
(2) السبكي، عروس الأفراح: 1/614.
(3) التفتازاني، المطول، ص: 447 - 448.

النَّـاس صنفانِ مؤمنٌ وكافرٌ

وكانَ لفظُ ﴿وَأَكۡثَرُهُمُ﴾ معنًى مُقابلًا؛ أَفادَ هذا التَّقابُلُ في المعنيينِ المتضادَّينِ وقوعَ الطِّباقِ في الآيةِ، ومثلُهُ التَّضادُ بينَ لفظِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ و﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾؛ لِتضمُّنِ الفاسقينَ هنا معنَى الكافرينَ وزيادة.

وأَفادَ الطِّباقُ في الموضعَينِ نفيَ وجودِ قسمٍ ثالثٍ للمتضادَّين، كما أنَّ فيه تحسينَ المعنَى؛ لِتبادُرِ المقابلِ إلى ذهنِ المتلقِّي عندَ ذكرِ اللَّفظِ الأَوَّلِ، فيكونُ ذكرُ اللَّفظِ الثَّاني بمنزلةِ تأْكيدِ معنى الأوَّلِ وتقريرِه.

إيثارُ الوصفِ بالفسقِ دونَ الكُفرِ:

الكافر الفاسق أشـدُّ ذمًّـا من الـكـافـر غـيرِ الفاسقِ

لَمَّا كانَ الْوَصْفُ يُذْكَرُ لِلْمُبَالَغَةِ؛ عدلَ عَنْ أَنْ يقولَ: (مِنهُمُ الْمؤمنونَ وَأَكثرُهُمُ الْكافرون)؛ لأنَّ الْكَافِرَ قَدْ يَكُونُ عَدْلًا في دِينِه، فالكافرُ الفاسقُ أشدُّ ذمًّا من الكافر غيرِ الفاسق، فالْمُسْلِمون لَا يَقْبَلُونَهُ لِكُفْرِه، وَالْكُفَّارُ لَا يَقْبَلُونَهُ لِكَوْنِه فَاسِقًا فِيمَا بَيْنَهُمْ؛ فأشعرَ الكلامُ بأنَّ أكثرَهُمْ فاسِقُونَ في أَدْيَانِهِمْ، فَلَيْسُوا مِمَّنْ يَجِبُ الاقْتِدَاءُ بِهِمُ البَتَّةَ عِنْدَ أيٍّ واحدٍ مِنَ الْعُقَلَاءِ[1].

دلالة (الـ) في ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾:

في الآيــةِ إشـارةٌ غيبيّةٌ دالّـةٌ على إعجازِ القرآنِ

(الـ): في الموضعَينِ موصولةٌ، والمعنى: مِنهُمُ الَّذينَ يؤمنونَ الإيمانَ المعهودَ، وأكثرُهُمُ الَّذينَ يفسقون؛ لِمَا في اعتبارِ الوصفِ من مبالغةٍ في المدحِ لِلمؤمنينَ منهم، ومِن مبالغةٍ في الذَّمِّ للفاسقين.

كما أفادَت (الـ) تلبُّسَهم بالفعلِ، تلبُّسَ المؤمنِ بالإيمانِ والفاسقِ بالفِسقِ، تقريرًا لإثباتِ الإيمانِ والفسقِ لكلِّ طائفةٍ.

ويحتملُ اسمُ الفاعلِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أَنْ يكونَ على معنى المستقبلِ، أي: منهم مَنْ سيؤمِنُ، فيكونُ في الكلامِ إشارةٌ مِنَ الإخبارِ بالمغيبِ، مِنْ أَنَّهُ سَيَقَعُ مِنْ بَعْضِهِمُ الْإِيمَانُ، وَلَا يَسْتَمِرُّونَ كُلُّهُمْ عَلَى الْكُفْرِ[2].

---

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/327.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/302.

وتحتملُ أنْ تكونَ (الـ) لِاستغراقِ الوصفِ؛ لِتدلَّ على المبالغةِ والْكَمَالِ فِي الْوَصْفَيْنِ؛ لِتفيدَ (الـ) كمالَ المدحِ وكمالَ الذَّمِّ[1].

وذهب الرَّازيُّ إلى أنَّ (الـ) في ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ للعهد، ويُقصَدُ بها عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ وَرَهْطُهُ مِنَ الْيَهُودِ، وَالنَّجَاشِيُّ وَرَهْطُهُ مِنَ النَّصَارَى[2].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/302.

(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/327.

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١١١﴾ [آل عمران: 111]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا رَغَّبَ اللهُ تعالى المُؤمِنينَ على الثَّباتِ في إيمَانِهِمْ، وتَرْكِ الالْتِفَاتِ إِلَى أَقْوَالِ الكُفَّارِ وَأَفْعَالِهِمْ؛ رَغَّبَهُمْ فِيهِ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ، وَهُوَ أَنَّهُمْ لَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَى الإِضْرَارِ بِالمُسْلِمِينَ إِلَّا بِالْقَلِيلِ مِنَ الْقَوْلِ الَّذِي لَا عِبْرَةَ بِهِ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قَاتَلُوا المُسْلِمِينَ؛ صَارُوا مُنْهَزِمِينَ مَخْذُولِينَ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ؛ لَمْ يَجِبِ الالْتِفَاتُ إِلَى أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ[1].

وأيضًا لَمَّا أخبرَ اللهُ تعالى أَنَّ أَكثرَ أَهلِ الكتابِ هُمُ الفاسقونَ الخارجونَ عن الطَّاعةِ والانقيادِ، فقد يُتَوَهَّمُ أَنَّهمْ قادرونَ على الإضرارِ بالمؤمنينَ، فإنَّ مخالفةَ الأَكثرِ قاصمةٌ، فَخفَّفَ اللهُ تعالى عنْ أَوليائِه المؤمنينَ، وطمأَنهمْ بقولِه: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًىۖ﴾؛ لِيُعلِمَ أَنَّهمْ غيرُ قادرينَ على مواجهةِ المُؤمنينَ، وَهَذَا يَخْتَصُّ بِالْيَهُودِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُنْتَشِرِينَ حِيَالَ المَدِينَةِ، أَمَّا النَّصَارَى؛ فَلَا مُلَابَسَةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ المُسْلِمِينَ حَتَّى يَخْشَوْهُمْ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَضُرُّوكُمْ﴾: الضُّرُّ ضِدُّ النَّفعِ، وهو سُوءُ الحالِ لِنقصٍ في أَمرٍ نفسيٍّ، كَالعلمِ والعِفَّةِ، أَو جَسديٍّ لِفقدِ جارحةٍ مثلًا، ومنهُ رجلٌ ضريرٌ لِفقدِ البصرِ، أَو حالةٍ ظاهرةٍ، فيها مقاساةٌ مِنْ فَقرٍ أو قلَّةِ مالٍ وجاهٍ أَو شِدَّةِ حالٍ، والضَّرَّاءُ النَّقصُ في الأَموالِ والأَنفُسِ، وضَرَّ فُلانٌ فُلانًا؛ إذا سبَّبَ له نَقصًا أَو ضيِّقًا نفسيًّا أَو جسَديًّا أَو في حالةٍ مِنْ أَحوالِه[3].

2) ﴿أَذًىۖ﴾: هو ما يَصِلُ إلى كلِّ ذي حياةٍ مِنْ تنفيرٍ أو قلقٍ: إمَّا في نفسِه أو جسمِه أو تبعاتِه دُنيويًّا كانَ أو أخرويًّا، والإيذاءُ قدْ يكونُ مَعْنَويًّا بالقولِ المؤلمِ المتكرِّه، وقدْ يكونُ

---

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/328.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/27، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/54.

(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (ضرر).

حسِّيًّا بالضَّربِ غيرِ المُبَرِّحِ ونحوِهِ، ولمَّا كانَ الأَذَى يُقالُ في المكروهِ اليَسيرِ الشَّرِّ الخفيفِ؛ كانَ أهونَ مِنَ الضَّررِ، فالأذى: هو الأَلَمُ الخَفيفُ الَّذي يكون بالقولِ[1].

3) ﴿يُوَلُّوكُمُ﴾: التَّولِّي يكونُ بمعنَى: الإقبالِ والاتِّباعِ، وبمعنَى: الإعراضِ، فإذا اقترنَ بـ (إلى) لفظًا أو تقديرًا؛ فَهوَ بمعنى: الإقبالِ، وإذا اقترنَ بـ (عنْ) لفظًا أو تقديرًا؛ فهوَ بمعنَى: الإعراضِ، والسِّياقُ يبيِّنُ ذلكَ غالبًا، وقدْ يكونُ الإعراضُ بالجسمِ، وقدْ يكونُ بتركِ الإصغاءِ والائتمارِ، ووَلَّاهُ دُبُرَهُ؛ إذا انْهَزَمَ[2].

4) ﴿ٱلۡأَدۡبَارَ﴾: جمعُ دُبُرٍ، وهو خلافُ القُبُلِ، والإدبارُ خلافُ الإقبالِ، ويُقالُ: اجْعَل هَذَا الْأَمرَ دُبُرَ أُذُنِكَ، أَيْ: خلفَ أُذُنِكَ، وتدابَرَ الْقَوْمُ؛ إذا تقاطَعوا، وتعادَوا، وَلَا يُقَالُ هذا إِلَّا فِي بني الْأَبِ خَاصَّةً، وكلُّ متأخِّرٍ دابِرٌ، وأَدبَرَ: أَعرضَ، وولَّى دُبُرَهُ[3].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

هؤلاءِ الفاسقونَ مِنْ أَهلِ الكتابِ والَّذينَ قُصِدَ بهمُ اليهودُ: لَنْ يضرُّوكُمْ - أيُّها المؤمنونَ - في دينِكُمْ ولا في أَنفسِكُمْ، إلا أذًى يسيرًا يُؤذي أَسماعَكُمْ مِنَ الشِّركِ والكُفرِ والطَّعنِ في الدِّينِ أَو غيرِ ذلكَ، إنْ هم قاتلوكم؛ فَسينهزمونَ مولِّينَ أَدبارَهمْ، ولا ينتصرونَ عليكم؛ ما دُمتمْ متمسِّكينَ بدينِكم.

وهذهِ الآيةُ مِنَ المغيَّباتِ الَّتي وافقَها الواقعُ؛ إذْ كان ذلكَ حالَ قريظةَ والنَّضيرِ وبني قَينُقاعٍ ويهودِ خيبرَ[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ أسلوبِ القصرِ:

جاءَ بأُسلوب القصرِ بالنَّفي والاستثناءِ الَّذي يُسْلَكُ معَ مخاطَبٍ مُعتقِدٍ الخطأ، ويُصِرُّ عليه[5]، فأُخرِجَ الكلامُ على خلافِ مقتضَى الظَّاهرِ، فإنَّهُ لمَّا كانَ أكثرُ أهلِ الكتابِ فاسقينَ،

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أذى)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص:108.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ولي).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة: (دبر).
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/326، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/33، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/54.
(5) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 294.

لا قـدرةَ لأهلِ الكتابِ على الإضرارِ بالمؤمنين إلَّا أذًى خفيفًا

والفِسقُ مدخلٌ لإلحاقِ الضَّررِ بالنَّاسِ، حتَّى لا يَتَوهَّمَ المؤمنونَ قدرةَ أهلِ الكتابِ على الإضرارِ بهمْ، ولِكَي لا يعتقدوا خطأً هذا الأمرَ جاءَ بأُسلوبِ القصرِ بالنَّفيِ والاستثناءِ، وَهذا الأُسلوبُ أَبلغُ في نَفيِ الضُّرِّ وإثباتِ الأَذى الخفيفِ مِنْ أَساليبِ القَصرِ الأُخرى.

دلالةُ الاستثناءِ بينَ الاتِّصالِ والانقطاعِ:

البشارةُ للمؤمنينَ بالأَمنِ لهمْ عنْ ضَررِ أهلِ الكتابِ بالغلبةِ والاستئصالِ

لَمَّا كانَ الخلافُ في المعنَى اللُّغويِّ لِلَّفظِ ﴿أَذَىٗ﴾ حول دخوله مِنْ جِنسِ الضُّرِّ أَم ليس مِنْ جنسِهِ؛ فقد احتملَ الاستثاءُ أَنْ يكونَ منقطِعًا[1]، وتكونُ ﴿إِلَّآ﴾ بمعنَى: لكنْ، والأَذى ليس مِنَ الضُّرِّ؛ لأَنَّ الضُّرَّ لايكونُ إلَّا شَديدًا، والأذى يكونُ هيِّنًا، كأَنْ يكونَ الأذى باللِّسانِ، مثلَ: الوعيدِ والبُهتِ وإسماعِهِمُ الكُفرَ، والمعنى: لنْ يضرُّوكم بقتالٍ وغَلَبَةٍ، ولكنْ بكلمةِ أَذًى ونحوِها[2].

واحتملَ أَنْ يكونَ استثناءً متَّصلًا؛ لِيكونَ الأذى مِنْ جنسِ الضُّرِّ، ولكنَّهُ يكونُ ضررًا خفيفًا يسيرًا، فهو أَدنى الضَّررِ؛ لِأَنَّ الأذى هو الأمرُ المؤلمُ الَّذي يُقصَدُ إماطتُهُ[3]، والمعنى: لنْ يصيبَكمْ منهُمْ ضَرَرٌ في الأبدانِ ولا في الأموالِ، وإنَّما هو أَذًى بالأَلسنةِ[4]، وفي هذا الإخبارِ بالاستثناءِ ثلاثُ فوائِدَ[5]:

إحداها: أَنْ يَلحَظَ المؤمنونَ الكافرينَ بعينِ الاحتقارِ والتَّصغيرِ، حتَّى لا يَصدُّوا أَحَدًا عن دينِه، ولا يشغلوه عنْ عبادةِ ربِّهِ.

الثَّانية: بشارةٌ لرسولِ اللَّهِ ﷺ وللمؤمنِينَ، بالأَمنِ لهمْ عنْ ضَرَرِ المشركينَ بالغلبةِ والاستئصالِ إلَّا أذًى باللِّسانِ، ففيه إشارةٌ إلى الغيبِ في المستقبلِ.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/109، ومكي بن أبي طالب، الهداية: 2/1095.

(2) السمين، الدر المصون: 2/252.

(3) الحراليّ، تراث أبي الحسن الحراليّ: 1/244، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/641.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/401، والرّازي، مفاتيح الغيب: 8/327.

(5) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 2/456، والزمخشري، الكشاف: 1/490، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/401، والنسفي، مدارك التنزيل: 1/238.

الثَّالثة: تثبيتُ مَنْ أَسلَمَ مِنْ أهلِ الكتابِ.

نُكتةُ مجيءِ ﴿أَذٗىۖ﴾ نكرةً:

أَفادَ التَّنكيرُ التّقليلَ، على معنى: أنَّهُ قدْ يصيبُ المؤمنينَ أذًى قليلٌ يسيرٌ منهمْ(1).

نُكتَةُ مجيءِ أَداةِ الشَّرطِ ﴿وَإِن﴾:

الإخبــارُ عن الارتيابِ في رغبةِ أهلِ الكتابِ قتالَ المؤمنينَ

عبَّرَ بـ (إن) دونَ (إذا)؛ واقترنتْ أداةُ الشَّرطِ بالفعلِ المضارعِ الدَّالِّ على الحالِ والاستقبالِ، ولم تقترنْ أداةُ الشَّرطِ بالفعلِ الماضي الدَّالِّ على التَّحقُّقِ، فلم يقلْ: (إنْ قاتلوكُمْ)؛ لِلدَّلالةِ على الإخبارِ عن الارتيابِ في أَنْ يقاتلوا المؤمنينَ، والشَّكِّ فيهِ، وأَنَّ قتالَهم المؤمنينَ نادرُ الوقوعِ لعدمِ رغبتِهم فيهِ(2).

بلاغةُ الكنايةِ في الآيةِ:

جاءَ الكلامُ على التَّعريضِ بالكنايةِ؛ إذْ ذكرَ اللَّازمَ: وهو ﴿يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾؛ لِينتقلَ المخاطَبُ إلى لازمٍ آخرَ: هو الإعراضُ، ثمَّ الملزومُ: وهوَ الانهزامُ؛ لِأنَّ المنهزمَ يحوِّلُ ظهرَهُ إلى جهةِ الطَّالبِ هَرَبًا إلى مَلْجأٍ وموئِلٍ يَئِلُ إليهِ منهُ؛ خوفًا على نفسِهِ، والطَّالبُ في أَثَرِهِ، فدُبُرُ المطلوبِ حينئِذٍ يكونُ محاذيَ وجهِ الطَّالبِ الهازمِ كنايةً عن انهزامِهم(3)، وأفادت الكنايةُ بالانتقالِ منَ اللَّازمِ إلى الملزومِ تصويرَ ذلَّةِ المنهزمين ومهانتِهم، وهمْ يُولُّونَ أدبارَهمْ.

سببُ ذكرِ المفعولِ في قولِهِ: ﴿يُوَلُّوكُمُ﴾:

فلم يقلْ: (وإنْ يقاتلوكُمْ يولُّوا الأَدبارَ)، فصرَّحَ بالمفعولِ؛ استصغارًا لِشأنِ أهلِ الكتابِ وإظهارًا لِذلّتهم أمامَ المؤمنينَ المخاطبينَ؛ لِمَا يقتضيه مقامُ الكلامِ، وتقويةً لِعزيمةِ المؤمنينَ؛ إنْ قاتلَهمُ الأَعداءُ.

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/273.

(2) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 240، والتفتازاني، المطول، ص: 318.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 7/109، والسكاكي، مفتاح العلوم، ص: 402.

نُكتَةُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿ٱلْأَدْبَارَ﴾:

التَّعبيرُ بالأدبارِ تخسيسٌ للفارِّ وإهـانـةٌ لـه وأبلغُ في معنى الانهزامِ

لَمَّا كانَ التَّولِّي هو عنْ إدبارٍ؛ أفادَ مجيءُ ﴿ٱلْأَدْبَارَ﴾ معنى التَّأكيدِ لِلتَّولِّي، وأفادَ معنى الانهزامِ المقرونِ بالذُّلِّ والجُبنِ، وخُصَّ الْأَدْبارُ بالذِّكرِ دونَ الظُّهورِ تخسيسًا للفارِّ وإهانةً لَهُ، وَلِأَنَّ ذلِكَ أَبْلَغُ في الِانْهِزَامِ وَالْهَرَبِ[1]، والآيةُ معجزةٌ للنَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ لأنَّ كلَّ مَنْ قاتلَه من اليهودِ ولَّى دبرَهُ[2].

دلالة الشَّرطِ والجزاء في الكلامِ:

لَمَّا كان الجزاء يقع بوقوع الشَّرطِ من غير مهلةٍ دلَّ الكلامُ على أنَّهم بِنَفْسِ مَا تَقَعُ الْمُقَابَلَةُ يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ، فَلَيْسُوا مِمَّنْ يُغْلَبُ، وَيُقْتَلُ، وَهُوَ مُقْبِلٌ عَلَى قرنِهِ غَيْرُ مُدْبِرٍ عَنْهُ[3]؛ إشعارًا بِجبنِهم وحبِّهم للدُّنيا.

سرُّ العدول عن الجزم إلى الرَّفع في قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾:

جاءَ الفعلُ مرفوعًا، فلمْ ينسقْهُ على ﴿يُوَلُّوكُمُ﴾، ولوْ نَسَقَهُ؛ لَكانَ مجزومًا، ولَكانَ نفيُ النَّصرِ مقيَّدًا بمقاتلتِهم، أي: (إنْ يقاتلوكُمْ لا يُنْصَروا)، فلمَّا جاءَ الفعلُ مرفوعًا؛ كانَ نفيُ النَّصرِ وعدًا مطلقًا، وهو المقصودُ، فعدلَ بهِ عنْ حُكمِ الجزاءِ إلى حكمِ الإخبارِ ابتداءً، كأنَّهُ قال: ثُمَّ شأنُهم وقصَّتُهم الَّتي أُخبرُكم عنها، وأُبشِّرُكم بها بعدَ التَّوليةِ أنَّهم مخذولونَ منتفٍ عنهم النَّصرُ والقوَّةُ لا ينهضونَ بعدَها بجَناحٍ، ولا يستقيمُ لهم أَمرٌ[4].

دلالةُ التَّراخي الكائن في ﴿ثُمَّ﴾:

أَشارَ حرفُ التَّرتيبِ والتَّراخي ﴿ثُمَّ﴾ إلى التَّرتيبِ في الإخبارِ، فجاء الفعل ﴿لَا يُنصَرُونَ﴾ مرفوعًا، ولمْ ينسِقْهُ على الفعلِ المجزوم ﴿يُوَلُّوكُمُ﴾؛ لِئَلَّا يكونَ مُقَيَّدًا بِمُقَاتَلَتِهِمْ كَتَوْلِيَةِ الْأَدْبَارِ، فتكونُ جملةُ ﴿لَا يُنصَرُونَ﴾ معطوفةً على جملةِ الشَّرطِ والجَزاءِ، فعدلَ به عنْ حُكمِ الجزاءِ إلى حُكمِ الإخبارِ، كَأَنَّهُ قالَ: أُخْبِرُكُمْ أَنَّهُمْ: إنْ يقاتلوكُمْ؛ يولُّوكُمُ الأَدبارَ،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/490، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/304، والبقاعي، نظم الدرر: 5/28.
(2) المهدوي، التحصيل: 2/106.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 3/304.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/401.

ثُمَّ أُخبرُكم أنَّهمْ لَا يُنْصَرُونَ عَلَيْكُمْ قَطُّ؛ مَا دَامُوا عَلَى فِسْقِهِمْ، وَدُمْتُمْ عَلَى خَيْرِيَّتِكُمْ: تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ، فأفادتْ ﴿ثُمَّ﴾ التَّرتيبَ على سبيلِ التَّرقِّي في أمرين:

أحدِهما: التَّرقِّي في وعدِ المؤمنين؛ إذْ وعدَهم بتوليةِ عدوِّهمُ الأدبارَ، ثُمَّ ترقَّى في وعدِهمْ بدخولِ ﴿ثُمَّ﴾ الَّتي لِتراخي الرُّتبةِ، كأنَّهُ قال: ههنا أمرٌ أعلى في الامتنانِ، وهو أنَّهم لا ينصرونَ البتَّةَ، مهما واتَتْهمُ الإمكاناتُ، ومهما أُغدِقَتْ عليهمُ المُساعداتُ[1].

الثَّاني: الإشارةُ إلى عظيمِ رتبةِ خُذلانِ اليهودِ؛ لأنَّ الإخبارَ بتسليطِ الخُذلانِ عليهم أعظمُ من الإخبارِ بتوليتِهمُ الأَدبارَ[2].

بلاغةُ الاحتراسِ في قولِه: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾:

البِشارةُ بأنَّهم لايُنصَرونَ دائمًا، مادامَ المؤمنونَ متَّصِفينَ بالخيريَّةِ

ولَمَّا كانَ الَّذي يتولَّى دُبُرَهُ قدْ تعودُ له كَرَّةٌ بعدَ فَرَّةٍ؛ جاءَ قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ لِلاحْتراسِ، أيْ: يولُّوكُمُ الْأَدبارَ توليةَ مُنهزِمينَ، لا توليةَ متحرِّفينَ لِقتالٍ أو متحيِّزينَ إلى فِئَةٍ، أو متأمِّلينَ في أمرٍ[3]، ولكي لايُتَوَهَّم أنَّ توليتَهمُ الأدبارَ قد يكونُ لِمرَّةٍ واحدةٍ على اعتبارِ أنَّ الشَّرطَ والجَزاءَ يصدُقُ ولو بمرَّةٍ؛ لأنَّه لم يدلَّ على الدَّوامِ والاستمرارِ، أَعقبَهُ بقولِه: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾؛ لإفادة أنَّ هذه البِشارةَ دائمةٌ، وأنْ لا ناصرَ لهم منْ غيرِهم أبدًا، وإن طالَ المدى؛ مادامَ المؤمنون متَّصفين بالخيريَّة.

نكتَةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المبنيِّ للمعلومِ في قولِه: ﴿لَا يُنصَرُونَ﴾:

أَفادَ حذفُ الفاعلِ العمومَ، والمعنَى: ثُمَّ لا يكونُ لهمْ نصرٌ مِنْ أَحدٍ، ولمَّا جاءَ الفعلُ مضارعًا؛ دلَّ على استمرارِ تجدُّدِ نفيِ النَّصرِ عنهم حالًا فحالًا، وهوَ يقتضي التَّأبيدَ، سواءٌ قاتَلوكُم أَم قاتلوا غيرَكم.

---

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 8/328، والبقاعي، نظم الدرر: 5/28، ودرويش، إعراب القرآن: 2/25.

(2) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 8/328، وابن المنيِّر، الانتصاف: 1/401، ودرويش، إعراب القرآن: 2/25.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/54.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ١١٢﴾ [آل عمران: 112]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللّه تعالى أَنَّهُمْ: إنْ قاتَلُوا؛ رَجعُوا مَخْذُولِينَ غَيْرَ مَنْصُورِينَ؛ ذَكَرَ أَنَّهُمْ - مَعَ ذَلِكَ - قَدْ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ[1].

وأيضًا لَمَّا أَخبرَ عنهم سُبحانَه وتَعالى بِذُلِّ توليةِ الأَدبارِ عندَ القتالِ ونفي نصرِهمْ؛ أَتبعَهُ الإخبارَ: بأَنَّ ذلَّهم عامٌّ في جميعِ الأَحوالِ والأَمكنةِ والأَزمنةِ إلَّا بعهدٍ منَ اللهِ وعهدٍ منَ النَّاسِ، وأَنَّ المسكنَةَ غيرُ مفارقةٍ لَهم إلى آخرِ الدَّهرِ معاملةً منهُ لَهم بضِدِّ ما أَرادوا، فَعوَّضهمْ عنِ الحرصِ على الرِّئاسةِ إلزامَهُمُ الذِّلَّةَ، وعنِ الإخلادِ إلى المالِ إسكانَهُمُ المسكَنةَ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلذِّلَّةُ﴾: الذِّلُّ ضدُّ الصُّعوبة، فيَدُلُّ عَلَى الْخُضُوعِ، وَالِاسْتِكَانَةِ، وَاللِّينِ والرِّفق، وَمنه ذَلَّت الدَّابَّةُ ذِلًّا: سَهُلَتْ، وَانْقَادَتْ، فَهِيَ ذَلُولٌ، ويقابلهُ العزُّ، فما كانَ منْ جهةِ الإنسانِ نفسه لِنفسِهِ؛ فهوَ محمودٌ، وما كانَ منْ جهةِ غيرِه؛ فهو بمعنَى: الضَّعفِ والصَّغارِ والهوانِ[3].

والمعنى المحوريُّ: نقص ارتفاع الشَّيء، فيقرب، ويتيسَّر التَّعامل معه: كالطَّريق الموطوء، أَذْهَبَتْ كثرةُ وطئه - أي: السَّير فيه - وُعُورَتَه (نتوءات من صخر أو أحجار أو مَدَر جافٍّ أو رمل وعثٍّ)[4]، ومعنَى (الذِّلّة) في الآيةِ: كلُّ ما تَتحقَّقُ بهِ الذِّلَّةُ من الصَّغارِ والهَوانِ والانقيادِ كُرهًا والقتلِ والأَسرِ[5].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/328.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/28.
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة، والراغب، المفردات: (ذلل).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (ذلل).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 2/136، والرّازي، مفاتيح الغيب: 8/329.

2) ﴿ثُقِفُوٓاْ﴾: أصلُه: ثَقِفَ، ويدلُّ على تمكُّنٍ يُبْلَغُ به أتقنُ أحوالِ الشَّيءِ وأحكمُها، ومَنْ تمكَّنَ مِنْ شيءٍ أشدَّ التمَكُّنِ ضابطًا لِمَا يَحْويه قَائمًا بِهِ؛ فقد ثَقِفَهُ، وَمِنْهُ رَجُلٌ ثَقِيفٌ: سَرِيعُ الْأَخْذِ لِأَقْرَانِه، فيُطلقُ الثّقَفُ على الظَّفرِ بالشَّيءِ والتَّمكُّنِ منه مغلوبًا بعدَ الطَّلبِ والتَّتبُّعِ[1]، و﴿ثُقِفُوٓاْ﴾ في الآية بمعنَى: ظَفِرتُم بهمْ مَغلوبينَ متَمَكَّنًا منهمْ[2].

3) ﴿بِحَبۡلٖ﴾: الحبلُ يدلُّ على امتدادِ الشَّيءِ، وأَصلُهُ في اللُّغةِ: هو السَّببُ الَّذي يُتوصَّلُ به إلى البُغيةِ، وقدِ استُعيرَ للوصلِ، ولِكلِّ ما يُتوصَّلُ به إلى الشَّيءِ، وحبلُ اللّهِ هو الَّذي معهُ التَّوصُّلُ بهِ إليهِ سُبحانَهُ، مِنَ القرآنِ والعقلِ وغيرِ ذلكَ، كما يقالُ لِلْعَهدِ: حبلٌ[3].

4) ﴿وَبَآءُو﴾: أصلُه: بَوَأَ، ويدلُّ على معنى الرُّجوعِ إِلَى الشَّيْءِ، ومنه باءَ إلى الشَّيءِ: رجَعَ إليهِ، والباءَةُ والمباءَةُ: منزلُ الْقَوْمِ حيثُ يَتَبوَّؤونَ مِنْ قِبَلِ وادٍ أَو سَنَدِ جَبَلٍ؛ ليكونَ مرجعًا مُكافئًا لهم، وبَوَّأتُهُ منزلًا، بمعنى: أنزلته، ثُمَّ استعملتِ الكلمةُ لمعنى الإقامةِ على الشَّيءِ؛ لِيكونَ مكافئًا لِصاحبِه.

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يحتملُ أنْ يكونَ بمعنى: رجَعَ بغضبِ اللّهِ، وأنْ يكونَ بمعنى: حلَّ مكانًا يقيمُ فيه مكافئًا له، بسببِ عملِه مُلتبِسًا بغضبِ اللّهِ، أي: عقوبتِهِ[4]، و﴿وَبَآءُو﴾ يُستعمَلُ في الشَّرِّ غالبًا[5].

5) ﴿ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ﴾: يدلُّ معنى السُّكونِ عَلَى ضدِّ الحركةِ والاضطِرابِ، ومنهُ السَّكِينَةُ، وَهُوَ الْوَقَارُ، وسَكَنَ الشَّيءُ؛ إِذَا ذَهَبَتْ حَرَكَتُهُ، واسْتَكانَ؛ إذا خَضَعَ؛ لِقِلَّةِ الحيلةِ والعجزِ، والمسكنةُ تدلُّ على معانٍ بحسبِ السِّياقِ هي: القرارُ في موضعٍ والخضوعُ وفقرُ النَّفسِ والحرصُ وَالْحَالُ السَّيِّئَةُ[6].

6) ﴿يَعۡتَدُونَ﴾: يَدُلُّ معنى الاعتداءِ عَلَى تَجَاوُزٍ في الشَّيْءِ وَتَقَدُّمٍ لِمَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَيْهِ، والعُدُوُّ: هو التَّجاوز ومنافاة الالتئام، يُقَال: تعدِّيت الحقَّ واعتديت، وعَدَوته أَي:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ثقف).
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/92.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: 1/217.
(4) الأزهري: تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (بوأ).
(5) الرّازي، مفاتيح الغيب: 3/354.
(6) الراغب، تفسير الراغب: 2/799، وابن منظور، لسان العرب، جبل، المعجم الاشتقاقي: (سكن).

جاوزته، والعاديُّ: الظَّالم، والاعتداء والتَّعدِّي والعُدْوان، بمعنى: التَّجاوز على حقِّ الآخر إلى الظُّلمِ[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

جعلَ اللّه الهوانَ والصَّغارَ وصفًا لا يفارقُ اليهودَ، فهمْ أذلَّاءُ محتقَرونَ حيثُما وُجدوا، وفي جميعِ أَحوالِهم، إلَّا بعهدِ الإسلامِ أو ما قرَّرتْه الشَّريعةُ؛ إذا دخلوا في حكمِها مِنَ المساواةِ في الحقوقِ والقضاءِ، وتحريمِ الإيذاءِ، وعهدٍ منَ النَّاسِ، وهو ما تقتضيه المشاركةُ في المعيشةِ مِن احْتياجِهم إليكم، واحتياجِكم إليهم فى بعضِ الأمورِ، وصاروا مستحِقِّينَ غضبَ اللّهِ مستوجبينَ سُخطَهُ، وأَحاطتْ بِهِمُ المَسكنَةُ والصَّغارُ، واستحقاقُهُمْ لِلغضبِ الإلهيِّ بسببِ كُفرِهمْ باللّهِ، وقتلِهمُ النَّبيِّينَ ظُلمًا وعُدوانًا، وما جَرَّأَهم على ذلكَ إلَّا سبقُ المعاصي، واعتداؤُهم على حدودِ اللّهِ[2].

الإِيضاحُ اللُّغَوِيُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِهِ: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾:

تمكُّنُ الذِّلَّة في اليهود وإحاطتِها بهم أينَما ثُقِفُوا

جاء الكلامُ على طريقةِ الاستعارةِ التَّبعيَّةِ المكنيَّةِ؛ إذْ شبَّهَ تثبيتَ الذِّلَّة عليهمْ بضربِ القُبَّةِ الثَّابتةِ على المضروبِ عليه، بمعنَى: أحاطتْ بِهِمُ الذِّلَّةُ بإحكامٍ، واشتملتْ عليهمْ، فلا مخرَجَ منها، وهيَ مقتصِرَةٌ عليهم لا تَتَجاوزُهُمْ، وَوَجْهُ الشَّبهِ الإحاطةُ والشُّمولُ، فالمستعارُ منهُ: ضربُ الخَيمةِ وما شاكلَها، وهوَ أَمرٌ حسِّيٌّ، والفعلُ المستعارُ هو: ﴿ضُرِبَتۡ﴾، والمُستعار لهُ: التَّثبيتُ، وهوَ أَمرٌ عقليٌّ، فالاستعارةُ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، معنى الكنايةِ: عنْ كونِ الذِّلَّة ملصقَةً بهمْ ثابتةً غيرَ مفارِقَةٍ لَهمْ محيطةً بهمْ كإحاطةِ القُبَّة بمَنْ ضُرِبَتْ عليه[3]، وذكرَ حرفَ الاستعلاءِ (على)؛ لإفادةِ تمكُّنِ الذِّلَّة عليهمْ، واستيعابِها لَهم، وفي التَّعبيرِ بضربِ الذِّلَّةِ عليهم إشعارٌ بعِزِّ الإيمانِ وأَهلِهِ.

---

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عدَوَ).

(2) المراغي، تفسير المراغي: 4/32.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/33، والخفاجي، عناية القاضي: 2/169، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/55.

إيثارُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في قوله: ﴿ضُرِبَتْ﴾:

القطعُ بوقوعِ الذِّلَّةِ على اليهودِ ودوامِها

لَمَّا كان الشَّرطُ على معنى المستقبلِ؛ أفادَ أنَّ الضَّربَ - الواقعَ جوابًا للشَّرطِ - على معنى المستقبلِ؛ لإفادة الدَّوام؛ كلَّما تحقَّقَ الشَّرطُ، وجيءَ بالفعلِ بصيغةِ الماضي لإفادةِ القطعِ بوقوعِ ضربِ الذِّلَّةِ عليهم، والمعنَى: ضُرِبَتْ عَلَيهِمُ الذِّلَّةُ، وَحَيْثُمَا ظُفِرَ بِهِمْ في المستقبلِ؛ تُضْرَب عَلَيْهم[1].

بلاغةُ الشَّرطِ في قوله: ﴿أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾:

تأكيدُ ضربِ الذِّلَّةِ وتقريرُهُ

تحتملُ جملةُ الشَّرطِ أَنْ تكونَ محذوفةَ الجوابِ، كما هو مذهبُ نحَّاةِ البصرةِ، وتحتملُ أنْ تكونَ جملةُ ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ هي الجوابَ، كما هو مذهبُ نحَّاةِ الكوفةِ.

وعلى القولِ الأوَّلِ؛ فقد سُلِكَ في الشَّرط حذفُ جوابِهِ؛ لِدلالةِ ما قبلَهُ عليهِ في قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾، والمَعنى التَّقديريُّ: (ضُرِبَتْ عليهمُ الذِّلَّةُ، أينما ثُقِفُوا؛ ضُرِبَتْ عليهمُ الذِّلَّةُ) فالكلامُ على تقديرِ تَكرارِ ضربِ الذِّلَّةِ عليهم؛ إِذْ ذُكِرَ أوَّلًا، وقرَّرَهُ، بصيغةِ الماضي، ثُمَّ جاءَ بالشَّرطِ؛ لِيفيدَ ضَربَ الذِّلَّةِ في المستقبل كذلك؛ لِأَنَّ الشَّرطَ على معنَى المستقبلِ كَمَا تقدَّمَ، ولَمَّا كانَ الشَّرطُ يقتضي جوابًا؛ قُدِّرَ ما ذُكرَ أوَّلًا، فأفادَ تكرارَ ضربِ الذِّلَّةِ عليهم، في الماضي والمستقبلِ؛ لِيفيدَ التَّكرارُ تقريرَ الأمرِ وتأكيدَهُ وعمومَهُ.

وعلى القولِ الثَّاني: يكونُ قولُه: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ هو الشَّرطَ، فلا تكرارَ في الفعلِ، ولكنَّ تقديمَ فعلِ الشَّرطِ على جوابِهِ لا يخلو مِنْ تأكيدِ ضَربِ الذِّلَّةِ وتقريرِهِ كذلكَ، فيكون المآلُ واحدًا على التَّقديرين، وإنْ كانَ الأبلغُ التَّقديرَ الأوَّلَ.

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/305.

دلالة أداة الشرط (أَيْنَمَا):

ضربُ الذِّلَّةِ على اليهودِ في عمومِ الأماكنِ وعمومِ الأحوالِ

تفيد (أَيْنَما) عمومَ الشَّرطِ في الأمكنة، والمعنى: ضُرِبَتْ عليهمُ الذِّلَّةُ في أيِّ مكانٍ تثقفونَهم، ولمّا كانَ عمومُ الأمكنةِ يستلزمُ عمومَ الأحوالِ؛ أفادَ ضربَ الذِّلَّةِ عليهم في جميعِ الأماكنِ الَّتي تثقفونَهم فيها، وفي عامَّةِ الأَحوالِ[1].

مناسبةُ التَّعبيرِ بكلمةِ ﴿ثُقِفُوٓاْ﴾:

ضربُ الذِّلَّةِ عامٌّ لكلِّ مَنْ يظفرُ باليهودِ

لَمَّا كانَ اليهودُ معروفين بخداعِهم وتفلُّتِهم؛ كانتْ كلمةُ ﴿ثُقِفُوٓاْ﴾ هي المناسبةَ للمقام؛ لِمَا في الكلمةِ مِنْ معنى الوجودِ عَلَى وجهِ الْأَخذِ والغلَبَةِ والظَّفَرِ بهم والتَّمكُّنِ منهم مقهورين بعد الطَّلبِ والتَّتبُّعِ، و﴿ثُقِفُوٓاْ﴾ في الْأَصْلِ بمعنى: أُخِذُوا في الْحَرْبِ، وجاءت هنا على معنى: عمومِ الأمكنةِ، وجاءَ الفعلُ على صيغةِ المبنيِّ للمفعولِ؛ للإشعارِ بأنَّ ضربَ الذِّلَّةِ ليس مختَصًّا بأَنْ يجدَهمُ المؤمنونَ، بل هو عامٌّ لكلِّ مَنْ يثقفهم، كما أنَّ في الكلمة إشعارًا بمدحِ مَنْ يثْقَفُهُم بأنَّهُ حاذِقٌ فَطِنٌ، لتمرُّسِهم في الخداعِ.

دلالةُ الاستثناءِ بينَ الاتِّصالِ والانقطاعِ:

التَّمسُّكُ بعهدِ اللهِ وعهدِ النَّاسِ عزٌّ في الحياةِ

في قوله: ﴿إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، يحتملُ الاستثناءُ أنْ يكونَ متَّصِلًا، فيكون التَّمسُّك بعهدِ الله وعهد النَّاس مخرجًا لهم من الذِّلَّة إلى العزِّ في الحقوقِ والمعاش، وإليه ذهب الزَّمخشريُّ.

ويحتملُ أنْ يكونَ منقطِعًا، فتكونَ الذِّلَّةُ ملصقَةً بهم مطلقًا، لا يخرجونَ منها، وإن تمسَّكوا بعهدِ اللهِ وعهدِ النَّاسِ؛ لِلُصوقِ ذلِّ الكُفرِ بهمْ[2].

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/401، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/33.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 7/71، والرّازي، مفاتيح الغيب: 8/160، والزمخشري، الكشاف: 1/401، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/72، ورضا، تفسير المنار: 4/55.

دلالةُ العطفِ على المُغايَرَة:

مغايرةُ حبلِ اللهِ لِحبلِ النَّاسِ

لمَّا عطفَ ﴿وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ على ﴿بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أفادَ مغايرةَ العهدين: فأفادَ ﴿بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ العهدَ الَّذي قَرَّرَتْه شَريعَةُ الإسلامِ لَهُمْ؛ إذَا دَخَلُوا في حُكْمِ المؤمنينَ مِنَ المُساوَاةِ في الحُقُوقِ وَالقَضاءِ وَتَحْريمِ إيذائِهِمْ وَهَضْمِ شَيْءٍ مِنْ حُقُوقِهِمْ، وَأفادَ ﴿وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ العهدَ الَّذي تَقْتَضيهِ المُشَارَكَةُ في المَعيشَةِ مِن الحاجةِ في أمورِ الحياةِ والمعاملةِ[1].

دلالةُ حرفِ العطفِ (الواو):

وجوبُ اجتماعِ العهدينِ لِلخروجِ مِنَ الذِّلَّةِ

الظَّاهرُ أَنَّ الواوَ لِلتَّشريكِ في الحكمِ، كما هو الأصلُ فيها، فتفيدُ وجوبَ اجتماعِ العهدينِ؛ لِيتحقَّقَ لهم الخروج مِنَ الذِّلَّةِ إلى العزِّ، وتحتملُ أنْ تكونَ بمعنى: (أو) على معنًى: أَنَّ الذِّلَّةَ مضروبةٌ عليهم في جميعِ الأَحوالِ، إلَّا في إحدى حالتين:

الأُولى: التزامُهم بعهدٍ مِنَ اللّهِ.

والثانية: التزامُهم بعهدٍ مِنَ النَّاسِ[2].

دلالةُ (ال) في قولِهِ: ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

المؤمنونَ هُمُ النَّاسُ لِكمالِهِمْ في إنسانيَّتِهِم

تدلُّ (الـ) على الاستغراقِ، بمعنًى: عموم النَّاسِ؛ لِيشمَلَ العهدَ مِنَ المسلمينَ وغيرِهِمْ، بشرطِ موافقتِهِ لِذلكَ الحبلِ الَّذي منَ اللّهِ سبحانَهُ وتعالى، وقد يكونُ منه لجوؤُهم إلى قوَّةٍ غالبةٍ في الأرضِ مِنْ غيرِ المسلمينَ يستظلُّونَ بحمايتِهِمْ، ويستمدُّونَ منهمُ العَونَ والقوَّةَ، كما هو شأنُهم في هذا الزَّمانِ.

وذهبَ بعضُ المفسِّرينَ إلى أنَّ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ هنا عامٌّ مخصوصٌ؛ إذْ قُصِدَ بِهِ خصوصُ المسلمينَ؛ لِلإشارةِ إلى أنَّ المؤمنينَ هُمُ النَّاسُ لِكمالِهِمْ في إنسانيَّتِهم بما يتَّصفونَ به من أوصافِ الإيمانِ[3].

---

(1) رضا، تفسير المنار: 4/56.

(2) الراغب، تفسير الراغب: 2/800، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/33، ولجنة من علماء الأزهر، التفسير الوسيط: 2/638.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 5/29، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/240، والقونوي، حاشية على البيضاوي: 7/276.

دلالةُ التَّنكيرِ في قولِه: ﴿وَحَبۡلٖ﴾:

أَفادَ تنكيرُ ﴿وَحَبۡلٖ﴾ تعظيمَهُ وتفخيمَهُ، فأَيُّ عهدٍ يصدرُ منَ اللّهِ مأخوذٌ مِنْ كتابِه وشريعتِه، أو عهدٍ يصدرُ منَ النَّاسِ في معاملاتِهم وحقوقِهم، لَهُ مقامُ التَّعظيم، ويقتضي الالتزامَ بهِ، ولمْ يقلْ: (حبلِ اللّهِ) بالإضافةِ، فيكون مُختَصًّا بهِ؛ لأَنَّهُ ذكرَ حبلين.

نُكتَةُ التَّقييدِ بقولِه: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

الحبلُ سببٌ للمنعِ من السُّقوطِ والخُذلانِ

لَمَّا جاءَ الحبلُ متعلِّقًا بقولِه: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ زادَهُ تعظيمًا وتفخيمًا، لِما تفيدُهُ ﴿مِّنَ﴾ الابتدائيَّة من معنى: صدورِهِ مِنَ اللّهِ؛ لِلإشعارِ بتدلِّيه مِنْ عُلُوٍّ، فهو سببٌ لِلمنعِ مِنَ السُّقوطِ والخذلانِ.

ولَمَّا كانوا بحاجةٍ إلى الاطمئنانِ على تجارتِهم وَشؤونِ حياتِهم؛ علَّقَ الحبلَ الثَّاني بـ ﴿مِّنَ﴾ كذلكَ؛ لِلإشارةِ إلى ابتداءِ صدورِهِ منَ النَّاسِ الَّذين يأخذون العهد منهم وعلوِّهم عليهم، وقُدِّمَ حبلُ اللّه على حبلِ النَّاسِ؛ لِلاهتمامِ بهِ والعنايةِ بشأنِه، فهو أَولى بالالتزامِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾:

دلالةُ الحبلِ على الارتباطِ باللهِ وبالنَّاسِ وَالمنعِ مِنَ السُّقوطِ

الحبلُ: مستعارٌ لِلعهدِ[1]، وذكرَ الحبلَ دونَ غيرِه؛ لِأنَّه لَمَّا كانَ الحبلُ لِمَا يمتدُّ، وكانَ مشدودًا غيرَ قابلٍ للقطع غالبًا، وهو سببٌ للوصلِ؛ شبَّهَ العهدَ بالحبلِ بجامعِ الارتباطِ والقوَّةِ والامتدادِ، فالنَّاس يَرْتَبِطُونَ بِالْعُهُودِ، كَمَا يَقَعُ الِارْتِبَاطُ الْحِسِّيُّ بِالْحِبَالِ.

وأفادتِ الاستعارةُ كذلكَ الإيجازَ في الكلامِ، وإقامةَ الدَّليلِ على وجوبِ التَّمسُّكِ بالعَهدِ بسببِ الإشعارِ بأنَّه يفيدُ الارتباطَ باللّهِ وبالنَّاسِ وَيمنعُ مِنَ السُّقوطِ.

دلالةُ الجملةِ الحاليَّةِ ﴿وَبَآءُو﴾:

لَمَّا كانَ الذُّلُّ؛ رُبَّما كانَ معَ الرِّضا، ولو مِنْ وجهٍ قال:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/56.

﴿وَبَآءُو﴾؛ لِيفيدَ اقترانَ ذلِّهمْ بهمْ بِما استحقُّوهُ مِنْ غضبٍ مِنَ اللّهِ الملكِ الأعظم.

اجتماعُ الذُّلِّ وغضبِ اللهِ على اليهودِ

بلاغةُ الاستعارةِ التَّهكُّميَّةِ في قوله: ﴿وَبَآءُو﴾:

جاء الكلام على طريقةِ الاستعارةِ التَّهَكُّميَّةِ[1]، وبيانُه أنَّه لمّا أفادتْ كلمةُ ﴿وَبَآءُو﴾ معنى: الرُّجوعِ بالخَيبةِ والشَّرِّ والنُّزولِ في المنزلِ المُكافئ؛ دلَّتِ الاستعارةُ على خَيبتِهمْ وخسرانِهم في رجوعِهم إلى المنزلِ المُكافئ لهمْ، ولكنَّهُ منزلٌ ملتبسٌ بغضبٍ عظيمٍ منَ اللّهِ، فاستحقُّوه بعدَ أنْ ظنُّوا الفوزَ والفلاحَ في ما هم فيه؛ لتكونَ الخيبةُ أشدَّ على ما تفيدُه الاستعارةُ التَّهكُّميَّة.

دلالةُ تنكيرِ ﴿بِغَضَبٍ﴾:

التَّنكيرُ لِتهويلِ غضبِ اللهِ وتفخيمِه

أفادَ التَّنكيرُ تعظيمَ الغضبِ وتفخيمَهُ، ثُمَّ لمَّا قالَ: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ دلَّ على ابتداءِ صدورِهِ منَ اللّهِ؛ لِلإشعارِ بزيادةِ تهويلِهِ بأنَّهُ منَ اللّهِ، وليسَ منْ غيرِه، وأنَّ هذا الغضبَ أعظمُ الغضبِ وأشدُّهُ؛ لاقترانه بذكرِ الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهِ﴾.

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ﴾:

الاستعارة كنايةٌ عنْ كونِ الحاجةِ ملصَقةً بهم لا تفارقُهم

جاء الكلامُ على الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ على وفقِ ما تقدَّمَ في بيانِ قولِه: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾، فالاستعارة كنايةٌ عنْ كونِ الحاجةِ ملصَقةً بهم لا تفارقُهم متمكِّنةً منهم، محيطةً بهم على الاستيعاب، كإحاطةِ القبَّةِ بِمَنْ ضُرِبَتْ عليه، وفي التَّعبيرِ بضربِ المسكنةِ عليهم إشعارٌ بِغِنَى أَهلِ الإيمان وعزِّهم.

مناسبةُ الوصلِ في قوله: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ﴾:

اجتماعُ الذُّلِّ، والبوءِ بغضبِ منَ اللهِ، والمسكنةِ إعراقٌ في الذُّلِّ

ولمَّا كانَ ضربُ الذِّلَّةِ والبوءُ بغضبٍ منَ اللّهِ قد يصحبُهُما اليَسارُ والتَّنَعُّمُ والاكتفاءُ؛ ضربَت عليهمُ المَسْكَنَةُ، فهي ملصَقَة بهم لا تفارقُهُمْ؛ لِيكونوا بهذهِ الأوصافِ أعرقَ شيءٍ في الذُّلِّ[2].

(1) الراغب، المفردات، ص: 159.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/29.

الحاجةُ إلى الآخرِ وضَعفُ الحالِ وفقرُ النَّفسِ لاتفارقُ اليهودَ البتَّةَ

نُكتةُ الإطلاقِ في ضربِ المسكنَةِ:

فلمْ يستثنِ هنا، كما استثنَى في ضربِ الذِّلَّةِ عليهم؛ للإشارةِ إلى أنَّ الحاجةَ إلى الآخرِ وضَعفَ الحالِ وفقرَ النَّفسِ لاتفارقُ اليهودَ البتَّةَ، فلا يدفعونَ عنْ أَنفسِهم شَرًّا يوقِعُهُ بِه خصومُهمْ مِنْ غيرِ استعانةٍ بغيرِهم.

الاستئنافُ البيانيُّ؛ لتشويقِ المتلقِّي، ولِتكثيرِ المعنى بتقليلِ اللَّفظِ

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ﴾:

جاءَ الكلامُ على طريقةِ الاستئنافِ البيانيِّ؛ لتشويقِ المتلقِّي، ولِتكثيرِ المعنى بتقليلِ اللَّفظِ؛ لِيتضمَّنَ الكلامُ إيجازًا، فبعدَ أنْ ذكرَ ما حَكَمَ بِه عليهم من إلزامِهم ما ذُكِرَ، وهوَ أمرٌ عظيمٌ مثيرٌ، اشتملَ الكلامُ على سؤالٍ عن سببِ استحقاقهم ذلك؟ فأغنى السَّائلَ عن السُّؤالِ، وأجاب بذكر سبب الحكم المقنِع، وهو كفرُهمْ بآياتِ اللّهِ وقتلُهمُ الأَنبياءَ بغيرِ حقٍّ.

مناسبةُ السَّببِ لهولِ المسبَّبِ

نُكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

أفادَ التَّعبيرُ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ هولَ ما أُلزِمُوا به، ولِلإيجازِ في ذكرِ اجتماعِ ذواتِهم وأَوصافِهمُ المذكورةِ، ولمّا أفادَ اسمُ الإشارةِ هولَ ما حصلوا عليه؛ ناسبَ أنْ يكونَ السَّببُ عظيمًا مهولًا كذلكَ.

نِكاتٌ بلاغيَّة في قولِه: ﴿بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾:

الباءُ سببيَّةٌ، وتُشعرُ بمعنَى: الملابَسةِ، بِمَعنَى: بِسببِ كُفرِهِمْ ومُلابَسَتِهِمْ لَهذا الكفرِ.

أفادتْ (أنَّ) تأكيدَ كُفرِهم وتقريرَهُ واستمرارَهم عليه.

ولمّا كانتِ الباءُ سببيَّةً؛ كانَ المعنى: (بسببِ كفرِهم)، ولمْ يعبِّر بِهِ معَ أَنَّهُ أَخصَرُ مِنْ ﴿بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ لِمَا في هذا التَّركيبِ مِنَ الدَّلالةِ على أَنَّهم جَمعوا بينَ الثَّباتِ على أَصلِ الكُفرِ بآياتِ اللّهِ والدَّوامِ عليهِ وما تجدَّدَ منه؛ بسببِ اقترانِ الفعلِ المضارعِ ﴿يَكۡفُرُونَ﴾ بـ(كانَ)[1]، ومثلُهُ الكلامُ على قولِه: ﴿وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾.

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 2/169.

دلالةُ الفعلِ المضارعِ ﴿يَكۡفُرُونَ﴾ و﴿وَيَقۡتُلُونَ﴾ و﴿يَعۡتَدُونَ﴾:

استمرارُ اليهودِ فـي الـكـفـرِ والاعتداءِ

والتَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في ﴿يَكۡفُرُونَ﴾ و﴿وَيَقۡتُلُونَ﴾ و﴿يَعۡتَدُونَ﴾، للدَّلالةِ على تجدُّدِ هذهِ الأفعالِ منهم باستمرارٍ، ولاستحضارِ قبيحِ صُنعِهم، بِتصويرِ الفعلِ في صورةِ الحالِ، ولمّا انقطعتِ النُّبوَّةُ بموتِ رسولِ اللّهِ؛ دلَّ على استمرارِهم في الكفرِ والاعتداءِ.

مناسبةُ إسنادِ قتلِ الأنبياءِ لِأهلِ الكتابِ:

الـرِّضا بالكفرِ والقتلِ والاعتداء في مقامِ الفاعلِ لها

وأسندَ قتلَ الأنبياءِ إليهم معَ أنَّهُ فعلُ أسلافِهم لِرضاهم بِهِ، كما أنَّ التَّحريف كان فعل أحبارهم لرضاهم به، واستمرارهم عليه عزمًا أو فعلًا، ولِلإشارةِ إلى أنَّهم كانوا يريدونَ قتلَ النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ لوصفِهم بقتلِ الأنبياءِ على سبيلِ التَّجدُّدِ في وقت تنزيلِ القرآن.

دلالةُ الحالِ في قوله: ﴿بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾:

إفـــادة الـحـالِ تـأكـيـدَ بـطـلانِ قـتـلِ الأنـبـيـاء، وأنَّه مسبَّبٌ عن عصيانِهم

أفادَ مجيءُ الحالِ ﴿بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ أنَّ قتلَ الأنبياءِ لم يكنْ حقًّا بِحسبِ اعتقادِهم أيضًا، فيكونُ زيادةً في ذمِّهم والتَّشنيعِ عليهم؛ لِلإشارةِ إلى أنَّ قتلَهمُ الأنبياءَ مسبَّبٌ عنْ عصيانِهم واتِّباعِهمُ الهَوى، وليس عن اعتقادِهم أحقِّيَّةَ فعلِهم[1].

وأيضًا لمّا كانَ قتلُ الأنبياءِ لايكونُ إلَّا بغيرِ حقٍّ؛ أفادَ الحال تأكيدَ كونِهِ بغيرِ حقٍّ والمبالغة فيه، وصرَّح بالحالِ؛ لِتشنيعِ فعلِهم وتقبيحِهِ، وجاءَ بكلمةِ ﴿بِغَيۡرِ﴾ المفيدةِ معنى المغايرةِ بينَ أمرين، فلمَّا كانَ قتلُهمُ الأنبياءَ بغيرِ حقٍّ أفادَ أنَّهُ بالباطلِ؛ تأكيدًا وتقريرًا لكونِهِ بغيرِ حَقٍّ.

دلالة مجيء ﴿حَقّٖ﴾ نكرة:

إفـــادةُ التَّـنـكـيرِ معنى العمومِ

لمّا كانَ مجيءُ النَّكرةِ في سياقِ النَّفيِ مُفيدًا العُمومَ؛ دلَّ على نفيِ كلِّ أنواعِ الحقِّ في قتلهم الأنبياء.

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/33، والقونوي، حاشية على البيضاوي: 6/277.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ بينَ الاستئنافِ البيانيِّ والبَدَلِ:

تنوُّعُ البيانِ سعةٌ في البلاغةِ وتكثيرٌ للمعنى

يحتملُ أنْ يكونَ الكلامُ استئنافًا بيانيًّا؛ لِيكونَ جوابَ سؤالٍ مقدَّر تقديره: لِمَ كفروا، واستمرُّوا على كُفرِهم وقتلِهمُ الأنبياءَ؟ فذكرَ السَّببَ العامَّ لِلحكمِ عليهم بما ذُكِرَ؛ تشويقًا لِلمتلقِّي وإيجازًا في الكلامِ بحذفِ السُّؤالِ المقدَّرِ، فيكونُ ذكر ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشعارًا بسببِ الكفرِ وقتلِ الأنبياءِ، فيكونُ مِنْ بابِ ذكرِ علَّةِ العلَّةِ، وهي في المآلِ علَّةٌ لضربِ الذِّلَّةِ وما نُسِقَ عليها.

ويحتملُ أَنْ يكونَ بدلَ اشتمالٍ من قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ﴾؛ لِكمالِ الاتِّصالِ بينهما؛ لِيفيدَ مجموعُ البدلَين إيضاحَ سببِ ضربِ الذِّلَّةِ والبَوءِ بغضبِ اللّهِ وضربِ المسكنَةِ، فيكونُ السَّببُ واحدًا على جهةِ التَّركيبِ مِنْ سببينِ زيادةً في البيانِ، وتنوُّعُ البيانِ سعةٌ في البلاغةِ وتكثيرٌ للمعنى.

نُكتَةُ مجيءِ ﴿عَصَواْ﴾ بصيغةِ الماضي:

الإصرارُ على الصَّغائرِ يُفضي إلى مباشرةِ الكبائرِ

فقد جاءتِ الأفعالُ ﴿يَكۡفُرُونَ﴾، ﴿وَيَقۡتُلُونَ﴾، ﴿يَعۡتَدُونَ﴾ بصيغةِ المضارعِ، وعبَّرَ عن العصيانِ بصيغةِ الماضي؛ لإفادةِ سبقِ عصيانِهِمْ كلَّ ما فعلوه، وأنَّهم بسببِ عصيانِهم اعتدَوا، وكفروا، وقتلوا الأنبياءَ بغيرِ حَقٍّ؛ لِلإشارةِ إلى عدمِ الاستهانةِ بالمعصيةِ، فإنَّ الإصرارَ على الصَّغائرِ يُفضي إلى مباشرةِ الكبائرِ، والاستمرارَ على الكبائرِ يؤدِّي إلى الكُفرِ.

مناسبةُ حذفِ متعلَّقِ ﴿يَعۡتَدُونَ﴾:

الاعتداءُ وصفٌ لازمٌ لليهودِ

فَلَمْ يقُلْ: يعتدونَ على الأنبياءِ أَوْ على الكُتُبِ أَو على المؤمنينَ، فَحذفَ المتعلَّقَ؛ لإفادةِ عمومِ الاعتداءِ، وأنَّ الاعتداءَ صارَ وصفًا لازمًا لهم.

المتشابه اللَّفظي:

1 - ذكر الله تعالى هنا ﴿ٱلۡأَنۢبِيَآءَ﴾ بصيغة جمع التكسير؛ ليفيد التَّكثير نعيًا عليهم وتفظيعًا لشأنهم، فذكر في الموضعين، أعني: في البقرة وفي أوَّل السُّورة ما ينبىء عن القلَّة مع أنَّ ذلك موافق لما بعده من جموع السَّلامة كالَّذين والصَّابئين وغيرهما، ثُمَّ تدرَّج إلى ما هو نصٌّ في الكثرة في الموضعين الآخرين نعيًا عليهم وتفظيعًا لشأنهم، ولمثل هذا عرَّف الحقَّ في البقرة إشارة إلى الحقِّ الَّذي أذن الله أن تقتل النَّفس به، وهو قوله: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأنعام: 151]، ثم نكَّر في المواضع الباقية، أي: بغير سبب ولا شبهة، فالقتل كان بسبب عصيانهم واتِّباعهم الهوى لا بحسب معتقدهم وتديُّنهم(1).

2 - جاء لفظ ﴿حَقّٖ﴾ هنا نكرة، وجاء في سورة أخرى (معرفة)؛ لأنَّه لمَّا كانت آية آل عمران الَّتي ذكر فيها ﴿بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ في اليهود الَّذين كانوا في عصر تنزيل القرآن، وتكاثرت الأدلَّة على تماديهم في الكفر من بعد ما تبيَّن لهم الحقُّ؛ كان الأنسب أن يعبَّر عنهم أنَّهم ارتكبوه بغير شبهة ولا سبب يمكن التَّعلُّق به، فقوله تعالى: ﴿بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾، كأنَّه مرادف لما لو قيل: بغير سبب ولا شبهة، وذلك أوغل في ذمِّهم وسوء حالهم؛ لأنَّهم لا يمكنهم في مرتكبهم تعلُّق بشيء البتَّة ولا أدنى شبهة، ولمَّا كانت الأولى في سورة البقرة إنَّما هي في سلفهم فيمن كان في عصر موسى عليه السلام جاء قوله: ﴿بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ إشارة إلى الحقِّ الَّذي أذن الله أن تقتل النَّفس به، وهو قوله: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأنعام: 151]، أي: بغير وجه الحقِّ المبيح للقتل، فالألف واللَّام للعهد في المسوَّغ المتقرَّر في شريعتهم، فقد افترق مقصد الآيتين، فاختلف التَّعبير في اللَّفظين(2).

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الذِّلّ (بكسر الذَّال وضمِّها) والذِّلَّة:

لم يُفرِّق المعجميُّون بين الذُّلِّ والذِّلَّة؛ فالذُّلُّ: ضِدُّ الْعِزِّ، وَهَذِهِ مُقَابَلَةٌ فِي التَّضَادِّ صَحِيحَةٌ، تَدُلُّ عَلَى الْحِكْمَةِ الَّتِي خُصَّتْ بِهَا الْعَرَبُ دُونَ سَائِرِ الْأُمَمِ؛ لِأَنَّ الْعِزَّ مِنَ الْعَزَازِ،

(1) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/238.
(2) ابن الزبير، ملاك التأويل: 1/42.

وَهِيَ الْأَرْضُ الصُّلْبَةُ الشَّدِيدَةُ، وَالذُّلُّ خِلَافُ الصُّعُوبَةِ، وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ: "بَعْضُ الذِّلِّ - بِكَسْرِ الذَّالِ - أَبْقَى لِلْأَهْلِ وَالْمَالِ"، يُقَالُ مِنْ هَذَا: دَابَّةٌ ذَلُولٌ، بَيِّنُ الذُّلِّ[1].

وقد علَّق ابن جني - رحمه الله - تعليقًا لطيفًا على قراءة ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذِّلِّ﴾ [الإسراء: 24] بكسر الذَّال[2]، حيث قال: "الذِّلُّ في الدَّابة: ضدُّ الصُّعوبة، والذُّلُّ للإنسان، وهو ضدُّ العزِّ، وكأنَّهم اختاروا للفصل بينهما الضَّمَّة للإنسان والكسرة للدَّابَّة؛ لأنَّ ما يَلحق الإنسانَ أكبر قدرًا ممَّا يلحق الدَّابَّة، واختاروا الضَّمَّة لقوَّتها للإنسان، والكسرة لضعفها للدَّابَّة، ولا تستنكر مثلَ هذا، ولا تنبُ عنه؛ فإنَّه من عَرَفَ؛ أَنِسَ، ومن جَهِلَ؛ استوحش"[3].

قُلْتُ: ومن ثَمَّ فإنَّهم زادوا التَّاء في مكسور الذَّال؛ ولم يزيدوها في مضمومها؛ لأنَّ وصفَ الإنسان به للمبالغة في الانقياد المصحوب بالقهر، ثُمَّ لحقته تاء المبالغة للتَّأكيد، فقالوا: (الذِّلَّة)، كما زادوها فيما دلَّ على المبالغة في نحو: (علَّامة، وفهَّامة، ونسَّابة) ونحو: راويَة ونابغة، ودِحْيَة بكسر الأوَّل، وأصلها: (دِحْي)، فِعْل بمعنى: فاعل، وفي الآخر تاء المبالغة، وهو من دَحْي الإبل وغيرها، أي: ساقها، ورجلٌ مجْذامة، أي: قاطعٌ للأمر، فاشتملت صفة (الذِّلَّة) على شكلين من المبالغة: الأوَّل: جعل ما للدَّابَّة من الذِّلِّ بكسر الذَّال للإنسان، والآخر: إلحاق تاء المبالغة في الصِّفة، وخُصَّت (الذِّلَّة) باليهود في القرآن الكريم في موضعيها:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٦١﴾ [البقرة: 61].

والموضع الآخر: قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾.

الذِّلَّة والمَسْكَنَة:

لَمّا كانتِ الذِّلَّةُ مِنَ الهوانِ والصَّغارِ بعدَ عِزٍّ كانَ عليهِ؛ كانتِ الذِّلَّةُ هيَ الحالةَ التي

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذلل).
(2) نسبت إلى أبي بكر عن عاصم في رواية غير مشهورة، وابن عباس وعروة بن الزبير في جماعة غيرهما: (جَنَاحَ الذِّلِّ)، كما في الفراء، معاني القرآن: 2/122، وابن خالويه، المختصر، ص: 76.
(3) ابن جني، المحتسب: 2/18.

تَعْتَرِي الشَّخْصَ مِنْ سَلْبِ غَيْرِهِ لِحَقِّهِ وَهُوَ يَتَمَنَّاهُ، فَمَنْشَؤُهَا وَسَبَبُهَا غَيْرُهُ لَا نَفْسُهُ، ولمّا كانتِ المَسْكنةُ مِنْ سُكونِ النَّفسِ وخضوعِها وفقرِها كانتِ ٱلْمَسْكَنَةُ حَالَةً لِلشَّخْصِ مَنْشَؤُهَا اسْتِصْغَارُهُ لِنَفْسِهِ حَتَّى لَا يَدَّعِيَ لَهُ حَقًّا[1].

الذِّلَّة وَالصَّغَار:

الذِّلَّة عن عجز ووقوعٍ تحت قهرٍ، لا فكاك منه، فهو ذهاب الشُّموخ، وهو ضَعف كذلك؛ لأنَّه رخاوة ونسيبٌ وعجزٌ عن التَّماسك.

والصَّاغر: الصَّغير قدره، والراضي بالذُّلِّ والضَّيم، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٖ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التَّوبة: 29]، والصَّغار هُوَ الاِعْتِرَاف بالذُّلِّ وَالْإِقْرَار بِهِ، إِظْهَارُ صِغَر الشَّأْن، وَفِي الْقُرْآن: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 124]؛ وَذَلِكَ أَنَّ العصاة بِالآخِرَة مُقِرُّون بالذُّلِّ معترفون بِهِ، وَيجوز أَن يكون ذليلٌ لَا يعْتَرف بالذُّلِّ[2].

وأُوثر لفظ ﴿ٱلذِّلَّةُ﴾؛ لأنَّه أعمُّ، ولمناسبة الضَّرْب في قوله: ﴿ضُرِبَتْ﴾، كأنَّ المعنى: نُصِبَتْ عليهم وحازتهم، وهو من ضرْب الخيمة، كما قال الرَّاغب[3].

---

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة: 1/18، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 249، ورضا، تفسير المنار: 4/57.

(2) العسكري، الفروق اللغويَّة: 249.

(3) الراغب، المفردات: (ضرب).

﴿ ۞ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٤ ﴾ [آل عمران: 113 - 114]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

لَمّا حكمَ اللّه تعالى على أكثرِ أَهلِ الكتابِ بأَنَّهمْ فاسقونَ، وذكرَ أَوصافَهمْ وعقوبتَهمْ في الآيةِ السَّابقةِ؛ جاءتْ هذهِ الآيةُ لإنصافِ طائفةِ المؤمنينَ منهم بذكرِ محاسنِهم وأَوصافِهم وثوابِهم، بعدَ أَنْ أجملَ الكلامِ عليهم في قولِه: ﴿مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾[1]، كما أنَّ في الآيةِ استمالةً وحثًّا لِسائرِ أهل الكتاب على أَنْ يكونوا مثلَ هذهِ الطَّائفةِ المؤمنة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَوَآءٗۗ﴾: يدلُّ معنى سَوِيَ: على اسْتِقَامَةٍ وَاعْتِدَالٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، وهو مأخوذٌ من التَّساوي، وسواءُ الطَّريقِ: وسطُهُ المعتدلُ لِتساوي طرفَيه، وَالسِّيُّ: المِثْلُ، وسِيَّانِ: مِثْلَانِ؛ ولهذا يقالُ: فلانٌ وفلانٌ سواءٌ، أي: متساويانِ، وسواءٌ مصدرٌ، فيستعملُ للواحدِ والمثنَّى والجمعِ، فيقالُ: هما سواءٌ، وهم سواءٌ، وليسوا سواءً بمعنى: ليسوا متساويين في الصَّلاح والفساد، وفي الخيرِ والشَّرِّ[2].

2) ﴿أُمَّةٞ﴾: المعنى المحوريُّ: تَضَامُّ شيءٍ أو أشياء متجانسة، أي: لحاق بعضها ببعض في حيِّز يحيط بظاهرها بلطف، كما تضمُّ تلك الجلدةُ الرَّقيقة مادّةَ المخِّ (أُمِّ الرأس)، وكما تتضامُّ القامة، ومن لُطفها تكوينُها صورة متكاملة، وأُمَّة الطَّريق: مساحةٌ واسعة متَّصلة متكاملة أيضًا، وكذا تجمُّع النجوم في المَجَرَّة (أُمِّ النُّجوم)، وقد قال علماء اللُّغة: "كلُّ شيء ينضمُّ إليه سائرُ ما يليه؛ فإنَّ العرب تُسمِّي ذلك الشَّيء أُمًّا، والأُمُّ لكلِّ شيء: هو

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/31، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/31
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (سَوِيَ)، وابن جرير، جامع البيان: 7/118.

المَجمَعُ والمَضَمُّ "، ومنه "الأُمُّ: الوالدة؛ "لأنَّ أولادها يرتبطون بها، وهي أصلهم ومَجْمَعُهم (كانوا في بطنها)، ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۝٢٨﴾ [مريم: 28]، الأمُّ: الوالدة، وجمعها، ثم هناك ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ [الأنعام: 92]، وهي مكَّة: سُمِّيت بهذا؛ لأنَّها منشأ الدِّين، ولدَحْو الأرض منها، ولأنَّها وسط الأرض، ولكونها قبلة وموضعًا للحجِّ، ومكان أوَّل بيت وضع للنَّاس، والمعنى: ولتنذر أهلَ أمِّ القرى ومن حولها، وهم سائر أهل الأرض، والأُمَّة: القَرْن الجيل من النَّاس (جماعة كبيرة متَّحدو الجنس أو زمن الوجود معًا)، ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: 128][1]. والمرادُ بالأمَّةِ في هذه الآيةِ جماعةٌ منْ أهلِ الكتابِ[2].

3) ﴿قَآئِمَةٌ﴾: يدلُّ معنى القيامِ: على الاستقامةِ والثَّباتِ عليها، ومنه قولُهم: أَقَمْتُ العودَ، فَقامَ، أي: استقامَ، والقيامُ بالشَّيءِ: مراعاتُهُ وحفظُهُ وإصلاحُهُ؛ ليكونَ مستقيمًا ثابتًا.

والمعنى المحوريُّ: انتصاب الشَّيء إلى أعلى ثابتًا، كقامة الإنسان، وقيامه، وثبات الدَّابَّة، والماء في مكانه، ومن الانتصاب يؤخذ معنى النُّهوض بالشَّيء و(تفعيله - كما يقال الآن) وأمَّةٌ قائمةٌ، بمعنى: مواظبة على أمرِ اللهِ مستقيمة فيه[3].

4) ﴿يَتْلُونَ﴾: يدلُّ التُّلُوُّ على معنى: اتِّباعِ الشَّيءِ ما يَسْبِقُهُ لُحوقًا به مِن خَلفِه، وتلاوةُ كتابِ اللهِ: فيها إِتباعُ اللَّفظِ للَّفظِ، والتِّلاوةُ: تختَصُّ باتِّباعِ كُتُبِ اللهِ المُنَزَّلةِ اتِّباعًا أو قراءَةً أوعَرْضَ المَحْفُوظِ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، وتكون بصوتٍ[4].

5) ﴿ءَانَآءَ﴾: جمْعٌ، مُفْردُهُ: إِنْيٌ وإِنًى وأَنًى، وأَصْلُهُ: ساعةٌ من الزَّمانِ، وآناء اللَّيلِ: ساعاتُهُ[5]، والإِناءُ: ذاك الَّذي يُرْتَفَقُ به (ظَرْفًا لماء أو طبيخ)، وأَنَى النَّباتُ، كبَكى: حانَ وأَدْرَك، وأَنَّيتُ الطَّعامَ في النَّار: أَطَلْتَ مُكْثه فيها".

والمعنى المحوريُّ: تهيُّؤ الشَّيء وصلوح حاله لما يراد به، كالنَّبات المذكور، والظُّروف

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (أمم).

(2) الراغب، تفسير الراغب: 2/803.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (قوم)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 108، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (قوم).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي، تلَوَ.

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (أنى)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 283.

المذكورة تهيُّؤُ الطَّعام للتَّناول ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ ﴾ [الإنسان: 15] (جمع إناء)، ومن الظَّرف المكانيِّ استُعْمِل في الزمانيِّ، أي: مدَّة البقاء إلى أوان الاستعمال، أي: حين صُلُوحه لذلك[1].

6) ﴿وَيُسَٰرِعُونَ﴾: السُّرْعَةُ: ضِدُّ البُطءِ، وكلُّ ما في القرآنِ ممَّا جاءَ مِنْ مادَّةِ هذهِ الكلمةِ هو مِنَ السُّرعةِ ضدِّ البطءِ، وأَسْرَعَ: طَلَبَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ، وتَكَلَّفه، كأَنَّه أَسرَعَ المشي، أَي: عَجَّله، وصيغةُ يُسارِعُ مِنْ سَارَعَ على وزنِ: فاعَلَ، على معنًى: المبالغةِ في السُّرعةِ[2].

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

ليسَ أهلُ الكتابِ متساوينَ في حالِهِمْ وأوصافِهم، بلْ منهمْ طائفةٌ مستقيمةٌ على دينِ اللَّهِ، قائمةٌ بأمرِ اللَّهِ ونهيِهِ، يتلونَ القرآنَ باللَّيلِ، وهمْ يصلُّونَ متهجِّدينَ، ويؤمنونَ باللَّهِ وباليومِ الآخرِ، ويقومونَ بإرشادِ غيرِهم إلى ما ينبغي بأمرِهم بكلِّ معروفٍ، أو بمنعِهمْ عمَّا لا يَنبغي بنهيِهِمْ عنْ كلِّ منكَرٍ، ويبادرونَ إلى فعلِ الخيراتِ، وأُولئكَ منْ عبادِ اللَّهِ الصَّالحينَ.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتَةُ النَّفي بـ (لَيْسَ):

إفـادة (لَـيْـسَ) النَّـفـي مـن غـيرِ قيدٍ للزَّمن

لَمَّا كانتْ (ليسَ) لِنفيِ مضمونِ الجملةِ مطلقًا مِنْ غيرِ قيدٍ للزَّمنِ[3]، أَفادَ الكلامُ نفيَ تساوي أَهلِ الكتابِ بينَ فريقِ المؤمنينَ وفريقِ الفاسقينَ مُطلَقًا؛ ليشملَ الماضيَ والحاضرَ والمستقبلَ.

سرُّ العدول عن (متساوين) إلى ﴿سَوَآءً﴾ في حيِّز النَّفي:

نفي السَّواء غير نفي الاستواء، فالسَّواء مصدر بمعنى: استواء

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (أنو - أنى).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، جبل، المعجم الاشتقاقي: (سرع).

(3) الإستراباذي، شرح الكافية: 4/193.

ظاهر الشَّيء أو سطحِه بسبب امتلاء وسطِه وباطنِه، والاستواء يعبِّر عن استقامة الظَّاهر واستوائه بغضِّ النَّظَر عن أصله أو وسطه، ومن ثمَّ فإنَّ نفي السَّواء نفي للمصدر، أي: نفي لاستوائهم في أصل الصِّفات والأحوال، هذا في نفي السَّواء المُعَرَّف.

نفي عموم أصلِ الاتِّصافِ بالقبائِحِ المذكورة، لا نفي المساواةِ في مراتِبِ الاتِّصافِ بها

وأمَّا نفي كونهم سواءً (بالتَّنكير)، فإنَّ النَّكرة في سياق النَّفي تفيد العموم، أي: نفي عموم تساويهم في أصل الصِّفات والأحوال بينَ المؤمنينَ والفاسقينَ منْ أهلِ الكتابِ، وليس المقصود أنَّهم متَّفقون في أصل الاتِّصاف بها، ومختلفون في مراتب هذه الصِّفات، أو درجاتها، وهذا من إنصاف القرآن الكريم للآخر عمومًا، ولأهل الكتاب خاصَّةً.

وهذا سرُّ العدول عن (ليسوا متساوين) إلى ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ﴾؛ إذ إنَّ نفي التَّساوي لا ينفي تساويهم في أصل الصِّفات، بقدر ما يؤكِّد على نفي تساويهم في مراتبها ودرجاتها.

والمعنى: ليسَ جميعُ أهلِ الكتابِ متشاركينَ في الاتِّصافِ بِمَا ذُكرَ من القبائِحِ والابتلاءِ، بما يترتَّبُ عليها منَ العقوباتِ[1].

دلالة الوقف القرآنيّ:

ليسَ المؤمنونَ والكافرونَ مِنْ أهلِ الكتابِ سَواءً

وردَ الوقفُ القرآنيُّ على قولِه تعالى: ﴿سَوَآءٗۗ﴾؛ لِيفيدَ تمامَ الإسنادِ[2]، ولِتكونَ جملةُ ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ﴾ ابتداءً استئنافيًّا بيانيًّا كما يأتي.

بلاغة الاستئناف البيانيّ في قوله: ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ﴾:

لمّا قالَ اللّه تعالى: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ﴾؛ فكانَ ممَّا يُحرِّكُ السَّامعينَ، ويشوِّقُهم أَنْ يَعرفوا سببَ نفيِ التَّساوي بينَ الفريقينِ، فاشتملَ الكلامُ على سؤالٍ، تقديرُهُ: لِمَ كانوا ليسوا متساوينَ؟ لِيقعَ قولُه

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/73.
(2) الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء: 2/582، والمهدوي، التّحصيل: 2/112.

تعالى: ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ﴾ إلى آخر الكلامِ جوابًا للسُّؤالِ الَّذي هو مقتضَى الحالِ؛ لِيكونَ استئنافًا مبيِّنًا لِكيفيَّةِ عدمِ تساويهِمْ ومُزيلًا لِما فيه من الإبهامِ مع الإيجازِ في الكلامِ[1].

تـــشـــويـــقُ المخاطبين لإزالةِ الإبهامِ في الكلامِ

ويحتملُ أَنْ يكونَ ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ﴾ وما بعدَه توضيحًا لِمَا أُجمِلَ قبلَهُ، وتفسيرًا له مِنْ حيثُ إنَّ نفيَ التَّسويةِ بينَ الفريقينِ، فيه إجمالٌ يقتضي بيانَ صفاتِ كلِّ فريقٍ وإيضاحَ أحوالِهم[2].

بلاغةُ وضعِ الظَّاهِرِ موضِعَ المُضمَرِ:

وضعَ ﴿أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ موضعَ الضَّميرِ العائدِ إليهم، فلَمْ يقُلْ: (منهمْ أمَّةٌ قائمَةٌ)؛ لِفوائد، هي[3]:

الـوصـفُ بأهلِ الـكـتـابِ يقتضي أنْ يـكـونـوا صالحينَ

1- لِيَكُونَ هذَا الثَّنَاءُ شَامِلًا لِصَالِحِي الْيَهُودِ، وَصَالِحِي النَّصَارَى، فَلَا يُخْتَصُّ بِصَالِحِي الْيَهُودِ.

2- لِتحقيقِ ما بِه الاشتراكُ بينَ الفريقينِ، وهو كونُهما مِنْ أَهلِ الكتابِ.

3- لِلإيذانِ بأنَّ تلكَ الأمَّةَ ممَّنْ أوتي نصيبًا وافرًا مِنَ الكتابِ لا مِنْ أراذِلِهِمْ.

4- لِلإشعارِ بأنَّ كونَهم مِنْ أَهلِ الكتابِ يقتضي أَنْ يكونوا مؤمنينَ صالحينَ لا فاسقينَ، ففي الإظهارِ مدحٌ لِلصَّالحينَ وتوبيخٌ لِلفاسقينَ منهمْ.

المجازُ المُرسَلُ في قولِه: ﴿أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

حثُّ أهلِ الكتابِ على أنْ يقتدوا بِمَنْ آمنَ منهم برسولِ اللهِ ﷺ

وإطلاقُ اسمِ أَهلِ الكتابِ عليهم، وهم قدْ أَسلموا، مِنْ بابِ المجازِ المرسَلِ، باعتبارِ ما كانَ، أَي: كانوا مِنْ أهلِ الكتابِ[4]، وجاءَ على طريقةِ المجازِ المرسَلِ باعتبارِ ماكانَ؛ لِيكونَ على معنى الحثِّ والتَّحضيضِ؛ ليحتذي أهلُ الكتابِ حذوَهم، وَيتَّصِفوا بصِفاتِهِمْ.

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/402، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/73.
(2) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 262، 267.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/72، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/57.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/57.

بلاغةُ الاكتفاءِ بذكرِ أحدِ الضِّدَّين:

لمّا قال: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ﴾؛ أفادَ أنَّهم ليسوا أمَّةً واحدة، ولمّا أتى بـ ﴿مِّنۡ﴾ الَّتي للتَّبعيض في قوله: ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ﴾، كانَ الظَّاهرُ أنْ يأتيَ بالقَسيم الآخرِ؛ لِتمام الكلام بأن يُقَالَ: وَمِنْهُمْ أُمَّةٌ مَذْمُومَةٌ، أو ما في هذا المعنى، إلَّا أَنَّهُ حذفَ ذِكْرَ الْأُمَّةِ الْمَذْمُومَةِ؛ لأَنَّ ذِكْرَ أَحَدِ الضِّدَّيْنِ يُغْنِي عَنْ ذِكْرِ الضِّدِّ الْآخَرِ، فَذِكْرُ أَحَدِهِمَا يَسْتَقِلُّ بِإِفَادَةِ الْعِلْمِ بِهِمَا[1]، فَلَا جَرَمَ يَحْسُنُ إِهْمَالُ الضِّدِّ الْآخَرِ إلَّا لاعتبارٍ مناسِبٍ، وأهملَ المذمومةَ؛ لأنَّ السِّياقَ في بيانِ مدحِ الأمَّةِ القائمةِ بأمرِ اللّه الحافظةِ له، وأيضًا للإشعارِ بأنَّهم إذا غابُوا؛ لمْ يُذكَرُوا، وإذا حضَرُوا؛ لم يُعرَفُوا، فلا يُؤبَهُ لهمْ.

ذكـرُ المؤمنين وأوصافِهم يُغني عن ذكرِ الفاسقينَ وأوصافِهم

بلاغة المجاز في قوله تعالى: ﴿قَآئِمَةٞ﴾:

في التَّعبيرِ بـ ﴿قَآئِمَةٞ﴾ مجازٌ عن اعتدالِ الأمَّةِ المذكورةِ على أمرِ اللّهِ وعملِها بدينِها عَلَى الْوَجْهِ الْحَقِّ وثباتِها ودوامِها عليه، بقرينةِ السِّياقِ، فذكَرَ اللَّازمَ: وهو ﴿قَآئِمَةٞ﴾، وَأرادَ الملزومَ: وهو (الثَّباتُ والدَّوامُ)، ومنهُ قامَ على الأمرِ: دامَ وثبتَ، ويُقَالُ: سُوقٌ قَائِمَةٌ وَشَرِيعَةٌ قَائِمَةٌ، أي: ثابتة دائمة[2].

الأمَّةُ المحمودة ثابتةٌ على أمرِ اللهِ مداومةٌ عليه

سببُ إيثارِ التَّعبيرِ بـ ﴿يَتۡلُونَ﴾:

عبَّر بـ ﴿يَتۡلُونَ﴾؛ لِمَا في التِّلاوةِ من معنَى الإلقاءِ بصوتٍ مع حُسنِ تَنغيم، وقراءةٍ واضحةٍ بيِّنةٍ تتوالى كلماتُها[3]، فجاءَ بصيغةِ المضارعِ؛ لِتصويرِ حالتِهمْ، وهمْ يتلونَ آياتِ اللّه.

نكتة إسناد الفعل إلى واو الجماعة في قوله: ﴿يَتۡلُونَ﴾:

جاءَ الفعلُ ﴿يَتۡلُونَ﴾ مسندًا إلى واوِ الجماعةِ؛ لِلإشعارِ بأنَّ حكمَ

---

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/331.

(2) الزمخشري، أساس البلاغة: (قوم)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/112.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 2/409، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/337.

تلاوةِ آياتِ اللّٰهِ آناءَ اللَّيلِ وهمْ يصلُّونَ؛ إنَّما هو على المجموعِ، لا على كلِّ فردٍ منهم؛ إذْ بعضُ النَّاسِ يقومُ أوَّلَ اللَّيلِ، وبعضُهم آخره، وبعضُهم بعدَ هَجعةٍ، ثُمَّ يعودُ إلى نومِهِ، فيأتي مِنْ مجموعِ ذلكَ في المُدُنِ والجماعاتِ عبارةُ ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ بالقيامِ، وهكذا كانَ صدرُ هذهِ الأمَّةِ[1].

نُكتَةُ مجيءِ ﴿وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ﴾ حالًا بعدَ نعتِ التِّلاوةِ:

كـثرةُ السُّجـودِ أدلُّ على حسنِ صورةِ الإيمانِ

لمّا كانتِ الصَّلاةُ مشتملَةً على تلاوةِ آياتِ اللّٰهِ؛ كانَ التَّصريحُ بتلاوتِهم آياتِ اللّٰهِ في الصَّلاةِ أدلَّ على كمالِ الخضوعِ، فجاءَ بجملةِ النَّعتِ ﴿يَتۡلُونَ﴾؛ ليفيدَ الثُّبوتَ، ثُمَّ أعقبَهُ بجملةِ الحالِ؛ ليصوِّرَ حالَهم في السُّجودِ؛ لأنَّهُ أبينُ لِمَا يفعلونَ، وأدلُّ على حُسنِ صورةِ أمرِهمْ[2].

دلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ﴾:

أفادتِ الواوُ الحاليَّةُ معنى: يتلونَ آياتِ اللّٰهِ آناءَ اللَّيلِ مُصَلِّينَ، وأفادَ الإسنادُ تقوِّي إثباتِ السُّجودِ لَهم وتأكيدِهِ بمجيءِ المسنَدِ فعلًا متحمِّلًا لِضميرٍ يعودُ على المُسنَدِ إليه، فيكونُ بمنزلةِ تكرارِ الإسنادِ؛ لإفادةِ تحقيقِ سجودِهم؛ اهتمامًا بشأنِه وتعظيمًا له، وجاءَ بصيغةِ الفعلِ المضارعِ؛ لِلدَّلالةِ على استمرارِهِ حَالًا فَحَالًا[3].

بلاغةُ المجازِ المُرسَلِ:

تـتابعُ النِّكـاتِ الـبـلاغـيَّـةِ في (يسجدون)

عبَّر بـ ﴿يَسۡجُدُونَ﴾ عن الصَّلاةِ؛ ليكونَ مِنْ بابِ ذكرِ الجُزءِ وإرادةِ الكلِّ على طريقةِ المجازِ المرسَلِ، وذكرَ هنا السُّجودَ دونَ غيرِهِ مِنْ أجزاءِ الصَّلاةِ كالرُّكوعِ مثلًا لنكاتٍ هي[4]:

1- لِمناسبةِ السُّجودِ لِمَا فيه من الرِّقَّةِ والتَّذلُّلِ لِتلاوةِ آياتِ اللّٰهِ آناءَ اللَّيلِ.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/493.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/402، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/58.
(3) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 221.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/58.

2- فيهِ بيانُ حسنِ صورةِ السُّجودِ.

3- للإشارةِ إلى طولِ سجودِهم وكثرتِه؛ فإنَّ مَنْ أكثرَ مِنْ شَيءٍ؛ اشْتُهِرَ بذلكَ الشَّيءِ، وَوُصِفَ بهِ.

4- فيهِ إشعارٌ بالحثِّ على طولِ السُّجودِ في صلاةِ التَّهجُّدِ؛ لورودِه في مقامِ التَّمدُّحِ والثَّناء.

5- فكانَ التَّعبيرُ - بما ذُكِرَ - أبلغَ مِنْ أَنْ يُقالَ: وهم يَتَهَجَّدون.

نُكتَةُ تقديمِ نعتِ التِّلاوةِ على نعتِ الإيمانِ بالله:

تعظيمُ شأنِ تلاوةِ القرآنِ

لِزيادةِ تحقيقِ المخالفةِ معَ الفاسقينَ منْ أهلِ الكتابِ، ولِتفرُّدِهم بخصيصَةِ تلاوةِ آياتِ اللهِ، ولتعظيمِ شأنِها، ولِتوضيحِ نفيِ المساواةِ بينهم وبينَ الَّذين وُصِفوا آنفًا بالكفرِ بها[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾:

المتَّقون مستقرُّون في الخيراتِ ملازمونَ لَها

شبَّهَ مسارعةَ المؤمنينَ منْ أهلِ الكتابِ في الخيرِ وشدَّةِ إقبالِهم عليهِ وجَوَلانِهم فيهِ بنشاطٍ وقُوَّةٍ معَ حرصِهم عليه بإسراعِ الماشي في مكانٍ محدَّدٍ، وإيثارُ كلمةِ ﴿فِى﴾ على ما وقع في قولِه تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الإِسْرَاعَ مَجَازٌ على طريقة الاستعارة التَّبعيَّة بِمَعْنَى: التَّوَغُّلِ، فَيَكُونُ الحرفُ ﴿فِى﴾ قَرِينَةَ المَجَازِ، كَقَوْلِهِمْ: أَسْرَعَ الشَّيْبُ في رَأْسِ فُلَانٍ، فَجَعَلَ الخيراتِ بِمَنْزِلَةِ الظَّرْفِ، وَجَعَلَ مسارعتهم في الخيراتِ وَشِدَّةَ استقرارِهم فيها بِمَنْزِلَةِ جَوَلَانِ الشَّيْءِ في الظَّرْفِ جَوَلَانًا بِنَشَاطٍ وَسُرْعَةٍ؛ لبيانِ استقرارِهم وملازمتِهم لِلخَيراتِ ملازمةَ المظروفِ للظَّرفِ، فهمْ يتقلَّبونَ فيها وفي مراتبِها، ويُسارعونَ فيها متَى وجدوا لِذلكَ فُرصَةً؛ لِفَرطِ رغبتِهمْ في الخيراتِ لا أنَّهم خارجُون عنها منتهونَ إليها[2].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/73.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/280، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/74.

وَنَظِيرُ هذهِ الاستعارةِ قَوْلُهُ تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ﴾ [المائدة: 62]، وَقَوْلُهُ: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المؤمنون: 56]، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المؤمنون: 61].

نُكتةُ تتابعِ الصِّفاتِ:

التَّعريضُ بذمِّ مَنْ لم يتَّصف بهذهِ الصِّفاتِ من اليهودِ

قدْ يُقالُ: لمَ وصفَ اللّه تعالى المؤمنينَ مِنْ أَهلِ الكتاب بهذهِ الصِّفاتِ دونَ غيرِها؟ والجوابُ: أنَّه وصفَهمْ بخصائِصَ ما كانتْ في اليهودِ من تلاوةِ آياتِ اللّهِ باللَّيلِ مصلِّينَ وساجدينَ، ومن الإيمانِ باللّهِ؛ لِأنَّ إيمانَهم بهِ كلا إيمانَ؛ لإشراكِهمْ به عُزَيْرًا، وكفرِهمْ ببعضِ الكتبِ والرُّسلِ دونَ بعضٍ، ومِنَ الإيمانِ باليومِ الآخِرِ؛ لِأنَّهم يصفونَهُ بخلافِ صفتِهِ، ومِنَ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عنِ المنكَرِ؛ لِأنَّهم كانوا مُداهنينَ، ومِنَ المُسارعةِ في الخَيراتِ؛ لِأنَّهمْ كانوا مُتباطِئينَ عنها غيرَ راغبينَ فيها[1]، ففي ذكرِ هذهِ الصِّفاتِ تعريضٌ بذمِّ مَنْ لم يتَّصف بهذهِ الصِّفاتِ من اليهودِ.

فوائدُ دلاليَّةٌ في تركيبِ ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾:

أبـــوابُ الخيرِ كـثيرةٌ وسبلُه متنوِّعَةٌ

أفاد هذا التركيبُ ثمانيةَ معانٍ مجتمعة:

الأوّل: في الكلامِ تعريضٌ بتباطؤِ اليهودِ في فعلِ الخيراتِ بل بمبادرتِهم إلى الشُّرورِ[2].

الثاني: آثرَ اختيارَ الفعل ﴿وَيُسَٰرِعُونَ﴾؛ لِما تدلُّ عليه الكلمةُ من الإشعارِ بِفرطِ رغبتِهم في فعل الخيرات؛ لأنَّ من رغب في الأمرِ؛ سارع في تولِّيه والقيامِ به، وآثر الفور على التَّراخي[3].

العجلة مذمومة والسُّرعة في الخير محمودة

الثالث: واختارَ لفظَ المسارعةِ، ولم يعبِّرْ بالعجلةِ؛ لِأنَّ السُّرعةَ هي التَّقدُّمُ فيما يجوزُ أنْ يُتقدَّمَ فيه، وهي محمودةٌ، وضدُّها الإبطاءُ،

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/403.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/74.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/403.

وهو مذمومٌ، والعجلةُ التَّقدُّمُ فيما لا ينبغي أنْ يُتَقَدَّمَ فيه، وهي مذمومةٌ، وضدُّها الأناةُ، وهي محمودةٌ[1].

الرابع: لَمّا كانَتْ صيغةُ (سارِعَ) على وزن (فاعل)؛ أفادت أَنَّهم طَلَبُوا ذَلِكَ مِنْ أنفُسِهم، وتَكَلَّفُوه؛ لِيفوزوا بغنيمةِ الخَيراتِ.

الخامس: أفادتْ صيغةُ (فاعَلَ) معنى: المبالغةِ في المسارعةِ في الخيرات، فليستِ الصِّيغةُ على معنى: المغالبةِ ولا المشاركةِ[2].

السادس: كما دلَّتْ صيغةُ المضارَعةِ على تجدُّدِ حالِهم في التَّسارُعِ في الخيرات، فبعدَ أَنْ تأصَّلَ الخيرُ فيهم؛ يُسارعونَ في إِظْهَارِ آثَارِهِ عِنْدَ أَدْنَى مُنَاسَبَةٍ وَفِي كُلِّ فُرْصَةٍ، فيحدثُ منهمْ في كلِّ وقتٍ أشياءُ تزيدُ في دخولِهم في الخيراتِ.

مدح الاجتماعِ على الطَّاعة

السابع: وجاءتِ الصِّيغةُ متَّصلةً بضميرِ الجمعِ (الواو)؛ لإفادةِ المدحِ على الاجتماعِ على الطَّاعة.

الثامن: أفادَ مجيءُ ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ﴾ بصيغةِ الجمعِ المُعرَّفِ بـ (الـ) الَّتي للاستغراقِ الإشعارَ بِسَعَةِ الخيراتِ وتنوِّعِها وتكثُّرِها؛ ولِتشملَ الأفعالَ اللَّازمةَ المقتصرةَ على صاحبِها والمتعدِّيةَ إلى الآخرينَ، فهمْ يسارعونَ في كلِّ الخيراتِ المتيسِّرةِ ويتقلَّبون فيها، فأبوابُ الخيرِ كثيرةٌ وسُبُلُه متنَوِّعَةٌ.

دلالةُ اسمِ الإشارةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

في التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ثلاثُ فوائدَ[3]:

الأوّل: فيه إشارةٌ إلى الأمَّةِ باعتبارِ اتِّصافِهم بما فُصِّلَ من النُّعوتِ الجليلةِ، ففيه إيجازٌ في الكلامِ.

الثاني: لَمّا كانَ اسمُ الإشارةِ فيهِ معنى البُعدِ؛ أوحى بعُلُوِّ درجتِهم وسُمُوِّ طبقتِهم في الفضلِ.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/403.

(2) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 7/462.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/74.

الثالث: آثَرَهُ على الضَّمير، فلم يقل: (وهم من الصَّالحينَ) لِلإشعارِ بعلَّةِ الحُكم والمدح، أي: أُولئكَ المنعوتونَ بالصَّلاحِ بسببِ اتِّصافِهم بتلكَ الصِّفاتِ الممدوحةِ.

مناسبةُ مجيءِ الأوصافِ في آيتين:

الأصلُ في قبولِ أَفعالِ الخيرِ هو الإيمانُ

لّما كانَ قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَ﴾ و﴿يُؤْمِنُونَ﴾ صفتين لأُمَّة[1]؛ كانَ ذكرُ الوصفِ الأوَّلِ؛ لِبيانِ خَصوصيَّةِ هذهِ الطَّائفةِ مِنْ أَهلِ الكتابِ، فقدَّمَهُ لِهذا السَّببِ، ثُمَّ ردَّ على ذكرِ الإيمانِ وجعلَه بدايةَ آيةٍ؛ لِبيانِ أنَّ الأصلَ في كلِّ ما يفعلونَهُ مِنْ أَفعالِ الخيرِ وقبولِها: هو الإيمانُ باللّٰهِ وبرسولِهِ وباليومِ الآخِرِ.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التِّلَاوَة وَالْقِرَاءَة:

التِّلَاوَة: لَا تكون فِي الْكَلِمَة الْوَاحِدَة، وَالْقِرَاءَة: تكون فِيهَا، تَقول: قَرَأَ فلَان اسْمه، وَلَا تَقول: تَلا اسْمه؛ وَذَلِكَ أَنَّ أصل التِّلَاوَة من قَوْلك: تَلا الشَّيْءُ الشَّيْءَ يتلوه؛ إِذا تبعه، فَإِذا لم تكن الْكَلِمَة تتبع أُخْتهَا، لم تسْتَعْمل فِيهَا التِّلَاوَة، وتستعمل فِيهَا الْقِرَاءَة؛ لِأَنَّ القراءة اسْم لجِنْس هَذَا الْفِعْل، فالتِّلَاوَة: لَا تكون إِلَّا لكلمتين فَصَاعِدًا، وَالْقِرَاءَة: تكون للكلمة الْوَاحِدَة، التِّلَاوَة فِي الْكَلِمَات: يتبع بَعْضهَا بَعْضًا[2].

فالتِّلاوة أنسب للسِّياق؛ إذ إنَّها وردت في مقام الثَّناء والمدح لعبادة فريق من أهل الكتاب، ومتابعتهم تلاوة آيات اللّٰه آناء اللَّيل بخشوع وخضوع.

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/402.
(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللغويَّة، ص: 27، 63.

﴿وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ١١٥﴾

[آل عمران: 115]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كانَ التَّقديرُ: فما فَعلوا مِنْ خيرٍ؛ فهوَ بعلمِ اللّٰهِ سُبحانَهُ وتعالى، يشكرُهُ لَهمْ؛ عَطَفَ عليه قولَه تعالى: ﴿وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ﴾، كما أَنَّها تَذْيِيلٌ لِلْجُمَلِ الْمُفْتَتَحَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ﴾ [آل عمران: 113] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1].

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَفۡعَلُواْ﴾: من (فَعَل)، الْفَاءُ والْعَيْنُ وَاللَّامُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى إِحْدَاثِ شَيْءٍ مِنْ عَمَلٍ وَغَيْرِهِ، مِنْ ذلِكَ: فَعَلْتُ كَذَا أَفْعَلُهُ فِعْلًا، وَكَانَتْ مِنْ فُلَانٍ فَعْلَةٌ حَسَنَةٌ أَوْ قَبِيحَةٌ، وَالْفِعَالُ: جَمْعُ فِعْلٍ، وَالْفَعَالُ، بِفَتْحِ الْفَاءِ: الْكَرَمُ وَمَا يُفْعَلُ مِنْ حَسَنٍ، والفعل عامٌّ لما كان بإجادة أو غير إجادة، ولما كان بعلم أو غير علم، وقصد أو غير قصد، ولما كان من الإنسان والحيوان والجمادات، والعمل مثله، والصُّنع أخصُّ منهما[2].

2) ﴿خَيۡرٖ﴾: الْخَاءُ وَالْيَاءُ وَالرَّاءُ، أَصْلُهُ: الْعَطْفُ وَالْمَيْلُ، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَيْهِ، فَالْخَيْرُ: خِلَافُ الشَّرِّ؛ لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَمِيلُ إِلَيْهِ، وَيَعْطِفُ عَلَى صَاحِبِهِ، وَالْخِيرَةُ: الْخِيَارُ، وَالْخِيرُ: الْكَرَمُ، وَالِاسْتِخَارَةُ: أَنْ تَسْأَلَ خَيْرَ الْأَمْرَيْنِ لَكَ، وَكُلُّ هَذَا مِنَ الِاسْتِخَارَةِ، وَهِيَ الِاسْتِعْطَافُ، وَيُقَالُ: اسْتَخَرْتُهُ، قَالُوا: وَهُوَ مِنَ اسْتِخَارَةِ الضَّبُعِ، وَهُوَ أَنْ تَجْعَلَ خَشَبَةً فِي ثُقْبَةِ بَيْتِهَا حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ، وَقَالَ الْهُذَلِيُّ:

لَعَلَّكَ إِمَّا أُمُّ عَمْرٍو تَبَدَّلَتْ***سِوَاكَ خَلِيلًا شَاتِمِي تَسْتَخِيرُهَا

ثُمَّ يُصَرَّفُ الْكَلَامُ، فَيُقَالُ: رَجُلٌ خَيِّرٌ، وَامْرَأَةٌ خَيِّرَةٌ: فَاضِلَةٌ، وَقَوْمٌ خِيَارٌ وَأَخْيَارٌ فِي صَلَاحِهَا، والخير: ما يرغب فيه الكلُّ، كالعقل مثلًا، والعدل، والفضل، والشَّيء النافع،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 3/55، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/59.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (فعل).

وضدُّه: الشَّرُّ، وقوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: 180]، أي: مالًا، وقال بعض العلماء: لا يقال للمال: خير حتَّى يكون كثيرًا، ومن مكان طيِّب[1]، والخير في سياق الآية عامٌّ، يشمل كلَّ عملٍ صالحٍ نافعٍ.

3) ﴿يُكۡفَرُوهُۗ﴾: الكفرُ بمعنَى: السَّترِ والتَّغطيةِ، وكُفْرُ النِّعمةِ وكُفْرَانُهَا: سترُها بتركِ أداءِ شُكرِها، وأعظمُ الكُفْرِ جُحودُ الوحدانيَّةِ أو الشَّريعةِ أو النُّبوَّةِ[2]، ومعنى ﴿فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ﴾، أَيْ: لَنْ يُمْنَعُوا ثَوَابَهُ وَجَزَاءَهُ[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وأيُّ فعلٍ تفعلُه هذهِ الأمَّةُ المؤمنةُ قلَّ أو كَثُرَ مِنْ أَعمالِ الخيرِ، فَلَنْ يُضَيِّعَ اللّٰه ثوابَ عملِهم ذلكَ، ولَنْ يَنقصَهُ، ولكنَّهم يُشكرونَ على ما فعلُوا مِنْ ذلكَ، فَيُجزِلُ لَهُمُ الثَّوابَ فيهِ، واللّٰه عليمٌ بالمتَّقينَ الَّذينَ يفعلونَ الخيراتِ، ويبتعدونَ عنِ المُنكراتِ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الشَّرطِ وجوابه:

لَمَّا كانَ الشَّرطُ بمنزلةِ السَّببِ للجزاءِ؛ جاءتِ الفاءُ مقترنةً بالجزاءِ؛ لِيكونَ فعلُ أيِّ خيرٍ قلَّ أو كثرَ سَببًا لِنيلِ الثَّوابِ بتمامِه، ولَمَّا كانَ وقوعُ الجزاءِ مقترنًا بوقوعِ الشَّرطِ؛ أفادَ الكلامُ أنَّ نيلَ الثَّوابِ واقعٌ بوقوعِ فعلِ الخيرِ على معنَى ثباتِه عندَ اللّٰهِ وتقريرِه.

دلالة (ما) الشَّرطيَّة:

لايضيعُ جزاءُ أيِّ فعلٍ مِنْ أفعالِ الخيرِ

أفادت (ما) العمومَ، بمعنى: (أيَّ فعلٍ يفعلون مِنْ أَفعالِ الخيرِ، سواءٌ أكانَ قليلًا أم كثيرًا، قاصرًا على صاحبِه أم متعدِّيًا إلى غيره؛ فلن يضيِّعَهُ اللّٰه تعالى).

نكتةُ التَّقييدِ بقوله: ﴿مِنۡ خَيۡرٖ﴾:

لَمَّا كانَ الحالُ مقيِّدًا لِعاملِه؛ أفادَ ﴿مِنۡ خَيۡرٖ﴾ تقييدَ ﴿يَفۡعَلُواْ﴾،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (خير).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (كفر).
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/335، وابن الهائم، التبيان، ص: 127.

بِمعنَى: الفعل الَّذي هو موضعُ الثَّناءِ، والَّذي لا يَضيعُ أَجرُهُ عندَ اللّهِ: هو الَّذي يكونُ مقترِنًا بالخيرِ غيرَ منفكٍّ عنهُ.

دلالةُ النَّكرةِ في سياقِ الشَّرطِ:

تفيد العموم

لفظ الخير من أعمِّ الألفاظ، فهي دالَّة على كلِّ ما يُحبُّه اللّه - تبارك وتعالى - ويرضاه، سواء كان ذلك يسيرًا أم جليلًا عظيمًا، فكيف إذا كانَ لفظُ ﴿خَيۡرٖ﴾ نكرةً في سياقِ الشَّرطِ؟

إنَّه يفيد العمومَ، فيكونُ أعمَّ مِنْ قولنا: وما يفعلوا من الخير، ودخول (مِن) تأكيد لهذا العموم، فهو أبلغ من قولنا: وما يفعلوا خيرًا، فكلُّ ما يصدر عنهم من خيرٍ قلَّ أو كثُر، من أنواع البرِّ والمعروف المتعلِّقة: بالقلب أو اللِّسان أو الجوارح من أنواع الطَّاعات، ثابت لهم، ومحفوظ لهم، لن يضيع عند اللّه، ولن يذهب سُدًى، فالوزن عند اللّه تبارك وتعالى بمثاقيل الذَّرِّ: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: 7 - 8].

مناسبةُ ذكرِ الخيرِ دونَ الشَّرِّ:

كُلُّ مَا يُفْعَلُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ؛ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مَوْعُودُهُ

اقْتَصَرَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿مِنۡ خَيۡرٖ﴾، وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِذِكْرِ الشَّرِّ؛ لِأَنَّ المقامَ مقامُ ثناءٍ عليهم وتمدُّحٍ وعَطْفٍ وَتَرَحُّم، فلا يناسبُه اقترانُ الشَّرِّ بالخيرِ في هذا الموضعِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ مَا يُفْعَلُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ؛ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مَوْعُودُهُ[1].

سرُّ العدول عن (شيء) إلى ﴿خَيۡرٖ﴾ مع ﴿يَفۡعَلُواْ﴾:

لبيان جنس الفعل، وتوجيه فاعله إليه

نلحظ في آيات القرآن الكريم كلِّها اقترانَ تعلُّق ﴿مِنۡ خَيۡرٖ﴾ بالفعل ﴿تَفۡعَلُواْ﴾، ومنه قوله: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [البقرة: 197]، وقوله: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/313.

﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٢١٥﴾ [البقرة: 215]، وقوله: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ١٢٧﴾ [النساء: 127]، ومنه الآية الَّتي معنا.

والسِّرُّ في ذلك بيان جنس الفعل، وتوجيه فاعله إليه، والحضُّ على فعله، وهو في ذلك يحتمل الوعد لفاعله، والوعيد لتاركه.

فلمَّا دلَّ الفعل ﴿تَفۡعَلُواْ﴾ على عموم الفعل؛ احتيج إلى تخصيص ذلك الفعل، فناسب ذكر لفظ ﴿خَيۡرٖ﴾.

كما نلحظ اقترانَ تعلُّق ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ بالفعل ﴿تُنفِقُواْ﴾، ومنه قوله: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٩٢﴾ [آل عمران: 92]، وقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٦٠﴾ [الأنفال: 60]، وقوله: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩﴾ [سبأ: 39].

والسِّرُّ في ذلك بيان عموم الإنفاق، لا في المال وحده، فكلمة ﴿شَيۡءٖ﴾ أنسب للسِّياق؛ لأنَّها وإن كانت عامَّة، لكنَّها مخصَّصة بالإنفاق.

ولذا لم يتعلَّق ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ بالفعل ﴿تَفۡعَلُواْ﴾؛ لأنَّ ﴿تَفۡعَلُواْ﴾ عامٌّ في كلِّ فعل، و﴿شَيۡءٖ﴾ لفظ عامٌّ أيضًا، والمقام للمدح، فناسب ذكر لفظ ﴿خَيۡرٖ﴾، وهذه نكتة العدول.

في حين تعلَّق ﴿مِنۡ خَيۡرٖ﴾ بالفعل ﴿تُنفِقُواْ﴾ في ثلاثة مواضع: وردت في آيتين متتاليتين في قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٢ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢٧٣﴾ [البقرة: 272، 273]، وهو في مقام الحضِّ على إنفاق الصَّدقات، وخطاب أمَّة النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ فناسب الجمع بين ﴿تُنفِقُواْ﴾ و﴿خَيۡرٖ﴾ لمناسبة المقام.

مناسبةُ التَّعبيرِ بـ ﴿فَلَن﴾:

تفيدُ ﴿فَلَن﴾ تأكيدَ النَّفيِ وتقويتَهُ، على معنى: لَنْ يضيعَ ثوابُهم البتَّةَ[1]، وساقَ الجزاءَ

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/282، وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/282.

على أُسلوبِ التَّأكيدِ؛ لِدفعِ وَهْمِ ما يلوحُ عندَ الكُفَّارِ الجُهَّالِ مِنْ أنَّ ثوابَهم قد يَضيعُ أو ينقُصُ.

تأكيدُ نفيِ ضياعِ ثوابِ المؤمنين

مجازُ التَّعبيرِ بـ ﴿يُكۡفَرُوهُۗ﴾:

لَمّا كانَ تركُ الإثابةِ على التَّمامِ في مقابلةِ الإحسانِ يلزمُهُ الكُفرانُ، كما أنَّ الشُّكرَ يلزمُهُ توفيةُ الثَّوابِ؛ عبَّرَ بنفيِ الكُفرانِ عنْ توفيةِ الإثابةِ، فيكونُ مِنْ بابِ ذكرِ اللَّازمِ، وهو ﴿فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ﴾، وإرادةِ الملزومِ، وهوَ (توفيةُ الإثابةِ).

إيصالُ الجزاءِ على الإحسانِ شكرٌ ومنعُه كُفْرٌ

أَوْ يقالُ: لَمَّا كانَ إِيصَالُ الْجَزَاءِ شُكْرًا؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨﴾ [البَقَرَة: 158]، سَمَّى مَنْعَهُ: كُفْرًا، وأيضًا لَمّا كانَ الْكُفْرُ فِي اللُّغَةِ هُوَ السَّتْرَ؛ سُمِّيَ مَنْعُ الْجَزَاءِ: كُفْرًا، لِأَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ الْجَحْدِ وَالسَّتْرِ[1].

مناسبة التَّضمين في قوله: ﴿يُكۡفَرُوهُۗ﴾:

ضمَّنَ الفعلَ (كَفَرَ) معنى: المنعِ والحِرمانِ؛ لِأَنَّ (كَفَرَ) يتعدَّى إلى مفعولٍ واحدٍ، وقدْ جاءَ متعدِّيًا إلى مفعولين، ولمّا كانَ التَّضمينُ على معنى: إرادةِ الفعلينِ المضمَّنِ والمضمِّنِ؛ كانَ المعنَى على تضمينِ مدلولين، أي: فلنْ يُسْتَرَ عنهم فعلُ الخيرِ؛ لِلإشعارِ بأنَّهم سيرونَهُ أَمامَهم، فيزدادون فرحًا وسرورًا، ولن يُحرموا ثوابَهُ.

المؤمنون لن يُستَرَ عنهمْ فعلُ الخيرِ يومَ القيامةِ، ولنْ يُحرمَوا ثوابَهُ

مناسبةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المبنيِّ للمَفعولِ ﴿يُكۡفَرُوهُۗ﴾:

لإفادةِ أمورٍ: هيَ تنزيهُ اللّهِ تعالى عن إسنادِ الكفرانِ إليه، والأدب معه، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾ [الجن: 10]، وفيه كنايةٌ عنْ حُسنِ الجزاءِ، وجري على سَنَنِ الكبرياءِ والعَظَمَةِ[2].

الأدب مع الله تعالى في تنزيهه عن إسنادِ الكفرانِ إليه

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/335.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/74، وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/282، والقنوجي، فتح البيان: 2/317.

بلاغة الالتفات في تنوّع القراءات:

وردت في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ﴾ قراءتان: الأولى: بالياء على الخبر ﴿يَفۡعَلُواْ﴾، ﴿يُكۡفَرُوهُۗ﴾، والأخرى: بالتّاء على الخطاب ﴿تَفۡعَلُواْ﴾ ﴿تُكۡفَرُوهُ﴾[1]، فعلى قراءة الياء: يكون الكلامُ على نسقٍ واحدٍ لاتّصاله بما قبلَه مِنۡ ذِكۡرِ مُؤۡمِنِي أَهۡلِ ٱلۡكِتَابِ، لجريانِ الأفعالِ على صيغة الغيبةِ: ﴿يَتۡلُونَ﴾ و﴿يَسۡجُدُونَ﴾ و﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ و﴿وَيَأۡمُرُونَ﴾ و﴿وَيَنۡهَوۡنَ﴾ و﴿وَيُسَٰرِعُونَ﴾.

وعلى قراءة التّاء: هو على الالتفاتِ لتلوينِ الخطابِ وللعدولِ به؛ ليكونَ أحسن تطريةً لنشاطِ السّامعِ، وأكثرَ إيقاظًا للإصغاءِ إلى الكلامِ؛ ليجدَ السّمعُ من نفسِه محرّكًا لزيادةِ الإقبالِ عليه، فيكونُ من جريانِ الكلام على خلاف مقتضى الظّاهر.

فإمّا أن يكون التفاتًا إلى قولِه: ﴿أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ﴾، فإنَّه لَمَّا وَصَفَ أهلَ الكتاب بِأَوۡصَافٍ حميدةٍ؛ أَقۡبَلَ عَلَيۡهِمۡ تَأۡنِيسًا لَهُمۡ وَاسۡتِعۡطَافًا عَلَيۡهِمۡ، فَخَاطَبَهُمۡ بِأَنَّ مَا تَفۡعَلُونَ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ، فَلَا تُمۡنَعُونَ ثَوَابَهُ، وتؤيِّده قراءة من قرأ بالياء، وتخييرُ أبي عمرو القراءة بين التّاء والياء.

وإمّا أن يكون التفاتًا إلى ذكرِ المؤمنين من أمّة الإسلامِ؛ ليكونَ عائدًا إلى قوله: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ﴾، فتكونَ الجملةُ تذييليَّةً لقصدِ التّعميم، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: 197]، فإنَّ حقَّ الخطاب، وإنۡ كانَ لمعيَّنٍ؛ لكنَّه قُصِدَ به هنا العمومُ بقرينةِ المقامِ؛ ليدخلَ فيه الصّالحونَ الحاضرونَ واللّاحقونَ، ويدخلَ فيه السّابقونَ كذلك بِقَرِينَةِ العمومِ ومَقَامِ الامۡتِنَانِ، وَوُقُوعِهِ عَقِبَ ذِكۡرِ صفاتِ أهلِ الكتابِ[2].

بلاغةُ وضعِ الظّاهرِ موضِعَ المُضمَرِ:

في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾، إذا كانَ المرادُ من المتّقينَ الأمّةَ المعهودةَ؛ كانَ العدولُ عنِ الضّميرِ العائدِ إليهم إلى الاسمِ الظّاهرِ لِنكاتٍ بلاغيَّةٍ، هي[3]:

(1) القراءتان متواترتان، وحيث قرأ حَمۡزَةُ وَالۡكسَائِيُّ وَحَفۡصٌ عَن عَاصِم قوله تعالى بِالۡيَاءِ، وقرأ ابۡنُ كثيرٍ وَنَافِعٌ وَعَاصِمٌ فِي رِوَايَة أبي بكر وَابۡن عَامر بِالتَّاءِ، وكَانَ أَبُو عَمۡرو يقرأُ على التّخيير بيۡنَ الۡيَاءِ والتَّاءِ، ينظر: ابن مجاهد، السبعة، ص: 215، وابن الجزري، النشر: 2/241.

(2) الراغب، تفسير الراغب: 2/810، والسكاكي، مفتاح العلوم، ص: 180، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/313، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/59.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/74.

1 - في التَّعبيرِ بالمتَّقين مدحٌ لَهم.

2 - فيهِ تعيينٌ لعُنوانِ تعلُّقِ علمِ اللّهِ بهمْ.

3- فيهِ إشعارٌ بمناطِ إثابتِهمْ، وهوَ التَّقوى المنطوي على الخصائِصِ السَّالفةِ.

وإذا كانَ المرادُ منَ المُتّقينَ الجنسَ لإفادةِ العمومِ، فهمْ يندرجونَ تحتَ حُكمِهِ اندارجًا أَوَّليًّا، وتكونُ الجملةُ تذييليَّةً.

حسنُ التَّذييلِ في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾:

أفادتْ جملةُ التَّذييلِ معانيَ، هي[1]:

الفائزُ عندَ اللهِ هوَ أهلُ التَّقوى

الأوّل: إجراءُ جملةِ التَّذييلِ مجرى الدَّليلِ لِجزائِهم على أَفعالِهمْ، وعدمِ حرمانِهمْ مِنَ الثَّوابِ، فالعليمُ بالمتَّقينَ يستدعي توفيةَ أُجورِهم - لا محالةَ - وَأَلَّا يُضَيِّعَ ثوابَهمْ.

الثاني: إثباتُ أَنَّ أفعالَهمْ هي مِنْ أفعالِ المُتَّقينَ.

الثالث: الإِشعارُ بأَنَّ التَّقوى مبدأُ الخيرِ وحسنِ العملِ، وأَنَّ الفائِزَ عندَ اللّهِ هو أَهلُ التَّقوى.

الرابع: لمّا كانَ اللّهُ تعالى عالمًا بكلِّ شَيءٍ؛ كانَ تخصيصُ علمِهِ بالمتَّقينَ كنايةً عنِ الإثابةِ، فيكونُ بشارةً لهم بِجَزيلِ الثَّوَابِ وَدَلَالَةً عَلَى أَنَّهُ لَا يَفُوزُ عِنْدَهُ إِلَّا أَهْلُ التَّقوى.

الخامس: لِتجريَ جملةُ التَّذييلِ مجرى المَثَلِ لِعمومِ معناها وكُلِّيَّتِه.

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/335، القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/283.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١٦﴾ [آل عمران: 116]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الآيةُ استئنافٌ للانتقال إلى ذكر وعيد المشركين، ومصير مَنْ أصرَّ على الكفر من أهل الكتاب مناسبة لِمَا سبق من ذكر وعد الذين آمنوا منهم بهذا القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١١٠﴾ [آل عمران: 110]؛ فعرَّج هنا على بيان كفر هذه الفئة الضَّالّة منهم؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُغۡنِيَ﴾: جذر الكلمة هو (غَنِيَ)، أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، أَحَدُهُمَا يَدُلُّ عَلَى الْكِفَايَةِ، يُقَالُ: غَنِيَ يَغْنَى غِنًى، وَالْغَنَاءُ بِفَتْحِ الْغَيْنِ مَعَ الْمَدِّ: الْكِفَايَةُ. يُقَالُ: لَا يُغْنِي فُلَانٌ غَنَاءَ فُلَانٍ، أَيْ لَا يَكْفِي كِفَايَتَهُ؛ والغِنَى، مقصور، في المال. واستغنى الرَّجل: أصاب غِنىً. والغُنْيةُ: اسمٌ من الاستغناء، والغنيُّ: ذو الوفر. والغانيةُ: الشابّةُ المُتزوِّجة. يقال: غَنِيَتْ بزَوْجها[2]، وأغنى فلانٌ في الحرب غناءً حسنًا. وأغنى عني فلان غناءً؛ أي كَفَّى في الدَّفع. قال تعالى: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ١١﴾ [الليل: 11]، وأغناني الحلال عن الحرام. وتقولُ للشّيء إذا فَنِي: كأَنْ لم يَغْنَ بالأَمْسِ، أي: كأنْ لم يكن، وغَنُوا في ديارهم ثمّ فَنُوا، وخَربت مبانيهم: ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ﴾ [هود: 95][3]. ومن الغِنَى: عدمُ الحاجات، وليس ذلك إلا للّه تعالى، هو المذكورُ فيه قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤﴾ [الحج: 64]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ [فاطر: 15]. ومنه: قلّةُ الحاجات، وهو المشارُ إليه بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ٨﴾ [الضحى: 8][4].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/60.

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).

(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (غني).

(4) الراغب، المفردات: (غني).

والمعنى هنا: لَنْ تَدْفَعَ.

2) ﴿أَصْحَٰبُ﴾: جِذر الكلمة هو (صَحِب)، أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى مُقَارَنَةِ شَيْءٍ وَمُقَارَبَتِه، وَكُلُّ شَيْءٍ لَاءَمَ شَيْئًا فَقَدِ اسْتَصْحَبَهُ؛ والصّاحِبُ: الملازمُ إنسانا كان أو حيوانا، أو مكانا، أو زمانا، ويجمعُ على الصَّحْب، والصُّحبان، والصُحْبة، والصِّحاب. والأَصحابُ: جماعة الصَّحْبِ. ويستعملُ الصاحبُ في الاقتران الدائم مثل قوله تعالى: ﴿كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: 48]؛ إذ صار يُعرف به، وكذلك (أصحاب الجنة)، (أصحاب النار) وما بمعنييهما، وكذا أصحاب (السبت)، و(الأعراف)، (مدين)، (الأيكة) ونحوها؛ لأنها صارت ملازمة لهم كأنها كناياتٌ عنهم، أو صاروا ملازمين لها كأنهم أهلوها ومُلّاكها[1].

3) ﴿خَٰلِدُونَ﴾: جِذر الكلمة هو (خَلَدَ)؛ والخُلْدُ في الأصل بمعنى: الثَّباتِ والمُلازمةِ[2]، والخُلودُ اصطلاحًا: هو: تبرِّي الشَّيءِ مِنَ اعتراض الفساد، وبقاؤُه على الحالة الَّتي هو عليها، وكلُّ ما يتباطأُ عنه التَّغييرُ والفسادُ؛ تصفُه العربُ بالخلود، وأصلُ المُخلَّد: الذي يبقى مدَّةً طويلةً[3]..

والمعنى هنا: الملازمون للنّار، لا يخرجون منها.

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يخبر تعالى أنَّ الذين كفروا من اليهودِ وكُلِّ مَن كَفَرَ بما يَجِبُ الإيمانُ بِهِ لَنْ تَدْفَعَ عنهم قوَّتُهم العَصَبيَّةُ - وخَصَّ الأَوْلادَ؛ لِأَنَّهم أحَبُّ القَرابَةِ وأَرْجاهم لِدَفْعِ النوائبِ - ولا قوَّتُهم الماليَّةُ التي يعتزُّون بها ويُفاخِرون، أيَّ شيءٍ ممَّا سينالهم من عذاب الله في الدنيا إذا نزل بهم شدَّة أو مرضٌ مُهْلِكٌ، ولا في الآخرة عند نزول العذاب، ولا تجدي عليهم شيئًا من ثواب الله، وسجَّل عليهم القرآن أنَّهم أصحابُ النارِ الباقون فيها لا يَخْرجون منها ولا يُفارقونها[4].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المُحكم، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صحب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلد).
(3) الراغب، المفردات: (خلد).
(4) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/196، ورضا، تفسير المنار: 4/62، والموصلّي، أولى ما قيل: 2/529.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ إيرَادِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ اسْمًا مَوْصُولًا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

شَنَاعَةُ الْكُفْرِ بِاللهِ تَعَالَى وَرُسُلِهِ

جيءَ بالمسندَ إليه اسمًا موصولًا مع صلَتِه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دون الوصف؛ إذْ لم يقل: (إنّ الكافرين)، وذلك لِمَا في هذا الفعلِ - وهو الكفر - مِن الشَّناعة والبشاعة، وفيه إيماءٌ إلى سبب بناءِ الخبرِ؛ وهو كفرُهم، فهذا الفعل الشَّنيعُ منهم - وهو الكفر - هو الذي أَوْدَى بِهِم إلى أسوأِ مَصيرٍ يومَ القيامةِ.

وفي كونِ صلةِ الموصولِ فعلًا ماضيًا إشعارٌ بأنَّ كفرهم متحقِّقٌ، وأنَّهم ثَبَتُوا وأصرُّوا عليه.

واللَّامُ في الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ للجنسِ تُفيدُ استغراقَ أفرادِه، وقد ذكر الخَازِنُ احتمالَ كونِ الآية عامّةً في جميع الكفّارِ؛ لأنّ اللّفظ عامٌّ، ولا دليلَ يُوجِبُ التّخصيص، فوجب إجراءُ اللّفظ على عمومه[1].

ويَحْتمِلُ أن تكون اللَّامُ في الموصول عهديَّةً، والمرادُ بهم طائفةٌ مِنَ اليهودِ الذين كانُوا معاصرينَ لرسول اللّه ﷺ، ولذا قال ابن عباس في هذه الآيةِ: يُريد بني قريظة وبني النّضير، وكانوا يَفْخَرُون بأموالِهم وأبنائِهم[2].

ولخّص الآلُوسيُّ القولَيْنِ بقوله: "والمراد مِنَ الموصولِ؛ إمَّا سائر الكفّار فإنّهم فَاخَرُوا بالأموالِ والأولاد: ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥﴾ [سبأ: 35]؛ فَرَدّ اللّه تعالى عَلَيْهِم بذلك، وإمَّا بنُو قُرَيْظَة وبنُو النّضِير؛ إذْ كانت مُعَالَجَتُهم بالأموالِ والأولاد"[3].

---

(1) الخازن، لباب التأويل: 1/288.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/368.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 2/251.

والقولانِ متآيلَانِ؛ لأنَّ القولَ بجنسيَّةِ اللَّامِ شاملٌ القولَ بعهديَّتِهَا؛ لأنَّ أفرادَ العهدِ بعضُ أفرادِ العموم، والقول بعهديَّةِ اللَّام لا يقصُرُ الحكمَ على المخصوصِينَ بالذِّكْرِ؛ لأنَّ الحكمَ مُعَلَّلٌ بالكُفْرِ، فكلُّ كافرٍ هو مثلُهم في المآلِ.

بَلَاغَةُ المَجَازِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾:

لَا نَـجَـاةَ لِلْكَافِرِينَ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ تَعَالَى

مَعْنَى (أغنى عنهُ): دفَعَ عنهُ ومنَعَه؛ فالمراد مِنَ الإغناءِ: الدَّفْعُ[1]، تقول العربُ: أغنى عنهُ، إذَا دفعَ عَنْهُ ضررًا؛ لولاه لنَزَلَ بِهِ؛ فَذُكِرَ في قول اللّه تعالى: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ الفاعلُ وأُريدَ الفعلُ على سَبيلِ المجاز.

وثَمَّ وجهٌ آخَرُ للمجازِ فيها، وذلك أنّه قد جُمِعَتِ الأموال والأولاد في الدّفعِ عنهم، فصارت الأموالُ كرجل عاجز، يُضاف إلى عجز أولاده، لا يستطيعون الدّفع عن صاحبهم، فيكون هذا من قبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ؛ إذْ طُوِيَ ذكرُ المشبَّهِ به، وأُشيرَ إليه بلازم من لوازمِهِ وهو الإغْنَاءُ، وهذا المعنى المجازيُّ وردَ تمثيلًا في قولِ اللّه تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ٢٦٦﴾ [البقرة: 266]، والمعنى المُراد من هذه الأمثلة أنّهم لَن تَدْفَع عنهم يوم القيامة أموالُهم التي عوّلوا عليها في المهمّات ولا من هو أرجى من ذلك وأعظم عندهم - وهم أولادهم - مِنْ عذاب اللّه تعالى لهم شيئًا يسيرًا منه[2].

ويجُوز أن يكُونَ قولُه: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾ مِنَ الغَناء بمعنى الكفاية، والمعنى: لا تغني عنهم نوعًا من أنواع الغناء، أو لا تغني غنَاءً مَا[3].

(1) القاسميّ، محاسن التأويل: 2/391، والآلوسي، روح المعاني: 2/252.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 2/252.
(3) رضا، تفسير المنار: 4/62.

سِرُّ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ ﴿عَنْهُمْ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ﴾:

انْتِفَاعُ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِإِنْفَاقِ أَمْوَالِهِمْ وَعَمَلِ أَوْلَادِهِمْ

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿عَنْهُمْ﴾ هنا للقصر والاختصاص، فإنَّ نفيَ الإغناءِ مختصٌّ بالذين كفرُوا؛ إذ أهل الإيمان الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله تعالى ينفعُهم ثوابُ ذلك الإنفاق، ويضاعفهُ الله سبحانه لهم أضعافًا كثيرة.

وكذا ينتفعُونَ بعملِ الخيرِ الذي يعملُهُ أولادُهم؛ لأنَّه من جملةِ كَسْبِهم[1]، كما قال رسولُ الله ﷺ: "إِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ"[2].

التَّنَاسُبُ بَيْنَ الْغِنَى وَالْأَمْوَالِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ﴾:

الغِنَى عِنْدَ الإِطْلَاقِ بَيْنَ النَّاسِ هُوَ غِنَى الْمَالِ، وَجَاءَ الشَّرْعُ بِبَيَانِ أَنَّ أَعْظَمَ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ

وردت لفظة ﴿أَمْوَٰلُهُمْ﴾ قريبةً من جهةِ دِلالَتِهَا من لفظة ﴿تُغْنِيَ﴾، وقُدّم ذِكْرُ الأموالِ على الأولادِ؛ لئلَّا يُقْطَعَ هذا التَّناسُبُ بينَ الغِنَى والأموالِ؛ فإنّ الغِنَى ينصَرِفُ عادةً إلى الغِنَى في الأموال، ومنه قول العرب: استغنى الرّجلُ، أي: أصاب غِنَى المال لا الأولاد[3]، ولا يخفى دورُ المال في تسيير حركة الحياة والتّنافس وموازنات الاقتصاد؛ فإنّها تعتمد اعتمادًا أصليًّا على الأموال.

والمراد بالأموال في قوله: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ﴾ جميع نفقات الكفّار في الدّنيا وصدقاتهم، كما قاله مجاهدٌ[4]، وهو مستفادٌ من الإضافةِ؛ إذ الجمع المضافُ مفيدٌ العُمومَ.

وفي جمع الأموال والأولاد إيماءٌ إلى الكثرةِ، وأنَّهم - ولو كَثُرُوا عَدَدًا - لن يُغْنُوا عن الكفَّار شيئًا.

---

(1) ابن عثيمين، فتح ذي الجلال والإكرام: 4/404.

(2) رواه أحمد في مسنده، الحديث رقم: (25296)، والترمذي في جامعه، الحديث رقم: (1358)، وابن ماجه في سننه، الحديث رقم: (2290)، وصحّحه الألباني في إرواء الغليل، الحديث رقم: (1626).

(3) الخليل، العين: (غني).

(4) الثعلبي، الكشف والبيان: 3/133.

نُكْتَةُ تَكْرِيرِ حَرْفِ النَّفْيِ وَسِرُّ تَخْصِيصِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ بِالذِّكْرِ فِي قَوْلِهِ:
﴿لَن تُغْنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ﴾:

لَا يَنْفَعُ الْكُفَّارَ شَيْءٌ فِي الْآخِرَةِ

كُرِّرَ حرفُ النّفي مع المعطوف في قوله: ﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم﴾؛ لتأكيد عدم إغناء أولادِهم عنهم، دفعًا لِتوهُّم ما هُو معروفٌ في العادةِ مِن أنَّ الأولاد لا يَتقاصَرُونَ عنِ الذّبّ عن آبائهم[1].

ووجهُ تخصيصِ الأموال والأولاد: أنّ أنفعَ الجماداتِ الأموالُ، وأنفعَ الحيواناتِ الأولادُ، وَبيّن اللّه تعالى أنّ الكافر لا ينتفع بهما ألبتة في الآخرة، وذلك دالٌّ على عدم انتفاعِه بسائر الأشياء بطريقِ الأَوْلَى، ونظيرُ هذا قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾ [الشعراء: 88، 89]، وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [البقرة: 48] الآية، وقوله: ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ﴾ [آل عمران: 91][2].

دِلَالَةُ حَرْفِ الْجَرِّ (مِنْ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾:

فِي تَعَدُّدِ مَعَانِي الْحُرُوفِ إِغْنَاءُ الْمَعَانِي الْقُرْآنِيَّةِ

الجارُّ والمجرور ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ متعلّقانِ بـ﴿لَن تُغۡنِيَ﴾، على اعتبار أنَّ ﴿مِّنَ﴾ ابتدائية؛ والمعنى: لا تُغني عنهم غَناءً صادرًا من اللّه تعالى بالعَفْوِ عَن كُفْرِهم، و﴿مِّنَ﴾ التي لابتداء الغاية هي في قول المُبَرِّد بمعنى: (عند)[3]، فقول اللّه تعالى: ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾ معناها: عند اللّه[4]، وجعله أبو عبيدة مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾ [قريش: 4]، وقال: معناه (عندَ جُوعٍ) و(عندَ خَوْفٍ)[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/60.
(2) الرّازي، التَّفسير الكبير: 8/336.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/60.
(4) ابن المنذر، تفسير ابن المنذر: 1/135.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/60.

وقال الزمخشري: قوله: ﴿مِّنَ﴾ في قوله ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾، مثله في قوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔاۚ﴾ [يونس: 36]؛ والمعنى: لن تغني عنهم من رحمة الله، أو من طاعة الله شيئا، أي: بدل رحمته وطاعته، وبدل الحق. ومنه: "وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ"؛ أي: لا ينفعُه جَدُّه وحظُّه مِنَ الدُّنيا بذلك، أي: بدل طاعتك وعبادتك وما عندك، وفي معناه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ: 37][1].

وفي إثباتِ معنى البدليّة لـ ﴿مِّنَ﴾ خلافٌ، وقد استدل مَنْ أثبتَهُ بقوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِۚ﴾ [التوبة: 38]، أي: بدلَ الآخرة، وبقوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزّخرف: 60]؛ أي: لجعلنا بَدَلَكُم.

يَجُوزُ أَن تكونَ ﴿مِّنَ﴾ تبعيضيَّةً؛ بناءً على أنَّ ﴿شَيْـًٔاۖ﴾ منصوبٌ على المصدريَّةِ، كقولكَ: ضربتُ زيدًا شيئًا منَ الضَّربِ، ويَكُون ﴿مِّنَ ٱللَّهِۖ﴾ في موضعِ الحال من ﴿شَيْـًٔاۖ﴾.

فتلَخَّص في معنى ﴿مِّنَ﴾ أقوالٌ؛ أنَّها لابتداءِ الغاية، وهو قول المبرِّد والكلبِيِّ، أو أنَّها بمعنى: (عند)، وهو قول أبي عُبَيْدَة، أو تكونُ بَدَلِيَّةً، وهو قول الزّمخشريِّ، أو تكون لِلتّبعيضِ، وهو ما اختاره أبو حيّانَ[2].

فَائِدَةُ تَخْصِيصِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ بِالذّكْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ﴾:

لِلْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ خَصِيصَةٌ عِنْدَ النَّاسِ؛ تَكَاثُرًا وَتَبَاهِيًا

قال الله تعالى: ﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ﴾ أي: التي أَعْرَضُوا عنِ الحقِّ لأجلِها، فَبَيَّنَ اللّه تعالى وجهَ غُرُورهم بها تحذيرًا من جعلِها آلةً للاغترارِ وتَرْكِ الحقّ، وتذكيرًا بِأنّه لا يَنْبَغِي أَن تَشْغَلَ أحدًا عَنِ الآخرة[3].

قال ابن عطيّة: "وخصَّ اللّهُ تعالى الأموالَ والأولادَ بالذِّكْرِ؛ لِوُجُوهٍ، منها: أنّها زينة الحياة الدُّنيا، وعُظْمُ مَا تجري إليهِ الآمالُ، ومِنْهَا: أنّها أَلْصَقُ النّصرةِ بالإنسان وأيسرُها، ومنها: أنَّ الكفَّار

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/339 - 340.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/35.
(3) رضا، تفسير المنار: 3/195.

يَفْخَرُون بالآخرةِ لا هِمَّةَ لهم إلَّا فيها هِي عندهم غايةُ المرء وبِهَا كانوا يَفْخَرُون على المؤمنين، فذكَرَ اللّه أنَّ هذين اللَّذَيْنِ هما بهَذِه الأوصَافِ لا غَنَاء فِيهما مِن عِقَاب اللّهِ في الآخِرَة، فإذا لَم تُغْنِ هذه؛ فغَيْرُها مِنَ الأمور البعيدةِ أَحْرَى أن لَا يُغْنِي"[1].

نُكْتَةُ جَمْعِ الْأَوْلَادِ إِلَى الْأَمْوَالِ، وَسِرُّ تَقْدِيمِ الْأَمْوَالِ عَلَى الْأَوْلَادِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم﴾:

قَطْعُ طَمَعِ الْكَافِرِينَ فِي أَنْ يَنَالَهُمْ شَيْءٌ مِنَ النَّفْعِ

ذُكِرَت الأموال والأولاد في قوله: ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾؛ لأنّ الغَنَاء في مُتَعارَف النّاس يكُون بالمال والولَد، فَالمالُ يَدْفَعُ به المرءُ عَن نفسِه في فِدَاءٍ أو نَحْوِه، والولدُ يُدَافِعُون عَن أَبِيهِم بالنّصر[2]، وجُمِعَا معًا لأنَّ الإنسانَ يَدْفَعُ عَن نفسِه تارةً بِفِدَاءِ المَالِ، وتارةً بِالاِسْتِعَانَة بالأولَاد[3]، فقُطِعَ - بِجَمْعِهِما - طَمَعُ أَهلِ الْكُفْرِ في أَنْ ينالَهُم شيءٌ مِنَ النَّفْعِ.

ولمَّا كان المالُ في بابِ المُدافعةِ والتّقرُّب والفِتْنَة أبلغَ مِنَ الأولادِ، قُدِّمَ في هذه الآيةِ؛ اهْتِمَامًا بِهِ، وذِكْرًا لِمَا يتوهَّمُ العبدُ أنّه يُغْنِي عنه عَلَى جِهَةِ التَّدَلِّي، ومن نظائر هذه الآيةِ قولُه سبحانه: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ [سبأ: 37]، وقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [الأنفال: 28]، وفي قوله: ﴿وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾ [الحديد: 20]، وقوله ﷻ: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨﴾ [الشّعراء: 88]، وهذا بِخِلَافِ قولِه تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ﴾ [آل عمران: 14]؛ فإنّه ذُكِرَ هُنَا حُبُّ الشَّهوات، فَقُدِّم فيه النِّساء والبنُون على ذِكْرِ الأموال[4].

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/494.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/60.

(3) الخازن، لباب التأويل: 1/288، والبغويّ، معالم التّنزيل: 1/497.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/34.

فكان حاصلُ ما سبق: أنَّ الأموالَ قُدِّمَتْ في مقام الْإِغْنَاءِ والمُدافعة عَن صَاحِبِهَا، وقُدّمَ الأولادُ في سياقِ شَهوات الدُّنيا وزينَتِهَا؛ وذلك لأنّ النّساءَ والأولادَ أكبرُ أثرًا في النّفسِ وتَزْيِينِ التّكاثُرِ والتّفاخُرِ بينَ النّاس، وأنَّ الأموالَ أَجْدَرُ في الْإِغْنَاء.

وفي ذِكْرِ الأموالِ والأولادِ ههنا إيماءٌ إلى أنَّه لا ينبغي أن يمنعَ أحدًا عن الحقِّ شيءٌ من ذلك؛ لأنّ المغرور إنّما يصدُّه عنِ اتِّباع الحقّ أو النّظر في دليله الاستغناءُ بما هو فيهِ مِنَ النّعم؛ وأعظمُها الأموالُ والأولاد، فالذي يَرى نفسَه مستغنيًا بمثل ذلك؛ قلّما يوجِّه نظرَه إلى طلب الحقّ، أو يُصْغِي إلى الدّاعي إليه[1].

بَلَاغَةُ إيجَازِ الْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾:

تَذْكِيرُ الْعِبَادِ بِأَفْضَالِ اللهِ تَعَالَى تَرْغِيبًا، وَبِبَطْشِهِ وَقُوَّتِهِ تَرْهِيبًا

في قوله: ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾ إيجازٌ بالحذف، والتَّقدير: لن تُغنِيَ عنهم مِنْ عذابِ اللّه شيئًا[2]، والمرادُ: عذابُه الدّنيويّ والأخرويّ.

ونكتةُ هذا المجازِ: التّذكيرُ باللّهِ تعالَى وبأَفْضَاله عليهم؛ لعلَّهم يَرْعَوُونَ ويرجعونَ عن غيِّهم، وفيه إدخالُ المهابةِ بذكر الاسم الأحسن (اللّه) المتضمِّنِ صفاتِ الجلالِ والكمالِ؛ تهديدًا لَهُمْ وتخويفًا مِنْ عذابِهِ وبطشِهِ بِهِمْ.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾:

عَدَمُ انْتِفَاعِ الْكُفَّارِ فِي الْآخِرَةِ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَالِ وَالْوَلَدِ

نُصب (شَيْئًا) من قول اللّه تعالى: ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾ على المفعوليَّةِ المطلقَةِ لِفِعْلِ ﴿تُغۡنِيَ﴾، والمعنى: لَنْ تغنيَ عنهم شَيئًا مِنَ الْغَنَاء.

(1) رضا، تفسير المنار: 4/62.
(2) الزّحيلّي، المُنير: 3/158.

وتنكير ﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾ يُرادُ به التّقليلُ، أي لن تنفعهم أيَّ نفعٍ ولَو كانَ قليلًا[1]، اجتثاثًا لآمالِهم من جذورِهَا.

نُكْتَةُ وَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ بِمَا قَبْلَهَا:

سُوءُ عَاقِبَةِ أَهْلِ الْكُفْرِ فِي الْآخِرَةِ

عُطِفَ قولُهُ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ على قوله قبلُ: ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم﴾، وهذا العطفُ على خلافِ الغالب في نظائِرِهَا أَنْ يكُونَ مِنْ غيرِ عطف، والنُّكْتَةُ في العطفِ: القصدُ إلَى أَن تَكُونَ الجملةُ مُنْصَبًّا عليها التّأكيدُ بحرف (إنَّ)، فَيَكْمُلُ لها من أدلَّة تحقيق مَضْمُونِها خمسةُ أدلّةٍ؛ هي: التّأكيد بـ (إنَّ)، ومَوقع اسم الإِشَارَة، وَالْإِخْبَارُ عنهُم بأنَّهم أصحابُ النَّار، وَضَميرُ الفصلِ، وَوَصْفُ ﴿خَٰلِدُونَ﴾[2]؛ مبالغةً في بَيَانِ سُوءِ عَاقِبَتِهم وَقُبْحِ مَآلِهم في الآخِرَةِ.

سِرُّ اسْتِعْمَالِ اسْمِ الْإِشَارَةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾:

انْحِطَاطُ رُتْبَةِ الْكَافِرِينَ بِاللهِ تَعَالَى وَبُعْدُهُمْ عَنْهُ

اسم الإشارة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قَوْلِه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ - وهو دالٌّ على البُعْدِ - فيه إيماءٌ إلى انحطاطِ رُتْبَتِهم، وَبُعْدِهم عَنِ اللّهِ تعالَى، وَتَبَاعُدِهِمْ مِمَّا أَنْزَلَهُ من الشَّرعِ.

بَلَاغَةُ الْقَصْرِ فِي قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾:

خُلُودُ الْكُفَّارِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ

وفي التَّعبير بالجملة الاسميَّةِ في قولِه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ دلالةٌ علَى ثُبُوتِ هذا الوصفِ وتحقُّقه ولزُومه لَهُمْ[3].

وفي الجملةِ تعريفٌ لطَرَفَي الإسنادِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ وهو معرَّف بالإشارة، و﴿أَصۡحَٰبُ﴾ وهو معرَّفٌ بالإضافةِ إلى ما فيه اللّام، وهذا التَّعريفُ لطَرَفَي الإسناد مُفيدٌ القصرَ والحصرَ، والمقصورُ في مثلِ هذا التَّركيب هو ما دخلت عليه اللَّامُ، تقدَّمَ ذلك أو تأخَّر، وهو هنا: ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ فإنَّها لمَّا أضيفت إلى ما فيه اللَّامُ؛ كانت بمنزلَتِهِ

---

(1) الزّحيلّي، التفسير المنير: 3/158.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/60.

(3) الزّحيلّي، التفسير المنير: 3/158.

ورُتبتِهِ، وحاصلُ معنى القصر: أنَّ فيه قصرَ أصحاب النَّار على الذين كفرُوا، وهو قصرٌ ادِّعائيٌّ؛ لأنَّ النَّار يدخُلُها عصاةُ الموحِّدين ثُمَّ يخرجون منها، ونكتةُ القصر: التَّنبيه على أنَّ الكفَّارَ هُمُ الأحقَّاءُ بالنَّار؛ إذْ هم خالدُونَ فيها، لا يخرجُونَ منْهَا أبدًا.

دِلَالَةُ الْإِضَافَةِ وَالْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾:

حَقَارَةُ الْكُفَّارِ وَلُزُومُهُمُ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لُزُومًا مُؤَبَّدًا

جُعِلَ الكفَّارُ أصحابًا للنَّار في قولِه تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾؛ لأنَّهم مِن أهلِها الذين لا يَخْرُجُون مِنْهَا ولا يُفَارِقُونَها، كصاحب الرّجلِ الذي لا يُفَارِقُه، وقرينِهِ الذي لا يُزَايِلُه، ويُقَوِّيه قولُه بعدُ: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1].

والإضافة في ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ إضافةُ تَخْصِيصٍ، وهي مقتضِيةٌ ثبوتَ ذلك لهم ودوامه[2]؛ إذ معنى ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ أنَّهم مُلَازِمُوهَا[3]، فيَكون قوله: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ كنايةً عَنِ المُلازمةِ ودوامِ الخلودِ فيهَا.

وفي الإضافةِ أيضًا تحقيرٌ للمضافِ وهم (الأصحاب) المُشارُ بهم إلى الذين كفرُوا.

نُكْتَةُ ذِكْرِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ ﴿هُمۡ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾:

الْمُبَالَغَةُ فِي تَوَعُّدِ الْكُفَّارِ وَتَهْدِيدِهِمْ دَالٌّ عَلَى عِظَمِ جَرَائِمِهِمْ

ذُكِرَ الْمُسْنَدُ إِلَيْه ﴿هُمۡ﴾ مِن قَوْلِ اللّٰه تعالى: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، ولَوْ حُذِفَ بأَنْ يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (أُولَئِكَ أصحابُ النَّارِ فِيهَا خَالدُونَ)؛ لأدَّى أَصْلَ المعنَى، إلَّا أَنَّهُ ذُكِرَ الْمُسنَدُ إِلَيْهِ ﴿هُمۡ﴾ قصدًا إِلَى زيادةِ التَّقريرِ والإيضاحِ، وذلكَ كَمَن يُمْسِكُ بِمُجْرِمٍ عاثَ في الأرضِ فَسَادًا، فيُقال على رُؤُوسِ الأشهادِ: هذا الذي قَتَلَ، هذا الذي سَرَقَ، هذا الذي أَفْسَدَ.

(1) الثّعلبي، الكشف والبيان: 3/133.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/494.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/494.

وتقديم الجارِّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾ يُفيد القصرَ والاختصاصَ، والمرادُ: تخصيصُ خلودِهم في النَّارِ، زيادةً في وعيدِهم وتهديدهم وأنَّ خلودَهم في النَّار لا يتحَوَّلُون عنْهَا إلى غيرِها.

وفي التَّقديم ملْحظٌ لفظيٌ وهو التَّناسبُ الصَّوتِيُّ لرؤوسِ الآي(1).

دِلَالَةُ اسْمِيَّةِ الْجُمْلَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، وَسَبَبُ فَصْلِهَا عَمَّا قَبْلَهَا:

الجزاء يوم القيامة حتميّ، ثُمّ يُختم بالخُلود

الجملةُ الاسميَّةُ في قوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ مُؤْذِنَةٌ بدوام الوصفِ المذكورِ وثبوتِه(2)، وأنَّ خلودَهُمْ أبدِيٌّ كما دلَّت عليه أدلَّةٌ متكاثرةٌ من الكتابِ والسنَّةِ.

وقولُه: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وردَ تأكيدًا وتقريرًا للجملة قبلَه وهِيَ قولُه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾، ولذا فُصلَت عنْهَا؛ لما بينَهما من كمال الاتِّصالِ.

ويحتَمِلُ أن يكون بين الجملتين: شبهُ كمال الاتِّصال، وهو المعروف بالاستئنافِ البيانيِّ؛ فيكون قوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ واردًا جوابًا عن سؤالٍ يُفْهَمُ من الجملة التي قبلَهُ، وذلك أنَّ قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ يبعث في نفس المتلَقِّي سؤالًا؛ وهو: هل كونُهم أصحابًا للنَّار يقتضي خلودَهُمْ فيها؟ فجاء الجواب: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

بَلَاغَةُ أُسْلُوبِ التَّرَقِّي فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ ﴿خَٰلِدُونَ﴾:

عَذَابُ الْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْوَاعٌ، بَعْضُهَا أَشَدُّ مِنْ بَعْضٍ

تضمنت الآية الكريمة مراحل التّرقّي في وصف ما يُصيب الذين كفروا؛ فجعل أولى المراحلِ: حرمانَهُمْ ممّا كانوا يتمتّعون به في الدّنيا؛ فقال: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ﴾، ثمّ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/252.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/252.

عقّب وسجّل عليهم صُحۡبَتَهُمۡ لِلنّار يوم القيامةِ بقوله: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾، ثُمَّ خَتَم بِأَشْنَعِ ما يُصِيبُ الخلقَ يومَ القيامة؛ وهو الخلودُ في النَّار، فقال: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

وفائدة هذا الأسلوب البديعيّ: التَّدرُّجُ في التّرهيبِ مِن هَوْلِ ما يُصِيب الذين كفروا يومَ القيامةِ، وهو أوقَعُ في النُّفوسِ، حيث تتلقَّى النَّفسُ تهديدًا شديدًا، حتَّى إذا ظَنَّت أنَّ هذا آخرُ شيءٍ - مع شدَّتِه - يُصادِفُهَا وعيدٌ آخرُ أشدُّ.

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٧﴾ [آل عمران: 117]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكر اللّهُ شيئًا من أحوال المؤمنين، ذكر شيئًا من أحوال الكافرين ليتَّضح الفرقُ بين القبيلين، وبعد أن ذكر أموالهم وأولادهم وأنّها لن تُغني عنهم من اللّه شيئًا، وضَّح هنا الأمر بمثال مُشاهد في الحياة لإقناع المُتلقِّين أنَّ أموال هؤلاء في الحياة الدُّنيا لن تغني شيئًا فهي ﴿كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ﴾؛ فقد أهلكوها في حياتهم الدّنيا بإنفاقها في غير ما أمر اللّه تعالى.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿صِرٌّ﴾: جذر الكلمة هو (صَرَّ): بمعنى الشَّدِّ، والارتفاعِ، والبَرْدِ، والصوتِ، ومنه الإصرارُ: العَزْمُ على شيءٍ لا يُهَمُّ بالإقلاع عنه، والإصرارُ على الذّنب. وصَرُّ الأذنين: ضمٌّ وشَدٌّ لهما يمنع انتشارهما، كما يُصِرُّ الحمار أذنيه. والصِّرُّ: البَرْد الذي يضربُ كلَّ شيءٍ ويَحُسُّه، ويجعل الأشياء تتقبَّض وتتجمَّد، ومنه قوله تعالى: ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾. وصَرَّ الجُنْدُبُ صريرًا، وكلُّ صَوْتٍ شِبْهُ ذلك فهو صرير إذا امتدَّ. فاذا كانَ فيه تخفيفٌ وتَرجيع في إعادةٍ ضُوعِفَ؛ كقولك: صَرْصَرَ الأخطبُ صَرْصَرَةً. وريحٌ صَرْصَرٌ: ذات صِرٍّ، وقوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ٦﴾ [الحاقة: 6]، ويقال: ذاتُ صَوْتٍ، والصَّرْصَرُ نَعْتٌ لها من البَرْدِ. وصَرَّ البابُ، وصَرَّتِ الآذانَ اذا سَمِعتَ لها صَوْتًا ودَويًّا. والصَّرَّةُ: شِدَّة الصِّياح، وتقول: جاءَ في صَرَّةٍ[1].

2) ﴿أَصَابَتۡ﴾: جذر الكلمة هو (صَوَب)، أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى نُزُولِ شَيْءٍ وَاسْتِقْرَارِهِ قَرَارَهُ. مِنْ ذَلِكَ الصَّوَابُ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، كَأَنَّهُ أَمْرٌ نَازِلٌ مُسْتَقِرٌّ قَرَارَهُ، والقاصد إذا

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المُحكم، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (صرر).

أدرك المقصود بحسب ما يقصده يقال أصاب كذا؛ أي وجد ما طلب، والمُصيبة أصلها في الرَّمية ثم اختُصَّت بالنّائبة، نحو: قوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾ [آل عمران: 165]، وقوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ﴾ [النّور: 43]. وصابَ السّهم، لغة في أصابَ، وفي المثل: (مع الخواطئ سهم صائِبٌ)؛ و(الصَّوْبُ) لغة في الصّواب والصَّواب ضد الخطأ[1].

والمعنى هنا: نَزَلت وهبَّت.

3) ﴿حَرۡثَ﴾: جذر الكلمة هو (حَرَث): أَصْلَانِ مُتَفَاوِتَانِ في المعنى: أَحَدُهُمَا الْجَمْعُ وَالْكَسْبُ، وَالثَّاني أَنْ يُهْزَلَ الشَّيْءُ. فَالْأَوَّلُ الْحَرْثُ، وَهُوَ الْكَسْبُ وَالْجَمْعُ، وَبِهِ سُمِّي الرَّجُلُ حَارِثًا؛ لتصوُّر معنى الكسبِ منه، والثاني: الإِهْزالُ يُقَالُ: حَرَثَ نَاقَتَهُ: هَزَلَهَا؛ و: أَحْرَثَهَا أَيْضًا. وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الْأَنْصَارِ لَمَّا قَالَ لَهُمْ مُعَاوِيَةُ: "مَا فَعَلَتْ نَوَاضِحُكُمْ؟" قَالُوا: "أَحْرَثْنَاهَا يَوْمَ بَدْرٍ". والحَرْث: قَذْفُك الحَبَّ في الأرض، والحَرْث والحِراثة: العملُ في الأرض زرعًا كان أو غَرْسًا؛ لأنه يسبقه إثارةُ الأرض، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ٦٣ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ٦٤﴾ [الواقعة: 63، 64]، والحرث: الزَّرْع لأنه يخرج من الأرض بذلك: ﴿كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ﴾، وكلُّ ﴿حَرۡثَ﴾ في القرآن فهو بهذا المعنى، وأمَّا قوله: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: 223] فهذا على سبيلِ التمثيل؛ لأنهنَّ مُزْدرع بذور الرجال. ويُسْتَعْمَلُ ﴿حَرۡثَ﴾ في ثَمَراتِ الأعْمالِ ونَتائِجِها بِطَريقِ الاسْتِعارَةِ المَبْنِيَّةِ عَلى تَشْبِيهِها بِالغِلالِ الحاصِلَةِ مِنَ البُذُورِ، كقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ٢٠﴾ [الشورى: 20][2].

4) ﴿فَأَهۡلَكَتۡهُۚ﴾: جذر الكلمة هو (هَلَكَ): الهُلْكُ: الهَلاكُ. والاهْتِلاكُ: رَمْيُ الإنسان نَفسَهُ في تَهلُكةٍ. والتَّهْلُكَةُ: كلُّ شيءٍ يصيرُ عاقبتُه إلى الهَلاكِ. والقَطاةُ تَهْتَلِكُ من خَوْفِ البازيِّ؛ أي: ترمي نفسَها في المَهالِك. وقومٌ هلكَى وهالكون. وقد استعمل القرآنُ الكريمُ لفظَ الهَلاك في الموت المعتاد بلا أخذ عذاب، كما في قوله: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ﴾ [النساء: 176]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والرّازي، مختار الصّحاح: (صوب).

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المُحكم، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حرث)، وينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/29.

وكذا ما في يوسف: [الآية: 85]، والقصص: [الآية: 88] ويس: [الآية: 31]، والجاثية: [الآية: 24]، والملك: [الآية: 28]، كما استعمله في إنفاد المالِ إنفاقًا لا بتدمير في: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾ [البلد: 6]، وفي سائر المواضع في معنى الإفناء الذي فيه مؤاخذة، كما هنا[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يضربُ اللّه مثلًا لما ينفقُه الكفارُ من أموالهم التي فتنَتهم وشغَلَتهم عن الحقِّ، ويصدون بها عن سبيل اللّه، ويستعينون بها على إطفاء نور اللّه، بأنها تَبْطلُ وتضمحلُّ، كمن زَرَعَ زرعًا يرجو نتيجتَه ويؤمِّل إدراك ريعِه، فبينما هو كذلك إذ أصابتْه ريحٌ فيها بَرْدٌ شديدٌ مُحرِقٌ، فأهلكت زرعه، ولم يحصل له إلا التعبُ والعناءُ وزيادة الأسفِ، فكذلك هؤلاءِ الكفارُ لم تنفعْهم أموالُهم وقت حاجتهم إليها، بعد ما كانوا يرجون من عائدها نفعًا، فالكفر أبطل ثوابَ أعمالِهم التي يرجونها، واللّه لم يظلمهم - تعالى عن ذلك، إيماءً إلى أنَّ الإنسان هو الذي يُولِّدُ المصائب لنفسه، بمعاكسته لسنن اللّه، والشّرائع كلُّها منطبقة على السُّنن - وإنما ظلموا أنفسهم؛ بسبب كفرهم به وتكذيبهم رسله، ومنعِ حقّ اللّه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

أَعْظَمُ مَوَانِعِ قَبُولِ النَّفَقَةِ فِي الْخَيْرِ الْكُفْرُ بِاللهِ تَعَالَى

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ عمَّا قبلَه؛ لوقوعِه استئنافًا بيانيًّا، وذلك أنَّ قوله سبحانه: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ يُثيرُ سؤالًا عن مآلِ إنفاقِهم في الحياة الدُّنيا في وجوهِ الخير؛ مِن إطعامِ الطَّعام، وإغاثة المَلْهُوف، وبَذْلِ الدِّياتِ عن القَتْلَى، فجاء الجواب: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾[3].

(1) الخليل، العين، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (هلك).

(2) الثّعلبي، الكشف والبيان: 3/132، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 65، والموصلّي، أولى ما قيل: 2/529.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/61.

ويحتَمِلُ أن يكون بين الجملتين كمالُ الاتِّصالِ؛ وذلك لأنَّ قولَه: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾ بمنزلَةِ البيانِ لِقَوْلِه: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾[1]، فما يُنْفِقُون مِنَ الأموال في هذه الحياةِ بأساليبهم المختلفة في مُعادَاةِ اللّهِ تعالَى ورَسُولِهِ؛ تالفٌ هالكٌ، سَيُصِيبهُ مِنَ الفناءِ ما أصاب الحرثَ الذي أصابته الرِّيحُ الصِّرّ فأهلكته، وهكذا فلَنْ تُغْنِيَ عَنْهُم أموالُهم ولا أولادُهم من اللّهِ شيئًا.

نُكْتَةُ إِيرَادِ اسْمِ الْإِشَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾:

حَقَارَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي جَنْبِ الْآخِرَةِ

في التَّصريح بِاسْمِ الْإِشَارَةِ ﴿هَٰذِهِ﴾ مِن قَوْلِه تَعَالَى: ﴿هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إطنابٌ؛ لإمكانِ حذفِهِ مع بقاءِ أصلِ المعنى، بأن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (مثل ما يُنفقون في الحياة الدُّنيا)، وفي إيرادِ الاسم اسم الإشارةِ نُكْتَتانِ:

إحداهما: الإيماءُ إلى حقارة الدُّنيا بالإشارة إليها باللَّفْظِ الدَّالِّ على القُرْبِ.

والأخرى: الإشعارُ بأنّ نفقاتِهم يَذْهَبُ أثرُهَا في هذه الحياةِ الدُّنيا، فَلَا يَتعدّاها إِلَى الآخرَةِ بحصولِ الأجرِ لهم فيهَا، فَفِي الإتيانِ باسم الإشارة ﴿هَٰذِهِ﴾ حصرُ مَرْدُوداتِ الْإِنْفَاقِ ونَفْعِه، ودَفْعِه عَن صاحبه، وأنَّهُ لا يَكُون إلّا في هذه الحياة الدّنيَا.

بَلَاغَةُ التّشْبِيهِ التّمْثِيلِيِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾:

تَـتَرَاكَـبُ الصُّوَرُ الدُّنْيَـوِيّةُ زِينَـةً وَغُرُورًا، وَلَكِنّهَا تَـبْـقَـى عَـاجِـزَةً أَمَـامَ حَـقِـيـقَـةِ الزَّوَالِ

في معنَى الصِّرِّ الواردِ في قول اللّه تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ وجهان:

أحدهما - وهو قول أكثر المفسرين، وأهل اللّغة -: أنّ الصِّرَّ البردُ الشَّديد، وبه قال ابنُ عباس وغيرُه.

والآخَرُ: أنّ الصِّرَّ هو السّموم الحارّة التي تَقْتُلُ، وهو روايةٌ عن ابنِ عباس، وبه قال ابنُ الأنباري مِن علماءِ اللُّغة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/62.

وعلى كلا الوَجْهَيْنِ يجري التَّشبيهُ ويَلْتَئِم معناهُ، ويحصلُ مقصودُهُ منه؛ لأنّها سواءٌ أكان في الرِّيحِ بردٌ شديدٌ؛ فهي مُهْلِكَة، أو حرٌّ؛ فهي مهلكة أيضًا.

وقوله: ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾؛ أي زرعَهُمْ، وقوله: ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾؛ أي بالكفر والمعاصي ومنعِ حقِّ الله فيه، وقوله: ﴿فَأَهْلَكَتْهُۚ﴾ أي: فأهلكت الرّيحُ الزّرعَ، والآيةُ تمثيلٌ لنفقات الكُفّار في ذهابها وقتَ الحاجة إليها، كمثل زرع أصابتْهُ ريحٌ باردة فأهلكته، أو نارٌ فأحرقته؛ فلم ينتفعْ بِهِ أصحابُه[1].

والغرضُ: تشبيهُ ما أنفقوا وإبطال ثوابِه، وعدم الانتفاع بالحرث الذي هلك بالريح، فشبَّهه بالرّيح المهلكة للحرث.

والتّشبيه: مركّبٌ؛ وهو ما حصلت فيه المشابهة بين ما هو المقصودُ من الجملتين، وإن لم تحصل المشابهة بين أجزاء الجملتين، وهو المسمَّى عند البلاغيِّين بالتَّشبيه التَّمثيليِّ.

ومن التّشبيه: ما حصلت فيه المشابهة بين المقصودِ مِنَ الجُمْلَتَين وبينَ أجزاءِ كلّ واحدة مِنْهُما؛ فإِنْ جَعَلْنَا هذا المَثَلَ من هذا القسم؛ ففيه وجهان:

أحدهما: أن يكونَ التّقديرُ: مَثَلُ الكُفْرِ في إهلاك ما ينفقون، كمثل الرِّيح المُهْلِكَةِ الْحَرْثَ[2].

والوجه الآخَرُ: مَثَلُ ما ينفقون كمثلِ مَهْلَكِ الرّيح وهُوَ الحَرْثُ، والمقصودُ مِن ضَرْبِ هذا المَثَلِ هُو تشبيهُ ما ينفقون بِشَيْءٍ يَذْهَبُ بالكلِّيَّة ولا يَبْقَى مِنْهُ شَيْء[3]، عقوبةً لَهُمْ؛ لأنّ الإِهلاكَ عن سخط أشدُّ.

وعلى القول بتركيبِ التَّشبيه؛ ففيهِ تشبيهُ مَا أَنْفَقُوه وبَذَلوه، ثُمَّ ضاعَ عليهم ثوابُهُ؛ بحَرْثِ زُرَّاعٍ ضَرَبَتْهُ صِرٌّ فاسْتَأْصَلَتْهُ ولم يبقَ لَهُم فيه منفعَةٌ مَا، وكذلك هؤلاءِ لا ينتفعُونَ بما أنفقوهُ في الدّنيا ولا في الآخرَةِ، وهُوَ مِن التّشبيه المركّب، ولذلك لم يُعْتَنَ بإيلاءِ كَلِمَةِ التّشبيه لِلرّيح دُونَ الحرث[4].

(1) الخازن، لباب التأويل: 1/408.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/34، والزّمخشري، الكشّاف: 1/434، والخازن، لباب التأويل: 1/408.
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 1/434، والخازن، لباب التأويل: 1/408.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/34.

وقد ضَرَب اللّه تعالى مثلًا لأعمالِهم المتعلِّقَة بالأموالِ؛ فشبّه هيئةَ إنفاقِهم المُعْجِبِ ظاهرُها، المخيِّبِ آخرُها، حين يُحْبِطُها الكفرُ، بهيئة زرعٍ أصابَتْهُ ريحٌ باردة فأهلكته، وهو تشبيهُ معقولٍ بمَحسوس(1).

قال الزّمخشريّ: "شبّه ما كانوا يُنفقونه من أموالِهم في المَكَارم والمفاخِرِ وكَسْبِ الثّناء وحُسْنِ الذِّكرِ بينَ النَّاس، لا يَبْتَغُون به وجهَ اللّهِ، بالزّرع الذي حسَّهُ البردُ فصارَ حُطامًا، أو هُوَ ما يتقرّبون بهِ إلى اللّه مَعَ كُفْرِهم"(2)، وقال ابن عطية: "معناه: المثالُ القائمُ في النّفوس من إنفاقهم الذي يَعُدُّونه قُرْبَةً وحِسْبَةً وتحنُّثًا، ومن حَبْطِهِ يومَ القيامة وكَوْنِه هَباءً منثورًا وذهابِه، كالمثالِ القَائِم في النُّفُوسِ من زَرْعِ قومٍ نَبَتَ واخضرّ وقَوِيَ الأملُ فيه، فهبّت عليه ريحٌ صِرٌّ مُحْرِقةٌ، فأهلكته"(3).

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الرِّيحِ وَصِفَاتِهَا عَلَى الْحَرْثِ فِي صُورَةِ الْمُشَبَّه بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ﴾:

الْـفُـجَــاءَةُ فِي الرِّيحِ أُنْـمُـوذَجٌ عَلَى الْفُجَاءَةِ فِي زَوَالِ النِّعَمِ فِي الدُّنْيَا

اشتملَتْ صُورَةُ المُشَبَّه بِهِ على عنَاصِر عدّةٍ، مِنْهَا: (الرِّيح)، وَ(الصِّرّ)، وَ(الْإِصَابَة)، و(الْحَرْثُ)، و﴿قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾، ومن مقتضيات هذا التّشبيهِ أَنْ يُقدّم الحرثُ على الرّيح ومتعلّقاتها؛ كالصِّرّ والإصابة؛ وكان يُتَوَقَّعُ أن يُقال: كَمَثَلِ حرثٍ أصابَتْهُ ريحٌ؛ لأنّه يُشبِّهُ ما يُنفقون بالحرث.

وفائدةُ هذَا التّقديم والتّأخير بينَ عناصر المشبّه به: هو بيانُ أنّها - أي: الرّيح - حاضرةٌ لِأَخْذِ كُلِّ ما سيُلقى في هذه الأرضِ، فَنَفَقَاتُهُم كالشَّيءِ الذي تَأْخُذُهُ الرّيحُ قبلَ أن تَسْتَقِرَّ في الأرضِ.

وتَقْدِيمُ الرّيحِ هُنَا لِلاخْتِصَاص(4).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/61.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/434.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/495.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/434.

بَلَاغَةُ الِاحْتِبَاكِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾:

إِنْفَاقُ الْكُفَّارِ أَمْوَالَهُمْ لَا يُعْقِبُهُمْ غَيْرَ الْخَسَارَةِ وَالتَّعَبِ

وقعَ التّشبيهُ في الآيةِ بين أربعَةِ أشياء: اثنينِ مقابل اثنين، وذُكِرَ واحِدٌ مِنَ المُشَبَّهَيْنِ وتُرِك ذِكْرُ الآخر، ثمّ ذُكِرَ أحَدُ الشّيئين المُشبّهِ بِهِمَا ممَّا لا يُقابلُ المشبَّهَ المذكورَ أوَّلًا، وتُرِكَ ذِكْرُ الآخر، ودلَّ المذكُورَانِ عَلَى المَتْرُوكَيْنِ[1]، وهذا اختيار ابنِ عطيَّة، وقال: وهذه غايةُ البلاغة والإعجاز[2].

وهذا الحذفُ مِن قَبِيل الاحتباكِ وهو المسمَّى: الحذفَ المقابَلِيَّ أو حذفَ التَّقابُلِ، وأكّد ذلك ما ذكره البقاعيّ في قوله: "ومَثَلُ إِنْفَاقِهم لهُ في كونهِ ضَرَّهم ولم يَنْفَعْهم، مَثَلُ الرّيح في كونها ضرّتِ الزّرع ولم تَنْفَعْهُ، فلمّا كانت الرّيحُ الموصوفةُ أمرًا مشاهدًا جليًّا؛ جُعِلَتْ في إهلاكها مثلًا لضياع إِنْفَاقِهِم الذي هو أمرٌ معنويٌّ خفيّ، ولمّا كان الزّرعُ المحترق أمرًا محسوسًا؛ جُعِل فيما حصل له بعد التّعب مِنَ العطب مثالًا لأمرٍ معقولٍ، وهو أموالُهم في كون إنفاقهم إيّاها لم يُورِثْهم شيئًا غير الخسارة والتَّعب، فالمَثَلَانِ: ضَيَاعُ الزَّرعِ والإنفاقُ، وضياعُ الزَّرعِ أظهر؛ فَهُوَ مَثَلٌ لِضَيَاعِ الإنفاق؛ لأنَّه أخفى، وقد بانَ أنَّ الآية مِنَ الاحتباك؛ حُذِفَ أولًا مَثَلُ الإنفاقِ لِدِلَالَةِ الرّيح عليه، وثانيًا الحرثُ؛ لدِلَالَةِ مَا يُنفق عليه"[3].

بَلَاغَةُ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾:

الْإِنْفَاقُ فِي وُجُوهِ الْبِرِّ مِنْ أَعْظَمِ أَعْمَالِ الْخَيْرِ

قول اللّه تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ واردًا على طريقة المجاز المرسلِ، بعلاقة الجزئيَّة؛ إذْ ذُكِرَ الإنفاقُ، والمرادُ عمومُ أعمال الخير، فإنَّ الكفَّار لا ينتفعونَ في الآخرةِ بشيءٍ من أعمالهم التي عملُوها في الدُّنيا، وإنَّما نُصَّ على

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/495، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/314.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/495.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 2/140.

خصوص الإنفاقِ؛ لتعدِّي نفعِهِ وظهورِ أثرِه في الحياةِ، وفكِّ الكُرَبِ بِهِ، وإذا كان هذا ممَّا لا ينفعُهم في الآخرةِ فغيرُه أَوْلَى وأحرَى.

دِلَالَةُ الِالْتِفَاتِ فِي قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ بِالْخِطَابِ فِي (تُنْفِقُونَ):

زِيَـادَةُ التَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيعِ بِضَرْبِ الْأَمْثَالِ

قرأ ابن هرمز والأعرج (تنفقون) بالتّاء، ففيه التفاتٌ من الغَيبةِ إلى الخطاب؛ إذ تقدَّمه قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ﴾ وهو أسلوبُ غَيْبَةٍ، فجاء بعدَهُ - في قراءةِ مَن ذُكر -: (تُنْفقونَ) على إرادةِ المذكورين قبلُ وهم الذين كفرُوا، وهو خِطابٌ، ونكتةُ العدول عن الغَيبة إلى الخطابِ زيادةُ التَّرهيبِ والتَّوبيخِ، والتَّسجيلُ عليهم بما يؤولُ إليه أمرُهم؛ إذ إخراجُ ذلك في صورةِ الخطاب أبلغُ.

دِلَالَةُ الْمَجَازِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾:

أصــوات الـرّيـح تؤثر في النّفوس وتـحـدث رهبة وشدّتها وبردها تهلك الحرث

في قولِه: ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ دلالةٌ على شِدَّةِ بَرْدِ هذه الرِّيح، حتَّى كأنَّ جِنْسَ الصِّرِّ مظروفٌ فيها، وهي تَحْمِلُهُ إلى الحَرْثِ[1]، ويحتَمِلُ أن تكونَ الظرفيةُ مجازًا؛ بأنْ جُعِل الموصوفُ ظرفًا للصِّفة[2].

وارتفاعُ (صِرٌّ) على أنّه فاعل بالمَجْرُور قبله؛ إذْ قَدِ اعتُمِدَ لأنَّه وقَعَ صِفَةً للرّيح، فإنْ كان الصِّرُّ البَرِدَ - وهو قول ابنِ عبَّاس وجماعةٍ-، أو صوتَ لهيبِ النّارِ أو صوتَ الرِّيح الشَّديدة؛ فظاهرُ كونِ ذلك في الرّيح[3]، فأفادَ وَصْفُ شدّةِ البَرْدِ أو الصّوت دلالةً على سُرعة هذه الرّيح واقتلاعِها للزُّروع.

وَإنْ أُريدَ الصَّوْتُ؛ فهو على سبيل المجاز المُرْسَل، إذْ ذُكِرَ المُسبَّبُ، وأُرِيد السّببُ، وهو سرعة الرّيح، والعلاقة المُسبّبيّة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/61.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/315، والسّمين، الدرّ المصون: 3/360.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/315.

دِلَالَةُ (صِرٌّ) فِي قَوْلِهِ: ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾:

فِـي تَـعَـدُّدِ الِاحْـتِـمَـالَاتِ إغنـاءُ المَعَـانِي وَتَكْثِيرُها

في الصرّ ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدها: أنّه البرد، وهذا قول الأكثرين.

والثاني: أنّه النّار، وهو مرويٌّ عن ابنِ عبَّاس، قال ابن الأنباريِّ: "وإنّما وُصِفَت النّار بأنّها صِرّ؛ لِتَصْوِيتِها عندَ الِالْتِهَابِ".

والثَّالث: أنَّ الصرّ: التّصويتُ والحركةُ مِنَ الحَصَى والحِجَارة، ومنه قولهم: صَرِيرُ النّعلِ، ذَكَرَ هذا ابنُ الأنباريِّ[1].

والصِّرُّ: البَرْدُ الشّديد المُميت لكلِّ زرعٍ أو ورق، يهبُّ عليه فيتركه كالمُحْتَرِقِ، ولم يُعْرَف في كلام العرب إطلاق الصِّرِّ على الرّيح الشّديد البَرِدِ، وإنّما الصِّرُّ اسمُ البَرد[2]، وأمّا الصَّرصَر فهو الرّيح الشّديدة، وقد تكون باردةً.

وجوّز الزَّمخشريُّ في الكشّاف أَن يكون الصِّرُّ هنا اسمًا لِلرِّيح الْبَارِدَةِ، وجعَلَهُ مُرَادِفًا لِلصَّرصر[3]، وهذا الشَّائِعُ: أن يُطلَقَ على الرِّيح البَارِدَةِ كالصّرصر، فهو في الأصلِ مَصْدَرٌ نُعِتَ بِهِ، على جهةِ المبالغةِ، كقولك: بَرْدٌ بَارِدٌ[4].

وإن كان الصِّرُّ صفةً لِلرّيح كالصَّرْصَر، فيكون التَّقدير: فِيهَا قِرَّةٌ صِرٌّ، كما تقول: بَرْدٌ بَارِدٌ، فَحُذِف الموصوفُ وقامتِ الصِّفةُ مَقَامَه[5].

ولا مانع من إرادةِ المعاني الثَّلاثة كلّها؛ فتكون النَّارُ باردةً شديدةَ الصَّوتِ، ويكونُ أثرُها شبيهًا بأثرِ النَّار.

---

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/317.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/61.

(3) الزّمخشري، الكشّاف: 1/433.

(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/34.

(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/315، والسّمين، الدرّ المصون: 3/360.

بَرَاعَةُ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾:

بُطْلَانُ أَعْمَالِ الْكُفَّارِ مِنْ أَصْلِهَا

الحَرْثُ في الأصل: مَصْدَرُ حَرَثَ الأرضَ؛ إذا شقّها بآلَةٍ لِيَزْرَعَ فِيهَا أو يَغْرِسَ، وأُطْلِقَ هذا المصدَرُ عَلَى المحرُوثِ، فصار يُطلق على الجنّات والحوائطِ وحقُولِ الزّرع[1]، فهو مصدر بمعنَى اسم المَفْعُولِ، فقوله: ﴿حَرْثَ قَوْمٍ﴾ أي: محروثَ قَوْمٍ، والمعنى: أصابتِ الرِّيحُ أرضًا مَحْرُوثَةً، والمرادُ: أصابت زَرْعَ حَرْثٍ[2].

فَـ (الحَرْثُ) هُنَا: مَجَازٌ، علاقتُهُ التَّعلُّقُ الاشتقاقيُّ؛ بإطلاق المصدَرِ وإرادة اسم المفعول، ونكتَتُهُ: المبالغةُ في بيان إهلاك هذه الرِّيح، حتَّى كأنَّها أهلكتِ الحرثَ نفسَهُ لا مجرَّد المحروث، وفيه إيماءٌ إلى حبوط أعمال الذين كفرُوا، وأنَّها باطلةٌ من أصلِهَا.

ويحتَمِلُ أن يكونَ قوله: ﴿حَرْثَ قَوْمٍ﴾ مجازًا باعتبار ما كانَ، فالزَّرع احتاج الى أرض محروثَةٍ، فذُكِرَ المَحْرُوثُ مِنَ الأرض، وأُرِيدَتِ الزّروعُ المخضرّة، وفيهِ: إيماءٌ إلى أنَّ الرِّيحَ الصِّرّ قد أعادَتْهُ إِلَى ما قَد كانَ عَلَيْهِ قبلَ الزّرع، وكأنّما لم يَكُنْ في الْأَصْلِ، وَلَمْ يَغْنَ بِالْأَمْسِ.

بَلَاغَةُ الْإِدْمَاجِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾:

قُبْحُ الظُّلْمِ وَشِدَّةُ عُقُوبَةِ أَهْلِهِ

في قول الله تعالى: ﴿قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ إدماجٌ في ثنايَا التّمثيل، وهو يُكسِبُ التّمثيلَ تَفْظِيعًا وتشويهًا وهُوَ ليس جُزْءًا مِنَ الهَيْئَةِ المشبَّهِ بها، وقَدْ يَذْكُرُ البُلَغَاءُ مَعَ المُشبّهِ بِهِ صفاتٍ لا يَقْصِدُونَ مِنْهَا غير التّحسينِ أو التّقبيح، وكذا في قوله: ﴿قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾، إذْ ليس هذا التَّركيبُ من أصلِ التّشبيه.

والسَّامعون عالِمُون بأنّ عِقابَ الأقوامِ الذين ظَلَمُوا أنفسَهُم غايةٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/183.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/61.

في الشّدّة، فذِكْرُ وَصفِهم بِظُلْمِ أَنْفُسِهم تذكيرٌ للسَّامِعِين بِذَلِكَ علَى سَبِيلِ المَوْعِظَةِ[1]، فَيَكُونُ ذلكَ مِن قَبِيلِ الْإِدْمَاجِ.

بَلَاغَةُ التَّرَقِّي فِي وَصْفِ الرِّيحِ:

التَّرَقِّي فِي ذِكْرِ الْجَزَاءِ الْأَشَدِّ فَالْأَشَدُّ أَوْقَعُ فِي الْقَلْبِ وَأَدْخَلُ فِي التَّرْهِيبِ

قوله: ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾ في موضعِ جرٍّ نعتٌ لِـ ﴿رِيحٍ﴾، وفي ذلك تَرَقٍّ في الوصفِ؛ إِذْ بدأ أوَّلًا بقوله: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ﴾؛ والرّيح لا تُستعمَلُ غالبًا إلَّا في العذابِ، ثمّ انتقل إلى الوصفِ بالمَجْرُورِ، فقال: ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾، ثمّ بالوصفِ بالجملةِ فقال: ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾.

وفائدةُ ذلكَ: بيانُ عظيمِ ما فَعَلَتْهُ الرّيحُ بالزّرعِ، في التَّدرُّجِ بذكْرِ العاقبةِ السَّيئةِ لهم.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾:

أَقْدَارُ اللهِ تَعَالَى وَاقِعَةٌ لَا تُخْطِئُ مَنْ وُكِّلَتْ بِهِ

الإِصَابَةُ رَمْيُ السّهمِ إلى الهَدَفِ فَيُصِيبه، وقولُهم: صابَ السّهمُ؛ هُوَ لُغَةٌ في أصَابَ، والصَّوْبُ لغةٌ في الصّواب، وهو ضدُّ الخطَأِ[2]، فهذه الرّيحُ لم تُخطئ هذا الزّرعَ وأَتَتْ عليه بِقَصْدٍ، وكأنَّ راميًا يرمي السّهم، فيصيب الهدف، فكذلك هذه الرّيح، قد أُرْسِلَت بِقُدْرَةِ اللّهِ تعالى إلى هَدَفِها، وهذا على سَبِيل الاستعارَةِ، فقد شُبِّهتِ الرِّيحُ بالسَّهْمِ الذي من شأنِهِ الإصابةُ، فحُذِفَ المشبَّه به ورُمِزَ إليه بشيءٍ من لوازمِهِ وهو الإصابةِ، على طريق الاستعارة المكنيَّة.

ويحتَمِلُ أن تكون الاستعارةُ تصريحيَّةً في تشبيه إهلاكِ الرِّيح الزَّرْعَ بإهلاكِ السَّهْمِ الغرضَ الذي يُصيبُهُ، فحُذفَ المشبَّهُ وصُرِّحَ بالمشبَّهِ به وهو الإصابة.

والوجهان في إجراءِ الاستعارةِ متآيلَانِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/62.

(2) الرّازي، مختار الصّحاح: (صوب).

سِيَاقُ الْكَلَامِ مُعَيِّنٌ لِلْمَعَانِي الْمُحْتَمِلَةِ، فَلَا يَنْبَغِي إِغْفَالُهُ

دِلَالَةُ حذْفِ مُتَعَلَّقِ الظُّلْمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾:

حُذِفَ متعلّق الظُّلْمِ في قولِه: ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾، وفي تعيينِهِ قولان:

أحدهما: ظلَمُوهَا بالكُفْرِ والمَعَاصِي، ومنعِ حقِّ اللّه تعالى، فَكَنّى عَنِ المعاصِي بِظُلْمِ النّفس؛ لأَنَّ وبالَ الكفرِ وما ذُكرَ معه راجعٌ إلى النَّفْسِ.

والآخرُ: ظلمُوا أنفسَهُم بِأَنْ زَرَعُوا في غيرِ وَقْتِ الزّرع[1]؛ أي: وضعوا أفعالَ الفلاحةِ في غيرِ مَوْضِعِها مِن وقت أو هيئة عمَلٍ.

والأَوَّلُ أقوَى لوجهين:

أحدهما: أنَّ ظلمَ النَّفس في عُرْفِ الشَّرع يُرادُ به ظلمُها بالكفر فما دونَهُ، فينبغي حَمْلُ ما وردَ على هذا المعنَى إلَّا لدليلٍ قويٍّ صارفٍ.

والآخَرُ: أنَّ حملَهُ على معنَى ظلمهم أنفسَهُم بالزِّراعةِ في غير إبَّانِهَا لا يتناسَبُ مع التَّهديد الذي سيق المثلُ من أجلِه؛ لأنَّ عادةَ من يفعل ذلك لا يَجْنِي عَمَلُهُ شيئًا ذَا بالٍ، فما الذي تكون الرِّيحُ قد أهلكتْهُ؟!

الْعُقُوبَةُ الصَّادِرَةُ عَنْ سُخْطٍ تَكُونُ أَشَدَّ وَأَبْلَغَ

بَرَاعَةُ الإِطْنَابِ بِالتَّتْمِيمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَهۡلَكَتۡهُۚ﴾:

في ﴿فَأَهۡلَكَتۡهُۚ﴾ من قوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ﴾ إطنابٌ بالتَّتْمِيم، فهو تَتْمِيمٌ لِلْمَقْصُود مِنَ التّمثيل بما يُفيده مِنَ المبالغة؛ لأنّ الإهلاكَ مشعِرٌ بالسّخط، والعقوبة عن سُخْطٍ أبلغُ وأشدُّ[2].

تَجَدُّدُ الظُّلْمِ وَتَنَوُّعُهُ إِضْرَارٌ عَلَى ظُلْمِ النَّفْسِ وَإِذْلَالِهَا

دِلَالَةُ الالْتِفَاتِ فِي صِيَغِ الأَفْعَالِ بَيْنَ ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾ و﴿يَظۡلِمُونَ﴾:

وفي قوله تعالى: ﴿أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ الْتِفَاتٌ في صيغِ الأفعالِ،

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/317.

(2) الخفاجي، حاشية على تفسير البيضاوي: 1/401 - 402.

وذلك بين قولِه: ﴿ظَلَمَهُمُ﴾ بصيغةِ الفعل الماضي وقولِه: ﴿يَظْلِمُونَ﴾ بصيغة الفعل المضارع.

ونكتةُ الالتِفَاتِ إلى المُضارع: الدِّلالَةُ على التّجدّد والاستمرارِ؛ لبَيَانِ ما هُم فيه مِنَ الإصْرَارِ على الظُّلْم، فالذي أصابهم من العقوبَةِ كان بسببِ ظُلْمِهم أنفسَهم، وإصْرَارِهم على ذلكَ، وتجدُّدِه فيهم واستمرارِهم عليه بِمَنْعِ حقّ اللّهِ تعالى فيه.

وهذا مثل ضربه اللّه لإبطالِ أعمالِهم في الآخرة(1).

دِلَالَةُ جِنَاسِ الِاشْتِقَاقِ بَيْنَ: ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾ و﴿ظَلَمَهُمُ﴾ و﴿يَظْلِمُونَ﴾:

وَبَـالُ الظُّـلْـمِ رَاجِـعٌ عَـلَى الظَّالِمِ، وَالْجَزَاءُ مِـنْ جِـنْـسِ الْعَمَلِ

قوله: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ جوَّز الزَّمخشريّ وغيره أن يَعُودَ الضّمير على المُنْفِقِين، أي: ما ظلمَهُم بأَنْ لَم تُقْبَلْ نفقَاتُهم، وأن يَعُودَ على أصحابِ الْحَرْثِ، أي: ما ظلمَهُم بإِهْلَاك حَرْثِهِم، ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بارتكاب المعاصي، واختار ابن عطيَّة الأوَّلَ؛ وليس هو للقوم ذوي الحرث، لأنّهم لم يذكروا ليرد عليهم، ولا لِيُبَيِّنَ ظلمهم، وأيضًا قوله: ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يدلّ على فعل الحال في حاضرين(2).

وكلا المعنيَيْنِ في نفسِه حقٌّ؛ فاللّه سبحانه لم يَظْلِمْ أحدًا منهم، لا المُنْفقين ولا أصحابَ الحرثِ.

وبين ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾ و﴿ظَلَمَهُمُ﴾ و﴿يَظْلِمُونَ﴾ جناسُ الاشْتِقَاقِ، ونُكْتَتُهُ: التَّنبيهُ على الظُّلْم وبيانُ عاقبتِهِ الوخيمَة، وَأنّهُ محْوَرُ مَا حلّ بِهِم مِنَ الهلاكِ والدّمار، وأَنّ ما بُذل مِنَ الجُهْدِ والوقْتِ والمَالِ في الحَرْثِ والزّرع، قد ذهب كلّه بسبب ظُلْمِهم، وأنّ ظُلْمَهُمْ عائدٌ على أَنْفُسِهم، جزاءً لهم من جنسِ فعلِهم.

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/317.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/496.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فيه حذفٌ، والتَّقدير: (يَظْلِمُونَهَا هُمْ)، وحَسَّنَ حذفَ هذا الضَّمير العلمُ به، وكونُ ذلك واقعًا فاصلةً للآية، فلو صرّح به لزال التّناسُبُ الصَّوتِيُّ بين الآي[1].

نُكْتَةُ تَكْرَارِ النَّفْسِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾، ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾:

النَّفْسُ هِيَ مَدَارُ الصَّلَاحِ وَالْفَسَادِ، وَإِصْلَاحُهَا مَكْمَنُ النَّجَاةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

في تكرار ذِكرِ النَّفس في قولِه تعالى: ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؛ لِبَيَانِ أنَّها لُبُّ الموضوع وأُسُّه الذي تَنَاوَلَتْهُ الآيَةُ الكريمة، إذْ ذلك يُومِئُ إلى أنَّ النَّفسَ عليها مدارُ الصَّلاحِ والفسادِ، وأنَّ إصلاحَهَا هو المَنْجَى ممّا قد يؤدّي إلى الدّمار والهلاك في الدّنيا والآخرة.

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٥٧﴾ [البقرة: 57]:

التَّارِيخُ حَافِلٌ بِالشَّوَاهِدِ عَلَى مَصَارِعِ الظَّالِمِينَ، وَلَا يَزَالُ ظُلْمُ النَّفْسِ يَتَجَدَّدُ فِي أَفْرَادٍ مِنْ بَنِي آدَمَ دُونَ اعْتِبَارٍ بِمَنْ سَبَقَ

الضَّمائر في قولِه تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ راجعةٌ إلى الذين كفروا، والمعنى: أنّ اللّه لم يَظْلِمْهُم حينَ لم يَتقبّل نفقاتِهم - وفي الضَّمير الأوَّلِ وجهٌ آخرُ تقدَّم ذكرُه قريبًا -؛ بَل هُمُ الذين تسبَّبوا في ذلك إذْ لَم يُؤمنوا؛ لأنَّ اللّه تعالَى جعلَ الإيمانَ شرطًا في قَبُول الأعمال، فلمّا أَعْلَمَهُم بذلك وأَنْذَرَهُم؛ لَم يَكُنْ عقابُه بعدَ ذلك ظُلْمًا لهم.

وفيه إيذانٌ بأنَّ اللّه تعالَى لا يُخالِفُ وَعْدَهُ مِنْ نَفْيِ الظُّلم عن نفسه[2].

وقد ورد قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٥٧﴾ [البقرة: 57]، في مواضع عديدة من كتاب اللّه تعالى هي: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٥٧﴾ [البقرة: 57]، وقوله: ﴿وَظَلَّلْنَا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/316.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/62.

عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١٦٠﴾ [الأعراف: 160]، وقوله: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٧٠﴾ [التّوبة: 70]، وقوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٣٣﴾ [النّحل: 33]، وقوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠﴾ [العنكبوت: 40]، وقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٩﴾ [الرّوم: 9]، وقد جاءت في جميع هذه الآيات حكاية عن الأمم السّابقة، عن أقوام أتاهم العذاب، فأخذهم اللّٰه بذنوبهم، وانتهى الأمر.

أمّا قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٧﴾؛ فإنّه لم يرِد إلَّا في هذا الموضع من كِتَابِ اللّٰه تعالى؛ لِبَيَانِ احْتِمَال أن يَتُوبَ بعضُ هؤلاءِ عَن ظُلْمِهِم أنفسَهم فيتوب اللّٰه تعالَى عليهم، ويَزُول ظُلْمُهم.

دِلَالَةُ أُسْلُوبِ الْعَكْسِ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾:

الْإِغْـــرَاقُ فِي الظُّـلْـمِ مُـوجِبٌ أَشَدَّ الْعُقُوبَاتِ

قُدِّمَ الظُّلْمُ في قولِهِ: ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ ثُمّ ذُكِرَتِ الأنفسُ، ثُمّ عُكِسَ ذلك القولُ في خِتَامِ الآيةِ في قوله: ﴿أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾، فَقُدِّمتِ الْأَنفسُ ثُمَّ أعقبَهَا ذكرُ الظُّلم، ونُكْتَتُه: أنّهُ حَصَرَ الْأَنْفسَ بَيْنَ فِعْلَيِ الظُّلْم؛ وجُعِلَ الأوّلُ مَاضِيًا ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾؛ لِبَيَان ثباتِهم على الظُّلْم ورسوخه فيهم، وخُتِمَ بالفعلِ المضارع ﴿يَظۡلِمُونَ﴾؛ لِدِلَالَةِ تجدُّدِ الظُّلْم واسْتِمْرَارِهم عليه، وهذا مشعرٌ باستحقاقِهم العقوبة؛ لتجذُّرِ الظُّلْم فيهم ماضيًا وحاضرًا.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الْمَفْعُولِ عَلَى عَامِلِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾:

قُدِّم المفعول ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ على عامله ﴿يَظۡلِمُونَ﴾؛ لقصدِ الاختِصَاص،

وَبَالُ الظُّلْمِ يَرْجِعُ عَلَى صَاحِبِهِ خَيْبَةً وَخَسَارًا

ولبيَانِ شناعَةِ ما يَفْعَلُونَهُ بأنفسهم، فإنّهم بِمَا يَفْعَلُونَهُ إنّما يَخْتَصّون أَنْفُسَهُم بالظُّلم، ووبالُ ظُلْمِهم راجعٌ إليهم.

والضَّمير في ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ لِلْمُنْفِقِينَ، علَى مَعْنَى: وما ظلمَهُمُ اللّه بِأَنْ لَم يَقْبَل نفقاتِهم، ولكنَّهم ظلموا أنفسَهُم إِذْ لَم يَأْتُوا بهَا مُسْتَحِقَّةً لِلْقبُول، أو لأصحَابِ الْحَرْثِ الذين ظَلَمُوا أنفسَهم، أي: وما ظلمَهُمُ اللّه بإهْلَاكِ حَرْثِهِم، ولَكِنْ ظَلَمُوا أنفسَهم بارْتِكَابِ ما اسْتَحَقُّوا به العقوبةَ[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّة:

الريح والرياح:

قال الرَّاغب: "والرِّيح: معروفٌ، وهي فيما قيل: الهواءُ المتحرِّكُ، وعامَّةُ المواضع الَّتي ذكر اللّه تعالى فيها إرسالَ الرِّيح بلفظ الواحد؛ فعبارةٌ عنِ العذاب، وكلُّ موضع ذُكر فيه بلفظ الجمع؛ فعبارةٌ عن الرَّحمة"[2]، ويرادُ بها هنا: ريحُ العذاب الَّتي تدمِّرُ، وتُهلكُ. وأفرد (ريحًا)؛ لأنّها مختصة بالعذاب، كما في قوله: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٌ﴾ [الأحقاف: 24]، وقوله: ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا﴾ [الرّوم: 51]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾ [القمر: 19]، وقوله: ﴿ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾ [الذّاريات: 41]. كما أن الجمع مختص بالرّحمة؛ فقال: ﴿أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ﴾ [الروم: 46]. وقال: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: 22]، وقوله: ﴿يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا﴾ [الأعراف: 57]. ولذلك روي: "اللهُمَّ اجْعَلْهَا رَحْمَةً وَلَا تَجْعَلْهَا عَذَابًا، اللهُمَّ اجْعَلْهَا رِيَاحًا وَلَا تَجْعَلْهَا رِيحًا"[3].

وهذا التفريقُ كلُّه مبني على الأغلبِ في القراءات، واعتبارا بالأغلب من الآيات، نحو: ﴿ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ﴾ [الروم: 46] و﴿ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/34.

(2) الراغب، المفردات: (روح)، وينظر: الآلوسي، روح المعاني: 2/252.

(3) الطبراني، المعجم الكبير، الحديث رقم: (11533).

﴿٤١﴾ [الذّاريات: 41]؛ إذ جاءت في القرآن مجموعة مع الرحمة، مفردة مع العذاب، إلا في يونس في قوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: 22]، لكن هناك قراءاتٌ في الموضع الواحد يأتي بها الإفراد والجمع؛ لذلك يقالُ في التفريق بين استعمال لفظي الرياح والريح أنَّ من وحَّد الريح، فلأنه اسم جنس يدلُّ على القليل والكثير، ومن جَمَع فلاختلاف الجهاتِ التي تهب منها الرياح[1].

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/198.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨﴾ [آل عمران: 118]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لما شرحَ تعالى أحوالَ المؤمنين والكافرين شرعَ في تحذير المؤمنين في هذه الآية عن مخالطة الكافرين[1]، فحذَّر المؤمنين من اعتمادهم على هؤلاء، وشرح لهم حالتهم وكشفَ أستار النُّفوس المريضة وما يضمرونه للمؤمنين.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِطَانَةٗ﴾: جذر الكلمة هو: (بَطَن)؛ البَطْنُ في كلّ شيءٍ خلافُ الظَّهر، كبَطْنِ الأَرْضِ وظَهْرها، والمعنى المحوري هو: التعبير عن الجوف الدَّاخلي للشيء حيث يَخْفَى فيه ما يدخل إليه، وكالباطِنِ والظّاهر، وكالبِطانةِ والظِّهارة، يعني: باطن الثَّوب وظاهِره، قال اللّه ﷻ: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ﴾ [الرحمن: 54]، ولحافٌ مبطون ومُبَطَّنٌ. وبَطْنُ الرّاحةِ وظَهْر الكَفِّ، وبِطانةُ الرَّجل: وَليجَتُهُ من القَوْم الّذِين يُداخِلُهم ويُداخِلُونه في دُخْلِة أَمْرِهم. وبطانتُه: سَرِيرتُه. وكذلك يقال: أَهْل بِطانته، والنِّعمةُ الباطنة: الّتي قد خصّتْ، والظّاهِرةُ: الّتي عمّت، قال اللّه تعالى: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾ [القمان: 20]. وأفرشني فلان بطن أمره وظهره، أَي: سره وعلانيته. وَالْبَاطِن: خلاف الظَّاهِر[2].

والمعنى هنا: مقربين يعرفون دخائلَ أموركم.

2) ﴿يَأۡلُونَكُمۡ﴾: جذر الكلمة هو: (ألَا)؛ ألَا فلانٌ في عمله: قصَّر وأبطأ، ويستعمل

---

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/339.

(2) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بطن).

عادةً مسبوقًا بأداة نفي كالآية الكريمة. ويقال: إني لا آلوكَ نُصْحًا، أي: لا أفتُر ولا أقصِّر. والأَلْوُ من الأضداد؛ ألَا يألو إذا فتَر وضَعُف، وألَا يألو إذا اجتَهد[1].

والمعنى هنا: لا يُقَصِّرون في.

3) ﴿خَبَالًا﴾: جذر الكلمة هو: (خَبِل): أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى فَسَادِ الْأَعْضَاءِ، والعقول، والأفعال، ويُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى الشَّرِّ والفسادِ مُطْلَقًا. فَالْخَبَلُ: الْجُنُونُ. ويقال: خَبَلٌ وخَبْلٌ وخَبَال، ويقال: خَبَلَهُ وخَبَّلَهُ فهو خَابِل، والجمع الخُبَّل، ورجل مُخَبَّل، يُقَالُ اخْتَبَلَهُ الْجِنُّ. وَالْجِنِّيُّ خَابِلٌ. وَيُقَالُ خُبِلَتْ يَدُهُ، إِذَا قُطِعَتْ وَأُفْسِدَتْ، ودَهرٌ خَبِلٌ: مُلْتَوٍ على أهله، لا يَرَوْنَ فيه سُرورًا. وقال ﷻ: ﴿مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: 47][2].

والمعنى هنا: في الفَسادِ والشَّرِّ.

4) ﴿عَنِتُّمْ﴾: جذر الكلمة هو: (عَنِت)؛ العَنَتُ: إدخالُ المشقّة على إنسانٍ. عَنِتَ فلانٌ، أي: لَقِيَ مشقّة. وتَعَنَّتُّه تَعَنُّتًا، أي: سألتُه عن شيءٍ أردتُ به اللَّبْسَ عليه والمشقَّة. والعظم المجبورُ يصيبه شيءٌ فيُعْنِتُه إعناتًا. وَأَعْنَتَهُ: أوقعه في الهلكة. وفي التنزيل: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْۚ﴾ [البقرة: 220]، وقع فلان في العنت أي فيما شَقَّ عليه. وَأَعْنَتَهُ: هاضه. وأَعْنَتَ الطبيبُ المريضَ إذا لم يرفق به فضرَّه[3].

والمعنى هنا: مَشَقَّتَكم.

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ينهى اللّٰه تعالى المؤمنين أن يتّخذوا المنافقين من أهل الكتاب وغيرِهم أولياءَ من دون المؤمنين، يُطْلِعونهم على أسرارهم، فهؤلاء لا يَفْتُرون عن إفسادِ حالِكم ولا يُقصِّرون في إفشالِكم، وهم يفرحُون بما يصيبُكم من ضررٍ ومكروهٍ، وهم يتطلَّعُون بلهفةٍ إلى هلاكِكم وتلفكم، قد ظهر لكم منهم الكذبُ والشَّتمُ ومخالفةُ دينِكم بفلتاتِ لسانِهم، مع الحرص والمبالغة في ضبط أنفسهم، وما يُخفون في صدورهم من العداوةِ لكم أكبرُ وأعظمُ ممَّا

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والزَّبيدي، تاج العروس، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (ألا).

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، والزّبيدي، تاج العروس: (خبل).

(3) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم: (عنت).

يبدو لكم، قد بيَّنَّا لكم البراهينَ والحُجَجَ التي فيها مصالحُكم الدينيةُ والدنيوية؛ لتتعظوا وتحذروا، إن كنتم تعقلون عن اللّه مواعظه وأمره ونهيه، وهو ختامٌ بما يزيد أهلَ الإيمانِ في التَّحذير والانتباه، وفي التَّفرقةِ بين الصديق والعدوِّ[1].

عن عبد اللّه بن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -؛ قال: كان رجالٌ من المسلمين يواصلون رجالاً من اليهود، لِمَا كان بينهم من الجوار والحِلْف في الجاهلية؛ فأنزل اللّه - عَزَّ وَجَلَّ - فيهم؛ فنهاهم عن مباطنتهم تخوُّفَ الفتنةِ عليهم منهم؛ فأنزل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ﴾[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دِلَالَةُ النَّهْيِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾:

فِي امْتِثَالِ نَوَاهِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فَـلَاحُ الـدُّنْـيَـا وَالْآخِرَةِ

قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً﴾؛ أي لا تستعينوا بأصْفِيَاء مِن غير ملّتكم، وقوله: ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ في موضع الصّفة لبطانة، وقدَّرَه الزّمخشريّ: مِن دُونِ أبناء جِنْسِكُم، وهُمُ المُسلمون.

ويَحْتَمِلُ أن تكون ﴿مِّن﴾ متعلّقةً بقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾، أو أن تكونَ ﴿مِّن﴾ زائدةً، أي: بطانةً دُونَكُم، والمعنى: أنّهم نُهُوا أن يَتَّخِذُوا أَصْفِيَاءَ من غير المؤمنين.

ودَلّ هذا النَّهْيُ علَى المَنْعِ مِنِ اسْتِكْتَابِ أهلِ الذّمّة وتَصْرِيفِهِم في البَيْعِ والشّراء والاِسْتِبَانَةِ إليهم، وقد عتَبَ عُمَرُ بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ علَى أبي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اسْتِكْتَابَهُ ذميًّا، وتلا عليه هذهِ الآيةَ، وقَد قِيلَ لِعُمَرَ بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كاتبٍ مُجيدٍ مِنْ نصارى الحِيرَةِ: أَلَا يَكْتُبُ عَنْكَ؟ فقال: إِذَنْ أَتَّخِذ بطانةً من دونِ المؤمنينَ[3].

وهذا النَّهْيُ على بابِهِ في الدّلالةِ على الإلزام بالتَّرْكِ، وفيه

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/318، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 65، والموصلّي، أولى ما قيل: 2/530، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 65.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 4/40.

(3) ابن جزي، التسهيل: 1/163، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/316.

معنَى النُّصحِ والإرشادِ أيضًا؛ لما في ذلك من تحقيق المصالِحِ في الدُّنيَا والآخرةِ.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ﴾:

وُجُـــوبُ تَـخَـيُّرِ الْمُسْلِمِ بِطَانَةَ الْخَيْرِ

بِطَانَةُ الرَّجُلِ: خَصِيصُهُ وصَفِيُّه الذي يُفْضِي إليه ثقةً به، وفي قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ﴾ شُبِّه ببطانَة الثَّوب، كما تقول العربُ: فُلَانٌ شِعَارِي، وعن النَّبِيِّ ﷺ: "الْأَنْصَارُ شِعَارٌ، وَالنَّاسُ دِثَارٌ"[1].

وقوله: ﴿مِّن دُونِكُمۡ﴾ أي: من دُونِ أَبْنَاءِ جِنْسِكُم؛ وهُمُ الْمُسْلِمُون، ويجوز تعلُّقه بـ ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾، وبـ ﴿بِطَانَةٗ﴾ على الوَصْفِ؛ أَيْ: بطانَةً كائِنَةً مِن دُونكم مجاوِزَةً لَكُمْ[2].

وفيه تشبيهُ الأولياءِ بِالْبِطَانَةِ؛ فَذُكِرَ الْمُشبّهُ به، وهو البطانة، وحُذِفَ الْمُشبّه، وهُمُ الْأَوْلِيَاءُ؛ فَهِيَ استعارةٌ تَصْرِيحيَّةٌ؛ وأصلُها مِنْ بِطَانَة الثّوب، كما في قَوْلِهم: لَبِسْتُ فلانًا، إِذَا اخْتَصَصْته، وفلانٌ شِعَارِي ودِثَاري[3]، وقوله: ﴿مِّن دُونِكُمۡ﴾ هُوَ قَرِينَةُ الِاسْتِعَارة، وقولُه بعدُ: ﴿لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا﴾ مِنْ مُتَمّماتِ الاستعارة، وهي راجعةٌ على الْمُشَبّه الْمَحْذُوفِ - (الأولياءِ) -، فَتَكُونُ الاستعَارَةُ مجرّدَةً.

ولفظ (دُون) من قولِه: ﴿مِّن دُونِكُمۡ﴾ يَقْتَضِي فيما أضيف إليه أنّه معدومٌ من القصّة التي فيها الكلامُ، فشبّه الأخلاءُ بما يَلِي بطنَ الإنسان من ثوبه[4]، ومن هذا المعنى قولُ النَّبيِّ ﷺ: "مَا اسْتُخْلِفَ خَلِيفَةٌ إِلَّا لَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالخَيْرِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللهُ"[5].

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، الحديث رقم: (4330)، ومسلم في صحيحه، الحديث رقم: (1061).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/406.
(3) الأبياري، الموسوعة القرآنيّة: 8/58.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/496.
(5) رواه البخاري في صحيحه، الحديث رقم: (6611).

بَرَاعَةُ المَجَازِ المُرْسَلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِّن دُونِكُمۡ﴾:

مِنَ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ التَّنَبُّهُ إِلَى حَقِيقَةِ مَنْ حَوْلَ المُسْلِمِينَ

يجوزُ في (مِنْ) من قَوْلِه: ﴿مِّن دُونِكُمۡ﴾ أَنْ تَكُونَ زَائِدَةً، و(دُونَ) اسْمَ مَكانٍ بمعنَى: حَوْلَكُم، وهُو مجَازٌ مرسلٌ، علاقتُه: المحلّيَّة؛ إذْ ذُكِر المَكَانُ وأُرِيدَ الحالُّون فيه، ونُكْتَةُ المجاز: تنبيهُ المؤمنين إلى حقيقةِ مَنْ حَوْلَهُم، مِمَّنْ ليسوا مِن ملّتهم، إذ إنَّ دأبهم أنْ يكيدوا لَهم المكايد، ومِن نظائرِ هذه الآية قولُه تعالى: ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗ﴾ [التوبة: 16]. ثمّ إنّ مَن كان مباينًا لِغَيْرِه في المكانِ فَهُوَ مغايرٌ له، فجعل لفظ (دُون) مُسْتَعْمَلًا في مَعْنَى (غَيْرِ)[1].

نُكْتَةُ تَأْكِيدِ الذَّمِّ بِمَا يُشْبِهُ المَدْحَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا﴾:

مِنْ مَحَاسِنِ الشَّرِيعَةِ قَرْنُ الأَحْكَامِ بِعِلَلِهَا وَحِكَمِهَا

قوله: ﴿لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا﴾ لا يقصرون في خبالكم، والأَلْوُ: التَّقْصِيرُ والتَّرْكُ، وفِعْلُهُ: ألَا يَألو، وقد يتوسَّعون في هذا الفعل فيُعدّى إلى مَفْعُولَين، لأنّهم ضَمَّنُوه معنى المَنْعِ فيما يرغب فيه المَفْعُول، فقالوا: لا آلوك جهدًا، كما قالوا: لا أدّخرُك نُصحًا، فشاع ذلك الاستعمالُ حتَّى صار التّضمينُ مَنْسِيًّا، فلذلك تعدّى إلى ما يدلّ على الشّرِّ، كما يُعدَّى إلى ما يدلُّ على الخير، فقال هنا: ﴿لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا﴾؛ أي لا يقصّرون في خَبَالِكُم، وليس المُراد: لا يمنعونكم، لأنّ الخبالَ لا يُرْغَب فيه ولا يُسأل[2]، فجاءَ النّفي على معنى أسلوبِ تأكيدِ الذّمِّ بما يُشْبِهُ المَدْحَ، وفائدته: المُبَالَغَةُ في التَّحذيرِ مِنِ اتِّخاذِ أمثالِ هؤلاء أولياءَ مِن دُونِ المُؤْمِنين؛ ببيانِ عِلَّةِ النَّهْيِ المتقدِّم.

دِلَالَةُ التَّهَكُّمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا﴾:

الفِطْنَةُ مِمَّا تُضْمَنُ بِهِ مَصَالِحُ النَّاسِ

أصلُ الخَبالِ: اختلالُ الأمرِ وفسادُه، ومنهُ سُمِّيَ فسادُ العقلِ: خبالًا، وكذا فسادُ الأعضاء.

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/340.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/64.

ويحتمل أنّه اسْتُعْمِلَ (الخَبال) في هذهِ الآيَةِ على سَبيل التّهكّم بالبِطانة؛ لأنّ شأن البِطَانَةِ أن يَسْعَوْا إلى ما فيه خيرُ مَن اسْتَبْطَنَهُم، فلمّا كان هؤلاء بضِدّ ذلك عُبِّرَ عَن سَعْيِهم بالضُّرِّ، بالفِعْلِ الذي مِن شأنه أن يُسْتَعْمَلَ في السَّعْيِ بالخَيْرِ(1).

نُكْتَةُ الطِّبَاقِ الضِّمْنِيِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾:

تَحَرِّي بِطَانَةِ السُّوءِ مَحَالَّ الشَّرِّ وَالضَّرَرِ لِلْإِيقَاعِ بِالْمُسْلِمِينَ

قوله: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾، أي ودّوا عَنَتَكُم، والعنَتُ: شدّة الضّرر والمشقّة، وأصلهُ: انْهِيَاضُ العَظْم بعدَ جَبْرِه، والوُدُّ: المحبَّة، فمعنى: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ تمنّوا أن يَضُرُّوكم في دينِكم ودُنْيَاكُم أشدّ الضّرر وأبْلَغَه(2)، أو: رَغِبُوا فيما يُعْنِتُكم(3).

وقولُه: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: وَدُّوا الذي لا تودّونه، فيكون في الآية طِبَاقٌ ضِمْنِيٌّ؛ لأنَّ العَنَتَ لا يُوَدُّ، وفي هذا شدَّةُ المبالغة في التَّحذيرِ من بطانَةِ السُّوءِ، حيث إنَّهم يتحرَّونَ مواطِنَ الشَّرِّ والضّرر للإيقاعِ بأهل الإسلام.

نُكْتَةُ تَعْدَادِ صِفَاتِ بِطَانَةِ السُّوءِ:

بَيَانُ صِفَاتِ بِطَانَةِ السُّوءِ إِشْعَارٌ بِمَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ بِطَانَةُ الْخَيْرِ مِنَ الْأَوْصَافِ

لَمَّا كشَفَ اللّٰه تعالى دَخَائِلَ مَن حولَ المُسْلِمين مِن أهل الكتاب أتَمَّ كَشْفٍ؛ جاء موقعُ التَّحذير مِن فَريقٍ مِنْهُمْ، والتَّحذيرُ مِنَ الاغترارِ بهم، والنَّهيُ عنِ الإلقاءِ إليهم بالمودَّة، وهؤلاءِ هُم ٱلْمُنَافِقُون، وذلك لِلْإِخْبَارِ عَنْهُم بقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾، وأكثرُهم مِنَ اليهود، دُون الذين كانُوا مُشْرِكِين مِنَ الأَوْسِ والخَزْرَجِ، وهذا موقعُ الاستِنْتَاجِ في صِنَاعَة الخَطَابَة بعدَ ذِكْرِ التَّمْهِيدَات والْإِقْنَاعَات، وحقُّه: الِاسْتِئْنَافُ الِابْتِدَائِيُّ كما هُنا(4).

وقوله: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ جملةٌ جاءَتْ بيانًا لِحَالِ البِطَانَةِ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/64.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/406.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/64.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/62 - 63.

الكَافِرَةِ، وَهِيَ والجملُ التي بعدها سِيقَتْ لتنفيرِ المؤمنين عَن اتّخاذهم بطانةً مِنْ دُونهم، ثمّ نبَّهَ على أشياء مِمَّا هُمْ عليهِ مِن ابتغاءِ الغَوائلِ لِلْمُؤمنين، ووَدَادَةِ مشقَّتِهم، وظهور بغضِهم.

والتَّقييدُ بالوصفِ أو بالحال يُؤْذِنُ بجَوَازِ الاتِّخَاذِ عندَ انْتِفَائِهِمَا[1]، ولذا فُصِّلَ في تَعداد الأوصافِ؛ لبيانِ أنَّها مقصودةٌ في الحكم، ومؤثِّرةٌ فيه، وإظهارًا للحكمةِ مِنَ النَّهيِ، وإيماءً إلى ما يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ البِطَانةُ؛ من كونِها مسلمةً، ناصحةً، ترغبُ فيما يرغَبُ فيه أهلُ الإسلامِ عادةً من مصالحِ الدُّنيا والآخرة، مُظهِرةً للوُدِّ في المقالِ والفِعالِ.

تَتَكَامَلُ الصِّفَاتُ فِي بِنَاءِ نُفُوسٍ مُسْتَقِرَّةٍ عَلَى الْخَيْرِ أَوْ مُتَهافِتَةٍ عَلَى الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ

دِلَالَةُ حَذْفِ حَرْفِ الْعَطْفِ (الْوَاو) فِي تَعْدَادِ صِفَاتِ الْبِطَانَةِ:

حرف العطفِ (الواو) مشعِرٌ بالمغايرةِ، فمتى وُجِدَ آذنَ ذلك بالتَّغاير بين الجملتَيْن، ومتى حُذِفَ الواوُ كان إعلامًا باتِّصال الجُملةِ الثَّانيةِ بالأولى، والتحَامِها بها، حتَّى كأنّها إحدى متعلقاتها[2].

ومِنْ ذلكَ قولُه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ﴾، فإنّ التّقدير: وَوَدُّوا ما عَنِتُّم، وقَدْ بَدَتِ البَغْضاءُ مِن أفواههم، فلمّا حُذِفَت هذه الواوُ؛ كان الكلامُ مَعَ حَذْفِهَا أدخلَ في الإعجاز، وأحسنَ في الاخْتِصارِ والإيجاز، وأبلغَ في تأليفه ونظمه، وأحلى في سياقه وعذوبة طعمه[3]، وفيه إيذانٌ بأنَّ من شأنِ بطانَةِ السُّوءِ أن تجتَمِعَ فيها هذه الصِّفاتُ، لا تكاد تنفكُّ واحدةٌ عنهم.

حِـرْصُ أَهْـلِ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ عَلَى إِلْحَاقِ مَا اسْتَطَاعُوا مِنَ الضَّرَرِ بِأَهْلِ الْإِسْلَامِ

دِلَالَةُ التّرقّي فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ﴾:

الفرق بين قولِه: ﴿لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا﴾ وبينَ قولِه: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ﴾ في المعنى من وُجُوهٍ:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/316 - 317.
(2) العلوي، الطّراز: 2/60.
(3) العلوي، الطّراز: 2/60.

أحدها: لا يُقصِّرون في إفسادِ دينِكُم، فإن عَجَزوا عنه ودُّوا إِلْقَاءَكُم في أشدِّ أنواع الضُّرِّ.

ثَانِيها: لا يُقصِّرون في إِفْسَادِ أُمُورِكم في الدُّنيا، فإِذَا عَجَزُوا عَنْهُ، لم يَزُلْ عن قلوبِهِمْ حُبُّ إعناتِكُم.

ثالثُها: لا يُقصِّرون في إفساد أمورِكُم، فإنْ لم يفعَلوا ذلك لِمَانِعٍ من خارجٍ، فحُبُّ ذلك غيرُ زائلٍ عن قلوبِهِم[1].

وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ أهل الشَّر والفسادِ يَبْذُلُونَ في سبيل إلحاق الضَّرَر بأهلِ الْإِسْلَامِ مَا اسْتَطَاعُوا، فإِنْ عجزُوا عن ذَلِكَ؛ بقيَ حبُّ إيقاعِ الضَّرَرِ قَائمًا في قلُوبهم، مُتَحيِّنين بذَلِكَ الْفُرَصَ لإِنْفَاذِهِ.

وَجْهُ نَصْبِ ﴿خَبَالًا﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾:

التَّوْجِيهُ النَّحْوِيُّ لِآيِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يُثْمِرُ مَعَانِيَ مُتَنَوِّعَةً لَا مُتَضَارِبَةً

قولُه تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ من قولهم: ألَا في الأمر يَألُو؛ إذا قصَّرَ فيه، ثُمَّ استُعْمِلَ مُعَدًّى إلى مفعولين في قَوْلِهِم: لا آلُوك نُصْحًا، ولا آلوك جُهْدًا، على إرادةِ التَّضْمِين، والمعنى: لا أَمْنَعُكَ نُصْحًا ولا أُنْقِصُكَهُ[2].

ويتعدَّى الفعلُ (ألَا) إلى مفعولٍ واحدٍ بحَرْفِ الْجَرِّ، تقول: ما أَلَوْتُ في الأمر، أي: ما قصَّرتُ فيه.

ويحتَمِلُ أن يكون قوله: ﴿خَبَالًا﴾ قد انتصب على التَّمييز المنقولِ من المفعول، كقوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: 12]؛ والتّقدير: لَا يَأْلُونَ خَبَالَكُم، أي: في خبالكم، فكان أصلُ هذا المفعولِ حرف الجرِّ.

ويجوزُ أَن يكون انتصابُه على نزع الخافضِ، والتّقدير: لا يَأْلُونَكُم في تَخْبِيلِكُم، أو يكونَ انتصابُه على أنّه مصدرٌ في موضع الحال،

(1) الرّازي، مفاتح الغيب: 8/341.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/406.

قال ابن عطية: "معناه: لا يقصِّرونَ لكم فيما فيه الفساد عليكم، فعلى هذا يكون قد تعدَّى للضَّميرِ على إسقاط (اللّام)، ولِلْخَبَالِ على إسقاط (في)"[1].

وكلُّ هذه التَّوجيهاتِ تُؤدِّي معنًى متقاربًا، ولا تعارُضَ بينَهَا ولا تضارُبَ.

دِلَالَةُ الْأَفْعَالِ الْمَاضِيَةِ: ﴿وَدُّواْ﴾ و﴿عَنِتُّمْ﴾ و﴿بَدَتِ﴾:

الِاسْتِمْرَارُ فِي أَفْعَالِ الشَّرِّ يُورِثُ رُسُوخَهَا وَثَبَاتَهَا فِي النُّفُوسِ

الأفعَالُ: ﴿وَدُّواْ﴾ و﴿عَنِتُّمْ﴾ و﴿بَدَتِ﴾: أفعالٌ ماضيةٌ، وقد دلّت على رُسُوخِ هذهِ الصِّفاتِ عندَ أصحابِها، فقد أبانَتْ عنْ مودَّتِهم لِمَا يَضُرُّ بالمُؤْمِنين، وأوضحَتْ حالَ إبدائِهمُ البَغضاءَ جليًّا، فهذه الأوصافُ لبطانةِ السُّوءِ ليست أوصافًا عارضةً يُرجَى زوالُها وانكشافُها، وإنَّما هي متجذِّرةٌ فيهم، وهم متحقِّقُونَ بها غايةَ التَّحقُّق.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾:

الْكَلِمَاتُ الْمَقَالِيَّةُ تَنِمُّ عَنِ الْخَفَايَا الْقَلْبِيَّةِ

البَغضاء: أشدُّ البُغضِ، فالبُغض مع البَغضاء كالضُّرِّ مع الضَّرَّاء[2]، وجاءَ التَّعبير عنهم في قوله تعالَى: ﴿قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾؛ لكونِهم لا يتمالكون مع ضبطهم أنفُسَهُم، وتَحَامُلِهِم عليها: أَنْ يَنْفَلِتَ من ألسِنَتِهم مَا يُعلَم به بغضُهُم لِلْمُسْلِمين[3]، وهذا دالٌّ على شدَّةِ حنَقِهم على المسلمين وكراهِيَتِهم لهم.

ومَعْنَى قوله: ﴿قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾: ظَهَرَتْ من فَلَتَات أَقْوَالِهِم؛ كما قال تعالَى: ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ [محمد: 30]، فعبّر بالبَغْضَاءِ عَن أدلَّتِهَا[4]، وفي هذا التَّعبير مجازٌ مرسَلٌ، علاقتُهُ اللَّازِمِيَّةُ؛ إذْ أُطلقَ اللَّازِمُ وهو البغضاء القلبيَّةُ، وأُريد الملزومُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/317.
(2) الرّازي، مفاتح الغيب: 8/341.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/406.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/64.

وهو أدلَّتُها المقاليَّةُ، ونكتةُ المجاز: الإشعارُ بشدَّة البغضاء التي في قلوبِهم، حتَّى كأنَّ الظَّاهرَ منها هو عينُ البغضاءِ لا مجرَّدُ أدلَّتها.

فقوله تعالى: ﴿قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ يعني: الأقوال، فَهم فوق المُتَسَتِّر الذي تبدُو البَغْضاءُ مِنْ عَيْنَيْه.

وقدْ خَصّ اللّه تعالى الأفواهَ بالذِّكر دُونَ الأَلْسِنةِ؛ إشارةً إلى شَدَقِهم وثَرْثَرَتِهم في أقوالِهم هذه(1).

دِلَالَةُ الْمُقَابَلَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ﴾:

أَهْلُ الْبَاطِلِ يُعَادُونَ أَهْلَ الْحَقِّ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا

لمّا ذكَرَ اللّهُ تعالى ما انْطَوَوْا عليهِ من وِدَادِهم عَنَتَ المُؤْمنين، وهو إخبارٌ عن فِعْلٍ قلبيّ؛ ذَكَرَ مَا أَنْتَجَهُ ذلك الفعلُ القلبيُّ من الفعلِ الظَّاهرِ، وهو بُدُوُّ البُغض مِنْهُم للمؤمنين في أقوالهم، فجمعوا بذلك بَيْنَ كراهَةِ القُلُوب وبذاءَةِ الألسُن(2)، ثمَّ ذكَر أنَّ ما أَبْطَنُوهُ من الشَّرِّ والإيذاءِ للمؤمنين والبُغْضِ لهم أَعْظَمُ ممَّا ظهر مِنْهُمْ، فقال: ﴿وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ﴾، وقابل البُدُوَّ بالإخفاءِ، والأفواهَ - المُنبئَةَ بالظَّاهرِ - بالصُّدور - المشعِرَةِ بالباطن -؛ زيادةً في البيانِ؛ فإنَّ الضدَّ يُظْهِرُ قيمةَ ضدِّه حسنًا أو قبحًا.

بَلَاغَةُ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ﴾:

بُغْضُ أَهْلِ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ لِأَهْلِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ مَلَأَ جَمِيعَ قُلُوبِهِمْ

قوله: ﴿وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ﴾ أي: قلوبهم التي في الصُّدور؛ فإنَّ القلوبَ هي محلُّ البغضاءِ، فهو مجازٌ مرسَلٌ، علاقتُه المحليَّة؛ إذْ أُطلق المحلُّ وهو الصدر، وأُريد الحالُّ فيه وهو القلب، ونكتَةُ المجاز: الدِّلالةُ على شدَّة البغضاء، حتَّى كأنَّ قلوبهم لم تستوعِبْهَا فانتقلتْ إلى أجزاء مجاورةٍ له.

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/496.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/317 - 318.

تَرْبِيَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى إِعْمَالِ الْفِكْرِ وَالِاسْتِدْلَالِ

مُنَاسَبَةُ الْفَاصِلَةِ ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ لِمَضْمُونِ الْآيَةِ:

قوله: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾، أي: الآياتُ الدَّالَّة على وجوب الإخلاص في الدّين، ومُوالاةِ الْمُؤْمِنِينَ، ومُعَادَاةِ الكفّار[1]، أو أنَّ المرادَ: بيَّنَّا لكم الأدلَّةَ الدَّالَّةَ على سُوءِ نَوَايَا هذهِ الْبِطَانَةِ، فلَم يَزَلِ القُرآن يُربِّي هذه الأمَّة على إعمالِ الفِكْرِ، والاسْتِدْلال، وتَعَرُّف المسبَّبَات من أسبابها في سائر أحوالِها؛ فِي التَّشريعِ والمُعاملة، لِيُنشِئَهَا أمّةَ علمٍ وفطنةٍ.

ولَمَّا كانتْ هَذِهِ الآياتُ آياتِ فراسَةٍ وتوسُّم؛ قال: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾، ولم يَقُل: إنْ كُنْتُم تَعْلَمُون أو تَفْقَهُون؛ لأنَّ العقل أعَمُّ مِنَ العلم والفِقْه.

وجملة ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ﴾ مستأنفة[2] استئنافًا بيانيًّا؛ لوقوعهَا جوابًا عن سؤالٍ يُفْهَمُ ممَّا قبلَهَا؛ وذلك أنَّ اللّه تعالى فصَّل في صفاتِ بطانةِ السُّوءِ، فأورثَ ذلك سؤالًا في نفس المتَلَقِّي؛ وهو: لِمَ فُصِّلَ في ذِكْرِ أوصافِ هؤلاءِ، فجاء الجواب: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ﴾.

دِلَالَةُ حَذْفِ مَفْعُولِ ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾:

مِنَ الْحِكْمَةِ فِي الْإِقْنَاعِ اتِّبَاعُ أُسْلُوبِ سَوْقِ الْمَعْلُومِ مَسَاقَ غَيْرِهِ

﴿تَعۡقِلُونَ﴾ من قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ فعلٌ متعدٍّ، ومفعولُه محذوفٌ، والتَّقدير: تعقِلُونَ مَا بيَّن لَكُمْ، فَعَمِلْتُم به.

ويحتملُ أن يكون قد نُزِّلَ الفعلُ المتعدِّي منزلةَ اللَّازِمِ، والمعنى: إنْ كُنْتُم عُقَلَاءَ.

وفي هذا سوقُ المعلوم مساق غيرِهِ - وهو المسمَّى في غير القرآن: تجاهُلَ العارفِ -؛ لأنَّ اللّه سُبْحانه قد عَلِمَ أنهم عُقَلَاءُ، لَكِنْ عُلِّقَ الشَّرطُ على هذا النَّحوِ لِهَزِّ النُّفُوسِ وبعثِهَا على الامتثالِ[3]، كقَوْلِكَ:

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/406.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/65.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/496.

إِنْ كُنْتَ رَجُلًا فَافْعَل كذا، قال ابن جرير: "معناهُ: إنْ كنتُم تعقلُون عن الله أمرَهُ ونهيَهُ، وقيل: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، فلا تُصَافُوهُم، بل عاملوهم معاملة الأعداء، وقيل: معنى ﴿إِن﴾ مَعْنَى (إذ)؛ أي: إذ كنتم عقلاء"[1].

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المعانتة والمُعاندة:

قوله: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ قال ابن جرير: "فإنه يعني: ودُّوا عنَتَكم، يقول: يتمنَّون لكم العنَتَ والشرَّ في دينكم وما يسوءكم ولا يسرُّكم"[2]. وقال الراغب: المعانتة كالمُعاندة، لكن المعانتة أبلغ؛ لأنَّها مُعاندة فيها خوفٌ وهلاك، ولهذا يُقال: عنَتَ فلانٌ؛ إذا وقع في أمرٍ يُخافُ منه التّلف. والمعانتَةُ أن تتحرَّى مع المُمانَعَةِ المَشَقَّةَ. والعَنِيدُ المُعجَبُ بما عندَهُ، والمُعاند المُباهي بما عندهُ[3]. فـ(العنت) فيه معنى المشقة والتّلف على خلاف (العند) الذي فيه معنى الإصرار والتّباهي.

أفواههم وألسنتهم:

الأفواه جمع الفَم، والفَم أصله فَوْهٌ، يقال: فَوْهٌ وأفواهٌ، ويقال رجل مفوَّهٌ إذا أجاد القول، وأفْوَهُ إذا كان واسعَ الفَم، فثبت أنَّ أصل الفم (فَوْهٌ) بوزن سَوْط، ثم حذفت الهاء تخفيفًا، ثم أقيم (الميم) مقام (الواو)؛ لأنّهما حرفان شفويان[4].

قوله: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾؛ أي لا يكتفون ببغضكم بقلوبهم حتى يصرِّحوا بذلك بأفواههم. وذكر الأفواه دون الألسنة؛ إشعارًا بأنَّ ما تلفَّظُوا به يملأ أفواههم، كما يقال: كلمةٌ تملأ الفم، إذا تشدَّقَ به. وقيل: المعنى لا يتمالكون مع ضبطهم أنفسهم وتحاملهم عليها أن ينفلت من ألسنتهم ما يُعلمُ به بغضُهم للمسلمين[5]. والألسنة تدلُّ على اللّغات أكثر من دلالتها على الكلام؛ قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾ [الشّعراء: 195]، وقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الرّوم: 22].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/318.

(2) جامع البيان: 5/709.

(3) الراغب، المفردات: (عند).

(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/341.

(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/434، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/317، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/76، والقاسمي، محاسن التأويل: 2/394.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩﴾ [آل عمران: 119]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن نهى اللهُ تعالى المؤمنين عن اتّخاذ الكافرين أولياءَ من دونهم، وكشفَ عن حقائق نفوس الكافرين والمنافقين وما يخفونه في صدورهم، عرَّجَ هنا لبيان حالهم معهم، إذ لا ينبغي أن يكون المؤمنُ على هذه الحال وهذه الشَّاكلة من الهَوَان، فقال: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، فأنكر عليهم ذلك بعد أنْ أمَرَهم بترك ولايتهم.

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَلَوۡاْ﴾: جذر الكلمة (خَلَوَ)؛ خَلاَ يَخْلُو خَلاءً فهو خالٍ، وهو يَدُلُّ عَلَى تَعَرِّي الشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ. والخَلاءُ من الأرضِ: قرارٌ خالٍ لا شيء فيه. والرَّجل يخلو خَلْوةً. وخَلَا فلانٌ بفلان: صار معه في خَلَاءٍ، وخَلَا إليه: انتهى إليه في خلوة، وفلانٌ خَلا لفلانٍ؛ أي خادعه[1]..

2) ﴿ٱلۡأَنَامِلَ﴾: جِذر الكلمة هو (نَمَل)؛ أصلُ النّملِ: يدلُّ على تجمُّع شيءٍ، وصِغَرٍ، وخفَّة[2]. والأناملُ جمع: أنمُلة، وهي: طرفُ الإصبَع[3]، والأَنْمُلَةُ: المَفصِل الأعلى الذّي فيه الظُّفُرُ من الإِصْبَع. ورجلٌ مُؤَنمَلُ الأصابع؛ أي: غليظ أطرافها. ويقال له: نَمِلٌ، نعت له في الغِلَظ[4].

(1) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والفيومي، المصباح المُنير: (خلو).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نمل).
(3) الراغب، المفردات: (نمل).
(4) الخليل، العين: (نمل).

3) ﴿ٱلۡغَيۡظِۚ﴾: جِذر الكلمة هو (غَيَظ)؛ يقال: غِظْتُه أَغيظُه غَيظًا، ويَدُلُّ عَلَى كَرْبٍ يَلْحَقُ الْإِنْسَانَ مِنْ غَيْرِهِ، والتَّغَيُّظُ: الاغتياظ. والغيظ الغضب مطلقًا، أو: غضبٌ كامنٌ للعاجز، أو أشدُّه، أو سَوْرَتُه وأوَّلُه، وهو الحرارةُ التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه[1].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ينبِّهُ اللّه المؤمنين لأخذِ الحذر من هؤلاء المنافقين من أهل الكتاب، مبيِّنًا شدَّةَ عداوتِهم للمسلمين، فها هو ذا الدَّليلُ الواضحُ على خطئكم في محبتهم، فأنتم تحبونهم وتحسِنون إليهم، وهم لا يحبُّونكم ويحمِلون لكم العداوةَ والبغضاء، وأنتم تؤمنون بالكتبِ المنزَّلة كلِّها ومنها كتابهم، وهم لا يؤمنون بكتابكم، فكيف تحبُّونهم؟ وإذا لقُوكم قالوا -نِفاقًا-: آمنَّا وصدَّقْنا، وإذا خلا بعضُهم إلى بعض بدا عليهم الغمُّ والحزنُ، فعَضُّوا أطرافَ أصابعِهم من شدَّة الغضب؛ لَما يرون من أُلْفةِ المسلمين واجتماعِ كلمتهم، وإعزازِ الإسلام، وإذلالِهم به. قل لهم -أيها الرسول-: موتوا بشدَّة غضبكم، وهو دعاءٌ عليهم بدوامِ الغيظ، وزيادته بتضاعف قوَّةِ الإسلام وأهلِه، ولا يزالون معذَّبين به حتى يموتوا، فينتقلوا من عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة. إنَّ اللّه مُطَّلِع على ما تخفي الصدور، وسيجازي كُلًّا على ما قَدَّم مِن خير أو شر[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغَوِيُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ الْمُرَكَّبِ فِي قَوْلِهِ: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ﴾:

صَفَاءُ سَرِيرَةِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَقُبْحُ ضَمَائِرِ أَهْلِ الْكُفْرِ

لَمّا كانَ التّعجيب في الآية من مَجْمُوعِ الحَالَيْنِ؛ قال اللّه تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ﴾؛ فالعجبُ من محبَّة المؤمنين إيّاهم في حالِ بُغْضِهم لِلْمُؤْمنين، ولا يُذْكَر بعدَ اسْمِ الإشارةِ جملةٌ في هذا التّركيبِ إلَّا والقصدُ منهُ التَّعجُّبُ مِن مَضْمُون تلكَ الْجُمْلَة.

وجملةُ ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ﴾ حالٌ مِنَ الضَّمير المرفوعِ في قَوْلِه:

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، والزّبيدي، تاج العروس: (غيظ).

(2) السّمرقندي، بحر العلوم: 1/242، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/35، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 65، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 65.

﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾؛ لأن محلَّ التَّعجيب هو مَجْمُوعُ الْحَالَيْنِ[1]، أي: هُمْ لا يُحِبُّونَكُم والحَالُ أنَّكُم تُؤْمِنُون بِكِتَابِهم، وهُم معَ ذَلِكَ يُبْغِضُونَكُم، فَمَا بَالُكُم تُحِبّونَهُم، وهُم لَا يُؤْمِنُونَ بِشَيْءٍ مِن كِتَابِكُم.

وفي هذا تَوْبِيخٌ شديد بأنّهم في بَاطِلِهم أصلَبُ مِنْكُم في حَقِّكم، ونظيره قول اللّه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾ [النساء: 104]، فقوله: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ مجازٌ مرسَلٌ مركَّبٌ؛ إذْ هي جملةٌ خبريَّةٌ أُريدَ بها التَّعجيبُ مع التَّوبيخِ والتَّغليظِ، أو التَّعجيب والتَّنبيه.

وذكر ابنُ عَاشُورٍ أنّه ليس في هذا التّعجيب شيءٌ مِنَ التّغليظ أوِ التّوبيخ، ولكنّه إيقَاظٌ وتنبيهٌ، ولذلك عَقَّبَهُ بقوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾؛ فإنَّه بمنزلةِ العذر لِلْمُؤْمنين في اسْتِبْطَانِهم أهلَ الكتابِ بعدَ إيمان المؤمنين؛ لأنّ المؤمنين لمّا آمنوا بجَمِيع رُسُل اللّه وكتُبِهم، كانُوا يَنْسِبُون أهلَ الكتاب إلى هُدًى ذهَبَ زَمَانُه، وأدخلوا فيه التَّحريف، بخِلَافِ أهلِ الكتاب؛ إذ كانوا يَرْمُقُون المسلمين بعَيْنِ الازْدِرَاءِ والضّلالة، واتّبَاعِ مَا لَيْسَ بحَقٍّ[2].

بَلَاغَةُ الِاكْتِفَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾:

شَــأْنُ الْمَحَبَّـةِ أَنْ تَـجْـلِـبَ الْمَحَبّةَ، إلَّا إِذَا اخْتَلَفَتِ الْمَقَاصِدُ وَالْأَخْلَاقُ

قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾؛ استئناف ابتدائيٌّ، قُصِدَ منه المُقابلةُ بين خُلُقِ الفريقَيْنِ، فالمؤمنون يحبّون أهلَ الكتاب، وأهلُ الكتاب يُبْغِضُونَهُم، والشّأنُ أنَّ المحبّة تَجْلِبُ المحبّة إلَّا إذا اخْتَلَفَتِ المقاصدُ والأخلاق[3]، وفيه طباقُ سَلْبٍ بين ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ و﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾؛ أي تؤمنون بكتابكم وبما مضى من الكُتُب قبل ذلكَ، وحُذف موقفُهم من كتاب المسلمين، والتَّقدير: تؤمنون بالكتاب كلّه، وهم يكفرون بكتابكم، فكنتُم أحقَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/65.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/65 - 66.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/65.

بالبَغْضَاءِ لَهُمْ مِنْهُم لَكم[1]، ولم يُذكَر كُفرهم بالكتابِ لبلوغِهِ في الشَّناعةِ مبلغًا عظيمًا.

دِلَالَةُ قَوْلِهِ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ﴾:

في تَخصِيصِ الْخِطَابِ مَزِيدُ اعْتِنَاءٍ وَتَنْبِيهٍ

(هَا) من قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾ للتَّنْبِيهِ، و(أَنْتُمْ) مبتدأ، وجملة ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ خبرُه، و(أُولاءِ) يحتَمِلُ أن يكون منادى، أو يكون في محلِّ نصبٍ على الاختصاص[2]، وهما وجهان متقاربَانِ دِلاليًّا، وفيهما مزيدُ عنايةٍ وتنبيهٍ لما سيُذْكَرُ بعدُ.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾ **مِنْ قَوْلِهِ:** ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾:

اتِّفَاقُ كُتُبِ اللهِ تَعَالَى فِي أُصُولِ الْعَقَائِدِ وَكُلِّيَّاتِ الدِّيَانَةِ

اللَّام في ﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾ من قوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ لِلْجِنْسِ، وأُكِّد بِصِيغَةِ الْمُفْرَدِ (كلّه) مُرَاعَاةً لِلَفْظِهِ ﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾[3].

وذُكِرتِ الكُتُبُ في قوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ بِصِيغَةِ المُفرد؛ للدِّلالةِ على تَوافُقِهَا واتِّحادِ مَصْدَرِهَا، وأنّها متناسبةٌ منسجمَةٌ في مقاصدِهَا الرَّئِيسَة الكُلّيَّة؛ من التّوحيدِ والإيمانِ وأركانه، وإسلام الوجه للّهِ سبحانه، فمَن آمنَ بواحدٍ مِنْ هذه الكُتبِ؛ لَزِمَهُ أن يُؤْمِنَ بجَمِيعِهَا[4].

وقولهُ تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ أُوِّلَ على إضمار مبتدأ، فتؤولُ الجملةُ اسميّةً، أي: ولا يُحِبُّونكم وأنتم تُؤْمِنُونَ بالكِتَاب كُلِّه[5].

بَلَاغَةُ التَّوْرِيَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾:

الْمُرَاوَغَةُ فِي قَضَايَا الْإِيمَانِ كُفْرٌ مُلَوَّثٌ بِخُبْثِ النُّفُوسِ

وقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾؛ هذا الإخبار جَرى على مُنَازَعَتِهم في التَّوْرِيَة والسّتر والخُبث؛ إذْ لَمْ يَذْكُرُوا متعلّق الإيمان، ولكنّهم يُوهِمُونَ المؤمنين بهذا اللّفظ أنّهم مؤمنُونَ الإيمانَ المعهودَ عند أهل الإسلَام.

---

(1) النّوَيري، نهاية الأرب: 16/381.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/255.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/66.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/435، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/319، والسّمين، الدرّ المصون: 3/372.

(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/319.

وقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ﴾؛ أي منافقو اليهود قالُوا نفاقًا: ﴿ءَامَنَّا﴾ أي: برسالة مُحَمَّد، وهذا المعنى القريب إلى أذهانِ السّامعين، فيفهمون منهم أنّهم قد آمنوا فعلًا، والمعنى البعيدُ وهو قصدهم والمُراد عندهم هنا: (آمنّا بكتابنا ولم نؤمن بكتابكم)، ويرشّح هذه التّورية قوله: ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾؛ أي: "عضُّوا لأجل غَمِّهم منكم أطرافَ الأصابع مِن شدَّة الغَضَب؛ أي: فَإذَا رَجَعُوا إلى بَعْضِهم أَظْهَرُوا شدّة العداوَةِ على المُؤْمِنِينَ حتَّى تَبْلُغَ تِلْكَ الشِّدَّةُ إلى عضِّ الأنامل"[1].

ويحتَمِلُ أن التَّوريَةَ في قولِه: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾، وأنَّهم قالوا ذلك مُدَّعين أنَّهم يُؤمنونَ الإيمانَ الكاملَ، بدليلِ حذفِ متعلّق الفعل المؤذِن بالعموم، وأنَّ مقالتَهم هذه جاريةٌ على طريقتِهم في الكذبِ والتَّضليلِ.

ادِّعَــاءُ الْمُنَـافِـقِ الْإِيمَانَ وَرُكُونُهُ إِلَى الْكُفْرِ وَأَهْلِهِ سِمَةٌ مُتَأَصِّلَةٌ فِي الْمُنَافِقِينَ

دِلَالَةُ جِنَاسِ الِاشْتِقَاقِ بَيْنَ ﴿وَتُؤْمِنُونَ﴾ و﴿ءَامَنَّا﴾:

قوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ﴾ عائدةٌ على المؤمنينَ أَنْفُسِهم، وَهُوَ فعلٌ مُضارِعٌ يُفِيدُ معنى التّجدُّدِ والاِسْتِمْرَارِ، وهُوَ مُنَاسِبٌ لِحَالِ الْمُؤْمِنِينَ، وقولُه: ﴿ءَامَنَّا﴾ فعلٌ مَاضٍ راجعٌ إِلَى الكَافِرِين أَوِ المُنافقين.

وبَيْنَ ﴿وَتُؤْمِنُونَ﴾ و﴿ءَامَنَّا﴾ جِنَاسُ الاشْتِقَاقِ، وفائدتُهُ: بَيَانُ أُسْلُوبِهم في تَقْلِيد المؤمنين والتّظاهُرِ بأنّهُم مِنْهُمْ.

كَيْدُ الْمُنَافِقِينَ فِي مَجَالِسِهِمْ بِأَهْلِ الْإِيمَانِ

دِلَالَةُ الْمَجَازِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟﴾:

قولُه: ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟﴾، أي: خَلَا بعضُهم بِبَعْضٍ وانْفَرَدُوا دُونكم، والمقصودُ: خَلَتْ مَجَالِسُهُمْ منكم، فَأَسْنَدَ الخُلُوَّ إليهم على سَبيلِ المَجَازِ[2]، وَفَائِدَتُهُ: الكَشْفُ عمّا آلَ بِهِمُ الْحَالُ، أنّهم يَعَضُّون الأنامل

(1) الجاوي البنتني، مراح لبيد: 1/149.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/320.

مِنَ الغَيْظِ على أهل الإيمان مَا دَامُوا لَيسَ مَعَهُمْ، والتَّعبيرُ بالمجازِ ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ﴾ أخصرُ من لو قيل: خلت مجالسُهم مِنكُم.

بَلَاغَةُ الْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ﴾:

إِذَا اضْطَرَبَ بَاطِنُ الْإِنْسَانِ صَدَرَ عَنْهُ مَا يُنَاسِبُ اهْتِيَاجَهُ

قوله: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾، أي: نفاقًا وتغريرًا أو توريَةً وتعْمِيةً، ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ﴾ أي: خلا بعضُهم بِبَعْضٍ، ﴿عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ﴾ أي: أطرافَ الأصابعِ، ﴿مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ﴾؛ أي: بسببِ شدّة الغضبِ لِمَا يَرَوْنَ مِن ائتِلَافِ المُؤْمِنِين واجتماعِ كَلِمَتِهم[1]، فـ ﴿مِنَ﴾ سببيَّةٌ.

والعَضُّ: شدُّ الشَّيءِ بالأسنَانِ، وعضُّ الأناملِ: كنايةٌ عَنْ شدّة الغَيْظِ والتّحسّر، وإنْ لَم يَكُنْ عضُّ الأناملِ واقعًا حسًّا، لأنَّ المعنى اللَّازمَ في الكنايةِ لا يَتعيَّنُ قصدُهُ، فالكناية بعضِّ الأنامل عن شدَّة الغَيْظِ والتحسُّرِ هو بِحَسَب المُتعَارَفِ، وذلك أنَّ الإنسانَ إذا اضْطَرَب باطنُه مِنَ الانْفِعَالِ؛ صَدَرَتْ عَنْهُ أفعالٌ تُنَاسِبُ ذلكَ الانفعالَ[2]، فهي هيئةٌ في بَدَنِ الإِنْسَان تَتْبَعُ هَيْئَةَ النّفسِ الغاضِبَةِ، كما أنّ ضَرْبَ اليدِ علَى الْيَدِ يَتْبَعُ هيئَةَ النّفسِ المتلهّفة على فَائِتٍ قَريبِ الفَوْتِ، وكما أنَّ قَرْعِ السِّنّ هيئة تَتْبَع هيئة النّفس النَّادمة، إلى غير ذلك من عَدِّ الحصَى والخطِّ في الأرضِ لِلْمَهْمُومِ ونَحْوِه[3].

وفي التَّعبير بالكناية دلالة على الصِّفةِ المرادِ إثباتُها، مقرونةً بدليلِهَا، مصوَّرةً بصورةٍ يستحضِرُهَا الفكرُ والخيالُ.

بَرَاعَةُ التّمْثِيلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ﴾:

امْتِلَاءُ بَوَاطِنِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ بِالْحِقْدِ وَالْبُغْضِ وَالْحَسَدِ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ

يَحْتَمِلُ أن يكُونَ قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ﴾ من مجاز التَّمثيلِ، عُبِّر بذلك عن شدَّة الغَيْظِ، والتَّأسُّف على ما يَفُوتُهم من إِذايَة المؤمنينَ.

(1) الشّربيني، السّراج المُنير: 1/242.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/66.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/320.

ونبَّه تعالى بهذهِ الآية على أنَّ مَن كان بهذه الأوصافِ مِنْ بُغْضِ المُؤْمِنين، والكُفْرِ بالقُرآن، والرّياءِ بِإِظْهَارِ ما لا تَنْطَوِي عَلَيْهِ بَواطِنُهُم، حريٌّ بِأَنْ لا يُتَّخذ صَدِيقًا(1).

دِلَالَةُ الْأَمْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مُوتُواْ بِغَيْظِكُمۡۗ﴾:

مِنْ سُبُلِ جِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ جِهَادُهُمْ بِالْكَلِمَةِ

ظاهرُ قولِه تعالى: ﴿قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ﴾ أنّ النَّبيَّ ﷺ أُمِرَ بأَنْ يقولَ لَهُمْ ذَلِكَ، و﴿مُوتُواْ﴾ صيغةُ أمرٍ، ومعناها الدُّعاء؛ فقد أَذِنَ اللّه تعالَى لِنَبِيِّه ﷺ أَنْ يَدْعُوَ عليهم لَمَّا يَئِسَ مِن إِيمَانِهِم، ولَهُ أَنْ يَدْعُوَ مُوَاجَهَةً.

ويحتَمِلُ أنَّ المأمورَ هو النَّبيُّ ﷺ وأُمَّتُهُ أَنْ يُوَاجِهُوهُمْ بِهَذا، وَعَلَى هَذا الوجهِ؛ فالأمر يُرادُ به التَّقْرِيعُ والتَّوبِيخُ، كما أفادَهُ ابنُ عطيَّة(2).

ويحتَمِلُ أن يكون ﴿قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ﴾ في صورة الأمر، ومعناه الخبر(3)، ويكون المرادُ به التَّوبيخ والتَّقريع أيضًا.

وحملُ الخطاب في ﴿قُلۡ﴾ على إرادة النَّبيِّ ﷺ جارٍ على الأصلِ في إرادةِ التَّعيينِ بالخطاب، وإذا حُمِلَ على أنَّ المراد به هو وأُمَّتُهُ؛ كان الخطاب خارجًا عن الأصلِ في إرادةِ التَّعيينِ قصدًا إلى العُمُوم.

دِلَالَةُ الْبَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ﴾:

قُوَّةُ الْإِسْلَامِ وَعِزَّةُ أَهْلِهِ مِنْ أَكْبَرِ مَا يَغِيظُ أَعْدَاءَ الْحَقِّ

الْبَاءُ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِغَيۡظِكُمۡۗ﴾ دالَّةٌ على الْحَالِ، أي: تَمُوتُونَ وَمَعَكُم الغَيْظُ، وهو على جهة الذَّمِّ على قَبِيحِ عَمَلِهِم(4).

وقال الزَّمَخْشَرِيُّ: هُوَ دعاءٌ عَلَيْهِمْ بأن يَزْدَادَ غَيْظُهُم حتَّى يَهْلَكُوا به، والمرادُ بِزِيَادَةِ الغَيْظ: مَا يَغِيظُهم مِنْ قُوَّةِ الْإِسْلَامِ وعِزَّةِ أَهْلِهِ، وما لهم في ذلك مِنَ الذُّلِّ والخِزْيِ والتَّبارِ(5)، ويَكُونُ مَا قالَهُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/321.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/496.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/321.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/321.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/434.

الزَّمخْشَرِيُّ يُشْبِهُ قولَهم: مُتْ بِدَائِكَ، أي: أَبْقَى اللهُ داءَكَ حتَّى تموتَ بِهِ. وأوردَ أبو حيَّانَ على هذا أنَّه يمتنِعُ أن يكون أَمْرًا جازمًا، لأنّه لو كان أمرًا؛ لماتُوا مِن فَوْرِهِم، ولَيْسَ هُوَ بِدُعَاءٍ؛ لأنّه لو أمَرَ اللهُ تعالَى نبيَّهُ ﷺ بالدُّعاء لَمَاتُوا جميعُهُم على هذه الصِّفة؛ إذْ دَعْوَتُهُ ﷺ لا تُرَدُّ، والواقعُ أنَّه قد آمَنَ مِنْهُمْ بَعْدَ هذهِ الْآيَةِ كثيرٌ[1]، فدلَّ هذا على أنَّ الكلام سيقَ مساقَ الذَّمِّ والتَّوبيخِ على عملهم القبيح.

دِلَالَةُ الْفِعْلِ ﴿قُلْ﴾ فِي: ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ﴾:

يَحْتَمِلُ أَنْ لا يُرادَ بقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ﴾ الأمر بالقولِ المسموعِ، وإنَّما المرادُ: حدِّثْ نفسَكَ بذلك؛ والقصدُ منه: الأمرُ بطِيبِ النَّفْسِ وقوَّةِ الرَّجاءِ والاستبشار بوعدِ اللّٰه تعالى أن يهلكَ أعداءُ الإِسْلَامِ غيظًا بِإِعْزَازِ الْإِسْلَامِ وإِذْلَالِهِم بِهِ[2].

الِاسْتِبْشَارُ بِوَعْدِ اللهِ تَعَالَى وَرَجَاءُ نَصْرِهِ مِمَّا تَطِيبُ بِهِ النَّفْسُ

خُرُوجُ الْخِطَابِ عَنْ إِرَادَةِ الْمُعَيَّنِينَ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ﴾:

قوله: ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ﴾ لا يُرادُ به مُخَاطَبُون مُعَيَّنون؛ لأنَّه دعاءٌ عَلَى الذين يعضُّون الأنامل مِنَ الغَيْظِ، وهُم يَفْعَلُونَ ذَلِكَ إِذَا خَلَوْا، وقد لا يتأتَّى مُشَافَهَتُهُم بالدُّعاء على التَّعيين، ولكنّهُ كلامٌ قُصِدَ إِسْمَاعُهُ لِكلّ مَن يَعْلَم من نَفْسِهِ الاتِّصافَ بالغَيْظِ عَلَى الْمُسْلِمِين، فهو مِنَ الْخِطَابِ الذي يُقْصَدُ بِهِ عُمُومُ كلِّ مُخاطَبٍ كالواردِ في قولِه: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ﴾ [السجدة: 12][3]، فهو وإن وردَ في مَجْمُوعَةٍ مَخْصُوصَةٍ كانَتْ عَلَى هَذهِ الحالِ علَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إلَّا أنَّ المرادَ كلّ قومٍ يتّصفُونَ بِذَلِكَ علَى تطاوُلِ الزَّمَنِ وتتابُعِه.

مِنْ جَلَالِ خِطَابِ الْقُرآنِ الْكَرِيمِ وَجَمَالِهِ صَلَاحِيَتُهُ لِكُلِّ زَمَانٍ يُقْرَأُ فِيهِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/321.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/407.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/67.

نُكْتَةُ التَّكْرَارِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ﴾ و﴿بِغَيۡظِكُمۡۗ﴾:

التَّـكْـرَارُ يَـشُدُّ الـذِّهْـنَ إِلَى الِاهْـتِـمَـامِ بِالْمَعَانِي

تكرّرت مادَّةُ (الغيظ) في هذهِ الآيَةِ الكَريمَةِ؛ اهْتِمَامًا بكشف الحالِ السَّيِّئَةِ التي اعْتَرَتْ هَؤُلاء، فظَهَرَتْ في أَفْعَالِهِم وحَرَكَاتِهِم وتَصرّفَاتِهِم وأَقْوَالِهِم، وفَضْحًا لِمَا طَفَحَ مِمَّا في صُدُورِهِم مِنَ الغَيْظِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، فَقَدْ بَدَا وظَهَرَ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ، ومَا تُخْفِي صُدُورُهُم أَكْبَرُ وأعظَمُ.

دِلَالَةُ الْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

سَعَةُ عِلْمِ اللهِ تَعَالَى وَإِحَاطَتُهُ بِظَوَاهِرِ الْعَبْدِ وَبَوَاطِنِهِ

(الذّات) لَفْظٌ مُشْتَرَكٌ، والمرادُ هنا: تأنيث (ذِي) الذي بِمَعْنَى صَاحِبٍ، فأصلهُ هُنَا: عَلِيمٌ بِالْمُضْمَرَاتِ ذَوَاتِ الصُّدُور، ثمَّ حُذِفَ الموصوفُ، وأُقِيمَت الصِّفةُ مُقَامَهُ.

ومَعْنَى صَاحِبَةِ الصُّدُور: الْمُلازمةُ لَهُ، التي لا تنفكُّ عنه؛ كما تقول: فلان صاحبُ فلان، ومنهُ: أصحابُ الجنَّةِ وأصحَابُ النَّارِ[1]، فَهِيَ كِنَايَةٌ عَنْ مَوْصُوفٍ، وَهِيَ الأَسْرَارُ التِي مَنْشَؤُها ومحلُّها فِيهِ.

بَلَاغَةُ التَّذْيِيلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

عِلْمُ اللهِ تَعَالَى بِالسِّرِّ وَأَخْفَى

قَوْلُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ يَجُوزُ أَن يَكُونَ من جُمْلَةِ مَقُولِ القولِ، والمعنى: أَخْبِرْهُم بِمَا يُسِرُّونه من عَضِّهِمُ الأنامِلَ غيظًا إذا خَلَوْا، وقُل لَهُمْ: إنَّ اللهَ عليمٌ بِمَا هُوَ أَخْفَى مِمَّا تُسِرّونَهُ بَيْنَكُم، وهو مُضْمَرَاتُ الصُّدُور، فلا تظنُّوا أنَّ شيئًا من أسراركم يَخْفَى عَلَيْه.

ويَحْتَمِلُ أن لا يكون قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ مِنْ جُمْلَةِ مَقُولِ القول، فيَكُونُ تَذْيِيلًا لِمَا قَبْلَهُ من ذِكْرِ طبَائع الكُفّار، وما يُسِرّونه وما يُعلنونه من الغلّ والحقد على المُسلمين، فهو سُبْحَانَهُ يَعْلَم السِّرّ وأَخْفَى وما تُكِنّهُ صدُورُهم، والمعنَى: قُل لَهُمْ ذَلِك، ولا تَتَعَجَّبْ من

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/322.

إِطْلَاعِي إيَّاك على مَا يُسِرُّون، فإنّي أعلَمُ مَا هُو أَخْفَى مِن ذلك، وهو مُضْمَرَاتُ صُدُورهم لَمْ يُظْهِرُوه بألسِنَتِهم[1]، فَالْجُمْلَةُ تَذْيِيلٌ لقولِه: ﴿عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ﴾، ومَا بَيْنَهُمَا كالِاعْتِرَاضِ[2]، وهو تذييلٌ جارٍ مجرى المثَلِ؛ لاستقلالِهِ بالإفادَةِ وعدمِ افتقَارِهِ إلى ما قبلَهُ في الكشفِ عن أصلِ معناهُ.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الغيظ والغضب:

ميَّز ابن دريد بين (الغيظ) و(الغضب)؛ فقال: الغيظ أشدُّ من الغضب. وقال أيضًا: (الغيظ) سَوْرَةُ الغضب وأوّله، و(الغيظ) هو الكمين، و(الغضب) هو الظاهر. أو (الغضب) للقادر و(الغيظ) للعاجز. (غاظه) يغيظه غيظًا، وهو غائظ، وذلك مغيظ[3]. فقال الله في الآية: ﴿مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ﴾؛ لبيان عجزهم، وعادةً عضُّ الأنامل يكون من الغيظ لا من الغضب، وفيه بشارة للمؤمنين أنَّ هؤلاء الذين قصدوا ضررَكم لا يضرُّون إلا أنفسهم، وأنَّ غيظهم لا يقدرون على تنفيذه[4]، ولأن الغضب يكون مصحوبًا بالقوَّة، ونفادِ الصَّبرِ والبطش.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/321 - 322.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/67.
(3) الزبيدي، تاج العروس: (غيظ).
(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 65.

﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ١٢٠﴾ [آل عمران: 120]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الآيةُ استمرار لبيانِ صفات وأحوال أولئك الذين نهى اللّٰه المؤمنين، أن يتَّخذوهم أولياءَ من دون المؤمنين، فبعدَ أنْ كشفَ خبايا نفوسِهم، وما يخفونه في صدورهم من الحِقد على أهلِ الإيمان، قدَّم هُنا صورةً من المقابلة بين الحالين؛ حال المؤمنين تُجاههم، وحالهم تُجاه المؤمنين، فقال: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾؛ لتُختَمَ الآيةُ بدلائل إحاطةِ اللّٰه بأحوالِ النَّاس.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَمۡسَسۡكُمۡ﴾: جِذر الكلمة هو (مَسَس)؛ والمسُّ وضعُ اليد على الجسم كاللَّمس، وهو في الأصل: جسُّ الشَّيء باليد، والمسُّ يقال فيما يكونُ معه إدراكٌ بحاسَّة اللَّمس، ويُستخدم للخير أو للشرِّ، ويُكنَّى به عنِ النِّكاح والجنون. ويقال: لا مِساس ولا مَساس، أَي لا أَمَسُّ ولا أُمسُّ. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾ [البقرة: 275]، أَي من الجنون، يقال: به مَسٌّ، وقد مُسَّ فهو ممسوس. وقوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ٤٨﴾ [القمر: 48]، جَعَل للمسِّ مَذَاقًا؛ كما يقال: كيف وجدتَ طعم الضرب؟ ويقال: وجدت مسَّ الحُمَّى، أَي: أَوَّل ما نالني منها. ويقال: مسَّه الكبر والمرض، ومسَّه العذاب، ومسَّه بالسّوط.[1].

2) ﴿تَسُؤۡهُمۡ﴾: جِذر الكلمة هو (سَوَأ)؛ وساء الشّيءُ: قَبُح فهو سيِّءٌ، والسُّوء: اسم جامعٌ للآفات والدَّاء، ونعتٌ لكلِّ شيء رديءٍ. وتقول: ساء ما فعل فلان صنيعًا. والمعنى المحوريُّ: عيبٌ أو قبحٌ أو فسادٌ أو مرضٌ يخالط ظاهرَ الشيء أو باطنَه، كالبَرَص والمرَض، وفسادِ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المُفردات، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، وابن سيده، المُحكم، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: (مسس).

العمل، ومن ذلك: السَوْأَةُ: فَرْجُ الرجل أو المرأة؛ لأنَّ الفطر السليمةَ تستقبحُ ظهورَها، قال تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾ [طه: 121]، و(سَاءَهُ) ضِدُّ سَرَّهُ. وَقُرِئَ: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ [الفتح: 6]، بِالضَّمِّ[1]؛ أَي الْهَزِيمَةُ وَالشَّرُّ، وقَوْله تَعَالَى: ﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: 22]؛ أي مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ. وكلُّ ما ورد في القرآن الكريم من: (ساء)، و(ساءت) فهي بمعنى (قبُح)، وكذلك (أَسَاءَ)، و(أسأتم) و(أساءوا) هنَّ بمعنى ارتكابِ القبيح من الأعمال دينيًّا. ويتلوَّنُ المعنى قليلًا لكن في نطاق القُبْح، مثل: ﴿تَسُؤۡكُمۡ﴾ ﴿تَسُؤۡهُمۡ﴾ بمعنى: تَشِنْكم، تَحْزُنْهم، و﴿لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ [الإسراء: 7]، أي: يَشِينونها بما يوقعون بكم، و﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ [هود: 77، العنكبوت: 33] حَرِج صدرُ لوطٍ عليه السلام وتوجَّسَ العارَ والمهانة؛ خشيةَ ارتكابِ قومه الفاحشةَ مع ضيوفه[2].

3) ﴿كَيۡدُهُمۡ﴾: جِذر الكلمة هو (كَيَد)؛ الكَيْد: في اللُّغة يدلُّ على معالجةٍ لشيءٍ بشدَّة، والكَيْدُ من المكيدة، وهو ضربٌ منَ الاحتيال، وقد يكونُ مذمومًا، وقد يكونُ ممدوحًا، ويُستعملُ في المذموم أكثر. فالذي يَكيدُ يدبِّر ويمكُرُ ولا يُظْهِرُ كيدَه حتى يأتيَ الوقتُ، ويتمُّ التدبيرُ على ما أراد، ويكونُ عجيبًا شديدًا، وكلُّ ما في القرآن من الكَيْدِ فهو بمعنى التدبيرِ المحكمِ الشديدِ وتنفيذِه[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ومن تَناهِي عداوةِ هؤلاء المنافقين من أهلِ الكتاب، وحسدِهم لكم، وسوءِ طويَّتِهم تُجاهَكم أنَّكم - أيها المؤمنون - إن نَزَل بكم أمرٌ حسنٌ من نصرٍ وغنيمةٍ ظهرَتْ عليهم الكآبةُ والحزنُ، فيحسدونَكم على أدنى ما نالَكم من خيرٍ ومنفعةٍ، وإن وقعَ بكم مكروهٌ من هزيمةٍ أو نقصٍ في الأموال والأنفس والثمراتِ فَرِحوا وشَمِتوا بما أصابَكم، وإن تصبروا على ما أصابَكم وعلى عداوتِهم، وتتقوا اللّٰه فيما أمركم به ونهاكم عنه، ومنه عدمُ اتِّخاذهم أولياءَ، لا يضرُّكم أذى مكرِهم وما يدبِّرونه لكم من المكايد؛ بفضل اللّٰه وحفظِه الموعودِ للصَّابرين والمتَّقين. واللّٰه محيطٌ بجميعِ ما يعملُ هؤلاءِ الكفارُ من الفساد، واقفٌ على دقائقه وغالبٌ على أمره، وسيجازيهم على ذلك[4].

---

(1) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو، ينظر: ابن الجزري، النشر: 2/280.

(2) الخليل، العين، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، والرّازي، مختار الصّحاح، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سوأ).

(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (كيد).

(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/319، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/35، والموصلّي، أولى ما قيل: 2/531، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 65.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مَحَبَّةُ وُقُوعِ الضَّرَرِ عَلَى المُؤْمِنِينَ شَأْنُ المُنَافِقِينَ

دِلَالَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ﴾:

زاد اللّه تعالى كشفًا لما في صُدُورهم بقوله: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ﴾ أي: تُصِبكُم حسنةٌ، والمسُّ: الإصابة، ولا يختصُّ أحدُهُما بالخَيْرِ، والآخر بالشَّرِّ، فالتَّعبير بأحَدِهما في جانب الحَسَنَةِ، وبالآخرِ في جانِبِ السَّيِّئَة: تفنُّنٌ في التَّعبير[1].

والمسّ مستعارٌ لِمَعْنَى الإصابة[2]، فكان المعنى واحدًا، ألَا ترَى إلى قوله: ﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ﴾ [التّوبة: 50]، وقوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النّساء: 79]، وقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١﴾ [المعارج: 20 - 21][3].

وقال ابنُ عَطِيَّة: "ذكر اللّه تعالى المسَّ في الحسَنَةِ لِيُبَيِّن أنّ بأدْنَى طُرُوءِ الحسنة تقعُ المساءَةُ بِنُفُوس هؤلاء المُبْغِضين، ثُمَّ عادَلَ ذلك في السّيِّئَةِ بِلَفْظِ الإصابَةِ، وهِيَ عِبارَةٌ عَنِ التّمكُّن؛ لأنّ الشّيء المُصِيبَ لِشَيْءٍ هو مُتَمَكِّن مِنْهُ أو فيه، فدلّ هذا النّوعُ البَلِيغُ على شِدَّةِ العداوَةِ؛ إذْ هُوَ حِقْدٌ لا يَذْهَبُ عندَ نُزُول الشّدائد، بَل يَفْرَحُون بِنُزُول الشّدائد بالمُؤْمنين"[4].

وذكر أَبُو حَيَّان أنّ في قوله: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ﴾ استعارةً، فشُبِّه حصولُهما بالمسِّ والإصابَة، وليس هُوَ من باب تشبيه المَعْقُولِ بِالمَحْسُوسِ، بل هو من بابِ الِاسْتِعَارَةِ التَّصْرِيحِيَّة[5]؛ إذْ حُذِفَ المُشَبَّهانِ وصُرِّحَ بالمشبَّه بهما.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/68.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/35، والزّمخشريّ، الكشّاف: 1/407.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/407.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/496.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 3/324.

نُكْتَةُ الاسْتِعَارَةِ فِي التَّعْبِيرِ بِالْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ:

شِدَّةُ حَنَقِ أَهْلِ الْبَاطِلِ عَلَى أَهْلِ الْحَقِّ

(الْحَسَنَةُ) وَ(السَّيِّئَة) في قوله تعالى: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ﴾ يُرادُ بهما: ما يَحْسُنُ عِنْدَ صَاحِبِها أَوْ يَسُوءُ، وليَسَ الْمُرَاد بِهِمَا هنا المعهودَ في خطاب الشَّرعِ[1]، فَاسْتُعِيرَتَا لِلدِّلالةِ على النَّصْرِ أَوِ الْخِذْلَانِ ونحوهِمَا؛ تنبيهًا على أثرِهِمَا، وأنَّ منشأَ كَراهةِ أهل الباطِلِ إنَّما هو حصولُ الحُسْنِ في نفُوس المؤمنِينَ أيًّا كان سببَه.

دِلَالَةُ الْمُقَابَلَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ﴾:

ازْدِيَادُ فَرَحِ الْمُبْطِلِينَ بِازْدِيَادِ الضَّرَرِ الْوَاقِعِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ

الْحَسَنَةُ في قوله تعالى: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ﴾: مَا يَسُرُّ مِن رخَاءٍ وخِصْبٍ ونُصْرَةٍ وغَنِيمَةٍ، ونَحْوِ ذلكَ مِنَ المنافِعِ، والسَّيِّئَةُ ضِدّ ذلك[2]، وقد بيّن اللّه تعالى بِذَلِكَ فَرْطَ عداوتِهِم فَيَسُوؤُهُم مَا نال المؤمنين مِنَ الخَيرِ، ويَفْرَحُون بِمَا يُصِيبُهم مِنَ الشِّدَّة[3]، وقَابَلَ الْحَسَنَةَ بالسَّيِّئَة، والمساءَةَ بالفَرَحِ؛ وهي مقابلةٌ بَدِيعَةٌ.

وعُبِّر في جانب السَّيِّئَةِ بالإصابة ﴿وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ﴾، ولم يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ بـ: (تَمْسَسْكُمْ)؛ لِيَكْشِفَ عَن عَمِيقِ غِلّ نُفُوسِهِم؛ فَإِنّهم يُسَاؤُونَ مَعَ أَدْنَى حَسَنةٍ وأقلِّهَا، ويَفْرحُون مع مَا يُصِيبُهُم مِن ضُرٍّ، ويَزْدَادُ فَرَحُهُم بذَلِك.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ الْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿حَسَنَةٞ﴾ و﴿سَيِّئَةٞ﴾ في قولِهِ تعَالى: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/68.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/407.
(3) أبو حيان، البحر المُحيط: 3/322.

مِــنْ طُــرُقِ التَّفْسِيرِ عِنْدَ السَّلَفِ تَفْسِيرُ الأَلْفَاظِ بِالْمِثَالِ الْمُنْدَرِجِ تَحْتَ عُمُومِهَا

حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا﴾ لإفادةِ العموم؛ لأنَّهما نَكِرَتانِ في سياق الشّرط، والعمومُ ههنا بدَليٌّ لا شموليٌّ؛ لتعذُّر اجتماع كلِّ حسنةٍ في فردٍ أو أفرادٍ، ومثلُ ذلك يُقال في السَّيِّئَةِ.

ولَمْ تَرِد اللَّفظتانِ معرفَتَيْنِ؛ لئَلّا يُوهِمَ ذلك التَّعيينَ بِالْعَهْدِ، أو يوهِمَ العمومَ الشّموليَّ بحَمْلِ اللّامِ على الجِنْس.

وقد تنوّعت عباراتُ المفسّرين في مَعْنَى الحَسَنَةِ والسّيّئة؛ فقال قتادةُ وغيرُهُ: الحسنَةُ بِظُهُورِكُم عَلَى العَدُوّ، والغَنِيمَةِ مِنْهُم، والتّتابع بالدُّخول في دينِكم، وخِصْبِ معَاشِكم، والسّيئةُ بإخْفَاقِ سَرِيَّةٍ مِنْكم، أو إصابةِ عُدُوٍّ مِنْكُم، أو اختلافِ بينِكُم، وقال الْحَسَنُ: الحسنةُ الأُلْفَةُ واجتمَاعُ الكلِمَةِ، والسّيِّئَةُ إصابَةُ العَدُوّ واخْتِلَافُ الْكَلِمَةِ، وقال ابنُ قُتَيْبَةَ: الحسنَةُ النِّعمة، والسّيئة المُصيبَةُ، وهذه الأقوالُ هِيَ عَلَى سَبِيلِ التّمثيلِ لا التّعيين[1]، كما هو المَعْرُوف من طَريقَة السَّلف في التَّفسير؛ فإنَّهم يُفَسِّرُون بالمثالِ في كثيرٍ من آيِ الْقُرْآنِ الْكَرِيم.

دِلَالَةُ نَفْيِ الضُّرِّ دُونَ نَفْيِ الْأَذَى فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ﴾:

إِذَا انْتَفَى الضَّرَرُ الأَعْظَمُ؛ كَانَ انْتِفَاءُ الأَخَفِّ مِنْهُ هَيِّنًا

أَرْشَدَ اللّه تعالَى الْمُؤْمنينَ في قوله: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ إلى كَيْفِيَّة تلَقِّي أَذى العَدُوّ؛ بِأَنْ يَتَلَقَّوْهُ بالصَّبْرِ والحذَرِ، وعُبِّرَ عَنِ الحذَرِ بالاتِّقاء، أي: اتِّقاءِ كَيْدِهِم وخِداعِهم، وقوله: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ﴾، أي: بِذَلِكَ يَنْتَفِي الضُّرُّ كلّه؛ لأنّه أثبت في أَوَّل الآيِ أَنَّهُم لا يَضُرُّون المؤمنِين إلّا أذًى، وَالأَذَى: ضُرٌّ خَفيف، فلمّا انتفى الضّرُّ الأعظَمُ الذي يُحْتَاجُ في دَفْعِه إلى شَدِيد مُقَاوَمَةٍ؛ مِنْ قِتَالٍ وحِرَاسَةٍ وإنْفَاقٍ؛ كانَ انْتِفَاءُ ما بَقِيَ مِنَ الضُّرّ هيّنًا، وذلكَ بالصّبر عَلَى الْأَذَى، وقِلَّة الاكْتِرَاثِ بِهِ، معَ الحَذَرِ مِنْهُمْ أَنْ يَتَوَسَّلوا بذلك الأذى إِلَى مَا يُوصِلُ ضُرًّا عَظِيمًا[2]، وقد قال رَسُولُ اللّهِ ﷺ: "لَا أَحَدَ أَصْبَرُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/322.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/68.

عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ ﷻ، إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ، وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ، ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ"[1].

دِلَالَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾:

تَكَامُلُ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى فِي دَفْعِ الضَّرَرِ

قال ابنُ عبَّاسٍ في قولِه تَعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ﴾: وإنْ تَصبِرُوا على أذاهُم، وتتّقوا اللّه، ولا تَقْنَطُوا، ولا تَسأَمُوا أذاهُم وإن تَكَرّر، وقال مُقاتِلٌ: وإن تَصْبِرُوا على أمرِ اللّه، وتتّقوا مُبَاطَنَتَهُم، وذُكِرَ في تعيينِ متعلّق الْفِعْلَينِ - الصَّبْرِ والتَّقْوَى - غيرُ هذينِ القولينِ.

ولَمْ يُذْكر متعلَّق الصّبر ولا مُتَعَلَّق التّقوى، ولكنّ الصّبرَ لمَّا كان حَبْسَ النَّفْسِ علَى الْمَكْرُوهِ، والتّقوى اتِّخَاذَ الْوِقَايَةِ؛ حَسُنَ أن يُقَدَّرَ المحذوفُ مِن جِنْسِ مَا دلّ عليهِ لَفْظُ الصَّبرِ ولَفْظُ التّقوى.

وفي هذا تَبْشِيرٌ لِلْمُؤْمنين، وتَثْبِيتٌ لِنُفُوسِهم، وإرشَادٌ إلَى الاسْتِعَانَةِ عَلَى كَيْدِ العدوِّ بالصَّبْرِ وَالتَّقْوَى[2].

دِلَالَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾:

إِحَاطَةُ اللهِ تَعَالَى بِالْخَلْقِ عِلْمًا وَقُدْرَةً

قوله: ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾؛ إذا قَصَرْنَا الإحاطَةَ على الْمَعْنَى الحسِّيِّ؛ كان في الآية اسْتِعَارَةٌ، إذْ قد شُبِّهَ شمولُ علم اللّه تعالى وقُدْرَته عَلَيْهِمْ بإحاطة الْمُحِيطِ بما أحاطَ بِه، على طريقةِ الاسْتِعَارَةِ التَّصريحِيَّةِ التَّبعيَّة، والجامع بين المَعْنَيَيْنِ: استحَالَةُ الفَوْتِ في كِلَيهما.

وهذا القولُ قَد يكُون ظاهِرُ مَعْنَاهُ مقبولًا، إلَّا أَنَّهُ يُشْكِلُ عَلَيْهِ حَمْلُ وصفٍ مِن أوصَافِ اللّهِ تَعَالَى على الِاسْتِعَارَةِ - وهي ضربٌ مِنَ المجَاز -، مع اتِّفاق كلمة السَّلَفِ على عدم جَوَازِ إِجْرَاء شيءٍ من ذلك عَلَى المَجَازِ[3].

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، الحديث رقم: (6099)، ومسلم في صحيحه، الحديث رقم: (2804) واللَّفْظُ له.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/323.

(3) ابن عبد البرِّ، التّمهيد: 7/145.

ولا مانعَ مِن حملِ الإحاطة على مَعَانٍ أوسعَ، فتشمل الإحاطةَ الحسِّيَّةَ، وإحاطةَ العلمِ والقدرة، كما ذَكَرَهُ أهلُ العلم تَفْسِيرًا لِاسْمِ اللّه (المحيط)، وخُرُوجًا مِن حمل اللَّفْظ على شيءٍ يتعلّق بالمجاز[1].

دِلَالَةُ تَقْدِيمِ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾:

عِلْمُ اللهِ تَعَالَى بِأَعْمَالِ الْعِبَادِ يَقْتَضِي الْعُقُوبَةَ عَلَى سَيِّئِهَا وَالْإِثَابَةَ عَلَى حُسْنِهَا

قُدِّم الجارُّ والمَجْرُورُ ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ على متعلَّقِهِمَا ﴿مُحِيطٞ﴾؛ لقَصْدِ الاهْتِمَام بِمَا يُقَدّمُونه مِنَ الأعمالِ التي تَسْتَحِقُّ العقوبةَ، وَاللّه عليمٌ بأعْمَال النّاس جميعًا صالِحِها وسيِّئِها، لَكِن اخْتُصَّت هنا أعمالُ المُنَافِقِين والكُفّار؛ لِمَا فيهَا مِن السُّوءِ والشَّرِّ والفسادِ.

والجملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ خبريَّةٌ يُرادُ بها التَّحذير والتَّهديدُ، فهي مجازٌ مرسلٌ مركَّبٌ.

تَوْجِيهُ الْقِرَاءَاتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾:

التَّكَامُلُ الدَّلَالِيُّ لِلْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ

القراءة ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ مِنْ قَوْلِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ بالياء؛ وهي على معنَى الوعيد والتَّهديد، فإنَّه إذا كان محيطًا بهم علمًا وقدرةً؛ فهو أقدرُ على عُقوبتِهم علَى قبيحِ أفعالهم.

وقرأ الحسنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ بالتَّاءِ (تَعْمَلُونَ)[2]؛ وهو على الالتفاتِ من الغَيْبَةِ إلى الخطابِ، وهو خطابٌ للكفّارِ، ونكتَتُهُ: المبالغةُ في التَّهديد وإِدْخَالُ المهابَةِ على قلوبِهم، ويحتَمِلُ أن يكون على إِضْمَارِ (قُلْ)، والتَّقدير: قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ، أو أَنَّهُ خِطَابٌ لِلْمُؤمِنِين تَضَمّن تَوَعُّدَهُمْ في اتِّخَاذ بِطَانَةٍ مِنَ الكفّار[3].

بَلَاغَةُ اللَّفِّ وَالنَّشْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾:

في الآيةِ الكريمةِ لفٌّ ونشرٌ، فقوله تعالى: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ

(1) القحطانّي، شرح أسماء الله الحسنى، ص: 96 - 97.

(2) وهي قراءة شاذة، ينظر: الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر: 228.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/323.

مِـنْ أَعْـظَـمِ الْأَسْبَابِ الْمُعِينَةِ عَلَى تَقْوَى اللهِ تَعَالَى الصَّبْرُ

﴿تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ﴾ لَفٌّ أو طَيٌّ، وجاء النّشرُ على عكسِه، وذلك في قوله: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾، أي تَصْبرُوا على السَّيّئَةِ التي أصَابَتْكُم، وتتّقوا اللّه في الحَسَنَةِ التي مَسَّتْكُم؛ ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ﴾، لأنّهم في كلا الحَالَيْن يَكِيدُونَ لَكُم، فلا يضرّكم كيدُهم شيئًا معَ صَبْرِكُم على البَلْوَى وتَقْوَى اللّه فيما أَصَابَكُم مِنَ الخَيْر.

وقُدِّمت الحسنَةُ في اللَّفِّ؛ لكونِهَا من مَحْبُوباتِ النُّفوس، وجاءَ النَّشْرُ على غير ترتيبِ اللَّفِّ؛ إظهارًا لأهمِّيَّةِ الصَّبْرِ، لكونِهِ سببًا في تحصيلِ التَّقْوَى.

﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٢١﴾ [آل عمران: 121]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا نهى اللّه تعالى المؤمنين عن اتخاذ بطانةٍ من الكفَّارِ، ووعدَهم أنَّهم إن صبروا واتَّقَوْا فلا يضرُّهم كيدُهم شيئًا، ذكَّرهم هنا بحالةِ ما جَرى يومَ أُحُدٍ لعبد اللّه بن أبَيِّ بنِ سَلُولٍ حين انخَذَلَ عن رسول اللّه ﷺ وجَيْشِ المسلمين، واتَّبعه - في الانخذال في المسير لغزوة أُحُد - ثلاثُمئةِ رجلٍ من المنافقين، وهذا من أوضحِ مظاهرِ كيد المخالفين في الدِّين، من المنافقين، ولمَّا كان شأنُ المنافقين من اليهود وأهلِ يثرب واحدًا، ودخيلتُهما سواء، وكانوا يعملون على ما تدبِّرُهُ اليهودُ، جمعَ اللّه مكايدَ الفريقين بذكر غزوة أحد، وكان نزولُ هذه السُّورة عَقِب غزوةِ أحد. فهذه الآيةُ وما بعدها تشيرُ إلى وقعةِ أُحُدٍ الكائنةِ في شَوَّال سنةَ ثلاثٍ من الهجرة، وفيها نزلت هذه الآيات(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿غَدَوۡتَ﴾: جِذر الكلمة هو: (غدي) و(غدو)؛ وغَدْوَة في سَبِيل اللّه أَو رَوْحَة، الغَدوة بِفَتْح الْعين من أول النَّهَار إِلَى الزَّوَال والرَّوحة بعْدهَا، وَهَذَا يدلُّ على فرق مَا بَينهمَا، والغَدوة هُنَا السّير فِي الْغَدَاة، والغُدوة بِالضَّمِّ من الصُّبْح إِلَى طُلُوع الشَّمْس، وَقد اسْتعْمل الغُدوُّ والرّواح فِي جَمِيع النَّهَار، وغَدا ويغدو بِمَعْنى سَار بِالْغُدُوِّ. والْغُدُوُّ: الذَّهَابُ غُدْوَةً ثُمَّ عَمَّ في كلِّ مسيرٍ، وَمِنْهُ الْحَدِيث الشريف: "واغْدُ يا أُنَيْسُ إلى امْرَأَةِ هذا، فَإِنِ اعْتَرَفَتْ فارْجُمْها ..."(2)، أي: اذهب. والغَدْوةُ والغَدَاةُ من أوّل النّهار، وقُوبل في القرآن: الغُدُوُّ بالآصال، وقوبل الغداةُ بالعشيّ. والغدوُّ هنا مطلقُ الخروج، ليس المرادُ به الخروجَ في أول النهار؛ لأنَّ النبي ﷺ وأصحابَه لم يخرجوا إلا بعدما صَلَّوا الجمعةَ(3).

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/326، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/70.

(2) رواه البخاري في صحيحه، الحديث رقم: (2314).

(3) الراغب، المفردات، والسّبتي، مشارق الأنوار، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (غدا)، (غدو)، وينظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 65.

2) ﴿تُبَوِّئُ﴾: جِذر الكلمة هو: (بوأ)؛ تَبَوّأَ منزلًا، نزله، وبَوَّأَ له منزلًا، وبَوَّأَهُ منزلًا، هيأه ومكّن له فيه والبَوَاءُ بالفتح والمدِّ السَّواء، يقال: دم فلان بَواء لدم فلان، إذا كان كفؤا له. وجاء في القرآن الكريم من استعمالات هذا الجِذر صيغتان: "باء كقوله: ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 162] و﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 112] رجعوا به وكذا باءَ بإثمه، والصيغة القرآنية الأخرى من هذا الجذر هي "بوَّأ" بمعنى الإقرار في مكان مهيَّأ مناسب، كقوله: ﴿وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: 74]. أي: وأنزلكم في الأرض تتخذون فيها مساكن[1].

3) ﴿مَقَٰعِدَ﴾: جِذر الكلمة هو: (قَعَدَ)؛ القُعود يقابل القيام، والقَعْدةُ: المَرَّةُ الواحدة. والقَعَد: القَوْمُ الذين لا ديوان لهم. والمَقْعد مكان القُعود، قال تعالى: ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ٥٥﴾ [القمر: 55]، ويُعبَّر عن المُتكاسل بالقاعد، نحو قوله: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: 95]. وقوله: ﴿مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ﴾؛ كناية عن المعركة التي بها المُستقرّ، فهي مقاماتٌ وليست مجالسَ؛ أخذًا من الانتصابِ مع قوَّة الثباتِ، كأنهم راسخون في الأرض[2].

تنزلهم وترتبهم كل في مقعده اللائق به.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

كمالُ علمِ النبيِّ ﷺ ورأيِــه، وســدادُ نَـظَـرِه وعلوُّ همَّتِه

واذْكُر - أيُّها الرسولُ ﷺ - حينَ خَرَجْتَ من بيتِكَ لابسًا عُدَّةَ الحربِ، سائرًا لملاقاةِ جُمُوعِ المشركين، تنظِّمُ صفوفَ أصحابِك، وتُنْزِل كلَّ واحدٍ في مَنزله اللائق به في ساحةِ المعركة؛ للقاء المشركين في غزوة (أُحُد). واللهُ سميعٌ لجميعِ المَسْموعات، وما يقولُه المؤمنون والمنافقون وما يتكلَّم به كلٌّ بحسَبِ ما في قَلْبِه، عليمٌ بنيَّاتِكم وأفعالِكم، فيجازيكم عليها أتمَّ الجزاءِ وأوفاه[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّازي، مختار الصّحاح، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بوأ).
(2) الخليل، العين، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قعد).
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/319، والموصليّ، أولى ما قيل: 2/532 - 533، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 65، ونخبة من العلماء، التفسير الميسَّر، ص: 65.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الِالْتِفَاتُ فِي صِيَغِ الْأَفْعَالِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

حِرْصُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي مُخْتَلِفِ الْأَحْوَالِ

في قوله: ﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ التفاتٌ في صيغِ الأفعال؛ فقد التُفِتَ من الفعل الماضي ﴿غَدَوۡتَ﴾ إلَى الفعلِ المُضارعِ ﴿تُبَوِّئُ﴾، وعُبِّرَ عن الغُدُوِّ بالفعل الماضي؛ لأنه خروجٌ حصل دفعةً واحدةً وانقضى، بخلافِ قوله: ﴿تُبَوِّئُ﴾ وهو بمعنى إنزال المؤمنين مراكزَ يقِفُون فيها؛ فهو يحتاج إلى معالجةٍ واتِّساعٍ في الزَّمَنِ، ولذا وقع التَّعبيرُ عنه بالفعل المُضارِعِ المفيدِ للتَّجدُّدِ وامتدادِ الزَّمَنِ.

وَ(إِذْ) مدخل إلى الظَّرف الزّمنِيِّ لِلْقصّة، آتٍ كما أَتَتْ نظَائِرُه في أوائلِ الآيِ والقَصَصِ القرآنيّة، وعطف الآية ﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ هو مِنْ عَطْفِ جملة على جملةٍ، وقِصَّةٍ على قِصَّةٍ، وهو انتقالٌ اقْتِضَابِيٌّ، والتَّقدير: وَاذْكُرْ إِذْ غدَوْتَ[1].

دِلَالَةُ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ فِي سِيَاقِ الْقِصَّةِ:

نَصرُ المؤمنين أنموذج واقع للمواجهة والقتال في موقعة قادمة

في قولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ ﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٢٢ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢٣﴾ تقديمٌ وتأخيرٌ، والتَّقدير: (ولَقَدْ نصركم اللّٰه بِبَدْرٍ وَإِذْ غَدَوْتَ مِن أَهْلِكَ...)، وذلك اهتِمَامًا بسياقِ القِصَّة وترابُطِهَا، قبل الانتقالِ إلى التَّذكيرِ بمنَّةِ اللّٰه تعالى عليهم في بدرٍ ونصرِ اللّٰه سبحانه لهم.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالْمَقَاعِدِ دُونَ الْمَوَاقِفِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ﴾:

كُلُّ كَلِمَةٍ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ حَالَّةٌ فِي مَحَلِّهَا اللَّائِقِ بِهَا، لَا يُجْزِئُ عَنْهَا غَيْرُهَا

ذُكِرَتِ المَقَاعِدُ في قوله تعالى: ﴿تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ﴾ وأُرِيدَتِ المواقِفُ والمواطنُ؛ لجامع الثّبات فيه، فقد قال الرّاغبُ: "وقوله: ﴿مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ﴾ كنايةٌ عَنِ المَعْرَكَةِ التي بها المُستقرُّ"[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/70.
(2) الراغب، المفردات: (قعد).

ومَقَاعِدُ: جمع مَقْعَدٍ، وهو مكانُ القعودِ، والمعنى: مواطنُ ومواقفُ، وقدِ استُعْمِلَ المقعَدُ والمَقامُ في معنى المكانِ، ومِنْهُ: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ [القمر: 55]، و﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل: 39].

وقال الزَّمخشريُّ: "وقدِ اتُّسِعَ في قَعَدَ وقام، حتَّى أُجْرِيَا مُجْرَى صَارَ"[1]، أمَّا إجراءُ قَعَدَ مُجْرَى صارَ؛ فإنَّما جاء في لفظةٍ واحدةٍ، وهي شاذّة لا تتعدَّى، وهي في قولهم: شَحَذَ شَفْرَتَهُ حتَّى قَعَدَتْ كَأَنَّها حِرْبَةٌ، أَيْ: صارَت[2].

واختِيرَ لفظُ القعود دون القيام؛ لما في القعود من الدِّلالةِ على الثَّبات، وهو الأنسبُ لسياق الجهادِ، تفاؤلًا بتثبيت الله تعالى أقدام أهل الإيمان في مواجهة أهل الكفر، قال ابن عطية: "لفظة (القعود) أدلُّ على (الثّبوت)، ولا سيّما أنَّ الرّماة إنّما كانوا قعودًا، وكذلك كانت صفوفُ المسلمين أوَّلًا، والمبارزة والسَّرَعَانُ يَجُولُون، وجمعَ المقاعد؛ لأنّه عيَّنَ لهم مواقفَ يكونُون فيها، كالمَيْمَنَةِ والمَيْسَرَةِ، والقَلْبِ، والشّاقة، وبيّن لكُلِّ فريق منهم مَوْضِعَهُم الذي يقفُونَ فيه[3].

بَلَاغَةُ التَّذْيِيلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

إِحَاطَةُ سَمْعِ اللهِ تَعَالَى وَعِلْمِهِ بِجَمِيعِ أَحْوَالِ الْعِبَادِ

قوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، أَيْ: سَمِيعٌ لِأَقْوَالِكُمْ، عليمٌ بِنِيّاتِكُمْ.

فجاءَ هذانِ الاسمانِ هُنَا؛ لأَنَّ في ابتداءِ هذه الغَزْوَة مُشَاورَةً ومُجَاوَبَةً بأقوالٍ مُخْتَلِفَةٍ، وانْطِوَاء على نيّات مُضْطَربة حسبَما تضمَّنَتْهُ قصّةُ غزْوَةِ أُحُدٍ[4]، فبيَّنَ سبحانه بهذا التَّذييلِ أنَّه سبحانَهُ مُطَّلِعٌ على ما كانَ يَجْرِي بَيْنَ المُؤْمِنِين وبينَ النَّبيِّ ﷺ من مُشَاورَاتٍ ومَا اسْتَقَرَّ عليهِ رَأْيُ أكثرِهم، وَأنَّه تعالَى عَلِيمٌ بِخَفَايَا القُلُوب، فهو يَعْلَمُ ما تَهِمُّ به قلوبُ المُؤْمِنين، وما تُوَسْوِسُ بِهِ قلُوبُ المُنَافِقين، ومَا يَبُثُّونَهُ مِنْ رُوحِ الذُّعْرِ والهَلَعِ في نُفُوسِ المُؤْمِنينَ، وهذا التَّذييلُ ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ جارٍ مجرى المَثَلِ؛ لاستقلالِهِ بالإفادةِ وعدم توقُّفِ فهم أصل معناهُ على ما قبلَهُ.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/409.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/326.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/497.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/328.

﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٢٢﴾ [آل عمران: 122]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْرُ شيءٍ من مشاعر الخوف الَّتي اعْتَرَتْ بعض المؤمنين بعد إمضاء قرار القتال والاستعداد له

لَمَّا صوَّرت الآية السَّابقة حال النَّبيِّ ﷺ في ميدان القتال، وهو يُرَتِّبُ الجُند، ويَخُصُّ كلَّ طائفة بمكان، ويُعيِّنُ مَوْضِعَ كلِّ فريقٍ من المعركة، وبَيَّنَت أنَّ اللَّه سَميعٌ لما نطقت به ألسنتهم، عَليمٌ بما تخفيه صدورهم تربيةً للرَّهبة في قلوب المؤمنين ووعيدًا للمُنافقين؛ ذكر سبحانه ما راوَدَ قلوب بعض المؤمنين من ضَعْفٍ وفَشَلٍ، عندما رأوا زعيم المُنافقين ابن سَلولٍ يَنْخَذِلُ بثُلُثِ الجيش، فقال تعالى: ﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿هَمَّت﴾: أرادَت، ولم تَفْعَلْ، والهَمُّ: مَبْدَأُ الإرادة، والهِمَّةُ والهَمَّةُ: ما هَمَّ من أَمْرٍ ليُفعلَ، فالهمُّ هو بداية الإرادة للفعل، وَالْفِعْلُ مِنْهُ هَمَّ يَهُمُّ، تَقُولُ الْعَرَبُ: هَمَمْتُ وَهَمْتُ، فَيَحْذِفُونَ أَحَدَ الْمُضَعَّفَيْنِ، كَمَا قَالُوا: ظَلَلْتُ وظَلْتُ، وأصلُ الهمِّ: يدُلُّ على ذوبانٍ وجَرَيانٍ ودَبيب، والهمُّ أيضًا: الحُزْن الَّذي يُذيب صاحبَه، وهو الَّذي يقع في النَّفس؛ لأنَّه قد يُؤثِّر في نفس الإنسان كما يُؤَثِّر الحزن، وأَوَّلُ مَا يَمُرُّ الْأَمْرُ بِالْقَلْبِ يُسَمَّى: خَاطِرًا، فَإِذَا تَرَدَّدَ؛ صَارَ حديث نفس، فإذا تَرَجَّحَ فِعْلُهُ؛ صَارَ هَمًّا، فَإِذَا قَوِيَ، وَاشْتَدَّ؛ صَارَ عَزْمًا، فَإِذَا قَوِيَ العَزْمُ، وَاشْتَدَّ؛ حَصَلَ الْفِعْلُ أَوِ الْقَوْلُ، والهمُّ الَّذي كان من الطَّائفتين هو حديث نفس لم يصل إلى مرحلة العزم[2].

(1) الطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 2/246.

(2) الرَّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللغة: (همَّ)، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز: 5/345.

2) ﴿أَن تَفۡشَلَا﴾: تَجْبُنا وتَضْعُفا، والفشل: ضعف القلب وخَوَرُ الجَنَان مع جُبن، يُقال: فَشِلَ الرَّجُلُ فَشَلًا، فَهُوَ فَشِلٌ: كَسِلَ وضعُف وتراخَى وجَبُن، والفشل: يكون في الرَّأي، بمعنى: العجز والحيرة، وفي البدن، بمعنى: الإعياء وعدم النُّهوض، وفي الحرب، بمعنى: الجُبْنِ والخَوَرِ[1].

3) ﴿وَلِيُّهُمَاۗ﴾: الوليُّ: هو الَّذي يتولَّى الأمر بالعناية والرِّعاية والنُّصرة والتَّأييد، وأصل الولاية يدلُّ على القُرْب، والوِلاية: النُّصرة، والوَلاية: تولِّي الأمر، ويُستعمل لفظ الوليِّ للقُرب من حيث المكان، ومن حيث النِّسبة، ومن حيث الدِّين، ومن حيث الصَّداقة والنُّصرة والاعتقاد، ومَعْنَى الْوِلَايَةِ هُنَا: التَّثْبِيتُ وَالنَّصْرُ، فَلَا يَنْبَغِي لَهُمَا أَنْ يَفْشَلَا، فاللَّهُ وَلِيُّهُما، أَيْ: نَاصِرُهُمَا عَلَى ذَلِكَ الْهَمِّ الشَّيْطَانِيِّ[2].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ضَعُفَ بعض المؤمنين بِسَبَبِ تثبيط المنافقين، ولكنَّ الله ناصرٌ أوليـاءه وحافظُهُم من كيد أعدائهم

اذكر - أيُّها النَّبيُّ ﷺ - ما وقع لفرقتين من المؤمنين من بني سَلِمَة، وبني حارثة، حين ضَعُفُوا، وهَمُّوا بالرُّجوع حين رجع المنافقون خوفًا من لقاء العدو، ولكنَّ اللّه عصمهم، وحَفِظَهُمْ، وصَرَفَهُمْ عمَّا هَمُّوا به، فثبتوا، ومَضَوْا للقتال؛ لأنَّه مُتَوَلِّي أَمْرِهما بالعِصْمَةِ والتَّوفيق، وعلى اللّه وحده فليعتمد المؤمنون في كلِّ أحوالهم[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الفَصْلِ بين الجملتين بالظَّرف على سبيل البَدَليَّة:

فالظَّرف ﴿إِذۡ﴾ من قوله تعالى: ﴿إِذۡ هَمَّت﴾ بدل كُلٍّ من ﴿إِذۡ﴾

(1) الرّاغب، المفردات: (فشل)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 109، والقِنَّوْجيُّ، فَتْحُ البَيانِ: 2/324.
(2) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(3) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 90، ونخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 66.

بيـان المقصود من التَّذكير بيوم أحد وما وَقَعَ فيه من أحداث عِبْرَةً للمؤمنين وتَثْبيتًا لهم

الأولى من قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾ [آل عمران: 121][1] مُبَيِّنٌ لما هو المقصود بالتَّذكير[2] السَّابق، أي: اذكر ذلك الوقت، وهو يوم أحد إذ غدوت، واذكر لهم أيضًا وقت أن همَّت طائفتان منكم - يا معشر المؤمنين - أن تفشلا، وتَضْعُفا، وتَجْبُنا عن القتال في وقت الشَّديدة والكريهة[3]،

فمن المعلوم أنَّ (إذ) الظرفيَّة في غاية الإبهام[4]، وإضافتها إلى الجملة الفعليَّة رفع إبهامها، وحدَّد الوقت المراد منها، وهذا راجع إلى العامل فيها، فيجوز - مع ما سَبَقَ - أن تكون ﴿إِذْ﴾ ظرفًا لـ ﴿تُبَوِّئُ﴾ أَيْ: كَانَ ﷺ يَتَّخِذُ الْمُعَسْكَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَيُنْزِلُ كُلَّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ مَنْزِلًا، فِي وَقْتٍ هَمَّتْ فِيهِ طَائِفَتَانِ مِنْهُمْ بِالْفَشَلِ؛ افْتِتَانًا بِكَيْدِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ رَجَعُوا مِنَ الْعَسْكَرِ[5]، أو ظَرْفًا لـ ﴿غَدَوْتَ﴾؛ لأنَّ الوقت واحدٌ وقع في بعض الغُدُوِّ، أو لــ ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، ويكون المعنى: والله سميع عليم، حين همَّت طائفتان منكم أن تَفْشلا[6]، وليس المُراد تقييدَ كَوْنِهِ سميعًا عليمًا بذلك الوقت[7]، لأنَّه تَعَالَى: سميع عليم أزلًا، وإنَّما تعلَّق به هُنا باعْتِبَار التَّعلُّقِ الحادِثِ، وهو الَّذي يترتَّب عليه الْجَزَاء[8]، وعلى كلِّ هذه التَّقديرات فقد جيء بالفصل هُنا؛ لكمال الاتِّصال بين الجملتين في المعنى[9]، واتِّحادهما وامتزاجهما في وصف أحداثِ ذلك اليوم العصيب، وفي هذا تَذْكِيرٌ للمؤمنين بما وقع فيه حتَّى يعتبروا، ويعتصموا

(1) الدعاس، إعراب القرآن: 1/158.
(2) أبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/78، والبروسوي، روحُ البَيان: 2/89.
(3) الطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 2/247.
(4) السهيلي، نتائج الفكر، ص: 136.
(5) رضا، تَفْسِيْر المنار: 4/90.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 7/165.
(7) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/258.
(8) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويِّ: 6/300.
(9) الدّبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/533.

بحبل اللّه جميعًا، ولا يَتَفَرَّقُوا[1]، ويَثِقوا بموعُوده ونَصره، ولا يَتَّخذوا المنافقين والمُخَذِّلينَ بطانَةً.

سِرُّ التَّعبير بالهَمِّ دون العَزْمِ:

بيان أنَّ الهَمَّ ترجيح من غير عزم، فلا مُؤَاخَذَةَ به

الهَمُّ قد يُراد به العزم، وقد يُراد به الفِكْرُ، وقد يُراد به حديث النَّفس، وقد يُراد به ما يَظْهَرُ من القول الدَّالِّ على قوَّة العَدُوِّ وكثرة عَدَدِهِ ووفور عُدَدِهِ؛ لأنَّ أيَّ شيءِ ظهر من هذا الجنس صَحَّ أن يُوصف من ظَهَرَ ذَلِكَ منه بأنَّهُ هَمَّ بأن يفشل من حيث ظهر منه ما يُوجِبُ ضَعْفَ القلب، فكان قوله: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ لا يَدُلُّ على أنَّ معصيةً وقعت مِنْهُما، وأيضًا، فبتقدير أن يُقال: إنَّ ذلك معصيةٌ لكنَّها من باب الصَّغائر لا من باب الكبائر، بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾، فإنَّ ذلك الهَمَّ لو كان عزيمة؛ لكان من باب الكبائر، ولما بقيت ولاية اللّه لَهُما[2].

فالهَمُّ هُنا: حديثُ النَّفس من غير أن يصير عزيمة[3]، فالنَّفس عند الشَّدائدِ لا تخلو من بعض الهَلَعِ، ثُمَّ يَرُدُّها صاحبُها إلى الثَّبات والصَّبر ويُوَطِّنُها على احتمال المكروه، فَتَثْبُتُ، وتستقرُّ، كما قال عمرو بن الإطنابة:

أَقُولُ لَهَا إِذَا جَشَأَتْ وَجَاشَتْ *** مَكَانَكِ تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي[4]

وهذا الهمُّ الواقع من المؤمنين غَيْرُ مؤاخذٍ به؛ إذ ليس بعزيمة، إنَّما هو ترجيح من غير عَزْمٍ[5].

(1) الطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 2/246.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/347.
(3) الراغب، تفسير الراغب: 2/837.
(4) البيت من بحر الوافر، من مقطوعة للشاعر عمرو بن الإطنابة، والإطنابة اسم أمه، وهو عمرو بن زيد مناة، يخاطب الشاعر نفسه، ويقول لها: اثبتي عند الخوف في المعركة، ومعنى جشأت: ارتَفَعَتْ من حُزنٍ أو فَزَع، يُريد تَطَلَّعت، ونَهَضَتْ جَزَعًا وكَراهَة، ينظر: ابن جنّي، الخصائص: 3/37، والأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن الأثير، النِّهاية، (جَشَأَ)، ومحمَّد شُرَّاب، شرح الشَّواهد الشِّعريَّة: 1/251.
(5) أبو حَيّان، البَحْرُ المُحيطُ: 3/328.

فائدة التَّنكيرِ وعدم التَّعيين عند ذِكْرِ مَنْ وقع منه الهَمُّ:

السَّتر عليهما وعَدَمُ فضحهما رحمةً ولُطفًا من الله بعباده المؤمنين

في ﴿طَّآئِفَتَانِ﴾ إشارة لطيفة إلى الكِناية عمَّن يَقَع منه ما لا يُناسِب والسَّتْر عليه، إذ لم يُعيِّن الطائفتين بأنفسهما، ولا صرَّح بمَن هما منه من القبائل سَترًا عليهما[1].

ولم يذكر القرآن الكريم اسم هاتين الجماعتين اللَّتين همَّتا هذا الهمَّ السَّيِّئَ؛ لأنَّ رحمة اللّه تَدَارَكَتْهُما، فلم يقع منهما ما يَسُوء، وكان من تمام رحمة اللّه ولُطْفِهِ بهما أن سَتَرَ عليهما هذا الهم الَّذي همَّتا به[2].

فالحكمة من تنكيرِ ﴿طَّآئِفَتَانِ﴾ وطيِّ ذكرهما: هو السَّتْرُ عليهما إضافة إلى تأليفهما والرَّحمة الظَّاهرة بهما.

وقولُه تعالى: ﴿طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ متعلِّقٌ بـ ﴿هَمَّت﴾، والباءُ محذوفةٌ، أي: بأنْ تفشلا، أي: أنْ تَجْبُنا وتَضْعُفا[3].

العِلَّة في ذِكْرِ الصِّفة (الهَمُّ بِالفَشَلِ) وإشهارِها بعد تنكير الموصوف والسَّتْرِ عليه:

العتاب والتَّأديب اللَّطيف من الله لعباده المؤمنين وتذكيرهم بنعمة عليهم

وفي ذكر صفتهما وإشهارهما - وهي الهمُّ بالفشل - عتاب وتأديب لطيف لهاتين الطَّائفتين حتى يَنْأَيا - هما ومَن في حكمهما من المؤمنين - عن مقاربة ذلك بَلْهَ التَّلبُّس به، وهذا المعنى يفيده نظم الآية الَّتي وُجِّه فيها صريح الخطاب إلى المؤمنين في قوله: ﴿طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ﴾، فهُما مِنكُم، وليْسا من غيركم، أيُّها المؤمنون.

كما أنَّ في ذِكْرِ هذه الصِّفة توطئةً لذكر نعمة اللّه عليهما، حيث حَفِظَهُما اللّه بحفظه، وتَداركهما بولايته؛ ممَّا جعل الأمر يؤول مَنْقَبةً لهما، فقد ظفرتا بولاية اللّه لَهُمَا، حتى قال بعضهم من فرط الاستبشار

---

(1) أبو حيّان، البَحْرُ المُحيطُ: 3/329.

(2) الخطيب، التفسير القرآني: 2/570.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/546.

بما حصل لهم من الشَّرف بثناء اللّٰه، وإنزاله فيهم آية ناطقة بصِحّة الولاية: "ما يسرُّنا أنَّا لم نَهُمَّ بالَّذي هممنا به، وقد أخبرنا اللّٰه أنَّه وليُّنا"[1]، فكانت تلك الهَمَّةُ غير المؤاخذ بها سببًا لنزولهما[2].

دلالة الاعتراض بعد ذكر الصِّفة:

بيان كمال عناية اللّٰه ولطفه بعباده المؤمنين في نفي الفشل عنهم ورفع منزلتهم

فجملةُ ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾ اعتراضٌ، ويجوزُ أَنْ تكونَ حالًا من فاعل ﴿هَمَّت﴾ أو من ضميره في ﴿تَفۡشَلَا﴾، وهي مفيدةٌ لاستبعادِ فشلهما مع كونِهما في ولاية اللّٰه تعالى[3].

فقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾، أي: عاصمهما من اتباع تلك الخطرة[4]، فقد هَمَّتْ بَنُو سَلِمَةَ وَبَنُو حَارِثَةَ من الْمُسلمين بالانخذال، ثُمَّ عَصَمَهُمُ اللّٰه، لأنَّه ﴿وَلِيُّهُمَاۗ﴾، أَيْ: نَاصِرُهُمَا عَلَى ذَلِكَ الْهَمِّ الشَّيْطَانيِّ الَّذِي لَوْ صَارَ عَزْمًا؛ لَكَانَ سَبَبَ شَقَائِهِمَا، فَلِعِنَايَةِ اللّٰه بِهِمَا بَرَّأَهُمَا اللّٰه مِنْ فِعْلِ مَا هَمَّتَا بِهِ[5]، فاللّٰه سبحانه وتعالى يَلطُف بالمؤمن حتى يُثبِّته على الحقِّ[6]، وعليه حَسُن تنزيل الآية على الاحتباك، ويكون أصل النَّظم: واللّٰه وليُّهما لتوكُّلِهما وإيمانهما، فلم يمكن الفشل فيهما[7].

كما أنَّ وقوع الولاية خبرًا عن الاسم الأحسن ﴿وَٱللَّهُ﴾، مع إضافة الخبر إلى هاتين الطَّائفتين، فيه تكريم لعباده المؤمنين، حيث أعلت الإضافة هنا شأن المضاف إليه، فاكتسب من المضاف مكانًا وشأنًا، فرفعهما شرفًا وعزًّا[8].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/166.
(2) الزَّمَخْشَرِيُّ، الكَشَّاف: 1/410، وأبو حيّان، البَحْرُ المُحيطُ: 3/329، والخنين، النظم القرآني، ص: 97.
(3) أبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/79.
(4) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويِّ: 6/301.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/70.
(6) ابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين (سورة آل عمران): 2/122.
(7) السَّمين، الدُّرُّ المَصونُ: 2/204، والبِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/49.
(8) الخنين، النظم القرآني، ص: 97.

السِّرُّ في تقديم الجارِّ والمجرور:

إفـــادة الاخـتـصـاص والاعتناء وقصر التَّوكُّل على الله تعالى

وقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ جارٌّ ومجرور مُتعلِّق بقوله: ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾ قُدِّم عليه للاختصاص، أي: عليه وَحْدَهُ لا على غَيْرِه، فليتوكَّلِ المؤمنون، فَقَصَرَ التَّوكُّل المذكور على اللّه تعالى وحده دون ما عداه لا على سبيل الاستقلال، ولا على سبيل الاشتراك، وقُدِّم أيضًا للاعتناءِ بمن يُتوكَّل عليه[1]، وقد أشار جَلَّ ذِكْرُهُ إلى الوصف الَّذي يقتضي ذلك، وهو الإيمان في قوله: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾؛ لأَنَّ من آمن باللّه لايكون اتِّكالُه إلَّا عليه[2]، هذا إلى جانب مراعاة الفاصلة وقصر المَوْصُوف عَلَى الصِّفَةِ[3]، فمعنى القصر مُسْتَفَادٌ من تقديم المُتَعَلَّقِ عَلَى الفعل[4].

الحكمة من إظهار الاسم الأحسن:

الـتَّـبرُّك بـذكـره سبحانه وتعالى وتـعـلـيـلُ الأمـر بالتَّوكُّل عليه

فإظهار الاسم الأحسن في موضع الإضمار، والنَّصُّ عليه بلفظ الألوهيَّة دون ماسواه؛ لكون القلوب قاطبة تَأْلَهُهُ، وتَتَعَلَّقُ به، وتطمئنُّ إلى ذكره، فكيف بقلوب المؤمنين؟ فلا شَكَّ أَنَّ إظهار ذِكْرِ اللّه أمامها أدعى إلى أَنْ يُثْمِرَ فيها يَقينًا وتَقْوى، وبخاصَّة أنَّ المقام مقام تَوَكُّلٍ واعتماد[5].

فإظهارُ الاسم الجليلِ ﴿ٱللَّهِ﴾ للتَّبرُّك والتَّعليل؛ لأَنَّ الأُلوهيَّة من مُوجِبات التَّوكُّلِ عليه تعالى[6].

دلالة اللَّام في ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ مع حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الفعل ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾:

واللَّامُ في ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ للجِنْس، فيدخلُ فيه الطَّائفتان دخولًا أوليًّا، وسائر المؤمنين بشكل عامٍّ في ذلك الزَّمن وغَيْرِه من الأزمان،

(1) أبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيطُ: 3/329.
(2) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 5/512، وأَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيطُ: 3/329.
(3) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويِّ: 6/302.
(4) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويِّ: 6/302.
(5) الخنين، النظم القرآني، ص: 98.
(6) أَبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/79.

الأمـرُ لعـموم المؤمنين بالتَّوكُّل على الله في كلِّ الأحوال

وفيه إشعارٌ بأنَّ وصفَ الإيمان من دَواعي التَّوكُّلِ وموجباتِه[1]، وحُذِفَ مُتعلَّق التَّوكُّل لإفادة العموم، أي: لِيَتَوكَّلوا عليه سُبْحانه في جميع أمورهم جليلها وحقيرها سَهْلِهَا وحَزْنِها[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّة:

الهَمّ والعزم:

الـهَـمُّ اجتماع الـنَّـفـس على الأمـر والإزمـاع عليه، والعـزم هو القصد على إمضائه

فَرَّق أهل العلم بين الهَمِّ والعزم بفروق كثيرة، فَقالوا: إنَّ الهمَّ: بَدْءُ الإرادة، والعزمَ: مُنتهاها[3]، وقالوا: الهَمُّ في باب المعصية: هو الميل الغريزيُّ أو الميل الطَّبْعيُّ، فإنْ صَرَفَهُ عنه وازع التَّقوى؛ كُتِبَ له به حسنة؛ لقول الرَّسول ﷺ: "وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ، فَلَمْ يَعْمَلْهَا؛ كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً"[4]، بينما يعاقب بالعزم على المعصية؛ لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٥﴾ [الحج: 25].

وعليه يكون كلٌّ من الهَمِّ والعزم من مراتب القصد، فإنَّ أوَّل مَا يَمُرُّ الْأَمْرُ بِالْقَلْبِ يُسَمَّى: خَاطِرًا، فَإِذَا تَرَدَّدَ؛ صَارَ حديث نفس، فإذ تَرَجَّح فِعْلُهُ؛ صَارَ هَمًّا، فَإِذَا قَوِيَ، وَاشْتَدَّ؛ صَارَ عَزْمًا، فَإِذَا قَوِيَ الْعَزْمُ، وَاشْتَدَّ؛ حَصَلَ الْفِعْلُ أَوِ الْقَوْلُ[5]، وقد جمعها بعضهم في قوله:

مَرَاتِبُ القَصْدِ خَمْسٌ: هَاجِسٌ ذَكروا *** وَخَاطِرٌ فَحَدِيثُ النَّفْسِ فَاسْتَمِعَا

يَلِيهِ هَمٌّ فَعَزْمٌ كُلُّها رُفِعَتْ *** سِوى الأَخيرِ فَفيهِ الأَخْذُ قَدْ وَقَعا[6].

فالهَمُّ فوق الإرادة دون العزم؛ لأنَّ العزم عَقْدُ القَلْبِ على إمضاء الأمر، مِنْ: عَزَمْتُ الأمر، وعَزَمْتُ عليه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [آل عمران: 159]، فالعزم هو تصميم القلب على الشَّيء، والنَّفاذُ فيه بقصد ثابت[7].

---

(1) أبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/79.
(2) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/259.
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: 5/345، والكفوي، الكليات، ص: 961.
(4) رواه مسلم، الحديث رقم: (131).
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 3/325.
(6) القِنَّوْجيُّ، فَتْحُ البَيانِ: 2/160، والجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 1/360.
(7) الكفوي، الكليات، ص: 961، والراغب، المفردات: (عزم).

وقد يأتي الهَمُّ بمعنى: العزم على الفعل، كقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ [المائدة: 11]، أي: صمَّموا النِّيَّة، وعزموا عليه، فَيُرادف العزم، ويأتي بمعنى: خطور الشَّيءِ في البال، وإن لم يقع العَزْمُ عليه، كقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾[1].

الوَليّ والنَّصير:

الوَلَايَةُ تَكونُ بِإِخْلاصِ المَوَدَّةِ، والنَّصْرُ يَكونُ بِالمَعونَةِ والتَّقْوِيةِ

الوليُّ: هو المُعينُ الَّذي تَرْكَنُ إِلَيْهِ، وتَعْتَمِدُ عَلَيْهِ، وتَحْتَمي بِهِ عِنْدَ الشِّدَّةِ والرَّخاءِ، وفي السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ[2]، والولاية أصلها: الحبُّ، فلا موالاة إلا بحبٍّ، كما أنَّ العداوة أصلها: البغض، والله وليُّ الذين آمنوا، وهم أولياؤه، فهم يوالونه بمحبَّتهم له[3]، وهو يواليهم بمحبَّته لهم، أَمَّا النَصيرُ: فَهُوَ على وَزْنِ (فَعيل)، والمَقْصودُ مِنْهُ اسْمُ الفاعِلِ (ناصِرٌ)، والنَّاصِرُ: هُوَ الَّذي يُعينُ غَيْرَهُ ويُقَوِّيه[4]، والنَّصيرُ في حَقِّ اللهِ تَعالى: المَوْثوقُ مِنْهُ بِأَلَّا يُسْلِمَ وَلِيَّهُ، ولا يَخْذُلهُ، بَلْ يَنْصُره، ويُعينُهُ، ويُسَدِّدُهُ، وقَدْ سَمَّى اللّه تَبارَكَ وتَعالى نَفْسَهُ باسْمِ النَّصيرِ، فَقالَ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ۝٤٥﴾ [النِّساء: 45]، واللّه ﷻ هُوَ النَّصيرُ الَّذي يَنْصُرُ عِبادَهُ المُؤْمِنينَ ويُعينُهُمْ، قال تَعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧﴾ [الرُّوم: 47][5].

(1) العَسْكَرِيُّ، الفُروقُ اللُّغَوِيَّةُ، ص: 356.
(2) العَسْكَرِيُّ، الفُروقُ اللُّغَوِيَّةُ، ص: 284.
(3) ابْنُ القَيِّم، الجواب الكافي، ص: 229.
(4) العَسْكَرِيُّ، الفُروقُ اللُّغَوِيَّةُ، ص: 189.
(5) القحطاني، شَرْحُ أَسْماءِ اللهِ الحُسْنى: 222 - 223.

﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢٣﴾ [آل عمران: 123]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْـرُ نـصـر الله لأوليائه المؤمنين بعد ذِكْرِ هَمِّهم بالفشل جـرَّاءَ تخذيل المنافقين لهم

لَمَّا ذكر الله تعالى حال المؤمنين في يوم أحد، وما جرى عليهم من المُصيبة بسبب تخذيل المنافقين؛ أَدخل فيها تذكيرَهم بنصره، ونِعْمَتِهِ عليهم يوم بدر؛ ليكونوا شاكرين لربِّهم، ولِيُخَفِّفَ هَذا ذاك، فقال: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ﴾[1]، فذكَر هُنا مِثالًا تحقَّقت فيه للمُؤمنين أسبابُ النَّصر بثباتهم وصِدْقِ تَوَكُّلِهِمْ على اللّه، فَنَصَرهم اللّه تعالى بِفَضْلِهِ[2].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَصَرَكُمُ﴾: النَّصر العَوْنُ، ونَصَرَ اللّه المُسلمينَ: آتاهم الظَّفَرَ وأعانهم على عدوِّهم، يَنْصُرهم نَصْرًا، وأصلُ النَّصر: إتيانُ خيرٍ وإيتاؤه[3].

2) ﴿بِبَدۡرٖ﴾: بَدْرٌ اسم لماء بين مكَّة والمدينة، كان في مَوضِع الوَقْعَةِ المشهورة بين المسلمين بقيادة رسول اللّه ﷺ وبين مُشْركي مكَّة، فسمِّيت الوَقْعَةُ به، وقيل: إنَّه بئر لرجل من جهينة، يُقال له: بدر بن يخلد بن النَّضر بن كنانة، وقيل: اسم للمَوضِع، وقيل: اسم للوادي الَّذي به[4].

3) ﴿أَذِلَّةٞۖ﴾: الذِّلَّة: الضَّعف، يُقال: ذَلَّ الرَّجل؛ إذا ضَعُفَ وَهَانَ،

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 973.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 6/5.
(3) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).
(4) السمعاني، الأنساب: 2/111، والحموي، معجم البلدان: 1/357.

فَهُوَ ذَلِيلٌ، وأصل الذُّلِّ: الخضوعُ والاستكانةُ واللِّين، والذُّلُّ: ضدُّ العِزِّ، والمعنى هُنا: ضُعفاءُ قليلون مَقْهُورون(1).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ولقد نصركم اللّه - أيُّها المؤمنون - على المشركين في معركة بدر، وأنتم مستضعفون، وذلك لِقِلَّةِ عددكم وعتادكم، فخافوا اللّه بِفِعْلِ أوامره، واجتناب نواهيه لعلَّكم تشكرون نِعَمَهُ عَلَيْكُمْ(2).

تذكير الله المؤمنين بنعمة النَّصر في غزوة بدر، وهم قليلو العدد والعدَّة، وتوجيههم لشكر هذه النِّعمة

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف بعد ذكر الأحداث الواقعة يوم أحد:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ، سِيقتْ لإيجاب الصَّبرِ والتَّقوى بتذكير ما ترتَّب عليهما من النَّصر إثْرَ تذكيرِ ما ترتَّب على عدمهما من الضَّرر(3)، فمع قِلَّة عدد المؤمنين وعُدَدِهِمْ يوم بدر إلَّا أنَّهم تَغَلَّبُوا على المشركين بِسَبَبِ صَبْرِهم ويَقينهم وصدق تَوَكُّلهم على ربِّهم.

التَّنويه بشأن الصَّبرِ والتَّقوى في كونهما من عوامل النَّصر على الأعداء

فاستحضار حادثة غزوة بدر للتَّذكير يَسْتَدْعي قوَّة في أداء المعنى، ولَفْتًا للنُّفوس والقلوب إلى أهميَّة ذلك الحدث؛ ليكون المؤمن على ذكر بمزيَّة التَّوكُّل(4)، فهذه الجملة المُستأنفة سيقت لتصبيرهم بتذكير ما يترتَّب على الصَّبر والتَّوكُّل من النَّصر(5).

سِرُّ تَعَدُّدِ المُؤكِّدات في الإخبار عن النَّصر المُحَقَّق:

نزع شوائب التَّردُّد والشَّكِّ من قلوب المؤمنين وتطمين قلوبهم

فلمَّا كان الحديث عن الهمِّ بالفشل الَّذي صدر من فريق من المؤمنين في الآية السَّابقة، ربَّما أَوْقَعَ في نفوس البعض شيئًا من القلق والخوف؛

---

(1) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ذلّ).
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 90، ونخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 66.
(3) أبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 24/79.
(4) الخنين، النظم القرآني، ص: 100.
(5) القِنَّوْجيُّ، فَتْحُ البَيانِ: 2/324.

كان إخراج المعنى على هذا النَّحو من التَّأكيد باللَّام والقَسَم[1]، و﴿وَلَقَدْ﴾ مع الفعل الماضي ﴿نَصَرَكُمُ﴾ الَّذي يُفيد تَحَقُّق وقوع الفعل مع ما يحمله معناه من البُشرى والتَّفاؤُل نَزعًا لكلِّ شائبة تتعلَّق بالنُّفوس من التَّردُّد والشَّكِّ، مع ما تحمله هذه المؤكِّدات من الامتنان[2].

دلالات إظهار الاسم الجليل مرَّة أخرى بعد ذِكْرِهِ قريبًا:

بيان تمام الوفاء بنسبة الفضل إلى صاحبه إيذانًا بشكره والتَّسبيح بحمده

إظهار لفظ الجلالة وذكره باسمه دون ضميره مع تقدُّم ذكره في فاصلة الآية السَّابقة؛ لأنَّ الجملة في قوَّة القسم بدخول (الواو) و(اللَّام) و(قد) على رأس الآية، فلا بدَّ عندئذٍ من إسناد الفعل إلى فاعله صراحةً، ونسبة الفضل إلى صاحبه؛ لأنَّ ذلك من تمام الوفاء له، إيذانًا بشكره والتَّسبيح بحمده، فهو وحده الَّذي سخَّر جميع عوامل النَّصر يوم بدر، ويَسَّرها، وعدَّد أَضْرُبَها، وكثَّر أنواعها: ما بين مَطَرٍ هاطل، وملائكة تَنْزِلُ، وعدوٍّ يرتعب، فحريٌّ إذًا بأن يُسْنَدَ فِعْلُ النَّصر إليه، ويُنَصَّ عليه، بأحبِّ أسمائه إليه، وأعظمها لديه، وهو اسمه الأعظم الفخم المفخَّم (اللّه) الَّذي إذا ذُكر؛ لم ينقدح في القلب غيره، ولم يلتفت العقل إلى سواه[3].

فلمَّا كان شأن النَّصر شأنًا عظيمًا دالًّا على تَفَرُّده بالتَّدبير؛ أظهر اسمه الأعظم في موضع كان من الممكن أن يُضمر فيه.

دلالة الكناية في التَّعبير عن الضَّعف بِجمعِ القِلَّةِ بلفظة ﴿أَذِلَّةٌ﴾:

استحضار حال المخاطبين حال قِلَّةِ عددهم وضعف عُدَدِهِمْ

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ استحضار لحالهم عبر ضمير المخاطب، والجملة واقعة حالًا من مفعول ﴿نَصَرَكُمُ﴾، أي: نصركم، وحالكم ما ذُكر، ولفظة ﴿أَذِلَّةٌ﴾ جمع قلَّة، واحدها: ذليل، وهنا يرد سؤال، مضمونه: معلوم أنَّ المقام مقام خطاب للمؤمنين، فكيف

(1) لأنَّ اللَّام واقعة في جواب قسم محذوف، يُنظر: الدَّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/46.
(2) الدّبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/534.
(3) الخنين، النظم القرآني، ص: 100.

يُخبر عنهم بالذِّلَّة والله تعالى قد حكى حالهم، فقال لهم: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾ [آل عمران: 139]، وقال أيضًا: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8]، فما سِرُّ ذلك؟ فيُجاب عنه بأنَّ السِّرّ في جمعه جمع قلَّة للإشعار باتِّصافهم حينئذٍ بوصفي القِلَّةِ والذِّلَة، أي: قلَّة العدد وضعف الحال، وقلَّة السَّلاح والمال، وعدم القدرة على مقاومة العدوِّ، ومعنى الذُّلِّ: الضَّعف عن المقاومة، فيكون هذا الذُّلُّ - وهو الضَّعف في العدد والعُدد - وقْتيًّا انقضى بوقته، وارتفع بزوال زمنه، ثُمَّ انضمَّت إلى عزّة الإيمان عزّةُ الشَّوكة والسِّلاح بعد غزوة بدر الكبرى الَّتي انبنى عليها مجد الإسلام وظهر سنامه[1]، وقدْ شكَّل الطِّباق بين لفظتي ﴿أَذِلَّةٞ﴾ و﴿نَصَرَكُمُ﴾ هذه الصُّورة الجليَّة للحال الَّتي كان عليها المسلمون أوَّل الأمر، ثُمَّ كيف تغيَّر حالهم؟ فأصبحوا بنصر الله أعزَّة ظاهرين، ففي الكلام كناية عن قِلَّةِ عددهم وعُدَّتِهم، وما كان بهم من ضعف الحال، وذلك أنَّهم خرجوا على النَّواضح يَعْتَقِبُ النَّفر منهم على البعير الواحد، وما كان معهم إلَّا فرس واحد[2].

وقد يُحمل الكلام على الحقيقة، ويكون المُراد أنَّهم كانوا أَذِلَّةً في زعم المشركين واعتقادهم لأجل قِلَّة عددهم وسلاحهم، وهو مثل ما ذكر الله من قول المنافقين أنَّهم قالوا: ﴿لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾ [المنافقون: 8]، وعلى ذلك فيكون وصفهم بالذِّلَّة من باب حِكاية حالهم في نَظَرِ من حَوْلَهُم من الكفَّار، ومُجاراةً لظنِّهم، وليس ذلك حُكْمًا دائمًا عليهم، فتبقى عزَّتهم المعنويَّة والحسيَّة ظاهرة غير مَرُومَةٍ، تَدُلُّ عليها الآيات المذكورة، ويكون في الكلام تعريضٌ بأنَّ انهزام يوم أُحُد لا يَفُلُّ حِدَّة المسلمين؛ لأنَّهم صاروا أعزَّةً، والحرب سِجالٌ[3].

ومِمَّنْ جمع بين التَّأويلين المذكورين في عبارة تَلُوح منها البلاغة: عَبْدُ الكريم الخَطيب حيْث قال: والذِّلَّة الَّتي وصف القرآن بها المسلمين هنا ليست ذلَّة نفسيَّة، ولا ضعفًا قلبيًّا، وإنَّما هي ذلَّة حاجة وعوز، وقلَّة في المال والرِّجال، بحيث يخفُّ ميزان أصحابها في أعين

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/348، والآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/259.
(2) أبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/79، ودرويش، الجدول: 4/299، والنّواضح: البعير الّذي يُستقى عليه، الجوهريّ، الصّحاح: (نضح).
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/348، وأَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيطُ: 3/330، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/72.

النَّاس، حين ينظرون إلى ظاهرهم هذا، فوصْف المؤمنين بالذِّلَّة هنا، إنَّما هو وصْف للحال الظَّاهر منهم للنَّاس، أمَّا في حقيقة أنفسهم؛ فهم - من إيمانهم بالله، وثقتهم فيه، وتوكُّلهم عليه واستعلائهم على حاجات الجسد، ومتاع الحياة - في عزَّة عزيزة، تستخفُّ بكلِّ قوى المادَّة وعتوِّها"[1].

دلالة ترتيب الأمر بالتَّقوى على الإخبار بالنَّصر بطريق الإيجاز:

الإيـــذان بـأنَّ الـنَّـصـر المذكـور كـــان بـسـبـب التَّقوى

وفي قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، تقديره: فإذا علمتُم ذلك؛ فاتَّقوا الله، كما اتَّقيتم يومئذٍ، فحَذْفُ الشَّرط مع أداته وذكرُ الجواب: فيه إيجاز أغنى السِّياق عن ذكره، وفي ترتيب الأمر بالتَّقوى على الإخبار بالنَّصر: إيذان بأنَّ نصرهم المذكور كان بسبب تقواهم[2]؛ فكانوا مأمورين بالتَّقوى ابتداء وانتهاء.

دلالة التَّفريع بذكر الشُّكر بعد ذكر النِّعمة:

بيـان أنَّ شُـكْـرَ الـنِّـعَـم يكـون بملازمة التَّقوى

فالفاء للتَّفريع، والمعنى: بهذا النَّصر الذي نصركم الله يَجِبُ عليكم أن تتَّقوا الله، وقد أظهر الاسم الأحسن في هذا المقام؛ لأنَّه مَناطُ الأمر بالتَّقوى، فهو واهب النِّعم، ورافع النِّقم، وصاحب الأمر والنَّهي، وهو المرتجى في الرَّخاء واللَّأواء، كما أنَّ الله تعالى لَمَّا ذكَّرهم بتلك المنَّة العظيمة؛ ذكَّرهم بأنَّها سبب للشُّكر، فأمرهم بالشُّكر بملازمة التَّقوى، فاستحقَّت هذه النِّعمة الكبرى الشُّكر من المؤمنين بملازمة التَّقوى، والشَّكرُ مَجْلَبَة للنِّعَم مَدْفَعَة لِلنِّقَم، كما قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: 7]، ومن الشُّكر على ذلك النَّصر أن يثبتوا في قتال العدوِّ، وامتثال أمر النَّبيِّ ﷺ[3].

دلالة التَّعبير بالشُّكر بين الحقيقة والمجاز:

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾، أي: لعلَّكم تشكرون بتقواكم ما أنعم

(1) الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 2/574.

(2) أبو السُّعودِ، إرشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/79، والدّبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/534.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/72. وابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين (سورة آل عمران): 2/125.

وضــع الـشُّـكـر موضع الإنعام في كونه سَبَبًا له

به عليكم من نُصرَتِه، فيكون الشُّكْرُ على النِّعمة الَّتي أنجزها لهم في بدر، أو لعلَّ اللّه يُنْعِمُ عليكم نِعْمَةً أخرى تشكرونها، فَوَضع الشُّكر مَوضِعِ الإنعام؛ لأنَّه سَبَبٌ لَهُ[1]، فيكون الرَّجاء في الإنعام المُقْتَضي الشُّكرَ، ويكون التَّعبير بالشُّكْرِ عن الإنعام من التَّعبير باللَّازم، وهو مجازٌ مُرسَلٌ علاقته السَّببيَّة، فإنَّ الشُّكر سبب في نيل النِّعمة من اللّه سبحانه[2].

نكتة التَّعبير بـ ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾ في مقام الشُّكر:

بيان عـزَّة مقام الـشُّـكـر وعـلـوِّ منزلته

في التَّعبير بـ (لعلّ) المفيدةِ للتَّرجِّي دلالة على عِزَّةِ الوصول إلى مقامات التَّقوى ومقام الشَّاكرين، ويدلُّ على هذا قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: 13].

دلالات ضمير الخطاب في الآية الكريمة:

تـمـكـين غـرض الــخــطــاب في نفوس المؤمنين تحقيقًا للتَّقوى وتعزيزًا لليقين

فضمير الخطاب الأوَّل هو الَّذي وُجِّهَ من خلاله الأمرُ بالتَّقوى في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ﴾، وقُصِدَ به المؤمنون، فهم المقصودون بفعل التَّقوى واستشعارِها، وضمير الخطاب الثَّاني هو الواقع اسمًا لحرف التَّرجِّي (لعلّ) الَّذي يُفيدُ أنَّ فِعْلَ التَّقوى منكم - أيُّها المؤمنون - يُرجى منه أن يكون سُلَّمًا لكم يُفْضي بكم إلى مقام الشَّاكرين للّه تعالى على نعمه، ومنها نَصرُكُمْ في بدر، فيكون مُؤْذِنًا بِتَفَتُّح أبواب النَّصر عليكم؛ إذا سلكتم ذلكم السَّبيل القويم، وضمير الخطاب الثَّالث هو الواقع فاعلًا للفعل المضارع: ﴿تَشۡكُرُونَ﴾، فَفِعْلُ الشُّكْرِ هُنا مُسْنَدٌ إلى المخاطبين، وهم المؤمنون، واخْتِير الفعل المضارع؛ ليكون مُسندًا هو دون غيره من الأفعال؛ لكون صيغة المضارع تُفيد التَّجدُّد والحدوث في حاضر الزَّمان وفي مستقبل الأيَّام، وبذلك يكون الشُّكر مطلوبًا فِعْلُهُ في سائر الأوقات، ويتَأَكَّدُ أمره عند تجدُّد

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/349، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/219.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/219، والدّبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/535.

أسبابه وحدوث دواعيه، وهذا ما يُفيده الأمر بالتَّقوى الموجَّه إلى المؤمنين الشَّاكرين - عَقِيْبَ ذِكْرِ نصرهم في بدر - حتَّى يرتفعوا إلى منزلة الشَّاكرين، فكان الشُّكر علامة على التَّقوى وثمرة لها، فمن وصل إليه، وتَلَبَّس به؛ فقد اتَّقى، ومن لا؛ فلا، وهذا ما يُفيده النَّظم القرآنيُّ الكريم لمن تأمَّله، وأنعم النَّظر في دقائقه[1].

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الذُّلّ والمهانة:

الــذُّلُّ خضوع واستكانة في عجز، وقد يكون محمودًا، وفي المهانة معنى الاحتقار

الذُّلُّ: نقيض العزِّ، وأصل هذه المادة يدلُّ على الخُضوع والاستكانة واللِّين، يقال: ذلَّ يذِلُّ ذُلًّا وذِلَّة وذَلالة ومَذلَّة؛ إذا ضَعُف وهان، وتذلَّل له، أي: خضع[2]، الذِّلَّة: خضوع في النَّفس، واستكانة من جرَّاء العجز عن الدَّفع[3]، فهي ضعف عن المقاومة[4]، ومن الذُّلِّ ما هو محمودٌ، كالذُّلِّ لله سبحانه وتعالى، وهذا الذُّلُّ عنوان العِزِّ والشَّرف والنَّصر في الدُّنيا والآخرة، وكالذُّلِّ للوالديْن، قال تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ [الإسراء: 24]، ومتى كان الذُّلُّ من جهة الإنسان نَفْسِه لنفسه؛ فمحمود، نحو قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: 54]، وهو بمعنى: التَّراحم والتَّواضع والعطف والإشفاق[5]، ومنه ما هو مذموم: وهو التَّذلُّل لغير الله على وجه الهوان والضَّعف والصَّغار والانكسار.

أمَّا المهانة؛ فهي الاِطِّراح إذلالًا واحتقارًا[6]، ونقيضها الإكرام، يُقال: أهانه يُهينُه إهانة: استخفَّه[7]، وقد تكون بمعنى: الضَّعف،

(1) الخنين، النظم القرآني، ص: 102.
(2) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خضع).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/119.
(4) العسكري، الفروق اللغوية: 251.
(5) ابن القيِّم، مدارج السَّالكين: 2/310، وابن جرير، جامع البيان: 10/421.
(6) المناوي، التوقيف، ص: 67.
(7) الكفويُّ، الكليات، ص: 211.

ومنه قوله تعالى: ﴿مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٨﴾ [السَّجدة: 8]، أي: ضعيف، فيكون مأخوذًا من تهوين القدر، وأنْ يجعل هذا الأمر صَغيرًا لا يُبالى به، والاستهانة تكون من النَّظير للنَّظير[1].

فَكِلَا المصطلحين يَدُلُّ على الضَّعف إلَّا أنَّ في الإهانة معنى الاحتقار، ولا تُطْلَقُ إلَّا في مَعْرِضِ الذَّمِّ، بخلاف الذُّلِّ؛ فَمِنْهُ المحمود ومنه المذموم.

الشُّكر والحمد:

الحـمـد أعـمُّ مُتَعَلَّقًا وأخصُّ آلـةً، والشُّـكْـرُ أخـصُّ مُتَعَلَّقًا وأعمُّ آلةً

اختلف العلماء في بيان الفَرْقِ بين الحمد والشُّكر، فقد عدَّ بعضهم: أنَّ الحمد هو الشُّكر[2]، لكنَّ الصَّحيح أنَّ الحمد مُغاير للشُّكر، وذلك أنَّ بينهما عمومًا وخصوصًا من جهتين: فالحمد يعمُّ الشُّكر وغيره[3]، وهو الثَّناء على الجميل الاختياريِّ من نعمة أو غيرها[4]. فالحَمْد يكون في مقابل النِّعمة، ويكون ابتداءً، قال الأزهريُّ: "الحمدُ قَدْ يكون شُكْرًا للصَّنيعة، وَيكون ابْتِدَاءً للثَّناء عَلَى الرَّجُلِ"[5]، بل قد يُحَمْدُ على المُصيبَة، وذلك في حَمْدِ اللّٰهِ تعالَى؛ إِذْ يكون عَلَى كلِّ حالٍ، فالحَمْد أعمُّ متعلَّقًا من الشُّكر.

أمَّا الشُّكر؛ فهو عِرْفانُ الإِحْسانِ ونَشْرُه، وَلا يَكُونُ إلَّا عن يَدٍ[6]، فهو مقابلة النِّعمة بالثَّناء[7].

أمَّا من جهة الآلةِ؛ فالحَمْدُ يكون باللِّسان والقلبِ دُون الجوارحِ[8]،

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 523.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (حمد)، وذكر بهرام الدَّمِيريّ في تحبير المختصر: 1/62 أنه ظاهر قول سيبويه، وهو ظاهر كلام ابن جرير في تفسيره: 1/138.

(3) الجوهري، الصحاح: (حمد)، وذهَب الخطابيُّ إلى أنَّ الشّكرَ أعمُّ مُطْلقًا مِنَ الحمد، فقال: "الحمد نوعٌ، والشُّكر جِنْس، فكلُّ حَمْدٍ شُكْرٌ، وليس كُلُّ شُكْرٍ حمدًا"، الأزهري، تهذيب اللغة: (حمد).

(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/27.

(5) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (حمد).

(6) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (شكر).

(7) الرّاغب، المفردات: (حمد).

(8) ابنُ سِيدَهْ، المُخصَّص: 5/231 - 232.

بخلاف الشُّكْرِ؛ فَإنَّه يكون بالقلب واللِّسان والجوارح، كما قال الله سبحانه: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سَبَأ: 13]، فتقرَّر من هذا أَنَّ الشُّكْرَ أعمُّ مِنْ جهة الآلَةِ، فالحمد: أعمُّ مُتَعَلَّقًا وأخصُّ آلةً، والشُّكْرُ: أخصُّ مُتَعَلَّقًا وأعمُّ آلةً[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغوية، (ص202)، والتَّهَانَوِي، كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: 1/541، وحافظ حكمي، معارج القبول: 1/72.

﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ
ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ١٢٤ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم
مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ
مُسَوِّمِينَ ١٢٥﴾ [آل عمران: 124 - 125]

بيان موعود الله تعالى لعباده المؤمنين بالإعانة والمدد بعد حثِّهم على التَّقوى والشُّكر

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

لَمَّا اشتملت هذه القصَّة على المصيبة التي سيقصُّ الله كثيرًا منها؛ كان أنسب من قصِّها وبيان ما اتَّفق لها - لوعْظ من يأتي - البداءة بتذكير من باشرها بما وعدهم الله به على لسان نبيِّه ﷺ قبل وقوع القتال، فقال: ﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1]، فذكَّرهم سبحانه بما كان يوجِّهه إليهم النَّبيُّ ﷺ من توجيهات سامية، وإرشادات نافعة، وبشاراتٍ متتابعة[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَكۡفِيَكُمۡ﴾: الكفاية مِقْدَارُ سدِّ الخَلَّة، والقيام بالأمر وبلوغ المراد منه، يُقال: كفاك الشَّيءُ يَكفِيك، وقد كَفَى كِفاية؛ إذا قام بالأمر، وأصل (كفى): يدُلُّ على الحَسْب الَّذي لا مُستَزَادَ فيه[3].

2) ﴿يُمِدَّكُمۡ﴾: الإمداد: إعطاءُ الشَّيء حالًا بعد حال، يقال: مَدَدْتُ الشَّيْءَ أَمُدُّهُ مَدًّا، أَيْ: زَادَ فِيه، وَوَاصَلَهُ، وكلُّ ما كان منه بطريق التَّقوية والإعانة، يقال فيه: أَمَدَّه، وأصل (مدَّ): جرُّ شَيْءٍ في طُولٍ، وَاتِّصَال شَيْءٍ بِشَيْءٍ في اسْتِطَالَةٍ، فما كان بطريق الزِّيادة؛

(1) البِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/55 - 56.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/248.
(3) الرَّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (كفي)،

يُقال فيه: مدَّه مدًّا، والإمداد: إعانة الجيش بالجيش، والمعنى هنا: يساعدكم، ويعينكم، ويقوِّيكم ﴿رَبُّكُم﴾ على عدوِّكم[1].

3) ﴿مِّن فَوۡرِهِمۡ﴾، أي: مِن وجْهِهم أو مِن ساعتِهم، أو مِن غضَبهم وهيجانهم وشدَّة تحرُّكهم، يُقال: فار فائرُه؛ إذا غضِب، والفور عكسه التَّراخي، وهو بمعنى: سرعة الإتيان، وأصل الفَوْر: الغليان وابتداءُ الأمْر قبل سكونه، فيُؤخَذ فيه، ويُوصَل بآخَرَ، يُقال: فَعلَه مِن فَوْره، أي: في بَدْءِ أمْره، قبل أن يَسكُن، والمعنى هنا، أي: من وقتهم وساعتهم[2].

4) ﴿مُسَوِّمِينَ﴾، أي: مُعلِّمين لأنفسِهم أو لخيولِهم بعَلامةِ الحَرب، مأخوذٌ من التَّسويم الَّذي هو إظهار سيما الشَّيء، وهي علامته الَّتي تُعلِّم الفارسَ نفْسَه[3].

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

اذكر - أيُّها النَّبيُّ ﷺ - حين قلتَ للمؤمنين مثبِّتًا لهم في معركة بدر بعدما سمعوا بمَدَدٍ يأتي للمشركين: ألن يكفيكم أن يعينكم الله بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين منه سبحانه لتقويتكم في قتالكم؟ بلى، يكفيكم ذلك الإمداد، ولكم بشارة بعون آخر من الله؛ إن صبرتم على القتال، واتَّقيتم الله، وجاء المدد إلى أعدائكم من ساعتهم مسرعين إليكم، يظنُّون أنَّهم يستأصلونكم، فإنَّ ربَّكم سيعينكم بخمسة آلاف من الملائكة معلِّمين أنفسهم وخيولهم بعلامة ظاهرة[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ مجي الظَّرف المتعلِّق بأوَّل الآية السَّابقة ﴿نَصَرَكُمُ﴾ بعد الأمر بالتَّقوى ﴿فَٱتَّقُواْ﴾:

إظهار كمال العناية بشأن التَّقوى في كونها سببًا للنَّصر

(إذ): ظرف بمعنى: حين، والعامل فيه فعل مُضمَر، أي: اذكر حين تقول، ويجوز أيضًا أن تكون بدلًا من قوله: ﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ﴾[5]،

---

(1) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (مد).
(2) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 9/155، والسجستاني، غريب القرآن، ص: 359، وابن فارس، مقاييس اللغة: (فور).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (سوم)، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 50.
(4) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 91، ونخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 66.
(5) السّمين، الدّرّ المصون: 3/384.

والعامل في ﴿إِذْ﴾ هو الفعل ﴿نَصَرَكُمُ﴾ وعلى ذلك فالمقالة المحكيَّة عن النَّبيِّ - ﷺ - وماتلاها كانت في غزوة بدر، وهذا هو الَّذي عليه جمهور المفسِّرين[1]، ومع أنَّ (إِذْ) ظرفٌ لـ(نَصَرَكُمْ) إلا أنَّه قُدِّم عليه الأمر بالتَّقوى؛ لإظهارِ كمالِ العِنايةِ به[2].

سِرُّ تنويع الخطاب من خطاب الجمع إلى مُخاطبة المفرد:

تخصيصُ النَّبيِّ ﷺ بـلـذيـذ الخطاب تشريفًا وتكريمًا

ضمير المخاطب في قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ﴾ موجَّه مباشرة إلى شخص الرَّسول الكريم ﷺ بتخصيصه ﷺ؛ تشريفًا وإيذانًا بأنَّ وقوعَ النَّصرِ كان ببشارته ﷺ، بذلك المدد من اللّه ﷻ، فكان هذا تلوينًا للخطاب ونقلًا له من أسلوب خطاب المؤمنين الَّذي انتهت به الآية المتقدِّمة ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إلى أسلوب خطاب الرَّسول وحده على سبيل التَّخصيص والتَّشريف الَّذي هو عين التَّكريم من الكريم جَلَّ عزُّه وثناؤه[3].

بلاغة العُدول عن التَّعبير بِفِعْلٍ مَضى وانقَضَى إلى فِعْلٍ مُضارع:

استحضار صورة الحال الماضية في هيئة المشاهدة الحاضرة

إنَّ هَذِهِ الَّتي وقعت أحداثها، ومضى زمانها، قد حُكِيت بالفعل المضارع، وصُرِف النَّظر عن التَّعبير عنها بالفعل الماضي، مع أنَّه هو المناسب في الظَّاهر لكون الحدث قد مضى؛ يُفَسِّرُ لنَا مَشْهَدُهَا أَنَّ طبيعة الفعل المضارع هي الَّتي تفي بغرض النَّظم، وتأتي عليه، والمرادُ به الوقتُ الممتدُّ الَّذي وقع فيه ما ذكر بعده، وما طُوِيَ ذكرُه تعويلًا على شهادة الحالِ ممَّا يتعلَّق به وجودُ النَّصرِ فصيغةُ المضارع ﴿تَقُولُ﴾ جاءت لحكايةِ الحالِ الماضيةِ لاستحضار صورتِها، أي: نصركم وقت قولك (للمؤمنين) حين أَظْهَروا العَجْزَ عن المقاتَلة[4]، ولهذا أوثر المضارع دون غيره.

(1) وهو اختيار ابن جرير وابن كثير وأَبي حَيّانَ وأَبي السُّعودِ، وغيرهم
(2) أَبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/79 - 80.
(3) أَبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/79، والخنين، النظم القرآني: 104.
(4) أَبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/80.

نكتة تخصيص وقت البشارة بالإمداد بالذِّكر في مقام الامتنان:

كونه وقت ظهور المعجزة وتمام النِّعمة

وَخُصَّ هَذَا الْوَقْتُ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ وَقْتَ ظُهُورِ هَذِهِ الْمُعْجِزَةِ، وَهَذِهِ النِّعْمَةِ، فَكَانَ جَدِيرًا بِالتَّذْكِيرِ وَالِامْتِنَانِ[1].

دلالة الألف واللَّام في ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المخاطبين بهذا الوصف الجليل:

مدح لتلك الثُّلَّة المؤمنة الصَّابرة وثناءٌ عليهم بوصف الإيمان المُوجِبِ لرضا الرَّحمن

الألف واللَّام في ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: قُصِد بهما التَّعريف الحضوريُّ؛ فالمؤمنون الَّذين وجِّه إِلَيْهِمْ ذلك القول؛ هم الَّذين حضروا غزوة بدر، وليس كلُّ المؤمنين زمنَ النَّبيِّ ﷺ فإنَّ منهم من كان في المدينة من الرِّجال والنِّساء، لم يخرجوا لملاقاة العير مع النَّبيِّ ﷺ لكونهم لم يستنفروا، أو لكون الخروج لم يقصد به القتال في البداية، ولكنَّه آل إليه في النِّهاية[2]، وفي هذا الوصف مدح وثناء لتلك الطليعة من طلائع الصَّادقين الَّذين غرسوا بإيمانهم وصبرهم وثباتهم نواة الجهاد والفداء لهذا الدِّين، وأحاطوا بيضة الإسلام بسور منيع وحصن حصين في تلك الغزوة المباركة العظيمة، فكانت فاتحة غزوات أهل الإسلام.

دلالة دخول همزة الاستفهام على أداة النَّفي:

تشريف المؤمنين بإثبات كفايتهم بهذا العدد وتقريرها والإشعار بحالهم يوم المعركة

الغرض البلاغي من دخول الهمزة في الجملة وإيقاعها على حرف النَّفي (لن): هو إنكار عدم كفاية الإمداد بذلك العدد من الملائكة المذكور في الآية، والكفاية تكون بسدِّ الخَلَّة وبلوغ المراد في الأمر، وإيقاع الكفاية على المؤمنين - مع مخاطبتهم بذلك في معرض الإنكار - فيه تشريف ظاهر للمؤمنين، حيث كفُّوا شَرَّ الأعداء، والَّذي كفاهم هو ربُّهم سبحانه وتعالى، وورود أداة النَّفي (لن) الَّتي تفيد توكيد النَّفي، وتسليطها على فعل الكفاية؛ للإشعارِ بأنَّهم كانوا يوم بدر لضعفهم وقلّتِهم وقوَّةِ العدوِّ وكثرتهم[3]، كالآيسين من كفايةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/72.

(2) الخنين، النظم القرآني: 104.

(3) أبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/80.

هذا المدد من الملائكة، فأَوقَع الاستفهامَ التَّقريريَّ على ذلك؛ ليكون تَلْقينًا لمَن يُخالِج نَفْسه اليأسُ من كفاية ذلك العدد من الملائكة، بأنْ يُصرِّح بما في نفْسه، والمقصود من ذلك لازمُه، وهذا إثباتُ أنَّ ذلك العدد كافٍ[1].

دلالة إضافة الإمداد إلى عنوان الرُّبوبيَّة:

تشريف المؤمنين بحُسن النَّظر لهم واللُّطف بهم

وإسناد الإمداد إلى الرَّبِّ تبارك وتعالى من باب إسناد الفضل إلى صاحبه، والتَّعرُّض لعنوان الرُّبوبيَّة فيه إشارة إلى أنَّ هذا المدد رأفة بكم وإصلاح لشأنكم، ولهذا جاء إضافة الرَّبِّ إلى ضمير المؤمنين على سبيل مخاطبتهم بلغة الرَّحمة، ففي هذه الإضافة إظهار لمزيد العناية بهم، وإفصاح عن علَّة إمدادهم، وهي كونه ربًّا لهم، يرحمهم وقت ضعفهم، فيزيد من قوَّتهم بمدده وجنده، وهذه نهاية التَّشريف، وغاية الكرامة في الحياة الدُّنيا، وفي الآخرة؛ ففيه إشعارٌ بحُسْنِ النَّظر لهم، واللُّطف بهم[2].

سِرُّ التَّكثير بِذِكْرِ العدد مع جمع لفظة الملائكة:

تسكين قلوب المؤمنين وطمأنتهم وتبشيرهم بالنَّصر

إنَّما كَانَتِ الْفَائِدَةُ في كَثْرَةِ الْمَلَائِكَةِ؛ لِتَسْكِينِ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلِأَنَّ اللَّه تَعَالَى جَعَلَ أُولَئِكَ الْمَلَائِكَةَ مُجَاهِدِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَكُلُّ عَسْكَرٍ صَبَرَ وَاحْتَسَبَ؛ تَأْتِيهِمُ الْمَلَائِكَةُ، وَيُقَاتِلُونَ مَعَهُمْ[3].

كما أنَّ إيراد اسم العلم ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ بصيغة الجمع في سياق خطاب المؤمنين، ومساءلتهم على لسان نبيِّهم قبيل بداية غزوة بدر الكبرى، والغرض من ذلك كلِّه: هو طمأنة قلوب المؤمنين، وتبشيرهم بنصر الله؛ لأنَّ المدد حاصل من ربِّهم، ونوع هذا المدد هم الملائكة، وهم من هم غلظة وشدَّة على أعداء الله؛ ولذلك فلا

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/353، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/73.
(2) أبو حيّان، البَحْرُ المحيطُ: 3/334، والخنين، النظم القرآني: 105.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 4/194.

جرم بأن يذهب عن أصحاب النَّبيِّ ﷺ الرَّوع، وتسكن نفوسهم إلى ربِّهم، وتتعلَّق قلوبهم به، وتأتمر بأمر نبيِّه[1].

نُكتة وَصْفِ الملائكة بالتَّنزُّل:

إلقاء المهابة على مَكانة المَدَدِ الملائكيِّ وكثرة عدده

ولفظة ﴿مُنزَلِينَ﴾ وصف لثلاثة آلاف، أو هي حال من الملائكة، وعلى كلا الاحتمالين؛ فإنَّ فائدتها ظاهرة، وهي إلقاء المهابة على هذا المدد بكونه غير عاديٍّ ولامألوف، بل هو مدد له مكانته وقيمته، مما يجعل الممدودين به في ثقة وأمان من أيِّ عدوٍّ كان؛ للدَّلالة على أنهم يَنزِلون إلى الأرض في مَوقِع القتال عِنايةً بالمسلمين[2]، وقرئ ﴿مُنَزَّلِينَ﴾ بتشديد الزاي[3]، وعلى هذه القراءة يكون المعنى: إفادة كثرتهم، أو التَّدرُّج في نزولهم[4].

نكتة الجواب بـ ﴿بَلَىٰٓ﴾ بعد الاستفهام التَّقريريِّ:

إبطال النَّفي وإثبات كون العدد كافيًا

فلأجل كون الاستفهام السَّابق تقريريًّا غير حقيقيٍّ كان جوابه بـ ﴿بَلَىٰٓ﴾ إِبْطَالًا لِلنَّفْيِ، وَإِثْبَاتًا لِكَوْنِ ذَلِكَ الْعَدَدِ كَافِيًا، وَهُوَ مِنْ تَمَامِ مَقَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ لِلْمُؤْمِنِينَ[5].

فقوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ﴾ إيجاب لما بعد ﴿أَلَن﴾ بمعنى: بلى يكفيكم الإمداد بهم، فأوجب الكفاية[6] من حيث كان الأمر بيِّنًا في نفسه بأنَّ الملائكة كافية، فبادر المتكلِّم إلى الجواب؛ ليبني ما يستأنف من قوله عليه، فقال: ﴿بَلَىٰٓ﴾ ، وهي جواب المقرِّرين، وهذا يحسن في الأمور البَيِّنَةِ الَّتي لا محيد في جوابها، ونحوه قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾[7] [الأنعام: 19].

(1) الخنين، النظم القرآني: 104.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/74.
(3) قَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ بِتَشْدِيدِ الزَّايِ، وقَرَأَ الْبَاقُونَ بِتَخْفِيفِهَا، ينظر: ابن الجزري، النَّشر: 2/242.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/37، وأبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/80، والخنين، النظم القرآني، ص: 104.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/73.
(6) الزَّمَخْشَرِيُّ، الكَشَّاف: 1/411.
(7) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/503.

سِرُّ مُخاطبة المؤمنين بصيغة المضارعة:

التَّنويه بالتَّحلِّي بالأوصاف الجالبة للنَّصر والمدد

فمخاطبة المؤمنين عبر ضمائر الخطاب من خلال صيغة الفعل المضارع، فكأنَّما قيل لهم: إنَّ تحلِّيكم بالصَّبر والتَّقوى ومفاجأة العدوِّ لكم، وأنتم على هذه الحالة، لايضرُّكم، فإنَّ مدد ربِّكم لكم يستتبع هذه الأحوال[1].

فقد رَتَّبَ تَعَالَى عَلَى مَجْمُوعِ: الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى وَإِتْيَانِ الْعَدَدِ مِنْ فَوْرِهِمْ إِمْدَادَهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَكْثَر مِنَ الْعَدَدِ السَّابِقِ، وَعَلَّقَهُ عَلَى وُجُودِهَا، بِحَيْثُ لَا يَتَأَخَّرُ نُزُولُ الْمَلَائِكَةِ عَنْ تَحَلِّيهِمْ بِثَلَاثَةِ أَوْصَافٍ[2].

دلالة الفور وإضافته إلى كفَّار قريش:

تصوير شدَّة ارتباط الفور واختصاصه بهم وتأكيد سرعة إتيانهم

الفَوْر: العجَلةُ والسُّرعة، ومنه: (فارَت القِدْر) اشتدَّ غلَيانها، وسارع ما فيها إلى الخروج، يقال: فارَ يفُور فَوْرًا، ويُعَبَّر به عن الغضب والحِدَّة؛ لأنَّ الغَضْبانَ يسارع إلى البطش بمَنْ يغضب عليه، فالفور في الأصل مصدرٌ، ثم يُعَبَّر به عن الحالة الَّتي لا رَيْثَ فيها ولا تعريج عن شيء سواها[3]، وهذا المعنى اللُّغويُّ له ارتباط شديد بالمعنى القرآنيِّ المعبَّر عنه، فإنَّ مَنْ بقي من قريش في مكَّة قد عزموا على حزم أمرهم، والخروج من فورهم نصرة لقومهم في بدر بقيادة: كرز بن جابر المحاربيِّ، فشقَّ ذلك على المسلمين؛ لأنَّ هذا مدد للعدوِّ، وزيادة قوَّة إلى قوَّتهم، والمسلمون قلَّة في عددهم وعدَّتهم، فجاء وعد ربِّهم جلَّ وعلا غوثًا لهم، وشدًّا لمآزرهم في ساعة هم أحوج ما يكونون لذلك، فلفظ فَوْرِهِمْ فيه تأكيدٌ لسرعةِ إتيانهم وإمدادِهم[4]، وإضافة الفور إلى ضمير الغيبة العائد على كفَّار قريش؛ لإفادة شدَّة اختصاص الفور بهم،

(1) الخنين، النظم القرآني: 106.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/334.
(3) السَّمين، الدُّرُّ المَصونُ: 3/387.
(4) أَبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/80.

أي: شدَّة اتِّصافهم به، حتَّى صار يعرف بأنَّه فورهم، ومن هذا القبيل قولهم: خرج من فوره(1).

سِرُّ الكناية بالفور على العجلة:

فاسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ كناية على كونه عاجلًا، فكان ذكره تنبيهًا إلى هذا الفور، ونصًّا عليه، وتنزيلًا له منزلة المشاهد القريب(2).

التَّنبيه إلى الفور وتنزيله منزلة المشاهد

دلالة اقتران لفظ(الفور) وعطفها على ذكر الصَّبر والتَّقوى:

ونظمُ إتيانِهم بسرعة في سلك شرطَي الإمداد المستتبِعَيْن له وجودًا وعدمًا - أعني: الصَّبرَ والتَّقوى - مع تحقق الإمدادِ - لا محالةَ - سواءٌ أسرعوا أم أبطؤوا؛ لتحقيق سرعة الإمداد لا لتحقيق أصلِه، أو لبيانِ تحقُّقِه على أيِّ حال فُرِضَ على أبلغ وجهٍ وآكَدِه بتعليقه بأبعدِ التَّقادير؛ ليُعلم تحقُّقُه على سائرها بالطَّريق الأَوْلى؛ فإنَّ هجومَ الأعداءِ وإتيانَهم بسرعة من مظانِّ عدم لُحوق المددِ عادةً، فعُلِّق به تحققُ الإمدادِ إيذانًا بأنَّه حيث تحقَّقَ مع ما ينافيه عادةً، فلأَنْ يتحقَّقَ بدونه أولى وأحرى، كما إذا أردتَ وصفَ درعٍ بغاية الحَصانة، تقول: إن لبستَها، وبارزتَ بها الأعداءَ، فضربوك بأيدٍ شدادٍ وسيوفٍ حِدادٍ؛ لم تتأثَّرْ منها قطعًا(3)، هذا فضلًا عن التَّأكيد الأقصى بأهميَّة الصَّبر والتَّقوى بذكرهما، والنَّصُّ على ضرورة وجودهما حتى يترتَّب عليه النَّصر والمدد، وفي ذلك إشارة إلى توجيه الاهتمام الكامل بتحقيق الشَّرط حتى يتحقَّق المشروط(4).

تحقيق سرعة الإمـــداد مع الفور، وحصوله لا محالة بفور الكفَّار أو دونه

دلالة إظهار اسم الرَّبِّ مرَّة أخرى مع تكرار ذكر الملائكة وزيادة عددهم:

ففي إظهار اسم الرَّبِّ وإضافته إلى ضمير المخاطبين المتوجَّه إلى المؤمنين، وإسناده إلى المدد الثَّاني، تأكيد الإشعار بحسن النَّظر

تأكيد تشريف المؤمنين بحُسن النَّظر لهم واللُّطف بهم وتهدئة روعهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/76، والخنين، النظم القرآني: 107.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/76.
(3) أبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/80.
(4) الخنين، النظم القرآني، ص: 108.

لهم، واللُّطف بهم[1]، كما أنَّ فيه تشريفًا وتكريمًا لهم، وأمَّا زيادة عدد المدد إلى خمسة آلاف، فقد قصد منه تأكيد تهدئة روعهم، وزيادة طمأنة قلوبهم، وسوق عاجل البشرى بنصرهم على عدوِّهم المتكالب عليهم، وإظهار اسم الملائكة مرة أخرى وعدم الاكتفاء بذكرهم في الآية السَّابقة لمزيد الاعتناء بأهمِّيَّتهم، ولكونهم مددًا غير عاديٍّ ولاجارٍ في عرف البشر[2].

الحكمة من تدرُّج ذكر المدد بين سورتي الأنفال وآل عمران:

بيان التَّدرُّج في المدد بحسب العدد

حيث ورد في سورة الأنفال ذكر قصة غزوة بدر، وأخبر تعالى فيها عن المدد بألف من الملائكة، فقال: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ٩﴾ [الأنفال: 9]، بينما أخبر في سورة آل عمران عن المدد بثلاثة آلاف، ثمَّ الزِّيادة إلى خمسة آلاف، والْأَعْدَاد الْمَذْكُورَة هُنَا مُنَاسِبَةٌ لِجَيْشِ الْعَدُوِّ؛ لِأَنَّ جَيْشَ الْعَدُوِّ يَوْمَ بَدْرٍ كَانَ أَلْفًا؛ فَوَعَدَهُمُ اللَّه بِمَدَدِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَة، فَلَمَّا خَشُوا أَنْ يَلْحَقَ بِالْعَدُوِّ مَدَدٌ مِنْ كُرْزٍ الْمُحَارِبِيِّ؛ وَعَدَهُمُ اللَّه بِثَلَاثَةِ آلَافٍ، أَيْ: بِجَيْشٍ لَهُ قَلْبٌ وَمَيْمَنَةٌ وَمَيْسَرَةٌ، كُلُّ رُكْنٍ مِنْهَا أَلْفٌ، وَلَمَّا لَمْ تَنْقَشِعْ خَشْيَتُهُمْ مِنْ إِمْدَادِ الْمُشْرِكِينَ لِأَعْدَائِهِمْ؛ وَعَدَهُمُ اللَّه بِخَمْسَةِ آلَافٍ، وَهُوَ جَيْشٌ عَظِيمٌ لَهُ قَلْبٌ وَمَيْمَنَةٌ وَمَيْسَرَةٌ وَمُقَدِّمَةٌ وَسَاقَةٌ، وَذَلِكَ هُوَ الْخَمِيسُ، وَهُوَ أَعْظَمُ تَرْكِيبًا وَجَعَلَ كُلَّ رُكْنٍ مِنْهُ مُسَاوِيًا لِجَيْشِ العدوِّ كلِّه[3].

سِرُّ الكناية عن الشِّدَّة بالتَّسويم:

بيان قوَّة المدد الملائكيِّ وعدم خُلوص المقاتلين إليه

﴿مُسَوِّمِينَ﴾[4]: مُشْتَقٌّ مِنَ السُّومَة، وَهِيَ الْعَلَامَةُ، وَتُطْلَقُ السُّومَةُ عَلَى عَلَامَةٍ يَجْعَلُهَا الْبَطَلُ لِنَفْسِهِ فِي الْحَرْبِ مِنْ صُوفٍ أَوْ

(1) أَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيطُ: 3/334، والخنين، النظم القرآني، ص: 105.
(2) الخنين، النظم القرآني، ص: 108.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/76 - 77.
(4) وَقد اخْتَلَف القراء فِي: (مُسَوِّمِيَن) فَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، والْبَصْرِيَّانِ، وعَاصِمٌ بِكَسْرِ الْوَاوِ، وقَرَأَ الْبَاقُونَ بِفَتْحِهَا، ينظر: ابن الجزري، النشر: 2/242.

رِيشٍ مُلَوَّنٍ، يَجْعَلُهَا عَلَى رَأْسِهِ أَوْ عَلَى رَأْسِ فَرَسِهِ، يَرْمُزُ بِهَا إِلَى أَنَّهُ لَا يَتَّقِي أَنْ يَعْرِفَهُ أَعْدَاؤُهُ، فَيُسَدِّدُوا إِلَيْهِ سِهَامَهُمْ، أَوْ يَحْمِلُوا عَلَيْهِ بِسُيُوفِهِمْ، فَهُوَ يَرْمُزُ بِهَا إِلَى أَنَّهُ وَاثِقٌ بِحِمَايَتِهِ نَفْسَهُ بِشَجَاعَتِهِ، وَصِدْقِ لِقَائِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَعْبَأُ بِغَيْرِهِ مِنَ الْعَدُوِّ وَوَصْفُ الْمَلَائِكَةِ بِذَلِكَ كِنَايَةٌ عَلَى كَوْنِهِمْ شِدَادًا[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المدد والإمداد:

أكثر ما يكون المدُّ في الشَّرِّ، وأكثر ما يكون الإمداد في الخير

الإمداد: ما كان على جهة القوَّة والإعانة، يُقال فيه: أَمَدَّهُ إمدادًا، وما كان على جهة الزِّيادة، يُقال: مَدَّه مَدًّا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ﴾ [لقمان: 27][2]، وأكثر ما يكون المَدُّ في الشَّرِّ والإمداد في الخير، يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ١٥﴾ [البقرة: 15]، وقوله: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ٧٩﴾ [مريم: 79]، والإمداد يكون في الخير: ﴿أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ٩﴾ [الأنفال: 9]، وقال: ﴿وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [الإسراء: 26][3].

المجيء والإِتْيان:

الْإِتْـيَـانُ مَجِـيءٌ بِـسُـهُـولَـةٍ، والْمَجِيءُ أَعَمُّ

الْإِتْيَانُ: مَجِيءٌ بِسُهُولَةٍ، وَالْمَجِيءُ: كَالْإِتْيَانِ، لَكِنَّ الْمَجِيءَ أَعَمُّ[4]، فَالإِتْيَان: هُوَ الْأَعَمُّ وَالْأَشْمَلُ، وَهُوَ الْبِدَايَةُ، فَإِذَا اكْتَمَلَ، وَبَلَغَ مَقْصِدَهُ مِنْ مَكَانٍ أَوْ زَمَانٍ أَوْ شَخْصٍ؛ أَصْبَحَ مَجِيئًا، فَالْمَجِيءُ: هُوَ إِتْيَانٌ مُحَقَّقٌ بَعِيدٌ عَنْ عَوَامِلِ النَّقْصِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: 129]، فَالإتيَانُ: بِدَايَةُ الْمَجِيءِ زَمَانيًّا أَوْ مَكَانِيًّا، وَقَدْ لَا يَتِمُّ، فَلَا يَكُونُ مَجِيئًا، أَمَّا الْمَجِيءُ؛ فَهُوَ إِتْيَانٌ مُحَقَّقٌ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/76.

(2) الرَّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللغة: (مد)، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 5/108.

(3) الثعلبي، الكشف والبيان: 3/143، والبغويُّ، معالم التنزيل: 1/502.

(4) الرَّاغِبُ، المفردات: (أتى).

قَرِيبٌ زَمَانِيًّا وَمَكَانِيًّا[1]، فَكُلُّ مَجِيءٍ إِتْيَانٌ، وَلَيْسَ كُلُّ إِتْيَانٍ مَجِيئًا، أَمَّا فِي بَابِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ؛ فَمَنْ تَكَلَّمَ عَنْ صِفَةِ الْمَجِيءِ وَالْإِتْيَانِ مِنْ مُحَقِّقِي أَهْلِ السُّنَّةِ[2]؛ يَجْعَلُهُمَا بِمَعْنًى وَاحِدٍ، وَيُسْتَدَلُّ لَهُمَا بِالْأَدِلَّةِ نَفْسِهَا دُونَ تَفْرِيقٍ، فَالْفَرْقُ السَّابِقُ غَيْرُ وَارِدٍ هُنَا فِي بَابِ الصِّفَاتِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: 158]، كقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: 22].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (جيأ).

(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 5/458، وابن قيم الجوزيَّة، الصواعق المرسلة: 3/1099.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ [آل عمران: 126 - 127]

مُناسَبَةُ الآيَتيْنِ لِما قَبْلَهُما:

توضيح الغاية من المدد بعد ذِكْرِهِ وذكر أسبابه

لَمَّا كان ذِكْرُ الملائكة والتَّدرُّج في ذكر العَدَدِ سببًا لأَنْ تتَعَلَّقَ النُّفوس بالأسباب؛ قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾؛ فَوضَّح الغايَةَ مِنَ المدَدِ، وجَلَّى لَهُمْ حَقيقَةَ النَّصْرِ والظَّفَرِ ومَصْدَرَهُ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بُشْرَىٰ﴾: البشرى اسم من البشارة، وهي الإخبار بما يسرُّ، ولا يقع في الشَّرِّ إلَّا على سبيل التَّهكُّم، فإذا أطلقت؛ فالبشارة بالخير، والنِّذارة بغيره، وقيل: تستعمل في الخير والشَّرِّ؛ لأَنَّ البشارة: خبر يتغيَّر له البشر، وأصلُ البُشْرى: ظهورُ الشَّيءِ مع حُسنٍ وجمالٍ، وذلك يكون في الشَّرِّ، كما يكون في الخير، والمعنى هنا: خَبَرٌ بِحُصُولِ مَا فِيهِ نَفْعٌ وَمَسَرَّةٌ لِلْمُخْبَرِ بِهِ(1).

2) ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾: الطُّمأنينة والاطمئنان: سكون بعد انزعاج، يقال: اطْمَأَنَّ الرَّجل اطمِئنانًا وطمَأنينَةً، أي: سكن، وأصل طمن: يدلُّ على السُّكون، واطمأنَّ إليه: سكن إليه، ووثق به، والنَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ: الَّتِي اطْمَأَنَّتْ بالإيمانِ، وأَخْبَتَتْ لربِّها، وَرجل فِيه تَطَامُنٌ، أَي: سكونٌ ووقارٌ(2).

3) ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾: أي: ليُهلك جماعة أو طائفة منهم، والطَّرَفُ:

(1) الخليل، العَينْ، والأَزْهَرِيُّ، تَهْذِيبُ اللُّغَةِ، وابْنُ عَبَّادٍ، المُحيطُ: (بشر).
(2) الجوهري، الصِّحاح، والزَّمخشري، أساس البلاغة، والزبيدي تاج العروس: (طمن).

الطَّائفةُ مِنَ النَّاسِ، وأصْل القطع: الفَصْل، وإبانةُ شيءٍ من شيء، وطرَف الشَّيء: جانِبُه، وأصْله: حدُّ الشَّيءِ وحَرْفه[1].

4) ﴿يَكۡبِتَهُمۡ﴾: يَصرَعهم لوجوهِهم، ويُهلِكهم، والكَبْتُ: الصَّرْعُ، يقال: كَبَتَه يَكْبِته كَبْتًا، وكَبَتَهُ اللّه لوجهِه، أَي: صرعَه لوجهِه، وَيُقَال: يكبتهم، يغيظهم، ويحزنهم، وأصل الكَبْت: الْإِذْلَال وَالصَّرْف عَنِ الشَّيْءِ، يُقَالُ: كَبَتَ اللَّهُ الْعَدُوَّ يَكْبِتُهُ؛ إِذَا صَرَفَهُ، وَأَذَلَّهُ، يُصِيبهُمْ بِغَمٍّ وَكَمَدٍ، فيصرعهم، أو يصرفهم[2].

5) ﴿فَيَنقَلِبُواْ﴾: فينهزموا مُنقطِعي الآمال، والانقلابُ: الانصرافُ، ورجوعُ القَهْقَرى، وقلبُ الشَّيءِ: تصريفُه وصرْفُه عن وجْهٍ إلى وجه[3].

5) ﴿خَآئِبِينَ﴾: محرومين، يدُلُّ فعل (خيب) في أصل اللُّغة على عدم فائدةٍ وحرمان، والخَيْبَةُ: هي بمعنى: الحرمان والخُسران، فوت الطَّلب، يُقال: خاب يخيب؛ إذا حُرِم، ولم ينل ما طَلب، والمعنى هُنا: لم يدركوا ما طلبوا[4].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الإمـداد والنَّصر بُشرى من الله لـلـمـؤمـنـين، وإهـــلاك للكافرين

وما جعل اللّه هذا العون، وهذا الإمداد بالملائكة إلَّا خبرًا سارًّا لكم، ولتسكن قلوبكم به، وتطيب بوعد اللّه لكم، وما النَّصر إلَّا من عند اللّه العزيز الَّذي لا يُغالبه أحد، الحكيم في تدبيره وفعله، وهذا النَّصر الَّذي تحقَّق لكم في غزوة بدر أراد به أن يُهلك طائفة من الَّذين كفروا بالقتل، ويخزي طائفة أخرى، ويغيظهم بهزيمتهم، فيرجعوا بفشل وذلٍّ وعارٍ[5].

(1) الرَّاغِبُ، المُفْردات، وابن منظور، لسان العرب: (طرف)
(2) الرَّاغِبُ، المُفْردات، وابن فارس، مقاييس اللغة: (كبت).
(3) الرَّاغِبُ، المفردات: (قلب) والكفوي، الكليات، ص: 993.
(4) الرَّاغِبُ، المفردات: (خاب)، والسمين، عمدة الحفاظ: (خيب).
(5) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 91، ونخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 66.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

أثر تنوُّع معاني (الواو) في سياق الكلام وما يستدعيه النِّظام:

فقد قيل: إنَّ الكلام في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ﴾ مبتدأ غير داخل في حيِّز القول، مَسوق من جنابه تعالى؛ لبيان أنَّ الأسباب الظَّاهرة بمعزل عنِ التَّأثير، وأنَّ حقيقة النَّصر مُختصٌّ به ﷻ، ليثق به المؤمنون، ولا يقنطوا منه عند فقدان أسبابه وأماراته، وهو معطوف على فعل مُقدَّر ينسحب عليه الكلام، ويستدعيه النِّظام، فكأنَّه قيل عقيب قوله تعالى: ﴿يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥﴾، فأمدَّكم بهم، وما جعله الله إلَّا بشرى[1].

بيان أنَّ النَّصر حاصل بفضلٍ من الله ولو فقدت أسبابه وأماراته

يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ جُمْلَةُ ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ﴾ في مَوْضِعِ الْحَالِ مِنِ اسْمِ الْجَلَالَةِ في قَوْلِه: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ﴾، وَالْمَعْنَى: لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ حِينَ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ مَا وَعَدَكَ اللَّهُ بِه، في حَالِ أَنَّ اللَّهَ مَا جَعَلَ ذَلِكَ الْوَعْدَ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ، وَإِلَّا فَإِنَّهُ وَعَدَكُمُ النَّصْرَ، كَمَا في قَوْلِه تَعَالَى: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ﴾ [الْأَنْفَال: 7]، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْوَاوُ لِلْعَطْفِ عَطفَ الْإِخْبَارِ عَلَى التَّذْكِيرِ وَالامْتِنَانِ[2].

بيان تعدُّد نعم الله على عباده المؤمنين وتنوُّعها تذكيرًا بفضل الله ومنَّته عليهم

سِرُّ عَوْدِ ضمير الغيبة على الإمداد المتُقدِّم:

الضَّمير في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ﴾ هو للإمداد، أو للوعد بالإمداد أو للنَّصر، والأَوْلى جعله للإمداد، فإنَّ الإخبار بوقوع النَّصر على الإطلاق، وتذكير وقته، وحكاية الوعد بوقوعه على وجه مخصوص، هو الإمداد بالملائكة مرَّة بعد أخرى[3].

استحضار الإمداد في أذهان المؤمنين

ولكون الإمداد قد ذُكر مرَّتين، وكون الملائكة وأعدادهم ونصرهم للمؤمنين قائمًا عليه، أصبح أصلًا في ذلك جديرًا بأن يشار إليه،

(1) أَبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/81.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/77.
(3) أَبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/81.

وفائدة إرجاع الضَّميرين إليه استحضاره في أذهان المؤمنين في معرض مخاطبتهم، وذكر منَّة اللّه عليهم بالنَّصر ومقدِّماته[1].

العـنـايـة بالمخاطبين والتَّنويه بهم

إظهار الاسم الجليل في مقام البشارة:

إِظْهَارُ اسْمِ الْجَلَالَةِ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ لِلتَّنْوِيهِ بِهَذِهِ الْعِنَايَةِ مِنَ اللَّهِ بِهِمْ، خصوصًا أَنَّ الْخِطَابَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ[2].

تبيان سبب الإمداد تعجيلًا للبشارة وتطمينًا للنُّفوس

بلاغة القصر بالاستثناء في الإخبار عن البشرى وطمأنة القلوب:

الْبُشْرَى: اسْمٌ لِمَصْدَرِ بَشَّرَ كَالرُّجْعَى، وَالْبُشْرَى: خَبَرٌ بِحُصُولِ مَا فِيهِ نَفْعٌ وَمَسَرَّةٌ لِلْمُخْبَرِ بِهِ فإنَّ اللّه لمَّا وعدهم بالنَّصر أيقنوا به فكان في تبيين سببه، وهو الإمداد بالملائكة طَمْأنة لنفوسهم؛ لأنَّ النُّفوس تركن إلى الصُّوَر المألوفة[3]، قال هنا قاصرًا للأمر عليه: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾[4].

فالاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ مفرَّغ، والاستثناء المفرَّغ من أعمِّ العلل، أي: ما جعل اللّه إمدادكم بإنزال الملائكة لشيء من الأشياء إلَّا للبشارة لكم بأنَّكم ستنتصرون على أعدائكم[5]، وطمأنة القلوب، وأسلوب القصر هنا إضافيٌّ، وهو قصر صفة على موصوف، حيث قصر الموصوف، وهو الإمداد على البشارة، ففي القصر هنا نفيٌ لجميع الغايات، وإثباتٌ لغاية البشارة الَّتي تطمئن النُّفوس المؤمنة، وتسكن عند سماعها.

فأفاد أسلوب القصر قوَّة في التَّعبير؛ لأنَّ في النَّفي مع الاستثناء من قوَّة الدَّلالة ما ليس في غيره.

ولَمَّا كان السِّياق العام هو سياق غزوة أحد، وقد كثر فيه

(1) الخنين، النظم القرآني، ص: 111.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/77.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/78.
(4) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَر5/58.
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/253.

المصاب، وكان سياق غزوة بدر سياقًا تابعًا؛ جيء بالمتعلَّق ﴿لَكُمۡ﴾ لتخصيصه بهم، وتقوية الحكم، فتزيد النُّفوس اطمئنانًا إذا هي أخذت بأسباب النَّصر، كما حصل في بدر، كما أنَّ السِّياق سياق مُواساة ومسح على القلوب بعد المصاب(1).

فصرَّح أنَّ البُشرى إليهم مع ظهورِ ذلك؛ للدَّلالةِ على تَكرمةِ اللّٰه تعالى إيَّاهم بأنْ بشَّرهم بُشرى لأجْلهم(2).

السِّرُّ في تقديم البُشرى على الطُّمأنينة:

بيان أنَّ الطُّمأنينة أثر من آثار البُشرى

تقديم البُشرى على الطُّمأنينة؛ لكون الأخيرة قائمة على البشارة ناتجة عنها، فإنَّ الملحوظ في طباع الخائف أنَّ قلبه يضطربُ، ويَقْلَقُ، ولا يهدأُ له بال، حتَّى تُساق البُشرى إليه، فالبُشرى رسولُ الطُّمأنينة إلى القلب ومفتاحها؛ ولهذا قُدِّمت عليها، والتَّوجُّه بهذه البشرى للمؤمنين وذِكْرُهُمْ عبر ضمير الخطاب تَشْرِيف لهم، وإيذان باستحقاقهم لها، وفيه إشعارٌ بأنَّهم مُحتاجون إلى ذلك غير مُسْتغنِينَ عنه(3).

دلالة التَّذييل بذكر النَّصر بطريق القصر:

غرس الاعتماد على اللّٰه في قلوب المؤمنين، وتفويض أمورهم إليه

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ تذييل جارٍ مجرى المثل جاء لتقرير مضمون ما قبله أي: إنَّ كلَّ نصر هو من عند اللّٰه، لا من الملائكة(4)، فالمقصود من الآية الكريمة: غرس الاعتماد على اللّٰه في قلوب المؤمنين، وتفويض أمورهم إليه، وبيان أنَّ النَّصر إنَّما هو من عند اللّٰه وحده، وليس من الملائكة، أو من غيرهم؛ لأنَّ الملائكة أو غيرهم أسباب عاديَّة بمعزل عن التَّأثير، إلَّا إذا أراد اللّٰه ذلك، فهو الخالق للأسباب والمسبِّبات؛ حتَّى يعلم علم اليقين أنَّ ما كان هو

(1) فاضل السامرائي، التعبير القرآني، ص: 71.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/78.
(3) أبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/81.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/78.

من اللّه تعالى، وهو النَّصر، ومقدِّماته الَّتي هيَّأها اللّه تعالى بين يدي عباده: من قذف الرُّعب في قلوب الأعداء، وإنزال الملائكة من السَّماء وسواها ممَّا حصل في بدر، فكلُّ ذلك من اللّه تعالى وحده، ولا يملكه أحد سواه؛ ولهذا فلا ينبغي أن تركن نفس المؤمن إلَّا إليه، ولا تعتمد إلَّا عليه، وهذا أصل من أصول العقيدة[1].

ويمكن أن يقال: إنَّ هذا القصر جيء به للاحتراز من وقوع الشَّكِّ في أنَّ النَّصر من ذلك المدد الملائكيِّ، فطرد ذلك بأقوى أسلوب بلاغيٍّ لائق، وهو القصر بما وإلَّا، فيكون بهذا الاعتبار من قبيل قصر القلب: الَّذي فيه ردٌّ على من يتوهَّم أنَّ النَّصر من عند الملائكة المنزلين، فأشار بالقصر إلى لزوم إفراده بالتوكُّل، يقول ابن جرير: "وما ظفركم؛ إن ظفرتم بعدوِّكم إلَّا بعون اللّه، لا من قِبَل المدد الَّذي يأتيكم من الملائكة، يقول: فعلى اللّه فتوكَّلوا، وبه فاستعينوا، لا بالجموع وكثرة العدد، فإنَّ نصركم إن كان؛ إنَّما يكون باللّه وبعونه، ومعكم من ملائكته خمسة آلاف، فإنَّه إلى أن يكون ذلك بعون اللّه وبتقويته إيَّاكم على عدوِّكم، وإن كان معكم من البشر جموع كثيرة أخرى، فاتَّقوا اللّه، واصبروا"[2].

بيان أنَّ النَّصر بيد العزيز النَّاصر لمن يشاء، الحكيم العالم بمن يستحقُّ النَّصر

دلالة ختم التَّذييل بوصف العزَّة والحكمة للرَّبِّ الجليل:

ذُكِرَ وصفا العَزِيزِ الحكِيمِ هُنا؛ لأنَّهما أَوْلى بالذِّكر في هذا المقام؛ لأنَّ العزيزَ يَنصُر مَن يُريد نصره، والحكيم يَعْلَمُ مَن يَستحِقُّ نصرَه، وكيف يُعطاه[3].

بلاغة اختلاف النَّظم في المتشابه اللَّفظيِّ بين سورتي آل عمران والأنفال:

فقد وردتْ في سورةِ الأنفال آيةٌ أُخرى مشابهةٌ لهذه الآيةِ الَّتي في آل عمران، وهي قولُه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٠﴾ [الأنفال: 10]، لكن جاءَ التعبيرانِ فيهما بعضُ الاختلاف، ففي هذه الآية

(1) الخنين، النظم القرآني، ص: 111. بتصرف.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 7/190.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/78.

قال: ﴿بُشۡرَىٰ لَكُمۡ﴾، بينما في آيةِ الأنفالِ لم يذكُر الجارَّ والمجرور لَكُمۡ، وفي هذه الآية قال: ﴿قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾، فأخَّر الجارَّ والمجرور بِهِ، بينما قدَّمه في الأنفال، فقال: ﴿بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ﴾، وفي هذه الآية قال: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١٢٦﴾، وقال في سورةِ الأنفال: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٠﴾ [الأنفال: 10]، ومن الحِكَم في هذا التغايُرِ ما يأتي[1]:

أوَّلًا: ذكر الجار والمجرور ﴿لَكُمۡ﴾ وحذفه:

ففي آية آل عمران تقدّمها الإخبار عن عدوِّهم ﴿وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ﴾، فاختلط ذكر المؤمنين والكافرين، فجُرِّدت البشارة للمؤمنين، وجيء بضمير خطابهم متَّصلًا بلام الاستحقاق ﴿لَكُمۡ﴾، أمَّا آية الأنفال؛ فلم يتقدَّمها إلَّا ذكر المؤمنين، كما وردت في قوله: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ﴾ [الأنفال: 10]، فلم تذكر اكتفاء بما سبق[2]، فـ ﴿لَكُمۡ﴾ في آل عمران جاءت على الأصل في الذِّكر، والثَّانية قد تقدَّمتها ﴿لَكُمۡ﴾، فأغنت عن إعادتها بلفظها ومعناها، وهي قوله: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾، فلمَّا قال: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾؛ علم أنَّه جعل البشرى لهم، فأغنت لكم الأولى بلفظها ومعناها عن الثَّانية[3]، كما أنَّ في ذكرها زيادة في المنَّة، كقوله: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ١﴾ [الشرح: 1]؛ لأنّ سياقها الامتنان بنعمة النَّصر مع القلَّة والضَّعف، أمَّا آية الأنفال؛ فمسوقة للعتاب لكراهية الخروج إلى بدر في أوَّل الأمر، فجُرِّدت من ﴿لَكُمۡ﴾؛ إذ كانت للنَّبيِّ، ومن لم يتردَّد من المؤمنين[4]، مع مراعاة مناسبة الإيجاز والإطناب في كلٍّ من الآيتين[5].

ثانيًا: تقديم القلوب على ﴿بِهِۦ﴾ وتأخيرها عنه:

أمَّا التأخير في آية آل عمران؛ فهو على الأصل، وأمَّا تقديم ﴿بِهِۦ﴾ في الأنفال؛ فلمراعاة الحالة النَّفسيَّة للمخاطبين، والهاء عائدة على المدد، وهو الأهمُّ عندهم، فإنَّ

---

(1) الإسكافي، درة التنزيل: 1/389 - 395، الكرماني، البرهان، ص: 92، وابن الزُّبير، ملاك التأويل: 1/89 - 90.

(2) ابن الزُّبير، ملاك التأويل: 1/89.

(3) الإسكافي، درة التنزيل: 1/389، والأنصاري، فتح الرحمن ص: 72، والكرماني، البرهان، ص: 92.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/78.

(5) أبو حيان، البحر المحيط: 4/460.

المعتمد بتحقيقه عند المخاطبين إنَّما هو الإمداد بالملائكة[1]؛ لأنَّها نزلت في غزوة بدر، والدِّماء لم تجفَّ بعد، فالخطاب فيها مؤسَّس، رُوعي فيها مقتضى الحال، وآية آل عمران تذكير بحكاية حال مضت؛ إذ هي مدنيَّة متأخِّرة في النُّزول عن غزوة بدر، وفرق بين ما يؤسَّس وما يحكى؛ لذلك جاء التَّعبير فيها على الأصل[2]، ثُمَّ إنَّه خصَّ البشرى بهم في آل عمران، وقدَّم ﴿قُلُوبُكُم﴾ على الإمداد، فقال: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ﴾ للمواساة والطَّمأنة؛ إذ المقام مقام مسح للقلوب ومواساة وطمأنة، فجاء ذكر القلوب في موضعه، ولم يتقدَّم المتعلَّق؛ لأنَّ المقام مقام تسكين القلوب، وجبر للمصيبة، فكان تعلُّق الفاعل بفعله أشدَّ من الإشارة إلى المدد[3]، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٌ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٌ مِّثۡلُهُۥۚ﴾ [آل عمران: 139، 140]، أمَّا آية الأنفال؛ فالمقام في ذكر موقعة بدر، وانتصارهم فيها، ودور الإمداد السَّماوي في هذا النَّصر؛ لذلك قدَّم ﴿بِهِۦ﴾ على القلوب، ولمعنى الاختصاص أيضًا، أي: قلوبكم لا قلوب غيركم، وفيه تعريض بما اعتراهم من الوجل من الطَّائفة ذات الشَّوكة[4]، وأيضًا لمزاوجة ﴿قُلُوبُكُم﴾ مع ﴿لَكُمۡ﴾[5].

ثالثًا: تعريف الفاصلة وتنكيرها مع التَّوكيد في ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ و﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾:

سورة الأنفال تقدَّمتها وعودٌ جليلة: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ﴾، ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨﴾ [الأنفال: 7- 8]، فهذه وعود لم يتقدَّم إفصاح بمثلها في آية آل عمران، فناسبها تأكيد الوصفين العظيمين من أفعاله، وناسب آية آل عمران ورودهما تابعتين دون تأكيد[6]، كما أنَّ التَّقرير والتَّأكيد في آية الأنفال لازمان في ذلك الموقف الَّذي كان يقفه المسلمون في قلَّتهم، إزاء الجيش القويِّ الزَّاحف عليهم، فإذا جاءتهم البشرى بنصر اللّٰه، محمولة بما وعدهم على لسان نبيِّه، ثم أُتبعت هذه البشرى بالتَّذكير بعزَّة اللّٰه وحكمته في

(1) ابن الزُّبير، درة التنزيل ص: 38، والأنصاري، فتح الرحمن ص: 72.
(2) المطعني، خصائص التعبير القرآني: 2/169.
(3) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 429.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/276.
(5) الكرماني، البرهان، ص: 92.
(6) ابن الزُّبير، ملاك التأويل: 1/89، والكرماني، البرهان، ص: 92.

هذا الأسلوب المؤكَّد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٠﴾ [الأنفال: 10]، كان لذلك وقعه في القلوب وأثره في النُّفوس، أمَّا في آية آل عمران، فالشَّأن مختلف؛ لأنَّها حديث عن أمر وقع، رأى منه المسلمون رأي العين كيف كانت عزَّة اللّه، وكيف كانت حكمته، فيكفي هنا أن يُذكر اللّه وعزته وحكمته ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ دون توكيد؛ إذ كان يعيش المسلمون مع الحدث الواقع الَّذي هو أثر من آثار عزَّة اللّه وحكمته[1].

دلالة لام التَّعليل على مُتعلَّقها:

تعليل القصر السَّابق، وإثبات العزَّة والحكمة لله ﷻ في أفعاله وتشريعاته

فقد اختلف أهل العلم في متعلَّق لام التَّعليل[2]في قوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾، وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنْ تَتَعَلَّقَ بِأَقْرَب مَذْكُورٍ، وهو: العامل في ﴿عِندِ ٱللَّهِ﴾، وَهُوَ خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ، كَأَنَّ التَّقْدِيرَ: وَمَا النَّصْرُ إِلَّا كَائِنٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، لَا مِنْ عِنْدِ غَيْرِهِ، لِأَحَدِ أَمْرَيْنِ: إِمَّا قَطْعُ طَرَفٍ مِنَ الْكُفَّارِ بِقَتْلٍ وَأَسْرٍ، وَإِمَّا بِخِزْيٍ وَانْقِلَابٍ بِخَيْبَةٍ، وَتَكُونُ الْأَلِفُ وَاللَّامُ فِي النَّصْرِ لَيْسَتْ لِلْعَهْدِ فِي نَصْرٍ مَخْصُوصٍ، بَلْ هِيَ لِلْعُمُومِ، أَيْ: لَا يَكُونُ نَصْرٌ، أَيْ: نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ لِلْمُسْلِمِينَ عَلَى الْكُفَّارِ إِلَّا لأحد أمرين[3]، وفي هذا التَّعليل إثباتُ الحِكمة للّه ﷻ في أفعاله وتشريعاته؛ لأنَّ اللَّام للتَّعليل، والتَّعليلُ هو الحكمة[4].

دلالة تخصيص قطع الطَّرف:

الدَّلالة على التَّوهين والإزالة بتنقيص الشَّيء

القطع في قوله: ﴿لِيَقْطَعَ﴾ هو الاستئصال والإهلاك، والطَّرف، قصد به الطَّائفة أو الجماعة، وتخصيص قطع الطَّرف من حيث إنَّ تنقيص طرف الشَّيء يتوصَّل به إلى توهينه وإزالته[5].

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 2/578.
(2) على سبعة أوجه حرَّرها السَّمين، يُنظر الدّرّ المصون: 3/390.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/337.
(4) ابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين، (سورة آل عمران): 2/113.
(5) الرَّاغب، المفردات: (طرف).

بيان أنَّ الأطراف منازل الأشراف وأنَّ في إهلاكهم توهينًا لأتباعهم

بلاغة استعارة لفظة ﴿طَرَفًا﴾ لطائفة من أشراف المشركين وكبرائهم:

يطلق الطَّرَف في الحقيقة على النَّاحية الَّتي هي مُنتهى المكان، وتسمية المقتولين طرفًا؛ لكونهم هم الَّذين كانوا يلون المؤمنين، فقتلوا، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾ [التوبة: 123]، والطَّرَف: هو جانب الشَّيء، وأخذه من أطرافه أسهل من أخذه من وسطه، والمقصود بالطَّرَف: أشراف المشركين وكبراؤهم، فلكونهم أشرافًا في أقوامهم، فقد تقدَّموهم، والأطراف منازل الأشراف، كما يقال، فكانوا أطرافهم ممَّا يلي المؤمنين، فوقع عليهم القطع المهلك، وهكذا كان في بدر، فقد قتل من صناديدهم سبعون، وأُسر آخرون مِثْلُهم من أتباعهم الَّذين لحقهم الخزي والمذلَّة بالأسر[(1)]، فالطَّرَف مُستعار هنا لأشراف المشركين، أي: ليقطع من جسم الشِّرك أهمَّ أعضائه، فيستأصل صناديد الَّذين كفروا[(2)]، فيضعف بذلك أتباعهم، ويعودوا بالذُّلِّ والخزي.

التَّفخيم لهذا الطَّرف المُمَثِّلِ في أشراف النَّاس وزعمائهم

دلالة تنكير لفظة ﴿طَرَفًا﴾ في هذا المقام:

ولا يخفى أن تنكير ﴿طَرَفًا﴾ قصد منه التَّفخيم، فهم طائفة غير عاديَّة بل من رؤوس القوم ومن كبار زعمائهم[(3)].

الإشارة إلى الحكمة في سُنَّة التَّدافع في هذه الدُّنيا

دلالة التَّبعيض بـ ﴿مِّنَ﴾ في القطع:

فقال: ﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، وليس كلَّ الَّذين كفروا؛ لأنَّ مِن حِكمة اللّه أنْ يبقى الإيمانُ والكفر متصارعَينِ دائمًا؛ حتى يَتبيَّنَ المؤمنُ الخالصُ من غيره[(4)].

(1) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/264.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/78 - 79.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/78 - 79، والخنين، النظم القرآني:، ص: 115.

(4) ابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين، (سورة آل عمران): 2/113.

فائدة التَّعبير بالموصول وصلته في وصف الكفار:

التَّنفير من الكفر وأهله وتجاهل أهــل الـكـفـر ونَبْذِهِمْ

اسم الموصول من أنواع المعارف، ويُؤتى به لأغراض بلاغيَّة دقيقة، منها: أنْ تُضمَّنَ الصِّلَةُ العلَّة الَّتي يُبنى عليها الحكم بحيث يكون ما في حيِّز الصِّلة أصلًا وأساسًا ينبني عليه المعنى المذكور قبلها، فقد وقع القطع والهلاك على الكفَّار؛ لكونهم مقيمين على هذه الصِّفة، حيث قال تعالى: ﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، فالعلَّة في قطع أولئك الأطراف هو كفرهم ومشاقتهم للّٰه ورسوله، كما بيَّن ذلك سبحانه في الأنفال، حيث قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٣﴾ [الأنفال: 13]، وفي التَّعبير بالموصول تجاهلُ أولئك الأقوام وطيُّ ذكرهم، وكذا التَّنفير من تلك العلَّة الَّتي أهلكوا بسببها، وهي كفرهم وعدم استجابتهم لدعوة الرَّسول ﷺ[1].

دلالة التَّعبير عن القطع والكبت بصيغة المضارع مع كونهما وقعا في الماضي:

استحضار صورة النَّصر العظيم في ذهن السَّامع

فهذا القطع والكبت قد مضيا يوم بدر قبل نزول هذه الآية بنحو سنتين، فالتَّعبير عنهما بصيغة المضارع؛ لقصد استحضار الحالة العجيبة في ذلك النَّصر المبين العزيز النَّظير[2]، وفيه أيضًا إشعار بأنَّ اللّٰه جلَّ ثناؤه الَّذي فعل ذلك بهم في بدر في ذلك الزَّمان قادر على أن يفعله بهم وبأمثالهم في أيِّ وقت كان[3].

سِرُّ التَّناسب بين ذكر الكبت والانقلاب بالخيبة:

بيان أنَّ نتيجة الـكـبـت هـو الرُّجوع بالخيبة والخسارة

فقوله: ﴿يَكۡبِتَهُمۡ﴾: يَصرَعهم لوجوهِهم، ويُهلِكهم، وَيُقَالُ: ﴿يَكۡبِتَهُمۡ﴾: يغيظهم، ويحزنهم، ويُصِيبهُمْ بِغَمٍّ وَكَمَدٍ، والأصل الجامع لمعاني الكبت: هو الإِذْلَال وَالصَّرْف عَنِ الشَّيْءِ، يُقَالُ: كَبَتَ

(1) الخنين، النظم القرآني، ص: 116.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/79.
(3) الخنين، النظم القرآني، ص: 117.

اللهُ الْعَدُوَّ يَكْبِتُهُ؛ إِذَا صَرَفَهُ وَأَذَلَّهُ[1]، وهذا بعينه هو الَّذي وقع للكفَّار بسبب محادَّتهم لله ورسوله، وهذا هو السَّبب الجالب للكبت المستوجب له، كما قرَّره الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٥﴾ [المجادلة: 5]، وما حصل في بدر صورة واحدة من صور تلك السُّنَّة الماضية، ونتيجة الكبت معروفة، وهي الرجوع بالخيبة والنَّدامة، ولهذا ناسب أن تكون فاصلة الآية: ﴿فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾[2].

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الطُّمأنينة والسَّكينة:

الطمأنينة نهاية السَّكينة

الطُّمأنينة: هي السُّكون بعد الانزعاج[3]، يُقال: اطمأنَّ الشَّيء؛ إذا سكن، وطمأنتُه؛ إذا سكَّنتُه، والطُّمأنينة: سكون أَمْن فيه استراحة أُنس، والسَّكينة: صَولة تورث خُمود الهيبة أحيانًا[4].

فالسَّكينة تكون حينًا بعد حين، والطُّمأْنينة لا تفارق صاحبها[5]، ومن ثَمَّ تكون الطُّمأنينة موجب السَّكينة وأثرًا من آثارها، وكأنَّها نهاية السِّكينة[6].

وعليه فإنَّ الطُّمَأْنينة والسَّكِينة كلٌّ منهما تستلزم الأُخرى، لكن استلزام الطُّمَأْنينة للسَّكينة أَقوى من العكس، والطُّمأنينة على درجات: أعلاها طُمَأْنينة القلب بذكر الله[7]، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرعد: 28].

(1) الرَّاغِبُ، المُفردات، وابن فارس، مقاييس اللغة: (كبت).
(2) الخنين، النظم القرآني، ص: 117
(3) الرَّاغِبُ، المفردات: (طمن).
(4) الهروي، منازل السائرين، ص: 85.
(5) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: 3/517.
(6) ابن القيِّم، مدارج السَّالكين: 2/481.
(7) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: 3/517.

الخيبة واليأس:

الخيبة حرمان بعد توقُّع، واليأس يكون قبل التوقُّع وبعده

الْخَيْبَةُ: هِيَ الْحِرْمَانُ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْخَيْبَةِ وَبَيْنَ الْيَأْسِ: أَنَّ الْخَيْبَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بَعْدَ التَّوَقُّعِ والأمل؛ لأنَّها امتناع نيل ما أمل، والخائب المنقطع عمَّا أمل[1]، وَأَمَّا الْيَأْسُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ بَعْدَ التَّوَقُّعِ والأمل وَقَبْلَهُ، فَنَقِيضُ الْيَأْسِ الرَّجَاءُ، ونقيض الخيبة الظَّفر[2].

(1) العسكريُّ، الفروق اللغويَّة، ص: 435.

(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/355.

﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٢٨﴾ [آل عمران: 128]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تحقيق عدم تأثير المنصورين بعد تحقيق عدم تأثير النَّاصرين

لمَّا ذكر الله سبحانه وتعالى أنَّ مظاهر النَّصر القَطْعُ والكبْت، وكان من مظانِّ أن يكونَ فيه لرسول الله ﷺ ولسائر مُباشري القتالِ مَدْخَلٌ فيه على وجه الاستقلال، قال مُبيِّنًا أنَّ الأمر كلَّه لله، فيتولَّى هو عذابهم، أو التَّوبة عليهم: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾، لتحقيق أن لا تأثير للمنصورين، وهم المؤمنون، إثرَ بيانِ أن لا تأثيرَ للنَّاصرين، وهم المدد الملائكيُّ(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾: يقبل توبتهم، ويرجع بهم من المعصية إلى الطَّاعة، وأصل التَّوبة يدلُّ على الرُّجوع، يُقَالُ: تَابَ مِنْ ذَنْبِهِ، أَيْ: رَجَعَ عَنْهُ، يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً وَمَتَابًا، فَهُوَ تَائِبٌ، والتَّوبة من الله على عباده: الرُّجوع بهم من المعصية إلى الطَّاعة، والتَّوبة من العبد: ترك الذَّنب على أجمل الوجوه، وهو أبلغ وجوه الاعتذار، والتَّوبة من الله على عبده قبولها منه، والتَّائب: يقال لباذل التَّوبة ولقابلها، فالعبد تائب إلى الله، والله تائب على عبده، والمعنى هنا: يرجع بهم من المعصية إلى الطَّاعة، فيسلموا(2).

2) ﴿أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ﴾: العذاب: هو الإيجاع الشَّديد، وأصله من المنع، وسمِّيت العقوبة والإيلام: عذابًا باعتبار منعها من معاودة ما عوقب عليه، وقيل: أصل العذاب: الضَّرب، ثمّ استعير ذلك في كلِّ شدَّةٍ، ومنه النَّكال والعقوبة(3).

(1) أبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/82، والبِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/60.
(2) الرَّاغِبُ، المُفْرداتُ، وابن فارس، مقاييس اللغة: (توب).
(3) الرَّاغِبُ، المفردات: (عذب)، وحسن المصطفوي، التَّحقيق في كلمات القرآن: 8/68.

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

ليس لك من التَّصرُّف - أيُّها الرَّسول ﷺ - في أمر عبادي شيء، بل الأمر لله، فاصبر إلى أن يقضي الله بينكم، أو يوفِّقهم للتَّوبة، فيسلموا، أو يستمرُّوا على كفرهم، فيعذِّبهم، فإنَّهم ظالمون مستحقُّون العذاب(1).

ليـــــس للمخلوقين من التَّصرُّف في أمر الله في شيء، فالخلق خلقه والأمر أمره

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاعتراض بين المعطوفات:

وقوله تعالى: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ جملة معترضة وقعت وسطًا بين المعطوف عليه المتعلّق بالعاجل، وهو القطع والكبت، والمعطوف المتعلَّق بالآجل، وهو أمر توبة الله عليهم أو تعذيبهم، ومن أغراض هذا الاعتراض: كشف الأمر في حقيقة ما حصل من النَّصر يوم بدر: بأنَّه لا تأثير للمنصورين في ذلك، وهم المؤمنون بعد بيان أن لا تأثير للمدد، وهم الملائكة في النَّصر بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ﴾.

بيان أنَّ النَّصر حاصل بمحض فضل من الله، فلا تأثير لغيره فيه عاجلًا أو آجلًا

فَالنَّصْرُ حَصَلَ بِمَحْضِ فَضْلِ اللَّهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، ويؤيِّد ذلك قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٧﴾ [الأنفال: 17]، فخُصَّ الاعتراضُ بموقعه؛ لأنَّ ما قبله من القطع والكبْتِ من مظانِّ أن يكونَ فيه لرسول الله ﷺ ولسائر مُباشري القتالِ مدخَلٌ في الجملة(2).

بديع الالتفات بتوجيه الخطاب لرسول الله ﷺ وتخصيصه به:

إنَّما خوطب الرَّسول ﷺ بالنَّفي التفاتًا إليه على سبيل التَّكريم

بيان أنَّ الشَّأن إذا لم يكن للنَّبيِّ ﷺ فإنَّ غيره من باب أولى

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 91، ونخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 66.

(2) أبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/82، والآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/264، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/79.

له، فقد كُفِيَ أَمْرهُم بالعزيز الحكيم، هذا من وجه، كما أنَّ في الالتفات تبيانًا له وللمؤمنين بأنَّ ذلك الشَّأن إذا لم يكن للنَّبيِّ ﷺ فإنَّ غيره من باب أولى ألَّا يكون له فيه افتراض أو اعتراض[1]، واللَّام في ﴿لَكَ﴾ لام الملك، أي: لا يملك ذلك أنت ولا غيرك.

دلالة اللَّام في لفظة ﴿ٱلۡأَمۡرِ﴾ المنفيِّ:

بيان أنَّ جميع الأمور بيد الله تعالى وحده

فلفظ ﴿ٱلۡأَمۡرِ﴾ في الآية معناه: الشَّأن، و(أل) فيه للعهد، أي: من الشَّأن الَّذي عرفتموه، وهو النَّصر، وقد يحمل ﴿ٱلۡأَمۡرِ﴾ في الآية بأنَّه الشَّأن بشكل عام، ويدخل فيه النَّصر دخولًا أوَّليًّا، ويندرج فيه ما ذُكِرَ في الآية من القطع أو الكبت أو التَّوبة أو التَّعذيب، فكلُّ ذلك ليس للنَّبي ﷺ ولا لغيره فيه شيء، بل إنَّ الشَّأن في ذلك وفي غيره لله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ [آل عمران: 154]، (أل) في ﴿ٱلۡأَمۡرِ﴾ لاستغراق أجناسه، فإنَّ ذلك موكول إلى الله وحده[2].

سِرُّ إدراج ذكر التَّوبة والتَّعذيب في معرض ذكر عِلَلَ النَّصر وغاياته:

بيان أنَّ تحقُّق التَّوبة فرع معرفتهم بالدِّين بعد ظهوره وانتصاره، وأنَّ التَّعذيب فرع جحودهم بعد ذلك

نظمُ التَّوبةِ والتَّعذيبِ المذكورَيْن في سلك العلَّة الغائبة للنَّصر المترتِّبةِ عليه في الوجود من حيث إنَّ قبولَ توبتِهم فرْعُ تحقُّقها النَّاشئ من علمهم بأحقيَّة الإسلام بسبب غَلَبَةِ أهلِه المترتِّبةِ على النَّصر، وأنَّ تعذيبَهم بالعذاب المذكورِ مترتِّبٌ على إصرارهم على الكفر بعد تبيُّنِ الحقِّ على الوجه المذكورِ، كما ينبئ عن ذلك قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍۗ﴾ [الأنفال: 42][3].

دلالة التَّنكير في لفظة شيء:

ولا يخفى أنَّ تنكير ﴿شَيۡءٌ﴾، ونظمها في سياق النَّفي يفيد

---

(1) أبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/82، والآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/264.

(2) الخنين، النظم القرآني، ص: 117.

(3) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/266.

إفـادة العمـوم لجميع الأمـور دقيقها وجليلها

العموم؛ ويدخل في ذلك صغائر الأمور وكبائرها، دقيقها وجليلها، فإنَّ من كمال العقيدة وتمام الأدب مع اللّه ﷻ إسناد الأمور إلى اللّه تعالى، والرِّضا بما قضى فيها سواء أجاء على ما يتمنَّى العبد أم على خلاف أمنيته، وذلك كلُّه بعد فعل الأسباب المطلوبة في كلِّ أمر على حسبه(1).

السِّرُّ في تعدُّد التَّأكيدات في الحكم عليهم بالظُّلم:

تعليل تعذيبهم بـجـمـع دلائـل الظُّـلـم الموجبة لذلك

لمَّا ذكر تعذيبهم؛ ناسب أن يختم الآية بعلَّة ذلك التَّعذيب، فقال: ﴿فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾، فأكّد استحقاقهم للعذاب وظُلْمَهُمْ بعدَّة مؤكِّدات، منها: الجملة الاسميَّة، وهذا يفيد أنَّ ظلمهم ثابت مستقرٌّ مرئيٌّ مشاهد لا مجال لتأويله أو تحمُّله، وإدخال (إِنَّ) المُثَقَّلَةِ لتأكيد الظُّلم الذي تضمَّنته الجملة، وإيقاع التَّوكيد على ضميرهم، وتخصيصهم به وإسناده إليهم، وفي ذلك زيادة تمحُّضهم في الظُّلم وانتصابهم له، مع الإخبار عن ذلك الظُّلم بصيغة اسم الفاعل، وهو من أقوى صيغ التَّعبير؛ تنبيهًا إلى أنَّ ظلمهم وتعدِّيهم قد بلغ مبلغًا لا يمكن السُّكوت عنه، فالعذاب إذا وقع عليهم؛ كان جزاء وفاقًا، فاللّه سبحانه وتعالى لا يُعذِّب إلَّا بذنب؛ لقوله: ﴿فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾، والظَّالم مُستحِقٌّ لأنْ يُنكِّل اللّه به؛ لأنَّ اللّه سبحانه وتعالى لا يُحِبُّ الظُّلم(2).

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأمر والشَّأن:

الأمـر أعـمُّ من الشَّأن، والشَّأن مـا عَـظُـمَ من الأمور

جاء (الأمر) بمعنى: الوعد، ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النَّحل: 1]، وجاء الأمر في القرآن بمعنى: الدِّين، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [التَّوبة: 48]، يعني: دين اللّه الإسلام، ويجيء أيضًا بمعنى: الشَّأن والفعل، ومنه قوله تعالى:

(1) الخنين، النظم القرآني، ص: 118.

(2) ابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين (سورة آل عمران): 2/118، والخنين، النظم القرآني، ص: 119.

﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ٩٧﴾ [هود: 97]، أي: وما فعل فرعون وشأنه برشيد، ويجيء بمعنى: الحساب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ [إبراهيم: 22]، ولا يقتصر لفظ (الأمر) في القرآن على المعاني السَّابقة، بل قد يأتي على معانٍ أُخر، يحدِّدها السِّياق والموضوع، أمَّا الشَّأن؛ فهو الأمر الَّذي يتَّفق، ويصلح، فلا يقال إلَّا فيما يعظم من الأحوال والأمور، فهو أمر مهمٌّ، له آثارُه البعيدة، ويؤيِّده قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ٢٩﴾ [الرحمن: 29][1].

(1) الرَّاغِبُ، المُفْرداتُ، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شأن)، والعسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 291.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢٩﴾ [آل عمران: 129]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيان تمام الملك لله بعد بيان تمام الأمر له

لَمَّا كان التَّقدير: بل الأمر له سُبحانه وحده عَطَفَ عليه قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ مبيِّنًا قدرته على ما قدَّم من فعله بهم على وجهٍ أعمَّ[1]، فلما قدَّم ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾؛ بيَّن هنا أنَّ الأمور إنَّما هي لمن له الملك[2]، فبيَّن في هذه الآية الحُجَّة السَّاطعة في ذلك، وهي ملكه سبحانه للأشياء، فذلك يقتضي أن يفعل في ملكه ما يشاء، لا اعتراض عليه، ولا مُعقِّب لحكمه، يفعل ذلك لحكمة يُقدِّرها بحسب مشيئته سبحانه[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَغۡفِرُ﴾: الغفر: السَّتر، تَقول: غفرت كَذَا؛ إِذا سترته، وَمِنْه قيل لجُنَّة الرَّأْس: مغفر؛ لِأَنَّهُ يغْفر الرَّأْس، وأصل الغفْر: السَّتر والتَّغطية، وَغفر اللّه ذنوبَه، أَي: سَترها، وَلم يَفْضَحهُ بهَا على رُؤُوس المَلأ[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

للّه وحده ما في السَّماوات وما في الأرض خَلْقًا ومُلكًا وتدبيرًا، يغفر الذُّنوب لمن يشاء من عباده برحمته، ويُعذِّب من يشاء بعدله، واللّه غفور لمن تاب من عباده، رحيم بهم[5].

(1) البِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/61.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/339.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/506.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والرَّاغِبُ، المفردات: (غفر)، وابن قتيبة، غريب الحديث: 1/212.
(5) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 91، ونخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 66.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف بعد ذكر التَّوبة والتَّعذيب:

تفصيل وبيان لما أجمل في الاعتراض المتقدّم

فقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾: كلامٌ مستأنفٌ سيق لبيان اختصاصِ ملكوتِ كلِّ الكائناتِ به ﷻ إثرَ بيانِ اختصاص طرَفٍ من ذلك به سبحانه؛ تقريرًا لما سبق وتكملةً له[1]، وهو تَذْيِيلٌ لِقَوْلِه: ﴿أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ﴾ مُشِيرٌ إِلَى أَنَّ هَذَيْنِ الْحَالين على التَّوْزِيع بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ، فلَمَّا كَانَ مَظِنَّةَ التَّطَلُّع لِمَعْرِفَةِ تَخْصِيص فَرِيقٍ دُونَ فَرِيقٍ، أَوْ تَعْمِيم الْعَذَاب؛ ذَيَّلَهُ بِالْحِوَالَةِ عَلَى إِجْمَالِ حَضْرَةِ الْإِطْلَاقِ الْإِلَهِيَّةِ؛ لِأَنَّ أَسْرَارَ تَخْصِيصِ كُلِّ أَحَدٍ بِمَا يُعَيَّنُ لَهُ، أَسْرَارٌ خَفِيَّةٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّه تَعَالَى[2].

فهذه الآية تفصيل وبيان لما أجمل في الاعتراض المتقدِّم في الآية السابقة: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾، وهي أيضًا تعليل لذلك الاعتراض المتضمِّن اختصاص اللّه ﷻ بالشَّأن كلِّه، فلمَّا قدَّم ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾؛ بيَّن أنَّ الأمور إنَّما هي لمن له الملك، فجاء بهذه الجملة مؤكِّدة للجملة السَّابقة[3].

معنى اللَّامِ في الاسم الأحسن ﴿وَلِلَّهِ﴾:

إفادةُ الملك والاختصاصِ تأكيدًا للجملة السَّابقة

واللَّام في الاسم الأحسن للملكِ والاختصاصِ، فهُوَ الْمُنْشِئُ الْخَالِقُ، فَصِفَةُ الْمُلْك تَدُلُّ عَلَى الْقُدْرَةِ الْبَاهِرَةِ[4]، فالخلق كلُّهم عبيده وإماؤُه، وهو خالقُهم ورازقُهم، وحكمُه نافذٌ فيهم، وفي كلِّ شيءٍ دلالةُ ربوبيَّته ووحدانيَّته، وهو وحدَه الْمُستَحِقُّ للعبادةِ؛ لأنَّه المالكُ المدبِّرُ لكلِّ ما في السَّماوات وما في الأرض[5].

---

(1) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/84.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/84.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/339.
(4) أبو حيّانَ، البَحْرُ الْمحيطُ: 2/750.
(5) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 1/360.

وقد أكدَّ معنى الاختصاصِ بتقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿وَلِلَّهِ﴾ الَّذي يُفيد القصر[1]، فَهِيَ للّه خَلْقًا ومُلْكًا[2]، لا لغيره أصلًا، لا استقلالًا ولا اشتراكًا، وَأكَّدَهُ أيضا بالتَّكْرَارِ في قَوْلِهِ: ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ فكَرَّرَ: ﴿مَا﴾ تفصيلًا وتَنْبِيهًا وَتَوْكِيدًا[3]، وبالطِّباق بَيْنَ لَفْظَتَي ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلْأَرْضِۚ﴾.

إظهار الاسم الجليل في مقام البيان والتَّعليل:

مناسبة إظهار الاسم الجليل لذكر أعظم المخلوقات

وإظهار علميَّة الاسم الأحسن دون ضميره؛ لأنَّ المقام يقتضيه، فقد ذكر في الآية العقلاء وغيرهم، وبرز اسم السَّماوات مجموعة ممَّا يزيد في عظمتها، وكذا الأرض، وما يعيش على ظهرها، فالمقام مقام ذكر المخلوقات العظيمة، فناسب ذكر الخالق العظيم - جلَّ اسمه - بأعظم أسمائه وأعرفها، وهو لفظ الجلالة الَّذي كلُّ المخلوقات تألهه، وترنو إليه، وتخرُّ ساجدة لعظمته، وفي ذلك أيضًا تربية للمهابة في قلوب العباد[4].

دلالةُ التَّغليبِ في استعمالِ الأدواتِ:

استِعْمالُ (ما) الَّتي لغير العاقِل تَغْلِيبًا في وصف المخلوقات

جَاءَ بِلَفْظِ: ﴿مَا﴾ الموصوليَّة تَغْلِيبًا لِمَا لَا يَعْقِلُ عَلَى مَنْ يَعْقِلُ؛ لِأَنَّ الْغَالِبَ فِيمَا حَوَتْهُ، إِنَّمَا هُوَ جَمَادٌ وَحَيَوَانٌ، لَا يَعْقِلُ، وَأَجْنَاسُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ، وَأَمَّا الْعَاقِلُ؛ فَأَجْنَاسُهُ قَلِيلَةٌ؛ إِذْ هِيَ ثَلَاثَةٌ: إِنْسٌ وَجِنٌّ وَمَلَائِكَةٌ[5]، وانفراد اللّه بذلك، فكلمةُ ﴿مَا﴾ من صيغ العُمُوم شاملةٌ للعقلاء أيضًا تغليبًا، أي: له مَا فِيهِمَا مِنَ الموجوداتِ خَلْقًا ومُلكًا لا مدخَلَ فيه لأحد أصلًا، فله الأمرُ كلُّه[6].

---

(1) أبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/84.
(2) البَيْضاويُّ، أَنْوارُ التَّنْزيلِ: 1/165، والقونَويُّ، حاشيةُ القونَويِّ: 5/494.
(3) أَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيطُ: 2/767.
(4) الخنين، النظم القرآني، ص: 120.
(5) أَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيطُ: 2/750، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/389.
(6) أَبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/84.

واستعمال ﴿فِي﴾ الظرفيَّة وإدخالها في السَّماوات والأرض للإشعار بأنَّ السَّماوات والأرض ظرف لتلك المخلوقات، وأنَّه لم يعد شيء منها خارجًا عنها؛ ولذلك فجميعها في ملك اللّه وتحت مشيئته[1].

توجيه المخصوصِ بالذِّكرِ:

عمومُ ملكِ الله لكلِّ ما يظنُّ الإنسانُ قدرتَه على تملُّكِه

وَخصَّ السَّماوات وَالْأَرْض بالذِّكر من بَيْنِ المخلوقات؛ لِأَنَّهَا أَعْظَمُ مَا يُرَى مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَقَدَّمَ السَّماوات لِعِظَمِهَا[2]، ولأنَّها تعمُّ كلَّ ما فيه مَظِنَّةُ تملُّكٍ للإنسانِ.

دلالة الفصل بعد ذكر الملك:

بيان أنَّ تصرُّفاته تعالى على وفق مشيئته

وفصل جملة: ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ عمَّا قبلها؛ لكونها وقعت جوابًا عن سؤال ناشئ عن الجملة السَّابقة، فإنَّه لما قيل: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ استفهم عن شأن مَنْ هذه صفته، فقيل: ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾، فأتى بهذه الجملة موضِّحة أنَّ تصرُّفاته تعالى على وفق مشيئته[3]، يفعل في ملكه ما يشاء، فلا رادَّ لقضائه ولا معقِّب لحكمه.

بديع عطف التَّعذيب على المغفرة في صورة المطابقة:

بيان اتِّحادهما في المصدر الجامع بينهما

أمَّا قرن جملة التَّعذيب بجملة المغفرة وعطفها عليها؛ فلما بينهما من المغايرة، فالمغفرة على الضِّدِّ من العذاب، ولكنَّ الجامع بينهما: هو اتِّحاد المسند إليه، وهو اللّه سبحانه، بالإضافة إلى مراعاة المطابقة بين لفظتي ﴿يَغۡفِرُ﴾ و﴿وَيُعَذِّبُ﴾ الَّتي أعطت المعنى قوَّة وجمالًا لوقوع كِلْتَيْهِما من الرَّبِّ العظيم القادر الَّذي يفعل في ملكه مايشاء، ويحكم مايريد، ولذلك حسن العاطف هنا[4].

(1) الخنين، النظم القرآني، ص: 121.
(2) أبو حيّان، البَحْرُ الُمحيطُ: 2/750.
(3) أبو حيّان، البَحْرُ الُمحيط: 3/339.
(4) الخنين، النظم القرآني، ص: 121.

سِرُّ اختيار (مَنْ) دون (ما) في مقام المغفرة والتَّعذيب:

اخـتـصـاص المـغـفـرة والـتَّـعـذيـب بالعقلاء

وإيثار لفظة (مَنْ) في قوله تعالى: ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ في الموضعين دون (ما) لاختصاص المغفرة والتَّعذيب بالعقلاء، فهم الَّذين يجري في حقِّهم ذلك(1).

تقديم فعل المغفرة على فعل التَّعذيب:

بيان تناسب كلٍّ منها في الذِّكر مع ماسبقه، والإشعار بأسبقيَّة رحمة الله على عذابه

قدَّم ذكر المغفرة على التَّعذيب للتَّناسب مع الآية السَّابقة حيث قُدِّمت التَّوبة على التَّعذيب في قوله: ﴿أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ﴾، فلمَّا تقدَّم قوله: ﴿أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ﴾؛ ناسب البداءة بالغفران والإرداف بالعذاب، ولم يشترط في الغُفران هذه التَّوبة؛ إذ يغفر تعالى لمن يشاء من تائب وغير تائب ماعدا ما استثناه تعالى من الشِّرك(2)، وقُدِّمت المغفرة بالذِّكر أيضًا للإشعار بأنَّ رحمته سبحانه قد سبقت عذابه، وأنَّها قد وسعت كلَّ شيء(3).

توجيه المتُشابه اللَّفظي في تقديم العذاب على المغفرة في الآية الأربعين من هذه السُّورة:

بيان أنَّ عذاب السَّارق والسَّارقة واقع في الدُّنيا جزاء على فعلهما

فقد سبق موضع آخر في هذه السُّورة الكريمة، قُدِّم فيه ذكرُ العذاب على المغفرة، وهو قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤٠﴾ [المائدة: 40]، وتوجيه ذلك أنَّه تَقَدَّمها حَدِيثٌ عن حكم الحِرَابَةِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ [المائدة: 33]، وفي حُكْمِ السَّارق والسَّارقة: ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ [المائدة: 38]، كان من الملائم تقديمُ العذاب على المغفرة في هذا السِّياق؛ لأنَّ عذاب السَّارق

---

(1) أبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/84.

(2) أبو حيّانَ، البَحْرُ المُحيطُ: 3/339.

(3) الخنين، النظم القرآني، ص: 121.

والسَّارقة يقع في الدُّنيا جَزَاءً على فِعْلِهما، ثُمَّ ذَكَرَ المغفرة لهما؛ إن تابا[1].

دلالة التَّذييل بذكر وصف المغفرة والرَّحمة وتأكيده:

تقرير مضمون ما قبله من الاعتناء بشأن الرَّحمة إطماعًا في التَّوبة ودعوة إلى سلوك مسالك الرَّحمة

قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تذييلٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ قولِه تعالى: ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾، وقد أكَّد هذا التَّقرير بعدَّة مؤكِّدات، منها: إظهار لفظ الجلالة مرَّة أخرى، واسميَّة الجملة، ومجيء صيغة ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ على وزني: فعول وفعيل، المفيدَيْن المبالغةَ بالوصف المذكور[2]، وفي تخصيصِ التَّذييلِ بهذين الوصفين دون قرينةٍ اعتناءٌ بشأن المغفرةِ والرَّحمة[3]، في حين أنَّ جانب العذاب قد تُرك، وسُكت عنه، واكتفي بما تقدَّم، وفي ذلك إطماع بالإسلام لمن ضلَّ وجانب الهدى، كما أنَّ فيه حدودًا للفسَّاق وسوقًا لهم إلى أبواب التَّوبة والإنابة قبل أن تُغلق دونهم، ولات ساعة مندم[4].

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العفْو والمغفرة:

الغفران ينبئ عن السَّتر، والعفو ينبئ عن المحو، وهو أبلغ

العفو: إسقاط العذاب وترك العقاب على الذَّنب، فكلُّ من اسْتحقَّ عُقُوبَة، فَتَرَكْتَهَا؛ فقد عَفَوْتَ عنه[5]، والمغفرة: تغطية الذَّنب، وسَتْرُهُ بإيجاب المثوبة صونًا له عن عذاب الخِزْي والفَضيحَةِ، ولا يسْتَحقُّ الغفران إِلَّا الْمُؤمنُ الْمُسْتَحِقُّ للثَّواب، وَالعَفْوُ قد يكون قبل العقُوبَة، وَقد يكون بعْدهَا، بِخِلَاف الغُفْرانِ: فَإِنَّهُ لَا يكون مَعَه عُقُوبَة الْبَتَّةَ، وَلَا يُوصف بِالعَفو إِلَّا الْقَادِرُ على ضِدّه[6].

(1) ابْنُ الزُّبَيْر، ملاكُ التَّأْويلِ: 1/74، والكرماني، أسرار التَّكرار في القرآن، ص: 87.
(2) الدّبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/542.
(3) أبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/84، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/83.
(4) الخنين، النظم القرآني، ص: 122.
(5) الكَفَويُّ، الكُلّيات، ص: 598.
(6) العَسْكَرِيُّ، الفُروقُ اللُّغَويَةُ، ص: 235، والكَفَوِيُّ، الكُلّيات، ص: 632.

فالغفران: ينبئ عن السَّتر، والعفو: ينبئَ عن المحو، وهو أَبْلَغُ من السَّتْرِ، لأَنَّ السَّتر للشَّيءِ قد يحصل مع إبقاءِ أصله، بخلاف المحو؛ فإنَّه يُزالُ جُمْلَةً ورَأْسًا[1].

العَذاب والعِقاب:

العِقَاب يُنْبِئُ عَنِ اسْتِحقاقٍ، والـعـذاب لا يقتضي ذلك

العِقَاب: يُنْبِئُ عَنِ اسْتِحقاقٍ، وَسُمِّيَ بِذلِكَ؛ لَأَنَّ الفاعِلَ يَسْتَحِقُّهُ عَقِيْبَ فِعْلِه، وَيَجوزُ أَنْ يَكونَ العَذابُ مُسْتَحَقًّا وغَيْرَ مُسْتَحَقٍّ، فَالْعِقابُ يَقْتَضي بِظاهِرِهِ الجَزاءَ عَلى فِعْلَةِ المُعَاقَبِ عَقِبَ فِعْلِهِ، والعَذابُ لَيْسَ كَذلِكَ، فَبَيْنَهُما عُمومٌ وخُصوصٌ[2].

(1) الغَزالي، المَقْصَدُ الأَسْنى، ص: 140.

(2) العَسْكَرِيُّ، الفُروقُ اللُّغَوِيَّةُ، ص: 364.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَـٰفٗا مُّضَـٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران: 130 - 132]

مُناسَبَةُ الآيَاتِ لِمَا قَبْلَها:

الأمـر بتقـوى الله في الأموال وطاعته في جميع الأحوال، بعد ذكر تقواه في الجهاد والصَّبر والقتال

وجْهُ الاتِّصالِ بين هذه الآياتِ وما قَبْلَها: أنَّ ما قَبْلَها في بيانِ أنَّ الله نصَرَ المؤمنين، وهم أذلَّةٌ، وأنَّهم إنَّما نُصِروا بتقوى اللهِ وامتثالِ الأمْرِ والنَّهي؛ ولذلك خُذِلوا في أُحُدٍ عند المخالفةِ والطَّمعِ في الغنيمةِ، فحثَّهم اللهُ تعالى في هذه الآيةِ على بَذْلِ المالِ في سبيلِ اللهِ، كالدِّفاعِ عن المِلَّةِ والأُمَّة، والتَّنفيرِ عن الطَّمعِ فيه، وشرُّه أكْلُ الرِّبا أضعافًا مُضاعفةً؛ لذا ذُكِر في أوَّلِ الكلامِ في هذه الغزوةِ شيءٌ يتعلَّقُ بالمالِ وإنفاقِه، وفي آخِرِها شيءٌ يَتعلَّقُ بذلك[1]، وأيضًا فإنَّه لَمَّا تقدَّم وعْدُ الله تعالى للمؤمنين، بأنَّهم إنْ صبَروا، واتَّقوا؛ نَصَرهم على أعدائِهم، فكأنَّ النُّفوسَ اشتاقتْ إلى معرفةِ خِصالِ التَّقوى الَّتي يَحصُل بها النَّصرُ والفلاحُ والسَّعادة، فذكَر اللهُ في هذه الآياتِ أهمَّ خِصالِ التَّقوى الَّتي إذا قام العبدُ بها؛ فقيامُه بغيرِها من بابِ أَوْلى وأَحْرى، فنهاهم أوَّلًا عن أكْلِ الرِّبا أضعافًا مُضاعَفة، ثم توالتْ بعد ذلك الأوامرُ الأخرى الَّتي مَن امتَثَلها، فإنَّه يُحقِّق التَّقوى[2]، فناسَب اعتراضَ هذه الجملةِ هنا أنَّه تعالى وعَدَ المؤمنين بالنَّصرِ والإمدادِ مَقرونًا بالصَّبرِ والتَّقوى، فبدأَ بالأهمِّ منها، وهو: ما كانوا يَتعاطَوْنه من أكْلِ الأموالِ بالباطلِ، وأمَر بالتَّقوى، ثُمَّ بالطَّاعة[3].

(1) رضا، تَفْسيرُ المنار: 4/101.

(2) السِّعْدي، تَيْسيرُ الكَريمِ الرَّحْمنِ، ص: 148.

(3) أَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيطُ: 3/340.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾: أَصْلُ الرِّبا: الزِّيادة، يُقالُ: رَبا يَرْبو، ومِنْهُ قَوْلُه تعالى: ﴿ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ﴾ [الحج: 5]، أَيْ: زادَتْ، وانْتَفَخَتْ، وكلُّ شَيْءٍ ارْتَفَعَ، أَوْ زادَ؛ فَقَدْ رَبَا،[1] ومعناه في الشَّرع: أَنْ يُعْطِيَ المَدِينُ مَالًا لِدَائِنِهِ زَائِدًا عَلَى قَدْرِ الدَّيْنِ لِأَجْلِ الانْتِظارِ، فَإِذَا حَلَّ الأَجَلُ، وَلَمْ يَدْفَعْ؛ زَادَ فِي الدَّيْنِ[2].

2) ﴿أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ﴾: الضِّعف: زيادة الشَّيء بمثل، وأصل الضِّعف يدُلُّ على أن يزاد الشَّيءُ مِثلَه، يقال: أضعفت الشَّيءَ إضعافًا، وضعَّفتُه تضعيفًا، وضاعَفتُه مُضاعَفة، وهو أن يُزادَ على أصل الشَّيء، فيُجعلَ مثلين أو أكثر، وضَعَفْتُ القومَ أَضْعُفُهُمْ ضَعْفًا؛ إذا كَثَّرْتُهُمْ[3].

3) ﴿تُفۡلِحُونَ﴾: تفوزون وتظفرون بالبغية، من الفلاح: وهو الفَوْزُ بِمَا يُغتبَطُ به، وفِيهِ صلاحُ الحالِ، ويقال: أفلح؛ إذا أدرك مطلوبَهُ، ويأتي الفلاح بمعنى: البقاء في الخَيْرِ، وأصل فلح: يدلُّ على فَوْزٍ وَبَقَاءٍ، فالْفَلَاح: هو الفوزُ وإدراكُ الخَيْرِ، ثُمَّ البقاءُ فِيه، فالفلاحُ: اسمٌ جامعٌ لخَيْرَي الدُّنيا والآخرة؛ ولذا جعَلَ الرَّاغبُ الفلاحَ ضَرْبَيْنِ: دنيويًّا وأُخْرَوِيًّا[4].

4) ﴿أُعِدَّتۡ﴾: أَعْتَدَ الشَّيءَ: أَعَدَّه، وَأَصْلُهُ: أَعدَدَ، أُبْدِلَتِ الدَّالُ تاءً[5]، والعَتادُ والعُدَّةُ: ادِّخارُ الشَّيءِ قَبْلَ الحاجَةِ إِلَيْهِ، كالإِعْدادِ[6]، وأَصْلُ (عَتَدَ): يَدُلُّ على حُضورٍ وقُرْبٍ[7]، والمعْنى هُنا: هُيِّئَت[8].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يا أيُّها الَّذين صدَّقوا الله ورسوله، وعملوا بشرعه؛ تجنَّبوا أخذ الرِّبا زيادة مضاعفة على رؤوس أموالكم الَّتي أقرضتموها، كما يفعل أهل الجاهليَّة، واتَّقوا الله بامتثال أوامره

(1) ابْنُ قُتَيْبَةَ، غَرِيبُ القُرْآنِ ص: 297، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ربو، ربى).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/79.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ضعف).
(4) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (فلح).
(5) ابْنُ سِيدَه، المُحْكَمُ، (العين والدال والتاء).
(6) الرَّاغِبُ، المُفْرداتُ، (عَتَدَ)، والمَنَاوِيُّ، التَّوقيفُ، ص: 236.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عَتَدَ).
(8) الرَّاغِبُ، المُفْرداتُ: (عَتَدَ)، والسَّمِين، عُمْدَةُ الحُفَّاظِ: (عتد).

النَّهي عما حرَّم اللـه، والأمـر بـالـطَّـاعـة له ولرسوله؛ لأنَّها عنوان التَّقوى وسبب الرَّحمة وسبيل النَّجاة

واجتناب نواهيه؛ لتفوزوا في الدُّنيا والآخرة، واجعلوا لأنفسكم وقاية بينكم وبين النَّار الَّتي هُيِّئت للكافرين، وأطيعوا اللَّه والرَّسول في كلِّ أمر ونهي؛ لتُرحموا في الدُّنيا والآخرة[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

تَصْديرُ خطاب المؤمنين بالنِّداء:

العِـنـايَـةُ والاهْتمامُ بصفَةِ الإيمانِ الحامِلَةِ على امتثال الأَمْرِ واجْتنابِ النَّهي

لِأَنَّ النِّدَاءَ لِلتَّنْبِيه، وَلَا يُنَبَّهُ إِلَّا عَلَى شَيْءٍ مهمٍّ، وإذا وُجِّهَ الْخِطَابُ إلى الْمُؤْمِنِينَ؛ فَإِنَّ فِيهِ فَوَائِدَ: أَوَّلًا: الْإِغْرَاءُ وَالْحَثُّ، كَأَنَّهُ يُنَادِيهِمْ بِصِفَةِ إيمَانِهِم الَّذِي يَحْمِلُهُمْ عَلَى امْتِثَالِ الْأَمْرِ وَاجْتِنَابِ النَّهْيِ، وَأَنَّ الِالْتِزَامَ بِهَذَا مِنْ مُقْتَضَيَاتِ الْإِيمَانِ، فَالْكَلَامُ خَاصٌّ بكم - يَا أَيُّهَا المؤمنون - فَتَنَبَّهُوا أَن تشُوبَ دِينكَمْ شَائِبَةٌ، وَأَنَّ الْمُخَالَفَةَ فِيهِ ممَّا ينقص الْإِيمَانَ[2]، ففيه إشعارٌ بأنَّ من مُقتضَى الإيمان وتصديقه تَرْكَ الرِّبا[3]،

فَصُدِّرَ الْكَلَامُ بِحَرْفِ النِّدَاءِ وَالتَّنْبِيهِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي حَمْلِهِمْ عَلَى الْعَمَلِ بِمُوجِبِ النَّهْيِ[4]؛ وَلِذَا قَالَ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا؛ فَأَرْعِهَا سَمْعَكَ، فَإِنَّهُ خَيْرٌ يَأْمُرُ بِهِ، أَوْ شَرٌّ يَنْهَى عَنْهُ"[5]، ففي تصدير الخِطاب في شأنِه بالنِّداء تعظيمٌ لشأنِ الرِّبا وبيانُ خطرِه[6].

سِرُّ التَّعبير عن إيمانهم بالفعل الماضي:

بـيـان تـحـقُّـق إيمانهم الدَّاعي إلـــى امـتـثـال الأوامر واجتناب النَّواهي

فاختيار صيغة الفعل الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾؛ لإفادة تحقُّق الإيمان وثبوته لهم، وفي ذلك ما يحثُّهم على حسن التَّلقِّي والتَّنفيذ بالابتعاد عن الرِّبا، وبتقوى اللَّه[7] عَزَّ وَجَلَّ.

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 91، ونخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 66.
(2) ابْنُ عُثَيمين، تَفْسِيرُ ابْنِ عُثَيْمِين: 3/410.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 2/410.
(4) أَبو السُّعودِ، إِرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 01/699.
(5) أخرجه أحمد ابن حنبل، الزُّهد، ص: 130، وجوَّد أحمد شاكر إسناده، ينظر: أحمد محمَّد شاكر، عمدة التَّفسير: 1/619.
(6) ابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين: (سورة آل عمران): 2/159.
(7) الدّبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/526 - 527.

دَلالَةُ المجاز في التَّعْبيرِ بالأكل عن التَّعاطي:

المبالغة في التَّشْنيعِ عَلَيْهِمْ وتَبْشيعِ حالِهِمْ

قوله تعالى: ﴿لَا تَأۡكُلُواْ﴾ مجاز مرسل، قُصِدَ بِهِ التَّشْنيعُ على المُرابينَ بِلَفْظَةِ الأكْلِ الدَّالَّةِ على الجَشَعِ، فَمَعْنى ﴿لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾، أَيْ: لا تكتسبوا الرِّبا، ولاتتعاطَوْهُ، فعَبَّرَ عَنْ مُعامَلَةِ الرِّبَا وَأَخْذِهِ: بِالْأَكْلِ؛ لِأَنَّ الْأَكْلَ غَالِبُ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ فِيهِ، فَيُصْرَفُ في المَأْكولِ غالِبًا، فَأُقيمَ هذا البَعْضُ مِنْ تَوابِعِ الكَسْبِ مقامَ الكَسْبِ كُلِّهِ[1].

ولِأَنَّ الرِّبا - أَيْضًا - شائِعٌ في المَطْعوماتِ، وهُوَ زِيادَةٌ في الأَجَلِ، بِأَنْ يُباعَ مَطْعومٌ بِمَطْعوم، بِأَكْثَرَ مِنْهُ مِنْ جِنْسِهِ[2]، فَيَكونُ الأَكْلُ هُنا عَلى ظاهِرِهِ مِنْ خُصُوصِ الأَكْلِ[3].

فسمَّى أَخْذَ الرِّبَا أكلًا في قوله: ﴿لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾؛ لأنَّه يؤولُ إليه، فهذا من بابِ تسميةِ الشّيء بما يؤول إليه[4].

فهذِهِ الصُّورَةُ مِنْ قَبيلِ المَجازِ المُرْسَلِ بِعَلاقَةِ اللُّزُوم، حَيْثُ عَبَّرَ عَنْ أَخْذِ الرِّبا بالأَكْلِ؛ لِأَنَّ مُعْظَمَ المَقْصودِ مِنَ المالِ الرِّبويِّ الأَكْلُ، وهُوَ أَشْهَرُ لَوازِمِهِ ومَصارِفِهِ عِنْدَ النَّاسِ[5]، كَما عَبَّرَ بالأَكْلِ هُنا لِمَا فيه مِنْ فَناءِ المادَّةِ المَأْكولَةِ وإِخْفائِها عَنِ العُيُونِ نهائيًّا، فَجَعَلَ اللّٰهُ تَعالى المَالَ الرِّبويَّ كَالطَّعامِ يَلْتَهِمُهُ الظَّالِمُ؛ لِيُبَيِّنَ شِدَّةَ حِرْصِهِ على أَخْذِهِ دُونَ تَرْكِ شَيءٍ مِنْهُ وَدُونَ إِرْجاعِهِ إِلى أَصْحابِهِ، فَإِنَّ الطَّعامَ قَبْلَ أَنْ يَأْكُلَهُ المَرْءُ يُمْكِنُ إِعادَتُهُ إِلى أَهْلِهِ، وإِذا ما أَكَلَهُ؛ فَقدَ قَرَّرَ عَدَمَ إِرْجاعِهِ، وكَذلِكُمْ آكِلُ الرِّبا.

وقَدْ جاءَتْ لَفْظَةُ الأَكْلِ مُقْتَرِنَةً بِالمالِ في مَواضِعَ كَثيرَةٍ مِنَ القُرْآنِ الكَريمِ؛ لِأَنَّ الأَكْلَ أَقْوى مَقاصِدِ الإِنْسانِ في المالِ، ثُمَّ صارَ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/371، والبَيْضاويُّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 1/162.
(2) أبو السُّعودِ، إِرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/412، والبَيْضاويُّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 1/162.
(3) أَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيطُ: 2/704.
(4) أبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيطُ: 3/342.
(5) أَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيطُ: 3/610، والقِنَّوْجيُّ، فَتْحُ البَيان: 3/93.

حَقيقَةً عُرْفِيَّةً، فَقالُوا: أَكَلَ مالَ النَّاس، قالَ تَعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البَقَرَة: 188]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [النِّساء: 10][1].

فهذا المَجاز أَفادَ تَشْنيعَ التَّصَرُّفِ في أَمْوالِ النَّاسِ في غَيْرِ وَجْهِ حَقٍّ، وهو اسْتيلَاء ظُلْم، وَهذا مَجَازٌ صارَ كالْحَقِيقَةِ[2]، في ظُهُورِهِ وكَثْرَتِه وشَنَاعَة حالِ فاعِلِه.

دلالة وصف الرِّبا المنهيِّ عنه في كونه أضعافًا مُضاعفة:

تــحــذيــر المسلمين من ربا الجاهليَّة، وتشنيع سلوك طريق أهله

ليس القيد بالوصْف هنا هو مَصَبَّ النَّهي عن أكْلِ الرِّبا؛ حتى يَتوهَّم مُتوهِّم أنَّه إنْ كان دون الضِّعفِ؛ لم يكن حرامًا، لأنَّ الحال واردةٌ لحكاية الواقع، فهذه الآية نزلت في ربا الجاهليَّة، قال سعيد بن جبير: كان الرَّجل يكون له على الرَّجل المال، فإذا حلَّ الأجل؛ فيقول: أخِّر عنِّي، وأزيدك على مالك، فتلك الأضعاف المضاعفة[3]، فلا تُفيد مفهومًا؛ لأنَّ شرطَ استفادة المفهوم من القيود ألَّا يكون القيدُ الملفوظُ به جرى لحكاية الواقع، فلا يَقتصِر التَّحريمُ بهذه الآية على الرِّبا البالغ أضعافًا كثيرة[4]، وليس معنى الكلام أنَّ الربا لا ينهى عنه إلَّا إذا كان أضعافًا مضاعفة، وإنَّما تَضمَّن النَّهيُ عن الرِّبا التَّوبيخَ بما كانوا عليه في الجاهليَّة من تضعيفِه، وإلَّا فإنَّ أكْل الرِّبا مَنهيٌّ عنه قليلًا كان أو كثيرًا، لكنَّ الآية نزلتْ على سببٍ، وهو فِعْلهم ذلك، فهو تشنيع عليهم[5]، فالنَّهي هنا لمراعاة ما كانوا عليه من العادة، توبيخًا لهم بذلك[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/79.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/23.
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/325.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/86.
(5) الزركشي، البرهان: 3/401.
(6) أَبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/84.

دلالة وصف الأضعاف بالمضاعفة بطريق التَّجنيس:

تأكيد شناعة فعلهم وقبحه

فقوله: ﴿أَضۡعَٰفٗا﴾ هو جَمْع ضِعْف، وهو جمعُ قِلَّة، ولَمَّا كان جَمْعَ قِلَّة، والمقصودُ الكثرة؛ أَتْبعه بما يدلُّ على ذلك، وهو الوصف بقوله: مُضَاعَفَةً[1]، وهو جناس اشتقاق جاء صِفَةً لِلْأَضْعَافِ، أَيْ: هِيَ أَضْعَافٌ يَدْخُلُهَا التَّضْعِيفُ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا دَايَنُوا أَحَدًا إِلَى أَجَلٍ؛ دَايَنُوهُ بِزِيَادَةٍ، وَمَتَى أَعْسَرَ عِنْدَ الْأَجَلِ، أَوْ رَامَ التَّأْخِيرَ؛ زَادَ مِثْلَ تِلْكَ الزِّيَادَةِ، فَيَصِيرُ الضِّعْفُ ضِعْفًا، وَيَزِيدُ، وَهَكَذَا، فَيَصْدُقُ بِصُورَةِ أَنْ يَجْعَلُوا الدَّيْنَ مُضَاعَفًا بِمِثْلِهِ إِلَى الْأَجَلِ[2]، وكان الرَّجُل منهم إذا بلَغ الدَّين مَحلَّه؛ يقول: إمَّا أَنْ تَقْضي حقِّي، أو تُربي، وأزيدَ في الأَجلِ، فاستَغرَق بالشَّيء الطَّفيف مال المدين[3]، فدلَّت هذه العبارة المؤكَّدة على شنعة فعلهم وقبحه[4].

﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾: ظَاهِرُهُ التَّعَلُّقُ بِالْجُمْلَةِ الْأَخِيرَةِ، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ لِأَنَّ تَقْوَى اللَّهِ هُوَ إِجْمَاعُ الْخَيْرِ مِن امْتِثَالِ الْأَوَامِرِ، وَاجْتِنَابِ النَّوَاهِي، فَعَلَّقَ التَّقْوَى بِرَجَاءِ الْفَلَاحِ، وَهُوَ الظَّفَرُ بِالْبُغْيَةِ.

التَّذييل بالأمر بالتَّقوى والتَّرجية في الفلاح:

بيان أنَّ الرَّجاء والطَّمع في الفلاح سبيل المتَّقين

لَمَّا نَهَاهُمْ عَنْ أَمْرٍ صَعُبَ عَلَيْهِمْ فِرَاقُهُ، وَهُوَ الرِّبَا؛ أَمَرَ بِتَقْوَى اللَّهِ؛ إِذْ هِيَ الْحَامِلَةُ عَلَى مُخَالَفَةِ مَا تَعَوَّدَهُ الْمَرْءُ مِمَّا نَهَى الشَّرْعُ عَنْهُ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ التَّقْوَى سَبَبٌ لِرَجَاءِ الْفَلَاحِ، وَهُوَ الْفَوْزُ، وَأَمَرَ بِهَا مُطْلَقًا لَا مُقَيَّدًا بِفِعْلِ الرِّبَا؛ لِأَنَّهُ لَمَّا نَهَى عَنِ الرِّبَا؛ كَانَ الْمُؤْمِنُونَ أَسْرَعَ شَيْءٍ لِطَوَاعِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَمْ يَأْتِ: وَاتَّقُوا اللَّهَ فِي أَكْلِ الرِّبَا، بَلْ أُمِرُوا بِالتَّقْوَى، لَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى شَيْءٍ خَاصٍّ مَنَعُوهُ مِنْ جهة الشَّريعة[5]، ولعَلَّ

---

(1) أبو حَيّان، البَحْرُ المُحيطُ: 3/340.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/85.

(3) الزمخشري، الكشَّاف: 1/414، والبَيْضاويُّ، أَنوارُ التَّنْزيل: 2/38، والقاسمي، محاسن التأويل: 2/410.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/507.

(5) أبو حَيّان، البَحْرُ المُحيطُ: 3/340.

كَلِمَةَ لعلَّكم لِلتَّرْجِيَةِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَلَّمَا يَخْلُو في أَدَاءِ الْفَرِيضَةِ مِنْ تَقْصِيرٍ[1]، ويكون التَّقدير: افعلوا ذلك على الرَّجاء منكم والطَّمع[2] في الفلاح.

ولا يخفى أنَّ اقتران الرَّجاء بالتَّخويف يفيد أنَّ العبد ينبغي أن يكون بين الرَّجاء والخوف، فهما جناحاه اللَّذان يطير بهما إلى حظائر القدس[3].

دلالة تعريف لفظة ﴿ٱلنَّارَ﴾ باللَّام والصِّلة:

بيان ما استقرَّ في نفوس النَّاس من معرفة للنَّار المتوعَّد بها

اللَّام في ﴿ٱلنَّارَ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ لِلْعَهْدِ الْعِلْمِيِّ، وذلك أنَّ كثيرًا من آياتِ النَّار نَزَلَت بِمَكَّةَ الْمُكَرَّمة، فاستقرَّ ذلك المعنى في نفوس الْمُتَلَقِّينَ، فإذا عُرِّفَتْ باللَّام؛ انْصَرَفَ الذِّهْنُ إلى تلك النَّارِ المعروفة قبلُ، لا إلى كلِّ نَارٍ، كما أنَّ تَعْرِيف النَّارِ بِهَذِهِ الصِّلَةِ، يُشْعِرُ بِأَنَّهُ قَدْ شَاعَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ هَذَا الْوَصْفُ لِلنَّارِ بِمَا في الْقُرْآنِ مِنْ نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التَّحريم: 6]، وَقَوْلِه: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝٩١﴾ [الشُّعَرَاء: 91] الْآيَة[4].

والتَّعريف بالموصول هنا لتعظيم الزَّجر؛ لأنَّ المؤمنين الَّذين أُمروا بترك المعاصي والإقلاع عنها، والبعد عن سبيلها، إذا علموا أنَّهم متى فارقوا التَّقوى، وارتكسوا في حمأة المعاصي؛ أدخلوا تلك النَّار المهولة المرعبة المعدَّة للكافرين، وقد علموا من النُّصوص الَّتي تقرع آذانهم عظمتها وعظمة ما فيها من أنواع النَّكال؛ كان انزجارهم عن المعاصي أتمَّ.

هذه الآية تقوية لرجاء المؤمنين رحمة من الله تعالى؛ لأنَّه قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾، فجعلها معدَّة للكافرين دون المؤمنين[5].

---

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 23/254.
(2) القِنَّوْجيُّ، فَتْحُ البَيانِ: 1/103.
(3) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/270.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/88.
(5) الخازن، لباب التأويل: 1/296.

سرُّ بناء الفعل للمفعول في وصف النَّار:

المبالغة في الإنذار زيادة في التَّرهيب والتَّنفير

بِناءُ فِعل ﴿أُعِدَّتۡ﴾ للمَفعولِ؛ لزيادةِ التَّرهيبِ والمُبالَغةِ في الإنذار[1]، وفيه تنفيرٌ من النَّار وما يُوقِع فيها، بأنَّها معدودةٌ للكافرين، وتحذيرُ المسلمين من مشاركتِهم؛ إذ المسلمون لا يَرْضَون بمشاركةِ الكافرين؛ لأنَّ الإسلامَ الحقَّ يُوجِب كراهيةَ ما ينشأ عن الكُفْر، وذاك تعريضٌ واضح في الوعيد على أخْذ الرِّبا، ومقابل هذا التَّنفير: التَّرغيب في قوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران: 133][2].

فائدة التَّعبير بالفعل الماضي:

إثبات خلق النَّار وأنَّها موجودة الآن

وفي قوله: ﴿أُعِدَّتۡ﴾ إخبارٌ عن الماضي، فلا بدَّ أن يكون قد دخَل ذلك الشَّيءُ في الوجود، فالنَّار مخلوقةٌ وموجودة الآن[3].

فائدة عطف طاعة الرَّسول ﷺ على طاعة الله سبحانه وتعالى:

بيان أنَّ طاعة النَّبيِّ ﷺ طاعة لله تعالى

فَإِنَّ طَاعَةَ الرَّسُولِ طَاعَةُ اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: 80]، فإنَّ طاعة الله مع معصية رسوله ليست بطاعة[4]، فذِكْرُ الرَّسُولِ زِيَادَةٌ فِي التَّبْيِينِ وَالتَّأْكِيدِ وَالتَّعْرِيفِ بِأَنَّ طَاعَتَهُ طاعة الله، وفي قرن طاعة الرَّسول صلوات الله عليه بطاعة الله تشريفًا لنبيِّه[5] لقدره وهَذِهِ الْآيَةُ هِيَ ابْتِدَاءُ الْمُعَاتَبَةِ فِي أَمْرِ أُحُدٍ، وَانْهِزَامِ مَنْ فَرَّ، وَزَوَالِ الرُّمَاةِ مِنْ مَرْكَزِهِمْ، وَقِيلَ: صِيغَتُهَا الْأَمْرُ، وَمَعْنَاهَا: الْعَتْبُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا جَرَى مِنْهُمْ مِنْ أَكْلِ الرِّبَا، وَالْمُخَالَفَةِ يَوْمَ أُحُدٍ[6].

(1) الدبل، دليل البلاغة القرآنية، ص: 542.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/88.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/364.
(4) الخازن: لباب التأويل: 1/296.
(5) القشيري، لطائف الإشارات: 1/277.
(6) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/341.

دلالة العطف بالوعد بعد الوعيد:

التَّنبيه إلى عادة القرآن الكريم في ذكر الوعد بعد الوعيد تنشيطًا للنُّفوس

فـ ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾، أي: لكي تُرحموا ولا تتعذَّبوا؛ إذا أطعتم الله ورسوله، فلمَّا ذَكَرَ الْوَعِيدَ؛ ذَكَرَ الْوَعْدَ بَعْدَهُ عَلَى مَا هُوَ الْعَادَةُ الْمُسْتَمِرَّةُ فِي الْقُرْآنِ[1]؛ تنشيطًا للنُّفوس للنُّهوض بامتثال الأوامر كما نهضت لاجتناب النَّواهي والزَّواجز، فأتبع الوعيد بالوعد ترهيبًا عن المخالفة، وترغيبًا في الطَّاعة، وإيرادُ لَعَلَّ في الموضعين للإشعار بعزَّة منالِ الفلاحِ والرَّحمة[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الطَّاعة والعبادة:

الطَّاعة مُطلقُ الانقياد، والعبادة الخضوع لله تعالى محبَّة وتعظيمًا

الطَّاعة: الانقياد، وهي الفعلُ الواقعُ على حسب ما أراده المريدُ، يُقال: طاعه يطوعه؛ إذا انقاد معه، ومضى لأَمْرِه، وأكثرُ ما تقال في الائتمار لما أُمِرَ، والارتسام فيما رُسِمَ، وتكون للخالق والمخلوق[3].

والعبادة: هي غاية الذُّلِّ والخضوع مع المحبَّة والتَّعظيم، ولا تُسْتَحَقُّ إلَّا بغاية الإنعام، ولهذا لا يجوز أن يُعْبَدَ غيرُ الله تعالى، ولا تكون العبادة إلَّا مع المعرفة بالمعبود، ولا تكون إلَّا للخالق، قال تعالى: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾ [نوح: 3]، فَجَعَلَ الْعِبَادَةَ وَالتَّقْوَى لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَجَعَلَ الطَّاعَةَ لِلرَّسُولِ[4].

فالطَّاعة: هي مجرَّد الموافقة للأمر، وهي أعمُّ من العبادة؛ لأنَّ العبادة غلب استعمالها في تعظيم الله غاية التَّعظيم[5].

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 9/364.
(2) أبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/85.
(3) الرَّاغِبُ، المُفْرداتُ، وابن فارس، مقاييس اللغة: (طوع)، والعَسْكَرِيُّ، الفُروقُ اللُّغَويَّةُ، ص: 221.
(4) ابْنُ تَيْمِيَّةَ، مَجموعُ الفَتاوى: 3/108.
(5) الكَفَوِيُّ، الكُلِّياتُ، ص: 583.

﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران:133]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

فضل المسارعة إلى مغفرة الله وجنَّته

بعد أن حذَّر الله من الرِّبا الّذي هو مؤذنٌ بحرب من الله ورسوله، ونَهى عَمّا يمنَعُ النَّصرَ؛ بالنَّهْيِ عَنِ الرِّبا المُرادِ بِالنَّهْيِ عَنْهُ الصَّرْفُ عَنْ مُطْلَقِ الإقْبالِ عَلى الدُّنْيا، وأمر بالتَّقوى التي هي سلاحٌ في مقاومة الأعداء؛ أمرَ الله المؤمنين بالمسارعة إلى مغفرة منه تعالى، وإلى جنَّة عرضها السَّماوات والأرض، أعدَّها الله للمتَّقين من عباده[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾: جذر الكلمة (سَرُعَ)، وهو أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الْبُطْءِ، فالسُّرعة في أصل اللُّغة: خلاف البطء، أو ضدُّهُ، وتستعمل في الأجسام، والأفعال، يقال: سَرُعَ، فهو سَرِيعٌ، وأَسْرَعَ فهو مُسْرِعٌ، وأَسْرَعُوا، وكلُّ ما في القرآن من التركيب هو بمعنى السرعة التي ضدُّ البطء[2]. ويمكن بيان معنى المسارعة بأنَّها: المبادرة لإدراك مطلوب، خوف فوات شيء، كالموت ونحوه، بحيث لا يَشْغَلُه شيءٌ عن الشَّيء المطلوب له.

2) ﴿مَغۡفِرَةٖ﴾: جذر الكلمة (غَفَرَ)، والغَفْر في أصل اللغة بمعنى: السَّتر والتَّغطية، وهو: إلباس ما يصونه عن الدَّنس، ومغفرة الله هي: أن يصونَ العبدَ من أن يمسَّه العذابُ، وكلُّ ما جاء في القرآن من التركيب هو من مغفرة الذنوب، وأمَّا قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/70.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سرع).

﴿يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: 14] فهو التجافي عن الذنب في الظاهر، وإن لم يُتجافَ عنه في الباطن، وإنما أدَبُ الإسلامِ هنا هو أن نَغْفِر لهم طاعةً للّه تعالى، دون أن نلقيَ إليهم بالمودَّة[1].

3) ﴿أُعِدَّتْ﴾: جذر الكلمة (عَدَدَ)، وهو لَا يَخْلُو إمَّا أن يكون مِنَ الْعَدِّ الَّذِي هُوَ الْإِحْصَاءُ، وإمَّا مِنَ الْإِعْدَادِ الَّذِي هُوَ تَهْيِئَةُ الشَّيْءِ، وَإِلَى هَذَيْنِ الْمَعْنَيَيْنِ تَرْجِعُ فُرُوعُ معاني الجذر كُلِّه، وكلُّ ما في القرآن من الفعل (أَعَدَّ) مسندًا للفاعل أو للمفعول، وكلمة (عُدَّة) فهو من الإعداد بمعنى: الإحضار والتهيئَة، وجعلِ الشيء متاحًا، ومنه الآية الكريمة. وما عدا ذلك من مفردات هذا التركيب القرآنية فهو من معنى العَدِّ، الذي هو بيانُ كمِّ الشيء، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢﴾ [الهمزة: 2][2].

4) ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: جذر الكلمة (وَقَيَ)، وتدلُّ على دفع شيء عن شيء بغيره، وكلمة التقوى في اللُّغة تفيدُ ما يقي الشَّيء والحفظَ والصِّيانة، وللتَّقوى في الاصطلاح الشَّرعيِّ تعريفات كثيرة، كلُّها تدور على ترك ما نهى اللّه عنه، وهي صفة في النفس تحمل الإنسان على فعل ما أمر اللّه تعالى، والامتناع عما نهى عنه، ويتمُّ ذلك بترك بعض المباحات، بحيثُ إنَّ المتَّقيَ هو الذي يقي نفسه أن يتعاطى ما تُوُعِّد عليه بعقوبة من فعل أو ترك[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بادروا، وسابقوا إلى فعل الخيرات، والتَّقرُّب إلى اللّه بأنواع الطَّاعات؛ لتنالوا مغفرة عظيمة من اللّه سبحانه، وتدخلوا جنَّةً سَعَتها السَّماواتُ والأرضُ - وخصَّ تعالى العَرْضَ بالذِّكر، ليكون أبلغَ في الدَّلالة على عظمها واتساع طولها، لأنه إذا كان عرضها كهذا، فإنَّ العقل يذهبُ كل مذهب في تصور طولها، هيَّأها اللّه للمتَّقين من عباده[4].

عن عطاء: أنَّ المسلمين قالوا للنبي ﷺ: بنو إسرائيل كانوا أكرم على اللّه منا؛ كانوا

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (غفر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي (عدد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (وقي)، والجرجاني، التعريفات، ص: 65، والمناوي، التوقيف، ص: 106، وأبو حيان، البحر المحيط: 1/64.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/261، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 67.

إذا أذنب أحدهم أصبحت كفارة ذنبه في عتبة بابه مكتوبة: اجدع أذنك، افعل كذا، فسكت النبي ﷺ؛ فنزل: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾؛ فقال النبي ﷺ: "ألا أدلكم؟ ألا أخبركم بخير من ذلكم؟"؛ فقرأ هذه الآيات[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الوصل في الآية:

مـــآلُ الأمــرِ بالمُسارعة إلى المغفرة والجنّة؛ الأمرُ بالأعمال الصالحة

والواو في قوله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ هي واو العطف، والجملة معطوفة على قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ [آل عمران: 132]. ووجه جواز عطف الجملة على جملة الأمر بالطاعة؛ كون الأمر بالمسارعة إلى المغفرة والجنة يؤول إلى الأمر بالأعمال الصالحة، فالعطف - وهو قراءة الجمهور بحسب ما سيأتي بيانه - في هذه الآية يُنَبِّئنا بأنّه يجوز الفصل والوصل في بعض الجمل باعتبارين[2].

بلاغة الفصل في قراءة حذف واو العطف:

وجـــهُ تــركِ العطف كمالُ الاتّـــصـــال؛ لأن طـــاعـــة الله والرسول مـسـارعـة إلى المغفرة والجنة

قرأ نافع وابن عامر وأبوجعفر: ﴿سَارِعُوٓاْ﴾ بغير واو، وهي كذلك في مصاحف أهل المدينة والشّام، وقرأ باقي العشرة بالواو؛ على أنّه عطف جملة على جملة، أمَّا من ترك الواو؛ فلأنَّ الجملة الثَّانية مُتَلَبِّسَةٌ بالأولى، مستغنية بذلك عن العطف بالواو[3]، أي: أنَّ المسارعة إلى المغفرة مُتَضَمَّنَة في الطَّاعة، فترك العطف لكمال الاتّصال للبدليّة أو التَّوكيد.

من هنا فإنّ وجهَ قراءة ترك الواو الاستئنافُ، أي: بادروا وأقبلوا؛ بتنزيل جملة ﴿سَارِعُوٓاْ﴾ منزلة البيان، أو بدل الاشتمال، لجملة:

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/62، وابن حجر، العجاب: 2/754.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/88.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/4، وابن الجزري، النشر: 2/242، ولِسَوْقِها مساق آية سورة الحديد، فإنها ﴿سَابِقُوٓاْ﴾ [الحديد: 21] من غير واو.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [آل عمران: 132]؛ لأن طاعةَ اللّه والرسول مسارعةٌ إلى المغفرة والجنة فلذلك فُصِلتْ[1]. فكأنّ قوله: ﴿سَارِعُوٓاْ﴾، وقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: 132] جُعِلا كالشّيء الواحد؛ فأُسْقطَ العاطفُ، ولقُرب كل واحد منها من الآخر في المعنى[2].

قراءة ترك الواو تنزيلُ الجملة منـزلة جواب سؤال مقدَّر

وتوجّهُ قراءة نافع وابن عامر وأبوجعفر بحذف الواو على تنزيل الجملة منزلة جواب سؤال مقدَّر: كأنَّ سائلًا سأل، فقال: كيف نطيع اللّه والرسول طاعة توجب لنا رحمة اللّه كرمًا منه وفضلًا؟ فأجيب: ﴿سَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ الآية.

بلاغة الإيجاز بالحذف:

الموجبُ للمغفرة فعلُ المأمورات ومجانبةُ المنهيّات

عَدَلَ إلى الحذف في الكلام مستغنيًا بالمذكور، والمعنى: وسارعوا إلى ما يوجب مغفرة من ربكم. ولا شك أن الموجب للمغفرة ليس إلا فعل المأمورات وترك المنهيات، فكان هذا أمرًا بالمسارعة إلى إتيان المأمورات واجتناب المنهيات[3].

سرُّ التعبير بصيغة المفاعلة ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾:

تدلُّ صيغة المفاعلة على المبالغة والتَّكثير، فتفيد المبالغة في الإسراع

وصيغة: ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ صيغة مفاعلة، وتدلُّ على المشاركة، وهي تعني: اشتراك طرفي المفاعلة في معنى الفاعليَّة، فيكون البادئ: فاعلًا صريحًا، والثَّاني: مفعولًا صريحًا، ويجيء العكس ضمنًا، أي: أنَّ الغرض من ألف المفاعلة: اقتسام الفاعليَّة والمفعوليَّة في اللَّفظ، والاشتراك فيهما من حيث المعنى، كما أنَّها تدلُّ على المبالغة والتَّكثير، فتفيد "المبالغة في طلب الإسراع، والعرب تأتي بما يدلُّ في الوضع على تكرر الفعل وهم يريدون التأكيد والمبالغة دون التكرير"[4].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/85، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/88.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/364.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/365.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/89.

إيثارُ لفظ ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ على لفظ (أَسرِعوا)؛ إلماحٌ بالتَّنافس بين الناس:

وآثَرَ التعبير بـ ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾، دون: (وأَسرِعوا)، وكأنَّ النَّاس يُسرع كلُّ واحد منهم؛ ليصل قبل غيره، فإنَّ مسابقة النَّاس، والتَّنافس بينهم في فعل الخير أمر مشروع، وهو يحفِّز النَّاس على السُّرعة في فعل الخير.

التَّعبير بالمسارعة بين المجاز والحقيقة:

وجــه المـجــاز المبادرة والحرص عـلى المنافسة، ووجـه الحقيقة سرعة الامتثال

السُّرعة المشتقُّ منها ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ مجازٌ في الحرص والمنافسة إلى عمل الطَّاعات الَّتي هي سبب المغفرة والجنَّة، والفور إلى عمل الطاعات التي هي سبب المغفرة والجنة، أو ذكر المغفرة وهي المسبب، وأراد التوبة وهي السبب في المغفرة؛ فهو مجاز مرسل علاقته المسببية. ويجوز أن تكون السرعة حقيقة، وهي سرعة الخروج إلى الجهاد عند النفير كقوله ﷺ في الحديث: "وإذا استنفرتم فانفروا"[1].

علّة إيثار المسارعة على المسابقة:

المُسارعةُ تقبلُ الـتَّـشـارك والـتَّـواطـؤ والاتِّـفـاق، ولا تستلزمُ مضمارًا بخلاف المُسابقة

الظَّاهر بداهة أنَّ الأمر بكلٍّ من (المُسارعة)، و(المُسابقة) استحثاثٌ على الهمّة الفاعلة المؤثِّرة حرثًا وإنتاجًا، بيْد أنَّ (المُسارعة) تقبل التَّشارك والتَّواطؤ والاتِّفاق، أمّا (المُسابقة)؛ فلا تقبل، والأولى لا تستشعرُ مضمارًا ولا تستلزمه، بخلاف الثَّانية.

نكتة الاقتصار على لفظ المغفرة:

وقوله: ﴿إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾، أي: ما يؤدِّي إلى مغفرة. وفي المراد بالمغفرة أقوال، وهي: الإخلاص، أو أداء الفرائض، أو الإسلام، أو التكبيرة الأولى من الصَّلاة، أو الطَّاعة، أو الهجرة، أو الجهاد، أو الصَّلوات

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/88، والإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 194، والحديث عند البخاري برقم: (2783).

إيـثـارُ المغفرة مراعاةٌ لمعناها في جـمـيـع الـخـصـال من أركان وواجبات، ومأمورات

الخمس[1]. والظَّاهر أنَّ من اقتصر على خصلة راعى معنى لها في جميع الخصال من أركان وواجبات، ومأمورات إمَّا أنَّها شرط في صحَّتها أو قبولها، أوْ أنَّها دالَّة عليها باعتبار أنَّها مقدمِّة لها تستدعيها تالية، أو خاتمة لها تقتضيها متقدِّمة، أو كواسطة العقد منها، فتستصحب ما قبلها وما بعدها.

فائدةُ تنكير لفظي: المغفرة، والجنّة:

في تنكير لفظي المـغـفـرة، والجنّة، تعظيمٌ للشأن، وبيانٌ للفخامة

في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾، ذكرَ لفظ المغفرة منكّرًا، والمراد منه المغفرة العظيمة المتناهية في العظيم وذلك هو المغفرة الحاصلة بسبب الإسلام[2]. وتنكير لفظ الجنَّة؛ لبيان فخامة شأنها[3].

نكتة إيثار لفظ (المغفرة) على (الغفران):

الـتـعـبـيـرُ بـ(المغفرة) دون (الـغـفـران)مـن بـاب الـتـنـبـيـه بـالأدنى على الأعلى

عدل عن استعمال المصدر الدّال على التكثير (غُفران) على وزن (فُعلان) فلم يقل: (إلى غفران من ربكم)؛ وآثر جنس المغفرة المفرد، ليعمَّ قليل السيئات وكثيرها، فهو من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى؛ لأنهم إذا أمروا بالمسارعة إلى تحصيل قليل المغفرة فهو مأمور بالمسارعة إلى ما يجعل كثيرها من باب أحرى[4].

سرُّ اصطفاء لفظ الرُّبوبيَّة دون الألوهيّة:

وصفُ الربوبيّة عنوانُ اللُّطف، والـتَّـكـريـم، والرعاية

التَّعرض لعنوان الرُّبوبيَّة بقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ مع إضافته إلى ضمير المخاطبين؛ لإظهار مزيد من اللُّطف بهم[5]، والتَّكريم لهم، والرعاية.

توجيهُ عطف الجنَّة على المغفرة:

جمع تعالى بين المغفرة والجنَّة في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/415.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/365.
(3) الدبل، دليل البلاغة القرآنية: 1/545.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/410.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/85.

﴿مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾، للإشعار بالتَّغاير بينهما؛ لأنَّ المغفرة: هي إزالة العقاب، والجنَّة: هي حصول الثواب، فجمع بينهما للإشعار بأنَّه لا بدَّ للمكلَّف من تحصيل الأمرين، فكما تجب المسارعة إلى المغفرة فكذلك تجب المسارعة إلى الجنة[1].

علّة الجمع بين الجنّة والمغفرة الإشعارُ بوجوب تحصيل المكلَّف للأمرين

نكتة تقديم المغفرة على الجنّة:

وتقديمُ ذكر المغفرة على ذكر الجنَّة؛ لأنَّ التَّخلية مقدَّمة على التَّحلية[2]. وهو من تقديم السَّبب على مآلهِ، فإنّ مؤدّى غفران ربّ العزّة جلّ وعزَّ جنّةٌ عرضها السماوات والأرض أعدّت للمتقين.

من عادات القرآن تقديم التَّخلية على التَّحلية

براعة اصطفاء لفظ (العرض) وصفًا للجنّة:

قُصِدَ إلى اصطفاء لفظ (العرض)؛ " للمبالغة في وصف سعة الجنة وذلك؛ لأنه لا شيء عندنا أعرض منهما ونظيره قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [هود: 107] فإن أطول الأشياء بقاء عندنا هو السماوات والأرض، فخوطبنا على وفق ما عرفناه، فكذا هاهنا"[3]. جار على طريقة العرب في تمثيل شدة الاتساع. وليس المراد حقيقة عرض السماوات والأرض[4].

بيانُ الوصف بالعَرْض المبالغة في وصف سعة الجنّة

لما كان من الظاهر أنّ الطول يكون أوسع من العرض عبّرَ بالأدنى حالا استعظامًا؛ باستحضار شأن الأعظم، واستظهاره. وكأنّ لسان الحال: إذا كان العرض هكذا فكيف بالطول؟! ونظيره قوله: ﴿بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖ﴾ [الرحمن: 54] وإنما ذكر البطائن لأن من المعلوم أنها تكون أقل حالا من الظهارة، فإذا كانت البطانة هكذا فكيف الظهارة؟ فكذا هاهنا[5].

عبّرَ بـ (العَرْض) وهو الأدنى حالا استعظامًا؛ باستحضار شأن الأعظم

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/365، والقنوجي، فتح البيان: 2/331.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/85.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/365.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/89.
(5) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/366.

في الوصف بالعَرْض وجهٌ كنايةٍ لازمها السّعة، والرّحابة، والبسطة

ليس المراد بالعرض هاهنا ما هو خلاف الطول، بل هو عبارة عن السعة كما تقول العرب: بلاد عريضة، ويقال هذه دعوى عريضة، أي واسعة عظيمة، فإنَّ من عادة العرب التَّعبير عن الشَّيء الواسع بالعريض، كقوله تعالى: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ [فصلت: 51]. والأصل فيه أن ما اتسع عرضه لم يضق، وما ضاق عرضه دق، فجعل العرض كناية عن السعة"[1]. والرّحابة، والبسطة، وعِظم المساحة؛ فهي غاية في السعة لا يعلمها إلا اللّه تعالى.

في الوصف بالعَرْض تشبيه بليغ؛ دليله آية سورة الحديد

فأما وصف الجنة بأن عرضها السماوات فمعلوم أن ذلك ليس بحقيقة لأن نفس السماوات لا تكون عرضا للجنة، فالمراد كعرض السماوات والأرض وهاهنا سؤالات[2]. ووصف الجنة بأن عرضها السماوات والأرض على طريقة التشبيه البليغ، بدليل التصريح بحرف التشبيه في نظيرتها في آية سورة الحديد: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحديد: 21][3]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما كسبع سماواتٍ وسبعِ أرضينَ لو وُصل بعضُها ببعض[4].

في الوصف بالعَرْض فنُّ التنكيت

جاء في الجدول: " اشتملت هذه الآية الكريمة على فن جليل القدر وهو التنكيت في التشبيه، وحدّه أن يقصد المتكلم إلى شيء بالذكر دون غيره مما يسد مسده لأجل نكتة، وإذا وقع في التشبيه فقد بلغ الغاية، وهو هنا في قوله تعالى ﴿عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ والمراد كعرض السماوات والأرض والعرض أقصر الامتدادين، وفي ذكره دون ذكر الطول مبالغة، وزاد في المبالغة بحذف أداة التشبيه وتقدير المضاف"[5].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/366.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/365، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/38.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/89.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/85.
(5) الصافي، الجدول: 4/310، والتنكيت: هو أن يقصد المتكلّم إلى كلمة أو كلامٍ بالذكر دون غيره ممّا يسُدُّ مَسَدَّه، لأجل نُكْتَةٍ في المذكور تُرَجِّحُ مجيئه على سواه.

بلاغة التَّعبير بالمبني للمفعول:

مفعوليّة البناء؛ لتجاوز ذكر أفراد مـا أُعِـدَّ فيها مـن الـنَّـعـيـم، فإنَّه مـن كثرته ورفـاهـيـتـه لا يـوصـف حسنًا وخيريّة

بناء الفعل (أَعَدَّ) في قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾؛ لطيِّه وبيان انقضائه، والمبنيُّ للمفعول أو لنائب الفاعل، أو لما لم يُسمَّ فاعله هو: لتجاوز ذكر أفراد ما أُعِدَّ فيها من النَّعيم، فإنَّه من كثرته ورفاهيته لا يوصف حسنًا وإمتاعًا، وإغناء وإرواءً، وإكرامًا وإعظامًا، وإلطافًا وإيرافًا، وقد أتحف الله به إتحافًا فسمَّاه: ﴿نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ٣٢﴾ [فصلت: 32].

بلاغة تخصيص المتقين بأهليّة الجنّة:

تخصيص المتَّقين بالذِّكر تشريفٌ لهم

التَّعريف في المتَّقين؛ للجنس، وتخصيصهم بالذِّكر؛ تشريفٌ لهم؛ فهم أهل الجنّة المنعّمين بوارف خيراتها، ومديد نعمها.

بلاغة الفصل بالاستئناف في الفاصلة:

فائدة الاستئناف إثـارة الـشـوق لمعرفة الذين أعدّت لهم

جملة: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ استئناف بياني؛ لأن ذكر الجنة عقب ذكر النار الموصوفة بأنها أعدت للكافرين يثير في نفوس السامعين أن يتعرفوا مَنِ الذين أعدت لهم: فإن أريد بالمتقين أكمل ما يتحقق فيه التقوى، فإعدادها لهم لأنهم أهلها الذين لا يلجون النار أصلا فضلا من الله تعالى وعدلا، فيكون مقابل قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١﴾ [آل عمران: 131]، ويكون عصاة المؤمنين غير التائبين قد أخذوا بحظ من الدارين، لمشابهة حالهم حال الفريقين عدلا من الله وفضلا، وبمقدار الاقتراب من أحدهما يكون الأخذ بنصيب منه، وأريد المتقون في الجملة فالإعداد لهم باعتبار أنهم مقدرون من أهلها في العاقبة(1).

بيانُ المتشابه اللفظي:

من المتشابه مع هذه الآية ما ورد في سورة الحديد قوله تعالى:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/90.

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١﴾ [الحديد: 21].

التشابه والاختلاف بين آيتي السورتين

وقد تعرَّض ابن الزُّبير الغرناطيُّ في كتابه (ملاك التَّأويل) لأوجه الاختلاف بين الآيتين على النحو الآتي:

مناسبة اختيار الفعلين في الموضعين مراعاةُ الترتيبِ

إنّ المسارعة إلى الشَّيء تكون قبل مسابقته، فقال: "فلمَّا كانت المسارعة والمسابقة على ما ذكر؛ ورد المتقدِّم في التَّرتيب أوَّلًا، والمتأخِّر ثانيًا؛ مراعاة للتَّرتيب"(1). وهو الذي يتأيَّد بالمعقول، كما تأيَّد بالمنقول: فإنَّ التوجيه بالمسارعة هو للكافَّة والتَّوجيه للمسابقة هو لأولئك المسارعين، فيكون بعده؛ إذ جرَّدهم أوّلًا له، ومرَّنهم عليه، ثم دعاهم؛ ليسابقوا، فهذا دليل ثانٍ.

ناسب جمع السّماء التشبيه البليغ، وناسب إفراده التشبيه بالأداة

وجاء بلفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ جمعا في سورة آل عمران، وبلفظ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحديد: 21] مفردًا في سورة الحديد؛ فإنَّه في سورة آل عمران أبلغ، فالمبالغة في التَّشبيه تكون بحذف المضاف، أو بجعل الشَّيء نفس الشَّيء، أمَّا في سورة الحديد؛ فجاء التَّشبيه بأداة التَّشبيه، وهي الكاف، فليس فيه من المبالغة ما في سورة آل عمران، قال الغرناطيُّ: "فلمَّا تضمَّنت آية آل عمران من قصد المبالغة من هذه الجهات والقرائن التي ذكرنا ما لم تتضمَّن آية الحديد؛ ناسب ذلك جعل العرض نفس السَّماوات والأرض من غير إفصاح بالمضاف المقدَّر الذي لا بدَّ منه عند بيان المعنى على ما تقدَّم، ولمَّا لم يقصد في آية الحديد ذلك؛ أفصح فيها بما يعطي معنى: مثل، وهي كاف التَّشبيه، وورد كلٌّ على ما يناسب، ويلائم"(2).

وغاير في المعدِّ لهم الأجرُ في الآيتين ففي سورة آل عمران ختم

(1) ابن الزبير، ملاك التأويل: 1/122.
(2) ابن الزبير، ملاك التأويل: 1/124.

وجه المغايرة في فاصلة الآيتين بيان علوّ رتبة المتقين

بـ ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، أمَّا في سورة الحديد فختم بـ ﴿أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ [الحديد: 21]؛ لأنّ مقام المتَّقين أعلى رتبة من مقام الذين آمنوا باللّه ورسله، فالمتَّقون بلغوا درجة إيمانيَّة عالية جعلتهم من صفوة خلق اللّه؛ ولذلك كانت التَّقوى شعار المؤمنين، ووصيَّة اللّه للخلق أجمعين، أوصى بها عباده من النَّبيِّين والأولياء والصَّالحين.

وأمَّا التنويه بالمعدِّ لهم في الآيتين؛ إذ اختير لهم تسميتهم ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾ في الأوَّل، ممَّا غلَّب على الحسبان أن يكونوا أرقى عملًا، وأزكى من التعبير بـ (الّذين آمنوا باللّه ورسله)؛ فإنَّ هذا يدفعه صحَّة النَّصِّ ودقَّة التّأويل، فأمّا صحَّة النَّصِّ؛ فقد خُتِمَت الآيات الأولى الآمرة بالمسارعة بقوله: ﴿وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾، فناسبه ذكر ما انتهوا إليه من مراتب، فيها التَّرقِّي في ميدان العمل: تَخْلِيَة وتَحلِيَة، وتَنْقِيَةً وتَزْكِيَةً، وصلاح سريرة، وإخلاص نجْوى، وتزوُّدًا للآخرة، وخير الزَّاد التّقوى، وقد خُتِمَت الآية الثَّانية الحاضَّة على المسابقة بالتَّلويح بفضل اللّه: ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١﴾ [الحديد: 21]، ولا شكَّ أنَّ المعاملة بالفضل فوق المعاملة بالعدل؛ لأنَّ الفضل محْض إكرام وإنعام، واصطفاء واجتباء، وذلك يحمِل، وأصحابُه الخلاصة والرَّحيق والصَّفوة، وفيهم - بحكم المسابقة - منْ يدخلون الجنَّة بغير حساب، فكان الأوْفق له، والألْيق به، أن يكون جاريًا على سنن التَّرقِّي في العطاء، والإكرام والاحتفاء.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المُسارعة، والعجلة:

المسارعة مبادرةٌ لإدراك مطلوب، والعجلة هي طلب الشَّيء وتحرِّيه قبل أوانه

المسارعة هي: المبادرة لإدراك مطلوب؛ خوف فوات شيء، كالموت ونحوه، بحيث لا يشغله شيء عن الشَّيء المطلوب له، وهو أمر محمود. والعجلة هي: طلب الشَّيء وتحرِّيه قبل أوانه[1]، وهي

(1) الراغب، المفردات: (عجل).

مذمومة؛ لأنَّ السُّرعة هي: التَّقدم فيما يجوز أن يتقدَّم فيه، وهو محمود، أمَّا العجلة؛ فهي التَّقدُّم فيما لا ينبغي أن يتقدَّم فيه، وهي مذمومة، وضدُّها: الأناة، وهي محمودة(1).

المُسارعة مخصوصة بفرط الرغبة فيما يتعلق بالدين

وقال الرازي: "السرعة مخصوصة بأن يقدم ما ينبغي تقديمه، والعجلة مخصوصة بأن يقدم ما لا ينبغي تقديمه، فالمُسارعة مخصوصة بفَرْط الرغبة فيما يتعلق بالدين، لأن من رغب في الأمر، آثر الفور على التراخي، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ وأيضا العجلة ليست مذمومة على الإطلاق بدليل قوله تعالى: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ٨٤﴾ [طه: 84]"(2).

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/250.

(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/334.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عمران: 134]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الشروع في بيان صفات المتَّقين

بعد التَّمهيد للآيات بالأمر بطاعة الله والرَّسول، ثمَّ الحثِّ على المسارعة إلى مغفرة من الله وجنَّةٍ عرضها السَّماوات والأرض أُعدَّت للمتَّقين، شرع في بيان صفات المتَّقين الذين أعدِّت لهم تلك الجنَّة - وهي صفات بارزة - شروعًا يدعو إليه حال الصِّراع مع الأعداء، وهي: الإنفاق في السَّرَّاء والضَّرَّاء، وكظم الغيْظ، والعفو عن النَّاس، وأنَّ من اتَّصف بتلك الصِّفات، فهو من أهل الإحسان، والله يحبُّ المحسنين. قال الرازيُّ: "اعلم أنَّه تعالى لمَّا بيَّن أنَّ الجنَّة معدَّة للمتقين؛ ذكر صفات المتَّقين حتَّى يتمكَّن الإنسان من اكتساب الجنَّة بواسطة اكتساب تلك الصِّفات"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُنفِقُونَ﴾: الإنفاقُ في أصل اللُّغة: يفيد معنى المضيِّ والنَّفاد، ومنه نَفَقَ البيعُ؛ إذا نفِد، واصطلاحًا بمعنى: بذلُ المال وصرفه، والإِنْفَاقُ قد يكون في المَالِ أو بغَيْرِه، وقد يكون واجبًا أو تطوُّعًا، وفي الحديث: "إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ"[2].

وما في القرآن من هذا التركيب - عدا النَّفَق: السَرَب في بطن الأرض - فإنَّ الفعل، (أنفق) وما تصرَّف منه، وكلمة (نفقة)، (نفقات) كلُّ ذلك بمعنى إخراج مالٍ أو غيرِه ممَّا يُملك من الحَوْزة،

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/334.
(2) البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: (56).

وأمَّا الفعل (نافق) وما تصرَّف منه فهو بمعنى إظهار الإسلام مع إبطان الكفر، والمنافق يخالف قولُه فعلَه، وسرُّه علانيتَه(1).

2) ﴿ٱلسَّرَّآءِ﴾: جذر الكلمة (سرَّ)، وهو إِخْفَاءُ الشَّيْءِ، وأخِذ مِنْهُ السُّرُورُ؛ لِأَنَّهُ أَمْرٌ خَالٍ مِنَ الْحُزْنِ، الحالة التي تسرُّ مأخوذة من السُّرور، وهو: ارتياحٌ في القلب عند حصول نفع، أو توقُّعه، أو اندفاع ضرٍّ(2)، وفسَّره الرَّاغب بأنَّه ما ينكتم من الفرح(3)، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ۝١١﴾ [الإنسان: 11]، أي: نضرة في الوجوه، وسرورًا في القلوب. وقال في أهل النار: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ۝١٣﴾ [الانشقاق: 13]، تنبيهًا على أنَّ سُرُورَ الآخرة يضادُّ سرور الدُّنيا، وسمِّيَ السَّرِيرُ الذي يجلس عليه أخذًا من السُّرور؛ إذ كان ذلك لأُولي النِّعمة، وجمعه أَسِرَّةٌ، وسُرُرٌ، قال تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ﴾ [الطور: 20]، ﴿فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ۝١٣﴾ [الغاشية: 13].

3) ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: جذر الكلمة (ضَرَر)، ألحقَ به أذًى أو مكروهًا، وكذا ضرَّ به، وأضرَّه، وبه، وضارَّه، من الحالة التي تضرُّ، وهو في أصل اللُّغة: ضدُّ النَّفع،، وهو بمعنى: الشدَّةِ وسوءِ الحال، إمَّا في نفسه؛ لقلَّة العلم والفضل والعفَّة، وإمَّا في بَدَنه؛ لعدم جارحة ونقص، وإمَّا في حالة ظاهرة؛ من قلَّة مال وجاه(4).

4) ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ﴾: الكظم، بمعنى: الحبس، قال ابن فارس: "الكاف والظَّاء والميم: أصل صحيح يدلُّ على معنًى واحد، وهو الإمساك والجمع للشَّيء، من ذلك الكظم: اجتراع الغيظ، والإمساك عن إبدائه، وكأنَّه يجمعه الكاظم في جوفه"(5)، وذكر السَّمين الحلبيُّ أنَّ الكظم معناه: أن يحبس غيظه، وهو قادر على الإيقاع بعدوِّه(6)، ومنه الحديث: "مَن كَظَمَ غيظًا وهو قادِرٌ على أنْ يُنْفِذَه، دَعاهُ اللَّه على رُؤوسِ الخَلائقِ حتى يُخَيِّرَه من أيِّ الحُورِ شاءَ"(7).

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نفق).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وإبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط: (سرر).

(3) الراغب، المفردات (سرر).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ضر).

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كظم).

(6) السمين، عمدة الحفاظ: (كظم).

(7) الحديث رواه أبو داود، برقم: (4777)، والترمذي، الحديث رقم: (2021)، وابن ماجه، الحديث رقم: (4186)، وأحمد، الحديث رقم: (15637) واللفظ له.

5) ﴿ٱلْغَيْظَ﴾: يدلُّ معنى الغيظ في أصل اللُّغة على كَرْب يلحق الإنسان من غيره[1]، وهو: أشدُّ أنواع الغضب، والغضب: هيجان في الطَّبع، قال الرَّاغب: " الغَيْظُ: أشدُّ غضب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فَوَرَان دم قلبه"[2]، فالغيظ أخصُّ من الغضب، فكلُّ غيظ غضب، وليس كلُّ غضب غيظًا[3].

6) ﴿وَٱلْعَافِينَ﴾: أصل العفو في اللُّغة هو: الكفُّ عمَّا لا يحلُّ له، ولا يجمل به، والتَّرْكُ وَالإِسْقَاطُ[4]، ومعناه اصطلاحًا: السَّمَاحُ وَالصَّفْحُ وَعَدَمُ المُعَاقَبَةِ، والقصد لإزالة الذَّنب، يقال: عفوت عنه؛ إذا قصدت إزالة ذنبه[5]، وَسُمِّيَ السَّمَاحُ وَالصَّفْحُ عَفْوًا؛ لِإِسْقَاطِ العُقُوبَةِ عَلَى صَاحِبِهَا وَمَحْوِهَا عَنْهُ. والمعنى: التَّاركين عقوبة من استحقَّ المؤاخذة والعقاب، وزاد البعض؛ إذا لم يكن في ذلك إخلال بالدِّين[6].

7) ﴿يُحِبُّ﴾: ذكر ابن فارس أنَّ لكلمة المحبَّة ثَلَاثَةَ أُصُول، وهي: اللُّزُومُ، وَالثَّبَاتُ، وَالْحَبَّةُ مِنَ الشَّيْءِ ذِي الْحَبِّ، وَوَصْفُ الْقِصَرِ[7]، إلا أنَّ كلمة المحبَّة هي: بمعنى الميل إلى الشَّيء الموافق، وأصله الثَّبات واللُّزوم، وفسَّرها الرَّاغب بقوله: "إرادة ما تراه، أو تظنُّه خيرًا". والمَحَبَّةُ: المَيْلُ إلى الشَّيْءِ السَّارِّ، وهي اسْمٌ للحُبِّ، والحُبُّ: الودادُ، ونَقِيضُه: البُغْض، يُقال: تَحَبَّبَ إليه، أيْ: تَوَدَّدَ إليه. وهي هنا صِفَةٌ للّه ﷻ، ويُراد بها: صِفَةٌ فِعْلِيَّةٌ اخْتِيارِيَّةٌ ثابِتَةٌ للّهِ ﷻ على المعنى اللائق به سُبْحَانَهُ؛ فهو يُحِبُّ ويُحَبُّ[8].

8) ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: الإحسان أصله: الحُسْنُ: وهو عبارة عن كلِّ مبهج مرغوب فيه، وهو بمعنى: النقاء بخروج الخشن أو الغليظ، والإحسان: يقال على وجهين: أحدهما: الإنعام على الآخرين، يقال: أحسن إلى فلان، والثاني: إحسان في فعله، وذلك؛ إذا علم علمًا حسنًا، أو عمل عملًا حسنًا[9]. وكلُّ ما جاء في القرآنِ من هذا التركيبِ فأصلُه من

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غيظ).
(2) الراغب: المفردات: 1/109.
(3) السَّمين، عمدة الحفَّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (غيظ).
(4) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (عف).
(5) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عفو).
(6) الآلوسي، روح المعاني: 2/273.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حب).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، والراغب: المفردات: (حب)، والجامي، الصفات الإلهية، ص: 276.
(9) الراغب، المفردات (حسن).

النَّقاء الظَّاهريِّ والباطني، ويفسَّر بالطيِّب المستحلَى، أو المستحبِّ صورةً كان، أو مُقامًا، أو قولًا، أو عملًا، أو أداءً، أو تصرفًا، ومعاملة مع الناس(1).

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

المتَّقون: هم الذين يبذلون أموالهم في حالتي اليسر والعسر، ويمسكون أنفسهم من الانتقام من غيرهم، ويتجاوزون عمَّن ظلمهم، والله يحبُّ المحسنين المتَّصفين بمثل هذه الأخلاق.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الافتتاح بذكر الإنفاق:

الإنـفـاق أشـقُّ شـيء عـلى الـنّـفـس وأدلـه على الإخلاص

وافتتح بذكر الإنفاق في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾؛ "لأنه أشقّ شيء على النّفس وأدله على الإخلاص، ولأنه كان في ذلك الوقت أعظم الأعمال للحاجة إليه في مجاهدة العدو ومواساة فقراء المسلمين"(2).

بدأ وصف المتقين بالإنفاق مقابلته بالرّبا الذي نهي عـنـه في الآيـة السابقة

(أحدهما) مقابلته بالرّبا الذي نهي عنه في الآية السابقة؛ فإن الربا هو استغلال الغني حاجة المعوز وأكل ماله بلا مقابل، والصّدقة إعانة له وإطعامه ما لا يستحقه فهي ضدّ الرّبا، ولم يرد في القرآن ذكر الرّبا إلا وقُبِّحَ، ومدحتْ معه الزكاة والصَّدقة كما قال في سورة الروم: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ٣٩﴾ [الروم: 39] وفي سورة البقرة: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ۗ﴾ [البقرة: 276].

إنّ الإنـفـاق في السّراء والضّراء أدلّ على التقوى

إنّ الإنفاق في السّراء والضّراء أقوى في الدلالة على التّقوى، وأشقّ على النفوس، وأنفع للبشر من سائر الصفات والأعمال،

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حسن).
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/415.

فإنّ المال عزيز على النفس؛ لأنه الآلة لجلب المنافع والملذّات، ودفع المضار والمؤلمات، وبذله في طرق الخير والمنافع[1].

سرُّ التّعبير بالاسم الموصول:

وجه التَّعريف بالاسم الموصول تعليل الاستحقاق بالمغفرة والجنَّة

بعد الحديث عن الجنَّة ذكرَ أهلها، بيَّن أنَّ من صفاتهم الإنفاق وكظم الغيظ والعفو عن النَّاس، وجاء التَّعريف بالاسم الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾؛ لتعليل استحقاقهم المغفرة والجنَّة التي أعدَّها اللّه للمتَّقين، أي: علَّة إدراجهم في سلك المتَّقين.

نكتة تخصيص الإنفاق في السَّراء والضَّرَّاء:

ملازمة الإنفاق في هذين الحالين تدلُّ على أنَّ محبَّة نفع الآخرين قد صارت لهم خُلقًا

الإنفاق في السَّرَّاء والضَّرَّاء، أي: في حالتي الفرح والحزن، قال ابن عاشور: "وكأنَّ الجمعَ بينهما هنا؛ لأنَّ السَّرَّاء فيها ملهاة عن الفكرة في شأن غيرهم، والضَّرَّاء فيها ملهاة وقلَّة موجدة، فملازمة الإنفاق في هذين الحالين تدلُّ على أنَّ محبَّة نفع الآخرين بالمال الذي هو عزيز على النَّفس، قد صارت لهم خُلقًا، لا يحجبهم عنه حاجب، ولا ينشأ ذلك إلا عن نفس طاهرة"[2].

بلاغة الطباق في لفظي السّراء، والضّراء:

في الطباق تجلية لأحوال الإنسان وتقلُّبِه في دول الأيَّام بما يكون تذكرة له

الإنفاق في السَّرَّاء والضَّرَّاء، أي: في اليسر والعسر، وهو طباقٌ، وفيه جناس لاحق؛ لأن الحرفين المختلفين غير متقاربي المخرج. و﴿ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ حالتان يتقلَّب فيها الإنسان في جميع الأحوال، أي: أنَّهم رغبوا في المعاملة مع اللّه، وأنفقوا أموالهم تقرُّبًا إليه سبحانه، فلم يبطرهم الرَّخاء، فينسيهم فضل اللّه ورحمته، ولم تمنعهم الشِّدَّة، وما يضرُّهم، فيبخلوا بما أعطاهم اللّه سبحانه[3] ووصف المتقين بالإنفاق في السراء والضراء على طريق الطباق؛

---

(1) رضا، تفسير المنار: 4/109.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/91.

(3) ابن الجوزي، زاد المسير: 9/366.

أدلُّ على التقوى لمشقّته على النفوس، وأظهر لنا قيمة الطِّباق بين اللَّفظين المتضادَّين بالوصفين؛ تجليةَ أحوال الإنسان، وتقلُّبَه في دول الأيَّام بما يكون تذكرةً له، مانعة من الرُّكون إلى ما تؤثره حالة من الحالات العارضة؛ ليؤدِّي واجب عبادة الله في الوقت الّذي يكون متلبِّسًا به، كالشُّكر في السَّرَّاء، والصَّبر في الضَّرَّاء، وابتغاء مرضاة الله على كلِّ أحيانه وأحواله.

بلاغة المقابلة في لفظي السّرّاء والضرّاء:

اختير اللفظان المختلفا التقابل ليدلّ كلُّ واحدٍ على مُقابِلِه

في لفظي السّرّاء والضرّاء في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ " إشارةٌ إلى حالي السّعة والضّيق، كاليسر والعسر، وإلى حالي السرور والاغتمام، وقد فُسر بهما. واللفظ يتناولهما، فإن السراء يقابلها الغم، والضراء يقابلها النفع، فأخذ اللفظان المختلفا التقابل ليدل كل واحد على مقابله، وهذا من دقائق إيجازات البلاغة، فمن نظر إلى معنى السراء قال السرور والغم، ومن نظر إلى معنى الضراء قال النفع والضر"[1].

بلاغة صيغة المضارع ﴿يُنفِقُونَ﴾:

في المضارعيّة استحضارٌ للمشهد، وبيانٌ لتجدد الإنفاق

والتَّعبير بصيغة المضارع في ﴿يُنفِقُونَ﴾؛ استحضارٌ لصورة المشهد، وبيان لتجدُّدِ إنفاقهم في كلِّ حال. فحيثما كان الإنفاق أمرًا متجدِّدًا؛ عبَّر عنه بما يفيد الحدوث والتَّجدُّد من بناء[2].

بيانُ الإيجاز بحذف مفعول ينفقون:

دلالة حذف المفعول شمول كلِّ ما يصلُح للإنفاق

وحذف مفعول ينفقون؛ ليتناولَ كلَّ ما يصلُح للإنفاق أو متروكٌ بالكلية كما في قولك يُعطي ويمنَع[3].

بيانُ صيغة اسم الفاعل ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ﴾:

العدول إلى صيغة الفاعل؛ للدَّلالة على ثبوت صفة الكظم بهم،

(1) الراغب، تفسير الراغب: 2/586.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/85.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/85.

ودوامها فيهم، وأنّ الكظم فيهم هو بمنزلة الحاصل الثابت المستقِرّ. أمَّا الإنفاق؛ فحيثما كان أمرًا متجدِّدًا؛ عبَّر عنه بما يفيد الحدوث والتَّجدُّد[1]. ويفيد التَّهيُّؤ للتحلّي بذلك الخلق كلَّ حين، ولبذله لمن ساقته أقداره إليه، لدلالة اسم الفاعل على الاستقبال، وأنَّهم ربُّوا أنفسهم عليه، واستعدُّوا له.

أفـــاد اسـم الفاعل الدَّلالة على ثبوت صفة الـكـظـم بـهـم، ودوامها فيهم

حُسن اختيار لفظ الغيظ دون الغضب:

الغَيْظُ في قوله: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ هو أشدُّ أنواع الغضب، والغضب: هيجان في الطَّبع، قال الرَّاغب: "الغَيْظُ: أشدُّ غضب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فَوَرَان دم قلبه"[2]. فالغيظ أخصُّ من الغضب، فكلُّ غيظ غضب، وليس كلُّ غضب غيظًا[3]. فـ" كظم الغيظ: إمساكه وإخفاؤه حتى لا يظهر عليه، وهو مأخوذ من: كَظَمَ القِرْبَة؛ إذا ملأها، وأمسك فمها، قال المبرِّدُ: فهو تمثيل للإمساك مع الامتلاء، ولا شكَّ أنَّ أقوى القوى تأثيرًا على النَّفس القوَّة الغاضبة، فتشتهي إظهار آثار الغضب، فإذا استطاع إمساك مظاهرها مع الامتلاء منها؛ دلَّ ذلك على عزيمة راسخة في النَّفس، وقهر الإرادة للشَّهوة، وهذا من أكبر قوى الأخلاق الفاضلة"[4].

الـغـيـظُ أخـصُّ مــن الـغـضـب بـوصـفـه أشـدَّ أنواعه

توجيه مصدريّة لفظ ﴿ٱلۡغَيۡظَ﴾:

و﴿ٱلۡغَيۡظَ﴾: مفعول به لاسم الفاعل ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ﴾، وجاء التَّعبير به بصيغة المصدر؛ لإفادة المبالغة؛ لما يفيده المصدر من قوة الحدث.

التّعبير بالمصدر قصدٌ إلى المبالغة

بلاغة الاستعارة في جملة كظم الغيظ:

في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ استعارةٌ؛ إذ شبّه امتناعهم

فـي الاستعارة بـيـانٌ لـشـدّة منعهم الغيظ بتشبيهه بربط الـسّـقـاء لمنع خروج مافيه

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/85.
(2) الراغب، المفردات: (غيظ).
(3) السَّمين، عمدة الحفَّاظ: (غيظ).
(4) ابن عاشور: التحرير والتنوير: 4/91.

من إنفاذ الغيظ برباط من خيطٍ على سقاءٍ ليمنعه من خروج ما فيه، فأصل الكظم ملءُ السّقاء ماءًا ثم الشدُّ على فمه بكظامه[1].

توجيه التّعبير عن العفو باسم الفاعل:

التعبير باسم الفاعل يفيد تمكُّن الصِّفة من الموصوف حتى أصبحت اسمًا له

العفو هو: القصد لإزالة الذَّنب، ومعناه هنا، أي: التَّاركين عقوبة من استحقَّ المؤاخذة والعقاب؛ إذا لم يكن في ذلك إخلال بالدِّين[2]. والتَّعبير بصيغة اسم الفاعل في قوله: ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ دون الفعل؛ لأنَّ العفو أشبه بالكظم منه بالامتلاء[3]، كما يفيد تمكُّن الصِّفة من الموصوف حتى أصبحت اسمًا له؛ فوصف العفو ثابتٌ فيهم، دائمٌ، مستقرٌّ.

علّة الجمع بين صفتي التَّقوى والإحسان:

وجهُ الجمع بين الإحسان والتَّقوى؛ بيانُ وجوب تحقُّقهما

جُمع بين صفتي الإحسان والتَّقوى؛ لبيان وجوب تحقُّق هذين الوصفين لنيل المغفرة والجنَّة الموعودة، فالتَّقوى باعتبار الأصل وصف لترك المنكرات، والإحسان - من حيث دلالته على معنى: "أَنْ تعبد اللّه كأنَّك تراه، فإنْ لَمْ تكنْ تراه؛ فإنَّه يراك"[4] وبمراقبة اللّه وحده وابتغاء وجهه بالعمل - يخلص إلى أنه وصف لفعل الخيرات.

بيان التعبير بالجملة الاسمية:

اسميّة جملة الفاصلة ترسيخ لمحبّة اللّه للمحسنين

وجيء بالجملة الاسميَّة في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ لإفادة العموم، وثبات محبّة اللّه تعالى، ودوامها.

بلاغة الجمع بين المضارع، واسم الفاعل في الفاصلة:

ونصَّصَ على الحبّ، لأنَّه يبلِّغُ منازلَ لا يبلِّغُها العمل، وأمَّا صيغة المضارعة؛ فللإغراء الدّائم لبلوغ رتبة الإحسان وأنَّ الدّخول في سلْكه والانتظام في أهله ممكن، وأنّ استقبال أهل هذه المنزلة دائم

(1) الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 194.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/273.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 2/273.
(4) أخرجه البخاري، حديث رقم: 50، ومسلم، حديث رقم: 9.

دوام الحب الإلهيّ، برسوخ صفة الإحسان، ودوامها

لا ينقطع، مستمرٌّ لا يتوقَّف. وأردف دلالة الدوام والاستمرار في حب المحسنين ببيان العليّة من خلال صيغة الفاعليّة، وجمع الذكور الدّالين في هذا الموضع على العموم، ورسوخ صفة الإحسان فيهم، وثباتها صنيعًا ملازمًا لهم.

وجه التعبير بلفظ المحسنين:

إيثارُ لفظ المحسنين إشارةٌ إلى أنّ حُسْنَ الأعمال الوصفيَّ مستلزِمٌ حُسنَها الذاتيَّ

قال أبو السعود: "عبَّر عنهم بالمحسنين إيذانًا بأنَّ النُّعوتَ المعدودةَ من باب الإحسانِ، الذي هو الإتيانُ بالأعمال على الوجه اللائقِ الذي هو حسنُها الوصفيُّ المستلزِمُ لحسنها الذاتيِّ"

دلالة (أل) التعريف في لفظ ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

يجوز في أل الجنسيّة، فيدخل فيه كلُّ محسن من هؤلاء وغيرهم، ويجوز فيها العهديّة، فيخصّ المذكورين في الآية

الواو استئنافيَّة، و﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ من الإحسان، والمحسنون هم الذين أحسنوا مع الله: في العبادة، ومع الخلق: في المعاملة. وأل التعريف في ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ يجوز أن تكون للجنس، فيدخل فيه كلُّ محسن من هؤلاء وغيرهم، ويجوز أن تكون للعهد، فيخصُّ بهؤلاء المذكورين في الآية، والأوَّل أولى، أي: أن تكون للجنس، فيدخل فيه المذكورون في الآية، ويدخل فيه غيرهم، قال أبو السعود: " اللَّام: إمَّا للجنس؛ وهم داخلون فيه دخولًا أوَّليًّا، وإمَّا للعهد"[1].

۞ الفُرُوقُ المُعجَمِيَّةُ:

العفو والصَّفح والمغفرة، والحلم:

المغفرة إخفاء الذَّنب وعدم المؤاخذة به، والعفو تركُ معاقبة من يستحقُّ، وذلك بإزالة أثر الذَّنب

أصل المغفرة، بمعنى: السَّتر والتَّغطية، فهي تفيد معنى: إخفاء الذَّنب وعدم المؤاخذة به، مع بقاء أثره. أمَّا العفو؛ فهو ترك معاقبة من يستحقُّ، وذلك بإزالة أثر الذَّنب، فالعفو من الله تعالى: هو التَّجاوز عن الذُّنوب وعَنِ العقاب عليها، والعفو من العباد بعدم ذكرها وتناسيها.

(1) أبو السعود، تفسير أبي السعود: 2/86.

أمَّا الصَّفح؛ فهو أن يُعْطيَ الصافحُ المذنبَ صفحة وجهه إعراضًا، ولازمه ترك التَّثريب والتَّأنيب على ما صُفِح عنه لأجله، فالعفو: ترك عقوبةِ المذنب، والصَّفحُ - على قول الرّاغب - تركُ التَّثريب، وهو أبلغ من العفو؛ وقد يعفو الانسان ولا يصفح، وعلى قول البيضاوي: العفو ترك عقوبةِ المُذنب، والصفحُ: ترك لومه.

ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ﴾ [البقرة: 109]؛ ترقيًا في الأمر بمكارم الأخلاق من الحسن إلى الأحسن، ومن الفاضل إلى الأفضل[1].

والصَّفْحُ: هو التّجاوُزُ عن ذَنْبِ المُذْنِبِ ومُسامَحَتُهُ، والإعْراضُ عن إساءَتِهِ بِإزالَةِ أَثَرِ الذّنْبِ مِن النَّفْسِ كالبُغْضِ وحُبِّ الانْتِقام ونحوِ ذلك، وتَرْك عُقُوبَتِهِ بِقَوْلٍ كاللَّوْم والعِتابِ، أو بِفِعْلٍ كالضَّرْبِ ونَحْوِهِ. والصّفْحُ قِسْمان: مَحْمودٌ، وهو الصَّفْحُ عن المُخْطِئِ إن كان في العَفْوِ عنه مَصْلَحَةٌ، ومنه: الصَّفْحُ عن عَثَراتِ الإخوانِ، وتَرْكُ تَأنِيبِهِم عليها. مَذْمومٌ، وهو الصَّفْحُ في غَيْرِ مَحَلِّهِ؛ فلا يَصْفَحُ حيث اقْتَضَى المَقامُ العُقُوبَةَ، كعُقُوبَةِ المُعْتَدِينَ الظَّالِمِينَ الذين لا يَنْفَعُ فِيهِم إلّا العُقُوبَةَ[2].

"والفرق بين الحلم والعفو، أن الحلم راجع إلى حال الإنسان في نفسه، والعفو إلى ما بينه وبين غيره، وإن كان قلَّما ينفك أحدهما عن الآخر"[3].

الحلم راجع إلى حال الإنسان في نفسه، والعفو إلى ما بينه وبين غيره

المحبَّة والمودَّة والخلَّة:

المحبَّة: تعني الميل إلى الشَّيء الموافق، ويقترب من معناها: المودَّة والخُلَّة. وقد استعمل القرآن لفظ المودَّة، وهو أعمق من لفظ المحبَّة،

(1) الراغب، المفردات: (صفح)، والعسكري، الفروق اللغوية: 362.
(2) الخليل، العين (صفح)، والكفوي، الكليات، ص: 562، والمناوي، التوقيف، ص: 217، وابن القيم، بدائع الفوائد: 1/168.
(3) الراغب، تفسير الراغب: 3/861.

فهو يعني: محبَّة الشَّيء مع تمنِّي كونه، ويستعمل في كلِّ واحدٍ من المعنيين، على أنَّ التمنِّي يتضمَّن معنى الودِّ؛ لأنَّ التمنِّي هو تشهِّي حصول ما تودُّه[1].

ومن ألفاظ المحبَّة: لفظ الخُلَّة، وذلك إذا بلغت المحبَّة أن تخلَّلت في نفس المحبِّ، وخالطت جميع أجزاء جسده، وخلا لَهُ صاحبُهُ حتَّى أفرده بالمحبَّة، فيكون قد بلغ مرتبة الخُلَّة، وقد اتَّخذ اللّه إبراهيم خليلًا، وسمِّي: خليل الرحمن، فقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ١٢٥﴾ [النساء: 125]، أن جعله صفوةً له، وخصَّه بمعجزاته، والخُلة من العبد كمالُ المحبة المستلزمة منه كمالَ العبودية للّه، ومن الرب - سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ - كمالُ الربوبية لعباده الذين يحبُّهم، ويحبونه، وهذه صفة فعْل للرَّحْمن الرّحيم، لا تُتَأَوَّل، ولا يُتكلَّم فيها بكيْف، ويؤمَن بها، وتقرُّ كسائر ما قال اللّه عن نفسه؛ إيمانًا باللّه، كما جاء عن اللّه على مراد اللّه، وإيمانًا باللّه كما جاء عن رسول اللّه على مراد رسول اللّه[2].

---

(1) الراغب، المفردات: (ودد).

(2) ابن تيمية، رسالة العبودية، ص: 24، وابن القيم، روضة المحبين، ص: 47، والقنوجي، فتح البيان: 3/250.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥﴾ [آل عمران: 135]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

نـدبُ الـلـهِ إلى المسارعة للتوبة والاستغفار

بعد أن ذكرت الآيةُ السابقةُ أنَّ من صفات المتقين الإنفاقَ في السَّرَّاء والضَّرَّاء وكظمَ الغيظ والعفوَ عن الناس؛ ذكرت هذه الآيةُ أنَّ من صفات المتَّقين - أيضًا - أنَّهم إذا وقعوا في معصية تذكَّرُوا مباشرة أوامر اللّه سبحانه، فاستغفروا لذنوبهم، ولم يُصِرُّوا على خطئهم، فسارعوا إلى التَّوبة والاستغفار؛ لأَنَّ المُذْنِبَ إذا تابَ عَنِ الذَّنْبِ صارَ حالُهُ كَحالِ مَن لَمْ يُذْنِبْ قَطُّ في اسْتِحْقاقِ المَنزِلَةِ والكَرامَةِ عِنْدَ اللَّهِ، ولمَّا نَدَبَ تَعالى في الآيَةِ الأُولى إلى الإحْسانِ إلى الغَيْرِ، نَدَبَ في هَذِهِ الآيَةِ إلى الإحْسانِ إلى النَّفْسِ، فَإنَّ المُذْنِبَ العاصِيَ إذا تابَ، كانَتْ تِلْكَ التَّوْبَةُ إحْسانًا مِنهُ إلى نَفْسِهِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٰحِشَةً﴾: الفاء والحاء والشِّين: كلمةٌ تدلُّ على قبحٍ في شيء وشَناعة، ومن ذلك: الفحش والفحشاء والفاحشة، يقولون: كلُّ شيء جاوز قدره، فهو فاحش، ولا يكون ذلك إلَّا فيما يُتكرَّه، وأفحش الرجلُ؛ إذا قال الفحش[2]، والفاحشة: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال، وكثيرًا ما تَردُ بمعنى الزِّنى، وأصله: مجاوزة الحدِّ في السُّوء، ويمكن أن تطلق على غيره، كالبخيل ونحوه؛ لأنَّ نفس

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/368.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فحش).

البخيل مشحونةٌ بمشاعر حادَّةٍ قبيحةٍ نحو الآخرين[1] وإذا ورد معنى الفاحشة بأنَّه الذَّنب الكبير؛ فإنَّ ظلم النَّفس: هو الذَّنب الصَّغير.

2) ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾: الظُّلْمُ عند أهل اللُّغة وعند كثير من العلماء: هو وضع الشَّيء في غير موضعه المختصِّ به؛[2] إمّا بنقصان أو بزيادة، وإمَّا بعدول عن وقته أو مكانه، والظُّلْمُ: يقال في مجاوزة الحقِّ الذي يجري مجرى نقطة الدَّائرة، ويقال فيما يكثر، وفيما يقلُّ من التَّجاوز؛ ولهذا يستعمل في الذَّنب الكبير، وفي الذَّنب الصَّغير[3].

3) ﴿ذَكَرُواْ﴾: الذِّكر: خلاف النِّسيان[4]، وهو هيئة للنَّفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتضيه من المعرفة، وهو كالحفظ، إلَّا أنَّ الحفظ يقال؛ اعتبارًا بإحرازه، والذِّكر يقال؛ اعتبارًا باستحضاره، وتارة يقال لحضور الشَّيء: القلب أو القول؛ ولذلك قيل: الذِّكر ذِكْرَان: ذِكْرٌ بالقلب، وذِكْرٌ باللسان، ومن ذِكر القلب ذكرٌ من نسيان، وذِكْرٌ لا عن نسيان، بل عن إدامة حفظ[5].

ومعنى ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾: أيْ: تَذَكَّرُوا حَقَّهُ العَظِيمَ ووَعِيدَهُ، أَوْ ذَكَرُوا العَرْضَ عَلَيْهِ، أَوْ سُؤالَهُ عَنِ الذَّنْبِ يَوْمَ القِيامَةِ أَوْ نَهْيِهِ أَوْ غُفْرانِهِ، أو ذَكَرُوا جَمالَهُ فاسْتَحْيَوْا، وجَلالَهُ فَهابُوا، أو ذَكَرُوا ذاتَهُ المُقَدَّسَةَ عَنْ جَمِيعِ القَبائِحِ وأَحَبُّوا التَّقَرُّبَ إلَيْهِ بِالمُناسِبَةِ لَهُ بِالتَّطْهِيرِ مِنَ الذَّمائِمِ[6].

4) ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ﴾: الاستغفار هو: طلب المغفرة، في اللغة، بمعنى: السَّتر[7]، وهو يستعمل في ستر الذُّنوب وعدم المؤاخذة بها، وطلب الاستغفار بعدم المؤاخذة عن الذَّنب لا يصدر إلَّا عن ندامة ونيَّة الإقلاع عن الذَّنب، وعدم العودة إليه؛ لذلك كان الاستغفار في مصطلح، بمعنى: التَّوبة[8]، وإلَّا لم يكن له معنًى أن يستغفروا ولا نيَّة للإقلاع، ولا ندم على ما فرط منه.

---

(1) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل (فحش).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلم).
(3) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل (ظلم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).
(5) الراغب، المفردات: (ذكر).
(6) الآلوسي، روح المعاني: 2/275.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفر).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/92.

5) ﴿لِذُنُوبِهِمۡ﴾: كلمة الذَّنب، بمعنى: المعصية، وأصله: الأخذ بذَنَبِ الشَّيء، أي: مؤخَّرته، وصار يستخدم في كلِّ فعل يستوخم عاقبته، ولأصل هذه الكلمة في اللُّغة عدَّة معانٍ[1]، وذكر الرَّاغب: أنَّ الذَّنب يستخدم لما يستوخم عقباه؛ اعتبارًا بذنب الشَّيء، وكلُّ ما في القرآن من هذا التركيب فهو (ذَنْب) وجمعه (ذُنوب)، بمعنى الإِثم والجُرْم والمعصية[2].

6) ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ﴾: الإصرار من الصَّرِّ، وهو الشَّدُّ، ومعناه: العزم على الشَّيء والثَّبات عليه،[3] وذكر الراغب: أنَّه التعقُّد في الذنب، والتشدُّد فيه، والامتناع عن الإقلاع عنه[4]، وفي معنى الإصرار: ذكر ابن الجوزيِّ أنَّ للمفسِّرين ثلاثة أقوال: الأوَّل: مواقعة الذنب عند الاهتمام به، والثَّاني: أنَّه الثُّبوت عليه من غير استغفار، والثَّالث: ترك الاستغفار منه[5]، والأولى بالاعتبار في معنى الإصرار هو: الإقامة على الذَّنب من غير استغفار، فإنَّ الاستغفار يمحو الذَّنب.

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

يذكر اللّٰه اعتذارَ المحسنين لربِّهم من جِناياتهم وذُنوبهم، وهم الذين إذا ارتكبوا ذنبًا كبيرًا، أو ظلموا أنفسهم بارتكاب ما دونه؛ ذكروا وعدَ اللّٰه ووعيدَه، فلجؤوا إلى ربِّهم تائبين، طالبين ستر ذنوبهم، وعدم مؤاخذتهم بها، مع إقلاعهم عنها وندمهم عليها؛ فإنَّه لا يغفر الذُّنوب إلَّا اللّٰه، ولم يُصِرُّوا على ذنوبهم، وهم يعلمون أنَّهم مذنبون، وأنَّ اللّٰه يغفر الذنوب جميعًا[6].

❁ الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الوصل في الآية:

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مرفوع على الابتداء، أو معطوف على ما قبله من صفات المتَّقين،

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذنب)
(2) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل (ذنب).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (صرر).
(4) الراغب، المفردات: (صر).
(5) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/417.
(6) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 67، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 67.

والعطف هو الأولى؛ لدلالة السِّياق عليه، أي: إذا فعلوا ذنبًا كبيرًا أو صغيرًا؛ ولإنزال التَّغاير في الصّفات منزلة التَّغاير في الذَّات، وهو أبلغ من تركه؛ لأنَّ العطف يوهم التَّغاير.

أوثـرَ العطف لدلالة السِّياق عليه؛ ولإنزال التَّغاير في الصّفات منزلة التَّغاير في الذَّات

بيان عطف الظُّلم على الذَّنب:

وفي عطف ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾ على ﴿فَٰحِشَةً﴾ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ﴾ من عطف العام على الخاص[1]؛ تدرّجًا في الخطاب؛ مراعاةً لحال المخاطب، وطبيعته البشريّة.

عطف العام على الخاص تدرّجٌ في الخطاب

وجه إفراد الفاحشة وتنكيرها:

إفرادُ لفظ الفاحشة من عموم المعاصي؛ للتَّنبيه على قبحها، وتنكيرُها؛ لتهويل شأنها تحذيرًا منها[2]. واستغراقًا لأنواعها، وتعبيرًا عن عمومها.

الإفرادُ تنبيهٌ على قبحها، وتنكيرُها؛ تهويلٌ منها وتحذيرٌ، واستغراقٌ

الفرق بين الفاحشة وبين ظلم النفس:

فرّقوا بين الفاحشة وبين ظلم النفس من وجوه: الأول: الفاحشة ما يكون فعله كاملا في القبح، وظلم النفس: هو أيّ ذنب كان مما يؤاخذ الإنسان به. والثاني: أن الفاحشة هي الكبيرة، وظلم النفس. هي الصغيرة، الثالث: الفاحشة: هي الزنا، وظلم النفس: هي القبلة واللمسة والنظرة، وهذا على قول من حمل الآية على السبب الذي رويناه، ولأنه تعالى سمى الزنا فاحشة، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء: 32][3].

الفاحشة من كبائر الذنوب، وظلم النّفس من صغائرها

بلاغة الإيجاز في قوله: ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾:

معنى: ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: بألسنتهم عند الذُّنوب، أو استحضروه بقلوبهم، فتذكَّرُوا حقَّه العظيم وجلاله الموجب للخشية والحياء، أو

أوجزَ مستغنيًا بالمذكور ليجمع معنيي الدعاء باللسان، واستحضار القلب

(1) المطعني، بلاغة الاستفهام في القرآن الكريم: 1/181.
(2) المطعني، بلاغة الاستفهام في القرآن الكريم: 1/181.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/416، والرّازي، مفاتيح الغيب: 9/368.

ذكروا وعيده وعقابه[1]، لكنَّ اعتبار أنَّ ذكرهم بالقلب هو الأولى والأنسب؛ لأنَّه الذي يتفرَّع عنه طلب المغفرة[2]. وهذا فيه إيجاز بالحذف؛ ليجمع المعنيين، ويحث على التوجّهين.

نكتة العطف بالفاء في: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ﴾:

في العطف بالفاء؛ حثٌّ على سرعة التوبة، وبيانُ فضلِ الاستغفار

والفاء في قوله: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ ذكرَه تعالى مستتبعٌ للاستغفار لا محالة[3]، وأنّ قوام الذكر الاستغفارُ، وفي العطف بالفاء؛ حثٌّ على سرعة التوبة، والرجوع إلى اللّه.

بلاغة الاستفهام:

دلالة الاستفهام إنكار ونفي؛ لتوهُّم الوقوع عند من يقع عنده هذا التَّوهُّم

الاستفهام في قوله: ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ هو للإنكار والنَّفي، والتَّعريف للجنس، أي: لا يغفرُ جنسَ الذُّنوبِ كبيرها وصغيرها أحدٌ إلَّا اللّه. ودلالة الاستفهام على النَّفي بهذه الصِّيغة أبلغُ وأقوى؛ لإيذانه بأنَّ كلَّ أحدٍ ممَّن له حظٌّ من الخطاب يعرِف ذلك الانتفاءَ، فيسارعُ إلى الجواب به، والمرادُ به: وصفُه سبحانه بغاية سَعةِ الرَّحمةِ وعموم المغفرةِ[4].

وهذا الإنكار أوالنَّفي، لا لإنكار الواقع ونفيه، ولا لإنكار الوقوع، ولكنَّه إنكار ونفي؛ لتوهُّم الوقوع عند من يقع عنده هذا التَّوهُّم؛ إذ لا أحد من النَّاس يدَّعي غفران الذنوب[5].

فائدة التعبير عن المغفرة بالمضارع:

فائدة صيغة المضارع تجدُّد المغفرة من الله، ودوامها

وصيغة المضارع ﴿يَغۡفِرُ﴾ في قوله: ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ للدلالة على تجدُّد المغفرة من اللّه، ودوامها لمن يُقْبلُ عليه بها.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/86.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/92.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/86.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/86.
(5) المطعني، بلاغة الاستفهام في القرآن الكريم: 1/181.

بلاغة إظهار لفظ الذُّنوب في موقع الإضمار:

في إظهار لفظ الذنوب، مطامنةٌ، وتعريضٌ، وأنَّه تعالى لا يتعاظمه غفرانُ ذنبٍ

أظهر لفظ الذُّنوب في موضع الإضمار، فلم يقل: ومن يغفرها، عناية بشأنها[1]، ولمطامنة العبد أنَّها لو بلغت عنان السماء، ثمَّ لقي اللّه لا يشرك به شيئًا للقِيَهُ اللّه بِقُرابها مغفرة، ولبيان أنَّ اللّه لا يبالي بها بالة؛ رفْعًا للإصر عن عبده، وأنَّه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، وهذا كالأوَّل دائر في فلكه، وفي الآية تعريض بمن يدَّعون مثل ذلك من رجال الكهنوت وعلماء النصرانية، ولو أنَّه أضمر هنا لم يلزم أن يكون معنيًّا به جميع المتقدم ذكره مما جمعته الآية في بيانها المعجز: ﴿فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾؛ إذ جائز أن يحمل على أحدهما منفردًا، وليقابل استغفارهم منها مظهرة ذلك الاستغفار النَّاشئَ عن ذكرهم اللّه، بغفرها لهم مظهرة؛ ليكون لهم كمال الإجابة وحصول المأمول على نحو ما دعوا به دون خفاء؛ ولأنَّهم أظهروها ذكرًا أمامه خائفين وَجِلين، فكان من إفاضة الأمن عليهم أن يذكرها لهم مغفرة، والقرآن مليء بالأسرار.

سرُّ تأخير نفي الإصرار على الاستغفار:

العناية بالمسارعة للاستغفار وعدم الإصرار على الذَّنب

أعقبَ ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾. أي: ولم يقيموا على ذنوبهم غير مستغفرين، والواو في قوله: ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ﴾ عاطفة أو حاليَّة، فتكون عاطفة على الاستغفار، أي: فاستغفروا، ولم يصرُّوا، وفيه تأخيرٌ لذكر عدم الإصرار على الاستغفار، علمًا أنَّ عدم الإصرار ينبغي أن يكون متقدِّمًا في الرُّتبة؛ وذلك لإظهار الاعتناءِ بشأن الاستغفارِ واستحقاقِه للمسارعة إليه عَقيبَ ذكرِه تعالى.[2].

حاليّة الواو بيانٌ لعلمهم بقبح المعصية، وأنَّ لهم ربًّا يغفرها

أو أنَّ الواو حاليَّة، أي: غيرَ مقيمين، وجملة: ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ جملة حاليَّة، أي: عالمون بقبحه، وأنَّها معصية، وأنَّ لهم ربًّا يغفرها[3].

---

(1) الدبل، دليل البلاغة القرآنية: 1/547.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/87.

(3) القنوجي، فتح البيان: 2/335.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٞ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾ [آل عمران: 136]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذكر الجزاء بعد الحثّ على المسارعة إلى الاستغفار ترغيب، وتكريم

بعد أن بدأت الآيات الثَّلاثة التي قبل هذه الآية بالدَّعوة إلى المسارعة إلى مغفرة اللّه، وجنَّةٍ أعدَّها اللّه للمتَّقين الموصوفين: بالإنفاق في السَّرَّاء والضَّرَّاء، وكظم الغيظ، والعفو عن النَّاس، والذين إن وقع منهم ذنب أو خطأ؛ سارعوا إلى الاستغفار، ولم يصرُّوا على معصية، أَعْلَمَ اللّه بِجَزائِهِمُ الَّذِي سارَعُوا إِلَيْهِ مِنَ المَغْفِرَةِ؛ والجَنَّةِ؛ مُشِيرًا إِلَيْهِمْ بِأداةِ البُعْدِ؛ تَعْظِيمًا لِشَأْنِهِمْ، فهؤلاء جزاؤهم مغفرة من ربِّهم، وجنَّاتٌ تجري من تحتها الأنهار، وهم فيها خالدون متنعِّمون[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿جَزَآؤُهُم﴾: الجزاء في الأصل، يدلُّ على قِيَام الشَّيْءِ مَقَامَ غَيْرِهِ وَمُكَافَأَتِه إِيَّاهُ[2]، ومعناه: المكافأةُ على الشيء، بعامَّة في الخير والشر، ويَصْدُق في الثواب والعقاب، ويطلق على ما فيه الكفايةُ من المقابلة، إن خيرًا؛ فخير، وإن شرًّا؛ فشرٌّ، يقال: جزيته كذا وبكذا، قال تعالى: ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الكهف: 88]، ومنه الجِزيةُ: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ﴾ [التوبة: 29]، وهي المال الذي يؤخذ من أهل الذمَّة مقابلَ حمايتهم، وتوفير الخدمات المجتمعية لهم[3].

2) ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾: جمع، مفردها: جنَّة، وأصلها: جنَّ، بمعنى: ستر الشَّيء عن الحاسَّة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ [الأنعام:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/75.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جزي).

(3) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل (جزى).

76]، أي: ستره، وغطّاه بظلامه، ومن ذلك: الجِنُّ والجِنَّة، وهم نوع من المخلوقات لا تراهم الأعين البشريَّة، والجَنَّة: الحديقة ذات الأشجار، سمِّيت بذلك؛ لأنَّ كثافة فروع الشجر المرفوعة فيها تَجُنُّ، أي تُظِلُّ وتستر من يسير أثناءها، وتستر الأرض وتغطِّيها[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أولئك المتَّصفون بتلك الصِّفاتِ الحميدةِ والخصالِ المجيدة، ثوابُهم أن يستر الله ذنوبهم، ويتجاوز عنها، ولهم في الآخرة جنَّاتٌ تجري من تحتها الأنهار، مقيمين فيها أبدًا، فيها النعيمُ المقيمُ، والبهجةُ والبهاءُ، والخيرُ والسرورُ، ونِعمَ أجرُ العاملين المغفرةُ والجنَّة[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الفصل في الآية:

تفخيم أمر المغفرة من الله تعالى

في العدول إلى الفصل في قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ استئناف للتَّوبة بسداد عملهم، من الاستغفار وقبول الله منهم.

بلاغة التَّعبير باسم الإشارة:

في الإشارة تفخيم أمر المغفرة من الله تعالى

في التَّعبير عنهم باسم الإشارة التي للبعيد ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾؛ للإشعار ببعد منزلتهم، وتعظيمها، وعلوِّ طبقتهم في الفضل عند الله تعالى[3].

بديع التّعبير عن الخبر بالجملة الاسميّة:

اسميّة الجملة ثباتٌ لجزاء المغفرة، وتصريحٌ بتحقّقها

الجزاء في الأصل بمعنى: الكفاية، ومعناه: ما فيه الكفاية من المقابلة، إن خيرًا؛ فخير، وإن شرًّا؛ فشرٌّ[4]. وخبر: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ جملة:

---

(1) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جنن).
(2) نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 67.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/87.
(4) الراغب، المفردات: (جزا).

﴿جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾، وهو يفيد التّأكيد؛ لمجيء الخبر جملة اسميَّة، وفي اسميّة الجملة ثباتٌ لجزاء المغفرة، وتصريحٌ بتحقّقها

وجه التنكير إفادةُ التّعميم، والتّفخيم

تنكير لفظ مغفرة منوّنةً:

تنوين ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ مفيد للتّعميم، والتّفخيم وهو اللائق بمديد مغفرة اللّه تعالى، وواسع رحماته، وعظيم عفوه.

علّة الإضافة التشريفُ، وكمال الرِّعاية، والعناية، والتكريم

نكتة إضافة لفظ الربّ إليهم:

وإضافة كلمة (ربِّ) إليهم، فقال: ﴿مِّن رَّبِّهِمۡ﴾؛ للتّشريف والتّكريم، قال أبو السُّعود: " والتّعرُّض لعنوان الرُّبوبيَّة مع الإضافة إلى ضميرهم، للإشعار بعلَّة الحكم والتّشريف"[1]. وقد انطوى في ذلك الدّلالة على مزيد العناية وكمال الرِّعاية وحسن التّوفيق وشُمُول الألطاف الإلهيَّة المبلِّغة هذا المبلغ من الفوز والاحتفاء.

جمع الجنّات، تشويقُ النّفس إلى حقيقتها، وحثٌّ على صالح الأعمال الموصلة إليها

براعة تفخيم أمر الجنَّة:

الواو في قوله: ﴿وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ عاطفة على قوله: ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾، و﴿وَجَنَّٰتٞ﴾ جمعٌ، مفردها: جنَّة، وسُمِّيت بذلك؛ لأنَّ الشَّجر يستر الأرض، ويغطِّيها[2]؛ وعلّة استحضارها جمعًا تشويقُ النَّفس إلى التورُّد فيها، والاستمتاع بها، والظّفر بالخلود فيها؛ لأنَّه من أكبر المحثِّثات على العمل الصّالح والصّبر على مكارهه ومشاقِّه.

التعبير بجريان الأنهار دون مائها تفخيم لشأن الجنّة

بلاغة المجاز العقلي في صورة جريان الأنهار:

في قوله تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ مجاز عقلي، حيث أُسند الفعل الى غير فاعله الحقيقي، فالجاري هو الماء وأسند إلى الأنهار بعلاقة مكانية[3]. والتعبير بجريان الأنهار

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/87.
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (جنن).
(3) الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 195.

دون مائها تفخيم لشأن الجنّة بكسرها سِياقَ المعهود من الحقائق، والمألوف من التصوّرات.

براعة استحضار صورة الخلود في جناته:

استحضار صورة الجنّة العجيبة، والبشارة بدوام الخلود فيضٌ من عطاءات الخالق سبحانه

جملة ﴿وَجَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ صفة لجنّات، وصيغة المضارع ﴿تَجۡرِي﴾؛ لاستحضار صورتها العجيبة، وكأنها مشاهدةٌ؛ بدوام جريان الأنهار فيها دونما انقطاع. والخلود: هو تبرِّي الشَّيء من اعتراض الفساد، وبقاؤه على الحالة التي هو عليها، والخلود في الجنَّة: بقاء الأشياء على الحالة التي عليها، من غير نقصٍ يعتري نعيمَها، وملاذَّها، وحُسنَها، ورَوْحَها[1]. وعبر عنه باسم الفاعل للدلالة على رسوخ صفة الخلود فيهم، بدوام مكثهم في جناته منعّمين، مكرّمين بما لا عين رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

بلاغة اختيار لفظ الأجر للجزاء:

في التعبير بالأجر مزيد التَّرغيب في الطَّاعات والزَّجر عن المعاصي

(نِعْمَ): كلمة تستعمل في المدح، بإزاء (بئس) في الذمِّ[2]. وفي قوله: ﴿وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ تعبيرٌ عن المغفرة والجنَّات بالأجر المشعر بأنَّهما يُستحقَّان بمقابلة العمل، وإن كان بطريق التفضُّل لمزيد التَّرغيب في الطَّاعات والزَّجر عن المعاصي[3]، وذكر ابن عاشور حكمة تسميته: أجرًا؛ لأنَّه كان عن وعد للعامل بما عمل[4].

وفي لفظ الأجر تأكيد معنويٌّ للخلود في النَّعيم المقيم

وفيه تأكيد معنويٌّ للخلود في النّعيم المقيم؛ لأنَّه إذا كان أجرًا؛ لم يكن لأحد عدل أن يمنعهم منه، فيبقى لهم بإزاء بقائهم فيه، وهو تطييب بذكر الامتنان المُحثِّ على مزيد من الشكران والعرفان والإقبال على الطَّاعات دون توانٍ.

---

(1) الراغب، المفردات: (خلد).

(2) الراغب، المفردات: (نعم).

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/87.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/95.

التَّعريف للعهد على أنّه نعم الأجر للعامل، ويحتمل كونه لبيان كمالهم

فائدة التعريف في لفظ ﴿ٱلْعَٰمِلِينَ﴾:

والتَّعريف في العَامِلِينَ للعهد، أي: ونعم أجر العاملين هذا الجزاء، بمعنى: إذا كان لأصناف العاملين أجور، كما هو متعارف، فهذا نعم الأجر للعامل[1]، ويحتمل كونه لبيان كمالهم، أي: العاملين الكُمَّل بتخلِّيهم عن الرذائل وتحلِّيهم بالفضائل على وفق الأمر والنَّهْي والاهتداء.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/95.

﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾ [آل عمران: 137]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تسلية المؤمنين بيوم أُحد بالاعتبار بأحوال الأمم الماضية

ضرب القرآن الكريم المثلَ فيما حصل للأمم الماضية من أحوال المطيعين والعاصين، بالتمهيد لإعادة الكلام على ما كان يوم أحد، وما بينهما استطرادٌ، وهذا مقدَّمة التَّسلية والبشارة الآتيتين، ابتدئت هذه المقدَّمة بحقيقة تاريخية، وهي الاعتبار بأحوال الأمم الماضية[1]. قال الرَّازيُّ: " اعلم أنَّ اللّه تعالى لمَّا وعد على الطَّاعة، والتَّوبة من المعصية الغفرانَ والجنَّاتِ، أتبعه بذكر ما يحملهم على فعل الطَّاعة وعلى التَّوبة من المعصية، وهو تأمُّل أحوال القرون الخالية من المطيعين والعاصين"[2].

في مشاهدة مصارع الماضين الأشدّ خلقًا، والأقوى همًا، والأكثر عددًا مبلغُ الاعتبار، ومنتهى العظة

قال البقاعيُّ: " ولمَّا فرغ من بيان الزَّلل الذي وقع لهم به الخلل، والتَّرهيب ممَّا يوقع فيه، والتَّرغيب فيما ينجِّي منه في تلك الأساليب التي هي أحلى من رائق الزُّلال، ولذيذِ الوصال، بعد طول المطال، أخذ يشجِّعهم على الجهاد لذوي الفَساد، فبدأ بالسَّبب الأقوى، وهو الأمر بمشاهدة مصارعِ مَن مضى من المكذِّبين برؤية ديارهم وتتبُّع آثارِهم، مع أنَّهم كانوا أشدَّ خَلْقًا وأقوى هِممًا وأكثر عَددًا وأحكم عُدَدًا"[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَلَتۡ﴾، بمعنى: مضت، وانقرضت، وأصل الخلوِّ في اللُّغة:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/95.
(2) الرّازي: مفاتيح الغيب: 9/369.
(3) البقاعي: نظم الدرر: 5/76.

يدلُّ على تعرِّي شيء عن شيء، والمكان الخالي: هو المنفرد عمَّن فيه، فالخُلُوُّ بمعنى: الانفراد[1]، ويستعمل أيضًا في الزَّمان، بمعنى: المضيِّ؛ لأنَّ ما مضى انفرد عن الوجود، وخلا عنه[2].

2) ﴿سُنَنٌ﴾: السُّنَّة في أصل اللُّغة بمعنى: الطَّريقة، ويشير أصلها إلى: جريان الشَّيء واطِّراده في سهولة، واشتُقَّ منها السُّنَّة بمعنى: السِّيرة، والمراد بالسُّنن: ما سنَّهُ اللّٰه في الأمم الماضية من وقائعه، أي: قد خلت من قبلُ في غير زمانكم وقائعُ سنَّها اللّٰه في الأمم المكذِّبة بالهلاك والاستئصال، لأجل مخالفتهم الأنبياء، فالسُّنَّة بمعنى: الطَّريقة، والجمع سنن، والمعنى: وسنَّة اللّٰه، أي: طريقة شرائعه، وسنَّة النَّبيِّ ﷺ: طريقته التي كان يتحرَّاها[3].

3) ﴿فَٱنظُرُوا۟﴾: النَّظر في اللغة هو: تأمُّل الشيء ومعاينته، وذكر الرَّاغب أنَّ النَّظَر: تَقْلِيبُ البَصَرِ والبصيرةِ لإدرَاكِ الشَّيءِ ورؤيَتِهِ، وقد يُرادُ به التَّأَمُّلُ والفَحْصُ، وقد يراد به المعرفةُ الحاصلةُ بعد الفَحْصِ، وهو الرَّوِيَّةُ، يقال: نَظَرْتَ، فلم تَنْظُرْ، أي: لم تَتَأَمَّلْ، ولم تَتَرَوَّ[4]. والمعنى: فتأمَّلوا، وتفكَّروا، والنَّظر هو: تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشَّيء ورؤيته.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لَمَّا ابتُلي المؤمنون بما نزل بهم يوم أحدٍ؛ أَخْبرَ تعالى عبادَه المؤمنين وسلَّاهم، بأنه قد مَضَى قبلهم أجيالٌ وأممٌ كثيرة ابتُلِيَ المؤمنون منهم بقتال الكافرين، فكانت العاقبةُ لهم، فسيروا في الأرض معتبرين بما آل إليه أمرُ أولئك المكذِّبين باللّٰه وبرسله؛ إذ قد خَوت ديارُهم، وتبيَّن لكلِّ أحد خسرانُهم، وذهب عزُّهم وملكُهم، وزال بذَخُهم وفخرُهم[5].

---

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (خلو).
(2) القنوجي، فتح البيان: 2/337.
(3) السَّمين، عمدة الحفَّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سنن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نظر).
(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 67، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 67.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الفصل في الآية:

وجه الاستئناف تسليةُ المؤمنين، والتمهيدُ لإعادة الكلام اعتبارًا وعظةً

قوله تعالى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٌ﴾ استئنافٌ فيه تسلية للمؤمنين عما أصابهم من الحزن والكآبة، وتمهيدٌ لإعادة الكلام على ما كان يوم أحد. عظةً، واعتبارًا ما حصل فيها.

بلاغة افتتاح الآية بـ ﴿قَدۡ﴾:

في تحقيقيّة (قد) بيانٌ لسنَّة الله في زوال الظَّالمين، وأنَّ العاقبة للمتَّقين

وحرف ﴿قَدۡ﴾ في قوله: ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾ يفيد التَّحقيق؛ إذا دخل على الفعل الماضي، وهي في الجملة الفعليَّة المجاب بها القسم، مثل: إنَّ، واللام في الاسميَّة المجاب بها في إفادة التَّوكيد. وجيء بحرف ﴿قَدۡ﴾ الدالِّ على تأكيد الخبر، تنزيلًا لهم منزلة من ينكر ذلك، لَمَّا ظهر عليهم من انكسار الخواطر من جرَّاء الهزيمة الحاصلة لهم من المشركين، مع أنَّهم يقاتلون لنصر دين اللّه، وبعد أن ذاقوا حلاوة النَّصر يوم بدر، فبيَّن اللّه لهم أنَّه جعل سنَّة هذا العالم أن تكون الأحوال فيه سجالًا ومداولةً، وذكَّرهم بأحوال الأمم الماضية[1].

بلاغة التَّعبير في الحثِّ على السَّير في الأرض:

دلالة السَّير في الأرض دون قراءة الكتب للاعتبار بالأمم الماضية

جملة ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾ معطوفة على ما قبلها، والتَّسبيب في هذه الألفاظ ظاهر، أي: سبب الأمر بالسَّير؛ لينظروا نظر اعتبار خُلُوَّ من قبلكم من الأمم وطرائقهم، ويمكن أن تكون الفاء للشَّرط؛ لأنَّ المعنى: إن شككتم؛ فسيروا[2]، والأولى: هو القول الأوَّل؛ لظهور المعنى ومناسبة السِّياق. والسَّيْر: هو المضيُّ في الأرض؛ إمَّا سيرٌ على الأرض بالأقدام، أو سيرٌ في إجالة الفكر بالاعتبار؛ فيكون المعنى: سيروا بأقدامكم أو بأفهامكم.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/96.

(2) السمين، الدر المصون: 3/400.

بلاغة المجاز المرسل في جملة السير في الأرض:

في قوله تعالى: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ﴾ مجاز مرسل باعتبار ما يؤول إليه أمر السير؛ لإن الأمر بالسير والنظر وإن كان خاصا بالمؤمنين لكن العمل بموجبه غير مختص بواحد دون واحد ففيه حمل للمكذبين أيضا على أن ينظروا في عواقب من قبلهم من أهل التكذيب ويعتبروا. وهذا من قبيل المجاز المرسل والعلاقة في هذا المجاز ما يؤول إليه أمر السير في الأرض من التفكّر، فهو من تشبيه المعقول بالمحسوس[1].

الأمـــر بالـسير هـنا مـجاز عن التفكر، وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّظر وغيره من ألفاظ الرُّؤية:

استخدم القرآنُ في ألفاظ الرُّؤية البصرَ والنَّظرَ والرُّؤيةَ ونحوها، وإليك بيانَها؛ ليتَّضح بالتَّحديد معنى النَّظر خلالَ موازنتها بما يرادفها من ألفاظ.

فالنَّظر - كما سبق - هو: "تَقْلِيبُ البَصَرِ والبصيرةِ لإدرَاك الشَّيءِ ورؤيَتِهِ، وقد يُرادُ به التَّأَمُّلُ والفَحْصُ، وقد يراد به المعرفةُ الحاصلةُ بعد الفَحْصِ، وهو الرَّوِيَّةُ، يقال: نَظَرْتَ، فلم تَنْظُرْ، أي: لم تَتَأَمَّلْ، ولم تَتَرَوَّ"[2]، ومما يشبه النظر في المعنى:

أولاً: البصر:

البصر: اسم للرُّؤية، وقد يُطلق على العين مجازًا؛ بوصفها أداةَ الإبصار، ويسمَّى العلم بالشَّيء - إذا كان جليًّا - بصرًا[3]، وذكر الرَّاغب الأصفهانيُّ أنَّ البصر يقال للجارحة النَّاظرة، وللقوَّة التي فيها، ويقال لقوة القلب المدركة: بصيرة وبصر، وجمعُ البصر: أبْصار، وجمع البصيرة: بصائرُ[4].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/351، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/88، وصافي، الجدول: 4/316.
(2) الراغب، المفردات: (نظر).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 65.
(4) الراغب، المفردات: (بصر).

ثانيًا: الرُّؤية:

الرُّؤية: هي معاينة المرئيِّ وتمييزُه، سواء كان بالبصر – وهو الأصل في الاستعمال – أو بالقلب، والرؤية البصريَّة تحتاج إلى مفعول واحد، فإذا عُدِّي فعل النَّظر بـ (إلى)؛ اقتضى معنى النَّظر المؤدِّي إلى الاعتبار، أمَّا الرُّؤية القلبيَّة؛ فتتعدَّى لأكثر من مفعول، وتقتضي معنى العلم، ولعلَّه يفيد معنى الظنِّ، وعدَّ أبو هلال العسكريُّ أنَّ الرُّؤيةَ في اللُّغة على ثلاثة أوجه: أحدها: العلم، والثَّاني: بمعنى الظَّنِّ، واستعمال الرُّؤية في هذين الوجهين مجازٌ، أمَّا الوجه الثَّالث؛ فهو رؤية العين، وهي حقيقة[1]، أمَّا الرَّاغب الأصفهانيُّ، فعدَّ الرُّؤية أضرُبًا، بحسب قوى النَّفس: الأوَّل: الحاسَّة وما يجري مجراها، والثَّاني: بالوهم والتَّخيُّل، والثَّالث: بالتَّفكُّر، والرَّابع: بالعقل[2].

ثالثًا: الطَّرْف:

الطَّرْفُ: يَدُلُّ عَلَى حَدِّ الشَّيْءِ وَحَرْفِهِ، أي: جانب الشَّيء، ومن ذلك قَوْلُهُمْ: عَيْنٌ مَطْرُوفَةٌ؛ وَذَلِكَ أَنْ يُصِيبَهَا طَرَفُ شَيْءٍ ثَوْبٍ أَوْ غَيْرِه فَتَغْرَوْرِقَ دَمْعًا، ويَدُلُّ الطَّرْفُ – أيضًا – عَلَى حَرَكَةٍ في العين، وَهُوَ تَحْرِيكُ الْجُفُونِ في النَّظَرِ. هَذَا هُوَ الْأَصْلُ ثُمَّ يُسَمُّونَ الْعَيْنَ الطَّرْفَ مَجَازًا، ويعبَّر به عن النَّظر؛ إذ كان تحريكُ الجفن لازمَه النَّظر[3]، وطَرف بَصَرَه، بمعنى: أطبق أحدَ جَفْنَيه على الآخر، فالجفن غطاء العينِ فهو كالنهاية المتدلية، وإطباق الجفن إيقاف للنظر كالإنهاء أيضًا. والطَّرْف: العين الباصرة، ومنه قوله: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ [إبراهيم: 43]، أي: لا ترجع إليهم أبصارُهم من شدَّة النظر، فهي شاخصة النظر[4]. وقالوا: الطوارف: العيون، كقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ۝٤٨﴾ [الصافات: 48]، أي: يقصرن نظرهنَّ على من هُيِّئْنَ له، ولا تجد منهنَّ أيَّ نظرة ولو جانبيَّة لغير أزواجهنَّ.

رابعًا: اللَّمح:

واللَّمح: هو النَّظر بسرعة، أي: الرُّؤية الخاطفة، يقال: لمحته في مكان كذا، أي: رأيته رؤية خاطفة، وعدَّ الرَّاغب أنَّ اللَّمح بمعنى: الوضوح، فقال: "اللَّمح: لمعان البرق، ورأيته

---

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 75.

(2) الراغب، المفردات: (رأى).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (طرف).

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/377، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (طرف).

لمحة البرق، ويقال: لأرينَّك لمحًا باصرًا، أي: أمرًا واضحًا"[1]، إلَّا أنَّ اعتبار اللَّمح هو النَّظرة السَّريعة أولى، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القمر: 50]، أي: السَّاعة أو جميع الأمور كلمحة واحدة سريعة، كلمح البصر في سرعته.

(1) الراغب، المفردات: 1/647.

﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ١٣٨﴾ [آل عمران: 138]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الخير في الاعتبار بمصير الأمم الماضية

هذه الآية تذييل لما سبق من وجوب المسارعة إلى مغفرةٍ من الله وجنَّة عرضها السَّماوات والأرض، وأنَّ في ذلك الفلاح والنَّجاح، وأنَّ الأمم السَّابقة التي كذَّبت رسلها قد أهلكها الله سبحانه وتعالى، وأنَّ على الإنسان أن يعتبر بذلك، وفي هذا الأمر بيان وهدًى وموعظة للمتَّقين الذين يعتبرون بما حصل لتلك الأمم، وما يجب عليهم أن يتمسَّكوا به.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَيَانٞ﴾، البيان هو: الإيضاح[1]، يقال: بان واستبان وتبيَّن، والبيِّنة: هي الدَّلالة الواضحة، عقليَّة كانت أو حسِّيَّة، فالبيان هو الكشف عن الشَّيء، وهو أعمُّ من النُّطق؛ لأنَّ النُّطق مختصٌّ بالإنسان، ويسمَّى ما بُيِّن به: بياناً[2].

2) ﴿وَهُدٗى﴾: أصل معنى الهداية هو: التَّقدُّم للإرشاد، كقَوْلِهِمْ: هَدَيْتُهُ الطَّرِيقَ هِدَايَةً، أَيْ تَقَدَّمْتُهُ لِأُرْشِدَهُ. وَكُلُّ مُتَقَدِّمٍ لِذَلِكَ هَادٍ؛ لأنه يَقْدُمُ القومَ نحو وجهتِهم ليدلَّهم[3] وذكر الرَّاغبُ أنَّها: دلالة بلطف، وخُصَّ ما كان دلالة بهَدَيت، وما كان إعطاء بأهديت، يُقَالُ: أَهْدَيْتُ أُهْدِي إِهْدَاءً.

وما كان منه في جانب البشر فهو بمعنى الإرشادِ والبَيانِ والدَّلالة بلُطْفٍ إلى ما يُوصِلُ إلى المَطْلوبِ، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).
(2) الراغب، المفردات: (بان).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (هدي).

﴿صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢﴾ [الشورى: 52]، وما كان من الله تعالى فهو الدلالة والتوفيق كقوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: 6]، و﴿وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ [إبراهيم: 12]: دلَّنا عليها ووفَّقنا إليها[1].

3) ﴿وَمَوۡعِظَةٞ﴾: الوعظ في اللغة، بمعنى: التخويف[2]، والموعظة من الوعظ، وهو: زجر مقترن بتخويف[3]، وذلك أنَّ المتَّقين هم الذين ينزجرون عمَّا في ذلك من النَّواهي، ويتجنَّبون ما نُهُوا عنه.

❁ المَعنَى الإجْمَاليُّ:

هذا الذي أوضحتُ لكم وعرَّفتكموه من تذكيري للمؤمنين، وتعريفِهم حدودَ الله، وحضِّهم على لزوم طاعتِه والصبرِ على جهادِ أعدائِه وأعدائهم، أو هذا القرآنُ بيانٌ وإرشادٌ إلى طريق الحق، وهذه الموعظةُ في وجوب التمثُّل بالتَّقوى، والنَّظر في عواقب الأمم الماضية التي أُهْلِكت، تذكيرٌ وموعظة للمؤمنين المتَّقين الذين يخشَوْن ربَّهم، وهذه الموعظةُ لهم؛ لأنَّهم المنتفعون بها دون غيرهم[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الفصل في الآية:

عـدل إلى الفصل تذييلا يعمُّ المخاطبين وخالفيهم، ليحثّهم على الاعتبار بسوء عواقب المكذبين

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٨﴾ "تذييل يعمُّ المخاطبين الحاضرين ومن يجيء بعدهم من الأجيال"[5]. وفيه: "حثّهم على النظر في سوء عواقب المكذبين قبلهم والاعتبار بما يعاينون من آثار هلاكهم"[6].

(1) الراغب، المفردات: (هدي)، والجرجاني، التعريفات، ص: 277، والمناوي، التوقيف، ص: 343، والكفوي، الكليات، ص: 952، والسَّفَّاريني، لوامع الأنوار: 1/50، والحَكَمي، معارج القبول: 1/75.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وعظ).
(3) الراغب، المفردات: (وعظ).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 6/74، ونخبة من العلماء، التفسير الميسَّر، ص: 67.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/97.
(6) الزمخشري، الكشاف: 1/418.

بلاغة التَّعبير باسم الإشارة للقريب:

في التعبير باسم الإشارة بيانٌ لقرب المتحدَّث عنه، ووضوحه

والتَّعبير باسم الإشارة القريب ﴿هَٰذَا﴾؛ لبيان قرب المتحدَّث عنه، ووضوحه. وهو" يعني القرآن وقيل هو اسم إشارة إلى ما تقدم من أمره ونهيه ووعده ووعيده"[1]. فهو إشارة " إما إلى ما تقدّم بتأويل المذكور، وإما إلى حاضر في الذهن عند تلاوة الآية وهو القرآن"[2]..

توجيه التَّعريف في ﴿لِّلنَّاسِ﴾:

عهديّة التعريف تخصيص البيان بمكذّبي عصر النُّبُوَّة، وجنسيّته بيان لجميع النَّاس

التَّعريف في ﴿لِّلنَّاسِ﴾ للعهد أو للجنس، فإن كان للعهد؛ فيكون البيان لمكذِّبي عصر النُّبُوَّة الأخيرة الخاتمة وحدهم دون المتقدِّمين زمانًا عليهم، أمَّا الهدى والموعظة؛ فهي للمؤمنين، وإن كان للجنس، فيكون البيان لجميع النَّاس: مؤمنهم وكافرهم، أمَّا الهدى والموعظة؛ فهي للمتَّقين وحدهم[3].

بلاغة تقديم البيان للنَّاس:

أوَّل ما يترتَّب على مشاهدة آثارِ هلاكِ الأسلافِ ظهورُ حالِ الأخلافِ

قُدّم (البيانُ للناس) بوصفه بيانًا للمكذِّبين - في توجيه عهديّة اللام في الناس - مع أنَّه غيرُ مَسوق له على كونه هدًى وموعظةً للمتَّقين مع أنَّه المقصودُ بالسِّياق؛ لأنَّ أوَّل ما يترتَّب على مشاهدة آثارِ هلاكِ أسلافِهم ظهورُ حالِ أخلافِهم[4].

نكتة تخصيص البيان للنَّاس:

تخصيص البيان للنَّاس؛ لأنَّ المرادَ به مجرَّدُ البيانِ العاري عن الهدى والعظة

تخصيصُ البيانِ للنَّاس مع شموله للمتَّقين - أيضًا - لما أنَّ المرادَ به مجرَّدُ البيانِ العاري عن الهدى والعظةِ، والاقتصار عليهما في جانب المتَّقين مع ترتُّبهما على البيان؛ لما أنَّهما المقصِدُ الأصليُّ[5].

---

(1) الخازن، لباب التأويل: 1/424.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/97.
(3) القنوجي، فتح البيان: 2/338.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/88.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/88.

إيـــثـــارُ لـفـظ (لـلـنـاس)؛ لأنـه تـعـالى جـعـل القـرآن بيـانًا للعامّة والخاصّة

أنزل القرآنُ بيانًا للعامّة والخاصّة، ولهذا قال: ﴿لِّلنَّاسِ﴾؛ لأنه ما من ذي فكرة استمع إليه إلا حصل منه بيان ما[1].

سرُّ تخصيص المتَّقين بالهدى، والموعظة:

خصَّ الله تعالى المتَّقين بالهدى، والموعظة تشريفًا؛ ولأنَّهم المنتفعون بهما

الموعظة من الوعظ، وهو: زجرٌ مقترنٌ بتخويف[2]. والمتَّقون هم الذين ينزجرون عمَّا في ذلك من النَّواهي، ويتجنَّبون ما نهوا عنه، فينتفعون بها؛ لذلك خصَّهم تعالى بالموعظة؛ لأنَّهم أهلٌ لذلك، وفي ذلك تشريف لهم. وكذا الأمر مع الهدى، وهما في حق غير المتقين كالمعدومة.

البيانُ قول عامٌّ، والهدى والموعظة مخصوصتان بالمتقين

إنّ قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ كلامٌ عامٌّ ثم قوله: قوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ مخصوص بالمتقين؛ لأن الهدى اسم للدلالة بشرط كونها موصلة إلى البغية، ولا شك أن هذا المعنى لا يحصل إلا في حق المتقين[3]. وجعله هدى مبالغة؛ لأنه أثره ومنه جاء[4].

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البيان، والهدى، والموعظة:

البيان جنس تحته نوعان: الكلام الهادي إلى ما ينبغي في الدين وهو الهدى، والكلام الزاجر عما لا ينبغي في الدين وهو الموعظة.

أي هما وجهان: الأول: أن البيان هو الدلالة التي تفيد إزالة الشبهة بعد أن كانت الشبهة حاصلة، فالفرق أنَّ البيان عام في أي معنى كان.

وأما الهدى فهو بيان لطريق الرشد؛ ليُسلك دون طريق الغيِّ.

(1) الراغب، تفسير الراغب: 3/872.
(2) الراغب، المفردات، وعظ.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/371.
(4) الخفاجي، حاشية على البيضاوي: 2/99.

وأما الموعظة فهي الكلام الذي يفيد الزَّجر عما لا ينبغي في طريق الدين[1]. فالهدى يقال باعتبار معرفة الشريعة وسلوك طرقها إلى ثواب اللّه تعالى، والوعظ يقال باعتبار معرفة الثواب والعقاب[2].

البيانُ دلالةٌ عامّة، والهدى دلالةٌ مفضية إلى الاهتداء

الوجه الثاني: أن البيان هو الدلالة، وأما الهدى فهو الدلالة بشرط كونها مفضية إلى الاهتداء[3].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/370.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 3/872.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/370.

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾

[آل عمران: 139]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لا ينبغي أن تكون الهزائم سببًا للضَّعف

لَمَّا أمر اللهُ المؤمنين بالمسارعة؛ وأتبعها علَّتها ونتيجتها؛ نهاهم عمَّا يعوقُ عنها؛ من قبل الوَهْن؛ الذي عَرضَ لهم عند رؤيتِهم الموتَ[1]، وبعد الإشارة إلى أنَّ سنَّة الله في الأمم الماضية الكافرة المكذِّبين لرسلهم، نهايتُهم إلى الهلاك؛ وإن حصل لهم شيء من النَّصر والظَّفر على المؤمنين، إلَّا أنَّ المؤمنين بثباتهم واعتمادِهم على الله ينتصرون على أعدائهم.

فلا ينبغي أن يكون ما حصل لهم يوم أحد سببًا لضعفهم وانهزامهم، إنَّما كان ذلك درسًا لإعادة صفِّهم وتجديد إيمانهم بالله تعالى.

قال الرَّازيُّ: "اعلم أنَّ الذي قدَّمه من قوله: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ﴾ [آل عمران: 137] وقوله: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 138] كالمقدِّمة لقوله: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ كأنَّه قال: إذا بحثتم عن أحوال القرون الماضية؛ علمتم أنَّ أهل الباطل؛ وإن اتَّفقت لهم الصَّولة، لكن كان مآل الأمر إلى الضَّعف والفتور، وصارت دولةُ أهل الحقِّ عالية، وصولةُ أهل الباطل مندرسة، فلا ينبغي أن تصير صولةُ الكفَّار عليكم يومَ أحدٍ سببًا لضعف قلبكم ولجُبنكم وعَجْزكم، بل يجب أن يَقْوى قلبُكم، فإنَّ الاستعلاء سيحصل لكم، والقوَّة والدَّوْلة راجعةٌ إليكم"[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/77.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/371.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾، الوهن بمعنى: الضَّعف[1]، وذكر الرَّاغب أنَّه ضعف من حيث الخَلْق أو الخُلُق[2]، وهو هنا مجازٌ في خَوَر العزيمة وضعف الإرادة، وانقلاب الرجاء يأسًا، والشَّجاعة جبنًا، واليقين شكًّا؛ ولذلك نهوا عنه[3].

2) ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾: الأصل اللُّغوي للحزن: من الحَزَن، وهو: خشونة الشَّيء وشدَّة فيه[4]، والحُزْنُ مأخوذ منه، وهو: شدَّة الأسف البالغة حدَّ الكآبة والانكسار[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليّ:

ولا تضعفوا - أيُّها المؤمنون - ولا تحزنوا على ما أصابكم يوم أحد، فأنتم الغالبون لعدوِّكم، وأنتم الأعلون، بعون الله ورجائكم نصرَه؛ إن كنتم مؤمنين بالله ووعده لعباده المتَّقين.

ويشير سبب النزول إلى موضوع الآية؛ إذ رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: انهزم أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد، فبينما هم كذلك؛ إذ أقبل خالد بن الوليد بخيل المشركين يريد أن يعلوَ عليهم الجبل، فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: (اللهمَّ، لا يَعلُونَ علينا، اللهمَّ، لا قوَّةَ لنا إلَّا بكَ، اللهمَّ، ليس يعبدك بهذه البلدة غير هؤلاء النَّفر)، فأنزل الله تعالى هذه الآيات، وثاب نفر من المسلمين رماة، فصعدوا الجبل، ورموا خيل المشركين حتَّى هزموهم، فذلك قوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة التَّعبير بالوهن على طريق المجاز:

الوَهَنُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾: الضَّعف، وأصله ضعف الذات، وهو هنا مجازٌ في خور العزيمة وضعف الإرادة وانقلاب الرجاء يأسا، والشجاعة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وهن).
(2) الراغب، المفردات، وهن.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/98.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حزن).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/98.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 2/67، والواحدي، أسباب النزول، ص: 117.

نـفـيُ الـوهـن والحـزن تقويةٌ لعزائم المؤمنين وتسليتهم؛ لتجاوز ما نالهم يوم أحد

جبنا، واليقين شكا، ولذلك نهوا عنه. وأما الحزن فهو شدة الأسف البالغة حد الكآبة والانكسار، فالنهي عن الوهن والحزن في الحقيقة نهي عن سببهما وهو الاعتقاد[1]؛ لأنّ الحزن ليس اختيارًا، حتى يُنْهَى عنه، لكنَّه نهي عن تعاطي ما يورِّث الحزن، فيروِّض نفسه على تحمُّل الصِّعاب، وكيفيَّة التَّعامل مع أسباب الحزن ومسبِّباته. وفي ذلك عزاء وتسلية؛ لما نالهم يوم أحد من القتل والجراح، وحثَّهم على قتال عدوِّهم، ونهاهم عن العجز والفشل، والمعنى: لا تضعفوا عن الجهاد، ولا تحزنوا على من قُتل منكم؛ لأنَّه في جنان الخلد[2].

في القصر بيانُ انفرادهم باستحقاق العلوّ؛ فلا عاليَ مثلهم، بسبب إيمانهم

بلاغة التَّعبير عن العَلِيَّة بأسلوب القصر:

وجملة ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ جملة اسميَّةٌ، وخبرها معرفة يفيد القصر، أي: أنَّ المسلمين هم الذين يستحقُّون هذا العلوَّ، وهو قصر إضافيٌّ، كأنَّه لا عالي مثلهم، بسبب إيمانهم.

في الحاليّة تصريحٌ بالوعد والنَّصر والغلبة، بعد الإشعار به فيما سبق

دلالة جملة العليّة بين الحاليّة، والاستئناف، والعطف:

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ، أي: والحال أنَّكم الأعلون الغالبون، دون عدوِّكم، فإنَّ مصير أمرهم إلى الدَّمار، بحسب ما شاهدتم من أحوال أسلافهم، فهو تصريح بالوعد والنَّصر والغلبة، بعد الإشعار به فيما سبق.

في الاستئناف إطلاقٌ لعليّتهم سواء وهنوا أو لَا

ورجّح ابن عرفة أنَّ جملة ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ استئنافٌ؛ لأنهم لم ينهوا عن الوهن في هذه الحالة بل مطلقا، فهم الأعلون أيضا مطلقا سواء وهنوا أو لَا[3].

ويحتمل أن تكون الواو للعطف، والجملة معطوفة على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/98.

(2) القنوجي، فتح البيان: 2/338.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/416.

ما قبلها. وهذه بشارة لهم بالنصر المستقبل، فالعلو هنا علو مجازي وهو علو المنزلة[1].

العلوُّ هنا علوٌّ مجازيٌّ وهو علوُّ المنزلة، وفيه بشارة لهم بالنصر مستقبلا

بلاغة إيراد الفاصلة جملةَ شرطٍ:

جواب الشَّرط في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ محذوف دلَّ عليه ما قبله، أي: إن كنتم مؤمنين؛ فلا تهنوا، ولا تحزنوا، وإن كنتم مؤمنين؛ فأنتم الأعلون، وقد صدق الله وعده، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ بعد وقعة أحد، ظفر بعدوِّه في جميع وقعاته[2]، وفي ذلك ترغيب لهم في الثبات، وتقويةٌ لعزائمهم. قال ابن عاشور: "والتعليق بالشرط في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قُصد به تهييج غيرتهم على الإيمان؛ إذ قد علم الله أنهم مؤمنون، ولكنهم لما لاح عليهم الوهن والحزن من الغلبة، كانوا بمنزلة من ضعف يقينه فقيل لهم: إن علمتم من أنفسكم الإيمان"[3].

في جملة الشّرط ترغيبٌ لهم في الثَّبات، وتهييج غيرتهم على الإيمان

فائدة ﴿إِن﴾ في جملة الفاصلة:

قال ابن عرفة: " فإنْ قلت: هلّا قيل: أو كنتم مؤمنين؟، قلت: إنما عبر بـ﴿إِن﴾ تهييجًا على الاتّصاف بالإيمان ولاسيما أنها تعريض بالمنافقين فهم داخلون فيها"[4]. فمجيء إن الشرطية التي من شأنها عدم تحقيق شرطها؛ إتمامٌ لهذا المقصد[5].

قُصِدَ التّعبير بـ (إن) للتهييج على الاتّصاف بالإيمان، والتعريض بالمنافقين

في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تنزيل الماضي المتحقق منزلة المستقبل غير المتحقق لإثارة همّتهم الدينية فلا يضعفون؛ وذلك لأنّ (إنْ) تقتضي أنْ يكون ما بعدها مستقبلا[6].

فائدة (إنْ) تنزيل الماضي المتحقق منزلة المستقبل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/98.
(2) القنوجي، فتح البيان: 2/338.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/99.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/416.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/99.
(6) الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 195.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحُزْن والهَمّ والبَثّ:

أولاً: الحُزن: من الحَزَن، وهو: خشونة الشَّيء وشدَّة فيه[1]، والحُزْنُ مأخوذ منه، وهو: شدَّةُ الأسف البالغة حدَّ الكآبة والانكسار، والشعورُ بقسوةِ الأمر وشدتِه وخشونتِه[2]، وفسَّره الرَّاغب: بأنَّه خشونة في النَّفس، لما يلحقها من الغمِّ، وأصله من الأرض الحَزنة، أي: الخشنة، فالحَزَن هو الصَّعب، ويضادُّه: السَّهل، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ فليس ذلك بنهيٍ عن تحصيل الحزن، فالحُزْن ليس يحصلُ بالاختيار، ولكنَّ النهيَ في الحقيقة إنَّما هو عن تعاطي ما يورثُ الحزن واكتسابَه[3].

ثانيًا: الهمُّ: وهو أشدُّ من الحزن، فهو الحزن الذي يذيب الإنسان، والجمع: هموم، وأهمَّه الأمر؛ إذا أقلقه، وأحزنه، ذكر ابن فارس أنَّ الهاء والميم: أصل صحيح يدلُّ على ذوب وجريان ودبيب وما أشبه ذلك، ثمَّ يقاس عليه، ومنه قول العرب: همَّني الشَّيء: أذابني، وأمَّا الهمُّ الذي هو الحزن؛ فمن هذا القياس؛ لأنَّه كأنَّه لشدَّته يهُمُّ، أي: يذيب[4]، ويطلق على انزعاج القلب من توقُّع مكروهٍ، وما يَشْغَلُ بَالَ الإنسان، ويُؤَرِّقُ فِكْرَهُ[5]. ومنه حديث أَنَس بْنَ مَالِكٍ ﷺ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ، والحَزَنِ"[6].

ثالثًا: البثُّ: وأصله تفريق الشَّيء وإظهاره[7]، كبثِّ الرِّيح التُّراب، وبثّ النَّفس ما انطوت عليه من الغمِّ، وحقيقة البث في اللغة: ما يَرِدُ على الإنسان من الأشياء المهلكة التي لا يتهيأ له أن يخفيها. وهو من بثثته، أي فرّقته، فسُمِّيت المصيبة بثًّا مجازًا[8]، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 86]، فالبثُّ هو للحزن الذي لا يقدر

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حزن).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حزن).
(3) الراغب، المفردات: (حزن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (همّ).
(5) الراغب، المفردات: (همم)، وابن حجر، فتح الباري: 11/323، والجرجاني، التعريفات، ص: 257، والكفوي، الكليات، ص: 961.
(6) البخاري، الحديث رقم: (6369)، ومسلم، الحديث رقم: (2706).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بثّ).
(8) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/251.

الإنسان على إخفائه؛ لذلك قيل: إنَّ الإنسان إذا قدَرَ على كتم ما نزل به من المصائب؛ كان ذلك حُزنًا وهمًّا، وإن لم يقدر على كتمه، وذكره لغيره؛ كان ذلك بثًّا، فالبثُّ هو أعظم الحزن وأصعبه، وهو حزْنٌ مبثوث، فكأنَّه قال: إنَّما أشكو حزني العظيم - وهو البثُّ وما دونه من الحزن القليل - إلى الله، لا إلى غيره من النَّاس، ولا إليكم، فالبثُّ الحزنُ الشديد المجتمع في النفس الذي يضطر صاحبُه من شدَّته إلى أن يُفْضِي به إلى غيره[1].

(1) القنوجي، فتح البيان: 6/389، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بثث).

﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠﴾ [آل عمران: 140]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التَّخفيف على المسلمين بما أصابهم يوم أحد

بعد أن بيَّن الله سبحانه سنَّته في هلاك الظَّالمين ونصر المؤمنين، وأنَّ في ذلك بيانًا لجميع النَّاس، وفيه هدًى وموعظة للمتَّقين، ثمَّ أمرهم ألَّا يضعفوا، ولا يحزنوا على ما أصابهم، فهم الأعلون؛ إن كان لهم النَّصر أو الشَّهادة.

بيَّن - أيضًا - أنَّ ما حصل لهم من الهزيمة يومَ أحدٍ، إنَّما هو درسٌ؛ ليجدِّد فيه إيمانَ المؤمنين وثقتَهم بالله، وهذه الأيام والوقائع دُوَلٌ بين النَّاس، جعله الله لحكمة معيَّنة، وليس ذلك عقابًا للمؤمنين؛ بل ليميِّز المؤمنَ الصَّادق من غيره، ويكرمَ بعضهم بنيل الشَّهادة حبًّا لهم، والله لا يحبُّ الظَّالمين.

قال الرَّازيُّ: "واعلم أنَّ هذا من تمام قوله: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾، فبيَّن تعالى أنَّ الذي يصيبهم من القَرْحِ لا يجب أن يُزيلَ جدَّهم واجتهادهم في جهاد العدوِّ؛ لأنَّه كما أصابهم ذلك، فقد أصاب عدوَّهم مثله قبل ذلك، فإذا كانوا مع باطلهم وسوء عاقبتهم؛ لم يفتُروا لأجل ذلك في الحرب، فبألَّا يَلْحقكم الفتور مع حسن العاقبة والتمسُّك بالحقِّ أولى"[1].

وقال البقاعيُّ: "ولمَّا نهاهم عمَّا تقدَّم، وبشَّرهم؛ سلَّاهم، وبصَّرهم بقوله: ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ﴾ أي: مصيبة"[2].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/371.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/78.

وقال ابن عاشور: "تسلية عمَّا أصاب المسلمين يوم أحد من الهزيمة، بأنَّ ذلك غير عجيب في الحرب؛ إذ لا يخلو جيش من أن يُغْلَبَ في بعض مواقع الحرب، وقد سبق أنَّ العدوَّ غُلِبَ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَمْسَسْكُمْ﴾: عدَّ ابن فارس أنَّ المسَّ واللَّمس بمعنًى واحد، فقال: " اللَّام والميمُ والسِّين: أصل واحد يدلُّ على تطلُّب شيء، ومسيسه أيضًا، تقول: تلمَّست الشَّيء؛ إذا تطلَّبته بيدك"[2]، وذكر الرَّاغب: أنَّ المسَّ كاللَّمس، لكنَّ اللَّمس قد يقال لطلب الشَّيء؛ وإن لم يوجد، والمسُّ يقال فيما يكون معه إدراك بحاسَّة اللَّمس[3].

والمَعْنى: إنْ أصابَ الكفارُ مِنكم.

2) ﴿قَرْحٌ﴾: ذكر ابن فارس أنَّ القَرْح يدلُّ عَلَى أَلَمٍ بِجِرَاحٍ أَوْ مَا أَشْبَهَهَا، وهو ما يخرج به من قروح تؤلمه[4]، وذكر الرَّاغب أنَّ القَرح - بفتح القاف - هو: الأثر من الجراحة من شيء يصيبه من خارج، والقُرح - بضمِّ القاف - هو: أثر الجرح من داخل، كالبَثرة ونحوها، وقد يقال: القَرح بالفتح؛ للجراحة، والقُرح بالضمِّ؛ للألم، ويطلق على كلِّ ما جَرح الجلدَ من عَضِّ سِلاحٍ وغيرِه[5].

3) ﴿ٱلْقَوْمَ﴾: ذكر السَّمين الحلبيُّ أنَّ لفظ القوم من القيام، سمِّي القوم بذلك؛ لقيامهم بمهمَّات الأمور، وهم في الأصل جماعةُ الناس عامةً، كأنه اسمُ جمعُ قائم، وهم مظاهِرون مُقَوُّون لمن هو منهم، ولفظ القوم يطلق في الأصل على جماعة الرِّجال دون النِّساء؛ ولذلك قال تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ [الحجرات: 11]، فهي في الأصل للرِّجال، وتكون النِّساء تبعًا لهم[6].

4) ﴿ٱلْأَيَّامُ﴾: ذكر ابن فارس أنَّ لفظ اليوم هو الواحد من الأيَّام، ثمَّ يستعيرونه في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/99.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لمس)، وينظر: (مس).
(3) الراغب، المفردات، مسس.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرح).
(5) الراغب، المفردات، والفيروآابادي، بصائر ذوي التمييز: (قرح).
(6) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قوم).

الأمر العظيم[1]، وذكر الرَّاغب أنَّ اليوم يعبَّر به عن وقت طلوع الشمس إلى غروبها، وقد يعبَّر به عن مدَّة من الزَّمان، أيَّ مدة كانت، وذكر صاحب المعجم الاشتقاقي أنَّه ورد استعمال لفظ يوم في القرآن الكريم بمعانٍ متعدِّدة، وهي: الأوَّل: يوم معيَّن بشكل ما. الثَّاني: زمن صدور الكلام أو نزوله، بمعنى: الوقت الحاضر. الثَّالث: ظرف معيَّن. الرَّابع: مجرَّد حينٍ ما. الخامس: حقبة من حال معيَّنة لقوم معيَّنين. السَّادس: التَّعبير عن مُدَدٍ يعلمها الله تعالى. السَّابع: مدَّة يذكر الله ﷻ مقدارها. الثَّامن: يوم القيامة. والأولى أن يقال: إنَّ أصل اليوم هو المعروف بشروق الشمس وغروبها، فقد يراد به المدَّة الزَّمنيَّة، وقد يراد به ما يقع في تلك المدَّة الزَّمنيَّة من وقائع وأحداث[2].

5) ﴿نُدَاوِلُهَا﴾، أي: نقلِّبها ونصرِّفها، وأصل المداولة: يدلُّ على تحوُّل شيء من مكان إلى مكان[3]، والدَّوْلة: هي الكرَّة، ويقال: تداولته الأيدي: إذا انتقل من واحد إلى آخر، ويقال: الدُّنيا دُوَلٌ، أي: تنقَّل من قوم إلى آخرين، ثمَّ منهم إلى غيرهم[4].

6) ﴿لَا يُحِبُّ﴾: أصل كلمة المحبَّة: (حَبَبَ)، وهي في اللُّغة تعني: الثَّبات واللُّزوم، فالحبُّ والمحبَّة: اشتقاقهما من أحبَّه؛ إذا لزمه[5]، المحبَّة هي: بمعنى الميل إلى الشَّيء الموافق، وأصله الثَّبات واللُّزوم، وفسَّرها الرَّاغب بقوله: "إرادة ما تراه، أو تظنُّه خيرًا". والـمَحَبَّةُ: المَيْلُ إلى الشَّيْءِ السّارِّ، وهي اسْمٌ للحُبِّ، والحُبُّ: الودادُ، ونَقيضُه: البُغْض، يُقال: تَحَبَّبَ إليه، أيْ: تَوَدَّدَ إليه. وهي هنا صِفَةٌ للّه ﷻ، ويُراد بها: صِفَةٌ فِعْلِيَّةٌ اخْتِيارِيَّةٌ ثابِتَةٌ للّهِ ﷻ على المعنى اللائق به سُبْحَانَهُ؛ فهو يُحِبُّ ويُحَبُّ[6].

7) ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: الظلمُ: الجَوْرُ ومُجاوَزَةُ الحَدِّ، يُقال: ظَلَمَهُ، يَظْلِمُهُ، ظُلْمًا ومَظْلِمَةً، أيْ: جارَ عَلَيْه. وأَصْلُه: وَضْعُ الشَّيْءِ في غَيْرِ مَوْضِعِه، كَقَوْلِهم: ظَلَمَ الأَرْضَ: إذا حَفَرَها في غَيْرِ مَوْضِعِ حَفْرِها. ومِن مَعانِيه أيضًا: التَّعَدِّي والحَيْفُ، وهو وضع الشَّيء في غير موضعه المختصِّ به، إمَّا بنقصان أو بزيادة، وإمَّا بعدول عن وقته أو مكانه، وأيُّ تجاوز للحدِّ يعدُّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يوم).
(2) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (يوم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دول).
(4) القنوجي، فتح البيان: 2/340.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حب).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، والراغب: المفردات: (حب)، والجامي، الصفات الإلهية، ص: 276.

ظلمًا، وأعظمُ الظلمِ أن يوضعَ المخلوقُ في منزلة الخالق، ويجعلَ شريكاً له في الربوبية، أو الألوهية(1).

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

تسلية المؤمنين بما وقـع لهم يوم أُحدٍ

سلَّى اللّٰه المؤمنين بما حَصل لهم من الهزيمة الظاهرة في معركة أُحدٍ، وبيَّن الحِكمَ العظيمةَ المترتبة على ذلك، فقال: إن أصابتكم - أيها المؤمنون - جِراحٌ أو قتلٌ في غزوة (أُحد) فحزنتم لذلك، فقد أصابَ المشركين جِراحٌ وقتلٌ مثلَ ذلك في غزوة (بدر). وتلك الأيامُ يُصَرِّفها اللّٰه بين الناس، نصر مرة وهزيمة أخرى؛ لما في ذلك من الحِكمة، حتى يظهرَ ما علمه اللّٰه في الأزل؛ ليميز اللّٰه المؤمنَ الصادقَ مِن غيره، ويُظهرَ المؤمنين من المنافقين، ويُكْرِمَ أقوامًا منكم بالشهادة. واللّٰه لا يحب الذين ظلموا أنفسهم، وقعدوا عن القتال في سبيله(2).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بيانُ استعمال ﴿إن﴾ المطلع:

التعبير بـ(إن)؛ لتنزيل الواقع المتحقق منزلة المستقبل غير المتحقق

في قوله تعالى: ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥ﴾ استعمال ﴿إن﴾ بما تدلّ عليه من؛ لتنزيل الواقع المتحقق منزلة المستقبل غير المتحقق، وذلك تهوينا للمس ليسهل انتزاع أثره من نفوس المؤمنين، فحين أريد بيان قلة أثره جعله بمنزلة المشكوك في وقوعه كأنه لا أثر له وفائدته استئصال أثر تلك الهزيمة في أُحدٍ من نفوس المؤمنين(3).

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (ظلم)، والجرجاني التعريفات، ص: 114، وابن تيمية، مجموع الفتاوى: 18/145، وابن القيم، الصواعق المرسلة: 1/221.

(2) القنوجي، فتح البيان: 2/340، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 67، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 67.

(3) ابن جزي، التسهيل: 1/150.

بلاغة الاستعارة في التَّعبير بالمسّ:

حقيقـة المسّ وضـع اليـد عـلى الجسم، واستعير ههنا للإصابة

المسُّ: يقال فيما يكون معه إدراك بحاسَّة اللَّمس، وكنِّي به عن النِّكاح، وعن الجنون، ويقال في كلِّ ما ينال الإنسان من أذًى[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ [البقرة: 214]، أي: الأمراض والأسقام والمصائب والنَّوائب[2].

فالمسُّ حقيقته: وضع اليد على الجسم، واستعير للإصابة، أو لأدنى إصابة، ويستخدم المسُّ للخير أو للشَّرِّ،[3].

نكتة الشَّرط بـ ﴿إِن﴾ في جملة المسّ:

مـجـيء حـرف الـشَّـرط (إنْ) المفيد للتَّشكيك أو تـقـلـيـل الـحـدوث، ألمح بأنّه ليس بالـضَّرورة أن يصيبهم القرح

وجواب الشَّرط محذوف، أي: فلا تحزنوا. ومجيء حرف الشَّرط ﴿إِن﴾ في: ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ﴾؛ المفيدة للتَّشكيك أو تقليل الحدوث، ألمحت بأنّه ليس بالضَّرورة أن يصيبهم القرح.

سرّ التراتب في التعبير عن المسّ بصيغتي المضارع، والماضي:

أفـاد الـتراتـب إمـكـان تـجـدُّد الإصابة بالقرح، بتحقق حصوله لمن قبلهم

اختيار صيغة المضارع في ﴿يَمۡسَسۡكُمۡ﴾؛ لتجدُّد حدوثه واستحضار الصُّورة، وكأنّها مشاهدة. في حين عبَّر بصيغة الماضي للقوم؛ لبيان تحقُّق الإصابة فيمن قبلهم، ولم يمنعهم ذلك من المسَّ.

علّة تنكير لفظ القرح:

أفـاد الـتنـكير شـمـول وجـوه تـفـسـيره، ومحتملاته

أفاد تنكير لفظ القرح في قوله تعالى: ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥ﴾ العموم؛ فيدخل فيه جميع محتملاته، ووجوه تأويله.

وجهُ القراءتين في ﴿قَرۡحٞ﴾:

وقد وردت القراءة بضمِّ القاف وفتحها في القراءات[4]، وذلك للجمع بين المعنيين، أو هما لغتان. ذكر الرَّاغب أنَّه بفتح القاف:

(1) ابن جزي، التسهيل: 1/150.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/175.

(3) النسفي، مدارك التنزيل: 3/468.

(4) قرأ حمزة والكسائي وشعبة عن عاصم بضم القاف، وقرأ الباقون بفتحها، ينظر: النَّشر: 2/242.

الأثر من الجراحة من شيء يصيبه من خارج، وبضمِّه: أثر الجرح من داخل، كالبثرة ونحوها، وقد يقال: القَرح بالفتح للجراحة، والقُرح بالضم: للألم[1]. وعدَّ ابن عاشور القَرْحَ - بفتح القاف - في لغة قريش: هو الجرح، وبضمِّها في لغة غيرهم، وقال: " وهو هنا مستعمل في غير حقيقته، بل هو استعارة للهزيمة التي أصابتهم، فإنَّ الهزيمة تُشَبَّه بالثُّلمة وبالانكسار، فشُبِّهَتْ هنا بالقَرح حين يصيب الجسد، ولا يصحُّ أن يراد به الحقيقة؛ لأنَّ الجراح التي تصيب الجيش لا يُعبأ بها؛ إذا كان معها النَّصر، فلا شكَّ أنَّ التَّسلية وقعت عمَّا أصابهم من الهزيمة"[2].

القَرح هنا استعارة للهزيمة التي أصابتهم، فإنَّ الهزيمة تُشبَّه بالثُّلمة وبالانكسار

نكتة العدول إلى إظهار لفظ (القرح):

وأظهر لفظ: ﴿قَرۡحٌ﴾ في موضع إضمار، فقال: ﴿فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾، ولم يقل: فقد مسَّ القوم مثله، وذلك للاعتناء بشأن الفاعل[3]. بإرادة التَّسلية لهم والتّسرية عنهم، والمعنى الكامن: أنّهم تجاوزوه بعدم الإخلاد إلى الوهن، أو الركون إلى الحزن، فكما تجاوزه أعداؤكم المكنيّ عنهم بالقوم إيثارًا لداعي الانتهاب، وتجاوزوه أنتم إيثارًا للاحتساب والانتصاب.

ترك الإضمار للاعتناء بشأن الفاعل بإرادة التَّسلية لهم والتّسرية عنهم

وجه التَّعريف في لفظ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾:

التعريف في القوم للعهد المفيد للتَّخصيص، ويراد بهم: مشركو مكَّة ومن معهم، وذلك لتصوير ما أصابهم من قبل. وفيه من الحقائق التَّاريخيَّة أنَّ كفّار قريش حرَّموا النِّياحة على قتلى (بدر) حتى يثأروا لهم، فكانت الكلمة في ذلك للرِّجال دون النِّساء، فكان أصدق تعبير يُلْمِحُ إلى ذلك هو ذكر ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾.

عهديّة تعريف القوم لإفادة التَّخصيص بمشركي مكّة

---

(1) الراغب، المفردات: (قرح)، والسَّمين، عمدة الحفَّاظ: (قرح).

(2) ابن عاشور: التحرير والتنوير4/99.

(3) الدبل، دليل البلاغة القرآنية: 1/551.

دلالة التعبير باسم الإشارة ﴿وَتِلۡكَ﴾:

الإشارة هنا بمنزلة ضمير الشأن لقصد الاهتمام بالخبر

والإشارة بـ ﴿وَتِلۡكَ﴾ إلى ما سيذكرُ بعدُ، فالإشارة هنا بمنزلة ضمير الشأن لقصد الاهتمام بالخبر وهذا الخبر مكنّى به عن تعليل للجواب المحذوف المدلول عليه بجملة: ﴿فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥ﴾[1].

سرّ التعبير عن المداولة بصيغة المضارع:

المضارعيّة إيذان بأنّ المداولة سنّة مسلوكة فيما بين الأمم قاطبة، سابقتها ولاحقتها

وقوله: ﴿نُدَاوِلُهَا﴾، أي: نقلّبها ونصرّفها، وأصل المداولة: المعاودة، والدَّوْلة: هي الكرَّة[2]، وصيغة المضارع بقوله: ﴿نُدَاوِلُهَا﴾؛ للدّلالة على التجدُّد والاستمرار، وللإيذان بأنَّ تلك المداولة سنَّة مسلوكة فيما بين الأمم قاطبة، سابقتها ولاحقتها، وفيه ضربٌ من التَّسلية[3]. وللدُّعاء وللتأمُّل المستغرق في مدى ما يصل إليه العلم والفكر في استقراء ذلك في الزّمن كلّه، فإنَّها حقيقة ثابتة لم تنخرم، ولم تتخلَّف.

وجهُ المجاز في لفظ التّداول:

بيانُ المجاز جعلُ الغير يتداولون الشأن بينهم من غير أن يكون للفاعل حظٌّ من الفعل، ولكن له الحظ في الجعل

التداول في الأصل تفاعل من (دال)، ويكون ذلك في الأشياء والكلام، يقال: كلام مُداولٌ، ثم استعملوا داولت الشيء مجازا، إذا جعلت غيرك يتداولونه، وقرينة هذا الاستعمال أن تقول: بينهم. فالفاعل في هذا الإطلاق لا حظ له من الفعل، ولكن له الحظ في الجعل[4].

بلاغة الوصل في جملة عِلْمِ الله:

جملة: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عطفٌ على جملة ﴿وَتِلۡكَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/100.
(2) القنوجي، فتح البيان: 2/340.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/89.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/100.

﴿ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾، فمضمون هذه علة ثانية لجواب الشرط المحذوف المدلول عليه بقوله: ﴿فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾ وعلمُ اللّه بأنهم مؤمنون متحقِّقٌ من قبل أن يمسهم القرح[1].

مضمون هذه الجملة علّة ثانية لجواب الشرط المحذوف

وجه إطلاق لفظ علم الله على المعلوم:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ﴾ عاطفة على المعلَّل به المحذوف، واللَّام للتَّعليل، أي: فعلنا ذلك؛ ليتَّعظوا، وليعلمَ اللّهُ الَّذين آمنوا، وتقديرها: نداولها بينكم؛ ليكون لكم من المصالح ما لا يخطر ببالكم.

المراد بـ(علم الله) تمييز قويّ الإيمان من ضعيفه، أو تحقق جزاء الله تعالى فيهم

وذكر الزمخشري في بيان المقصود بـ(علم اللّه) وجهين: أحدهما أن يراد تمييز قويّ الإيمان من ضعيفه؛ فيتميّز الخبيثُ من الطيّب، ويكون هذا من قبيل التمثيل، أي فعل اللّه تعالى ذلك فعل من يريد أن يعلم من الثابت على الإيمان منكم من غير الثابت، والوجه الثاني: أنْ يكون علم اللّه الذي ثبت بالواقعة هو علم الجزاء، أي: يتحقق فيهم جزاء اللّه تعالى. ويبدو أنّ المؤدى في الأقوال كلها واحد وهو أن يظهر صادقو الإيمان وينكشف نفاق المنافقين، ويعلن بذلك للناس علم اللّه تعالى المكنون[2].

وجه عطف جملة اتّخاذ الشهداء:

وقوله: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ﴾، أي: ويكرم ناسًا منكم بالشَّهادة، وهم شهداء أحد، وهو عطف على العلَّة السَّابقة، وجَعْلُ القتل في ذلك اليوم الذي هو سبب اتِّخاذ القتلى شهداء علَّةً من علل الهزيمة؛ لأنَّ كثرة القتل هي التي أوقعت الهزيمة[3].

الجملة عطفٌ على العلَّة السَّابقة بوصفها علَّةً من علل الهزيمة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/101.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/419، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1424.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/104.

علّة اختيار لفظ الاتِّخاذ:

في إيثار لفظ الاختيار المُنبئ عن الاصطفاء للشُّهداء تشريفٌ لهم وتفخيمُ شأنٍ

وفي التَّعبير عن تقدير الشَّهادة بالاتِّخاذ المنبئ عن الاصطفاء والتَّقريب من تشريفهم وتفخيم شأنهم ما لا يخفى، ولذلك قوبل بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠﴾ أي: الكافرين، بمعنى: فقتلاكم في الجنَّة، وقتلاهم في النَّار(1).

وجه نفي المحبّة بالمضارع المنفيّ:

صيغة المضارع المنفي؛ للدَّلالة على تجدُّد نفي محبَّة الله لهم

تعني المحبّة باللُّغة: الثَّبات واللُّزوم، فالحبُّ والمحبَّة اشتقاقهما من أحبَّه؛ إذا لزمه(2). وصيغة المضارع المنفي ﴿لَا يُحِبُّ﴾ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ للدَّلالة على تجدُّد نفي محبَّة اللّه لهم.

بلاغة الكناية والتعريض في نفي المحبّة:

نفي المحبَّة كناية عن بغضهم، وفيه تعريض بمحبَّة مقابليهم

وعبَّر عن عدم محبَّته لجميع الظَّالمين؛ للإشعار بعلَّة ذلك، ويندرج فيهم مشركو مكَّة اندراجًا أوَّليًّا. ونفي المحبَّة كنايةٌ عن بغضهم، وفيه تعريضٌ بمحبَّة مقابليهم(3).

نكتة إظهار لفظ الظَّالمين في موقع الإضمار:

إظهار لفظ الظَّالمين؛ لبيان العلَّة العامَّة في نفي المحبَّة؛ تنفيرًا عن الظُّلم، وبيانًا لسوء عاقبته

وإظهار لفظ الظَّالمين؛ لبيان العلَّة العامَّة في نفي المحبَّة لهم، وليشمل الأمر جميع الظَّالمين؛ تنفيرًا عن الظُّلم، وبيانًا لسوء مغبَّته وقبح عاقبته. والمراد بالظَّالمين في هذه الآية: مشركو مكَّة، فهم الذين يتحدَّث عنهم.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المسّ واللَّمس:

لفظ المسِّ مثلُ اللَّمس، بمعنى أنهما متقاربان في المعنى، إلَّا أنَّهما يختلفان حقيقةً، فاللَّمس: إدراكٌ بظاهر البشرة، ويعبَّر به عن

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/90.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حب).

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/90.

الطَّلب، وأصله ما كان باليد؛ لأنَّ اليد أداة اللَّمس، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: 7]، فاللَّمس: لا يكون إلَّا باليد، لكنَّه ذكرها هنا لزيادة التَّعيين، ويَكُونُ بِأَيِّ مَوْضِعٍ كَانَ مِن الْبَشَرَةِ، وَالْمَسُّ يَخْتَصُّ بِبَطْنِ الْكَفِّ.

ويطلق اللَّمسُ على عموم الطلب، كما ورد في الحديث: "يا رسولَ اللَّهِ، إنّ امرأتي لا تَرُدُّ يدَ لامِسٍ"[1]، ومَعْناهُ الرِّيبةُ، وأنَّها مُطاوِعةٌ لِمَن أرادَها في الفاحِشةِ لا ترُدُّ يَدَهُ، أو أنَّها تُعطِي من مالِ زَوجِها مَنْ يَطلُبُ منها.

ويوجَّه الفرق في عموم الألفاظ القرآنية - في أكثر ما ورد في القرآن الكريم - بأنَّ المسَّ يكون في المخالطة الدقيقة القوية الأثر، إذ استعمل في الإصابة بمكروه، كقوله: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ [آل عمران: 140]، وبمعنى: إيقاع الضُّرِّ ونحوه كالعذاب، والنَّفْحة منه، والنار، والسوء، والشَّرِّ، والضُّرِّ، والطائف الشيطاني، واللُّغوب، والنَصَب[2].

(1) أخرجه من طرق أبو داود في سننه، الحديث رقم: (2049)، والنسائي في الصغرى، الحديث رقم: (3465)، باختلاف يسير من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/111، والسيوطي، الأشباه والنظائر، 515، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (مسس).

المحتويات